مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

أحمد الشقيري
الأعمال الكاملة

المذكّرات (١)

المجلد الأول

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

أحمد الشقيري

الأعمال الكاملة

المذكّرات (١)

المجلد الأول

أحمد الشقيري

الأعمال الكاملة

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الشقيري، أحمد

أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة/ أحمد الشقيري؛ تقديم أنيس صايغ؛ تحرير خيرية قاسمية.

٦ مج.

محتويات: مج ١. المذكرات (١).

في رأس صفحة العنوان: لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري.

ISBN 9953-82-062-7 (vol. 1)

ISBN 9953-82-063-5 (Set)

١. الشقيري، أحمد. ٢. مؤلفات كاملة. أ. العنوان. ب. صايغ، أنيس (مقدّم). ج. قاسمية، خيرية (محرّر).

923.25694

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «سادات تاور» شارع ليون ص.ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٩٠ ١١٠٣ ـ لبنان
تلفون: ٨٦٩١٦٤ ـ ٨٠١٥٨٢ ـ ٨٠١٥٨٧
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٨٦٥٥٤٨ (٩٦١١)

e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز
الطبعة الأولى
بيروت، آذار/ مارس ٢٠٠٦

.. رب سائل يتساءل: وما شأن منظمة التحرير الفلسطينية في أمر الوحدة؟ وما شأن اليوم الثاني من شهر نوفمبر في قيام الدولة العربية المتحدة؟

والجواب على السؤالين في غاية البساطة واليسر: إن شعب فلسطين كأي شعب من الشعوب العربية، من حقه الكامل وواجبه المقدس أن يدعو للوحدة ويعمل لها، إن شعب فلسطين هو وحدوي العقيدة..

أما شأن هذا اليوم من نوفمبر في قيام الدولة الاتحادية، فإنه لا مرية فيه ولا ريب: إن وعد بلفور الذي نص على إقامة وطن قومي يهودي، وما تبع ذلك من قيام إسرائيل، وما تلا ذلك من الكوارث القومية والنكبات العسكرية، حدث ذلك كله لأن إسرائيل لا تجد من حولها الدولة العربية المتحدة..

وإن منظمة التحرير الفلسطينية، التي تدعو في هذا اليوم إلى الوحدة، ليست متخلفة عن النهوض بواجباتها القومية في ميدان النضال، في ميدان الكفاح بالسلاح.

إن منظمة التحرير الفلسطينية تقود النضال الشعبي في داخل الوطن، وفي جميع الساحات.

أحمد الشقيري

الشقيري في سطور[*]

ـ ولد في تبنين (لبنان) عام ١٩٠٨.

ـ أنهى الصف الثاني الثانوي في عكا عام ١٩٢٣.

ـ تخرّج في مدرسة صهيون الثانوية في القدس ١٩٢٦.

ـ درس في الجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٢٧.

ـ تخرّج في معهد الحقوق بالقدس عام ١٩٣١.

ـ أصبح نقيباً للمحامين في القدس عام ١٩٤٠.

ـ أسس المكتب العربي في واشنطن عام ١٩٤٦.

ـ ترأس وفد فلسطين لدى الأمم المتحدة عام ١٩٤٨.

ـ ترأس الوفد السوري لدى مجلس الوصاية في جنيف عام ١٩٤٩.

ـ أصبح ممثلاً لسورية لدى لجنة التوفيق الدولية عام ١٩٥٠.

ـ تولى منصب الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية عام ١٩٥٢.

ـ أصبح رئيساً للوفد السعودي لدى الأمم المتحدة بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٣.

ـ عين ممثلاً لفلسطين لدى جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣.

ـ عمل على تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤ وتولّى رئاستها بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٧.

ـ كان عضواً في مؤتمرات القمة العربية الأربعة في (القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء والخرطوم) بين عامي ١٩٦٤ و١٩٦٧.

(*) للاطلاع على سيرة الشقيري، انظر الموقع الالكتروني: <http://www.ahmad-alshukairy.org>.

أحمد الشقيري (١٩٠٨ ـ ١٩٨٠)

المحتويـــــــــــات(*)

مقدمـــة .... أنيس صايغ ١١

تقديـــم: تراث الشقيري الفكري .... خيرية قاسمية ١٩

من القدس إلى واشنطن ٢٩

أربعون عاماً. . . في الحياة العربية والدولية ١٠٧

حوار وأسرار. . مع الملوك والرؤساء ٧١٧

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري**: **الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

مقدّمـــــة

أحمد الشقيري قائد عربي فذ. سواء نظرنا إليه بالمطلق، بين المئات من القادة العرب الذين ظهروا على الساحة السياسية في القرن العشرين (وهو قرن التحرّك السياسي، الوطني والقومي، وما عبّر عنه هذا التحرك بانتفاضات وثورات وما أدى إليه من تحقيق كامل أو مجتزإ للاستقلال والتحرّر والسيادة)، أو إذا كانت النظرة بالمقارنة مع غالبية القادة السياسيين العرب. وهو، بهذه الصفة، يستحق الدرس لتتبع أعماله وأفكاره، ولاستخلاص العبر واستنطاق الحقائق والوقائع التي حفلت بها سيرته الطويلة.

ليس غريباً، إذن، أن تشهد ساحاتنا الفكرية والثقافية العربية في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة التي مضت على رحيل الشقيري محاولات جادة للتعرف عليه والتعريف به، ومن ثم لدراسة ما حفلت به حياته من إنجازات وما اتخذه من قرارات وما أنشأ من مؤسسات وما خلّفه من آثار وما صَدَرَ عنه من مواقف وآراء وأفكار. ولعل ندوة القاهرة في الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله (التي عقدها مركز دراسات الوحدة العربية في القاهرة ١٤ ـ ١٥ أيار/مايو ٢٠٠٥ وشارك فيها العشرات من أهل العلم والاختصاص)[١] هي أحدث هذه السلسلة الطويلة من إطلالات الفكر العربي المعاصر على أفكار هذا الزعيم الكبير وأعماله؛ تماماً كما كانت دراسة الباحثة خيرية قاسمية المطوّلة والمفصّلة عنه في كتابها المنشور عام ١٩٨٧[٢] الانطلاقة العلمية الأولى في تأريخ الرجل الذي أسهم في صنع التاريخ العربي المعاصر.

(١) انظر: **أحمد الشقيري بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري ومعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥).

(٢) خيرية قاسمية، **أحمد الشقيري زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً** (الكويت: لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري، ١٩٨٧).

غير أن أية محاولة لدراسة أحمد الشقيري وحقبته تظل محدودة المدى ومقصرة في بعض جوانبها ما دامت تجري وجزء من آثار الرجل وكتاباته غير متوافر لدى الباحث. فقد نشر الشقيري في حياته العشرات من الكتب والمقالات وألقى العشرات من الخطب والمحاضرات ودوّن العشرات من المذكرات والتقارير، فترك وراءه كمّاً حافلاً (بل هائلاً) من الأدبيات السياسية والقانونية والتاريخية، منشوراً في عشرات المصادر والمراجع وموزعاً بين عشرات المدن ودور الحفظ أو النشر (إلى جانب الكثير مما هو مدوّن ولم يسبق طبعه ونشره، أو مما طبع ولكن لم ينشر على نطاق واسع)، وذلك في مدى زمني طويل يمتدّ إلى أكثر من ثلث قرن. ولا شك أن عملية حصر هذا الكم الحافل والهائل من هذه الآثار، والاطّلاع عليها، عملية مرهقة جداً قد تنوء بحملها جهود الباحث الراغب في دراسة الشقيري والكتابة عنه وعن مرحلته.

من هنا تبرز أهمية هذه المحاولة الرائدة التي شرع بها مركز دراسات الوحدة العربية، بالتعاون مع أسرة الشقيري ولجنة تخليد ذكراه، في جمع تراث الرجل الكامل ونشره في كتاب واحد (في عدة مجلدات)، انطلاقاً من سياسة المركز العلمية بنشر تراث رموز الفكر العربي المعاصر الوحدوي والقومي في مجلّدات يصحّ أن نسمّيها الأعمال الكاملة أو شبه الكاملة. (ومن بين هؤلاء الرواد ساطع الحصري وقسطنطين زريق وعبد الله الطريقي وياسين الحافظ وعبد العزيز الدوري. . .). وبعد صدور كتابنا الموسوعي هذا يسهل على أي متتبع في المستقبل لتاريخ الشقيري وآثاره السياسية والفكرية أن يخوض غمار بحثه بثقة وبسهولة نسبيتين اعتماداً على الجهد الذي بذلته محرّرة الكتاب، الدكتورة خيرية قاسمية، وهو جهد كبير وقيّم بلا شك.

* * *

إني إذ أصف المجموعة الكاملة (أو شبه الكاملة) لأعمال أحمد الشقيري بالعمل الموسوعي فإنما لأن الرجل نفسه كان موسوعياً بما يعنيه هذا اللفظ من سعة في حقول المعرفة وشمول في الاهتمامات والتخصّصات وتنوّع في المواهب والكفايات وتعدّد في الطاقات والقدرات والمهارات.

الرجل الموسوعي محيط واسع تطول شطآنه وتعمق مياهه وتتكاثر كنوزه وتتنافر تقديماته. وهو، بهذه الميزات، نقطة جذب للراغب في المعرفة لأن يغوص في هذا البحر ويخوض أبعاده ليحصل على ما يستطيع أن يحصل عليه من بنود المعرفة ومداخلها ومحاصيلها.

ننظر إلى أحمد الشقيري، رجلاً وسيرة، «نظرة الصقور» (كما يقولون بالإنكليزية، أي من بعيد وعلى مسافة واسعة تاريخياً وجغرافياً)، باحثين عن القمم والشواهق في صفاته الشخصية وحياته العملية، متجنبين التفاصيل والجزئيات التي تكوّن بمجموعها تلك القمم ولكنها تتعدد وتتناثر حتى يكاد الإنسان يتيه وهو يسعى لجمعها وحفظها وتسجيلها.

عرفنا، نحن أبناء النصف الثاني من القرن الماضي، أحمد الشقيري سياسياً فلسطينياً بارزاً. وكان أحد قادة العمل الوطني لمدة تزيد على أربعين عاماً تنقّل خلالها في ميادين متعدّدة في خدمة بلده وقضيته خدمات جلّى. من محام بارع يتولّى الدفاع عن المظلومين من بني شعبه ممّن ينالهم ظلم حكم الانتداب البريطاني المتآمر مع المخطط الصهيوني، (وهو دفاع كان يؤمّن البراءة للمدّعى عليهم، كما كان تطوّعاً مجانياً، في معظم الحالات)، إلى إعلامي يتجنّد للدفاع عن القضية الفلسطينية في المحافل الدولية (يبرز في المكتب العربي في القدس ثم يؤسس المكتب العربي في واشنطن ثم يترأّس وفد فلسطين إلى الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ العصيبة جداً بالنسبة إلى مصير فلسطين ـ ويكون المكتب العربي، بفضله، أبرز مؤسسة وطنية علمية تولت عرض المأساة الفلسطينية على العالم في تاريخ فلسطين الطويل الممتد إلى قرن من الزمان)، إلى دوره في جامعة الدول العربية كأمين عام مساعد ١٩٥١–١٩٥٧ ثم كممثل لفلسطين في مجلس الجامعة ١٩٦٣. إلى إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، كأول إعلان عملي عن الكيان الفلسطيني، وإلى رئاسة هذه المنظمة لمدة تزيد على ثلاث سنوات ونصف السنة (من أواسط ١٩٦٤ إلى آخر ١٩٦٧).

وهو، في تحمّله هذه المهام كلها، وتدرّجه في المسؤوليات الجسام، الابن البار لقضية شائكة محفوفة بالمخاطر والقائد المحنك لشعب يناضل من أجل حقوقه وحريته.

وعرفنا الشقيري مناضلاً عربياً إلى جانب نضاله الفلسطيني. فمن الجهة الأولى تعامل مع الأقطار العربية كأنه أحد رعاياها. ولم يكن يؤمن بالحدود الفاصلة بين فلسطين وجاراتها العربيات. وكان يتحرك ويتصرف قافزاً فوق تقسيمات «سايكس ـ بيكو» وما فرضته السياسة الاستعمارية من حدود مصطنعة. ترأس الوفد السوري، ثم السعودي، إلى الأمم المتحدة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٣. وكان في الأمم المتحدة خطيباً مدافعاً عن الأقطار العربية التي تداولت الهيئة الدولية بأمورها دفاعات قوية لا تقل عن قوة دفاعه المستمر عن الحق الفلسطيني. وكان له بالتالي إسهام كبير في مناصرة النضال التحرري في كل من المغرب والجزائر وتونس ومصر وعُمان واليمن الجنوبي.

ومن الجهة الأخرى لم يقتصر الإيمان العربي عند الشقيري بخطبه النارية ومساعيه الدبلوماسية وعلاقاته ومداخلاته القانونية في الأمم المتحدة، إذ إنه كان مفكراً قومياً عربياً من الناحية النظرية والعقائدية والثقافية. سعى، منذ مطلع الأربعينيات، إلى إنشاء حزب قومي عربي في فلسطين مع عدد من زملائه المثقفين الفلسطينيين العروبيين. وجرى أكثر من اجتماع عقد لهذا الغرض (وكان معظمها في حيفا)، بالتوافق مع «الحركة العربية» التي أنشأها الدكتور قسطنطين زريق في أواسط الثلاثينيات في لبنان وامتدت إلى سوريا والعراق وشرق الأردن وفلسطين. وإذا لم يرَ الحزب النور آنذاك، فإن الشقيري استمر على إيمانه العربي وأصدر أكثر من دراسة رصينة في مشروع الوحدة العربية وضرورتها ودستورها.

إلا أن عروبة الشقيري أكثر ما تتجلى، عملياً وواقعياً، في تعاطيه الدائم والمتواصل مع المسألة الفلسطينية كقضية قومية عربية. لم يفصل في يوم من الأيام بين مسألة هذا القطر الذبيح والسليب وهذا الشعب المظلوم ثم المقتلع وبين القضية القومية الشاملة التي تلفّ الأمة العربية كلها من محيطها إلى خليجها. وفلسطين، بالنسبة إليه، عربية شعباً وكياناً وثقافةً وآمالاً وطموحاً، لا يتم تحريرها إلا من خلال الجهد العربي العام؛ ولا مستقبل لها إلا ضمن المستقبل العربي الشامل. هي جزء من كلّ ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. وكان يرى في الخطر الصهيوني المدعوم بالشره الاستعماري تآمراً على الوطن العربي كله ولا ينحصر في الرقعة الفلسطينية من هذا الوطن. وهو الأمر الذي يستدعي أن تكون مجابهة هذا الخطر مجابهة عربية لا تنحصر في الجزئية الفلسطينية. وقد عبّر الميثاق القومي الفلسطيني عن هذا الإيمان القومي خير تعبير (١٩٦٤). ومن المؤسف أن من أوائل الإجراءات التي اتخذتها القيادة الفلسطينية بعد اعتزال الشقيري كان تعديل ذلك الميثاق وتحويله إلى «ميثاق وطني فلسطيني» تبعته سلسلة من الإجراءات التي ركّزت على «فلسطينية» النضال والمؤسسات على حساب عروبته وعروبتها. وباختصار، كان يسيطر على الشقيري هاجسان مترابطان ومتداخلان يكوّن كل منهما صفحة لورقة نضالية واحدة، تحرير فلسطين ووحدة العرب. وقد أخلص الرجل لهذين الهدفين طيلة حياته.

وعرفنا أحمد الشقيري رجل ثقافة من الطراز الأول. لا أقيس هذا الحكم بشهادات أكاديمية نالها (وقد طردته الجامعة الأميركية في بيروت من صفوفها بسبب نشاطه السياسي)، ولا بعلوّ كعبه كمحام بارز (بعد أن تخرّج في معهد الحقوق في القدس ١٩٣١ وقد انتخبه محامو القدسّ نقيباً لهم ١٩٤١). ولا بعدد الكتب

والبحوث التي وضعها ما بين الأربعينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وإنما اعتمد في الحكم عليه كعلم ثقافي بارز على نوعية كتاباته وأبحاثه ومستواها الأكاديمي والفني الرفيع. وقد ساعده على تحقيق هذا المستوى أمران: أولهما سعة اطلاعه، فكان يقرأ باستمرار. وخلّف وراءه مكتبة ضخمة لا أغالي إذا قلت إنها أغنى مكتبة خاصة لسياسي فلسطيني (وربما من أغناها لرجل سياسي عربي). وقد واظب على المطالعة طيلة مراحل حياته. وكان يمهّد لأية دراسة ويعدّ بالاطلاع على جميع المراجع حول الموضوع المطروح. وثانيهما إتقانه اللغة الإنكليزية. وهو إتقان مكّنه لا من توسيع مطالعاته وتنويعها، بل أيضاً من الكتابة ومن الخطابة بلغة إنكليزية سليمة جداً. وقد حضرت له أكثر من محاضرة أو مشاركة في ندوة باللغة الإنكليزية كان المستمعون فيها، من الأجانب، يعجبون من سلامة لغته ومن قدرته على التعبير عن أفكاره بمنتهى السهولة والفصاحة. أما منشوراته بالإنكليزية فهي تدل على أن كاتبها يتقن اللغة وكأنها لغته الأصلية!

الشقيري المثقف هو الشقيري الكاتب والمؤلف. ولا حاجة لأن أتوسع في موهبة الشقيري في هذا الحقل لأن من يطالع هذه المجلدات سيكتشف بنفسه غنى هذه الموهبة عند صاحبها وخصوبتها وروعتها. فمن السياسة إلى القانون. ومن الأدب إلى التاريخ. ومن اعتبار الماضي إلى تحليل الحاضر إلى استشراف المستقبل. ومن التنقيب إلى السرد والاستنتاج. ومن العرض إلى الجدل. ومن الدفاع عن الحقائق إلى الهجوم على الافتراءات. ومن الاقتناع بالمسلّمات إلى خوض عالم الاجتهاد والابتكار. ومن حفظ التراث الديني والأدبي واللغوي إلى الحداثة والتطور والتطوير. محيط واسع من المعرفة، كما قلت سابقاً، يعبّر الشقيري عنه في كتبه ومقالاته المتنوّعة والمتعدّدة، والممتازة كلها.

إلا أن فناً معيّناً تفوّق فيه أحمد الشقيري على نفسه وعلى غيره من السياسيين ـ الكتّاب العرب، وعلى المثقفين بوجه عام. إنه فن السيرة الذاتية. إن كتبه الثلاثة في تأريخ حياته وأعماله هي، برأيي، الثالثة بعد **الأيام** لطه حسين و**حياتي** لأحمد أمين (وهما سيّدا السيرة الذاتية، وقد مضى على صدورهما أكثر من نصف قرن). وإن تفوّق العملان الرائدان في التصوير الأدبي الفني، فقد تفوّقت كتب الشقيري في الوصف السياسي العملي. يضيف إلى قيمة السيرة الشقيرية ما اكتنزه الرجل في كتاباته من صدق وجرأة ودقة وأمانة وصراحة.

أكرّر القول إن الشقيري رجل متعدّد المزايا والمواهب. فهو قائد شعبي لنضال شعبي. وهو رجل سياسة محنّك. وهو زعيم جماهيري. وهو خطيب مفوّه ومحاضر مؤثّر في مستمعيه. وهو محامٍ ورجل قانون بارع. وهو مثقّف ورجل علم. وهو كاتب

ومؤلف، لكن يبقى الشقيري في الذاكرة، فوق هذا كله وأكثر من هذا كله، الشقيري الإنسان.

الرجل الإنسان هو ما يعرفه من كان قريباً منه أو من أسعده الحظ بالتعرف عليه ومواكبته في بعض مراحل حياته. كان الشقيري محدّثاً لبقاً. يثري حديثه بذاكرة قوية وبحفظ للشعر وللنوادر وللأمثال ولمرويات التراث. وكذلك بمعرفة تفصيلية لفلسطين، بلداتها ومواقعها، وأهلها وعائلاتها، وعاداتها وتقاليدها المحلية. وكان المتحدث معه، بالتالي، يشعر وكأنه أمام إنسان متخصّص بأوضاعه وحالاته وخلفياته الخاصة جداً به، وكأنه يعرفه منذ سنين ويعرف كل شيء عن منبته ونشأته، حتى ولو كان يقابله للمرة الأولى. كل ذلك في قالب من اللطف والدماثة وحلو الكلام.

الرجل الإنسان في الشقيري هو الزعيم الذي مارس القيم الإنسانية في عمله السياسي وفي حياته اليومية ومعاملاته مع الآخرين. كان صادقاً مع نفسه ومع مبادئه ومع شعبه. ولم يتردّد لحظة في خدمة الآخرين. وحريّ بأن نتذكّر أن ممارسته السياسة الرسمية منذ إنشائه منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٤ كانت تطوّعية، ولم يكن يأخذ أجراً ولا يطالب بمكافأة.

***

أسمح لنفسي، وقد شرّفني ناشر هذا الكتاب الموسوعي للقائد الكبير أحمد الشقيري بأن أتولى تقديمه، أن أنبش صفحة الذكريات عنه وعن العلاقة معه، ممّا يلقي المزيد من الضوء على شخصه وشخصيّته.

سبق أن تعرّفت إلى الشقيري صدفة، وإن كنت مثل أي فلسطيني في سنّي أعرف عنه وعن نجاحه كمحام ثم كناشط في الإعلام السياسي والقانوني للقضية الفلسطينية منذ الأربعينيات. كنتُ في العام ١٩٥٤ في زيارة للقاهرة. وطلبت مني صحافية بريطانية حديثة العهد بالإقامة في الوطن العربي أن أدبّر لها موعداً مع الشقيري لإجراء حديث لإحدى المجلات التي كانت تراسلها. واتصلتُ به في مكتبه في الجامعة العربية وأخذتها إليه. وبدأت الصحافية تسأله عن رأيه بالأدب العربي المعاصر، وبكتابة الرواية، وبمن يتأثر من الروائيين العرب والأجانب، وغير ذلك من الأسئلة التي بدت غريبة. وأخذتني عدّة دقائق حتى اكتشفت أن الأمر التبس عليها واختلط اسم الشقيري مع الشرقاوي (عبد الرحمن الشرقاوي، رائد الرواية المصرية العربية ومؤلف **الأرض**). وشعرتُ بحرج. وقبل أن أحاول تصحيح الوضع

كان هو، بلباقته وكياسته، يحاول التخفيف من إحراجي أو إحراجها بالحديث مطوّلاً عن إعجابه بالشرقاوي وصداقته معه وحرصه على إطلاعه على إنتاجه بالرغم من مشاغله في السياسة والقانون والعمل من أجل فلسطين!

أعترف أن مشاعري الأولى حول هذه الحادثة كانت الإعجاب مع المحبة. وشعرت أنه أسرني (مثلما أسر السيّدة الصحافية) بلطفه وبعلمه. ومضت السنوات، وعهد إليّ في ١٩٦٦، بعد عامين من تأسيس منظمة التحرير، بالإشراف على مركز الأبحاث والشروع بإصدار **الموسوعة الفلسطينية**، كان كلاهما حلماً أسعى لتحقيقه منذ سنوات.

آمن الشقيري بالعمل الثقافي الملتزم. وآمن بالعمل المؤسسي. لذلك لم يكن غريباً أن يبادر فوراً إلى الموافقة على اقتراح تأسيس المركز، ثم الموسوعة، وإلى تأمين الجو المناسب لكل منهما. وإن كان مشروع الموسوعة قد تأخّر عدة سنوات، لأسباب مادية وعملية، ولم نشرع بإعدادها إلا بعد وفاة الرجل، فإنه كان لمركز الأبحاث الأب الروحي والسقف الواقي من الهجمات والتهجمات ومن محاولات السيطرة والاحتواء التي شنّها الكثيرون (من قيادات ومؤسسات وفصائل فلسطينية) للاستئثار بالمركز وإخضاعه لسياساتهم ومصالحهم. وللحقيقة والتاريخ أقول إن ما من مسؤول فلسطيني أو عربي تعامل مع المركز في حياته القصيرة (١٩٦٥ ـ ١٩٨٢) بالحرص عليه ومساعدته ودعمه واحترام استقلاله والدفاع عنه وتقديم الاقتراحات مثلما فعل أحمد الشقيري، سواء وهو رئيس للمنظمة أو حتى بعد استقالته. وما من سياسي فلسطيني أو عربي استمر يطّلع على نشاط المركز ويطالع منشوراته، ويتردّد عليه ويتجول بين رفوف مكتبته ويستعير منها ويستفسر عن الجديد فيها مثل الشقيري.

لقد دعم أحمد الشقيري منظمة التحرير الفلسطينية بثلاثة أعمدة: جيش التحرير الفلسطيني، والصندوق القومي الفلسطيني، ومركز الأبحاث. ومع أنه رعى هذه المؤسسات الثلاث وساندها ومدّ لها العون بكل طاقاته وقدراته، ظل المركز هو ابنه المدلل وموضع اهتمامه وتفكيره، متردّداً عليه باستمرار.

وفي ختام هذا العرض السريع لشخص أحمد الشقيري ولسيرته الثرية بالعبر، لا يغيب عن البال ذلك الموقف البطولي (والنادر في تاريخنا العربي) حينما أدرك أن الأوضاع الفلسطينية والعربية والدولية في النصف الثاني من الستينيات، وفي ضوء تداعيات الهزيمة العربية في حرب حزيران/ يونيو، تفترض تبديلاً في قيادة العمل الفلسطيني. فما كان منه إلا أن كتب رسالة الاستقالة الشهيرة التي وجهها إلى الشعب

الفلسطيني مباشرة، وهو الشعب الذي آمن به وخدمه منذ شبابه المبكر، ولم يبخل عليه بوقت أو جهد أو مال أو طاقة. وهكذا أخلص الرجل لفلسطين خلال توليه المسؤوليات الجسام مثلما أخلص لها بتسليم هذه المسؤوليات إلى من حتّمت الظروف أن يخلفوه. وبقي الرجل كبيراً في «السلطة» وكبيراً في التخلّي عنها. ورحل رافع الرأس كما كان دائماً.

* * *

كمواطن عربي، فلسطيني المنبت قومي العقيدة، أشعر بالمكرمة الكبيرة التي قدمها مركز دراسات الوحدة العربية للأمة عموماً، ولأهل الثقافة الوطنية خصوصاً، ولكل من لا يزال يعمل ويدعو من أجل تحرير فلسطين (كل فلسطين من بحرها إلى نهرها ومن رفحها إلى ناقورتها) ومن أجل تحقيق الحلم العربي، الذي لا يموت، بالوحدة العربية، في تعهّد هذا العمل الموسوعي الجبّار، بإعداد وطباعة ونشر الأعمال الكاملة تقريباً لأحمد الشقيري، على ما تكلّفه المشروع من تعب ووقت ومال ـ متعاوناً مع ومستفيداً من مساندة أسرة الشقيري الكريمة ولجنة تخليد ذكراه. كما أشكر الجهد المضني الذي بذلته الدكتورة خيرية قاسمية ليأتي الكتاب شاملاً لكل ما استطاعت أن تجمعه من كتابات كثيرة ومتناثرة وبعضها كان مفقوداً تقريباً أو مجهولاً. وهي تثبت في عملها هذا أنها المحرّرة الأولى للوثائق والمراجع في وطننا العربي التي ما فتئت منذ أكثر من ثلث قرن تغني المكتبة العربية بهذه الإضافات الأساسية للمسيرة الثقافية العربية.

د. أنيس صايغ

بيروت في ١ شباط/فبراير ٢٠٠٦

تقديـــم
تـــراث الشقيـــري الفكـــري

توصلت الندوة التي عقدت في القاهرة خلال الفترة من ١٤ ـ ١٥ أيار/ مايو ٢٠٠٥ بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين على رحيل أحمد الشقيري[١]، إلى أنّه لا يمكن التعرف على اسهام الشقيري الكامل في الحياة السياسية العربية وعبر مساحة ممتدة من القرن العشرين، إلا بالعمل على جمع تراثه الفكري في موسوعة متكاملة تبقى ميراثاً حياً للأجيال التالية.

بادر مركز دراسات الوحدة العربية إلى تبني المشروع ورحبت به أسرة الشقيري الكريمة ولجنة تخليد ذكرى الشقيري ووفرت الأسرة مواد المشروع المنشورة (من مذكرات وكتب ودراسات وخطب ومقالات) هي معظم الأعمال المنشورة (وليس الكاملة) نظراً إلى أن للراحل العديد من الخطب والمقالات والمحاضرات والرسائل غير المنشورة. وقد تولى مركز دراسات الوحدة العربية تكليف لجنة علمية لتدقيق تراث الشقيري الفكري ومراجعته وإعداده للطباعة في عدة مجلدات.

وإذا كانت الساحة الفلسطينية والعربية قد فقدت الشقيري مناضلاً صلباً، فقد ربحته المكتبة العربية كاتباً سياسياً، ومحللاً عقلانياً يملك معلومات وافية وقلماً ساحراً وأسلوباً واضحاً وبياناً رصيناً مشرقاً يأسر القارئ ويشده إلى متابعته. وقد جرت عادة الشقيري أن يكتب المقدمة لمؤلفاته يسطرها في آخر مراحل الطباعة لكي يضمّنها ما قد

(١) انظر: **أحمد الشقيري بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لرحيله: بحوث ومناقشات، الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع لجنة تخليد ذكرى المجاهد أحمد الشقيري ومعهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥).

يطرأ من تغييرات هامة أو يلخّص فيها رأيه. ومن حيثُ موضوع كتبه فقد دعا الشقيري في وصيته أبناءه وجميع أصدقائه في الوطن العربي أن يراجعوا هذه الكتب بالتصحيح والتنقيح.

وقد ارتأت اللجنة العلمية المكلفة بالتحرير وهي تضع بين يدي القارئ جلّ تراث الشقيري الفكري، أن تقدم هذا التراث وفقاً لتصنيف موضوعي ييسر متابعته على النحو التالي:

أولاً: يشمل **القسم الأول** من التراث **المذكرات** التي سطر فيها الشقيري حصيلة تجارب حياته الكثيرة المتلاحقة التي اختزنها في ذاكرة قوية ونشرها في مؤلفات متتابعة، دوّن فيها الأحداث التي كان مشاركاً فيها أو قريباً منها دون أن يؤرخ لمجمل الحقبة التاريخية التي تتناولها تلك المذكرات. وبوجه عام فإن كتب مذكرات الشقيري هي مجموعة فريدة من الأعمال الوثائقية وهي كما يلي:

١ ـ **من القدس إلى واشنطن**، طبع في عكا ١٩٤٧

(الكتاب يروي رحلته إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتأسيس المكتب العربي في واشنطن عام ١٩٤٥).

٢ ـ **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية**، دار النهار، بيروت، ١٩٦٩

(الكتاب عرض لسيرة حياته منذُ الطفولة وحتى عام ١٩٦٣).

٣ ـ **حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء**، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠

(الكتاب يتناول مسيرة الوحدة العربية منذُ عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٧٠).

٤ ـ **من القمة إلى الهزيمة، مع الملوك والرؤساء**، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠

(الجزء الأول من كتاب يستعرض المسيرة العربية منذُ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٦٧).

٥ ـ **على طريق الهزيمة، مع الملوك والرؤساء**، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢

(الجزء الثاني من كتاب يتناول المسيرة العربية منذُ ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٧).

٦ ـ **الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء**، دار العودة، ١٩٧٣

(الجزء الثالث، في قسمين، من كتاب يتناول المسيرة العربية منذُ ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٧).

ثانياً: **القسم الثاني** من تراث الشقيري يشمل **الكتب والدراسات القومية**:

وتضم هذه الكتب والدراسات خلاصة قراءاته في القانون والتاريخ والفلسفة والأدب والتراجم والسير، ومن خلال هذه الكتب والدراسات، وما توصل له من نتائج وأحكام وعبر، ساهم الشقيري في إثراء الفكر القومي العربي، وهي كما يلي:

١ ـ **محاضرات عن قضية فلسطين منذُ فجر التاريخ حتّى الحرب العالمية الأولى**

(وهي محاضرات ألقاها الشقيري على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة عام ١٩٥٤، واستعرض فيها قضية فلسطين منذُ جذورها وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى).

٢ ـ **المياه الإقليمية والتاريخية في القانون الدولي**

وأصل الدراسة باللغة الإنكليزية نشرها مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٧ بعنوان: *Territorial and Historical Waters in International Law*[٢].

(يشمل الكتاب كلمات الشقيري الأربع في المؤتمر الدولي لقانون البحار في جنيف في ٢٤/ ٢/ ١٩٥٨ ـ ٢٧/ ٤/ ١٩٥٨. ويشرح الشقيري في كلماته السياسة المتعلقة بالمياه الإقليمية والمظاهر المتعددة للمشكلة في وقت كانت مشكلة خليج العقبة قد تفاقمت، كما يضم الكتاب كلمة الشقيري امام اللجنة السادسة للجمعية العامة للأمم المتحدة في ٣٠/ ١١/ ١٩٥٩، إضافة إلى كلمته في المؤتمر الدولي الثاني لقانون البحار في جنيف في آذار/ مارس ١٩٦٠).

٣ ـ **مشروع الدولة العربية المتحدة**، مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت ١٩٦٧

(يضم الكتاب المبادئ الأساسية لمشروع الدولة العربية المتحدة الذي اقترحه الشقيري في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٧).

٤ ـ **معارك العرب وما أشبه الليلة بالبارحة**، دار النهار، بيروت ١٩٧٥

(يوازن الشقيري في هذا الكتاب بين وقائع من تاريخ العرب القديم والحديث في معاركهم بين النصر والهزيمة).

٥ ـ **علم واحد وعشرون نجمة**، بغداد ١٩٧٨

(يعرّف الكتاب بقضية الوحدة العربية من نواحيها التاريخية والسياسية والدستورية وحوافزها القومية ويناقش الحجج الانفصالية).

---

(٢) هذه هي الدراسة الوحيدة التي نُشرت ضمن المجموعة باللغة الإنكليزية، ونشرت كذلك ترجمتها في اللغة العربية ضمن هذه المجموعة. انظر: **أحمد الشقيري**: **الأعمال الكاملة**، مج ٢: **الكتب والدراسات القومية**.

٦ ـ **الطريق إلى مؤتمر جنيف**، بغداد، ١٩٧٨

(وضع الشقيري الكتاب في فترة أثير فيها موضوع عقد مؤتمر جنيف لتسوية الصراع العربي الإسرائيلي، ويجيب الشقيري عن مصير المرحلة السياسية حينذاك).

٧ ـ **الجامعة العربية، كيف تكون جامعة؟ وكيف تصبح عربية؟** تونس ١٩٧٩

(دراسة شاملة لنشأة الجامعة العربية ومسيرتها الطويلة، وإمكانية تطويرها لتصبح أداة لخدمة الأمة العربية، وهو آخر كتاب ألفه الشقيري في حياته).

٨ ـ **صفحات من القضية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٩

(الكتاب مجموعة من الرسائل والمقالات والمذكرات التي تبرز اهتمام الشقيري بالشؤون العربية).

٩ ـ **خرافات يهودية**، عمان ١٩٨١

(هو الجزء الأول من كتاب عنوانه **خرافات يهودية وجهالات عربية**، وهو ردّ على كلمة مناحيم بيغن التي وجهها إلى الشعب المصري في ١١/١١/١٩٧٧ إثر مبادرة الرئيس السادات، ولم يمتد به العمر ليتم جزأه الثاني)، وقد طبع الكتاب بعد وفاته.

١٠ ـ **فلسطين في عام ٢٠٠٠**، عمّان ١٩٩٠

(المخطوط مؤرخ ١٩٧٥ وقد وجد بين أوراق الشقيري وطبع بعد وفاته، ويستشرف الشقيري في هذا الكتاب مستقبل فلسطين عام ٢٠٠٠).

ثالثاً: خطب وكلمات الشقيري في الأمم المتحدة هي **القسم الثالث** من تراث الشقيري.

(وتضم هذه المجموعة الخطب والكلمات التي ألقاها الشقيري باللغة الإنكليزية في الأمم المتحدة -الجمعية العامة ولجانها المتخصصة ـ في الفترة بين ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ حين كان ممثلاً للمملكة العربية السعودية ثُمّ رئيساً لوفد فلسطين إلى الأمم المتحدة).

وقد ترجمت معظم هذه الكلمات والخطب إلى اللغة العربية ونشرت في أربعة كتب هي:

أ ـ **قضايا عربية**، ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦١

(ويشمل الكتاب مجموعة خطب الشقيري التي ألقاها في اجتماعات الجمعية العامة ولجنتها السياسية بين ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨، وتشغل فلسطين الجزء الأكبر من هذه الخطب إضافة إلى قضية الجزائر وقبرص ونزع السلاح).

ب ـ **دفاعاً عن فلسطين والجزائر**، ترجمة خيري حماد، المكتب التجاري، بيروت ١٩٦٢

(ويشمل الكتاب مجموعة خطب الشقيري التي ألقاها في دورة الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ (دورة القمة) وتناول فيها قضية فلسطين مع خطابين عن الاستعمار والجزائر).

ج ـ **قضية الثورة الجزائرية من الاحتلال إلى الاستقلال**، دار العودة، بيروت [د. ت.]

(والكتاب يجمع كُلّ ما ألقاه الشقيري من خطب في الأمم المتحدة تتعلق بثورة الجزائر).

د ـ **فلسطين على منبر الأمم المتحدة** منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٦٥

(ويشمل الكتاب خطب الشقيري الثلاث امام اللجنة السياسية الخاصة في الجمعية العامة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٣ بصفته رئيساً لوفد فلسطين) وقد نشر مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت ١٩٦٦، النصّ الأصلي الإنكليزي لهذه الخطب بعنوان: *Liberation not Negotiation*.

وردت خطب الشقيري في الأمم المتحدة في هذه الموسوعة **تراث الشقيري الفكري** وفقاً لتسلسلها الزمني من دون التقيد بعناوين الكتب التي نشرت تلك الخطب وذلك تجنباً للتكرار.

وقد أضيف إلى الخطب المشار لها أعلاه خطابانِ:

الأول: «قضية عُمان في الجمعية العامة»، نشر الخطاب بشكل مستقل مكتبة سلطنة عُمان القاهرة، ١٩٦١.

والثاني: فلسطين وميثاق الأمم المتحدة لمناسبة الذكرى السادسة عشرة لتوقيع الميثاق ١٩٦١، وقد نشر الخطاب في كتاب **مواقف حاسمة وقومية في قضية فلسطين ١٩٦٥**.

رابعاً: خطب الشقيري وكلماته رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٣ ـ ١٩٦٧، وهي القسم الرابع من تراث الشقيري الفكري. وقد نشرت هذه الخطب والكلمات في الكتب التالية:

أ ـ **مواقف حاسمة وقومية في قضية فلسطين**، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٥

(ويشمل الكتاب مجموعة من الكلمات والبيانات التي ألقاها أو أصدرها الشقيري في عدد من المناسبات الهامة التي سبقت أو رافقت قيام منظمة التحرير الفلسطينية).

ب ـ **كلمات على طريق التحرير**، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٦٥

(ويشمل الكتاب مجموعة البيانات والخطب والرسائل التي وجهها الشقيري إلى الشعب العربي الفلسطيني في مناسبات شتى).

وردت خطب الشقيري كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية في هذه الموسوعة **تراث الشقيري الفكري** وفقاً لتسلسلها الزمني من دون التقيد بعناوين الكتابين اللذين نشرا تلك الخطب وذلك تجنباً للتكرار.

وأضيف إلى الخطب المشار لها أعلاه كلمات نشرت بشكل مستقل هي:

أ ـ كلمة الشقيري في المجلس الوطني الفلسطيني الثاني (القاهرة ٣١/ ٥/ ١٩٦٥).

ب ـ خطاب الشقيري في وفود إسلامية في مؤتمر أبي بكر الصديق، الإسكندرية ١٩٦٦.

ج ـ مذكرة إلى مؤتمر القمة الأفريقي في أديس أبابا ١٩٦٦

د ـ رسالة الشقيري إلى أبناء فلسطين في الذكرى الخمسين لوعد بلفور ٢/ ١١/ ١٩٦٧.

لقد سعت اللجنة العلمية وهي تقدم هذه الموسوعة لتراث الشقيري الفكري أن تحقق قدر المستطاع ما جاء في وصية أحمد الشقيري: «حرصت كُلّ أيام حياتي أن أترك لأمتي ميراثاً من الرأي والجهد في سبيل قضايانا القومية وشؤوننا العامة، وقد هيأ الله لي في سبيل هذا القصد مجالاً رحباً من التأليف والترجمة والخطب والمقالات».

د. خيرية قاسمية

عن اللجنة العلمية المشرفة على تحرير تراث الشقيري الفكري

من القدس إلى واشنطن

وهي خواطر المؤلف حين سافر
إلى أمريكا لتأسيس المكتب العربي

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

من القدس إلى واشنطن

وهي خواطر المؤلف حين سافر إلى أمريكا لتأسيس المكتب العربي

أحمد الشقيري

(*) صدر هذا الكتاب في عكا: مطبعة السروجي، ١٩٤٧.

المحتويـــــات(*)

تمهيـد	٧
من البحر الميت إلى النيل	٩
في أوتيل شبرد	١١
ذكريات	١٢
من القاهرة إلى بنغازي	١٣
إلى الدار البيضاء	١٥
خواطر موجعة	١٨
حقائق وأحلام	٢٤
في العالم الجديد	٢٧
في نيويورك	٢٩
نجدة في المهجر	٣١
الأمير فيصل في أمريكا	٣٣
النبأ الرهيب	٣٥
اليابان تجثو	٣٦

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة** ، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

من السراب إلى السراب ٣٧
لولا لبنان ٣٩
عيد الشعب في يوم العمال ٤١
الكونغرس في مباذله ٤٣
حيرة وصرخة ٤٦
مهد في لحد ٤٨
دعاء ٤٩
خيبة ٥٠
أمل ٥٢
إضراب ٥٤
إلى المهاجرين ٥٦
الهندي المهاجر ٦٠
المروءة تعبر الأطلنطي ٦٢
أنا والقسيس وراء المذياع ٦٥
عيد الأضحى ٦٨
إلى الوطن ٧١
استسلام ٧٣
الصخرة . . . الصخرة ٧٤

تمهيـــــد

في شهر تموز/ يوليو، عام ١٩٤٥، غادرت الوطن إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتأسيس مكتب عربي يقوم على خدمة القضية العربية عامة، والقضية الفلسطينية خاصة، ثم عدت إلى الوطن بعد قرابة ستة أشهر.

وقد كتبت هذه الصفحات، كأنني تحدثت فيها إلى ذات نفسي، فجرى القلم بوحي الساعة، ولبست المعاني ما لقيت الصيغ والألفاظ، من دون ما اختيار أو انتقاء.

وحين رجعت إلى الوطن، رأيت أن، أنشر هذه الخواطر، على سجيتها وطبيعتها. ولعلها لا تفتن الخاصة، ولا تنفع العامة، غير أن قراءتها تقتل الفراغ، وتصرف البطالة . . .

وذلك أضعف الإيمان.

عكا في ١٠/ ٣/ ١٩٤٧

أحمد الشقيري

القدس ـ القاهرة، ٢٦-٧-١٩٤٥

مـن البحـر الميـت إلى النيـل

نهضت هذا الصباح تجتاحني خواطر السفر تغشاها حُمَّى السفر، فنحن نتهيَّب الأسفار البعيدة، ذلك أننا لم نألف أن نرى الدنيا صغيرة متقاربة على حين أن الرجل الأجنبي يطوف العالم كأنه يؤدي عملاً عادياً لا يحس فيه جهداً أو رهقاً، وقد قضيت هذه الليلة يقظان نائماً، وأنا أستعرض مراحل هذه المهمة الشاقة التي أستقبلها بعزم وهيبة.

وحول الظهر ركبنا السيارة إلى البحر الميت، فأخذنا نهبط من مشارف القدس إلى أغوار «الغور» تلهبنا الرياح المحمولة على أكف الوهج والوقد؛ ولكنني رددت جناني إلى الصبر والجلد حين تساءلت: كيف تكون حالي لو أنني مواطن في دولة حرّة فأُدعى إلى الجندية، وأحمل سلاحي وعتادي وطعامي بين هذه الأخاديد يجري فيها اللهب؟ وهكذا تصابرت وسكتّ حتى بلغنا شاطئ البحر الميت.

وكنا في طريقنا نشاهد السيارات الكبيرة تحمل وسوق المعادن المستخرجة من البحر الميت، بعد أن بقيت في جوفه أجيالاً. حقاً لقد كان البحر ميتاً وإنه من الإسراف في الظلم أن نسميه البحر الميت، وهذه المعادن الحية تخرج من جوفه الأبدي، فتبدو خصائصها في الحياة والموت.

ركبنا الطائرة المائية من قاعدتها في البحر الميت، وكانت أول خبرتي بركوب الطائرة من قواعد الماء واليابسة على السواء، ولعل المستقبل يطالبنا بقواعد في الهواء، وكدت أن أكون راجفاً واجفاً حين رأيتني أجتاز متون الفضاء، والتمست شجاعتي أبحث عنها في أعماق نفسي، وأوشكت أن تخونني لولا أني رأيت بعض السيدات والأطفال يقتعدون أماكنهم برصانة، وهدوء، فقعدت وتصابرت.

ومن الجو شهدنا رقعة الوطن بكامله، شهدنا بقاعاً لم يكن قد وقع بصرنا عليها

وإن كنا في ما مضى قد ضجِرْنا من مشاهدتها على الخرائط والأطالس بالألوان والرسوم، وأخذت الطائرة تختال بنا بين أطباق الفضاء كأنها تدلُّ بسيطرة العلم وجبروت العقل. وفي مكان ما من الجو استطعنا أن نرى في خفقة واحدة مغارب البحر الميت ومشارق البحر المتوسط، وهذان هما الحدّان للقطر الذي يراد أن يكون دولة مستقلة، تجمع ببصرك مشرقها ومغربها في وقت واحد، ومن مكان واحد.

أما مشهد زروع النيل المطرزة على الأرض، فبالغ حد الإعجاز في الروعة والفتنة، وهذه الصحارى المحيطة بالزروع الجميلة تبدو كأنها فاغرة فاها، لتبتلعها وتعيدها إلى قديم عهدها بالصحراء. .ولم تنقض ساعتان على ركوبنا الطائرة حتى هبطنا مطاراً في النيل. وأكبر ظني أن أصدقائي في فلسطين، وقد حسبوا السفر من محطة اللد، كانوا في تلك اللحظة يغدون ويروحون على رصيف المحطة ليودعوا راكباً قد انتهى إلى مقصده منذ زمن.

وكانت إجراءات الدوائر المختلفة لدخول القطر المصري آية في اليسر واللطف لولا ما لقينا من الموظف المختص بمراقبة الكتب والمطبوعات، فقد وقعت يد هذا الموظف على كراريس وتقارير رسمية عن القضية الفلسطينية باللغتين العربية والإنكليزية، فأصرّ على إبقاء هذه الأوراق وإحالتها للمراقبة، وسألته أن يقرأها ليتحقق أنها تقارير صادرة من الحكومة البريطانية وليس من المعقول أن تخضع للمراقبة، فقال لي إنه لا يعرف العربية، ثم رجوته أن يقرأ الأوراق بالإنكليزية، فقال لي إنه لا يعرف الإنكليزية أيضاً. وقد كان يحادثنا برطانة يونانية ولا يبالي بنا على حين كان الموظفون المصريون من حوله يجاهدون لإقناعه بخطل رأيه، ولكن هذا اليوناني قد انتصب أمامنا يملي إرادته في القاهرة، كأنما هو الإسكندر المقدوني يحكم في الإسكندرية.

ثم توجهنا إلى أوتيل شبرد، وبعد أن أخذت بنصيب من الراحة ذهبت إلى صديق لي، فرحنا نتحدث في شؤون فلسطين، ولما انتصف الليل، عقدنا هدنة إلى حين، لنستأنف الحديث صبيحة اليوم التالي.

القاهرة، ٢٧-٧-١٩٤٥

في أوتيل شبرد

يعج أوتيل شبرد بألوان الزائرين، والألوان هنا كلمة حقيقية لا مجازية، فقد وفد على هذا النزل عروق وأجناس وألوان، من مشارق الأرض ومغاربها، وأصبحت القاهرة دار الوعد وموطن اللقاء. وكانت الصينيات بملابسهن المزركشة وخطواتهن اللدنة، موضع تفكهة وإيناس. وكان في النزل بعض الزعماء الصهيونيين وهم في طريقهم إلى لندن لشهود المؤتمر الصهيوني الذي ينعقد في آخر الشهر، ولم أكن لأدري مَنْ هؤلاء الناس لولا أن صديقاً مصرياً أشار بأن أخافت في الحديث حين مروا بجانبنا.

وقد زارني صاحبي بالأمس فاستأنفنا الحديث الذي لا ينتهي، وقد ينتهي ولكن من حيث يبتدئ، حول قضيتنا وتنظيمنا الداخلي. ثم التفت الصديق إلى كهولة تختال بالفتوّة والقوّة، فإذا به السيد أرشد العمري وزير خارجية العراق العائد من مؤتمر سان فرنسيسكو، فذهب بي صديقي وقدمني إليه فانتهزتها فرصة وشرعت أسأله عن مهمته في سان فرنسيسكو وعن رأيه في المكتب العربي وإنشائه في الولايات المتحدة، فلم يلقِ بالاً إلى المكتب فقد أصبح لا يؤمن به ولا يعلق عليه كبير أمل؛ مع أنه كان قبل سفره، كما قال، أول من آمن وأول من تفاءل، ولكنه لم ير بأساً أن نسافر ونجرب، وهكذا كان لا بد لي أن أسافر وأُجَرِّب.

القاهرة، ٢٨-٧-١٩٤٥

ذكـــريـــات

زرنا المفوضيتين السورية واللبنانية، ولقد كان بهيجاً حقاً أن يصبح لدولتي الشام مفوضيتان ترفعان علمين يرمزان إلى الحرية والاستقلال. ويقوم بالعمل في هاتين المفوضيتين رجال كانوا إلى عهد قريب مطاردين مشردين، وها قد طاب لهم القرار، ولكن مضيا في الجهاد بالبناء والإنشاء.

وكان بودي أن أزور عدداً من الأصدقاء غير أن الإسكندرية قد اجتذبتهم إليها، ولا سبيل أن أفلت من القاهرة فمكتب الطيران يلحّ علينا أن نكون غير بعيدين عن الأوتيل فقد يخطرنا بالسفر ساعة بعد ساعة. وكان لا مناص من غشيان الأوتيل ساعة بعد ساعة فأعاد ذلك إلى ذاكرتي شهر نيسان/ أبريل عام ١٩٣٦ حين صدر الأمر بإبعادي إلى سمخ (طبريا) وطلبت إليّ السلطة أن أثبت وجودي في مركز البوليس مرة في كل ساعة بين الشروق والغروب، فلم أجد حينذاك فرجاً من هذا الإرهاق إلا بعد أن اتخذت مسكناً لي في جيرة دائرة البوليس ورحت كل ساعة أَمُدّ رأسي من النافذة لأشعر البوليس بوجودي.

بنغازي، ٢٩-٧-١٩٤٥

مــن القاهـــرة إلـى بنغـــازي

أعلمنا مكتب الطيران أننا مسافرون في مساء هذا اليوم فأخذنا نجهّز أنفسنا للسفر، وطفنا بالأصدقاء نودعهم وفي الوداع بعض التفريج عن وحشة السفر. وبعد المساء غادرنا الأوتيل إلى المطار الأمريكي على مسيرة نصف ساعة بالسيارة مما يلي مصر الجديدة، وفي تمام الساعة العاشرة مساءً حلقّت بنا الطائرة في سماء القاهرة ومضت تشق طريقها في الفضاء عبر شمال أفريقيا من المشرق إلى المغرب، فلم يتح لنا الليل أن نرى تلك البقاع التاريخية التي كانت إلى عهد قريب ميداناً فاصلاً من ميادين هذه الحرب، ولم نستطع أن نجتلي معالم المواقع التي طفحت بها جغرافية الحرب، ولم تكن جغرافية التلمذة أيام الصبا لتذكرها في قليل أو كثير.

وظلت الطائرة تمزق سكون الفضاء من غير ارتجاج أو اهتزاز حتى أقبلت علينا عاصفة ثائرة لعبت بالطائرة لعب مارد متجبّر، وغدت الطائرة التي كانت حتى الآن تسيطر على الجو وتمزق آفاقه، موضع عبث وسخرية بين يدي العاصف الجبار.وقد استمر هذا العاصف ممسكاً بها ساعة أو بعضها ولم يفلتها إلا قبل هبوطنا في بنغازي، بعد أن قدّم بين يديها آية من آيات القدرة الكامنة في هذا العالم الجبار.

وهبطنا في بنغازي في أعقاب الليل فشملتنا رهبة المكان الذي تداولته الجيوش المحاربة مرات ومرات، وفيه احترب الناس حتى آخى بينهم الموت، ولقد أسفت أن حرمنا الليل زيارة هذه المدينة، فمن يدري لعل جحافل العرب قد سلكت هذا الطريق قبل اثني عشر قرناً حين قذفتهم الجزيرة العربية ومشاعل النور بأيديهم.

وفي بنغازي أخذنا بنصيب من الراحة وواصلنا سفرنا ميمّمين شطر طرابلس وقد استشعرت إغفاءة نوم أو خاطرة نوم، بعد أن سلخت معظم الليل صريع الدويّ والضجيج، وهبطنا في مطار بريطاني على مقربة من طرابلس، ذلك أن الطائرة قد أُنبِئَت بضباب كثيف في مطار طرابلس، ولا يستطيع القائد أن يتبين موطن النزول، فأنِسنا باليابسة مرة أخرى لننعم بالنسيم هادئاً ساكناً، وإن كان مثقلاً بالرطوبة.

الدار البيضاء، ٣٠-٧-١٩٤٥

إلـى الــدار البيضـــاء

لقد طال انتظارنا أن ينجلي الضباب عن المطار في طرابلس وأنا أعللّ نفسي أن أطوف بالمدينة قدْر ما يجود الوقت، حتى لقد رضيت أن تحملني إليها سيارة فَنَدورُ من حولها ونجوس خلالها وكفى. ففي ذلك ما يبلّ جانباً من الشوق، ولكن هذا الضباب قد حرمني هذه الصبوة.

وقبل الظهر امتطينا الطائرة إلى طرابلس بعد أن أيقنا انكشاف الغمام وما هي إلا فترة حتى جالت بنا الطائرة في سماء هذه المدينة، فأشرفنا على زروعها المترامية ونخيلها المنظم، ومنازلها المبعثرة، فثارت في نفسي ذكرى مرابع دمشق وغوطتها، لولا أن النخيل هنا قد أضفى على المدينة لوناً عجيباً من الجلال والجمال. ولكن غوطة طرابلس، وإن بعثت الفتنة فإنها تثير الحسرة واللوعة، فإن أكثر هذه الزروع قد خرج من أيدي العرب. ودعوت الله أن يكون ذلك إلى حين، وحين قريب.

وفي محطة المطار لقيت شابين يهوديين أحدهما عامل في المطعم والثاني بائع جرائد ومجلات، وكلاهما من أهالي طرابلس. أما الأول فقد سمعني أكلم رفاقي بالعربية فسألني إذا كنت عربياً. فقلت نعم. فمد رأسه من وراء حاجز المطعم وقال بالإمالة والغنّة اليهودية المعروفة: أنا يهودي. فأردفت إني عراقي من بغداد. ثم مضى لبعض شأنه. ولكنه عاد إليّ وأمطرني أسئلة أخرى. فأجبته بلا ونعم. ثم لا حظ أني طلبت شراباً على حين طلب رفاقي طعاماً. فقال لي: أحسنت في ما طلبت من الشراب، لأن الطعام ليس جيداً. فقلت في نفسي هذه أول طلائع الدسّ، ولكنة دسّ ماكر، ولست أدري أنصحني أم نصح صاحب المطعم، أم خدعنا نحن الاثنين. فقد يكون الشراب أسوأ من الطعام.

ورأيت أن أقابله بدسّ آخر فسألته: ألا تذهب إلى فلسطين؟ قال: ومن أين لي، ليس لدي جواز سفر!! فقلت له: لعلك تجد وسيلة ما، وأنت الآن في أرض

المطار. فجحظ في وجهي فلم يجدْه ينمّ عن الجدّ، فمضى ومضيت.

أما الثاني فقد حشر نفسه في «كشك صغير» أتخمه بالكتب والجرائد والمجلات. ومن فضول القول، أو من لزوم ما لا يلزم: أن أقول إنه يعمل صرّافاً أيضاً. وقد اقتضاه عمله في المطار أن يعرف اللغات كلها، فهو يعرفها كلها ما عدا اللغة العبرية لغة آبائه وأجداده، فهو يوقن أنه لا يحتاجها في عمله، إذ ليس يعقل أن يقصده يهودي يصرف، فالصراف لا يقصد صرافاً، وأيّهم ليس بصراف. فمكرت لهذا الشاب أيضاً وقلت له: إني بغدادي. فسألني عن تل أبيب، فقلت له: لا أعرفها، وإن كنت قد سمعت بها. ثم سألته عن إقامته في طرابلس فقال: إن فيها مولد أبيه وجده إلى آجال. قلت له: أي البلدين أحب إليك؟ تل أبيب، أم طرابلس؟ ولكن الشارين والمتفرجين قد أحاطوا حينئذ بالكشك الصغير وهّموا بالشراء فانصرف هذا اليهودي إلى البيع والمساومة وكفى نفسه عبء الجواب.

ثم صاح بنا ضابط الطائرة فهرولنا إليها لتحملنا إلى تونس، فجالت وصالت ثم اقتحمت طريقها فوق البحر المتوسط لتقطع ذلك الخليج الجميل، من غير مجاملة ولا مهادنة، فأخذت ترتفع في أجواز الفضاء فوق الضباب والغمام.

هذا البحر من تحتنا أشبه شيء بالسماء أو هو السماء، وتجلّت الطائرات بين سماءين متباعدتين، اتصلت آفاقهما بين أحضان الهدوء والسكون، وتناولت قلمي وورقي لأكتب وقائع اليوم، فالتمع في خاطري أن الإنسان في هذا الكون العجيب نقطة هندسية لا طول ولا عرض ولا عمق لها، وأن هذا الإنسان، وإن استفتح كثيراً من مُغْلقات هذه الدنيا فسيظل، مهما استفتح ومهما استكشف النقطة الأولى، في الألف الأولى، من الدنيا، ومع هذا فإنّ، تلك النقطة لا طول لها ولا عرض ولا عمق.

وظلت هذه الخواطر تنتابني حتى هبطت الطائرة في تونس، فإذا بها رقعة من اللهب، لا ينفع فيها ظل ولا شراب. وفي هذا المطار رأيت كثيراً من الفتيات اليهوديات يعملن في الأعمال المختلفة، ولم يتيسر لي أن أكاشفهن حديثاً بريئاً أو خبيثاً، ذلك أن الجنود قد ضربوا حولهن ذراعي كماشة شراء ودعابة، ولم يكن في مقدور المدنيين أن يخترقوا هذا الطوق.

وعقب الظهر امتطينا طيارتنا نستهدف «وهران» فأشرفنا على جبالها ومروجها، ولم تكن هذه المرحلة من السفر مريحة فهي مفاجآت بين الهبوط والارتفاع، بين الجفاف والرطوبة، بين الحرارة والبرد.أضف إلى ذلك أن إعصاراً قد هب علينا بعد مغادرتنا تونس، فصهرنا حَرُّها وأرهبنا إعصارها، وكم لقيت تونس من نار الظلم وإعصار السياسة.

وكنت كلما طفرت بالحرّ أعزّي نفسي بهؤلاء الجنود الناعمي الجلباب، الغضاض الإهاب، ذوي الوجوه الشقراء والعيون الزرقاء، رجالاً ونساءً، بل كنت كلما تخيلتهم على ظهور الدبابات ووراء المدافع يدفعون حمماً ويلقون شواظاً من نار، في الظهيرة اللاهبة من اليوم اللاهب، رجع إليّ صبري وارتدّ إليّ عزمي.

ولكن خاطراً واحداً أقضَّ مضجعي لم أجد له تعزية ولا تسلية، ذلك أن هذه الرحلة كلها، من البحر الميت حتى شمال أفريقيا قد كشفت عن مطارات ومطارات، مرصّعة في الصحراء، وعلى مقربة من المدن، آخذة بالنمو والازدياد. هنا في مواطن العرب مطارات تُنشأ وتبنى، وأنا ذاهب لأنشئ مكتباً عربياً في واشنطن، أُحرِّك فيه لساني وقلمي، أنا أعني بالكلام ليسمعوا، وهم يمضون في إقامة القلاع والحصون لنتفرج، فأين نلتقي وكيف نلتقي، ومتى نلتقي، إذا ما مضينا في إنشاء المكاتب، ومضوا في إنشاء الحصون والقلاع؟ لعل الأجيال القادمة تجد لنفسها الجواب، فقد التمسته فما وجدته، ولست أبغي أن أكذِبَ نفسي وقومي.

ومضت بنا الطائرة ثلاث ساعات أو تزيد نقصد إلى وهران وقد امتدت من تحتنا المزارع والإقطاعيات الكبرى منتشرة في الأرض الرحبة، ومن حول وهران الكروم والزيتون والزروع، كل ذلك في تنسيق عجيب، والمنازل الريفية تتصدر المزارع وقد ازدانت بالبساطة والجمال.

وليست هذه المنطقة مدينة كبيرة مزدحمة، ولا هي مجموعة قرى زراعية متجاورة، ولكنها إقليم بكامله مرصع بالمزارع المتباعدة، تربطها الطرق والمعابر من كل جهة إلى كل جهة، ولا يقوم في المزرعة إلا بيت أو بيتان. وهذه المنطقة الواسعة عالم رحيب من هذه الإمارات الزراعية، تشبه إقطاعات القرون الوسطى.

وهكذا فقد زالت معالم العروبة من هذه البقاع الفاتنة، وليس يبرّر هذه المظلمة الفادحة أن الأرض قد عمرت بالكروم والأشجار، فإن كل كرمة، وكل شجرة قد أغمدت جذورها في فؤاد شهيد، أو صدر قائد صنديد. ولم أمسك نفسي عن التمادي في هذه الشجون إلا حين هبطنا المطار لتقلنا طائرة أخرى تحملنا إلى الدار البيضاء، فبلغناها أوائل الليل في جو منعش لطيف، يعقد الكرى في الأجفان، ويسبغ الهدوء والسكينة.

جزر الخالدات، ٣١-٧-١٩٤٥

خـواطــر موجعـــة

نهضت صبيحة هذا اليوم بعد نوم هادئ عميق، لم أنعم به قبل الآن فإن حر القاهرة في الأيام التي سبقت سلبني النوم، فذهب النوم نهباً بين القاهرة والطائرة.

ودعوت الخادم لبعض شؤوني فسألته عن جنسيته فقال إنه «عربي» فأخذت أوضح له مطلبي فلم يفهمني، وبدأ يرطن لغة لم تكن عربية في جرْسها ولا صيغتها، ثم رحت أستبين هل يكون هذا الخادم عربياً، فعاد وقال إنه عربي، فجعلت أُكلّمه بكل اللهجات التي أعرفها بين فلسطينية وشامية ولبنانية ومصرية وبدوية لعله يفهم فلم يفهم، فاستعنت بكل المترادفات التي أعرفها فصيحة وعامية، وفي هذه اللحظة حمدت ولوعي بحفظ المترادفات أثناء الصبا. ولكن الخادم البائس أربكه عدم الفهم، كما أربكني عجزي عن الإفهام، وأفلتت من الخادم في هذه الأثناء كلمة إفرنسية كنت أسمعها في مصايف لبنان، ففهم وفهمت، وانشرح وتألمت.

ولست أنكر مثل هذه الفروق في الأمم الكبيرة والصغيرة على السواء ولكن أي داع أن تتأصل هذه الرطانة في اللغة العربية. وكل ما يحتاجه الشعب العربي الكبير تعليم إلزامي ابتدائي يقوم على كتب واحدة، وأصول واحدة، وفي لهجة واحدة.

وخرجت بعد ذلك إلى المدينة أطوف شوارعها وميادينها وأستمع إلى ناسها، ووددت لو يفسح لي الوقت دراسة أكثر عمقاً وتحقيقاً، ففي هذه البقعة يقرأ المرء صفحة من صفحات الاستعمار الإفرنسي الملطخ بالعار الأبدي. وها أنا أرى المدينة قطعة مختلسة من الشاطئ الإفرنسي أو كأنما اتصلت اليابسة باليابسة فلصق الشمال الأفريقي بشاطئ فرنسا الجنوبي، فتشابها وتشاكل الأمر.

وهنا لا تسمع إلا اللغة الإفرنسية من المواطنين والإفرنسيين، ولم يبق للوطنيين إلا الأزياء المهلهلة والأعمال الحقيرة. وكنت حين أقرأ أن زعماء فرنسا قد اعتزموا أثناء الحرب أن يناضلوا من شمال إفريقيا، لا أدرك بإحاطة شاملة كيف يقاتلون من إقليم أجنبي في شمال إفريقيا، ولكنني بعد الذي رأيت في الدار البيضاء أيقنت أن ذلك لا يتعدى انتقال حركة الحرب الإفرنسية من إقليم فرنسي إلى إقليم فرنسي، كما كاد أن يُنقل الحكم الروسي من موسكو إلى «كويشيف» أثناء هذه الحرب.

وحين يبلغ المرء الدار البيضاء يكون قد قطع أفريقيا من الشرق إلى الغرب، في خلال أربع وعشرين ساعة. ولقد وقفت على شاطئ الأطلنطي أفكر في هذا الخطف العجيب يحمل امرءاً من القاهرة مساء ليكون مساء اليوم الثاني في الدار البيضاء، ينعم بالنسمات الوادعة إذ يرسلها المحيط الرهيب.

ولم يكن هذا الخاطر يثنيني عن إكبار الحملة العربية الكبرى قبل ثلاثة عشر قرناً وقد قطعت الفدافد والصحاري، والوهاد والأنجاد، ثم ضربت سهمها في أحشاء أفريقيا الشمالية، وراح هذا السهم ينحني ليخترق إسبانيا وجنوب فرنسا.

وعلى أنوار هذا الخاطر تنعكس صورة جميلة، لئن عجز الخيال عن إبرازها بالروح والجسم فلا يعجز أن ينزلها بين حروف الهجاء وقوالب الألفاظ. وستظل هذه الصورة لوحة فنية رائعة، يراها كل عربي بفؤاده، وإن لم تخضع لقرطاسه ومداده.

وفي الظهيرة تلقينا النبأ للاستعداد إلى المطار، فعادت إلينا حُمّى السفر وهيبته، وأسرعنا إلى المطار وأنجزنا معاملات السفر، ثم دعانا ضابط إلى غرفة المحاضرات فإذا بنا نستمع إلى حديث عن سبل الوقاية إذا طرأ ما يحمل الطائرة على الهبوط في الماء. فتكلم المتحدث بجد، وأصغى المستمعون بجد ولأمر ما لم أكن مكترثاً ولا سميعاً. وانصرفنا إلى الطائرة نأخذ أماكننا ولم يبدُ على أحد أي تردد في السفر، وخُيلّ إليّ أن في قلب الإنسان إلى جانب الزاوية التي يستقر فيها الخوف، زاوية أخرى تعيش فيها المغامرة والمجازفة.

ولعل شعوري بقلة الاكتراث سببه ظني أنّ الأمر سيكون محاضرة، وكفى الله المؤمنين. . ولكني دهشت حقاً حينما تقدم إلينا ضابط الطائرة، يأمرنا جميعاً أن ندّرع بجهاز الإنقاذ، فارتبكت وندمت أني لم أُصغ للمحاضرة ولا عرفت كيف يُلبس، وخُيّل إليّ أني سأسقط في الامتحان، تمهيداً للسقوط في الماء، غير أني حاكيت وقلّدت، فلبست كما يلبسون. ورأيت جماعة المسافرين ينصرفون إلى كتبهم يلتهمونها، والكتب زادهم في السفر، أما أنا فرجعت إلى مفكرتي وأخذت أكتب وأكتب، لا يشغلني إلا منظر آفاق الغيوم من تحتنا، تنعقد فوق سطح الأطلنطي،

أخاديد وجبالاً، ووهاداً وسهولاً، يتصل كل ذلك بأفق السماء، وتسطع الشمس فتبدو كأنها أصبحت عهناً منفوشاً. وهناك يهبط الرشد والتقوى بصمت وجلال، ولا يبقى غير وجه ربك ذي الجلال والإكرام.

وفي الطائرة فاجأنا جندي بتقدمة لطيفة: هي علبة جميلة تزيد على راحة الكف قليلاً، ألقاها الجندي وتكلم كلاماً جعله ضجيج الطائرة غير مفهوم فآثرت أن أنقذ نفسي بالتقليد مرة أخرى لأدفع آفة الجهل والسخرية.

والتفتّ إلى جاري فإذا هو يفتح العلبة ويخرج منها علباً صغيرة متفاوتة الحجم هذه تحتوي السكر، وهذه تحتوي الخبز، وهذه تحتوي الجبن، وهذه تحتوي أربع سجائر، وهذه تحتوي حلوى، وهذه تحتوي لحماً، وهذه وهذه، يؤلف ذلك أجمعه طعاماً صحياً كاملاً ولذيذاً. إنها علبة صغيرة حقاً، ولكنها صنعت بالملايين، وانتقلت إلى معسكرات الدنيا، فأنتجها الملايين، واستهلكها الملايين وهنا أصغر الدلائل على نهضة الأمة وعظمتها. فالتفتّ إلى جاري الأمريكي وقلت له ليست هذه علبة وإنما مطبخ سيّار، ولكنه سخر من دهشتي وقال: إنك واجد في الطائرة كل شيء فاطلب أي شيء. وكدت أن أطلب شيئاً، حتى لقد بلغ هذا الطلب أطراف شفتي ولساني، غير أنه التمع في ذهني، بسرعة الوميض وفجأة الخاطر، أنّ هذا الطلب الذي أمسكت به شفتاي إنما يستجاب بزوال هذه الرفاهية الناعمة وأمثالها من الرفاهيات التي تستمتع بها الشعوب الكبيرة. وكان الطلب الذي أوشكت أن أسأله في هذه الطائرة الحرية، الحرية لا تظلم أحداً، ولا يظلمها أحد.

وحين أشرفنا على جزر الخالدات (الأزور) أخذت الطائرة تدنو من سطح الغيوم، والدنو هنا يتم بالهبوط لا بالصعود. والقرب من هذه الغيوم التي افترشت مكانها في الآفاق يقضي بأن تهوي الطائرة قليلاً قليلاً بين أحضان الفضاء. فأخذت الطائرة تهبط رويداً رويداً، ونحن نقترب من هذه المشاهد العجيبة تزيدها أشعة الشمس بهاء ورواء. ولقد مررنا في جيرة هذه الغيوم حتى يكاد المرء أن يدُسُ يده في غلالات هذه الحياة الهائمة في الأزل، الحائمة في الأبد، كثيفة هنا شفافة هناك، ضاربة في السماء، هابطة إلى البحر، ممتدة في الآفاق منبسطة في الفضاء، بكل الأشكال التي تعرفها حركة الخطوط وانطلاقة الخيال، من غير تشابه أو اتساق، حتى يبدو أن كل غائمة قد أفلتت من يد الوجود على غير نظام أو هدف.

وهبطنا أرض المطار فإذا بالدنيا ماطرة، والجو مبتل رطيب، فأخذنا نضم معاطفنا الثقيلة إلى أجسادنا، وكنا إلى يوم واحد فقط، في تونس وغيرها، نود لو نستطيع أن نتسلل من جلودنا حين ألهبنا الحر.

وحملتنا سيارة إلى «برّاكة» في المعسكر نقيم فيها ما شاء الله حتى يأتي دورنا في طائرة أخرى تقصد الولايات المتحدة.

وتعيد هذه البراكة إلى ذاكرتي «البراكة» التي استضافتنا بضعة أشهر حين اعتُقلتُ مع المئات من المواطنين عام ١٩٣٧. وليس بين البرّاكتين فرق كبير، فبرّاكتي الآن فيها أسرّة نظيفة، مبطّنة جدرانها بما لا ينفع معه البرد والحر، مفروشة أرضها بالخشب دفعاً للرطوبة، منورَّة بالكهرباء، يتوفر فيها الماء ينساب إلى كل المرافق. أما برّاكتنا القديمة برّاكة وكفى، ولا بأس أن تكون محرومة من جميع المزايا التي ذكرتها، فللقديمة على الحديثة أفضال ومزايا، منها كثرة المجرمين النازلين فيها ممن عجزت العدالة عن الاقتصاص منهم لفقدان الدليل، فرأت السلطة أن تزجّهم في برّاكاتنا مبالغة بالنكاية بنا، وبالحفاوة بأولئك المجرمين.

وفي الليل مر بجانبنا ضابط أمريكي، فسألنا شيئاً فأجبناه، ثم تعارفنا وما أيسر سبل المعرفة بين المسافرين. وهذا الضابط ذكيّ الفؤاد لامع الذهن حاضر النكتة والبديهة، وإن كانت البساطة الأمريكية لا تربأ أن تعيش إلى جانب علمه وثقافته. وتحدث هذا الضابط إلينا معظم الليل فتناول حديثنا كل شيء، روسيا وبريطانيا والهند وبلاد المغرب. ومن حسن حظ النجوم والأفلاك أن حديثنا لم يشملها بخير أو شر. ويبدو هذا الضابط عالماً وجاهلاً، عميقاً وساذجاً، محباً وكارهاً، واثقاً ومشككاً، مستقراً ورجراجاً، كأنما جمعت هذه الشخصية من جزأين متناقضين محتربين، كالكرة الأرضية نصفها ملفوف بالظلام ونصفها مغمور بالنور. وأمام مثل هذه الشخصية تمرع الدعاية الصهيونية والأساليب الصهيونية في تعبئة الأنصار والمؤيدين. وهنا في جزر الخالدات أشفقت على أولئك الذين يعارضون في الدعاية العربية وقيمتها، وفي ضرورة تعريف العالم بالأمة العربية وأقطارها.

وإليك أسئلة هذا الضابط في صورتها «الخام» ولكن بعد إيجاز واختصار.

الضابط: «من أين أنت»؟

ـ «عربي».

الضابط: «عربي ! أنت عربي!؟»

ـ «نعم أنا عربي»

الضابط: «أظنك مسلماً محمدياً؟»

ـ «نعم أنا مسلم محمدي».

الضابط: «أصحيح! أصحيح!؟ أنت هادئ وديع». . .

ـ «نعم ولِمَ الاستهجان؟»

الضابط: (مقهقهاً) «المسلمون في شمال أفريقيا يملأون معابدهم (لعله يقصد الزوايا) بالضجيج والصياح فهل أنت مسلم؟»

الضابط: «أعلمت عن آبار البترول التي يستنبطها الأميركان في بلاد العرب بعد أن عجز الإنكليز عن إدراك مكانها».

ـ «نعم علمت».

الضابط: «ولكن السعودية العربية تجهل هذه القوة الكامنة في أحشاء الأرض. إنها الفلسفة الإسلامية التي لا تقدّر مزايا هذا الجوهر الجاثم في أعماق الصحراء».

ـ «ولكن ما شأن الفلسفة الإسلامية أو العقيدة الإسلامية، وأي تعارض بينهما وبين استغلال البترول وإنتاجه واستعماله؟»

الضابط: «لا أدري، ربما، أظن، أنها العقلية الإسلامية المتأخرة، ولكن قل لي: كيف تؤدون شعائر رمضان في المناطق المتجمدة التي ينطوي نهارها في ليلها ولا تشرق الشمس معظم أشهر السنة».

ـ «حين يدخل الإسلام تلك البقاع سيصوم المسلمون في اليقظة ويفطرون إذا أقبلوا على النوم، يصومون نصف اليوم ويفطرون النصف الآخر فمن رأى القدرة في نفسه صام، ومن عجز أفطر، وإن أعجزتهم رؤية الهلال التمسوا الشمس فإن لم يجدوها جعلوا الساعة، وقد اخترعها العرب، قاعدة صومهم وإفطارهم».

الضابط: «إن عملكم شاق فأنتم تريدون إنشاء قومية عربية متعصبة تشمل مسلمي الهند والأفغان وغيرهم من الأقطار الأخرى».

ـ «أنت مخطئ لا علاقة لمسلمي الهند بالقومية العربية السياسية إلا من الناحية الروحية».

الضابط: «هل تؤكد ذلك؟»

ـ «بكل تأكيد ومستعد أن أقسم على صحته».

الضابط: «أشكرك لقد وضح لي الأمر الآن، ولكن قل لي لماذا لا تندمجون مع تركيا وتجعلون الأحرف اللاتينية مكان الأبجدية العربية».

ـ «تركيا دولة مستقلة ونحن أمة أخرى تعمل لاستقلالها وحريتها، وأنتم لماذا

لا تندمجون في كندا أو أية دولة أخرى؟ أما الأحرف العربية فنحن نكتبها وننطق بها، نفعل ذلك مسرورين مبتهجين ولم نَبُثَّ شكوانا منها إلى أنفسنا أو إلى غيرنا. ولكن لماذا لا تكتبون أنتم بالأحرف الهيروغليفية القديمة أو بالأحرف الصينية الحديثة؟ فهي جميلة الصور والرموز، تجعل الكتاب أو الرسالة قطعة مطرزة مزركشة. على أننا إذا رأينا ضرورة قومية فلن نتأخر عن إبدال حروفنا بأحسن منها».

الضابط: «وما هي الضرورة القومية؟»

ـ «الضرورة القومية هي حاجة اللغة للتطور والنمو، فحين نوقن أنَّ آلافاً وآلافاً من أمثالك يرغبون أن يتعلموا اللغة العربية وأنه لا سبيل لذلك إلا بالأحرف اللاتينية فلن» . . .

الضابط: «أنت مخطئ، لم يكن هذا قصدي».

ـ « . . لقد كان ذلك قصدك من غير شك، ولكن لماذا لا تعرف أنت اللغة الألمانية أو الفرنسية وحتى الإنكليزية الصحيحة (باللهجة الإنكليزية دون الأمريكية)؟ مع أنها كلها تكتب بالأحرف اللاتينية» . . .

هذه نماذج في غاية الإيجاز مما دار من الحديث الذي استغرق أكثر الليل، ويقيني أن الضابط قد انصرف وهو عازم أن يعيد النظر في ما ورث من العلم أو سمع من العلم، أما أنا فاستسلمت إلى فراشي وقد أنساني هذا الضابط الشعور بأني أبيت في برّاكة الاعتقال.

فوق الأطلنطي، ١٩٤٥/٨/١

حقائـــــق وأحــــــلام

نهضت هذا الصباح فعادت إليّ الصور المترادفة عن يقظاتي في المعتقل، وطاف في نفسي ذكر الرفاق القدماء من مدمني الاعتقال ومرتادي السجون، ولم أفطن لحاضري إلا حين أمعن إخواني الثلاثة في الشخير المتنافر، رقة وخشونة، علوّاً وهبوطاً، وهم يبثون من خلاله شكوى الجهد والإرهاق. وخرجت في الصباح أجيل بصري في الجبال المحيطة بنا في هذه الجزيرة التي يقطنها بعض مئات من البرتغال. وأبصرت بالأطلنطي يحتضن هذه الجزيرة، ولكنه ما زال منذ القدم يضربها بأمواجه، ويظللها بغمامه، ويشدد الطوق من حولها، وينتقص من أطرافها، ويأكل نواتئها، ويخلع عليها الفقر والفاقة حتى أعياها الكفاح الأزلي المتواصل. وبدا الأطلنطي من حولها وقد ملّ الصراع فتهادنا وتصالحا، فكانت جزر «الخالدات» وكان صلح وكان سلام.

وفي عصر النهار ظفرت بضابط أمريكي يلقي إلينا السمع ونحن نتحدث بالعربية فأقبل علينا بجميع زيه العسكري وبعض كلماته العربية، فإذا هو سوري من أسرة صعب، من قرية حول زحلة، وإن كان يصرّ أن اسمه «سيب» وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وضعته أمه في الوطن الأمريكي، يتكلم اللهجة الأمريكية بمدّها وقصرها، ورنّاتها وغنّاتها، ويفكر بالتفكير الأمريكي برشاقته وبداهته، وإن كانت المتناقضات الأمريكية لم تصب من عقله شيئاً. نعم إنّه أمريكي ولكن ما أجمل هذا الشباب، وما أقوى هذا الشباب، وما أعظم هذا الشباب. هذا العظم الصليب، وهذا الوجه الأسمر مرصع بالعيون السوداء، ترسل الشعاع نفّاذاً أخّاذاً، وهذا الشعر الأسود الأدكن يطل على جبهة تشع بالحزم والعزم. لله هذا العربي، بل لله هذا الإنسان الكامل.الدم العربي والسمت العربي تزّينه الجندية المدربة.

وإنّ هذا العربي ليقدم دليلاً على الاستعداد القومي الكامن في كل عربي، ومن يدري فلعله يظل فلاحاً جاهلاً فقيراً مريضاً، ولعله ينقلب مجرماً يقطع الطريق ويستبيح الدماء، بل لعله يكون عالة على المجتمع، لو أن أبويه بقيا في الوطن القديم، لا ينعم بعناية الدولة، وتدريب الدولة، وجميع الفرص التي تفجر المواهب وتوجّه الإبداع. وإنّ ملايين من شباب العرب ومن الذين يعيشون تحت كل سماء وكوكب، من الخليج إلى شواطئ الأطلنطي تكمن فيهم القوة والاستعداد الفطري، وتنطوي فيهم جميع المواد «الخام» التي تتألف منها شخصية هذا الشاب السوري الأمريكي. ولو أن هؤلاء الملايين من شباب العرب قد شملتهم رعاية دولة واحدة في هذا الوطن العظيم لأمسكوا بزمام العظائم، وانتهت إلى أيديهم مشاعل الحضارة والعرفان، يرفعونها عالية وكريمة.وما أعظم هذه الصورة وما أكرم هذه الأهداف.

ولقد عدت ولقيت الشاب الأمريكي اللبناني مرّةً أخرى في أرض المطار حين كنا ننتظر الطائرات التي تقلنا إلى جزيرة «برسك» في شمال الولايات المتحدة، وكان لقائي إياه قصيراً هذه المرة. كان لقاءً خاطفاً حقاً، ولكنه بسط أمامي ذكريات امتدت عشرات من السنين في تاريخ الأمة العربية، وأبرز حقيقة واحدة تقع في سدرة المنتهى من حياتنا السياسية وهي أن الحكم الوطني، الفاضل العادل، هو وحده الذي يصهر معايبنا، ويهذب من فرديتنا، ويوجه أنانيتنا الوجهة السامية، ويشعرنا بمواطن القوة فينا، ومكامن الإبداع المستقرة في نفوسنا.

وإني أكتب الآن في الطائرة التي تقلنا، وهي طائرة معدّة لنقل الجنود وليست فيها رفاهيات الطائرات السابقات، يضاف إلى هذا أن الأماكن التي يقصدها معظم رفاقنا من الجنود تقضي علينا بأن نُحمل إلى أقصى الشمال كَرِهنا أم أحببنا، ولقد رفّه عن نفسي حين التفتُ إلى اثنين من الجنود اقتعدا أرض الطائرة ومضيا يلعبان الورق، فأقاما مقهى جوياً، لعله أول مقهى في الجو.

ولقد خطر لي في هذه الطائرة أن أسأل أمريكياً بجواري عن رأيه في الرئيس ترومان، فقال إنّه مستقيم ونزيه، ليست له أرستقراطية روزفلت. فقلت له: وما هي شارة الاستقامة؟ فقال: إنّه قبل أن، يوسد منصب الرئاسة تولى التحقيق في سلوك «المتعهدين» الذين تعاقدوا مع الحكومة على صنع بعض المواد والقيام ببعض الأعمال، فكشف النقاب عن ابتزاز أموال حبيسة من خزينة الدولة، وأدى تحقيقه إلى محاكمة معظمهم والحكم عليهم بالسجن.

وهنا وثبت إلى السمع والإصغاء وثوباً، وانقلبت حواسي الخمس، إلى حين، حواس سمعية، لأستوعب هذا الحديث فلا يفوتني منه شيء. وحين فرغ من حديثه

رجعت إلى نفسي وحمدت الله أن الأَثَرَة والابتزاز، واصطياد المغانم، معايب شائعة بين الأمم وهي أكثر ما تكون ضخامة وجسامة في الأمم الضخمة الجسيمة، وحضرتْ معانيها أمام نفسي، وتبددت الخرافة الشائعة هنا وهناك في أنّ العرب لا يصلحون للحكم، يحتلبونه إن تولوا أمره.

أخذت الطائرة تجوز بنا أطباق الفضاء في ليل رهيب فوق بحر مخوف انقطعت في سمائه كل معاني الأنس، فأُبدلت بظلمات الوحشة والرهبة. والرحلة تستغرق ثلاث عشرة ساعة متمادية، وقد توسطتها عاصفة مدلهّمة رجرجت الطائرة من غير رحمة ورفق. وأنذرنا الضابط بأن نأخذ الحذر لأنفسنا فزاد ذلك من دهشتنا وخوفنا. وحين رأينا الجنود العائدين من ميادين الحرب يقطّبون جباههم، وقد غاضت أشواقهم للأهل والوطن، فقد ازدادت مخاوفنا، وطافت نفوسنا مذعورة في كل مجالي الفكر وآفاق الزمن. هنالك انقطعت أسباب المرء بالقدرة الإنسانية، فانخذلت شجاعته وانصهرت ذاتيته وأنانيته، ولم يجد ما يهدئ الروع إلا أن يسترخي في أحضان العناية الإلهية، وأن يستسلم للمشيئة القاهرة الحافظة. ثم بعث الله سكينته فزالت العاصفة، وعادت إلينا إنسانيتنا الناسية الجاحدة. وبلغنا أرض المطار في «برسك» وهي قرية في أطراف الحدود الشمالية للولايات المتحدة، وكنت أتمتم بالشعر خافتاً باسماً، فسألني أحد الرفاق: أشعر بعد هذا؟ قلت: شعر أوحته الطائرة:

أنِل قدمَيَّ ظهرَ الأرض إني رأيت الأرض أثبتَ منك ظهرا

وصلنا القرية، ووصلت معنا إنسانيتنا العابثة الواثقة، وذهبنا إلى فندق عسكري وقد كانت الساعة السادسة صباحاً. الناس يكادون ينهضون من نوم عميق، ونحن نحاول أن ندخل هذه الأجسام المجهدة في غلالة النوم نصطنعه اصطناعاً، ونستدعيه بكل حيلة ووسيلة، ولو لساعة أو بعض الساعة.

٢-٨-١٩٤٥

فـي العالــم الجــديــد

نمنا ساعة أو بعض الساعة، ثم انتزعنا أنفسنا من فراشنا انتزاعاً لركوب الطائرة إلى نيويورك، ولكن لم يكن بُد من اختلاس بعض الوقت للتعرف على هذه الضاحية الجميلة، فركبنا السيارة لنطوف في شوارع هذه القرية، التي قيل لنا بأنها قرية، أستغفر الله بل إنّ هذا هو الفردوس الذي فقده الفلاسفة والشعراء، وها هو جاثم في هذه الروضة، وقد أحاطت بها المروج الجميلة وأطلّت عليها الهضاب المكسوة بالفتنة والدلال.

وهذه القرية كما أرادوا، تعيش من الزراعة والتجارة أُنزلت فيها الطرقات نزول الأعصاب في الجسد، إنّها تصل إلى كل بيت وتمتد إلى كل حي، كما تبلغ الأعصاب كل طرف وكل حي. وحول هذه الطرق رصفت الأشجار الكريمة، تعانقت أغصانها بكل حنان وسكون لتنصب قباب الظل الوارف يُرَفّه عن العابرين والمتعبين، ولله ما أجمل هذه البيوت المنسقة أبدع تنسيق لكل منها حديقته الزاهرة ومرجه الوادع، وملعبه الذي يمرح فيه الأطفال، ومن حولهم وطن يقدم بين أيديهم مفاتنه وحسنه، ليقدموا بين يديه دمهم وشبابهم.

هناك عرفت لِمَ يستبسل هؤلاء الناس من أجل وطنهم، فليسوا حين يُدْعون إلى ركوب البحر والجوِّ يحاربون عن وطن جامد جاحد، ولكنهم يبادلون الوطن ما قدّم لهم في الطفولة والصبا من نعماء الحياة. وإنهم ليبالغون في الفداء والبذل إبقاء لهذه النعماء الرضيّة النديّة، وليس يهُمّ بعد ذلك إن كانت هذه الحياة النديّة هي خلاسة من حياة بقية البشر الذين يعيشون في الناحية الأخرى من الدنيا.

ورجعنا من جولتنا لتقلنا الطائرة إلى نيويورك، فوثبت بنا بين أحضان الرياح تميل ذات اليمين وذات الشمال، غير أن هذه المرحلة من سفرنا قد امتازت،

بالباراشوت، حملناه على أكتافنا بعد أن شرح الضابط كيفية لبسه واستعماله، وتمّ لنا بالفهم والنظر، لا بالتدريب والممارسة، تَقَلُّد جهازين أحدهما الواقي حين الهبوط في البحر، والآخر الواقي حين الهبوط في اليابسة ولقد خطر لي أنَّ هذه الوثبة إلى الجندية من قمتها العليا، قبل أن نُدرَّب على مبادئها الأولى، عمل مجيد حقيق بالحمد والثناء. . . وهكذا يكذب المرء على نفسه، ليدفع عنها مرارة الحرمان ولوعة الجهل.

وفي هذه الرحلة يشهد إنسان الجو الطبيعة تحتفل بذاتها، فتختال بكل زخرفها وزينتها، فهذا الإقليم الممتد من «برسك» جنوباً موطن فتنة، ومبعث سحر وجلال، الأنهار تنساب هادئة بين مواطئ الربى وعلى صدر السهول، البحيرات الصغيرة والكبيرة مبثوثة هنا وهناك على غير نظام وانسجام بكل الأشكال الهندسية التي تعرفها حركة الخطوط وحرية الخطوط، أحراش الصنوبر بعثت ظلالها رسل محبة إلى البحيرات والأنهار، والطائرة ترسل دويها ليمزق ذلك الحنان يرفّ بين الأغصان، وهذه البيوت الريفية تتربع مكانها في رؤوس الربى وعلى حواف الوديان، وقد حنت عليها الأغصان لتكون أعشاش دعة وسكينة واطمئنان، وكأنما أُودعت أفانين الجمال في هذه الأرض، رقعة رقعة، ثم جُمعت إلى بعضها فجاءت صورة حية تنطق بقدرة الله على ترصيع هذا الحسن وهذا البهاء. ولقد أرسلت بصري في هذا الإقليم فلم أشهد أرضاً معطلة أو مهملة، وخُيِّل لي أن الأرض هنا قد أعدها الله في قديم أزله لتكون زروعاً، أو أشجاراً أو مطاراً.

ومضت بنا الطائرة ثلاث ساعات فوق هذه المفاتن الفاتنة، إلى أن هبطنا في ضاحية نيويورك، وحملتنا سيارة إلى مدينة نيويورك فبلغناها عقب المساء وقد أبت أنوارها على الليل أن يلقي سدوله. وحملتنا المصاعد إلى مكاننا في الفندق، ورأيت من النافذة فُيوضاً من الأنوار تصعدها الأرض إلى السماء، كأنما نذرت هذه المدينة أن تفي عن الدنيا ما أرسلت السماء من الأنوار في كل العصور والآجال.

نيويورك، ٣-٨-١٩٤٥

فــي نيــويــورك

استيقظت في هذا الصباح لا كما ألفت وعهدت، فقد رأيت نفسي في الغرفة السابعة والثمانين بعد الألف، في الطابق السابع عشر من أوتيل إديسون من مدينة نيويورك، ولا تزال فوقي عشرات من الغرف يصعد المصعد إليها متواضعاً وهادئاً.

نزلت إلى المدينة وقضيت ساعة أو بعض ساعة مشدوه البصر في هذه العظمة والفخامة. وفي هذه المدينة عشرات الميادين نصبت فيها عشرات التماثيل وسط الحدائق والمروج، وقد مشى فيها من الخلائق من مشى، ووقف من وقف، واضطجع فيها من اضطجع، شباباً وأطفالاً وكهولاً، رجالاً ونساءً كلّ يعمل على شاكلته، ويأخذ بمتعته، لا يثير التفاتاً من أحد، أو استهجاناً من أحد. وحين عدت إلى الأوتيل بين العمارات المتناطحة وقفت إلى جانب واحدة منها أحاول أن أبلغ ببصري أعلاها فَخُيّل إليّ أن رأسي قد دار حول كتفَيّ، وأن كتفَيّ قد أخذا يميسان في الهواء، فأمسكت عن المحاولة وقنعت بما رأيت.

ولما وصلت الفندق اتصلت تلفونياً من غرفتي بالمفوضيات العربية بمدينة واشنطن، وكان لا بد لي أن أستعين بدليل التلفون فإذا به بضعة مجلدات تضم الورق الرفيع، عُبئّت فيه الأحرف الدقيقة تعبئة كثيفة، ولم يكن ذلك للدولة كلها، ولا للولايات التي تتألف منها الدولة، وإنما لمدينة واحدة.

وحول الظهر فاجأنا بعض «الأمريكيين» المنحدرين من أصل عربي من أهالي فلسطين بزيارة كريمة، ودعونا إلى طعام عربي أو سوري «كما يريدونه» فالتفَّ من حولنا بعض العرب، ودوّت اللغة العربية في قاعة الطعام، وتراشقنا بالنكات العربية، ونسينا لساعة من الزمن أننا بَعُدنا عن الوطن قريباً من خمسة آلاف ميل

مقيسة بالهواء. ولكن عاودتنا وحشة الاغتراب، وإذّكار الأهل والأصدقاء، حين عدنا إلى الفندق. وسرعان ما سمعنا اللغة الإنكليزية، من الأفواه الأمريكية، بين مدّ وقصَر، وابتلاع لبعض الأحرف، وإشباع لبعضها الآخر، وغُنّة وإمالة، بين المقطع والمقطع، حتى خلتني في حاجة إلى تعلم هذه الموسيقى، قبل الشروع في تأسيس المكتب العربي.

وخرجت في المساء لأرى هذه المدينة العظيمة، فإذا بالخلائق تملأ الميادين، وإذا بالشوارع تعجّ بالأمواج البشرية الهادرة، تسير في كل طريق وفي كل جهة، إلى السينما والملاهي والمطاعم. إنه سيل لا ينقطع، سيل من كل مكان وإلى كل مكان، وتساءلت: من أين اندلعت هذه الجموع؟ وكيف تكاثفت؟ من أين تجيء وأين تذهب؟ ولو وقفت في أي نقطة من هذه المدينة فلن يتيسر لك أن ترى «مصدر» هذه الأمواج البشرية، إلا إذا أشرفت عليها من الجو، ومن الجو البعيد.

ولقد وقفت برهة أتأمل هذه الحركة الدافقة الدافعة، الذاهبة الآيبة، من الشباب والرجال والكهول، جميعهم في أحسن زينتهم وملابسهم ملأوا الأفق أريجاً وعطوراً، جميعهم منصرفون إلى المرح والحبور، إلى الضحك عالياً وهادياً إلى الحركة رشيقة وعنيفة، لا ترى وجهاً عابساً متجهماً، أو بصراً شارداً مؤملاً. ولست ترى نفوساً تفكر في غدها أو أمسها، قريباً أو بعيداً. جميعهم يعيشون تلك الساعة لتلك الساعة، في إشباع جوارحهم بكل ألوان المسرة والبهجة، ليس لأحد أن يراقب أو يغتاب أو يحاسب فكل معنيّ بنفسه، وتجري بين يديه مسرّاته ومباهجه، وقد انتصبت هذه الحضارة أمامهم تقوم على خدمتهم وترفيههم، وتَدلَّت عليهم هذه الليالي تضيئها المصابيح، والأفئدة والأحداق، بفيض من الأنوار، لا يحيط به خيال.

وإنه من حق الخلائق أن تغترف بكل حواسها اللهو والبهجة، بعد نهار أضنى العمل فيه كل جوارحهم. أجل من حقها أن تنعم بكل ذلك، وقد اطمأنت إلى نفر من الرجال يديرون شؤون الدولة، فيعملون على رفعة الوطن وإسعاده، والاستزادة من كنوز هذه الدنيا وخيراتها.

نيويورك، ٤-٨- ١٩٤٥

نجـــدة فـــي المهجـــر

أبكرت إلى المحطة لاستقل القطار إلى (ناراجنسيت) للاتصال بالوزير المفوض لإحدى الدول العربية وكان في مصيفه. وأدهشني أني سألت بعض المارة عن المحطة فقالوا لي: أنت في المحطة، وظننت أنهم لم يفهموا لهجتي الإنكليزية أو أنني لم أفهم لهجتهم الأمريكية، لولا أن المارين على التعاقب قد أكّدوا أني في المحطة التي أبغيها.

وكان طبيعياً أن أقع في هذه الحيرة فقد رأيت نفسي وسط بناء عظيم تتشعب فيه الطرقات بحيث تحتاج إلى الترقيم، وتتكاثر فيه المطاعم والمتاجر وباعة الصحف والحلاقون، والأروقة والمكاتب والمصاعد، والسقوف المرصعة بالنجوم، والناس رائحون وغادون يتحركون تحرك الآلة لا تباطؤ ولا تثاؤب .إلى العمل، إلى السفر، حتى لتؤمن أنك في مدينة كبيرة، توافرت فيها كل الأسباب.

ركبت القطار ومضى بي أربع ساعات بين الأحراج والأرياف الجميلة، والمروج الساحرة، ولست أدري شيئاً عن هذه الأحراج في هذه الدنيا الجديدة، وتساءلت: أقديمة هي؟ أم هي من زرع الإنسان الجديد؟ وأي مجهود بشري يقدر على هذا الغرس والتحريش يغطي الأقاليم بعد الأقاليم؟ وقد يبدو للمرء أن الأرض هنا كانت منذ الأزل كثيفة بالأحراج والأشجار، فجاء الإنسان وأخذ يسوّي منها بعض الرقاع، ليرصّع فيها القرى والمدن والطرقات والمصانع والمتنزهات.

وحين بلغت المصيف الجميل قصدت أوتيل (كارلتون)، ولقيت الوزير

وحدثته بمهمة المكتب العربي وشرحت له أهدافه وخططه وأفضت في بعض نواحي القضية الفلسطينية، ورجوته أن يتعاون مع زملائه مفوضي الدول العربية للإشراف على أعمال المكتب. ولكني لم أكن قد أتممت حديثي حتى تجهّم وجه الرجل، واحتشدت كل مشاعره وجوارحه في بريق عينيه، ولمعان أوداجه، واندفع يبدي عطفه على القضية الفلسطينية، وقال: إنّه لا يرغب في الإهراق والسفك ولكنه يشتهي أن يموت في الميدان حفظاً لعروبة فلسطين. فرفعت رأسي لأحدق بالرجل بعد هذه العاطفة العاصفة، فإذا بعينيه تتألقان بالدمع يفيض من هذه الرجولة الكريمة، ثم سكتّ وسكت كأنما هيمنت علينا روح فرضت السكينة المكبوتة. فودعته وانصرفت شاكراً له هذه الأريحية والنجدة.وضممت إلى ذاكرتي دليلاً إلى كثير من الدلائل على عظمة الروح العربية وصدق العزيمة والقوة الكامنة في صدور الرجال.

نيويورك، ٥-٨- ١٩٤٥

الأمير فيصل في أمريكا

زرت قبل الظهر وزيراً مفوضاً آخر لدولة عربية وهو الآن في نيويورك لبعض أعمال المفوضية، وقد كنت عرفته أيام المؤتمر العربي المنعقد في بلودان عام ١٩٣٧ ورأيت فيه يومئذ وطنية مفكرة حصيفة، وكانت بيننا زمالة في العمل بلجنة الدعاية والنشر التي انبثقت من ذلك المؤتمر. وها نحن نلتقي الآن بعد سنوات للتعامل في حقل وطني يشبه ما اجتمعنا له سابقاً، وما تزاملنا فيه سابقاً، فكان تواردا لطيفاً. ولقد رأيت فيه هذه المرة، ما زاد اعتقادي برجاحة عقلة، وصدق قوميته، فوق ما أكسبته إقامته في أمريكا من سعة في التفكير، وحرية في التصرف، وسرعة في العمل.

وعلمت أن الأمير فيصل آل سعود ينزل في نفس الفندق فسارعت إلى زيارته والسلام عليه، وكانت أول معرفتي به، فألمعت إلى سبب مقدمي للولايات المتحدة وأهداف المكتب إلماعاً عابراً طمعاً في أن أكون مستمعاً وكفى.

والأمير يكون قد قضى في هذا اليوم قريباً من أربعة أشهر، اتصل خلالها بالأوساط الأمريكية، فأخذ يتكلم عن مؤتمر سان فرنسيسكو وأعمال الوفود العربية وأحابيل الحركة الصهيونية للدسّ على القضية العربية في فلسطين واستصدار تصريح سياسي يؤيد الدولة اليهودية والهجرة اليهودية، ثم تحدث عن العقلية الأمريكية والأساليب التي يؤخذ بها الأمريكان.

ولقد تحدّث عن ذلك جميعه ببساطة وطلاقة وفصاحة لا تكلّف ولا تزمّت، كأنّنا على معرفة منذ زمن. وتحدَّث عن عقل وتبصر، في سلاسل من المنطق آخذ بعضها بأطراف بعض، كأنما تأدب على ذلك بين يدي فلاسفة اليونان وحكماء

الهند، يؤدي الرأي سهلاً واضحاً ثم يعزز حديثه بحركة من يده خفيفة ورشيقة وهو معتدل في مجلسه ينمّ وجهه عن الثقة والعزم فلا تجتاجه عاطفة ولا يهبط به برود أو فتور، لطيف من غير وهن حازم من غير طغيان أو عنف أو ضعف. ولو استطاع السامع أن يغيب ذاته ونفسه ساعة من الزمن عن هذه الحضْرة اللطيفة، لظن أنه بين يدي الصحراء الهادئة الوادعة، القوية الحازمة، العميقة الواسعة، الواثقة المطمئنة.

ولقد عاب علينا الناس البادية وحياتها ورجالها، ولست أبغي أن أذكر لهم تلك الدنيا الزاهرة التي انبثقت من البادية أول تاريخ الإسلام، فلهذا حديث طويل، وقد يرجع بنا إلى «كان وأخواتها» ولكني أرغب أن أحيا في الحاضر وأعيش فيه. وإنا لنرى كثيراً من الملوك البلهاء والغافلين، ونرى في كثير من الحكام والوزراء انعدام الكفاءة وضعف الشخصية، على توفر أسباب الحضارة والعرفان بين أيديهم، فأرجع بعد هذه المقايسة إلى إيماني القديم بالقوى المتوافرة المتكاثرة في الأمة العربية. وكل ما تفتقر إليه هو إطلاق حركتها وحيويتها لتصبح قوة مسيطرة، منظمة منتجة مبدعة، تؤدي أوفر نصيب من الخير للعالم أجمع.

وذهبت في المساء إلى المرفإ لأودّع الأمير، فانسابت أمام أبصارنا الباخرة «كوين ماري» تمخر عباب الأطلنطي، وبي من الإعجاب بهذا الأمير العربي ما يزيد عن الأطلنطي سعة وعمقاً.

واشنطن، ٨-٨-١٩٤٥

النبـــأ الرهيـــب

أفاق العالم صبيحة هذا اليوم والنبأ الرهيب يُدوي في الآذان، ويُذهل البصائر والأبصار، الصحف طافحة وقد امَّحت الأخبار الأخرى، لقد اختفت أخبار المحاكمات التي شطرت الدنيا إلى معسكرين حول إدانة بيتان، وأنباء الحرب وما تثيره في الأذهان، جميعها قد امّحت وتقهقرت أمام أنباء «القنبلة الذرية» التي قذفت على المدينة اليابانية فصهرتها وأرجفتها إلى الأعماق، ثم أفشت في كل آفاقها حشوداً من الموت والنار والكيمياء.

ولقد تحدثت الصحف عن هذه القوة الرهيبة تنطلق من الذَرَّة، وأخذ رجال العلم يكشفون بعض النقاب عن نتائج هذه القوة، وعن ثورة العلم وقدرته حينما تُسيَّر هذه القوة في خدمة المدنية الإنسانية وأفاضت الصحف عن التجارب التي سبقت إطلاق هذه القنبلة في صحراء المكسيك. فعمّت الدهشة أمريكا، وأمريكا لا يسهل أن تندهش فقد أَلِفت الاختراع، وطاوعها الاختراع، ولا تعيش أمريكا إلا في جو من المشاريع الضخمة والأرقام الضخمة. أجل ليس يسهل أن، تدهش أمريكا فهي التي أقامت الجسور تحت الماء، وفوق الماء، وفي الفضاء، وأنشأت العمارات الذاهبة مع أطباق الجو، وأنتجت للحرب نصف ما أنتج الحلفاء والأعداء مجتمعين، وهي التي سارت بالقطار تحت الأرض المظلمة أربعين ميلاً، وهي التي جاءت بالمعجزات والمدهشات والمذهلات.

واشنطن، ١٠-٨-١٩٤٥

اليــابـــان تجثـــو

وأخيراً جثت اليابان على ركبتيها، ولم تكن تجثو إلا للإمبراطور سلالة الآلهة وصفوة القداسة. لقد جثت وجيشها وعتادها متكامل متوافر، وما أصابها وهن ولا ضعف ولا كَلَل. ولقد جثت كل قوى الأرض قبل أن تجثو اليابان. ولقد تأخذ اليابان صاعقة ساحقة فلا تجثو. ولقد تحيط باليابان الزلازل والبراكين تؤرجحها في كفّ الأقدار فلا تجثو، ولكنها تجثو الآن بين يديْ هذا المقذوف الصغير، يخلع فؤاد الشعب الكبير، ولم يبق له إلا أن يطلب الأمن والسلامة لربه ومعبوده. وتقاطرت جموع الشعب إلى قصره نادبة باكية تجر أذيال الخذلان والخيبة.

هاتان القنبلتان الصغيرتان قد حطّمتا جهود الرجال في الحرب والسياسة والاقتصاد والاختراع. قنبلتان أنزلتا شللاً عاماً في أمة بكاملها فجاءت تطلب السلم من غير قيد ولا شرط، وانقلب معبودها عبداً، وسيدها مسوداً، وقائدها مقوداً. وللعلم على الحرية آفات وآفات.

نيويورك، ١١ و١٢-٨-١٩٤٥

مـن السـراب إلـى السـراب

تميد نيويورك اليوم بأخبار التسليم، نيويورك لم تنم هذه الليلة ولا رقدت شوارعها وميادينها، ولا هدأت سياراتها الصاخبة. لقد انطلقت نيويورك بكل جوارحها ومشاعرها، فلطالما انتظرت هذا اليوم وهي مكبوتة العاطفة.

الملايين يزدحمون في ميدان **التايمز** الأكتاف بالأكتاف، والرؤوس رصف بالرؤوس، والأقدام لواصق بالأقدام. والرجال والنساء والشيوخ والصبيان والجنود ينشدون ويمرحون ويهزجون، بالحناجر والعيون. الأوراق المذهبة تملأ الفضاء وتهوي على الرؤوس كالفراش المبثوث. المزامير بأنغامها في أفواه الوقار والصبا. الطبول الصغيرة على صدور الكبار والصغار. المصورون طائفون بالسيارات أو مطلون من الشرفات أو منتصبون على قواعد التماثيل. عصائب الشباب «عسكروا» في منافذ الطرق ومقاطع الشوارع ينتزعون الفتيات من الصفوف ليطبعوا على شفاههن القبلات، عميقة واجدة فهذه راضية وتلك متراضية وأخرى متمردة، تسمع للقبلات صفيراً وزفيراً، والفتيات صارخات أو ضاحكات، أو مستنجدات، ويظفر الشباب بالقبلات وبأحمر الشفاه.

ولقد انتحيت جانباً أبصر هذه الخلائق انطلَقَتْ من عقال الحرب فأطلقت عواطفها، ووقفتُ إلى جانب عصبة من مئات عصابات الشباب رصدوا شبابهم ذلك اليوم على المرح والحبور، ورأيت شاباً مرصعاً بأحمر الشفاه، على شفتيه وذقنه وجبينه وخديه، وقد آوى إلى ظل دكان ليأخذ ببعض الراحة، فانتهره رفيقه ليرُدَّه إلى العصبة، فأبى وهو يقول «لقد انقضت عليّ خمس ساعات وأنا على عصب رجلي، وعصب شفتي،» فمضيت في طريقي وقلت: لو أن أمريكا تستطيع أن تهيئ لناسها بلوغ المتع الإنسانية وإشباع غرائزها بالآلة الميكانيكية، لفعلتْ ورضيتْ وابتهجت.

ولقد انقضى النهار كله، والليل يعقبه، وانقضى اليوم الثاني بنهاره وليله، وقد أفرغت نيويورك كل صباباتها، واستنزفت جميع خلجاتها، حتى القرار وحتى الثمالة. وقد ضجّت أجواؤها بأبواق السيارات، أقامت عرساً في الأرض وفي السماء، ولكن الروح اليقظة الشاعرة الحية لا تغفل أنْ ترى وراء هذه الكتلة البشرية الضاحكة مئات من البيوت يخطر فيها الحزن الهادئ المقيم، وآلافاً من الأمهات والشقيقات والزوجات والخاطبات والعاشقات والرفيقات والصديقات حرّكت فيهن هذه المهرجانات لواعج الأحزان ومواجع الذكريات، ومنهن من لا ترى في النصر نصراً لآمالها، ومنهن من لا ترى في السلام سلاماً لأفئدتها، ومنهن من تُسائل الحربَ وأهدافها: هل ذهب الأعزاء والأحبة، كما مضى الذين من قبلهم من غير عوض للإنسانية أو تأييد لمثلها العليا؟

وحين أويت إلى غرفتي أُنصت إلى الراديو يتكلم من خلاله أديب مرهف الحس، أذهلته ويلات الحرب وما التهمت من زهرات الأجيال، فبكى لشبابها الغض، وعزّى الأقرباء والأصدقاء، ورأى في الويلات كلها سبيل الراحة للأجيال المتمخّضة في صدر الغيب المقبل. وما أجمل الرؤى ولكن ما أمرّ الخيبة عند اليقظة. وما أجمل السراب، ولكن ما أسوأ العُقْبى حين ينقلك السراب إلى سراب.

نيويورك، ٢٣-٨-١٩٤٥

لــــولا لبنـــان

لبينا دعوة للاحتفال الذي يقام في فندق «ولدورف إستوريا» تكريماً للمستر دودج عميد الجامعة الأميركية في بيروت وهو الآن في نيويورك لبعض شؤون الجامعة، وقد ضم الحفل نخبة من السوريين تصاحبهم نساؤهم وبناتهم الأمريكيات فكان مجلسي إلى مائدة أنيقة بين عقيلة الدكتور خير الله وهو من كبار الوطنيين العاملين وسيدة أخرى هي عقيلة السيد حمدان غنام من كرام مهاجري فلسطين، وكلتاهما أمريكيتان أُشبعتا حب البلاد العربية وأخلصتا في هذا الحبّ.

وتعاقب الخطباء يثنون على الجهود العلمية والإنسانية التي بذلتها أمريكا في الشرق العربي فتكلم «توماس لويد» من الخطباء الأمريكيين المعروفين وكان طلق العبارات جميل الصوت رشيق المداخل والمخارج. كما كان الدكتور دودج آية من الآيات قذف عواطفه كلها على أطراف لسانه وأعجبتني إشارته إلى القنبلة الذرية في أن العالم شهد أكثر منها قوة وأثراً، فألمع في جملة ما ألمع إلى أن شخصية محمد (ﷺ) كانت أعظم من هذا المقذوف توجيهاً للإنسانية والحضارة.

وتحدث الدكتور حتيّ الأستاذ بجامعة برنستون بأمريكا حديثاً قيّماً لولا أنه أكثر من ذكر «العالم الناطق باللغة العربية» تجنبّا لجملة «العالم العربي»، وتكلم الدكتور صروف، وقد قدم من القاهرة في زيارة عاجلة، بصفاء ذهن وبديهة حاضرة، ورد على الاقتراح القائل بتسمية الجامعة التي يعتزم تأسيسها في بغداد بجامعة ألف ليلة وليلة مبدياً رأيه في أن تسمى «دار الحكمة» التي كانت منهل

العلم في بغداد، وقلت له، حين هنأته، ليتك وجدت سبيلك إلى أن تشير إلى أن بغداد تعرف بدار السلام.

وخطب كذلك الدكتور قسطنطين زريق (مستشار المفوضية السورية في واشنطن) فامتدح جهود دودج والمعاهد الأمريكية وأبرز قيمة الأمة العربية، وحضارتها وآمالها، ثم قرأ الدكتور شارل مالك (وزير لبنان المفوض في واشنطن) كلمة زانتها شؤون الاجتماع والفلسفة لولا أنها جعلت لبنان يتيم النسيج والتكوين، وأنه لولا لبنان لا يكون شيء ولا كان.

نيويورك، ٢-٩-١٩٤٥

عيد الشعب في يوم العمال

اليوم عيد العمال في أمريكا، والمفروض أن يقع أول «اثنين» من شهر أيلول/ سبتمبر من كل عام. وعيد العمال هنا عيد شعبي ينتفع به الشعب، العامل وصاحب العمل. وهو عيد رسمي أيضاً تعطل فيه جميع الدوائر الرسمية والشركات. باستثناء مصالح البريد والمواصلات وشؤون الطوارئ. ومما يزيده قيمة أنه يسبقه الأحد وظهر السبت، فيتسع للخروج من المدن والانتقال بعيداً عن المصانع والمعامل ومراكز الحركة والضجيج. وهنا يتجلى التفكير الأمريكي في تنسيق الأمور بما يجعلها أكثر انتفاعاً بالوقت، على أكمل ما يكون الانتفاع.

وقد خرج الأهلون من نيويورك إلى الضواحي بالقطارات والسيارات العامة والسيارات الخاصة وازدحمت الطرق الرئيسية بحركة المرور، وكان مثل ذلك يجري كما روت الصحف في جميع المدن الكبرى للولايات، وسجلت الإحصاءات الرسمية لهذه الأيام أربعمائة حادثة دهس مميت، نشأت عن هذا الزحام، ومع هذا فقد أبدت الأوساط الرسمية ابتهاجها لهذا الموت، لأنه أقل في نسبته مما سبق من السنين.

وقد خُيّل إليّ، وأنا جالس إلى نافذتي أراقب هذه القوافل الخاطفة، أن نيويورك قد خلت من أهلها، وأنها أصبحت كالمدن المهجورة التي تبدع الأساطير في وصفها. وخطر لي أن أتفقد ما جرى لهذه المدينة العظيمة بعد هذه الهجرة المرحة، فرحت أطوف ميادينها وبعض شوارعها، ولكني رأيت الأرض مازالت تعج بخلائقها ولم ينتقص عيد العمال من عجيجها شيئاً، وأنّى لنيويورك أن تهدأ، ويعيش على رقعتها الصغيرة ثمانية ملايين من البشر، هم صفوة الحركة ونخبة الحياة.

وفي عصر النهار ذهبت مع رفاقي إلى «كوني آيلندز» على شاطئ الأطلنطي، بعد

نصف ساعة في قطار ما تحت الأرض. وهذه الجزر من أماكن النزهة العامة الشعبية، وتشدّ إليها الرحال في الأعياد العامة. وفيها منبسط جميل من الشاطئ، انتشرت فيه حمامات السباحة أقيمت على الرمال، ويلي ذلك رصيف طويل عريض فرشت أرضه بالخشب الثقيل المنسق، ثم يلي ذلك صفوف من الدكاكين وأماكن اللهو والبيع والشراء، بينها الأراجيح «الشقاليب»، وهي مثل ألعاب بلادنا في الطريقة والأسلوب، وإن كان العلم هنا قد جعلها منظمة ونظيفة، علمية الحركة.

وقد أَمّ هذه الجزر سواد الشعب، أبيضه وأسوده، وأخذ بكل أسباب اللهو رجالاً ونساءً، ولم يترك أحد ما يناسبه من الألعاب إلا وقد لعبه، فالصبيان على ظهور الخيل النموذجية، وركزّت في القواعد الدائرة تدور بهم على نغمات الموسيقى. والفتيان في السيارات الشكلية مثبتّة في القضبان الحديدية بالهواء، تصعد بها إلى الأعالي ثم تهوي إلى قاع هذه القضبان بين الضحك والصياح، والعجائز بين يدي رجل «يُبصِّر» عن الأعمار، فترضى بعضهن وتغضب أكثرهن. الرجال صاعدون هاوون في نموذج الباراشوت المعلق بأسلاك من الفولاذ. والمطاعم غاصة بالآكلين والشاربين. وأصحاب الأعمال «يدلّلون» يدعون المارين لمشاهدة ما لديهم. ورمال الشواطئ لا تكويها شمس ذلك اليوم ولا تمسها بشعاعها، ذلك أن العاريات من النساء والعراة من الرجال قد لصقوا بالرمال وانبطحوا عليها بالألوف. وألوف الألوف من الأجسام مختلف ألوانها والشعور منثورة ومدلاّة ومستشزرات. أما مآزر السباحة فأنواع وحجوم وألوان.

هذه الألوف قائمة وقاعدة، مضطجعة ونائمة، وجاثمة وحانية، ولاعبة وساكنة، ثائرة وفاترة، صور وصور، آفاقها فوق آفاق الخيال مهما سمى واتسع هذا الخيال، ومن لم يستطع أن يشارك في شيء من كلّ هذا اللهو، كامرأة طاعنة في السن أو كشيخ فانٍ على عكازه أو كرجل مثلي «مثقل بوقار» الشرق ورزانة البلد المقدس، من لم يستطع أن يشارك فليس له إلا أن يتخذ مقعداً مطلاً على هذه الخلائق تموج كما يموج الأطلنطي وهو عنها غير بعيد.

إنّه موسم كموسم بلادنا، وإنّه الشعب في كل مكان بروحه ومرحه، وإنما يسود هنا النظام ويسود العلم وتسود النظافة وإن لم تسد الأخلاق كما نفهم الأخلاق.

واشنطن، ٤-٩-١٩٤٥

الكونغرس في مباذله

قدمت إلى واشنطن لبعض أعمال المكتب، وواشنطن مدينة جميلة ما جئتها إلا وأوحت إليّ أنها مدينة الحدائق والرياض ولولا شدة بردها في الشتاء وشدة حرها ورطوبتها في الصيف، لكانت من حدائق العالم التي تجتذب الأفئدة والأبصار.

وعلمت أن الكونغرس ينعقد لأول مرة بعد انتهاء الحرب، فانتهزتها فرصة، وذهبت بصحبة صديق أمريكي إلى هضبة الكابتول التي يقوم عليها بناء الكونغرس، وهي شرف من الأرض يزدان بالأشجار والطرق الجميلة، وعلى هذه الأرض أقيم البناء الفخم الذي لعلعت في جنباته أصوات فطاحل الرجال في أمريكا، لأجيال.

وأُجلست في الجناح الخاص برجال السلك السياسي، ورافقني أحد الموظفين ليشرح لي شيئاً عن سلطات الكونغرس وما إلى ذلك، ولشدّ ما كانت دهشتي حين رأيت أن سقف القاعة شبكة من جسور الحديد تعيد إلى الذهن صورة عن مخازن الاستيداع الكبرى المحملة سقوفها على الحديد والفولاذ، وقد قال لي حين سألت، إنّ شبكة الحديد هذه أقيمت لتحمل سقف البلور فوقها، وهو سقف القاعة القديم، وقد لا يقوى هذا على حمل الثلوج في الشتاء، فأقيمت من تحته هذه الجسور حماية له وحصانة، فقلت له مازحاً: هذا إفراط في الحماية البرلمانية، تتعدى النواب إلى حماية السقوف، فضحك وضحكت.

ولقد سألني صديقي الأمريكي عن مجالسنا النيابية، فشرحت له أقرب مجلس إلينا في «شرق الأردن» ولقد عجب أنه ليس فيها مجلس شيوخ، فقلت

له ليس في تلك البلاد شيوخ فهم جميعاً مثال الفتوة والشباب.

وبعد هنيهة أخذ أعضاء المجلس يدخلون القاعة ويتخذون مقاعدهم، يُسلّم بعضهم على بعض بمرح وسرور، وفي تمام الساعة الثانية عشرة أعلن الرئيس افتتاح الجلسة وأخذ يدسّ إلى الكاتب تقارير ومستندات يقرأها من المذياع، ولكن الصوت ظل خافتاً والقاعة سيئة الهندسة من حيث إعدادها للصوت. واستمر الأعضاء يكلم بعضهم بعضاً، ويسلم بعضهم على بعض، ومضوا يجولون بين المقاعد، ويدخلون ويخرجون، والكاتب يقرأ غير مسموع ولا مفهوم، والرئيس في منصته يقلّب الأوراق بين يديه، لا نظام ولا هدوء. وقد دخل أحد الأعضاء ومعه ابنته الصغيرة جلست إلى جانبه في مقاعد النواب، وملت إلى الموظف أسأله: أهذه نائبة صغيرة؟ قال: لا، وتولاه صمت.

وهنا تنفست طويلاً وطويلاً دون أن ألفت نظر رفيقي، فلقد التمع في ذهني أمر مجالسنا النيابية، فحمدت لها نظامها وهدوءها، ولكن المآخذ والمعايب لا تُرى إلا في الضعفاء، من الأفراد والشعوب على السواء.

وقلت لرفيقي الأمريكي بعد ساعة من هذا الهرج: لقد اكتفيت، فنهضنا فدنا مني ونحن في طريقنا، وقال: ماذا رأيت، فقلت له: هذه قاعة أمريكية تتمثل فيها إرادة الأمة الأمريكية، وعلى شاطئ بيروت جامعة أميركية، فيها قاعة عامة، شهدت فيها كثيراً من الاجتماعات سنة ١٩٢٧ حين كنت طالباً، ولكن ما أعظم الفارق بين القاعتين، قال: وما تعني؟ قلت: في الجامعة الأميركية نظام من غير برلمان، وهنا برلمان من غير نظام. . . وتضاحكت لأخفف وقع هذه الصراحة، فضحك مسايراً، وقال: هذا صحيح، ولكن العمل ماض، قلت له: صحيح، إنّ العمل الماضي هو في الآلات الهائلة، القاهرة، المسيطرة، المنتجة المبدعة، وهناك سر قوتكم وينبوع ثروتكم.

دخلت بعد ذلك إلى غرفة رئيس لجنة الشؤون الخارجية وقد كنت أعلم أنه يهودي ومتعصب للصهيونية. فاستقبلني استقبالاً باشاً وهو رجل في السبعين ولكنه فتِيّ القسمات والبسمات. فسألني عن المكتب العربي وأجبته بما ينبغي. ثم سألني عن فلسطين. وأجبته بما ينبغي. ثم حدثني حديثاً أسوقه كمثال للعقلية الصهيونية وتفكيرها الخبيث:

«أنا يا عزيزي من الداعين إلى المبادئ الإنسانية والإخاء الإنساني. إن الله قد

خلق الإنسان بجميع الألوان. ولكن الإنسان هو الذي ابتدع الأديان وصنع اللغات وأقام الدول والحدود. وأنا أحب الصراحة ومتى وقعت الصداقة توطدت الثقة. وقد كنت في مؤتمر سان فرنسيسكو صديقاً للوفود العربية كلها. وكنت موضع ثقتهم جيمعاً حتى أن (. . .) كان لا يرفع يده شارة للتصويت إلا بعد أن يرى يدي مرفوعة. وأكون مسروراً حين تزول الفوارق الدينية، وعوائق الحدود القائمة بين الشعوب».

وعقبّت على حديثه بفلسفة من نوع فلسفته. ولكن إلى ناحية أخرى وقلت له: «يا عزيزي، إن فلسطين لا تحول دون تحطيم الفوارق القائمة بين الإنسان وأخيه الإنسان. ولا تمانع أن تزول هذه الحدود القائمة بين الممالك، مع أننا لم نتمتع باللذة والحدود ونعمة الدولة. وحين تأخذ الدول بإزالة حدودها وإعلان إنسانيتها، لا تتأخر فلسطين عن أن تكون في القافلة ولكن لا قبل ذلك.»

فابتسم الرجل وقال: أنت خبيث. قلت له: أشكرك على هذا الثناء، ونهضت أودعه فنهض وهو يقول: ستجد في مكتبي كل رعاية ومعاملة عادلة، شأنك شأن مديري المكاتب الأخرى في البلاد، تعامل معهم على قدم المساواة. فترجمت له كلمة «إن شاء الله» ومدلولها، فقال: أنت خبيث، فقلت: أشكرك على هذا الثناء وانصرفت.

واشنطن، ١٢-٩-١٩٤٥

حيــرة وصرخــة

نعود الآن إلى واشنطن المدينة الجميلة التي تحتضنها الأحراش الفاتنة، نعود إليها لننشئ فيها المكتب العربي بعد أن أخفقنا، إذ لم نجد في نيويورك مكاناً لائقاً، فلا تزال أزمة المساكن خانقة، وإننا لنرى الزمن يمضي بنا سريعاً، ونحن لا نستطيع لبلادنا عملاً، والحوادث طائفة من حولنا كالأشباح الرهيبة، ويكاد الأمر أن يدبّر، والمصير أن يقرّر.

ولقد ولّدت الحرب الأولى وعداً بإنشاء وطن قومي لليهود، ونخشى أن تلد هذه الحرب دولة يهودية، وكان الوطن القومي اليهودي خيالاً ومحالاً حين علمنا به، فانقضت عشرون عاماً فإذا به حقيقة قائمة، وأكاد أفزع حين تشمل هذه المقارنة صورة الدولة اليهودية التي نراها الآن وَهماً باطلاً وإنّي أطمئن أن هذه الدولة لا قبل لها بالحياة في قلب البلاد العربية، إنّ الأمة العربية لا بد لها في مستقبل الأيام، مهما بَعُد العهد، أن تقتلع هذه الدولة اليهودية وتلقي بها إلى أعماق البحر، ولكني أكره هذه الطمأنينة وأصرّ على محاربتها ومحاربة الدولة اليهودية الآن وقبل أن تولد، في مقدور البلاد العربية إن هي أرادت، وإن هي عزمت فيما أرادت.

وفي واشنطن لم نجد مكاناً للمكتب العربي، لائقاً أو غير لائق، إنّه ليحرجني وقد مضى علينا شهران، تقريباً ونحن نفكر في مكان يحتوينا، لنخدم بلادنا، وبلادنا تريد أن تطمئن إلى مكانها الذي يحتويها.

وفوق ذلك فإنّ الجو السياسي آخذ بالتلبد، فالجماعات الصهيونية تعبئ كل قواها لتلقي آخر جندها وعتادها في هذه المعركة الحاسمة، ففي هذه الأيام تقرر

المصائر وتهبط الأقدار. والصهيونية تؤمن أنها إن لم تظفر ببغيتها الآن، فلن تظفر بها بعد الآن، وأنها لتجد الآن في الفوضى الأوروبية مناحة تستدرّ بها عطف العالم لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين، والصهيونية ما تفتأ تلحّ وتُلْحف خشية أن لا تلوح مثل هذه الفرصة أبداً.

ولهذا السبب ذاته، أعدّت الصهيونية كل عدّتها لتلقي بها في الميدان، وحين أفكر أننا لم نجد حتى الآن مكتباً، ولا أعددنا قرطاساً ولا طابعة ولا ملفاً، حين أستعرض أمامي هذا الصمت الذي أمسك بأفواهنا وأقلامنا، حين أرى هذه الحيرة في تسجيل مكتبنا في وزارة العدل، أنُسجِّله تابعاً لجامعة الدول العربية؟ وهذه لم تقرر بعد بأمرنا شيئاً، أنُسجِّله تحت رعاية الدول العربية؟ وهذه مرتابة في نجاح المكتب، وفي ما عسى أن يخطئ ويهفو، وفي ما عسى أن يُجُرّ على الدول العربية من سقطاته وهفواته؟ أم نسجله كهيئة قومية شعبية؟ بل إنني حين أستعرض مواردنا المالية التي ترشح علينا كما يرشح الماء من الصخور الندية، وحين أستعرض شؤوناً أخرى متصلة بمعايبنا وأنانيتنا، وفزعنا من الحقائق، وتوهّمنا الضعف في أنفسنا، أرى أن الإيمان وحده هو الذي يحملنا على العمل، وأن مستقبل ذرارينا وأنسالنا هو الذي يصيح في وجهنا ويستحثنا أن نعمل، وأن نعمل أبداً.

والويل للأمة التي لا تعمل حين تلوح فرصة العمل.

واشنطن، ٢٢-٩-١٩٤٥

مهـــد في لحـــد

تُداهمنا الأحداث ونحن نهيئ أنفسنا للعمل، ففي الوقت الذي نؤثث مكتباً ونعدّه بالمراجع العلمية وسائر وسائل العمل ومظاهره، والعمل الذي نحن في سبيله تسيطر عليه كثير من المظاهر، في هذا الوقت تفاجئنا الصحف الأمريكية والإنكليزية بالمجهود الجبار، تقذفه الصهيونية كآخر احتياطي لها في المعركة.

الصحف طافحة بالاجتماعات والمظاهرات والمقالات، جميعها تلح بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وجميعها تصرّ على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. إنه صياح صاخب، هائج مائج، يتردد في كل مكان، وإنّك لتسمع هدير المعركة ودويها، حتى ليبدو أن هذا الهدير سيطغى على أي صوت آخر مهما كان قوياً. وها قد أخذ المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة يكتب إلى الحكومة البريطانية طالباً السماح بهجرة مائة ألف من يهود أوروبا، معتمداً في ذلك على رأي الخبير الذي أوفده خصيصاً لأوروبا بالنظر في مشكلة اللاجئين.

ولقد نشرت الصحف تصريحات للمستر ترومان التي أكدّ فيها اقتناعه، بعد البحث الشخصي، بأن سلفه روزفلت لم يعاهد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم التدخل في قضية فلسطين، وراحت الصحف تنقل هذه الأخبار وتعلق عليها وتشير إلى مقابلات اليهود للمستر ترومان، وما أكّد من عطف على اليهود. وقارئ الصحف هذه الأيام لا يرى في الرجل رئيساً للولايات المتحدة، رئيساً للأمة التي قدّمت أعظم إنتاج في الحرب، ولكنه يرى فيه صحافياً تحت التمرين يبث الأحاديث الصحافية، كما يريده رئيس التحرير أن يقول ويفعل، بل ربما كان الصحافي بين يدي رئيسه أكثر حرية في التفكير، واستقلالاً في الرأي. ولعلّ الذين يصمون حكامنا وأمراءنا بنقيصة الخضوع للمؤثرات المختلفة، يرون كيف تغزو هذه المؤثرات رمز ومهد الديمقراطية.

ولكنه مهد في لحد! . . .

واشنطن، ٢٤-٩-١٩٤٥

دعــــاء

أخذنا نعمل الآن في مكتبنا، وقد أمسكنا بزمام العمل، ولم يعد للقلق أن يتسرّب إلينا لأننا نجد راحة في العمل وتنفتح أمامنا آفاق من الجد تغمرنا بالبهجة والفرح.وقد انقضى عهد الصمت والسكون فستتحرك عقولنا وأقلامنا وألسنتنا وقلوبنا، في كل ميدان، وفي كل طريق.

وفيما كنت أستعرض في نفسي أعمالنا في المستقبل القريب من مقالات ومذكرات واجتماعات واتصالات وما إلى ذلك، أبصرت بالسيد . . الوزير المفوض لإحدى الدول العربية، وقد أصبح قريباً لطاولتي خطوة أو اثنتين. لقد جاء على غير ميعاد ودخل الغرفة خفيفاً رفيقاً. ودهشت لهذه المفاجأة، فوثبت قائماً أستقبله، وفي نفسي كثير من الدهش، تفرّست في وجهه لأرى بشيراً أو نذيراً، فلم أفلح فإن للرجل وجهاً وادعاً لا ينمّ إلا عن حالة واحدة، فجلس وأخذ مكانه ثم جلست وأخذت مكاني.

بدأ الوزير يسألني عن الحوادث فأجبت بما علمت وعرفت، ثم تجهم وجه الرجل وقال: ما جئت لهذا إني أريدك أن تكتم هذا الحديث فقلت: سأفعل قال: «أنا أرى الدبلوماسية عقيمة وفي اعتقادي أنّ على العرب جميعاً بملوكهم وأمرائهم أن ينافحوا عن عروبة فلسطين بكل قواهم وعلينا أن نبذل كل تضحية وكل فداء صيانة لعروبتنا وكرامتنا، وإنّي قانع أن فلسطين لم يعد ينقذها إلا تصميم البلاد العربية على الدفاع حتى الرجل الأخير وإلى النفس الأخير ومن رأيي أن. . .».

وساد الغرفة صمت رهيب غشيه جلال الموقف وخطورته، وعبرت في نفسي خواطر جهادنا أربع سنوات منذ ١٩٣٦ واستسلمت للذكريات، وانصرف الضيف الكبير مقترحاً بعض الاقتراحات فودعته، وأنا أقول في نفسي «اللهم ارزقنا إيماناً كإيمان العجائز»، وإنه لدعاء نرجو أن ندعوه جيمعاً. فيستجاب لنا جيمعاً.

واشنطن، ١-١٠-١٩٤٥

خيبـــــة

أصدرنا نشرة حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد أوضحنا فيها إصرار العرب، حكومات وشعباً، على مقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، واستمساكهم في إقامة حكومة عربية ديمقراطية في فلسطين، وقد أرسلنا هذه النشرة إلى الصحافة الأمريكية، وإلى الكُتَّاب، ومعلقي الإذاعة، وممثلي وكالات الأنباء العالمية.

وكانت النتيجة أن أهملت أكثر الصحف ذكر هذه النشرة أو الإشارة إليها رغماً عن أن الصحف مملوءة هذه الأيام بأنباء الدعاية الصهيونية. أما الصحف الأخرى فأشارت إليها لماماً وعلى رأسها **نيويورك تايمز**، التي ألمعت إلى محتوياتها، وكنت أخشى أن تدفنه **النيويورك تايمز** في أكداس مهملاتها وهي جريدة يهودية من أطراف الرأس إلى أطراف القدم ولعلها أكبر جريدة في العالم.

ولقد بدا لي أن أبتئس من هذا الطغيان الصحافي، وساءلت نفسي: كيف السبيل إلى الجمهور إذا كانت الصحف موصدة في وجوهنا؟ وكيف العمل إذا كانت صيحاتنا تفنى بين حجراتنا؟ وإذا كانت نشراتنا لا تظفر إلا بساعي البريد يحملها فلا تبلغ الأسماع؟ ولا تلفت الأبصار؟

ولكن سرعان ما خطر لي أني لم أفد على هذه البلاد لأجد الأمور طائعة بين يدي، فهذه السيطرة اليهودية المالية الجامحة التي تستأثر بالصحف، ورجال الأعمال، ورجال الكونغرس، ليس من الهيّن مغالبتها في وقت قريب، ومنذ الخطوات الأولى. فلا بد من العمل المتواصل، والجهد المتلاحق، ولا بد من شدّ العزائم، وربط القلوب.

ولقد وجدت بعض العزاء أمام هذه الصعوبة التي تجابه المكتب، ولكنه عزاء يفتقر إلى عزاء. إنّه عزاء أشد من المصيبة وأفدح من الكارثة، ذلك أن وزراءنا الأربعة قد قصدوا هذا اليوم إلى وزارة الخارجية، وأعربوا عن وجهة نظرهم في القضية الفلسطينية بالنيابة عن الجامعة العربية، ثم عادوا إلى مكاتبهم واستدعوا الصحافيين، وأبلغوهم أنباء ما جرى، فارتقبتُ الصحف هذا اليوم لأرى شيئاً ما ففشلت، وفشلت، كأنما هذا الحادث السياسي لا يستحق سطراً واحداً، أو كلمة واحدة.

ومما راعني أن الصحف بأجمعها، بأجمعها على الإطلاق، قد حبست هذه الأنباء، وأقفلت عليها في غياهب العدم. ولكني ثُبْتُ إلى نفسي وهَدّأت من روعي، إذ لا بد من العمل المتواصل، والجهد المتلاحق، ولا بد من شدّ العزائم وربط القلوب.

إنما نجني الآن، ما أسرفنا من الإهمال قبل الآن. . .

واشنطن، ٥-١٠-١٩٤٥

أمـــــــل

كان أمس موعد المؤتمر الصحافي الذي دعونا إليه في «وردمن بارك أوتيل» لمناسبة تأسيس المكتب العربي، وفي الساعة الخامسة دخلتُ قاعة الاجتماع وأخذتُ بتلاوة كلمة حول أغراض المكتب، وأهداف البلاد العربية، ختمتها بإيضاح القضية الفلسطينية وأعربت فيها عن رفض الهجرة اليهودية، وضرورة إقامة دولة عربية ديمقراطية، مشيراً إلى أهمية فلسطين العربية في حقل السلم العالمي.

وبعد ذلك أخذت أجيب عن أسئلة الصحافيين، وقد انهمرت من كل ركن من القاعة، تتلاحق وتتصل، تلاحق الطلقات من بنادق سريعة الطلقات. وكان معظم الأسئلة من الصحافيين اليهود، وطبيعي أن لا يكون القصد منها الاستطلاع وإنما الإحراج، والاستدراج إلى المزالق، فنجوت من كل هذه المآزق من غير أعجوبة، لأني خبرت الأساليب التي يبتدعها الصهيونيون لإلباس باطلهم بغشاء من ظاهر الصدق.

وقد حجبت معظم الصحف أنباء المؤتمر، مع أنه كان ناجحاً، ولعل نجاحه كان السبب في حجب أنبائه، ولو ظفر اليهود بالمزالق التي أرادوها لمنحوها أعظم نصيب من النشر والإذاعة. وكان ممن علّق على الاجتماع صحافي أمريكي معروف، هو «بيتر إديسون» في جريدة **واشنطن ديلي نيوز** بكلمة رشيقة امتدح بها الحفلة بالأسلوب الأمريكي الأخاذ.

فغمرتني نشوة من الفرح والبهجة، لا للمديح الذي ساقه إليّ الكاتب الأمريكي، ولكن لأني رأيت أن الجهد قد أخذ يزهر وينمو، ولأني أصبحت

أرى ضياء في خلال هذا الإعصار الصهيوني الهائل، المدلهمّ بالظلام. وهذا الضياء، وإن يكن بصيصاً، إلا أنّ وارءه تكمن الآمال المشرقة، تلهب ظهورنا للعمل والجد[١].

(١) وهذه كلمة الصحافي الأمريكي نثبتها كنموذج للعقل الأمريكي: (واشنطن، خاص بالدفاع) كتب بيتر إديسون في **واشنطن ديلي نيوز** ما يلي بمناسبة فتح المكتب العربي بواشنطن قال: « . . . وأخيراً جاء العرب إلى المدينة ونصبوا خيامهم في فندق واردمن بارك الأرستقراطي وأنشأوا المكتب العربي. لن تجدهم مخيمين في الحديقة أو الصالة العمومية، بل جلوساً وراء مكاتب أنيقة في غرف فاخرة تجري المياه الساخنة والباردة فيها وأقاموا حفلة باذخة يوم افتتاحه أردفوها بمؤتمر صحافي من الطراز الأول. أما رجل المكتب فهو السيد أحمد الشقيري، وكل من كان ينتظر أن يرى هذا الرئيس يرتدي القفطان والعباءة والكوفية الدمقسية كأمراء المملكة السعودية وينتقل في أمريكا على جمل أشهب أو هجين سريع فقد خاب ظنه. إذ ظهر أنّ السيد أحمد الشقيري هو محام شاب، يرتدي بذلة زرقاء أنيقة وله شارب مهندم، يتوج رأسه شعر أسود فوق هامة عريضة، ويتكلم الإنكليزية أحسن من الأمريكيين، فيما عدا أنه أخطأ مرة باشتقاق أحد الأفعال، وكان يتلو بيانه بلهجة دراماتيكية ولكن دون إشارات، ثم أخذ يرد سهام الأسئلة الموجهة إليه. وقبل أن يُنهي السيد أحمد بيانه وردوده بأسلوبه الرائق دون حدّة، كان في الحقيقة قد أعلن حربة الشعواء على كل امرئ يفكر بإرسال مهاجرين يهود إلى بلاده، وعلى كل امرئ اقترح التدخل في سير فلسطين نحو الحرية والاستقلال والسيادة. واعترف السيد أحمد الشقيري أنه آتٍ للدعاية، غايته تغذية الأمريكيين بالمعلومات الصحيحة، وهدفه تفنيد دعاوى الصهيونية. وأمطر الصحافيون السيد أحمد وابلاً من أسئلتهم، منها سؤال أحدهم: ما الذي سيفعله العرب لجعل فلسطين دولة عربية ذات سيادة؟، فرّد مقتبساً قول المستر تشرتشل «متى شعرت أمة أن مصالحها في خطر تتخذ الإجراءات الضرورية». وسئل عن هذه الإجراءات وهل تعني الثورة فامتنع عن الإجابة، ثم أردف: «لا أستطيع أن أبوح بخطط الجامعة العربية.» الجامعة العربية . . . إنها أصبحت شوكة مزعجة في جنب الدول الأوروبية لها مطامع وآمال في حوض البحر الأبيض. انظر: جريدة **الدفاع**، ١٦/ ١٠/ ١٩٤٥.

واشنطن، ١٣-١٠-١٩٤٥

إضــــراب

لقد وقع ما كنت أخشاه فقد أصبحت الصحافة الأمريكية «مضربة» عن نشر أخبار وزرائنا الأربعة الذين ذهبوا بالأمس إلى وزارة الخارجية للإعراب عن وجهة النظر العربية في ما يتعلق بقضية فلسطين. ولم يكتف وزراؤنا بالكلام فحسب، وإنما قدّموا إلى وزير الخارجية الأمريكية مذكرة تقع في خمس صفحات. ولم يكن أمر هذا المسعى سراً مكتوماً فقد علم به مراسلو الصحف والمخبرون، وحين خرج وزراؤنا من ردهة وزارة الخارجية أحاط بهم الصحافيون وأمطروهم وابلاً من الأسئلة، كأنما الشهوة الإخبارية الصحافية قد جمحت إلى ذروة قمتها. ولم يهدأ تلفوني في المكتب ذلك اليوم عن الرنين المتواصل من الصحافيين يسألون عن الاجتماع، وعن المذكرة، وعن المبادئ العامة التي احتوتها، وما إلى ذلك من الأسئلة. ويخيل للملاحظ البريء، أنّ هذا التعطش الجامح سيكون له أثره في صبيحة اليوم الثاني أو في مساء ذلك اليوم، لتفصيل هذه الأخبار.

ويأتي مساء ذلك اليوم فلا ترى في صحف المساء شيئاً ثم ينبلج الليل عن صحف الصباح فإذا بها تكتم أنفاس هذه الأخبار، تعتقلها، تصادرها فلا تجد كلمة واحدة. . . إنه إجماع عجيب على تجهيل هذه الأمة الديمقراطية، وإجماع عجيب على إنكار الوزراء ومسعى الوزراء.ولو وجد هؤلاء الصحافيون مأخذاً يأخذونه، أو تعلّة يتعلّلون بها، لطيرّوا بها في الآفاق، وأفشوها إلى أركان الأرض. والويل لهذه الديمقراطية، من هذه الدكتاتورية الصحافية الطاغية.

وسألت صحافياً، مازحاً وساخراً، عن هذا القرار الإجماعي بحجب أخبار الحركة العربية، فتلكأ في حيرة وارتباك وأراد أن يعتذر فقال:

«إن الرأي العام متخوم بأخبار المسألة اليهودية والمشكلة الفلسطينية، إنّه

متخوم، لقد أصبح مريضاً، لقد أصبح ملولاً، إنه لا يريد أن يسمع، إنه لا يريد أن يقرأ». قلت: «إنّ التخمة والمرض والملل، كل أولئك يزول بطريقة واحدة هي إعطاء أخبار الجانب الآخر، ولكن إذا كان الجمهور قد أصبح مريضاً فلِمَ التمادي في إعطاء الأخبار اليهودية التي تسبب التخمة والمرض والملال. لقد نُشرت الأخبار اليهودية بالأمس وقبله، ونُشرت اليوم وستنشر غداً وبعده. . .» قال: «لا أدري، هذا صحيح، ولكن». . .

وأدار الحديث وجهة أخرى. وقال: «لنتحدث في موضوع آخر»، قلت: «لك ذلك، سأحدثك عن إضرابات هذا الأسبوع الثلاثة»، قال: «نعم»، قلت: «الإضراب الأول قام به عمال المصاعد يطلبون الأجور والامتيازات، والثاني إضراب عمال التلفون يطلبون الأجور والامتيازات»، قال: «والثالث»؟

قلت: «الثالث هو إضراب الصحافيين عن نشر الأخبار العربية»، قال: «أرانا عدنا إلى الموضوع ذاته»؟ قلت: «إنّه جدير وجدير».

قال: «لنترك هذا الموضوع، ولتسمح لي ببعض الأسئلة: أتظن أن عبد الرحمن عزام بك أمين سر الجامعة قادم من لندن إلى واشنطن؟ ومتى تظن ذلك؟ وهل سيبحث المشكلة الفلسطينية؟ وهل لديه وثائق الحديث الذي جرى بين رزوفلت والملك عبد العزيز حين تعهد روزفلت أن لا تتدخّل أمريكا في المسألة الفلسطينية، ذلك الحديث الذي أنكره الرئيس ترومان»؟

قلت: «ليس هذا سؤالاً واحداً، ولكنه (كوكتيل أسئلة) وإنّ عندي كنوزاً من العلم في هذا الموضوع سأ. . .».

وهنا تلهَّف الصحافي متعطشاً وقال: «نعم أرجوك، وما هي».

قلت: «لا، أنا مضرب عن إعطائكم شيئاً من الأخبار، هذا موقف يصح لي أن أثأر فيه لنفسي، وإضراب بإضراب».

وحين أيقن أنني مصمم على هذا الإصرار، ومصرّ على هذا التصميم ودّعني وانصرف، وأغلب ظني أني ثأرت بعض الشيء، لنفسي وأغلب ظني أنه ذهب غضبان آسفاً.

نيويورك، ١٢-١١-١٩٤٥

إلــى المهاجريــــن

قدمت نيويورك صباح هذه اليوم لألقي كلمة إلى إخواننا المهاجرين، بلغة الوطن لا بلغة المهجر، ولم تكن مشاغلي لتسمح لي أن أعدّ هذه الكلمة قبل الآن فعكفت في حجرتي في الأوتيل أكتب هذه الكلمة، ورحت أعصر جوانب نفسي أخرج دفينها وكمينها، كان يخيل إليّ أنني أستمطر السحاب، فإن الحديث للمهاجرين المغتربين زاخر بالشؤون والشجون.

وفي المساء جمعت شتات أوراقي وذهبت إلى دار الإذاعة في بروكلن وكان بصحبتي بعض الأصدقاء من السوريين، فدخلت وسلّمنا، وحين دنا الوقت المضروب تقدمت من جهاز الإذاعة، ولعبت ذكريات الوطن في قلبي وهزَّ الاغتراب عميق حسي ووجداني، فألقيت كلمتي بجناني لا بلساني. وفرغت من الإلقاء فتقدّم إلي مهندس الإذاعة، وهو أمريكي من أصل إيطالي، يوميء هندامه وقوامه إلي أنه فنان، فقال لي:

«أهنئك، أهنئك، إني لا إعرف العربية، ولكني سمعت موسيقى جميلة فيها تلحين وتوقيع»، فأجبته: «تلك هي لغتنا ذات الموسيقى الجميلة، وليس لي في ذلك فضل». وهذه هي الكلمة:

«أيها السادة المهاجرون:

«أنتم سادة، ولا أقولها جرياً على العادة، وقد ألف الخطباء أن يفتحوا حديثهم بقولهم: أيها السادة، ولكني في موقفي هذا يطوف في ذهني عنكم معنى السيادة بأكمله، فأنتم قطعة من السيادة في الأمة العربية، نزحتم إلى هذه البلاد، قافلة بعد قافلة، كرهتم عبودية الظلم، وذل الفقر، وهوان الجهل فالتمستم سيادة الحق، وكرامة اليسر، وعزة المعرفة، فكان لكم ما أردتم. وما كانت الهجرة إلا طريق

أصحاب العزائم، يهاجرون فراراً بدينهم أن يصيبه الأذى، أو هرباً بكرامتهم أن ينالها ضيم، أو نجاه بشرفهم أن يجرحه الظلم والاضطهاد. ولست أجد نداء بليغاً أتوج به حديثي في هذه الليلة إلا أن أناديكم: أيها السادة المهاجرون.

«حملت إليكم رسالة كريمة وها قد حان أداؤها. واؤتمنت أمانة غالية، وها قد آن وفاؤها. ويظل الرسول مُتعَباً حتى يُبلّغ الرسالة، ويبقى الأمين قلقاً إلى أن يؤدي الأمانة. ولقد أجهدت نفسي كيف يكون الأداء؟ وكيف يكون الوفاء؟ هل أزوركم في مدنكم ومنازلكم ومتاجركم؟ وليس في الوقت سعة، وقد تباعدت مهاجركم بين المشرق والغرب وبين الشمال والجنوب. هل أكتب إليكم أفراداً أو جماعات؟ ولكن الكتابة أداة السر الصامت، لا أداة الجهر الداوي. وفي الجهر معنى ليس في السر، ومن هنا كان إلهام شاعرنا القديم حين قال:

ولا تـــســـقـــنـــي ســـراً إذا أمـــكـــن الجـــهـــر

«وهنا أنا أجهر إليكم بالتحية الصادقة، تحية المواطنين إلى المهاجرين، إلى الإخوان النازحين المغتربين. لقد بعدتم عن الوطن الأول وتقادم العهد بينكم وبين الأهل والصحب، ولكن التحية التي أحملها إليكم تفيض بالحياة وما يزيدها البعد إلا قرباً، وعطفاً وحباً».

«وقد أودعت هذه التحية قلبي، وما هي من قلبي وحدي، ولكنها تحية خفقت بها جميع القلوب، ونبضت بها جميع الأفئدة، من شواطئ الأطلنطي إلى الخليج. وما حملتها من إقليم بمفرده، أو من مِلّة في مسجدها، أو طائفة في كنيستها ولكني حملتها من العرب في جميع أقطارهم وأمصارهم ملء قلوبهم وأبصارهم.

تحية من الصحراء ومن الفيحاء والشهباء، من لبنان وبغداد، من الأردن ووادي النيل، تحية أَوْدعَتْ فيها نسمات لبنان كل الفتنة والجمال، خَطَرت فوق غوطة الشام فتعلّق بها أريج الشام، عبرت وادي الرافدين فنفحها لطف الظلال بين النخيل والسواد، مالت في ضفاف الأردن من مغربه ومشرقه فحملت قُدْس الوحي والإلهام، انسابت بين أحضان الصحراء فبعثت فيها سكينة الصحراء وهيبة الصحراء، هبطت مصر ففاضت عليها الأعطاف كما يفيض النيل على مصر بالأعطاف، ثم مضت بالشمال الأفريقي في أرجائه وأقطاره، تحمل فيض الشعور والإخاء، فهذه تحيتهم جيمعاً إليكم جيمعاً.

«وما حملتُ إليكم تحية وكفى، ولكنها تحية متوّجة بالإعجاب، فلقد نزلتم هذا الوطن الكريم بعد أن قطعتم مخاوف البحر، فخرجتم من دياركم وعقاركم وخلّفتم وراءكم أعزاءكم وأحباءكم، ولم يكن بين أيديكم إلا الأمل والعزم، فدانت لكم

اللغة وانقادت الخيرات، ونبغ فيكم العلماء، وأَنشدَ منكم الشعراء، وأصبحت لكم صحافة وصناعة وتجارة. وبعثتم برجالكم وبشبابكم قادة وجنوداً، يحلّقون في السماء، يمتطون القاذفات والنافثات، يعسكرون فوق الأرض وتحت الأرض، فوق الماء وتحت الماء، سلاحهم وعتادهم الحديد والنار.

«وفي كل ذلك رفعتم عن وطنكم الأول، وعن شعبكم الأول، تهمة العجز وعدم الصلاح. فيكم أثبتت الأمة قدرتها في العلم والصناعة والتجارة والحرب وقد كانت تتهم الأمة العربية إلى عهد قريب أنها لا تحسن العلم، ولا تجيد الصناعة ولا تتقن التجارة، ولا تحذق الحرب. ولو أتيح لوطنكم الأول ولشعبكم الأول مثل ما أتيح لكم: حكم مستقل، صالح فاضل عادل، لتحركت المواهب من مكامنها، ولانطلقت العزائم من عقالها، كما تنطلق قوة (الأتوم) قوة الذرة، كانت في الوجود كامنة فحركتها يد العلم، أطلقتها إلى أهدافها في جميع الأبعاد والآفاق.

«ولست أيها الإخوان ممن يقول بتفاضل العروق والأجناس، فإن لكل أمة معايبها ومحامدها، ولكن الثابت أن في الأمة العربية فيضاً من القدرة على البقاء، وطاقة عجيبة في مغالبة أسباب الفناء.فلقد اجتاحها اليونان والرومان والفرس والصليبيون والأتراك ولكنها ظلت محتفظة ببقائها ولغتها وشخصيتها. ولقد تنازعتها عوامل الانحلال والضعف قريباً من ألف عام وصمدت، وفنيت أخواتها وبقيت، وغُلبت على أمرها وما سُحقت، وهُزمت وما هُضمت ولكن ذاب في ذاتها من بقي في أرضها من الغزاة والفاتحين، ذابوا بدمائهم ولغتهم وحضارتهم وتقاليدهم، فكان عليهم الفناء وكان لنا البقاء.

«وحين انطلقت الأمة العربية من جزيرتها قبل أربعة عشر قرناً، رأت حكمة الفرس وعلم الرومان، وفلسفة الهند، ومنطق اليونان، وفنون البابليين، وحضارة الأشوريين، ومدنّية الفراعنة. وقفتْ أمام ذلك فأبتْ أن تكون ناقلة مترجمة فعبأت العقول والألسنة والأقلام، ثم هذَّبت وأضافت، وحذفت وصهرت، وخلقت وأبدعت في كل ما فعلت، وحملت ذلك كله حياً نامياً مشرقاً إلى آفاق الأرض، تبذله حباً في بذْله ونشْره، فكان قاعدة هذه الحضارة التي تنعم بها دنيا اليوم ودنيا الغد، لا فرق بين العالم القديم الذي نعيش فيه، والعالم الجديد الذي تعيشون فيه.

«وإنّ أمة هذا شأنها في الحضارة، وهذا مكانها في التاريخ، أمة تحضن البحر الأبيض المتوسط بذراعيها، تلتقي عند ثغورها القارات الثلاث آسيا وأوروبا وإفريقيا، وتنفذ إلى شواطئها أمريكا من خلال مضيق طارقها، أمة تنوّعت أقاليمها، بين السهول والجبال والصحراء والجفاف والرطوبة، والأنجاد والأغوار، ينساب منها

الماء البارد الصافي والماء الساخن الشافي، وفي أقطارها من الخيرات والمعادن ما عرفه الإنسان في يومه، وما سيعرفه في غده، أمة هذا أمرها وخبرها ليس لها أن تقنع بالهدوء فكانت الحركة، ولا بالنوم فكانت اليقظة، ولا بالضعف فكانت النهضة. وها هي ترغب أن تقتعد مكانها في الأسرة الإنسانية، تُعِزُّ الأمن وتُكرم السلم، ولكن وطنها عليها أعزُ وأكرم.

«وقد كانت الأمة العربية إلى عهد لا ترفع رأس العربي العارف بقدْره الواعي لتاريخه، فالمهاجرون القدماء منكم قد تركوا وراءهم أمتهم على غير قليل من الجهل والتفرقة والانحطاط، وما كان ذلك إلا عرضاً طارئاً أوجده الحكم الأجنبي وسقوط الحكم العربي، ولكن ذلك العهد قد زال ولن يعود وقد انتظمت الدول العربية في الجامعة العربية لتؤاخي شؤونها ومصالحها، فإذا سألتم أيها الإخوان عن أصولكم الأولى، ومواطنكم الأولى، فإن الشجرة المباركة قد أخذت ترسل أغصانها فَتيَّة نضرة قوية، وإنّ مواطنكم قد أصبحت معقد الأبصار والأسماع ولكم أن تفاخروا ما وسعت الأفواه والقلوب.

«وإنكم أيها الإخوان إن عرفتم بأصولكم الأولى ازددتم ولاء وارتباطاً بأمريكا، بهذا الوطن الديمقراطي الكبير. فإن العربي مفطور على الولاء للخير وعرفان الجميل وحفظ العهد، بل ستزدادون عزماً وقوة في تمكين الروابط بين هذين الشعبين العظيمين، وكنتم خير وسيلة لخير هدف، تبادل بالمصلحة وتعاطف بالمودة على يقين من الاحترام والثقة والحق.

«وفي رأس هذه الشؤون العربية مسألة فلسطين، وقد أصبحت الشغل الشاغل للشعب العربي بأجمعه، وأمامَه ملوكُه وأمراؤه ورؤساؤه، وقد تعاهدوا فيما بينهم أن يصونوا عروبة فلسطين، فهي في البحر الأبيض التوسط ثغر العراق وسوريا والأردن، وهي ميْسرة لبنان وميْمنة مصر، وهي نافذة الجزيرة العربية. وإلى جانب ذلك كله فهي قلب الشرق الأدنى ومفتاحه، فلن تفرّط الأمة العربية في هذه البقعة الغالية: ذلك عهد الأمة العربية وميثاقها لا لَبس فيه ولا إبهام.

«أما إخوانكم عرب فلسطين فإنهم ما برحوا منذ خمسة وعشرين عاماً يدافعون عنها ما وسعهم الدفاع والكفاح، فأرخصوا في سبيلها المُهج والأرواح. وما يزالون، وسيظلون، حتى تبلغ أكرم أمانيها في تحقيق سيادتها الوطنية واستقلالها التام ضمن أسرة الجامعة العربية. وهذه تحية منهم جميعاً إليكم جميعاً».

واشنطن، ١٤-١٠-١٩٤٥

الهنـــــدي المهاجـــــــر

لم أشكّ يوماً في جوهر الأمة العربية، ولا في أسرار قوتها وبسالتها، رغم ما أرى فيها من أعراض الوهن يبدو حيناً بعد حين. ولم تكن الأيام إلا لتزيد هذا اليقين رسوخاً، ولم تكن الحوادث إلا لتقوم دليلاً يتبع الدليل لإبراز هذه الحقيقة، ساطعة وسافرة.ولقد كان لي في هذا الصباح دليل جديد، وكلما امتد بي العمر سأرى كل يوم دليلاً جديداً.

زارني صبيحة هذا اليوم أخ عربي، أو كما يقولون هنا في المهجر، سوري فتحدثنا عن شؤون القومية، آمالنا وآلامنا. وكان هذا الرجل تاجراً ناجحاً ولكنه يرتقب العودة إلى مسقط رأسه إلى حيث يحمل أسرته وأولاده لينعم بوطنه وأهله. ولما نهض يودعني استحلفني بمحرجات الأيمان أن لا أتردد في طلب معونته بأية خدمة للمكتب، فقلت: «إنّ المكتب لا يريد إلا نصرتكم الأدبية»، فقال: «ستجد فينا، جميع معاشر المهاجرين، كل نصرة ومعونة». قلت: «لا أكتفي بكم». قال: «وماذا؟» قلت: «أريد نصرة أولادكم». قال: «بماذا». قلت: «أن يرثوا لغتكم، فهي الرباط المتين والسبيل المكين»، قال: «لقد جعلت في صك تأميني مبلغاً طيباً من المال، رصدته ليتعلم أولادي اللغة العربية، وفي الجامعات السورية، ترغيباً لأولادي بتعليمهم لغة الآباء، والأجداد، وأن يتعلموا في وطن الآباء والأجداد». فأدهشني ومضى.

وفي مساء هذا اليوم، زارني في مكتبي هندي مسلم فارع الطول، عريض المنكبين، تزّينه السمرة الهندية. قضى في أمريكا عشرين عاماً وهو يعمل في التجارة، يقول بفكرة إقامة دولة إسلامية مستقلة. لقد عرف بأخبار مكتبنا في صحيفة أمريكية أفلتت من عقال الصهيونية، فجاء إلينا بعرض جهوده وخدماته.

لقد تحدث عن الصهيونية وتاريخها، وآراء زعمائها، وطرائق دعايتها، وتحدث عن قوتها في أمريكا وسيطرتها. تحدث حديث العارف الخبير البصير، فقد رافق أخبار هذه الحركة واقتنى كتبها ورسائلها، ومقالات زعمائها. ولعل عنده من الكتب والرسائل بشأنها ما لم يجتمع لعربي واحد، أو لجماعة عربية. وقد انطلق يبدي رأيه في أحسن الوسائل لمكافحتها، تكلم عن عقل وحصافة، وتكلم بإيمان وحرارة، ولو أن سامعاً قد سمعه لأيقن أنه عربي فلسطيني وقف مواهبه على المعرفة والدرس. وإن المرء ليتساءل بين يديْ هذا الهندي الذي هاجر من وطنه طلباً للرزق، كيف يجد لنفسه من الوقت والمال ما هيأ له الدرس وثمن الدرس.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فلقد كتب الرجل مدافعاً عن القضية العربية، وقد ردت له الصحف بعض مقالاته، فعمل على طبعها كنشرة، ووزعها ما وسع له ماله ووقته أن يوزع.

دهشت أن أرى في هذه القارة العاجة بالخلائق، هندياً نازحاً، مهاجراً، مكتسباً، يأبي عليه دينه إلا أن ينصر أولى القبلتين وثالث الحرمين، بحرارة ومثابرة وإيمان.

وهذا الهندي سجل نفسه «كما يقضي القانون» في وزارة العدل ليستطيع طبع منشوراته وتوزيعها. ولقد كتب إلى جانب هذه المنشورات «كما يقضي القانون» أنه «مسجل لدى وزارة العدل، يعمل بالأصالة عن نفسه، ولصالح العالم الإسلامي»، فكادت تنفجر نفسي عن صيحة داوية تبلغ مسامع المتخاذلين والمتراخين والمتواكلين في بلاد العرب، ليروا هذا الكنز الإسلامي لبس الحلة الهندية.

ويا لضيعة هذه الروابط الإسلامية الآخذة بالانحلال والانفصام جيلاً بعد جيل.

واشنطن، ٢٠-١٠-١٩٤٥

المــروءة تعبــر الأطلنطــي

العمل مرهق ومضن، يتواصل ويتلاحق، تعترضه الصعوبات هنا وهناك، فيثور الحس ويكاد يثب المرء على أطراف أعصابه، أو على أعصاب أطرافه. غير أن الحوادث كثيراً ما تحمل الوحي والإلهام، وكثيراً ما تحمل الأمل والعزم. وهذا ما وقع لي ظهر هذا اليوم.

دخل عليّ مُسلِّماً باللغة العربية، وباللهجة الشامية، وكان رجلاً سموح القسمات، فيه دماثة الشام، وفيه رقة الحاشية ولطف الحديث. وهما الخِلتَّان البارزتان في عاصمة معاوية. فنهضت إليه أُحيِّيه، وأخذت بيده ليجلس قريباً مني. وكنت أشعر أنني اقترب من قطعة حية من الوطن. وبدأت أستمع إلى حديثه وإلى هجرته، وإلى عمله، ثم راح يسألني عن البلاد العربية وشؤونها. فشرعت أحدثه عن الشؤون العربية العامة ولكني جعلت أكبرَ همي أن أفيض في الحديث عن سوريا وكفاحها ومشاكلها. فلا بد لي أن أطفئ أشواق الرجل وحنينه إلى وطنه. وقديماً حدَّث أصيل الغفاري عائشة (رضي الله عنها) وهي مهاجرة في المدينة، فهاج حديثه أشجان الرسول العظيم فبكى وتذكر.

ومضيت في حديثي والرجل غارق في الإنصات كأنما أصبحتْ حواسه كلها سمعاً وآذاناً. ثم أخذ يبادلني الحديث، يذكر أيامه في قريته ويذكر أهله وصحبه. وكأننا لم نعد في واشنطن، أو كأنما اندثرت هيبة المكان والزمان، وتراءى لنا أننا نطوف شوارع دمشق بين الأنهار والأشجار.

نهض يودعني فإذا يد راجفة تطوي في راحته أوراق «الدولارات» يمدها إليّ وهو يعتذر أنَّ أحواله المالية ليست كما يحب ويرضى، وأنّه يقدم مبلغاً لا يليق بالمكتب، ولكنه لا يستطيع الإفلات من واجبه، وألقى بثلاثين دولاراً على الطاولة.

بصرت بالرجل وقد طفح وجهه بدمه، وتهدج صوته، وسَرَت في أعطافه نفحة من نفحات الإيمان، وكدت أتلعثم بين يدي هذه العاطفة الجارفة، بين يدي هذا الشامي وفد علينا من المهجر، يقدّم لنا المال متطوعاً غير مطالب ولا مسؤول.

قلت له: «ليس لنا بالمال حاجه أيها الأخ، إخوانك في الشام قد تفضلوا علينا بما يقوم بأمرنا، كما تفضل أهلك وإخوانك في سائر بلاد العرب، ونحن لا نريد منكم إلا عطفكم ومودتكم». ورأيت الرجل تكاد تذهب نفسه حسرات وحسرات، حين كنت أعتذر إليه، ورأيته قد صغر أمام نفسه، رأيته يظن المبلغ قليلاً، بل لقد حسب أنني رأيت فيه رجلاً متوسط الحال، وأنه أوْلى بالمبلغ. فكان لا بُدّ لي أن أرُدَّ إليه اعتزازه، وكان لا بد لي أن أقرّ حميَّته في مكانها، وأحمله على الطمأنينة، فقلت: «وما رأيك في أن أقُدم هذا المبلغ باسمك إلى معهد الشؤون العربية الأمريكية في نيويورك وهو يقوم بمثل أعمالنا وواجبنا»، فعادت إليه فرحته، ومضى مجبور الخاطر.

وكنت في بعض عملي في نيويورك، فزرت رجال المعهد «للشؤون العربية الأمريكية» وقصصت عليهم ما جرى وسلمتهم المبلغ. ولقد كان عظيماً حقاً حين فتحنا دفاتر المعهد فإذا بالرجل متبرع مزمن، يقدم المال من غير طلب أو سؤال. ومضى يومي بأجمعه والبهجة تملأ أرجاء نفسي، تطيف بها الرؤى الجميلة، والصور الماجدة.

ولهذا الحادث مثيل في ذكرياتي لا يقل عنه مروءة ولا حَميميَّة، ولا أفتر أذكره كلما ساقني إليه الحديث، وكان ذلك في شهر حزيران/ يونيو من سنة ١٩٣٦ حين كنت مبعداً إلى قرية سمخ لمناسبة الإضراب العام الذي أعلنه عرب فلسطين، واستمر قريباً من ستة أشهر، ولعله جاوز أي إضراب في العالم في شعوره ومدته.

في ذلك الشهر كنت في غرفتي، أستغفر الله في كوخي، الذي استأجرته في سمخ، وكان على قارعة الطريق، وقد قرع سمعي ضحى ذلك اليوم وقع حوافر الخيل ينزل عنها بضعة من الفلاحين، ويربطونها إلى حديد الشباك، ثم أخذوا يدخلون عليّ ويسلمون.

جلست وإياهم على البسط الممدودة في الأرض، وعليها بعض الفرش والوسائد، وأخذنا نتحدث عن حركتنا الوطنية والشؤون الجارية في تلك الأيام، ثم أخذوا يهمسون إلى بعضهم ويشيرون بالانصراف، وهم على تردد وحيرة، فتقدم أحدهم، وكان إمام قرية العبيدية، تغمده الله برحمته، ومدّ يده تحت وسادتي ووضع

صُرّة، فأدركت أنها مبلغ من المال، ثم نهض وهو يقول: «لا تؤاخذنا نحن نعرف أنك ابن نعمة، وابن خير، وهذا مبلغ بسيط، إنّ فلاحتنا لم تكن ناجحة، والعام عام إضراب، لعل زرعنا يكون حسناً هذا الموسم، فنقدم لك كل حاجتك، أنت الآن مضرب عن العمل ولا شك أنك في حاجة».

ولقد سمعت في حياتي كلاماً بليغاً، ولكني لم أسمع أبْلغ من هذا الكلام، بل لقد قرأت كلاماً بليغاً ولكن قليلاً منه كان أبلغ من هذا الكلام، فقلت لهم: «أيها الإخوان إنّ المبلغ الذي تصفونه قليلاً هو أكبر مبلغ وصل إلى يدي، فهو على قلته يحتوي كنوزاً يعسر على الأرقام أن تحصيها، ولكني لست في حاجة إليه، وأعدكم أن أطلب منكم إذا التمست الحاجة».

لقد وقع تصرفي أليماً عند أحدهم فقال: «نحن فقراء، ولعل ذلك ما يحملك على رفض المبلغ»، قلت: «لا». وأقسمت. وأذكرني حرج الموقف أن في البلدة رجلاً مبعداً مثلي من قرية كفر كنا، فدعوته إليهم، وحولت المبلغ إليه وكانت به حاجة فأخذه، وما رأى في ذلك غضاضة فالعربي يجير ويستجير ويقولون في العامية القروية إن فلاناً يعيش كالرماح على أكتاف الرجال.

فسُررت وسُرّ رفيقي في الإبعاد، وسُرّ رجال القرية، وتعاقدت بيني وبينهم أواصر المودة، فكانوا لا يتخلفون عن زيارتي بعد صلاتهم كل جمعة، أتباسط وإياهم الحديث. فأعظمت هذه المروءة، ولم أكن أفلت فرصة إلا انتهزتها في تذكارها، حتى رأيتها اليوم في الرجل الشامي.

المروءة تعبر الأطلنطي إلى دنيا الدولار والأعمال، ولكنها بقيت في جوهرها وصفائها وبهائها، فأكرم بالأمة العربية، وأعظم بطيب عنصرها.

نيويورك، ١٢-١١-١٩٤٥

أنـــا والقسيـــس وراء المذيـــاع

قدمت اليوم إلى نيويورك تلبية لدعوة دار الإذاعة الأمريكية، للاشتراك في حوار مع القس وندل فليبس حول القضية الفلسطينية. وكان موعد هذا الحوار الساعة الواحدة والنصف من ظهر هذا اليوم، وكانت قد وصلتني الدعوة قبل ثلاثة أيام، ورهبت الموقف وترددت بين القبول والرفض، فهذا أول عهدي بالحديث من وراء المذياع بالعربية والإنكليزية على السواء، وكنت آنس في نفسي القدرة على الخطابة في بلادي، يشجعني طمعي في إحسان بني وطني، واغتفارهم سقطاتي وعثراتي، ولكني في موقفي هنا في نيويورك بعيد عن العاذرين، قريب إلى العاذلين، ودار الإذاعة هذه تتصل بها مايتان وسبعون محطة ينصت إليها ألوف من ألوف الناس، ولكني لم أَدرِ كيف أجبت بالقبول. إنه الحياء، بل لعله الإباء، حملني على القبول خشية عار الرفض، والانهزام أمام التحدي.

ورحت في اليومين الماضيين ألتهم كل الكتب والمراجع وما أكثر ما كُتب في القضية الفلسطينية، وعاودت في ذاكرتي الأرقام والوقائع، متسلسلة مرتبطة، فلا بد أن يسمع إليَّ قوم مأخوذون بالأرقام والوقائع، وكنت أخشى أن ينزل عليّ سؤال أثناء الحوار فيحتاج الجواب عليه إلى الاستظهار والحفظ.

ووصلت دار الإذاعة قبل الوقت المعين، لأتعرف كيف تكون آلة المذياع، وكيف يكون الصوت إلى جانب المذياع، قريباً أم بعيداً، مرتفعاً أم خافضاً، وسألت عن الصغيرة والكبيرة حتى لا أقع في أمر هجين أثناء الإذاعة، ولم يفتني أن أتظاهر بمعرفة بعض الأشياء، والسؤال عن البعض الآخر، وفيما أنا كذلك إذ دخل علينا:

القس المحاور، فكان تعارف وكان سلام، وجلس مجلس الواثق المطمئن، فلعله زاول الإذاعة عشرات المرات. وكان إلى جانبه شاب يرافقه قيل لي إنه موظف الجمعية الصهيونية، جاء يحمل للقس بعض أوراقه وكتبه.

وتقدم الفيصل وأجلسنا إلى طاولة المذياع، وكدت أطلب إلى الفيصل أن أتكلم واقفاً فهذا أول عهدي بالكلام جالساً، فالوقوف ينبّه الفكر وقد ألفت الوقوف في المحاكم طويلاً كما ألفته على المنبر، فضاق صدري أن أرى نفسي حبيسة، وتراءى لي أن أفكاري قد غاضت في منابعها، وأنّي مخفق ذلك اليوم لا محالة. ولقد زاد من رهبة الموقف أن فشلي لن يكون فشلي وحدي، وإنما سيكون فشلاً للمهمة التي أنا قادم من أجلها. هنالك ضاقت علي الدنيا بما رحبت، وزلزل فؤادي، ولكن ما أعظم الخيال مسعفاً، وما أعظمه منجداً.

وفي لمعة من لمعات الذهن تذكرت بلادي وما ينتظرها من بلاء الهجرة والدولة اليهودية وتذكرت كفاح المكافحين ونضال المناضلين، ورجال القرى يبيعون نفوسهم بيع السماح من غير هيبة ولا رهبة. تذكرت أن كل خفقة من نفسي، إلى الوطن مرجعها ومردها، فوثبت جميع جوارحي وتحدد ذهني وأصبح عقلي يطاوعني بسرعة الضياء، ورقة الماء، ولطف الهواء. فبدأت أعرض قضيتي بإيجاز وسهولة، ومضى الوقت ولا أدري كيف مضى، ولكنني شعرت أني فرغت مما رغبت في قوله، وخطرلي أني سمعت نفسي، وامتدحت نفسي.

وأخذ القس يعرض قضيته وجاء وقت السؤال والنقاش. ولم يكن بقي من الوقت إلا عشر دقائق، ولا أدري هل أستمر فيها ناجحاً أو أتعثر بأذيال الخيبة، وما أمرَّ الخيبة لأمرئ، تستمع إليه أمة عظيمة وبين شفتيه قضية كريمة.

ودار الحوار كما يدور الصراع، كرّ وفرّ، صولة وجولة، مفاجأة ومباغتة حتى أعلن الفيصل انتهاء الوقت. فشعرت أنني نزلت عن صهوة جواد أشعث همّه أن يصرع الفارس قبل أن يسبق الخيل. ولقد رضيت عن نفسي كما رضي عني السامعون من أصدقائي، من الذين أعتمد على إنصافهم ورأيهم.

وذهبت إلى المدير في غرفته أشكره على هذه الفرصة، مشيراً إلى قصر الوقت وسعة الموضوع. ثم جاء القسيس يريد أن يتمّ ما بدأناه، ولكنه كان يتكلم من غير إيمان. وإن للمأجور وجهاً يفضح صاحبه، فقد كان خافت النبرة، باهت النظر، مضطرب الحجة وكاد المريب أن يقول خذوني.

وقد «انكشف» القسيس في هذا الصراع في جولتين حاميتين أصيب خلالهما في المقاتل:

ففي الأولى ذكر القَسّ الروابط التاريخية القديمة التي تربط اليهود بفلسطين فأجبت: » هذه هي النظرية الفاشيستية في ادّعاء موسوليني لشواطئ البحر المتوسط بسبب امتلاك الرومان لها قرابة ثمانية قرون أي ضعف المدة التي دامت فيها الغزوة اليهودية لفلسطين».

وفي الثانية قال القس: «ولكن اليهود جلبوا الخير للبلاد وعملوا على تقدمها»!! فأجبت: «أما هذه النظرية فنازية لأن النازية أرادت أن تفرض نظاماً جديداً يجلب الخير للعالم ويساعد على تقدمه، ولا يَنسَ القسيس قول السيد المسيح: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. . . »

وهكذا سقط القسيس غافلاً عن أقوال السيد المسيح، فاشيستياً نازياً!! وهذه صوره تثير الأمريكي وتحركه وتفجر غضبه ومقته!!

واشنطن، ١٤-١١-١٩٤٥

عيـــد الأضـــحى

عدت اليوم من بروكلن وقد أديت صلاة عيد الأضحى في المسجد الذي ابتاعه المسلمون، وكان كنيساً يهودياً، وجعلوه مسجداً جامعاً تؤدى فيه الشعائر الإسلامية ويذكر فيه اسم الله، وكان لا يذكر فيه إلا إله إسرائيل، فأصبح الآن بيتاً لله رب العالمين، رب المشارق والمغارب، يصلي على نبيّه المرسل للناس كافة، لا تفاضل بينهم إلا بالعاقبة والتقوى.

أما الذين ابتاعوا هذا المكان ووهبوه لله، ووقفوه على عبادته، فلم يكونوا عرباً أخذتهم بلاغة القرآن وفصاحة النبي العربي، ولكنهم طائفة الروس عمر قلوبهم الإيمان، فهاجروا إلى أمريكا وحملوا معهم دينهم وتقواهم، ولم يصطبروا أن لا يكون لهم مسجد جامع، فاستجابوا إلى نوازع التقوى في نفوسهم، وكان لهم ما أرادوا، زيّنوا المكان بصور الكعبة الشريفة، والمساجد الإسلامية في الآستانة. وجعلوا له محراباً ومنبراً، وفرشوا أرضه بما يقوم مقام السجاد.

وفي ضحى هذا اليوم ركبت مع عدد من الأصدقاء، القطار الذي يسير في جوف الأرض، من نيويورك إلى بروكلن حتى بلغنا حيّ المسجد ولم أكن في حاجة أن يرشدني أحد إلى مكانه. لقد دلني إليه سمعي قبل بصري، ذلك أني كنت أسير إلى ناحية الجلجلة التي تدوي: الله أكبر الله أكبر ولله الحمد. فرجعت في نفسي راجعة الذكرى، وقلت هل عبر الإسلام المحيط الأطلنطي، وركز منارته في القارة الجديدة؟ الله أكبر ولله الحمد. ورأيت في هذا التكبير والحمد معنى لم يكن قد خطر لي على بال على كثرة ما جرى به لساني. وحين أقبلت رأيت المنارة تعلو دار المسجد، وهي تطل على البحر تتطلع إلى الجزيرة العربية، التي تفجّر من حجازها النور المحمدي.

دخلت المسجد فرأيت الشيوخ والرجال والصبيان، بعضهم راكع في أرضه وبعضهم جالس على كراسي أثبتت في جدار المسجد، ورأيت النساء يدخلن من باب آخر إلى الركن الخلفي من المسجد ليكنَّ وراء الرجال. وكان بعض المصلين يلبس البرانيط، وبعضهم حاسر الرأس، وآخرون يلبسون الطرابيش التركية القديمة. وكان في المصلين تتر الروس، وأمريكان وسوريون وأتراك وعراقيون، ألسنة مختلفة وألوان متنوعة وعروق متباينة، جمعهم دين واحد في مسجد واحد.

جلست في المسجد ولكن نفسي وثبت، فطافت وهامت، في المشرق والمغرب، فرأيتني أذكر صلاتي في المسجد الأقصى، وفي المسجد الأزهر وفي المسجد الأموي وفي مساجد أخرى عامرة بالقدسية والجلال، ولكني في مسجدي هذا أراني أمام وحي لا عهد لي به، وأمام رهبة لم تكن قد اقتحمت نفسي في ما مضى.

هؤلاء الأحداث الصغار والصغيرات، بوجوههم الفاتنة، وشعورهم المرسلة وملابسهم الزاهية، يتكلمون الإنكليزية، موزعون بين صفوف المصلين هنا وهناك. يسجدون ولا يعقلون، ويكبّرون ولا يفهمون، إيمان على السليقة ودين على الفطرة.

وفوق هذا الجيل، الشبان والشابات، بأحسن هندام وقوام، يرددون مع آبائهم وأمهاتهم الحمد والتكبير، ويأخذون بالركوع والسجود، وأكبر ظني أنهم لا يفهمون ما يصنعون.

وفوق هؤلاء جيمعاً، المسلون المهاجرون، الذين هاجروا من روسيا فراراً بدينهم فأخذوا بحظ قليل من هذا الدين يوم نشأوا في بيوتهم الإسلامية وورثوا الصلاح والتقوى، وأكبر ظني أنهم لو عرفوا كنوز هذا الدين لكانوا في طائفة الأولياء والصالحين.

فرغنا من الصلاة وأَمَّنا فيها شيخ من التتر، فرتّل القرآن ترتيلاً أعجمياً فسمعت القرآن غير القرآن، وكان نصيب الخطبة كنصيب القرآن، فقد قرأ الإمام الخطبة المدّونة في آخر المصاحف العثمانية، دعا بطول العمر والبقاء إلى السلطان خان بن خان عبد الحميد الثاني، وشاء ربك أن يكون عبد الحميد عظاماً نخرة في تركيا، وسلطاناً حياً في بروكلن، يُدعى له على المنابر، بالعمر المديد والعهد السعيد.

ولم أكن لأورد هذه الشؤون، وغيرها كثير أُمسك عن إيرادها، لولا أنه خطر لي أن ملايين من المسلمين الأعاجم قد صاروا أو سيصيرون إلى هذا الإسلام المسكين، ما

بقي شيوخنا وعلماؤنا مسترسلين في الجدل حول الماء متى يكون جارياً ومتى يكون آسناً، ومتى يصلح للوضوء ومتى لا يصلح.

ولاحت لي الفرصة فوقفت بعد الفراغ من الصلاة وخطبت فيهم باللغة الإنكليزية، مشيراً إلى مبادئ الدين الإسلامي، فرأيت أني أكلمهم في أمر جديد، ورأوا أن هذا الإسلام الذي أحدثهم عنه دين عظيم، وأنهم لا حرج عليهم أن يفاخروا بدينهم وأن يعلنوا إسلامهم بين الناس، لا يحنون رؤوسهم ولا يستخفون. ولم أكد أفرغ من كلمتي هذه حتى تقدم مني المصلّون يشكرون ويهنئون بالعيد. وخرجت السيدات من وراء الحاجز واختلطن بالرجال، يباركن ويعايدن، وجاءت بعضهن بالفاكهة والحلوى يطفْن على المصلين، ويرسلن عبارات المعايدة والتهنئة بعذوبة فرحة ولطافة بريئة دمثة.

وحين هممت بالخروج لقيت صبياً في الثانية عشرة من عمره يحدق ببصره إليّ، وقد ارتسم الفرح في وجهه، ذلك أنه استمع إلى مسلم عارف بعض المعرفة بالإسلام، فقلت له بالإنكليزية: «هل أنت مسلم؟» قال: «لا، لست مسلماً». قلت: «ما هو دينك، أي شيء أنت؟» قال: «أنا محمدي، أنا لست مسلماً». . .

وهكذا كان عيدي هذا العام: بهجة لم يخفق بمثلها قلبي، وحسرة لم يفجع بمثلها فؤادي.

اللهم رحماك بالقلب حين تصطرع في جنباته نوازع البهجة والحسرة، جنباً إلى جنب، فما يدري أي النوازع يلبّي، وإلى أيها يستجيب.

نيويورك، ٢٩-١١-١٩٤٥

إلـــى الوطـــن

أصبحت اليوم أعد العدة للسفر، وما أشبه الليلة بالبارحة. فمنذ أربعة أشهر خلت كنت أزمّ حقائبي، وها أنا أزمّها مرة أخرى، وكنت يومئذ أستقبل هذه الدنيا الجديدة، ولكني اليوم أعود إلى قبلتي الأولى، وهكذا الدنيا، مقام وارتحال، وقرار وانتقال.

ولقد عبرت هذه الشهور الأربعة من حياتي ساعة ساعة ويوماً يوماً. ما مر جزء منها بغفلة، فلقد كانت حافلة بالعمل والحياة، ورأيتها طويلة أحصيت فيها أجزاءَها، ولكني أستعرضها اليوم فأراها طرفاً من طَرفة عين أو برهة متضائلة من برهة متضائلة. وإنّ عين الفكر لقادرة أن تضم أطراف الزمان، وحوافل الأيام من أقدم العهود، في خاطرة فكر، أو خفقة جنان، أو طرفة عين.

وغادرت الأوتيل في طريقي إلى المرفإ في بروكلن لأستقل الباخرة المسافرة إلى بور سعيد، وكان الثلج يتساقط كالعهن المنفوش يهوي من السماء في أطباق الهواء متهادياً مترنحاً، وكان الطقس بارداً جداً حتى لقد خُيل إلي أن الثلج المتهادي من السماء قد صعقه البرد فنزل راجفاً مرتعشاً، يلتمس الدفء على الأرض حتى إذا ما وجد قراره، أخذ يصعد أنفاسه وجرى ماء سلسبيلاً.

وراعني مشهد الثلج في أبهى صوره وأجمل تقاطيعه. فهنا أكوام تكدست على غير هيئة ونظام، وهناك أكداس منه بدت رصيفاً متصلاً بين الطرقات ومقاطع الطرقات. واكتست الأشجار، أغصانها وسوقها، بغلالات من الجليد، فإذا بالجليد نابتاً من الأرض بل ساقطاً من السماء. ولم تنج الناطحات في رؤوسها وشرفاتها وجدرانها من هذا الكساء الأبيض يلف المدينة لفاً رقيقاً. ويبعث فيها هذا المنظر

البهيج، فالطرق بيضاء، والأسطحة بيضاء، والعمارات بيضاء، والمصانع بيضاء، والمداخن. . . بيضاء.

وفي هذا اليوم انقلبت المدينة القاتمة بمصانعها ودخانها وقتامها وضبابها، ناصعة الرقعة وفي يقيني أن هذه المدينة الجبارة التي فتنتها الآلة المنتجة المبدعة، هذه المدينة التي تحيا لتصنع وتصنع لتحيا، هذه المدينة التي استهوت قدرة الإنسان في الاختراع لا بد لها بعض أيام من السنة أن يرسل إليها ربّنا بعض آياته وبيّناته لتظل واعية لعجز الإنسان، وقدرة الله.

ودخلت الباخرة إلى حجرتي ورفيقي فيها الوزير السوري ناظم بك القدسي، وكان جارنا في الحجرة الأستاذ وهيب بك دوس عضو مجلس الشيوخ المصري. فأخذنا نسارع لإصلاح شؤوننا وكل منا طامع في أن يجلس إلى صاحبه، ويسامره ويؤانسه وهو حامد لهذه السفرة البحرية. ولم يمض طويل الوقت حتى كنا ثلاثتنا نجلس في زاوية من الباخرة نتسامر ما وسع السمر، لا يُعكّر صفوه موعد مضروب، فالزمن هنا رهين برغبتنا ومشيئتنا، نصرفه كيف نشاء.

وأخذ دوس بك بإلقائه الساحر يروي شعر شوقي، يرويه مرتّلاً مُرنّماً يستعيد نغمه ويعيد، فكان راوياً وسامعاً، ومعيداً ومستعيداً. وراح ناظم بك يقصّ أيام الجهاد الوطني في سوريا وذكرياته السالفة في أوروبا أيام الدراسة ومضيت في نصيبي المتواضع أستمع إلى هذين الصديقين الكريمين وأشاركهما شجون الحديث، حيّاً بالمرح وحافلاً بالمطارحات والدعابات.

ولم يكن في الزمن ما ينبئ بمضيّه، بل لم يكن ما ينبئنا بأفول النهار وإقبال الليل، بل لم يكن ما ينبئ أي هزيع من الليل بلغنا، فلقد كان الحديث رخيَّاً ونديّاً من القلوب وإليها، فنسينا مطالب الجسد وحاجة الجسد، ولولا أن النوم فيه هدأة للروح والجسم معاً، لاتصل منا الليل بالنهار، ومضينا في الحديث نضرب في أرجاء الزمان ما وسعنا، وما أجمل السمر في صفوه وأنسه ولكن ليته ولعله. . .

الأطلنطي، ٩-١٢-١٩٤٥

استسلام

عبرنا المحيط الأطلسي في سفر هادئ، وقضينا أسبوعاً لا نرى إلا السماء والماء، فانعدم الحس بالزمان، ومضى متصلاً لا أعرف تاريخ اليوم من الشهر ولا اسمه من الأسبوع، واستسلمت إلى أنني سأصل بعناية الله يوم جمعة منتصف هذا الشهر، وأنّ ربان الباخرة سيعلن ميقات وصولنا، فلا داعي أن أرهق نفسي بالحساب.

وكان رفيقي الوزير السوري ناظم بك على خلاف ذلك، يحسب ويوقت، وكنا إذا خلونا إلى حجرتنا في الباخرة عند النوم أخذ يسألني عما مضى وعما بقي، فأقسم له غير حانث إنني لا أعلم ما مضى ولا أعلم ما بقي. ولكن شيئاً واحداً أعلمه أننا سنصل يوماً ما، فكان يغضبه مني هذا الاستسلام والتراخي إلى أن أنشدت له يوماً ما قاله الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكأن ذهابَهُن له ذهابا

فاعتبر وتذكر. ولولا أن قلوبنا قد سبقت إلى الوطن والأهل والولد لآثرنا أن نهادن الزمان، فيمتد إلى غير أجل من غير توقيت أو حسبان.

١١-١٢-١٩٤٥

الصخـــرة... الصخـــرة

تناولنا عشاءنا على مائدة لعبت بها الأمواج، تنزل بها إلى قاع من القاع ثم تتسلق طريقها إلى الأبراج، وكانت أطباق الطعام وأواني الشراب تميد يمنة ويسرة حتى كادت أن تتداولها أيدي الآكلين والشاربين. وكان المسافرون يرتطمون ويصطدم بعضهم ببعض حين ينزلقون عن مقاعدهم الطويلة كلما هاج البحر. وقد أصابت الجميع نشوة من الفرح، أشاعته عصبة من الأمريكيات اللعوبات، أطلقن لمرحهن العنان فألقين أكتافهن وسواعدهن وشعورهن، وسائر ما يتصل بالنون الثقيلة، حيثما تقع وحيثما اتفق.

ولكن كهلاً من ركاب الباخرة كان قد اعتمد ظهره إلى جدار الباخرة واتخذ مجلسه في آخر هذه المقاعد الطويلة، ذلك الكهل انكمش على نفسه واجماً، يأخذه العبوس والانقباض كلما قذف اهتزاز الباخرة إلى جنبه وحضنه عجوزاً شمطاء عجفاء، لم تترك زينة ولا زخرفاً ولا ألواناً إلا وضربت منها على وجهها وملابسها وشعرها بأوفر نصيب، في قبح عجيب.

وسط هذه الهرج وقف ربان الباخرة، بقامته الفارعة من غير تكلّف ولا عناء. وليس «الوقوف» ميسوراً في تلك الفترة التى انطلقت فيها عفاريت البحر تتجاذب الباخرة، وأخذ الربان يجيل بصره في المسافرين وجهاً لوجه ليفشي فيهم الهدوء والثقة، فإنه يوشك أن يفاجئهم بنبإ يسلبهم الرقاد.

وباللهجة الأمريكية، عامرة بالإمالة والغُنّة، اعتذر عن هياج البحر، ورجاهم أن لا يعتبوا، أو يلوموا. . .

فانطلقت الحناجر الناعمة والخشنة بالقهقهات، موقعات وغير موقعات، إلا

حنجرة واحدة ظلت كاظمة أمرها ووترها، ذلك أن الرجل الكهل ما زال مغيظاً حنقاً من جارته العجفاء. . . ثم مضى الربان يقول: «ستجربون حظكم هذه الليلة فنحن نوشك أن نبلغ مكاناً من البحر، طريفاً وعظيماً، ولا أدري هل نمر به في الهزيع الأخير من الليل، أم سنصله في الصباح، والأمر على كل حال رهين بحظكم وطالعكم، أتدرون ما هو هذا المكان»؟

فصاحت أمريكية باسلة، وقد نهدت على أطراف أقدامها: «الصخرة. . . الصخرة». . . فردد القائد معها بصوت رزين وقور قائلاً: «الصخرة. . الصخرة. . . وستمتحنون طالعكم هذه الليلة وأتمنى لكم حظاً سعيداً».

وانصرف الربان إلى حجرته ولم يكد يغادر قاعة الطعام حتى تناثر المسافرون من المائدة وانتظموا في حلقات حلقات، يتحدثون عن الصخرة، يطيلون الحديث فلا يملّونه ثم ينفرطون أزواجاً أو فرادى، ويهرولون إلى ممرات الباخرة ودهاليزها وإلى الأرصفة والشرفات ليروا هذه الصخرة التي شغلتهم في ليلتهم هذه عن العالم الجديد الذي غادروه، وصرفتهم عن العالم القديم وقد استقبلوه

ولم يعد الأمر سراً مكنوناً، أو أحجية غامضة، فإنها صخرة طارق بن زياد، عابر المضيق، مضرم النار في السفن، قاهر الفرنجة، وفاتح الأندلس.

ولقد نذرت هذه الباخرة نفسها ومن فيها أن لا يغمض جفن ولا يوطأ مقعد أو سرير، فالجميع أسبلوا أيديهم أو اعتمدوا صدورهم فوق قضبان الأرصفة، ووجوههم صوب الشمال تستطلع أنوار المضيق، حديثهم الصخرة، أمنيتهم الصخرة، لهفتهم الصخرة.

ولقد هبّت الرياح رطبة باردة فلم يستشعر المسافرون البرد إلا بعد زمن، فتساقطوا إلى حجراتهم يخطفون ما وقعت عليه أيديهم من غطاء أو رداء، ثم يتزاحمون صاعدين إلى أماكنهم في الأرصفة وقد لفوا أجسادهم بما حملوا لفاً شديداً، واتجهوا بأبصارهم إلى ما وراء الأفق البعيد، إلى موطن الصخرة.

ولو أن رجلاً قد هبط على الباخرة تلك اللحظة ورأى هذا الرتل الطويل من الرجال والنساء وهم جاحظون في الأفق البعيد، لأيقن أنه رتل من الرهبان وقفوا يتعبدون. . . وما درى أنهم ناس يتفرجون.

ويمضي الوقت طويلاً وهذه الأشباح الملفوفة، شدت أبصارها إلى هدف واحد، تغرق في الصمت العميق لا يقطعه إلا حديث واحد، هو الحديث عن الصخرة وكفى.

ذلك كان شأنهم جيمعاً، أما صديقنا الكهل فقد وجد في الحديث عن الصخرة أعظم العزاء في ما أصابه من بلاء، بلاء الجيرة لتلك العجوز العجفاء.

وكنا نحن، معشر العرب، ثلاثة في الباخرة، ناظم بك القدسي، ووهيب بك دوس وأنا. فأخذَنا الزهو والعزّة كلما استمعنا إلى حديث الصخرة وكلما رأينا لهفة هؤلاء الأجانب على أن تكتحل عيونهم بمشاهدة الصخرة. وكان أكثر الركاب ينظرون إلينا كلما تحدثوا عن هذه الصخرة، وأنا موقن أنه لم يكن في أحد منا ما يلفت النظر. وكنا إلى ذلك العهد ثلاثة من المسافرين وانتهى، ليس لنا شأن ولا ذكر، فإذا بالصخر يفيض علينا النباهة والذكر، حتى لقد خيِّل إليّ هؤلاء الأجانب قد أصبحوا يرون في أحدنا طارقاً بن زياد.

وقد أفلتُّ من صديقيّ، وأخذت أطوف بهذا الرتل من الناس المشدودين المأخوذين، لأرى فيهم ساعة أو بعض ساعة، أشبع فيها خيلائي وكبريائي. وحمدت الله أني وجدت صهيونياً أمريكياً كان كثير المماحكة والجدل لا يفتأ عن التعريض بالعرب، وجدَ أو لم يجد إلى الحديث سبيلاً. فدنوت من هذا الماكر وهو يحاول أن يتوارى بغطائه وقلت له: «هل أنت كورنفيلد؟» فقال: «نعم»، قلت له: «وهل أنت أيضاً سهران؟» فكابر وقال: «لست سهران. . . إنني أشعر بالأرق لأني نمت كثيراً في النهار ولست أطيق أن أكون في حجرتي الآن» فقلت له: «وعساك أنت ترقب الصخرة؟» فمكر وقال: «لا، الصخرة صخرة، ولكن الطبيب نصحني أن أطيل الانتفاع بهواء البحر لمرض أشكو منه»، فضحكت هازئاً وقلت له حين هممت بالانصراف: «هاها. . . يجوز. . . ولكني أظن أنك تشكو مرضاً آخر».

ولقد انتصف الليل واشتدت حلكة الظلام وأخذت الباخرة تقترب من المضيق تسترشد بالأنوار المثبوتة على الضفاف، فاشتد لصوق المسافرين بالقضبان الحديدية كما اشتد امتداد الرؤوس وإحداق الأبصار، وأمسكوا عن الحديث وودوا لو يمسكون عن الأنفاس فلا يفوتهم من مشهد الصخرة ذرّة أو بعض الذرة.

وطال الصمت ودام النظر فلم يبصروا شيئاً، ذلك أن الأبصار قد باتت متعبة، وكثر تعاقد السحاب واشتداد الظلام، ثم جاءهم الربان وأنبأَهم أن الباخرة قد جاوزت الصخرة. . . وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن. . .

وهنالك خاب الرجاء وتبدد الأمل، فانفرط هذا الصف الطويل من الأشباح، وانسل المسافرون إلى مضاجعهم وقد أضناهم الوقوف وأعياهم الانتظار.

ورأيت أني وحدي، كالعابد الزاهد ليلة القدر يقلب بصره في السماء، وغشيتني رهبة ما غشيتني من قبل وما أظنها تغشاني من بعد، في ما بقي لي من

العمر. وإذا بالتاريخ العربي ينشر الصفحات، وإذا بالذكريات تنهض أمام بصري، حوادث ووقائع، منها ما يقرّ العين ومنها ما يقض المضاجع.

لقد ألقى المسافرون بأجسادهم فوق فراشهم، ونفوسُهم تفيض بالحسرة والخيبة، ذلك أنهم لم يروا شيئاً من الصخرة، ولكني رأيت جحافل النصر وراء القائد العربي عقبة بن نافع ممتطياً صهوة جواده، يمضي في الشمال الأفريقي من نصر إلى نصر حتى يبلغ المحيط الأطلسي وهو يصيح في أذن الزمان «والله لولا هذا البحر لمضيت في سبيلك مجاهداً». . .

ورأيت طارقاً بن زياد وفي ركْبه الغطاريف من العرب يحرقون سفنهم بأيديهم التماساً للنصر أو القبر. ولقد سمعت صيحاتهم ونجداتهم، وسمعت طارقاً في خطبته التي تتوارثها الأجيال العربية كأعظم أنشودة للحرب، وأمجد فاتحة للنصر، ورأيت صقور قريش، وقوافل العلماء والشعراء والفقهاء والأطباء والحكماء يجتازون المضيق، يحملون معهم مشاعل العلم والعدل والحضارة، فتضيء في ذلك العالم السادر في الجهل، الغارق في الظلم، المتردي في الانحطاط.

ورأيت مدنية عجيبة، وحضارة رفيعة، وعدلاً شاملاً، ورحمة رشيدة: كل أولئك في مجالس الخلفاء وقصور الأمراء ورياض المدائن ومعاهد العلم ودور المرضى ومنازل الناقهين والعاجزين.

وبدا هذا الملك، كالفردوس الذي بحث عنه الفلاسفة وافتقدوه، تتآخى فيه نوازع الدين والدنيا، وتتجسم في مرابعه ومغانيه آيات العقل، وخلجات القلب، ووحي الروح.

ولكني، رأيت بعد ذلك، هذا الفردوس العجيب، بالياً كالبلى، يحمله أهله وذووه كما يحملون الموتى، خاشعة أبصارهم، عبر المضيق إلى إفريقيا، وقد ملأوا الدنيا نحيباً ووجيباً، يلقون آخر النظرات، ويبعثون آخر الحسرات، ويرسلون آخر العبرات، صوب الأندلس، الأندلس وحدها، وهم يستمعون إلى الشاعر، واعظاً وزاجراً، منتهراً وساخراً.

إبكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

ورأيت بعد ذلك كله، عرباً يجوسون خلال الأندلس لا منتصرين ولا فاتحين، ولكن زائرين ومتفرجين، فيقفون عند الآثار يصعّدون الأنفاس ويكفكفون العبرات، ورأيت بينهم شاعراً نصرانياً عربياً، ذكي الفؤاد مرهف الحس، يطوف بالمسجد في

قرطبة، وها هو حين يشرئبّ بعنقه نحو مئذنته الفاتنة، يسمع أجراس النواقيس تبعث رنينها في الآفاق فتفيض الحسرة في نفس الشاعر يبعثها آياً من الشعر:

يـا أيهـا المسـجـد الـعـاني بـقـرطـبـة   هـلا تُـذكـرِّك الأجـراس تـأذيـنـا

ولقد رأيت كثيراً غير هذا، وسمعت كثيراً غير هذا، وأقسم أني رأيت وأني سمعت، ولكن بالفؤاد، وما كذب الفؤاد.

ولقد عمر الفؤاد بهذه الرؤى والأطياف، أياماً صفا فيها البحر الأبيض المتوسط. وعشت في الذكريات مع أصحاب الذكريات، أستمع وأتكلم، ألوم وأستغفر، أبتهج وأبتئس، حتى دنوت أول مرفإ من الوطن العربي في بور سعيد.

فعادت إليّ دنيا الحاضر، بلهفة المشوق إلى الوطن وأهله وكان صباح، وكان مساء... وكان ابتداء، وكان انتهاء...

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

أربعون عاماً...
في الحياة العربية والدولية

أحمد الشقيري

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار النهار، ١٩٦٩.

المحتويـــــات(*)

مذكرات عن المذكرات ٩

الطفولة الباكرة والحرب العالمية الأولى ١٧

مع أمي وعمي ١٩

حجارة وتراب ٢١

أين أبي؟ ٢٤

يتيم في بيت الجيران ٢٧

ليلة في مستعمرة يهودية ٣١

المساعي الحميدة مع خالتي ٣٦

دقيقة واحدة مع أبي! ٣٩

ليعش سلطاننا طويلاً ٤٣

الشباب والوطن القومي اليهودي ٤٧

على عتبات التاريخ ٤٩

نطالب بانتداب أمريكا ٥٤

مع جورج أنطونيوس في عكا ٥٨

أبو موسى اليهودي يصلي في الجامع ٦٤

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري**: **الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

مأساة واحدة بين آلاف المآسي ٦٩
يوم مع هربرت صموئيل ٧٤
ليلة مع جمال باشا ٧٨
المستحيلات قبل أربعين عاماً ٨٣
نشأت على جبل صهيون عدواً للصهيونية ٨٧
لك الله يا غزة ٩٢
السؤال الذي بقي خمسين عاماً من غير جواب ٩٧
أربع عشرة عقبة أمام الوحدة العربية! ١٠١
«أنا انتهيت» سعد زغلول ١٠٨
فجـر النضـال الفلسـطينـي ١١٣
مع زعيم صهيوني كبير ١١٥
أطرد أباك من الميدان ١٢١
الحاج أمين على صهوة جواده الأبيض ١٢٧
خمسة عشر ألف جنيه رأس مال الحركة الوطنية ١٣٣
فيصل لا يذكر ١٣٨
سنعود إلى بيت المقدس ولكن حجراً على حجر ١٤٤
عرس في غرفة الإعدام ١٤٩
مكماهون وحسين يدفنان في وادي الحوارث ١٥٣
مرافعات ـ مظاهرات ـ أحزاب ـ صدقي باشا وبورقيبة ١٥٩
يوم مع القسّام ١٦٥
المجاهدون الجرحى يتحدثون عن المجاهد الشهيد ١٧١
شعب يقود زعماءه ١٧٧
بريطانيا وأصدقاؤها يوقفون الإضراب والثورة ١٨٣
ثـورة شعـب ١٩١
«تعال عندنا إلى عمان» الأمير «الملك» عبد الله ١٩٣
إلى السلاح، يا رجال! ٢٠٠
افرجها علينا يا رب حتى نلتحق بالثورة ٢٠٥

ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ٢١٢
الثورة، والثورة وحدها ٢١٦
العرب والإنكليز واليهود اتفقوا على شيء واحد؟ ٢٢١
مع الملك فاروق والإمام المراغي ٢٢٧
حوار تاريخي مع كوهين العربي ٢٣١
العروبة في المهجر ٢٣٧
الجامعة العربية ولدت كبيرة جداً وعاشت صغيرة جداً ٢٣٩
بن غوريون في القاهرة! ٢٤٦
ما أعقل هذا الجنون! ٢٥٠
سذاجات أمريكية في جزر الخالدات ٢٥٦
الدولة العربية المتحدة في إنسان ٢٦١
حزين... في نيويورك ٢٦٦
الأمير فيصل، ناظم القدسي، القنبلة الذرية ٢٦٩
يا مستر شقيري أنت متشائم جداً، يا مستر شقيري أنت متفائل جداً ٢٧٥
الكونغرس في مباذله ٢٨١
دعاية معلقة في الهواء ٢٨٤
أنباء لا آراء ٢٨٨
العروبة في المهجر ٢٩٤
حوار مع القس ومناجاة في المسجد ٣٠٢
عيد الأضحى في الكنيس اليهودي! ٣٠٥
الصخرة. . . الصخرة ٣٠٨
الدول العربية في المعركة ٣١٥
اللقاء. . . في سوق الفراء ٣١٧
لقاءات خاطفة. . الملك عبد العزيز، الأمير عبد الإله، الرئيس القوتلي ٣٢٩
عمّان. . والكارثة ٣٣٥
رقصت نيويورك ورقصت معها تل أبيب ٣٤١
لن يهربوا من التاريخ ولا من الشعب. ٣٤٦

العرب في الأمم المتحدة ٣٥٥
رودس تصيح مع القدس: الويل للمغلوب ٣٥٧
نفذت آخر خرطوشة من زمان ٣٦٣
«بروتوكول لوزان» ليس سمكة ولا ضفدعة ٣٧١
شاريت في المرحاض يرفض أمريكا ٣٧٧
إيبان لم يهمس ولم ينبس ٣٨٣
شاريت لم يهمس ونوري السعيد لم ينبس ٣٨٨
ذكريات مع العرب الأربعة: بورقيبة والسنوسي ومحمد الخامس والأندلس ٣٩٧
في كل ساحة وميدان ٤١١
مع الشيشكلي وعبد الناصر والنظرة الأولى حمقاء ٤١٣
مع الرئيسين محمد نجيب وعلي ماهر ٤٢١
اشربوا معي نخب الاتحاد السوفياتي ٤٢٨
آمال في موسكو ومخاوف في الفاتيكان ٤٣٨
حوار مع الملك إدريس ولقاء مع الجنرال فرانكو ٤٤٧
شجار مع نهرو، وعهد مع شو إن لاي، ونقاش مع عبد الناصر ٤٥٧
دموع في الجامعة العربية، وصلاة في مجلس الأمن ٤٧٠
مصائب اليمن الثلاث ورابعها إمامها ٤٧٧
معركة مع الثلاثة الكبار والملك سعود يرفض استقالتي ٤٨٧
أيزنهاور: «الشقيري لا يمثل العربية السعودية» ٤٩٨
مكاشفة مع محمد الخامس والحسن الثاني وسخرية مع السيد «سخرية» ٥١١
رؤساء وحذاء! ٥٢١
مع الغرب والشرق ٥٣١
حوار السنين مع ملك بريطانيا ووزرائه والرئيس ترومان وحلفائه ٥٣٣
أيام مع خروشوف وكوسيجن ٥٥٢
الرئيس ديغول يخون الجنرال ديغول!!
الرئيس كينيدي يخون الشيخ كينيدي؟ ٥٧٣
وأنت أيضاً يا بروتوس! وأنت أيضاً يا إيبان! ٥٩٤

مذكـــرات عــن المذكـــرات

في هذا الكتاب سيرة مواطن عربي عاش الحياة العربية العامة، فسار في موكبها وتمرس بأحداثها، وساهم في صنع وقائعها، عبر حقبة حافلة، امتدت قرابة أربعين عاماً، ويزيد. .

وقد شاء طموحي في الحياة، وشاءت معه ظروف وأقدار أن يكون لي دور في الحياة السياسية على الصعيدين العربي والدولي، ومن هنا غدت هذه «المذكرات» سيرة جيل بكامله، لا سيرة مواطن فرد، أو إنسان واحد. . وما هو أهم من ذلك أصبحت هذه «المذكرات» ملك التاريخ العربي، وعلى صعيد النضال القومي ملك الأجيال الصاعدة والأجيال التي تتصاعد بعدها. .

وكذلك شاءت الأقدار أن يكون مولدي، ومولد جيلي معي، في أخريات الدولة العثمانية لنشهد بعدها عهد الاحتلال الأجنبي، ثم عهد الاستقلال الوطني. . ويطغى على هذا وذاك عهد الخطر الصهيوني. .

ولقد واكبت هذه العقود كلها طفلاً، فصبياً، فشاباً، فرجلاً، فكهلاً. . فأصبت بنصيب منها، فعشت أيامها البهيجة والشقية، وكان أبهجها مواكب الاستقلال، وأشقاها كارثة حزيران، بأسبابها وعواملها. . ولا تزال قائمة. .

وكانت هذه العهود غنية بالعظات والعبر، عرفتها وعرفها جيلي معي، بالممارسة والمعاناة، لا بالتفكير والتدبير، فقد كنا في مطلع هذا القرن أمة «مبتدئة» في الحياة الدولية. . وأحسب أننا لا نزال. .

وها أنا أجلس الآن في مكتبي، فأتوغل على مدى عشرات السنين، في أخاديد ذاكرتي، وسراديب طفولتي الباكرة، فأرى كأني أرى الآن، وأسمع كأني أسمع الآن. .

أرى العجائز الطيبات، وأنا بينهن، يجلسن القرفصاء، بملابسهن المهلهلة حول «الطبلية» المستديرة الكبيرة، وهنّ ينتقين القمح من حب «الزوان» قبل إرساله إلى

المطحنة. . ثم أستمع إليهن وهن يتحدثن أحاديث الفراغ عن شؤون المدينة وأهلها، رجالها ونسائها. . . هذا تزوج، وتلك طلقت. . وهذا مات في سنة الكوليرا. . وذاك ولد سنة الحرية. . .

ومع الأيام تداولت «سنة الحرية» على سمعي، فما جرى حوار في بيتنا عن أعمار البنات والصبيان، إلا والعجائز الطيبات يحتكمن إلى «سنة الحرية» يؤكدن أن «فاطمة» ولدت قبل الحرية بعام، وأن «محمد» ولد بعد الحرية بعامين. .

ومع الأيام كذلك تداولت سمعي إلى جانب «الحرية» تعابير أخرى: «المشروطية» و«الدستور» و«حزب «الاتحاد والترقي»»، و«حزب الائتلاف». وقد زاد من اهتمامي بهذه التعابير الغريبة على صباي، أنني ولدت في سنة الحرية (١٩٠٨) كما تحدثت لي العجائز الطيبات عن الأيام الخوالي. .

وتوالت الأيام بعد ذلك، ودارت في «ديوان» بيتنا الأحاديث، وكلها تدور حول هذه التعابير، فأخذت أفهم معناها ومداها. .

وبدأت يومئذ أعرف التاريخ بالرواية والسماع، قبل أن أعرفه بالدرس والاطلاع ـ تماماً كما كان يفعل الأسلاف من الآباء والأجداد.

وفي هذا «الديوان» عرفت أن رجال «تركيا الفتاة» من أمثال طلعت وأنور وجمال وجاويد قد قاموا بانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني فأعلنوا «الحرية» ووضعوا «الدستور» وأقاموا «الحكومة المشروطة» وأسسوا حزب «الإتحاد والترقي» ليكون شعاراً لاتحاد العنصرين الكبيرين في الدولة العثمانية: الترك والعرب.

وعرفت في هذا الديوان كذلك أن والدي كان من الأعضاء البارزين في حزب «الاتحاد والترقي»، وأن فريقا آخر من أعيان بلدي ـ عكا ـ كانوا ينتمون إلى حزب آخر يعرف بحزب «الائتلاف»، وهو يهدف إلى مجرد ائتلاف بين الترك والعرب. . وكان عبد الفتاح السعدي ـ عمي (حموي) في ما بعد ـ كبير الائتلافيين في عكا.

وانتهى عهد الدولة العثمانية بانتهاء الحرب العالمية الأولى، ودخلت في عهد القضية العربية دون أن أنتمي إلى حزب والدي ولا إلى حزب عمي، فقد كان الشعار الذي انطلق في بيوتنا وشوارعنا ونوادينا ومقاهينا: الاستقلال التام الناجز في إطار الوحدة العربية. .

ولكن الحوار بين «الائتلاف» و«الاتحاد» بقي زمناً طويلاً بعد زوال الحكم العثماني وسقوط الخلافة الإسلامية. . ولقد شهدت هذا الحوار واشتركت في ندواته وحلقاته. .

وكان هذا الحوار يدور حول السؤال الكبير: الوحدة الإسلامية أم الوحدة

العربية؟ وكان والدي من أنصار الأولى، على حين كان «عمي» من أنصار الثانية ـ وهكذا انقسم رجال العرب في كل أقطار العرب. .

وجاء عهد الانتدابات على ديار الشام وأطلت الحركة الصهيونية برأسها. . . وشهدت في «الديوان» الاتحاديين والائتلافيين يأتلفون ويتحدون في وجه الأجيال الصاعدة ـ وأنا واحد منهم. . وبدأ حوار جديد حول سؤال جديد: أيهما كان خيراً للأمة العربية: البقاء مع الدولة العثمانية أم السير في ركاب الحلفاء؟

وراح بقايا الدولة العثمانية يندبون زوال دولة الخلافة الإسلامية، وينعون على الشريف حسين أمير مكة وأنصاره تحالفهم مع بريطانيا «عدوة العرب والإسلام».

وكنت أستمع إلى والدي في الديوان وهو يتحدث بحرارة المؤمن المنافح عن أيام «الباب العالي» في إستانبول، وعن الموقف الشهير الذي وقفه السلطان عبد الحميد في رفضه استقبال «هرتسل» مؤسس الصهيونية، حين جاء إلى الآستانة يقدم العروض المالية المغرية، سعياً وراء تحقيق حلمه الرهيب. .

وكنا نحن الأجيال الصاعدة نقف في الطرف الآخر من هذا الحوار. . ونرى في حركة الشريف حسين عهداً مباركاً. . . وأن الحلفاء لا بد أن ينجزوا وعودهم، ولا بد أن «يمنحونا» الاستقلال والحرية في ظلال الوحدة العربية. .

وانطفأ هذا الحوار في ما بعد، فقد مات «العثمانيون» من جيل والدي، وضاع الحديث حوله في زحمة الأحداث، وغاص جيلنا إلى الأذقان في مكافحة الانتداب الأجنبي، ونشدان الاستقلال.

ولكن هذا الحوار عاد وأفاق مرة ثانية. . لقد استيقظ في نفسي بعد أربعين عاماً ـ بعد هزيمة حزيران النكراء. . وعاد السؤال القديم: أيهما أفضّل البقاء مع الدولة العثمانية أم السير في ركاب الحلفاء؟

ورجعت إلى نفسي، إلى هذا السؤال القديم، وقررت، وأنا أستعرض مسيرة الصهيونية في خلال خمسين سنة خلت، أن جيلنا كان على خطإ فادح، وأن الحكم العثماني بكل مخاطره التي أعرفها، أفضل من هذه «الاستقلالات» العربية، وهذه الدويلات المنكسرة، وقد هزمتها الصهيونية في حروب ثلاث، وهي الآن مركّزة مدافعها على ضفاف النيل والأردن وسفوح الجولان، فاغرة أفواهها صوب العراق والكويت والسعودية ولبنان.

ولعلي ما كنت أرتضي لنفسي هذا الاعتراف، لو أني أرى «الوحدة العربية» أملاً قريباً، فالصهيونية العالمية وفي طليعتها إسرائيل قوة ديناميكية هائلة، لا يمكن أن

يقف أمامها إلا وحدة عربية، لها جيش عربي واحد، على رأسه دولة اتحادية واحدة. . دولة واحدة حول إسرائيل على الأقل. . . وبدلاً من أن نظل نردد أن شعار إسرائيل من النيل إلى الفرات، علينا أن نقيم دولة الوحدة من النيل إلى الفرات. . .

إنه اعتراف خطير من غير شك، يحتاج بحثه ومناقشته إلى كتاب مستقل. . ولكن أنى للتاريخ أن يعود إلى الوراء. . !

ولم تكن هذه المخاوف تساورنا في أوائل العشرينيات، بعد أن فرض الانتداب على بلادنا في المشرق العربي، لأسباب عرضتها في مذكراتي. . بل إن جيلي كانت له أحلام كبار لعلها أقرب إلى الخيال. . ولكنها كانت تراودنا على كل حال. . . ومن حق الأجيال الناشئة أن تعرفها، لتدرك في أي فلك كانت تسبح خواطرنا. . وفي أي هوة سحيقة وقعنا بعد نصف قرن من الزمان. .

كنّا يومئذ طلاباً في المدارس نحفظ الشعر، وننشده بنبرات أصواتنا وإشارات أيدينا. . وكان أساتذتنا يحرصون أن يكون للشعر الأندلسي وتاريخ الأندلس نصيب مما نحفظ ونروي. . . بل إن أساتذتنا قد حلّقوا إلى آفاق رائعة جميلة، لا بد أن نسترد الأندلس. . . إنها وطننا الذي مكثنا فيه ثمانية قرون، وانشأنا حضارة ومجداً، و. . و. . . فلا بد أن «نحرر» الفردوس المفقود. .

ولقد عشت هذه الأماني، ومعي جماهير الطلاب، بكل جوارحنا. . ثم امتدت الأيام وتعاقبت الكوارث. . وقدّر لي أن أعيش في خضم النكبات، فضاع الفردوس الموجود، ونحن نتعلل بالفردوس المفقود. . وانقلبنا من تحرير الأندلس إلى تحرير فلسطين. . ثم إلى تحرير سيناء والجولان.

أجل لقد عشت هذه الحقيقة كلها، وولدت مع مولدها. ونشأت مع نشوئها. . وكبرت معها. . وتمنيت أني ما ولدت فلا تولد. . وما كبرت فلا تكبر.

لقد ولدت في وطني وكان اليهود لا يتجاوزون (٥٠) ألفاً وها أنا اليوم أكتب مذكراتي لأرى اليهود وقد تضاعفوا خمسين مرة. . وأصبحوا ٢,٥ (مليون). في نسبة فذة فريدة، لم يعرف التاريخ الإنساني مثيلاً لها.

لقد ولدت في وطني ولم يكن اليهود يملكون فيه أكثر من اثنين في المائة، اشتروها من مالكين غائبين خلال خمسين سنة خلت. . وها إني أراهم اليوم وقد «ملكوا» فلسطين من البحر إلى النهر، وأضافوا أضعافها في سيناء والجولان. .

لقد ولدت في وطني، والحكايات تملأ سمعي عن جبن اليهود، وكيف كانوا يفرون من وجوهنا حين نسير في الشوارع والساحات. . ثم امتد بي العمر لأسمع

الطائرات الإسرائيلية تقصف مدننا وقرانا، وتشتت شعبنا، وتنهب ثرواتنا، وتصادر كرومنا ومزارعنا، وتسرق كنيسة القيامة، وتمضي في الحفائر تحت المسجد الأقصى.

وقبل أن يستفحل هذا الخطر الداهم بسنين، كنّا، أنا ووديع البستاني الشاعر اللبناني الفلسطيني، نتشاكى أيامنا المكفهرة في فلسطين، فانطلق ينشد عن نفسه:

غـــنّـــى الـــعـــروبـــة دهـــراً وعـــاش حـــتـــى رثـــاهـــا

ولست أدري ما يقول «البستاني» لو أنه عاش ليرى ما أرى وليسمع ما أسمع . .

ثم عشت عهد الحكم البريطاني الذي كرس نفسه ثلاثين عاماً لإقامة الوطن القومي اليهودي تمهيداً لإنشاء إسرائيل . . فشهدت أفواج الهجرة اليهودية تطغى على بلادنا . . وشهدت جلاء الفلاحين العرب عن قراهم ومزارعهم . . وشهدت المظاهرات الدامية يتساقط فيها الشهداء والجرحى . . وخرجت من سجن إلى سجن، ومن معتقل إلى معتقل مع الآلاف من أبناء شعبنا . . . وعلى الجملة فقد عشت خمس عشرة ثورة خاضها شعبنا البطل بكل بسالة وإيمان . .

وانتهت «مسيرتي» الفلسطينية في ١٩٤٨، لأكون في الساحة العربية مستشاراً للوفد السوري، ولأشهد الحرب العربية الإسرائيلية التي أُعدت لهزيمة الأمة العربية . .

وبحثت في أعماق نفسي عن أسبابها، وتجاوزت عما أذيع ونشر، فلم يكن السبب فساد السلاح . . بل كان السبب ولا سبب سواه . . فساد الخلق القومي في الحكم العربي . . . وتذكرت حينذاك حدثاً مررت به في يومه مر الكرام.

تذكرت أننا ونحن في شرخ الشباب، قد خرجنا من عكا في أوائل الثلاثينيات إلى الحدود السورية لاستقبال السيد ياسين الهاشمي ـ الزعيم العراقي المعروف ـ وسرنا به في موكب فخيم إلى عكا . . وسار معنا بهدوء ورصانة، وعلى رأسه «فيصلية» من القماش العراقي الخشن . . وأذكر أنني خطبت بين يديه خطاباً توقعت بعده أن أسمع منه خطاباً وطنياً مليئاً . . ولكن ياسين الهاشمي قد خيب ظني، فلم يهتز لروعة الاستقبال ولا لروعة الخطاب . . ووقف ليقول: «لا بد أن نبني الخلق القومي في الحكم العربي أولاً وقبل كل شيء . . والسلام عليكم» . .

كنّا في ذلك العهد في عنفوان الشباب، قلوبنا قفزت من صدورنا واستقرت في رؤوسنا تتبوأ مكان عقولنا . . فلم يعجبنا كلام الهاشمي.

غير أني فهمت كلام ياسين الهاشمي بعد خمسة عشر عاماً، حينما كنت في الساحة العربية على مقربة من الملوك والأمراء في زهراء أنشاص، ومع الرؤساء والوزراء والسفراء في ردهات الجامعة العربية وترحمت يومها على ياسين الهاشمي،

فقد رأيت بعيني وسمعت بأذني كيف أن الحكم العربي لم يكن يتحلى بالخلق القومي . . فكانت الكارثة وكانت إسرائيل . .

وعلى الساحة العربية شهدت مولد الجامعة العربية . . وقد أسهبت مذكراتي كيف أنها ولدت كبيرة جداً ثم أصبحت صغيرة جداً . . وكيف عشت فيها سبع سنوات ثم خرجت منها دون أن أنجز فيها إلا تعيين بعض الموظفين وإعداد بعض الدراسات . . وها إني أراها اليوم تحتفل بعيد ميلادها الثاني والعشرين ولم تنجز شيئاً، فلا هي كونفدرالية ولا فدرالية ولا حتى «أمم متحدة»، فلم تستطع دولها أن توحد شيئاً، أو تنسق أمراً . . حتى شهور السنة قد حاولت توحيدها في بداية نشوئها، وها نحن بعد ربع قرن من الزمان لا نزال نكتب فبراير، وشباط، وذو الحجة . . ولو سئلنا عن السبب أوردنا ألف حجة وحجة . . .

وعلى الساحة العربية شهدت المحاولات «التعيسة» للوحدة العربية . . كنت فيها في مؤتمر الإسكندرية ١٩٤٤ حين قدم الوفدان العراقي والسوري مشروعين لقيام دولة اتحادية . . . وكنت فيها عام ١٩٥٥ ، يوم بحث أمرها في إحدى ليالي مؤتمر باندونغ بين عبد الناصر وخالد العظم . . وكنت على مقربة من قيام الوحدة بين سوريا ومصر، ثم وقفت منكساً في ساحة الأمم المتحدة في نيويورك وأنا أرى العلم السوري يرتفع على ساريته، يوم الانفصال . . . على حين أني كنت بكيت فرحا يوم ارتفع العلم السوري في ساحة المرجة، في نيسان ١٩٤٦ ـ في يوم الاستقلال . . وأنا أجلس قريباً من صانعي الاستقلال: شكري القوتلي وجميل مردم وفارس الخوري وإخوانهم.

وليست الوحدة العربية عندي وعند أي مواطن عربي، خطبة كما يفعل الملوك والرؤساء، ولا شعراً كما ينشد الشعراء، ولا أغنية كما يغني المطربون . . ولكنها حقائق . . تفرح لها أو تفجع، في أبسط مظاهرها . . .

وإني لأذكر تلك الأيام التي كنّا نسافر فيها زمن الدولة العثمانية، في أرجاء الوطن العربي، فلا نحمل جوازاً، ولا يعترضنا أحد، ولا يفتش حقائبنا أحد . . وجاء عهد الانتدابات الأجنبية في المشرق العربي، فأقام الاستعمار «أكشاكاً» خشبية على المخافر والحدود، استمرت قرابة ثلاثين عاماً في عهد الاحتلال. ثم جاء عهد الاستقلال، فانبرى الحكم العربي المعاصر وراح يهدم الأكشاك الخشبية وأقام مقامها مباني من الحجارة الصماء . . . وأذكر أن وفداً من أبناء فلسطين قد طلبوا إليّ أن أثير هذا الموضوع في مؤتمر القمة . . فقد ذكروا لي أن المواطن القادم من الكويت إلى لبنان بالسيارة يتعرض للتفتيش تسع مرات . . فقلت لهم: «تجنبوا السفر من الكويت إلى لبنان . . سافروا في أوروبا كلها. بين لندن وأثينا» . . شر البلية ما يضحك.

ومرة أخرى شكا إليّ وفد عربي أن البريد بين هذه العاصمة العربية وتلك يستغرق ثلاثة أسابيع . . بل لعله في المدينة الواحدة يستغرق بضعة أيام . . لقد طلبوا إليّ كذلك أن أثير هذا الموضوع في مؤتمر القمة، قلت لهم: «خير لكم أن تدعوا الله أن يبعث إليكم الظاهر بيبرس، من مرقده» . . قالوا: «لماذا؟» قلت: «الظاهر بيبرس جعل البريد أربعة أيام بين دمشق والقاهرة، ولم تكن عنده طائرات ولا وزارة مواصلات . . ولا جامعة عربية، ولا مؤتمرات قمة» . . ومرة أخرى ضحكوا، وشر البلية ما يضحك . .

وعلى مدى عشرين عاماً (١٩٤٨-١٩٦٨) كانت قضية فلسطين القنبلة الصاروخية التي تساقطت شظاياها في عدد من العواصم العربية فأحدثت الثورات والانقلابات والانتفاضات، وبعضها انقلب بعضه على بعض . . ولقد حققت هذه الثورات كثيراً من الإنجازات السياسية والاجتماعية الاقتصادية، ولكنها لم تحقق الإنجاز الكبير للقضية الكبرى التي قامت من أجلها، وهي قضية فلسطين . . بل جاءت هزيمة حزيران ١٩٦٧ لتصيح بأعلى صوتها أن الأمة العربية لا تزال في حاجة إلى «الثورة الأم»، الثورة العربية الشاملة، فتضم في أكنافها الثورات السابقة وتقدم للحياة العربية المعاصرة، الحكم العربي الجديد والمواطن العربي الجديد . .

ومن الميدان العربي قفزت إلى الميدان الدولي، فدخلت الأمم المتحدة رئيساً للوفد السوري ثم رئيساً للوفد السعودي، وامتد عملي فيها خمسة عشر عاماً، وأنا أدافع مع الوفود العربية عن القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين . . ودخلت في معارك ضارية أجابه الاستعمار بلا هوادة . . وتصديت للملك جورج السادس وللرؤساء ترومان وأيزنهاور وكينيدي وديغول، ووزارئهم وسفرائهم، في حوار قاسٍ عنيف، فلم يستريحوا منه ومني إلا يوم انتهى عملي في الأمم المتحدة عام ١٩٦٢، لأسباب وظروف سيأتي إيضاحها.

وواكبت في هذه الفترة حركات التحرر في العالم، ورحت أبحث عن كل قضية حيثما وجدتها دفاعاً عن أوطان الشعوب، وثأراً لوطني المغلوب . .

وفي غمرة هذا العراك بكّرت في التحالف مع الوفود الشيوعية وعلى رأسها الوفد السوفياتي، في وقت كانت ترتجف أعصاب الحكام في العالم العربي إذا أعلن أي مندوب عربي تضامنه مع الوفد السوفياتي ولو على حق . .

وختمت سيرتي في الأمم المتحدة باستقلال الجزائر، ووقفت على منبر الأمم المتحدة أشيد بانتصار الحرية، كما فعلت قبل ذلك بالنسبة إلى المغرب وتونس وليبيا.

وفي خريف ١٩٦٢ عدت إلى غير الوطن الصغير، إلى الوطن الكبير، وقلبي عامر بالبهجة والأسى، البهجة لما أديت من واجب تجاه القضايا العربية بأسرها،

والأسى لأني فشلت في قضية فلسطين. . ولو أن قومي أنطقتني رماحهم لما فشلت. .

وحسبت أني بانتهاء «وظيفتي» في الأمم المتحدة سأخلد إلى القراءة والكتابة وهما نعم الحياة من المهد إلى اللحد. . وبدأت أبحث عن جليس. . وخير جليس في الزمان كتاب. .

وهكذا رحت أجلس مع نور الدين وصلاح الدين والظاهر بيبرس وقلاوون ـ الذين حرروا فلسطين وسائر ديار الشام أثناء الحروب الصليبية. .

ولكن الظروف حرمتني هؤلاء الجلساء لأكون جليس الملوك والرؤساء في مسيرة الهزيمة والنكبة، في مؤتمرات القمة، من القاهرة إلى الاسكندرية إلى الدار البيضاء إلى الخرطوم. . إلى أن انسحبت واعتزلت هذه المجالسة، وتلك سيرة خطيرة ومسيرة مثيرة، ستكون موضوع كتابي الثاني، أرجو أن يرزقه الله فيضاً من الشجاعة لنشره. . الشجاعة بالنسبة إلى غيري، فإنها بالنسبة إلى ذاتي متوفرة والحمد لله. .

هذه ملامح مذكراتي في صورتها العامة. . إنها ليست مرجعاً تاريخياً، ولا دراسة سياسية، ولا خطة قومية، ولا كتاباً أدبياً إنسانياً، ولكنها مزيج من كل ذلك. .

ولقد كتب الأمير الشاعر الفارس أسامة بن منقذ مذكراته في كتابه **الإعتبار**، في زمن الحروب الصليبية. . فكان كذلك مزيجاً من كل ذلك، ولعل هذه طبيعة النفس البشرية وهي تتململ من الهزيمة لتتهيأ إلى النصر. .

هذه المذكرات هي «ولدي» السابع. . مع فارق واحد: أن أبنائي ساهمت في صنعهم عوامل الإرث والبيئة وأسرار أخرى لا نعرفها. .

أما هذه المذكرات فقد صنعتها كما اخترت وأردت.

وأرجو أن يكون مكانها في مكتبة التحرير، في فلسطين، تمجيداً لبطولات شعبنا البطل، وبسالات أمتنا الباسلة. .

ونحن نعيش في هذه الأيام أروع هذه البطولات والبسالات. . مع الفدائيين والفدائيات في كفاحهم المجيد من النهر إلى البحر. . .

أحمد الشقيري

تموز/يوليو سنة ١٩٦٩

الطفولة الباكرة والحرب العالمية الأولى

مــع أمــي وعمــــي

لست أعي متى بدأت «أعي».

ولست أذكر متى بدأت «أذكر».

تلك هي سنّة الحياة في الطفولة المبكرة في مراحلها الأولى، لا يدري الطفل متى بدأ يعي، ومتى بدأ يشم ويتذوق، ومتى بدأ يفرح ويتألم.

ولعل العقل الإلكتروني في المستقبل يستطيع أن يسجل حياة الطفولة في بواكيرها الأولى، فينفذ إلى مشاعر الأطفال وأحاسيسهم، وخواطرهم وذاكرتهم، وحوافزهم ودوافعهم، فتتجمع بذلك حصيلة غنية من المعرفة عن النفس الإنسانية في «مهدها».

فالطفولة في ذلك العهد عالم مجهول يحوم حوله العلماء بالحدس والتخمين، ومن ذلك العالم المجهول تنطلق الإنسانية من عقالها، وتسير في حركتها المتطورة الدائبة، متطلعة إلى استكناه الكون والتعرف على أسراره بشوق ملح ولهفة غلاّبة، وهي لا تدري سر وجودها ونشوئها، بل إنها لا تدري متى بدأت «تعي» ومتى بدأت «تذكر».

وحين أحاول جاهداً أن أعود بعيداً إلى أعماق ذاكرتي، أنبش دفائنها القديمة، أجد نفسي طفلاً صغيراً، ولا أدري في أي عمر، أعيش في مدينة طولكرم في بيت صغير في الحيّ القبلي، في وسط أقرب إلى حياة القرية منه إلى حياة المدينة، فكنت أرى إلى جوارنا بيت من حوله الجمال وتدخله الحيوانات والمواشي.

ومع ذلك فقد كان بيتنا نظيفاً تبدو عليه سمات «المدينة» فإنني أذكر غرفة كانت مفروشة بالبسط، وفيها مقاعد حول جدرانها مغطاة بالقماش الملون، وعلى جنباتها الوسائد، ولم يكن في الغرفة شيء من مظاهر الترف والغنى، بل كان كل ما فيها فقراً نظيفاً، مرتباً ومنظماً. وكانت حياتنا في هذا البيت المتواضع من تلك المدينة المتواضعة.

وكل ما أذكره عن هذه الغرفة من بيتنا، جمع من السيدات كنّ يجلسن على هذه المقاعد متكئات على الوسائد وأمامهن «النراجيل» يدخّن، ويملأن جو الغرفة بالدخان.

وذات مرة، حين انصرفت السيدات من الغرفة، أمسكت بحبل النارجيلة وفعلت كما فعلت السيدات، وأحسست بدوار، ولا أذكر بعد ذلك شيئاً.

وكان كل من في البيت أمي، ورجل آخر لم أكن أعرف من هو، إنه لم يكن أبي، يقيناً، ولم أكن أعرف صلته بنا ولا قرابته.

وكل ما أعرفه عنه أنه كان يغادر البيت كثيراً، في ساعات من الليل والنهار، وكنت أراه يحمل سلماً ويخرج من المنزل. .

وليس في ذاكرتي صورة وجهه ولا شيء من ملامحه. . وكل ما أذكره أنني لم أعد أراه.

وأذكر ذات يوم، أنني رأيت في ساحة البيت صندوقاً خشبياً طويلاً ممدداً على الأرض، وترامت في أذني كلمات وعبارات، كل ما بقي منها في مسمعي: مسافر مسافر. وعلمت بعد ذلك ما لم أكن أعلم، فقد كان هذا الرجل «عمي» زوج أمي، تزوجها بعد طلاقها من أبي، وكان هذا الرجل صالحاً تقياً، يعمل موظفاً في مصلحة البريد، في إصلاح خطوط التلفونات.

وكان ذلك الصندوق الخشبي الممدود في ساحة البيت، هو نعشه الذي حمله إلى مثواه الأخير، فقد توفي بعد زواج أمي بعام أو بعض عام. ولعل كلمة مسافر، كانت تفسيراً لي لمشهد الموت. . .

وعلمت بعد ذلك ما لم أكن أعلم، فقد كنت ولدت في قلعة تبنين، من أعمال لبنان، حيث كان والدي معتقلاً في زمن الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد، وكانت والدتي تركية، تزوجها على زوجة تركية أخرى ثم طلقها، وكان مولدي في عام ١٩٠٨ على ما قدّرت في ما بعد من أعمار أقراني.

وكان أن نقل عمي «قاسم» إلى مدينة طولكرم، ليعمل موظفاً في دائرة المالية، وسافرت والدتي في صحبة أسرته وأقامت معهم. وفي طولكرم تزوجت والدتي إلى موظف البريد «عمي» سليم وبهذا تهيأ لي من يكفلني في حياة الطلاق والفراق. . .

رحم الله «عمي» سليم فقد أنقذني من شقاء اليتم ولو إلى حين، ورحم الله ذلك الزمن الذي كانت فيه رعاية اليتيم صفوة التقوى، بل جوهر الدين، وعنوان الإيمان.

حجارة وتراب

لست أدري كيف كان وكيف صار، فلقد وجدت نفسي أننا أصبحنا نسكن في بيت آخر يقع في الحي الشرقي من المدينة، ولست أحسب أن كلمة بيت تنطبق على الواقع. فقد كان هذا المسكن غرفة واحدة تطل على ساحة واسعة متصلة ببيوت صغيرة مبنية على الطراز القديم، والحي في مجموعه بدائي بسيط، أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة في ساحاته وطرقه ومبانيه وأفرانه.

وكانت غرفتنا من طراز هذه المباني، لولا أن أمي التركية كانت حريصة على نظافته وترتيبه بحيث أصبح واحة هادئة وسط هذا الحي المتخلف!!

وكانت غرفتنا متصلة بباب من الداخل بغرفة أخرى مظلمة، تستعمل مخزناً للتبن، وكنت أرى الفلاحين والفلاحات يدخلون إلى غرفتنا ومنها إلى «المتبن» وعلى رؤوسهم أحمال القش يلقونه، بعضه فوق بعض، حتى إذا كاد «المتبن» أن يمتلئ صعدوا إلى سطحه وأخذوا يلقون أحمال القش من نافذة في السقف.

وكنت أسمع هؤلاء الفلاحين والفلاحات، يغنون وينشدون والأحمال على رؤوسهم، فأجري خلفهم إلى الغرفة المظلمة فأستشعر الرهبة، ولا يسرّي عن نفسي إلا الحداء والغناء.

وإنني لأذكر أنني كنت أحمل كتاباً من كتبي المدرسية وأجلس في الغرفة على مقربة من الطريق المؤدي إلى المتبن، ثم أنطلق في القراءة بصوت عال حتى إذا شاهدت الفلاحين والفلاحات أخذت أقرأ صائحاً، تحدوني الرغبة في أن يسمعوني، وأن يعلموا أنني أجيد القراءة، كما يجيدون الغناء . . .

ولست أذكر متى ذهبت إلى المدرسة، وكل ما بقي في ذاكرتي أنني كنت في المدرسة ولا أعرف كيف ومتى، ولا أعرف من أخذني اليها، أهي أمي وكانت متدينة محجبة على خلاف النساء اللواتي كن يعشن في حينا، أم أن أولاد الجيران تولوا هذه المهمة الشاقة الصعبة!!

وكانت المدرسة تقع في وسط المدينة، ولا تزال في مخيلتي صور متفرقة عن حياة الدراسة في تلك الفترة من طفولتي.

وأبرز هذه الصور أن المعلمين كانوا في الصباح يتفقدون الغائبين من الطلاب، فيرسلون الأولاد الكبار إلى بيوتهم، وهؤلاء يبحثون عنهم في مخابئهم سواء في منازلهم أو في الشوارع والساحات أو في «الحواكير»، حتى إذا ظفروا بهم قادوهم إلى المدرسة يجرونهم جراً، وهنالك يهوي عليهم المعلم يضربهم بقضيب تسمع له فحيحاً وهو ينزل على ظهورهم وجنوبهم، وإذا ترفق بهم يضربهم بكفه في صفعات تتداوى أصداؤها في «الصف»، بل وفي ردهات المدرسة كلها!! وأذكر أن «فرقة» الأولاد الكبار قد جروني إلى المدرسة مرة أو مرتين.

وفي هذه المدرسة تعلمت القراءة والكتابة في جو من الرهبة، فقد كنا نرتجف بين يدي «المعلم حسن» وكنا نخشاه خشية عظيمة.

وكان المعلم حسن «كريم العين» أعور، ولكنه مع ذلك كان يجيد الخط إجادة رائعة!! وحين كان يكتب على اللوح كان كل حرف يؤلف لوحة فنية. أو هكذا كان يبدو لي، فالصغير يرى في معلمه المثل الأعلى في الفهم والإجادة والقوة، ولا يلبث بعد تقادم الزمان حين يتصل ببقية الناس، أن يراه شخصاً عادياً وربما دون بقية الناس.

ولقد انطمست في ذاكرتي تفاصيل الحياة المدرسية في المرحلة الإبتدائية، وكل ما أذكره أننا كنا نراقب شعاع الشمس وهو يخترق نافذة غرفة المدرسة ليزحف بطيئاً على أرض الغرفة، بلاطة بعد بلاطة.

ويبدو أن شعاع الشمس كان هو ساعتنا التي نحدد بها موعد الانصراف من المدرسة، وكنا إذا وصل الشعاع إلى البلاطة السادسة والسابعة أعلن المعلم موعد الانصراف.

وكان بلاط الغرفة موضع أبصارنا طيلة الوقت، نختلس إليه النظرات ونحن ننتظر موعد الفرج، فقد كان للانصراف فرحة كبرى في نفوسنا، ما استشعرت مثلها حتى ساعة إطلاق سراحي من السجن بعد ربع قرن من الزمان!!

وإن أنسَ لا أنسى يوم الخميس من كل أسبوع، ففي ظهر هذا اليوم تبدأ عطلتنا إلى صباح السبت، ويغمرنا الفرح حين ننصرف من المدرسة وجوارحنا منطلقة إلى اللعب في يوم الجمعة بكامله، وما نستيقظ في صباح السبت إلا والشعور بالانقباض والرهبة يملك علينا مشاعرنا ونحن نهم بالذهاب إلى المدرسة.

ومن تقاليد يوم الخميس «الرغيف والبيضة»، فلا بد لكل طالب في ذلك اليوم

أن يقدم للمعلم رغيفاً وبيضة، ولا أذكر أنني حملت للمعلم هذه «الضريبة»، ولعل حالتنا المادية لم تكن تسمح بذلك، أو لعل الأمر قد غاب في غياهب ذاكرتي في جملة ما غاب من شؤون الطفولة.

وكان الانصراف من المدرسة «عملية» عسكرية بذاتها، طريفة من غير شك، ولكنها تدل على تأصل الروح القبلية في حياتنا القومية.

فقد كان المعلم حسن يجمعنا في ساحة المدرسة صفاً واحداً، ثم ينادي على التلاميذ بأحيائهم.

وكان يصيح: القَبَالا، فيخرج تلاميذ الحي القِبْلِي وينصرفون إلى بيوتهم . .

ثم يصيح: الشّمالا، فيخرج تلاميذ الحي الشَمالي وينصرفون إلى بيوتهم . .

ثم يصيح: الغَرابا، فيخرج تلاميذ الحي الغربي وينصرفون إلى بيوتهم . .

ثم يصيح: الشَراقا، فيخرج تلاميذ الحي الشرقي وينصرفون إلى بيوتهم . .

وكان نصيبي أن أنصرف مع «الشراقا» إلى الحي الشرقي من المدينة، وكنت أسمع التلاميذ الكبار يتناقشون: أي حي أكثر عدداً، وأي حي أشجع وأقوى، ولا أزال أذكر، كأنما المشهد أمامي، وقد انقضى عليه خمسة وخمسون عاماً من الستين عاماً من عمري، أن التلاميذ، وهم في طريقهم إلى أحيائهم، كانوا يتوقفون قليلاً ليتراشقوا بالحجارة، الحي الواحد على الآخر!!

وكانت الحجارة متوفرة أكواماً أكواماً، فلم يكن في البلد طرق معبدة، ولا ساحات ممهدة، وكان كل شيء خارج البيوت حجارة وتراباً . .

الحجارة نتراشق بها. والتراب نعفر به وجوهنا.

تلك كانت طفولتي وطفولة الملايين من الأمة العربية. في العام ١٩١٣، ولعلها لا تزال كذلك حتى الآن في العام ١٩٦٩، في الحواضر والبوادي، والمدائن والأرياف!!

تلك هي الجذورالأولى للتخلف العربي، بل الجذورالأولى للكوارث والهزائم التي حلت بالأمة العربية.

وكان قدر جيلنا أن يشقى بعارها ويكتوي بنارها!

أيـــن أبـــي؟

كان أول ما تفتحت عليه أذناي من شؤون هذه الدنيا أخبار الحرب العالميةالأولى التي بدأت في العام ١٩١٤، وكنت في تلك الفترة في السادسة أو السابعة من عمري.

وكانت السهرة أو مجلس «الخُرّاف» الوسيلة الوحيدة لتداول الأخبار والاطلاع على شؤون الدنيا، والسهرة كانت تزاور الجيران من النساء في الحي الواحد، يرددن فيه ما يسمعن، والأطفال من حولهن بين إغفاء ويقظة، ينصتون إلى هذه الأحاديث، ما يفهمون منه وما لا يفهمون.

ومجلس «الخُرّاف» كان يتنادى إليه الرجال وخاصة الشيوخ منهم فيتحدثون ويدلون بآرائهم، ويتجادلون، ويُخَطِّئ بعضهم بعضاً.

وكان إلى جانب غرفتنا بيت كبير، كنت أرى فيه شيوخ الحي يجتمعون كل ليلة، وفي زاوية من البيت سراج من زيت يرسل بصيصاً مهتزاً يكفي ليرى المرء طريقه..

وكان لهذا المجلس هيبة ووقار، في الظلمة التي تسوده، وفي السكينة التي يتحدث بها الشيوخ، وفي «خطورة» الشؤون التي يناقشونها!!

هكذا كان يبدو الأمر لي ولأطفال الحي، ونحن نراقب الشيوخ يغدون ويروحون في هذا البيت الكبير.

ولم يكن يعادل مجلس «الخراف»، عندنا الأطفال، إلا صندوق العجائب «وكراكوز». وصندوق العجائب، ولا يزال في الريف العربي إلى يومنا هذا، هو السينما المتنقلة التي كنا نتابعها، وهي صندوق في داخله صور متحركة، ترى من نافذة زجاجية في صدر الصندوق. وكان صاحب الصندوق يحطه عن أكتافه على الأرض، ويهرول إليه الأطفال ليشاهدوا صوره بعد أن يعطوه رغيفا أو بعض رغيف، ولم تكن حالي في يسار لأحمل إليه الرغيف، غير أني كنت أدفع أحد الأطفال من أمام الكوة الزجاجية، وأشاهد الصورة، لدقيقة أو بعض دقيقة، ولكن سروري كان يعدل العالم كله!!

أما «كراكوز» فكان بمثابة السينما في يومنا هذا، وأحسب أنه قد انتهى أثره من الدنيا العربية.

وكنا نذهب بعد المساء إلى دكان فيه بعض المقاعد الخشبية، وسراج من زيت، وفي صدر الدكان ستارة يقف وراءها صاحب «السينما»، وبيده أشخاص من الجلد يحركهم، فيقدمهم ويؤخرهم، ويضرب بعضهم ببعض، وهو يتحدث بأصواتهم، ويقص بنبراتهم، في حوار مثير بين «كراكوز، وعواظ، والمدلل»، فيستهوي أفئدة الشيوخ والشباب والأطفال على السواء!! وما أحلى تلك الساعات من تلك الأيام الحلوة!!

ولعلي في سهرة الليل مع أمي وجاراتها، كنت أستمع لما يدور في هذا العالم، ولم يكن من حديث في تلك الفترة من طفولتي إلا حديث الحرب (١٩١٥) وحديث الجراد.

وأذكر أن معلم المدرسة قد أخذ الطلاب لمكافحة الجراد، وخرجنا إلى ضاحية المدينة قريباً من محطة سكة الحديد وبدأنا نبحث عن الجراد في التراب، وهذا كل ما بقي في ذاكرتي.

ولكنني كنت أسمع الفلاحين وهم يقرعون على صفائح التنك، قرعاً قوياً متواصلاً حول أطراف المدينة، وقد دام ذلك زمناً طويلاً، ولا تزال «قعقعات» التنك في أذني حتى اليوم، وقد روي لي في ما بعد أن «حملة الضجيج» هذه، تمنع الجراد أن يستقر على الأرض وبذلك تنجو الأشجار والزروع!!

أما حديث الحرب، فما عسى أن يعرف النسوة من أمره، إنه ترداد لما يقوله الرجال، والرجال يرددون ما يسمعون، بعضهم عن بعض.

وكان مجلس السهرة عندي نوماً هنيئاً عميقاً، ولم يكن حديث أمي وجاراتها إلا تهليلاً يطيب معه النوم، وكان أسوأ ساعة حين تنتهي السهرة، فتوقظني أمي وتعود بي إلى المنزل..

لقد علقت في ذاكرتي أطراف من أحاديث السهرة لا تزال نبراتها ترن في أذني:

«سننتصر على الكفار إن شاء الله».

«اقتربنا من السويس»

«لقد انتهى مد خط سكة الحديد وسنغلب الإنكليز».

«سيدخل جمال باشا إلى مصر وتنتهي الحرب».

تلك كانت هي الأحاديث، أو ما بقي منها في ذاكرتي، ولقد شاء القدر أن يكون لي مع جمال باشا حادث طريف حقاً وموجع حقاً، لقد وصل النبأ إلى المدينة أن

جمال باشا (قائد تركي معروف ومن كبار رجال الدولة العثمانية) سيقوم بزيارة إلى البلاد وأنه قادم في القطار.

وخرج التلاميذ مع أساتذتهم لاستقبال جمال باشا، وأذكر أنني كنت ألبس بدلة جديدة وأن في جيبي ورقة لأقرأها، وأحسب أنها خطاب ترحيب وتحية، وأذكر أن صدرها كان عبارات ملؤها، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله.

وقد انتظرنا على رصيف المحطة وقتاً طويلاً، فما أطل القطار وما أطل جمال باشا. . . وجلست القرفصاء، ولعلي نمت وأنا على هذا الحال، وعدنا إلى بيوتنا في الصباح دون أن نرى الرجل الذي ملأ القلوب ذعراً ورعباً.

وعلمنا في اليوم التالي أن جمال باشا قد وصل، وأنه في مبنى المحطة وأن والدي، الشيخ أسعد الشقيري قد وصل معه. . .

ولم أكن أعرف إلى ذلك الحين أن لي أبا، وأن اسمه الشيخ أسعد الشقيري، فقد نشأت مع أمي، ولم يكن في البيت رجل غير «عمي» سليم، زوج أمي.

وقد عادت أمي وألبستني البدلة الجديدة، ولعل ورقة الخطاب كانت فيها، وأخذت طريقي إلى المحطة لأرى والدي وجمال باشا، وأحسب أن أمي وجاراتها قد زودنني بالنصائح الكثيرة، وأن أقول كذا. . وأن أفعل كذا. .

وكل ما أذكره الآن، أنني دخلت غرفة في الطابق العلوي من المحطة ووجدت بضعة عشر رجلاً بملابسهم العسكرية، وأجلت بصري في وجوههم وأنا أبحث عن والدي بينهم، فلم أر رجلاً على رأسه عمامة، لأتعرف على والدي الشيخ أسعد الشقيري، ولم أستطع أن أميز جمال باشا، سوى أنني رأيت في وسط الضباط ضابطاً مهيباً له لحية سوداء، ويقيناً كان هذا هو جمال باشا، على ما عرفت في ما بعد. .

وكانت دقيقة واحدة خرجت بعدها من تلك الغرفة، ووجدت نفسي في غرفة أخرى فيها بعض الموظفين، من رجال الحكومة في طولكرم.

وفي هذه الغرفة سمعت أن والدي قد خص والدتي بعشر ليرات ذهبية، وخصني ببضعة عشر قرشاً، وهذا ما بقي في ذاكرتي، وأرجو أن لا أكون قد ظلمت والدي، رحمه الله رحمة عرضها السموات والأرض.

ولقد عدت إلى أمي، ألفها بذراعي النحيلتين، وفي نفسي سؤال حزين، أين أبي؟

يتيــم فــي بيــت الجيــران

كان أسعد ما في طفولتي الهرب من المدرسة، وكان الهرب تقليداً شائعاً بين التلاميذ، والذهاب إلى المدرسة ثقيل الوطأة على النفس تحوطه هالة رهيبة من الرهبة، وكانت الكلمة الرائجة على ألسنة الأمهات «هل تقعد عاقلاً، أو تذهب إلى المدرسة؟» وطبيعي أن يرضى الطفل أن «يقعد» عاقلاً في البيت دون أن يذهب إلى المدرسة!!

ويوم أهرب من المدرسة كنت أبحث في الحي عن زقاق ظليل أجلس فيه على الأرض مع أطفال آخرين هاربين، لنلعب بالتراب والحجارة، حتى إذا طاردتنا الشمس انتقلنا إلى مكان ظليل آخر، إلى أن يحين موعد الانصراف من المدرسة فنعود إلى البيت «وكيس» الكتب مشدود إلى أعناقنا، كأننا عائدون من المدرسة.

وكبرت عاماً أو بعض عام، وأصبحت أهرب من المدرسة إلى التلال المجاورة للمدينة، وكان يعسكر فيها في ذلك الوقت الجنود الأتراك، وأذكر أننا كنا نحوم حول خيامهم ونتفرس فيهم وفي أسلحتهم، ونراقب تجمعهم في «الطابور»، وضابطهم يصدر إليهم الأوامر باللغة التركية.

«حاز دور» ـ استعد.

«ايلري مارش» ـ إلى الأمام سر.

«كريا دون» ـ إلى الخلف در.

وليس بعيداً أن يكون ذلك الضابط عربياً من دمشق أو القدس أو بغداد أو بيروت، ويقيناً أن الجنود كلهم عرب أقحاح. ولكن كان عليهم أن يتكلموا التركية، ضباطهم على الأقل!! وأذكر ذات مساء أنني كنت على مقربة من معسكر الجنود قريباً من سراي الحكومة، وكان الجنود ملتفين حول قِدر كبير يغرفون الطعام، فناولني أحد الجنود، وقد رآني شاخصاً في القدر، طبقا مملوءاً بالبرغل المطبوخ، فحملته إلى أمي وأكلنا منه، وكان طعمه كريهاً، وأحسب أننا كنا في فاقة وضائقة فأكلنا وحمدنا

الله. . . ولعاب الفقراء يجعل كل طعام مريئاً وكل شراب هنيئاً. .

وكنت أحسّ الفقر في بيتنا، كما كنت أحسه في تصرفات أمي وفي حركاتها وسكناتها. فأمي كانت مطلقة ثم أصبحت أرملة، وهذا طفلها معها في هذه الغرفة الفقيرة في الحي الفقير في المدينة، وكنت أرافق أمي في زياراتها لزوجات الموظفين الأتراك، وأستمع إلى حديثها بالتركية، وهي لغتي الأولى التي أخذتها عنها، وكان حديثها شاكياً منكسراً.

وكنت أنظر في هذه البيوت فأرى آثار النعمة بادية، الفرش والأسرة والوسائد والستائر والكراسي والطاولات والسجاجيد، وبيتنا خالٍ من ذلك، وكل ما عندنا فراشنا الذي نمده على الأرض ليلاً وننام، وزير ماء من الفخار، وبعض أطباق الطعام، وليس فيها شيء من نعم الله إلا النظافة!

ولست أعي ماذا كان طعامي وكسائي، ولكني أعي أنني في العيد كنت ألبس بدلة وحذاء، ولعل أمي كانت تقتر من هنا وتدبر من هناك حتى يفرح طفلها يوماً واحداً في العام، وهو يوم العيد.

ولم أكن فقيراً في طفولتي فحسب، بل كنت كذلك «شقياً» ولعلهما مترابطان مترادفان، وأذكر أنني هربت مرة إلى «الطابون» المجاور لبيتنا وقضيت الليلة كلها أو معظمها مع الرماد والدخان، وأمي المطلقة الأرملة تكاد أن تصبح ثكلى، فقد كان من اليسير أن أموت مختنقاً في الطابون، وتموت أمي من بعدي تخنقها الأحزان والأشجان.

وأذكر ذات مرة أنني كنت قريباً من جامع المدينة أسير في الشوارع على غير هدى، وإذا بي «أغوص» في «مزبلة» إلى ركبتي، فما خرجت منها إلا وقدماي ملتهبتان بالحروق، ويبدو أن المزبلة كانت قد أحرقت منذ أيام، وكان قدري أن أغوص فيها وهي جمر يعلوه الرماد.

ومرة أخرى قادتني «شقاوتي» إلى الحواكير في ضاحية المدينة، وقضيت يومي في الشمس اللاهبة بحثاً عن حبة تين أو صبر، فعدت إلى أمي مريضاً لأزيد في متاعبها وآلامها، فناولتني مسحوقاً أبيض ملفوفاً في ورق السيجارة، وكان طعمه شديد المرارة، لعله مسحوق الكينا.

وكانت أمي بادية الحزن والانكسار، فلقد كنت أستيقظ في الليل وأراها جالسة في الفراش تدخن، وترسل مع دخانها الزفرات والحسرات.

وأذكر أنني رافقتها في عصر يوم من الأيام إلى المقبرة، والمقبرة قائمة على رابية تشرف على محطة سكة الحديد، وجلست أمي إلى جوار أحد القبور وأخذت تبكي

وتنتحب، وأخذت كذلك ترسل ترتيلاً حزيناً لا أدري إذا كان غناء أو قرآنا!!

وما عرفت من هذا الراقد في القبر، وأحسب أنه «عمي» سليم، خرجت إليه أمي تبكيه، وتبكي معه حظها التعيس، وقد حملتها الأقدار من بلاد الترك إلى هذه المدينة النائية.

وفي ما يشبه القبور، أذكر أنني في ذلك الوقت من طفولتي حيث تختلط الذكريات بعضها ببعض، أذكر أنني صحبت والدتي إلى قرية قريبة من طولكرم اسمها «إرتاح» تناقل الناس جيلاً بعد جيل أن سيدنا يعقوب قد «ارتاح» فيها. . .

وكل ما أذكره أننا نزلنا مع والدتي وبعض السيدات المحجبات في درج إلى قبو تحت الأرض تخيم عليه الظلمة والسكينة والرهبة والبرودة في آن واحد، وقد أخذت أمي تدعو وتتضرع، وأحسب أن العجائز في طولكرم قد أخبرنها أن زيارة هذا المقام والدعاء فيه، تجلب الفرج وتدفع الكرب، وما أكثر ما كانت تعانيه أمي من الكرب، شأن الملايين من الأمهات في دنيا العرب والإسلام، كنّ يمرّغن جباههن على عتبات الأضرحة والمقامات!

ولا أدري كم مضى بعد ذلك من الزمن، وإذا بأمي طريحة الفراش ينتابها مرض شديد، ينهكها القيء والإعياء، وكان حديث الجيران أنها مصابة «بالكوليرا» وكنت أنام في غرفتها وأنا أرى أنها تزداد ضعفاً ورهقاً. .

وأذكر أنني ذهبت إلى «الفرن» في وسط المدينة وأنا أحمل على رأسي طبقاً من الأرغفة ليخبز، وجلست على رصيف الطريق أنتظر الفرّان أن ينتهي، وجال في خاطري أن أمي ستموت، وحاولت أن أبكي وأن أعصر الدموع من عيني، ولكني ما بكيت، فعدت إلى البيت وعلى رأسي طبق الخبز، حاراً لاهباً، وفي قلبي دموع لم تستطع أن تجد طريقها إلى عيني الجاحظتين. . .

وقضت أمي يومين أو ثلاثة تصارع المرض، وفي عصر يوم لا أنساه، توفيت أمي إلى رحمة الله، طلبت شربة ماء، وما إن جاءت الجارة بقدح الماء، حتى كانت قد فارقت الحياة. . .

ويقيناً كانت «السكرة» الكبرى بين سكرات الموت وأمي تحتضر، سؤال تلجلج في صدرها وذهب معها إلى قبرها، ماذا عسى أن يكون مصير «أحمد»، هذا الطفل اليتيم، بعيداً عن أهله وذويه، بل بعيداً عن أبيه.

وأذكر أن أمي حملت إلى المقبرة ودفنت في طرف من أطرافها، فالفقراء يدفنون في جنبات المقابر وفي ذلك المكان أحرق فراش أمي وغادرنا المقبرة والنار مشتعلة،

وفي فؤادي ما هو أشدّ حرقة ولظى، فقد أصبحت وحيداً، طفلاً صغيراً في السابعة من العمر، أنتظر مشيئة القدر!!

وقضيت أياماً في بيت الجيران، أنام مع أولادهم، وآكل وألعب، وأذكر أن عيد الأضحى أقبل علينا بعد فترة وجيزة من وفاة أمي.

وفي ضحى ذلك اليوم رأيت نفسي على سطح بيتنا وأنا بملابس العيد، وكان النهار على غير هيئته، والشمس في غير طلعتها، كل شيء أجمل وأبهى، تغير كل ما في الكون إلى ما هو أكمل وأتم، إنه يوم العيد، ولكني كنت حزيناً منقبضاً: لقد ماتت أمي.. وبعد بضعة أيام جاء موظفو الحكومة إلى بيتنا فأخذوني معهم، حملوا من بيتنا صندوقاً من الخشب المطعم بالمعدن، وانتهى بنا المشي إلى ساحة صغيرة، إلى جوار الشارع في وسط المدينة، فوقفنا، ووضع الصندوق على الأرض، وفتحه الموظفون وأخذوا يخرجون منه ملابس أمي، ومعها قطع من القماش، وراحوا يبيعونها للمارة، وأحسست أن أمي أصبحت تباع في السوق!!

وكانت الملابس تلتقط من الصندوق قطعة قطعة، فتعرض وتباع، ولم أكن أعلم ما يجري، ولماذا يجري، ولكني علمت في ما بعد أن مخلّفات المتوفى، إذا ترك قاصرين، تباع بالمزاد العلني، ويودع ثمنها في صندوق الأيتام، تنمو وتربو، وتدفع للقاصر حين يبلغ رشده.

وهكذا بيعت ثياب أمي واشتُري بها، على ما قيل لي، سندات في البنك العثماني، وكان أن ذهبت الدولة العثمانية وذهب معها مال اليتيم...

وقضيت أياماً بعدها وأنا أسمع الجيران، وهم يقولون لي، إن لي أبا عظيماً في عكا، وإن أهلي على ثراء كبير، وحياة عظيمة وجاه عظيم، وإن عكا مدينة أكبر من طولكرم، وفيها مدارس كثيرة، وإنني سأسافر قريباً إلى أهلي وأبي، وإنني سأعيش حياة سعيدة، وسأتعلم، وسأخلص من الفقر إلى النعيم.

كانت صوراً جميلة رائعة رسمها الجيران في نفسي، وأنا اتطلع للسفر إلى عكا. حيث أهلي وأبي، والحياة الناعمة...

وقضيت في بيت الجيران أياماً تتنازعني مشاعر الحزن والفرح، حزيناً لفراق أمي، فرحاً للقاء أبي، وأنا أتطلع إلى مستقبل غامض، وكنت مع الحرب العالمية الأولى سواء بسواء، لا ندري ما العاقبة وما المصير. وبتّ أستعجل الأيام لأسافر حيث الأماني والآمال... حيث أبي وأهلي.

ليلـة فـي مستعمـرة يهوديـة

في ضحى يوم من أيام الصيف، لعله صيف سنة ١٩١٦، كنت على ظهر حصان، رديفاً وراء «محمود» ابن الجيران، يطارد بي في طرقات مدينة طولكرم فنجتازها إلى سهلها الغربي، تاركاً المدينة التي نشأت فيها فقيرا محروماً، مخلفاً فيها أعزّ ما في دنياي، أمي وعمي، ثاويين في المقبرة ـ قبر في الغرب، وقبر في الشرق. . .

ومضى محمود يطارد بحصانه، ووراءنا سحابة متعرجة من الغبار تحاول اللحاق بنا، وكنت ألفّ ذراعي حول محمود، وأنا أصعد وأهوي على ظهر الحصان، وفي حضني صرة صغيرة فيها بعض ملابسي، ولو أنها وقعت مني ونحن في هذا الطراد، لما فقدت شيئاً، فهي على عكس المثل: ثقيلة الحمل عديمة الثمن!!

وظل محمود يطارد في حصانه، وكوفيته تتطاير في الهواء وأنا أحسب أن طولكرم لم تخرج مثله فارساً، ولم تخرج مثل حصانه جواداً، ذلك كان شعوري وكفى. . .

ووصلنا إلى قرية قاقون، وأنزلني محمود عن الحصان، ولا أكاد أستطيع الوقوف، فقد تخلخل جسدي، فلم يكن تحتي سرج يقي عظامي الناحلة وهي تتلوى وتتأوه على ظهر الحصان.

وقرية قاقون كانت محطة مواصلات بين يافا وحيفا، تقف فيها العربات الغادية والرائحة لتنقل المسافرين بين البلدين.

وكانت العربة المسافرة من يافا إلى حيفا تقوم بهذه الرحلة مرة في الأسبوع، وكان في قاقون «خان» تقف فيه العربة، لتأخذ الركاب القادمين من الجهات المجاورة.

وفوجئنا في قاقون حين قال صاحب الخان إن العربة وصلت في الصباح وسافرت إلى حيفا، ولست أعلم ما دار بين محمود وصاحب الخان من حديث،

ويبدو أنه رؤي أن أنتظر في قاقون إلى الأسبوع التالي انتظاراً للعربة، وعاد محمود إلى طولكرم، وحملت صرتي على كتفي ودخلت الخان. . .

ولعلي كنت في رعاية صاحب الخان مع أولاده تلك الأيام السبعة التي قضيتها في قاقون، أنام في ساحة الخان مع أولاده ليلاً، وألعب معهم نهاراً.

وفي عصر اليوم السابع، وأنا مغمور بلعب الطفولة مع رفاقي، وقد نسيت في غمرته حزني بفراق أمي وفرحتي للقاء أبي، وإذا بالصائح ينادي من الخان بأن أقبلت العربة من يافا وحان وقت السفر.

وسارعت أعدو إلى الخان أحمل صرتي وأقفز إلى العربة، وبودي لو تأخرت العربة ساعة أخرى حتى أكمل لعبتي مع رفاقي.

وانطلقت العربة من القرية التي لم أرها ثانية في حياتي، وعيناي مشدودتان إلى ساحتها التي كنت ألعب فيها، وإلى رفاق فارقتهم إلى الأبد، لقد تعارفنا وتصادقنا، وأكلنا من طبق واحد، وشربنا من إناء واحد. ثم كانت الأقدار فنشأوا في القرية وأصبحوا فلاحين، ولعلهم، في ما بعد، صاروا نازحين لاجئين، ومضيت أنا في طريقي إلى قدر آخر لأصبح إنساناً آخر!!

وواصلت العربة سيرها على الطريق الترابي شمالاً في اتجاه حيفا بين السهول والمروج، وكان سائق العربة رجلاً بديناً يلبس الجزمة حتى ركبته، وهو من أهالي حيفا، وفي ذاكرتي حتى الآن أن لقبه «زكو».

وكانت العربة يجرها حصانان، لها سقف من القماش ولها صفان من المقاعد، الأول يجلس عليه السائق والثاني يجلس عليه الركاب، مفروش بالجلد، ولم يكن في العربة إلا راكب واحد اسمه الدكتور زعرب من أهالي حيفا، وكان في مقتبل العمر، أزال عني وحشتي ووحدتي بأنسه ولطفه، وكان إلى جانبه علبة مملوءة بالحلوى يتناول منها حيناً بعد حين، ولا يأكل حتى آكل معه، وكان ذلك هو أول عهدي بالحلوى، فلا أذكر أني تذوقتها قبل ذلك، وخطر لي أن مثل هذه الحلوى لا يأكلها إلا الموسرون من أهل المدينة، وأنّى لطفل فقير مثلي يعيش في بلد صغير مثل طولكرم أن يتذوقها، أو أن يراها!!

وفي الطريق عرف الدكتور زعرب شيئاً من قصتي، لقد عرف أنني ابن الشيخ أسعد الشقيري من كبار رجال الدولة العثمانية في ذلك العهد، وإنّي لأذكرأنني أخرجت من جيبي «ورقة نفوس» وهي أشبه ما تكون بشهادة الميلاد أو الهوية، مكتوبة باللغة التركية، وعلى رأسها الطغراء الهمايونية الصادرة باسم السلطان محمد

رشاد، مكتوباً فيها اسمي واسم والدي، وقد أوصاني الجيران في طولكرم أن أحرص عليها، وكنت في الواقع أقدّر قيمتها فهي التي تثبت نسبي وصلتي بوالدي وعائلتي، وزاد من حرصي عليها، أنني أصبحت بعد وفاة والدتي، طفلاً وحيداً في هذه الدنيا، وبدت لي «ورقة النفوس» أنها كل رأس مالي في هذه الحياة.

ولقد أطلعت الدكتور زعرب على «ورقة النفوس» لأثبت له أنني حقاً ابن الشيخ أسعد الشقيري، فإن حالي ومظهري لا يدلان على ذلك، أو كما تعلمت في مدرسة الحقوق في ما بعد، أن ظاهر الحال يكذب الادعاء!!

وكيف يمكن هذا الطفل الصغير، النحيل الهزيل، بثيابه الرثة ومظهره القروي، وقد تعلق بالعربة من قرية قاقون، كيف يمكن مثل هذا الولد الحقير أن يكون ابناً لمثل ذلك الوالد العظيم..

كان ذلك، هو ظاهر الحال الذي يكذبه الادعاء، ولكن ورقة النفوس تؤيد الادعاء.

وتفرسَّ الدكتور زعرب في وجهي ورأى فيه ملامح والدي وقسماته، وقال: «سآخذك حين نصل إلى حيفا إلى ابن عمك الدكتور محمد علي الشقيري، فهو زميلي وصديقي ويعمل طبيباً في دائرة الصحة»، فغمرني الفرح وأحسست كما لو أن أبواب السماء قد انفتحت في وجهي وأيقنت أني لاحق قريباً بأهلي، وإنّي سأودع قريباً حياة اليتم وكل ما جناه علي تعدد الزوجات والطلاق، من أذى وحرمان.

ومضت العربة في طريقها، وأنا أجيل النظر في السهول الحبيبة من حولي، والحصانان تتعاقب حوافرهما على التراب في جلجلة رتيبة، لا يقطعها إلا صهيل الخيل حيناً بعد حين، والدكتور زعرب يسليني بالحلوى تارة وبحديثه مرة أخرى.

وآذنت الشمس بالمغيب وإذا بنا نصل إلى قرية «زمّارين» وهي مستعمرة يهودية، فوقفت العربة عند مبنى ذي طابقين، أظن أنه فندق أو خان، وحط السائق «زكو» رحله، وحل الخيول من عقالها، فأطعمها وسقاها، وذهب الدكتور زعرب إلى حيث لا أدري، وبقيت أنا في العربة لا أدري ماذا أفعل!!

وحين أقبل الليل ألقيت بجسدي على المقعد الخلفي، ونمت ليلة هادئة لم يكن يقطعها إلا شخير الخيل، ونام السائق على المقعد الأمامي، وكان قدري أن أنام في مستعمرة يهودية لأول مرة في حياتي، وجاء الصراع مع الصهيونية عبر جيلنا، ليجعلها آخر مرة أدخل فيها مستعمرة يهودية.

ونهضت في الصباح المبكر على مشهد أذهلني، كدت أطير له فرحاً، ذلك أنني رأيت سيدة تصعد سلم الفندق الذي أنخنا بجواره، ووثب فؤادي وبصري إليها: ما أشبه هذه السيدة بأمي، هذه طلعتها وهذه مشيتها، هذا هو طولها، وهذا هو وجهها، كل شيء فيها هو أمي، لولا أن هذه السيدة تسير من غير حجاب، والعهد بأمي أنها محجبة دائماً إلا حين تكون في البيت.

وأخذت السيدة تصعد السلم درجة درجة، وقلبي يتابعها ويتأملها ويتفحصها، وأنا أتمنى أن أقفز إليها وألقي بنفسي بين أقدامها وأضمها وأشمها، كانت تلك مشاعري وخواطري، تجددت معها فجيعتي بوفاة أمي، ودخلت السيدة إلى المنزل، وكان المشهد كله كأنه رؤيا في اليقظة، في النهار، وسرعان ما أفقت على الحقيقة الأبدية، إن الأم في هذه الدنيا واحدة، ولا ثاني لها، مهما تشابه الناس في اليقظة أو في المنام...

وعاد الدكتور زعرب إلى العربة، وأعد «زكو» العربة للسفر، وخرجنا من مستعمرة زمّارين لأشاهد عربات زراعية طويلة، فيها المعاول والفؤوس والأدوات الزراعية، يسوقها يهود بعضهم طاعن في السن، يلبسون الملابس الأوروبية والقبعات على رؤوسهم، ولقد كانوا فلاحين مزارعين في ملابس أجنبية، وكان عهدي بالفلاحين أنهم يلبسون «القمباز» والكوفية والعقال...

ولكن هذه الفوارق لم تثر انتباهي ولا استغرابي، كما أن وجود هذه المستعمرة اليهودية بين القرى العربية لم تكن له معان خاصة في نفسي، وكل ما في الأمر أن هؤلاء الناس يهود، وأن هذه القرية مستعمرة يهودية، ولست أذكر أن الدكتور زعرب قد تحدث شيئاً عن المستعمرة اليهودية ولعل أحداً لم يكن يدري أن القدر يخبئ في ثناياه صراعاً رهيباً بين العرب واليهود، وأنه سيكون لي دور في هذا الصراع.

وأخذت العربة طريقها على الدرب الترابي متعرجاً مرة مستقيماً أخرى، والسائق يلتمس المسارب الصلبة مبتعداً عن الجهات المتربة ليخفف عن الخيل وعثاء السفر، حتى إذا كانت الظهيرة وصلنا حيفا، ولشد ما كانت دهشتي!

لم تكن حيفا كبيرة في هذا العهد، ولكن أخذت بشوارعها المبلطة، وأين منها شوارع طولكرم بترابها ووحلها، وراحت العربة تسير بين البيوت الجميلة، والدكتور زعرب يشير إلى السائق يميناً ويساراً وأماماً، بحثاً عن بيت ابن عمي إلى أن بلغنا المنزل المنشود.

وسارعت إلى المنزل، ودخلت على ابن عمي وكانت ساعة عجيبة غريبة. الدكتور محمد علي الشقيري كانت له سلطة كبرى في حيفا يستمدها من نفوذ عمه

الشيخ أسعد الذي كان في ذلك العهد مفتي الجيش الرابع ورفيق جمال باشا صاحب الصولة والدولة، ومن أجل هذا كان الناس يهابون الطبيب الشقيري، وكان هو حريصاً أن يبدي لهم الهيبة، ومن يكون هذا الطفل المهلهل يدخل على «الدكتور الشقيري» ولم يكن أحد يجرؤ على الوصول إلى عتباته. .

وبادرت فوراً إلى جيبي وسللت «ورقة النفوس»، ودفعتها بين يديه، قبل أن يمضي أي وقت للسؤال والجواب.

وقرأ الدكتور الشقيري «ورقة النفوس» ورأى نفسه أمام ابن عمه، ويقيناً لولا ورقة النفوس، لم يكن يتردد الدكتور الشقيري في أن يلقي بهذا الطفل من النافذة، فقد كان الزمن زمن المظالم، رخصت في عهده الأرواح، واستبيحت الحرمات، ناهيك عن ظروف الحرب وقسوتها، وهوان الرجال قبل الأطفال.

وبعد حديث قصير، قال لي ابن عمي إنه سيرتب أمر سفري إلى عكا في صبيحة اليوم التالي، فسرّى عن نفسي، حتى إذا أقبل الليل استغرقت في نوم عميق، فها أنا في غرفة نظيفة وعلى فراش وسرير وغطاء، ولم أكن قد ألفت شيئاً من ذلك، لا قليلاً ولا كثيراً. .

ولم يعكر صفو نومي إلا أنني كنت طيلة الليل أستشعر نفسي وأنا في العربة، تميد بي على التراب، صلباً وليناً بين منعرجات ذلك الطريق الوديع. .

وقد استيقظت في الصباح، وأنا اتطلع بلهفة وشوق إلى عكا، كما لو كان الطفل الصغير قد حفظ «الحديث» النبوي «**طوبى لمن رأى عكا**».

ويكاد ينعقد الإجماع أن هذا «الحديث» ليس له سند صحيح. . إلا أهل عكا. . فهو عندهم صحيح أيما صحيح!!

المساعـي الحميـدة مـع خالتـي

وفي الصباح غادرت حيفا وقد سبقتني أحلامي وآمالي إلى عكا، ورأيت نفسي أركب حماراً، وأنا أشدّ ذراعي حول وسط رجل من آل الزفري من حيفا، ولا أعرف عنه شيئاً غير ذلك.

ومضينا نحن الثلاثة، أنا والزفري والحمار، على ذلك الخليج الفاتن بين حيفا وعكا، على ميمنتنا كثبان الرمال النقية البيضاء، تنعكس عليها أشعة الشمس، فتغدو كأنها روابٍ من الفضة، انبثق من آكامها نخيل هنا «وطرفة» هناك، وعلى مسيرتنا البحر الرحب الفسيح، بلونه الأزرق، والأمواج الهادئة تتكسر بأناقة ورشاقة على الشاطئ فتؤنس المسافرين في وحشتهم ووحدتهم.

وكان على الحمار أو سائق الحمار ـ لا أدري ـ أن يتخير سيره على الشاطئ، يلامس في حوافره زبد الموج المتكسر على الرمال، ثم ينحرف يميناً دون أن يغوص في الكثبان.

ولم يكن الزفري مشفقاً عليَّ في هذه الرحلة فقد كان مستريحاً على السرج، وأخذ يهمز الحمار يحثه على الركض، غير مبال بالرديف الصغير الذي وراءه «ينطنط» على لحمه وعظامه.

ولكنني كنت مأخوذاً بروعة البحر وجماله، وأنا أراه لأول مرة في حياتي، فنسيت الساعات الأربع التي انقضت على الطريق ونسيت معها المشقة والعناء. .

ووصلنا عكا، فلم تستوقفني أسوارها وقلاعها وحصونها وأبوابها، فقد كنت في شغل شاغل عن ذلك، تواقاً إلى لقاء أهلي، وكل همي أن أصل إلى البيت، لآكل أحسن الطعام وألبس أحسن الكساء وأنعم بالحياة الرغيدة التي طالما حدثني عنها الجيران في طولكرم.

وسار بنا الحمار في الطريق لا يدله أحد، فهو طريق واحد، لا يضل فيه

الإنسان ولا الحيوان، حتى إذا وصلنا «حمّام الباشا» شد الزفري باللجام فتوقفنا عند منزل يفصله عن الزاوية اليشرطية الطريق العام.

ودخلت المنزل أحمل معي صرتي الصغيرة، ورحت أركض في المعبر، وأصعد السلم إلى الطابق الأعلى، واقتحمت قاعة الدار لأجد فيها سيدة بدينة، منحنية على ذاتها، وهي تنظف البلاط، ومن غير سلام ولا كلام قبلت يدها ثلاث مرات، فلقد أوصاني الجيران في طولكرم بأن أكون أديباً، وأتجنب الشقاوة، حين أصل إلى أهلي في عكا، وأن أبادر إلى تقبيل أيديهم واجتذاب عطفهم ورضائهم، فأنا ذاهب إلى بيت فيه زوجة أبي، خالتي، ضرة والدتي!!

وظننت وأنا أقبل يد السيدة البدينة أنها «خالتي» وقد بالغت بالتخضع والمسكنة بين يديها، ولكني سرعان ما اكتشفت أنها الخادمة «ماريانا» وأن البيت الذي أنا فيه هو بيت العائلة القديم يسكن فيه عمي وعائلته، وأن والدي وعائلته يقيمون في بيت خارج السور، أعظم وأفخم، فغمرتني السعادة والبشر، وأصبحت أستبق الساعات لأصل إلى البيت السعيد.

وقضيت في بيت عمي يومين أو ثلاثة، وأنا أستمتع بطعام شهي لم أكن قد عرفته ولا تذوقته، وصرت أتساءل في نفسي: لم يكن لي عهد بهذا الطعام اللذيذ وهذه الفاكهة الحلوة، أهو الفقر الذي كنت فيه، أو أن المدينة التي نشأت فيها لا تعرف شيئاً من ذلك؟

ورحت أتساءل في نفسي كذلك، لَمِ لَمْ أذهب إلى بيت والدي، وهو بيت أعظم وأفخم، إنه لا يضيق بي، وهو يتسع للخدم والحشم.

علمت بعد ذلك ما لم أعلم، علمت أن الأهل وأصدقاء العائلة كانوا يحاولون أن يجدوا مدخلاً لطيفاً ومناسبة حسنة ليكاشفوا خالتي أنني قدمت إلى عكا، وأحسب أنهم أخبروها بوفاة والدتي، وأنه لا يليق بالشيخ أسعد الشقيري أن يكون ولده عالة على الناس...

ويبدو أن المساعي الحميدة قد أفلحت، فقد قبلت الخالة أن أذهب إلى بيت والدي. وفي اليوم الرابع تركت بيت عمي إلى دار والدي، فوجدت نفسي في منزل كبير يفصله عن البحر الطريق العام، له حديقة كبيرة محاطة بسور، وفيه قاعة كبيرة وغرف فسيحة ومن حوله غرف الخدم والحشم.

وجلست في مدخل البيت بعض الوقت، وأصبحت «فرجة» للداخلين والخارجين، وكان الباب يفتح عليّ من حين إلى حين، لتتفرج علي النساء والبنات

والأولاد، وكلهم يريد أن يرى هذا الطفل الوافد عليهم من القرية، ولم أكن أدري، أهؤلاء إخوتي وأخواتي وقريباتي، أم إنهم من الخدم والحشم!!

وأحسب أن منظري كان مزرياً، فقد كنت هزيلاً، ووجهي نحيلاً ليس فيه إلا عينان جاحظتان وجبهة عريضة، وكان يزيد من حالي المهلهل أن لهجتي كانت فلاحية قروية، ليست كلهجة أهل المدينة رقة وعذوبة!!

وما إن انتهت فترة «الفرجة»، حتى أدخلت إلى إحدى الغرف ومعي صرتي، وأحسست أن الجميع من حولي يسخرون مني، ويتغامزون عليّ، ولعل الخدم قد شاركوا في هذه السخرية، ليزدادوا زلفى إلى «خالتي»، وهي سيدة البيت، الآمرة الناهية.

وما هي إلا هنيهة حتى أدخلت الحمام، وتولت أمري إحدى الخادمات فغسلتني ونظفتني، وعدت إلى غرفتي، وأنا أحسّ أنني قد خلعت عن جسدي أوساخاً عمرها ثماني سنوات. . أو هكذا خُيِّل إلي.

وكان ذلك الوقت آخر عهدي بالصرة التي رافقتني في سفري من طولكرم إلى زمّارين إلى حيفا وإلى عكا، فلعلها رميت مع النفايات والقمامات، وألبست ملابس لم تكن جديدة، ولكنها كانت نظيفة وجميلة، وأحسب أنها من ملابس أَخَوَيّ لأبي، «عفو» و«أنور»، وأولهما يكبرني بخمسة أعوام وثانيهما يصغرني بعام واحد. وما أكثر الملابس عندهما، يوزعون منها على أولاد الفقراء. فلم لا يكون لهذا الطفل الوافد نصيب منها؟!

وقد اضطجعت على الوسادة، نظيفاً مستريحاً، سعيداً بالملابس النظيفة، وبصري مشدود إلى سقف الغرفة، أنظر في الألواح الخشبية بألوانها الجميلة، فانقطعت صلتي بالماضي، وأصبحت أعيش من جديد أنتظر ما يأتي به القدر من شؤون وشجون. . . والعمر كله. . شؤون وشجون.

دقيقــة واحــدة مع أبــي!

في بيت والدي في عكا، على ذلك الشاطئ الساحر، وعلى مقربة من القلعة التاريخية، بدأت لي حياة جديدة، في بيئة جديدة، وأمام ظروف جديدة، كأنني انتقلت عبر عشرة قرون أو يزيد، وفي لحظة من الزمان.

لم أر والدي في تلك الفترة فقد كان مسافراً إلى تركيا، وكان لا يكاد يصل إلى عكا حتى تصل إليه برقية من جمال باشا يستدعيه فيسافر لتوه.

وكان في البيت خالتي وأخواي «عفو وأنور»، وشقيقات ثلاث. وكانت في البيت سيدة أخرى طاعنة في السن، تقية صالحة، هي خالة خالتي، كانوا يطلقون عليها لقب «نانا» على عادة الأتراك.

وكان البيت مملوءاً بالخدم والحشم رجالاً ونساء، بالإضافة إلى العجائز من فقيرات المدينة، اللائي كن يقصدن بيتنا طلباً للصدقة أو لتناول الطعام. فقد كانت الحرب العالمية الأولى في أواخر عهدها، وعمّ الفقر وانتشرت المجاعة، حتى غدا الناس يأكلون ما يجدون في الشوارع، من قشور البطيخ وما أشبه، هذا إذا وجدوه.

وكانت حياتي الأولى في بيت والدي حياة مواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة، أقضي معظم الوقت مع الخدم، فآكل في المطبخ وأنام في غرفة مجاورة، معزولاً محروماً، فلا أختلط بإخوتي ولا يختلطون بي، وكان وجودي في البيت وجود يتيم، بل لعل اليتيم أسعد حالاً، ذلك أنه يلقى الحب والعطف.

وكيف ألاقي الحب والعطف، وخالتي صاحبة الأمر والنهي، لا تطيق رؤيتي وأنا ابن ضرتها. وكانت خالتي من «أضنة» من بلاد الأناضول، صارمة قاسية، لا تقبل التعايش السلمي ولا الحلول الوسط، والمرأة يهون عندها كل شيء إلا الضرة وأبناء الضرة، تلك طبيعتها الإنسانية التي فطرت عليها فلا لوم ولا تثريب.

ولم يكن أحد في البيت يجرؤ على مخالفتها، فلا يستطيع أحد أن يتودد إليّ

بحضورها، أو يذكرني بخير في مجلسها، والطامة الكبرى حين يمتدحني أحد في مجلسها، أو يطري تصرفي وسلوكي، والويل لمن يذكر لها تفوقي في المدرسة.

وقد انتقلت مشاعرها هذه إلى الأسرة جمعاء، مع درجات في التفاوت. فقد كانت عائلة عمي تتودد إليّ ولكن في غيبتها، وكان إخوتي يعاملونني بالإهمال والإنكار، ما خلا أخي الكبير فقد كان بارّاً بي وعطوفاً عليّ.

وكان الخدم والحشم يبالغون في رعايتي، فالطبقات المُعذَّبة يواسي بعضها بعضا، وكانت العجائز حين أجلس معهن في المطبخ، يحاولن تسليتي وتعزيتي بكلمات حلوة وعبارات مؤنسة لا تزال ترن في أذني، وهن يهمسن إليّ:

«الله كريم»

«والله ستكون أحسن منهم كلهم»

«الله سينصرك عليهم»

«إصبر إن الله مع الصابرين»

وكانت العجائز يلذن بالصمت حين يسمعن وقع أقدام «الخالة»، وهي تسير إلى المطبخ في بعض شؤونها، عابسة مقطبة.

غير أن الخادمة «أم درويش» كانت على خلاف ذلك، فهذه كانت أمور البيت بين يديها، وقضت مدة طويلة في المنزل وشاركت في تربية إخوتي.

وكانت أم درويش أقسى علي من خالتي، في غلظتها وقسوتها، ولعلها كانت تفعل ذلك مرضاة لخالتي، أو تضامناً صادقاً معها في مشاعرها وعواطفها، وأحسب أن هذه المشاعر طبيعية جداً، بالنسبة إلى خالتي أو حتى إلى الخادمة أم درويش، تغمدهما الله بالمغفرة، وقد أصبحتا في ذمة الله، فالزوجة لا تطيق أن ترى بعلها يتزوج عليها وقد وهبته نفسها وجوارحها وحياتها، ولا تطيق بالتالي أن ترى أبناء ضرتها ينافسون أبناءها ويقاسمونهم الحياة.

هذه مشاعر طبيعية حقاً، من النساء من تتغلب عليها، ومنهن من لا تستطيع، ولله في خلقه شؤون، رحم الله خالتي وأم درويش وأفسح لهما جنته ورضوانه.

وكبرت عبر السنين، وكبر معي عقلي وقلبي، وازددت معذرة ومغفرة لخالتي، وازددت ترحماً عليها وتساءلت: إذا كان الرجل يريد امرأته لنفسه ولا يريدها لرجل غيره، فلم إذاً ترضى المرأة أن يكون زوجها لامرأة أخرى. . . لامرأة غيرها؟

ولكن «النانا» السيدة الصالحة التقية، كانت مثواي ومأواي، وإليها يعود الفضل

في تنشئتي وتربيتي. . فقد كنت أنام معها في سريرها، وكانت تعنى بي عناية بالغة، كما لو كنت ابنها وأعز.

حقاً إن «النانا» لم تستطع أن تجعلني في مستوى إخوتي من حيث المعاملة والمكانة في المنزل، فقد كانت خالتي مصرّة على أن يكون لأولادها المقام الأول والحظ الأوفر، ولا أحسبها على باطل فذلك هو ابن آدم وآدم من تراب. . . وهذه أخلاق التراب!!

وكنت أقضي كثيراً من الوقت إلى جوار «النانا»، فقد كانت طاعنة في السن، تجلس القرفصاء إلى جانب «كانون النار» وهي تأخذ «بالملقط» جمرات النار لتضعها على «أركيلتها» التي لم تكن تفارقها لا ليلاً ولا نهاراً، حتى لتكاد أن تكون الأركيلة طعامها وشرابها.

ومضت شهور وشهور وأبي غائب عن البيت، إلى أن سمعت ذات يوم أنه عاد من سفره، يحمل معه الهدايا الفاخرة من تركيا.

وعجّ البيت بالزائرين من الأهل والأصدقاء وكبار رجال الحكومة في عكا، ليسلموا على والدي، فقد كان صاحب جاهٍ عظيم في الدولة يقصده القاصي والداني للشفاعة أو الوساطة. وكان والدي لا يردّ رجاء أحد، حتى إن جمال باشا قال مرة، كما علمت في ما بعد: «عجبت لأمرِ الشيخ أسعد، ما أكثر كتب الشفاعة التي يرسلها إلي، وكثير منها يناقض بعضها بعضا، فهو يتوسط لأهل القاتل ولأهل المقتول، وفي وقت واحد».

ومضت أيام وأنا أنتظر أن أرى والدي ويراني، فإني متطلع إلى لقياه، وإلى نصيبي من الهدايا الفاخرة التي تسامع أهل البلد بأنبائها، وأخذوا يقصون حديثها، فلم يكن لي حظ في اللقاء، ولا نصيب في الهدايا!!

وأذكر أنني ذات يوم، أُدخلت على والدي في غرفته، وأحسب أن خالتي كانت غادرت المنزل في ذلك اليوم لزيارة أو نزهة، فكانت فرصة للتعارف بين الولد وأبيه!!

ولست أذكر الآن ما كان بيني وبين أبي، ولعل الجلسة لم تتجاوز دقيقة واحدة فقد كانت مختلسة وقصيرة، فلم تترك ذكريات محددة في نفسي، وقد بدا لي في ما بعد أن والدي، وهو ما هو عليه من شخصية كبيرة وألمعية نادرة، كان يخشى خالتي، أو على الأقل يريد أن يتجنب أن يقع معها في أي إشكال، أو قيل وقال.

وكل ما أذكره، أن والدي قد دسّ في يدي بضعة قروش وهرولت من الغرفة، وكانت فرحتي عظيمة فهي أول «قروش» تصل إلى يدي.

ولعل فرحتي بالقروش كانت أروع من فرحتي باللقاء، وماذا عسى أن تخلفه في نفسي نظرات مختلسة في لقاء وجيز مع أبي. . بعد ثمانية أعوام بأيامها ولياليها، لم أنعم خلالها أن أكون في حجره أو حضنه!!

غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلاً، فما إن انقضت ساعة أو بعض ساعة، وأنا أتفرسّ القروش بيدي، وأعدها واحداً واحداً، ثم أكرر عدها حيناً بعد حين، حتى رأيتني «مطوقاً» بأخي أنور ومعه فتيان العائلة وعدد من الخدم. . .

وكان أخي أنور يحمل مشاعر أمه، «الخالة»، ولا يفتر عن إلحاق الأذى بي والتعرض لي بمناسبة وبغير مناسبة، ويظهر أن بعض الخدم قد نقلوا إليه النبأ الخطير، لقد دخل أحمد على والده ونفحه ببعض القروش!!

فأخذني أخي أنور و«عصابته» إلى خارج المنزل، وبعد «معركة» قصيرة لم يكن فيها تكافؤ بيننا، انتزع القروش من يدي وعدت إلى البيت «معدماً»، كما كنت طيلة عمري إلى ذلك الوقت. . .

ثم مضت أيام، وسرى الخبر في البيت، بأن والدي على أهبة السفر، فقد تلقى برقية من جمال باشا يستدعيه للسفر. . .

وصباح ذات يوم، خرج والدي من غرفته وهو في ملابسه، في جبته وعمامته، ووسام عثماني صغير على صدره، وهو يتمتم آيات قرآنية بهيبة ووقار. . يحيط به الأهل والأقرباء في سكون ورهبة. .

وحين همّ والدي بالانصراف، تقدم إخوتي فقبلوا يده وقبلهم، وأودع في يد كل واحد ورقة مكتوبة فيها آية قرآنية، وكانت هذه عادته حين السفر، وركب العربة ومضى إلى سفره.

أما أنا فكنت واقفاً بعيداً عن الجمع، فلم أجرؤ على الاقتراب من والدي لأقبل يده ويقبلني، وأحسب كذلك أن والدي لم يجرؤ على الاقتراب مني، فقد كانت الخالة موجودة، واقفة له بالمرصاد!!

وعدت إلى غرفتي مغموماً مهموماً، لا يسليني ويعزيني إلا صوت عجوز، يهمس في أذني برفق وأناة، وفي سكينة مليئة بالإيمان: إصبر إن الله مع الصابرين. .

ليعـش ســلطانـنــا طويــلاً

تلك كانت حياتي في البيت، أمّا خارج البيت فقد غمرتني حياة المدرسة، ولا شيء غيرها، وماذا عسى أن يكون في عكا لمن هو في مثل عمري، والحرب العالمية الأولى باسطة ظلها الثقيل على حياة الناس جميعاً لا فرق بين فقيرهم وغنيهم.

وكنت في طريقي إلى المدرسة، من خارج السور إلى داخل المدينة، أحسّ أن البلدة خالية من أهلها، بعض الباعة المتجولين ينادون على الكعك، ونفر من الناس في طريقهم إلى السوق، وعدد من الموظفين في طريقهم إلى السراي، وقليل من الفقراء يتسولون في الشوارع، وطائفة من الضباط يسيرون بسيوفهم المزركشة، وجمع من الشرطة والأولاد يحيطون بأحد المنازل بحثاً عن جندي هارب، أو شاب مختبئ من الجندية، والناس يصيحون «فرار»، «فرار»، وكان الترك يستعملون هذه اللفظة العربية للهاربين من التجنيد!!

وأذكر أنه كان في بيتنا في الطابق الأسفل، شاب من سراة المدينة من آل ميري قضى شهوراً طويلة وهو معتصم في منزلنا، فراراً من الجندية، وكان الخدم يدخلون عليه بالطعام في الوجبات الثلاث، وهو آمن مطمئن، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقبض عليه، ومنزل الشيخ أسعد الشقيري، صاحب الدولة والجولة، أمنع من عقاب الجو!!

وكانت هذه المشاهد تتكرر أمامي في غدوّي ورواحي، في الطريق إلى المدرسة، وكانت المدرسة في داخل المدينة بين أزقتها وشوارعها الضيقة، ولكن الطرق كانت مبلطة ومعظمها مسقوف لا يجعل للمطر والشمس سبيلاً.

وكان في المدينة مدرسة إعدادية، وعدة مدارس ابتدائية موزعة في أحيائها، وقد بنيت المدرسة الإعدادية خارج السور قريباً من بيتنا على أكتاف الطلاب الشبان،

وكنت أراهم يحملون الحجارة والطين، ويناولون «معلم البناء» فيبني، ويبدو أن المدينة لم يكن فيها عمال أو أن الأموال لم تكن متوفرة، وبهذا استراح الطلاب من الدروس، وحملوا المعاول والفؤوس!!

أما مدرستي الابتدائية فقد كانت في مبنى قديم محكم الأبواب وله سور عال، ولعل الاختيار قد وقع على مثل هذا البناء حتى «يضبط» التلاميذ ولا يهربون، وقد كان بعض الآباء يأتون بأبنائهم إلى المدرسة ويدخلونهم الباب، ويسلمونهم إلى «بواب» المدرسة، وكان بعضهم يأتي في المساء «ليتسلم» ابنه ويعود به إلى البيت «ليذاكر» ويدرس، ولا يفلت إلى الشارع.

وكنت مواظباً على المدرسة، مجتهداً في دروسي، وكثيراً ما كنت أبكر في الذهاب إلى المدرسة حتى قبل أن تفتح أبوابها، ومرات ومرات كان «البواب» يحضر إلى المدرسة ليجدني جالساً على العتبة، فيفتح الأبواب وأدخل معه.

ولعل هذا الجدّ من جانبي، طبيعة في نفسي منذ صغري، ولعله قد تضاعف بقدر ما كنت أسمعه من العجائز في بيتنا من النصح الملح، بالانكباب على الدرس، وأن الدرس وحده هو الذي سيأتيني بالفرج.

بل لعل ما كنت ألاقيه من الحرمان في البيت وما يلاقيه إخوتي من الدلال والعناية، كان حافزي على العلم، فلطالما همس الخدم والعجائز في أذني: «بالعلم ستصير أحسن من الجميع».

وكانت دروسنا في هذه المدرسة الابتدائية، باللغة التركية، وكان المعلمون عرباً ومعظمهم من سكان المدينة، وكان القرآن أحد مواد الدراسة، و«التجويد» مادة مستقلة، وهو علم له قواعد صارمة في ترتيل القرآن.

ولكن الغريب العجيب أن «الصرف والنحو» كانا يدرسان باللغة التركية، فقد كان المعلم ولقبه بالتركية «خواجه أفندي» يجلس على كرسيه وعمامته «جالسة» على رأسه، يميل إلى الأمام والوراء وهو يقرأ بأعلى صوته ونحن نكرر من ورائه:

زرب، يزرب، إزرب، لا تزرب، إلى آخر أفعال الصرف.

يقابل ذلك باللفظ الصحيح: ضرب، يضرب، إضرب، لا تضرب... وشتان بين اللفظين، في النطق والمعنى، ولكن هذه هي اللهجة التركية، وكان على

«خواجه أفندي» العربي العكاوي أن يعلمها للتلاميذ العرب في هذه المدينة العربية. . . !!

وكانت الكتب بين أيدينا باللغة التركية كالحساب والقراءة العامة، ولم أكن أجد مشقة في ذلك فقد كانت اللغة التركية هي لغتنا في البيت، وأذكر أن التلاميذ كثيراً ما كانوا يسألونني عن بعض الألفاظ التركية، ويستعينون بي في فهم دروسهم.

ومع ذلك فقد كنت مولعاً باللغة العربية والقرآن منذ نشأتي، وظل ولعي باللغة يرافقني في جميع مراحل التعليم حتى تمكنت من قواعدها وشواردها وأصبح الإعراب سليقتي، فما فسدت موسيقى الإعراب في أذني إلا بعد أن عملت في الجامعة العربية بعد ثلاثين عاما!! ويومها أصبح اللحن يملأ أذني بما أسمعه من أحاديث الرؤساء والوزراء والسفراء. . . ونسيت اللغة التركية إلا قليلاً، ولكني بقيت متمكناً من اللغة العربية ازداد مع العمر شغفاً بها، وأنا أبتسم كلما ذكرت العربي (الفارسي) سيبويه وهو يدفع بكتابه **الكتاب في علم النحو** إلى جمع من علماء النحو والصرف حين قال: خذوا لغتكم من رجل أعجمي. .

حقاً إنني عربي من أسرة عربية من الشرقية من مصر، جاء جد والدي «الشيخ محمد شقير» مع حملة إبراهيم باشا إلى عكا، وقبل ذلك نزحنا من الحجاز، واحد أجدادي أبو بكر بن شقير من الشعراء المجيدين، ولكن. . .

ولكن هذا الطفل العربي، لو ظلت حملة التتريك تسير في مجراها كما أرادها غلاة الترك لأصبح «تركياً» ومعه ملايين الأطفال، من الأمة العربية، فقدت خصائصها العربية.

ولم تكن مهمة التتريك عسيرة، ولا تحقيقها مستحيلاً، فقد كانت الروح الدينية عميقة متأصلة وكانت الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، وكان أكثر رجالات العرب يحسون عن شعور صادق أنهم يعيشون في دولتهم ويقومون على خدمتها، وكان والدي واحداً بارزاً من هؤلاء. . .

وكان أول ما نفعله في الصباح في المدرسة، أن نقرأ دعاء دينياً باللغة العربية، ثم نقف أمام العلم التركي الأحمر يتصدره الهلال والنجمة، ثم نصيح بأعلى صوتنا بالتركية:

بادشاهم جوق باشا ومعناها «ليعش سلطاننا طويلاً». .

ويذكر الراسخون في العلم أن الله سبحانه وتعالى يستجيب لدعاء الأطفال. فإن أبواب السماء مفتوحة لأصواتهم الناعمة، ولكن يبدو أن دعاءنا لم يجد قبولاً عند الله جلّ جلاله، فما هو إلا عام أو بعض عام حتى هزمت الدولة العثمانية، وخلع سلطاننا، محمد رشاد عن العرش، وانتهت دولة الخلافة الإسلامية وقامت الجمهورية التركية لتعلن زوال الإمبراطورية العثمانية، من أعظم إمبراطوريات التاريخ، إن لم تكن أعظمها سعة وشمولاً.

وبدأ الفلك دورة من دوراته، ودخل التاريخ في عطفة جديدة من منعطفاته، لتجد الأمة العربية نفسها أمام قدر جديد، يسير جيلنا كله في ركابه... ولا نزال.

الشبـــاب
والوطـــن القومـــي اليهـــودي

على عتبات التاريخ

ومع الأيام بدأت أقتحم طريقي في حياة الأسرة، وبدأت أصعد من مستوى المواطن من الدرجة الثانية شيئاً فشيئاً، فقد تواتر الحديث في المدينة بين الأسر الوجيهة عن أحمد. . . الفتى المظلوم المحروم!!

وكانت هذه الأسر تتنافس الزعامة المحلية فيما بينها، وإن كان من المسلم به أن مقام والدي يتجاوز حدود المدينة، فالمناصب الرفيعة التي بلغها، عضواً في البرلمان «المبعوثان» العثماني، وتوليه أكبر منصب ديني في دولة الخلافة يلي «شيخ الإسلام»، وأخيراً «مفتي الجيش الرابع» مقرباً من قائده المهاب جمال باشا، كل ذلك جعل من والدي شخصية خارجة عن ميدان المنازعات المحلية.

ولكن الأسر الوجيهة، في عكا، مع ذلك ورغماً عن ذلك، وجدت في سيرة أحمد. . . الفتى المظلوم المحروم، قصة يتندرون بها في المجالس، ومطعناً يوجهونه إلى آل الشقيري، هؤلاء الذين لا يخافون الله في هذا اليتيم المسكين!!

وكانت الزائرات من صديقات العائلة، ينقلن هذه الأحاديث إلى بيتنا وتأخذ النساء حريتهن الكاملة في التزيد في هذه الأحاديث أضعافاً مضاعفة حتى تكوَّن «رأي عام» في المدينة بسبب هذا الموضوع.

وأحسب أن ذلك قد شق طريقي إلى حياة أفضل في الأسرة، زد على ذلك أنه أصبحت لي «شهرة» في المدرسة عن جدي واجتهادي وتفوقي على أقراني، فلم لا أكون في مستوى إخوتي وأخواتي. . ؟

وهكذا أصبحت أتناول طعامي على مائدة الأسرة، وإن يكن في طرفها الأخير، وأصبحت أجلس في «الديوان» حين يتجمع الزوار في بيتنا، وإن يكن على مقربة من الباب، وعلى الجملة فقد غدوت مع الزمن «أمراً واقعاً» في المنزل وعضواً عادياً في الأسرة.

وبهذا لم أعد معزولاً، وأصبحت أكثر اتصالاً بالمدينة التي نعيش بها، وأكثر معرفة بشؤونها وناسها، وأخبارها القريبة والبعيدة.

وكانت كل أخبارها تدور حول شؤون الحرب وما جرّته من ضائقة وفاقة، وكان الناس يتحدثون أن البحر (مقطوع) فلا صادر ولا وارد. لقد انقطع الأرز فأصبح الناس يأكلون البرغل، وندر القمح فأكلوا الذرة، وانعدم السكر فشربوا الشاي وفيه حبة تمر أو تين مجفف، أمّا الكاز فقد استعاضوا عنه بخيوط مبلولة بالشمع.

وباستثناء «شحنات» من المواد الغذائية كان يرسلها والدي من بيروت أو دمشق والآستانة، فقد عانينا هذه الأزمة في بيتنا. فما بالك بالأسر الفقيرة، لقد كانت أياماً رهيبة وحالكة.

وكانت عكا مركزاً عسكرياً، «ومتصرفية» تابعة لولاية بيروت، وكانت حيفا «قائممقامية» تابعة بدورها لعكا، وكانت التجارة والخطوط الملاحية مع بيروت مباشرة. وإني لأّذكر أن رفيقاً لي، وهو ابن أحد كبار التجار في عكا، دعاني إلى متجر والده في وسط السوق، فرأيت على طاولته مظاريفه التجارية مطبوعاً عليها «عكا ـ بيروت» وكان طبيعياً لذلك أن ينشأ جيلنا كارهاً للتجزئة متعلقاً بالوحدة.

ولم يكن الجنود والضباط في عكا بأسعد حالاً من المدنيين، وقد شحّت الأقوات عليهم وعلى سكان المدينة، وأصبحت حالتهم تدعو إلى الإشفاق والعطف.

وإنه لمشهد لا أنساه، مضى عليه خمسون عاماً من عمري، يوم كنت أسير بجانب القلعة المجاورة لبيتنا، وشاهدت «العسكري» يحملق بي وأنا أمد يدي إلى جيبي وأتناول الزبيب وآكله حبة حبة.

لست أدري لم حدث وكيف حدث، ولكن الذي حدث أنني ملأت راحتي بالزبيب، وناولته إلى العسكري، فأخذ يلتهمه بنهم مفترس، وتكرر الأمر على هذا الحال مع «العسكري» غير مرة، وأصبح يؤدي لي التحية في غدوي ورواحي وتكاد أن تكون التحية العسكرية.

ولقد زاد من إشفاقي عليه في ذلك الوقت، أنني لم أكن قد عرفت الشبع إلا منذ عهد قريب، وأن عهدي بالجوع قريب أيما قرب، والجياع يتعاطفون، وليس لهم ما يتنافسون عليه إلا الفقر!!

وكانت أخبار الحرب تملأ المدينة كلها، فلم يكن للناس حديث إلا عنها، وكان المصدر الوحيد عن الأخبار رجال الحكومة، فلا صحف ولا الراديو، ولا شيء من وسائل النشر التي تغمر حياتنا هذه الأيام.

وحتى مجالس السيدات كانت مملوءة بأخبار الحرب، وقد كان في عكا عدد من الموظفين الأتراك مدنيين وعسكريين، وكانت نساؤهم يخرجن من بيوتهن محجبات حتى القدمين، تفوح منهن العطور الزكية، ويزرن صديقاتهن، فما يلبثن أن يجلسن في مقاعدهن، حتى يأخذن يتحدثن عن وقائع الحرب «بتركيةٍ» ذات رنين وتغريد، ولن تستيطع أن تتصور جمال اللغة التركية حتى تنصت إلى السيدات التركيات وهن يتحدثن بالتركية، إنها لغة فقيرة حقاً في مفرداتها ولكنها غنية بموسيقى حروفها وألفاظها. . .

وكانت الأخبار تتوارد عن القتال في «جناق قلعه» في الجبهة التركية، وفي قناة السويس في جبهة سيناء، والتعليقات تتوالى عن انتصارات الأتراك وحلفائهم الألمان، وأنّ الإنكليز لا محالة منهزمون ومعهم حليفهم الخائن (الشريف حسين).

وذات يوم سمعنا دوياً هائلاً يتجاوب في المدينة، وعلمنا بعد ذلك أن غواصة بريطانية اقتربت من شاطئ عكا وضربت جسر النعامين في ضاحية المدينة، ولقد أصابته إصابة مباشرة فانحنت قضبانه الحديدية، ولكنه لم يعطب وبقي على هذا الحال سنين طويلة.

ومع ذلك فلم يخطر في بال الناس أن الترك سينهزمون، فقد كانوا يؤمنون بأن «المسلمين» لا يمكن أن ينتصر عليهم «الكفار» الإنكليز، وخاصة أن الأخبار تواترت بأن الخليفة سيعلن «الجهاد». وكان لهذا الكلام رهبة في نفوسنا، وكنا على يقين أنه يوم يعلن الجهاد سيكون لنا النصر كل النصر.

وفي غمرة هذه التعليقات كانت المدينة تشهد حركة عسكرية غير عادية، كان الضباط الأتراك والألمان والنمساويون يكثرون من زيارة المدينة، وأذكر أنه ذات أسبوع انقلب بيتنا رأساً على عقب، فقد قامت حملة تنظيف عامة في جميع الغرف والمعابر والساحات، وأخرج كل قديم من الأثاث والفرش والأدوات المنزلية ليحل محلها جديد، ثم خرجت العائلة بكاملها إلى منازل الجيران وأُخلي بيتنا انتظاراً لمقدم «ضيوف كبار» ومن عسى أن يكون هؤلاء؟

وما هي إلا أيام حتى امتلأ بيتنا بالضباط الألمان والنمساويين وزوجاتهم وبناتهم وكان هؤلاء «ليمان فون سندرس باشا» وعائلته وحاشيته، فقد أصبح «سندرس» قائداً للجبهة وسيتخذ مركز قيادته في الناصرة.

وكان قدوم هذا القائد وعائلته حدثاً مثيراً في المدينة، فارتفعت الروح المعنوية وأيقن الناس أن النصر قد أصبح قريباً، وراحت عائلة القائد تتجول في أحياء المدينة فدهش الناس وهم يرون هؤلاء النساء الجميلات والفتيات الفاتنات غير محجبات وبالملابس الأوروبية، يسرن ووراءهن رتل طويل من العطور الفاخرة، وكانت نساء المدينة، بطبيعة الحال، أكثر اهتماماً بعائلة الجنرال يتابعن خطواتهن ويتفرسن في ملامحهن، ويتشخصن في ملابسهن من النوافذ والشرفات.

وقد بالغ أهلي في الحفاوة بالقائد الضيف وعائلته، وتولت عدد من السيدات المسيحيات من الأسر الوجيهة في عكا ترتيب شؤون الضيافة في بيتنا، وبعضهن يتكلمن الإفرنسية والإنجليزية، وأذكر في جملة ما أذكر أن السيدات المسيحيات قد صنعن أنواعاً من الحلوى والكعك مما لا تحسن صنعه المسلمات، ونعمنا نحن أطفال العائلة بهذه الحلوى الشهية ولم نكن قد أكلنا مثلها إلى ذلك العهد.

وغادر الضيوف منزلنا وعدنا إليه، وروائح الألمان والنمساويين تملأ غرفه، وروائح الكعك تملأ قاعاته، وعشنا زمناً في «خضم» هذه الروائح الزكية.

ومضت أيام وبدأ القلق يساور النفوس، فقد أخذت تتسرب الأنباء عن هزيمة الأتراك وانتصار الإنكليز، وبدأت طوابير الجنود الأتراك تتراجع، وكنا نرى الجنود يعسكرون مساء في الساحة الكبيرة المجاورة لبيتنا ثم ما نلبث في الصباح حتى نراهم قد حملوا خيامهم وأسلحتهم وولوا منسحبين.

ثم تدفقت بعد ذلك موجة من التفاؤل في المدينة فقد وصلت الأنباء أن ضابطاً شجاعاً اسمه «سانكو» قد بدأ يقصف قوات الإنكليز من جبل الكرمل، وراح الناس يتحدثون عن مناعة جبل الكرمل وشجاعة الضابط وإحكام رمايته، وأن الأتراك سينتصرون والإنكليز سيهزمون.

ومضت بضعة أيام على هذا الحوار فإذا بالنبإ يملأ البيوت: لقد سقطت المدينة على أيدي الإنكليز وقد دخلتها فرقة استرالية بخيولها الضخمة، وفرقة هندية بقاماتهم الطويلة وذقونهم المصففة وعماماتهم المكورة.

وكنت يومذاك طريح الفراش مريضاً بالملاريا، وكان مرضاً مستوطناً، لا يغادرنا حتى يعاودنا، وكنت في حالة تشبه الهذيان من شدة الحمى.

وحين صحوت من مرضي، صحا الناس جميعاً على الحقيقة، لقد انتصر الإنكليز وهزم الترك وتراجعت فلولهم شمالاً في اتجاه بيروت. وكان من الطرائف التي بلغت أسماعنا في ذلك الوقت، أن القوات البريطانية التي احتلت الناصرة اقتحمت مركز قيادة «ليمان فون سندرس باشا» ودخلت مكتبه وسيجاره لا يزال مشتعلاً.

وهكذا، وفي أيام معدودات أحسسنا أننا في عهد جديد وأمام تاريخ جديد، لا بالنسبة إلى مدينتنا الصغيرة الجميلة، ولا بالنسبة إلى فلسطين الحبيبة ولكن بالنسبة إلى الأمة العربية بأسرها.

وقضى القدر أن يكون جيلنا العربي كله، وأنا واحد منه، صاحب هذا التاريخ الجديد، وسنرى كيف كان وكيف صار.

كان ذلك في العام ١٩١٨ وما بعده، ووقفنا على عتبات التاريخ.

نطالـب بانتـداب أمريكـا

لقد جاء الاحتلال البريطاني وجاءت معه حياة جديدة في كل شيء، لقد «انفتح» البحر بعد أن كان مغلقاً على عكا طيلة زمن الحرب، وعكا ثغر تجاري قديم وله صلات تجارية مع الموانئ الأوروبية على سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وكان من مهماتي التي أسندت إليّ أو أسندتها إلى نفسي شراء الحاجيات المنزلية من السوق. فكنت أحمل السلة وأذهب إلى السوق في داخل المدينة وأعود بها مملوءة بالخضر والفاكهة واللحم.

ولقد أصبح السوق «معرضاً» زاهياً جميلاً، فسرعان ما أصبحت الدكاكين مملوءة بالبضائع، والناس يقبلون على الشراء بشوق ونهم.

ولقد غابت عن المدينة بضائع كثيرة أربع سنوات كاملة، فلما تهيأت وسائل الاستيراد أصبح الناس وكأنهم في عيد. فهذا الكاز أصبح متوفراً، وأشتعلت القناديل في البيوت والشوارع، والسكر والأرز وردت منه كميات كافية، ولا ترى الناس إلا ويحملون الأكياس إلى منازلهم، ثم جاءت بعد ذلك «الكماليات» من الفستق والجوز والصنوبر، وكان منظر ذلك كله بهيجاً يتجمع الناس له فيشتري الموسرون ويتفرج المعسرون!!

ولم تكن حاجة إلى زيت الزيتون، فإن قرى عكا مشهورة بزيتها الممتاز، وحدث في الأيام التي أعقبت الاحتلال أن كانت الشوارع في حي من أحياء المدينة «تتزلج» بالزيت، وذلك أن الناس اقتحموا بئراً مملوءة بالزيت، كان يملكه الشيخ إبراهيم العكي أحد أثرياء المدينة، فهاجمه المحتاجون واللصوص وكانوا ينقلونه إلى بيوتهم بالصفائح والجرار والأباريق وكل أشكال الآنية، وبقيت الشوارع أياماً وهي مجبولة بالزيت.

وزاد من سرور الناس وبهجتهم أن كثيراً من الشباب والرجال قد بدأوا يعودون إلى أهلهم، فقد انتهت الحرب وأخذ الجنود والضباط يتوافدون على بلدهم وامتلأت

البيوت بالحديث عن الحرب، وكان سمرهم إلى زمن طويل، يستذكرون شؤونه في بيوتهم وفي مقاهيهم.

ثم أخذت الأفراح تنحسر أمام أنباء جديدة، تبعث على القلق، وأصبحنا نعيش في وجوم، وكانت قد أخذت بعض الصحف في الظهور.

وكنت أجلس في الديوان في سهرة الليل وأنا أستمع إلى العم قاسم يقرأ الصحف ومن حوله وجهاء المدينة من الزائرين. ولشد ما كان الوجوم والذهول حين كانت الصحف تتحدث عن الصهيونية ووعد بلفور وهجرة اليهود إلى فلسطين.

وكانت الصحف التي ترد إلى الديوان، **المقطم**، من مصر، و**الكرمل** و**النفير** من حيفا، و**فلسطين** من يافا.

وكان مما راعني أن أستمع إلى عمي وهو يقرأ في جريدة **المقطم** أخباراً عن ابتهاج يهود مصر، بصدور وعد بلفور، ولا زلت أذكر كيف أن الجالسين في الديوان قد عبسوا وقطّبوا جباههم حين كان عمي يتلو بصوت متهدج ما نشرته **المقطم** من أن اليهود قد أقاموا احتفالاً كبيراً في الإسكندرية أشادوا فيه بدولة بريطانيا العظمى لعطفها على آمال اليهود في بناء الوطن القومي اليهودي، وأنهم بعد انتهاء الإجتماع طافوا شوارع الإسكندرية في مظاهرة كبرى مهللين فرحين.

وقد ازداد التجهم في «الديوان» حين انتقل عمي إلى جريدة **فلسطين** فأخذ يقرأ أخبار زيارة ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني للقدس واجتماعه بزعماء اليهود وتمجيده للحركة الصهيونية، وكيف أنه غرس في احتفال كبير شجرة في الأرض التي ستقام عليها الجامعة العبرية.

ولا زلت أذكر كذلك كيف صاح أحد الطاعنين في السن من بقايا موظفي الدولة العثمانية وهو يقول لعمي: «أرأيت ماذا فعلت بنا ثورة الشريف حسين، هذه هي خيانة الإنكليز. . ليتنا بقينا مع الدولة العثمانية».

ولم يكن والدي قد عاد بعد إلى عكا، وقد انقطعت أخباره، فلم نعلم ما جرى له مع رفيقه وصاحبه جمال باشا، وكنا في قلق بالغ من أمره، غير أن القلق العام الذي كان يملأ جو الديوان في منزلنا عن أخبار اليهود قد ملأ خواطرنا، وأشغلنا عن شؤون الوالد وما ولد. .

ومضت أيام وشهور، والمدينة في هرج ومرج، ولم يعد للناس من حديث إلا حديث هؤلاء اليهود الذين صرّحت لهم بريطانيا بالهجرة إلى بلادنا، وشراء أراضينا وإقامة وطن قومي لهم في وطننا.

كانت الأمور يومذاك غامضة ومبهمة، وكان الشيوخ «المتضلعون» في السياسة الذين يفدون على ديواننا يتناقشون طويلاً في هذه الشؤون، وكنت أستمع إلى حوارهم وهم بين مصدق ومكذب.

وكان بعضهم يرى في وعد بلفور خيالاً ومحالاً، فنحن في مدننا وقرانا وأنّى لليهود أن يحتلوا بلادنا.

وكان البعض الآخر يرى أن الإنكليز لا يفرطون بصداقة العرب والمسلمين، على حين ينبري أحد الزائرين ليقول إن الشريف حسين لا يمكن أن يرضى ولا بد أن يثور على الإنكليز، وإن لورنس سيقف إلى جانب العرب ولن يستطيع اليهود تحقيق أطماعهم، وما علينا إلا أن ننتظر ونرى.

وإلى جانب هذه المخاوف كان هنالك خليط من مشاعر الطمأنينة، والتفاؤل. كان «المتضلعون» في السياسة من زوار ديواننا يتحدثون عن بريطانيا وصدقها وشرفها بالاستيلاء على فلسطين، بينما يعقب آخرون «متضلعون» في السياسة كذلك، بأن أمريكا دولة تحب الحرية ولا يمكن أن ترضى بالظلم يقع على شعب فلسطين، ويستند هؤلاء إلى تصريحات الرئيس ولسون ويشرحون عباراته ويدققون في كلماته.

ولكن سرعان ما أخذ شعور القلق يتزايد يوماً بعد يوم فقد أصبحت الصحف تنقل أخباراً عن الهجرة اليهودية، وبدأت في المدينة حركة وطنية، فكانت أول تحرك سياسي في مقاومة الحركة الصهيونية وإنشاء الوطن القومي اليهودي.

وإني لا أزال أذكر ما حييت، تلك الأيام (١٩١٩) التي كان فيها الشباب والرجال يطوفون بالأسواق يحملون بأيديهم العرائض وقد امتد طولها مترين أو ثلاثة، وهم يدعون المارة وأصحاب الدكاكين لتوقيعها، ولقد تكررت حملات التوقيع أياماً وأياماً.

وكانت هنالك عريضة، تتدلى فوق أكتاف الرجال، تهافت الناس على توقيعها، وسألنا نحن الصبيان عن هذه العريضة «الفارعة» الطول، فقيل لنا إنها تفويض إلى السيد عبد الفتاح السعدي والشيخ إبراهيم العكي من أعيان المدينة لتمثيل عكا في المؤتمر السوري في دمشق (٨ حزيران/ يونيو ١٩١٩) الذي قرر وحدة البلاد السورية واستنكار الحركة الصهيونية . .

وكان بعض هذه العرائض احتجاجاً على وعد بلفور، وبعضها فيه تفويض لممثلين عن المدينة لحضور الاجتماعات الوطنية في القدس وفي دمشق، وكان بعضها الأخير أروع وأبلغ.

هذه العرائض الأخيرة، وكان الإقبال على توقيعها منقطع النظير، كانت موجهة

إلى اللجنة الأمريكية «كنغ كرين» (حزيران/ يونيو ١٩١٩) لتطالب بالاستقلال التام، أو بانتداب أمريكا، إذا لم يكن بد من الانتداب.

وكانت سيرة أمريكا عطرة، وقد حلت في قلوب الناس محل بريطانيا، بل أعظم وأرفع، ولم يكن أحد يتردد في قبول الانتداب الأمريكي، فالشعب الأمريكي شعب ديمقراطي يساند حرية الشعوب، ولن يرضى عن الحق والعدل بديلاً، هكذا كانت مشاعرنا، وهكذا كانت أفكارنا وخواطرنا.

وانتقلت الحركة الوطنية إلينا نحن معاشرالتلاميذ، فغدونا نتحدث في هذه الأمور وكنا نجتمع في الشارع الممتد على البحر حلقات حلقات بعد انصرافنا من المدرسة.

وفي هذه الحلقات لم يكن حديثنا في تلك الأيام عن الدروس والدراسة ولكنا نردد ما نسمعه في بيوتنا عن مجيء اليهود إلى بلادنا ومشروعاتهم للاستيلاء على وطننا.

وبلغ مسامعنا ذات مرة أن بضع عائلات يهودية مهاجرة ستصل إلى عكا للإقامة فيها، وكنا يومها نتذاكر هذا الأمر في حلقة من الفتيان التلاميذ، في الساحة المجاورة لبيتنا، وأخذنا نستعرض فيما بيننا، ما عسى أن نفعل.

وقفزت في خاطري فكرة بادرت بعرضها على رفاقي: قلت لهم: «إذا دخل المهاجرون اليهود إلى بلدنا فسنعمل على إخراجهم بالقوة»، فتساءل رفاقي: «وكيف ذلك؟» فقلت لهم: «يشتري كل واحد منا «كرباجاً» ونترصد لأولاد اليهود وبناتهم بعد انصرافنا من المدرسة، ونهجم عليهم ونضربهم «بالكرابيج»، ونكرر هذه «العملية» كل يوم حتى يضج آباؤهم وييأسوا من الإقامة عندنا، فيعودون من حيث أتوا، ومعهم أولادهم!!»

ولقد وافق رفاقي على ذلك وعقدنا العزم لتنفيذه واشترى كل واحد منا «كرباجاً» من الجلد السميك، وأخذنا ننتظر قدوم اليهود بأولادهم إلى عكا.

ومرت الشهور تلو الشهور، فلم تشهد عكا هجرة يهودية في تلك الفترة، ولكن «قرارنا» الذي اتخذناه بالتصدي لأولاد اليهود كان يمثل في حوافزه العميقة بداية الصراع الطويل الذي خاضه شعب فلسطين لثلاثين عاماً متعاقبة.

وكان ذلك القرار حقاً بداية الكفاح الوطني في براعمه الأولى.. فما كان يجري في عكا نفسها كان يجري في فلسطين كلها، بمدنها وقراها.

وأصبحنا نحن الأطفال، رجال فلسطين الذين حملوا راية الكفاح.. في عهد الانتداب البريطاني.. وبعده..

مـع جـورج أنطونيـوس في عكـا

بعد الاحتلال البريطاني بدأت مظاهر الحياة تتبدل شيئاً فشيئاً في جميع نواحيها، وكان عالمنا الصغير الذي نعيش فيه ـ المدرسة ـ وكانت حملة التغيير في داخله تنبئ عن التغيير في خارجه.

لقد انتقلت مدرستنا إلى مبنى آخر بجوار «بوابة» المدينة الرئيسة، وكان هذا المبنى في زمن الدولة العثمانية مركزاً للتعبئة العسكرية في عكا، وتحولت الساحة الرحبة المجاورة التي كانت ميداناً للتدريب العسكري فأصبحت ساحة للألعاب الرياضية، ولم تعد اللغة التركية لغة التدريس كما كانت، وبدأت اللغة الإنكليزية تدرس ولكن كمادة واحدة من إحدى مواد الدراسة. وصارت المواد الأخرى ـ التاريخ والجغرافيا والحساب والجبر ـ تعلم باللغة العربية. وأصبحت الكتب المدرسية كلها هي الكتب المصرية، وغدت المناهج عندنا أشبه ما تكون بالمناهج المصرية، حتى دفاتر «تحسين الخط» وفيها نماذج من الخط العربي الجميل كانت تستورد من مصر.

وهذا التحول المفاجئ من العهد العثماني لم يصادف عقبات ولا صعوبات، بل جاء دليلاً على عراقة اللغة العربية وأصالة الأمة العربية، حتى بعد أربعة قرون متوالية من الحكم العثماني. . . !!

وكان المعلمون من أهل عكا، المسلمون منهم الذين تعلموا في ما مضى في المدارس العثمانية، والمسيحيون منهم ممن تعلموا في المدرسة الروسية في الناصرة، ولكن الإنكليزية لم يكن يعرفها هؤلاء ولا أولئك، فقد كان مدرسها مسيحياً من لبنان.

وكان نظام الدراسة يقوم على الحفظ، وخاصة في قواعد اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا، وبعض المواد كان يمليها علينا المعلم فنكتبها في كراريسنا ونحفظها عن غيب، وكانت تملى علينا قوائم طويلة في تواريخ العظماء والأحداث: في أي سنة ولد الإمبراطور الفلاني، وفي أي عام سقطت العاصمة الفلانية وكم عدد أبواب مدينة القدس. . .

ولا تزال كثير من التواريخ عالقة في ذهني حتى اليوم، مرت السنوات بأحداثها الجسام وبقيت راسخة في ذاكرتي، والفضل في ذلك يعود إلى الصفعات المدوية التي كانت تتعاقب على رفاقي، وأحمد الله أني ما عرفتها إلا مرة أو مرتين في كل حياتي الدراسية، فقد كان الضرب في المدرسة عقاباً للفاشلين ورادعاً للناجحين . . .

وكان يزورنا المفتشون في إدارة المعارف من القدس، فقد أصبحت عكا تابعة للقدس لا لبيروت كما كانت العهد في الماضي، وكانت فلسطين قطراً تابعاً لولايتي دمشق وبيروت، بحسب الترتيب الإداري العثماني . . .

ومن كبار الزوار الذين جاؤوا مدرستنا ذات يوم، السيد جورج أنطونيوس، ولم يكن منظره عندنا ينبئ على العلم، فقد كان يلبس قبعة على رأسه، ولم يكن اسمه الأعجمي يوحي بالتقدير وبالاحترام، في زمن كانت فيه مشاعرنا الوطنية ملتهبة، فهزأنا باسمه وقبعته.

وكان «النحو» موضوعنا يوم دخل أنطونيوس على «الصف»، واختارني أستاذي لأخرج إلى اللوح، فقد كنت متمكناً من قواعد اللغة العربية ولا تفوتني أحاجيها وشواردها.

وراح جورج أنطونيوس يملي علي بيت الشعر :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً   يغنيك محموده عن النسب

وطلب إليّ أن أعربه، فمضيت في سهوله ويسر «أعربه» كلمة كلمة، إلى أن بلغت «يغنيك» فقلت له جواب «كن» في أول البيت، فقال لي «الجواب» يجب أن يكون مجزوما ويجب أن يكون اللفظ «يغنك» لا «يغنيك» . . .

ولم يكن قد مر علي مثل هذا الشاهد اللغوي، فحرت في أمري، ثم خطر لي أن أقول له : إنه ضرورة الشعر، فقال أصبت، وكنت قد تعلمت القاعدة أن «الشاعر يصرف ما لا ينصرف» وكنت كلما وجدت خروجاً من الشاعر على القاعدة في شعره أقول إنها ضرورة الشعر.

وحين عدت إلى البيت وخلوت إلى نفسي، تذكرت أمراً يفوق النحو والإعراب في بيت الشعر الذي أملاه علي أنطونيوس.

لقد كان صدر البيت ـ كن ابن من شئت واكتسب أدباً ـ وساءلت نفسي : ترى هل عرف أنطونيوس أنني ابن الشيخ أسعد الشقيري فأملى علي هذا البيت؟ حتى لا يأخذني الغرور بوالدي . . . لست أدري.

ولم أر أنطونيوس بعد ذلك كل حياتي، وكان له في الحقل الوطني دور فعال من وراء ستار، سأعرض له في حينه.

ولكني رأيته مرات ومرات في كتابه الفذ **يقظة العرب**، انقضت على كتابته عشرات الأعوام ولا يزال فريداً في موضوعه، يتجدد الشوق لقراءته مع الزمان.

ومن الأحداث الطريفة في عهد الدراسة أن المطر قد انحبس عدة أسابيع وتأخر عن موسمه، فضج الناس بالشكوى، وراحوا يدعون في المساجد أن يغيثهم الله بالمطر، وخرجنا نحن الطلاب، ومعنا أساتذتنا، إلى ضاحية المدينة لندعو الله بطلب الغيث، وكنا ننشد ما علمنا أياه أساتذتنا.

يـــا ربـــنـــا يـــا ربـــنـــا إبـــعـــث شـــتـــا لـــزرعـــنـــا

هـــم الـــكـــبـــار قـــد أذنـــبـــوا نـــحـــن الـــصـــغـــار شـــو ذنـــبـــنـــا

وكان الأساتذة على فطنة عظيمة، فقد خرجوا بنا في يوم مليء بالسحب، وما أن فرغنا من دعائنا وعدنا إلى المدرسة حتى «استجاب» الله، وأرسل علينا المطر مدراراً. . . واستقر في ضميرنا أن الله قد عفا عن الكبار من أجل الصغار. . .

وكانت الامتحانات في المدرسة فترة عذاب ما بعده عذاب، وتزداد الرهبة في نفوسنا كلما اقتربنا من موعد الامتحانات، وكنا نحفظ ونحفظ، ومع هذا كنا نرتجف يوم الامتحان، وكان مما يزيد خوفنا ما كان يرويه لنا أستاذ التاريخ أن نابليون أفاق ذات يوم مذعوراً وظن أنه مدعو للامتحان.

وكنا على يقين أن الأسئلة لن تكون إلا من الكراسات والكتب التي بأيدينا، وكانت مواد الكتاب والكراسة في ذاكرتي من الأول حتى الآخر، بالعناوين والترتيب، ومع هذا فقد كنت أخاف، ولم أكن أهدأ وأستريح إلا بعد أن أقرأ ورقة الأسئلة وأشرع في كتابة الأجوبة.

ونفرغ من الامتحانات، وأشعر أنني كتبت الأجوبة، كما هي في الكتاب تماماً حتى بأحرف الجر نفسها، وكنت أخشى أن يظن المعلم أنني كنت «أغش» وأنقل عن الكتاب كلمة كلمة.

ومع هذا كنا دوماً ينازعنا الشك واليقين، هل الأجوبة صحيحة؟ ولا نطمئن إلا حين تصلنا مظاريف النتائج من المدرسة ونمزقها بأنامل مرتجفة، ولا أطمئن إلا حين أرى علاماتي ـ ١٠، ١٠، ١٠ ـ إلا الرسم فقد كانت علامتي فيه ٦ وهذه على حافة الاجتياز، ولعل المعلم كان يضع لي هذه العلامة إشفاقاً لا استحقاقاً، حتى لا أسقط.

وبقي في ذاكرتي حتى اليوم تلك الليلة الطويلة التي قضيناها في بيتنا مع خمسة من رفاقي التلاميذ ونحن نشرب القهوة والشاي لنغالب النوم.

قضينا الليلة كلها من غير نوم، ونحن نحفظ ونحفظ، يمتحن بعضنا بعضاً شفوياً بالسؤال والجواب، وكنا «حافظين» جميعاً ولكن كنا خائفين، حتى إذا أقبل الفجر ذهبنا إلى جامع «الجزار» وصلينا ودعونا بحرارة، وكانت المرة الأولى التي صليت فيها الصبح «حاضر» في وقته، وأحمد الله لم تكن المرة الأخيرة. . .

وذهبنا إلى المدرسة وكان موضوع التاريخ هو مادة الامتحان، فجاء سهلاً ونجحنا جميعاً، ولست أدري هل كان السبب الصلاة أم الحفظ، أم كليهما معاً.

ولكن مادتين كنت كارهاً لهما، الموسيقى والرياضة.

كان مدير المدرسة الأستاذ قسطندي قنازع هو الذي يعلمنا درس الموسيقى وكان ممن تعلم في المدرسة الروسية في الناصرة وكان بارعاً في علم الحساب، وكان يعزف على «الكمان» ويعلمنا بعض الأناشيد المدرسية.

وكنت أستخف بالمدير في نفسي، كيف يعزف على الكمان وكيف يغني، هذه ليست شيمة الأستاذ ولا تليق بمكانة المدير! عقلية متخلفة لم أدركها إلا بعد ذلك بأعوام. .

أما الألعاب الرياضية، فكانت كراهيتي لها تعود لسببين: الأول أنني كنت ضعيف البنية لا أقوى على الرياضة، ولم أدرك في ذلك الوقت أني يجب أن أحب الرياضة لأن بنيتي ضعيفة، فبالرياضة تقوى وتشتد.

والسبب الثاني أنني كنت أدهش للعناية الفائقة والرعاية العظيمة التي يلقاها المتفوقون في الرياضة البدنية، ففي الحفلة الرياضية التي كانت تقام في ختام العام كان المتفوقون في الركض والقفز تعلق الأوسمة على صدورهم، وتصفق لهم الجماهير، ونحن، المتفوقين في الدراسة، جالسون مع التلاميذ في الصفوف الخلفية لا يدري بنا أحد!

وقد أدركت في ما بعد أن هذا «الظلم» في التمييز في التقدير والمعاملة، يسود العالم بأسره، فالمغنون والراقصون والمصارعون والممثلون كانوا وما زالوا أعظم شأناً عند الجماهير من عباقرة العلماء وجهابذة المخترعين. . .

ولكن رياضة أخرى مارستها وأخذت أحبها وهي الكشافة، وكانت جاءت إلينا مع الاحتلال البريطاني في جملة ما جاء.

وبدأنا نسمع بإسم «بادن باول» مؤسس الكشافة البريطاني، وقد كرهت بادئ ذي بدء أن أنخرط في كشافة مؤسسها بريطاني، وبريطانيا هي التي خانت الشريف حسين، ونكثت بعهودها للعرب وأعلن وعد بلفور.

وكانت هذه المشاعر قوية في نفوسنا، ولكن خفف منها أن الكشافة بدأت تتعرب، فليس علينا أن نلبس «القبعة» وهي في نظرنا لباس بريطاني، فنشأت بدعة جديدة في لباس الرأس، فقد احتفظنا بالطربوش ولكن خيط له غطاء من «الكاكي» تتدلى منه قطعة طويلة خلف الرأس وأخرى قصيرة فوق الجبهة، ولم يفتأ كجزء من حملة التعريب أن يكون البنطلون تحت الركبة بقليل، وكذلك تضاءلت كراهيتنا لهذه الكشافة البريطانية لأن «المعلم واصف» كان مدرب الكشافة وهو مصري قبطي، كان يروي لنا حكايات الوطنية في مصر، ويشيد بالثورة على الإنكليز بزعامة سعد زغلول. . .

فأقبلت على الانضمام إلى الكشافة بحماسة بالغة، وزاد من حماسي أن المعلم واصف قد اكتشفني «خطيباً» أو إنني اكتشفت نفسي، فأصبحت خطيب الفرقة في اجتماعاتها ورحلاتها. . .

وأذكر يوم قمنا بجولة في بعض القرى قريباً من عكا في رحلة امتدت أسبوعاً، في الدامون والبروة وعبلين وشفاعمرو، وكنت أخطب في كل قرية خطباً حماسية، أبتدئها وأختمها بشعر حماسي من محفوظاتنا التي كنا نقرأها في الكتب المصرية، وما زلت أذكر كيف أن أهل القرية قد أخذتهم الحماسة الدافقة وانطلقت أكفهم بالتصفيق، وأنا أقف بينهم منتصب القامة أرسلها بصوت جهوري:

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى   وغيري يهوى أن يعيش مخلدا

وكانت أياماً بهيجة وليالي رائعة قضيناها معززين مكرمين مع الفلاحين من شعبنا الطيب، وقد أصبح الآن كله أو جله شعباً من النازحين واللاجئين. . .

ولكن سرورنا بتلك الرحلة المثيرة لم يدم طويلاً، وجاءت خاتمته محزنة لنا جميعاً.

في آخر يوم من الرحلة، وكان التعب قد أخذ منا مأخذه، رأينا المعلم واصف يخرج من جيبه مسدساً ويطلق بضع طلقات في الهواء، ولعله أراد أن يبعث فينا الحمية والعزيمة.

وصل الخبر في ما بعد إلى حاكم المدينة البريطاني «المستر لويك»، وكان حمل السلاح ممنوعاً، وبقي كذلك إلى نهاية الانتداب البريطاني إلا على اليهود، فقد كانت السلطات البريطانية تسلحهم وتدربهم على حمل السلاح.

وقبضت السلطة على المعلم واصف، ودعيت لتأدية الشهادة أمام المستر لويك وأقسمت اليمين ورويت الأمر كما جرى، وحكم على المعلم واصف ستة أشهر بالأشغال الشاقة.

مسكين المعلم واصف، لقد رأيته مرات يلبس ثياب السجن يعمل في الطرقات ولكنه كان صابراً صامداً، غير منكسر ولا متهالك. . .

ولقد حزنت عليه أياماً، وأصبحت أتجنب الطريق الذي يعمل فيه، ولم أكن أدري أن القدر يخبئ للألوف من رجالنا وشبابنا وطلابنا المصير نفسه، أضعافاً مضاعفة. . . فيسجنون ويعذبون لأنهم يحوزون السلاح.

ولم أكن أدري يومذاك وأنا صبي في الرابعة عشرة من عمري أني سأصبح محامياً أدافع أمام القضاء البريطاني عن العديد من شبابنا، فيحكم عليهم بالموت أو السجن المؤبد لأن البوليس وجد في حوزتهم بندقية قديمة أو خرطوشة فارغة. . على حين كانت بريطانيا تسلح اليهود وتدربهم على فنون القتال.

بل لم أكن أدري يومذاك أن اليهود لن يقنعوا بهذا التدريب والتسليح على يد بريطانيا، فقد عملوا بعد ذلك بسنين على تهريب السلاح في صناديق الأسمنت وفي خلايا النحل. .

أجل إن خلايا النحل لم تكن شهداً ولا عسلاً، ولكنها كانت دماراً وقتلاً.

أبـو موسى اليهـودي يصلـي في الجامـع

إذا كان الاحتلال البريطاني قد شمل فلسطين بأسرها، فقد خصنا نحن آل الشقيري بألوان من وطأته وشدته، وكان أول ما جرى من ذلك أن السلطات العسكرية احتلت بيتنا القائم خارج السور، وطلبت إلينا في يوم أو بعض يوم أن نخليه ليكون مقراً للضباط الإنكليز، فأسرعنا كل إلى خزانته وحملنا ثيابنا والقليل من متاعنا وغادرنا بيتنا إلى منزلنا القديم بجوار حمام الباشا. وكان منظراً يبعث على الشفقة ونحن خارجون من دارنا نساء وبنات وصبياناً، ولا أقول رجالاً فلم يكن بيننا رجل، فقد كان شقيقي الأكبر في السابعة عشرة من عمره.

وعدنا إلى بيتنا القديم في وسط المدينة العتيقة وقلوبنا منكسرة لا يخفف من لوعتنا وحزننا إلا ذلك الأذان العذب من حولنا يردد مرات ومرات الله أكبر، الله أكبر، وكأنما صيغ هذا الأذان لينزل على قلوبنا السكينة ويبعث فيها الطمأنينة.

ولقد كنا في حاجة إلى العزاء، فإن والدي قد انقطعت أخباره عنا، والحكم اليوم للإنكليز ونحن من جماعة العمثانيين، وأصبح الناس يخشون الاتصال بنا والاقتراب منا إلا الذين يعرفون معنى الوفاء في أيام الشدة. . . وهؤلاء قليلون في كل زمان. . .

وكنا في بعض أيام الآحاد نخرج للنزهة على الشاطئ الغربي، ونمر بجانب بيتنا فنرى الضباط الإنكليز في بيتنا يرطنون ويغنون، ونحن نختلس النظرات إلى غرفنا وحديقتنا، ونتساءل متى نعود إلى بيتنا؟

كان حزناً «صغيراً» ذاك الذي يعتمل في نفوسنا ونحن نسير في محاذاة بيتنا، إذا قيس بحزن الأحزان الذي نزل بشعبنا بعد ذلك بثلاثين عاماً حين أجلي عن وطنه، وظل عشرين عاماً بعد ذلك يتساءل متى نعود إلى وطننا؟ . .

وفي بيتنا القديم أصبحنا نعيش في المجتمع الفاضل الذي كان طابع الحياة في عكا، بل وفي سائر المدن في فلسطين والوطن العربي كله.

الحمّام على قيد خطوات منا وهو على شكل مستدير تعلوه قباب كبيرة وصغيرة، فيها مستديرات بلورية صغيرة ينفذ النور منها إلى داخل الحمّام. وكان الحمام مخصصاً صباحاً للرجال، وبعد الظهر للنساء والأطفال، ويوم الحمام يوم سعيد هنيء، أشبه ما يكون بنزهة في هذا المبنى الجميل، رصف ببلاط الرخام تعلوه أعمدة وقناطر من المرمر.

وقد دخلت الحمام صبياً مع النساء، ودخلته بعد أن كبرت مع الرجال، وأيامه حافلة بالذكريات العذبة حين كنا نقضي الساعات الطويلة ونحن نسبح على البلاط، والماء الحار يسيل على جنباته، ثم ندخل إلى الغرفة الصغيرة يتدفق من جدارها الماء والبخار فنستحم، ونخرج بعد ذلك إلى الساحة المجاورة لنأكل ما لذ وطاب من الفطائر والفاكهة والحلوى وقد تكدست في تلك السلة اللطيفة التي حملناها معنا من البيت. . .

وقبل أن تنشأ الحمامات الخاصة في البيوت كان حمام الباشا مزدحماً على الدوام وخاصة في أيام الأعراس، فقد كان من تقاليد ذلك الوقت أن تستأجر الأسر الموسرة الحمام كله «من بابه»، ويدعى الأهل وأسر المدينة إلى الحمام، وينقلب الحمام بغرفه وردهاته ودهاليزه ومعابره إلى «فرح»، وتلتف الصبايا والعروس معهن في دائرة في الردهة الرئيسة عند مدخل الحمام، فيرقصن ويغنين وهن ملتفات بالمآزر والمناشف. في جو كله مرح وبهجة وسرور. . . أيام لم يكن في الدنيا منغصات ولا مشكلات. .

وكنا نحن الصبيان نراقب هؤلاء النسوة، الصبايا والعجائز، بعيون جاحظة ونظرات نافذة، نتابع حركاتهن وسكناتهن، وهن يرتدين ملابسهن ويخلعن. . ولم تكن النسوة تلبس «الكورسيه» للصدر أو الخصر، فقد كنّ يعجنّ في البيوت ويقمن بالأعمال الشاقة، فاكتنزت عضلاتهن، ومن هنا فإن النهود نواهد. . والخصور خواصر. .

ولم يكن الشباب أقل كلفاً من الصبايا، وهم يحتفلون بالعريس بالحمام، فيرافقونه في تفكه وتسلية. . .، فيباسطونه ويدغدغونه، فيفرحون معه، وبعضهم قد تزوج من عهد قريب، فيهمسون في أذنه كلمات، وتتبعها ضحكات ثم قهقهات. . .

ولم يكن الحمام للاستحمام والأفراح فحسب، ولكنه كان مستوصفاً كذلك، فلا يخلو الحمام من مريض وصفوا له الحمام ليبرأ من علته، وكنا نرى هذا المريض في مغطس ماء حار، أو ممدداً على بلاط حار، أو مطروحاً على وجهه، «والمدلك» من فوقه يدلك عظامه ومفاصله. . .

وكنا نحن الصبيان نتجمهر حول المدلّك نراقب حركاته، ونراقب تأوهات المريض بين يديه، ولا ننفك عنه إلا بعد أن يرش علينا طاساً من الماء الحار.

وعلى مقربة من حمّام الباشا، كان هنالك جامع الباشا، وهو مسجد بديع

الصنع تعلوه مئذنة جميلة وحول ساحته غرف صغيرة ذات قباب يقيم فيها طلبة العلم الذين يغدون على عكا لتلقي العلوم الدينية. وفي غرفة رحبة إلى جوار المكتبة كان الشيخ عبدالله الجزار مفتي عكا، يتصدر مجلساً للدرس الديني، وكان مهيباً تقياً ورعاً غزير العلم، غير طليق اللسان.

وكان الشيخ الجزار يجلس للدرس بعد صلاة العصر ومن حوله العلماء الكبار والصغار وطلاب العلم وبعض المريدين، وكان ذلك الوقت هو حين انصرافنا من المدرسة الثانوية.

ولست أدري ما الذي جذبني إلى مجلس الدرس، مع أن الشيخ الجزار لم يكن على وفاق مع والدي على الدوام، وصرت أحضر الدرس وأستمع إلى النحو والفقه والحديث، وكان رحمه الله حافظاً للنصوص، وكان وقاره لا أسلوبه هو الذي يجتذب الناس، وإليه يرجع الفضل في ما حفظته من اللغة والدين.

والواقع أن عكا كانت حافلة بالجوامع والتكايا، فلا يخلو الحي الواحد من مسجدين أو ثلاثة، أو زاويتين أو ثلاث، وكان أشهرها الزاوية اليشرطية ولا يفصلها عن بيتنا القديم إلا الطريق العام.

وفي أيام الجمعة كانت تتصايح المآذن بالتذكير والأذان، فلا تكاد تميز من أي مسجد هذا الأذان أو ذاك، فالمدينة ذات أسوار، وأحياؤها ضيقة وبيوتها متلاصقة بل إنه ليركب بعضها بعضاً. وكان أكثر الناس يتوافدون للصلاة في جامع الباشا، لسعته وأناقته، وذكرياتي في الصلاة في هذا المسجد هي ذكريات كل مسلم، الأجيال الإسلامية يتعلم بعضها عن بعضها، الوضوء والصلاة وآداب العبادة، وإن كنا تلقينا كثيراً منها في المدرسة.

غير أن «حادثين» جديران بالتدوين، الأول ملك للتاريخ، والثاني ملك للتاريخ والقضية الفلسطينية معاً.

الأول أن «عباس أفندي» كبير البهائية في ذلك الوقت كان يؤم جامع الباشا للصلاة في بعض أيام الجمعة، ولقد رأيته يدخل المسجد بقامته القصيرة ولحيته البيضاء وهو يتهادى في مشيته بكل هيبة ووقار.

وكانت عكا «والبهجة» في الضاحية مقراً للبهائية بعد فرارهم من إيران. وكان عباس أفندي وأتباعه يعيشون في عكا زمن الدولة العثمانية كما يعيش المسلمون سواء بسواء، وإن كان الناس يتهامسون بعض الشيء عن أمر دينهم.

وكان عباس أفندي من أصدقاء عائلتي، يزورنا في البيت ونستمع إلى حديثه،

وكان يتكلم العربية باللهجة الفارسية، فخامة وغُنّة، كما كان يزور الأسر الوجيهة في عكا، ولم يترك وجيها إلا وأهداه سجادة فاخرة أو عباءة عجمية.

وكنا حين نمر بمنزله نرى الفقراء والمحتاجين مصطفين عند بابه، ينتظرون خروجه ليوزع عليهم الصدقات. وقد ظل عباس أفندي يصلي حيناً بعد حين في جامع الباشا، ولكنه انقطع عن ذلك بعد الاحتلال البريطاني بقليل، ولم يره المسلمون بعد ذلك في المساجد.

ولقد غاب من ذاكرتي الكثير من حركات عباس أفندي وسكناته، ولكن مشهداً واحداً قد انطبع على ذاكرتي انطباعاً عميقاً وما زال ماثلاً في ذهني، ذلك هو مشهد البهائية الذين كانوا ينحنون بما يشبه الركوع بين يدي عباس أفندي، حين يدخل ويخرج، وحين يقوم ويقعد، ولعل هذا المشهد وأمثاله مما كان يروى عن حياة عباس أفندي قد أشاع في المدينة الأحاديث عن «ألوهيته» أو «نبوته».

أما الحادث الثاني، فهو أني كنت أرى بين المصلين رجلاً متقدماً في السن، يلتفت إليه الناس في صلاته، ولم يكن في الرجل ما يلفت النظر، فقد كان انساناً عادياً يلبس القمباز والطربوش يصلي كما يصلي الناس، ويدخل المسجد معهم وينصرف معهم. وجاورت هذا الرجل غير مرة في الصلاة، أو كنت منه قريباً، وكنت أراه يسجد وكعباه مشققتان شأن كثيرين من فقراء المسلمين . . .

وكان هذا الرجل اسمه «أبو موسى» وسرعان ما عرفت أنه كان يهودياً واعتنق الإسلام أثناء الحرب العالمية الأولى، وظل مسلماً بعد الاحتلال البريطاني.

وكان أبو موسى هذا «سمكرياً» وقد كنا ندعوه كثيراً إلى بيتنا لإصلاح حنفية ماء أو تنظيم قنديل. وكثيراً ما كنا نحن «صبيان العائلة» نحيط به وهو يقوم بعمله، فنتحدث إليه ويتحدث إلينا، وكانت لهجته عربية عامية عادية.

ومضت بضعة أعوام وأبو موسى مسلم من المسلمين، إلى أن حضرته الوفاة، وخشى الحاكم البريطاني المستر «لويك» أن يختلف اليهود والمسلمون على دفنه، وكان قد عرف أن ابنه موسى وزوجته وأولادهما لا يزالون مقيمين على دينهم اليهودية.

فأرسل الحاكم البريطاني بعض موظفيه إلى بيت «أبو موسى» ليسألوه أين يريد أن يدفن وعلى أي دين يموت. وفي تمتمة هادئة قال أبو موسى «وهل هنالك أحسن من دين موسى» قالها ولفظ أنفاسه الأخيرة، فمات يهودياً ودفن يهودياً.

والمجتمع في عكا مجتمع متدين، ولكنه لم يلق بالاً إلى «أبو موسى» يموت يهودياً، بعد أن حفيت قدماه على سجاد جامع الباشا وحصيره، وتجلت الآية الرائعة

في الرحابة الإسلامية والسماحة العربية، أن موسى اليهودي وزوجته وأولادهما قد عاشا في عكا عيشاً هادئاً آمناً، إلى يوم خروجنا من فلسطين في عام ١٩٤٨.

ولقد أنشبت الصهيونية مخالبها في ذلك العهد، فتضاعف أمر الهجرة اليهودية، وتكشفت نيات العدوان الصهيوني، مهدداً العرب بالجلاء والفناء، وبقي موسى اليهودي وزوجته وأولادهما في أرغد عيش وأهنإ حال في عكا، المدينة العربية والثغر الإسلامي العظيم.

وكانت في عكا أسرة يهودية صغيرة بقيت على دينها طيلة حياتها، وكان رب هذه الأسرة «عطاراً» له دكان في وسط المدينة، وكان له ولد اسمه «يوسف» وبنت اسمها «تريز» ولم يكن يميزهما عن أبناء عكا سوى لونهما الأشقر وشعرهما الأحمر.

وكان يوسف صديقاً لأبناء عمي، وكانت تريز صديقة لشقيقاتي، والواقع أن الناس كانوا يحبونهما للطفهما ووداعتهما، ولم يكن أحد يحقد عليهما أو ينظر إليهما نظرة خاصة. وكان يوسف يلبس الطربوش والملابس الأوروبية شأن المتعلمين من أبناء عكا، وتريز كانت تلبس الملابس المحتشمة، من غير حجاب كشأن السيدات المسيحيات. . وإن كانت المسيحيات المعمرات كن يرتدين الحجاب، تماماً كالمسلمات، إلا أن «ملايتهن» كانت بيضاء لا سوداء. .

ولقد عرفت كلاً من يوسف وتريز لسنين طويلة صبياً وشاباً ثم رجلاً، وأحسب أن هذه الفترة قد امتدت حتى عام ١٩٤٨ يوم خرج أهل عكا من مدينتهم الغالية.

ولقد وقعت بين العرب واليهود مصادمات دامية خلال ثلاثين عاماً، سقط القتلى خلالها بالآلاف.

ولكن يوسف وتريز بقيا في عكا سالمين آمنين، لم يلحق بهما أذى، في زمن كانت فيه النفوس ثائرة والأعصاب متوترة.

ولم تكن عكا قد تفردت بهذه السماحة العربية، فقد كبرت وتكاثر معارفي وأصدقائي في صفد وطبريا والقدس ويافا حيث كانت تتكاثر الجاليات اليهودية، وعرفت منهم حكايات تروى على مر الزمان. . . كيف عاش اليهود معنا في أمن وسلام، وصفاء وهناء. .

وهكذا قدر لجيلنا الذي عاش مع «اليهود» عيشاً آمناً مطمئناً، أن يقضي عمره بعد الصهيونية في صراع دام مع اليهود، وستظل الأجيال الحاضرة والصاعدة والمقبلة في حلبة هذا الصراع حتى تعود فلسطين الحبيبة إلى أصحابها الشرعيين وأبنائها الحقيقيين. .

مأساة واحدة بين آلاف المآسي

وجاءنا النبأ ونحن في بيتنا القديم أن والدي قد وصل إلى حيفا بالباخرة، وأن السلطة العسكرية قد بادرت إلى اعتقاله تمهيداً لمحاكمته.

وماذا عسى أن يوجهوا إليه من تهمة؟ لقد كان من رجال العهد العثماني وقام بواجبه كما يؤمن به زمن السلم والحرب، ولكن الإنكليز بذلوا كل جهدهم ليلفقوا عليه أية جريمة كيفما كان..

واستبد بنا القلق في البيت، وسرت الإشاعات في المدينة أن الشيخ أسعد سينفذ فيه حكم الإعدام، واحتجب عنا كثير من أصدقاء العائلة، وحاول الإنكليز أن يحرضوا الناس على تقديم أية شكوى ضد والدي، وعقدت المحكمة العسكرية عدة جلسات، ولما لم تجد تهمة محددة أمرت باعتقاله في مصر، وهكذا كان. فقد قضى والدي بضعة عشر شهراً مع سجناء الحرب الذين اقتيدوا إلى القاهرة من كل أطراف البلاد العربية..

وامتلأت قلوبنا بالفرحة والبهجة يوم عاد والدي من الاعتقال وجاء إلى بيتنا القديم، وبذلك تهيأت لي الفرصة لأبدأ معرفتي به وأنعم بلقائه..

وكنت يومئذ قد أثبتُّ وجودي في العائلة، فقد كنت متفوقاً في دورسي، أخطب في الحفلات المدرسية، وأصبحت لي «شهرة» في المدينة بأنني «خليفة» والدي في العلم والخطابة، وكان والدي من الخطباء المبرزين في الدولة العثمانية، بالعربية والتركية على السواء..

وكنت ألقاه أكثر ما ألقاه عند المساء، أحمل إليه الإبريق وأصب له الماء ليتوضأ، فيدعو لي بالتوفيق، وكان هذا الوقت من النهار فرصة له ولي، ذلك أن «الخالة» تكون خارج البيت إمّا لنزهة أو لزيارة الصديقات.

وأذكر أنني أعربت له مرة عن رغبتي في الالتحاق بالأزهر، فكتب إلى السيد

أمين سعيد وكان يومئذ محرراً في جريدة **المقطم**، ولكن خاب أملي، فقد أجاب أنه لا ينصحني بذلك، لأن الأزهر «فوضى ووساخة» وأنني سأضيع مستقبلي في الأزهر . .

ومع هذا فقد بقيت مواظباً على حضور مجلس الدرس للشيخ عبد الله الجزار، وأصبحت لي صداقات مع طلبة العلم في المدرسة «الأحمدية» في عكا ـ نسبة إلى أحمد باشا الجزار ـ وهي أشبه ما تكون بالأزهر الصغير في نظامها، وكانت نتيجة هذه المدارسة أنني أصبحت «عالماً» من غير عمامة . .

وقد زاد من تمكني من العلوم الإسلامية أن مجلس والدي كان ندوة علم، يحضرها العلماء وسراة القوم، فكنت أستمع إلى حوارهم في مختلف المسائل الدينية، وكان لوالدي مكتبة دينية قيمة، وأصبحت مع الزمن مسؤولاً عن تنظيفها وتنظيمها بحسب موضوعاتها، فعرفت ماهية هذه الكتب وأسماء مؤلفيها، وهي في جملتها مما يسميه «الناشئون» اليوم الأوراق الصفراء . . . وليتهم عرفوا ما فيها من كنوز المعرفة . . .

وبدأ الناس يتصلون بنا شيئاً فشيئاً، فيزورون والدي بعد أن كانوا قد انقطعوا عنا زمناً، فها قد عاد والدي من الاعتقال سالماً، ولم ينفذ فيه حكم الإعدام كما أرجفوا، وعرفت يومئذ معنى القول المأثور «لكل زمان دولة ورجال».

وبهذا أصبحنا نشارك في حياة المدينة، ونعيش شؤونها، فنفرح معهم في الأفراح ونحزن معهم في الأتراح.

ومن الليالي البهيجة التي كنت أتذوق حلاوتها عن كثب، ندوة القصاص الشعبي في المقهى، فقد كنت أمر بعد العشية بمقاهي المدينة شأن الكثيرين من الصبيان. وكان في إحداها قصاص شعبي، يقف في وسطها وبيده قضيب وأمامه طاولة يقرع عليها من حين إلى حين، ويقص بالشعر والنثر سيرة عنترة والمهلهل وأبو زيد الهلالي، وكان القصص متسلسلاً يتعاقب مع الليالي، ويتوافد الشباب والرجال ليستمعوا إلى هذا القصص المثير، وصاحبنا ينشد الشعر ويرسل النثر فيثير الحماسة والنخوة في نفوس السامعين.

وكان الجمهور ينقسم إلى فريقين مع أبطال القصة، وقد روى لي والدي أنه شهد في إحدى الليالي هذه الندوة الشعبية وكان الشباب يحملون الشموع احتفاء بزواج عنترة على عبلة . . وروى لي كذلك أن القصاص قد أوقف حديثه ذات ليلة عند «عنترة أسيراً»، وما إن وصل الناس إلى بيوتهم حتى عادوا وتجمهروا أمام بيت القصاص وأخرجوه إلى المقهى، ليتابع السيرة ويفك عنترة من أسره . . فلن يكون عنترة أسيراً ولو ليلة واحدة . .

أما تسلية النساء فقد كانت لعبة «الودع»، يجلسن القرفصاء على الأرض وأمامهن قطعة مطرزة من القماش على هيئة صليب، فيتضاحكن ويلعبن، ويجلس بعضهن أمام بعض، وهن يحرصن أن لا تنكشف ركبهن وهي ملفوفة بملابسهن الطويلة، ونحن الصبيان نجلس من حولهن فيأخذن في جمع ملابسهن إلى الكعبين، وهن يقلن لنا «يا شياطين عيونكم عيون الحرامية» ولكن أنى لعيون الحرامية أن تنفذ من وراء هذه الملابس «الحصينة». .

وكان هذا شأن عكا في أيامها، يفرح الناس معاً ويحزنون معاً، مجتمع واحد متماسك، كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو واحد تداعى له سائر الأعضاء بالنجدة والهمة، شأن المدن العربية والإسلامية في ذلك العهد.

وكان «العرس» في المدينة هو عرس لأهل المدينة. سواء من دُعي أو لم يُدعَ. السيدات يفرحن مع العروس، والرجال يفرحون مع العريس، والأولاد أمثالي يفرحون مع العريس والعروس معاً. . .

«والعرس» حديث المدينة لعدة أيام، قبله وبعده، ولا تفتأ المدينة تفرغ من عرس، حتى تتمرس بعرس آخر. . .

وليلة الزفاف ليلة حافلة، في بيت العروس تتجمع النساء في أزهى ملابسهن وحليهن، وتتدافع الصبايا إلى الرقص والغناء، وتدار كؤوس الشراب بألوانه البريئة.

والعريس يطاف به في شوارع المدينة. بالمشاعل ومن حوله رفاقه وأصحابه. ينشدون ويغنون. ويقف الجميع في ساحة هنا وساحة هناك ليلعب الرجال بالسيف والترس، وينشده الأطفال أمام هؤلاء الجبابرة الأقوياء، يتواثبون بعضهم على بعض، حتى يحجز بينهم «شيخهم» ونقيبهم ويصلح بينهم، ويربت على كتف هذا، وكتف ذاك.

وكانوا إذا بلغوا دار أحد الوجهاء وقف الجمع وصاح عريفهم محيياً ذلك الوجيه «شوباش»، ويخرج الخدم بالعطور يرشونه على الناس، ويقدمون إليهم أكواباً من المرطبات. والبيوت الوجيهة معروفة وثابتة، كأنها مدونة في سجل مكتوب، فلا منافسة ولا مناقشة، ولا طمع ولا طموح. ورحم الله امرءاً عرف حده ووقف عنده!!

وكان موكب العريس يمر من أمام بيتنا، فيقف بعض الوقت وتنصب حلقة السيف والترس وتأخذنا هذه الوثبات بين المتصارعين، وقعقعة السيف وهو يهوي على الترس بضربات قوية، وكنا نحمل أكواب الشراب إلى الموكب، ولا يفوتنا ونحن عائدون إلى البيت أن نشرب بقية الكؤوس، وكنت في ذلك العهد قد حفظت القول المأثور: «سؤر المؤمن شفاء».

وهكذا يتدافع الموكب بعد ذلك من شارع إلى شارع، ومن حي إلى حي، وينطلق الأطفال حول الموكب يمدون أبصارهم ليروا كل شيء، وتطل النساء من النوافذ ليبصرن العريس وسط الحلقة وهنّ يرددن «الله يهنيها» إذا كان العريس جميلاً، أو «الله يكون بعونها» إذا كان العريس دميماً!!

حتى إذا بلغ الموكب بيت العروس انطلق الجميع يرددون الأناشيد والتكبير والتهليل، ويدفعون بالعريس إلى المنزل لتبدأ حفلة أخرى تزف فيها العروس إلى عريسها بكل مظاهر البهجة والفرح.

ولقد عشت هذا المجتمع الحبيب في الوطن الحبيب بكل مباهجه، والمدينة كلها تكاد أن تكون أسرة واحدة، فيها تقاليد الأريحية والنخوة وحسن الجوار، وعبرت بي السنون بعد ذلك لأشهد مجتمعات عربية، الأسرة الواحدة فيها ليست أسرة واحدة، ويعيش الجيران أعواماً في عمارة واحدة، فلا يسلم بعضهم على بعض، ولا يكلم بعضهم بعضاً، ولا يدري أحد في هذه العمارة من يموت ومن يولد. . .

ومن أيامنا التي لا أنساها عن هذا المجتمع الهنيء الذي كنا نعيشه حدث بهيج نعمت به المدينة، وظل حديث أهلها أياماً وأعواماً.

وقد عاشت المدينة ذلك الحدث أسبوعاً بأيامه ولياليه، وكان ذلك بمناسبة ختان الولد «بدر» ابن أحد وجهاء المدينة، السيد حسن بدر.

وكان لهذا الوجيه مكانة مرموقة في المدينة، وعند أهل القرى في قضاء عكا وغيره، وكان كريماً يقضي للناس حوائجهم، فيتوسط لهم لدى الحكام.

وكان «بدر» مدلل أمه وأبيه وقد عزموا على ختانه وأن يقيموا لذلك احتفالاً كبيراً، فأرسل الوجيه الدعوات إلى أهل المدينة وإلى المدن والقرى المجاورة.

وكان أسبوعاً لم تشهد عكا مثيلاً له لزمان طويل، فقد توافد القرويون والمدنيون بالألوف، يحملون معهم الهدايا من المواشي والأرز والسكر. وازدحمت الشوارع والساحات بالقادمين، وانفتحت البيوت لاستقبال الضيوف.

وإني لأذكر أنني جلست مع أولاد الحي على عتبة بيتنا، ونحن نشاهد قوافل الجمال تمر أمام بيتنا إلى منزل الوجيه (أبو بدر) تحمل أكياس الأرز والدقيق والسكر.

ولقد أناخت الجمال في الساحات ومنعطفات الشارع، بعد أن ضاقت بها الساحة الرحبة المجاورة لبيت ذلك الوجيه السري.

ومدت الموائد في الهواء الطلق، بعد أن ضاقت بها البيوت، وبدت لنا

الأرض، وأبصارنا جاحظة، أنها مفروشة بالأرز المطبوخ والخراف المشوية، وشباب الحي قد شمروا عن سواعدهم يقطعون اللحم ويفرقون الأرز ليوزعوا على الأضياف. . . والأحباب. . .

كانت المدينة كلها مضافة كبرى، وأصبحت كلها مطبخاً كبيراً، وبقيت رائحة الشواء والقتر أياماً، تملأ أزقة المدينة وحواريها.

وقبل الطعام وبعده كانت حلقات الرقص تنتظم الفلاحين «فيدبكون» وكوفياتهم تتطاير في الهواء، وضربات أقدامهم تثير الغبار، والشعراء «الشعبيون» يثيرون الحماسة، بأهازيجهم في حلقات، يهجو بعضهم بعضاً، فرحاً ودعابة، ثم ينتهون إلى تصافح وتآخ وسلام.

كل هذه المهرجانات الشعبية الضخمة من أجل ختان الولد المدلل «بدر» الذي كان موضع الأنظار وهو يلبس الرداء الحريري الأزرق، ينتظر «الحلاق» ليقوم بعملية الختان.

ولقد عشنا ـ نحن أولاد المدينة ـ تلك الأيام الحلوة بكل مباهجها، وعشنا كذلك لنرى بعد سنين الخاتمة المفجعة التي صار إليها أمر «بدر» مدلل الزمان. .

لقدأصبح بدر شاباً وهاجر من عكا إلى بيروت في جملة من هاجر بعد كارثة ١٩٤٨ وأصبح لاجئاً في عداد اللاجئين.

ولم يستطع بدر أن يجد عملاً ولا رزقاً، وعاش عالة، يحسن إليه المحسنون الذين عرفوه وعرفوا والده من قبل، وانتابته الأمراض، ومات في بيروت معدماً، صريع الفاقه والعوز.

والذين عاشوا في فلسطين في عز ورفاه مثل «بدر»، وماتوا في الهجرة في بؤس وشقاء، مثل بدر، ألوف وألوف.

وما مأساة بدر إلا واحدة من ألوف المآسي التي نزلت بشعبنا البطل.

ويكاد كل فلسطيني أن تكون له تراجيديا إنسانية، في حياته، توشك أن تكون أسطورة من أساطير الأولين.

يـوم مـع هربـرت صموئيـل

ولم تكن حياة المدينة، ونحن الآن في أوائل العشرينيات، ختاناً كلها وأعراساً كلها، فقد أخذت الشؤون الوطنية تشغل بال الناس، وتصرفهم عن الحياة العادية، إلى حياة أكثر جدية بل أشدّ قلقاً.

وأصبحت المجالس والمقاهي والبيوت ولا حديث يشغلها إلا الوطن القومي اليهودي والهجرة اليهودية، وراحت الصحف تنقل أنباء المهاجرين اليهود الذين يفدون على البلاد بالمئات عن طريق ميناءي يافا وحيفا، وكان الحكم العسكري البريطاني قد انتهي وقام مقامه حكم مدني، فأعلن الانتداب البريطاني على فلسطين وتعين «هربرت صموئيل» مندوباً سامياً على فلسطين (١ تموز سنة ١٩٢٠).

وكان مما زاد في قلقنا حين علمنا أن «صموئيل» يهودي، وبدأنا نحس بالخطر يحيق بوطننا، وأن «حاكمنا» قد أصبح يهودياً، وهنالك ارتفعت اللائمة والشماتة من بقايا رجال العهد العثماني، ومضوا ينعون على الشريف حسين محالفته للإنكليز، ويتمنون لو هزم الحلفاء وانتصر الأتراك.

وبدأت الأخبار تتوارد عن الحركات الوطنية في البلاد، لمقاومة وعد بلفور واستنكار الهجرة اليهودية، وجاءت معها أنباء المظاهرات في القدس ويافا ونابلس وغيرها من مدن فلسطين، وكان في رأس هذه الأنباء التي أثارت حماستنا وألهبت مشاعرنا ما قام به بحارة يافا من تفجير القنابل على المهاجرين اليهود وهم ينزلون من البحر في ميناء يافا.

واجتاحت المدينة موجة من القلق، واكتظت الشوارع بالجماهير حلقات حلقات، وكنا نندس فيها لنسمع ما يدور من حوار ونقاش، لقد كانوا يتحدثون عن الثورة العربية في القدس لمناسبة الاحتفال بموسم النبي موسى حين تحرش اليهود بالمسيرة العربية وحاولوا انتزاع العلم العربي من أيدي الشباب، ووقعت معارك دامية كانت القوات البريطانية فيها إلى جانب اليهود. . إلى غير ذلك من أمثال هذه الأحداث.

وتألفت في المدينة جمعية إسلامية مسيحية، على غرار ما جرى في سائر أنحاء البلاد، لتقود الحركة الوطنية وتعبّر عن رفض الشعب للحركة الصهيونية وتكاثرت الاجتماعات والاحتجاجات، وبدأت الاتصالات بين عكا وسائر المدن لتوحيد العمل الوطني.

وفي غمرة هذا القلق، راح الناس يتهامسون أن المندوب السامي سيزور عكا، وأن الشباب الوطني يعد العرائض للإعراب عن رفض الانتداب ووعد بلفور والمطالبة بالاستقلال.

وفي عصر يوم من تلك الأيام القلقة، جمعنا مدير المدرسة قبل الانصراف، وأعلمنا أننا سنكون في استقبال المندوب السامي على الطريق العام، وعلينا أن نحرص أن تكون ملابسنا نظيفة وأن لا نتخلف عن الموعد.

وكان صوت المدير متهدجاً وهو يقول «لا تتخلفوا عن الموعد» وبدت عليه أمارات الحزن، والمعلمون من حوله مطرقون برؤوسهم إلى الأرض.

وفي الساحة المجاورة للمدرسة، اجتمعنا نحن التلاميذ، واتفقنا فيما بيننا أن «نهرب» في ذلك اليوم، فلا نحضر إلى المدرسة ولا إلى الاستقبال.

وهكذا كان، فلم نذهب إلى المدرسة في صبيحة اليوم الثاني، فمنا من بقى في البيت، ومنا من خرج إلى الشارع ليراقب استقبال المندوب السامي، وكنت مع هذا الفريق.

ووصل «هربرت صموئيل» إلى مدينتنا التاريخية التي امتنعت على نابليون، فلم يكن في استقباله أحد غير حاكم المدينة وموظفيه ورئيس البلدية.

وسار المندوب السامي ومعه عقيلته في الشارع الرئيسي للمدينة، وحوله المقاهي مملوءة بالناس بعضهم يلعب الطاولة، وبعضهم يدخن النارجيلة، وبعضهم مستمتع في إغفاءة حلوة هانئة.

وحين اقترب المندوب السامي من المقاهي، راح رجال الشرطة ينتهرون الناس ويشيرون إليهم بالوقوف، والواقع أن الناس وقفوا قبل ذلك متفرجين مستطلعين.

وبقي نفر من الشباب قاعدين على كراسيهم رجلاً على رجل، غير مكترثين بهذا القادم، إعراباً عن استنكارهم للحكم البريطاني، وكان بين هؤلاء الشباب القاعدين حمدي الحسيني من الوطنيين المعروفين.

ولقد كان هذه العمل في حينه شجاعة فريدة ووطنية ممتازة، وباتت المدينة ولا

حديث لها إلا ما أقدم عليه حمدي الحسيني، وكان يومئذ من أساتذة المدرسة وهي تابعة للحكومة.

وقام المندوب السامي بزيارة القلعة والأسوار والآثار التاريخية، وغادرها دون أن يأبه له أحد، بل كانت علامات الصدود والوجوم بادية على وجوه الناس أجمعين فكان ذلك من بوادر «المقاومة السلمية» للانتداب البريطاني والحركة الصهيونية.

وعدنا في اليوم الثاني إلى المدرسة كأن شيئاً ما كان، فلم يسأل مدير المدرسة عن «هربنا» من المدرسة وامتناعنا عن حضور الاستقبال، فكان ذلك تضامناً «سرياً» بيننا وبين أساتذة المدرسة، ورمزاً للتضامن الشعبي على الكفاح الوطني الذي خاضه شعب فلسطين عبر ثلاثين عاماً.

وانقضى العام، وانقضت معه الامتحانات النهائية، وكنت في الصف الثانوي الثاني، ولم يكن بعده صف آخر، وكنت الأول في صفي «بعلامات ممتازة» ما عدا الرسم والرياضة البدنية.

ومع ذلك كان علي أن أبقى في المدرسة وأعيد الصف، وكان غريباً أن يعود «الأول» في صفه إلى المدرسة ليكون في الصف نفسه، ويقضي عاماً آخر.

وكان المفروض أن أكمل دراستي في أحد المعاهد في القدس، ففيها كانت المدارس العالية يتوافد إليها الطلاب من سائر أنحاء فلسطين.

ولكن المفروض شيء والواقع شيء آخر، فقد ثار الجدال في بيتنا: كيف يذهب أحمد إلى القدس ولا يذهب أنور؟ وكان لا يزال أمام أخي أنور عام آخر قبل أن يتم دراسته في عكا.

وكان للخالة رحمها الله الكلمةالأولى والأخيرة، وقد عزّ عليها أن أتعلم في القدس وابنها يتعلم في عكا، وارتأى الوسطاء والشفعاء حلاًّ لذلك أن أقضي عاماً آخر في عكا وأن أنتظر حتى يفرغ أخي من دراسته وأسافر معه إلى القدس.

ورضيت الخالة بهذا الحل على مضض، يعزيها بقبوله ما قاله الشفعاء والوسطاء من أنني سأقوم على رعاية أخي وخدمته.

ومضى العام وأنا أعيد دروسي حتى صرت أعرفها أكثر من الأستاذ نفسه، وازداد ترددي على مجلس الدرس الذي يعقده الشيخ عبد الله الجزار حتى أصبحت كحمامة المسجد، تغدو وتروح ولكنها لا تلبث أن تعود إلى المسجد.

وانشغل البيت وأهله في إعداد الترتيبات للسفر إلى القدس، والالتحاق بالمدرسة وكان حدثاً كبيراً في حياة الأسرة وحديثها.

كان أخي أنور ذكياً محبوباً يتمتع «بنفوذ» واسع في البيت، يستمده من نفوذ والدته، وأخذ الخدم والحشم يعدون له ملابسه وفراشه ولوازمه في هذه الرحلة «العظيمة» إلى القدس، ولم ينسوا كذلك أن يهيئوا له صفيحة من الجبن وصفيحة من اللبنة و«مجامع» من الحلوى، فقد بلغهم أن المدرسة في القدس طعامها رديء، ويجب أن لا «يجوع» أنور. . وهو المدلل الحبيب.

واستغرقت هذه «الحملة» في البيت ليالي وأياماً يعدون فيها كل شيء لأخي أنور، وأنا رفيقه ليس إلا . .

وخرجنا من البيت ذات صباح، ومعنا أحمالنا وأثقالنا إلى محطة سكة الحديد، ليقلنا القطار إلى حيفا ومنها إلى القدس، وخرجت الخالة ونساء العائلة والخدم والحشم، وكان الوداع حافلاً لأخي أنور، هذا يقبله وهذا يضمه، وهذا يشمه، وهذا يدعو له بالتوفيق، وهذا يبلل وجنتيه بالدموع، وقد أسرف الخدم والحشم في الآهات والحسرات وهم يحرصون أن تراهم الخالة على هذا الحال من التوجع والتفجع.

أما أحمد فلم يقبله أحد، وما بكى له أحد «فإنّ حمزة لا بواكي له» كما قال الرسول في رثاء عمه حمزة. . فحز ذلك في نفسي، ولكني حمدت الله أن لي أخاً ذاهباً إلى المدرسة في القدس، لأذهب إلى المدرسة معه، فمن يدري. . لولاه لما ذهبت إلى القدس وما تعلمت، وما أدري ما يكون أمري ومصيري.

تلك هي الخواطر التي جالت في ذهني حين ركبنا القطار، أنا وأخي، بل أخي وأنا. . لنقضي ثلاث سنوات في مدرسة صهيون في القدس وتبدأ بيني وبين أخي أُخُوة ومحبة، بعيداً عن خالتي ونظراتها.

غفر الله لها عدد تلك النظرات وما كان أكثرها!

ليلــة مــع جمــال باشــا

ركبنا القطار من عكا إلى حيفا، أنا وأخي ومعنا أمتعتنا المحزمة، وصفائح المؤن التي أعدت لنا بعناية وإحكام، من الجبنة واللبنة «والمربى» وكان في القطار «أبو حسين الشامي» أحد وجهاء المدينة ليصاحب ابنه إلى القدس، ويدخله في مدرسة «تراسنطا» الإيطالية.

وقد بالغ أهلنا، حين كنا في فناء المحطة، في مناشدة العم أبو حسين بأن يرعانا في سفرنا، ولا يتركنا وحدنا في هذه السفرة «الخطيرة» إلى بيت المقدس، وما كان أخطرها!

وراح أبو حسين يسلينا بحكاياته الطريفة ومؤانسته الظريفة ليذهب عنا الوحشة ويزيل من نفوسنا مشاعر «الغربة»، وسار بنا القطار ومن حوله كثبان الرمال البيضاء، تنعكس عليها أشعة الشمس، فتتوهج وتتألق كأنها رواب من الفضة، والخليج الفتان على ميمنتنا في زرقته الأخاذة، يبعث بأمواجه المتعاقبة هادئة رتيبة إلى الشواطىء، فما تصلها إلا ويصبح زبدها المتناثر أشبه بأكاليل الورود البيضاء.

وأخذ أبو حسين يروي لنا الأساطير الحلوة العذبة التي يتناقلها أهل عكا جيلاً بعد جيل. كيف أن الموقعة الكبرى بين المسلمين واليهود ستكون في خليج عكا وأن كل حجر سينادي «يا مسلم هذا يهودي ورائي تعال واقتله»، واجتزنا نهر النعامين ثم نهر المقطع، وسرد لنا حكاية هذين النهرين مع الرسول (ﷺ) ولماذا سمي الأول «النعامين» لأنه استجاب له عليه السلام بنعمين بدل نعم، ولأن الثاني ما استجاب فدعا عليه بالقطيعة فسمي بالمقطع!

وكنا ونحن نستمع إلى هذا القصصي الظريف، نمد رؤوسنا من نافذة القطار، لنلقي النظرات «الأخيرة» على مدينتنا الجميلة، عكا، وقد خلفناها وراءنا بأسوارها الشامخة، وقباب مساجدها ومناراتها، وبيوتها يركب بعضها بعضاً، فكانت مناسبة في حينها ليروي لنا العم أبو حسين، أن أهل عكا مولعون ببلدهم لا يطيقون فراقها

ويشعرون بالغربة حين يغادرونها، ولو في سفر قصير، وأنهم لذلك يحلفون «بغربتهم» حين يبتعدون عن أسوار مدينتهم ولو ميلاً واحداً أو ميلين.

ووصلنا محطة سكة الحديد في حيفا، وكانت تعج بالقطارات، فهي المركز الرئيسي للمواصلات الحديدية في فلسطين، وانتقلنا إلى القطار الذي يسافر إلى القاهرة لننفصل عنه في محطة اللد ونأخذ قطاراً آخر إلى القدس.

وفي محطة حيفا لم يكن أمر انتقالنا إلى قطار القاهرة سهلاً، فهذا أول عهدنا بالسفر ومشاكله، ويقيناً أنه لولا العم أبو حسين لكان نصيبنا الضياع بين الخطوط الحديدية، لا نعرف قطار البضائع من قطار الركاب. . ولا الرائح من الغادي!

وهكذا اندفعنا إلى القطار نلقي بأمتعتنا من النافذة، والحمالون ينقلون صفائح المؤن من قطار إلى قطار، والفزع يملأ قلوبنا خشية أن «يفوتنا القطار» أو تضيع إحدى صفائح المؤن، أو يضيع أحدنا بين جموع المسافرين.

وحمدت الله والعرق يتصبب على وجهي، أن اجتمع شملنا في إحدى عربات القطار، أنا وأخي والعم أبو حسين وولده، وما إن أحسسنا بالاطمئنان إلى مقاعدنا حتى أخذنا نعد «بضاعتنا» قطعة قطعة، ونحن أشدّ ما نكون حرصاً على صفائح المؤن، فهي زادنا في المدرسة الداخلية في القدس، فستكون المجاعة نصيبنا إذا ضاعت.

وانطلق بنا القطار في رتل طويل من العربات، يرسل صفيره حيناً بعد حين، وعلى ميسرتنا جبل الكرمل يردد الأصداء كأنما يرد التحية بأحسن منها.

وما هي إلا دقائق حتى خرجنا إلى السهول، نبتعد عن الشاطئ حيناً ونقترب منه حيناً آخر، وعادت بي الذاكرة ثماني سنوات إلى الوراء حين مررت في هذه الأرجاء في العربة من طولكرم إلى حيفا.

ولقد كانت المعالم هي المعالم من غير تغير يذكر، فالقرى العربية بأهلها وأصحابها، والسهول يعمل فيها الفلاحون العرب وهم يهزجون رجالاً ونساء، والرعاة يسوقون مواشيهم، والمزمار يرسل ألحانه عبر الفضاء، ولا ترى على امتداد البصر إلا يهودياً واحداً أو اثنين هنا أو هناك، وكذلك فإن القطار على تعدد عرباته وازدحام ركابه لم يكن فيه إلا نفر قليل من اليهود، جلهم أو كلهم من اليهود القدماء، فقد كان اليهود في ذلك العهد (١٩٢٤) لا يتجاوزون سبعين ألفاً، معظمهم من اليهود الأوائل.

ووصلنا محطة اللد عند الظهيرة، فسارعنا إلى «بضاعتنا» وانتقلنا إلى قطار القدس

بعد أن اجتزنا نفقاً صغيراً تحت الأرض، ونحن نسأل المارة واحداً بعد الآخر، «أين قطار القدس؟» ولم تكن في المحطة إشارات ولا علامات، وكان على المسافرين أن يعتمدوا على ذاكرتهم أو فراستهم، أو كثرة السؤال!

وكان سرورنا عظيماً أننا وجدنا أنفسنا أخيراً في القطار الذي يقلنا إلى القدس، وكان شوقنا الذي يلهب مشاعرنا أن نرى المدينة أولاً، والمدرسة أخيراً.

وانطلق القطار في سيره، وهو يتصاعد شيئاً فشيئاً، عبر التلال والهضاب متعرجاً متلوياً بين الوديان، حتى بلغنا مشارف القدس، بين هضاب تتناثر من حولها الصخور الصماء، لا شجر ولا زروع، والكروم الصغيرة منثورة في السفوح وفي أكناف الوديان.

وكان كل شيء من حولنا هادئاً خاشعاً، كأنما الطبيعة تصلي، والروابي ساجدة.. منذ الأزل.

وقد قدر لي مع السنين أن أسافر من القدس وإليها، في القطار في الليل والنهار، وكانت هذه المعاني تتأكد في نفسي وتلقي جذورها إلى أعماق الأعماق، وأنا لا أدري ما سر الجمال والجلال، وهما يشعان حول بيت المقدس في روابيها، وما سر البهاء والسناء يخيمان في وديانها.

ولقد قدر لي كذلك في حياتي «المسافرة» في القارات القديمة والحديثة، أن أشهد أروع المشاهد وأبهاها، وكثير منها زادته يد الإنسان حسناً ورواء، ولكني كنت أرى أن ما «حول» بيت المقدس أبدع وأروع.

وكنت أسأل نفسي عن السر المكنون في ذلك كله، وكنت أجد الجواب في ثنايا التاريخ عبر العصور، وما كان نصيب بيت المقدس وما حوله من هذا التاريخ. وما أحسّ إلا وشفتاي تتمتمان ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا**﴾[1] ثم أردد بعد ذلك قول الرسول العظيم (ﷺ) «إن الجنة لتحن شوقاً إلى بيت المقدس».

وما أحسسنا كيف مضى بنا الوقت، والقطار يئن وئيداً وهو يتسلق الجبال حتى وصلنا محطة القدس، فتدافع المسافرون ونحن معهم من النوافذ والأبواب وتسابقنا إلى فناء المحطة، حتى نضمن لنا عربة تقلنا إلى المدينة، وركبنا في واحدة وأركبنا بضاعتنا في عربة أخرى.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الاسراء،» الآية ١.

وأطلق السائق العنان لخيوله حتى وصلنا أسوار المدينة واجتزناها من أحد أبوابها إلى فندق «أفتيموس» ولعل هذا اسم صاحبه.

وكان هذا الفندق على مقربة من كنيسة القيامة ومسجد عمر، وسط المدينة القديمة ومن حوله الأسواق والمتاجر.

وكان لهذا الفندق ردهات واسعة وممرات طويلة وحجرات متعددة يحتاج المسافر إلى خريطة، أو دليل ليتعرف على مداخله ومخارجه.

ومن الصدف الغريبة أنني وجدت على إحدى طاولات الفندق كتاب مذكرات «جمال باشا» مترجماً إلى اللغة العربية، وحملته وذهبت به إلى غرفتي، وألقيت نفسي على الفراش الوثير وهذا الكتاب بين يدي.

ولم يكن بي ميل إلى النوم، وزاد من يقظتي أنني وجدت هذا الكتاب وأيقنت أنني سأجد فيه شيئاً عن والدي.

و أخذت أقرأه صفحة بعد صفحة، ولكني رأيت أن الليل قد ينقضي دون أن أتمه، فرجعت إلى فهرست الأعلام في آخره، فوجدت اسم والدي في عدة مواضع فقرأت صفحاتها واحدة بعد الأخرى، ثم عدت إلى قراءتها مرة ثانية.

ولم أكن عشت طفولتي وصباي مع والدي، في حجره وحضنه كالعهد بالأبناء مع الآباء، ولكني كنت متضايقاً متحرجاً إلى حد لا يوصف من الحملة الشائعة التي كانت تدور حول والدي، وما كان يقال حول الشهداء العرب الذي أعدمهم جمال باشا، أثناء الحرب العالميةالأولى حتى لقب «بالسفاح».

وكنت أقرأ في بعض صحف فلسطين حملات متواصلة على والدي بهذا الصدد، وأنه أفتى بإعدام الشهداء، كما كنت أُقرأ في بعض المناسبات مقالات مضادة من بعض المواطنين يشيدون فيها بشفاعات الشيخ أسعد لدى جمال باشا.

وكان هذا «الجو السياسي» المحموم يملأ نفسي، فقد كنت أعتبر نفسي «وطنياً» بين صفوف الطلاب، وكان يضايقني أنني ابن ذاك الذي أفتى بإعدام الشهداء!

وفي تلك الليلة في أوتيل «أفتيموس» سُرِّيَ عن نفسي وأحسست أن «خراجاً» في صدري قد انفقأ، وانبجس صديده واسترحت.

لقد قرأت المذكرات وهي تروي كيف كان والدي يلح على جمال باشا بأن لا ينفذ حكم الإعدام في شهداء العرب، وكيف كان يتوسل إليه بالآيات القرآنية

والأحاديث النبوية، حتى إنه جثا أمامه على ركبتيه فزجره «أن لا يتحدث عن هذا الأمر بعد اليوم».

لقد هدأت نفسي وأنا أُقرأكل هذا، وكأنما حصلت على براءة تاريخية تنصف والدي فازداد اقترابي منه، وما هي إلا لحظات حتى سقط الكتاب من يدي، وسقطت يدي على الفراش، وتراخى رأسي على وسادة ناعمة وثيرة في نوم هانئ هادئ.

وما هي إلا بضع ساعات حتى استيقظ سمعي وفؤادي وكل جوارحي على «الأذان» المهيب الرهيب الحبيب «الله أكبر» يتجاوب في منعرجات بيت المقدس، لا يقطعه إلا خطوات المارة تضرب في الشوارع المبلطة، وهم في طريقهم إلى المساجد والدكاكين، يصلي من يصلي، ويفتح الحوانيت من يبيع ويشتري!

ولم يكن المؤذن يرتل في صوت جميل فحسب، ولكنه في أذانه كان يتعبد في خشوع وخضوع، حتى لقد كان يرسل تكبيراته من فؤاده لا من حنجرته، وكان كل شيء هادئاً كأنما وقفت الدنيا لتستمع إلى هذا الأذان الرخيم.

وجاءني صوت المؤذن «تهليلاً» كما يجيء للأطفال ليناموا، فعدت إلى نومي العميق دون أن أسمع المؤذن وهو يصيح «الصلاة خير من النوم» فلم أكن قد نمت إلا قليلاً، وقد أرقتني مذكرات جمال باشا ولم أستيقظ إلا وأخي أنور يقرع عليّ الباب، واستيقظت.. لنبدأ حياة جديدة في المدينة القديمة!

المستحيـــلات قبـــل أربعيـــن عامـــاً

قضينا يومين أو ثلاثة في مدينة القدس، قبل أن ندخل المدرسة، ونحن نطوف بالشوارع ونتسكع في الميادين العامة وأمام واجهات الدكاكين، فكان كل شيء رائعاً يأخذ بمجامع القلوب.

ولقد أصبحنا أمام التاريخ وجهاً لوجه، نعيشه واقعاً حياً، بعد أن كنا نحفظه عن ظهر قلب ونحن في المدرسة في عكا، فها نحن الآن أمام الأسوار التي قرأنا تاريخها، وسيرة المعارك من حولها، وها نحن نجوس خلال بواباتها القديمة، وكنا نسردها غيباً بين يدي أستاذنا وبالترتيب الذي يصر عليه، وها نحن في جنبات المسجد الأقصى المبارك نستذكر كل تاريخه، وها نحن في كنيسة القيامة عامرة بالقسس والزوار، يجلس على بابها الشيخ المسلم بعمامته وجبته يحفظ مفاتيحها، وها نحن أمام جامع عمر في قبالة القيامة، حيث صلى الفاتح العظيم، بعد أن فرغ من زيارة الكنيسة.

وكان كل شيء ينطق بالتاريخ، حافلاً بأجمل الذكريات وأروعها، وكنا كلما وقفنا أمام هذه المعالم العظيمة، تقدم إلينا «الدليل» ليروي لنا طائفة من التاريخ والأساطير، في قصص حلو عذب، نعيش معه عبر القرون والأجيال، منذ الإسراء والمعراج، إلى الفتح العمري، إلى أيام صلاح الدين، إلى عهد الدولة العثمانية، حتى دخول المارشال «أللنبي» إلى بيت المقدس، وسقوط فلسطين على أيدي جيوش الحلفاء في عام ١٩١٨.

وكنا، أخي وأنا، نستمع إلى محاضرة الدليل بشغف وشوق، ونحن نتساءل، لمَ لمْ يعلمنا أستاذنا في عكا تاريخ بيت المقدس كما سمعناه من الدليل، فكل الذي حفظناه في المدرسة أسماء الأبواب وعدد البرك التي تشرب منها المدينة، وقائمة طويلة بتواريخ السنين والأحداث، منذ الخليقة حتى العصور الحديثة.

وكان أكثر ما أثار دهشتنا واستغرابنا ونحن نجوس في شوارع المدينة ونقف أمام معالمها كما يفعل السياح، زيارتنا لحائط «المبكى» وقد وصلنا إليه من زقاق متعرج خلف جدار المسجد الأقصى.

ولم يدر بخلدي أنني أطأ بقعة من وطننا سيدور عليها صراع رهيب وتاريخ عجيب، وكل ما رأيته عند حائط «المبكى» بضعة عشر يهودياً يمدون أيديهم على الحجارة الضخمة لجدار المسجد الأقصى، وهم يبكون وينوحون، ويبتهلون ويدعون.

وسألت الدليل ماذا يفعل هؤلاء اليهود هنا؟ فقال لي هازئاً، ساخراً: «إنهم يبكون على خراب هيكل سليمان ويدعون الله أن يمكنهم من إعادة بنائه».

فقلت للدليل بحماسة الصبي واندفاعه، أليس المسجد الأقصى بجداره ملكاً لنا نحن المسلمين، فأجابني الدليل بلهجة العارف الواثق: «إن المسجد لنا، وحائط «المبكى» هو جدار المسجد، والأرض التي يطؤها اليهود وهم يبكون ويدعون هي ملكنا. . نعم إنها ملك المسلمين»!

ولكن جواب الدليل قد أثار في نفسي طائفة من الأسئلة تدافعت على لساني تدافع الرصاص من بندقية سريعة الطلقات، فأخذت أسأله: «إذا كان ذلك كذلك، فكيف يجوز لليهود أن يصلوا إلى جدار المسجد الأقصى، وكيف سمح لهم أن يدخلوا هذا الحي وهم لا يملكون فيه شبراً واحداً، وكيف يجوز لهم أن يقيموا الصلوات ويرسلوا الابتهالات وهم يدعون الله أن يعيد بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى؟»، ولكن وقت الزيارة لم يكن يسمح للدليل بالجواب. . وربما كانت الأسئلة عند الدليل، من غير جواب.

وكان وراء هذه الأسئلة تاريخ طويل لم يكشف عنه النقاب إلا في العام ١٩٢٩ يوم عرض الأمر على لجنة دولية في أعقاب صراع دموي بيننا وبين اليهود بصدد حائط «المبكى»، وما يزعمه اليهود من حقوق، وكان لي دور بصدد اللجنة الدولية سيأتي ذكره.

ولكن الدليل عاد بنا أدراجنا من خلال أزقة التاريخ ومعابر الماضي، وهو يقول: «هذه خرافات وخزعبلات يهودية ونحن لا نقيم لها وزناً، وهل يعقل أن يتغلب علينا هؤلاء اليهود؟» فقلت له: «أبداً ليس من المعقول، إنه مستحيل. . ».

والواقع أن أحداً على وجه الأرض، حتى من غلاة اليهود أنفسهم، لم يكن يخطر على باله في خياله، وأضغاث أحلامه أنه سيأتي بعد خمسة وأربعين عاماً، ذلك اليوم الذي يشهد فيه جيلنا القوات الإسرائيلية «تفتح» بيت المقدس، ويقيم اليهود الصلاة الكبرى أمام حائط «المبكى»، ويهدمون المباني من حوله ليجعلوا منها ساحة رحبة تتسع لجماهير المصلين انتظاراً لليوم الموعود لإقامة الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى.

لم يكن يخطر على بال أحد أن يقع شيء من هذا، وفي الدنيا العربية مئة مليون

من البشر، من حولهم في الدنيا الإسلامية ستماية مليون آخرون يعرفون مقام المسجد الأقصى في حياة العروبة والإسلام، بوصفه أولى القبلتين وثالث الحرمين. . لم يكن ذلك يخطر في بالي وأنا أجوس خلال بيت المقدس مع الدليل العزيز.

ثم كانت لنا جولة في القدس الجديدة، خارج الأسوار، وطفنا بأحيائها القائمة على الروابي هنا وهناك، والمنازل مبنية بأحجار القدس الفاتنة تتوهج مع الشمس نهاراً وتتألق مع ضياء القمر ليلاً، وكان لليهود حيّان أو ثلاثة تعرف بروائحها المنبعثة من أزقتها ومجاريها، على حين كانت الأحياء العربية بالغة الروعة في هندستها وجمالها وتناسق حدائقها كأجمل ما تكون أجمل الأحياء السكنية في العالم، ومع ذلك فقد كان يطيب للدعاية الصهيونية أن تشيد بالتقدم اليهودي وتنعى على العرب تخلفهم وتأخرهم في كل ميادين الحياة.

وكان «الوجود اليهودي» في بيت المقدس جديداً علي فلم يكن في مدينتنا «عكا» جاليات ولا منشآت يهودية، شأن كثير من المدن العربية في فلسطين.

وكنت، لذلك أمُدّ بصري بنظرة فاحصة إلى هذا الوجود اليهودي في بيت المقدس، فكان يملأ نفسي حيرة وتساؤلاً.

دخلت الأحياء اليهودية كما كان يدخلها أي عربي، ووقفت أمام المقاهي والمتاجر اليهودية كما يفعل أي عربي، في ذلك العهد، وكان معظم اليهود من الشرقيين وكثير منهم يتكلم العربية بلكنة يهودية، ومعظمهم من اليهود القدامى، ولم تكن المشاعر متجهمة بين العرب واليهود وهم يتجولون في الشوارع الواحدة، أو يجلسون في المقاهي الواحدة، ولكن مشاعر الصفاء لم تكن قائمة كذلك.

لقد كان الجو غريباً حقاً، وغامضاً حقاً، بالنسبة إلينا نحن العرب على اختلاف أعمارنا وأجيالنا إزاء الصهيونية.

لقد كانت خطط الصهيونية وأهدافها كما كنا نقرأ عنها في صحفنا واضحة لا لبس فيها ولا إبهام، لا بد أن تؤدي إلى إجلائنا عن وطننا، تلك كانت النتيجة المنطقية للحركة الصهيونية.

ولكننا لم نكن نصدق أن هذا المنطق يمكن أن يتحقق، بل كان يخامرنا اليقين أنه يستحيل أن يتحقق.

ولقد مرت هذه الخواطر سريعة في نفسي وأنا أرى هذا الوجود اليهودي لأول مرة في بيت المقدس، وأخذ السؤال الرهيب يلح عليّ، هل سيتحقق المستحيل، هل ستقع المعجزة، هل سينكفئ التاريخ على وجهه وتقوم الدولة اليهودية في فلسطين

ونخرج من مدننا التى بنيناها، وقرانا التي أنشأناها، وأرضنا التي عشنا في مرابعها عبر العصور والأجيال؟

وكان الجواب يدوي في نفسي: مستحيل. .

أجل مستحيل، ألسنا أصحاب الوطن منذ فجر التاريخ؟ ألسنا أكثريّة واليهود أقلية؟ أليست هذه المدن والقرى والمزارع والمصانع والمروج والمراعي والجبال والوديان عربية، بنيناها وأنشأناها وصنعناها وملكناها، نحن وآباؤنا وأجدادنا منذ القدم، فكيف نخرج منها؟ ومن يستطيع إخراجنا منها؟

وتتدافع هذه الأسئلة وعشرات مثلها، ثم أعود إلى نفسي فأستمع إلى الجواب الصارخ الصامت، مستحيل. . مستحيل.

وخرجت من الأحياء اليهودية وعدت أدراجي إلى المدينة القديمة، وخلفت هذه الهواجس ورائي، لتحل محلها شؤوني في المدرسة، وما يقتضي لها من تحضير وإعداد.

وانطلقنا، أخي وأنا، إلى الأسواق نشتري ما يلزمنا من الملابس والكتب والأدوات المدرسية.

ولقد أشبعنا نهمنا من كل جديد، وكانت الأسواق غاصة بالطلاب الوافدين من كل أنحاء فلسطين، ملأوا الدكاكين وهم يشترون لوازمهم، استعداداً للدخول إلى المدرسة، وكنا ننعم النظر في ما يشترون، ونسترق السمع لنعرف السعر الذي به يشترون، حتى لا يستغفلنا التجار، وبيت المقدس بلد سياحي، والتجار فيه لا يتورعون ولا يتعففون.

وحملنا متاعنا إلى فندق أفتيموس وكأنما كنا نحمل الدنيا بأجمعها، ولم تكن الدنيا عندنا إلى ذلك العهد، إلا الكتاب وقطعة الحلوى وجزمة اللعب، دون أن نعلم ما يخبىء القدر لجيلنا من كوارث وأهوال تصل بنا إلى تشريد شعبنا، والنزوح من وطننا.

وأطبقنا أجفاننا تلك الليلة على الحقائق الصغيرة التي جئنا بها من الأسواق، فملأت نفوسنا سروراً وحبوراً.

وكانت ليلة حالمة، عامرة بأحلى المنى، سرعان أن حل محلها الشعور بالانقباض والرهبة عند اليقظة في الصباح الباكر.

وكيف لا تنتابنا مشاعر الانقباض والرهبة، ونحن نغادر الفندق إلى جبل صهيون. . إلى المدرسة. . إلى السجن الصغير؟

نشأت على جبل صهيون عدواً للصهيونية

خرجنا من فندق «أفتيموس»، وأخذنا نصعد في شوارع المدرسة المبلطة بين الدكاكين، والجماهير تتزاحم مناكبها، صاعدين أو نازلين، كل في شأنه، هذا إلى المسجد الأقصى وذاك إلى كنسية القيامة، وآخر إلى متجره ومصنعه، وطوائف من الناس من كل بقاع الأرض وافدون على بيت المقدس ليجتلوا طلعتها البهية، وينعموا بآثارها الرائعة، ويسيروا في مواكب التاريخ تحف بهم نفحاتها القدسية.

واجتزنا باب الخليل وأصبحنا في المدينة الجديدة، ثم أمسكنا بالطريق المؤدية إلى جبل صهيون، وألفينا أنفسنا وجهاً لوجه أمام مدرسة صهيون، وهناك عند بوابتها المقفلة ألقينا برحلنا: صفائح الجبن واللبنة، وحقائب الملابس، وجسدان ناحلان مبهوتان، ينتظران أن يفتح الباب، هما أنا وأخي أنور، غريبان بعيدان عن الأهل والبلد.

ومضت برهة، وفتح لنا، فدخلنا ساحة المدرسة، ومنها صعدنا إلى قاعة للنوم فيها ما يقرب من ثلاثين سريراً. فوضعنا أمتعتنا في دواليب خاصة، وأحسسنا أخيراً أننا في مدرسة داخلية تملأنا مشاعر الوحدة في بيئة غريبة عنا، كل ما فيها وما حولها يوحي بالوحشة والرهبة. وأول ما نفرت منه نفسي أن يكون اسم هذه المدرسة مدرسة صهيون، فالصهيونية بغيضة على قلوبنا، وإن كانت في ذلك العهد لم تتشكف أهدافها ولا خطرها.

ولقد مكثت في هذه المدرسة ثلاثة أعوام حتى ١٩٢٦ ولم يغب عن ذهني يوماً من الأيام أنني أقيم على الجبل الذي أعطى الصهيونية اسمها وتاريخها، وهكذا نشأت على جبل صهيون لأكون واحداً من الدّ أعداء الصهيونية.

ولكني وجدت العزاء حين علمت أن هذه المدرسة قد أسست قبل أن تنبثق الصهيونية كحركة منظمة معروفة، وأن الجمعية التبشيرية المسيحية البريطانية (Christian Missionary Society) هي التي أسستها، وأن اسمها الأصلي مدرسة المطران كوبت (Gobat).

ولقد وقع اختيار والدي على هذه المدرسة لأنها تهتم بالعلم والنظام، خلافاً للمدرسة التبشيرية الأخرى في بيت المقدس، مدرسة «المطران» الإنكليزية التي تجعل للألعاب الرياضية، دوراً بارزاً، أو هكذا كان الشائع من أمرها.

وكان رئيس المدرسة قسيساً بريطانياً اسمه «الس» تخرّج على يديه عشرات من رجال فلسطين، أصبحوا من كبار موظفي حكومة فلسطين، أمّا بقية الأساتذة فهم عرب معظمهم من أبناء القدس، وكان قسط المدرسة، عن المنام والطعام والتعليم، اثنين وأربعين جنيهاً فلسطينياً «إسترلينياً»، ويعتبر هذا المبلغ في ذلك الحين كبيراً ولا يستطيعه إلا الموسرون، وكان حديث الناس في عكا أن الشيخ أسعد الشقيري يدفع عن ولديه في مدرسة صهيون مبلغاً كبيراً . . أربعة وثمانين جنيهاً، خلاف الكتب المدرسية ونفقات السفر، ومصاريف الجيب، وهذه لم تكن تتجاوز نصف جنيه في الشهر الواحد.

ومضت أيام قاسية وأنا أحاول أن أتعرف على هذه البيئة الغريبة، فجميع التلاميذ يتكلمون باللغة الإنكليزية، والحديث بالعربية ممنوع منعاً باتاً، والأساتذة يندسون بين التلاميذ في ساحة المدرسة حتى «يقبضوا» على طالب يتكلم العربية، وكانت معرفتنا بالإنكليزية طفيفة جداً، وكنا نعجب أشدّ العجب لهؤلاء الطلاب الذين يتكلمون الإنكليزية بطلاقة عجيبة وبلهجة إنكليزية رنانة.

ثم كانت حكاية النوم، فكنا ننام في قاعة يتزاحم فيها ثلاثون سريراً، وعلى بابها من الخارج «سطلان» كبيران، لا ينفك التلاميذ ليلاً، غادين رائحين ليبولوا فيهما. ويجيء بعد ذلك الحمام، فهو قاعة مستطيلة تتسع لخمسين طالباً، ويعطى كل طالب «طستاً» واحداً من الماء صباحاً ليغسل وجهه، وصفيحة واحدة من الماء الساخن ليغتسل بها مرة أخرى في الأسبوع، ذلك أن القدس كانت شحيحة الماء في ذلك الوقت . . قبل أن يجر إليها الماء من «راس العين» في سهل يافا.

أما الطعام فقد كان قليلاً ورديئاً، ولا أدخل في تفاصيله، ويكفي أن نعلم أن أجود أوقاته، عشاء يوم الأحد، بيضة واحدة مسلوقة وخبز وفنجان من الشاي، ثم صلاة بعد ذلك «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم» وهذه الوجبة «الفاخرة» بعد نزهة عنيفة في روابي القدس تمتد بضع ساعات، صعوداً إلى الجبال ونزولاً في الوديان.

وكان يزيدنا حنقاً كما يزيدنا جوعاً، أننا كنا نرى مائدة الأساتذة في أول القاعة، وهي حافلة بأطباق الطعام، نحن جائعون وهم يشبعون، ولم أكن قد حفظت في ذلك الوقت قول الشاعر، فيا عطشي والماء يجري . . وكنا حين نغادر قاعة الطعام نتدافع إلى الرواق المجاور حيث دواليبنا، نفتحها، ونقبل على صفائح الجبنة واللبنة

والمربى، نأكل حتى نشبع، وكان الطلبة يتبادلون ما عندهم، وكل واحد يفاخر أن ما عنده أجود وأدسم، وأن أمه، في ما صنعت، أبرع وأمهر.

وما هي إلا أيام حتى ألفنا هذا الشظف بكل ألوانه، كما ألفنا حياة المدرسة الداخلية على هذا الجبل، بعيداً عن العمران ومن حولنا سور المدرسة نطل منه على الأودية من حولنا، وأحياء المدينة الجديدة على مقربة منا.

ولم يكن يسمح لنا بالخروج من المدرسة إلا بعد عصر الأربعاء الثالثة من كل شهر، لبضع ساعات، نقضي معظمها في المطعم لنأكل ما نشتهى، ونقضي الوقت الباقي في شراء البيض والفاكهة لنحملها معنا إلى المدرسة. وبذلك تكون الإجازة كلها طعاماً في طعام.

وكانت صعوبة الصعوبات أمامنا هي اللغة الإنكليزية، فجميع الدروس تدرس بالإنكليزية، ولم يبق إلا أن ندرس العربية بالإنكليزية!

والواقع أننا جئنا إلى هذه المدرسة لنتعلم الإنكليزية ونجيدها، فالحكم في البلاد بريطاني، وكان حديث الناس أن المستقبل هو لمن يجيد الإنكليزية، وكان مستواي العلمي فوق صف التخرج في العربية والرياضيات والتاريخ والجغرافيا. . كل ذلك باللغة العربية فقط.

ولم أستطع أن أجد مخرجاً من هذه «الأزمة» في الاستماع إلى محاضرات الأساتذة. فقد كانوا يدخلون إلى «الصف» ويلقون الدرس ويشرحونه بالإنكليزية، دون أن أصيب شيئاً إلا الضجر والسأم، لا العلم ولا الفهم.

ورأيت أن خير وسيلة أن ألجأ إلى «الحفظ» فكنت أحفظ الدرس كله عن ظهر قلب، مستعيناً بالقاموس لتفسير بعض الألفاظ، وبقيت على هذه الحال بضعة أسابيع.

ولقد كانت هذه الطريقة قاسية ومريرة، خفف منها أنني كنت سريع الحفظ، حسن الذاكرة، ولكنني أحسست في ما بعد بفائدتها الكبيرة، فقد حشدت ذاكرتي بعبارات ومفردات وتعابير أصبحت نواة للغتي الإنكليزية في مختلف المراحل من حياتي، فكانت زادي، في مرافعتي بالإنكليزية أمام المحاكم الفلسطينية بضعة عشر عاماً، وأهّلتني لأرتجل كثيراً من خطبي في الأمم المتحدة وفي سائر المحافل الدولية.

ولقد كنت أجد من الوقت ما ليس ميسوراً لسائر التلاميذ، فقد أعفيت من حضور حصة اللغة العربية، فقد كنت حفظت شواردها ونوادرها على أيدي أساتذتي في عكا، وكنت، وغرور الصبا يملأ نفسي، أماحك أستاذ العربية في صهيون وأمطره بالأسئلة عن قواعد الصرف والنحو، ولم يكن «أزهرياً» في مثل حالي، فرأى

أن يتخلص مني فكان كريماً ولطيفاً، فأعفاني من الدروس ومن الامتحانات أيضاً.

ومن هنا أصبح رفاقي يطلقون عليّ لقب «أستاذ» ينادونني به في ساحة الملعب بصوت عال، ولم يكن الأساتذة يظنون أن أحداً منهم هو المقصود بهذا النداء، ذلك أنهم كانوا يعرفون «مستر جورج» «مستر أسعد» «مستر وهبة» وهذه فعلاً كانت أسماء بعضهم، رحمهم الله.

ورغماً عن أن مدرستنا كانت أشبه بسجن في بنائها ونظامها، فقد كانت شؤون الوطن تخترق الأسوار من حين إلى حين، بعضها عن طريق رفاقنا من طلاب القدس -الذين لم يكونوا داخليين- وبعضها عن طريق إحدى الصحف المقدسية التي كانت تصل إلى أيدينا في فترات متقطعة.

وكان أهم ما أثار خواطرنا في ربيع ١٩٢٥ زيارة اللورد بلفور إلى بيت المقدس، لمناسبة افتتاح الجامعة العبرية في أواخر حكم المندوب السامي الصهيوني هربرت صموئيل. فقد آلمنا أن نرى في وطننا ذلك الوزير البريطاني الذي صدر باسمه التصريح بإنشاء الوطن القومي اليهودي، وقد قمنا نحن الطلاب بدورنا القومي فاتصلنا برفاقنا في المعاهد العلمية الأخرى للإعراب عن استنكارنا لهذه الزيارة البغيضة.

وكان أن أضربت البلاد ثلاثة أيام، ورُفعت الأعلام السوداء في البلاد، ورفضت دائرة الأوقاف في القدس أن تسمح للورد بلفور بزيارة الحرم الشريف، وألغيت كذلك صلاة كان يعتزم أن يؤديها في الكنيسة الإنكليزية، لأن رفاقنا طلاب مدرسة المطران رفضوا أن يرتلوا الأناشيد اللازمة في مثل هذه المناسبة.

ولم يهدأ بالنا إلا حين غادر بلفور بلادنا إلى سوريا ليلقى مظاهرات هائجة صاخبة لم يستطع معها إلا أن يهرب من دمشق تحت الظلام لينجو بحياته.

وكان بين رفاقنا طالبان يهوديان أخوان أرسلهما والدهما من أمريكا اللاتينية، ليتعلما اللغة العربية في مدرسة صهيون، وكانا يجيدان اللغة الإنكليزية إجادة تامة، وكان أحدهما عبوساً تبدو في وجهه أمارات الغدر والمكر، والآخر سمحاً ضحوكاً يغلب عليه اللطف والطيبة.

ولم تكن الصهيونية قد كشرت عن أنيابها إلى ذلك العهد، ومع هذا فقد كان الطالبان اليهوديان وخاصة العابس منهما يتحدثان عن الصهيونية وأهدافها في وعي وإدراك، وهما يؤكدان أن اليهود يريدون العيش بسلام مع العرب!

ولم يكن التلامذة يأخذون هذين الطالبين مأخذ الجد، وكان الحوار يدور معهما هادئاً، وإن لم يكن يخلو من الخشونة أحيانا ولكن من غير عنف.

وعلى عادة التلامذة، كان البعض يطارد هذين الطالبين اليهوديين في ساحة الملعب في مداعبة خشنة أو ما إلى ذلك، وكان من عادة هذين الطالبين اليهوديين أن يحتميا بي، لأرد عنهما مطاردة المطاردين.

ولم أكن أتردد في حمايتهما ورد «المغيرين» عنهما، ثم تعود الألفة إلى نصابها، وأثناء الحوار كنت أحدث هذين الطالبين كيف كان اليهود في يافا والقدس أثناء الثورات العربية، يلجأون إلى البيوت العربية، فيجدون الأمن والسلامة، وقد لا يكون في البيوت إلا النساء العربيات، تؤويهم وتحميهم، فلا غرو أن أحمي طالبين اثنين في غمار حوار طلابي لا يصل إلى مرحلة «الصدام المسلح».

ولقد شاء القدر أن يكون ذلك الحوار هو نواة هذا الصراع الرهيب الذي خاضته الأمة العربية مع الصهيونية لعشرات السنين، ولا تزال حتى يومنا هذا، وستظل تخوضه إلى غدنا القريب أو البعيد، حتى يأذن الله «بفتح» فلسطين، وإعادتها إلى الحظيرة العربية، وعودة شعبها إليها حراً عزيزاً كريماً.

ولن تعود فلسطين إلى أهلها بالسياسة، ولا بالدعاية، ولكن بواحدة من تلك «الفتوحات» التاريخية التي عرفها التاريخ الإنساني.

وإنها آتية لا ريب فيها، ذلك إيماني، وذلك علمي وخبرتي وكل آت قريب، ﴿**يرونه بعيداً. ونراه قريباً**﴾[1].

أجل إنه فتح قريب، ولكن بالوحدة.. وبالوحدة وحدها.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة المعارج،» الآيتان ٦ ـ ٧.

لـك اللـه يـا غـزة

كان الطلاب في مدرسة صهيون من جميع أنحاء فلسطين، من المدن والقرى على السواء، وكانت أكثريّة الطلاب من المسيحيين ومعظمهم من الطائفة الإنجيلية، فقد كانت المدرسة تبشيرية بروتوستانتية، وكان الطلاب المسلمون بضعة عشر بين مئتي طالب أو يزيد.

وكانت المدرسة «مسيحية» في كل تقاليدها، يدرس الكتاب المقدس على الجميع، والصلوات المسيحية تتلى قبل الطعام وبعده، والأعياد المسيحية لا يحتفل بغيرها، والذهاب إلى الكنيسة أو حضور مدرسة الأحد بديلاً عنها، واجب لا مهرب منه إلا بالمرض أو التمارض.

ورغماً عن هذا الجو المسيحي الخالص، فقد كانت العلاقة بين الطلاب المسيحيين والمسلمين على ود خالص، ولقد كنا نحن الطلاب المسلمين حين نخلو إلى بعضنا نبدي استياءنا ونعجب كيف يرسلنا أهلونا إلى هذه المدرسة التبشيرية، وكان رفاقنا المسيحيون «يتضامنون» معنا في هذه المشاعر.

وكنت أذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، كما يفعل غيري من الطلاب المسلمين، يحفزنا إلى ذلك أننا ننتهزها فرصة للخروج من المدرسة المسورة المحصنة، فقد كانت الكنيسة الإنجيلية على مسافة ساعة واحدة مشياً على الأقدام، وما أحلى السير في شوارع القدس في الأيام الصحوة الناعمة.

ولقد زاد من إغرائي على الذهاب إلى الكنيسة، أن راعيها كان القس صالح سابا، وكان خطيباً مفوهاً ينطق العربية بلهجة «أصمعية» وكان الذين يحسنون النطق بالعربية من»الإنجيليين» قلة قليلة. . وكانت الطقوس في الكنيسة عادية بسيطة تقتصر على الأناشيد الدينية وخطبة الأحد، خلافاً لما كنا نراه في الكنيسة الأرثوذكسية في عكا حيث كانت تقام الصلوات والطقوس باليونانية.

وفي فصول الدراسة تعلمت الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد، باللغة الإنكليزية القديمة، وحفظت كثيراً من الأمثال والقصص عن ظهر قلب، وأصبحت «مبرزاً» في هذا الموضوع، متفوقاً على أقراني المسيحيين.

وكان من المفارقات اللطيفة، أنني حزت جائزة التفوق في الكتاب المقدس في الأعوام الثلاثة التي قضيتها في المدرسة.

وكم كان عجيباً وغريباً، في الاحتفال السنوي في كل عام، حيث توزع الجوائز، أن مدير المدرسة، وهو قسيس كبير، كان يصيح بأعلى صوته جائزة الكتاب المقدس تمنح إلى أحمد أسعد الشقيري، وهكذا كان «الشيخ» الصغير ابن الشيخ الكبير ينافس المسيحيين في دينهم، ويتفوق عليهم في كتابهم.

وجاءت الأعوام بعد ذلك لألتقي بالمبشرين الذين كانوا يتوافدون كثيراً على فلسطين، لأعقد معهم حواراً في «الثالوث» و«الناسوت» و«الملكوت» و«اللاهوت» ومن نصوص الكتاب المقدس.

ولكن ما هو أهم من ذلك، أن دراسة الكتاب المقدس، فوق أنها مكنتني من اللغة الإنكليزية «العريقة» كانت لي زاداً كبيراً في الأمم المتحدة وخاصة لدى وفود أمريكا اللاتينية، حتى ظن بعضهم أنني مسيحي من البلاد المقدسة، فلقد جاءت مناسبات عديدة فندت فيها مزاعم الصهيونية من ناحية دينية مسيحية، وكانت غولدا ماير (وزيرة خارجية إسرائيل) وزميلها من بعد «إيبان» يشيران من طرف خفي، إلى أنني مسلم أستغل الكتاب المقدس للدعاية السياسية.

وعلى كل حال فقد كنا ننعم بالتقاليد المسيحية بسرور بالغ، ففي عيد الميلاد وعيد الفصح كانت الدراسة تعطل لأسبوعين أو ثلاثة، نعود خلالها إلى عكا لنستمتع بدفء شاطئها الجميل، ونخفف عنا البرد القارس الذي نعانيه في القدس على هذا الجبل الذي تتناوح من حوله العواصف القاسية.

كان سفرنا إلى عكا بالقطار، ولم نكن نام ليلة السفر، فالقطار يغادر القدس بعد منتصف الليل، وكنا نحمل حقائبنا على أكتافنا وننزل من «قادومية» حادة من جبل صهيون إلى المحطة، ولست أنسى تلك الليلة التي سقط فيها أحد الأساتذة في «القادومية» فكسرت ساقه، فقضى عطلة الميلاد في المستشفى، بدلاً من أن يقضيها مع أهله وذويه في بلده. وكنا نملأ القطار الذي يقلنا بالمرح والفرح، ونحن في طريقنا إلى مدننا وقرانا، ولكنا حين العودة بعد انتهاء العطلة، كنا في صمت مطبق لا نكاد نبس ببنت شفة، حتى إذا دخلنا المدرسة وألقينا حقائبنا عن أكتافنا عاودنا الحنين والشوق إلى الأهل والبلد.

وفي إحدى العطلات التي قضيناها في عكا، أذكر أن السيد شكري القوتلي وكان من قادة الحركة العربية في ذلك الوقت، جاء إلى المدينة ليدعو إلى إنشاء شركة «الكونسروة» لحفظ الخضار والفواكه وتعليبها، وكان أن عقد اجتماع في دائرة الاوقاف - في جامع الجزار- حضره أغنياء المدينة وتجارها، وقد حضرت هذا الاجتماع مستمعاً، فقد كنت كثير التردد على الجامع ألتقي بالشيوخ وطلاب العلم.

وكانت شهرة السيد شكري القوتلي تملأ أسماعنا، وتوقعت أن أستمع إلى خطاب وطني رائع، فقد كانت هذه هي روح تلك الأيام، ولكن خاب الظن.

وقف القوتلي وتحدث حديثاً عادياً، عن مزايا هذه الشركة ودعا الحاضرين إلى المساهمة. . وشرح فوائدها الاقتصادية، وانتهى الاجتماع على غير جدوى، ذلك أن التجار والموسرين لم يكونوا قد ألفوا الصناعات الوطنية وإنشاء الشركات المساهمة، وكل همهم أن يزاولوا التجارة التي وجدوا عليها آباءهم، والقناعة كنز لا يفنى!

أما نحن الشباب والطلاب فلم يعجبنا شكري القوتلي ولا مشروعه، لأننا نريد خطاباً وطنياً، ومظاهرة حماسية، ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[1].

ومضت على جيلنا سنوات أدركنا بعدها أننا كنا جميعاً على خطأ، وأن شكري القوتلي على صواب. . فإن الحماسة الوطنية من غير صناعة وطنية هي مصارعة مع الرياح. .

ومن طرائف الصبا التي كان يمارسها الطلاب بعد العودة من العطلة، أنهم كانوا يضعون في الدولاب كمية من الفول بعدد أيام الفصل الدراسي. وكان الطالب عند كل مساء يأخذ حبة فول ويضعها في زاوية معينة، وبهذا يحسب كم يوماً مضى وكم يوماً بقي، وكنت أراقب رفاقي وأمامهم حبات الفول وهم يطرحون ويجمعون، ولم أكن أمارس هذه الهواية ولكني كنت أشاطرهم لذتها وطرافتها.

وكان الأساتذة عرباً من فلسطين ولبنان، إلا سيدة بريطانية اسمها الليدي وطسن، كانت تعلمنا اللغة الإفرنسية، وكانت هذه السيدة في غاية اللطف والرقة، وكانت متدينة طاعنة في السن، تجيد اللغة الإفرنسية نطقاً ولهجة، خلافاً للإنكليز الذين سمعتهم يتكلمون الإفرنسية في بعض مناسبات الأمم المتحدة. . حيث كنت أداعب بعضهم وأقول لهم: «اذهبوا وتعلموا اللهجة الإفرنسية في باريس أو في بيروت».

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

وكانت هذه السيدة متطوعة لا تتقاضى راتباً عن عملها، ولكني بدأت أبغض الإنكليز من غير تمييز، لأنهم احتضنوا الحركة الصهيونية وأصدروا تصريح بلفور.

وانتقلت كراهيتي للإنكليز، إلى اللغة الإفرنسية التي تُدرسّها هذه السيدة الإنكليزية، وكنت ضعيفاً في هذه المادة، لا أحفظ ولا أدرس، ولعلي كنت أبلغ «علامة» الاجتياز، بلطف هذه السيدة ورحمتها لا بالاستحقاق.

وقد زاد من كراهيتي للإنكليز، أننا كنا ذاك اليوم في الصف، وإذا بزائر يدخل علينا، بريطاني في سحنته وملابسه، يلبس نظارة واحدة على عينه، معتدل القامة صارم الملامح، ولم يسأل أحداً منا شيئاً، جال ببصره في التلامذة والغرفة، دقيقة أو اثنتين، ثم خرج بكبرياء وغطرسة وعجرفة.

وسألنا المعلم من هذا الزائر، فقال لنا: اللورد بلومر، المندوب السامي البريطاني، وهو واحد من الذين تعاقبوا على حكم فلسطين خلال ثلاثين عاماً.

وعلمنا نحن الطلاب في ما بعد، أن بريطانيا قد اختارت هذا القائد العسكري حاكماً على فلسطين بعد الثورات التي نشبت في البلاد «ليؤدب» الشعب ويحفظ الأمن بقوة السلاح، وليبني الوطن القومي اليهودي على أسنة الرماح.

وكان من رفاقنا بضعة طلاب من غزة، توثقت بيني وبينهم عرى الصداقة، وكان أحدهم يحدثني عن شؤون بلده، كما كنت أحدثه عن شؤون بلدي. فغزة مثوى جد الرسول عليه السلام، وبلد الشافعي عبقري التشريع الإسلامي، وعكا مدينة صلاح الدين التحم حول أسوارها مع ريكاردوس قلب الأسد، وهي البلدة التي ارتد عنها نابليون وقال قولته المشهورة «على أسوارك يا عكا أضعتُ مستقبل حياتي. .» وكنا نتساجل التاريخ ونعدد المفاخر والمآثر مع زميلي الغزي، وكان يحدثني بحسرة ومرارة «عن الهجرة» ما قبلها وما بعدها، ويردد الحديث عن الهجرة في مناسبة ومن غير مناسبة.

وبادرت زميلي الغزى مرة ونحن في ساحة الملعب واسمه جلال ترزي، وقلت له: «ما هي هذه الهجرة التي تكثر من تردادها؟ ولولا أنك مسيحي لحسبت أنك تشير إلى الهجرة النبوية»، فضحك زميلي والفرح يملأ أساريره وقال: «لا، إنها هجرة غزية، فقد هاجر الكثيرون من أهالي غزة أثناء الحرب العالمية الأولى إلى شرقي الأردن «فراراً» من هول الحرب والزحف البريطاني من سيناء، ولقينا مثوى كريماً من إخواننا في شرقي الأردن.

وكان «جلال» عاطفياً يتحدث عن تلك الأيام بكل أحاسيسه وجوارحه، ولقد

كرمه الله ومات في غزة في ميعة الصبا وشرخ الشباب. ولم تكن الأحداث الرهيبة على غزة قد وقعت.

توفاه الله وأكرمه قبل أن يشهد الاحتلال الإسرائيلي لغزة عام ١٩٥٦ حين نكلت العصابات الإسرائيلية بأهالي غزة ورفح وخان يونس ودير البلح فاستشهد من استشهد، وهاجر من هاجر وكانت الهجرة الثانية.

ثم جاءت النكبة الكبرى في حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧ فأبلى قطاع غزة بمدنه وقراه، جيشه وشعبه، بلاء مجيداً في وجه القوات الإسرائيلية، وجاءت الهجرة الثالثة من أهل القطاع إلى الأردن، وكانت الليلة أسوأ من البارحة لا أشبه.

وشاء القدر أن أكون بعد أربعين عاماً رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأن تتوالى زياراتي لهذا القطاع العظيم، وأن أشهد أصالة الأمة العربية وبطولتها في شعبه الشجاع، مما سيأتي ذكره في حينه.

ثم يشاء القدر أن أعود بذاكرتي أربعين عاماً إلى الوراء لأذكر زميلي جلال الترزي وهو يروي أيام «الهجرة».

وقد عشت بعده لأشهد الهجرة الثانية والثالثة، والصيحة تتداوى من أعماق فؤادي: لك الله يا غزة..

السؤال الذي بقي خمسين عاماً من غير جواب

وفي شهر تموز/ يوليو عام ١٩٢٦ جرت الحفلة السنوية لتوزيع الشهادات على المتخرجين، وكان هو اليوم الوحيد الذي تفتحت فيه أبواب مدرسة صهيون على مصاريعها، وتحولت قاعة المطالعة والغرف المجاورة فأصبحت ردهة لاستقبال أولياء الطلاب وكبار الضيوف، وبدت المدرسة في ذلك اليوم صرحاً من صروح «الحرية» تحطمت من حولها القيود والحدود، والتلاميذ بين غاد ورائح لا رقيب ولا حسيب، يدخن من يدخن في ساحة الملعب، بعد أن كان يختبئ وراء بيوت «الراحة».

وكان طلاب الصف المنتهي، وأنا معهم نجلس في مكان بارز من القاعة والجميع يتفرس بنا بإعجاب وتقدير، والطلاب في الصفوف الأخرى ينظرون إلينا ونفوسهم تتطلع إلى يوم التخرج، ونحن نتطلع إلى يومنا وغدنا بالآمال الكبار الجسام.

وكانت أنظارنا مشدودة إلى تلك الطاولة التي وضعت عليها شهادات التخرج ملفوفة بالشريط الأحمر، ونحن نعد الدقائق، لينادي علينا المدير ونقبض بأيدينا على شهاداتنا، ونحسب أننا سنقبض على الدنيا بأسرها.

وكانت فرحتنا كبيرة حين بدأ الاحتفال وأخذ مدير المدرسة يلقي خطابه التقليدي، ونحن لا نلقي إليه بالاً ولا أذناً، فقد انتهينا من المدرسة ونود أن نمسك الشهادة بأيدينا وكفى.

ونودي علينا واحداً بعد واحد، وتقدمنا لاستلام شهاداتنا، وأولياء الطلبة يلهبون أيديهم بالتصفيق، ثم يرطبونها بدموع الفرح والحبور، وهم يمسحون عيونهم الضاحكة الباكية.

وأخيراً استلمنا شهادات التخرج، ونحن لا نبصر أحداً، ولا نحس بشيء، ذلك أن الشهادة الملفوفة بالشريط الأحمر ملكت علينا عقولنا وجوارحنا، وما إن

انتهى الحفل حتى هرولنا إلى غرفنا، وكل واحد منا يفك الشريط الأحمر، ويفتح الشهادة، مزينة بالإطار الجميل مكتوبة بالأحرف المزركشة وفي صدرها اسم كل واحد منا. . وما أجملها ساعة من ساعات العمر، زاخرة بأحلى المنى وأبهج الآمال.

وقضينا الليلة ولا ندري كيف قضيناها، أجسادنا على سررنا ولكن أرواحنا قد رحلت إلى الأهل والبلد، كل منا يروي في خاطره ماذا سيقول وماذا سيفعل. .

وانطلقنا في الصباح، وقد ملأنا المدرسة هرجاً ومرجاً، وهرولة وركضاً، فحملنا متاعنا وكتبنا، والشهادة الملفوفة بالشريط الأحمر في أيدينا، فقد كنا نحاذر أن لا تتسخ وأن لا تطوى طياً «يكسرها» وينقص في زينتها ويذهب بروائها وبهجتها، واحتوانا القطار بكل ما حوت أفئدتنا من مشاعر وأحاسيس.

ووصلنا إلى عكا ونفوسنا تطير فرحاً، ودخلنا نخترق الشوارع والحارات ونحن نريد من الناس أن ينظروا إلينا ويسألونا عن مدرستنا وشهادتنا، ولكن أحداً لم ينظر، وأحداً لم يسأل، وأدركنا حينذاك أننا في عالم، والناس في عالم آخر.

ولكن ما هي إلا أيام حتى أقبل الأصدقاء والأهلون على دارنا مهنئين بعودتنا إلى البلد والشهادة معنا، وكانوا يأتون وأبناؤهم معهم ويأخذ هؤلاء وأولئك يسألون عن المدرسة ودروسها، ونحن نقص عليهم بعزة وخيلاء عن شدة الامتحانات وصعوبة الدروس وما إلى ذلك.

ولست أنسى ما حييت أن كثيراً من أولئك الأبناء كانوا يستمعون إلينا وفي قسمات وجوههم مشاعر وخواطر يصارع بعضها بعضاً.

إنهم فرحون بنا، ولكنهم حزينون أنه لم يتح لهم ما أتيح لنا، فهم لم يستطيعوا أن يذهبوا إلى مدرسة صهيون أو غيرها من المدارس العالية، وأحسب أنهم كانوا من ذلك في عذاب عظيم أو حسد مقيم.

وكبرت لأعلم أن ملايين من الأطفال والصبيان لم تكن أمامهم فرص متكافئة ليتعلموا كما تعلمنا، فعاشوا في جهل وحرمان، ومضى نصف قرن من الزمان قبل أن يصبح العلم حقاً مشاعاً لكثيرين. . وإن كان كثيرون آخرون ينتظرون أن يطل قرن آخر. .

وأصبحت كلما رأيت أقراني من الشباب، أتحاشى أن أذكر لهم من أمر شهادتي شيئاً، فقد غدوت أحزن لحزنهم، ولكنهم كانوا دوماً يلحون عليّ أن أسرد لهم شيئاً من أيامنا في المدرسة، وكيف أصبحنا نتقن الإنكليزية، فأزداد حرجاً ويزدادون حزناً. .

ثم ضاعت هذه الخواطر في نفسي في رحاب العطلة المرحة وزحمة الرياضة

والسباحة وحياة الأسرة، وأخذنا نعد العدة للسفر إلى بيروت للالتحاق بالجامعة الأمريكية.

ومضى الصيف وأقبل موعد الجامعة، فسافرنا، أخي وأنا، ولا نكاد نصدق أننا ذاهبان إلى الجامعة «الكبرى» التي تخرج منها الاساتذة والاطباء، والصيادلة والزعماء.. من كل أرجاء الوطن العربي.

وسارت بنا السيارة في ذلك الطريق الجميل الفاتن في محاذاة البحر، ولكن أبصارنا لم تكن لتبصر، فلقد كنا نتطلع إلى لقاء بيروت والجامعة الأميركية في بيروت، فتلك عندنا غاية المنى..

ووصلنا بيروت وانطلقت بنا السيارة ورأينا أنفسنا في الجامعة الأميركية في صميم ساحتها، أمام المبنى الذي سنقيم فيه. ولم أتمالك نفسي فانطلق لساني: الله الله.. ما هذا!

أين نحن من مدرسة صهيون بأسوارها وبوابتها، على ذلك الجبل الأجرد؟!

نحن الآن في الجامعة تكاثرت فيها المباني والملاعب والساحات، وتعددت أقسامها بين الطب والصيدلة والزراعة والعلوم والآداب.

ثم هذه الرابية، من رأس بيروت، المشرفة على البحر، تتخللها الشوارع ومن حولها أشجار الظلال حانية على المقاعد الخشبية لتستقبل الطلاب والطالبات، يدرسون أو يتداعبون أو يتأملون.

لقد بهرتني هذه «المدينة الجامعية» بعد الباستيل في صهيون، وأحسست أنني أصبحت إنساناً حراً، أملك نفسي وإرادتي، وأنني انتقلت عبر القرون، من جبل صهيون إلى رأس بيروت.

لقد تاقت نفسي يوم وصولي أن أتعرف على «الجامعة» وأدخل قاعاتها وأتفرج على أقسامها وأطوف شوارعها وساحاتها، ولو اقتضاني ذلك ساعات وساعات، ولكني رأيت أن أعود إلى المبنى الذي سنقيم فيه لأرتب أموري.

وجاء «المسؤول» عن غرفة نومي وسلمني مفتاحها، ففتحت ودخلت ووضعت ملابسي وكتبي في مكانها، ومكثت قليلاً أتأمل هذه الغرفة الأنيقة النظيفة، أنام فيها وحدي.

ولم أصدق عيني، لم أصدق أنني سأنام وحدي في هذه الغرفة بعد الأعوام الثلاثة التي قضيتها في مدرسة صهيون، أستمع إلى شخير أربعين طالباً، يروحون ويغدون ـ إلى السطلين نفسهما ـ طيلة الليل، ليصلحوا من شأنهم على مقربة من قاعة النوم.

وخرجت بعد ذلك إلى الساحة المجاورة ومشيت قليلاً وإذا بي أمام مطعم الجامعة، فدهشت وذهلت: أفي الجامعة مطعم يأكل فيه التلاميذ ما يشتهون؟

ودخلت كما دخل الطلاب، ووقفت كما يقفون، أمام لوحة كبيرة مثبتة على الجدار كتب عليها ألوان الطعام وأسعاره.

فقلت الحمد لله، لقد خلصت من طعام مدرسة صهيون، شحيحاً رديئاً، وآن لي أن آكل ما أشتهي، وقدر ما أشتهي.

وحملت طعامي على صفيحة بين يدي وجلست إلى إحدى الموائد مع الطلاب، نأكل ونتحدث ونتسامر، وخرجت من قاعة الطعام إلى غرفتي، وأريج الخريف يفوح من الاشجار والأزهار، وخريف بيروت ربيع الزمان.

وكان تعب السفر قد أخذ مني مأخذه فألقيت نفسي على السرير الوثير، والغبطة تملأ فؤادي.

واقتحم عليّ خاطر سهدني وأرقنى، ونغص فرحتي.

تذكرت الشباب والصبيان من رفاقي في عكا، وعاودني منظرهم وهم يسألونني عن مدرسة صهيون، ينتابهم الأسف والحسد، أنهم لم يستطيعوا أن يكملوا دراستهم في المعاهد العالية.

لقد كان ذلك حالهم يوم حدثتهم عن مدرسة صهيون، فماذا يكون من أمرهم يوم أعود إلى عكا وأحدثهم عن الجامعة ومباهجها وعظمتها؟

وبت حزيناً، وإن كنت لا أملك لهم ضراً ولا نفعاً، ورحت أتساءل لم لا يتعلم هؤلاء الرفاق كما أتعلم؟ لم يكون العلم باهظ التكاليف لا يستطيعه المعسرون، بل لماذا لا يكون من غير نفقة، حراً مشاعاً للجميع؟

ولم يكن في وسعي ولا في طاقتي أن أجيب عن هذا السؤال، وكان مقدراً على أجيال وأجيال من الشباب والطلاب أن ينتظروا نصف قرن من الزمان، قبل أن يأتي الزمان بالجواب.. ويصبح العلم مجاناً في بعض الوطن العربي لا في كله..

ولكني وأنا أبحث عن الجواب في أعماق نفسي، غصت في نوم عميق لأصحو في اليوم الثاني وأبدأ الحياة الجامعية، والقدر يخبئ لي حدثاً يعود بي إلى حيث أتيت.. إلى بيت المقدس مرة ثانية!

أربـع عشـرة عقبـة أمـام الوحـدة العربيـة!

كانت حياة الجامعة في بيروت غريبة علي، بعد الجو الصارم العابس الذي كنا نعيشه في مدرسة صهيون في القدس.

لقد أصبحنا نملك كثيراً من حرية التصرف والسلوك، نخرج من حي الجامعة إلى حيث نشاء، بعضنا يذهب إلى دور السينما والملاهي والمراقص ويعود عند الفجر، والآخرون وأنا منهم كانت نزهتنا في رأس بيروت على شاطئ البحر، وكانت علاقتنا بالأساتذة بعيدة عن الوقار والخوف والهيبة، يدخل المحاضر إلى «الصف» فيلقي درسه وينصرف، ويتعلم من يتعلم، ويلعب من يلعب، والحساب في نهاية السنة لينجح من ينجح ويسقط من يسقط.

وكانت حصة اللغة العربية مرحة أيما مرح، فقد كان السيد جرجس الخوري المقدسي، أستاذ العربية: آية في اللطف والنكتة، حافظاً لمئات الطرائف والحكايات والنوادر.

وكان يبتدئ درسه بشيء من الجد، ثم يلح عليه الطلبة أن يسرد عليهم أقاصيصه الطريفة، وما أسرع ما ينطلق من الجد إلى الطرافة، فقد كان ذلك يجد هوى في نفسه، فيأخذ في إرسال الحكايات واحدة بعد الأخرى، من غير طلب ولا تكليف.

وفي الحفلات العامة التي كانت تعقد في القاعة الكبرى في الجامعة كان الأستاذ المقدسي سيد الموقف بلا منازع، يتكاثر الطلبة للاستماع اليه، وينقلب الاجتماع إلى قاعة ضاحكة مقهقهة، تكاد جدرانها تتهاوى من التصفيق.

ولو أن عهد التلفزيون قد سبق زمانه وأدرك الأستاذ المقدسي، لكان لدى الثقافة العربية ثروة ضخمة من الأقاصيص والحكايات والطرائف، مسجلة في حيوية بالغة الإشراق والمرح، يزينها أن صاحبها يهز الجماهير بالحبور والسرور، ساعات وساعات دون أن تبدو على وجهه، لثانية واحدة، لمحة واحدة، من الضحك أو الابتسام.

وكان في الجامعة الأميركية نادٍ له تاريخ معروف، اسمه «العروة الوثقى» نتجمع فيه لنتداول الشؤون العامة، وكان للسياسة حظ كبير في «العروة الوثقى».

وكنت أشترك في ندواته مع سائر الطلاب من أرجاء العالم العربي كافة، وكانت روح الأخوّة العربية سائدة بيننا، إلا حين تبدأ الحملة الانتخابية لأعضاء الهيئة الإدارية، فكان المرشحون يهمسون بالنعرات الإقليمية، عراقي وفلسطيني وسوري، وجماهير الطلاب بريئة من هذه النزعات، تماماً كالحال التي عشتها لأربعين سنة بعد ذلك من عمري، حكام إقليميون وجماهير وحدوية، في الوطن العربي كله.

وفي «العروة الوثقى» كان يلتقى الطلاب العرب فيتعرف بعضهم إلى بعض، وتزداد روابط الألفة بينهم وكانت هذه الاجتماعات بالنسبة إليّ وإلى غيري من الطلاب الفرصة «العملية» الأولى لنكتشف أننا أمة واحدة وأن الفوارق بين أقطارنا وشعوبنا لها مثل في الفوارق التي تسود القطر الواحد والشعب الواحد.

وكنت إلى ذلك العهد قد عشت في فلسطين، في عكا وفي بيت المقدس، وكان شعار الحركة الوطنية في فلسطين «استقلال فلسطين في إطار الوحدة العربية» وكانت معاني الوحدة تملأ خواطرنا، ولكن حقائق هذه الوحدة ومقوماتها وجدتها حية قائمة في الجامعة الأميركية حيث عشت بضعة أشهر مع طلاب سوريا والعراق ولبنان والسودان ومصر.

وكانت هذه الأقطار عام ١٩٢٧ كلها تحت الاحتلال الأجنبي، البريطاني أو الإفرنسي وكانت آمالنا، جيل ذلك العهد، وذلك ما كنا نتعاهد عليه، أن نخلص من الحكم الأجنبي وأن نقيم الدولة العربية الواحدة.

ولم تكن هذه الخواطر أحلاماً عابرة، فقد كنا نعقد الندوات لبحث الوحدة وأسسها، ووضعنا ميثاقاً يحدد أهداف القومية العربية وأسس الدولة العربية الحديثة، وقد ساهمت بنصيب وافر في هذه الحركة إلى جانب عدد من الطلاب الذين أصبحوا في ما بعد قادة في بلادهم، أذكر منهم فاضل الجمالي، وإسماعيل الأزهري.

وفي غمرة هذه الندوات أقبل علينا يوم الشهداء ٦ أيار/ مايو، وهو ذكرى إعدام الشهداء في سوريا ولبنان عام ١٩١٦ على يد السفاح جمال باشا.

وكان أن تجمع طلاب الجامعات والمعاهد العليا في بيروت، في ساحة الشهداء، وسرنا في مظاهرة كبرى حتى بلغنا قبور الشهداء في محلة الرمل، ولحقت بنا جماهير الشعب بالأعلام وصور الشهداء.

ووقع الاختيار عليّ، وعلى السيد يوسف الكيلاني من العراق (وكيل الخارجية

العراقية) لنتكلم باسم الطلاب العرب، وكان احتفالاً مهيباً خطب فيه عدد من رجالات بيروت أذكر منهم رياض الصلح وجبران تويني.

وحين جاء دوري للكلام لم أستطع بلوغ المنصة في زحمة الجماهير، وكنت قصيراً نحيلاً. فحملني رفاقي على أكتافهم وارتجلت خطاباً حماسياً لاهباً أثنيت فيه على الشهداء، وحملت على جمال السفاح والعهد العثماني بمظالمه ومغارمه وأشدت بالوحدة العربية ودعوت إلى قيامها، وتضافر الجهود لبنائها.

وتساءل الناس من هذا الفتى الذي أثار كوامن الشجون وألهب حماس الجماهير، وكان عجيباً حقاً أن يعلموا أن ذلك الفتى، هو ابن الشيخ أسعد الشقيري، أحد رجال الدولة العثمانية، ورفيق السفاح جمال باشا وصاحبه.

وعدت مع الطلاب إلى الجامعة الأميركية، هم فخورون بي وأنا فخور بنفسي، دون أن أدري ماذا يخبئ لي القدر.

وأصبح الصباح وإذا بالصحف البيروتية طافحة بأخبار المظاهرة الكبرى، في عناوين بارزة منها: «الوالد يوافق على إعدام الشهداء، والولد يشترك في تأبينهم»!

وقد أحسست بحرج كبير إزاء والدي، ذلك أنني نبشت موضوعاً دفنياً طالما كان سبباً في التهجم عليه بمناسبة وغير مناسبة، وكانت أياماً صعبة قاسية، على الوالد في ماضيه، والولد في مستقبله.

ولم يطل أمد هذا الحوار في نفسي، فقد اغتفرت سلطات الانتداب الإفرنسي خطابي الحماسي إلا ما جاء فيه عن الوحدة العربية والدعوة لها والتطلع لإقامتها، فذلك كله ما لا تتحمله الإدارة الإفرنسية، وما لا تطيق سماعه.

وكان يوم الثالث عشر من أيار/ مايو من عام ١٩٢٧، فقد جاء رجال الشرطة إلى الجامعة، واقتادوني إلى سراي الحكومة، وأدخلت إلى إحدى الغرف المجاورة لمدخل السراي، وفي هذه الغرفة وجدت سيدة إفرنسية تطبع على الآلة الكاتبة، وتروح وتغدو إلى الغرفة المجاورة.

وبقيت في الغرفة أنتظر على غير هدى، لا أدري ماذا ينتظرني، وقد غاظني أن هذه السيدة كانت تتوقف عن الطباعة من وقت لآخر، لتنظر في المرآة، ثم تخرج أدوات الزينة من محفظتها، وتعالج وجهها بالأحمر والأبيض، ولم يكن هذا المشهد مألوفاً لي، واعتبرته فجوراً إفرنسيا وافداً علينا في ركاب الانتداب الإفرنسي.

وما هي إلا دقائق، حتى دخل علينا ضابط إفرنسي من الغرفة المجاورة، وتناول الورقة المطبوعة من السيدة الإفرنسية وسلمني إياها وهو يقول «صدر الأمر بإبعادك

من البلاد المشمولة بالانتداب الإفرنسي» وطلب إليّ أن أغادر البلاد في اليوم الثاني. ولم يزد على ذلك قليلاً أو كثيراً.

ولقد أصابني الفزع والهلع، فهذه هي سنتي الأولى في الجامعة، وفيها ربطت مستقبلي، وسيبقى أخي «أنور» فيها يواصل دراسة الطب، ولولاه ما وطئت قدماي أرض بيروت، وأنا لا أدري ماذا سيحل بي حين أعود إلى عكا مطروداً.

غادرت السراي إلى الجامعة، وهذه المخاوف تملأ نفسي، وما إن علم الطلاب بالأمر حتى أخذوا يواسونني، ولم يعد في الجامعة وفي بيروت بأسرها إلا حديث إبعادي عن البلاد.

ولقد تدخلت الجامعة في الأمر كما تدخل أعيان بيروت، أبو علي سلام، عمر الداعوق، عمر بيهم وهم من أصدقاء والدي. وحاولوا حمل السلطات الإفرنسية العدول عن القرار ولكن دوائر المفوض السامي بقيت على إصرارها وعنادها، وأعلنت أن الأمر يجب أن ينفذ، وأن على الشقيري «الصغير» أن يغادر البلاد في أقرب وقت.

وجاءت سيارة الشرطة الإفرنسية إلى الجامعة، فحزمت حقائبي وملابسي وتجمهر الطلاب من حولي يودعون صاخبين هائجين، وكان يوماً مشهوداً في حياة الجامعة، بقي الطلاب يذكرونه كلما أقبل اليوم السادس من شهر أيار/ مايو من كل عام.

وعدت الطريق نفسه بين فلسطين ولبنان وقد سلكته قبل بضعة أشهر، في محاذاة الشاطي الجميل، ينتابني الغم والهم حتى وصلنا الناقورة، عند المخفر الإفرنسي، وهناك قدمت جواز سفري الفلسطيني، وعلى صفحة من صفحاته كان الضابط الإفرنسي في السراي قد كتب عبارة بالإفرنسية حفظتها طيلة حياتي: Entrée interdite en Syrie et au Liban. Nationaliste, Propagandiste. Expulse.

وترجمتها: (ممنوع دخوله سوريا ولبنان، داعية، سياسي مطرود)

وتجمع موظفو المخفر من حولي، وهم يتنادون ويتهامسون باللهجة اللبنانية: هذا الذي خطب عن المشانيق! وكان العجب بادياً على وجوههم أن رأوا هذا الفتي الهزيل الذي أشغل صحف بيروت أياماً وأياماً، وحمل حكومة الانتداب الإفرنسي على إبعاده من البلاد.

ومكثت بعض الوقت أنتظر سيارة متجهة إلى فلسطين لتقلني إلى المخفر الفلسطيني، ووصلت سيارة شحن كبيرة فركبت إلى جوار السائق، ومضى بي حتى وصلت المخفر فقدمت جواز سفري وأتممت المعاملات المعتادة، وكانت أخباري قد

سبقتني إلى المخفر، فسلّط الضابط البريطاني عليّ نظرات الاشمئزاز والازدراء، بينما استرق الموظفون الفلسطينيون العرب ثواني عابرة، تحدثت خلالها عيونهم وقسماتهم بالإعجاب والتقدير.

وسارت بنا سيارة الشحن من الناقورة صوب عكا، دون أن التفت إلى القرى الوادعة والمزارع الجميلة على الميمنة والميسرة، فقد كان عقلي في شغل شاغل، وفؤادي في الهم المقيم المقعد، وأنا أهيّئ نفسي للدفاع عن مغامرتي القومية التي أقدمت عليها في يوم ذكرى الشهداء، حتى بت أتخيل أنني أصبحت واحداً من الشهداء.

ووصلت بيتنا ونزلت بأمتعتي من سيارة الشحن وأنا أحسب أنني سأجد حساب الآخرة ينتظرني، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت أن أحداً لم يكلمني في قليل أو كثير.

وقد رويت ما جرى، باستغفار واعتذار، إلى والدي وأخي الأكبر، وباقي أفراد الأسرة ومضى الأمر من غير عقاب ولا عتاب.

وإني لأظن، و﴿**إنّ بعض الظن إثم**﴾[1]، أن شعوراً من عدم الاكتراث واللامبالاة قد ساد جو الأسرة، فقد كنت مواطناً من الدرجة الثانية في الأسرة، وسواءٌ عند «الخالة» وأنصارها إذا تعلمت أو لم أتعلم، والمهم عند هؤلاء أن أخي «أنور» بخير، يواصل دراسته في الجامعة. . ولكني وجدت كثيراً من العزاء في ما كان يتحدث به أصدقاء العائلة وزوار المنزل، وهم يطرون «وطنيتي» ويثنون على خطابي «العظيم» الذي أقض مضاجع السلطة الإفرنسية.

وكان والدي يستمع إلى هذا الثناء بارتياح وانشراح، فقد سرّه أنني أصبحت خطيباً مرموقاً، وكان هو من أفذاذ خطباء الدولة العثمانية، ولعله رأى كذلك في خطابي عن الشهداء دليلاً جديداً على براءته من دم الشهداء.

وفي هذه اللحظة التي أكتب فيها هذه المذكرات، بعد أربعين عاماً من ذلك الحدث الأول في حياتي العامة، يدعوني الواجب القومي وأنا أكتب للتاريخ العربي، أن أنفي عن الشيخ أسعد الشقيري أية مسؤولية قومية بالنسبة إلى الشهداء الأحرار الذين أعدمهم جمال باشا في الحرب العالمية الأولى.

أقول هذا بعد أن قرأت ما كتبه الأمير شكيب أرسلان والدكتور عبد الرحمن شهبندر وسائر رجالات العرب الذين عاصروا تلك الحقبة، يضاف إلى ذلك ما خلفه رجال الترك في ذلك العهد، مدنيين وعسكريين من دراسات ومذكرات.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحجرات،» الآية ١٢.

ويبقى عليّ بعد ذلك أن أقول، أمانة للتاريخ العربي كذلك، وقد عاصرت الحركة العربية أربعين عاماً من حياتي، أن الذي أعدم بضعة عشر رجلاً في الحرب العالمية الأولى لم يعد يستحق لقب السفاح، بعد أن قام ساسة الاستعمار الغربي بإبادة أجيال عربية بكاملها في حروب التحرير العربية، ناهيك عن كارثة فلسطين التي أنزلت بالأمة العربية أكبر عارٍ في تاريخها الطويل، وأجلت شعباً عن وطنه، وأودت بحياة الألوف من الشهداء، ولا تزال.

إن رجالاً مثل ترومان وتشرشل ممن كانوا سبباً في بلاء الأمة العربية أجدر بلقب السفاح، من كل سفاح عرفه التاريخ، قبل جنكيزخان وبعد هولاكو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولم تكن قد تجمعت عندي هذه الخواطر في عام ١٩٢٧ وأنا في بيت والدي ألتمس الأعذار لنفسي في ما أقدمت عليه من التنديد بجمال السفاح والدعوة إلى الوحدة العربية، فقد كان همّي أن أسترضي والدي، وأن أسترضي كذلك أخي الأكبر «عبد العفو» وإليه يرجع الفضل في العناية بي، وكان والدي قد ألقى إليه شؤون الأسرة.

وحمدت الله، فقد ظفرت برضاء والدي وأخي، وسُرّي عن نفسي، وأصبحت أرى في ما أقدمت عليه في بيروت مدعاة للفخر والاعتزاز، وخاصة أن أهل المدينة كانوا يقابلونني بالتحية والترحاب، والمعروف عن عكا ولها ذلك التاريخ الضخم، أنها متعصبة لماضيها الحافل، وقد سرها أن واحداً من أبنائها قد أصبح يشار إليه بالبنان.

ولكن هذه الغمرة من غرور الشباب لم تكن تنسيني أنني أمام أزمة بالنسبة إلى مستقبلي، وكان السؤال الذي يلح عليّ ما العمل؟ وما المستقبل؟

ولم يكن في فلسطين دراسة جامعية، ولم أكن أستطيع أن أعرب عن طموحي بالسفر إلى أوروبا أو أمريكا، لكثرة التكاليف، فلم تكن أسرتنا على يسار وثراء، ذلك أن والدي كان مستقيماً وعفيفاً في زمن أثرى ثراء ضخماً من كان دونه مكانة في الدولة العثمانية، ولا أريد أن أذكر أسماء الذين أثروا من قوت الشعب أيام المجاعة في سوريا ولبنان أثناء الحرب العالمية الأولى.

وقادني التفكير إلى الالتحاق بمعهد الحقوق في القدس لأصبح محامياً، ووجدت في هذا الرأي هواي ومناي، وأخذت أعد نفسي للسفر ثانية إلى بيت المقدس.

ولقد أشعل هذا الرأي أمامي طريقاً طويلاً من الحياة السياسية العامة امتدت أربعين عاماً بدأتها في بيت المقدس، معقل الحركة الوطنية إذ ذاك، وتنقلت بعدها في عواصم الدنيا، في واشنطن ونيويورك وباريس وموسكو وجنيف ولندن وطوكيو

ونيودلهي وكراتشي وبكين وباندونغ، فضلاً عن العواصم العربية، وقد رحت اتنقل بينها كأنني أتنقل من حي إلى حي في المدينة الواحدة، كل ذلك في موكب القضية العربية بانتصاراتها وهزائمها.

ولقد كانت الشرارة الأولى في هذه المسيرة الطويلة الشاقة، ذكرى الشهداء في ٦ أيار/ مايو سنة ١٩٢٧، يوم دعوت إلى الوحدة العربية، ثم عملت مع العاملين على بنائها وإنشائها، فتقدمت وتأخرت، وخطت وتعثرت، وكان الظن أن تعمل الكوارث على قيامها، ولكن. . ولكن وما زلنا بعيدين عنها كما كنا قبل أربعين عاماً. . بل لعلها كانت تذكر في ذلك العهد أكثر مما تذكر الآن.

وحين أعود بذاكرتي إلى أيامنا في الجامعة الأميركية في نادي «العروة الوثقى» يوم كان المرشحون لمجلس الإدارة يتهامسون بالإقليمية ليفوزوا بأصوات الناخبين، أجد أن سبب البلاء هو هو لم يتغير ولم يتبدل، لقد كنا في الجامعة جمهرة واحدة يمزقها المرشحون، ونحن الآن في الوطن أمة واحدة يمزقها الحاكمون. . ولله في خلقه شؤون.

ولست الآن أؤرخ للوحدة العربية ولا للتاريخ العربي، فهذه مذكرات عما عاصرت وما ساهمت، ولكني أقولها صريحة للأجيال العربية المعاصرة والآتية، بأن الوحدة العربية تواجه في عام ١٩٦٩ أربع عشرة عقبة.

هذه العقبات الأربع عشرة، هي الأربع عشرة حكومة عربية، تقوم من المحيط إلى الخليج، وكانت هذه الحكومات سبعاً يوم قيام الجامعة العربية، وأصبحت الآن أربع عشرة وما زلنا ننتظر المزيد!

وكلما نشأت حكومة جديدة قامت عقبة جديدة، ويظل «الزعيم» أي زعيم «مؤمنا» بالوحدة داعية لها إلى أن يصل إلى دست الحكم ويكون رئيساً، وعندها يصبح انفصالياً في ثياب وحدودية، يندد بالانفصال، ثم يلقي بخصومه في غياهب السجون لأنهم من دعاة الانفصال، حتى إذا سقط عن الحكم عاد مرة ثانية وأصبح من أشدّ دعاة الوحدة وأشد خصوم الانفصال، وهكذا دواليك.

وعلى الأجيال العربية القادمة أن تعي ذلك بكل صراحة وأمانة وإخلاص إذا كانت تعتبر الوحدة العربية جزءاً من رسالتها في هذه الحياة، أو جزءاً من حياتها.

«أنـا انتهيـت»

سعـد زغلـول

كان إبعادي من لبنان على أيدي السلطات الإفرنسية نقطة تحول في حياتي، فقد ألهب هذا الحدث خيالي وحماستي، وألقى بي في ميادين العمل الوطني في وقت مبكر من عمري، وقد بلغت تسعة عشر عاماً، وهي السن التي يجب أن ينصرف فيها الشاب إلى تلقي العلم دون سواه.

ولكن نوازع «السياسة» اجتذبتني إليها بسرعة مذهلة، وكان خطابي «المشهور» في ذكرى الشهداء في بيروت «الزناد» الذي انقدحت عليه خواطري ومشاعري، والنور الأخضر الذي حدد لي معالم الطريق في حياتي.

وبدأ سؤال مخيف يتردد في نفسي، وما نفع العلم من غير وطن؟ وخطر لي أن جيلنا كله يجب أن ينصرف إلى السياسة والعمل الوطني من غير مبالاة بالدراسة، وكان الشعور بالخطر من الحركة الصهيونية يملأ جوانحي.. ولكن لم يخامرني الخوف بأنني سأعيش لأرى الكارثة الكبرى في احتلال وطننا وتشريد شعبنا، فتلك الصورة الرهيبة لم تكن وقتئذ قد وجدت طريقها إلى خاطري.

غير أني اهتديت أخيراً إلى «هدنة» بيني وبين نفسي فقد استقر رأيي أن أعطى نصيباً من وقتي للسياسة ونصيباً آخر للدراسة، وأن أوفق ما استطعت بين حوافز الأولى وضرورات الثانية.

وكان في عكا جريدة تعرف باسم **الزمر** تصدر مرة في الأسبوع لصاحبها الشيخ خليل زقوت من مجدل غزة في فلسطين، وكان يطلق على نفسه لقب سفيه الشرق، ويطبع هذا اللقب على صدر الصفحةالأولى من جريدته، وبالأحرف البارزة على بطاقته.

وكان الشيخ زقوت في مطلع حياته «سائحاً جوالاً» يطوف البلاد العربية، يتكسب من المديح والهجاء، فيمدح من يعطي، ويهجو من لا يعطي، وكان ظريفاً

لَسِناً ذكياً، يمثل بحكاياته التي كان يرويها، شخصية معينة في المجتمع الإسلامي قبل الحرب العالمية الأولى.

وحط الشيخ زقوت رحاله في عكا وأصدر جريدة **الزمر**، وكانت صحيفة فكاهية لا تتردد في الشتم والسب، وكان همها أن تتبارى مع جريدة أخرى، كانت تصدر في دمشق باسم **الحمارة** لصاحبها توفيق جانا من أهالي عكا، وسفيه عكا يصدر جريدته من دمشق، فكان ذلك آية أخرى . . أن وطننا واحد وأن شعبنا واحد، ولو في ميدان الشتائم والسباب!

ورأيت في جريدة **الزمر** غايتي المنشودة، فأخذت أكتب فيها المقالات الوطنية بالدعوة إلى مقاومة الحركة الصهيونية والاستعمار، وقد أغراني بالكتابة في جريدة **الزمر** أنها كانت تنتشر إلى حد ما بين الجماهير لما فيها من النكات والطرائف، والشيخ زقوت لا يجد حرجاً في ما أكتب فقد هونَّت عليه عبء «تعبئة» الجريدة، ومجاناً.

وكان طبيعياً أن أركز بعض مقالاتي على الاستعمار الإفرنسي الذي حرمني الدراسة الجامعية في بيروت، وأعترف أن هذه المقالات كانت بذيئة في بعض جوانبها، ولعل بذاءة الشيخ زقوت قد انتقلت إليّ، بل لعل السبب في ذلك ما كان يتردد من الشائعات عن التدهور الخلقي في فرنسا، فخطر لي أن أقابل الفجور بالبذاءة!

وقد استاءت القنصلية الإفرنسية في حيفا لهذه المقالات وشاركها في ذلك بعض الأوساط الدينية التي تتعاطف مع فرنسا، وكان على رأسها المطران حجار مطران الطائفة الكاثوليكية في شمال فلسطين.

وكان المطران حجار شخصية لبقة، على جانب وافر من الذكاء والعلم والمكانة، عرفته الجماهير خطيباً مفوهاً وكانت تربطه بوالدي صداقة متينة منذ العهد العثماني.

وجاء المطران حجار إلى عكا ليشكو إلى والدي «عنف» المقالات التي حملت فيها على فرنسا، وشكا والدي بدوره حماقة السلطات الإفرنسية مع «طالب شاب» خطب خطاباً حماسياً.

وتم الاتفاق أن أتوقف عن كتابة هذه المقالات، وأن يتولى المطران حجار الاتصال بباريس لإصدار «العفو» عني والسماح لي بالعودة إلى لبنان، وكأن شيئاً ما كان، وفي حضور المطران انتهرني والدي وقال: «لا مقالات بعد اليوم».

فامتثلت للأمر، وأنجز المطران وعده، فأخذ يكتب إلى باريس بالأمر، ويرسل إلينا صوراً عن مراسلاته، وامتلأت نفسي غروراً أنني أصبحت شخصية وصل أمرها إلى باريس.

ولم يكن يخطر لي أن الأقدار ستحملني بعد عشرين عاماً إلى باريس أثناء انعقاد الأمم المتحدة، لأصفي معها حسابي وحساب الأمة العربية مما سيرد ذكره في حينه لمناسبة بحث قضايا المغرب وتونس والجزائر.

ومضت أشهر والمطران حجار يكتب إلى باريس دون أن أصل إلى نتيجة ما، ثم جاء النبأ الصادع المثير الذي أشغلنا عن باريس والمطران حجار وجريدة **الزمر**، لقد مات سعد زغلول.

لقد وقع النبأ كالصاعقة الساحقة على البلاد فعم الحزن والأسى، وكأنما الشعب كله قد أصبح أسرة سعد زغلول.

وكانت الحركة الوطنية المصرية، بأحداثها ومظاهراتها وخطب زعمائها تملأ قلوبنا ونوادينا ومقاهينا، وكانت حركة الطلاب في مصر تأخذ بمجامع قلوبنا وتهز مشاعرنا إلى الأعماق.

وكان الوفد المصري بزعامة سعد زغلول «قدس الأقداس» في حياتنا، وكنا ننتظر قدوم قطار مصر إلى حيفا حتى نتلقف صحف الوفد، ونجتلي طلعة الزعماء، ونقرأ خطب الخطباء.

وكانت فلسطين كلها وفدية، وخاصة على صعيد الجماهير، وكنا نكره خصوم الوفد ونلعنهم، تماماً كما لو أننا نعيش مع الشعب المصري وعلى أرض مصر. وكنا نعرف عن شؤون مصر وأحزابها ورجالها وصراع قادتها، ما لا نعرفه عن شؤون بلادنا وأحوال رجالنا، حتى أصبحنا كأننا قطعة من أرض مصر ومن شعب مصر.

ولعل هنالك سبباً آخر كان يدعونا إلى التعاطف مع مصر، ذلك ما كنا نسمعه من شيوخنا عن آبائهم بصدد الحملة المصرية على فلسطين في عهد محمد علي باشا وأخبار إبراهيم باشا الذي قاد هذه الحملة.

وكان الدم المصري غالباً في ساحل فلسطين من غزة جنوباً حتى عكا شمالاً وكانت أسرتنا، في شخص جد والدي الشيخ محمد شقير من مصر، من الشرقية، في ما كان يرويه والدي وأعمامي.

والواقع أن أسراً كثيرة في عكا - آل الجراح. والعفيفي، وحبيشي، والأسود، وفضة، منحدرة من أصول مصرية من عهد حملة إبراهيم باشا، ومثل هذه الحال في حيفا ويافا، وكان في يافا سوق يعرف بسوق البلابسة، نسبة إلى بلبيس، وحي يعرف بسكنة أبو كبير، وهو الحي المعروف في مصر.

وقد تضاعفت هذه العوامل في مجموعها فجعلت من وفاة سعد زغلول مأتماً

قومياً في جميع أنحاء فلسطين فتداعى الناس لإقامة حفلات التأبين.

وفي عكا وجدناها كذلك فرصة للتحدث في الشؤون الوطنية، فأقمنا حفلة تأبين كبرى لسعد زغلول، وكنت عريف الحفل أقدم الخطباء، إلا خطيبين لم أقدمهما، والدي ونفسي. . وكان والدي أولهم وأنا آخرهم.

وتحدث الخطباء عن مآثر سعد زغلول وأثر الحركة الوطنية المصرية، وأفاض والدي في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان آية في براعة الاستدلال والاستهلال، وكان خطابي يدور حول الكلمات الأخيرة التي نطق بها سعد زغلول وهو يحتضر «أنا انتهيت» ولم أترك هذه المناسبة تمرّ دون أن أحمل على الاستعمار وأنبه إلى خطر الصهيونية.

ولقد نقلت الصحف أخبار هذه الاحتفالات فألهبت حماس الجماهير، وأمدّت الحركة الوطنية في فلسطين بزاد جديد.

وفي السنين التي عقبت هذه الاحتفالات، جرت اجتماعات وطنية متعددة، أخطب فيها وحدي أو مع والدي، وبات من تقاليد الصحافة أن تشير إلينا «الشقيري الكبير» و«الشقيري الصغير» والأحاديث تتعاقب، جادة ومازحة أيهما أخطب: الكبير أم الصغير، وأبتسم أنا متطلعاً إلى المستقبل! ويبتسم والدي ناظراً إلى الوراء، إلى الماضي. .

وجاءت بعد ذلك حفلة تأبين أخرى في حيفا، ولكنها في هذه المرة إحياء لذكرى أحد وجهاء حيفا من آل الخوري، صدمته سيارة فقضى نحبه وكان معروفاً بالبر والإحسان.

فدعيت لإلقاء كلمة، دون أن أعرف الفقيد، فلم أكن من معاصريه ولا هو من أصدقاء عائلتنا، ولكن أصبحت لي شهرة بأنني «خطيب» وقد حرصت أسرة الفقيد أن أخطب فيها، كما لو كنت مطرباً يحرص أهل الفرح أن أغني لهم وأطربهم.

فلبيت الدعوة، بعد أن تعرفت على سيرة الفقيد، وكان الحفل في ساحة الكنيسة وكان معظم الحاضرين من إخواننا النصارى، يتقدمهم أعيانهم ووجوههم وعلى رأسهم المطران حجار.

وتحدث الخطباء عن مآثر الفقيد، وكان المطران حجار آية في الفصاحة والبلاغة فأسهب وأطنب.

وجاء دوري للكلام، فاستشهدت بما كنت حفظته من الأناجيل أثناء دراستي في مدرسة صهيون، عن البر والإحسان، ورويت حكاية «السامري»

الذي سطا عليه اللصوص، فكان خطاباً قومياً في إطار إنجيلي.

ودهش الحاضرون أن الشقيري الصغير ابن «العلامة» المسلم يستشهد بفيض من آيات الإنجيل، ولم يكن من المطران حجار إلا أن صافحني وهو يقول: «لقد أصبحت تزاحمني على الصنعة ولم يبق إلا أن أخلع ردائي وأضعه على كتفيك». وكانت ساعة من الساعات شمخ فيها غروري إلى السماء، والجمهور رجالاً ونساءً يحملق بصره بهذا الشاب الذي يخطب دون أن يحمل ورقة بيده.

حقاً إنه كان خطاباً مرتجلاً، وقد ارتجلت مثله بالعشرات والمئات في حياتي الخطابية الطويلة، وكذلك في الأمم المتحدة ولكن ما أشقها وأشقاها، أن وراء هذه الخطب المرتجلة إعداداً ذهنياً ونفسياً، وقراءة ومذاكرة.. وما أيسر أن تكتب وتخطب!

ذلكم كان الارتجال عندي، إلا مناسبات معدودة، دعيت فيها للكلام من غير «إنذار» سابق، وقال عنها أصدقائي إنها أجود من المرتجلات الأخرى.

ولقد عدت من حيفا إلى عكا، بعد حفل التأبين، وأنا معتز بنفسي، أحدث خيلائي بما يرضيها ويشبعها، وفي خيالي خاطر جميل يداعبني - مهنة المحاماة.

وأصبحت أردّد في نفسي: إذا كنت خطيباً فلم لا أكون محامياً، وهكذا رحت أعد نفسي للسفر إلى بيت المقدس لألتحق بمعهد الحقوق وأصبح محامياً، وأظل خطيباً كذلك.

فقد كانت الخطابة هوايتي وسليقتي وبعض حياتي، بل كل حياتي.

فجــر النضــال الفلسطينــي

مع زعيم صهيوني كبير

سافرت إلى بيت المقدس، وكان سفري هذه المرة، ولأول مرة، بالسيارة فمررت بحيفا والناصرة، ثم هبطنا إلى مرج ابن عامر عبر العفولة ومنها إلى جنين ونابلس ثم أخذنا نصعد إلى رام الله فالقدس.

وقد «ألفت» هذا الطريق في ما بعد، فقد سلكته قريباً من عشرين عاماً من عمري إلى يوم نزوحنا من فلسطين، ولكن هذه «الألفة» لم تنتقص من جمال هذا الطريق الجميل، لم يعد جماله مألوفاً عندي ليوم من الأيام، ولا لساعة من الساعات، بل ظل يتجدد مع الأيام والأعوام.

وفي كل مرة، وفي كل سفرة كنت أرى فيه جديداً من السناء والبهاء فيزداد روعة وجمالاً في فؤادي.

الطريق من حول خليج عكا برماله الناصعة وأمواجه الوادعة عزّ نظيره في الدنيا. والصعود الهادئ إلى ربى الناصرة بأحراشها العطرة، نزهة رائعة تبعث في النفس كل معاني السكينة والراحة.

والنزول إلى مرج ابن عامر، والبقاع السندسية تحت بصرك كأنها سجادة مطرزة هوت من السماء وافترشت كل هاتيك البقاع.. ذلك وحده رفاقة مع الجمال والجلال.

واجتياز جنين ونابلس ورام الله والبيرة بين الروابي والوديان مرصعة بالزيتون والأعناب، غرسها الآباء والأجداد، متعة روحية بالغة الإمتاع والإيناس.

والإطلال على بيت المقدس من حي الشيخ جراح، وأسوارها التي تلفّ «الأقصى» و«القيامة» بين ذراعيها في سكون ودعة، إنما هو إطلال على موكب رائع من التاريخ والقداسة والجلال.

ولقد أخذت بهذا الجمال وأنا أسلك ذلك الطريق لأول مرة في حياتي، وما

سلكته مرة إلا ورأيت صفحة جديدة من الجمال، الرائع الفتان.

ولقد قدّر لي في أسفاري إلى أوروبا وأفريقيا وأمريكا وآسيا أن أشهد مواطن بارعة ومفاتن رائعة في هذه الدنيا، ولكني كنت على الدوام أرى أن هذا الطريق من عكا إلى بيت المقدس وما حوله من المدن والقرى، والهضاب والوديان، والمروج والسهول والزروع والضروع، أروع جمالاً وأرفع حسناً.

ولقد سقطت هذه البقاع كلها في يد إسرائيل في حرب حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧، كما سقطت شقيقاتها من قبل في حرب ١٩٤٨، فغدونا نراها في منامنا وأحلامنا فردوسنا المنشود، بل فردوسنا المفقود. . ولكن إلى حين. .

ووصلت بيت المقدس وقد امتلأت نفسي روعة بهذا الجمال الأخّاذ، وما إن نزلت الفندق حتى بدأت اتصالاتي بأصدقاء والدي أستعين بهم للدخول إلى معهد الحقوق.

وكان هذا المعهد ليلياً يبدأ دروسه في السادسة وينتهي في الساعة التاسعة مساء، يدرس فيه بعض الأساتذة البريطانيين وبعض القضاة من المحكمة العليا، ويشرف على هذا المعهد المجلس القضائي، ويرأسه النائب العام لحكومة فلسطين.

وكان النائب العام في ذلك العهد المستر نورمن بنتوتش وهو أحد زعماء الحركة الصهيونية المعروفين، وهو من علماء القانون الدولي، وله عدة مؤلفات قانونية وسياسية.

وكانت للمستر بنتوتش اختصاصات تشريعية واسعة، كما كانت لزميل له، صهيوني آخر، المستر دوخان، اختصاصات إدارية كبرى في دائرة الأراضي، وبهذا كان لهذين الصهيونيين الكبيرين دور ضخم في إقامة دعائم الوطن القومي اليهودي.

وما هو أهم من كل ذلك أن دائرة المهاجرة التي كانت ذات اختصاص مباشر بالهجرة اليهودية كان على رأسها المستر حايمسون، وهو صهيوني على جانب وافر من الكفاءة، وبهذا أصبح الفرسان الثلاثة، بنتوتش ودوخان وحايمسون، دعائم الوطن القومي اليهودي، يبنونه بكل ما يملكون من إيمان وحماسة وكفاءة.

وكان عدد الطلاب في معهد الحقوق محدوداً، فطلبت مقابلة المستر بنتوتش بوصفه رئيس المجلس القضائي لأعرض عليه شهاداتي العلمية وأطلب إليه أن أكون في عداد الطلبة المقبولين.

وقصدت في الموعد المحدد لي دار الحكومة ـ في باب العمود ـ وصعدت من طابق إلى طابق في ذلك البناء الفخم، وفي ذلك الجو الهادئ لا تسمع لأحد حِساً ولا ركزاً.

وكان في هذا البناء المندوب السامي وعدد من رؤساء الدوائر وساءلت نفسي: من هنا تحكم فلسطين بأسرها، ومن هنا يبنى الوطن القومي اليهودي على أرضنا؟

ولم أسترسل طويلاً في هذه الخواطر، فقد رأيت نفسي في غرفة المستر كنترفيتش، معاون المستر بنتوتش فانتظرت في غرفته بعض الوقت.

وكان هذا المعاون صهيونياً متطرفاً على خلاف رئيسه الذي كان صهيونياً معتدلاً، وكان المعاون يتفرس بي من حين إلى حين بنظرات شزرة، مليئة بالحقد والمكر.

ودخلت بعد هنيهة على المستر بنتوتش وشرحت له رغبتي في الالتحاق بمعهد الحقوق وقد استأنس حين علم أني متخرج من مدرسة صهيون، وهو يحسب أن عروبتي قد تروّضت في هذا المعهد البريطاني.

وكان المستر بنتوتش يستمع إلى «مرافعتي» وعيناه الواسعتان من وراء نظارته الكبيرة تتفرسان بي وهو يصغي بهدوء واهتمام، يقلب بين يديه أوراقي وشهاداتي، وانتهت الجلسة دون أن يقول كلمة واحدة، وخرجت من غرفته وفي يقيني أن طلبي مرفوض.

ومررت بغرفة معاونه «كنترفيتش» وإذا فيها خمسة طلاب من اليهود جاءوا يلتمسون دخول معهد الحقوق، ولقد رأيتهم يجلسون من حوله يدخنون ويتباسطون ويشربون القهوة، ولكن «كنتر فيتش» عاد عابساً مقطباً متجهماً حين اقتربت من طاولته لأترك عنواني لديه، وانصرفت.

وعرجت على موظف عربي يعمل في دائرة المستر بنتوتش لأستعين به في التذكير بموضوعي، وذكرت له ما جرى، فرفع رأسه عن الملفات التي أمامه وهو يقول: «سيصلك قريباً كتاب بالقبول، اطمئن ولا تقلق»!

قلت له ويكاد قلبي يقفز من صدري على طاولته، وكيف ذلك؟ قال: «لقد تقدم خمسة طلاب يهود بطلبات، وسيقبلون حتماً، وستقبل في ركابهم».

وهكذا كان، فقد تسلمت بعد بضعة أيام كتاباً من المستر كنترفيتش يعلمني فيه بالقبول، واتصل بي الموظف العربي وأخبرني أن اليهود الذين

قبلوا كانوا سبعة لا خمسة، وأنني دخلت في «مرقة» السبعة وسأجتمع بهم في المعهد عند افتتاحه.

وإنني أروي هذا الحادث الصغير الذي كان جزءاً صغيراً من الحياة اليومية في فلسطين لثلاثين عاماً في زمن الانتداب البريطاني، بنت حكومة الانتداب خلالها الوطن القومي اليهودي حجراً حجراً، مع كل يهودي بمفرده، المهاجر والفلاح، والطبيب، والمحامي، والطالب، والصانع، والسائق، والمرأة والطفل، حتى توافرت للمجتمع اليهودي كل مقومات الدولة، وحتى إذا جاء اليوم الرابع عشر من شهر أيار/ مايو سنة ١٩٤٨ كانت إسرائيل . . وكانت الدولة اليهودية.

وكان الطابق الذي يشغله بنتوتش وكنترفيتش يمثل الحركة الصهيونية أصدق تمثيل، فقد كان الأول هادئ التفكير يمنح الوطن القومي عقله المخطط، وكان الثاني شديد الاندفاع، يمنحه عزمه المنفذ.

ولقد استطاع جيلنا العربي في ظل الانتداب البريطاني، أن يجد له مجالاً في الحياة، موظفاً أو طبيباً أو محامياً، ولكن «الدولة» وقد تغلغلت في مراكزها الحساسة الشخصيات الصهيونية من أمثال بنتوتش وكنترفيتش فضلاً عن الشخصيات البريطانية التي تسندها، كان كل همّها أن تبنى في فلسطين دولة يهودية، يكون العرب على هامشها وتحت رحمتها.

وافتتح المعهد أبوابه، وكان يحتل جناحاً في «المسكوبية» حيث دور المحاكم، وأصبحت أتردد كل مساء لأستمع إلى محاضرات الأساتذة وكان مدير المعهد المستر جودبي وهو عالم كبير متخصص في القانون الدولي الخاص، وكان من الأساتذة العرب، القاضيان علي جار الله وفرنسيس خياط، والمحاميان عوني عبد الهادي وعادل زعيتر.

وتحت سقف واحد، وبين يدي المحاضر الواحد، كنا نحن طلاب الحقوق، العرب واليهود، نجتمع معاً ونستمع معاً إلى محاضرات الأساتذة وكلها تدور حول القانون بفروعه المختلفة.

وفي ردهات المعهد كنا نحن الطلاب عرباً ويهوداً، نسير في الرواق جنباً إلى جنب في أحاديث قانونية وغير قانونية، ولم تكن تخلو الأحاديث من جوانب اجتماعية نتبادل فيها ما يجري بين الطلاب من شؤون خالية من الشجون.

ولكن الاندماج والانسجام بيننا وبين اليهود لم يكونا متكاملين متصافيين، فسرعان ما كنا ننفض يعضنا عن بعض، حتى تعود إلينا نحن الطلاب العرب مخاوفنا

وهواجسنا، وسرعان ما تتحرك البغضاء في نفوسنا إزاء هؤلاء الطلاب اليهود، وأكثرهم من المهاجرين الجدد، الذين جاءوا إلى وطننا ليحلوا محلنا.

وقد زاد من إحساسنا بالظلم أننا كنا نعيش هذا الجو الروحي في معهد الحقوق، معهد الحق والعدل.

غير أننا لم نكن نخشى أن يأتي يوم في عمرنا نخرج فيه من وطننا وديارنا من مدننا وقرانا ومزارعنا ومصانعنا. . . لم يكن ذلك يدور في خلدنا. . أبداً. .

وقد زاد من هذه الطمأنينة أن المحاضرات التي كانت تلقى علينا والكتب التي كانت بين أيدينا، كلها تجعل للحق حرمة كبرى، وللقانون سلطاناً مهاباً، وللعدل قوة نافذة.

بل لعلنا أسرفنا في خداع أنفسنا في هذه المعاني، فقد نذرنا أن نجعل من ميدان «الحق والعدل» مهنة لنا نتكسب من ورائها، ونعيش في كنفها، ولم ندر أن وجودنا كله في وطننا إنما يستمد «وجوده» من «القوة» لا من الحق ولا من القانون!

ولكن المعهد الليلي لم يكن يشغل كل وقتي، وأصبحت أجدّ في البحث عن عمل يملأ فراغي، وجاءت مصادفة غريبة نزلت من السماء.

في ذات يوم زرت جريدة **مرآة الشرق** وكان مكتبها بجوار باب الخليل، وكانت جريدة أسبوعية لصاحبها السيد بولس شحادة، وكان «خطابي» في ذكرى الشهداء في بيروت، قد وصلت أخباره إلى جريدة **مرآة الشرق**.

ودار حديثي مع صاحب الجريدة حول تخلف الصحافة الفلسطينية عن ركب الحركة الوطنية، وكانت الصحف الفلسطينية يومئذ، **الجامعة العربية**، و**مرآة الشرق** في القدس، و**فلسطين** و**الصراط المستقيم** و**الجامعة الإسلامية** في يافا، وجريدتا **الكرمل** و**النفير** في حيفا، وصدرت جريدة **الدفاع** بعد ذلك بسنتين أو ثلاث، وكانت جريدة **الكرمل** لصاحبها نجيب نصار (لبناني أصلاً) أقدم عهداً في التصدي للصهيونية.

وكان بولس شحادة متهماً بأنه من المعتدلين، وله مع الموظفين البريطانيين اجتماعات وأحاديث، فأخذته الحماسة وراح يدافع عن نفسه ويعرب عن استعداده لجعل جريدته تحت تصرف الشباب الوطنيين.

وهنا ابتدرني متحدثاً وهو يقول: «أنا مستعد أن أسلمك الجريدة»، ولم يكن من داع للتحدي، فقد كنت أبحث عن عمل أملأ به فراغي وأتكفل بعض نفقاتي. . فبادرته بالحديث وهو يحسب أنني وقعت في فخ التحدي، وقلت له:

«إنني سأعمل على إصدار الجريدة مرتين في الأسبوع لأفتتح عهداً جديداً في عالم الصحافة»، فوافق على ذلك مرحباً وهو يتطلع أن تحرز جريدته قصب السبق على الصحف الأخرى.

وقد عرض عليّ، بولس شحادة، أن أقيم في منزله مع عائلته كواحد من أولاده، طعاماً ومناماً. . وهذا هو كل الأجر الذي يستطيع أن يقدمه، فإن موارد الجريدة قليلة ومصاريفها باهظة، وأنه «سيكرمني» إذا فتح الله على الجريدة بخير. .

فرضيت بهذا العرض، وبدأت صفحة جديدة في حياتي، صحافياً في النهار وطالب حقوق في المساء.

وهكذا وضعت قدمي على العتبات الأولى في ميدان الحركة الوطنية في فلسطين، لأنتقل بعدها بسنين إلى ميدان الحياة العامة على الصعيدين العربي والدولي.

أطـــرد أبـــاك من الميـــدان

دخل عام ١٩٢٨ على حياتي لأستقبل في العشرين من عمري عملي في الصحافة والسياسة نهاراً وفي دراسة الحقوق ليلاً، وهذه الجوانب الثلاثة متداخلة تداخل الليل بالنهار، فالصحافة لا بد لها من السياسة، وكلاهما لا بد له من ثقافة جوهرها الحق والعدل ومبادئ القانون.

ولقد أقبلت على هذه الجوانب الثلاثة بكل جوارحي ووهبتها كل أوقاتي لا أعرف طعماً للراحة حتى أصبح أصدقائي ومعارفي يشفقون على هذا «الإدمان» المتواصل في النشاط الدائب.

وواجهت حقائق الحياة الوطنية الفلسطينية، فراعتني وقائعها الأليمة، وأيقنت أن الخطر الصهيوني ينشب مخالبه، دون أن يلقى منا مقاومة جدية أو يصعد بنا إلى مستوى الأحداث.

لقد كانت الحركة الوطنية في فلسطين بدائية متخلفة، إذا قيست بالحركة الصهيونية، فقد كانت الصهيونية حركة منظمة عالمية لها اتصالات دولية، مجهزة بوسائل الإعلام، وتسندها مؤسسات مالية ضخمة لتشجيع الهجرة وابتياع الأراضي، وكانت الوكالة اليهودية في فلسطين أشبه بحكومة لها ميزاتها ودوائرها ونشاطها، ووراء ذلك الحكومة البريطانية تعلن بصراحة كاملة أن مهمتها الرئيسية هي تشجيع الهجرة اليهودية وتسهيل انتقال الأراضي لليهود ووضع «البلاد تحت ظروف تسهل إنشاء الوطن القومي اليهودي».

ذلك كان جهاز الصهيونية في كلمات قليلات، فماذا كان الجهاز الفلسطيني العربي؟ كان شعبنا في مجموعه، شأنه اليوم بعد خمسين عاماً من الكوارث، المثل الأعلى في الوطنية والإخلاص والاستعداد للبذل والتضحية كما شهدت بذلك ثوراته الخمس عشرة التي شنها على الصهيونية والاستعمار في مدى ثلاثين عاماً خلال عهد الانتداب البريطاني.

ولكن القيادة الوطنية لم تكن مؤهلة للمعركة الضخمة التي فرضت عليها، وللغزوة الطاغية التي كان عليها أن تتصدى لها.

لم تكن الحركة الفلسطينية منظمة ذات خطة مدروسة واضحة، وكان «التحرك» الوطني عفوياً عاطفياً، تثيره أحداث الهجرة والاستفزازات الصهيونية، وفي معظم الأحوال كان الشعب هو الذي يقود الحركة الوطنية، ويقود معها زعماءه وقادته!

وكان على رأس الحركة الوطنية يوم افتتحت حياتي الصحفية والسياسية موسى كاظم باشا الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية، رجل وطني ومخلص استقال من رئاسة المجلس البلدي في القدس احتجاجاً على سياسة الوطن القومي اليهودي، وأصبح زعيم البلاد منذ أوائل العشرينات.

وقد اجتمعت به غير مرة، وكان في أخريات حياته، وأشهد له بالتقوى وسلامة النية والوطنية، ولكن أنّى له أن يكون كفؤا لوايزمن الذي كان يومئذ زعيم الحركة الصهيونية؟

ولست أظلم موسى كاظم الحسيني، فقد وهب وطنه كل ما يملك من قدرات ومواهب، ولا ذنب له أن قدراته محدودة، فهو ابن جيله وابن بيئته الفلسطينية، وتلك كانت حال البيئة العربية بأسرها، فلا لوم عليه ولا تثريب.

وكذلك كانت حال القيادات الفلسطينية في مختلف مدن فلسطين: وجهاء محترمون، مخلصون، محبون لوطنهم، وقد وهبوا شعبهم كل طاقاتهم، ولا لوم عليهم أن طاقاتهم محدودة، فلقد نشأوا هكذا، وهكذا كانوا.

وفي الوقت الذي كانت فيه الصهيونية مسنودة باليهودية العالمية والدول الاستعمارية، كان العالمان العربي والإسلامي من حول فلسطين، لا طول لهم ولا حول، تحت الاحتلال والنفود الأجنبي.

وقد زرت مكاتب اللجنة التنفيذية في القدس، وهي مقر القيادة الفلسطينية، وكانت بلغت يومئذ «أوجها» في التنظيم، فملك الحزن على كل مشاعري وخواطري.

كانت اللجنة التنفيذية «فقيرة» في مالها وكفاءاتها ونظامها: المكاتب مهلهلة، والأوراق مبعثرة، والملفات فيها بعض المراسلات العادية، ولا أظلم أحداً ولا ألوم أحداً، فتلك كانت حالنا وأوضاعنا، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ومكلِّف الأيام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

ولم يكن اليهود على كمال كامل، فقد كانت بينهم مشاجرات وخصومات

وأحزاب، ولكن ذلك كله كان يسيطر عليه نظام، وتضبطه ضوابط.

ففي خارج بيت المقدس كانت تقيم الوكالة اليهودية بدوائرها: الهجرة، الأراضي، المعارف، الدفاع، الدعاية، وعلى رأسها كفاءات ذات خبرات غنية.

تلك حالة الحركة العربية والحركة الصهيونية في فلسطين، وكان طبيعياً أن لا يقوم تكافؤ بين الحركتين، بل إن التفوق الصهيوني كان طاغياً بالغ الطغيان.

ولو كان للحقائق الحسابية العلمية أن تقرر المصير، لوجب أن يقوم الوطن القومي اليهودي ومعه إسرائيل في سنوات قليلات، لا بعد ثلاثين عاماً في سنة ١٩٤٨. ولكن أصالة الشعب العربي الفلسطيني وعراقته، ووطنيته الفطرية هي التي تغلبت على تلكم الحقائق. وصمد الشعب الفلسطيني ثلاثين عاماً يقاوم ويغالب، إلى أن جاءت الكوارث العسكرية العربية في عام ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ فكان أن وقع وطننا كله تحت الاحتلال، وأصبح شعبنا بين أسير ونازح، وشريد وشهيد.

وغداة أصبحت أمارس الصحافة والسياسة، كانت الحركة الوطنية فاترة، وكانت الخلافات على أشدِّها بين رجالات البلاد، مجلسيين ومعارضين، المجلسيون يقودهم الحاج أمين الحسيني والمعارضون يقودهم راغب النشاشيبي.

وكنت أجلس في مكتبي في جريدة **مرآة الشرق** أفكر طويلاً في هذا الشقاق الناشب بين رجالات البلاد، وكان يؤم مكتبي عدد من الشباب من أبناء القدس، والوافدين عليها من المدن الأخرى، حتى أصبح مكتب **مرآة الشرق** ندوة سياسية نتذاكر فيها تفاقم الخطر الصهيوني وتردّي الحركة الوطنية.

واستقر رأينا، هؤلاء الشباب وأنا، أن ننفخ روحاً جديدة في الحركة الوطنية، وأن نشق خطاً وطنياً مستقلاً، لا مجلسياً ولا معارضاً، وأن ندعو إلى مصارحة الاستعمار البريطاني بالعداء باعتباره مصدر الداء ورأس البلاء.

وكانت الحركة الوطنية في معظم الأحوال، متعايشة مع الإدارة الإنكليزية إلى حد غير قليل، فالسيد أمين الحسيني بدأ حياته الوطنية شاباً ثائراً ثم أصبح رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى بموافقة السلطة البريطانية ويتقاضى نصف راتبه من خزانتها.. وقد حدث ذلك في عهد السير هربرت صموئيل، المندوب السامي اليهودي البريطاني! والسيد راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس وسائر أعوانه رؤساء البلديات في فلسطين كانوا يعينون لمناصبهم بموافقة السلطات البريطانية، وبهذا أصبح هذان الحزبان «الوطنيان» الكبيران، يعيشان في كنف السياسة البريطانية.

وكان حزب المجلسيين أكثر اندفاعاً، كما كان حزب المعارضين أكثر اعتدالاً . . ولكن الحركة الوطنية إلى ذلك العهد كانت تتصدى للسياسة الصهيونية، وتغض الطرف عن السياسة البريطانية.

وقد أوحى إلينا هذا التردّي القومي، نحن مجموعة الشباب، أن ننبّه الشعب إلى هذه الحالة المفجعة، وهكذا جعلت **مرآة الشرق** منبراً لهذه الدعوة المستقلة.

وكتبت أولى مقالاتي، وكانت تضج بالثورة والحماسة، وكان عنوانها «تقدم أيها الشاب واطرد أباك من الميدان»، وواضح من العنوان أني دعوت إلى نبذ الزعامات التقليدية لتحل محلها قيادات شابة، لا تهادن السياسة البريطانية ولا تجاملها.

وقد أثار هذا المقال المحافل الوطنية وأوساط الشعب، وأصبحت جريدة **مرآة الشرق** جريدة وطنية بعد أن كانت جريدة تنطق بلسان المعارضين، وأصبح الشباب يتوافدون على مكاتب الجريدة ليلاً ونهاراً.

على أن هذا المقال قد جعل منه زعماء المعارضة مجالاً للتفكهة والتندر، فكانوا كلما لقوا والدي وهو زميلهم في المعارضة، بادروه بأعلى أصواتهم «تقدم أيها الشاب واطرد أباك من الميدان».

واشتد الضغط على صاحب الجريدة، بولس شحادة، ليقصيني عن العمل، ولكنه كان ضعيفاً أمام جموع الشباب فلم ينبس ببنت شفة.

ولما لم يفلح هذا الضغط استعان «بعضهم» ولا أستطيع أن أتهم أحداً بالذات، بحاكم القدس كيث روث «باشا» الذي خلع على نفسه هذا اللقب تقليداً لبعض حكام القدس في زمن الدولة العثمانية.

ووجد الباشا البريطاني ضالته في قانون المطبوعات العثماني، الذي ينص على أن المحرر المسؤول في الجريدة يجب أن يكون قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره، وكنت في ذلك الوقت على عتبات العشرين.

فوجه الباشا إليّ كتاباً ينذرني بالتوقف عن العمل في الصحف، فثارت ثائرة الشباب، وأعدوا «عريضة» تحمل تواقيع الأطباء والأعيان تؤكد أنني «تجاوزت الحادية والعشرين» وأرسلت العريضة إلى مكتب الباشا، ودفنت الفتنة «رحم» الله من أيقظها، ومضيت في الجريدة أكتب مقالاتي غير هيّاب ولا وجل.

وتصديت بعد ذلك للحاج أمين الحسيني في عدة مقالات، أندّد بسياسته في المجلس الإسلامي، وأنعي عليه تعيين أقاربه وأهله في المحاكم الشرعية ودوائر الأوقاف، وكان أشدّ هذه المقالات بعنوان «اتعظ بعثمان بن عفان يا حاج أمين».

وقد سردت في هذا المقال تصرف عثمان رضى الله عنه مع أقربائه، وقد ولاهم المناصب وأغدق عليهم الرواتب، وكيف تألّب عليه الناس وقتلوه في داره والقرآن بين يديه.

وكان المقال قاسياً من غير شك، وفيه تحريض وإثارة، ولكني كنت أقصد إلى غير ذلك.

كنت أقصد إلى إحراج الحاج أمين الحسيني وإخراجه، ليخرج من المجلس الإسلامي ويقود الحركة الوطنية مباشرة وعلانية، فقد كنت أراه مؤهلاً للزعامة، ولكن الحاج أمين لم يحرج ولم يخرج، وقنع أن يبقى في منصبه، يسند الحركة الوطنية من وراء ستار، دون أن يثير حفيظة الإنكليز.

وقد عقد المؤتمر الوطني السابع في ذلك العام ١٩٢٨ وكانت قد سبقته ستة مؤتمرات منذ أوائل العشرينات، فازدادت ثورتنا نحن الشباب، وازدادت **مرآة الشرق** نقمة على الأوضاع السائدة.

لقد حضرت هذا المؤتمر، صحافياً، وقد شهده جميع رجالات فلسطين، وقد حضره الحاج أمين وأعوانه، وراغب النشاشيبي وأعوانه وترأسه الرئيس موسى كاظم باشا.

وكاد أن يتصدع المؤتمر وينفرط على غير نتيجة لولا الصيحة الاستقلالية التي تغلغلت في نفوس الشعب، التي كان يقودها مجموعات الشباب الذين اتخذوا من **مرآة الشرق**، منبراً لآرائهم ومقراً لقيادتهم.

وانتهى المؤتمر إلى مصالحة بين المجلسيين والمعارضين واقتسموا مقاعد اللجنة التنفيذية وجعلوا لها ثلاثة أمناء، المحامين عوني عبد الهادي ومغنم إلياس مغنم، وجمال الحسيني.

ولقد شاء القدر أن أكون محامياً متمرناً لدى الأول والثاني أثناء دراستي للحقوق، وزميلاً للثالث في العمل الوطني، بعد ذلك بسنين.

ولم أقنع أن يكون نشاطي في بيت المقدس، بل امتد إلى عمّان والأمير «الملك» عبد الله في قصر رغدان.

فلقد كانت في إمارة شرقي الأردن معارضة وطنية يقودها عدد من رجالات البلاد بينهم طاهر الجقة وحسين باشا الطراونة وسالم باشا أبو الغنم، وكانوا يندّدون بالنفوذ البريطاني على الأردن، وكان من زعماء المعارضة الذين توطدت بيني وبينهم الصلة السيد عادل العظمة ـ السوري الدمشقي ـ وكان عضواً في البرلمان الأردني عن

منطقة عمان، (وأصبح وزيراً للداخلية في سوريا بعد الاستقلال غداة عودته إلى دمشق).

وإني لأتساءل الآن، بعد أربعين عاماً من ذلك العهد، عن ذلك البرلمان العربي الذي يكون أحد أعضائه من غير المواطنين. . من غير أبناء البلد!

وكان زعماء المعارضة الأردنية يترددون على القدس، وزاروني في **مرآة الشرق** وتحدثوا إليّ في أمورهم فأخذت أناصرهم وأكتب المقالات الطوال في تأييدهم وشجب سياسة الأمير عبد الله، وقد حاول غير مرة اجتذاب الشركات اليهودية إلى البلاد والتفاهم مع زعماء الحركة الصهيونية.

ومن غرائب المصادفات أن والدي كان في ضيافة الأمير عبد الله في عمان عام ١٩٢٨، وكانت بينهما صداقة وطيدة منذ كانا معاً في الآستانة في العهد العثماني، فأخذت أكتب تفاصيل مثيرة عن لقاء الأمير عبد الله بممثلي الشركات اليهودية، والاتفاقات التي تمت معه على بيعهم ١٠٠ ألف دونم من الأراضي التي يملكها، وتهجير اليهود إليها، مما حمل الشعب الأردني على إحباط هذه الصفقة.

وكانت المجالس الوطنية تتندر بهذا «الفراق» السياسي بين الشقيري الكبير والشقيري الصغير، الأول في عمان في ضيافة الأمير عبد الله، والثاني في بيت المقدس يهاجم الأمير في جريدة **مرآة الشرق**، وكانت ظاهرة سياسية لم تكن مألوفة إلى ذلك العهد في المجتمع العربي. . ولعلها ليست مألوفة حتى اليوم.

ولقد أحسست منذ ذلك العهد بالترابط العميق بين فلسطين وشرقي الأردن، واستنكرت أن يكون هذا المجرى المسمى نهر الأردن فاصلاً بين عمان والقدس. ولم أكن أدري أن كارثة ستقع في عام ١٩٤٨ لتجمع بينهما وتتوالى عليهما بعد ذلك الكوارث، واحدة بعد واحدة.

بل لم أكن أدري أن القدر سيجعلني في خضم هذه الكوارث، أساهم في حمل بعض أثقالها وأحمالها. .

﴿**وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾[١].

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٧٢.

الحاج أمين على صهوة جواده الأبيض

شهدت فلسطين في عام ١٩٢٨ نشاطاً قومياً عاماً على كل صعيد، فقد كانت الاجتماعات تتوالى في جميع أنحاء البلاد، وكان للشباب دور بارز في إيقاظ الشعور الوطني وتحريك الجماهير لمقاومة الاستعمار والصهيونية.

وكان من آيات ذلك إنشاء جمعيات الشبان المسلمين، على غرار ما قام في مصر، وكان قد زار البلاد الدكتور عبد الحميد سعيد الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين وطاف في معظم مدن فلسطين وخطب في المساجد داعياً إلى تأسيس هذه الجمعيات شارحاً أهدافها ومبادئها.

وكان معروفاً لنا أن هذه الجمعيات قد تأسست تحت رعاية الملك فؤاد لتكون قوة إسلامية تدعمه في ظروف كثر فيها الحديث عن الخلافة الإسلامية، واتخاذ القاهرة مقراً لها، وفؤاد على رأسها.

وقد راقتنا فكرة إنشاء هذه الجمعيات، دون أن نبالي بالخلافة أو بمقاصد فؤاد من ورائها، بل كان همّنا أن تكون لنا أندية نتجمع فيها، ونتدارس شؤوننا ونعمل لقضيتنا.

وكان من الحوافز على ذلك قيام جمعيات الشبان المسيحية في فلسطين، وكانت هذه تحت رعاية السلطة البريطانية، وهكذا مضينا في الدعوة لمؤتمر في يافا للاتفاق على التدابير اللازمة.

واستجاب عدد كبير من رجالات البلاد وشبابها لهذه الدعوة، وعقد المؤتمر في جو حماسي رائع، وقد رأسه راغب الإمام أحد المحامين المعروفين، وكان وفد القدس مؤلفاً من أحمد سامح الخالدي من رجال التربية ومن المحامين عمر الصالح البرغوثي وفائز الحداد وصبحي الخضراء، وكنت عضواً في هذا الوفد.

وقد أثار استغراب المؤتمر أن أكون عضواً في وفد القدس، فقد كانت القدس معروفة بتقاليدها وعنعناتها العائلية، ولكن التفكير الوطني الحر كان قد شق طريقه، وأخذ يجرف من أمامه هذه النعرات.

وصادف في ذلك الوقت أن وفد عكا كان فيه أكرم زعيتر من نابلس (وزير البلاط في الأردن) وكان معلماً في مدرستها، فجاءت بادرة طيبة تنبئ عن تلاحم القوى الوطنية بعيداً عن الاعتبارات الضيقة، وأن يكون ابن عكا ممثلاً للقدس وابن نابلس ممثلاً لعكا.

ونجح المؤتمر نجاحاً باهراً وقرر تأسيس جمعيات الشبان المسلمين في كل أنحاء البلاد، ولقد حرصنا أن تظل الجبهة الوطنية في فلسطين الإسلامية ـ المسيحية، قوية متماسكة، وبات مفهوماً لدى الأوساط المسيحية أن تأليف جمعيات الشبان المسلمين هو قوة جديدة للحركة الوطنية، وليس انفصاماً للجبهة القومية.

و أثناء اجتماعات المؤتمر، أعلنتُ في عدة مناسبات تماسك المسلمين والمسيحين في فلسطين في حركتهم الوطنية، لا يضيرها وجود أندية إسلامية وأخرى مسيحية، وأيّدني في هذه الدعوة عدد من رجال المؤتمر.

وقد استقبلت الأوساط الوطنية في يافا، وفي البلاد عامة، هذه التصريحات بترحاب وتقدير، وكانت يافا مركز الحركة الفكرية لفلسطين كلها، فقد كانت فيها نواد متعددة على مستوى راق، وكانت فيها كبريات الصحف الفلسطينية، **فلسطين**، و**الصراط المستقيم**، و**الدفاع**، و**الجامعة الإسلامية**، و**صوت الحق**، فضلاً عن أنها كانت قبل نمو حيفا، العاصمة التجارية وفيها المرفأ المعروف.

ولم أكد أصل إلى القدس حتى تلقيت الدعوات من أندية يافا لإلقاء محاضرات وطنية ولم أتردد في الاستجابة للدعوة.

وسافرت من القدس إلى يافا، عبر الطريق التاريخي القديم، بمنعطفاته الحادة، ومنها إلى باب الواد فالسهول السندسية، فبيارات البرتقال بعطرها الفواح، حتى بلغت يافا ومنها إلى النادي الأرثوذكسي.

وكانت القاعة مليئة بالجمهور، رجالاً ونساءً، وكان موضوع المحاضرة «ربيع الحياة» فأخذت أتحدث وأتحدث قريباً من ساعتين، وأنا أشرح مراحل الحياة ودور الإنسان في كل منها، معتبراً أن الشباب هو ربيع الحياة، مستطرداً إلى القول إن الإنسان يستطيع أن يظل شاباً في ربيع الحياة، إذا امتد نشاطه في خدمة وطنه بفكر جديد متجدد وعزيمة متقدة.

وكانت المحاضرة وطنية في طابعها العام، في الدعوة لتجميع قوى الشعب للوقوف في وجه الاستعمار والصهيونية، بعيداً عن النزعات العائلية والطائفية والمحلية.

وكانت البلاد يومئذ تمزقها الخلافات العائلية، هؤلاء حسينيون وأولئك نشاشيبيون، وكادت جدران القاعة تتهاوى من التصفيق وأنا أدعو إلى التفكير الوطني الخالص، مبرَّأ من هذه الحزازات.

وخرج الجمهور راضياً، فأُعجب الشباب بالدور الذي رسمته أمامهم، ووجد الشيوخ مكانهم إذا واكبوا مسيرة الشباب ولم يتقاعدوا أو يتقاعسوا.

وفي اليوم التالي خطبت في النادي الرياضي الإسلامي، وصادف أن كان عيد المولد النبوي الشريف، فتحدثت عن الرسول العظيم، ثائراً على الظلم، مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الحق، وجعلت للحركة الوطنية استطرادات متعددة، وفي حياة الرسول الكريم رحاب فسيحة في كل مناسبة وفي كل موضوع.

ومن يافا ذهبت إلى الرملة استجابة لدعوة الشباب، وألقيت محاضرة عنوانها «الكُنتيّة» وقد أثار عنوانها جدلاً وصل إلى درجة حادة، اشترك فيه اللغويون، وهم يتساءلون عن هذا العنوان العجيب الغريب.

ولقد وصلت الرملة، والشوارع تعج بالناس وهم في طريقهم إلى النادي، ولم يعد يهمهم من أمر المحاضرة إلا أن يعرفوا معنى العنوان العجيب الغريب.

وعزمت أن أريح الناس من «الأزمة» من بداية المحاضرة، فشرحت لهم أن العرب يقولون فلان «كنتيّ» إذا كان يكثر من القول، كان أبي وكان جدي . .

وضجت القاعة بالتهليل والتكبير، وأنا أدعو أن نهجر الحديث عن ماضي الآباء والأجداد، وأننا في حاجة إلى أنفسنا وإلى حاضرنا لنصمد أمام الغزوة الصهيونية الخطيرة التي تواجهنا، وأن نهجر كنت وكنا، وأن نصبح بعد اليوم صرت وصرنا . .

ومضت سنون على هذه المحاضرة، والناس يتحدثون عن هذا التعبير الجديد «الكنتية» وهم بين جاد ومستظرف.

وصادف أن كان في الرملة يومئذ بعض شباب الخليل، جاءوا لتفقد أقاربهم، فألحوا على أن أزورهم في الخليل لمناسبة موسم النبي موسى حيث تحتشد الجماهير، وتكون مناسبة عظمى للتحدث في القضية الوطنية.

ولم يكن هنالك حاجة إلى الإلحاح، بل لم تكن حاجة للدعوة، فقد كنت مستعداً أن أذهب من غير دعوة، ويكفي أن يكون هناك اجتماع كبير لأخطب فيه.

وعدت إلى القدس، وأنا فخور ومغرور، فقد أرسلتها صيحة داوية نددت فيها «بالعائلية» التي كانت تنخر كالسوس في جسد القضية الوطنية وروحها.

ومضت أيام وأقبل موسم النبي موسى وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كنت عند أصدقائي في الخليل.

وكان موسم النبي موسى، واحداً من المواسم الوطنية التي أنشأها وأحياها صلاح الدين الأيوبي لإذكاء الروح الوطنية في وجه الحملة الصليبية، وإظهار قوة العرب أمام الإفرنج.

ثم جاء الاحتلال البريطاني، فرأت الحركة الوطنية أن تحيي هذه المواسم، وكان للحاج أمين الحسيني يد طولى في تنشيطها، بما كان له من سلطة على الشؤون الإسلامية بوصفه رئيساً للمجلس الإسلامي.

وكانت هذه المهرجانات الشعبية تمتد أياماً في القدس، ويفد إليها الناس من نابلس يتقدمهم علمهم، ومن الخليل يتقدمهم علمهم.

وسرت مع الجموع في الخليل، والشباب يهزجون وينشدون، والصنوج تضرب والطبول تقرع، والنساء تزغرد على الأسطح ومن النوافذ، وحملني أصدقائي على أكتافهم، فراعني أن أشهد الجماهير تملأ الشوارع والساحات على امتداد البصر وأنا أرى أمامي الأعلام الخفاقة والسيوف المشرعة.

وكان مشهداً حماسياً بالغ الروعة، زاد من حماستي وألهب قريحتي، فانطلقت أخاطب الجماهير عن الاستعمار والصهيونية، داعياً إلى وحدة الكلمة ونبذ الخلافات العائلية، والإعداد للثورة المسلحة، وأنا أقول: «إن هذه السيوف لا ينقصها إلا أن تسيل منها الدماء»، إلى آخر ما أوحاه مشهد الساعة.

فساد الهرج والمرج، ورأى بعض «العقلاء» أنني تجاوزت الحدود، وأنه لا داعي لهذا الكلام، فصاح فيهم الشباب ينعون عليهم تخاذلهم، وتحرك رجال الشرطة، وانتزعني أصدقائي من بين الصفوف وأخذوني إلى المقبرة بعيداً عن العيون، إلى أن جاؤوني بسيارة نقلتني إلى القدس، وهم فخورون أنهم استطاعوا تضليل رجال الشرطة، وإنقاذي من مطاردتهم.

ورأيت أن ألتزم السكينة في القدس، فقد كفى ما كان في يافا والرملة والخليل، وقد حان الوقت لاستئناف الدراسة ليلاً والصحافة نهاراً فرحت أكتب المقالات الطوال، ثم أطيل فيها وأطيل حتى تبلغ الصفحة الأولى بكاملها، فقد كان ذلك ما يتبارى فيه الصحافيون في ذلك الوقت، وكان الإيجاز عجزاً يدل على أن صاحبه ليس له النفس الطويل.

وقد دعوت في هذه المقالات إلى تنظيم هذه المواسم الشعبية وجعلها فرصة للتوعية القومية.

وحدث أني قضيت يوماً بكامله عشته مع النبي موسى في القدس، فقد ذهبت إلى المسجد الأقصى، ولم يكن فيه مكان لقدم، سواء في ساحاته الرحبة وأروقته، والأزقة أو الحارات من حوله.

ولم يكن ما يشغل الجماهير، إلا الدبكة حلقات حلقات، والأطفال والنساء والرجال، متفرجين أو آكلين شاربين، ولم يكن هناك وعظ ديني أو توجيه وطني.

وانتقلت إلى خارج السور، إلى الطريق المؤدية إلى قبر النبي موسى ـ طريق أريحا ـ وكانت الجماهير على الروابي والسلاسل من حول هذا الطريق بمنعرجاته، بأغواره وأنجاده، والكل ينتظر مقدم الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى. . ووقفت على نشز من الشارع وسط الجماهير المتراصة. وجاء الحاج أمين في موكبه، يركب حصاناً أبيض، ومن حوله الشباب بسيوفهم وهراواتهم، وهو يمتطي صهوة جواده بقامة منتصبة، يلتفت يمنة ويسرة، يحيي بيده جماهير الشعب، بكل تؤدة وأناقة، وابتسامته الحلوة تستدرج الجماهير إلى الهتاف وتوحي إليهم بالتصفيق!

وقد وقع هذا الموكب في نفسي موقعاً بارداً فاتراً، ولم أكن أكره الحاج أمين كما كان والدي، ولم أكن كذلك آخذ عليه تزلفه للجماهير، فالزعيم في الحركات التحريرية الوطنية لا بد له من إثارة حماسة الشعب وتوثيق صلته به، بمختلف الأسباب والأساليب. . ولكني عبت عليه أنه جعل موسم النبي موسى لمجده، لا لمجد الوطن، حتى أصبح موسم الحاج أمين، لا موسم صلاح الدين وكان من اليسير أن يكون لهما معاً.

ومع الأيام والسنين، ازدادت معرفتي وصلاتي بالحاج أمين الحسيني وخاصة بعد

أن اضطلع بقيادة الحركة الوطنية مباشرة سنة ١٩٣٦ وما بعدها، فعملت معه في الحقل الوطني، وتصادقنا إلى حين.

وكنت أحدثه بعد النكبة وقبلها، عن سقطات الحركة الوطنية ومزالقها، وما يحمل من مسؤوليات النكبة، وكان موسم النبي موسى واحداً من هذه الأحاديث. ولقد كان الحاج أمين مؤهلاً للزعامة من غير شك، وكان وطنياً مخلصاً من غير شك، ولكن أمجاد «سماحته» كانت تفوق أمجاد الوطن، فسقط الوطن وسقطت معه الأمجاد.

وكان في موسم النبي موسى هتاف رائع مجيد: «سيف الدين الحاج أمين»، فسقط الموسم، وسقط معه الهتاف.

وقد أورث الحاج أمين في نفسي منذ ذلك الوقت خوفاً كبيراً من الزعامة ومسؤولياتها.

ويوم جاءت الأقدار في عام ١٩٦٣ لأتولى قيادة الحركة الوطنية، تمكنتني عقدة «الخوف» من مسؤوليات القيادة، وبقيت تلازمني رهبتها حتى عام ١٩٦٨ حين اعتزلت ولذلك حديث طويل سيأتي ذكره في مكانه وزمانه.

خمسة عشر ألف جنيه رأس مال الحركة الوطنية

نشطت الحركة الوطنية في أواخر العشرينات ـ ١٩٢٨، ١٩٢٩، ١٩٣٠ ـ نشاطاً كبيراً، والتهبت مشاعر الحماسة في جميع أرجاء البلاد فعمّت جميع طبقات الشعب، وكان وراء هذا التحرك الوطني عاملان أساسيان: الأول انعقاد المؤتمر الصهيوني في زيورخ والثاني العدوان اليهودي على ساحة البراق الشريف.

وكأنما جاء عملي في الصحافة والسياسة ودراستي للحقوق لأزداد التحاماً بالأحداث الوطنية في تلك الأيام العصيبة، وكانت لا تزال جريدة **مرآة الشرق**، عند باب الخليل في القدس، دار ندوة للشباب ومركزاً للنشاط الفكري والتوجيه القومي في صفوف الجيل الصاعد.

و أخذت وكالات الأنباء تنقل إلينا خطب زعماء الصهيونية في مؤتمرهم في زيورخ وتكشف عن أهدافهم التوسعية والعدوانية، وأعلنت قرارات المؤتمر فإذا بها تدعو إلى مزيد من الهجرة اليهودية وشراء الأراضي ودعم المؤسسات العسكرية والمالية وتقوية الوكالة اليهودية.

فزاد ذلك من نشاطنا نحن الشباب، وازدادت دعوتنا إلى بعث الحياة في الحركة الوطنية، وأصبح لدينا وقود جديد نلهب به حماسة الجماهير.

وسرت في هذا الطريق خطوات عملية، فاتصلت بالشباب الناشئين من أبناء العائلات والأسر الوجيهة، محاولاً تجميعهم في إطار وطني خالص، ولكنني أخفقت فقد كانت العصبية العائلية قد ترعرعت في الشباب اليوافع حتى الأطفال الرضع، وكان اللقاء بينهم مستحيلاً، ولم يكن أمامنا ما نعمله، فتلك كانت البيئة التي صنعتها عهود التخلف والانحلال، تقابلها في الطرف الآخر البيئة اليهودية التي لا تعرف العائلية، وتقوم الخلافات فيها على أسس سياسية وفكرية.

ورغم ذلك كله فقد كان الشعب في الطليعة، شأنه دائماً وجاءت ثورة البراق ١٩٢٩ لتكشف عن أصالته وبطولته.

وساحة البراق هي المكان الذي تتحدث الروايات الإسلامية أنه البقعة التي ربط فيها الرسول الكريم فرسه ـ البراق- ليلة إسرائه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وفي جوار هذه البقعة حائط «المبكى» وهو جزء من جدار المسجد الأقصى.

وجاء عيد الغفران عند اليهود فإذا بالأخبار المثيرة تشد حواسنا وتفتح أمامنا صفحة أخرى من الاعتداءات اليهودية، لها ما بعدها.

أصبحنا في ذلك اليوم لنرى جموع اليهود شباباً وشيوخاً، رجالاً ونساء، يتدفقون على المدينة القديمة في طريقهم إلى حائط «المبكى»، في مظاهرة شبه عسكرية.

وكانت تقاليد اليهود إلى ذلك العهد قاصرة على البكاء والدعاء، وكفى. ولكنهم في ذلك اليوم تجاوزوا ـ الستاتكو ـ فنفخوا في الصُّور ووضعوا الطاولات وأقاموا الستائر ورفعوا أصواتهم، وكانت حركاتهم ومظاهرهم آية في التحدي والاستفزاز.

ولم تكن الطاولات والستائر والأبواق ذات أهمية بذاتها، لولا ما كنّا نحسه من الخطر الصهيوني على المسجد الأقصى والمقدسات الدينية عامة، بل على فلسطين بأسرها، فقد كنا نتابع التصريحات اليهودية وما تهدف إليه من إقامة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وزاد من مخاوفنا الصور الزنكوغرافية التي نشرت حينذاك وهي تمثل هيكل سليمان قائماً مقام المسجد الأقصى يرفرف عليه العلم الصهيوني.

وكانت السلطة البريطانية ترقب هذه التحديات اليهودية من غير اكتراث ولا مبالاة، وكان في ميسورها أن تقمعها في مهدها، ولكن أنىّ لها ذلك، وهي قائمة في فلسطين من أجل قيام الوطن اليهودي وحمايته وحراسته؟

بل إن السلطة البريطانية حشدت قوات كبيرة لتقف إلى جانب اليهود، إمعاناً في الكيد للجماهير العربية العزلاء، وراح سرب من الطائرات البريطانية مؤلفاً من اثنتي عشرة طائرة يحلق فوق المسجد الأقصى وأحياء المدينة القديمة، في حملة إرهاب وحرب أعصاب.

فأخذنا نحن الشباب في توعية الجماهير وتبصيرها بالخطر الداهم، واتصلنا بمجموعات الشباب في أنحاء البلاد كافة، وكررت الدعوة إلى قيام قيادة وطنية

جديدة تتولى زمام الحركة الوطنية بعد أن أصبحت البلاد أسيرة العائلتين الكبيرتين ـ الحسينية والنشاشيبية ـ وهؤلاء أصبحوا أسرى مناصبهم التي تشرف عليها السلطة البريطانية.

فاهتاجت الخواطر والمشاعر وابتدأ الصدام في القدس القديمة، فتصدى الشعب للمسيرة اليهودية، وتصدى رجال الشرطة للجماهير العربية وسقط القتلى والجرحى بالمئات، وكانت معظم إصابات العرب على أيدي رجال السلطة.

وتجاوزت الأنباء الحدود إلى الأقطار المجاورة، فانتشر القلق وهبّ أهالي شرق الأردن للزحف على فلسطين لحماية المقدسات الدينية من طغيان اليهود وعدوانهم، ولم يكن ذلك عجيباً فشرق الأردن وفلسطين بلد واحد منذ أقدم عهود التاريخ، ولم يفصلهما إلا بريطانيا، فجعلت الإمارة الأردنية في الشرق، وفلسطين في الغرب، وكلتاهما تحت الانتداب.

وقررنا نحن الشباب أن نوزع أنفسنا على مناطق البلاد المختلفة لنشعلها حامية على الاستعمار والصهيونية، وكان نصيبي أن أعمل في بلدي ـ عكا ـ وفي لواء الجليل في شمال البلاد.

وتألفت في البلاد جمعيات ـ حراس المسجد الأقصى ـ على غرار الجمعيات اليهودية التي ألفها اليهود تحت اسم «حراس المبكى» وكان للحاج أمين الحسيني ودوائر المجلس الإسلامي دور كبير في إيقاظ الشعور والتنبيه للخطر الصهيوني والاتصال بالبلاد العربية والإسلامية في مناشدتها النصرة والعون، ولكن الحاج أمين كان حريصاً على الاحتفاظ بمنصبه في كنف السلطة البريطانية، ولم تكن هذه تشعر بخطر على وجودها ما دام نشاطه بعيداً عنها محصوراً في دائرة محدودة ضد الحركة الصهيونية، فكان ذلك توازناً وتهادناً غير مكتوب، قدّر له أن يعيش بضع سنوات حتى عام ١٩٣٦.

وعم الاضطراب جميع مدن فلسطين وقراها، فقامت المظاهرات وتوالت الاجتماعات، ووقع الاصطدام بين القرى العربية والمستعمرات اليهودية، وقامت العصابات الصهيونية بضرب المناطق العربية العزلاء، فتفردت في البطش بها، وهي السياسة الإرهابية التي كبرت ونمت وأصبحت من تقاليد الجيش الإسرائيلي وخططه، قبل نكبة حزيران/ يونيو وبعدها.

وكنت دائم الحركة في شمال البلاد مع إخواني الشباب، نحض الشعب على وحدة الصفوف ونبذ الخلافات، والجهاد للذود عن حمى الوطن.

ولا أعرف يوماً مر علي في تلك الفترة، إلا ووقفت في أحد المقاهي أو الميادين أو الشوارع أخطب في الجماهير لأشرح خطورة الموقف، وأدعو إلى مقاومة الاستعمار والصهيونية معاً، والتخلص من الزعامة «الزائفة». وكان جامع الجزار في عكا وساحاته الرحبة مركزاً للحركة الوطنية، فقد كانت تحتشد فيه الجماهير ليلاً ونهاراً، وأصبحت «خطيب» الجامع، بدلاً عن الخطيب المعيّن الذي لا يشق له غبار!

ولقد ضاقت السلطة البريطانية ذرعاً بهذا النشاط المثير الذي كنت أقوم به مع إخواني الشباب، فاعتقلني رجال الشرطة ونقلوني إلى قرية الزيب في ضاحية عكا، في إقامة إجبارية في بيت آل السعدي.

ولم أكن أدري يومذاك أن اعتقالاً مدى الحياة ينتظرني في بيت آل السعدي، فقد جاء عام ١٩٣٣ ليجعلني صهراً لآل السعدي في عكا، وأصبحت «عقيلاً» للآنسة نسيبة بنت عبد الفتاح السعدي رئيس بلدية عكا، وأصبحت السيدة نسيبة «عقيلتي» ثم أم أولادي الستة والحمد لله.

ونشطت السلطات البريطانية في طول البلاد وعرضها، تعتقل الشباب، تفرض على البعض إقامة جبرية وتزج الآخرين في السجون، وأعلنت الأحكام العرفية، وساد البلاد جو مشحون من القلق والاضطراب لم يسبق أن شهدت له مثيلا.

وأفاقت القيادة الوطنية من سباتها، وكانت ممثلة في اللجنة التنفيذية فأخذت في تنظيم شؤونها، وعملت على استعادة ثقة الجماهير بها، بعد أن كاد الزمام أن يخرج من يدها إلى أيدي الشباب، وتوالت الإعانات والتبرعات على صندوق اللجنة التنفيذية حتى بلغت خمسة عشر ألف جنية فلسطيني، وكان ذلك رأس مال الحركة الوطنية كله وأجمعه!

وتباهت اللجنة التنفيذية أن ورد عليها هذا المال الوفير بعد أن لم تكن تحصل إلا على مئات من الجنيهات من حين إلى حين لتغطية نفقات وفد فلسطين حين يسافر إلى لندن أو جنيف أو الهند.

ولقد حزنت وأنا في معتقلي في الزيب ـ في الإقامة الإجبارية ـ حين جاءتنا الأخبار أن مجموع التبرعات قد وصل إلى قمته، خمسة عشر ألف جنية، فقط. وكنت إلى بضعة أشهر مضت أكتب في جريدة **مرآة الشرق** عن المؤسسات اليهودية: الكيرن كايمت وأموالها، والكرن هايسود ومخصصاتها، والوكالة اليهودية وميزانيتها، فضلاً عن البنوك والمصارف والتعاونيات اليهودية التي تؤلف في مجموعها شبكة الحياة الرئيسية للمجتمع اليهودي في زراعته وصناعته، وفي مستعمراته وعصاباته، وفي إعلامه وسياسته. .

وسألت نفسي، لم لا تكون لنا جباية شعبية منظمة كما يفعل اليهود، ولم لا تكون لنا «عربية عالمية» و«إسلامية عالمية» تمدنا وتقوّى صمودنا وثباتنا في وطننا، وتكون درعاً وحصناً لنا على غرار ما تفعل الصهيونية العالمية في بناء الوطن القومي اليهودي وحمايته ورعايته؟

ومضت أيام وأسابيع فهدأت الحركة الوطنية، فلم تكن لها قوة دافعة في قيادتها، ولا سند عربي وإسلامي من حولها، ومشاعر الغضب الثائرة لا بد أن تهدأ مهما عصفت واضطربت إذا لم يكن وراءها ما يكفل الدوام والاستمرار.

وانتهت مدة اعتقالي وعدت إلى القدس وتركت جريدة **مرآة الشرق**، وأفقت من أحزاني لأرى أن النشاط الدائم الباقي، وهو الحركة الصهيونية دائمة السعي والعمل، دائمة النمو والتكامل، وأن النشاط الفوار المتقطع، هو الحركة العربية، حركة عربية شعبها بطل أصيل، وقيادتها عليلة وهزيلة.

وها قد مضت على ثورة البراق ثمان وثلاثون سنة، فجاء حزيران/يونيو من عام ١٩٦٧ فاحتلت إسرائيل القدس القديمة مع باقي فلسطين بأسرها، ورفع العلم الصهيوني على حائط «المبكى»، وعملت الجرافات على هدم المنازل والزوايا والتكايا الإسلامية المجاورة، وأنشأ المحتلون ساحة رحبة أمام حائط «المبكى»، وراح علماء الآثار اليهود يحفرون وينقبون تحت المسجد الأقصى بحثاً عن بقايا هيكل سليمان.

وأصبح العويل والبكاء من نصيب العرب والمسلمين، الملايين الملايين، وعلى رأسهم أصحاب الجلالة والسمو والفخامة الملوك والأمراء والرؤساء، فقد انتقل إليهم دور اليهود في النواح والصراخ.

إنهم جميعاً يبكون ويولولون ولكن دون أن يكون لهم ما كان لليهود ـ حائط «المبكى» وها نحن نبكي ولكن من غير حائط!

فيصـــل لا يـــذكـــر

اعتزلت العمل في جريدة **مرآة الشرق** لأعطي «الحقوق» وقتاً أكثر وجهداً أكبر، فأصبح لا بد لي وقد بلغت السنة الثالثة في معهد الحقوق أن ألتحق بمكتب أحد المحامين لأتمرس بتقاليد المهنة وأصولها، سواء في المرافعة أمام المحاكم أو التعامل مع أصحاب القضايا.

وكنت على صداقة مع عدد من المحامين فلم أشأ أن أقضي مدة التمرين في مكاتبهم، وكانوا مستعدين أن يوقعوا لي على شهادة الانتظام معهم دون أن ألتزم بالدوام والحضور.

ولكني آثرت عليهم محامياً آخر، تربطه بوالدي صداقة، هو السيد مغنّم الياس مغنّم من أبناء رام الله، وكان قد هاجر إلى الولايات المتحدة، ودرس فيها الحقوق ثم عاد إلى فلسطين وافتتح مكتباً له في بيت المقدس.

وكان النظام القضائي البريطاني قد أخذ يحل محل النظام العثماني الذي كان سائداً في فلسطين، فقد بدأت حكومة فلسطين تبدل التشريع العثماني بقوانين مأخوذة عن المستعمرات البريطانية، بعد تعديلها بما تقتضيه الظروف المحلية، أو تفرضه المصالح الصهيونية.

وكان المحامي مغنّم إلى ذلك العهد (١٩٣٠) أحد المحامين القلائل الذين يستطيعون المرافعة باللغة الإنكليزية، وكنا نحن الجيل الصاعد من المحامين المتمرنين نتطلع إلى المرافعة بالإنكليزية وبحسب الأنظمة الإنكليزية، فقد كانت المحاكم العليا يرأسها قضاة بريطانيون ومعهم قضاة من العرب واليهود.

وزرت المحامي مغنّم في مكتبه وعرضت عليه أن أقضي مدة التمرين في مكتبه، وكان جوابه بالقبول، ثم سألت عن الأجر الشهري فكان جوابه الرفض.

فقلت له: «إن فلاناً وفلاناً من المحامين المتمرنين يتقاضون رواتب شهرية أثناء فترة

تمرينهم، وهم يؤدون خدمات كثيرة في معاونة المحامي الأستاذ في إعداد القضايا».

فقال لي: «المحامي المتمرن يتعلم في مكتب الأستاذ وعليه أن يدفع الأجر عن هذا التعلم، وذلك ما يجري عليه الحال في الولايات المتحدة». وكان المحامي مغنّم يتكلم جاداً غير مازح، ويتكلم بلهجة أمريكية تجارية.. وبعد أخذ ورد وافق على أن يدفع لي ستة جنيهات شهرياً، وأنه يفعل ذلك إكراماً لوالدي، ولقد رضيت بهذا العرض متظاهراً بالتردد «وكظمت» سروري فهذا أول مال أتقاضاه عن عملي، وكان أجري في جريدة **مرآة الشرق** الطعام والمنام، وكان الله يحب المحسنين.

ولقد كان سروري عظيماً حين جاء الشهر الأول، فقبضت راتبي فدفعت منه إيجار غرفتي وحساب المطعم، وجزءاً من الدين الذي كان متراكماً عليّ في هذا الدكان أو ذاك.

وأصبحت أتردد على المحاكم مع أستاذي مغنّم أجلس إلى جانبه، أُعدّ له الملفات والمراجع، وقد دهشت أول العهد أن أراه في «الروب» وطاقية الشعر على رأسه يناقش الشهود بحرارة، ويجادل القضاة بحزم وشجاعة، على حين كان المحامون الآخرون الذين تمرسوا بالنظام العثماني يتكلمون باحتشام واحترام، بلغة عربية مليئة بعبارات المناشدة في التماس العدالة والإنصاف.

وقضيت بضعة أشهر بين المكتب والمحكمة أتمرن على يدي الأستاذ مغنّم ولم يكن يبخل عليّ بكل أسرار «الصنعة» إلا موضوع التعامل مع الزبون.. صاحب الدعوى، فذلك ما لم يكن يطلعني عليه ولا أحضر مجلسه.. فلم أكن أعلم كيف يتفق مع «الموكل» على الأجور، المقدم والمؤخر.

وكان مغنّم من المحامين الكبار في فلسطين، وكان يتقاضي أجوراً عالية تكاد أن تكون خيالية في حساب ذلك العهد، وكان صارماً في تعامله وأجوره، يستوى عنده الأصدقاء والغرباء، وكانت تقاليد العمل الأمريكية تسود تصرفاته، وهذا ما لم أستطع أن أتعلمه منه، فالبيئة العربية في فلسطين كأية بيئة صغيرة في أول مراحل نموها، متشابكة متلاحمة بين الصداقات والعلاقات، وكانت المهن الحرة كالطب والمحاماة لا تستطيع أن تفرض نظام الأجر في جميع الأحوال والظروف، فهذا صديق، وهذا قريب الصديق، وذلك وجيه بلده، وذاك كبير قومه.. وكل أولئك لا بد أن يخدموا دون أن يدفعوا..

وقضيت أياماً طريفة في المحاكم وأروقتها في بيت المقدس فتعرفت على طائفة من القضاة والمحامين وعشت جو القضاء بمرافعاته وحواره فوجدت في ذلك متعة ولذة أشغلتاني عن السياسة بعض الوقت.

غير أني رأيت نفسي مرة أخرى في صميم الميدان السياسي إلى الأذقان، وكانت المحاماة مفتاح هذا النضال السياسي، فقد حدث أن أوفدت الحكومة البريطانية في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٢٩، لجنة تحقيق برلمانية عرفت باسم رئيسها «ولتر شو»، وخولت صلاحية دراسة الأسباب التي أدّت إلى الاضطرابات التي وقعت في البلاد في صدد اعتداء اليهود على ساحة البراق، حائط «المبكى»، ولتقدم التوصيات التي تراها لمنع تكرار هذه الأحداث.

وقد هبّت اللجنة العربية والوكالة اليهودية، كلّ من جانبها في إعداد العدة لعرض وجهة نظرها وشرح مطالبها.

وكان المحامي مغنّم أحد الأمناء الثلاثة للجنة العربية، وكان على القيادة الوطنية أن تتولى بسط القضية نيابة عن شعب فلسطين، ومن هنا كان دوري، وأنا في مكتب مغنم، في المساهمة بالإعداد للقضية.

وكان الأسلوب الذي اتبعته لجنة «شو» شبيهاً بالنظام القضائي البريطاني، معتبرة نفسها محكمة قضائية تستمع إلى الطرفين المتنازعين، وما يقدمانه من وثائق وبيانات، وما يستدعيانه من شهود.

وقد استعدّت الوكالة اليهودية استعداداً ضخماً بقدر ما هي مؤهلة لذلك من مال وفير وخبرة واسعة، ودراسات مستفيضة، جاهزة في ملفاتها لا ينقصها إلا أن تفتح وتقدم عند الطلب.

ولم يكن عند اللجنة العربية شيء. . لا مال وفير، ولا خبرة واسعة، ولا دراسات مستفيضة، فقد كان كل ما عندها وطنية لا حدود لها وإخلاص متناه، ومجموعة المطالب الوطنية المعروفة، ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[1] . . والجدال.

فاندفعت الكفاءات العربية في البلاد في الإعداد على عجل. . واشترك كبار الموظفين العرب، بصورة سرية، بتقديم ما يستطيعون تقديمه من دراسات وآراء. .

وقد تولى عرض القضية الصهيونية نخبة من المحامين اليهود وعلى رأسهم «السير نريمان» وهو من أكبر المحامين البريطانيين اللامعين، وعلى جانب وافر من الذكاء وحضور البديهة، وذو شخصية قوية ترجح شخصية اللجنة البرلمانية برئيسها وأعضائها.

وقد بدأ «نريمان» في بياناته ومرافعاته ملماً «بالقضية» في دقائقها وتفاصيلها، كأنه عاشها منذ نعومة أظفاره.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

وتولى عرض القضية العربية المحامون مغنّم وعوني عبد الهادي وفخري الحسيني وعلى رأسهم محاميان بريطانيان «ستوكر وسلى» كانا يعملان في المحاماة بالإسكندرية . . ومن هنا جاءت صلتي بإعداد «القضية» باعتباري محامياً تحت التمرين في مكتب المحامي مغنم.

ومنذ الجلسة الأولى وضحت الصورة بكل معالمها، الحق العربي بوسائله الهزيلة، والباطل اليهودي بأساليبه البارعة.

لقد كان «نريمان» يصول ويجول أمام لجنة التحقيق، بين يديه وثائقه ومقتبساته، يناقش الشهود بألمعية خارقة، وفي الطرف الآخر كان «ستوكر» المحامي البريطاني العجوز يعرض القضية العربية، ونحن المحامين العرب من ورائه ومن حوله نمده ببعض البيانات وبعض الوثائق من حين إلى حين، ولولا ما قدمه كبار الموظفين العرب حين استمعت اللجنة في جلسات خاصة إلى ممثلي الحكومة، لكانت القضية العربية فقيرة حقاً.

ولكن الباطل لا بد أن يقع في حبائله مهما كانت براعة أصحابه، فقد ارتكب اليهود حماقات وجهالات وغطرسات أثناء عرضهم لقضيتهم، فكان ذلك شراً عليهم، وخيراً ساقه الله إلى العرب من حيث لا يرجون.

وكان على رأس هذه الحماقات أن محامي اليهود ركز القضية كلها على رأس الحاج أمين واتهمه بأنه المحرض على «الفتنة» وأنه ومعه طائفة «الأفندية» سبب الثورة، وأن شعب فلسطين وخاصة الفلاحين يريدون العيش بسلام مع اليهود.

والحماقة الثانية وكانت مليئة بالغطرسة، أن الحكومة البريطانية لم تقم بالتزاماتها التي فرضها عليها صك الانتداب بالنسبة إلى الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي، وأن حكومة فلسطين لا تعير اهتماماً كافياً لمطالب الوكالة اليهودية وما إلى ذلك.

وقد كشفت القضية اليهودية وهي تعرض لأول مرة بصورة «قانونية» عن المطامع الصهيونية، وبذلك وجدت القضية العربية سنداً جديداً لمخاوف الشعب الفلسطيني على مصيره في وطنه.

وكان للتوعية القومية التي سادت البلاد في الأعوام الثلاثة الماضية فضل كبير في وضع الأسس الصحيحة لعرض القضية أمام لجنة التحقيق البرلمانية، وانتهى الرأي بين القادة والسياسيين والمحامين أن نبرز قضيتنا على أنها قضية تحريرية، نكافح الاستعمار والصهيونية معاً، وقد أسند إليّ أن «أسهر» كل ليلة مع «ستوكر وسلي» لأدرس عليهما تاريخ القضية الفلسطينية وأشرح وثائقها من مراسلات حسين مكماهون فصاعداً . . أو نازلاً.

والواقع أن اللجنة البرلمانية قد تجاوزت اختصاصها بعض الشيء، فاستمعت إلى أصول القضية الفلسطينية، ما لنا وما علينا، وليس علينا إلا وثائق استعمارية مثل صك الانتداب ووعد بلفور والتشريعات البريطانية التي تدور في فلكهما.

وفي صدد الوثائق التي علينا تحدث «نريمان» عن اتفاق وايزمن ـ فيصل وما يشير إليه من اعتراف بالوطن القومي اليهودي «وحق» اليهود في فلسطين.

وتحدث عوني عبد الهادي، وكان سكرتيراً للأمير فيصل في عهد الشريف حسين، عن مضمون الكتاب وظروفه وشروطه، وقد أبرقت اللجنة العربية إلى الملك فيصل في بغداد تطلب إيضاحاً للموقف، وكنا نتوقع أن يصلنا جواب صاف شاف ولكن أسقط في أيدينا حين جاء الرد من بغداد من رئيس الديوان وفيه يقول: «إن مولاي لا يذكر أنه أعطى اليهود شيئاً مما يدعونه».

وقد واجهتُ هذا «الاتفاق» (وايزمن ـ فيصل) مرات ومرات في الأمم المتحدة، فقد أبرزته «غولدا ماير» «وإيبان» في مناسبات متعددة، وجرى بيني وبينهما حوار وجدال حول هذا الموضوع، ولم أعتمد جواب رئيس الديوان عن «مولاه» بل وجدت في نصوص الاتفاق جواباً أصح وأكرم. . «واستخرجت» من فقراته ما يقيد بعضها بعضاً. . ويناقض بعضها بعضاً ولكني في سريرتي لم أستطع أن أبرئ فيصل من هذه الخيانة العظمى! ففي هذا الاتفاق اعتراف صريح بالوطن القومي اليهودي. . و. .

وقد انتهت اللجنة البريطانية من تحقيقاتها، وقامت بزيارة مناطق فلسطين المختلفة، وكانت قد تأثرت بشهادة المهندس الزراعي سليم فرح عن مشاكل الأراضي، ولعلها الشهادة الفنية الوحيدة التي تقدم بها الجانب العربي، أمام جهابذة الفنيين والخبراء من اليهود.

وعادت اللجنة إلى إنكلترا وقدمت تقديرها إلى «حكومة جلالته» فكان أقرب ما يكون إلى الإنصاف والحياد والعدل، وأقر وجهة النظر العربية في أمور كثيرة منها:

١ ـ أن الثورة وراءها مطالب سياسية قومية وليست من صنع المفتي وطبقة الأفندية.

٢ ـ أن الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي العربية من قبل الشركات اليهودية هو السبب المباشر للثورة، وسيظل سبباً لكل اضطراب في المستقبل.

٣ ـ أن مخاوف العرب على مصيرهم ومستقبلهم إزاء الحركة الصهيونية لها ما يبررها.

٤ ـ أن الفلاحين العرب أصبحوا بلا أراضٍ كافية، وأن العمال العرب أصبحوا محرومين من أسباب العمل والعيش.

وقد غضبت الأوساط الصهيونية ونددت بتوصيات اللجنة البريطانية، واعتبرتها مخالفة لصك الانتداب الذي فرض على الحكومة البريطانية تسهيل الهجرة اليهودية وبناء الوطن القومي اليهودي.. أمّا العرب فمن بعدي الطوفان..

وقابلت الأوساط العربية تقرير اللجنة بكثير من الارتياح، فقد تكلم الضمير الإنساني وبسط ظلامة العرب وأنصفهم في كثير من مطالبهم القومية.

وكان تقرير اللجنة رائعاً حين أعلن «أن الفلاحين العرب مهتمون اهتماماً حقيقياً وشخصياً بسياسة الوطن القومي اليهودي.. وأنهم يهتمون بالأمور السياسية أكثر بكثير من أهالي أوروبا».

لقد أنصفهم التقرير في «الوطن» وفي «البراق» وفي حق تقرير المصير، وأنصفهم في الكشف عن طغيان الصهيونية وأطماعها التي لا حدود لها.

وكان الظن أن يكون عام ١٩٣٠ عام إنصاف وحق، فيه نهاية الظلم وبداية للعدل. وكان الظن أن تعطى فلسطين حكماً دستورياً ولو ذاتياً، وأن «تلجم» الوكالة اليهودية التي أصبحت دولة في داخل الدولة.

ولقد عشنا وراء هذه المنى والأحلام زمناً، ولكن مسيرة التاريخ كانت تجري في فلك آخر.

لقد كانت الحركة الصهيونية قوة عالمية منظمة، قوة ديناميكية نامية متطورة، متحركة مندفعة، وكانت الحركة العربية تتراجع أمامها شبراً شبراً.

وقدر لتقرير اللجنة البرلمانية أن يكون مصيره مصير عشرين تقريراً أو يزيد، بعضها سابق وبعضها لاحق، وكلها إلى سلة المهملات.. ومعها جواب الملك فيصل من بغداد يعلن فيه رئيس الديوان: «أن مولاي لا يذكر..»

سنعود إلى بيت المقدس ولكن حجراً على حجر

أصبحت في أوائل الثلاثينات أساهم بنصيب وافر في الحركة الوطنية، وازدادت صلتي بقادة الحركة الوطنية، مجلسيين ومعارضيين ومستقلين، وكانوا جميعاً يكبرونني بأعوام، ولعلي كنت واحداً من الشباب القلائل القريبين من القيادة الوطنية.

و أثناء عملي في التحضير «للقضية» أمام لجنة التحقيق البرلمانية «شو» ازدادت صلتي برجال الحركة الوطنية أمثال الحاج أمين الحسيني وعوني عبد الهادي وصبحي الخضرا ورشيد الحاج إبراهيم ومعين الماضي وحمدي الحسيني، أمّا رجال المعارضة فقد كنت ألتقي بهم في منزل والدي وكان من قادتهم، وكنت ألاقي حرجاً شديداً في التوفيق بين الصلات الشخصية بالمعارضين والصلات الوطنية بالمجلسيين والمستقلين. وكنت أميل إلى هذا الفريق الأخير، فقد كان يعمل في الحقل الوطني، رغماً عن أخطائه وتردده- ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

و أثناء عملنا في لجنة «شو» عرض علي عوني عبد الهادي أن أعمل في مكتبه، فرحبت بهذا العرض وتركت مكتب المحامي مغنّم شاكراً.

ولم يكن انتقالي إلى مكتب عوني عبد الهادي قائماً على أسباب فنية تتصل بالمحاماة، فقد كان مكتب مغنّم أنفع لي من ناحية المهنة، ولكن مكتب عوني عبد الهادي كان أصلح لي من ناحية قومية، فقد كان عوني عبد الهادي من رجال الحركة العربية الأوائل وله صلات وصداقات في البلاد العربية، فآثرت أن أشبع نزعاتي السياسية فاستخرت الله وحملت كتبي إلى غرفة صغيرة في مكتب عوني عبد الهادي، وارتقى راتبي من ستة جنيهات إلى ثلاثة عشر جنيها، وأصبحت أكثر قدرة على سداد ديوني.

ولم يكن والدي راضياً عن هذا الانتقال من مكتب إلى مكتب، فقد رأى فيه انتقالاً سافراً إلى صفوف المجلسيين، وتحدياً للمعارضين وهو شيخهم، وبدأ بيننا الفتور، هادئاً حيناً، وعنيفاً حيناً آخر.

وفي المكتب الجديد كان حظ المحاماة غير وافر، فقد كان للزبائن غرفة، ولرجال الحركة الوطنية غرفة أخرى وكثيراً ما كانت الثانية تطغى على الأولى.

وجاءت تواصي لجنة «شو» مشجعة، وقررت اللجنة العربية إرسال وفد إلى لندن لعرض المطالب الوطنية، وتشكل الوفد برئاسة موسى كاظم الحسيني وعضوية الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي وعوني عبد الهادي وجمال الحسيني وألفرد روك.

وأخذنا نعد في المكتب ملفاً عن القضية الفلسطينية، ورحت أواصل الليل بالنهار وأنا أجمع الوثائق وأهيئ المذكرات على عجل، فقد سقطت حكومة المحافظين وحلّت محلّها حكومة العمال. وكنا نرى الأولى استعمارية بغيضة وفيها أمثال تشرشل وايمري والثانية متحررة يرأسها مكدونالد.

وسافر الوفد إلى لندن في أوائل ١٩٣٠ ومكث فيها قرابة شهرين، فاجتمع بأركان الحكومة البريطانية واتصل برجال الصحافة وشرح تقرير لجنة شو، وقدم مذكرة رسمية عرض فيها المطالب الوطنية، وكأنما تحدثت المذكرة بلسان القدر وكشفت حجاب الغيب حين قالت: «وإن الاستمرار في هضم حقوق العرب إكراماً للسياسة الصهيونية يؤدي إلى إبادتنا وإجلائنا عن بلادنا وإن المسألة عندنا هي مسألة حياة أو موت». . وكنت كتبت هذه العبارة بيدي، وجرى نقاش حاد حولها بين أعضاء الوفد، فقد كان يرى راغب النشاشيبي أن هذه العبارة مبالغ فيها. . وليته كان صادقاً في فراسته، وليتني كنت كاذباً في نبوءتي. .

ولكن مهمة الوفد لم تلق نجاحاً فقد تمسكت حكومة العمال «التحررية» بسياسة حكومة المحافظين «الاستعمارية» وعاد الوفد إلى الوطن يجر أذيال الخيبة، وأذاعت حكومة فلسطين بلاغاً جاء فيه «إن المخاوف التي أعربت عنها الدوائر العربية من أن سياسة حكومة جلالته قد تعرّض كيان الشعب العربي في فلسطين للخطر لا مسوّغ لها. .»

ولقد كنا نحن جيل الشباب في حيرة من أمرنا ومصيرنا ومستقبلنا، نتساءل في أعماق نفوسنا: أيهما أصدق؟ التحذير العربي، أم التكذيب البريطاني؟ وهل سيأتي يوم يتم فيه الجلاء عن وطننا كما قالت المذكرة العربية، أم إننا سنبقى آمنين في وطننا وديارنا كما يؤكد بلاغ الحكومة البريطانية؟

وقد كنا نرى الخطر ماثلاً أمام أعيننا من غير شك، ولكن كان يصعب علينا أن نصدق وقوع المستحيل. . كان يصعب علينا أن نصدق أننا سنخرج من وطننا وأن جيلنا بذاته هو جيل الجلاء، الجيل الشريد الطريد.

ولقد جاء عام ١٩٤٨ ثم بعده عام ١٩٦٧ ليثبت التاريخ أن التحذير العربي صادق وأن التكذيب البريطاني كاذب.

ولم يكد يعود الوفد إلى فلسطين حتى جاءنا الخبير البريطاني المعروف «سمبسون»، فطاف في البلاد واجتمع بالفلاحين، والمختصين من موظفي الحكومة وقدم تقريراً إلى لندن مليئاً بالإحصاءات والدراسات عن الأراضي العربية والحيف الذي لحق بالفلاحين العرب، فكان إلى جانب تقرير لجنة شو حجة قوية تبرز مخاوف العرب وتفنّد مزاعم الصهيونية وتدحض موقف الحكومة البريطانية.

وأصبحنا في موقف أقوى من ناحية سياسية ولم يسع الحكومة البريطانية أمام الدراسات العلمية والتحقيقات العادلة التي تولاها بريطانيون مختصون إلا أن تتحرك بعض الشيء في تحقيق مطالب العرب فكان الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٠ (تشرين الأول/ أكتوبر) الذي أصدرته حكومة العمال بعد أن نشر تقرير سمبسون.

ولم نستطع أن نكتم سرورنا، فقد كان الكتاب الأبيض خطوة على الطريق، فقد نصّ على إنشاء مجلس تشريعي ووضع قيود على الهجرة وبيع الأراضي، ولم تكن هذه كل مطالبنا الوطنية، ولكن كنا في حاجة إلى وقف «النمو» الصهيوني، ريثما نستطيع أن نجد لنا سبيلاً للخلاص.

وأخذت أعدّ المذكرات في المواضيع التي عالجها الكتاب الأبيض، فقد أصبحت متمرساً في هذا العمل. وكانت الوقائع والتواريخ والأرقام طوع ذاكرتي، وعلى أطراف أناملي. .

ولكن فرحتنا لم تدم طويلاً. .

لقد غضبت الصهيونية وزمجرت، وأرغت وأزبدت، وحسبنا أن السماء قد سقطت على الأرض، فلقد استقال وايزمن من قيادة الحركة الصهيونية احتجاجاً على الحكومة البريطانية، وانهمرت الاحتجاجات على الحكومة البريطانية في لندن وعصبة الأمم في جنيف، وقام اليهود بمظاهرات صاخبة في أرجاء العالم، وهبت الصحافة الأمريكية والبريطانية مستنكرة الكتاب الأبيض.

وكان حزننا عظيماً يوم أصدرت الحكومة البريطانية في الشهر التالي (تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٠) بياناً إيضاحياً تراجعت فيه عن الكتاب الأبيض، في لهجة كلها اعتذار واستغفار بين يدي الحركة الصهيونية، فسحب وايزمن استقالته، واحتجب موضوع المجلس التشريعي إلى غير رجعة، وعادت الأمور إلى سابق عهدها، حكم بريطاني مباشر في خدمة الوطن القومي اليهودي. . وكأن شيئاً لم يكن.

و إذا كنا لم نجد الإنصاف في حق الوطن كله، فقد وجدنا شيئاً من الإنصاف بصدد البراق، حائط «المبكى»، ولو إلى حين، فقد وفدت على البلاد لجنة دولية لفصل النزاع القائم بين العرب واليهود.

وكنا نحن الشباب مع اهتمامنا بحائط «المبكى» من الناحية القومية والدينية، قد أردناها فرصة للدعوة للقضية الفلسطينية في العالمين العربي والإسلامي، فوضعنا كل طاقاتنا وكفاءاتنا بين يدي الحاج أمين الحسيني بوصفه رئيساً للمجلس الإسلامي الأعلى، ومن واجبه الدفاع عن حق المسلمين في مقدساتهم الدينية.

وتداعت الوفود من كل أنحاء العالمين العربي والإسلامي للمثول أمام اللجنة الدولية للإدلاء بشهاداتها وآرائها حول ملكية المسلمين لحائط «المبكى» وما حوله.

وقد أصبحت مدينة القدس تعج بقادة العرب والمسلمين، وكان فندق بالاس أوتيل في شارع مامِلاً «مأمن الله» مركز القيادة العربية الإسلامية للدفاع عن أرض البراق الشريف.

وكان عوني عبد الهادي أحد المحامين الذين يتولون الدفاع عن هذه القضية، ومن هنا جاءت مساهمتي فيها، وجاء لقائي وتعارفي بعدد وافر من رجالات العرب والمسلمين من أمثال محمد علي علوبة وأحمد زكي باشا «شيخ العروبة»، ومزاحم الباجه جي وغيرهم.

ولم تكن القضية صعبة من ناحية قانونية فقد كانت وثائق المحاكم الشرعية وسجلات الأوقاف كفيلة بأن تثبت حق المسلمين وتزهق باطل اليهود.

وجاء تقرير اللجنة الدولية مؤيداً لحقنا فقد أعلن الملكية للمسلمين وأعطى اليهود حق الزيارة في أضيق الحدود، من غير زيادة لمستزيد ولا حدث جديد.

ولقد ذهلت أيّما ذهول، وأنا أغوص بين الوثائق والسجلات القديمة لأرى حرص ملوك المسلمين وأمرائهم على تعاقب الأجيال والعصور، وهم ينشئون المدارس والزوايا والرباطات حول المسجد الأقصى إلى مسافات بعيدة، صوناً لحرمة أولى القبلتين وثالث الحرمين، وذوداً عن موطن الإسراء والمعراج.

ولقد سكت اليهود عن تقرير اللجنة الدولية حين رأوا تكاتف العرب والمسلمين للدفاع عن مقدساتهم الدينية، وقد دام صمتهم سبعة وثلاثين عاماً كأنهم على موعد مع القدر، وكأننا على موعد مع النكبة.

ففي حرب حزيران/ يونيو من ١٩٦٧ احتلت القوات الإسرائيلية بيت المقدس وجاست خلال المسجد الأقصى وساحاته، ورفع العلم الصهيوني على حائط البراق

«المبكى»، ونفخ اليهود في الصُّور، وتجمعت الدولة اليهودية في ساحة البراق الشريف لتعلن عودة القدس عاصمة أبدية إلى إسرائيل.

واهتز قرار اللجنة الدولية من مكانه في مكتبة الأمم المتحدة، واهتزت معه السجلات والوثائق الشرعية والوقفية، واهتزت مع هذه وتلك عظام الملوك والأمراء الأوائل يتساءلون عن النبإ العظيم، ماذا حل ببيت المقدس؟

وعجبت للقدر.. لقد ساهمت في الدفاع عن حائط البراق «المبكى» وحسبت الأمر قد انتهى، فإذا بى أرى نفسي بعد سبعة وثلاثين عاماً مع الملك حسين والفريق عبد المنعم رياض وقادة الجيش الأردني في غرفة العمليات في السادس من حزيران/ يونيو سنة ١٩٦٧ ولأسمع النبأ الصادع: لقد سقطت القدس... لقد دخلها الجيش الإسرائيلي.

وعدت ظهر ذلك اليوم إلى الفندق لأبكي.. لأبكي لأن القدس سقطت سليمة من غير قتال ولا دفاع، لأن رجالها الشجعان ونساءها البواسل لم يكن عندهم سلاح ولا عتاد.

أجل لقد بكيت لأني كنت أؤثر أن تدخل إسرائيل إلى بيت المقدس على أنقاضها حجراً على حجر من المسجد الأقصى إلى كنيسة القيامة، وأن نخوضها معركة ضارية... ستالينغراد الثانية، فنقاتل من بيت إلى بيت ومن قنطرة إلى قنطرة، ولتقصفها إسرائيل بالطائرات والمدافع.. ونحن لو فعلنا هذا لسلمت القدس لنا إلى يومنا هذا..

وما زلت أبكى كلما تذكرت بيت المقدس لأنى أعلم أن إسرائيل لن تخرج منها عن طريق الأمم المتحدة ولا بالمساعي السياسية ولا بالحلول الدبلوماسية.. وسأعرض في مذكراتي إلى كارثة بيت المقدس، ليعرف التاريخ العربي الجناية والجاني.

أجل لن تخرج إسرائيل إلا إذا خضناها حرباً طاحنة لا تبقي ولا تذر، تترك بيت المقدس حجراً على حجر، من المسجد الأقصى إلى كنيسة القيامة.

و إذا كان هذا هو الثمن، فليكن هذا هو الثمن، فإن الأرض الطهور في بيت المقدس ستبقى، ويومئذ سنبني عليها مسجدنا وكنيستنا، وسنعيد بناء التاريخ.

عـرس فـي غرفـة الإعـدام

كانت أوائل الثلاثينيات عندي مزيداً من المراس بمهنة المحاماة، ولكن في الحقل الوطني الثوري، فقد خلفت ثورة البراق الشريف لعام ١٩٢٩ عدداً كبيراً من القضايا الوطنية رفعتها السلطات البريطانية أمام المحاكم ضد الشباب الأبطال الذين قاموا بعمليات مسلحة في مختلف أنحاء البلاد.

ولقد قضيت بضعة أشهر إمّا في أروقة المحاكم مع القضاة والمحامين، أو في الشارع مع جماهير الشعب، في المحاكم مرافعات وفي الشارع تظاهرات . .

ومن القضايا البارزة التي شهدتها تلك الحقبة محاكمات الأبطال الثلاثة فؤاد حجازي من صفد، وعطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل، وانتهت بإصدار أحكام الإعدام عليهم، وكانت قد وقعت حوادث دامية في كل من صفد والخليل أبدى خلالها الشباب المناضلون بسالة خارقة.

وكانت التهم الموجهة إليهم «الاعتداء على اليهود بالسلاح» وكانت هذه القضايا مثار اهتمام الرأي العام، وأبلى المحامون العرب فيها بلاء مجيداً، وكانت إلى جانب هذه المحاكمات عشرات من القضايا المماثلة، وكاد المحامون والمحامون المتمرنون من أمثالي أن يبيتوا في دور المحاكم ونحن نعدّ المرافعات، كلنا متطوعون في سبيل الوطن.

وقد تسنى لي أن أشهد محاكمة البطل فؤاد حجازي وأنا أعمل مع رهط كبير من المحامين للدفاع في هذه القضية، ورأيت فيها العجب العجاب من كذب الشهود اليهود وتباكي نسائهم، وتمثيليات رجالهم وأطفالهم، استدراراً لعطف القضاة البريطانيين وإشفاقهم، يقابل ذلك في الجانب العربي، رجولة وشجاعة وصراحة في أداء البينات وعرض المرافعات.

ولم تفلح جهود المحامين في قضايا الأبطال الثلاثة، فقد حكم القضاة

البريطانيون عليهم بالموت شنقاً في سجن عكا، وتدخل عدد من رجالات العرب في الأقطار المجاورة لدى السلطات البريطانية لإبدال الحكم ولكن من غير جدوى، وتحدد يوم السابع عشر من شهر حزيران/ يونيو موعداً لتنفيذ حكم الإعدام.

وكانت السلطات البريطانية قد سمحت بزيارة الأبطال الثلاثة، في «زنزانتهم» قبل تنفيذ الإعدام بأيام.

وكنت في تلك الفترة في عكا ـ وهي بلدي ـ وقد تكاثر فيها الوفود من كل أنحاء فلسطين ليؤدوا واجب التحية للابطال الشجعان، قبل أن ينفذ فيهم حكم الموت.

ولقد زرت الأبطال الثلاثة غير مرة مع مختلف الوفود، ذلك أنهم ضيوفي وضيوف بلدي، فضلاً عن أن السجناء والمعتقلين من كل أنحاء فلسطين كانوا «ضيوفاً» علينا في سجن عكا، منذ أن كان الانتداب في فلسطين.

وكان السجناء الثلاثة في زنزانات متجاورة، يقفون وراء القضبان الحديدية، ويمر عليهم الزائرون صفوفاً صفوفاً لتحية قصيرة.

ومررنا بالإخوان الثلاثة، رؤوسهم مرفوعة ووجوههم مشرقة، ومن عجب أنهم كانوا يشدّون من عزمنا وإيماننا، وأصبحوا يواسوننا بدلاً من أن نواسيهم، وكان جمجوم والزير قد خضبا أيديهما بالحناء، كما يفعل أهل الخليل في أفراحهم. . يؤكدان ابتهاجهما بأنهما فداء فلسطين، كما كان حجازي، ولم يتجاوز اثنين وعشرين عاماً، المثل الأعلى في الشجاعة ورباطة الجأش، وهكذا بدت غرفة الإعدام ساحة عرس مؤنس بهيج.

وأبدت السلطات البريطانية كل إبداع وإتقان في تنفيذ حكم الإعدام. . في الساعة الثامنة نفذ حكم الإعدام في «حجازي» وفي الساعة التاسعة نفذ الحكم في «الزير» وفي العاشرة نفذ في «جمجوم» وذهبت أرواحهم الثلاثة إلى بارئها راضية مرضية، تشكو إلى الله ظلم الدولة البريطانية وعسفها وجورها.

وكانت عكا تعج بالخلائق من كل أنحاء فلسطين كأنه يوم الحشر، وراحت المآذن تهلل وتكبر، والكنائس تقرع أجراسها، ودفن الأبطال الثلاثة في موكب مهيب في مقبرة عكا، وكان أهل صفد والخليل يلحون أن يدفنوا أبطالهم في مقابرهم، ولكن عكا وهي التي شهدت مصارع الرجال الأبطال على كل العصور والأجيال، قد أبت إلا أن يرقد الأبطال الثلاثة في رحاب أرضها الحافلة بالأمجاد فكان لها ما أرادت.

وتفجرت مشاعر الشعب في كل مكان، تمجد الأبطال الثلاثة، حجازي والزير

وجمجوم، حتى أصبح ذكرهم أسطورة شعبية يرددها الرجال والنساء، والشيوخ والأطفال وراح الشعراء، ينشدون فيهم القصائد، والقصاصون يرددون أخبارهم في المآتم والأفراح.

وقد انطلقت قريحة شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، فجاءت بآيات رفيعات من الشعر خلدت الشهداء وخلدته مع الشهداء، وكان مما قاله في وصف الساعات الثلاث:

الساعة الأولى ـ الساعة الثامنة ـ فؤاد حجازي

أنـا سـاعـةُ الـنـفـسِ الأبـيَّهْ ... الـفـضـلُ لي بـالأَسـبـقـيَّـهْ
أنـا بِـكْـرُ سـاعـاتٍ ثـلاثٍ ... كـلـهـا رمـزُ الحـمـيَّـهْ
قـسـمـاً بـروح (فـؤاد) ... تـصـعـدُ مـن جـوانِـحِـهِ زكـيـهْ

الساعة الثانية ـ الساعة التاسعة ـ محمد جمجوم

أنـا سـاعـةُ الموت المشـرِّف ... كـلَّ ذي فـعـلٍ مجـيـدِ
بـطَـلي يُحـطِّـمُ قـيـدَهُ ... رمـزاً لـتـحـطـيـم الـقـيـودِ
قـسـمـاً بـروحِ (محـمـد) ... تَـلْـقـى الـردى حُـلْـوَ الـورودِ
قـسـمـاً بـأُمِّـكَ عـنـد مـوتِـكَ ... وهـي تهـتـفُ بـالـنـشـيـدِ

الساعة الثالثة ـ الساعة العاشرة ـ عطا الزير

أنـا سـاعـةُ الـرّجـل الـصَّـبـورِ ... أنـا سـاعـةُ الـقـلـبِ الـكـبـيـرِ
بـطَـلي أشـدّ عـلى لـقـاءِ الموتِ ... مـن صُـمِّ الـصّـخـورِ
يَـلْـقـى الإلـه (مُخـضَّـبَ الـكـفَّـيْنْ) ... فـي يـومِ الـنّـشـورِ
قـسـمـاً بـروحـك يـا (عـطـاء) ... وجـنَّـةِ المِلـكِ الـقـديـرِ

ولم يكن إبراهيم طوقان «شاعراً» فحسب حين تحدث عن «صم الصخور» فقد صنعناها حقيقة لا مجازاً، وتولينا بناء القبور للأبطال الثلاثة، لا من الرخام المزخرف، ولكن من صم الصخور، وانطلق البناؤون إلى مقالع الحجارة في كل جبل وواد، واختاروا من الصخور الصماء أشدَّها وأصلبها، ومنها بنيت القبور.. ولم يكن يمضى عيد ديني أو مناسبة قومية إلا ونخرج نحن أهل عكا نقرأ الفاتحة على أرواح الأبطال الثلاثة أولاً، ثم على موتانا ثانياً.

وكانت القبور الثلاثة، زاهية الورود فواحة الرياحين، حتى خرجنا من فلسطين، وأحسب أنها ذبلت وأصبح ما حولها بلقعاً خراباً وعالماً يباباً بعد أن هاجر أهل عكا من مدينتهم الباسلة.

ومن يدري فلعل عجوزاً طاعنة في السن، ممن بقين في عكا، تخرج إلى المقبرة على عادتها، تتسلل لواذاً إلى الأضرحة الثلاثة لتبكي أبطالنا، نيابة عن الشعب الشريد الطريد بأسره.

ولقد أطلت قليلاً في تذكار «حجازي وجمجوم والزير» تمجيداً لروح الاستشهاد التي تجلت في شعب فلسطين خلال ثلاثين عاماً من الكفاح في عهد الانتداب البريطاني، وإكباراً للبطولة التي تتجسد في نضاله الحاضر بعد كارثة حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧.

وفي هذه الحقبة الطويلة التي امتدت خمسين عاماً سقط الألوف من رجالنا ونسائنا في ساحة الشهادة والشرف، وضمهم ثرى الوطن الطهور، بين تهليل الآباء والأصدقاء، وزغاريد الأمهات والبنات، ولا تزال قوافل الشهداء تتعاقب وتتلاحق إلى يومنا هذا.

وستظل تتلاحق وتتعاقب إلى غدنا المرتقب، حتى نعود إلى الوطن الحبيب السليب، ونعود إلى أضرحة الشهداء، فتعود زاهية الورود، فواحة الرياحين.

مكماهون وحسين يدفنان في وادي الحوارث

حاولت جاهداً بعد انهماكي في الإعداد لقضية البراق أمام اللجنة الدولية، أن أتفرغ ما استطعت إلى معهد الحقوق، وإن كان نشاطي السياسي لم يكن يخلو من الدراسات القانونية، وقضيت بضعة أسابيع في الحياة العلمية المحضة مع أساتذتي وزملائي.

وكانت فترة وجيزة انغمست بعدها في الحياة العامة، فقد واجهت البلاد مرحلة جديدة تحمل بوادر الخطر، وزهدت في الدراسة وراحت الأحداث تجرني إلى ميدان النشاط العام.

ففي أوائل الثلاثينيات وما بعدها استفحلت الهجرة اليهودية إلى فلسطين نتيجة للسياسة الهتلرية في المانيا، وقد صاحبتها موجات من الهجرة المهربة، وبتنا نرى أنفسنا أمام غزوة يهودية تجتاح وطننا.

وزاد من خطورة الموقف أن تولى منصب المندوب السامي في ذلك الوقت «آرثر واكهوب» فجاء من لندن يحمل بين أنامله خيوط سياسية جديدة تستهدف «تمييع» الحركة الوطنية.

وأخذ المندوب السامي غداة وصوله يطوف البلاد ويجتمع بالفلاحين ويعرب عن عطفه ويعدهم بالقروض وتخفيف الضرائب وما إلى ذلك من الأساليب التي كان يرمي من ورائها أن يصرف الجماهير عن النضال القومي ويشغلهم بالحياة اليومية. فتنادينا نحن الشباب لمقاومة هذا الخداع السياسي، واجتمعنا في فندق «ماجستيك» في القدس، حيث كنت أقيم في ذلك الوقت، واتفقت كلمتنا أن نقوم بحملة توعية كبرى لإيقاظ الشعور الوطني، وكانت القدس وما حولها من نصيبي كميدان للنشاط، وانصرف إخواني إلى سائر أنحاء البلاد.

ولكن المندوب السامي كان أسبق منا في نشاطه، وهو يملك من السلطة

والوسائل ما لا نملك، فأخذ يطوف المدن ويجتمع بالتجار وأصحاب الأعمال الحرة يبحث معهم التدابير الكفيلة بالتنمية الاقتصادية. وزاد على ذلك بأن أخذ يتصل بالعائلات المعروفة في فلسطين لتعيين أبنائها في مناصب مغرية في الحكومة، ولقد أفلح «واكهوب» في مسعاه واستطاع أن يجتذب عدداً من أبناء الأسر: الحسينية والنشاشيبية والدجانية والتاجية وآل عبد الهادي وسواهم، وكان هؤلاء الشباب هم النخبة الممتازة الذين يستطيعون قيادة الحركة الوطنية وتنظيمها بما لهم من خبرة وكفاءة، ولكن هذه الخطة من جانب المندوب السامي قد انتزعت إلى دوائر الحكومة «زبدة» البلاد، وربطت العائلات الكبرى بالسلطة البريطانية.

والواقع أن هذه الإجراءات في مجموعها قد ساعدت المندوب السامي على تهدئة الحركة الوطنية «وتمييع» النضال القومي . . . ولكن إلى حين.

ومضينا نحن الشباب الذين بقينا خارج المناصب الحكومية، نوقظ الشعور الوطني، ولم يكن يخلو يوم أو ليلة إلا وأعقد فيها الندوات والاجتماعات في «دائرتي» ـ القدس ـ كما كان يفعل باقي زملائي في المناطق الأخرى في فلسطين، وهكذا عادت الحركة الوطنية إلى نشاطها: الشعب في جانب، والقيادة الوطنية في الجانب الآخر.

وكان من مظاهر هذا النشاط في ذلك الوقت أن تأسس حزب الاستقلال، فنفخ في الحركة الوطنية روحاً جديدة، وكان من مؤسسي الحزب عوني عبد الهادي، عزة دروزة، معين الماضي، رشيد الحاج ابراهيم، صبحي الخضراء، أكرم زعيتر، فهمي العبوشي، وعجاج نويهض.

وكانت لي صداقة مع مؤسسي الحزب وقد عرضوا عليّ أن أنضم إليهم فاعتذرت بعد تردد طويل. فقد كنت مؤمناً بمبادئهم وهي المبادئ التي كنت أدعو إليها، ولكني كنت أنفر من الحزبية والأحزاب، ولا أرى مبرراً لقيامها قبل أن تصل البلاد إلى الاستقلال، فضلاً عن أن عدداً من أعضاء الحزب كانت لهم روابط بالحاج أمين الحسيني، وكنت أخشى على حزب الاستقلال أن يكون غير قادر على الاستقلال، بالتخطيط والتنفيذ، والتفكير والتدبير!!

ولقد نشط الحزب في أوائل عهده بالدعوة لمقاومة الاستعمار والصهيونية معاً، وعقد اجتماعات وطنية كبرى في القدس ونابلس ويافا وحيفا في مناسبات وطنية كثيرة ومثيرة، مثل ذكرى موقعة حطين، واحتلال القدس، وغزوة بدر وغيرها.

وقد اشتركت في معظم هذه الاجتماعات الوطنية وخطبت فيها، حتى ظن الكثيرون أنني عضو في حزب الاستقلال، والواقع أنني كنت على لقاء دائم بأعضاء

الحزب، ولم يبق إلا أن أحضر اجتماعاتهم الرسمية، كواحد من مؤسسي الحزب.

وكان الشعار الذي طرحه الاستقلال: الاستعمار البريطاني أصل البلاء وأسّ الداء. فقد كانت الحركة الوطنية إلى ذلك الحين تبدو وكأنها خلاف بين العرب واليهود، وأما بريطانيا فهي الحكم الفصل، وكان النشاشيبيون في مجالس البلدية يجاملون السلطة البريطانية، والحسينيون في المجلس الإسلامي الأعلى لا يجاهرونها العداء، والحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي يتخاصمان حيناً ويتهادنان حيناً آخر، ويجران البلاد وراءهما في الخصام وفي السلام!!

و أخذت اجتماعات حزب الاستقلال فعلها في نفوس الشعب، وأصبحت المعركة موجهة ضد الاستعمار والصهيونية والزعامة التقليدية، وبات الحوار في كل مدينة وقرية، بل وفي كل بيت: الاستعمار البريطاني، أم الصهيونية العالمية أم كلاهما معاً.

وفي اجتماع عقده الحزب في نابلس، كنت أخطب عن الخطر الذي يهدد البلاد من جراء الهجرة اليهودية المتدفقة، وإذا بأحد الشباب يصيح وسط الجمهور متسائلاً هل تقاوم الصهيونية أم الاستعمار؟ فبادرته على الفور ببيت من الشعر.

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها   إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا

ونشرت أخبار ذلك الحدث في الصحف وأصبح بيت الشعر هذا شعاراً وطنياً يحفظه الرجال والنساء والأطفال والشيوخ على السواء.

وبينما كانت تتعاظم هذه الموجة العارمة من المشاعر الوطنية الفياضة وقع حادث خطير اهتزت له البلاد من أقصاها إلى أقصاها.

في الوقت الذي كان فيه المندوب السامي يزور الفلاحين ويأكل على موائدهم ويباسطهم ويجالسهم، كان رجال الشرطة يحيطون بعرب وادي الحوارث، يطوقونهم ويحاصرونهم، ليخرجوهم من الأرض التي عاشوا عليها، وترعرعوا فيها هم وآباؤهم وأجدادهم.

كانت هذه الأراضي مسجلة باسم أسرة «تيان» اللبنانية، وإن كانت في الواقع تحت تصرف أهلها من بدو «الحوارث» وكانت مساحتها أربعين ألف دونم، وقد بيعت هذه الأراضي الخصبة إلى اليهود من قبل «المالكين» المسجلين الذين لا يعرفون من أمرها شيئاً.

وذهبت مع نفر من المحامين، لنحقق في هذه الكارثة على «الطبيعة» فكان منظراً رهيباً، وقفت أمامه مذهولاً حائراً.

لقد تمت المراحل القضائية كلها في دور المحاكم، وهذه المئات من العائلات العربية مشغولة في فلاحة أراضيها ورعي مواشيها، وفي صبيحة يوم ما جاء رجال البوليس ينذرونهم بالخروج من منازلهم واقتلاع خيامهم، والجلاء عن الارض.

رأيت جموع النساء والشيوخ والأطفال لا يدرون ما يفعلون، وسألت شيخ العشيرة عما جرى بينهم وبين البوليس، فقال: لقد طلبوا إلينا أن نترك الأرض خلال ثلاثة أيام، فقلت له إلى أين؟ قال لا أدري.

قلت: ألم تحدد لكم الحكومة أرضاً تذهبون إليها؟ قال: لم تفعل الحكومة شيئاً وكل ما طلبه البوليس، اخرجوا، اخرجوا، اخرجوا.

وسألني شيخ العشيرة ما العمل؟ وكان إلى جواري المحامي صبحي الخضرا من صفد، من الضباط الأحرار الذين التحقوا بثورة الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى، فسألته ماذا نقول لشيخ العشيرة.

فقال لي صبحي الخضرا، والحزن يعقد لسانه ولساني، لست أدري، وبم إذاً نشير؟ فقلت له: لست أدري، ولا أشير بشيء.

وودعنا العشيرة وشيخها بكلمات التعزية والمواساة، فذلك ما كنا نملكه وما تملكه الحركة الوطنية بأسرها.

وركبت السيارة، وعدنا كلّ منّا إلى شأنه، وودعت صبحي الخضرا وأنا أقول له: أعزيك يا أخي. قال بماذا؟ قلت بثورة الشريف حسين وأنت أحد ضباطها، فهذه وعود الحلفاء، وهذه مراسلات حسين ـ مكماهون، انتهكت كلها في وادي الحوارث. . . وكأنما دفن الرجلان في وادي الحوارث. . . الحسين ومكماهون دفنا هنا معاً.

ومضت مهلة الإنذار فخرج عرب وادي الحوارث من منازلهم وحملوا خيامهم على دوابهم، وأطفالهم على أكتافهم، وهاموا على وجوههم، ليكونوا قافلة من قوافل الجلاء عن أرض الآباء والأجداد.

ولم يكن تشريد عرب الحوارث الطليعةالأولى في قافلة التشريد الطويلة، فقد سبقته ولحقته حملات رهيبة من التشريد كان الفلاحون الكادحون ضحاياها الأليمة، ففي أوائل العشرينيات استولى اليهود على أراضي الغور في بيسان التي كانت مسجلة «اسمياً» باسم السلطان عبد الحميد، وكانت مساحتها ١٦٥ ألف دونم يقيم فيها خمسة عشر ألف عربي، هدم اليهود قراهم وأجلوهم عنها. .

ثم جاء بعد ذلك تشريد ٢٥٤٦ أسرة عربية كانت تقيم في عشرين قرية عربية

في مرج ابن عامر، كانت مسجلة باسم آل سرسق، فاشتراها اليهود وأجلوا أهلها عنها، وأقاموا مكانها المستعمرات اليهودية على أنقاض القرى العربية بمنازلها ومساجدها.

وها قد جاءت حادثة وادي الحوارث فاضطربت البلاد، وازدادت النقمة على القيادة الوطنية والزعامة التقليدية، واستنفد حزب الاستقلال زمانه واستهلك دعوته وطاقاته، فلم يكن حزب الاستقلال يملك إلا الفكر الصحيح والكلمة الشجاعة، على حين كانت الصهيونية تملك شركات الأراضي والبنوك وأجهزة الدعاية، والتنظيم الشعبي، والجباية القومية، يقف على رأس ذلك كله الصهيونية العالمية والاستعمار البريطاني بقواته العسكرية وسلطاته التشريعية والإدارية والتنفيذية.

ولم يكن أمام الشعب ليعرب عن سخطه إلا سبيل المظاهرات الوطنية والتصدي لليهود بالسلاح من حين إلى حين. . . وشتان بين طاقات الفريقين المتصارعين وقدراتهم. . . وكان أن نشطت الدعوة للقيام بمقاومة سلبية ضد السلطة البريطانية تبتدئ بسياسة اللاتعاون مع الحكومة، وتداعت القوى الوطنية لمؤتمر قومي عقد في سينما «أبولو» في يافا في آذار/ مارس سنة ١٩٣٣، وقد شهده الرجال الوطنيون من كل أنحاء البلاد. كما حضره رجال حزب الاستقلال التسعة واتخذوا مقاعدهم في الصف الخلفي يراقبون ويستمعون. . . وهم يعتبرون أن دعوتهم قد بلغت غايتها. . . فقد اتجهت الحركة الوطنية لمصارحة بريطانيا بالعداء، وكفى. . . ولم يكن عندهم ما يقدرون عليه بعد ذلك.

وكان جو المؤتمر بالغ الحماسة، وتعاقب الخطباء على الكلام، وكان الزعماء ومنهم الحاج أمين الحسيني يستمعون ويراقبون، كأنما المعركة بينهم وبين المؤتمر.

وطلبتُ الكلمة فشرحتُ خطورة الموقف وتحدثتُ بتفصيل عما شاهدته في وادي الحوارث وأن هذا المصير ينتظر الشعب بأسره، وختمت بالقول إن الأمر يستدعي قيام جبهة وطنية تضم كل «الزعماء» شريطة أن يتخلوا عن مناصبهم الحكومية ويتفرغوا لقيادة الحركة الوطنية، ووجهت في النهاية دعوة صريحة إلى كل من الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبي بالاستقالة من منصبيهما والنزول إلى الميدان مع الشعب. . . وغدا جو المؤتمر مشحوناً بالتوتر، وتطلعت الأبصار إلى قادة المجلسيين والمعارضين، وغادرت المنصة إلى مقعدي وسط عاصفة لاهبة من الحماسة.

ووقف عاصم السعيد رئيس بلدية يافا، من قادة المعارضين، أعلن باسم راغب النشاشيبي رئيس بلدية القدس وسائر رؤساء البلديات أنهم مستعدون لتقديم استقالاتهم والأخذ بسياسة اللاتعاون. . .

واشرأبت الأعناق إلى الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وحسب الجمهور أنه سيعلن استقالته، فأخذ يخطب ويخطب عن أهمية المجلس الإسلامي والمحاكم الشرعية ودوائر الأوقاف والأيتام ثم راح يتساءل: من لهذه الدوائر إذا استقال؟ وما هو مصيرها؟ ومضى يقول إنه قبل مجيئه إلى يافا وصلته أنباء بأنهم «سيورطونه» في المؤتمر وسيطالبونه «بالاستقالة»، وأن هذا الأمر دسيسة استعمارية ومؤامرة صهيونية على المؤسسات الإسلامية، أنهى خطابه بأنه لن «يورط» وأنه باق في مناصبه رغم كيد الكائدين وحسد الحاسدين!!

وما إن عاد الحاج أمين إلى مكانه على المنصة الرئيسية حتى ساد المؤتمر جو من الهرج والمرج، بين مؤيد للاستقالة ومعارض لها، وكان الحاج أمين قد حشر لهذا الاجتماع حشداً من أنصاره، فشهروا عصيهم يلوحون بها، وهم يصيحون لا رئيس إلا الحاج أمين.

ولاحت بوادر الشر من جانب أعوان الحاج أمين، فأحاط بي عدد من شباب يافا، وكادت أن تقع المعركة داخل المؤتمر، بالأيدي والعصي والكراسي، ولكن سرعان ما أعلن انتهاء الاجتماع بعد أن تقرر مقاطعة اليهود والامتناع عن حضور الحفلات مع الإنكليز سراً أو علانية.

وخرج الناس وهم ساخرون بهذه الزعامة، يتندرون بما سمعوا، وتعاقبت أيام وأعوام وهم يتحدثون عن مؤتمر «التوريط» وعن الزعامة التي أبت «التوريط».

وكانت مأساة وطنية اكتوى الوطن بنارها، وكانت المأساة حقاً في زعامته التي اعتبرت مواجهة الاستعمار مكيدة استعمارية ومؤامرة صهيونية.

ولقد عاش جيلنا ليشهد النكبة في حياته، وليرى ضياع الوطن ومعه المجلس الإسلامي والمحاكم الشرعية ودوائر الأوقاف وبقيت ذكريات مؤتمر «التوريط»، والزعامة التي أبت «التوريط».

مرافعات ـ مظاهرات ـ أحزاب ـ صدقي باشا وبورقيبة

اقترب عام ١٩٣٣ من نهايته، واقترب معه انتهائي من الدراسة في معهد الحقوق، فقد اجتزت الامتحان وفرغت من مدة التمرين، وصنعت عند الخياط روب المحاماة، وعرّجت على المصور في باب الخليل ليلتقط لي صورة في ثوب المحاماة، فأجلسني وأوقفني، وشد رأسي على كتفي، وساعدي على جنبي، فجاءت صورة للمحامي لا تنقصها إلا النبرات والمرافعات.

وكان سروري عظيماً وأنا أشقّ طريقي إلى مباني «المسكوبية» أصعد السلالم قفزاً ووثباً حتى بلغت مكتب قاضي القضاة البريطاني، وفي مشهد مهيب وقفت أمامه أقسم اليمين للحفاظ على شرف المهنة والالتزام بواجباتها وتقاليدها.

وما هي إلا أيام قلائل حتى رأيت نفسي أحنث بالقسم. فلم أستطع أن ألتزم بشرف المهنة، وكانت أول قضية ترافعت فيها، قضية كاذبة كلها زور، أقدمت عليها راضياً مختاراً، مسروراً منشرحاً، وربحت القضية من غير عناء.

وتتلخص وقائع هذه القضية أن القانون لا يسمح للمحامي بممارسة المهنة إلا إذا كان قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وكانت سني دون ذلك، وأصبح لا بد لي أن أنتظر عاماً أو بعض عام من غير عمل حتى يحل الأجل . . . أو أن «أرفع» قضية أمام المحكمة أثبت فيها أنني تجاوزت السن المطلوبة.

وبعد التشاور مع «كبار» المحامين من زملائي اتفقت الكلمة على الخيار الثاني، التزوير، فرفعت قضية على النائب العام أمام المحكمة المركزية، ولعلها كانت القضية الوحيدة التي شهدتها محاكم فلسطين خلال العهد البريطاني كله.

وفي اليوم المحدد دخلت المحكمة «بالروب» لأترافع في قضيتي، وقدمت شهودي: مختار الحي، طبيب المدينة، وثلاثة من الجيران، وكلهم شهدوا «بالله العظيم» أنني تجاوزت الخامسة والعشرين، ولم يناقشهم النائب العام في شهادتهم ولم

تستوضحهم المحكمة شيئاً، ومال رئيس المحكمة البريطاني إلى عضو اليمين عزيز الداوودي وإلى عضو اليسار شفيق الدجاني، وتلا القرار بأنه ثبت بالأدلة المقدمة للمحكمة بأن المحامي السيد أحمد الشقيري قد تجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وأنه يستطيع أن يمارس مهنة المحاماة، ولقد نطق الرئيس البريطاني بالحكم جاداً كعادته، أمّا العضوان العربيان فلم يستطيعا الإمساك عن الابتسام، في سكينة وهدوء.

وخرجت من قاعة المحكمة منتصراً، وقد ربحت أول قضية زور أقدمت عليها، ولم أجرؤ على مثلها في عمر المحاماة كله . . . والحمد لله.

وما إن وصلت إلى مكتبي حتى توافد على الأصدقاء مهنئين فرحين، بهذا النجاح «العظيم» ومضيت في عملي، جاداً مثابراً، وبدأت أقاسي عناء التعامل مع المتقاضين، والشهود والقضاة، والزملاء. والمحاماة عالم بذاته حافل بالمكايدة والتجارب المريرة.

وشر ما في المحاماة، وهو جوهر شرفها إذا كان صاحبها ذا ضمير حي، أنها عناء وبلاء، فقد كنت أعيش «قضيتي» بكل جوارحي وعواطفي، خاصة إذا كانت قضية جنائية كبرى.

ففي مثل هذه القضايا التي يتعرض المتهم فيها للإعدام، كنت أعيش في جو من الهمّ والغمّ، أثناء نظر القضية، بل قبلها بأيام . . . فلا يهنأ لي طعام ولا يطيب لي منام . . . واجم أبداً وساهم دائماً، لا أكلم أحداً في البيت، وفؤادي في شغل شاغل مع المتهم في زنزانته.

وفي يوم المحاكمة أحاول أن أروّح عن نفسي بالرياضة، لأذهب إلى المحكمة مستريحاً بعض الشيء فلا أستطيع، وأحمل معي ملفاتي وكتبي بها لأزحزح «جبال الهملايا» عن أكتافي.

وحسبت أن هذا «الهم» سيمضي مع الزمن بالعادة أو الممارسة، ولكنه بقي معي على الدوام، وكان عليّ أن أبغض المهنة وألعن الساعة التي اخترتها، ولكني لم أفعل، فقد كنت أحب «مهنتي» حباً جماً، وزادني شقاؤها وعناؤها، حباً لها وكلفاً بها، وأدركت معها لوعات المحبين المدنفين.

ولم أكن «مكثاراً» في استلام القضايا، كما يفعل المحامون عادة، بل كنت أعمد إلى اختيار أجلّها وأدناها إلى النجاح، ولو بأجر غير كبير، وذلك أني كنت أحب القضية الصعبة المراس، وكان يلذّ لي فتح مغلقاتها وتحطيم صعوباتها، وكنت أزهد في القضايا الروتينية البسيطة حتى ولو كبر أجرها، وكان لي ولع بمناقشة «الشاهد» حتى

يخر صريعاً في حبائل كذبه، وقد أبدأ في مناقشته في الصباح وقد أعياه الكذب عند المساء، ولا أعف عنه حتى يعترف بزوره وبهتانه.

وأغرمت كذلك بقضايا الأراضي، إذ كانت المنازعات ناشبة بيننا وبين اليهود حول ملكية الأراضي، فقد كانت الشركات اليهودية بما لديها من ثراء ونفوذ لدى الدوائر الرسمية تعرف كيف «تصطاد» ملْكية اسمية للأراضي العربية، وكثيراً ما تطوعت للدفاع عن حقوق الفلاحين في عديد من القرى العربية، ولكم قضيت الليالي الطوال في سهر مع الفلاحين في قراهم النائية وأنا أبحث معهم في صبر وأناة مواقع القرية وسجلاتها وحدودها من أيام الدولة العثمانية إلى يومنا ذلك.

ولقد كنا «نقاتل» من أجل كل شبر من الأرض، ولقد ربحنا كثيراً من القضايا انتزعناها من أيدي الشركات الصهيونية وحققنا في هذا المجال انتصارات وإنجازات.

وأعود بذاكرتي الآن، ثلاثين عاماً إلى الوراء، إلى تلك القرى العزيزة وأهلها الأعزاء، أسائل نفسي ماذا جرى . . . أين ذهبت تلك الانتصارات القضائية؟ ولقد حلّت محلّها انتصارات عسكرية إسرائيلية، ذهب معها الوطن كله وذهبت جهود الأيام والليالي هدراً، ذلك أن الحق لا محالة ضائع إذا لم تكن وراءه قوة تصونه وتحميه.

ولم يكن عملي يخلو من طرائف المهنة، وإنّي لأذكر أن فلاحاً من إحدى قرى جنين قد جاءني إلى مكتبي في عكا يعرض عليّ أن أترافع عنه في قضية اصطدام مسلح جرى في قريته وأدى إلى قتل وجرح كثيرين، وكانت لديّ مشاغل كثيرة في ذلك الوقت فاعتذرت عن قبول القضية وأحلته على زميل في نابلس أقرب إلى المنطقة.

وأخذ الفلاح يتوسل إليّ بكل حرارة أن أقبل قضيته بأي أجر أطلبه، وعجبت لإلحاحه وسألته عن سبب ذلك فأخذ يقص عليّ حكاية طويلة انتهى منها إلى أنهم عائلة «مصرية» في قريتهم، وأن «الفلاحين» في القرية يكرهونهم، وأنه لا يثق بالمحامين في منطقتهم، وأنه لجأ إليّ لأني «مصري» الأصل مثله، وأنه لهذا السبب يستطيع أن يثق بي.

ولم يستطع أن يثير «عصبيتي الإقليمية» فهدّأت من روعه وأفهمته أن المحامين في منطقته مستقيمون وأمناء، وأنه لا فرق بين مصري وفلاح، وأن آخر فوج من المصريين في فلسطين منذ عهد إبراهيم باشا مضى عليهم ما يزيد على قرن من الزمان فلا داعي للقيل والقال، ثم لاطفته وجاملته وزوّدته بكتاب توصية إلى أحد زملائي وخرج من مكتبي راضياً مسروراً أو هكذا ظننت.

وفي تلك الفترة وصل إلى البلاد صدقي باشا رئيس الوزارة المصرية يومئذ، وحل ضيفاً على المندوب السامي، وكان في استقباله عدد من وجوه البلاد، خاصة

أصحاب السيارات وقد توسلوا إليه أن يأذن بدخول البرتقال الفلسطيني إلى أسواق مصر، فأجابهم بأنه سوف يصدر أمراً بذلك على أن يدخل برتقال فلسطين بعد أن يستهلك البرتقال المصري في الأسواق المحلية، وكان معنى ذلك المنع والحرمان، لأن برتقال فلسطين يكون عندئذ قد انتهى موسمه!!

وجاء صدقي باشا وبات ليلة في ضيافة رئيس البلدية في عكا وطلبتُ إلى الأهلين أن لا يستقبلوه، فقد كنا وفديين في مشاعرنا الوطنية، وكنا نأخذ عليه بطشه وتنكيله بالحركة الوطنية في مصر.

وعقد اجتماع وطني في ذلك المساء وأثنى الخطباء على الوفد ورئيسه مصطفى النحاس باشا وهتفوا بسقوط صدقي باشا.

وصحت في الجمع بأعلى صوتي: «لا تقولوا صدقي باشا، بل قولوا كذبي باشا»، وهتف الجمع لهذه الكلمة وأغنتني عن خطاب طويل. . .

وصادف كذلك أن جاء إلى عكا في ذلك الوقت الحبيب بورقيبة، فاستقبلته مع جمع من كرام الوطن، وأكرمنا وفادته بضعة أيام، وشرح لنا ظروف الكفاح التونسي، فتبرعت له مع عدد من الإخوان بمبلغ من المال يعينه في نضاله وأسفاره، وغادر عكا معززاً مكرماً وهو يدعو الله أن يقدّره على مكافأتنا في قضية فلسطين. . ولي مع بورقيبة ذكريات من باريس وتونس والقاهرة سيأتي تفصيلها في حينه.

وكانت الحركة الوطنية تقتحم عليّ مكتبي حيناً بعد حين، فقد كانت عندي هي القضية الكبرى الجديرة بالأولوية في جهدي ووقتي، إذ ما طعم الكسب والعمل والرزق إذا كان المرء مهدداً في وطنه، وفي بقائه في وطنه.

وكان أن تدفقت الهجرة اليهودية وتفاقم خطرها، فبعد أن كان المهاجرون اليهود في عام ١٩٣٢ عشرة آلاف، إذا بهم يتضاعفون ثلاث مرات في عام ١٩٣٣ فيصبحون ثلاثين ألفاً ومعهم ثلاثون ألفاً آخرون من الهجرة غير الشرعية، أو هكذا كانوا يسمونها، وهم الذين يدخلون البلاد خلسة.

وعمّ القلق في النفوس وازداد السخط الشعبي على القيادة الفلسطينية، فتوالت اجتماعات الشباب في كل مكان ورأت اللجنة التنفيذية العربية أن تخرج من عزلتها وفتورها فدعت إلى مظاهرة كبرى تقام في بيت المقدس

(١٣ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٣) وكأنما كانت الشرارة التي ألهبت المشاعر، فهبَّت الوفود من جميع أنحاء البلاد إلى بيت المقدس للاشتراك في المظاهرة، وقدمت وفود من الأردن وسوريا للإعراب عن تأييدها.

وغادرت مكتبي، والموكلين والقضايا من غير سابق إنذار، إلى بيت المقدس مع وفود الشمال لنشترك في المظاهرة الوطنية، وكان لقاؤنا في ساحات الحرم الرحبة حيث تجمعت الوفود من كل أنحاء البلاد ومن كل أحزابها وفئاتها، وكان يوماً جليلاً تجسدت فيه الوحدة الوطنية فجمعت بين رجال الحزب العربي، وحزب الاستقلال والمعارضين، والمستقلين . . .

وبعد أن صلينا الجمعة، خرجت الجماهير متدفقة كالسيل العرم، يرأسها الشيخ الجليل موسى كاظم باشا الحسيني، تنساب إلى شوارع المدينة القديمة، ولم يشترك الحاج أمين الحسيني في المظاهرة وكان يطل عليها من شرفة مكتبه في دار المجلس الإسلامي الأعلى، وأحسب أن الحاج أمين كان إلى ذلك الوقت يمسك العصا من وسطها، يد مع الحكومة البريطانية ويد مع الشعب.

وسارت المظاهرة في طريقها حتى بلغت الباب الجديد عند أطراف السور، فتصدى لنا رجال الشرطة بهراواتهم وانهالوا على الشعب يريدون تفريق المظاهرة فسقط عدد من الجرحى، وأصيب بعض أعضاء اللجنة إصابات بالغة، وكان يوماً وطنياً مشهوداً تجلى فيه إيمان الشعب بقضيته.

وعدت إلى بلدي ومكتبي، أتثاقل في مشيتي في طريقي إلى المحكمة، لما أصابني من رضوض، وصيحات المتظاهرين لا تزال ترن في أذني.

ثم أعلنت اللجنة التنفيذية أنها قررت المظاهرة الثانية في يافا، في ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٣٣ فغادرت مكتبي مرة ثانية مع الوفود، وبلغنا يافا فإذا قد أصبحت وكأنها فلسطين الصغيرة، تجمع الناس فيها من كل أنحاء البلاد، وكانت جماهير الفلاحين بأثوابهم الفضفاضة تملأ الساحات والميادين، والحناجر تتشقق بالهتاف والنشيد.

وخرجنا من صلاة الجمعة، سيلاً متدفقاً، والشيخ الجليل موسى كاظم باشا الحسيني يتقدم الصفوف، فكان مشهداً جليلاً اكتملت فيه الوحدة الوطنية، وانصهرت فيه الخلافات الحزبية، حتى إذا بلغنا ساحة السراي انقض الخيّالة على الشعب بهراواتهم وبنادقهم وأصيب الكثير من المتظاهرين وفيهم موسى كاظم باشا، وقد تهاوت شيخوخته على الأرض تحت العصي والهراوات، وحوله ثلاثون بين قتيل وجريح.

وعادت الوفود إلى بلادها، وكأنما مسّ الشعب كله تيار كهربائي، فجّر كبرياءه وإباءه، فعمت المظاهرات أنحاء الوطن واشتد ساعد الحركة الوطنية، فأخذت السلطة البريطانية تشدّد إجراءاتها التعسفية فتفرض الغرامات على المدن والقرى، وتزجّ الشباب في المعتقلات والسجون.

وجاء دوري مع المحامين في الدفاع عن المعتقلين، وقضيناها أسابيع متعددة في دور المحاكم أمام القضاة البريطانيين نترافع في ظل قوانين الطوارئ، ليس فيها مكان للعدل والإنصاف.

وفي واحدة من هذه القضايا «حشر» النائب العام عدداً من الزعماء بتهمة القيام بنشاط غير مشروع بسبب مظاهرتي القدس ويافا، فحكم القاضي البريطاني على المتهمين بأن يقدموا كفالة لحسن السلوك، فقدموها جميعاً إلا الشيخ عبد القادر المظفر فقد رفض بكل إباء وقضى في السجن ستة أشهر، وكانت نكسة وطنية جاءت دليلاً جديداً أن نكبة شعبنا كانت في الانتداب ووعد بلفور، ثم في قيادته الوطنية.

وترددت الحركة الوطنية حيناً من الزمان وانهارت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الوطني السابع، فقامت الأحزاب: الحزب العربي ويرأسه جمال الحسيني، وحزب الاستقلال وعميده عوني عبد الهادي، وحزب الدفاع ويرأسه راغب النشاشيبي، وحزب الشباب ويرأسه يعقوب الغصين وحزب الإصلاح ويرأسه الدكتور حسين فخري الخالدي وحزب الكتلة الوطنية ويرأسه عبد اللطيف صلاح.

ولم يكن بين هذه الأحزاب خلاف على المبادئ الوطنية، فقد كان ميثاق كل حزب هو ميثاق الحزب الآخر، وإنما هي «الشهوة» في الزعامة والقيادة، ولم تكن لهذه الأحزاب قواعد شعبية عريضة، يقابل ذلك كله في الطرف الآخر، لدى اليهود، أحزاب ذات مبادئ وعقائد، ولها أنصار منظمون في طول البلاد وعرضها.

وقد عرض رؤساء هذه الأحزاب عليّ وعلى غيري الانضمام إليها، فاعتذرت وشكرت لأني كنت أرى أن عهد الاستعمار والاحتلال لا تصلح له إلا الجبهة الوطنية الواحدة، ومضيت أسند كل فكرة وطنية من أي حزب جاءت، وإن كان نشاطي بصورة عامة كان إلى جانب الحزب العربي وحزب الاستقلال وحزب الشباب، فقد كانت هذه المجموعات أُقرب إلى النشاط الوطني، ولم أكن أفهم للأحزاب سبباً قومياً يبرر وجودها.

وقد مضت بضعة شهور والبلاد تترنح بين دعوات الأحزاب ومهاتراتها حتى أقبل عام ١٩٣٥ وانطلقت دعوة الثورة والجهاد، على يد عالم جليل ومجاهد كبير خط بدمه الزكي صفحة جديدة في تاريخ الكفاح، وذلك ما تزدان به مذكراتي في صفحاتها المقبلة.

ذلكم هو الشهيد البطل الشيخ عز الدين القسام، برّد الله مرقده ونوّر ضريحه.

يـوم مـع القسـام

في اليوم الحادي والثلاثين من شهر آذار/ مارس عام ١٩٣٣ كسرت التقاليد العتيقة في المدينة العريقة. . في عصر ذلك اليوم وقفت عند المدخل الرئيسي في بيت آل السعدي في عكا، أستقبل المدعوين من أنحاء البلاد كافة، أصافحهم وأحييهم، فيهنئونني ويتمنون لي السعادة والسرور، وكان ذلك اليوم عقد قراني على الآنسة نسيبة كريمة عبد الفتاح السعدي، رئيس بلدية عكا.

وكان هذا المشهد مغايراً للتقاليد، فقد جرت العادة أن لا يكون «الشاب» حاضراً حفلة «العقد»، ولا بد أن ينوب عنه والده أو أحد كبار العائلة، وكان حضوري ثورة على هذا التقليد القديم الذي تواضع عليه المجتمع العربي الإسلامي بعد عهود التخلف والانحلال.

ثم جاء وقت «العقد» بكل مقدماته، فجلست وسط الجمع على كرسي يقابلني خال «الفتاة» بصفته وكيلاً عنها، وجلس الشيخ عبد الله الجزار كبير علماء المدينة، يتلو الصيغة الشرعية في الإيجاب والقبول لعقد النكاح، وأنا أردّد وراءه عباراته مقطعاً مقطعاً. . وكان ذلك ثورة «وقحة» على التقاليد، فإن «الشاب» لا يعقد النكاح لنفسه وإنما يعقده وليه أو وكيله، وانصرف الجمع وفيهم الأعيان والمحامون والأطباء والتجار وعامة الناس، والكل مستهجن ومستغرب. . . ولكنها مرت وعبرت وأصبحت تقليداً حميداً يطغى على التقاليد البالية.

وكنت قد عانيت لمناسبة خطوبتي شيئاً غير قليل من العناء. فقد كانت «الفتاة» نسيبة السعدي محجبة، ولم يكن من سبيل إلى رؤيتها، وعبثاً حاولت أن أقنع أهلها بأن الشرع يبيح للخاطب أن يرى مخطوبته، فقد كانت التقاليد فوق أحكام الدين الحنيف.

وكان والدها، ولم يكن على قيد الحياة إذ ذاك، محافظاً شديد المحافظة، وكان خصماً لدوداً لوالدي أثناء العهد العثماني، تعاقبا على عضوية مجلس المبعوثان

«البرلمان» وكان من حزب الائتلاف العثماني على حين كان والدي من حزب «الاتحاد والترقي»، وشاءت الأقدار أن تنقلب الخصومة إلى مصاهرة. . . ومع الزمان تزول العداوات وتلتئم الجراحات.

وأستعنت بشقيقاتي لأرى «آنستي» ورحنا نقلب الأمور ونتحين الفرص، إلى أن جاء يوم وجاءت معه سيدات آل السعدي في زيارة لبيتنا وكانت «الآنسة» معهن، فوجدت ضالتي، فوقفت وراء باب الصالة ورحت أنظر من فرجته، أتفرّس في خطيبتي وأتبين ملامحها، ثم خرجت «الصبايا» إلى حديقة البيت يمشين بين الزهور والأشجار، فكانت فرصتي الثانية لأرى خطيبتي وهي تمشي وتتكلم وتتضاحك مع صديقاتها. ولكني لم أكتف بذلك كله فقد كانت النظرات مختلسة. وكنت أخشى أن يكتشفني أحد وأنا أقوم بهذه المغامرة الجريئة. فطلبت إلى شقيقاتي أن يسعين في تدبير آخر، وليكن في دار السينما مثلاً. . حيث أستطيع أن ألقي النظرة الهادئة المليئة.

وتمت الخطة محكمة في ترتيب دقيق، فقد ذهبت شقيقاتي مع «آنستي» إلى دار السينما في حيفا في سيارة خاصة. وذهبت في سيارة أخرى، وجلست في القاعة على مقربة قريبة من جلوس شقيقاتي، هن في شرفة وأنا في الشرفة المجاورة.

وحينما أُطفئت الأنوار كشفت السيدات والأوانس عن وجوههن وأخذن يتفرجن على مشاهد الفيلم، وأخذت بدوري أتفرج على «آنستي» لا أرفع عنها بصري إلا حين ينتهي الفصل الأول من الفيلم، ثم أضيئت الأنوار وعادت السيدات والأوانس إلى الحجاب، وحولت بصري، وعدت أتفرّس وجهها إياه بكل روية وأناة.

ثم أكملت «المغامرة» في الفصل الثاني والثالث. وعدنا إلى البيت، وقد امتلأت نفسي رضاء عن الآنسة وقلت لشقيقاتي «على بركة الله» فلتكن الخطوبة.

وما إن تمت الخطوبة حتى أصبحت أتردد على بيت آل السعدي، فألتقي بخطيبتي، بحضور والدتها وباقي أفراد الأسرة، وإذا بالمدينة تضج بالقيل والقال، وتجأر بالاحتجاج والاستنكار، والكل يتساءل كيف يجوز لي أن التقي «بخطيبتي» قبل «العقد» حتى ولو على مشهد من أهلها. . . اللهم إن هذه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ولكن هذه البدعة مرت وعبرت، وأصبحت مع الأيام بدعة حميدة لا ضلالة في النار. . . وجاء يوم الزواج فكان ثورة أخرى على التقاليد البالية، فقد رفضت كل تقاليد «العرس» من «الزفة» إلى الأناشيد إلى المغنين والمغنيات، وجعلت

الأمر في غاية البساطة، بلا وليمة ولا صخب ولا ضجيج، ولا زغاريد، ولا طبل ولا زمر.

وفي مطلع نيسان/ أبريل من عام ١٩٣٣ انطلقت سيارة صغيرة من عكا إلى حيث نقضي شهر العسل، وكانت زوجتي إلى جانبي من غير حجاب، وقد رضيت ذلك شريطة أن تعود إلى الحجاب حين نعود إلى عكا وكان لها ما أرادت. ولازمها حجابها إلى أن وقعت النكبة في عام ١٩٤٨ وسقطت فلسطين وسقط الحجاب.

ومضت بنا السيارة إلى منطقة طبريا وكان ذلك أول سفري في تلك الناحية، فعبرنا قرانا الجميلة في شرق عكا بين المروج، والسنابل لا تزال خضراء، ثم أخذت السيارة تصعد بنا في جبال صفد وهي تبعث نسماتها العطرة من خلال أشجارها وأزاهيرها البرية، وما إن أشرفنا على المدينة حتى راحت السيارة تهبط بنا بين التعرجات والوديان إلى روابي طبريا، إلى ما تحت سطح البحر، حتى بلغنا الفندق الألماني على شاطئ البحيرة، بعيداً عن المدينة سبعة كيلو مترات أو يزيد.

وكنت خلال هاتين الساعتين مبهوتاً أمام هذا الجمال الرائع الذي خلقه الله على هذه البقعة الفاتنة من وطننا الفاتن، وأحسب أن زوجتي قد ضجرت في ذلك اليوم وأنا أقول لها من حين إلى حين: «أنظري إلى هذه الرابية الجميلة، انظري إلى هذا الوادي الرائع، وهذه الأشجار البرية ما أروعها، وهذه الأزهار ما أحلى شذاها».

وفي الفندق الألماني الذي قضينا فيه أيامنا، كانت البحيرة حديثنا ونجوانا، في سكونها وسحرها، ومن حولنا الروابي الخضراء، والصفراء، والسمراء، والسماء من فوقها بزرقتها الصافية ترسل إلينا شعاعاً من الدفء، وإلى الأرض فيضاً من الخير والسخاء.

وقضيت أياماً حلوة في تلك البقاع الأخاذة، نسير على روابيها وقد جثمت فوق السهول الخضراء، وبين غدرانها الوادعة تصب في البحيرة الآمنة المطمئنة، والرهبان منتشرون في كل مكان يقرأون الإنجيل هنا وهناك. . . حيث عاش السيد المسيح وتلاميذه. . . والفلاحون يفلحون ويزرعون ويحصدون في الوهاد نفسها، والأنجاد ذاتها التي حصد فيها صلاح الدين جحافل الصليبيين في معركة حطين. .

وعدنا إلى مدينتنا عكا، والغبطة تملأ قلوبنا، ويتساءل الناس لَمَ لَمْ نقضِ شهر العسل في أوروبا حيث يذهب أبناء «الذوات» ولم أستطع أن أقدم جواباً يرضي فضول الناس.

ولقد أتاحت لي أسفاري الكثيرة، أن أرى أجمل ما في هذه الدنيا من مشاهد رائعة، في سويسرا بجمالها، وفي فرنسا بمفاتنها، وفي إيطاليا بمغانيها وفي ألمانيا بغاباتها، وفي أمريكا بعظمتها وفخامتها، وفي اليابان والهند والباكستان بكل بدائعها، وفي أمريكا اللاتينية بجزائرها الخلابة، ولكني . . .

ولكنني كنت دائماً أقيس وأفاضل وأشبّه، فأرى أن بقاع «الجليل» من شواطئ عكا إلى جبال صفد إلى وهاد طبريا إلى روابي الناصرة، أجمل ما في الوجود، وأبدع ما في هذا الوجود، ومن هنا صنع السيد المسيح أعجز معجزاته، وأرفع عظاته.

أقول هذا لا لأنها وطني، وموطن شبابي وذكرياتي وأحلامي، بل لأنها حقاً وطن الجمال، ولأنها حقاً موطن الجلال، ويا ضيعة الجمال والجلال وقد أضحى هذا الوطن تحت الاحتلال.

وقضيت العام (١٩٣٤) في عمل متواصل، أربط الليل بالنهار، سعياً وراء الكسب والرزق، فقد أصبحت زوجاً أترقب البنين، وابتعدت عن النشاط الوطني العام، وأنا أجد «الفتوى» في ذلك، أن الوطن في حاجة إلى المواطن القادر الصالح.

وفي الأيام الأخيرة من شهر آذار/ مارس، وكنت غارقاً في مكتبي إلى الأذنين، إذا بجرس التلفون وكأنه في رنين حزين . . . فقد نعى الناعي وفاة رئيس اللجنة التنفيذية، موسى كاظم باشا الحسيني.

فسارعت صبيحة اليوم التالي إلى بيت المقدس، حيث الحشود والوفود تجمعت في ساحة الحرم الشريف، وكان يوماً مشهوداً في تاريخ فلسطين، فصلينا على الفقيد، وحمل الشباب نعشه عالياً على الأكف وانطوت الصفحة الأخيرة في حياة زعيم البلاد، وقد وهب وطنه كل قدراته في إخلاص وتجرد وتقوى.

لقد قاد موسى كاظم الحسيني الحركة الوطنية بضعة عشر عاماً بفكره المحدود وثقافته الضيقة، ولكن ما حيلته فقد كان هكذا. . . ولا يستطيع أن يكون غير ما كان. . . واستلم الحاج أمين قيادة الحركة الوطنية بضعة عشر عاماً أخرى وقعت خلالها النكبة الكبرى، وبين الرجلين فروق كثيرة سيرد ذكرها، ومنها أن موسى كاظم بكاه الناس كثيراً، والحاج أمين أبكى كثيراً من الناس. . . وسيرد ذكر ذلك في ما بعد.

وأودعنا الفقيد مرقده الأخير، وعدت إلى عكا في اليوم ذاته لاستقبل مولوداً، وتلك سنّة الحياة، وداع ولقاء.

ودخلت المنزل وصعدت السلالم درجتين درجتين، فقد كانت معالم البيت ومظاهره تنبئ أن الله قد رزقني أولى أولادي، ولم أكن في حاجة أن أسأل أحداً عن المولود، ذكراً كان أم أنثى، فقد كانت حماتي، وهي تركية الاصل، مطرقة على كرسيها وخدها على يدها، فأدركت أنها أنثى، فأقبلت على زوجتي أهنئها بالسلامة وعلى ابنتي أضمها ملء حبي وحناني، وظلت حماتي أياماً ساهمة واجمة، وأنا أواسيها وأسرِّي عنها. . . حتى رضيت بقضاء الله وقدره

واستشعرت منذ ذلك اليوم أنني أصبحت رب أسرة، تطالبني مسؤولياتي أن أعطي مزيداً من وقتي لعملي ومكتبي، وقضيت بضعة شهور غارقاً بين المراجع القانونية وملفات القضايا ومناقشة الشهود ومحاورة أرباب القضايا في الأجور، ما تقدم منها وما تأخر، وكان لي من ذلك مورد كبير. . . وحسبت أن الحياة ستجري على هذه الوتيرة، حياة عائلية ناعمة، ومهنة ظريفة تدرّ خيراً كثيراً، وإذا بالأحداث العامة تخرجني من دنياي الصغيرة بين بيتي ومكتبي، إلى دنيا الوطن بكل حوافزه المثيرة المريرة.

لقد جاء يوم ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٣٥ يحمل إلينا نبأً خطيراً اهتزت له البلاد من أقصاها إلى اقصاها: لقد استشهد الشيخ عز الدين القسام.

وكان النبأ مفاجأة لكثيرين من الناس، حتى لقادة الحركة الوطنية في القمة، وكل ما عرف في ذلك اليوم أن الشيخ القسام سقط شهيداً مع بعض رفاقه في أحراش يعبد من قضاء جنين في اصطدام مسلح مع القوات البريطانية، فقتل من قتل، وجرح من جرح. .

وفي بضع ساعات انتشر الخبر في مثل وميض البرق في جميع المدن والقرى، وتقاطرت الوفود إلى حيفا حيث شيعت جنازته في احتفال مهيب بلغت فيه المشاعر الوطنية ذروتها، وكنا غداة خروجنا من جامع الاستقلال يسأل بعضنا بعضاً عما يعلم، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وارينا جثمانه الطاهر في تراب الوطن الطاهر في مقبرة حيفا، مضى قرير العين تملأ وجهه بسمات الشهادة، وأحسب أنه عبس يوم سقوط حيفا عام ١٩٤٨ ولا يزال عابساً إلى يومنا هذا.

لقد كان هذا الحدث الخطير، غريباً على كثير من الناس، غير مألوف في مسيرة الحركة الوطنية إلى ذلك الوقت. فقد كان النضال القومي إضرابات ومظاهرات تقع خلالها مصادمات يذهب ضحيتها كثير من القتلى والجرحى، ولكن. .

ولكن أن يخرج نفر من المواطنين بالسلاح ليصطدموا بالقوات البريطانية على غير

تكافؤ ولا استعداد كبير، فذلك ما لم يكن قد بلغه الكفاح الوطني، إلى ذلك اليوم، ولم يخطر على بال.

وقد كنت على معرفة وطيدة بالشيخ عز الدين القسام، عرفته تقياً ورعاً، خطيباً دينياً صالحاً، واجتمعت به كثيراً في مؤتمرات جمعيات الشبان المسلمين في حيفا وغيرها، ولم يكن يدور في خلدي أو في خلد غيري حتى من أصدقائه المقربين، أن هذا الشيخ المعمم، إمام الجامع، كان يهيئ نفسه لقيادة ثورة مسلّحة ضد السلطات البريطانية مباشرة. . وبات الأمر محفوفاً بالأسرار، لها ما قبلها وما بعدها. .

وتكشفت الحقائق في ما بعد، وتكشفت لي أكثر من غيري، فقد تطوّعت للدفاع عن بقية أفراد هذه العصبة المؤمنة الباسلة، طليعة الجهاد المقدس في سبيل الله والوطن.

وراحت «مذكراتي» تروي للأجيال العربية، وللتاريخ العربي، صفحة من أروع صفحات الجهاد وآية من أجلّ آيات الاستشهاد.

وسأدع المجاهدين الجرحى يتحدثون عن المجاهد الشهيد. . والوطن الشهيد.

المجاهدون الجرحى يتحدثون عن المجاهد الشهيد

كنت أقود سيارتي وسط السهول المترامية الاطراف في مرج ابن عامر . . وأنا مشدوه مذهول، أحرِّك مقود السيارة بين يدي في طريقي إلى جنين.

كان ذلك في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٣٥، وكان إلى جانبي معين الماضي أحد المحامين الوطنيين المعروفين في حيفا.

لقد تطوعنا للدفاع عن «الشهداء» الأحياء من رفاق الشيخ عز الدين القسام، وكنا في حيرة من أمرنا ماذا عسى أن نقول من ناحية «قانونية» في هؤلاء الذين قبض عليهم متلبسين «بالجريمة» في وسط المعركة، وهم بكامل أسلحتهم وعتادهم، من كان منهم جريحاً ومن كان سليماً.

ووسط هذا الطريق الطويل الرتيب كسر صاحبي معين الماضي مسيرة الصمت وقال: «مالي أراك صامتا؟»

قلت: «ومالي أراك صامتا كذلك؟»

قال: «أفكر في أمر هؤلاء الموكلين وما عسى أن نقول في شأنهم».

قلت: «ذلك ما أفكر فيه منذ أن تطوعت في هذه القضية».

تبادلنا هذه الاسئلة ولم نتبادل عنها جواباً، وزاد من حزننا أن هذه القضية الوطنية الكبرى قد لقيت من الشعب كل مظاهر الاهتمام، على حين كان حظها من «القيادة» الوطنية الحذر والصمت، فلقد كانت «حركة» القسام أول مواجهة مسلحة جريئة لسلطة الانتداب البريطاني، و«القيادة» الوطنية لم تكن لتخلو من الروابط والصلات والمصالح بالسلطة البريطانية، فكيف تكون مجاهرتها بالعداء والسلاح؟

والشعب. . . الشعب كان مع حركة القسام ويود لو كان يستطيع أن يفتديه بروحه، فهذه الثورة تعبر عن مشاعره الوطنية، في الصميم، ولكن الشعب، من غير

قيادة ثائرة مثيرة، شأن كل شعب، سرعان ما تهدأ عاطفته مهما تكن جارفة، وسرعان ما يعود إلى حياته اليومية.

وكان ذلك ما رأيته، فقد دخلنا جنين، فرأينا البلدة هادئة ساكنة، الناس يبيعون ويشترون، ويروحون ويجيئون، كأنما ذلك اليوم لا تجري فيه محاكمة الأبطال الذين افتتحوا مرحلة الكفاح المسلح، «وقصّوا» الشريط الأحمر بدمائهم الزكية.

ودخلنا السراي وتهيأت لنا فرصة طويلة خلونا خلالها إلى المتهمين. . وكان اللقاء العظيم. . مع: معروف الحاج جابر من يعبد، ونمر السعدي من غابة شفا عمرو، وأسعد المفلح من أم الفحم، وحسن الباير من برقين، وأحمد عبد الرحمن جابر من عنبتا، وعربي البدوي من قبلان، ومحمد يوسف من سبسطية، وهذه بعض قرى فلسطين.

وبدأنا الحوار معهم، معين الماضي وأنا، لنحدد معالم خطة الدفاع، وإذا بنا نرى العجب العجاب. كان «المتهمون» في حالة نفسية هادئة، لا يشوبهم القلق والجزع، وكانت سكينة الإيمان والتقوى ترتسم على وجوههم وتتحكم في سلوكهم، ولم يكن فيهم ما ينبئ أنهم خرجوا من المعركة بالأمس، ولا حرج عليهم أن يعودوا إليها غداً.

لقد كانوا أشخاصاً عاديين، من الكادحين، من عامة الشعب، ليست لهم ثقافة عامة، لا محدودة ولا غير محدودة، إلا ما تفقهوه من الدين على يد الشيخ عز الدين القسام. كانوا جميعاً مقيمين في حيفا، وكانت حيفا المدينة التجاريةالأولى ومرفأ فلسطين الكبير، وفيها يتجمع الكادحون والعمال من كل أرجاء البلاد، وكان هؤلاء «المجاهدون الأبطال» من الكادحين الفقراء «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم»، أحدهم حمال، والثاني بقال متجول، والثالث صاحب دكان أو بعض دكان، والرابع عامل يومي، وهكذا دواليك. . .

ولم تكن بنا حاجة لأن نستدرجهم إلى الكلام، فقد تحدثوا بطلاقة وسهولة، كما يتحدث الفلاح في المضافة، والعامل مع رفاقه، والحجّار مع البنائين.

لم تجر على ألسنتهم تعابير «الكفاح المسلح» «والحركة الوطنية» و«الاستعمار والصهيونية»، فقد كانت تعابيرهم على بساطتها تنبع من ينبوع أروع. . . وأرفع الإيمان، والجهاد في سبيل الله.

لقد كانوا قوماً مؤمنين، صنعهم الإيمان، فصفت نفوسهم وتألقت إرادتهم، وتعاظمت عزائمهم، وأحسوا أن حبلهم مع الله قد أصبح موصولاً، وأن الباب بينهم وبينه قد بات مفتوحاً.

وفي بساطة وإيجاز روى لنا المتهمون أنهم كانوا يصلّون الفجر مع الشيخ عز

الدين القسام، ثم يجلسون حوله في حلقة صغيرة، ويتحدث الشيخ عن فضائل الجهاد في الإسلام وثواب الاستشهاد في الآخرة.

ثم يروون كيف توثقت عرى المحبة بينهم، المحبة في الله، وكيف توطدت بينهم معاني الأخوة، أُخوُة بالله . . . والجهاد في سبيل الله.

ومضت الأيام والليالي، في ما روى لنا هؤلاء المؤمنون، والشيخ عز الدين القسام يصطفى إخوانه، ويلتقي بهم في بيته بعد صلاة العشاء أو في الجامع بعد صلاة العصر، ولا يدري أحد ما تصنع هذه العصبة المؤمنة، وكل الذي يعرفه الناس من حولهم أن الشيخ القسام إمام الجامع، يصلي بالمسلمين ويجتمع إليهم ويجتمعون إليه.

وراح الشيخ في اجتماعاته وحلقاته يشرح لأتباعه ومريديه الخطر الذي يهدد وطن الإسلام، حيث أولى القبلتين وثالث الحرمين وموطن الإسراء والمعراج ويبين كيد الإنكليز . . . أعداء الإسلام. وأن هذا الخطر قد استفحل ولم يعد يدفع إلا بالجهاد، وأن الجهاد فريضة الله على عباده.

ولم يكن الجهاد عند الشيخ دعوة فكرية حماسية، بل كان السلاح والمعركة، وكان هو قد حمل السلاح وخاض المعركة ضد الإفرنسيين في شمال سوريا ونزح بعدها لاجئاً إلى فلسطين، ينتظر الدور في تحرير فلسطين.

وبلغ أتباع الشيخ خمسين رجلاً كلهم من عامة الناس، آنس فيهم الإيمان والعزيمة، وقام بتدريبهم على حمل السلاح، وجمع لهم بعض المال باسم الإحسان والخير . . . كل ذلك في كتمان كامل، حتى عن «الزعماء» الكبار والصغار . . . وكان عددهم في البلاد كبيراً.

وتواعدوا وتعاهدوا على الخروج في سبيل الله، وكان لقاؤهم في أحراش يعبد، والشيخ على رأسهم مدجج بسلاحه، يتصل بالقرويين يحثهم على الجهاد.

وكان أن وصل خبرهم إلى السلطة البريطانية فجندت قوة عسكرية ضخمة أخذت تجوس خلال الأحراش وتتنسم أخبار هذه العصبة المؤمنة لتقضي عليها قبل أن يستفحل أمرها وخطرها.

وفي صبيحة يوم الأربعاء طوّقت القوات البريطانية الشيخ عز الدين القسام ورفاقه، ونشبت المعركة شديدة وقاسية، قبل أوانها ومن غير تكافؤ، فسقط الشيخ عز الدين شهيداً وسقط معه رفيقاه يوسف الزيباوي من قرية الزيب وحنيفة المصري من غابة شفا عمرو، وقبض على الباقين بين جريح وأسير.

ولقد استمعنا إلى هذه القصة البطولية، يرويها لنا «المتهمون» وهم في سجن

جنين، ونحن على وشك الدخول إلى المحكمة للشروع في التحقيق القضائي. .

وقلت «للمتهمين»: «وماذا كانت إفاداتكم في تحقيقات البوليس؟»

قالوا: «بعد أن قبض علينا الإنكليز سلمونا للبوليس، فحكينا لهم الحكاية». .

قلت: رما هي الحكاية؟ هل حكيتم كل الحكاية؟»

قالوا: «نعم حكينا كل الحكاية، أخذوا إفاداتنا ووقعنا علينا ببصماتنا».

قلت: «هل اعترفتم أنكم حملتم السلاح واشتبكتم مع الإنكليز. . . وبالسلاح».

قالوا: «نعم. . حكينا كل ما جرى من الألف إلى الياء».

قلت: «وبماذا سندافع عنكم في المحكمة، هل ضربكم البوليس. . . هل قام بتعذيبكم، هل أخذ إفاداتكم بالوعد والوعيد؟»

قالوا: «أبداً. لم يفعل بنا البوليس شيئاً ونحن أعطينا إفادتنا برضائنا». .

قلت: «وماذا سنفعل في المحكمة، ماذا تريدوننا أن نقول؟»

قالوا: «نحن سنحكي للمحكمة ما جرى معنا ونحن مجاهدون في سبيل الله» و﴿**لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾[1].

وسكتّ أنا وزميلي معين الماضي وأنا أقول «صدق الله العظيم».

ودخلنا قاعة المحكمة، وجيء بالمتهمين إلى قفص الاتهام، ودخل القاضي البريطاني الأصلع «هبرد» بكل وقار واتزان، وجلس على الطرف الآخر من المنصة منير أبو فاضل ممثلاً للنائب العام. وملت إلى منير أبو فاضل (النائب في البرلمان اللبناني حالياً) وطلبت إليه أن يطلعنا على ملف التحقيق، فقال: «لا تتعب نفسك في ملف التحقيق، لقد اعترف المتهمون بكل شيء».

وشرع القاضي البريطاني في التحقيق، فتعاقب الشهود واحداً بعد واحد يصفون تفاصيل المعركة من أولها لآخرها، ثم تعاقب الضباط المحققون «وأبرزوا» إفادات المتهمين واحداً واحداً، دونوها بلغتهم الفلاحية الركيكة، وفيها اعترافات كاملة شاملة، لا تدع حاجة للنيابة أن تترافع، ولا للدفاع أن يدافع.

وكان القاضي «هبرد» يتولى التحقيق في القضية، وهو يتفرس بإعجاب وتقدير في وجوه هؤلاء الأبطال من عامة شعبنا البطل، وأحال القضية إلى محكمة الجنايات الكبرى. . . وفي قراره، في السطور وبين السطور لمحات من التكريم والإكبار. . .

(١) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ٥١.

وكان ممثل النائب العام منير أبو فاضل، أميناً مستقيماً ووطنياً، في عرضه للقضية وتقديم البيانات.

أما نحن، محامي الدفاع، معين الماضي وأنا، فقد كفانا الموكلون الأبطال مؤونة الدفاع، فليس بعد الإقرار الصريح والاعتراف الكامل مجال. . أي مجال.

وانعقدت محكمة الجنايات الكبرى في ما بعد، وانضمّ إلينا عدد من المحامين المتطوعين، وكانت وقائع القضية تبرر الحكم بالإعدام من ناحية قانونية، ولكن الأحكام صدرت لتتراوح بين خمسة عشر وسبعة أعوام بالأشغال الشاقة، ولم يكن الفضل في هذه الأحكام «الخفيفة» لمرافعاتنا بقدر ما كان لرغبة السلطات البريطانية في أن تتجنب مزيداً من الإثارة في تلك الأيام الثائرة.

ولقد وقفت طويلاً بعض الشيء عند قضية الشيخ عز الدين القسام وصحابته الماجدة، لأبرز للأجيال الحاضرة والمقبلة، المعاني الرفيعة التي تجسدت فيها، وكان في طليعتها:

أولاً: أن الإسلام دين جهاد، يستهين معه المؤمن بحياته في سبيل الله والوطن، وهؤلاء عصبة القسام لا أمل لهم في جاه، ولا مطمع في منصب، بذلوا حياتهم في معركة الجهاد تاركين نساءهم وما عندهن إلا قوت يومهم.

ثانياً: أن الإيمان المطلق بأن المؤمن لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأن الحياة أجل لا يتقدم ولا يتأخر، كل ذلك قد جعل من هؤلاء البسطاء أبطالاً ميامين نزل ذكرهم في التاريخ.

ثالثاً: أن مصير الإسلام والعروبة واحد، مترابط متشابك، وهذا الشيخ القسام استشهد على أرض فلسطين ومن أجل فلسطين بعد أن فاته القدر في سوريا ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[٢].

رابعاً: أن الجهاد في سبيل الله والوطن هو أعلى مراتب الحياة، وهذا القسام، الإمام العالم، لم يقتصر على الخطابة والتدريس تحت قبة المسجد ولكنه حمل السلاح على كتفيه، وحزام الذخيرة بين جنبيه، تماماً كما فعل العلماء والزهاد في ضاحية دمشق يوم قاتلوا الصليبيين ثم التتار. .

من أجل ذلك كان شاعر العربية، الشيخ فؤاد الخطيب على حق كل الحق حين رثاه بقصيدته الرائعة:

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة لقمان،» الآية ٣٤.

أولت عمامتك العمائم كلها		شرفاً تقصر عنده التيجان
إن الزعامة والطريق مخوفة		غير الزعامة والطريق أمان
يا رهط عز الدين حسبك نعمة		في الخلد لا عنت ولا أحزان
شهداء بدر والبقيع تهللت		فرحاً وهشّ مرحباً رضوان

وما إن انتهت قضية القسام وعصابته الباسلة حتى بدأ الحوار بين «المفكرين» وأهل «الكلام» . . ماذا فعل القسام؟ وماذا أفاد الوطن؟ ألم يذهب ضحية رخيصة رحمه الله؟ ألم يغرر بأولئك البسطاء السذج من غير خطة مدروسة ليتحدّوا السلطة البريطانية في معركة غير متكافئة؟

ولم يكن الشعب، سواد الشعب، يخوض مع الخائضين في هذا المجال العقيم «المسكين»، ذلك أن الشعب يمجد البطولة في جميع الظروف والأحوال، ولكنه جدل المجادلين الذين لا يؤمنون بالكفاح حتى ولو جعلت السماء في قبضة أيديهم، ونحمد الله أن هؤلاء كانوا قلة في شعبنا على الدوام.

وكنت أروي لهؤلاء المجادلين قصة رفاق القسام، وكيف واجهوا القضاء بشجاعة منقطعة النظير، وكنت كذلك أحكي لهؤلاء كيف أن الحركات التحريرية تبدأ كما بدأها القسام . . ورفاق القسام.

ولكن هذا الحوار قد انتهى، ودخل القسام وصحبه إلى رحاب التاريخ، وقد تفتحت الأبواب على مصاريعها، ولقد سقط القسام شهيداً ولكن راية الكفاح لم تسقط.

فقد استلم الشعب، شعب فلسطين راية الجهاد من الشيخ عز الدين القسام، وكانت الثورة الكبرى التي بدأت عام ١٩٣٦، وما هدأت إلا يوم وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، ولم يكن من سبيل أمامها إلا أن تبدأ يوم ذاك.

ولقد كانت أكبر ثورات الأمة العربية حقاً، إذا قيست الأشياء بالأشياء، والظروف بالظروف.

ذلك ما صنعه القسام وصحب القسام في تاريخ الكفاح، ولو أن قادة العرب قد استلهموا روح القسام في عام ١٩٤٨ لما وقعت الكارثة الأولى.

أجل! لو أن قادة العرب قد استلهموا روح القسام في عام ١٩٦٧ لما وقعت الكارثة الثانية.

وسيعلم الذين هزموا أي منقلب ينقلبون.

شعب يقود زعماءه

في أواسط الثلاثينيات ـ ١٩٣٤، ١٩٣٥ ـ كان شعبنا يتحفز للثورة على الحكم البريطاني، وكانت أسباب الثورة تطالعنا صباح مساء. حتى تفجرت في عام ١٩٣٦ وامتدت إلى أن نشبت الحرب العالمية الثانية في خريف ١٩٣٩، ودخلت ثورتنا في فصل «الخريف».

وكانت ثورة شعبية، قادها الشعب بادئ ذي بدء، وقاد معه «القيادة الوطنية»، وهكذا كانت مسيرتنا النضالية خلال ثلاثين عاماً، يتحرك الشعب، وتتحرك «القيادة» من ورائه.

وكان الباعث على الثورة هو الخوف المخيف.. فقد بتنا في تلك الأيام نخاف على مصيرنا كأمة، ونخشى على وجودنا كشعب، وكنا نحن الشباب وطلائع المثقفين تضطرم في نفوسنا النزعة القومية لبلوغ الحرية والاستقلال في وطننا، والأوطان العربية من حولنا تشق طريقها إلى السيادة القومية بكل خطى ثابتة، وكان لنا أن نتساءل: ألسنا نحن من طينة الأمة العربية وجبلتها، فلماذا تتاح لهم فرص الحكم الوطني ونحرم حتى من الحكم الذاتي...؟

غير أن الخوف المخيف على المصير والوجود قد حجب مطلب السيادة والاستقلال، واندفعنا بطاقاتنا الوطنية نكافح في تلك المرحلة لدفع ذلك الخوف المخيف أولاً وقبل كل شيء، ومن هنا كان شعار ثورتنا في ذلك العهد «أن تعمل بريطانيا على تبديل سياستها تبديلاً أساسياً تظهر بوادره في وقف الهجرة اليهودية وقفاً باتاً».

وتوالت اجتماعاتنا نحن الشباب المستقل في معظم مدن فلسطين، وكنت دائم التنقل في تلك الفترة، ثم إن عملي في المحاماة كان يقتضيني السفر من بلد إلى بلد، وخاصة في الشمال، وكنت كلما فرغت من المحكمة غادرتها إلى النوادي والجمعيات لنبحث ونتشاور في أمرنا ومصيرنا، ونبصّر شعبنا بالخطر الذي بات يحيق بنا.

وكان الخطر في الواقع يمدّ مخالبه إلينا يوماً بعد يوم، وبرزت الهجرة كأكبر مصدر لهذا الخطر، ففي عام ١٩٣٥ بلغ عدد المهاجرين اليهود ستين ألفاً، وهذا رقم مخيف على بلد صغير كفلسطين، فقير الموارد الطبيعية، ولا تتجاوز مساحته عشرة الآف ميل مربع.

وقد رأينا في هذا العدد الضخم من المهاجرين اليهود، غزوة يهودية تهددنا بالجلاء، وخاصة أن معظمهم من القادرين على حمل السلاح.

وقمنا نحن الشباب بحملات توعية في طول البلد وعرضها، نندّد بالسياسة البريطانية وما تهدف إليه من إغراق البلاد بالهجرة اليهودية، واقترحت يومئذ على إخواني، بديلاً عن المنشورات الطويلة التي كنا نوزعها على الشعب، أن نضع بين يديه بيانات صغيرة تقتصر على الأرقام على الوجه الآتي:

٣٠ ألفاً في عام ١٩٣٣

٤٢ ألفاً في عام ١٩٣٤

٦١ ألفاً في عام ١٩٣٥

٣٥٥ ألفاً مجموع عدد اليهود في فلسطين حتى عام ١٩٣٥.

وقد وزعت هذه البيانات بأوراقها الصغيرة بالألوف على المدن والقرى، وأحسب أنها كانت من أهم البواعث للثورة، وخاصة أن هذه الأرقام مأخوذة عن المصادر الرسمية، ولا تتضمن ما كان يسمى بالهجرة اليهودية غير المشروعة، وكانت بالآلاف أيضاً. .

والواقع أن شعبنا يملك فطرة سليمة وإحساساً مرهفاً، وقد أظهر دائماً وعياً وطنياً أصيلاً، وكان دائماً متابعاً للأحداث العامة يواصل مراقبته للوطن القومي اليهودي ينمو عاماً بعد عام.

ففي عام ١٩٢٢ جرى أول إحصاء رسمي في فلسطين، وإني لأذكر أن المدارس قد تعطلت، وبقينا في بيوتنا الليل والنهار تسهيلاً لإجراء عملية الإحصاء، وأُعلنت الأرقام بعد ذلك لتقول لنا إن عدد اليهود ٨٣ ألفاً.

وجاءت عملية الإحصاء مرة ثانية في عام ١٩٣١، ولزمنا بيوتنا الليل والنهار، وأَعلنت الأرقام الرسمية بعد ذلك أن عدد اليهود ١٧٤ ألفا.

وها نحن الآن في عام ١٩٣٥ لنعلم أن عدد اليهود قد بلغ ٣٥٥ ألفاً، أصبحنا ونحن نتأمل تصاعد هذه الأرقام نتوقع لا أن نلتزم بيوتنا في الإحصاء المقبل بل أن نخرج من بيوتنا ونجلو عن وطننا.

تلك كانت الصورة الرهيبة التي صارت تطالعنا، وجعلتنا نقف وجهاً لوجه أمام الخوف المخيف.

وقد زادنا رهبة ما كنا نعلمه من أن اليهود قد أصبحت لهم «قواتهم المسلحة»، وخاصة في المستعمرات اليهودية حيث لا تمارس السلطة البريطانية أي سلطة، بل أي وجود.

وأصبحت هذه الرهبة حقيقة واقعة يوم اكتشفت الصدفة العجيبة، شحنة ضخمة من الأسلحة والذخائر مغلفة في صناديق الأسمنت، مستوردة من بلجيكا. . . وتلا ذلك ما اكتشف من كميات كبيرة من الأسلحة المكدسة في جوف الأرض، في المستعمرات اليهودية. .

فهبّ الشعب، في حماسة وغضب، وأعلن الإضراب ليوم كامل احتجاجاً على الهجرة اليهودية، والأسلحة اليهودية، وكان إضراباً عفوياً تداعى له الشباب، بالتلفون من بلد إلى بلد، وقيادتنا الوطنية في بيت المقدس لا تدري من أمره شيئاً.

وأدركت الحكومة البريطانية أن البلاد مقبلة على أحداث خطيرة تقتضي شيئاً من التهدئة، فأعلنت وزارة المستعمرات في شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٣٦ أنها تدرس بصورة جدية إحداث تغييرات دستورية واتخاذ تدابير معينة بالنسبة إلى الهجرة اليهودية وبيع الأراضي.

وما إن أخذت موجة من السكينة «تغزو» خواطرنا، حتى أقبل شهراً شباط/ فبراير وآذار/ مارس من ذلك العام، يحيلانها إلى موجة من الغضب الثائر.

لقد بدأ مجلسا العموم واللوردات يناقشان هذا البيان الصادر من وزارة المستعمرات وكأنما انهدّت السماء على الأرض. . فقد قامت الصهيونية بحملة مركزة شملت الصحافة البريطانية والأوساط السياسية، وشهد البرلمان البريطاني معركة طاغية على الحكومة البريطانية من جميع الأحزاب حتى من قبل حزب الحكومة، فتساقطت المقترحات الدستورية على الأرض شذر مذر.

وكنت مشتركاً في بعض الصحف البريطانية، فأخذت أترجم إلى العربية تفاصيل المناقشات التي دارت في البرلمان البريطاني، وأرسلها إلى صحفنا الوطنية في يافا والقدس. . ليقرأ الشعب ما فعل بنا الحلفاء. .

حتى إذا جاء شهر نيسان/ أبريل من عام ١٩٣٦ جاءت معه الثورة بكل دوافعها: الهجرة اليهودية ـ بيع الأراضي ـ تسليح اليهود ـ سقوط المقترحات

الدستورية ـ وأخيراً لا آخرا حركة الشهيد عز الدين القسام ورفاقه الأبرار. . . وأصبحت الثورة تنتظر الشرارة الأولى.

وجاءت الشرارة الأولى في ١٥ نيسان/ أبريل، فقد تصدّت جماعة من المسلحين العرب لسيارة يهودية وقتلت ثلاثة من ركابها وجرحت الباقين، وفي الليلة التالية قتل اليهود اثنين من العرب بجوار إحدى المستعمرات اليهودية. . . وبدأت الأحداث تتوالى في هجمات مسلحة بيننا وبين اليهود، وقد وقع معظمها بادئ الأمر في قطاع يافا ـ تل أبيب.

وفي أوائل شهر نيسان/ أبريل، دق جرس التلفون في مكتبي وكانت المكالمة من جمعية الشبان المسلمين من يافا، وإذا برئيسها علي الدباغ يشرح لي الحالة القلقة المضطربة في يافا، وما وقع من القتلى والجرحى وإحراق المنازل في الأحياء القريبة من تل أبيب، وأن المدينة قد أعلنت الإضراب وأنّ لجنة تمثل جميع الأحزاب قد تألفت للإشراف على الحركة الوطنية، واقترح عليّ في نهاية الحديث باسم اللجنة أن نحذو حذوهم، فبادرته على الفور أننا سنعلن الإضراب غداً أو بعد غد تضامناً مع يافا، وستضرب معنا كل مدن الشمال، وما إن انتهى الحديث ووضعت سماعة التلفون حتى دعوت نخبة من أعيان المدينة وشبابها إلى مكتبي، وما هي إلا بضع ساعات والمنشورات توزع في المدينة ندعو إلى الإضراب احتجاجاً على سياسة الحكومة، وأمضينا تلك الليلة إلى الفجر في مكتبي والاتصال مستمر بالتلفون مع حيفا ـ الناصرة ـ طبريا ـ صفد ـ بيسان ـ ، ونحن نشرح لإخواننا الإجراءات التي اتخذناها وندعوهم إلى إعلان الإضراب. . وهكذا عمّ الإضراب جميع مدن فلسطين.

ولم يكن الإضراب في البداية محدداً بأجل، ولا معلناً بهدف معين. . فقد كان إعراباً عن استنكارنا لسياسة الحكومة، وكان الأمر كله يومئذ غضبة شعبية تريد أن تعبّر عن ذاتها وتنفّس عن مكنونات نفسها، والقيادات الوطنية مشغولة في مهاتراتها الحزبية.

وفي يوم ٢٠ نيسان/ أبريل سنة ١٩٣٦ وصلتنا برقية بتوقيع «اللجنة القومية بنابلس» تعلن تأليف هذه «اللجنة» لتنظيم الإضراب ولم يكن في البرقية توقيع آخر. . وقد حسنت لدي هذه التسمية وهذه الفكرة، فدعوت إلى اجتماع كبير في منزلي، فقد كان مكتبي مقفلاً مع بقية مرافق المدينة، وجرى في هذا الاجتماع انتخاب لجنة قومية تتولى شؤون الإضراب في المدينة، واتصلنا بالمناطق المجاورة ليفعلوا ما فعلنا، وهكذا كان. . وإذا باللجان القومية تتألف في كل مدن فلسطين، لتجمع بين صفوفها كل العناصر الوطنية من مختلف الألوان والأحزاب.

وجاء الإضراب شاملاً كل مظاهر الحياة، فقد اقفلت المدن إقفالاً تاماً وتوقفت حركة المواصلات وتعطلت المدارس والمحاكم ودور السينما والمقاهي، حتى الأفران والصيدليات حرصت على أن تمارس أعمالها من الأبواب الخلفية أو النوافذ الجانبية.

وأخذ الفلاحون يترصدون على مفارق الطرق، ويتربصون بالقوافل اليهودية يهاجمونها بالسلاح، وبالحجارة حين لا يوجد السلاح. . . وأخذت بوادر الثورة الشعبية تنطلق في كل مكان.

وكان أن التقينا: صبحي الخضراء، معين الماضي، رشيد الحاج إبراهيم وأنا، وكلنا نقيم في عكا وحيفا، وتناولنا بالبحث شؤون الإضراب وما يقتضيه من رعاية وتنظيم، واستقر رأينا أن أمامنا فرصة ذهبية، والشعب على هذه الحال من المشاعر الثائرة، للقيام بثورة شعبية تحريرية.

وكنا نحن الأربعة في صبيحة اليوم التالي في طريقنا إلى القدس، للاتصال بالزعماء والعمل على توحيد الصفوف وإنشاء جبهة وطنية تقود النضال القومي. . . وكنت أقود سيارتي وعليها العلم العربي حتى لا يتعرض لها شباب الإضراب الذين يشرفون على تنفيذه في جميع المدن والقرى. .

وكان مشهداً لا أنساه. . الطريق خالية من عكا ـ إلى حيفا ـ إلى جنين ـ إلى نابلس ـ إلى رام الله حتى القدس. . فلم تكن هنالك مواصلات، والمدن مقفلة، والمرافق العامة موقوفة، والشوارع مملوءة بالجماهير يهتفون وينشدون. . . وقد أوقفنا الشباب غير مرة في هذا الطريق، حتى إذا أبصروا العلم العربي على السيارة وعرفونا، أخلوا سبيل السيارة، من غير كلام. . . إلا الهتاف بحياة فلسطين. .

وقضينا يومين أو ثلاثة في القدس نواصل الليل بالنهار في اجتماعات متواصلة مع رؤساء الأحزاب ندعوهم إلى التآلف، وإلى إنشاء جبهة وطنية، وأن يقتدوا بالشعب وقد تجمع في «لجان قومية» في جميع مدن فلسطين.

وفي هذه الاجتماعات الطويلة، تهيأت لي أول فرصة وافية لأكون في جلسات «عمل» مع رؤساء الأحزاب، وفيهم الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وكان يومئذ في منتهى الحذر والتحفظ.

وفي ٢٥ نيسان/ أبريل سنة ١٩٣٦ تنفسنا الصعداء، فقد اتفقت الكلمة على تأليف «اللجنة العربية العليا» الحاج أمين الحسيني رئيساً، وأحمد حلمي عبد الباقي

أميناً للمال، وعوني عبد الهادي سكرتيراً، والأعضاء، جمال الحسيني رئيس الحزب العربي، وراغب النشاشيبي رئيس حزب الدفاع، والدكتور حسين الخالدي رئيس حزب الإصلاح، وعبد اللطيف صلاح رئيس حزب الكتلة، ويعقوب فراج عن المسيحيين الأرثوذكس، وألفرد روك عن المسيحيين الكاثوليك. ولم نغادر بيت المقدس إلا بعد أن صدر بيان من «اللجنة العربية العليا» يدعو البلاد إلى «استمرار الإضراب إلى أن تغير الحكومة الإنكليزية سياستها . . . على أن يكون وقف الهجرة هو البادرة العاجلة لذلك التغيير . . ».

وعلى هذا فقد تشكلت القيادة الوطنية لتلك المرحلة تحدد هدف الكفاح بأن يكون «وقف الهجرة هو البادرة العاجلة» لتغيير السياسة البريطانية . . .

وعدنا نحن الأربعة إلى الشمال، معين ورشيد إلى حيفا، وصبحي وأنا إلى عكا، والغبطة تملأ نفوسنا أنا قد أدينا واجباً قومياً جليلاً يمهد الطريق أمام ثورتنا المجيدة.

ولكن الفضل كل الفضل كان لشعبنا الأصيل، شعبنا البطل الباسل، فهو الذي «قاد» الحركة أولاً، ومن بعده تألفت القيادة، ومن بعده تحركت القيادة . . ولكن الزمام بقي بيد الشعب على الدوام، فهو الذي حمل السلاح، ومنه سقط الشهداء.

وانفتح التاريخ على دفتيه، يشهد ويخلد.

بريطانيا وأصدقاؤها يوقفون الإضراب والثورة

بدأ الإضراب في أول أيامه سلمياً، توقف عن العمل والنشاط وكفى، ولم يكن أمام الجماهير إلا أن تحتشد في الساحات العامة والمعابد تستقي الأخبار وتتداول الآراء، ثم تطور الأمر إلى مظاهرات صاخبة تجوب أحياء المدينة شارعاً شارعاً حتى تبلغ قبور الشهداء، ولا تخلو مدن فلسطين من قبور الشهداء، سقطوا منذ أن دخل «أللنبي» إلى القدس في عام ١٩١٧.

وكان جامع الجزار بساحاته الرحبة، معقل الحركة الوطنية في عكا، تتجمع الجماهير في رحابه فيخطب الخطباء، ويلقى الشعراء قصائدهم، وتعيش المدينة جواً حماسياً بالغ الروعة، فلا مجلسي ولا معارض، ولا مسيحي ولا مسلم، ولا قروي ولا مدني، الشعب كله وراء قضيته، وكذلك كان الحال في جميع أرجاء فلسطين.

وكانت اللجنة القومية في عكا في اجتماع دائم، ومقرها في مكتب دائرة الأوقاف في الجامع، وكنت أقضي النهار وطرفاً من الليل مع إخواني في ساحات الجامع نشرف على الإضراب ونعالج الأمور الطارئة، وكنت كلما مررت بالجمهور، لا بد لي من وقفة أخطب فيها، محيياً ومشجعاً، وداعياً إلى الاستمرار في الإضراب إلى أن تستجيب الحكومة البريطانية لمطالبنا الوطنية، وقد ضربت رقماً قياسياً في تلك الفترة في عدد الخطب التي ألقيتها، دون أن تنفد طاقاتي. فإن مجال القضية الفلسطينية تتسع آفاقه للحديث من غير ملل ولا كلل.

وأخذ الإضراب يشتد، وتشتد معه العزائم، وقامت اللجنة العربية العليا بجولة في جميع أنحاء البلاد، وجاءت إلى عكا فاستقبلناها استقبالاً شعبياً عارماً، وكان سير الحاج أمين الحسيني مع راغب النشاشيبي وباقي رفاقهما، في الشارع في طريقهم إلى جامع الجزار، مظهراً من مظاهر التضامن الوطني ألهب مشاعر الجماهير، وكان الحاج أمين بطلعته الجميلة وأناقة عمامته وجبته محط الأنظار.

وخطبت في الجموع الحاشدة مرحباً بمقدم اللجنة العربية العليا، داعياً إلى المزيد

من التلاحم والتساند بين القوى الوطنية، مناشداً الزعامة أن تبادر إلى الكفاح المسلح لإنقاذ البلاد من الخطر الداهم الذي يتهددها، وكانت حماسة الشعب في ذروتها، وخطب من بعدي الحاج أمين الحسيني.

فكان خطابه فاتراً على غير ما يتطلع إليه الشعب، والحاج أمين يملك الكثير من مؤهلات الزعامة.. إلا القدرة على مخاطبة الجماهير ومسّ عواطفها وأحاسيسها.

وإنّي لأذكر في تلك المناسبة أن عوني عبد الهادي سكرتير اللجنة العليا، قد مال الي، بعينيه الغامزتين وشفتيه الهمازتين اللمازتين، وقال: «ليتك تكلمت بعد الحاج أمين»...

وكانت السلطة البريطانية تقف من الإضراب موقف المراقب إلى أن بدأت الأعمال المسلحة، ولم يكن طبيعياً أن تظل الجماهير متسكعة في الساحات العامة تروح وتجيء، فانطلق الشعب بعفويته الأصيلة، مع استمراره بالإضراب وإصراره عليه، ليقوم بالنضال المسلح ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

فأعلنت السلطة البريطانية قوانين الطوارئ، وقامت بحملة اعتقالات واسعة فأنشأت معتقلاً في عوجة الحفير وصرفند زجت فيهما المئات من الشباب والعاملين في الحركة الوطنية وعدداً وافراً من أعضاء اللجان القومية، ثم اكتظت معسكرات الاعتقال فقبضت على الكثيرين من رجالات البلاد وفرضت عليهم الإقامة الجبرية في أماكن نائية.. وقد نقلتني السلطة البريطانية إلى سمخ وفرضت علي إقامة جبرية إلى أن انتهى الإضراب.

وكانت ريح السموم قد بدأت تضرب بلدة سمخ على شاطئ بحيرة طبريا، وأحسست يوم وصولي برفقة مفرزة من الجيش البريطاني، أنني أقبلت على جهنم التي أعدت للمجرمين، وعبثاً حاولت أن أنتقل إلى صرفند أو عوجة الحفير حيث الجو ألطف وأرحم.

وبعد بضعة أيام وصل إلى سمخ كل من جميل وهبة مدير دار الأيتام الإسلامية بالقدس ويوسف سمارة من كفركنا (الناصرة) وشاب آخر من الطيرة لم أعد أذكر اسمه ـ في إقامة جبرية كذلك ـ وكانت سمخ مضربة كغيرها من مدن فلسطين، والطلاب والشباب يسيرون في الشوارع في مظاهراتهم..

وقد فرضت عليّ السلطة في بداية الأمر أن «أثبت وجودي» إحدى عشرة مرة في اليوم الواحد، ومعنى هذا أن أكون في مركز البوليس مرة في كل ساعة من النهار.. فقلت لضابط البوليس ليتني أبيت عندكم، فتستريحون وأستريح.

وهنا أنجدني رئيس بلدية سمخ، سليم الترعاني، وهيأ لي بيتاً يقابل مركز البوليس على قيد خطوات، ومضيت أغدو وأروح بين بيتي ومركز البوليس إحدى عشرة مرة في اليوم الواحد. . فكانت لي رياضة لم أكن أنعم بها في عكا وسط مشاغلي. .

وكان جاري في البيت شيخ طاعن في السن كنت أجد في غدوه ورواحه تسليتي في تلك الأيام «المضربة» عن كل تسلية. . فقد كان هذا الجار يخرج من بيته في الصباح ليعود في الظهر وفي «وسطه» مفتاح قديم طويل يبلغ ربع متر، يستلّه من زناره ويفتح بابه ويغلقه بعناية كاملة، ثم يهز الباب ليتأكد أن الباب مغلق. . وسألت رئيس بلدية سمخ «الترعاني» في إحدى زياراته لي عن هذا الجار العجوز، فقال: «هذا مغربي مثلنا نحن أهل سمخ، هاجر آباؤنا إلى هذه الديار أيام الأمير عبد القادر الجزائري».

قلت: «وما عمل جاري العجوز؟»

قال: «إنه لا عمل له، إنه يذهب لزيارة أصدقائه كل صباح ثم يعود في الظهيرة».

قلت: أراه شديد الحرص على بابه ومفتاحه ـ فهل هو من الاغنياء؟

قال: «لا، إنه فقير الحال، وله زوجة في السبعين من العمر».

قلت: «ولِمَ يقفل بابه بهذا الحرص الشديد؟»

قال: «إنه يقفله على امرأته، وهي لم تخرج كل عمرها من البيت. .»

قلت: «وهل يغار هذا العجوز على «العجوزة» وكلاهما تجاوز السبعين؟»

قال: «لا أدري أهي العادة، أم الغيرة، أم غير ذلك».

والواقع أن «المغاربة» وقد عرفتهم في ما بعد في قراهم محافظون أشداء. . فقد كنت وكيلاً عن أهالي معذر وعولم في قضاء طبريا في قضايا ضد اليهود، فرأيت فيهم المحافظة على التقاليد المغربية إلى النهاية، حتى إن بعضهم وهم من الجيل الثالث كانوا يتكلمون اللهجة «الجزائرية» إلى جانب اللهجة الفلسطينية.

وجاءت تصاريف الأقدار لأجتمع بأهل معذر وعولم في الأردن بعد النكبة، فقد هاجروا في جملة من هاجر من أهل فلسطين، وأصبحوا في عداد اللاجئين، فكانت هجرتهم الثانية.

ولكن إقامتي الجبرية في سمخَ لم تجعلني في عزلة عن أنباء الحركة الوطنية وما

كانت تتخذه السلطات البريطانية من إجراءات ظالمة . . فقد راحت السلطة تطوّق القرى العربية بحثاً عن الأسلحة، وتداهم المنازل، وتعذب أصحابها، وتفرض عليهم الغرامات الباهظة، وتتلف أثاثهم ومؤنهم، ولكن الشعب بقي صامداً، لا تثنيه الإجراءات التعسفية والأحكام العرفية عن مسيرته الوطنية.

وكانت حول سمخ عدة مستعمرات لليهود تعرضت لهجمات قوية قام بها المناضلون العرب، فأحرقوا بياراتهم ومزروعاتهم، وأنزلوا بهم خسائر فادحة. وظنت السلطة أن لي يداً في التحريض على هذه الأعمال . . فبادرت إلى نقلي إلى قرية الحمّة على الحدود بين الأردن وسوريا، وكان ذلك في شهر تموز/ يوليو، حيث يغلي الماء في الكوز . . كما تقول الأمثال العامية.

وقد انضم إليّ في الحمّة طائفة من الإخوان الوطنيين أذكر منهم يوسف الفاهوم وصالح عون الله من الناصرة، فرضت عليهم السلطة إقامة جبرية، بعد أن اشتدت الحركة الوطنية في الناصرة وما حولها.

ولكن الإخوان المناضلين قد أشغلوا منطقة الحمّة بأعمالهم البطولية، وكانوا كل ليلة يهاجمون مخفر البوليس، ونقضي الليل ونحن في «سمر» على أزيز الرصاص . . حتى أصبحنا نحس «بالوحشة» والأرق إذا لم نسمع صوت الرصاص ليلة واحدة . .

وفي سمخ والحمّة كان مدير الأمن العام يتفقدنا ليلاً، ليطمئن إلى أننا نيام في فراشنا، ولا نغادر منازلنا لأي نشاط مشبوه، وفي تلك الفترة ـ شهر حزيران/ يونيو ـ زارني قائمقام طبريا العربي حنا بولص وهمس في أذني أن مذكرة وطنية قومية عليها تواقيع كبار الموظفين العرب، قد مرت عليه وأنه وقعها، وقد ترك لي نسخة منها، فكانت في الواقع معبرة أصدق تعبير عن مشاعر شعبنا البطل ورأيت فيها بوادر العصيان المدني يقوده كبار الموظفين العرب . .

ولقد حسبت السلطة البريطانية أنني في سمخ والحمة سأكون نائياً عن مركز الحركة الوطنية، ولكن الأقدار قد جرت على غير ذلك، ولم يدر في حسبانها أن تلك المنطقة ستكون معبر المجاهدين الوافدين من سوريا والعراق، وأنّ سلاح المجاهدين ومؤنهم وذخائرهم ستمر في هذا الطريق.

وهذا ما وقع فعلاً فقد جاءني رسول من فوزي القاوقجي، يسر إليّ النبأ البهيج، بأنه يقود قوات من المجاهدين للدخول إلى فلسطين «وحبذا لو أمكن مراقبة ضفاف الأردن واليرموك إلى أن تدخل قوات المجاهدين إلى البلاد». وغدونا نحن المعتقلين في تلك المناطق النائية كأنما أرسلنا الله إليها لنؤدي هذه المهمة، فدعوت رفيقي يوسف الفاهوم وصالح عون الله، وهما أكثر خبرة في مثل هذه المهمة،

فقاما بها أحسن قيام، وكأننا على موعد مع فوزي القاوقجي ورفاقه الميامين.

ودخلت قوات القاوقجي في أمان وسلام، ووصل الشيخ محمد الأشمر وسعيد العاص، من أبطال الثورة السورية التي قامت ضد السلطة الفرنسية، على رأس المجاهدين السوريين.

وبمقدمهم اشتد ساعد الثورة الفلسطينية ونشبت المعارك بينهم وبين القوات البريطانية، وكان أهل القرى كلما علموا بإحدى المعارك هبّوا لنجدة الثوار فيطوقوا القوات البريطانية ويصلوها ناراً حامية، وهكذا اندلعت الثورة المسلحة في كل أرجاء البلاد وأصبحت تعرف بأسماء مواقعها فكانت معارك بلعا ـ بيت امرين ـ دير شرف ـ جبع ـ عزون ـ ترشيحا ـ وراح الفلاحون يتفاخرون أي المعارك أشدّ بأساً وأعظم نصراً.

وكانت تصلني منشورات الثورة موقعة بتوقيع القائد العام فوزي القاوقجي، فأسلمها إلى رفاقي وهم يتولون توزيعها في جميع مناطق الشمال، وبذلك أصبح معتقلنا الإجباري معقلاً من معاقل الثورة، وبعد أن كنا نتمنى أن ننقل إلى صرفند أو عوجة الحفير فراراً من هذا الجو اللاهب، حمدنا الله أن إقامتنا الجبرية قد فرضت علينا في بقعة «استراتيجية» بين سوريا والأردن تجعلنا نواصل نشاطنا الوطني.

وامتد الإضراب أسبوعاً بعد أسبوع، ثم شهراً بعد شهر، والشعب صابر صامد، يتحمل كل أنواع التضحيات ويكابد كل صنوف العناء، ولم يبق مواطن إلا وله دور في المعركة، ولو إلقاء المسامير على قارعة الطريق لتعطيل قوافل الجيش البريطاني. . ونزل هذا الإضراب في تاريخ الكفاح الإنساني، لا مثيل له في شموله واستمراره، منذ كان الكفاح الإنساني. وما أظن أن إضرابا في العالم سيجاريه أو يدانيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي شهر تموز/ يوليو أعلنت الحكومة البريطانية عزمها على تأليف لجنة مَلَكية للتحقيق في أسباب الثورة والنظر في ظلامات العرب، على أن تشرع اللجنة في أعمالها بعد أن يستتب الأمن. ولكن الشعب لم تخدعه هذه البادرة، فقد ابتلي بسبع لجان تحقيق قبل ذلك، وكانت تواصيها في معظمها إلى جانب العرب، ولكن لم ينفذ شيء منها، بل ضرب بها عرض الحائط، وعلى ذلك فلم يبال الشعب بتأليف اللجنة الملكية ومضى في إضرابه وثورته. . لا تلين قناته ولا تُثني عزيمته.

واستقدمت الحكومة البريطانية قوات إضافية لإخماد الثورة حتى بلغت خمسين ألف جندي بكامل أسلحتهم، ومنها أسراب الطائرات، وعينت على رأس

هذه القوات الجنرال «ديل» مدير العمليات والاستخبارات في وزارة الحربية البريطانية.

وفشلت القوات البريطانية في إخماد الثورة، وأنزل المجاهدون العرب خسائر جسيمة في العدو، في الأرواح وفي السلاح، وسقط الشهداء بالعشرات والمئات من أبناء الأمة العربية إلى جانب رفاقهم في الجهاد والاستشهاد من أبناء فلسطين. وكان استشهاد البطل القائد سعيد العاص في معركة الخضر إلى جانب القائد عبد القادر الحسيني، وقد سقط جريحاً في هذه المعركة، عنواناً على وحدة النضال العربي، حيثما كان النضال في الوطن العربي.

وازداد الموقف خطورة حين أقدم المجاهدون العرب على ضرب أنابيب البترول وإشعالها بالنار، وكان الظن أن هذا الأمر عسير، فلما بدا يسره صار الشباب يجربون بنادقهم ورصاصهم في أنابيب البترول، ويتباهون أي البنادق أشدّ رمياً، وأي الرصاص أشدّ نفاذاً.

ولما لم تفلح بريطانيا في حمل الشعب على العدول عن إضرابه وثورته، بالوعد والوعيد، اتصل الأمير «الملك» عبد الله باللجنة العربية العليا ليقنعها بالعدول عن الإضراب، وشاركه في ذلك نوري السعيد رئيس وزراء العراق الذي زار فلسطين في تلك الفترة واجتمع إلى عدد من الزعماء وهم في معتقلاتهم.

ووجهنا نحن المعتقلين في الحمّة رسالة إلى اللجنة العربية العليا نناشدها عدم قبول تدخل الأمير عبد الله ونوري السعيد إلا «إذا كان بيدهما عهد واضح من الحكومة البريطانية يوقف الهجرة اليهودية إذا أوقفنا الإضراب» وفعلاً فقد صمدت اللجنة العربية العليا، واستمر الإضراب ومعه الثورة بضعة أسابيع أخرى.

وفي الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٦ بدأت الاتصالات بين بغداد وعمان والرياض من جهة واللجنة العربية العليا من جهة ثانية لوقف الإضراب والثورة، لتمكين اللجنة المَلَكية من أن تقوم بمهمتها في البلد في جو من السكينة والهدوء. وكانت تتردد «الهمسات» بأن هذه اللجنة «مَلَكية» على مستوى رفيع، وأن وعوداً قاطعة صدرت من بريطانيا إلى عمان وبغداد والرياض بأن المطالب القومية لشعب فلسطين ستحقق بصورة تدريجية، وأنه لا داعي لمزيد من الخراب والدمار وسفك الدماء.

فاعتراني الهمّ والقلق من هذه البوادر التي بدت في الأفق، وأيقنت أن بريطانيا أخذت تضغط على العواصم العربية حتى «تضغط» هذه بدورها على

الشعب الفلسطيني. وكانت ليلة حامية شديدة الوطأة في الحمّة، حين سهرت إلى الفجر وأنا أعدّ رسالة مطولة إلى الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا أحذّره من «أن تقع البلاد في الفخ البريطاني ونوقف الثورة من غير ضمانات صريحة»، ثم سردت للحاج أمين خبرة الشعب مع لجان التحقيق السبع التي «لم تسمن ولم تغن من جوع»، وأنّ التلميحات التي تلوح بها بريطانيا لإنصاف العرب لن تكون أقوى من وعود مكماهون للشريف حسين في الحرب العالمية الأولى، وكان مصيرها الحنث والغدر.

وختمت رسالتي أناشد اللجنة العربية العليا أن تقبل كحلّ وسط بوقف الإضراب على أن تستمر الثورة. «الإضراب عمل سلبي لا يمكن أن يدوم طويلاً، أمّا الثورة فهي عمل إيجابي نستطيع أن نمدها بالمزيد من الغذاء بعد أن نتوقف عن الإضراب». واستنفرت أحد شبابنا البواسل أن يحمل رسالتي إلى الحاج أمين ويسلمها إليه شخصياً. . وعاد الرسول بعد يومين وقد استقبله الحاج أمين باشّاً وهو يقول له: «سلّم على أخينا الشقيري وسنعرض رسالته على اللجنة العربية اليوم أو غداً».

وفوجئت في صباح الحادي عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٦، وهو يوم يجب أن لا تنساه الأمة العربية، بنداء من اللجنة العربية العليا، استناداً إلى رسالة من الملك عبد العزيز آل السعود والملك غازي والإمام يحيى والأمير عبد الله، بدعوة الشعب الفلسطيني إلى «الإخلاد إلى السكينة وإنهاء الإضراب والاضطراب».

وكانت الرسالة العربية بالنص الاتي:

«إلى أبنائنا عرب فلسطين

لقد تألمنا كثيراً للحالة السائدة في فلسطين فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله، ندعوكم للإخلاد للسكينة حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها لتحقيق العدل، وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم.»

وفي صباح اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٦ استجاب الشعب فتوقف الإضراب، وعادت الحياة عادية في التجارة والزراعة والصناعة وجميع مرافق الحياة انتظاراً لحسن نوايا «صديقتنا الحكومة البريطانية ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل».

وبعد فترة وجيزة خرج من البلاد القائد العام فوزي القاوقجي وقواته المسلحة،

ثم خرج المجاهدون السوريون وعلى رأسهم الشخ محمد الأشمر، وعاد المناضلون الفلسطينيون إلى مدنهم وقراهم بعد أن طمروا تحت الأرض أسلحتهم وعتادهم.

وتململ الشهداء في مضاجعهم وهم يتساءلون عن المصير.

وعاد المعتقلون إلى بلادهم، وعدت إلى عكا، إلى مكتب المحاماة أنفض الغبار عن كتبي، وإلى المحكمة أتابع قضايا الموكلين بعد طول الغياب.

وعلمت أن غيري من رجالات البلاد، كانوا قد حذروا اللجنة العربية العليا من وقف الثورة والاطمئنان إلى وعود بريطانيا وأصدقائها.

وكانت المرحلة صراعاً بن جيلين، جيل الحرب العالمية الأولى الذي واكب الحلفاء واستمر يصدقهم ويعتمد على وعودهم. . وجيلنا نحن الشباب، نحن ضحية وعود الحلفاء ومكرهم وخداعهم، وبريطانيا في الطليعة. وكانت نتيجة الصراع أن انتصر الجيل الأول على الثاني وبهذا استطاعت بريطانيا وأصدقاؤها أن يوقفوا الإضراب والثورة.

ولكن فترة الامتحان لم تكن طويلة، فقد نكثت بريطانيا مرة أخرى في «رغبتها المعلنة لتحقيق العدل» وانتصر الجيل الثاني. . . وعاد الشعب إلى السلاح ليخوض غمار ثورة ثانية أشدّ ضراوة وأحسن بلاء.

ثـورة شـعـب

«تعال عندنا إلى عمان» الأمير «الملك» عبد الله

وقف الإضراب ووقفت معه الثورة، ولم تستطع الحكومة البريطانية أن تكتم فرحتها، وبدا ذلك واضحاً في تعليقات الصحف البريطانية وأحاديث الساسة الإنكليز. وفي فلسطين وجّه المندوب السامي رسالة عن طريق إذاعة فلسطين أعرب فيها عن ارتياحه وسروره، وأعلن أن اللجنة الملكية ستصل إلى فلسطين في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٦. وأذاع القائد العام للقوات البريطانية من جانبه بلاغاً أعلن فيه وقف جميع الإجراءات العسكرية وراح الجنود البريطانيون «المساكين» يصافحون المواطنين العرب ويعانقونهم في الشوارع. . . كأنما جرى توقيع الصلح بين الإنكليز وشعب فلسطين، أو كأنما انسحبت بريطانيا من فلسطين واعترفت لشعبها بالحرية والاستقلال وحق تقرير المصير.

وقبل ذلك، كان خطاب العرش البريطاني في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٣٦ قد أشار إلى الإضراب والثورة فقال «إني آسف أسفاً عميقاً للاضطرابات الخطيرة التي حدثت في فلسطين أثناء الشهور الستة الأخيرة والتي أدتّ إلى ضرورة إيفاد قوات إضافية، وأرحب بالتحسّن الأخير، وإنّ اللجنة الملكية التي عينتها ستبرح إنكلترا هذا الأسبوع للقيام بمهمتها. وإنيّ لأرجو بإخلاص أن يؤدي بحثها للمشاكل الصعبة التي ستعرض عليها إلى تسوية عادلة دائمة».

وإنه لمن سخرية القدر أن شعار «تسوية عادلة دائمة» ظل يتردد على الألسنة والأقلام، عبر السنين والأجيال. . وها أنا أكتب هذه المذكرات في عام ١٩٦٩ ومناقشات الأمم المتحدة ومجلس الأمن تسير في فلك هذه العبارة الشهيرة «تسوية عادلة دائمة» كما صيغت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٣٦، قبل ثلاث وثلاثين عاماً لا تنقص ولا تزيد. . . والظلم لا يزال يتعاقب على شعبنا العظيم.

وصدّق أولئك الذين يلدغون من الجحر مرات ومرات فلا يتعظون ولا يعتبرون. . . لقد صدقوا أن اللجنة الملكية ستكون، كما أعلنها رئيس الوزارة

البريطانية «غير متحيزة» «ومستقلة استقلالا تاماً لا سيطرة للحكومة عليها ولها الحرية الكاملة في وضع تقريرها على الصورة التي تراها ملائمة. . .».

وكان في طليعة المصدقين اللجنة العربية العليا، فراحت تعد العدة لعرض القضية الفلسطينية على اللجنة الملكية، فتجمع الوثائق والبيانات، والخرائط والمعاهدات والدراسات القانونية والاقتصادية. . وكل ما تتسع له المجلدات. . .

وفي اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٦، وهو يوم لا أنساه، دق جرس التلفون في بيتي، وكانت المكالمة من القدس، فقال لي عامل التلفون: تكلموا مع المجلس الإسلامي الأعلى. وكان منيف الحسيني على الخط، فقال لي: سماحة الافندي يريد أن يكلمكم. . وجرى الحديث على الوجه الآتي:

الحاج أمين: «كيف الحال، عسى أن لا تكون تضايقت في الحمّة».

قلت: «لا. . الحمد لله صحتي جيدة وقد عدت منها خيراً مما ذهبت.

الحاج: «طيب. . نحن مشتاقون لكم. . نريد أن نراكم في القدس».

قلت: «إن شاء الله. . سأسافر إلى القدس قريباً إن شاء الله».

الحاج: «لا. . أنا وكل جماعتنا نريد أن تأتوا غداً أو بعد غد، والكل متفقون على أن تشرفوا ونحن بحاجة إلى جهودكم، ونريد مساهمتكم في اللجنة الملكية».

قلت: «يا سماحة المفتي، إن جهودي للوطن دائماً، ولكني لا أستطيع الحضور إلى القدس لهذه المهمة. . ولا أرى خيراً في اللجنة الملكية».

الحاج: «لماذا؟»

قلت: «بصراحة. . الشعب متعطش إلى الجهاد، وقد شبع من لجان التحقيق، وإنّ الحق واضح ولو كانت بريطانيا تريد أن تنصفنا فما أهون الطريق».

الحاج: «وهل نترك قضيتنا في هذه الظروف الحرجة، وهل نتخلى عن الميدان يا أستاذ أحمد؟»

قلت: «لا لا أبداً. . لا نترك قضيتنا. . ولكن قضيتنا في الجبال والوديان وليست أمام لجنة التحقيق، أمّا أنا فلا أتخلى عن الميدان».

الحاج: «لا فائدة من الكلام بالتلفون، سأرسل واحداً من جماعتنا للتفاهم».

وانتهت المكالمة التفلونية، ولم أستطع أن أنام تلك الليلة وقضيتها مهموماً، أُقلب وجهي بين السقف والجدران.

ولم يأتني أحد من «جماعة» سماحة المفتي . . لسبب بسيط وعظيم . .

ففي اليوم الخامس من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٦ أي بعد يوم ونصف من المكالمة التلفونية أعلن وزير المستعمرات البريطاني في مجلس العموم أنه «لا مجال لوقف الهجرة اليهودية، أثناء تحقيقات اللجنة الملكية، سواء لأسباب اقتصادية أو غيرها . . وأن تغيير السياسة المتبعة في الهجرة قبل أن تضع اللجنة الملكية تقريرها يمكن أن يؤدي إلى إجحاف بالتحقيق». ثم أعلنت الحكومة على أثر ذلك أن جدول الهجرة للعمال للستة أشهر التي تبتدئ بأول تشرين الأول/أكتوبر سيكون ألفاً وثمانماية شهادة، وذلك غير أصناف الهجرة الأخرى التي تستمر وفقا للقانون.

سمعت بيان وزير المستعمرات في الإذاعة وتناولت التلفون، وفي طلب مستعجل، كنت أتحدث بالتلفون مع «سماحة الأفندي» في المجلس الإسلامي الأعلى، وكان حديثنا . . حاداً وحاراً.

قلت: «السلام عليكم كيف حال سماحتكم . . هل سمعتم بيان وزير المستعمرات عن الهجرة؟»

الحاج: «نعم سمعته الآن . . قبحهم الله. هؤلاء الإنكليز لا أمان لهم . . »

قلت: «إن غدر الإنكليز ليس جديداً يا سماحة المفتي، أنت رافقت الحركة العربية، والشريف حسين مدفون في جدار المسجد الأقصى، على مقربة منكم، وتعرفون غدر الإنكليز به . . »

الحاج: «أنت تعلم . . أن الإنكليز تفاهموا مع نوري السعيد، ووعدوا الرياض وبغداد أن يوقفوا الهجرة بعد أن نوقف الإضراب».

قلت: «هذا كلام في الهواء . . إلى متى سنظل نصدق الإنكليز؟»

الحاج: «تعال إلى القدس في أقرب وقت لنتفاهم، وجماعتنا يريدون أن يتشاوروا معك».

قلت: «سأحضر إلى القدس، ولكن بعد أن تقرر اللجنة العربية العليا مقاطعة اللجنة الملكية، واستئناف النضال، وما عندي غير ذلك . . »

الحاج: «سنجتمع بعد ساعة، وفي اللجنة رأيان حول هذا الموضوع، وأنا من رأيكم ونرجو أن نصل إلى اتفاق».

قلت: «على بركة الله . . وانتهت المكالمة».

وفي اليوم الثاني ـ في ٦ تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٣٦ ـ أذاعت اللجنة العربية العليا بياناً مقتضياً أعلنت فيه، بعد الديباجة والأسباب، قرارها «عدم التعاون مع اللجنة الملكية وتدعو الأمة الكريمة التي برهنت للعالم أجمع عن نضوجها السياسي وقوة إيمانها الوطني أن تعمل بهذا القرار والله ولي التوفيق».

ومع أمتنا التي أثبتت «نضوجها السياسي وقوة إيمانها الوطني» تنفست الصعداء، وقلت في نفسي ها إن قيادتنا الوطنية قد أثبت كذلك نضوجها السياسي وقوة إيمانها الوطني.. والحمد لله.

وفي ١١ تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩٣٦ سافرت إلى القدس وقضيت فيها قرابة شهر في اجتماعات ومداولات، وأقبل فصل الشتاء ليغسل قباب المدينة الزاهية بماء السماء، ويجلو شوارعها المبلطة، ويبعث في آفاقها نسمات تزيدنا تعلقاً بمدينتنا الخالدة.

وكنت في تلك الفترة كثير التردد على مكاتب اللجنة العربية العليا أطلع على ما يرد إليها من رسائل من العالم العربي والإسلامي تضامناً مع شعب فلسطين وإعجاباً ببطولته. وتعددت اجتماعاتي بالحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، في بيته مرة، وفي مكتبه مرات.

وكان أول لقائنا عتاباً.. عاتبني على لهجة حديثنا التلفوني قبل بضعة أسابيع، ثم أخذ يثني على وطنيتي وإخلاصي، مدللاً على ذلك «بالانفصال» السياسي بيني وبين والدي.

وكان بين الحاج أمين ووالدي خصومة شخصية وسياسية، وكلا الرجلين صلب عنيد، وكان الحاج أمين حريصاً على أن يكسبني إلى جانبه لعلاقاتي وروابطي بمجموعات الشباب وجماهير الشعب، وللكيد من والدي.. فقد كان الحاج أمين في مجالسة يردد القول على الدوام «لو كان الشيخ أسعد الشقيري وطنياً حقيقيا لم يختلف مع ولده.. هذا هو الأستاذ أحمد وطني وكل جماعتنا يحبونه..»

ولقد كنت أُبغض هذا الأسلوب المشين من الحاج أمين، كما كنت أبغض فيه كثيراً من أساليبه الخطرة في معالجة المشاكل الوطنية، ولكني كنت، أنا وغيري من المثقفين المشتغلين بالحركة الوطنية ومنهم رجال حزب الاستقلال، نرى أن الحاج قد أصبح زعيم البلاد ولا سبيل لتبديله أو التخلص من زعامته، وأنّ من الخير أن نسير وراءه. إنه شر لا بد منه.

وكان محور حديثي مع الحاج أمين في تلك الأيام يدور حول ضرورة التفرغ

للقيادة الوطنية، وكنت أؤكد له أن جماهير الشعب معه، وأننا نحن طلائع الشباب والمثقفين معه، وأنه خير من يصلح لقيادة هذه الأمة، وأن خطورة الظروف التي تمر بها قضيتنا المقدسة تقتضي منه التفرغ الكامل لقيادة الحركة الوطنية، فليس معقولاً ولا مقبولاً الجمع بين زعامة الشعب ورياسة المجلس الإسلامي الأعلى بصلاتها مع الحكومة، وكنت أختم حديثي معه في هذا الصدد أن الذين تتوافر فيهم شروط رياسة المجلس الإسلامي كثيرون، أمّا زعامة الأمة فليس لها «إلا سماحتكم».

وكان الحاج أمين يصغي إليّ باهتمام وعناية، ولكني كنت ألمح في قسمات وجهه وثنايا حديثه تعلقاً كبيراً بالمجلس الإسلامي الأعلى. فقد كان يرى فيه «دولة صغيرة» عاش فيها السنين الطوال ومارس من خلالها أمجاده الشخصية، وأنه من الخير الجمع بين الاثنتين.

وحدثت مصادفة عجيبة في تلك الآونة: لقائي الأول بالأمير «الملك» عبد الله في فندق الملك داود بالقدس. . وكان قد جاء إليها واجتمع باللجنة الملكية ورحب بها وتحدث إليها ودعاها إلى زيارة عمان.

وكنت أذهب كل صباح إلى فندق الملك داود لأشتري الصحف البريطانية. . فقد كانت تصل إليه بانتظام، وبينما كنت أُقلب الصحف وإذا بإبراهيم باشا هاشم رئيس وزراء الأردن يربت على كتفي وهو يقول تعال سلم «سيدنا»، فالتفت وإذا به وهو يقول للأمير بلهجة نابلسية: «هذا ابن صديقك الحميم، يا سيدنا».

فقال الأمير: «من هو صديقنا الحميم، الحمد لله أصدقاؤنا كثيرون».

قال: «إبراهيم باشا: ابن الشيخ أسعد الشقيري ـ سيدنا ـ ».

فقال الأمير: «أي والله، الشيخ أسعد صديقنا من أيام إستانبول، كيف حاله؟ وكيف صحته؟ منذ زمن لم أقرأ مقالاته على الحاج أمين».

قلت: «الوالد بخير وصحته طيبة».

قال الأمير: «وأنت لماذا لا تكتب مقالات مثله، الولد سر أبيه. . هذه لجنة التحقيق الملكية لماذا تقاطعونها يا شعب فلسطين، خير لكم أن تسيروا ورائي يا شعب فلسطين وأنا اخلصكم من اليهود ومن الحاج أمين».

قلت: «هذا موضوع طويل يا سمو الأمير، واللجنة الملكية لا خير فيها و. . » الأمير مقاطعاً: «وقتنا الآن ضيق، تعال عندنا إلى عمان وهناك نتكلم ونتفاهم. . . أنت ابن صديقنا الحميم ـ سلم عليه. . ».

فسكتّ، وانصرف ولم أذهب إلى عمان، ولم أجتمع بالأمير إلا بعد النكبة.. بعد ثلاثة عشر عاماً، وفي مهمة سياسية سيأتي ذكرها.

وفي أوائل العام (١٩٣٧) عاد إلى القدس وفد اللجنة العربية العليا الذي كان قد سافر إلى بغداد والرياض لإطلاع الملك غازي والملك عبد العزيز آل السعود على مجريات الأمور والأسباب التي دعت إلى مقاطعة اللجنة الملكية، وكان الوفد مؤلفاً من عوني عبد الهادي وعزت دروزة ومعين الماضي.

واجتمعت بالوفد في جلسة طويلة، وكانت بيني وبينهم صداقة وزمالة، فإذا بهم يعودون بخيبة الآمال ومن غير خفّي حنين، فلقد سبقتهم المساعي والضغوط البريطانية لحمل الشعب الفلسطيني على الاتصال باللجنة الملكية والعدول عن مقاطعتها.. ووجدوا بغداد والرياض مشبعتين بالحجج البريطانية التي تدعو إلى الاجتماع باللجنة الملكية.

وقد شكا أعضاء الوفد أن حقائق القضية الفلسطينية لم تكن واضحة أمام الملك عبد العزيز، وأن مستشاريه لا يجهدون أنفسهم بتعريفه بتفاصيل الأمور. وأنه لو كان على علم تام بكل ما يجري في فلسطين لكان له موقف آخر.

وخلال الحديث أخرج عوني عبد الهادي من حقيبته نسخاً من رسائل وبرقيات وجهها الأمير «الملك» عبد الله إلى الملوك والأمراء، يخطئ فيها موقف اللجنة العربية العليا من مقاطعة اللجنة الملكية، ويدعوهم إلى التدخل في الأمر لإلغاء قرار المقاطعة من أجل مصلحة القضية الفلسطينية.

وفي ختام الحديث، مدَّ عوني عبد الهادي يده إلى جيبه وفي لهجة عابسة ساخرة، قال: تفضل يا سيدي.. وكانت رسالة أخرى من الملوك إلى اللجنة العربية العليا تقول «.. لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في إنقاذ العرب فقد رأينا أن المصلحة تقضي بالاتصال باللجنة الملكية والإدلاء إليها بمطالبكم العادلة... ونحب أن تكونوا على ثقة بأننا لن نألو جهدا في سبيل مساعدتكم لإصلاح الحال بقدر إمكاننا..».

وكانت الرسالة مؤرخة في ١ كانون الثاني/يناير سنة ١٩٣٧، فقلت للإخوان أعضاء الوفد، نحن الآن في أول العام، وأخشى أن يكون هذا العام بداية لتطور خطير في القضية الفلسطينية يسقط معه الزمام من يد الشعب الفلسطيني وقيادته، ولا يصبح قادراً على وضع خطته وسياسته وتقرير مصيره.

وذهبنا جميعاً إلى دار الحاج أمين الحسيني لنتداول في الأمر، وكانت الكلمة

متفقة على الاستمرار في مقاطعة اللجنة الملكية ولكن الحاج أمين كان يتساءل عن مخرج أمام الملوك والأمراء. . .

ودخل علينا في هذه الأثناء الشيخ حسن أبو السعود مفتش المحاكم الشرعية، وأخذ يسرد طائفة من الاخبار «الرائجة» في البلاد عن مساعي الأمير عبد الله مع الأحزاب، وخاصة مع حزب الدفاع للعدول عن قرار المقاطعة وضرورة عرض القضية على أقوى ما تكون.

وعدت إلى الفندق متعباً مرهقاً، وقد اعتراني الحزن والأسى، وأشفقت على اللجنة العربية العليا وقد وضعت نفسها بين حجري الرحى. . . الملوك والأمراء في جانب، والشعب ومطالبه في جانب آخر.

ونهضت في الصباح المبكر إلى سيارتي، دار نجواي في أسفاري. . . ومررت برام الله والبيرة ونابلس وجنين وحيفا، والفلاحون في حقولهم ومزارعهم وأهل المدن في متاجرهم ومصانعهم ومكاتبهم، وجميعهم لا يثقون باللجنة الملكية، ولا يؤمنون بحسن نيات الحكومة البريطانية.

ولزمت بيتي ومكتبي، وفؤادي يقول في أعماقه: الشعب في واد. . .والملوك والأمراء في واد. . . وشتان بين مشرق ومغرب.

إلـــى الســـلاح، يـــا رجـــال!

أفاق الشعب في صباح اليوم السادس من شهر كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٣٧ليقرأ في صدر الصفحة الأولى من صحف فلسطين بياناً صادراً من اللجنة العربية العليا يعلن فيه أنه استناداً إلى « . . . كتابيَ صاحبي الجلالة ملك العراق وملك المملكة السعودية لم يسع اللجنة العربية العليا إلا أن تستجيب للطلب السامي فقررت الاتصال باللجنة الملكية وبسط القضية العربية لها . . »

وقد ذهل الشعب لموقف قيادته التي قررت قبل شهرين بالضبط ـ ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٦ ـ مقاطعة اللجنة الملكية وعادت اليوم تلغي قرارها السابق، من غير أسباب جديدة، سوى رغبة الملوك والأمراء في جو من الضغوط البريطانية . . ليس إلا.

ولو كان الشعب يملك الوسائل يومئذ لخلَع قيادته وثار عليها وسحب ثقته منها . . . ولكن أنّى له ذلك والموقف حاد خطير، والوقت لا يتسع لأي شيء إلا للوحدة وللتماسك، فسكت الشعب على مضض وترك للقيادة الوطنية ومن ورائها الملوك والأمراء أن يتحملوا مسؤوليتهم أمام التاريخ.

وبعد يومين أو ثلاثة جاءني كتاب موقع من الحاج أمين الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا، يطلب إليّ أن أمثل أمام اللجنة الملكية، مع جملة المندوبين العرب الذين ستختارهم اللجنة العربية، لأتحدث عن قضية فلسطين من ناحية القانون الدولي.

وما هي إلا ثانية واحدة حتى سطرت إلى الحاج أمين الحسيني كتاباً أشكر للجنة العربية ثقتها، متمنياً للمندوبين العرب كامل التوفيق والنجاح في مهمتهم، ومعتذراً عن الإدلاء بأي بيان أمام اللجنة الملكية . . وقلت في نهايته، «فإن رأيي معروف لدى سماحتكم وقد أبديته في اجتماعنا الأخير، وعلى كل حال فإن القانون الدولي لن ينقذ فلسطين من خطر الصهيونية والاستعمار . . . »

وقدمت اللجنة العربية العليا مذكرة قوية ضافية، عرضت فيها القضية الوطنية أحسن عرض وأوفاه، ومثل أمام اللجنة الملكية الحاج أمين الحسيني وعدد من رؤساء

الأحزاب، وقالوا كل ما يتمنى أن يقوله أي فلسطيني وأي عربي وأي إنسان. . .

وكانت الوكالة اليهودية قد عرضت قضيتها، أثناء المقاطعة العربية، ومثل أمامها وايزمن وجابوتنسكي وشارتوك وغيرهم من ساسة اليهود وخبرائهم، فحملوا حملات قاسية على الدولة المنتدبة، واتهموها بالتهاون في واجباتها كدولة منتدبة، وطالبوا بإقامة دولة يهودية، وأسهبوا وأطنبوا في جرأة لا سابق لها في تعداد مطالبهم وأطماعهم في فلسطين وشرقي الاردن. .

وغادرت اللجنة الملكية فلسطين حوالى منتصف شهر كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٣٧. وأخذت الشائعات تروج في الأوساط السياسية أن الحكومة البريطانية تفكر في حل للقضية الفلسطينية على أساس التقسيم. والناس بين مُصدق ومُكذِّب. وطالت مداولات اللجنة الملكية في لندن قرابة ستة أشهر دون أن تصدرعنها كلمة واحدة. . . ولم يكن الأمر يحتاج إلى هذه المدة الطويلة فإن القضية الفلسطينية واضحة كل الوضوح وقد تناولتها لجان التحقيق مرات ومرات، ولكن محاولة الحكومة البريطانية» طبخ» الحل السياسي مع اللجنة الملكية «المستقلة غير المنحازة» هو الذي اقتضى تلك الشهور الطوال.

وازدادت هذه الشائعات ضراوة في شهر نيسان/ أبريل سنة ١٩٣٧ لمناسبة سفر الأمير «الملك» عبد الله إلى لندن، ودخل في روع الجميع أن الحكومة البريطانية تهيئ حلاً للقضية يكون للأمير فيه دور بارز. . وإلا أي معنى لسفر الأمير إلى لندن حيث تواصل اللجنة الملكية مداولاتها؟

وقد حرص الأمير قبل سفره أن يقوم بجولة في فلسطين، كأنما يعد نفسه ليكون وليّ الأمر في فلسطين. فزار القدس ونابلس وحيفا، وهيأ له أركان حزب الدفاع استقبالات ضمت بعض الوجهاء ولم يكن لها أي طابع شعبي. . وقد تلقيت الدعوة لشهود هذه الاحتفالات فلم أحضر ولم أعتذر. . بل سعيت مع غيري من الرجال الوطنيين لمقاطعتها في كل مكان.

ثم عاد الأمير «الملك» عبد الله من لندن عن طريق تركيا ونشط أركان حزب الدفاع لاستقباله والحفاوة به. ولكن الشعب أعرض عن ذلك كله، وكأنما أحسّ بفطرته السليمة أن الأمير عبد الله سيكون المحور الذي يدور حوله الحل المقترح. . وقد أثبتت الأيام أن الشعب لا تخونه فراسته ولا تخطئ فطرته. . وقد دعيت للاشتراك في استقباله، وألحّ عليّ سليمان طوقان رئيس بلدية نابلس «حضور» وليمة أقامها على شرف الأمير، مجرد حضور بلا خطابة ولا كلام. . فاعتذرت وشكرت وقلت له لم أشترك في الوداع ولا أشترك في الاستقبال. . ولن أشترك في ما ستخبئه الأيام. . وانتهت المحادثة التلفونية. . ولم أرَ سليمان طوقان بعدها إلا حينما أصبح

وزيراً للبلاط في عمان، بعد أن وقعت النكبة وألحقت بقايا فلسطين إلى شرقي الأردن وأصبحت تعرف بالمملكة الأردنية الهاشمية.

وبدأ القلق والتوتر يسودان الجو يوم أعلنت الحكومة البريطانية جدولاً جديداً لهجرة العمال اليهود بمقدار ٧٧٠ نفساً عن أربعة اشهر، فكانت سبباً لمقاطعة حفلات التتويج لملك بريطانيا فقاطعنا نحن العرب، واشترك اليهود.

وفي اليوم السابع من شهر تموز/ يوليو سنة ١٩٣٧ نشرت الحكومة البريطانية تقرير اللجنة الملكية، وأرفقت به بياناً بسياسة حكومة جلالته بالموافقة على التقرير.

وكان يوماً جعل الناس سكارى وما هم بسكارى.. مِن هول الصدمة وخيبة الأمل، فقد أوصت اللجنة الملكية بإقامة دولة يهودية، ومنطقة تحت الانتداب تشمل القدس وما حولها، وضم المناطق الباقية إلى شرقي الأردن في دولة عربية.

وأخذ الناس في الشوارع والساحات والمنازل يندِّدون باللجنة العربية العليا، والملوك والأمراء، ويعتبرونهم سبباً في هذه الكارثة.. ويحمّلونهم مسؤولية وقف الثورة والإخلاد إلى السكينة استناداً إلى حسن نيات «الصديقة» بريطانيا العظمى.

وهبّت البلاد من أقصاها إلى أقصاها في هياج لا مثيل له، تستنكر التقسيم وتصرخ في وجه الزعماء.. وتستصرخ الملوك والأمراء.. أن يهموا لدفع هذه الكارثة وأن ينجزوا ما وعدوا من العون والتأييد في تحقيق المطالب الوطنية.

وأعلنت اللجنة العربية العليا رفضها لقرار التقسيم واستنكارها كل ما جاء في توصيات اللجنة الملكية ودعت الشعب إلى رفضها، ولم يكن الشعب في حاجة إلى هذه الدعوة فقد كان السخط والغضب يعم المدن والقرى قبل أن تفوه اللجنة العربية العليا بكلمة واحدة.. فقد صدر تقرير اللجنة الملكية في السابع من شهر تموز/ يوليو وأذاعت اللجنة العربية العليا بيانها بعد أسبوعين كاملين.. وعلى التحديد في ٢٣ تم/ يوليو..

وحدث في تلك الأيام أنني كنت أتناول العشاء مع والدي، وكنت قبل ذلك قد تركت بيت والدي وأقمت في منزل لي، ودار الحديث ـ بيني وبين والدي ـ عن كارثة التقسيم، وذكرت له أن الأمير عبد الله لا بد أنه «طبخ» مشروع التقسيم الذي أوصى بضم القسم العربي من فلسطين إلى شرقي الأردن ليصبح ملكاً عليهما معاً. فقد طال الأمد عليه «أميرا» وأخواه «فيصل» «وعلي» قد تمتعا بلقب صاحب الجلالة.. منذ زمان.

ولم أجد والدي ـ رحمه الله ـ أكثر انفتاحاً معي وانشراحاً لحديثي من تلك الجلسة على مائدة الطعام، ولم نكن على وفاق في كثير من الأمور السياسية. ولقد جئته في اليوم التالي فإذا به قد أعدّ رسالة إلى الأمير عبد الله، بأسلوبه القرآني المعروف

يقول في مقدمتها «إن الله ورسوله والمؤمنين يأبون الموافقة على التقسيم وإنشاء دولة يهودية ما أنزل الله بها من سلطان». وأحدثت هذه الرسالة ضجة في الأوساط الوطنية لما بين الرجلين من وداد قديم أيام الخلافة العثمانية.

ومن النوادر التي تناقلتها الألسنة في أعقاب هذه الرسالة، والنوادر تترعرع في رحاب الكوارث، أن الأمير عبد الله خان صديقه القديم الشيخ أسعد الشقيري ووافق أن تكون بلده ـ عكا ـ ضمن الدولة اليهودية.

والواقع أن هذه النادرة كانت تنبئ عن فجيعة عميقة في دخيلة والدي. . فقد كان يردد لزواره في مجلسه قوله «لقد قضي علينا في آخر العمر أن نكون تحت علم إسرائيل بعد العلم العثماني. . وإنا لله وإنا إليه راجعون. . » ولعله لا يدري وهو في مضجعه اليوم، رحمه الله أن فلسطين كلها لا عكا فحسب يرفرف عليها العلم الإسرائيلي.

واندلعت نيران الغضب إلى سائر أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي، فنشبت موجة عارمة من الاحتجاج والاستنكار: من الهيآت الوطنية والمجالس النيابية والمنظمات الشعبية والحكومات. . . وكذلك من الملوك والأمراء الذين رأوا في تقرير اللجنة الملكية صفعة على وجوههم أمام شعوبهم.

وعلى الصعيد الدولي انبرى توفيق السويدي مندوب العراق وواصف غالي مندوب مصر، فعرضا قضية فلسطين أمام عصبة الأمم في جنيف عرضا قويا ونددا بالتقسيم، وطالبا بعدم الموافقة عليه.

وتداعت الشخصيات العربية في الوطن العربي إلى مؤتمر قومي يعقد في بلودان لمقاومة التقسيم وتأييد مطالب الشعب الفلسطيني، وقد انعقد المؤتمر في ٨ أيلول ١٩٣٧. وكان شامخاً شموخ قمم بلودان في الروح القومية التي تجلت في جلساته من البداية إلى النهاية.

ورأس المؤتمر ناجي السويدي فأبدى براعة وحصافة في توجيه المناقشات الوجهة الصحيحة، وقد اشترك في هذا المؤتمر كل رجالات العروبة من المشرق والمغرب، وانقسم إلى عدة لجان قدمت دراسات وتوصيات قيمة. وقد اشتركت في المؤتمر وكنت عضواً في لجنة الإعلام والتوعية وكان من رفاقي فيها الدكتور ناظم القدسي، (رئيس الجمهورية السورية في ما بعد) والدكتور فريد زين الدين (نائب وزير خارجية الجمهورية العربية المتحدة) وعدد من المثقفين السوريين والعراقيين واللبنانيين.

وكان لهذا المؤتمر أثر عظيم داخل فلسطين وخارجها وتجسد في قراراته التضامن العربي للدفاع عن فلسطين والذود عن عروبتها.

وكان مؤتمر بلودان عام ١٩٣٧ خيراً من مؤتمر بلودان الرسمي الذي عقد بعد ذلك بتسع سنوات ـ ١٩٤٦ ـ وخرجت عنه «المقررات السرية» وأصبحت سخرية الندوات وتفكهة المجالس . . إلى يومنا هذا.

وشق الشعب طريقه مسوقاً بفطرته وتدبيره. فقد استنفد وسائل الاحتجاج والاستنكار، واستشعر بوادر التأييد العاطفي تنهال عليه من العالمين العربي والإسلامي، بألوف البرقيات والرسائل، ومئات الاجتماعات وعشرات المظاهرات. ولكنه رأى أن يأخذ بزمام النضال المسلح بين يديه، قدر الوسائل التي يملكها، ولم يكن يملك من وسائل النضال إلا النزر اليسير . . وما غنمه من العدو في المعارك الماضية.

ومن غير أن يكون للجنة العربية العليا يد من قريب أو بعيد، تداعى المجاهدون من عصبة القسام وغيرهم، وتشاوروا فيما بينهم وتعاهدوا على النضال، فقد أيقنوا أن العمل السياسي فاشل لا محالة إذا لم تدعمه قوة السلاح، وأيقنوا كذلك أن النضال المسلح يجب أن يبدأه شعب فلسطين وعلى أرض فلسطين . . وأيقنوا أخيراً لا آخراً أن اللجنة العربية العليا، شأنها يوم أُنشئت، تقاد ولا تقود، مدفوعة غير دافعة، ولا بد أن توضع أمام الأمر الواقع، لتخرج من المكاتب والدوائر إلى الميدان ـ ميدان الشعب والنضال.

ذلك ما حدثني به «الإخوان» من القساميين، حين جاؤوني ليلاً إلى بيتي. فقد كانت لي صلة حسنة بعدد منهم، ثم توطدت يوم توليت الدفاع عن رفاقهم الذين وقعوا أسرى بيد السلطة البريطانية في أعقاب معركة أحراش يعبد في قضاء جنين.

ولم يكن هؤلاء الإخوان من المثقفين، العارفين بالأمور السياسية ومضاعفاتها سواء في الوطن العربي أو في العالم الدولي، ولكنهم كانوا عصبة مؤمنة، وقد أدركوا بفطرتهم السليمة أن فريضة الجهاد قد آن أوانها واقترب موعدها، وأنّ الجهاد ليس في حاجة إلى «ترخيص» أو مشورة من اللجنة العربية العليا أو من الملوك والأمراء.

وكان الأمر كذلك. فقد هبَّ «الإخوان» القساميون إلى كهوفهم ومغاورهم ينبشون ما طمروا من السلاح والعتاد يوم وقف الإضراب والثورة.

وتنادى المجاهدون الأبطال من شعب فلسطين البطل :

هيا يا رجال إلى السلاح.

وما هي إلا أيام، حتى كان شعبنا كله تحت السلاح . . .

افرجها علينا يا رب حتى نلتحق بالثورة

انتصف العام ـ ١٩٣٧ ـ وإذا بالعصابات المسلحة من رفاق القسام وغيرهم منتشرة في البلاد تقوم بعمليات عسكرية جريئة ضد السلطات البريطانية. فعهد إلى «الجنرال ويفل» المعروف بتجاربه الشهيرة في مقاومة الثورات بأن يتولى جميع المسؤوليات العسكرية بدلاً من الجنرال «ديل» الذي أخفق في مكافحة إضراب الستة أشهر والثورة التي رافقته.

وجاء شهر أيلول/ سبتمبر ـ ١٩٣٧ ـ فانفجر الموقف، وانفجرت معه السلطة البريطانية بكل إجراءات الطوارئ، وذلك أن أربعة من القساميين قد ترصدوا للمستر أندروز حاكم لواء الجليل فأطلقوا عليه الرصاص وأردوه قتيلاً، ومعه مرافقه العسكري، دون أن يرسل صرخة واحدة.

ولقد جن جنون السلطة البريطانية، فأعلنت حل اللجنة العربية العليا واللجان القومية، وعزلت الحاج أمين الحسيني من جميع مناصبه في المجلس الإسلامي الأعلى والأوقاف الاسلامية، واعتقلت أعضاء اللجنة العربية العليا: أحمد حلمي باشا والدكتور حسين الخالدي ورشيد الحاج إبراهيم ويعقوب الغصين وفؤاد سابا، ونقلوا على باخرة بريطانية إلى جزر سيشل، وواصلت إجراءاتها فقبضت على المئات من رجالات البلاد واحتجزتهم في معسكر في ضاحية عكا، عرف في ما بعد بمعتقل المزرعة.

وقد سُرّ خصوم الحاج أمين «بخلعه» من جميع مناصبه وسلطاته التي كان يحاربهم فيها حرباً لا هوادة فيها.. وقد سررت معهم ولكن لسبب آخر، ذلك أن القضية الوطنية ستجد قائدها متحرراً من ارتباطاته بالحكومة البريطانية.. فقد كان الحاج أمين حتى ذلك الوقت حريصاً على أن يقود الحركة الوطنية، ولكن من مكتبه في المجلس الإسلامي الأعلى. وكنت أتمنى له وللقضية أن يقودها مع الشعب، بعيداً عن أية صلة بالمندوب السامي البريطاني وأعوانه.. وأن يقودها جهاراً في عداء سافر لبريطانيا، لا للصهيونية فحسب كما كان يفعل طيلة الوقت.

وكان رجال الأمن يبحثون عن ثلاثة: الحاج أمين الحسيني وجمال الحسيني وأحمد الشقيري ليضمّوهم إلى قافلة المبعدين إلى سيشل.

وقد اعتصم الحاج أمين في الحرم الشريف في بيت المقدس بضعة أيام، ثم غافل السلطة البريطانية وهرب إلى لبنان في قارب صغير، ليقود الحركة الوطنية طيلة أيام الثورة.. وفعل فعله جمال الحسيني فهرب إلى لبنان ليصبح قريباً من الحاج أمين الحسيني. أمّا أنا فقد اختفيت بعض الوقت، وقدرت أنني أستطيع أن أمُوِّه على رجال الامن العام، فهربت إلى القدس ولجأت بضعة أيام في بيت المحامي عمر الصالح البرغوثي، ثم رأيت أن أنتقل إلى بيت المحامي مغنّم في حي الطالبية، حيث لا يمكن أن يخطر ببال البوليس أن ألجأ إلى هذا الحي الأرستقراطي.. وفي بيت محام كبير، كان لا يزال يحمل الجنسية الأمريكية.

وقضيت عشرة أيام في «ضيافة» مغنّم وأسرته، وأنا أراقب تطورات الأحداث في صميم «العاصمة»، والبوليس يبحث عني في عكا، وفي مدن الشمال وقراها، وقريباً من معابر البلاد ومخارجها.

وكانت السيدة مغنّم تعنى عناية بالغة، وتتولى بنفسها فتح الباب كلما دق الجرس خشية أن يكون البوليس قد علم بأمري... والسيدة مغنّم تجيد الإنكليزية الأمريكية كزوجها، وكان لها نشاط بارز في ميدان الدعاية وفي الميدان النسائي.

واستقر رأيي أن ألجأ إلى مصر وأتخذها مركزاً لنشاطي، وأن أكون على اتصال بالحاج أمين في لبنان، وبهذا لا ينحصر جهدنا كله في بلد واحد. وحملت السيدة مغنّم جواز سفري «الفلسطيني» إلى القنصلية المصرية في القدس وكانت في حي الطالبية نفسه، ولم تغادر القنصلية قبل أن تحصل على تأشيرة دخول... من غير استئذان من وزارة الداخلية في مصر. وكان الحصول على تأشيره الدخول لمصر دونه خرط القتاد..

وكنت قد أطلقت لحيتي وأصبحت جاهزاً للسفر، ولبست قبعة الأستاذ مغنّم ووضعت نظارة على عيني، وخرجت من دار مغنم «خواجا» لا يستطيع أحد أن يعرف شخصيته أو هويته، ولقد اخترت أن يكون سفري في يوم أحد، حين يحرص الإنكليز على الراحة والصلاة، فركبت قطار القدس إلى اللد، لأركب منها القطار المتجه إلى مصر.

وأفلحت الخطة تماماً.. وقد وصلت اللد ومنها أخذت قطار القاهرة، وكنت كلما أجتاز محطة فلسطينية أتنفس الصعداء، وأحسب أن القاهرة قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

وتجاوزنا غزة، وتناول ضابط المهاجرة الفلسطيني جواز سفري وختم عليه. . . وواصلت سفري حتى وصلنا إلى محطة دير البلح، وأنا أُطمئن نفسي أني قد نجوت، وما هي إلا محطة أخرى وأصبح على الأرض المصرية وتحت السيادة المصرية!!

وطال وقوف القطار في محطة دير البلح. . ولا يتوقف فيها عادة إلا خمس دقائق. . فمددت رأسي وقبعتي من النافذة وإذا ببضع سيارات عسكرية واقفة في فناء المحطة، ولم تخامرني الريبة فقد كنت على يقين أني نجوت. . وانتهى. .

وبينما كنت أراجع نفسي وأفكر، وأحسب وأقدر، وإذا «بالميجر هارنجتون» من كبار رجال الأمن البريطانيين، يدخل على غرفتي في القطار، وهو يقول بعنجهية بريطانية: «يا مستر شقيري، تعال نشرب الشاي معاً في غزة».

فلم أنبس ببنت شفة، وحملت حقيبتي ونزلت معه من القطار، وركبت السيارة، «وركَّب» الجنود القيد في يدي، ومضينا ننهب الرياح إلى غزة، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

وصلنا إلى غزة، والميجورهارنجتون لا يكلمني قليلاً ولا كثيراً، وكنا على معرفة وطيدة حين كان يعمل في الشمال والتقى بي كثيراً في المحاكم. . . وأصبح الآن لا يعرفني.

ووقفت بنا السيارة عند سجن غزة، ولم أكن قد عرفت غزة قبل ذلك. ودخلت السجن وتقدم أحد الجنود ففك القيد من يدي، وانصرف هارنجتون ومن معه، واستلمني ضابط السجن محمد الجاعوني وأخذني إلى زنزانة يطل بابها الحديد على ساحة السجن.

وكان الجاعوني لطيفاً معي، وتمنى أن لو كان سجيناً بدلاً عني، وكانت هذه روح جميع الموظفين العرب في حكومة فلسطين، مدنيين أو عسكريين.

وجاءني الضابط الجاعوني قبيل المساء وفتح الباب، خلافاً للتعليمات، وخرج بي إلى ساحة السجن لأتنفس قليلاً من الهواء. . . ووجدت حلقة من السجناء يفترشون الأرض فجلست معهم. . . وفي حياتي في المحاماة توطدت صلاتي «الروحية» بالسجناء المجرمين منهم والأبرياء.

وكان هؤلاء السجناء يقضون مدة «محكوميتهم»، بعضهم سنة وبعضهم خمساً وبعضهم سبعاً، وكانوا مجرمين حقاً، أدينوا في جرائم النهب والسلب، أو محاولة القتل أو ما شابه ذلك.

ودار الحديث بيننا عن الحركة الوطنية والإجراءات العسكرية التي أقدمت عليها

الحكومة البريطانية في مكافحة الثورة، وكانت عند السجناء معلومات تفصيلية عنها، فالحراس المناوبون الفلسطينيون كان همهم أن يخبروا السجناء بالأحداث اليومية، قبل أن يقولوا لهم صباح الخير.

وسادنا الصمت قليلاً من الوقت، وأطرقت إلى الأرض وأنا أفكر في المغامرة الفاشلة التي قمت بها، وانتهت بي إلى سجن غزة مع اللصوص والقتلة.. ورفعت رأسي لأستمع إلى المؤذن من جامع قريب، وهو يرتل بصوت جميل: الله أكبر الله أكبر.

وكانت ساعة صفاء الروح، ووقع الأذان من نفسي موقعاً رائعاً، وكأني لم أسمع في حياتي أبدع ولا أروع من هذا الأذان في ذلك المساء، وأنا الذي ربيت وترعرعت في الأحياء القديمة على صدى الأذان، ورجع التهليل والتكبير. ونهضنا جميعاً، وتوضأنا، وفي تلك الساحة المكشوفة ليس بينها وبين الله حجاب، وقفنا للصلاة، ودفعني السجناء إلى الأمام، فصليت فيهم إماماً.. وكانت إمامتي الأولى والأخيرة في حياتي... وفرغنا من الصلاة، ودعونا الله، كلّ بما يشاء، وصاح أحدهم من خلفي وهو يدعو: «يا رب أفرجها علينا حتى نلتحق بالثورة».

وهنالك ازداد إيماني بهذا الشعب الباسل وقلت في نفسي: «يا رب، لم هذا البلاء العظيم على هذا الشعب العظيم؟»

وتفرقنا بعد الصلاة، السجناء إلى «القاووش» حيث يبيتون، وأنا إلى زنزانتي. ففرشت «البطانية» على الأرض وتوسدت حقيبة ملابسي واستغرقت في نوم عميق لا عهد لي به منذ زمان طويل، فقد سكنت كل مخاوفي وأصبحت في السجن.. ولم أعد أخشى شيئاً، «فإن الذين تخشين قد وقعا».

وانتشر خبر اعتقالي في غزة بسرعة البرق... ويكفي أن تضع «السر» في أذن الحراس الفلسطينين المناوبين حتى يفشوه قبل أن يرتد إليك طرفك.. ووجدت في زنزانتي طعام الفطور مرسلاً إليّ من بيت فهمي الحسيني من الوطنيين والمحامين المعروفين في غزة، وكذلك جاءني طعام الغداء وطعام العشاء.

وكان الطعام شهيّاً، فليس لي ما أفعله في السجن إلا الأكل، وزاد من لذته أنه كان «مفلفلاً» بكمية كبيرة، على عادة أهل غزة في طعامهم، وأحسست في اليوم الثاني بلاء الفلفل في معدتي وأمعائي.. فدفعت بورقة صغيرة إلى فهمي الحسيني أرجوه أن يتلطفوا بالفلفل، فإن السجن يكفي.. عناء وعقاباً..

وقضيت في سجن غزة خمسة أيام وأنا لا أدري ماذا سيصير إليه أمري، وجاءني الضابط الجاعوني وأسرّ في أذني: «أحمد الله، فقد قبضوا عليك بعد أن أقلعت المدمرة

البريطانية من مياه حيفا وعليها المبعدون إلى سيشل: حلمي باشا ورفقاه، وكان مقرراً أن تكون معهم..»

وقلت للأخ الجاعوني: «وماذا بعد ذلك، هل سأظل في سجن غزة وما هو مصيري؟» فقال: «لا أدري..»

ولم يكن الضابط الجاعوني يدري حقاً، فلم تكن السلطة البريطانية تأتمن الموظفين العرب على أسرارها... وهذا ما كان فعلاً.. فقد نمت تلك الليلة في زنزانتي كعادتي، ليس في ذهني شيء، فقد طرحت كل هواجسي خارج السجن، والسجن والموت إحدى الراحتين.

وفي الهزيع الأخير من الليل استيقظت على الجندي البريطاني وهو يفتح باب الزنزانة، في جلبة وقعقعة، فركلني برجله وهو يدعوني إلى النهوض بألفاظ «العساكر» البذيئة...

ارتديت ملابسي كيفما اتفق، وحملت حقيبيتي وأنا لا أدري إلى أين. وسارت بنا سيارة عسكرية إلى القطار يقلني إلى حيفا، ولست أدري بعد ذلك إلى أين.

وفي غرفة صغيرة في القطار، تحت السلاح الكامل، قضيت خمس ساعات لا يجرؤ أحد أن يكلمني وأنا أستمع إلى «الركاب» وهم يقولون: «الشقيري اعتقلوه».

وكان يجلس إلى جانبي جندي فلسطيني برتبة جاويش، فخطر لي تسلية واستطلاعاً أن اسأله كيف قبض عليّ في دير البلح، وكيف عرفت السلطة بي، مع أني احكمت خطتي كل الإحكام؟ فقال لي الجاويش الفلسطيني: «إنها الصدفة ولولاها لنجوت».

قلت: «وكيف ذلك؟»

قال: «في ذلك اليوم كان الجاويش البريطاني «ماكريكر» يستقل القطار معك، منقولاً من عكا إلى غزة، وهذا الشاويش يعرفك معرفة جيدة، وقد رآك في القطار فاتصل بدائرة الأمن العام، ولحقوا بك في محطة دير البلح».

فقلت: «لا بأس، وكم من صدفة شر من ميعاد».

ووصلنا إلى حيفا، وكانت سيارة عسكرية تنتظرني في ساحة المحطة، وفي نصف ساعة أصبحت في سجن عكا، في غرفة صغيرة عند مدخل الباب الرئيسي، فتنفست الصعداء أن إبعادي إلى سيشل لم يعد وارداً، وحمدت الله أنني في سجن عكا، حيث أعرف مديره «الكابتن جرانت» معرفة وطيدة أثناء عملي في المحاماة وزياراتي المتعددة للسجن للاجتماع بالموقوفين الموكلين.

وبينما كنت أروح وأغدو في غرفة السجن، وإذا بصديقنا الكابتن جرانت يدخل علي بعجرفة طاغية، ويتقدم إليّ وهو يسأل: «من أنت؟ وما اسمك؟» . . وكدت لا أصدق عيني وأذني، أهذا هو الكابتن جرانت الذي يتجاهلني ويصيح في وجهي ثم يسأل عن اسمي؟ . .

فهدأت من روعي على مضض، وأنا الآن في قبضة السجّان وقلت له مبتسماً: «أنا المحامي أحمد الشقيري من مدينة عكا». فحملق بي الكابتن جرانت من وراء نظارته، ثم خرج من الغرفة لا يقول شيئاً.

ومضت ساعة من الزمن وإذا بصديقنا الكابتن جرانت يقتحم عليّ غرفتي مرة ثانية، وكأنما يقود حملة عسكرية ظافرة وهو يصيح: «من الذي يدخن؟ هل أنت الذي يدخن هنا؟ ألا تعلم أن أنظمة السجن تمنع التدخين؟» وأيقنت أن «الكابتن جرانت» يريد أن يستدرجني إلى الشر، حتى يتسنى له تطبيق أنظمة السجن الصارمة، فقلت له في هدوء: «أنا لا أدخن، ولم أذق طعم التدخين في حياتي» . . . فخرج من الغرفة وكأنما أسقط في يده . . . ومع ذلك فقد ظلّ الغدر ينتظرني . . .

وعند الظهيرة، نقلت إلى داخل السجن إلى جناح المجرمين، إلى «قاووش» فيه ما يقرب من ثلاثين من القتلة واللصوص وأصحاب السوابق الرهيبة، ودفعني الجندي البريطاني إلى «داخل الكاووش» ولو لم يتلقفني السجناء لهويت إلى الأرض على أمّ رأسي.

وقضيت في هذا «القاووش» عشرين يوماً مع «زملائي» السجناء، لا نخرج إلا فترات قصيرة إلى ساحة السجن التماساً للهواء والشمس . . . أمّا باقي النهار والليل ففي هذا «القاووش» كتفاً إلى كتف مع «إخوان الصفا والوفا»، من القتلة واللصوص.

أقول إخوان «الصفا والوفا» لأنهم والحق جعلوا أيامي صفاء أيما صفاء، بما كانوا يبذلون لي من كريم الرعاية والعناية . . فقد هيأوا لي مكاناً أبيت فيه بجانب الباب . . . حتى لا أختنق بأنفاسهم، ثم أعفوني من دوري في تنظيف الغرفة وحمل «كردل» القاذورات وإلقائه في المرحاض، وعلى الجملة فقد جعلوني سجيناً ممتازاً مرفهاً بكل معنى الكلمة.

وكانت أخبار البلاد تصل إلينا تباعاً عن طريق الحراس الفلسطينيين الذين كانوا يهمسون إلينا بالأخبار من وراء القضبان، والسرور يملأ وجوههم «اليوم ضربت أنابيب البترول ـ اليوم هاجم الثوار قافلة بريطانية وأبادوها ـ اليوم نسفت الخطوط الحديدية من طولكرم إلى اللد» ـ وهكذا . .

وكانت تصل إلينا هذه الأخبار فنجلس في «القاووش» في حلقة فيسألوني عن القضية الوطنية وشؤونها، ثم تنتهي هذه «الندوة» الحلوة، وهم يرددون الدعاء الذي سمعته قبل أيام في سجن غزة. . «يا رب افرجها علينا حتى نلتحق بالثورة». . . وأنا أقول في نفسي: «يا رب، ما أعظم هذا الشعب العظيم».

ووصلت أخبار اعتقالي في السجن إلى أهل عكا، وهم قومي وعشيرتي، فبلغ الاستياء والسخط مبلغه، وتساءل الناس لماذا يكون الشقيري في السجن مع المجرمين، وجميع المعتقلين الوطنيين موجودون في معتقل المزرعة في ضاحية عكا، حيث يعاملون معاملة المعتقلين السياسيين؟

وازداد القلق والاضطراب لهذا الظلم السافر من غير داع ولا مبرر. . . فتألف وفد من أعيان المدينة وشبابها برئاسة حسني خليفة رئيس البلديّة واجتمعوا إلى الحاكم البريطاني، محتجين مستنكرين، وطالبوا بنقلي من السجن إلى المعتقل، فأوضح لهم الحاكم البريطاني أن هذه تعليمات من القدس، وسيجري الاتصال اللازم ويأمل الاستجابة لمطالبهم.

ومضى أسبوع على ذلك، وبينما كنت مع الزملاء السجناء في حلقتنا اليومية نتداول الأخبار، وإذا بضابط السجن يفتح علينا الباب ويقول: «الشقيري تفضل. .» وصاح السجناء: «إفراج، إفراج». . فقال الضابط: «لا. . . إلى معتقل المزرعة. .»

وأعددت حقيبتي، وهي على الدوام وسادتي، وأقبل عليّ السجناء مودعين وفي عيونهم دموع الوفاء، فكانوا حقاً «إخوان الصفا والوفا».

وانطلقت بي سيارة السجن، إلى معتقل المزرعة في ضاحية عكا، وما إن انتشر الخبر بين المعتقلين حتى تجمعوا عند الباب وراء الأسلاك الشائكة، فدخلت إليهم.

وكانت مظاهرة وطنية كبرى، حملني الشباب على الأكتاف وطافوا بي في ساحات المعتقل في الهواء الطلق وهم يهتفون «أهلا وسهلاً باللي طلّ، بالشقيري حبيب الكل» ولم أكن أستحق هذه المظاهرة وهذا الهتاف، ولكن المعتقلين أرادوها نكاية بالجنود البريطانيين وهم يقفون حول المعسكر شاكي السلاح. . . فكانت كما أرادوا. . .

وكذلك هنا، التقيت «بإخوان الصفا والوفا»، فقد كانت فلسطين كلها في المعتقل. . . ويا روعة تلك الأيام. . ويا حسرة هذه الايام. .

وللحديث شؤون وشجون. . في المعتقلات وفي السجون.

﴿ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾(*)

دخلت معتقل المزرعة فلم أجد فارقاً بين الحرية والاعتقال إلا بهذه الأسلاك الشائكة تحيط بنا حتى ساحل البحر، فقد كانت فلسطين كلها في المعتقل.

وفي هذا القول تجاوز على الحقيقة من حيث العدد، ليس إلا، فلم يكن الشعب كله بأفراده في هذا المعتقل، ولكنّ أعيان البلاد، وشبابها، وأعضاء لجانها القومية، وممثلي المدن والقرى، وقضاتها وعلماءها، ورجال طوائفها . . . كل هؤلاء كانوا في معتقل المزرعة، ساقتهم السلطة البريطانية من مدنهم وقراهم وحشدتهم في هذا «المعسكر» لا يجاوره إلا البحر الأبيض المتوسط.

وكان معتقل المزرعة مؤلفاً من بضعة عشر «عنبراً»، وسقفه وجدرانه من الخشب، مبنية إلى جانب بعضها البعض على الرمل، وبين بعضها البعض شوارع ومعابر، حتى غدا المكان مدينة صغيرة، يقيم فيها هذا «العالم الصغير» من الشعب الفلسطيني.

وقد أقمت في واحد من هذه العنابر، وقد شاءت العصبية الإقليمية أن أكون في «عنبر» كل من فيه من عكا وقراها، فاحتفوا بي، وأكرموني. . . ، ولست أدري كيف دبروا لي فرشة نعمت بها طيلة اعتقالي.

ولم تكن حياة المعتقل قاسية بصورة عامة، وإن كانت الحياة بدائية فيه إلى أقصى الحدود، فقد كنا في «العنبر» الواحد قرابة مئة، وننام ممددين، الواحد في وجه الآخر . . . ننام في وقت واحد ونستيقظ في وقت واحد، ونجلس القرفصاء في الصباح ليمر علينا الضابط البريطاني وبيده عصاه يلكزنا بها على أكتافنا وهو يعدنا واحداً واحداً، حتى إذا بلغ النهاية، ولم يجد نقصاناً، قال بالعربية وفي لكنة بريطانية «تمام» . . .

ولم يكن في المعتقل ما يشغلنا سوى المطالعة، مطالعة الكتب، فالجرائد كانت

(*) **القرآن الكريم**، «سورة مريم،» الآية ٢٣.

ممنوعة، والتدخين كان ممنوعاً، ولذلك فقد كنا نجلس حلقات نتحدث عن أمورنا . .

وفي يوم الجمعة كانت السلطة تسمح للأقرباء والأصدقاء بزيارة المعتقلين من وراء الأسلاك، فكنا نقف صفاً طويلاً وأمامنا صف طويل من الزوار، فتتعالى الأصوات وتختلط الأحاديث وليس فيها شيء عن الأهل والأولاد، بل كلها أخبار عن الثورة: المجاهدون ضربوا معسكرات العدو، هاجموا المستعمرات اليهودية في الجليل، أزالوا قضبان السكك الحديدي لعدة كيلومترات، فجروا عدة قنابل في قلب تل أبيب، أشعلوا النار في أنابيب البترول وألسنة اللهب تضيء القرى المجاورة، الإنكليز نسفوا دار رافع الفاهوم بالديناميت، قبضوا على الشيخ فرحان السعدي وحاكموه وأعدموه. . . وما شاكل ذلك من أنباء الثورة مما يملأ المجلدات.

ولا ينقضي يوم جمعة حتى نتتظر الجمعة المقبلة. وما يحمل زوارنا من أخبار الجهاد، وقد انتشر في كل أنحاء البلاد، وتزداد مع هذه الأخبار أفواج المعتقلين يتوافدون علينا يوماً بعد يوم، ويئن المعتقل: هل من مزيد؟

ولم تكن حياة المعتقل تخلو من التندر، والفراغ أبو النوادر.

فهذا الشيخ أديب الخالدي (مفتي جنين)، وكان صاحب نكتة، حلو الحديث، يروي لإخوانه أنه رأى في منامه أن السلطة البريطانية قد نقلت المعتقلين إلى الهند، وأنه تزوج في الهند، الثالثة أوالرابعة، لم أعد أذكر.

وهذا صبحي الخضراء (صفد) صاحب القامة الطويلة والجسد المتكامل، يقضي وقته وهو يرفع يديه ويمد رجليه في رياضة شاقة، فيمازحه أحد أصدقائه ويقول له: هل تطمح أن تصبح أطول مما أنت؟

وهذا إبراهيم درويش (القدس) يطوف على العنابر وقت الغداء ليأكل هنا وهناك وهو يقول: قبح الله «عوض» إنه لم يرسل إليّ الطعام.

وكان إلياس عوض صاحب مطعم في عكا أوشك على الإفلاس أيام الإضراب الكبير، فلما اكتظ معتقل المزرعة أقبلت عليه الدنيا، وأصبح يقدم الطعام للمعتقلين «مشاهرة»، وعوّض الله على عوض كل خسائره السابقة. ومصائب قوم عند قوم فوائد.

وطالت إقامتنا في معتقل المزرعة فقد انتهى الخريف وأقبل الشتاء يحمل معه شعور الضجر والملل، وبدا لنا أن نتصل ببعض قادة الثورة لنقترح عليهم أن يهاجموا المعتقل، ويحملونا معهم، كل لما يصلح له، وكان بيننا بعض القساميين فاتصلوا بإخوانهم في الخارج ليحكموا الخطة.

وشاءت صدفة أن تحول دون ذلك، فقد عسكرت بجانبنا مفرزة بريطانية ولم

يعد ممكناً أن تنفذ الخطة، فإن المغامرة في مثل تلك الظروف تؤدي حتماً إلى إطلاق سراحنا، ولكن جثثا هامدة تسلم إلى أهلينا ومنهم إلى المقابر.

ولقد تمنيت وأنا أكتب اليوم هذه المذكرات، أن لو حدثت المغامرة وهلكنا جميعاً في عام ١٩٣٧، وأن لا نكون قد عشنا هذه الثلاثين سنة لنشهد العار والنكبة في الخامس من حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧ . . ليتنا هلكنا قبل ذلك. ليتنا . . ولا يزال على قيد الحياة كثيرون من أبناء فلسطين الذين ضمهم معتقل المزرعة، ويقيني أن كل واحد منهم يردد الآن قول الله تعالى: ﴿**يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا**﴾ .

وأقبل الربيع والثورة تزداد شدة واتساعا، والمجاهدون يستبسلون في كل مكان، وينزلون الرعب في قلوب القوات البريطانية، وأدركت السلطة أنّ «أسلوب» الاعتقال لم يعد مجدياً، فأخذت تفرج عن المعتقلين فوجاً فوجاً.

وجاء دوري بين أفواج المسرّحين، وخرجت من المعتقل إلى بيتي وبينهما بضعة كيلو مترات، وزارني في بيتي في اليوم التالي حسن الكاتب مدير البوليس (أحد وزراء الحكومة الأردنية، في ما بعد) وطلب إليّ بناء على التعليمات العليا أن ألتزم الهدوء والسكينة وأن لا أقوم بأي نشاط.

ومضت بضعة أيام تلقيت بعدها دعوة لمقابلة المستر «كيركبرايد» حاكم لواء الجليل في الناصرة، وذهبت في الموعد المحدد إلى سراي المسكوبية، وإذا بي أجدها مملوءة بالأعيان والوجهاء من جميع أنحاء لواء الجليل وفيهم عدد من الذين أفرج عنهم أخيراً.

ودخلنا على الحاكم البريطاني فألقى علينا بياناً مكتوباً، كله تهديد ووعيد بنسف المدن وتدمير القرى وفرض الغرامات الباهظة وو. . . وو. . إذا لم تتوقف الثورة وأمهلنا ساعة لنعطيه الجواب. . . !!

ولم يكن الأمر في حاجة إلى هذه المهلة، فقد كان كل شيء واضحاً في أذهاننا، هذه ثورة شعبية تسعى لتحقيق مطالب وطنية ولا سبيل لوقفها قبل أن تتحقق مطالب الشعب، كان ذلك هوموقفنا، وقد أنابني المجتمعون أن أتكلم بلسانهم في هذا الإطار.

وعاد الحاكم البريطاني إلينا، فتحدثت إليه بما اتفقنا عليه، شارحاً تاريخ الكفاح الوطني وثوراته في ٢٠ و٢٩ و٣٣ و١٩٣٦ وأنّ الشعب سيظل ماضياً في كفاحه الوطني حتى تتحقق آماله القومية، شأنه في ذلك شأن الشعوب العربية، من حوله.

وما إن انتهيت من حديثي، حتى أخذ الحاكم البريطاني، وكان يحسن العربية، يوجه سؤاله إلى الحاضرين واحداً واحداً، ما رأيك يا رئيس البدية؟ ما رأيك يا حضرة المختار؟ ما رأيك يا فلان؟ . . .

وكان جواب الجميع: «إن ما قاله الشقيري يعبّر عن رأينا، وإنّ رأينا هو رأي الشعب، ونحن لا نملك أن نوقف ثورة الشعب».

وبدا أن الحاكم البريطاني يكظم غيظه، فصمت وانتهت الجلسة، وذهبنا جميعاً إلى دار يوسف الفاهوم لتناول الغداء، وللمداولة في الموقف.

وأنا كذلك.. وإذا بالسيد جرجورة من كبار الموظفين في الناصرة يدخل علينا ثائراً، يجلس إلى جانبي ويهمس في أذني بكل رفق أن لا أسافر إلى عكا، فقد صدرت التعليمات بإلقاء القبض عليّ فور وصولي اليها، وأنّ علي أن أتدبرّ أمري.

فتلقيت النبأ بسكينة وهدوء، وما إن انتهينا من الغداء والاجتماع حتى خرجت بسيارتي من الناصرة إلى طبريا... لا إلى عكا.. وكنت بيَّت أمراً.. ومن طبريا واصلت سفري إلى سمخ ومنها إلى الحمّة، وكنت أثناء اعتقالي في الحمّة خلال الإضراب، عرفت طريقاً عسكرياً يصل الحمّة بالقرى السورية، فيق وكفر حارب، ومنها إلى دمشق.

وأخذت أتسلق الجبل من الحمّة، وكان الطريق وعراً، ولا يصلح إلا للسيارات العسكرية، وقبل أن أبلغ القمة توقفت السيارة وأصبح يستحيل مواصلة السير.. فعدت أدراجي إلى الحمّة وأنا لا أدري ما أصنع.. وفي اللحظات الحرجة تنفتح منابع الذاكرة، فتذكرت أن لي في تلك المنطقة صديقاً من موظفي الحكومة هو السيد روحي الخطيب (رئيس بلدية القدس في ما بعد)، اتصلت به، فكان حصيفاً وجريئاً، فرتب أمر سفري بالقطار من الحمّة إلى دمشق من غير جواز سفر، وظللت أذكر له تلك المكرمة كلما لقيته في القدس الخالدة.

وصلت إلى دمشق، إلى أوتيل أوريان بالاس وتناولت التلفون لأطلب رقم ٣٠ عكا. وبعد ساعتين كانت زوجتي على التلفون... وأنا أقول لها: «أبو مازن يكلمك، الحمد لله أنا بخير وعافية.. لقد وصلت إلى دمشق وسأكتب إليك قريباً..» ولقد كانت مفاجأة لزوجتي أن أكلّمها من دمشق وهي تحسب اني أكلّمها من الناصرة، ولكن حياتنا في فلسطين كانت كلها مفاجآت حتى باتت المفاجأة هي الأصل، هي طبيعة الأمور، وأصبحت طبيعة الأمور هي المفاجأة.

وبدأت صفحة جديدة من حياتي في سوريا ولبنان، أساهم خلالها بقسط متواضع في خدمة الثورة، ثورة الشعب، إلى جانب إخواني العاملين.

ولكل حادث حديث.

الثـورة، الثـورة وحـدها..

قضيت بضعة أيام في دمشق، بعد هروبي من فلسطين، اجتمعت خلالها بعدد من العاملين الوطنيين منهم عزة دروزة، معين الماضي وصبحي الخضراء وكانوا قد لجأوا إلى دمشق قبلي، وتداولنا الرأي في ما وصلت إليه أمور الثورة داخل البلاد وضرورة تنظيمها وتدعيمها مع الاهتمام بجوانبها السياسية والإعلامية، واقترح علي الإخوان أن أجعل بيروت مقراً لي على مقربة من الحاج أمين، فنتعاون ونعمل معاً.

وجئت إلى بيروت فسكنت في بيت متواضع في حي رأس النبع، فقد اعتذرت عن قبول أي راتب من صندوق الثورة، وكان عليّ أن أكون مقتصداً في الإنفاق حتى يحقق الله لنا النصر ونعود إلى البلاد. . ولا ينفد الرصيد المحدود الذي نعيش منه أنا وعائلتي.

ولم أكن قد نفضت غبار السفر حتى بادرت لزيارة الحاج أمين الحسيني، وكان يقيم في قصر فخم في ذوق ميكائيل من ضواحي بيروت، وحوله عدد من البيوت استأجرها للأقرباء، إسحق درويش ومنيف الحسيني وسعد الدين عبد اللطيف، عدا الأعوان والأنصار.

وقد استقبلني الحاج أمين استقبالاً حاراً، بالدموع والعناق، وكانت الصالة غاصة بالزوار، فكان حديثنا عاماً عن شؤون البلاد، وخرجت دون أن أجد وقتاً لكلمة جدية.

وانصرفت بكل ما لدي من جهد وطاقة في هذا المجال، أجتمع بالصحافيين الأجانب، وسفارات الدول الصديقة، أشرح تباعاً تطورات القضية الفلسطينية وشؤون الثورة، وفي ما يبقى لي من وقت بعد ذلك أكتب المقالات التوجيهية ـ في جريدة **النهار** ـ بيروت ـ اليوم، وكان السيد أحمد الإمام (من يافا) يستلم مني هذه المقالات «بقلم عربي» ويسلمها بدوره إلى الصحف العربية.

ولكن مقالات **النهار** كنت أسلمها باليد إلى جبران التويني في مكتبه، فقد كنت أجلس في مقهى العجمي في بيروت، وكان مكتب النهار في ذلك الحي، وكنت إذا لمحت جبران التويني قادماً إلى مكتبه، سرت معه، وسلمته المقالة، وهو يسلمها بدوره إلى الموظف المختص قائلاً: «على الصفحة الأولى»، ثم يوجه إليّ الكلام ليقول «قضية فلسطين لها المقام الأول»، فأعرب عن الشكر من جانبي، وأذكره بلقائنا القديم، على مقابر الشهداء في ٦ أيار/مايو ١٩٢٧.. وانصرف عن هذه الذكريات...

ولقد لقيت في هذا العمل، بظروفه لا بطبيعته، عناءً كبيراً، فإن التعاون مع الحاج أمين عسير للغاية إذا كان المرء يريد أن يعمل بنظام..

وفي خلواتي الكثيرة بالحاج أمين كنت أدعوه إلى التنظيم، لا أطمع بأن أجعله على مستوى الوكالة اليهودية، ولكن ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

فقد كنت أذهب إليه، فأجد غرف القصر مشغولة كلها، جماعة هنا في هذه الغرفة، وجماعة هناك في تلك الغرفة، وهو ينتقل بلا كلل ولا ملل من غرفة إلى غرفة، يخلو بهذه الجماعة حيناً، وبتلك الجماعة حيناً آخر، ولا يدري بعضهم عن بعضهم شيئاً... وربما دخل هؤلاء وخرج أولئك من الأبواب الخلفية... والحاج أمين يحسن اختيار البيوت التي تكثر مداخلها ومخارجها.

وقد صارحته غير مرة أن قيادة الثورة تتطلب تنظيمها وأنّ الثورة ليست فوضى ولكنها نظام في ظل الثورة، وأنّ الكفاءات الكثيرة يجب الانتفاع بها، كل بما تصلح له.

وصارحته كذلك أنه أصبح قائد الشعب بلا منازع، خصوصاً بعد أن فعل به الإنكليز ما فعلوا، وأنّه ليس له أن يخشى منافسة أحد، وليس عليه إلا أن يحيط نفسه بالمخلصين من أبناء الشعب، بدلاً عن ذلك الجيش من الأعوان والأنصار، وما يتقاضون من رواتب، وليس لهم عمل إلا الجلوس في الصالون للتعقيب على الأحداث وتطييب المواقف، والإكثار من تمجيد سماحته... وتعداد مناقب سماحته..

وقد خطر لي أكثر من مرة أن أعتكف في بيتي، حين أخفق مسعاي في أن أحمل الحاج أمين على العمل الوطني المنظم... ولكني لم أستطع إلى ذلك سبيلاً، وقد كان شعبنا في البلاد يخوض معارك البطولة والشرف، ويتساقط الشهداء بالمئات، فليس لي أن أتقاعد وأتقاعس.

ولم تكن شكواي وحدي، فقد كان عدد من العاملين في الحقل الوطني يلحّون إلحاحي، ومنهم جمال الحسيني وموسى العلمي، بل كانوا أكثر مني تبرماً وضجراً.

ومع الوقت «ألفت» أسلوب الحاج أمين، وجعلت أعصابي في ثلاجة، فقد أيقنت أن الحاج أمين لا علاج له، فإما أن تعمل معه «بأسلوبه» أو لا تعمل: ولا وسط بينهما.

أجل، لقد ألفت هذا الأسلوب، لأنّ الثورة ضرورة قومية ولا بد لها من قائد.

ولقد كان الحاج أمين هو ذلك القائد صنعته ظروف متعددة، وسنون طويلة، وقد أصبح معبود الشعب، فلا مكان للتغيير ولا إمكان. . وهو فوق ذلك شجاع جسور، مخلص صلب، وفيه كثير من مؤهلات الزعامة. . . وهكذا كنت أسلّي نفسي مرة، وأعزّي نفسي مرة، وأنا أعمل معه في بيروت، ووالدي، خصمه اللدود، ينظر إليّ من عكا نظرة استهجان واستغراب. . غفر الله لي وله.

وبهذا العزاء وهذا السلوان مضيت في عملي أعالج الأمور السياسية والإعلامية، وورائي فيض زاخر من أنباء الثورة، إذ أيّة قيمة للسياسة والإعلام إذا لم يكن وراءهما كفاح مسلح تتعاقب أخباره الليل والنهار.

وكان ذلك العام، ١٩٣٨، أحلى أعوام عمري، لأن أحلى أخبار الثورة كانت تصلني فأزداد نشاطاً. . فلقد قام المجاهدون في ذلك العام بِـ ٥٧٠٨ هجمات أو حملات أو عمليات عسكرية، هذا بحسب الإحصاءات الرسمية.

ولقد شملت الثورة كل أنحاء البلاد، واستطاعت أن تمارس «سيادة» وطنية في جميع القرى وفي كثير من المدن، وبقيت القدس القديمة تحت سيطرة الثورة زمناً طويلاً حتى جهز لها الإنكليز حملة عسكرية، واستقدموا لها قوات من مصر وإنكلترا.

وفي جنين استطاع نفر من المجاهدين أن يقتحموا سراي الحكومة ويقتلوا المستر موفات الحاكم البريطاني، وهو وسط حراسة شديدة ثقيلة، وعاد «القاتل» سالماً غانماً.

وفي بئر السبع اقتحم الثوار دور الحكومة وأشعلوا النار فيها وهاجموا السجن وأطلقوا سراح السجناء، وتوالت هجمات الثوار في طول البلاد وعرضها، وانتشرت محاكم الثورة في كل مكان، وتعززت القوات البريطانية، وحل الجنرال «هايننج» محل الجنرال «ويفل»، وأنشأت قوات الجيش البريطاني سوراً من الأسلاك

الشائكة المكهربة يمتد على حدود البلاد من الشمال والشرق، لقطع المدد عن الثورة.

هذه نماذج صغيرة عن الأحداث الكثيرة التي كانت تقع في البلاد، فتصل إليّ عن طريق الرسائل والرسل، فنطبع منها البيانات والكراسات، وندفع بها إلى السفارات وإلى وكالات الأنباء الاجنبية.

وكان بعض قادة الثورة يصلون إلى بيروت في بعض شؤونهم، فأجتمع إليهم وأتداول وإياهم شؤون الكفاح المسلح وأخباره.

وإنيّ لأذكر تلك الليلة التي جاءني فيها عبد الله سمارة (طولكرم) وكان لاجئاً في لبنان، ليقول لي إن معه ضيفاً لا يطمئن إلا إذا بات عندي . . . قلت: «مرحباً بك وبالضيف، ادخلوا» . .

وكان الضيف القائد الشجاع عبد الرحيم الحاج محمد (طولكرم) فدخل، وقضى عندنا ثلاث ليال وهو يروح ويغدو عند الحاج أمين، شاكياً متبرماً، وأنا أقول له: «إصبر وما صبرك إلا بالله».

وقد كنت أتردد كذلك على دمشق، وكانت مقر قادة الثورة، لأكون على صلة دائمة بالأحداث، وفي حي الميدان كنت ألتقي بالقائد خليل عيسى «أبو إبراهيم الكبير» وصحبه وأصحابي من القساميين، ونتناول الغداء معاً على الحصيرة في منزله، ببساطة المؤمنين وتقشف المجاهدين، على غير ما كنت أرى من حال الزعماء الصغار من أعوان الحاج أمين، الذين كانوا يعيشون في بيوتهم من أموال الثورة والجهاد . .

وأخيراً، وبعد أن عجزت الحكومة البريطانية، لجأت إلى أسلوبها التقليدي فأعلنت بأنها ألفت لجنة فنية «لجنة وودهد» لتبحث الإمكانات العملية لمشروع التقسيم، وقد وصلت هذه اللجنة إلى فلسطين في شهر نيسان/ أبريل ١٩٣٨، واستمرت في عملها قرابة خمسة أشهر.

وقمنا في ذلك الوقت بحملة واسعة للتنديد بسياسة اللجان البريطانية، ولم يكن تحت تصرفنا إذاعة، ولكن بياناتنا كانت تصل إلى كل أرجاء البلاد، فاشتدت الثورة ورأت «اللجنة الفنية» من بسالة شعبنا العجب العجاب . . . وامتنع الشعب عن التعاون معها، ولم يتقدم إليها عربي واحد بكلمة واحدة.

وعادت «اللجنة الفنية» إلى إنكلترا فأصدرت تقريرها في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ومعه بيان بسياسة الحكومة البريطانية، يقول بعد سرد

الإحصاءات والدراسات... إن «الصعوبات السياسية والإدارية والاقتصادية التي تتمثل في إقامة دولة يهودية، وأخرى عربية في فلسطين، عظيمة جداً بحيث تجعل مشروع التقسيم غير عملي ولا يمكن تطبيقه».. ثم أعلن البيان السياسي أن بريطانيا ستدعو زعماء العرب واليهود إلى مؤتمر يعقد في لندن لبحث مستقبل فلسطين السياسي.

ولم تكن جديدة تلك الصعوبات السياسية والإدارية والاقتصادية التي جعلت بريطانيا تعدل عن مشروع التقسيم، بل لم تكن خافية على بريطانيا حتى جاءت اللجنة الفنية واكتشفتها بسحر ساحر، ولكن كان هناك سبب أعظم من الإحصاءات والدراسات: إنها الثورة المسلحة وليس غيرها.

الثورة، والثورة وحدها، هي التي تصنع الأمر الواقع، ماله من دافع.

وإنّ الثورة، والثورة وحدها، في عام ١٩٣٨ هي التي أحبطت التقسيم.

لقد أحبط شعبنا التقسيم في ١٩٣٨، ولكن... ولكن بعد عشر سنوات، ١٩٤٨ أخفقت سبع دول عربية في إحباط مشروع التقسيم..

وكان لذلك أسباب... وأسباب..

وما أشقى مذكراتي حين ترويها..

العرب والإنكليز واليهود اتفقوا على شيء واحد؟

لقد وقع ما كنت أخشاه، فقد غاصت البلاد في بركة من الدماء، لا بالنسبة إلى الكفاح المسلح بيننا وبين الصهيونية والاستعمار، فذلك أمر لا محيص عنه، والحرية لا تأتي رخيصة من غير ثمن، ولكن بالنسبة إلى حملات الاغتيالات والثارات التي وقعت في صفوفنا، فأجهضت ثورتنا المقدسة وألحقت بها عاراً لا ينسى.

وكانت الثورة في بدايتها انفجاراً ذاتياً، يجهز المناضلون أنفسهم بأنفسهم، سلاحاً وعتاداً وتموينا، بأموالهم وبما يجمعونه من أهل المدن والقرى، حتى إذا اشتعلت الثورة أخذت اللجنة العربية بمساندتها من بيروت ودمشق.

ثم اندست في صفوف الثورة عناصر متعددة الأهداف، بعضها للسلب والنهب فيبتزون الأموال باسم الثورة، وبعضها الآخر لإشباع الأحقاد وإرواء الخصومات فيغتالون الأبرياء، باسم الوطن... ويا شقاء الوطن..

وكانت دوافع الاغتيالات تتسم بالشعارات الرائجة، هذا جاسوس يعمل لحساب الإنكليز، وهذا سمسار يبيع الأراضي لليهود، وهذا عدو الثورة، وذاك... وذاك.

وسقط الكثير من الأبرياء، في المدن والقرى، وكثير من هؤلاء كانوا خصوم الحاج أمين، أو خصوم أعوانه وانصاره، كما سقط من يستحقون العقاب... ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب**﴾[1].

وكنت كلما سقط واحد من الأبرياء، أبادر إلى قصر الحاج أمين، أحذره من عواقب الفوضى، وأثرها على مسيرة الثورة.. وكان على الدوام يعرب عن أسفه لهذه الأحداث..

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١٧٩.

ولكني كنت أصارحه دوماً أن الإعراب عن الأسف لا يكفي. . ثم أدعوه إلى تناسي الأحقاد والعمل على تماسك الوحدة الوطنية، وأن يؤلف قلوب المعارضين وخصومه السابقين، فقد أصبحت البلاد كلها شعباً واحداً، وضع كل طاقاته في الثورة، وأصبح كل فلسطيني في الميدان. .

وكان يسألني على الدوام ما العمل؟ وكنت على الدوام أجيبه: «أنت زعيم البلاد وبيدك مقاليد الأمور، الأموال بين يديك والسلاح بين يديك، وتستطيع أن تمنع عمن تشاء وتعطي من تشاء. . وعليك أن تؤلف لجنة تحقيق نزيهة، ومن ثبت انحرافه عن أهداف الثورة، أعلن ذلك، وافصله عن العمل، وابعث بفصيلة من المجاهدين تؤدب المنحرفين وتجردهم من السلاح وتعتقلهم و. . . و. . . ، وإنّ أضعف الإيمان أن تصدر منشوراً باسمك تدعو فيه إلى استنكار الاغتيالات، ووقفها وقفاً تاماً، رحمة بالثورة وإشفاقاً على قضية فلسطين».

ولكن الحاج أمين لم يفعل شيئاً مما اقترحته حتى ولا أضعف الايمان. . .

وكان أهل القتلى، ويعدّون بالمئات، يتساءلون عن دور الحاج أمين في هذه المآسي، بعضهم يدينه وبعضهم يبرِّئُه، ولكن الجميع يتساءلون لم لا يستنكر؟ لم لا يرسل برقية تعزية لأهل الفقيد؟.

وأظن أن الحاج أمين لم يُعزِّ أحداً سواي. . فقد جاءني إلى بيتي يوم غدر الغادرون بأخي أنور وكان طبيب الثورة، وعقلها وقلبها، في شمال البلاد، فدعاه «أحدهم» لمعالجة أحد الجرحى، وفي طريقه لأداء هذا الواجب القومي، أطلق عليه النار فأرداه قتيلاً فبكاه الشعب، وكان والده الشيخ ذروة في الصبر وآية في الإيمان.

وقلت للحاج أمين وهو يعزيني: «إن أخي قد ذهب شهيداً، ولكني أخشى على الثورة أن تصبح شهيدة وينتهي أجلها»، وكان في بيتي أحد سفراء الدول الصديقة فقال الحاج أمين عبارة خالدة: «إن العرب واليهود والإنكليز قد اختلفوا في كل شيء، إلا في أمر واحد قد اتفقوا عليه وهو قتل العربي، فالإنكليز يقتلون العربي، واليهود يقتلون العربي، والعربي يقتل العربي. . .». وكانت هذه الكلمة ختام الجلسة وانصرف الحاج أمين دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

وقضيت مدة العزاء في بيتي في بيروت، يمزقني الولاء للوطن والثورة، وواجب الوفاء لأبي وأخي، ولم يدم هذا الصراع طويلاً فقد استخرت الله، واستأنفت نشاطي القومي، وأنا أدعو الله لأخي الشهيد أن يسكنه رحاب جنته، ولأبي أن يسبغ عليه الصبر الجميل.

وعدت إلى النشاط القومي كسابق العهد، وسافرت إلى تركيا لأستطلع إمكانية العون والتأييد للقضية الفلسطينية وخاصة في ما يتعلق بالسلاح.. وكان قد وقع الاختيار عليّ في هذه المهمة، لأنّ رئيس الجمهورية التركية مصطفى كمال كان صديقاً لوالدي، وبينهما أيام وذكريات، كما كان عصمت إنينو من أعزّ معارفه.

وقضيت ثلاثة أسابيع في تركيا، اتصلت خلالها بالصحافة التركية، وجددت لغتي التركية باللهجة الإستانبولية، وبعثت برسالة إلى مصطفى كمال شرحت فيها، لقائد الثورة الكمالية، ظروف الثورة الفلسطينية وما تعانيه من نقص في السلاح... ورجوته أن يمد الشعب الفلطسيني بمعاونته، فإن «فلسطين هي موطن ذكرياتك يا فخامة الرئيس، أثناء الحرب العالمية الأولى، في جبهة نابلس، ولا يزال شعبنا يذكر بطولتك بالتقدير والإعجاب..».

ولكن مصطفى كمال كان يعاني مرضاً خطيراً في كبده، وهو المرض الذي مات فيه في ما بعد، وأصبح الناس في قلق على حياته، فلم أعد أجد أذنا تسمع ولا عقلاً يعي، فسارعت بالعودة إلى بيروت لأجد النشاط القومي أمامي وقد بلغ ذروته.

وقد تركز النشاط القومي في ذلك الوقت على المؤتمر الذي دعت إليه الحكومة البريطانية، وكان أن أفرج عن الزعماء الفلسطينيين المعتقلين في سيشل فوصلوا إلى القاهرة، وبعدها ببضعة أيام، كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٣٩، وصلوا إلى بيروت.

وتصاعد النشاط السياسي في ذلك الأسبوع، وتوالت الاجتماعات في قصر الحاج أمين، وفي الفندق الذي كان يقيم فيه الزعماء المبعدون، حلمي باشا ورفاقه.

وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت أنها لا توافق على حضور الحاج أمين إلى لندن للاشتراك في المؤتمر، فكان موقفاً سخيفاً... ورافقه موقف سخيف آخر من بعض أعوان الحاج أمين، يقول: «يجب أن نقاطع المؤتمرإذا لم يشترك سماحته...». وكان الحاج أمين يصغي إلى كلام الأعوان ويشكر لهم عاطفتهم الوطنية. وكاد هذا الرأي أن يسود، لولا أن القادمين من سيشل وقد قضوا قرابة ثلاث سنين بعيدين عن الأجواء المحلية والنزعات الحزبية، قد رجحوا الاشتراك في المؤتمر وقرروا أن يكون «سماحته» رئيساً للوفد ولو بالاسم... وكان في هذا الحل إرضاء لسخافة بريطانيا وأمجاد الحاج أمين!!

وقضيت عدة ليال حتى الفجر وأنا أعد المذكرات والدراسات لتكون بين يدي الوفد المسافر إلى لندن، وكان فيها ملف كبير عن مراسلات حسين مكماهون (تموز/ يوليو ١٩١٥ ـ آذار/ مارس ١٩١٦).

وسافر الوفد الفلسطيني إلى القاهرة، وعقد عدة اجتماعات مع رؤساء وفود الحكومات العربية، ومنها سافروا جميعاً إلى لندن. . وافتتح المؤتمر في قاعة سانت جيمس (٧ شباط/ فبراير سنة ١٩٣٩) فكان أول مظهر رسمي للتضامن العربي في الوصول إلى حل سياسي يحظى بموافقة الفريقين.

وخلال هذه الاجتماعات، أثير موضوع مراسلات الحسين ـ مكماهون، واعترفت بريطانيا لأول مرة بصورة رسمية بهذه المراسلات، ولأول مرة نشرتها بصورة رسمية، بعد انقضاء ثلاثين عاماً عليها. . . على حين أن وعد بلفور قد حملته الطائرات البريطانية بعد صدوره بأيام (تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩١٧) وألقته على الجاليات اليهودية وراء خطوط الألمان.

وتألفت لجنة مشتركة ـ عربية بريطانية ـ لدراسة المراسلات، وكنت في مذكرتي التي أعددتها في بيروت قد أشرت إلى الخلاف بين النصوص العربية والإنكليزية، وأنّ العربية يجب أن تكون هي الأصل، خصوصاً بالنسبة إلى الشريف حسين. . . ولكن اللجنة المشتركة لم تصل إلى اتفاق، وتمسك كل فريق بتفسيره، وعادت مراسلات الحسين ـ مكماهون مرة ثانية إلى مرقدها في وزارة الخارجية البريطانية.

وتوالت الرسائل والتقارير والمكالمات التلفونية بين بيروت ولندن بصدد جميع الأبحاث التي كانت تدور في المؤتمر، وكنا، الحاج أمين وأنا، نزود الوفد الفلسطيني بكل ما يطلبه، وكان الرأي واحداً بين الوفد الفلسطيني وسائر الوفود العربية الأخرى، بل إن زمام المباحثات كان بيد الوفد الفلسطيني على الدوام.

وكان هذا هو الأمر الطبيعي، فإن شعب فلسطين هو الذي يقرر مصيره، مسنوداً بالأمة العربية، فقد كان شعبنا في وطنه، وكان شعبنا ثائراً ومقاليد الثورة بين يديه، وحين وقعت الكارثة في فلسطين سنة ١٩٤٨ سقط الزمام من يد الشعب الفلسطيني وأصبح آخر من يعلم عن قضيته. . ثم جاء وقت آخر سيأتي الحديث عنه، وهو أيام مؤتمرات القمة ولياليها.

ووصل المؤتمر إلى نهايته (٢٧ آذار/ مارس سنة ١٩٣٩) وانفض على غير نتيجة، وبتنا ننتظر عودة الوفد لنقف على التفاصيل، ونعرف ما تعتزم الحكومة البريطانية أن تصنعه.

وجاء اليوم السابع عشر من شهر أيار/ مايو سنة ١٩٣٩ فنشرت الحكومة البريطانية بياناً مفصلاً بالسياسة التي ستتبعها في فلسطين. . . الكتاب الأبيض.

وكان الإطار العام للحل الذي وضعه الكتاب الأبيض إنشاء حكومة فلسطينية بعد فترة انتقالية، وتحديد الهجرة اليهودية ثم وقفها بعد فترة الانتقال، وربط بيع الأراضي بشروط. ولم يكن الكتاب الأبيض محققاً لمطالبنا الوطنية بكاملها، بل لم يكن يخلو من فجوات وسقطات لكنه كان «خطوة» على الطريق.

وكانت جميع الدول العربية، برسلها وسفرائها في بيروت تلح على اللجنة العربية العليا بقبول الكتاب الأبيض كحل مرحلي يضع زمام الأمور بأيدينا، معظمه إن لم يكن كله، وقد كانت «الحكومة الفلسطينية» المقترحة، ثلثاها من العرب وثلثها من اليهود.

ولقد انقسمت اللجنة العربية العليا حول الكتاب الأبيض، فريق ـ وهو الأكثرية ـ يرى أن نقبل الكتاب الأبيض ونعمل على تحقيقه حتى تصير بيدنا مقاليد الأمور في بلادنا، وفريق آخر هو الأقلية وعلى رأسه الحاج أمين، يرى أن يرفضه لأنه لا يحقق مطالبنا الوطنية.

ولم أكن عضواً في اللجنة العربية العليا، ولكني كنت أحضر اجتماعاتها الهامة كمواطن عادي، متطوع لخدمة وطنه. .

وقد أعددت دراسة وافية عن الكتاب الأبيض ما له وما عليه، رجحت فيها بالنهاية قبول الكتاب الأبيض.

وفي ختام الاجتماعات اشتدت معارضة الحاج أمين للكتاب الأبيض، وكان معروفاً يومئذ في الأوساط الرسمية، أن الحكومة البريطانية مستعدة أن تتعاون في تنفيذ الكتاب مع جمال الحسيني لا مع الحاج أمين الحسيني بوصفه «مسؤولا عن الإرهاب والثورة».

وكان هذا الموقف سخيفاً من غير شك من جانب الحكومة البريطانية، شأن الاستعمار على الدوام، ولكني أحسب أن الحاج أمين الحسيني قد ضعف في تلك الفترة أمام نوازعه الشخصية، فازداد عداء للكتاب الأبيض.

ولكن ما هو أخطر من ذلك، أن الحاج أمين قد ازداد عداء لأنصار الكتاب الأبيض، وبات يشير إلى أن «المجاهدين» لا يوافقون على الكتاب الأبيض، على حين أن قادة المجاهدين لم يدعوا إلى أي اجتماع، ولم يصدر عنهم أي رأي.

ولكن أكثريّة اللجنة العربية العليا: جمال الحسيني وأحمد حلمي باشا وعوني عبد الهادي والدكتور حسين الخالدي وغيرهم قد رضخوا أمام «رفض المجاهدين» كما عبر عنه الحاج أمين.

وفي ٢٩ أيار/مايو سنة ١٩٣٩ أعلنت اللجنة العربية العليا قرارها «بالإجماع» برفض الكتاب الأبيض، وسكتت الدول العربية، تاركة للحاج أمين أن يتحمل مسؤوليته التاريخية.

ومن المفارقات المعزية المسلية، أن أكثريّة لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم في جنيف قالت إنها «لا تستطيع أن تعتبر أن الكتاب الأبيض ينسجم مع صك الانتداب».

ثم جاء المؤتمر الصهيوني الذي انعقد في جنيف، آب/أغسطس سنة ١٩٣٩، فأعلنها حرباً على الكتاب الأبيض (مع صداقته لبريطانيا).

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية، أيلول/سبتمبر سنة ١٩٣٩، فذهب الكتاب الأبيض إلى مرقده الأخير في وزارة الخارجية البريطانية.

ودخلنا مرحلة جديدة، الثورة، والشعب والقضية، وحسبنا أن الحرب العالمية سيكون فيها خلاصنا، دون أن ندري ما وراءها من كوارث ونكبات.

مـع الملـك فـاروق والإمـام المراغـي

نشبت الحرب العالمية الثانية، أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٣٩، فبادرت السلطات الإفرنسية في بيروت إلى إبلاغنا، نحن الفلسطينيين اللاجئين، أن إقامتنا في لبنان لم تعد مرغوبة، وأنّ علينا أن نغادر البلاد في أُقرب وقت..

وكانت ثورتنا قد بلغت مراحلها الأخيرة، وجاءت ظروف الحرب العالمية لتشل نشاطنا، ولم يعد أمامنا إلا أن ندبر لنا ملجأ نأوي إليه، حتى تنتهي الحرب ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأطل علينا شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٣٩، وإذا بالحاج أمين الحسيني والصفوة المختارة من أعوانه وأنصاره قد وصلوا إلى بغداد، وإذا بالصحافة تنقل أنباء استقباله بحفاوة بالغة، ويتولى رجال الدولة وعلى رأسهم نوري السعيد العناية به وبصحبه، ويرصدون لهم ميزانية كريمة. وعجبت في نفسي لهذا التصرف من جانب الحاج أمين، وعجبت أن يخفي عني نبأ سفره، وقد كنت عنده تلك الليلة وهو يبالغ في تقدير جهودي، مؤكداً أنني في منزلة ابنه صلاح الدين.. وأعزّ..

ثم زال العجب من نفسي بعد أن علمت أن كل الذين رافقوه في سفره هم من الذين يقولون له «نعم» على الدوام، وما قالوا له «لا» مرة واحدة في حياتهم... ولم يكن الشاعر العربي قد عنى أحداً منهم حين قال: ما قال لا قط إلا في تشهده.

وعزمت أن أجعل القاهرة دار هجرتي، ألجأ إليها حتى يأذن الله بالفرج، وقد كان في القاهرة بعض اللاجئين الفلسطينيين: عوني عبد الهادي رشيد الحاج إبراهيم والدكتور مصطفى بشناق وغيرهم.

وكان مما أغراني على الإقامة في القاهرة ما كان من يسر الحياة فيها، وقد أشرف رصيدي على النفاد، حتى أصبحت أُقرأ صحف بيروت بالأجرة، اقرأها ثم أعيدها

لبائع الصحف بخمسة قروش لبنانية، وخرجت على لساني: من نوادر الهجرة قراءة الصحف بالأجرة.

وركبت الباخرة الإيطالية «ماركوبولو» من بيروت إلى الاسكندرية، ولم أدرِ كيف مرت تلك الرحلة، وأنا أُقلب بصري بين الماء والسماء، أسأل نفسي: أين المفر؟ وأيان المستقر؟

ولقد صح ما توقعته، فقد وصلت القاهرة ووجدتها رخيصة ميسرة الحال، فقد سكنت في فيلا مع رشيد الحاج إبراهيم في شارع السنبلاوين في ميدان الإسماعيلية في مصر الجديدة، بمبلغ ستة جنيهات شهرياً، طعاماً ومناماً وخدمة، وترعاها سيدة المنزل العجوز بكل عناية.

وفي مصر لم أشأ أن أتناول راتباً كما كان يفعل كثير من اللاجئين الفلسطينيين، وآثرت أن أشدّ حزامي وأقتر على نفسي، حتى لا أوقع إيصالاً في آخر الشهر: بأنني قبضت المبلغ المرقوم أعلاه. . . وأنكّس رأسي إلى أدناه.

وقضيت بضعة أشهر في مصر حتى أواسط الشتاء (١٩٤٠) ولم تكن الحياة فارغة ولا رتيبة، فقد كنت أواصل النشاط السياسي قدر ما تسمح الظروف. وكنت أتردد على مكتب أسعد داغر في جريدة **الأهرام**، وكانت ملتقى رجالات العروبة، من المصريين والسوريين واللبنانيين، وهناك كان أول لقائي بالسيد عبد الرحمن عزام. . . وكأنما كانت تخبئ الأقدار إنشاء الجامعة العربية بعد ذلك بخمس سنوات (١٩٤٥)، وزمالتي له بعد عشر سنوات (١٩٥١).

وكانت شؤون الحرب طاغية من غير شك، ولكن شؤون القضية العربية في مجموعها، ومنها قضية فلسطين كانت محور الأحاديث والنقاش.

وقد أشار عليّ أحد أصدقائي أن التقي بالسيد مكرم عبيد وأتحدث إليه في الشؤون العربية، فعملت على ذلك، والتقينا في منزل «البرنس محمود شوكت» من بقايا الأمراء العثمانيين في ميدان الفلكي، وكان مكرم هو الذي اختار المكان ولا أدري لماذا؟

وذهبت إلى منزل «البرنس» في الوقت المحدد، وجاء «مكرم» متأخراً ساعة بعد الموعد، وهو يشير في ثنايا حديثه أنه تأخر قصداً. . . «لظروف الرقابة». ولم أشأ أن أعلق على ذلك، ومضيت أتحدث عن الوحدة العربية، تاريخها ومقوماتها ودور مصر فيها عبر التاريخ، وأنّ الأقطار العربية يكمل بعضها بعضاً، وأنّ. . . وأنّ. . . وقضينا ساعتين في هذا الحديث، «ومكرم» يستوضح حيناً ويصمت حيناً آخر دون أن يشارك

مشاركة فعالة في الموضوع، ونهض مكرم وهو يعتذر أن لديه كثيراً من المواعيد، وأنّ الموضوع شيق جداً، ولا بد من لقاءات أخرى. . . وكان ذلك اللقاء الأول والأخير.

وتلقينا دعوة لحضور حفل لافتتاح مسجد في العباسية تحت رعاية الملك فاروق فلبيت الدعوة مع عدد من الأصدقاء: عوني عبد الهادي رشيد الحاج إبراهيم وغيرهما، وكان لنا مكان خاص، نحن اللاجئين السياسيين، ودخل الملك فاروق، شاباً وسيم الطلعة وديع الملامح، وكان لم يَفْجر بعد. ودخل معه شيخ الأزهر، وكانت الأنوار والزينات والأعلام في غاية الفخفخة والبهجة. . . وابتدأ الحفل بتلاوة آي من الذكر الحكيم، وأخذ الشيخ المراغي يتحدث وهوجالس على منصة، والملك مقرفص على الأرض، ومطرق رأسه في جَوّ من الروعة والسكينة، وكان الشيخ المراغي يرسل حديثه في مثل سبائك الذهب، سلاسة وعذوبة. . وعلما ودينا. .

وختم المراغي حديثه وهو «يعظ» الملك فاروق بتقوى الله، والصلاح والعدل و. . . و. . .

وإني لأذكر، وسأظل اذكر، الشيخ المراغي وهو يحدث الملك فاروق في غير ما تهيب أو خشية، وكأنما هو ليس جالساً أمامه في الحفل، وهكذا يكون العالم أمام الملوك والأمراء وخطر لي وأنا أتأمل الملك فاروق وهو يجلس خاشعاً بين يدي المراغي أن أكتب رسالة أستنهض فيها همته وحماسته وشبابه. . . وطموحه.

وقد أعددت الرسالة، ونمقتها ودبجتها، وزينتها بالتعابير التي يخاطب بها الملوك، وأشرت فيها إلى أن جده محمد علي باشا الكبير حقق إنجازات كبيرة في سبيل الوحدة العربية، وكادت أن تؤتي ثمارها لولا المطامع الاستعمارية. . ثم ناشدت الملك فاروق أن يتمّ رسالة جده الكبير، وأنّها أمانة في عنقه، وأنّ العرب يتطلعون إلى مصر لتحقيق هذا الحلم الكبير، وسلمت الرسالة إلى الديوان الملكي في قصر عابدين. .

وطلبني بعد أيام إلى الديوان، السيد كريم ثابت، وقال لي إن رسالتي جميلة جداً وإنّ «مولانا» مهتم بها، ولكنك تعرف «الظروف الحاضرة»، فشربت القهوة وشكرت وانصرفت.

وأخذت الأخبار تصل إلينا من فلسطين بأن الثورة قد توقفت إلا أعمالاً صغيرة في بعض الجهات، ومعها ثارات وانتقامات في بعض المدن والقرى، وأن الهدوء أخذ يخيم على البلاد بسبب ظروف الحرب، وأنّ الناس مشغولون في لقمة العيش بعد الإضراب الكبير والثورة التي امتدت أربعة اعوام، وأنّ اللاجئين الفلسطينيين في سوريا ولبنان قد عادوا إلى بلادهم، بعد أن ألغت السلطة البريطانية قوانين الطوارئ، وبهذا عادت المياه إلى مجاريها.

ولبثت في القاهرة أنتظر مصير الحرب، وأنا أظنّها بضعة اشهر، فقد حسبت أن الانتصارات الساحقة السريعة التي حققها الألمان ستجعل أمد الحرب قصيراً وسيكون النصر حليف هتلر لا محالة.

وفي شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٤٠ وصلتني برقية من عكا بأن والدي قد توفي إلى رحمة الله، وأنّ السلطات البريطانية لا تمانع في عودتي إلى البلاد، فلم يبق أمامي إلا العودة إلى الوطن.

وسارعت إلى» الفيلا» أحزم حقائبي استعداداً للسفر، وذهبت إلى بنك «كريديه ليونيه» حيث كنت أودع حساباتي «الكبيرة»، وكان رصيدي مئة وخمسة عشر جنيها. . . وضعتها في جيبي، وركبت القطار المسافر إلى حيفا، ومررت بمحطة دير البلح حيث اعتقلت قبل ثلاث سنوات، ثم بمحطة غزة حيث قضيت أيام السجن الأولى، وتزاحمت الذكريات على خاطري، وما أفقت منها إلا وأنا في حيفا ومنها إلى عكا.

وذهبت فور وصولي، إلى بيت والدي، إلى الحديقة التي تضم رفات أخي الشهيد، ووالدي الشيخ، وقد قضى جريح الفؤاد، أفجعه الغدر بأعز أبنائه على قلبه.

ووقفت خاشعاً أمام الضريحين، وتكاد نفسي أن تذهب حسرات.

وأنا أكتب هذه المذكرات أذكر أن عكا في قبضة إسرائيل، ولا أعلم ما جرى للضريحين، وقد كانا يانعين، بالأزهار، ناعمين بالظلال، وأحسب أنهما الآن وسط قفر يباب وعالم خراب.

وكذلك حال شعبنا بأسره، وحال مقابر الآباء ومضاجع الأجداد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حـوار تاريخـي مـع كوهيـن العربـي

سارعت إلى مكتبي، فور وصولي لعكا، وقد مضى عليه قرابة أربع سنين، مقفلاً معطلاً، وباشرت عملي في المحاماة، متعطشاً إلى القضايا وإلى الأجور، فقد كنت خالي الوفاض ولم أعد أتمهل كثيراً في اختيار «الدعاوي»، ولا في التشدد في طلب الأجور.

ولقد زاد من انصرافي إلى المهنة، بكل جهدي ووقتي، ما علمته بعد أيام من وصولي، أن والدي رحمه الله، قد خص أخي الكبير، عبد العفو، بكل ثروته بأربعة بساتين، والبيت الكبير خارج السور.

وأحسب أن والدي قد فعل هذا، وهو يرزح تحت عوامل متعددة: زوجته، خالتي، وقد فجعت بحبيبها الشهيد أنور، الخلافات السياسية بيني وبين أبي، مزاملتي للحاج أمين خصمه اللدود والسير معه في ركاب الحركة الوطنية.

وفي ساعة من التفكير في هذا «الحرمان» تذكرت أن بيتنا القديم، داخل السور، لم يكن مشمولاً بما خصه والدي لأخي، ولعل ذلك كان سهواً، فبادرت إلى الدائرة العقارية، وسجلت «نصيبي» في هذا البيت باسم عمي قاسم، حتى أخرج من هذه الدنيا وليس لي من والدي إلا اسمه الضخم.. وتاريخه الحافل بما له وما عليه..

ولقد كنت دوماً أراجع نفسي: أينا كان على خطإ؟ أيّنا تجنىّ على الآخر؟ ثم رسا فؤادي على مستوى أعلى من المنطق والحق: إنه مستوى الإنسان بعواطفه وآماله وآلامه، مستوى الوالد وهو يؤمن بالقول المأثور: أنت ومالك لأبيك، وأنا أصبحت أباً لستة أولاد، أشعر بما أنتظره منهم وما أطمع فيهم.

وعلى المستوى العاطفي الأبوي الإنساني، لا مستوى الحق والمنطق، أعترف بأنني كنت، أنا المخطئ وأنني تجنيَّت على والدي، رحمه الله وغفر لي.. بل لعلي

اخترت أن أعترف هكذا . . دون أن يكون هذا الاعتراف قائماً على الحق والمنطق . . فإن أبوتي لأبنائي هي التي تتحكم اليوم في بنوتي لأبي . . وهنا يسكن الصراع العنيف الذي طال مداه : أينا كان على خطإ؟

وجاء القدر في ما بعد يحمل على أكتافه كل سخرياته، فقد وقعت عكا تحت احتلال إسرائيل، ونزح أخي (عبد العفو) إلى لبنان مع النازحين تاركاً لإسرائيل البيت الكبير والبساتين الأربعة «محروماً» من خيرها وثمرها، وكان عليّ أن أبرّه من حين إلى حين، فقد كان يرعاني حين كنت طالباً في عكا والقدس . . . وهكذا حرمني والدي من ماله، أمّا أخي فقد حرمته إسرائيل!!

وغصت إلى أذني في عمل المحاماة، وتكاثرت القضايا وتعاظمت معها الأجور، فقد تدفق المتقاضون على المحاكم، بعد سني الإضراب والثورة. وتدفقت الخيرات وانفرجت أزمتي المالية بحمد الله.

ولكن أنّى لنا أن تكون حياتنا كلها كسباً ورزقاً، والوطن والمستقبل والمصير ظلمات بعضها فوق بعض . . وهذه الحرب العالمية الثانية، وإن كانت ساحاتها وجبهاتها بعيدة عنا، لا بد أن يكون مصيرها مصيرنا، شئنا أم أبينا . .

ولم يكن لنا من دور نستطيع أن نعمله، فقد انتهت الثورة، وتفرق الزعماء بين هارب خارج البلاد ومعتزل في الداخل . . وكل ما كان ميسوراً لنا أن نلتقي في حلقات صغيرة داخل بيوتنا، نقلب الأمور ونستعرض سير الأحداث الحربية في مختلف جبهاتها في العالم.

وكنت في عملي في المحاماة أتنقل بين حيفا والناصرة وطبريا وبيسان والقدس فألتقي بأصحاب الرأي والمكانة في البلاد، ونتحدث في ما آلت إليه الأمور، وخاصة أن الهجرة اليهودية غير «المشروعة» قد بدأت تطل برأسها، ونقلق لأخبارها.

وفي الليل، وقد ساد نظام التعتيم وحجبت الأبواب والنوافذ، لم يكن لنا لقاء إلا مع الإذاعات الألمانية والإيطالية ننتقل من محطة إلى محطة سعياً وراء الأخبار، وكانت الانتصارات الألمانية في أوروبا تشعل في قلوبنا الآمال الكبار.

وإني لأذكر ليالي رمضان، حين أنحني أمام جهاز الراديو، بعد السحور، وأنا أبحث عن إذاعة برلين، فأفتحها بصوت خافت حتى لا يسمعها عابر بالليل، ثم أنصت إلى البلاغات العسكرية، والخريطة أمامي والقلم بيدي، أشير إلى هذه القرية وتلك المدينة وقد سقطت بيد القوات الألمانية المظفرة . . حتى إذا أصبح الصباح

والتقى بعضنا ببعض تهامسنا بما سمعنا عن الزحف الألماني الكبير، لنلتقي في اليوم الثاني على انتصارات أكبر وأخطر. .

وكانت عواطفنا مع دول المحور، وعلى رأسها هتلر يقودها من نصر إلى نصر. ومع عواطفنا كانت دعواتنا بالظفر لألمانيا وحليفاتها، والهزيمة لبريطانيا وأخواتها. .

وكانت هذه العواطف طبيعية، فلم يعد لنا أمل مع الحلفاء، وقد جربناهم في الحرب العالمية الأولى، ولا بد أنهم سيكونون شراً علينا إذا انتصروا في الحرب العالمية الثانية، هكذا كان تقديرنا وتلك كانت مخاوفنا وآمالنا. . وقد صحت، في ما بعد مخاوفنا، وما تحققت آمالنا. . .

وحين أعلنت الحكومة البريطانية رغبتها في إنشاء قوة فلسطينية تعين في المجهود الحربي، انطلقت منا «كلمة السر» إلى شبابنا: لا تنخرطوا في القوة الفلسطينية، وكانت الاستجابة أشبه بالإجماع. .

وكان أن هرب الحاج أمين من بغداد بعد سقوط حكومة رشيد عالي الكيلاني، والتجأ إلى دول المحور، ونشطت الإذاعة العربية من ألمانيا وإيطاليا، فتصاعدت آمالنا، وأصبح الاستماع إلى «يونس البحري» من برلين بصوته القاصف، شغلنا الشاغل، نتناقل أخباره، ونتبادل نكاته، وتهريجاته وعربداته. . وقد تعلقت به الجماهير من المحيط إلى الخليج. .

وامتد نشاط السلاح الجوي الإيطالي والألماني إلى فلسطين، ففي شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٤٠ قصفت طائراتهم أهدافاً معينة في تل أبيب وحيفا، وبلغ الابتهاج والهياج في أوساطنا مبلغاً لا يوصف.

وحدث أن وقعت قنبلة إيطالية في الحي الذي أقيم فيه في عكا وحفرت في الأرض فجوة كبيرة، ولم تقع أية أضرار. وقد زارني السيد حنا بولس قائمقام عكا ليقول لي أن الحاكم البريطاني «غوردن» ذكر له في معرض الدعابة الساخرة: «أن أحمد الشقيري هو المقصود بهذه القنبلة»، فقلت له لا بأس: «علي وعلى أعدائي يا رب».

وأقبل عام ١٩٤٢ يحمل معه أنباء الانتصارات الساحقة التي حققتها دول المحور في أوروبا وفي شمال إفريقيا، ولم يكن لنا من حديث إلا «رومل» وقد غدا يطوي البيد طيّاً. . . وأصبح يدق أبواب الإسكندرية. . وما مصر إلا مفتاح فلسطين. .

ولقد عمّنا الفرح ونحن نتابع هذه الانتصارات، وبتنا نتوقع وصول الجيوش الظافرة إلى مصر وفلسطين، وبهذا نخلص وإلى الأبد من الانتداب البريطاني والوطن القومي اليهودي، وتخلص معنا الأمة العربية من الاستعمار، ونقيم الوحدة العربية، أحلى أحلامنا وأعزَ آمالنا، وهكذا كانت الصورة المشرقة البهيجة في قلوبنا.

أما الصورة المظلمة الأخرى فقد بدت على وجه الإنكليز واليهود، عبوساً وقلقاً واضطراباً.

بالنسبة إلى الإنكليز، كان يوم شماتة كبرى لي، وأنا أستمع إلى المندوب السامي يوم تحدث بالإذاعة عن النازية وشرورها والهتلرية وآثامها، وقد أفاض في الكلام عن قوى الشر والعدوان بلهجة مملوءة بالرعب والفزع.

وقد ذكر لي السيد حنا بولس القائمقام العربي، في إحدى زياراته، أن التعليمات قد صدرت إلى الموظفين البريطانيين بأن يكونوا جاهزين للسفر إلى الهند، إذا اشتد الأمر، وأن يكون معهم زادهم لثمان وأربعين ساعة. .

أما اليهود فقد كان حالهم أفظع وأشنع، كانوا يرون أن هتلر قد اقترب من جلودهم وأعناقهم، وكنا، حين نلتقي بالمحامين والقضاة اليهود، نرى في وجوههم الفزع والهلع، وقد أخفضوا إلينا جناحهم ورطبوا لسانهم.

وكنت ذات يوم في طبريا لأترافع في إحدى القضايا أمام المحكمة، وفي طبريا جالية يهودية كبيرة بعضها من المستوطنين القدامى وبعضها من المهاجرين الجدد، ودعيت لتناول الغداء في مطعم شاطئ البحيرة، يملكه ويديره أحد اليهود القدامى، وكان المضيف السيد شحادة الخوري من أعيان المسيحيين في الجليل.

وجلسنا إلى مائدة الطعام، وأخذ كوهين صاحب المطعم يقدم لنا أطباق السمك على أشهى ما تكون جودة وطعماً، وكان يبالغ بالعناية بي.

ولاحظت أن كوهين كان يضع الأطباق ويرفعها والدموع ملء عينيه.

فقلت له: «خيراً أن شاء الله، لماذا تبكي يا كوهين».

قال: «أبكي على حالي يا سيدي. . »

قلت: «لماذا؟ ما جرى؟»

قال: «أنا يا سيدي. . لست صهيوني، أنا يهودي عربي، وعائلتي تقيم في طبريا

منذ أربعمائة سنة، وقبلها كانت عائلتي في دمشق لثلاثمائة سنة. . .» وخنقته العبرات، وتوقف كوهين عن الكلام.

قلت له: «وماذا بعد ذلك؟ تكلم يا كوهين. .»

قال: «الألمان أصبحوا قريبين من فلسطين، وإخواننا المسلمون في طبريا قد اتفقوا «علينا».»

قلت له: «كيف اتفقوا عليكم؟»

قال: «لقد اجتمعوا في هذا الأسبوع وقرروا أن يذبحونا، حينما يصل رومل، ولقد وزعوا بيوتنا وأملاكنا على بعضهم البعض، وهذا المطعم الذي أنشأته بدم قلبي، قد خصصوه لآل الطبري».

قلت له: «لا تصدق هذا الكلام. . وآل الطبري لا يعتدون عليك ولا يطمعون في المطعم ولا يريدون شراً بصاحب المطعم».

قال: «وحياة ديني، وحياة موسى ومحمد هذا صحيح».

قلت له: «وماذا تريدني أن أفعل».

قال: «يا سيدي. . الصهيونيون اذبحوهم وخذوا بيوتهم وأملاكهم. . أمّا نحن اليهود العرب اتركونا. . ودخليك. . نحن عرب. . نحن عرب. . مثلنا مثلكم».

قلت له: «هوّن عليك. . بعد الغداء تأتي معنا في السيارة».

وهكذا كان، فقد ذهبنا بعد الغداء، الضيوف وكوهين وأنا، إلى ديوان آل الطبري وهم أعيان المدينة من العرب، وجلسنا في «المضافة» حول «النقرة» وفيها أباريق القهوة العربية نحتسيها فنجاناً بعد فنجان مع آل الطبري: صدقي، والشيخ نايف، وفائز، وغيرهم من شباب آل الطبري.

وسردت لآل الطبري ما حدثني به كوهين، وناشدتهم أن يكون اليهود في «جوارهم وحماهم» بحسب التقاليد العربية، وخاصة القدامى منهم، فلا يذبحونهم ولا يأخذون أملاكهم وبيوتهم، إذا وصلت حملة رومل إلى فلسطين وإلى طبريا. .

وقد تعاهدنا على ذلك، وخرج كوهين من الديوان، وهو يكفكف دموعه ويدعو لي ولآل الطبري بطول العمر، ولا ينفك يتمتم: «الله يعمر بيوتكم ويطول أعماركم».

وكرّت الأيام والليالي، وأطل القدر العجيب، وما أكثر سخرياته في قضية فلسطين، وجاء عام ١٩٤٨، وقام اليهود في طبريا بحملات مسلحة على المسلمين والمسيحيين، العزَّل من السلاح، وهرب آل الطبري مخلّفين وراءهم قصورهم الفخمة ينهبها اليهود، ومزارعهم اليانعة يسلبها اليهود، وكان في طليعة العصابات اليهودية المسلحة اليهود القدامى. . . اليهود العرب، كوهين وأضرابه وأمثاله. . .

وكان من عجائب القدر أن تكون هجرة آل الطبري بعد كارثة ١٩٤٨ إلى مناطق الغور في الأردن، وفي الجبال السورية المشرفة على طبريا. . وهم يرون كل صباح ومساء، عبر هذه السنين بيوتهم ومزارعهم على مرمى البصر، فلا يستطيعون الدنو منها، وكوهين وأضرابه وأمثاله ناعمون فيها فاكهون. .

وهذه هي الصهيونية بلحمها.

وهذه هي إسرائيل بدمها. .

العروبة في المهجر

الجامعة العربية ولدت كبيرة جداً وعاشت صغيرة جداً

كنا نعيش أحلاماً كباراً وآمالاً عظاماً في المراحـل الأولى للحرب العالمية الثانية، لقد كان هتلر أسطورة الزمان تهاوت أمامه الجيوش والحصون في أوروبا وشمال إفريقيا، وأصبحنا نعد الأيام لنشهد اليوم الأغر في عدونا الأكبر . . . بريطانيا التي مكنت لليهود في بلادنا، ومنحتهم أرضاً لم يطأوها وما عرفوها.

ولكن الفلك قد أخذ يدور دورته، فبعد أن كانت الحكومة البريطانية تعد نفسها لتنقل مقرها إلى أمريكا أو كندا، وإذا بالحلفاء يفتحون على هتلر الجبهة الثانية في أوروبا، وإذا بروميل ثعلب الصحراء مطوقاً بين فيافي الصحراء، وإذا بآمالنا تنقلب رأساً على عقب.

وازدادت مخاوفنا في تلك الفترة بالذات، ونحن نرقب التطورات الخطيرة التي أخذت تتكشف لنا على الصعيد الدولي وعلى الصعيد الفلسطيني.

على الصعيد الدولي كانت العاصفة تتجمع علينا، ولقد كنت دائم القراءة لجريدة **الباليستاين بوست** وهي الصحيفة اليهودية الرسمية باللغة الإنكليزية، وكنت أفزع لما أُقرأ فيها من أنباء وتعليقات.

هذا المارشال سمطس يدعو لمناسبة ذكرى وعد بلفور، بفتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية (٢ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤١).

وهؤلاء أعضاء النواب والشيوخ في الكونغرس الأمريكي يبعثون للرئيس الأمريكي برسالة تتضمن تأييداً مطلقاً للحركة الصهيونية (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٢).

وهؤلاء الصهيونيون الأمريكان يعقدون مؤتمراً كبيراً في نيويورك في أوتيل بلتمور، ويقررون إنشاء دولة يهودية، وإباحة الهجرة اليهودية، وإنشاء قوة يهودية، لها قيادتها الخاصة وعلمها الخاص (أيار/ مايو ١٩٤٢).

وهذا حزب العمال البريطاني يقرر في مؤتمره السنوي العمل على تهجير عرب فلسطين خارج فلسطين (أيار/ مايو سنة ١٩٤٤).

وهذا رئيس الولايات المتحدة يوجه رسالة جوابية إلى واغنر عضو مجلس الشيوخ الأمريكي يوافق فيها على إطلاق الهجرة اليهودية والاستيطان اليهودي وإقامة دولة يهودية (١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٤).

وهذا الرئيس ترومان يطالب بفتح أبواب الهجرة اليهودية لفلسطين (آب/ أغسطس ١٩٤٥).

وهذا. . وهذا. . من التصريحات الكثيرة التي كنت أجمع منها قصاصات وأضعها في ملف خاص.

وقد كنا نجتمع أنا وإخواني في بيتي نفتح الملف، وأقرأ القصاصات، أترجمها وأعلق عليها وأشرح خطرها، وكان ذلك كل ما نستطيع أن نفعله، فنحن نعيش تحت «طوارئ» الحرب، والعالم العربي من حولنا يرزح تحت الاحتلال، والعالم الإسلامي لا حول له ولا طول.

أما بالنسبة إلى الداخل، فقد كان الخطر الصهيوني أكبر وأخطر. . فقد كان الذي ينشر في جريدة **البالستين بوست** ينبئ عما لا ينشر. .

فهذه مستعمرة بيت شيمش تكتشف فيها مخابئ تحتوي كميات وافرة من السلاح (كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٤٠).

وهذه كميات هائلة من الأسلحة الثقيلة والمتفجرات تسرق «بالظاهر» من مستودعات الجيش البريطاني في فلسطين وفي الشرق الأوسط (آذار/ مارس سنة ١٩٤٣).

وهذه قضية تهريب الأسلحة الشهيرة التي يقول فيها القاضي البريطاني «إن هناك حركة يهودية منظمة كبيرة لتهريب الأسلحة من قوات جلالته. . .» (أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٤٣).

وهذه البواخر: السافيك، ميلوس، أتلانتيك، باتريا، وارين، استروما «فيل دي ادران»، ديمتريوس، وغيرها من البواخر تمخر البحار وتعبر المياه الإقليمية الفلسطينية وعلى ظهرها آلاف وآلاف من المهاجرين «غير الشرعيين» يدخلون البلاد عنوة أو خلسة بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٥.

ثم ازدادت مخاوفنا بقيام العصابات اليهودية «اشترن» و«زفاي ليؤمي» بأعمال

القتل والتدمير في جميع أنحاء البلاد، وفتحت ملفاً لهذه الحوادث الدموية، ثم مللت وضجرت وأوقفت الملف عند اغتيال اللورد موين وزير الدولة البريطاني في القاهرة على أيدي العصابات الصهيونية (تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٤).

وكان اليهود يقومون بهذه الجرائم الوحشية بكل جرأة واستهتار، لأنهم يعلمون أنهم الولد المدلل، والمراهق المدلع، الذي يلقى كل تأييد وتشجيع في مجلس العموم البريطاني وفي الكونغرس الأمريكي وفي الصحافة الغربية. .

وأخذنا، نحن الطلائع المثقفة الواعية، نجتمع من حين إلى حين، مرة في نابلس، وأخرى في يافا وحيناً في القدس، وحيناً آخر في حيفا، لنتدارس الحالة الخطيرة التي وصلت إليها البلاد والمصير المخيف الذي ينتظرنا وقدأصبح نصر الحلفاء قاب قوسين أو أدنى. . وكنت أحمل معي في أسفاري الملفات التي أعددتها، ملف الهجرة غير المشروعة، ملف التصريحات الأمريكية والبريطانية بتأييد الصهيونية، وملف الإرهاب اليهودي في فلسطين، وفي اجتماع أخير عقدناه في حيفا في أواسط سنة ١٩٤٤ في بيت رشيد الحاج إبراهيم، وكان قد عاد من القاهرة مع غيره من اللاجئين السياسيين الفلسطينيين، عرضت على المجتمعين اقتراحاً بضرورة قيام قيادة للشعب الفلسطيني تتمثل فيها جميع العناصر الوطنية.

ولم أكد أفرغ من حديثي حتى قفز واحد من أعوان الحاج أمين على قدميه وهو يقول: «إن الحاج أمين هو زعيم البلاد، ولا يصح أن نبحث في شيء قبل أن يعود سماحته إلى الوطن».

فضج الحاضرون بالاستنكار لهذا الحديث. وتولى رشيد الحاج إبراهيم شرح اقتراحي وختم حديثه بقوله: «نحن الآن بلا قيادة وطنية طيلة أربع سنوات، والحاج أمين غائب في أوروبا، والبلاد مقبلة على أحداث هامة بعد انتهاء الحرب، وحينما يعود الحاج أمين يمكنه أن ينضم إلينا».

واتفقت الكلمة، بعد أخذ ورد، على أن يتصل رشيد الحاج إبراهيم برجال الأحزاب في البلاد للاتفاق على إنشاء هيئة تتولى قيادة الحركة الوطنية.

ومضت أسابيع دعونا بعدها إلى اجتماع آخر في حيفا في بيت رشيد الحاج إبراهيم، ولخص نتائج اتصالاته بممثلي الأحزاب، وكانت إيجابية إلا ما كان من مخالفة ممثلي الحزب العربي الذين كانوا يصرون على الانتظار ريثما يعود سماحته إلى الوطن!!

وهنا صاح معين الماضي: (حيفا) و«إذا لم يعد سماحته، بل إذا مات سماحته، فما العمل؟» وكانت قنبلة وانفجرت، وأخذت وأنا أصغرهم سناً، أهدئ من روع «الشيوخ» الهائجين، وأعيد قراءة بعض الفقرات الخطيرة من الملفات التي بين يدي، لأضعهم في الجو الرهيب الذي وصلت إليه البلاد، ولكن الاجتماع انفض على غير نتيجة.

وفي ما نحن نفكر في هذه الأزمة «الذاتية» جاء فرج الله من خارج فلسطين، فقد بدأ التحرك العربي بين قادة العرب لتوحيد صفوفهم وتنسيق سياستهم لمواجهة «مستقبل» ما بعد الحرب.

وتواصلت الزيارات بين العواصم العربية، ودب دبيب النشاط في الحياة السياسية العربية، واتفقت الكلمة على عقد اجتماع تحضيري في الإسكندرية لوضع الأسس اللازمة لذلك الموضوع المسكين الذي كان ولا يزال يسمى «الوحدة العربية».

وقد كنا نتابع أنباء هذه الزيارات والاجتماعات التمهيدية باهتمام بالغ وفرحة كبرى، فإذا كانت تلك الخطوة العربية ضرورية للدول العربية، فقد كانت لنا نحن شعب فلسطين أعظم وأهمّ، ذلك أننا كنا نعيش في فراغ وطني، من غير نشاط ولا قيادة، والعدو الصهيوني، يعبئ كل طاقاته في ميدان المعركة. . . ونحن هدف هذه المعركة مصيراً ووجوداً. .

وثار السؤال الكبير: وما هو مكاننا؟ وما دورنا في اجتماعات الإسكندرية؟ وقضية فلسطين هي التي تنادى أقطاب العرب من أجلها، بل هي اللغة المشتركة الوحيدة التي يستطيعون أن يتحدثوا فيها. .

وكنّا نريد للشعب الفلسطيني أن يكون له ممثل في اجتماعات الإسكندرية، ليشرح لقادة العرب الخطورة الخطيرة التي بلغتها قضية فلسطين خلال سني الحرب، وما حققته الصهيونية من إنجازات، وما أصيب به العرب من تَردٍ ونكسات.

وعقدنا اجتماعاً في بيت أحمد حلمي باشا أحد الزعماء السمتقلين، وكان الموضوع الوحيد، هو تمثيل عرب فلسطين في اجتماعات الإسكندرية، وتحدث الحاضرون وأطالوا، وتجادل ممثلو الأحزاب، وطرح السؤال مرة ثانية: «هل يجوز أن نعمل على تشكيل قيادة وطنية في غياب الحاج أمين؟؟» ولكن حلمي باشا أفتى بكل رفق أن تشكيل وفد يمثل فلسطين في اجتماعات الإسكندرية لا يعتبر تشكيلاً لقيادة فلسطينية جديدة. . .

وكاد الاجتماع أن ينتهي على غير نتيجة لولا أن أقترح أحد الحاضرين أن تختار الأحزاب مندوباً عنها يكون معروفاً بحيادة واستقلاله، ورشح لهذه المهمة السيد موسى العلمي.

وقد وافق الحاضرون على الاقتراح واعتبروه فرجاً من الأزمة، فالسيد موسى العلمي كان من كبار موظفي الحكومة، تعلّم في إنكلترا، وكان على صلة وثيقة بالحاج أمين، وجاء اختياره مندوباً عن الأحزاب مفتاحاً للأزمة.

وكانت هذه البادرة خطوة جديدة على طريق جديد في الحركة الوطنية، فقد ملَّ الناس الحزبية والأحزاب، وأصبحوا يتطلعون إلى قيادة جديدة تأخذ بأسباب التنظيم، وتداني الحركة الصهيونية إن لم تستطع مجاراتها ومنافستها.

وجاءني موسى العلمي في أواخر شهر أيلول/ سبتمبر (١٩٤٤) إلى بيتي في عكا ومعه رهط من الشبان المتعلمين يلح علي أن أسافر معه إلى الإسكندرية لحضور اجتماعات اللجنة التحضيرية فقلت له: «هذا اقتراح غير دستوري، وأنت وأنا من رجال القانون».

قال: «ولماذا؟ وما هو دستورنا؟ نحن لم نضع دستوراً حتى الآن. .»

قلت له: «أنت مندوب الأحزاب وليس لك أن تضم أحداً إليك من غير موافقة الأحزاب، ولا داعي لإثارة هذا الموضوع، ولكنني سأعد مذكرة إضافية تشرح تطورات القضية الفلسطينية، فتستغني عن حضوري».

وهكذا كان فعلاً، فقد ذهبت إليه في القدس قبل سفره إلى الإسكندرية وقدمت إليه «المذكرة» ومعها ملفاتي التي كنت أعددتها عن النشاط الصهيوني والهجرة غير المشروعة والمنظمات اليهودية الإرهأبية.

وفي تلك الفترة قام الشباب بجمع الأموال لسد نفقات الحركة الوطنية وهي الآن على أول الطريق، فأموال «بيت المال» التي كانت تحت تصرف الحاج أمين، قد سافرت معه إلى بيروت، وإلى بغداد، ثم إلى برلين. . وفي أيام قليلة وضع الشباب بين يدي السيد موسى العلمي خمسين ألف جنيه، وكان هذا المبلغ كبيراً في الظروف التي كانت تسود البلاد.

وسافر موسى العلمي إلى مؤتمر الإسكندرية، واشرأبت آذاننا إلى قصر أنطونيادس في الإسكندرية، ووكالات الأنباء تنقل التصريحات العظيمة عن رجال العرب العظام، وهم يبحثون مصيرهم ومصيرنا، وإنّ مصيرنا لواحد. . .

وقد أتيحت لي في ما بعد، يوم أصبحت الأمين العام المساعد في الجامعة العربية

أن أطلع على المحاضر السرية لاجتماعات الإسكندرية، وأقارنها بما طرأ على الأمة العربية إلى يومنا هذا، فأجد الصيحة الصارخة تخرج على لساني: «ما أكبر كلامنا في الإسكندرية في عام ١٩٤٤، وما أصغر واقعنا في عام ١٩٦٩، بعد العار والنكبة في الخامس من حزيران/ يونيو!!»

وعاد السيد موسى العلمي من اجتماعات الإسكندرية، وانهالت الوفود على منزله يستطلعون الخبر، فيروي خلاصة عما جرى من المباحثات وما قدم من المشروعات وخاصة بصدد «الدولة العربية المتحدة» فتتعالى الدعوات من القلوب: «يا رب حقق آمالنا..»

وتوالت اجتماعاتي بالسيد موسى العلمي في تلك السنة ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥، نخطط ونفكر، ونعقد الاجتماعات والندوات لبعث الحركة الوطنية من جديد، وكانت لي معرفة وطيدة بالسيد موسى العلمي فكلانا ينتمي إلى أسرة القضاء، هو في كرسي النيابة العامة، وأنا في المحاماة في الطرف الآخر..

وتعددت الاجتماعات العربية الدولية فهذه لقاءات بين روزفلت وتشرشل مع الملك عبد العزيز ومع الملك فاروق لبحث الروابط والعلاقات، ويعلن الرئيس روزفلت أنه لا يقوم بعمل عدائي ضد العرب، ولا يتخذ أي تدبير بشأن القضية الفلسطينية قبل التشاور مع العرب.. (شباط/ فبراير ١٩٤٥).

وجاء في أعقاب ذلك كله يوم، ٢٢ آذار/ مارس سنة ١٩٤٥، وكنت يومها في القاهرة على مقربة من الاجتماعات العربية لنشهد مولد الحدث الكبير الخطير: جامعة الدول العربية.

ولقد ولدت الجامعة العربية كبيرة، وجداً كبيرة، ومضت عليها عشرون سنة فباتت صغيرة، وجداً صغيرة، ويا ليتها ولدت كذلك، حتى لا تمنى الأمة العربية بخيبة الآمال وضيعة الأماني.. وسيطول الحديث عنها في ما بعد..

وفي أوائل الصيف جاءني السيد موسى العلمي وألقى إليّ محاضر اجتماعات مجلس الجامعة لأقرأ فيها توصياته بشأن الدعاية العربية لقضية فلسطين وتخصيص موازنة لإنشاء مكاتب عربية للإعلام في واشنطن ولندن والقدس، وفرغت من قراءة المحضر وأنا أقول: «الحمد لله هذه بداية صالحة، أرجو أن تتوافر لها الكفاءات والإمكانات، وأن يكون لهذه الخطوة ما بعدها بالنسبة إلى قضية فلسطين في عهد الجامعة العربية».

قلت ذلك، وكأنما كنت أستجيب لأمر في نفس «موسى» لا في نفس

«يعقوب». . فبادرني قائلاً: «ما دمت تتكلم عن الكفاءات فأرجو أن تتقدم. . .».

قلت: «أتقدم في ماذا؟»

قال: «أرجو أن تسافر إلى واشنطن لتأسيس مكتب عربي، وأنت تعلم أن مصير القضية الفلسطينية سيقرر بعد الحرب العالمية الثانية في واشنطن، لا في لندن كما كان الحال في الحرب العالمية الأولى».

قلت: «ومكتبي. . وقضايا الموكلين. . .» و. . .

قال: «إنها مهمة صغيرة، بضعة أشهر، للتأسيس فقط، تختار من تشاء معك من الشباب الأكفياء، وبعدها تعود. .»

قلت: «على بركة الله. . وسارعت إلى عكا لأتهيأ للسفر، وتطوع عدد من زملائي المحامين لمواصلة قضاياي رحمة بالموكلين، وكنت أنا متطوعاً لهذه المهمة الجديدة من غير راتب ما خلا النفقات.

وعدت إلى القدس، ومنها انطلقت إلى واشنطن، وانطلقت «مذكراتي» تسجل للأجيال العربية تجاربي، وأنا أتمثل بقول الشاعر المصري الكبير «حفني ناصف» في سؤاله الموجع المرير. . .

أتقضي معي إن حان حيني ... تجاربي وما نلتها إلا بطول أناتي

بـــن غوريـــون فـــي القاهـــرة!

أطل صباح ٢٦-٧-١٩٤٥، ونهضت تجتاحني خواطر السفر تغشاها حُمّى السفر، فنحن نتهيب الأسفار البعيدة، ذلك أننا لم نألف أن نرى الدنيا صغيرة متقاربة، على حين أن الرجل الأجنبي يطوف العالم كأنه يؤدي عملاً عادياً لا يحس فيه جهداً أو رهقاً، وقد قضيت هذه الليلة يقظان نائماً، وأنا أستعرض مراحل هذه المهمة الشاقة الجديدة التي استقبلها بعزم وهيبة، وكان زملائي في هذه المهمة السادة: خلوصي الخيري وعوني الدجاني وعمر أبو خضرا وهم من خيرة المثقفين الفلسطينيين.

وحول الظهر ركبنا السيارة إلى البحر الميت، فأخذنا نهبط من مشارف القدس إلى أغوار «الغور» تلهبنا الرياح المحمولة على أكف الوهج والوقد، ولكنني رددت جناني إلى الصبر والجلد حين تساءلت: «كيف تكون حالي لو أني مواطن في دولة حرة فأدعى إلى الجندية، وأحمل سلاحي وعتادي وطعامي بين هذه الأخاديد يجري فيها اللهب؟» وهكذا تصابرت وسكت حتى بلغنا شاطئ البحر الميت.

وكنا في طريقنا نشاهد السيارات الكبيرة تحمل وسوق المعادن المستخرجة من البحر الميت، بعد أن بقيت في جوفه أجيالاً. حقاً لقد كان البحر ميتاً، وإنه من الإسراف في الظلم أن نسميه البحر الميت، وهذه المعادن الحياة تخرج من جوفه الأبدي فتبدو خصائصها في صنع الحياة وصناعة الموت!

ركبنا الطائرة المائية من قاعدتها في البحر الميت، وكانت أول خبرتي بركوب الطائرة من قواعد الماء واليابسة على السواء، ولعل المستقبل يطالعنا بقواعد في الهواء، وكدت أن أكون راجفاً واجفاً حين رأيتني أجتاز متون الفضاء، والتمست شجاعتي أبحث عنها في أعماق نفسي، وأوشكت أن تخونني لولا أني رأيت بعض السيدات والأطفال يقتعدون أماكنهم برصانة وهدوء فقعدت وتصابرت.

ومن الجو شهدنا رقعة الوطن بكامله، شهدنا بقاعاً لم يكن قد وقع بصرنا عليها، وإن كنا في ما مضى قد ضجرنا من مشاهدتها على الخرائط والأطالس بالألوان

والرسوم، وأخذت الطائرة تختال بنا بين أطباق الفضاء كأنها تُدلُّ بسيطرة العلم وجبروت العقل. وفي مكان ما من الجو استطعنا أن نرى في خفقة واحدة حدود فلسطين، مغارب البحر الميت ومشارق البحر المتوسط، وهذا هو القطر الذي يراد أن يكون دولة مستقلة، تجمع ببصرك مشرقها ومغربها في وقت واحد، ومن مكان واحد.

أما مشهد زروع النيل المطرزة على الأرض، فبالغ حد الإعجاز في الروعة والفتنة، وهذه الصحارى المحيطة بالزروع الجميلة تبدو وكأنها فاغرة فاها، لتبتلعها وتعيدها إلى قديم عهدها بالصحراء. ولم تَنقضِ ساعتان على ركوبنا الطائرة حتى هبطنا مطاراً في النيل. وأكبر ظني أن أصدقائي في فلسطين، وقد حسبوا السفر من مطار اللد، كانوا في تلك اللحظة يغدون ويروحون على رصيف المطار ليودعوا راكباً قد وصل إلى حيث يريد منذ زمان!!، وكانت إجراءات الدوائر المختلفة لدخول القطر المصري آية في اليسر واللطف لولا ما لقينا من الموظف المختص بمراقبة الكتب والمطبوعات، فقد وقعت يد هذا الموظف على كراريس وتقارير رسمية عن القضية الفلسطينية باللغتين العربية والإنكليزية، فأصر على إبقاء هذه الأوراق وإحالتها للمراقبة، وسألته أن يقرأها ليتحقق أنها تقارير رسمية وليس من المعقول أن تخضع للمراقبة، فقال لي إنه لا يعرف العربية، ثم رجوته أن يقرأ الأوراق بالإنكليزية فقال: إنه لا يعرف الإنكليزية أيضاً. وقد كان يحادثنا برطانة يونانية ولا يبالي بنا، على حين كان الموظفون المصريون من حوله يجاهدون لإقناعه بخطإ رأيه، ولكن هذا اليوناني قد انتصب أمامنا يملي إرادته في القاهرة، كأنما هو الإسكندر المقدوني يحكم في الإسكندرية.

ثم توجهنا إلى أوتيل شبرد، وبعد أن أخذت بنصيب من الراحة ذهبت إلى السيد أسعد داغر محرر الشؤون العربية في جريدة **الأهرام**، فرحنا نتحدث في شؤون فلسطين، ولما انتصف الليل، عقدنا هدنة إلى حين، لنستأنف الحديث في صبيحة اليوم التالي.

وكان أوتيل شبرد يعج بألوان الزائرين. والألوان هنا كلمة حقيقية لا مجازية، فقد وفد على هذا النزل عروق وأجناس وألوان من مشارق الأرض ومغاربها، وأصبحت القاهرة أرض الميعاد وموطن اللقاء. وكانت الصينيات بملابسهن المزركشة وخطواتهن اللدنة، موضع تفكهة وإيناس. وكان في النزل بعض الزعماء الصهيونيين وهم في طريقهم إلى لندن لشهود المؤتمر الصهيوني الذي ينعقد في آخر الشهر، ولم أكن لأدري من هؤلاء الناس لولا أن صديقاً مصرياً أشار بأن أخافت في الحديث حين مروا بجانبنا.

ولكن زعيماً صهيونياً لم أكن لأخطئه، فقد عرفته وهو يغدو ويروح في ردهات الفندق بخطواته الثقيلة، وكان هذا هو بن غوريون بلحمه ودمه، وخصلتي شعره المحدبتين على صلعته كقرنين معقوفين، ولقد مر بن غوريون بجانبي غير مرة، وكان يرسل إليّ نظرة خاطفة من عينيه الصغيرتين، وكنت أردّ عليه بنظرة مماثلة من عيني الكبيرتين، فنحن نعرف بعضنا بعضاً أمام لجان التحقيق من غير كلام ولا سلام.

ولأن يكون بن غوريون في القاهرة نزيلاً لأوتيل شبرد (القديم) ويقضي أياماً في اجتماعات متصلة مع زعماء اليهود في مصر، فهذا ما لا يصدقه الناشئون من رجال الأمة العربية، ولكن ذلك كان حال الجاليات اليهودية في الوطن العربي قبل أن تنشب النكبة مخالبها، وقبل أن تكشر الصهيونية عن أنيابها.

وفي الصباح زارني السيد أسعد داغر فاستأنفنا الحديث الذي لا ينتهي، وقد ينتهي ولكن من حيث يبتدئ، حول قضيتنا وتنظيمنا الداخلي، ثم التفت السيد داغر إلى كهولة تختال بالفتوة والقوة، فإذا به السيد أرشد العمري وزير خارجية العراق العائد من مؤتمر سان فرنسيسكو، فذهب بي صديقي وقدمني إليه، فاغتنمتها فرصة وشرعت أسأله عن مهمته في سان فرنسيسكو وعن رأيه في المكتب العربي وإنشائه في الولايات المتحدة، فلم يلق بالاً إلى المكتب فقد أصبح لا يؤمن بالدعاية ولا يعلق عليها كبير أمل، مع أنه كان قبل سفره، كما قال، أول من آمن وأول من تفاءل ولكنه لم يَرَ بأساً أن نسافر ونجرب، وهكذا كان لا بد لي أن أسافر وأُجرِّب.

وفي القاهرة زرنا المفوضيتين السورية واللبنانية، ولقد كان بهيجاً حقاً أن يصبح لدولتي الشام مفوضيتان ترفعان علمين يرمزان إلى الحرية والاستقلال، ويقوم بالعمل في هاتين المفوضيتين رجال كانوا إلى عهد قريب مطاردين مشردين، وها قد طاب لهم القرار، ولكن مضيا في الجهاد بالبناء والإنشاء.

وكان الأمير نسيب شهاب قائماً بأعمال المفوضية السورية، والسيد تقي الدين الصلح قائماً بأعمال المفوضية اللبنانية، وكان أعيان الجاليتين السورية واللبنانية يدخلون إلى مفوضيتهم وهم لا يصدقون أن فرنسا قد خرجت من سوريا ولبنان، ولم يكن ينقص من فرحتهم إلا أن فلسطين لم تبلغ مرحلة الاستقلال. وكان بعضهم يسرف في التحليل والتعليل، والمقارنة والتشبيه بين فلسطين من جانب، وسوريا ولبنان من جانب آخر من ناحية دولية، وقد قال لي السيد حقي العظم من زعماء سوريا المعروفين:

«لماذا لم يقدم أهل فلسطين شكوى إلى محكمة العدل الدولية؟». . . قلت: «وما هو موضوع الشكوى؟»

قال: «فلسطين مشمولة بانتداب (أ) مثلها في ذلك مثل سوريا ولبنان، فإذا كان هذان القطران قد أصبحا مستقلين، فلماذا تحرم فلسطين من الاستقلال؟»

قلت: «ذلك هو الحق والمنطق، وذلك هو القانون الدولي، ولكن منطق الاستعمار يقول بغير ذلك. إن الاستعمار مستعد أن يمنح الاستقلال لفلسطين ولكن بعد أن تصبح يهودية كما أن إنكلترا إنكليزية. . وذلك ما تعمل له الصهيونية ليل نهار، وما نحن فيه على غفلة، ليل نهار. .»

وتوالت الأعوام واستقلت أقطار أفريقية مصنفة تحت انتداب (ج) وهي دون فلسطين بدرجتين، ثم استقلت بعدها أقطار أخرى ليست مصنفة في شيء. . وكان مقدراً لهذه الأقطار أن تبقى «مستعبدة» إلى الأبد، لا أمل لها بالحرية والاستقلال. .

ولقد شهدت في حياتي في الأمم المتحدة هذه الأقطار جميعها تدخل الأمم المتحدة كدول مستقلة، وعملت مع العاملين على الدفاع عن حريتها واستقلالها، ولكن كان نصيب فلسطين أن تقع تحت الاحتلال، وأن يصبح شعبها أشتاتاً من اللاجئين يقتاتون من الأمم المتحدة، كالأيتام على مائدة اللئام. .

وكان بودي أن أزور السيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية وعدداً من الأصدقاء، غير أن نسائم الإسكندرية قد اجتذبت إليها الحكومة المصرية ومعها الجامعة العربية، ولا سبيل أن أفلت من القاهرة، فمكتب الطيران يلح علينا أن نكون غير بعيدين عن الأوتيل، فقد يخطرنا بالسفر ساعة بعد ساعة، وكان لا مناص من غشيان الأوتيل ساعة بعد ساعة. فأعاد ذلك إلى ذاكرتي شهر نيسان/ أبريل عام ١٩٣٦ حين صدر الأمر بإبعادي إلى سمخ (طبريا) وطَلبتْ إليّ السلطة أن أثبت وجودي في مركز البوليس مرة في كل ساعة بين الشروق والغروب، فلم أجد حينذاك فرجاً من هذا الإرهاق إلا بعد أن اتخذت مسكناً لي في جيرة دائرة البوليس، ورحت كل ساعة أمدّ رأسي من النافذة لأشعر البوليس بوجودي!

مـــا أعقـــل هـــذا الجنـــون!

أعلمنا مكتب الطيران أننا مسافرون في مساء هذا اليوم ٢٩-٧-١٩٤٥ فأخذنا نجهز أنفسنا للسفر، وطفنا بالأصدقاء نودعهم، وفي الوداع بعض التفريج عن وحشة السفر. وبعد المساء غادرنا الأوتيل إلى المطار الأمريكي (مطار القاهرة الدولي حالياً) على مسيرة نصف ساعة بالسيارة مما يلي مصر الجديدة، وفي تمام الساعة العاشرة مساء حلّقت بنا الطائرة في سماء القاهرة ومضت تشق طريقها في الفضاء عبر شمال أفريقيا من المشرق إلى المغرب، فلم يتح لنا الليل أن نرى تلك البقاع التاريخية التي كانت إلى عهد قريب ميداناً فاصلاً من ميادين هذه الحرب، ولم نستطع أن نتجلى معالم المواقع التي طفحت بها جغرافيا الحرب، ولم تكن جغرافيا التلمذة أيام الصبا لتذكرها في قليل أو كثير.

والواقع أني كنت تواقاً أن أشهد، ولو في الجو، ساحات الحرب العالمية الثانية في الجبهة الأفريقية، حيث تجسدت العبقريات العسكرية بين الفريقين المتحاربين، كرّاً وفرّاً، ولم يكن ذلك حباً للاستطلاع فحسب، فقد كانت الحرب العالمية الثانية تستهدف وطننا ومصيرنا. وكان على جيلنا أن يتعلم الجغرافيا من جديد، في ما سترسم هذه الحرب من خطوط ملونة على الأطالس، وحدود جديدة على الأرض.

وظلت الطائرة تمزق سكون الفضاء من غير ارتجاج أو اهتزاز حتى أقبلت علينا عاصفة ثائرة لعبت بالطائرة لعب مارد متجبر، وغدت الطائرة التي كانت حتى الآن تسيطر على الجو وتمزق آفاقه، موضع عبث وسخرية بين يدي العاصف الجبار. وقد استمر هذا العاصف ممسكاً بها ساعة أو بعضها ولم يفلتها إلا قبل هبوطنا في بنغازي، بعد أن قدم بين يديها آية من آيات القدرة الكامنة في هذا العالم الجبار.

وهبطنا في بنغازي في أعقاب الليل فشملتنا رهبة المكان الذي تداولته الجيوش المحاربة مرات ومرات، وفيه احترب الناس حتى آخى بينهم الموت، ولقد أسفت أن

حرمنا الليل زيارة هذه المدينة، فمن يدري لعل جحافل العرب قد سلكت هذا الطريق قبل اثنى عشر قرناً، حين قذفتهم الجزيرة العربية ومشاعل النور بأيديهم.

وفي بنغازي أخذنا بنصيب من الراحة وواصلنا سفرنا ميممين شطر طرابلس، وقد استشعرت إغفاءة نوم، بعد أن سلخت معظم الليل صريع الدوي والضجيج، وهبطنا في مطار بريطاني على مقربة من طرابلس، ذلك أن الطائرة قد أُنبئت بضباب كثيف في مطار طرابلس، ولا يستطيع القائد أن يتبين موطن النزول، فأنسنا باليابسة مرة أخرى، لننعم بالنسيم هادئاً ساكناً، وإن كان مثقلاً بالرطوبة . .

ولقد طال انتظارنا أن ينجلي الضباب عن المطار في طرابلس، وأنا أعلل نفسي أن أطوف بالمدينة قدر ما يجود الوقت، حتى لقد رضيت أن تحملني إليها سيارة فندور من حولها ونجوس خلالها وكفى . . ففي ذلك ما يبلّ جانباً من الشوق، ولكن هذا الضباب قد حرمني هذه المتعة العزيزة.

وقبل الظهر امتطينا الطائرة إلى طرابلس بعد أن أيقنا انكشاف الغمام، وما هي إلا فترة، حتى جالت بنا الطائرة في سماء هذه المدينة، فأشرفنا على زروعها المترامية ونخيلها المنظم، ومنازلها المبعثرة، فثارت في نفسي ذكرى مرابع دمشق وغوطتها، لولا أن النخيل هنا قد أضفى على المدينة لوناً عجيباً من الجلال والجمال. ولكن غوطة طرابلس، وإن بعثت الفتنة فإنها تثير الحسرة واللوعة، فإن أكثر هذه الزروع قد خرج من أيدي العرب إلى أيدي الطليان. ودعوت الله أن يكون ذلك إلى حين، وحين قريب!

وفي محطة المطار لقيت شابين يهوديين أحدهما عامل في المطعم، والثاني بائع جرائد ومجلات، وكلاهما من أهالي طرابلس. أمّا الأول فقد سمعني أكلم رفاقي بالعربية فسألني إذا كنت عربياً. قلت نعم. فمد رأسه من وراء حاجز المطعم وقال بالإمالة والغنة اليهودية المعروفة: أنا يهودي. فأردفت أني عراقي من بغداد. ثم مضى لبعض شأنه. ولكنه عاد إليّ وأمطرني أسئلة أخرى. فأجبته بلا ونعم، ثم لاحظ أني طلبت شراباً على حين طلب رفاقي طعاماً. فقال لي: أحسنت في ما طلبت من الشراب، لأن الطعام ليس جيداً. فقلت في نفسي هذه أول طلائع الدس . . ولكنه دس ماكر، ولست أدري أنصحني أم نصح صاحب المطعم، أم خدعنا نحن الاثنين، فقد يكون الشراب أسوأ من الطعام.

ورأيت أن أقابله بدس آخر فسألته: ألا تذهب إلى فلسطين؟ قال: ومن أين لي، ليس لدي جواز سفر؟ فقلت له: لعلك تجد وسيلة ما، وأنت الآن في أرض المطار، فجحظ في وجهي فلم يجده ينم عن الجد، فمضى ومضيت.

أما اليهودي الثاني فقد حشر نفسه في «كشك صغير» أتخمه بالكتب والجرائد والمجلات. ومن فضول القول، أو من لزوم ما لا يلزم، أن أقول إنه يعمل صرافاً أيضاً. وقد اقتضاه عمله في المطار أن يعرف اللغات كلها، فهو يعرفها كلها إلا اللغة العبرية، فهو يوقن أنه لا يحتاجها في عمله، إذ ليس يعقل أن يقصده، يهودي يصرف، فالصراف لا يقصد صرافاً، وأيّهم ليس بصراف؟ فمكرت لهذا الشاب أيضاً وقلت له إني بغدادي. فسألني عن تل أبيب فقلت له: لا أعرفها، وإن كنت قد سمعت بها. ثم سألته عن إقامته في طرابلس فقال: إن فيها مولده، ومولد أبيه وجده إلى آجال. قلت له: أي البلدين أحب إليك؟ تل أبيب، أم طرابلس؟ ولكن الشارين والمتفرجين قد أحاطوا حينئذ بالكشك الصغير وهموا بالشراء، فانصرف هذا اليهودي إلى البيع والمساومة وكفى نفسه عبء الجواب.

ثم صاح بنا ضابط الطائرة فهرولنا إليها لتحملنا إلى تونس، فجالت وصالت ثم اقتحمت طريقها فوق البحر المتوسط لتقطع ذلك الخليج الجميل، من غير مجاملة ولا مهادنة. فأخذت ترتفع في أجواز الفضاء فوق الضباب والغمام.

هذا البحر من تحتنا أشبه شيء بالسماء أو هو السماء، وتجلت الطائرة بين سمائين متباعدتين، اتصلت آفاقهما بين أحضان الهدوء والسكون، وتناولت قلمي وورقي لأكتب وقائع اليوم، فالتمع في خاطري أن الإنسان في هذا الكون العجيب نقطة هندسية من غير طول ولا عرض ولا عمق، وأن هذا الإنسان وإن استفتح كثيراً من مغلقات هذه الدنيا فسيظل، مهما استفتح ومهما استكشف، النقطة الأولى في الألف الأولى «من الدنيا»، ومع هذا، فإن تلك النقطة لا طول لها ولا عرض ولا عمق.

وظلت هذه الخواطر تنتابني حتى هبطت الطائرة في تونس، فإذا بها رقعة من اللهب، لا ينفع فيها ظل ولا شراب. وفي هذا المطار رأيت كثيراً من الفتيات اليهوديات يعملن في الأعمال المختلفة، ولم يتيسر لي أن أكاشفهن في حديث بريء أو خبيث، ذلك أن الجنود قد ضربوا حولهن ذراعي كماشة في شراء ودعابة، ولم يكن في مقدور المدنيين أن يخترقوا هذا الطوق!!

وعقب الظهر امتطينا طيارتنا نستهدف «وهران» فأشرفنا على جبالها ومروجها، ولم تكن هذه المرحلة من السفر مريحة فهي مفاجآت بين الهبوط والارتفاع، بين الجفاف والرطوبة، وبين الحرارة والبرد. أضف إلى ذلك أن إعصاراً قد هب علينا بعد مغادرتنا تونس، فصهرنا حرها وأرهبنا إعصارها، وكم لقيت تونس من نار الظلم وإعصار السياسة.

وكنت كلما طفرت بالحر أعزي نفسي بهؤلاء الجنود، الناعمي الجلباب،

الغضاض الإهاب، ذوي الوجوه الشقراء والعيون الزرقاء، رجالاً ونساء، بل كنت كلما تخيلتهم على ظهور الدبابات ووراء المدافع يدفعون حمماً ويلقون شواظاً من نار في الظهيرة اللاهبة من اليوم اللاهب، رجع إليّ صبري وارتد إليّ عزمي.

ولكن خاطراً واحداً أقضّ مضجعي لم أجد له تعزية ولا تسلية، ذلك أن هذه الرحلة كلها، من البحر الميت حتى شمال أفريقيا قد كشفت عن مطارات ومطارات، مرصعة في الصحراء، وعلى مقربة من المدن، آخذة بالنمو والازدياد. هنا في مواطن العرب مطارات تنشأ وتبنى، وأنا ذاهب لأنشئ مكتباً عربياً في واشنطن، أحرك فيه لساني وقلمي. أنا أعنى بالكلام ليسمعوا، وهم يمضون في إقامة القلاع والحصون لنتفرج، فأين نلتقي؟ وكيف نلتقي؟ ومتى نلتقي إذا ما مضينا في إنشاء المكاتب، ومضوا في إنشاء الحصون والقلاع؟ لعل الأجيال القادمة تجد لنفسها الجواب، فقد التمسته فما وجدته، ولست أبغي أن أكذب نفسي وقومي.

ومضت بنا الطائرة ثلاث ساعات أو تزيد نقصد إلى وهران، وقد امتدت من تحتنا المزارع والإقطاعات الكبرى منتشرة في الأرض الرحبة، ومن حول وهران الكروم والزيتون والزروع، كل ذلك في تنسيق عجيب، والمنازل الريفية تتصدر المزارع وقد ازدانت بالبساطة والجمال.

وليست هذه المنطقة مدينة كبيرة مزدحمة، ولا هي مجموعة قرى زراعية متجاورة، ولكنها إقليم بكامله مرصع بالمزارع المتباعدة، تربطها الطرق والمعابر من كل جهة، إلى كل جهة، ولا يقوم في المزرعة إلا بيت أو بيتان. وهذه المنطقة الواسعة عالم رحيب من هذه الإمارات الزراعية، تشبه إقطاعات القرون الوسطى. . . كانت هذه هي الجزائر في ذلك الحين. . .

وهكذا فقد زالت معالم العروبة من هذه البقاع الفاتنة، وليس يبرر هذه المظلمة الفادحة أن الأرض قد عمرت بالكروم والأشجار، فإن كل كرمة، وكل شجرة قد أغمدت جذورها في فؤاد شهيد، أو صدر قائد صنديد.

ولم أمسك نفسي عن التمادي في هذه الشجون إلا حين هبطنا المطار، لتقلنا طائرة أخرى تحملنا إلى الدار البيضاء، فبلغناها أوائل الليل في جو منعش لطيف، يعقد الكرى في الأجفان، ويسبغ الهدوء والسكينة.

ونهضت صبيحة اليوم التالي بعد نوم هادئ عميق، لم أنعم به قبل الآن، فإن حر القاهرة في الأيام التي سبقت سلبني النوم، فذهب النوم نهباً بين القاهرة والطائرة.

ودعوت الخادم لبعض شؤوني، فسألته عن جنسيته، فقال إنه «عربي» فأخذت

أوضح له مطلبي فلم يفهمني، وبدأ يرطن لغة لم تكن عربية في جرسها ولا صيغتها، ثم رحت أستبين هل يكون هذا الخادم عربياً، فعاد وقال إنه عربي، فجعلت أكلمه بكل اللهجات التي أعرفها بين فلسطينية وشامية ولبنانية ومصرية وبدوية لعله يفهم فلم يفهم، فاستعنت بكل المترادفات التي أعرفها فصيحة وعامية، وفي هذه اللحظة حمدت ولوعي بحفظ المترادفات أثناء الصبا. ولكن الخادم البائس أربكه عدم الفهم، كما أربكني عجزي عن الإفهام، وأفلتت من الخادم في هذه الأثناء كلمة إفرنسية كنت أسمعها في مصايف لبنان، ففهم وفهمت، وانشرح وتألمت.

ولست أنكر مثل هذه الفروق في الأمم الكبيرة والصغيرة على السواء، ولكن أي داع أن تتأصل هذه الرطانة في اللغة العربية. وكل ما يحتاجه الشعب العربي الكبير تعليم إلزامي ابتدائي يقوم على كتب واحدة، وأصول واحدة، وفي لهجة واحدة.

وخرجت بعد ذلك إلى المدينة أطوف شوارعها وميادينها وأستمع إلى ناسها، ووددت لو يفسح لي الوقت دراسة أكثر عمقاً وتحقيقاً، ففي هذه البقعة يقرأ المرء صفحة من صفحات الاستعمار الإفرنسي الملطخ بالعار الأبدي. وها أنا أرى المدينة تبدو وكأنها قطعة مختلسة من الشاطئ الإفرنسي، أو كأنما اتصلت اليابسة فلصق الشمال الأفريقي بشاطئ فرنسا الجنوبي، فتشابها وتشاكل الأمر.

وهنا لا تسمع إلا اللغة الإفرنسية من المواطنين والإفرنسيين، ولم يبق للوطنيين إلا الأزياء المهلهلة والأعمال الحقيرة. وكنت حين أقرأ أن زعماء فرنسا قد اعتزموا أثناء الحرب أن يناضلوا من شمال أفريقيا، لا أدرك بإحاطة شاملة كيف يقاتلون من إقليم أجنبي في شمال إفريقيا، ولكنني بعد الذي رأيت في الدار البيضاء أيقنت أن ذلك لا يتعدى انتقال حركة الحرب الإفرنسية من إقليم فرنسي إلى إقليم فرنسي، كما كاد أن ينقل الحكم الروسي من موسكو إلى «كويبشيف» أثناء هذه الحرب الثانية.

وحين يبلغ المرء الدار البيضاء يكون قد قطع أفريقيا من الشرق إلى الغرب، في خلال أربع وعشرين ساعة. ولقد وقفت على شاطئ الأطلنطي أفكر في هذا الخطف الطائر يحمل المرء من القاهرة ليكون مساء اليوم الثاني في الدار البيضاء، ينعم بالنسمات الوادعة إذ يرسلها المحيط الرهيب.

ولم يكن هذا الخاطر يثنيني عن إكبار الحملة العربية الكبرى قبل ثلاثة عشر قرناً وقد قطعت الفيافي والصحارى، والوهاد والأنجاد، ثم ضربت سهمها في أحشاء أفريقيا الشمالية، وراح هذا السهم ينحني ليخترق إسبانيا وجنوب فرنسا.

وعلى ضياء هذا الخاطر تنعكس صورة جميلة هي صورة المستقبل الذي نتطلع إليه، ولئن عجز الخيال عن إبرازها الآن بالروح والجسم فلا يعجز أن ينزلها بين

حروف الهجاء وقوالب الألفاظ. وستظل هذه الصورة لوحة فنية رائعة، يراها كل عربي بفؤاده، وإن لم تخضع لقرطاسه ومداده، تلك هي صورة الوطن العربي الكبير حراً موحداً مستقلاً.

ولكن أنّى لهذه الصورة أن تتحقق، فقد ألقى الاستعمار الإفرنسي جذوره عميقة في المغرب والجزائر وتونس، والاستعمار الإيطالي، أغرز أنيابه في ليبيا، وكان الحديث عن استقلال هذه البلاد خرافة «يا أم عمرو»، والقائلون به يرمون بالخيال أو الجنون.

ولكن معركة الحرية الإنسانية كانت أسرع من تشاؤم المتشائمين، فلم تنقضِ بضعة أعوام حتى انطلقت حركات التحرير في الشمال الأفريقي تشدد ضرباتها على الاستعمار فكان أن استقلت ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، وكان لي شرف المساهمة بقدر متواضع، في الدفاع عن هذه الأقطار العزيزة كما سيأتي ذكره، وشهدت حفلات الاستقلال فيها «على الأرض» بعد أن رأيتها مستعبدة من الجو..

وفي عام ١٩٤٥ كان الحديث عن استقلال هذه البلاد، جنوناً، ثم جاءت الأيام تثبت أن العقل كل العقل هو في بعض الجنون.

وما أعقل هذا الجنون!!

سذاجات أمريكية في جزر الخالدات

ولقد كنت في الدار البيضاء ثملاً في فيض زاخر من هذه الخواطر والذكريات، ولم أَصحُ منها إلا عند الظهيرة حين تلقينا النبأ للاستعداد للتوجه إلى المطار، فعادت إلينا حُمّى السفر وهيبته، وأسرعنا إلى المطار وأنجزنا معاملات السفر، ثم دعانا الضابط إلى غرفة المحاضرات فإذا بنا نستمع إلى حديث عن سبل الوقاية إذا طرأ ما يحمل الطائرة على الهبوط في الماء. فتكلم المتحدث بجد، وأصغى المستمعون بجد، ولأمر ما لم أكن مكترثاً ولا سميعاً، وانصرفنا إلى الطائرة نأخذ أماكننا ولم يبدُ على أحد أي تردد في السفر، وخيل إليّ أن في قلب الإنسان إلى جانب الزاوية التي يستقر فيها الخوف، زاوية أخرى تعيش فيها المغامرة والمجازفة.

ولعل مصدر شعوري بقلة الاكتراث ظني أن الأمر سيكون محاضرة، وكفى الله المؤمنين!! ولكني دهشت حقاً حينما تقدم إلينا ضابط الطائرة يأمرنا جميعاً أن نتدرع بجهاز الإنقاذ، فارتبكت وندمت أني لم أُصغ للمحاضرة ولا عرفت كيف يلبس، وخيل إليّ أني سأسقط في الامتحان، تمهيداً للسقوط في الماء، غير أني حاكيت وقلدت، فلبست كما يلبسون، وعلى الله فليتوكل المتوكلون!!

ورأيت جماعة المسافرين ينصرفون إلى كتبهم يلتهمونها، والكتب زادهم في السفر، أمّا أنا فرجعت إلى مذكرتي وأخذت أكتب وأكتب، لا يشغلني إلا منظر آفاق الغيوم من تحتنا، تنعقد فوق سطح الأطلنطي، أخاديد وجبالاً، ووهاداً وسهولاً، يتصل كل ذلك بأفق السماء، وتسطع الشمس فتبدو الأرض كأنها أصبحت عهناً منفوشاً. وهنالك يهبط الرشد والتقوى بصمت وجلال، ولا يبقى غير وجه ربك ذي الجلال.

وفي الطائرة فاجأنا جندي بتقدمة لطيفة: هي علبة جميلة تزيد على راحة الكف قليلاً، ألقاها الجندي وتكلم كلاماً جعله ضجيج الطائرة غير مفهوم، فآثرت أن أنقذ نفسي بالتقليد مرة أخرى لأدفع آفة الجهل والسخرية..

والتفتُ إلى جاري فإذا هو يفتح العلبة ويخرج منها علباً صغيرة متفاوتة في الحجم، هذه تحتوي السكر، وهذه تحتوي الخبز، وهذه تحتوي الجبن، وهذه تحتوي أربع سجاير، وهذه تحتوي حلوى وهذه تحتوي لحماً، وهذه. . . يؤلف ذلك أجمعه طعاماً صحياً كاملاً ولذيذاً. إنها علبة صغيرة حقاً، ولكنها صنعت بالملايين، وانتقلت إلى معسكرات الدنيا، فأنتجها الملايين، واستهلكها الملايين، وهنا أصغر الدلائل على نهضة الأمة وعظمتها. فالتفت إلى جاري الأمريكي وقلت له ليست هذه علبة وإنما هي مطبخ سيار، ولكنه سخر من دهشتي وقال: إنك واجد في هذه الطائرة كل شيء، فاطلب أي شيء. وكدت أن أطلب شيئاً، حتى لقد بلغ هذا الطلب أطراف شفتي ولساني، غير أنه التمع في ذهني، بسرعة الوميض وفجأة الخاطر، أن هذا الطلب الذي أمسكت به شفتاي إنما يستجاب بزوال هذه الرفاهية الناعمة وأمثالها من الرفاهيات التي تستمتع بها الشعوب الكبيرة على حساب الشعوب الصغيرة، وكان الطلب الذي أوشكت أن أسأله في هذه الطائرة: الحرية، الحرية، لا تظلم أحداً، ولا يظلمها أحد.

وحين أشرفنا على جزر الخالدات (الأزور) أخذت الطائرة تدنو من سطح الغيوم، والدنو هنا يتم بالهبوط لا بالصعود. والقرب من هذه الغيوم التي افترشت مكانها في الآفاق يقضي بأن تهوي الطائرة قليلاً قليلاً بين أحضان الفضاء. فأخذت الطائرة تهبط رويداً رويداً، ونحن نقترب من هذه المشاهد العجيبة تزيدها أشعة الشمس بهاء ورواء. . ولقد مررنا في جيرة هذه الغيوم حتى يكاد المرء أن يدس يده في غلالات هذه الحياة الهائمة في الأزل، الحائمة إلى الأبد، كثيفة هنا شفافة هناك، ضاربة في السماء، هابطة إلى البحر، ممتدة في الآفاق منبسطة في الفضاء، بكل الأشكال الهندسية التي تعرفها حركة الخطوط وانطلاقة الخيال، من غير تشابه أو اتساق، حتى يبدو أن كل غائمة قد أفلتت من يد الوجود على غير نظام أو هدف.

وهبطنا أرض المطار فإذا بالدنيا ماطرة، والجو مبتل رطيب، فأخذنا نضم معاطفنا الثقيلة إلى أجسادنا، وكنا إلى يوم واحد فقط، في تونس وغيرها، نود لو نستطيع أن نتسلل من جلودنا حين ألهبنا الحر.

وحملتنا سيارة إلى (براكة) في المعسكر، نقيم فيها ما شاء الله حتى يأتي دورنا في طائرة أخرى تقصد الولايات المتحدة.

وتعيد هذه البراكة إلى ذاكرتي (البراكة) التي استضافتنا بضعة أشهر حين اعتقلت مع المئات من المواطنين عام ١٩٣٧. وليس بين البراكتين فرق كبير!! فبراكتي الآن فيها أسرة نظيفة، مبطنة جدرانها بما لا ينفذ معه البرد والحر، مفروشة أرضها

بالخشب دفعاً للرطوبة، منورة بالكهرباء، يتوفر فيها الماء ينساب إلى كل المرافق. أمّا براكتنا القديمة فهي براكة وكفى، ولا بأس أن تكون محرومة من جميع المزايا التي ذكرتها، فللقديمة على الحديثة أفضال ومزايا، منها كثرة المجرمين النازلين فيها ممن عجزت العدالة عن الاقتصاص منهم لفقدان الدليل، فرأت السلطة أن تزجهم في براكاتنا مبالغة بالنكاية بنا، فجمعت بين المجرمين والسجناء السياسيين.

وفي الليل مر بجانبنا ضابط أمريكي، فسألنا شيئاً فأجبناه، ثم تعارفنا، وما أيسر سبل المعرفة بين المسافرين. وهذا الضابط ذكي الفؤاد لامع الذهن حاضر النكتة والبديهة، وإن كانت البساطة الأمريكية لا تربأ أن تعيش إلى جانب علمه وثقافته. وتحدث هذا الضابط إلينا معظم الليل فتناول حديثنا كل شيء. . روسيا وبريطانيا والهند وبلاد العرب. ومن حسن حظ النجوم والأفلاك أن حديثنا لم يشملها بخير أو شر. ويبدو هذا الضابط عالماً وجاهلاً، عميقاً وساذجاً، محباً وكارهاً، واثقاً ومشككاً، مستقراً ورجراجاً، كأنما جمعت هذه الشخصية من جزأين متناقضين محتربين، كالكرة الأرضية نصفها ملفوف بالظلام ونصفها مغمور بالنور. وأمام مثل هذه الشخصية تمرع الدعاية الصهيونية والأساليب الصهيونية في تعبئة الأنصار والمؤيدين. وهنا في جزر الخالدات أشفقت على أولئك الذين يعارضون في الدعاية العربية وقيمتها، وفي ضرورة تعريف العالم بالأمة العربية وأقطارها.

ووقعت بيني وبين الضابط الألفة، ثم رفعت الكلفة، ثم كان بيننا الحوار، مليئاً بالسذاجات والسخافات.

الضابط: «من أين أنت؟»

قلت: «عربي».

الضابط: «عربي؟ أنت عربي؟»

قلت: «نعم أنا عربي».

الضابط: «أظنك مسلماً محمدياً؟»

قلت: «نعم أنا مسلم محمدي».

الضابط: «أصحيح؟ أصحيح؟ أنت هادئ ووديع».

قلت: «نعم ولِمَ الاستهجان؟»

الضابط (مقهقهاً): «المسلمون في شمال أفريقيا يملأون معابدهم (لعله يقصد الزوايا) بالضجيج والصياح فهل أنت مسلم؟»

قلت: «هذا ليس صحيحاً، هذه ابتهالات ومناجاة، وهل تسمى الأناشيد والموسيقى في الكنيسة ضجيجاً؟»

الضابط: «أعلمت عن آبار البترول التي يستنبطها الأمريكان في بلاد العرب، بعد أن عجز الإنكليز عن إدراك مكامنها».

قلت: «نعم علمت».

الضابط: «ولكن السعودية العربية تجهل هذه القوة الكامنة في أحشاء الأرض، إنها الفلسفة الإسلامية التي لا تقدر مزايا هذا الجوهر الجاثم في أعماق الصحراء».

قلت: «ولكن ما شأن الفلسفة الإسلامية أو العقيدة الإسلامية، وأي تعارض بينهما وبين استغلال البترول وإنتاجه واستعماله؟ إن الفلسفة الإسلامية تحث على العمل، فوق الأرض وتحت الأرض».

الضابط: «لا أدري، ربما، أظن أنها العقلية الإسلامية المتأخرة، ولكن قل لي: كيف تؤدون شعائر رمضان في المناطق المتجمدة التي ينطوي نهارها في ليلها، ولا تشرق الشمس معظم أشهر السنة».

قلت: «حين يدخل الإسلام إلى تلك الأصقاع سيصوم المسلمون في اليقظة، ويفطرون إذا أقبلوا على النوم، يصومون نصف اليوم ويفطرون النصف الآخر، فمن رأى القدرة في نفسه صام، ومن عجز أفطر، وإن أعجزتهم رؤية الهلال التمسوا الشمس، فإن لم يجدوها جعلوا الساعة، وقد اخترعها العرب، قاعدة صومهم وإفطارهم».

الضابط: «إن عملكم شاق، فأنتم تريدون إنشاء قومية عربية متعصبة تشمل مسلمي الهند والأفغان وغيرهم من الأقطار الأخرى».

قلت: «أنت مخطئ، لا علاقة لمسلمي الهند بالقومية العربية السياسية إلا من الناحية الروحية»، ثم شرحت له مقومات القومية العربية.

الضابط: «هل تؤكد ذلك؟».

قلت: «بكل تأكيد، ومستعد أن أقسم على صحته».

الضابط: «أشكرك، لقد وضح لي الأمر الآن، ولكن، قل لي: لماذا لا تندمجون مع تركيا، وتجعلون الأحرف اللاتينية مكان الأبجدية العربية».

قلت: «تركيا دولة مستقلة، ونحن أمة تعمل لاستقلالها وحريتها. وأنتم لماذا لا تندمجون في كندا أو أية دولة أخرى؟ أمّا الأحرف العربية فنحن نكتبها وننطق بها،

نفعل ذلك مسرورين مبتهجين، ولم نبث شكوانا منها إلى أنفسنا أو إلى غيرنا، ولكن لماذا لا تكتبون أنتم بالأحرف الهيروغليفية القديمة أو بالأحرف الصينية الحديثة فهي جميلة الصور والرموز، تجعل الكتاب أو الرسالة مطرزة مزركشة!! على أننا إذا رأينا ضرورة قومية فلن نتأخر عن إبدال حروفنا بأحسن منها».

الضابط: «وما هي هذه الضرورة القومية؟»

قلت: «الضرورة القومية هي حاجة اللغة للتطور والنمو، فحين نوقن أن آلافاً وآلافاً من أمثالك يرغبون أن يتعلموا اللغة العربية، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالأحرف اللاتينية فلن...».

الضابط: «إنك مخطئ لم يكن هذا قصدي».

قلت: «لقد كان ذلك قصدك من غير شك، ولكن لماذا لا تعرف أنت اللغة الألمانية أو الفرنسية وحتى الإنكليزية الصحيحة «باللهجة الإنكليزية دون الأمريكية» مع أنها كلها تكتب بالأحرف اللاتينية..؟!!»

هذه نماذج في غاية الإيجاز مما دار من الحديث الذي استغرق أكثر الليل، ويقيني أن الضابط قد انصرف وهو عازم أن يعيد النظر في ما ورث من العلم أو سمع من العلم، أمّا أنا فاستسلمت إلى فراشي، وقد أنساني هذا الضابط الشعور بأني أبيت في براكة ذكرتني بالأيام السالفات من السجون والاعتقال.

وهكذا نمت على هذه السذاجات والسخافات في جزر الخالدات!!

الدولـة العربيــة المتحــدة فـي إنســان

نهضت في صباح اليوم التالي ووجدت جسدي في «البراكة» فعادت إليّ الصور المترادفة عن يقظاتي في المعتقل، وطاف في نفسي ذكر الرفاق القدماء من مدمني الاعتقال ومرتادي السجون، ولم أفطن لحاضري إلا حين أمعن إخواني الثلاثة في الشخير المتنافر، رقة وخشونة، علواً وهبوطاً، وهم يبثون من خلاله شكوى الجهد والإرهاق. وخرجت أجيل بصري في الجبال المحيطة بنا في هذه الجزيرة التي يقطنها بعض مئات من البرتغاليين. وأبصرت بالأطلنطي يحتضن هذه الجزيرة، ولكنه ما زال منذ القدم يضربها بأمواجه، ويظللها بغمامه، ويشدد الطوق من حولها، وينقص من أطرافها، ويأكل نواتئها، ويخلع عليها الفقر والفاقة حتى أعياها الكفاح الأزلي المتواصل. وبدا الأطلنطي من حولها وقد مل الصراع فتهادنا وتصالحا، فكانت جزر «الخالدات» وكان صلح وكان سلام.

وفي عصر النهار ظفرت بضابط أمريكي يلقي إلينا السمع ونحن نتحدث بالعربية، فأقبل علينا بجميع زيه العسكري وبعض كلماته العربية، فإذا هو لبناني من أسرة صعب، من قرية حول زحلة، وإن كان يصر أن اسمه «سيب» وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وضعته أمه في الوطن الأمريكي، يتكلم اللهجة الأمريكية بمدها وقصرها، ورنّاتها وغناتها، ويفكر بالتفكير الأمريكي برشاقته وبداهته، وإن كانت المتناقضات الأمريكية لم تصب من عقله شيئاً. . نعم إنه أمريكي ولكن ما أجمل هذا الشباب، وما أقوى هذا الشباب وما أعظم هذا الشباب، هذا العظم الصليب، وهذا الوجه الاسمر مرصع بالعيون السوداء، ترسل الشعاع نفاذاً أخاذاً، وهذا الشعر الأسود الأدكن يطل على جبهة تشع بالحزم والعزم. لله هذا العربي، بل لله هذا الإنسان الكامل، الدم العربي والسمت العربي تزينه الجندية المدربة.

ورأيت في هذا العربي دليلاً على الاستعداد القومي الكامن في كل عربي، ومن يدري فلعله كان يظل فلاحاً جاهلاً فقيراً ومريضاً، ولعله ينقلب مجرماً يقطع الطريق

ويستبيح الدماء، بل لعله يكون عالة على المجتمع، لو أن أبويه بقيا في الوطن القديم، لا ينعم بعناية الدولة، وتدريب الدولة، وجميع الفرص التي تفجر المواهب وتوجه الإبداع. وإن الملايين من شباب العرب من الذين يعيشون تحت كل سماء وكوكب، من الخليج إلى شواطئ الأطلنطي تكمن فيهم القوة والاستعداد الفطري، وتنطوي فيهم جميع المزايا، «الخام» التي تتألف منها شخصية هذا الشاب اللبناني الأمريكي. ولو أن هؤلاء الملايين من شباب العرب قد شملتهم رعاية دولة واحدة في هذا الوطن العظيم لأمسكوا بزمام العظائم، وانتهت إلى أيديهم مشاعل الحضارة والعرفان، يرفعونها عالية وكريمة. وما أعظم هذه الصورة وما أكرم هذه الأهداف.

ولقد عدت ولقيت هذا الشاب الأمريكي اللبناني مرة أخرى في أرض المطار حين كنا ننتظر الطائرة التي تقلنا إلى جزيرة «برسك» في شمال الولايات المتحدة، وكان لقائي إياه قصيراً هذه المرة، كان لقاء خاطفاً حقاً، ولكنه بسط أمامي ذكريات امتدت عشرات من السنين في تاريخ الأمة العربية، وأبرزَ حقيقة واحدة تقع في سدرة المنتهى من حياتنا السياسية، وهي أن الحكم الوطني، الفاضل العادل، هو وحده يصهر معايبنا، ويهذب من فرديتنا، ويوجه أنانيتنا الوجهة السامية، ويشعرنا بمواطن القوة فينا، ومكامن الإبداع المستقرة في نفوسنا.

ولقد أثلج صدري أن أحسّ هذه المعاني الخالدات في جزر الخالدات، فقد أوحى إليّ هذا الشاب الأمريكي المتحدر من أصل عربي صورة الشاب العربي في الدولة العربية المتحدة، والوطن العربي الواحد من غير حدود ولا جسور، وأراد الله أن أرى في «صعب اللبناني» أبعاد الوحدة العربية، وأعماق الدولة العربية المتحدة، وما تستطيع أن تصنع من الملايين والملايين من شباب العرب: شخصية شجاعة، وجندية باسلة.

و إذا كنت قد وجدت في «صعب اللبناني» رجائي، فقد رأيت فيه كذلك «عزائي» فأنا أخشى أن أقضي نحبي ومعي كل جيلنا، ولا نرى الدولة العربية المتحدة في حياتنا.. ولكن، الحمد لله، لقد عشت الدولة العربية المتحدة في إنسان... ذلك كان عزائي... إنه صعب اللبناني العربي الأمريكي..

وإني أكتب الآن في الطائرة التي تقلنا، وهي طائرة معدة لنقل الجنود وليست فيها رفاهيات الطائرات السابقات، يضاف إلى هذا أن الأماكن التي يقصدها معظم المسافرين من الجنود تقضي علينا بأن نحمل إلى أقصى الشمال كرهنا أم أحببنا. ولقد رفّه عن نفسي حين التفت إلى اثنين من الجنود، اقتعدا أرض الطائرة ومضيا يلعبان الورق، فأقاما مقهى جوياً، لعله أول مقهى في الجو، أقامه الإنسان!!

ولقد خطر لي في هذه الطائرة أن أسأل أمريكياً بجواري عن رأيه في الرئيس ترومان، فقال: إنه مستقيم ونزيه، ليسه له أرستقراطية روزفلت. فقلت له: وما هي شارة الاستقامة؟ فقال: إنه قبل أن يتولى منصب الرئاسة قام بالتحقق في سلوك «المتعهدين» الذين تعاقدوا مع الحكومة على صنع بعض المواد والقيام ببعض الأعمال، فكشف النقاب عن ابتزاز أموال جسيمة من خزينة الدولة وأدى تحقيقه إلى محاكمة معظمهم، والحكم عليهم بالسجن.

وهنا وثبت إلى السمع والإصغاء وثوباً، وانقلبت حواسي الخمس، إلى حين، حواس سمعية، لأستوعب هذا الحديث فلا يفوتني منه شيء. وحين فرغ من حديثه رجعت إلى نفسي وحمدت الله أن الأثرة والابتزاز، واصطياد المغانم، معايب شائعة بين الأمم، وهي أكثر ما تكون ضخامة وجسامة في الأمم الضخمة الجسيمة، وصغرت معايبنا أمام نفسي، وتبددت الخرافة الشائعة هنا وهناك في أن العرب لا يصلحون للحكم، يحتاجونه إن تولوا أمره، والبقرة عندنا هزيلة غير حلوب!!

أخذت الطائرة تجوز بنا أطباق السماء، في ليل رهيب، فوق بحر مخوف انقطعت في سمائه كل معاني الأنس، فأبدلت بظلمات الوحشة والرهبة. والرحلة تستغرق ثلاث عشرة ساعة متمادية، وقد توسطتها عاصفة مدلهمة رجرجت الطائرة من غير رحمة ورفق. وأنذرنا الضابط بأن نأخذ الحذر لأنفسنا، فزاد ذلك من دهشتنا وخوفنا. وحين رأينا الجنود العائدين من ميادين الحرب يقطبون جباههم، وقد غاضت أشواقهم للأهل والوطن، ازدادت مخاوفنا، وطافت نفوسنا مذعورة في كل مجالي الفكر وآفاق الزمن. هنالك انقطعت أسباب المرء بالقدرة الإنسانية، فانخذلت شجاعته وانصهرت ذاتيته وأنانيته، ولم يجد ما يهدئ الروع إلا أن يسترخي في أحضان العناية الإلهية، وأن يستسلم للمشيئة القاهرة الحافظة، ثم بعث الله سكينته فزالت العاصفة، وعادت إلينا إنسانيتنا الناسية الجاحدة. وبلغنا أرض المطار في «برسك» وهي قرية في أطراف الحدود الشمالية للولايات المتحدة، وكنت أتمتم بالشعر خافتاً باسماً، فسألني أحد الرفاق: أشعر هذا؟ قلت شعر عربي قديم:

أنـل قـدمـيّ ظـهـر الأرض إنّي   رأيت الأرض أثبت منك ظهراً

ووصلنا القرية، ووصلت معنا إنسانيتنا العابثة الواثقة، وذهبنا إلى فندق عسكري، وقد كانت الساعة السادسة صباحاً. الناس يكادون ينهضون من نوم عميق، ونحن نحاول أن ندخل أجسامنا المجهدة في غلالة النوم، نصطنعه اصطناعاً، ونستدعيه بكل حيلة ووسيلة، ولو لساعة أو بعض الساعة.

ولقد نمنا ساعة أو بعض ساعة، ثم انتزعنا أنفسنا من فراشنا انتزاعاً، لركوب الطائرة إلى نيويورك، ولكن لم يكن بد من اختلاس بعض الوقت للتعرف على هذه الضاحية الجميلة، فركبنا السيارة لنطوف في شوارع هذه القرية، التي قيل لنا بأنها قرية. أستغفر الله: إن هذا هو الفردوس الذي فقده الفلاسفة والشعراء، وها هو جاثم في هذه الروضة، وقد أحاطت بها المروج الجميلة وأطلت عليها الهضاب المكسوة بالفتنة والدلال.

وهذه القرية، كما أرادوا، تعيش من الزراعة والتجارة، أنزلت فيها الطرقات نزول الأعصاب في الجسد، إنها تصل إلى كل بيت وتمتد إلى كل حي، كما تبلغ الأعصاب كل طرف وكل حي. وحول هذه الطرق رصفت الأشجار الكريمة، تعانقت أغصانها بكل حنان وسكون، لتنصب قباب الظل الوارف يُرفّه عن العابرين والمتعبين. لله ما أجمل هذه البيوت المنسقة أبدع تنسيق، لكل منها حديقته الزاهرة ومرجه الوادع، وملعبه الذي يمرح فيه الأطفال، ومن حولهم وطن يقدم بين أيديهم مفاتنه وحسنه، ليقدموا بين يديه دمهم وشبابهم. .

هناك عرفت لِمَ يستبسل هؤلاء الناس من أجل وطنهم، فليسوا حين يدعون إلى ركوب البحر والجو، يحاربون عن وطن جامد جاحد، ولكنهم يبادلون الوطن ما قدم لهم في الطفولة والصبا من نعماء الحياة. وإنهم ليبالغون في الفداء والبذل إبقاء لهذه النعماء الرضية الندية، وليس يهم بعد ذلك أن كانت هذه الحياة الندية هي خلاصة من حياة بقية البشر الذين يعيشون في الناحية الأخرى من الدنيا.

ورجعنا من جولتنا إلى المطار لتقلنا الطائرة إلى نيويورك، فوثبت بنا بين أحضان الرياح تميل ذات اليمين وذات الشمال، غير أن هذه المرحلة من سفرنا قد امتازت بالباراشوت، حملناه على أكتافنا بعد أن شرح الضابط كيفية لبسه واستعماله، وتم لنا بالفهم والنظر، لا بالتدريب والممارسة، تقلد جهازين أحدهما الواقي حين الهبوط في البحر، والآخر الواقي حين الهبوط في اليابسة، ولقد خطر لي أن هذه الوثبة إلى الجندية من قمتها العليا، قبل أن ندرب على مبادئها الأولى، عمل مجيد حقيق بالحمد والثناء. . وهكذا يكذب المرء على نفسه، ليدفع عنها مرارة الحرمان ولوعة الجهل.

وفي هذه الرحلة يشهد إنسان الجو الطبيعة تحتفل بذاتها، فتختال بكل زخرفها وزينتها، فهذا الإقليم الممتد من «برسك» جنوباً موطن فتنة ومبعث سحر وجلال. الأنهار تنساب هادئة بين مواطئ الربى وعلى صدر السهول، البحيرات الصغيرة والكبيرة مبثوثة هنا وهناك على غير نظام وانسجام بكل الأشكال الهندسية التي تعرفها

حركة الخطوط وحرية الخطوط، أحراش الصنوبر بعثت ظلالها رسل محبة إلى البحيرات والأنهار، والطائرة ترسل دويها ليمزق ذلك الحنان يرف بين الأغصان وهذه البيوت الريفية تتربع مكانها في رؤوس الربى وعلى حواف الوديان، وقد حنت عليها الأغصان لتكون أعشاش دعة وسكينة واطمئنان، وكأنما أودعت أفانين الجمال في هذه الأرض، رقعةَ رقعة، ثم جمعت إلى بعضها، فجاءت صورة حية تنطق بقدرة الله على ترصيع هذا الحسن وهذا البهاء.

ولقد أرسلت بصري في هذا الإقليم فلم أشهد أرضاً معطلة أو مهملة، وخُيلّ إليّ أن الأرض هنا قد أعدها الله في قديم أزله لتكون زروعاً، أو أشجاراً أو مطاراً!!

ومضت بنا الطائرة ثلاث ساعات فوق هذه المفاتن الفاتنة، إلى أن هبطنا في ضاحية نيويورك، وحملتنا سيارة إلى مدينة نيويورك فبلغناها عقب المساء وقد أبت أنوارها على الليل أن يلقي سدوله. وحملتنا المصاعد إلى مكاننا في الفندق، ورأيت من النافذة فُيوضاً من الأنوار تصعدها الأرض إلى السماء، كأنما نذرت هذه المدينة أن تفي عن الأرض ما أرسلت إليها السماء من الأنوار في كل العصور والآجال.

حزين... في نيويورك

استيقظت في هذا الصباح ٣-٨-١٩٤٥ لا كما ألفت وعهدت، فقد رأيت نفسي في الغرفة السابعة والثمانين بعد الألف، في الطابق السابع عشر من أوتيل إديسون من مدينة نيويورك، ولا تزال فوقي عشرات من الغرف يصعد المصعد إليها متواضعاً وهادئاً.

نزلت إلى المدينة وقضيت ساعة، مشدوه البصر في هذه العظمة والفخامة. وفي هذه المدينة عشرات الميادين نصبت فيها عشرات التماثيل وسط الحدائق والمروج، وقد مشى فيها من الخلائق من مشى، ووقف من وقف، واضطجع من اضطجع، شباباً وأطفالاً وكهولاً، رجالاً ونساء، وكل يعمل على شاكلته، ويأخذ بمتعته، لا يثير التفاتاً من أحد، واستهجاناً من أحد. وحين عدت إلى الأوتيل بين العمارات المتناطحة وقفت إلى جانب واحدة منها أحاول أن أبلغ ببصري أعلاها فخيل إليّ أن رأسي قد دار حول كتفي، وأنَّ كتفيَّ قد أخذا يميسان في الهواء، فأمسكت عن المحاولة وقنعت بما رأيت.

ولما وصلت الفندق اتصلت تلفونياً من غرفتي بالمفوضيات العربية بمدينة واشنطن، وكان لا بد لي أن أستعين بدليل التليفون فإذا به بضعة مجلدات تضم الورق الرقيق، عبئت فيه الأحرف الدقيقة تعبئة كثيفة، ولم يكن ذلك للدولة كلها ولا للولايات التي تتألف منها الدولة، وإنما لمدينة واحدة.

وحول الظهر فاجأنا بعض «الأمريكيين» المنحدرين من أصل عربي من أهالي فلسطين بزيارة كريمة، ودعونا إلى طعام عربي أو سوري «كما يريدونه» فالتف من حولنا بعض العرب، ودوت اللغة العربية في قاعة الطعام، وتراشقنا بالنكات العربية، ونسينا لساعة من الزمن أننا بعدنا عن الوطن قريباً من خمسة آلاف ميل مقيسة بالهواء. . ولكن عاودتنا وحشة الاغتراب، واذّكار الأهل والأصدقاء، حين عدنا إلى الفندق، وسرعان ما سمعنا اللغة الإنكليزية، من الأفواه الأمريكية، بين مد وقصر، وابتلاع لبعض الأحرف، وإشباع لبعضها الآخر، وغنة وإمالة، بين المقطع والمقطع، حتى خلتني في

حاجة إلى تعلم هذه الموسيقى، قبل الشروع في تأسيس المكتب العربي!!

وخرجت في المساء لأرى هذه المدينة العظيمة، فإذا بالخلائق تملأ الميادين، وإذا بالشوارع تعج بالأمواج البشرية الهادرة، تسير في كل طريق وفي كل جهة، إلى السينما والملاهي والمطاعم. إنه سيل لا ينقطع، سيل من كل مكان وإلى كل مكان، وتساءلت: من أين اندلعت هذه الجموع؟ وكيف تكاثفت؟ من أين تجيء وأين تذهب؟ ولو وقفت في أي نقطة من هذه المدينة فلن يتيسر لك أن ترى «مصدر» هذه الأمواج البشرية، إلا إذا أشرفت عليها من الجو، ومن الجو البعيد..

ولقد وقفت برهة أتأمل هذه الحركة الدافقة، الدافعة، الذاهبة الآيبة، من الشبان والرجال والكهول، جميعهم في أحسن زينتهم وملابسهم، ملأوا الأفق أريجاً وعطوراً، جميعهم منصرفون إلى المرح والحبور، إلى الضحك عالياً وهادئاً، إلى الحركة رشيقة وعنيفة، لا ترى وجهاً عابساً متجهماً، أو بصراً شارداً مؤملاً. ولست ترى نفوساً تفكر في غدها أو أمسها، قريباً أو بعيداً. جميعهم يعيشون تلك الساعة، لتلك الساعة، في إشباع جوارحهم بكل ألوان المسرة والبهجة، ليس لأحد أن يراقب، أو يغتاب أو يحاسب، فكل معني بنفسه، وتجري بين يديه مسراته ومباهجه، وقد انتصبت هذه الحضارة أمامهم تقوم على خدمتهم وترفيههم، وتدلت عليهم هذه الليالي تضيئها المصابيح، والأفئدة والأحداق، بفيض من الأنوار، لا يحيط به خيال.

وإنه من حق هذه الخلائق أن تغترف بكل حواسها ألوان اللهو والبهجة، بعد نهار أضنى العمل فيه كل جوارحهم. أجل من حقها أن تنعم بكل ذلك، وقد اطمأنت إلى نفر من الرجال يديرون شؤون الدولة، فيعملون على رفعة الوطن وإسعاده، والاستزادة من كنوز هذه الدنيا وخيراتها.

وقد زادتني مشاهد البهجة والسرور، ألماً وحزناً، لا حسداً ولا حقداً، فنحن لا نحسد الناس على نعمائهم، ولكني تذكرت أني فلسطيني وأنّي عربي...

كفلسطيني، تنغّصت أن شعبنا يعاني كل أنواع البلاء فلا يستطيع أن يفرح ويبتهج.. لا يطيب له أن يغني ملء فمه ولا أن ينشد ملء فؤاده.

وكعربي، حزنت أن شعوبنا حزينة أبداً وباكية دائماً، إن أنشدت فنشيدها بكاء، وإن غنت فغناؤها دموع...

وفي فجر اليوم التالي، ولم أكن قد نفضت غبار السفر، أبكرت إلى المحطة لأستقل القطار إلى «ناراجنسيت» لزيارة السيد علي جودت الأيوبي الوزير المفوض للعراق، (رئيس وزراء العراق لاحقاً)، وكان في مصيفه. وأدهشني أني سألت بعض

المارة عن المحطة فقالوا لي: أنت في المحطة، وظننت أنهم لم يفهموا لهجتي الإنكليزية أو أنني لم أفهم لهجتهم الأمريكية، لولا أن المارين على التعاقب قد أكدوا أني في المحطة التي أبغيها.

وكان طبيعياً أن أقع في هذه الحيرة، فقد رأيت نفسي وسط بناء عظيم تتشعب فيه الطرقات بحيث تحتاج إلى الترقيم، وتتكاثر فيه المطاعم والمتاجر وباعة الصحف والحلاقون، والأروقة والمكاتب والمصاعد، والسقوف المرصعة بالنجوم، والناس رائحون وغادون، يتحركون تحرك الآلة لا تباطؤ ولا تثاؤب. إلى العمل، إلى السفر، حتى لتؤمن أنك في مدينة كبيرة، توافرت فيها كل الأسباب.

ركبت القطار ومضى بي أربع ساعات بين الأحراج والأرياف الجميلة، والمروج الساحرة، ولم أكن أدري شيئاً عن هذه الأحراج في هذه الدنيا الجديدة، وتساءلت: أقديمة هي؟ أم هي من زرع الإنسان الجديد؟ وأي مجهود بشري يقدر على هذا الغرس والتحريش يغطي الأقاليم بعد الأقاليم؟ وقد يبدو للمرء أن الأرض هنا كانت منذ الأزل كثيفة بالأحراج والأشجار، فجاء الإنسان وأخذ يسوي منها بعض الرقاع، فيرصع فيها القرى والمدن والطرقات والمصانع والمنتزهات.

وحين بلغت ذلك المصيف الجميل قصدت أوتيل (كارلتون)، ولقيت الوزير العراقي، وحدثته بمهمة المكتب العربي وشرحت له أهدافه وخططه، وأفضت في بعض نواحي القضية الفلسطينية ورجوته أن يتعاون مع زملائه مفوضي الدول العربية للإشراف على أعمال المكتب. ولكني لم أكن قد أتممت حديثي حتى تجهم وجه الرجل، واحتشدت كل مشاعره وجوارحه في بريق عينيه، ولمعان أوداجه، واندفع يبدي عطفه على القضية الفلسطينية، وقال: إنه لا يحب إهراق الدماء ولكنه يشتهي أن يموت في الميدان صوناً لعروبة فلسطين. فرفعت رأسي لأحدق بالرجل بعد هذه العاطفة العاصفة، فإذا بعينيه تتألقان بالدمع يفيض من هذه الرجولة الكريمة، ثم سكتّ وسكت، كأنما هيمنت علينا روح فرضت السكينة المكبوتة. فودعته وانصرفت شاكراً له هذه الروح العربية وصدق العزيمة والقوة الكامنة في صدور الرجال.

وفي السنين الماضيات، وقد مر عليّ ربع قرن إلى يومنا هذا، لقيت عدداً من الملوك والرؤساء، والأمراء والوزراء، بكى بعضهم، وتباكى البعض الآخر، فما أجدانا البكاء ولا خدعنا التباكي، وضاعت فلسطين، ونزح شعب فلسطين تحت كل سماء وكوكب.

وستروي هذه المذكرات حكاية البكاء، من بكى ومن تباكى. . .

الأمير فيصل، ناظم القدسي، القنبلة الذرية

كان الأسبوع الأول من شهر آب/ أغسطس حافلاً بالأحداث، بدايتها عربية وقمتها دولية، فقد زرت الدكتور ناظم القدسي (رئيس الجمهورية لاحقاً) الوزير المفوض للجمهورية السورية في نيويورك في (فندق وولدورف استوريا) وقد كنت عرفته أيام المؤتمر العربي المنعقد في بلودان عام ١٩٣٧، وكانت بيننا زمالة في العمل بلجنة الدعاية والنشر التي انبثقت من ذلك المؤتمر، وها نحن نلتقي الآن بعد سنوات للتعاون في حقل وطني يشبه ما اجتمعنا له سابقاً، وما تزاملنا فيه سابقاً، فكان تواردا لطيفاً. ولقد رأيته هذه المرة وقد ازداد اعتقاداً بفائدة الدعاية، فوق ما أكسبته إقامته في أمريكا من سعة في التفكير وحرية في التصرف وسرعة في العمل.

وعلمت أن الأمير فيصل آل سعود ينزل في نفس الفندق فسارعت إلى زيارته والسلام عليه، وكانت أول معرفتي به، فألمعت إلى سبب مقدمي للولايات المتحدة، وأهداف المكتب، إلماعاً عابراً طمعاً في أن أكون مستمعاً وكفى.

والأمير يكون قد قضى في هذا اليوم قريباً من أربعة أشهر اتصل خلالها بالأوساط الأمريكية، فأخذ يتكلم عن مؤتمر سان فرنسيسكو، وأعمال الوفود العربية، وأحابيل الحركة الصهيونية، للدس على القضية العربية في فلسطين واستصدار تصريح سياسي يؤيد الدول اليهودية والهجرة اليهودية، ثم تحدث عن العقلية الأمريكية والأساليب التي يؤخذ بها الأمريكان.

ولقد تحدث عن ذلك جميعه ببساطة وطلاقة لا تكلف ولا تزمّت، كأننا على معرفة منذ زمن بعيد. يؤدي الرأي سهلاً واضحاً ثم يعزز حديثه بحركة من يده خفيفة ورشيقة وهو معتدل في مجلسه ينم وجهه عن الثقة والعزم فلا تجتاحه عاطفة ولا يهبط به برود أو فتور. ولو استطاع السامع أن يغيب ذاته ونفسه ساعة من الزمن لظن أنه بين يدي الصحراء الهادئة الوادعة.

وقد تكاثر الصحافيون الأمريكان على الأمير فيصل يمطرونه بأسئلتهم. . .

. . وللصحافيين الأمريكان طريقة بارعة في طرح الأسئلة المحرجة. . . وكان الأمير فيصل يجيب عن السؤال بسؤال. . أو يرد بجواب موجز مسكت، على غرار الأجوبة المسكتة التي عرفها الأدب العربي في تراثنا العظيم. . .

ومال إليّ أحد الصحافيين ليهمس في أذني: «وأين تعلّم الأمير. . . ؟»

فأجبت: «في أكبر جامعة في العالم».

قال: «وما هي؟»

قلت: «الجزيرة العربية».

قال: «ألست مازحاً!!»

قلت: «لا، بل أنا جاد. . إن الجزيرة العربية كلها نباهة وذكاء. . أَوَلم تعط الإنسانية تلك الحضارة الرفيعة التي تجنون الآن ثمارها».

قال: نعم هذا صحيح. .

وانصرف الصحافي الأمريكي يحمل أوراقه، وفيها أجوبة الأمير، وأجوبتي عن الجامعة الكبرى التي درس فيها الأمير. . .

وتشاء الأقدار أن أزداد مع الأيام معرفة بالدكتور ناظم القدسي بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية السورية، وأصبحت رئيساً للوفد السوري، ومساهماً في صنع الأحداث السورية، وأن تكون لي معه ومع غيره من رجالات سوريا شؤون وشجون ستجد لها مكاناً في هذه المذكرات.

وتشاء الأقدار كذلك أن ازداد معرفة بالأمير فيصل، وخاصة بعد أن أصبحت رئيساً للوفد السعودي في الأمم المتحدة، وتجري الرسائل بيني وبينه، ثم أزداد معرفة به بعد أن أصبح ملكاً، لألقاه في مؤتمرات القمة، ويصبح حوارنا وأحاديثنا ذكريات ومذكرات. . .

وجاء صباح اليوم الثامن من الشهر الثامن (١٩٤٥) والتقينا نحن ثلاثتنا الأمير فيصل والدكتور ناظم القدسي وأنا، كأننا على ميعاد، وكان ميعاداً مع النبإ الرهيب، يدوي في الآذان، ويذهل البصائر والأبصار، الصحف طافحة به وحده وقد امّحت الأخبار الأخرى، لقد اختفت أخبار المحاكمات التي شطرت الدنيا إلى معسكرين حول إدانة بيتان، وأنباء الحرب وما تثيره في الأذهان، جميعها قد امّحت وتقهقرت أمام أنباء «القنبلة الذرية» التي قذفت على المدينة اليابانية فصهرتها وأرجعتها إلى الأعماق، ثم أفشت في كل آفاقها حشوداً من الموت والنار والدمار. .

ولقد تحدثت الصحف عن هذه القوة الرهيبة تنطلق من الذرّة، وأخذ رجال العلم يكشفون بعض النقاب عن نتائج هذه القوة، وعن ثورة العلم وقدرته حينما تسير هذه القوة في خدمة المدنية الإنسانية. وأفاضت الصحف عن التجارب التي سبقت إطلاق هذه القنبلة في صحراء المكسيك. فعمّت الدهشة أمريكا، وأمريكا لا يسهل أن تندهش فقد ألفت الاختراع، وطاوعها الاختراع، ولا تعيش أمريكا إلا في جو من المشاريع الضخمة والأرقام الضخمة.

أجل ليس يسهل أن تدهش أمريكا فهي التي أقامت الجسور تحت الماء، وفوق الماء، وفي الفضاء، وأنشأت العمارات الذاهبة مع أطباق الجو، وأنتجت للحرب نصف ما أنتج الحلفاء والأعداء مجتمعين، وهي التي سارت بالقطار تحت الأرض المظلمة أربعين ميلاً، وهي التي جاءت بالمعجزات والمدهشات والمذهلات، تقف اليوم مشدوهة أمام القنبلة الذرية: أمّ المعجزات والمدهشات والمذهلات. ويزيد هذا البهر، وهذا الدهش ما يقوله العلماء من أن قنبلة الذرة إنما تؤلف العتبة الخارجية للكون الرحيب، في ما يحتويه من خارق القوى وعجيب الخصائص.

ومع النبإ الرهيب جاء النبأ العجيب:

لقد جثت اليابان على ركبتيها.. ولم تكن تجثو إلا للإمبراطور سلالة الآلهة وصفوة القداسة. لقد جثت وجيشها وعتادها متكامل متوافر، وما أصابها وهن ولا ضعف ولا كلل.. ولقد تجثو كل قوى الأرض قبل أن تجثو اليابان. ولقد تأخذ اليابان صاعقة ساحقة فلا تجثو.. ولقد تحيط باليابان الزلازل والبراكين تؤرجحها في كف الأقدار فلا تجثو.. ولكنها تجثو الآن تحت قدمَيْ القنبلة الذرية، تخلع فؤاد الشعب الكبير، ولم يبق له إلا أن يطلب الأمن والسلامة لربه ومعبوده، إلى الإمبراطور!! وتقاطرت جموع الشعب إلى قصره، نادبة باكية تجر أذيال الخذلان والخيبة.

هاتان القنبلتان الصغيرتان قد حطمتا عبقريات الرجال في الحرب والسياسة والاقتصاد.. قنبلتان أنزلتا شللاً عاماً في أمة بكاملها فجاءت تطلب السلم من غير قيد ولا شرط، وانقلب معبودها عبداً، وسيدها مسوداً، وقائدها مقوداً. وللعلم على الإنسان آفات وآفات!!

ولقد كانت القنبلة الذرية سراً مغلقاً يومذاك، لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم، وبدأنا نتحدث نحن الثلاثة، القدسي وفيصل وأنا، عن الموضوع حديث الرموز والطلاسم، ولم تعد ذكريات الأمير فيصل في سان فرنسيسكو عن الأمم

المتحدة شيئاً جديراً بالكلام، ولا حديث القدسي عن اتصالاته بالخارجية الأمريكية ذا موضوع.

وكان في الفندق كثير من الوفود العائدين من سان فرنسيسكو إلى بلادهم، في أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ودارت الأحاديث بيننا وبينهم عن القنبلة الذرية، حول ما كان وما سيكون. .

وكان رئيس وفد بيرو السيد بلاوندي، وقد أصبح صديقاً لي في ما بعد، يتحدث عن العبقرية الأمريكية وهو يقول:

«القنبلة الذرية هي التي ستصنع العالم الجديد والأمم المتحدة الجديدة».

قلت: «وكيف ذلك؟»

قال: «لم نستطع في سان فرانسيسكو أن نجعل الأمم المتحدة دولة فوق الدول، ولذلك جاء ميثاقها رخواً. ولكن القنبلة الذرية التي ألقيت في اليابان ستنجح في ما أخفقنا فيه في سان فرنسيسكو. .»

قلت: «وكيف ذلك، إني جاهل لهذا الأمر. .»

قال: «إن أمريكا هي التي ستكوّن الأمم المتحدة، دولة فوق الدول، فإن عندها أسرار القنبلة الذرية، وفي هذا كفاية».

قلت: «والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا، ألن يكون لهم حظ، في أسرار القنبلة الذرية؟» . .

قال: «أبداً ستحتفظ أمريكا بالأسرار. .»

قلت: «أنت رجل عالم، وعالم كبير، فهل يظل العلم وأسرار العلم حكراً على دولة واحدة؟» . .

قال: «نعم هذا سيكون بشأن القنبلة الذرية. .»

قلت له مداعباً: «كلانا جاهل. . والحكمة جاءت على لسان شاعر عربي. . .» وهنا ترجمت له قول الشاعر. . .

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وافترقنا في عام ١٩٤٥ على هذا الحديث، والتقيت بالسيد «بلاوندي» أعواماً وأعواماً في الأمم المتحدة، وخطبت وإياه أعواماً وأعواماً في موضوع واحد. . منع انتشار الأسلحة الذرية. . وكنت كلما فرغ من خطابه تقدمت منه لأهنئه وأقول له:

«أنت جاهل وأنا جاهل. . أو لم تصبح روسيا وبريطانيا وفرنسا دولاً ذرية. . والحبل على الجرار!!»

وإن أنس لا أنسى نيويورك وهي تميد بأخبار السلام أو بأخبار التسليم، بعد القنبلة، ونيويورك لم تنم تلك الليلة ولا رقدت شوارعها وميادينها، ولا هدأت سياراتها الصاخبة، لقد انطلقت نيويورك بكل جوارحها ومشاعرها، فلطالما انتظرت هذا اليوم وهي مكبوتة العاطفة.

الملايين يزدحمون في ميدان «التايمز»، الأكتاف لاصقة بالأكتاف، والرؤوس مرصوصة إلى جانب الرؤوس، والأقدام ملتفة بالأقدام، والرجال والنساء، والشيوخ والصبيان والجنود ينشدون ويمرحون ويهزجون، بالحناجر والعيون. الأوراق المذهبة تملأ الفضاء وتهوى على الرؤوس كالفراش المبثوث. المزامير بأنغامها في أفواه الوقار والصبا. الطبول الصغيرة على صدور الكبار والصغار. المصورون طائفون بالسيارات أو مطلّون من الشرفات أو منتصبون على قواعد التماثيل. عصائب الشباب «عسكروا» في منافذ الطرق ومقاطع الشوارع ينتزعون الفتيات من الصفوف ليطبعوا على شفاههن القبلات، عميقة واجدة، فهذه راضية وتلك متراضية وأخرى متمردة، تسمع للقبلات صفيراً وزفيراً، والفتيات صارخات أو ضاحكات، أو مستنجدات، ويظفر الشباب بالقبلات وبأحمر الشفاه. . .

ولقد انتحيت جانباً أبصر هذه الخلائق، انطلقت من عقال الحرب فأطلقت عواطفها، ووقفت إلى جانب عصبة من مئات عصابات الشباب رصدوا شبابهم ذلك اليوم على المرح والحبور، ورأيت شاباً مرصعاً بأحمر الشفاه، على شفتيه وذقنه وجبينه وخديه، وقد آوى إلى ظل دكان ليأخذ بعض الراحة، فانتهره رفيقه ليرده إلى العصبة، فأبى وهو يقول: «لقد انقضت علي خمس ساعات وأنا على عصب رجلي وعصب شفتي» فمضيت في طريقي وقلت: لو أن أمريكا تستطيع أن تهيئ لناسها بلوغ المتع الإنسانية وإشباع غرائزها بالآلة الميكانيكية، لفعلت ورضيت وابتهجت، في ذلك اليوم. . .

ولقد انقضى النهار كله، والليل يعقبه، وانقضى اليوم الثاني بنهاره وليله، وقد أفرغت نيويورك كل صباباتها، واستنزفت جميع خلجاتها، حتى القرار وحتى الثمالة. وقد ضجت أجواؤها بأبواق السيارات، أقامت عرساً في الأرض وفي السماء، ولكن الروح اليقظة الشاعرة الحية لا تغفل أن ترى وراء هذه الكتلة البشرية الضاحكة مئات من البيوت يخطر فيها الحزن الهادئ المقيم، وآلافاً من الآباء يطلون من النوافذ وقلوبهم جريحة لما فقدوا من فلذات الأكباد، وآلافاً من الأمهات والشقيقات

والزوجات والخاطبات والعاشقات والرفيقات والصديقات حركت فيهن هذه المهرجانات لواعج الأحزان ومواجع الذكريات، ومنهن من لا ترى في النصر نصراً لآمالها، ومنهن من لا ترى في السلام سلاماً لأفئدتها، ومنهن من تتساءل عن الحرب وأهدافها: هل ذهب الأعزاء والأحبة، كما مضى الذين من قبلهم من غير عوض للإنسانية ولا تحقق لمثلها العليا؟

وحين أويت إلى غرفتي أنصت إلى الراديو يتكلم من خلاله أديب مرهف الحس، أذهلته ويلات الحرب وما التهمت من زهرات الأجيال، فبكى لشبابها الغض، وعزّى الأقرباء والأصدقاء، ورأى في الويلات كلها سبيل الراحة للأجيال المتمخضة في صدر الغيب المقبل.

ما أجمل الرؤى ولكن ما أمرَّ الخيبة عند اليقظة. وما أجمل السراب. ولكن ما أسوأ العقبى، حين ينقلك السراب إلى سراب.

فلا تزال الحرب هي الحرب، رابضة متربصة، تنتظر الشرارة الأولى!!

يا مستر شقيري أنت متشائم جداً،
يا مستر شقيري أنت متفائل جداً

وفي الأسبوع الأخير من شهر آب/ أغسطس ١٩٤٥ حضرت احتفالاً أقيم في فندق (وولدورف استوريا) تكريماً للمستر دودج عميد الجامعة الأميركية في بيروت وهو الآن في نيويورك لبعض شؤون الجامعة، وقد ضم الحفل نخبة من السوريين تصاحبهم نساؤهم وبناتهم الأمريكيات، فكان مجلسي إلى مائدة أنيقة بين عقيلة الدكتور خير الله وهو من كبار الوطنيين العاملين وسيدة أخرى هي عقيلة السيد حمدان غنّام من كرام مهاجري فلسطين، وكلتاهما أمريكيتان أُشبعتا حب البلاد العربية وأخلصتا في هذا الحب.

وتعاقب الخطباء يثنون على الجهود العلمية والإنسانية التي بذلتها أمريكا في الشرق العربي، فتكلم «توماس لويد» من الخطباء الأمريكيين المعروفين، وكان طلق العبارة جميل الصوت رشيق المداخل والمخارج، كما كان الدكتور دودج آية من الآيات، قذف عواطفه كلها على أطراف لسانه، وأعجبتني إشارته إلى القنبلة الذرية في أن العالم شهد أكثر منها قوة وأثراً، فألمع في جملة ما ألمع إلى أن شخصية محمد (ﷺ) كانت أعظم من هذا المقذوف توجيهاً للإنسانية والحضارة.

وتحدث الدكتور حتي (الأستاذ بجامعة برنستون) بأمريكا حديثاً قيماً، لولا أنه أكثر من ذكر «العالم الناطق باللغة العربية» تجنباً لجملة «العالم العربي» وتكلم الدكتور صروف وقد قدم من القاهرة في زيارة عاجلة، بصفاء ذهن وبديهة حاضرة وردّ على الاقتراح القائل بتسمية الجامعة التي يعتزم تأسيسها في بغداد بجامعة ألف ليلة وليلة، مبدياً رأيه في أن تسمى «دار الحكمة» التي كانت منهل العلم في بغداد، وقلت له حين هنأته، ليتك وجدت سبيلك إلى أن تشير إلى أن بغداد تعرف بدار السلام.

وخطب كذلك الدكتور قسطنطين زريق «مستشار المفوضية السورية في واشنطن» فامتدح جهود دودج والمعاهد الأمريكية، وأبرز قيمة الأمة العربية وحضارتها وآمالها، ثم قرأ الدكتور شارل مالك (وزير لبنان المفوض في واشنطن) كلمة زانتها شؤون الاجتماع والفلسفة، لولا أنها جعلت لبنان يتيم النسيج والتكوين، وأنه لولا لبنان لا يكون شيء ولا كان!!

وطلب إليّ الحاضرون أن أدلي بدلوي بين الدلاء، وقدمني إلى الجميع السيد خير الله من العاملين في الحقل الوطني في الولايات المتحدة، أمريكي من أصل عربي (بحمدون لبنان)، وطلب إليّ أن أقول كلمة «تناسب المقام».

فوقفت على المنصة، وأنا لا أدري ما هي الكلمة التي تناسب المقام، ولكل مقام مقال.. وفي ذلك الجمع ثقافات متعددة واتجاهات متنوعة، ولا أدري ما هو المقال الذي يصلح لذلك المقام.. ولكن ذكريات الصبا قد أسعفتني وأوحت إليّ حديثاً يناسب المقام في أمريكا، ويناسب المقام في الوطن العربي.

أثنيت في مطلع حديثي على جهود الدكتور دودج وشكرت له إشارته البارعة إلى أن الرسالة المحمدية كانت أعظم أثراً في توجيه الحياة الإنسانية، واستدركت إلى القول إن بيت المقدس وهي موطن الإسراء والمعراج وبلد السيد المسيح عليه السلام تهدده الصهيونية بأعظم الأخطار، إلى آخر ما يتصل بهذه المعاني، وشرحت للحاضرين كيف كانت مشاعر الجماهير العربية تحمل تقديراً وإكباراً لديمقراطية الولايات المتحدة، وما رأيته في صباي من إقبال الناس على توقيع عرائض تطالب بانتداب أمريكا بدلاً عن الاستقلال، إذا لم يكن ميسور المنال..

ثم عقّبت على كلام الدكتور حتّي معاتباً «المؤرخ العالمي» لأنه أشار إلى الأمة العربية بأنها العالم الناطق باللغة العربية، وعرجت بعد ذلك على كلمة الدكتور مالك منبهاً إلى أن لبنان، على كل مزاياه، لا يستطيع أن يكون له وجود في العالم من غير الأمة العربية، وهو جزء منها ومصيره مصيرها.

ختمت كلمتي قائلاً، إن السنين المقبلة ستتجلى فيها آمالي ومخاوفي: سيثبت للدكتور حتّي أن العرب أمة واحدة، لهم وطن واحد، وليسوا العالم الناطق بالعربية فحسب، وقد وقع هذا فعلاً، ويثبت للدكتور مالك أن حياة لبنان هي جزء من حياة الأمة العربية يتفاعل معها، وقد وقع هذا فعلاً، ويثبت للدكتور دودج أن استمرار الولايات المتحدة في سياستها سيفضي إلى أن تخسر كل رصيدها الضخم في العالم العربي، وسيصبح بيت المقدس بمقدساته الإسلامية والمسيحية فريسة العدوان

اليهودي. . . وهكذا انتهى الحفل في جو قاتم، وأحسب أن الكلمة لم تكن تناسب المقام. .

وانفرط الاجتماع إلى حلقات حلقات، وأحاطت بي الأسر العربية «المتأمركة» وبعضهم يمثل الجيل الثاني والثالث ممن تأثروا بالحياة الأمريكية، وهم يقولون لي «يا مستر شقيري أنت متشائم. . . . «قلت أرجو الله أن يكون المستر شقيري متشائماً، وأن تخيب ظنوني.

وباتت هذه المخاوف في صدورنا أعواماً، وكانت لي لقاءات مع أولئك الأمريكيين المنحدرين من أصل عربي في جميع أسفاري إلى الأمم المتحدة، لأسمع منهم رجالاً ونساء: «يا مستر شقيري، نحن متأسفون، لقد كنت على حق!!»

ومضت أيام على الحفل الصغير الذي شهدته في فندق (ولدورف استوريا)، لأشهد حفلاً أعظم وأكبر، بل إنه من التواضع أن نسميه حفلاً، فقد كان حشداً بشرياً هائلاً، ذلك هو عيد العمال في أمريكا، والمفروض أن يقع أول «اثنين» من شهر أيلول/ سبتمبر من كل عام. وعيد العمال هنا عيد شعبي ينتفع به الشعب، العامل وصاحب العمل. وهو عيد رسمي أيضاً تعطل فيه جميع الدوائر الرسمية والشركات، باستثناء مصالح البريد والمواصلات وشؤون الطوارئ. . ومما يزيده قيمة أنه يسبقه الأحد وظهر السبت، فيتسع للخروج من المدن والانتقال بعيداً عن المصانع والمعامل ومراكز الحركة والضجيج. وهنا يتجلى التفكير الأمريكي في تنسيق الأمور بما يجعلها أكثر انتفاعاً بالوقت، على أكمل ما يكون الانتفاع.

وقد خرج الأهلون من نيويورك إلى الضواحي بالقطارات والسيارات العامة والسيارات الخاصة، وازدحمت الطرق الرئيسة بحركة المرور، وكان مثل ذلك يجري كما روت الصحف في جميع المدن الكبرى للولايات، وسجلت الإحصاءات الرسمية لهذه الأيام أربعماية حادثة دهس مميت، نشأت عن هذا الزحام، ومع هذا فقد أبدت الأوساط الرسمية ابتهاجها لهذا الموت، لأنه أقل في نسبته مما سبق من السنين.

وقد خُيّل إلي، وأنا جالس إلى نافذتي أرقب هذه القوافل الخاطفة، أن نيويورك قد خلت من أهلها، وأنها أصبحت كالمدن المهجورة التي تبدع الأساطير في وصفها، وخطر لي أن أتفقد ما جرى لهذه المدينة العظيمة بعد هذه الهجرة المرحة، فرحت أطوف ميادينها وبعض شوارعها، ولكني رأيت الأرض ما زالت تعج بخلائقها ولم ينتقص عيد العمال من عجيجها شيئاً، وأنّى لنيويورك أن تهدأ، ويعيش على رقعتها الصغيرة ثمانية ملايين من البشر ليلاً، وعشرة ملايين نهاراً. .

وفي عصر النهار ذهبت مع رفاقي إلى «كوني أيلندز» على شاطئ الأطلنطي على مسافة نصف ساعة في قطار ما تحت الأرض. وهذه الجزر من أماكن النزهة العامة الشعبية، وتشد إليها الرحال في الأعياد العامة. وفيها منبسط جميل من الشاطئ، انتشرت فيه حمامات السباحة أقيمت على الرمال، ويلي ذلك رصيف طويل عريض فرشت أرضه بالخشب الثقيل المنسق، ثم يلي ذلك صفوف من الدكاكين وأماكن اللهو والبيع والشراء، بينها الأراجيح «الشقاليب» وهي مثل ألعاب بلادنا في الطريقة والأسلوب، وإن كان العلم هنا قد جعلها منظمة ونظيفة، عملية الحركة.

وقد أمَّ هذه الجزر سواد الشعب، أبيضه وأسوده، العبيد والبيض، وأخذوا بكل أسباب اللهو رجالاً وأطفالاً ونساء، ولم يترك أحد ما يناسبه من الألعاب إلا وقد لعبه، فالصبيان على ظهور الخيل النموذجية، ركزت في القواعد الدائرة تدور بهم على نغمات الموسيقى، والفتيان في السيارات الشكلية مثبتة في القضبان الحديدية بالهواء، تصعد بها إلى الأعالي ثم تهوى إلى قاع هذه القضبان بين الضحك والصياح، والعجائز بين يدي رجل «يُبصَرِّ» عن الأعمار، فترضى بعضهن وتغضب أكثرهن، والرجال صاعدون هاوون في نموذج الباراشوت المعلق بأسلاك من الفولاذ، والمطاعم غاصة بالآكلين والشاربين. وأصحاب الأعمال (يدللون) يدعون المارين لمشاهدة ما لديهم، ورمال الشواطئ لا تكويها شمس ذلك اليوم ولا تمسّها بشعاعها، ذلك أن العاريات من النساء والعراة من الرجال قد لصقوا بالرمال وانبطحوا عليها بالألوف، وألوف الألوف، ومن الأجسام مختلف ألوانها، والشعور منشورة ومدلاة ومستشزرات، أمّا مآزر السباحة فأنواع وحجوم وألوان!!

هذه الألوف قائمة وقاعدة، مضطجعة ونائمة، وجاثمة وحانية، ولاعبة وساكنة، ثائرة وفاترة، صور وصور، آفاقها فوق آفاق الخيال مهما سما واتسع هذا الخيال، ومن لم يستطع أن يشارك في شيء من كل هذا اللهو، كامرأة طاعنة في السن أو كشبح فانٍ على عكازه، أو كرجل مثلي «مثقل» بوقار الشرق ورزانة البلد المقدس. . . من لم يستطع أن يشارك فليس له إلا أن يتخذ مقعداً مطلاً على هذه الخلائق، يموج كما يموج الأطلنطي وهو عنها غير بعيد.

إنه موسم كمواسم بلادنا، وإنه الشعب في كل مكان بروحه ومرحه، وإنما يسود هنا النظام ويسود العلم وتسود النظافة، وإن لم تَسُدْ الأخلاق كما نفهم الأخلاق!!

وبينما كنت أسير في أطراف هذا الحشد البشري، تصدى لي السيد زيادة من مهاجري رام الله فلسطين وكان من رفاقي في مدرسة صهيون بالقدس،

«وجَرَّني» إلى حلقته الكبيرة التي كان يجلس فيها وكانت تضم عدداً من الأمريكان من أصحاب الأعمال والتجارة، فجلست معهم أستمع إلى أحاديثهم ونكاتهم الأمريكية، ثم أخذ الأمريكيون منهم يسألون عن شؤون البلاد العربية وعن قضية فلسطين، فأجبتهم على أسئلتهم وأفضت في شرح القضية الفلسطينية بأسلوب سهل مبسط يستجيب للسذاجة الأمريكية. وأمطروني وابلاً من الأسئلة عن اليهود وتصرفاتهم في فلسطين، وكانت الكراهية لليهود بادية في أسئلتهم، فرحت أصول وأجول في هذا الميدان الرحب فإن خبرتنا باليهود، نحن الأمة العربية، واسعة مترامية الأطراف، فذكرت كيف كان اليهود يعيشون في جوارنا الكريم في الوطن العربي، فكان منهم الوزراء والنواب والتجار ورجال الأعمال يعيشون هانئين مكرمين، على حين كانوا يضطهدون في أوروبا فيذبحون ويعذبون.. و... و...

وحسبت أني استطعت أن أكسب هذه الحلقة الأمريكية و«المتأمركة» إلى جانب قضية فلسطين بصورة عملية، تتجاوز التصور العاطفي، وقلت لهم: «هل تستطيعون أن تفعلوا شيئاً لقضية فلسطين، حرصاً على العلاقات الأمريكية العربية، على الأقل، إن لم يكن حرصاً على الحق والعدل؟»، قالوا: «ماذا تقترح؟»

وظننت أني ربحت معركة صغيرة أمام هذا السؤال الصغير.. ولم أشأ أن أقترح الكثير والكبير، بل خطر لي أن يكون اقتراحي في أدنى الحدود، ورأيت أن أقلد اليهود في أبسط أساليبهم وأكثرها يسراً، فقلت لهم: «لا أكلفكم كثيراً ولا أمراً خطيراً، كل ما أرجوه منكم أن يكتب كل واحد منكم بطاقة إلى البيت الأبيض يناشده فيها أن يتخذ موقف الحياد بين العرب واليهود، حرصاً على المصالح العربية الأمريكية».

وساد الحلقة جو من العبوس والتجهم، وخشيت أنهم لم يفهموا «لهجتي الإنكليزية» وأخذوا كلامي على غير معناه، فكررت اقتراحي بعد أن يسرته وبسطته، فخرجت إحدى السيدات الأمريكيات عن صمتها وقالت: «أنت متفائل جداً يا مستر شقيري، نحن لا نستطيع أن ننفذ هذا الاقتراح، إن زوجي يعمل في ميدان التجارة، ولا يتورع اليهود عن مقاطعته، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً».

وقلت للإخوة الأمريكان المنحدرين من أصل عربي: «وأنتم؟؟.. ألا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً لفلسطين»، فقالوا: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً، وكل ما نقدر عليه أن نقدم لفلسطين معونة مالية بصورة سرية، وإذا كنت تظن أننا نستطيع غير هذا، فأنت متفائل جداً يا مستر شقيري».

وانتهى الحوار عند هذه الخاتمة، وودعتهم وانصرفت، ورحت، وأنا في طريقي أفكر في التناقض العجيب الذي يلف قضية فلسطين:

في حفلة (وولدورف استوريا) قال لي القائلون: «يا مستر شقيري أنت متشائم جداً».

وفي يوم العمال قال لي القائلون: «يا مستر شقيري أنت متفائل جداً. .»

وحرت في أمري، ماذا أصدق؟ وماذا أكذب؟ لا عن غيري ولكن عن شخصي ونفسي، وبدأت أتساءل هل أنا متشائم حقاً؟ هل أنا متفائل حقاً؟

وبحثت في أعماق نفسي عن جواب أستريح إليه، وتوصلت بالنتيجة إلى الحقيقة الصارخة: لست إنساناً متفائلاً كما قال البعض، ولا متشائماً كما قال الآخرون، ولكن حديثي إلى هؤلاء وأولئك كان عن أمة لم تصل بعد إلى مستوى المعركة. . . أمة تملك كل القدرات وكل الطاقات التي تؤهلها للمعركة وللنصر في المعركة، في كل ساحة وميدان ولكن. .

ولكن القدرات العربية مبعثرة

ولكن الطاقات العربية مشتتة

وبكلمة واحدة. . الوحدة العربية متعثرة، وولادتها متعسرة. . .

الكونغـرس فـي مباذلـه

في أوائل شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٤٥ قدمت إلى واشنطن لبعض أعمال المكتب، وواشنطن مدينة جميلة ما جئتها إلا وأوحت إليّ أنها مدينة الحدائق والرياض، ولولا شدة بردها في الشتاء وشدة حرها في الصيف، لكانت من حدائق العالم التي تجتذب الأفئدة والأبصار.

وعلمت أن الكونغرس ينعقد لأول مرة بعد انتهاء الحرب، فانتهزتها فرصة، وذهبت بصحبة صديق أمريكي إلى هضبة «الكابتول» التي يقوم عليها بناء الكونغرس، وهي شرف من الأرض يزدان بالأشجار والطرق الجميلة، وعلى هذه الأرض أقيم البناء الفخم الذي لعلعت في جنباته أصوات أنصار الصهيونية، وما أكثرهم . .

وأُجلست في الجناح الخاص برجال السلك السياسي، ورافقني أحد الموظفين ليشرح لي شيئاً عن سلطات الكونغرس وما إلى ذلك، ولشد ما كانت دهشتي حين رأيت أن سقف القاعة شبكة من جسور الحديد تعيد إلى الذهن صورة عن مخازن الاستيداع الكبرى المحملة سقوفها على الحديد والفولاذ، وقد قال لي حين سألت، إن شبكة الحديد هذه أقيمت لتحمل سقف البلور فوقها، وهو سقف القاعة القديمة، وقد لا يقوى هذا على حمل الثلوج في الشتاء، فأقيمت من تحته هذه الجسور حمالة له، فقلت له مازحاً: هذا إفراط في الحماية البرلمانية، تتعدى النواب إلى حماية السقوف، فضحك وضحكت.

ولقد سألني صديقي الأمريكي عن مجالسنا النيابية فشرحت له أُقرب مجلس إلينا في «شرق الأردن» ولقد عجب أنه ليس فيها مجلس شيوخ، فقلت له ليس في تلك البلاد شيوخ، فهم جميعاً مثال الفتوة والشباب!!

وبعد هنيهة أخذ أعضاء المجلس يدخلون القاعة ويتخذون مقاعدهم، يسلم بعضهم على بعض بمرح وسرور، وفي تمام الساعة الثانية عشرة أعلن الرئيس افتتاح الجلسة وأخذ يدس إلى الكاتب تقارير ومستندات يقرأها من المذياع، ولكن الصوت ظل خافتاً، والقاعة سيئة الهندسة من حيث إعدادها للصوت، واستمر الأعضاء

يكلم بعضهم بعضاً، ويسلم بعضهم على بعض، ومضوا يجولون بين المقاعد، ويدخلون ويخرجون، والكاتب يقرأ غير مسموع ولا مفهوم، والرئيس في منصته يقلب الأوراق بين يديه، لا نظام ولا هدوء. وقد دخل أحد الأعضاء ومعه ابنته الصغيرة جلست إلى جانبه في مقاعد النواب، وملت إلى الموظف أسأله، أهذه نائبة صغيرة؟ قال: لا، وتولاه صمت. .

وهنا تنفست طويلاً وطويلاً من دون أن ألفت نظر رفيقي، فلقد التمع في ذهني أمر مجالسنا النيابية، فحمدت لها نظامها وهدوءها، ولكن المآخذ والمعايب لا ترى إلا في الضعفاء، من الأفراد والشعوب على السواء.

وقلت لرفيقي الأمريكي بعد ساعة من هذا الهرج: لقد اكتفيت، فنهضنا فدنا مني ونحن في طريقنا وقال: ماذا رأيت، فقلت له هذه قاعة أمريكية تتمثل فيها إرادة الأمة الأمريكية، وعلى شاطئ بيروت جامعة أميركية، فيها قاعة عامة، شهدت فيها كثيراً من الاجتماعات سنة ١٩٢٧ حين كنت طالباً، ولكن ما أعظم الفارق بين القاعتين، قال: وما تعني؟ قلت: في الجامعة الأميركية نظام من غير برلمان، وهنا برلمان من غير نظام. . وتضاحكت لأخفف وقع هذه الصراحة، فضحك مسايراً وقال: هذا صحيح، ولكن العمل ماض، قلت له: إن العمل الماضي هو في الآلات الهائلة، القاهرة المسيطرة، المنتجة المبدعة. وهناك سر قوتكم وينبوع ثروتكم.

ودخلت بعد ذلك إلى غرفة رئيس لجنة الشؤون الخارجية، وقد كنت أعلم أنه يهودي ومتعصب للصهيونية، فاستقبلني استقبالاً باشاً وهو رجل في السبعين ولكنه فتيّ القسمات والبسمات. فسألني عن المكتب العربي وأجبته بما ينبغي. ثم سألني عن فلسطين. وأجبته بما ينبغي. ثم حدثني حديثاً أسوقه كمثال للعقلية الصهيونية وتفكيرها الخبيث، قال: «أنا يا عزيزي من الداعين إلى المبادئ الإنسانية والإخاء الإنساني، إن الله قد خلق الإنسان بجميع الألوان. ولكنّ الإنسان هو الذي ابتدع الأديان وصنع اللغات وأقام الدول والحدود. وأنا أحب الصراحة، ومتى وقعت الصداقة توطدت الثقة. وقد كنت في مؤتمر سان فرنسيسكو صديقاً للوفود العربية كلها. وكنت موضع ثقتهم جميعاً حتى إن (. . .) كان لا يرفع يده شارة للتصويت إلا بعد أن يرى يدي مرفوعة. وأكون مسروراً حين تزول الفوارق الدينية، وعوائق الحدود القائمة بين الشعوب».

وعقبت على حديثه بفلسفة من فلسفته. ولكن إلى ناحية أخرى وقلت له: «يا عزيزي، إن فلسطين لا تحول دون تحطيم الفوارق القائمة بين الإنسان وأخيه الإنسان، ولا تمانع أن تزول هذه الحدود القائمة بين الممالك. مع أننا لم نتمتع بلذة الحدود ونعمة الدولة. وحين تأخذ الدول بإزالة حدودها وإعلان إنسانيتها، لا تتأخر فلسطين عن أن تكون في القافلة ولكن لا قبل ذلك».

فابتسم الرجل وقال: أنت خبيث. قلت له: أشكرك على هذا الثناء، ونهضت أودعه فنهض وهو يقول: ستجد في مكتبي كل رعاية ومعاملة عادلة، شأنك شأن مديري المكاتب الأخرى في البلاد، تعامل معهم على قدم المساواة. فترجمت له كلمة (إن شاء الله) ومدلولها، فقال: أنت خبيث، فقلت: أشكرك على هذا الثناء وانصرفت.

وخلال إقامتي في الولايات المتحدة زرت الكونغرس غير مرة، وجلست في غرفة الدبلوماسيين، أستمع وأراقب وأدرس وأتفحص، فرأيت نفسي أمام الديمقراطية الغربية بكل مفاسدها ومساوئها.. لقد رأيت النظام البرلماني حيث يسيطر الحزب على العقل والضمير، أنصر حزبك ظالماً أو مظلوماً.. لقد رأيت المداولات والمناقشات لا سلطان لها على القرارات، فالقرارات لا تتخذ على أساس صدق الوقائع وصواب المواقف، وإنما على أساس الوحي أو الضغط أو التهديد، ممن يملكون وسائل الوحي للضغط والتهديد، وما أكثرهم في الولايات المتحدة..

لقد رأيت أعضاء الكونغرس، إلا القلة القليلة، من الدرجة الثالثة أو الرابعة، شخصية وإدراكاً وعلماً، فالكفاءات الأمريكية تنفر من السياسة، بل تهرب منها إلى الجامعات والأعمال الحرة أو الكنائس..

ولقد رأيت على الجملة أن السياسة لا يقبل عليها في أمريكا إلا الناس الساذجون أو المغامرون، والرأسمالية «مصيدة» لهؤلاء الفريقين على السواء..

هذا هو الكونغرس الذي أقر سياسة الوطن القومي في عهد الرئيس ويلسون.

هذا هو الكونغرس الذي حمل لواء الصهيونية في عهد الرئيس روزفلت.

هذا هو الكونغرس الذي صنع الدولة اليهودية في عهد الرئيس ترومان.

هذا هو الكونغرس الذي أمدّ إسرائيل بالسلاح والمال في عهد الرئيس أيزنهاور.

هذا هو الكونغرس الذي أنقذ الاقتصاد الإسرائيلي في عهد الرئيس كينيدي.

هذا هو الكونغرس الذي دعا إلى إعطاء طائرات الفانتوم إلى إسرائيل في عهد الرئيس جونسون.

وسيظل الكونغرس يفعل هذا وغير هذا في عهود الرؤساء اللاحقين.. إلى أن ينهض «الكونغرس العربي» المناضل، في عهد رئيس عربي مناضل.. في عهد الوحدة العربية. ولن يستطيع الكونغرس الأمريكي بعد ذلك، أن يقرر مصيرنا من واشنطن، ومن هضبة الكابتول...

دعايـة معلقـة فـي الهـواء

وفي أوائل أيلول/ سبتمبر عدت إلى واشنطن، المدينة الجميلة التي تحتضنها الأحراش الفاتنة، عدت إليها لننشئ فيها المكتب العربي بعد أن أخفقنا، إذ لم نجد في نيويورك مكانا لائقاً، فلا تزال أزمة المساكن خانقة، وإننا لنرى الزمن يمضي بنا سريعاً، ونحن لا نستطيع لبلادنا عملاً، والحوادث طائفة من حولنا كالأشباح الرهيبة، ويكاد الأمر أن يدبر، والمصير أن يقرر.

ولقد ولدت الحرب الأولى وعداً بإنشاء وطن قومي لليهود، ونخشى أن تلد هذه الحرب دولة يهودية، وكان الوطن القومي اليهودي خيالاً ومحالاً حين علمنا به، فانقضت عشرون عاماً فإذا به حقيقة قائمة، وأكاد أفزع حين تشمل هذه المقارنة صورة الدولة اليهودية التي نراها الآن وهماً باطلاً، وإني مطمئن أن هذه الدولة لا قبل لها بالحياة في قلب البلاد العربية، وإن الأمة العربية لا بد لها في مستقبل الأيام، مهما بعد العهد، أن تقتلع هذه الدولة اليهودية، ولكني أكره هذه الطمأنينة وأصر على محاربتها، وإن محاربة الدولة اليهودية، الآن وقبل أن تولد، في مقدور البلاد العربية إن هي أرادت، وإن هي عزمت فيما أرادت. . . تلك كانت خواطري وهواجسي. . .

وفي واشنطن لم نجد مكاناً للمكتب العربي، لائقاً أو غير لائق، إنه ليحرجني وقد مضى علينا شهران تقريباً ونحن نفكر في مكان يحتوينا، لنخدم بلادنا، وبلادنا تريد أن تطمئن إلى مكانها الذي يحتويها.

وفوق ذلك فإن الجو السياسي أخذ بالتلبد، فالجماعات الصهيونية تعبئ كل قواها لتلقي آخر جندها وعتادها في هذه المعركة الحاسمة، ففي هذه الأيام تقرر المصائر وتهبط الأقدار. والصهيونية تؤمن أنها إن لم تظفر ببغيتها الآن، فلن تظفر بها بعد الآن، وإنها لتجد الآن في الفوضى الأوروبية مناحة تستدّر بها عطف العالم

لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين، والصهيونية ما تفتأ تلح وتلح خشية أن لا تلوح مثل هذه الفرصة أبداً.

ولهذا السبب ذاته، أعدّت الصهيونية كل عدتها لتلقى بها في الميدان، وحين أفكر أننا لم نجد حتى الآن مكتباً، ولا أعددنا قرطاساً ولا طابعة ولا ملفاً. حين أستعرض أمامي هذا الصمت الذي أمسك بأفواهنا وأقلامنا، وحين أرى هذه الحيرة في تسجيل مكتبنا في وزارة العدل، أنسجله تابعاً لجامعة الدول العربية، وهذه لم تقر بعد بأمرنا شيئاً؟ أَنُسَجّله برعاية الدول العربية وهذه مرتابة في نجاح المكتب، وفي ما عسى أن يخطئ ويهفو، وفي ما عسى أن يجر على الدول العربية من سقطاته وهفواته؟ أم نسجله كهيئة قومية شعبية؟ بل إنني حين أستعرض مواردنا المالية التي ترشح علينا كما يرشح الماء من الصخور الندية، وحين أستعرض شؤونا أخرى متصلة بمعايبنا وأنانيتنا، وفزعنا من الحقائق، وتوهمنا الضعف في أنفسنا، أرى أن الإيمان وحده هو الذي يحملنا على العمل، وأن مستقبل ذرارينا وأنسالنا هو الذي يصيح في وجهنا ويستحثنا أن نعمل، وأن نعمل دائماً ودائماً.

والويل للأمة التي لا تعمل، حين تلوح فرصة العمل.

وأصبحت تداهمنا الأحداث ونحن نهيئ أنفسنا للعمل، ففي الوقت الذي نؤثث مكتباً ونعدّه بالمراجع العلمية وسائر وسائل العمل ومظاهره، والعمل الذي نحن في سبيله تسيطر عليه كثير من المظاهر، في هذا الوقت تفاجئنا الصحف الأمريكية والإنكليزية بالمجهود الجبار، تقذفه الصهيونية كآخر احتياطي لها في المعركة.

الصحف طافحة بالاجتماعات والمظاهرات والمقالات، جميعها تلح بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وجميعها تصر على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. إنه صياح صاخب، هائج مائج، يتردد في كل مكان، وإنك لتسمع هدير المعركة ودويّها، حتى ليبدو أن هذا الهدير سيطغى على أي صوت آخر مهما كان قوياً. وها قد أخذ المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة يكتب إلى الحكومة البريطانية طالباً السماح بهجرة مئة ألف من يهود أوروبا، معتمداً في ذلك على رأي الخبير الذي أوفده خصيصاً لأوروبا للنظر في مشكلة اللاجئين.

ولقد نشرت الصحف تصريحات للمستر ترومان أكد فيها اقتناعه، بعد البحث

الشخصي، بأن سلفه روزفلت لم يعِد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم التدخل في قضية فلسطين، وراحت الصحف تنقل هذه الأخبار وتعلق عليها وتشير إلى مقابلات اليهود للمستر ترومان، وما أكد من عطف على اليهود، وقارئ الصحف هذه الأيام لا يرى في ترومان رئيساً للولايات المتحدة، رئيساً للأمة التي قدمت أعظم إنتاج في الحرب، ولكنه يرى فيه صحافياً تحت التمرين يبث الأحاديث الصحافية، كما يريده رئيس التحرير أن يقول، بل ربما كان الصحافي بين يدي رئيسه أكثر حرية في التفكير واستقلالاً في الرأي. ولعل الذين يصمون حكامنا وأمراءنا بنقيصة الخضوع للمؤثرات المختلفة، يرون كيف تغزو هذه المؤثرات، أمريكا، رمز الديمقراطية، وفي مهد الديمقراطية.

ولكنه مهد في لحد!

وكدت أصعق حين رأيت أنه لا قبل لنا بهذه المعركة، فللصهيونية علينا تفوق يتجاوز حساب الأرقام في كل شيء.. من المال إلى الخبرة إلى القدرة، إلى السيطرة على مفاتيح القوة في أوروبا وأمريكا.

ثم ماذا كان بين يديّ من الوسائل؟؟..

كان الخلاف شديداً من ورائنا في الوطن بين السيد عبد الرحمن عزام أمين الجامعة، والسيد موسى العلمي ممثل الأحزاب الفلسطينية في الجامعة العربية، الأول يريد المكاتب تحت إشرافه مباشرة، والثاني يريدها فلسطينية مستقلة.

وكان الجانب المادي أسوأ من الخلاف السياسي، فالجامعة العربية لم توفر النفقات اللازمة، وكل ما كان بيدي، لي ولرفاقي الأربعة وللدعاية العربية الكبرى مبلغ خمسة آلاف دولار، ووعداً بأن يصل المال اللازم يوم نصل!!

ولقد وصلنا إلى أمريكا ولم يصل المال، ورحت أقف على عتبات المفوضيات السورية والعراقية والمصرية أستنجد وأستنجد، وأبرقت إلى الرئيس القوتلي في الشام وإلى رئيس الوزراء حمدي الباجه جي في بغداد، وجاء الرد قريباً من (٢٠٠) ألف دولار.. بعد زمن..

ولكن ماذا تفعل هذه المبالغ أمام الصهيونية بثرائها الفاحش..

لقد كنت طموحاً مرة وأردت أن أستأجر «ربع عمود» في جريدة **النيويورك تايمس**، أنشر فيه بعض الحقائق الفلسطينية، فكان الأجر المطلوب ٢٥ ألف دولار وليوم واحد، وعدلت عن الفكرة لأسباب منها خشيتي من الألسنة البذيئة والأقلام

السليطة في الوطن . . . وفي حياتي السياسية كنت «أرتجف» أمام الشؤون المالية.

ولكن مشكلتي في حقيقة الأمر، لم تكن معنوية ولا مالية، لقد كانت مشكلتي الكبيرة أن «الدعاية» التي وكلت إليّ لم يكن وراءها جذور أصيلة عميقة . .

ولم يكن وراء الدعاية شعب فلسطين منظماً مسلحاً، تقوده قيادة واعية مدركة . .

ولم يكن وراء الدعاية دول عربية «تصدق» أن إسرائيل توشك أن تولد . . وأن هذه الدولة ستكون خطراً حقيقياً لا على استقلالها فحسب بل على وجودها . .

ذلك ما كان يقضّ مضجعي، وذلك كان يجعلني كالقابض على الريح . .

وذلك ما جعل الدعاية تقف في الهواء من غير جذور.

ولا يزال أمرها كذلك إلى اليوم . . حتى بعد نكبة حزيران/ يونيو.

أنبـــاء... لا آراء

لم يكد شهر أيلول/ سبتمبر ١٩٤٥ يشرف على نهايته حتى أخذنا نعمل الآن في مكتبنا، وقد أمسكنا بزمام العمل، ولم يعد للقلق أن يتسرب إلينا لأننا نجد راحة في العمل وتتفتح أمامنا آفاق من الجد تغمرنا بالبهجة والفرح. وقد انقضى عهد الصمت والسكون، فستتحرك عقولنا وأقلامنا وألسنتنا وقلوبنا، في كل ميدان، وفي كل طريق.

وفيما كنت أستعرض في نفسي أعمالنا في المستقبل القريب من مقالات ومذكرات واجتماعات واتصالات وما إلى ذلك، أبصرت السيد محمود فوزي مستشار المفوضية المصرية في واشنطن، وقدأصبح قريباً من طاولتي خطوة أو اثنتين. لقد جاء على غير ميعاد ودخل الغرفة خفيفاً رفيقاً. ودهشت لهذه المفاجأة فوثبت قائماً أستقبله، وفي نفسي كثير من الدهش، فتفرست في وجهه لأرى بشيراً أو نذيراً، فلم أفلح، فإن للرجل وجهاً وادعاً لا ينمّ إلا عن حالة واحدة، فجلس وأخذ مكانه، ثم جلست وأخذت مكاني.

بدأ السيد محمود فوزي يسألني عن الحوادث فأجبت بما علمت وعرفت، ثم تجهّم وجه الرجل وقال: ما جئت لهذا. إني أريدك أن تكتم هذا الحديث فقلت: سأفعل.

قال: «أنا أرى الدبلوماسيات عقيمة وفي اعتقادي أن على العرب جميعاً بملوكهم وأمرائهم أن ينافحوا عن عروبة فلسطين بكل قواهم، وعلينا أن نبذل كل تضحية وكل فداء صيانة لعروبتنا وكرامتنا، وإني قانع أن فلسطين لم يعد ينقذها إلا تصميم البلاد العربية على الدفاع، حتى الرجل الأخير وإلى النفس الأخير ومن رأيي أن. . .».

وساد الغرفة صمت رهيب غشيه جلال الموقف وخطورته، وعبرت في نفسي خواطر جهادنا في فلسطين أربع سنوات منذ ١٩٣٦ واستسلمت للذكريات، وانصرف الضيف العزيز مقترحاً بعض الاقتراحات فودعته وأنا أقول في نفسي: «اللهم ارزقنا إيماناً كإيمان العجائز»، وإنه لدعاء نرجو أن ندعوه جميعاً.

فيستجاب لنا جميعاً.

واستمر تعاوني مع السيد محمود فوزي طيلة إقامتي في واشنطن وقد كنت أزوره في مكتبه ونتشاكى أحوال الحكومات العربية وما هي عليه من التفرق والتفكك، ثم عبرت السنون فوق أكتافنا فتزاملنا في الأمم المتحدة، في دورات متعددة، وتلاقينا في اجتماعات الجامعة العربية وفي مؤتمرات القمة، واستمر بنا الحال نتشاكى الأحوال العربية الرسمية. وإذا كانت الأوضاع الرسمية في كثير من مظاهرها لم تتغير عما كان عليه الأمر في عام ١٩٤٥، فإن أمراً خطيراً قد تغير من غير شك بعد نكبة حزيران/ يونيو: لقد زاد وعي الأمة العربية وأصبحت تدرك بفطرتها السليمة مواطن الضعف في صفوفها القيادية، فإن نكبة حزيران/ يونيو لم تكن لِوهن في ذاتها، وإنما لِوهن في قيادتها.

وكان باكورة عملنا في المكتب أن أصدرنا نشرة حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد أوضحنا فيها إصرار العرب، حكومات وشعباً، على مقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإصرارهم على إقامة حكومة عربية ديمقراطية في فلسطين. وقد أرسلنا هذه النشرة إلى الصحافة الأمريكية، وإلى الكُتاب، ومعلقي الإذاعات، وممثلي وكالات الأنباء العالمية.

وكانت النتيجة أن أهملت أكثر الصحف ذكر هذه النشرة أو الإشارة إليها رغماً عن أن الصحف مملوءة هذه الأيام بالدعاية الصهيونية. أمّا الصحف الأخرى فأشارت إليها لماماً وعلى رأسها **نيويورك تايمس** التي ألمعت إلى محتوياتها، وكننت أخشى أن تدفنه **النيويورك تايمس** في أكداس مهملاتها، وهي جريدة يهودية من أطراف الرأس إلى أطراف القدم، ولعلها أكبر جريدة في العالم.

ولقد بدا لي أن أبتئس من هذا الطغيان الصحافي، وسألت نفسي: كيف السبيل إلى الجمهور إذا كانت الصحف موصدة في وجوهنا؟ وكيف العمل إذا كانت صيحاتنا تفنى بين حجراتنا؟ وإذا كانت نشراتنا لا تظفر إلا بساعي البريد يحملها فلا تبلغ الأسماع؟ ولا تلفت الأبصار؟

ولكن سرعان ما خطر لي أني لم أفِد على هذه البلاد لأجد الأمور طائعة بين يدي، فهذه السيطرة اليهودية المالية الجامحة التي تستأثر بالصحف، ورجال الأعمال، ورجال الكونغرس، ليس من الهيّن مغالبتها في وقت قريب، ومنذ الخطوات الأولى. فلا بد من العمل المتواصل، والجهد المتلاحق، ولا بد من شد العزائم، وربط القلوب.

ولقد وجدت بعض العزاء أمام هذه الصعوبة التي تجابه المكتب، ولكنه عزاء يفتقر إلى عزاء. إنه عزاء أشدّ من المصيبة وأفدح من الكارثة، ذلك أن الوزراء المفوضين العرب

الأربعة قد قصدوا هذا اليوم إلى وزارة الخارجية، وأعربوا عن وجهة نظرهم في القضية الفلسطينية، بالنيابة عن الجامعة العربية ثم عادوا إلى مكاتبهم واستدعوا الصحافيين، وأبلغوهم أنباء ما جرى، فارتقبت الصحف هذا اليوم لأرى شيئاً ما ففشلت، وفشلت، كأنما هذا الحادث السياسي لا يستحق سطراً واحداً، وكلمة واحدة.

ومما راعني أن الصحف جميعها، بأجمعها على الإطلاق، قد حبست هذه الأنباء، فأقفلت عليها في غياهب العدم. ولكني ثُبت إلى نفسي وهدأت من روعي، إذ لا بد من العمل المتواصل، والجهد المتلاحق، ولا بد من شد العزائم وربط القلوب.

إنما نجني الآن، ما أسرفنا من الإهمال قبل الآن.

وبعد بضعة أيام عقدت مؤتمراً صحافياً في «واردمن بارك أوتيل» لمناسبة تأسيس المكتب العربي، وفي الساعة الخامسة دخلت قاعة الاجتماع وأخذت بتلاوة كلمة حول أغراض المكتب، وأهداف البلاد العربية، ختمتها بإيضاح القضية الفلسطينية وأعربت فيها عن رفض الهجرة اليهودية، وضرورة إقامة دولة عربية ديمقراطية، مشيراً إلى أهمية فلسطين العربية في حقل السلم العالمي.

وبعد ذلك أخذت أجيب عن أسئلة الصحافيين، وقد انهمرت من كل ركن من القاعة، تتلاحق وتتصل، تلاحُق الطلقات من بنادق سريعة الطلقات، وكان معظم الأسئلة من الصحافيين اليهود، وطبيعي أن لا يكون القصد منها الاستطلاع وإنما الإحراج، والاستدراج إلى المزالق، فنجوت من كل هذه المآزق من غير أعجوبة، لأني خبرت الأساليب التي يبتدعها الصهيونيون لإلباس باطلهم بغشاء من ظاهر الصدق.

وقد حجبت معظم الصحف أنباء المؤتمر، مع أنه كان ناجحاً، ولعل نجاحه كان السبب في حجب أنبائه، ولو ظفر اليهود بالمزالق التي أرادوها لمنحوها أعظم نصيب من النشر والإذاعة. وكان ممن علق على الاجتماع الصحفي الأمريكي المعروف «بيتر إدسون» في جريدة **واشنطن ديلي نيوز** بكلمة رشيقة امتدح بها المؤتمر بالأسلوب الأمريكي الأخاذ. وكان مما قاله:

«وأخيراً جاء العرب إلى المدينة ونصبوا خيامهم في فندق واردمن بارك الارستقراطي وأنشأوا المكتب العربي. لن تجدهم مخيمين في الحديقة أو الصالة العمومية، بل جلوساً وراء مكاتب أنيقة في غرف فاخرة تجري المياه الساخنة والباردة فيها، وأقاموا حفلة باذخة يوم افتتاحه أردفوها بمؤتمر صحافي من الطراز الأول.

«أما رجل المكتب فهو السيد أحمد الشقيري، وكل من كان ينتظر أن يرى هذا الرئيس يرتدي القفطان والعباءة والكوفية الدمشقية كأمراء المملكة السعودية وينتقل

في أمريكا على جمل أشهب أو هجين سريع فقد خاب ظنه. إذ ظهر أن السيد أحمد الشقيري هو محام شاب، يرتدي بذلة زرقاء أنيقة وله شارب مهندم، يتوج رأسه بشعر أسود فوق جبهة عريضة، ويتكلم إنكليزية أحسن من الأمريكيين ـ فيما عدا أنه أخطأ مرة باشتقاق أحد الأفعال ـ وكان يتلو بيانه بلهجة دراماتيكية ولكن من دون إشارات ثم أخذ يرد سهام الأسئلة الموجهة إليه.

«وقبل أن ينهي السيد أحمد بيانه وردوده بأسلوبه الرائق، دون حدّة، كان في الحقيقة قد أعلن حربه الشعواء على كل امرئ يفكر بإرسال مهاجرين يهود إلى بلاده، وعلى كل امرئ اقترح التدخل في سير فلسطين نحو الحرية والاستقلال والسيادة.

«واعترف السيد أحمد الشقيري أنه آتٍ للدعاية، غايته تغذية الأمريكيين بالمعلومات الصحيحة وهدفه تفنيد دعاوى الصهيونية.

«وأمطر الصحافيون السيد أحمد وابلاً من أسئلتهم منها سؤال أحدهم: . . . ما الذي سيفعله العرب لجعل فلسطين دولة عربية ذات سيادة. فرد مقتبساً قول المستر تشرشل «متى شعرت أمة أن مصالحها في خطر تتخذ الإجراءات الضرورية» وسئل عن هذه الإجراءات وهل تعني الثورة فامتنع عن الإجابة ثم أردف لا أستطيع أن أبوح بخطط الجامعة العربية.

«الجامعة العربية. . . إنها أصبحت شوكة مزعجة في جنب الدول الأوروبية التي لها مطامع وآمال في حوض البحر الأبيض». انتهى كلام الصحافي الأمريكي.

ولقد غمرتني نشوة من الفرح والبهجة، لا للمديح الذي ساقه إليّ الكاتب الأمريكي، ولكن لأني رأيت أن الجهد قد أخذ يزهر وينمو، ولأني أصبحت أرى ضياء من خلال هذا الإعصار الصهيوني الهائل، المدلهم بالظلام. وهذا الضياء وإن يكن بصيصاً إلا أن وراءه تكمن الآمال المشرقة، تلهب ظهورنا للعمل والجد.

لقد اغتاظت الأوساط الصهيونية حتى للقليل الذي نشر عن مؤتمرنا الصحافي، فسلّطت زبانيتها وأجهزتها ترغي وتزبد، وتهدد وتتوعد مطالبة بحجب الأخبار العربية مهما كانت!

ولقد وقع ما كنت أخشى، فقد أصبحت الصحافة الأمريكية «مضربة» عن نشر أخبار وزرائنا الأربعة الذين ذهبوا إلى وزارة الخارجية للإعراب عن وجهة النظر العربية في ما يتعلق بقضية فلسطين، ولم يكتف وزراؤنا بالكلام فحسب، وإنما قدموا إلى وزير الخارجية الأمريكية مذكرة تقع في خمس صفحات، ولم يكن أمر هذا المسعى سراً مكتوماً فقد علم به مراسلو الصحف والمخبرون المحليون، وحين خرج

وزراؤنا من ردهة وزارة الخارجية أحاط بهم الصحافيون وأمطروهم وابلاً من الأسئلة، كأنما الشهوة الإخبارية الصحافية قد جمحت إلى ذروة قمتها. ولم يهدأ تلفوني في المكتب ذلك اليوم عن الرنين المتواصل من الصحافيين يسألون عن الاجتماع، وعن المذكرة، وعن المبادئ العامة التي احتوتها، وما إلى ذلك من الأسئلة. ويخيل للملاحظ البريء أن هذا التعطش الجامح سيكون له أثره في صبيحة اليوم الثاني أو في مساء ذلك اليوم، لتفصيل هذه الأخبار.

ويأتي مساء ذلك اليوم فلا ترى في صحف المساء شيئاً، ثم ينبلج الليل عن صحف الصباح فإذا بها تكتم أنفاس هذه الأخبار، تعتقلها، تصادرها فلا تجد كلمة واحدة، إنه إجماع عجيب على تجهيل هذه الأمة الديمقراطية، وإجماع عجيب على إنكار الوزراء ومسعى الوزراء. ولو وجد هؤلاء الصحافيون مأخذاً يأخذونه، أو تعِلّة يتعللون بها، لطيَّروا بها في الآفاق، وأفشوها إلى أركان الأرض، والويل لهذه الديمقراطية من هذه الدكتاتورية الصحافية الطاغية.

وسألت صحافياً، مازحاً وساخراً، عن هذا القرار الإجماعي بحجب أخبار الحركة العربية، فتلكأ في حيرة وارتباك وأراد أن يعتذر فقال: «إن الرأي العام متخوم بأخبار المسألة اليهودية والمشكلة الفلسطينية، إنه متخوم، لقد أصبح مريضاً، لقد أصبح ملولاً، إنه لا يريد أن يسمع، إنه لا يريد أن يقرأ» قلت: «إن التخمة والمرض والملل، كل ذلك يزول بطريقة واحدة هي إعطاء أخبار الجانب الآخر، ولكن إذا كان الجمهور قد أصبح مريضاً فَلِم التمادي في إعطاء الأخبار اليهودية التي تسبب التخمة والمرض والملال. لقد نشرت الأخبار اليهودية بالأمس وقبله، ونشرت اليوم وستنشر غداً وبعده. .»، قال: «لا أدري، هذا صحيح، ولكن. . .»

وأدار الحديث وجهة أخرى. وقال: «لنتحدث في موضوع آخر»، قلت: «لك ذلك، سأحدثك عن إضرابات هذا الأسبوع الثلاثة». قال: «نعم»، قلت: «الإضراب الأول قام به عمال المصاعد يطلبون الأجور والامتيازات، والثاني عمال التلفون يطلبون الأجور والامتيازات»، قال: «والثالث؟» قلت: «الثالث هو إضراب الصحافيين عن نشر الأخبار العربية»، قال: «أرانا عدنا إلى الموضوع ذاته؟» قلت: «إنه جدير وجدير. . .».

قال: «لنترك هذا الموضوع ولتسمح لي ببعض الأسئلة. .»

قال: «أتظن أن عبد الرحمن عزام بك أمين سر الجامعة قادم من لندن إلى واشنطن؟ ومتى تظن ذلك؟ وهل سيبحث المشكلة الفلسطينية؟ وهل لديه وثائق الحديث الذي جرى بين روزفلت والملك عبد العزيز حين تعهد روزفلت أن لا تتدخل

أمريكا في المسألة الفلسطينية، ذلك الحديث الذي أنكره الرئيس ترومان؟»

قلت: «ليس هذا سؤالاً واحداً، ولكنه «كوكتيل أسئلة» وإن عندي كنوزاً من العلم في هذا الموضوع سأ. . . ».

وهنا تلهف الصحافي متعطشاً وقال: «نعم أرجوك، ما هي؟»

قلت: «لا، أنا مضرب عن إعطائكم شيئاً من الأخبار، هذا موقف يصح لي أن أثأر فيه لنفسي، وإضراب بإضراب».

وحين أيقن أنني مصمم على هذا الإصرار، ومصرّ على هذا التصميم ودعني وانصرف، وأغلب ظني أني ثأرت بعض الشيء لنفسي، وأغلب ظني أنه ذهب غضبان آسفاً.

وقد كان بوسعي أن أفضي إلى الصحافي الأمريكي بشيء من الأنباء عن مهمة السيد عبد الرحمن عزام في لندن، ولكني كنت على يقين من أنها لن تنشر، فإن ملوكنا «برؤوسهم» لم يكونوا يظفرون بأي حيز في الصحافة الأمريكية.

وكان لهذا كله أسباب متعددة، منها أن الصحافة الأمريكية كانت ترى «الحكم العربي» تابعاً لا قيمة لتصرفاته وتصريحاته. . فلما تبدلت الحال بعض الشيء في ما تلا من الأعوام انفتحت الصحافة الأمريكية بعض الشيء.

ولكن ما هو أهم من ذلك أن نشاطاتنا في عام ١٩٤٥ كانت على صعيد الآراء لا على مستوى الأنباء، فالصحافة تلهث وراء الأحداث. . فلما جاءت الأحداث وتعاقبت معها الأنباء أصبح للوطن العربي مكان بارز في الصحافة الأمريكية، بل وفي العالمية.

وكانت حصيلة تجربتي منذ كنت مديراً للمكتب العربي في واشنطن، إلى أن خرجت من مؤتمرات القمة ومن موكب الملوك والرؤساء. . أن الدعاية الحقة تكمن في الأنباء. . لا في الآراء. .

ولقد انفتحت الصحافة العالمية، وأنفها راغم، على قضية فلسطين بعد نكبة حزيران/ يونيو، لا بالآراء ولكن بالأنباء. .

إنها أنباء الكفاح المسلح، يخوضه شعب فلسطين بكل بطولة وشجاعة، وما أعظم قول المتنبي:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحدّ بين الجد واللعب

العروبة في المهجر

في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٥ قدمت نيويورك لألقي كلمة إلى إخواننا المهاجرين، بلغة الوطن لا بلغة المهجر، ولم تكن مشاغلي لتسمح لي أن أعد هذه الكلمة قبل الآن فعكفت في حجرتي في الأوتيل لأكتب. . . ورحت أعصر جوانب نفسي لأخرج دفينها وكمينها، وكان يخيل إلى أنني أستمطر السماء أو أستقطر السحاب، فإن الحديث للمهاجرين المغتربين زاخر بالشؤون والشجون.

وفي المساء جمعت شتات أوراقي وذهبت إلى دار الإذاعة في بروكلن وكان بصحبتي بعض الأصدقاء من السوريين، فدخلت وسلمنا، وحين دنا الوقت المضروب تقدمت من جهاز الإذاعة، ولعبت ذكريات الوطن في قلبي وهزّ الاغتراب عميق حسي ووجداني، فألقيت كلمتي بجناني لا بلساني.

وفرغت من الإلقاء فتقدم إليّ مهندس الإذاعة، وهو أمريكي من أصل إيطالي، يومئ هندامه وقوامه إلى أنه فنان، فقال لي:

«أهنئك، أهنئك، إني لا أعرف العربية، ولكني سمعت موسيقى جميلة فيها تلحين وإيقاع»، فقلت له:

«تلك هي لغتنا ذات الموسيقى الجميلة، وليس لي في ذلك فضل».

وهذه هي الكلمة أبثها في مذكراتي لأنها تمثل أدق تمثيل الأمل العربي قبل عشرين عاماً ويزيد:

«أيها السادة المهاجرون،

أنتم سادة، ولا أقولها جرياً على العادة، وقد ألف الخطباء أن يفتتحوا حديثهم بقولهم: أيها السادة، ولكني في موقفي هذا يطوف في ذهني عنكم معنى السيادة بأكمله، فأنتم قطعة من السيادة في الأمة العربية، نزحتم إلى هذه البلاد، قافلة بعد قافلة، كرهتم عبودية الظلم، وذل الفقر، وهوان الجهل فالتمستم سيادة

الحق، وكرامة اليسر، وعزة المعرفة، فكان لكم ما أردتم، وما كانت الهجرة إلا طريق أصحاب العزائم، يهاجرون فراراً بدينهم أن يصيبه الأذى، أو هرباً بكرامتهم أن ينالها ضيم، أو نجاة بشرفهم أن يجرحه الظلم والاضطهاد، ولست أجد نداء بليغاً أتوجه به إليكم في حديثي في هذه الليلة إلا أن أناديكم: أيها السادة المهاجرون.

«حملت إليكم رسالة كريمة وها قد حان أداؤها. وأؤتمنت أمانة غالية، حلّ وفاؤها. ولقد أجهدت نفسي كيف يكون الأداء؟ وكيف يكون الوفاء؟ هل أزوركم في مدنكم ومنازلكم ومتاجركم؟ وليس في الوقت سعة. وقد تباعدت مهاجركم بين المشرق والمغرب وبين الشمال والجنوب. . هل أكتب إليكم أفراداً أو جماعات؟ ولكن الكتابة أداة السر الصامت، لا أداة الجهر الداوي. وفي الجهر معنى ليس في السر، ومن هنا كان إلهام شاعرنا القديم حين قال:

ولا تـــســـقـــنـــي ســـراً إذا أمـــكـــن الجـــهـــر

«وهنا أنا أجهر إليكم بالتحية الصادقة، تحية المواطنين إلى المهاجرين، إلى الإخوان النازحين المغتربين. لقد بعدتم عن الوطن الأول وتقادم العهد بينكم وبين الأهل والصحب، ولكن التحية التي أحملها إليكم تفيض بالحياة وما يزيدها البعد إلا قرباً، وعطفاً وحباً.

«وقد أودعت هذه التحية قلبي، وما هي من قلبي وحدي، ولكنها تحية خفقت بها جميع القلوب، ونبضت بها جميع الأفئدة، من شواطئ الأطلنطي إلى الخليج، وما حملتها من إقليم بمفرده، ولا من قبيلة وحدها، أو مدينة بنفسها، ولا من مِلَّة في مسجدها، أو طائفة في كنيستها. ولكني حملتها من العرب في جميع أقطارهم وأمصارهم ملء قلوبهم وأبصارهم.

«تحية من الصحراء، ومن الفيحاء والشهباء، من لبنان وبغداد، من الأردن ووادي النيل، تحية أودعت فيها نسمات لبنان كل الفتنة والجمال، خطرت فوق غوطة الشام فتعلق بها أريج الشام، عبرت وادي الرافدين فنفحها لطف الظلال بين النخيل والسواد، مالت في ضفاف الأردن من مغربه ومشرقه فحملت قدس الوحي والإلهام، انسابت بين أحضان الصحراء فبعثت فيها سكينة الصحراء وهيبة الصحراء. هبطت مصر ففاضت عليها الأعطاف كما يفيض النيل على مصر بالأعطاف، ثم مضت بالشمال الأفريقي في أرجائه وأقطاره، تحمل فيض الشعور والإخاء، فهذه تحيتهم جميعاً إليكم جميعاً.

«وما حملت إليكم تحية وكفى، ولكنها تحية متوّجة بالإعجاب، فلقد نزلتم هذا

الوطن الكريم بعد أن قطعتم مخاوف البحر، فخرجتم من دياركم وخلفتم وراءكم أعزاءكم وأحباءكم، ولم يكن بين أيديكم إلا الأمل والعزم، فدانت لكم اللغة الغريبة عنكم، وانقادت إليكم الخيرات، ونبغ فيكم العلماء، وأنشد منكم الشعراء، وأصبحت لكم صحافة وصناعة وتجارة، وبعثتم برجالكم وبشبابكم قادة وجنوداً، يحلقون في السماء، يمتطون القاذفات والنفاثات، يعسكرون فوق الأرض وتحت الأرض، فوق الماء وتحت الماء، سلاحهم وعتادهم الحديد والنار.

«وفي كل ذلك رفعتم عن وطنكم الأول، وعن شعبكم الأول، تهمة العجز وعدم الصلاح. فبكم أثبتت الأمة قدرتها في العلم والصناعة والتجارة والحرب، وقد كانت تتهم الأمة العربية إلى عهد قريب بأنها لا تحسن العلم، ولا تجيد الصناعة، ولا تتقن التجارة، ولا تحذق الحرب. ولو أتيح لوطنكم الأول ولشعبكم الأول مثل ما أتيح لكم: حكم مستقل، صالح فاضل عادل، لتحركت المواهب من مكانها، ولانطلقت العزائم من عقالها، كما تنطلق قوة «الأتوم» قوة الذرة، وكانت في الوجود كامنة، فحركتها يد العلم وأطلقتها إلى أهدافها في جميع الأبعاد والآفاق.

«ولست أيها الإخوان ممن يقول بتفاضل العروق والأجناس، فإن لكل أمة معايبها ومحامدها، ولكن الثابت أن في الأمة العربية فيضاً من القدرة على البقاء، وطاقة عجيبة في مغالبة أسباب الفناء، فلقد اجتاحها اليونان والرومان والفرس والصليبيون والأتراك، ولكنها ظلت محتفظة ببقائها ولغتها وشخصيتها، ولقد تنازعتها عوامل الانحلال والضعف قريباً من ألف عام وصمدت، وفنيت أخواتها وبقيت، وغلب على أمرها وما سحقت، وهزمت وما هضمت، ولكن ذاب في ذاتها من بقي في أرضها من الغزاة والفاتحين، ذابوا بدمائهم ولغتهم وحضارتهم وتقاليدهم، فكان عليهم الفناء، وكان لنا البقاء.

«وحين انطلقت الأمة العربية من جزيرتها قبل أربعة عشر قرناً، رأت حكم الفرس وعلم الرومان، وفلسفة الهند، ومنطق اليونان، وفنون البابليين وحضارة الأشوريين، ومدنية الفراعنة. وقفت أمام ذلك كله فأبت أن تكون ناقلة مترجمة، فعبأت العقول والألسنة والأقلام، ثم هذبت وأضافت، وحذفت وصهرت وخلقت وأبدعت في كل ما فعلت، وحملت ذلك كله حياً نامياً مشرقاً إلى آفاق الأرض تبذله حباً في بذله ونشره، فكان قاعدة هذه الحضارة التي تنعم بها دنيا اليوم ودنيا الغد، لا فرق بين العالم القديم الذي نعيش فيه، والعالم الجديد الذي تعيشون فيه.

«وإن أمة هذا شأنها في الحضارة، وهذا مكانها في التاريخ، أمة تحضن البحر الأبيض المتوسط بذراعيها، تلتقي عند ثغورها القارات الثلاث، آسيا وأوروبا

وأفريقيا، وتنفذ إلى شواطئها أمريكا من خلال مضيق طارقها، أمة تنوعت أقاليمها بين السهول والجبال، والمروج والصحراء، والجفاف والرطوبة، والأنجاد والأغوار، ينساب منها الماء البارد الصافي والماء الساخن الشافي، وفي أقطارها من الخيرات والمعادن ما عرفه الإنسان في يومه، وما سيعرفه في غده، أمة هذا أمرها وخبرها ليس لها أن تقنع بالهدوء فكانت الحركة، ولا بالنوم فكانت اليقظة، ولا بالضعف فكانت النهضة. وها هي ترغب أن تقتعد مكانها في الأسرة الإنسانية تعزز الأمن وتكرم السلم، ولكن وطنها عليها أعزّ وأكرم.

«وقد كانت الأمة العربية إلى عهد قريب لا ترفع رأس العربي العارف بقدره الواعي لتاريخه، فالمهاجرون القدماء منكم قد تركوا وراءهم أمتهم على غير قليل من الجهل والتفرقة والانحطاط، وما كان ذلك إلا عرضاً طارئاً أوجده الحكم الأجنبي وسقوط الحكم العربي، ولكن العهد قد زال ولن يعود، وقد انتظمت الدول العربية في الجامعة العربية، لتؤاخي شؤونها ومصالحها، فإذا سألتم أيها الإخوان عن أصولكم الأولى، ومواطنكم الأولى، فإن الشجرة المباركة قد أخذت ترسل أغصانها فتية نضرة قوية، وإن مواطنكم قد أصبحت معقد الأبصار والأسماع، ولكم أن تفاخروا ما وسعت الأفواه والقلوب.

«وإنكم أيها الإخوان إن عُرفتم بأصولكم الأولى ازددتم ولاء وارتباطاً بأمريكا، بهذا الوطن الديمقراطي الكبير، فإن العربي مفطور على الولاء للخير وعرفان الجميل وحفظ العهد، بل ستزدادون عزماً وقوة في تمكين الروابط بين هذين الشعبين العظيمين، وكنتم خير وسيلة لخير هدف، تبادل بالمصلحة وتعاطف بالمودة على يقين من الاحترام والثقة والحق.

«وفي رأس هذه الشؤون العربية مسألة فلسطين، وقد أصبحت الشغل الشاغل للشعب العربي بأجمعه، وأمامه ملوكه وأمراؤه ورؤساؤه، وقد تعاهدوا فيما بينهم أن يصونوا عروبة فلسطين، فهي في البحر الأبيض المتوسط ثغر العراق وسورية والأردن، وهي ميسرة لبنان وميمنة مصر، وهي نافذة الجزيرة العربية وإلى جانب ذلك كله فهي قلب الشرق الأدنى ومفتاحه، فلن تفرط الأمة العربية في هذه البقعة الغالية، ذلك عهد الأمة العربية وميثاقها لا لبس فيه ولا إبهام.

«أما إخوانكم عرب فلسطين فإنهم ما برحوا منذ خمسة وعشرين عاماً يدافعون عنها ما وسعهم الدفاع والكفاح، فأرخصوا في سبيلها المهج والأرواح، ولا يزالون، وسيظلون، حتى تبلغ أكرم أمانيها في تحقيق سيادتها الوطنية واستقلالها التام ضمن أسرة الجامعة العربية. . وهذه تحية منهم جميعاً إليكم جميعاً».

ولم تكن هذه الكلمة التي تحدثت فيها عن الوطن والمهجر تغزلاً ولا تشبّباً، ولكنها كانت الحقيقة من غير زخرف ولا زينة. . فإنني لم أشكّ يوماً في جوهر الأمة العربية، ولا في أسرار قوتها وبسالتها، رغم ما أرى فيها من أعراض الوهن يبدو حيناً بعد حين، ولم تكن الأيام إلا لتزيد هذا اليقين رسوخاً، ولم تكن الحوادث إلا لتقوم دليلاً يتبع الدليل لإبراز هذه الحقيقة، ساطعة وسافرة.

ولقد كان لي في هذا الصباح (١٤-١٠-١٩٤٥) دليل جديد، وكلما امتد بي العمر سأرى دليلاً جديداً.

زارني صبيحة هذا اليوم أخ عربي، أو كما يقولون هنا في المهجر، سوري، فتحدثنا عن شؤوننا القومية، آمالنا وآلامنا، وكان هذا الرجل تاجراً ناجحاً ولكنه يرتقب العودة إلى مسقط رأسه إلى حيث يحمل أسرته وأولاده لينعم بوطنه وأهله. ولما نهض يودعني استحلفني بمحرجات الأيمان أن لا أتردد في طلب معونته بأية خدمة للمكتب، فقلت: «إن المكتب لا يريد إلا نصرتكم الأدبية»، فقال: «وماذا؟»

قلت: «أريد نصرة أولادكم»، قال: «بماذا؟» قلت: «أن يرثوا لغتكم، فهي الرباط المتين والسبيل المكين». قال: «لقد جعلت في صك تأمين مبلغاً طيباً من المال، رصدته ليتعلم أولادي اللغة العربية، وفي الجامعات السورية، ترغيباً لأولادي بتعليمهم لغة الآباء والأجداد، وأن يتعلموها في وطن الآباء والأجداد». فأدهشني ومضى.

وفي مساء هذا اليوم، زارني في مكتبي هندي مسلم فارع الطول، عريض المنكبين، تزينه السمرة الهندية والذكاء الهندي، قضى في أمريكا عشرين عاماً وهو يعمل في التجارة، يقول بفكرة إقامة دولة إسلامية مستقلة. لقد عرف بأخبار مكتبنا في صحيفة أمريكية أفلتت من عقال الصهيونية، فجاء إلينا يعرض جهوده وخدماته.

لقد تحدث عن الصهيونية وتاريخها، وآراء زعمائها، وطرائق دعايتها، وتحدث عن قوتها في أمريكا وسيطرتها. تحدث حديث العارف الخبير البصير، فقد رافق أخبار هذه الحركة، واقتنى كتبها ورسائلها، ومقالات زعمائها. ولعل عنده من الكتب والرسائل بشأنها ما لم يجتمع لعربي واحد، أو لجماعة عربية. وقد انطلق يبدي رأيه في أحسن الوسائل لمكافحتها، تكلم عن عقل وحصافة، وتكلم بإيمان وحرارة، ولو أن سامعاً قد سمعه لأيقن أنه عربي فلسطيني وقف مواهبه على المعرفة والدرس. وإنَّ المرء ليتساءل بين يدي هذا التاجر الغارق في دنيا التجارة، بين يدي هذا الهندي الذي هاجر من وطنه طلباً للرزق، كيف يجد لنفسه من الوقت والمال مما هيأ له الدرس وثمن الدرس؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فلقد كتب الرجل مدافعاً عن القضية العربية،

وقد ردت له الصحف بعض مقالاته، فعمل على طبعها كنشرة، ووزعها ما وسع له ماله ووقته أن يوزع.

دهشت أن أرى في هذه القارة العاجَّة بالخلائق، هندياً نازحاً، مهاجراً، مكتسباً، يأبى عليه دينه إلا أن ينصر أولى القبلتين وثالث الحرمين، بحرارة ومثابرة وإيمان.

وهذا الهندي سجل نفسه «كما يقضي القانون» في وزارة العدل ليستطيع طبع منشوراته وتوزيعها. ولقد كتب إلى جانب هذه المنشورات «كما يقضي القانون» إنه «مسجل لدى وزارة العدل، يعمل بالأصالة عن نفسه، ولصالح العالم الإسلامي»، فكادت تنفجر نفسي عن صيحة داوية تبلغ مسامع المتخاذلين والمتراخين والمتواكلين في بلاد العرب، ليروا هذا الكنز الإسلامي لبس الحلة الهندية.

ويا لضيعة هذه الروابط الإسلامية الآخذة بالانحلال والانفصام جيلاً بعد جيل!

ولكن هذا الهندي المسلم وغيره من المهاجرين «السوريين» كانوا عزائي فيما أعاني من العمل في أمريكا، وفي ما أرجو أن أنجزه في أمريكا. ذلك أن العمل مرهق ومضن، يتواصل ويتلاحق، تعترضه الصعوبات هنا وهناك، فيثور الحس ويكاد يثب المرء على أطراف أعصابه، أو على أعصاب أطرافه. غير أن الحوادث كثيراً ما تحمل الوحي والإلهام، وكثيراً ما تحمل الأمل والعزم، وذات يوم دخل عليّ واحد من هؤلاء المهاجرين، مسلّماً باللغة العربية، وباللهجة الشامية، وكان رجلاً سموح القسمات فيه دماثة الشام، وفيه رقة الحاشية ولطف الحديث، وهما الخلّتان البارزتان في عاصمة معاوية. فنهضت إليه أحييه، وأخذت بيده ليجلس قريباً مني. وكنت أشعر أنني أقترب من قطعة حية من الوطن. وبدأت أستمع إلى حديثه وإلى هجرته، وإلى عمله. ثم راح يسألني عن البلاد العربية وشؤونها. فشرعت أحدثه عن الشؤون العربية العامة ولكني جعلت أكبر همي أن أفيض في الحديث عن سوريا وكفاحها ومشاكلها. فلا بد لي أن أطفئ أشواق الرجل وحنينه إلى وطنه. وقديماً حدث أصيل الغفاري عائشة (رضي الله عنها) وهي مهاجرة في المدينة، فهاج حديثه أشجان الرسول العظيم فبكى وهو يقول: كفى يا أصيل كفى..

ومضيت في حديثي، والرجل غارق في الإنصات كأنما أصبحت حواسه كلها سمعاً وآذانا. ثم أخذ يبادلني الحديث، يذكر أيامه في قريته ويذكر أهله وصحبه. وكأننا لم نعد في واشنطن، أو كأنما اندثرت هيبة المكان والزمان، وتراءى لنا أننا نطوف شوارع دمشق بين الأنهار والأشجار.

نهض يودعني فإذا يد راجفة تطوي في راحتها أوراق «الدولارات» يمدها إليّ، وهو يعتذر أن أحواله المالية ليست كما يحب ويرضى، وأنه يقدم مبلغاً لا يليق بالمكتب ولكنه لا يستطيع الإفلات من واجبه، وألقى بثلاثة آلاف دولار على الطاولة.

بصرت بالرجل وقد طفح وجهه بدمه، وتهدج صوته، وسرت في أعطافه نفحة من نفحات الإيمان، وكدت أتلعثم بين يدي هذه العاطفة الجارفة، بين يدي هذا الشامي وفد علينا من مهجره، يقدم لنا المال متطوعاً، غير مطالب ولا مسؤول.

قلت له: «ليس لنا بالمال حاجة أيها الأخ، وإن أهلك وإخوانك في الشام قد تفضلوا علينا بما يقوم بأمرنا، كما تفضل أهلك وإخوانك في سائر بلاد العرب، ونحن لا نريد منكم إلا عطفكم ومودتكم». ورأيت الرجل تكاد تذهب نفسه حسرات وحسرات، حين كنت أعتذر إليه. ورأيته قد صغر أمام نفسه، رأيته يظن المبلغ قليلاً، بل لقد حسب أنني رأيت فيه رجلاً متوسط الحال وأنه أوْلى بالمبلغ. فكان لا بد لي أن أرد إليه اعتزازه، وكان لا بد لي أن أقدر حميته في مكانها، وأحمله على الطمأنينة، فقلت: «وما رأيك في أن أقدم هذا المبلغ باسمك إلى معهد الشؤون العربية الأمريكية في نيويورك وهو يقوم بمثل أعمالنا وواجباتنا»، فعادت إليه فرحته، ومضى مجبور الخاطر. وكان يعمل في هذا المعهد السيد حبيب كاتبة من العاملين في المهجر، والسيد إسماعيل الخالدي من شباب القدس المتحمسين.

وكنت في بعض عملي في نيويورك، فزرت رجال المعهد «للشؤون العربية الأمريكية» وقصصت عليهم ما جرى وسلمتهم المبلغ. ولقد كان رائعاً حقاً حين فتحنا دفاتر المعهد فإذا بالرجل متبرع مزمن، يقدم المال من غير طلب أو سؤال. ومضى يومي بأجمعه والبهجة تملأ نفسي، تطيف بها الرؤوس الجميلة، والصور الماجدة.

ولهذا الحادث مثيل في ذكرياتي لا يقل عنه مروءة ولا حمية، ولا أفتر أذكره كلما ساقني إليه الحديث، وكان ذلك في شهر حزيران/ يونيو ١٩٣٦ حين كنت مبعداً إلى قرية سمخ في فلسطين لمناسبة الإضراب العام الذي أعلنه عرب فلسطين، واستمر قريباً من ستة أشهر، ولعله جاوز أي إضراب في العالم.

في ذلك الشهر كنت في غرفتي، أستغفر الله في كوخي، الذي استأجرته في سمخ، وكان على قارعة الطريق، وقد قرع سمعي ضحى ذلك اليوم وقع حوافر الخيل ينزل عنها بضعة من الفلاحين، ويربطونها إلى حديد الشباك، ثم أخذوا يدخلون عليّ ويسلّمون.

جلست وإياهم على البسط الممدودة في الأرض، وعليها بعض الفرش والوسائد، وأخذنا نتحدث عن حركتنا الوطنية والشؤون الجارية في تلك الأيام، ثم

أخذوا يهمس بعضهم إلى بعض ويشيرون بالانصراف، وهم على تردد وحيرة، فتقدم أحدهم وكان إمام قرية العبيدية، تغمده الله برحمته، ومد يده تحت وسادتي ووضع صرّة، فأدركت أنها مبلغ من المال، ثم نهض وهو يقول: «لا تؤاخذنا نحن نعرف أنك ابن نعمة، وابن خير، وهذا مبلغ بسيط، إن فلاحتنا لم تكن ناجحة والعام عام إضراب، لعل زرعنا يكون حسناً هذا الموسم، فنقدم لك حاجتك، أنت الآن مضرب عن العمل ولا شك أنك في حاجة».

ولقد سمعت في حياتي كلاماً بليغاً، ولكني لم أسمع أبلغ من هذا الكلام، بل لقد قرأت كلاماً بليغاً ولكن قليلاً منه كان أبلغ من هذا الكلام، فقلت لهم: «أيها الإخوان إن المبلغ الذي تصفونه قليلاً هو أكبر مبلغ وصل إلى يدي، فهو على قلته يحتوي كنوزاً يعسر على الأرقام أن تحصيها، ولكني لست في حاجة إليه، وأعدكم أن أطلب منكم إذا التمست الحاجة».

لقد وقع تصرفي أليماً عند أحدهم فقال: نحن فقراء، ولعل ذلك ما يحملك على رفض المبلغ، قلت لا وأقسمت. وذكرني حرج الموقف أن في البلدة رجلاً مبعداً مثلي من قرية كفركنا، فدعوته إليهم، وحوَّلت المبلغ إليه وكانت به حاجة فأخذه، وما رأى في ذلك غضاضة، فالعربي يجير ويستجير، ويقولون في العامية القروية إن فلاناً يعيش كالرماح، على أكتاف الرجال.

فسررت وسرّ رفيقي في الإبعاد، وسر رجال القرية، وتعاقدت بيني وبينهم أواصر المودة، فكانوا لا يتخلفون عن زيارتي بعد صلاتهم كل جمعة، أتباسط وإياهم الحديث. فأعظمت هذه المروءة، ولم أكن أفلت فرصة إلا انتهزتها في تذكارها، حتى رأيتها اليوم في الرجل الشامي.

المروءة تعبر الأطلنطي إلى دنيا الدولار والأعمال، ولكنها بقيت في جوهرها وصفائها وبهائها، فأكرم بالأمة العربية، وأعظم بطيب عنصرها.

حـوار مـع القس ومناجـاة فـي المسجـد

وفي الأسبوع الأخير من الشهر، قدمت إلى نيويورك تلبية لدعوة دار الإذاعة الأمريكية، للاشتراك في حوار مع القس وندل فليبس حول القضية الفلسطينية، وكان موعد هذا الحوار الساعة الواحدة والنصف ظهراً. وكانت قد وصلتني الدعوة قبل ثلاثة أيام. ورهبت الموقف وترددت بين القبول والرفض، فهذا أول عهدي بالحديث من وراء المذياع بالعربية والإنكليزية على السواء. وكنت آنس في نفسي القدرة على الخطابة في بلادي، يشجعني طمعي في إحسان بني وطني، واغتفارهم سقطاتي وعثراتي. ولكنني في موقفي هنا في نيويورك بعيد عن العاذرين، قريب إلى العاذلين، ودار الإذاعة هذه تتصل بها مئتان وسبعون محطة ينصت إليها الألوف من الناس. ولكني لم أدر كيف أجبت بالقبول. إنه الحياء، بل لعله الإباء، حملني على القبول خشية عار الرفض، والانهزام أمام التحدي.

ورحت في اليومين الماضيين ألتهم كل الكتب والمراجع، وما أكثر ما كتب في القضية الفلسطينية، وعاودت في ذاكرتي الأرقام والوقائع، متسلسلة مرتبطة، فلا بد أن يسمع إليّ قوم مأخوذون بالأرقام والوقائع، وكنت أخشى أن ينزل عليّ سؤال أثناء الحوار فيحتاج الجواب عليه إلى الاستظهار والحفظ.

ووصلت دار الإذاعة قبل الوقت المعين، لأتعرّف كيف تكون آلة المذياع، وكيف يكون الصوت إلى جانب المذياع، قريباً أم بعيداً، مرتفعاً أم خفيضاً، وسألت عن الصغيرة والكبيرة حتى لا أقع في أمر هجين أثناء الإذاعة، ولم يفتني أن أتظاهر بمعرفة بعض الأشياء، والسؤال عن البعض الآخر. وفيما أنا كذلك إذ دخل علينا القس المحاور، فكان تعارف، وكان سلام، وجلس مجلس الواثق المطمئن، فلعله زاول الإذاعة عشرات المرات، وكان إلى جانبه شاب يرافقه، قيل لي إنه موظف في الجمعية الصهيونية، جاء يحمل للقس بعض أوراقه وكتبه.

وتقدم الفيصل وأجلسنا إلى طاولة المذياع، وكدت أطلب إلى الفيصل أن أتكلم واقفاً، فهذا أول عهدي بالكلام جالساً، فالوقوف ينبه الفكر وقد ألفت الوقوف في

المحاكم طويلاً كما ألفته على المنبر. فضاق صدري أن أرى نفسي حبيسة، وتراءى لي أن أفكاري قد غاضت في منابعها، وأنّي مخفق ذلك اليوم لا محالة. . ولقد زاد من رهبة الموقف أن فشلي لن يكون فشلي وحدي، وإنما سيكون فشلاً للمهمة التي أنا قادم من أجلها. هنالك ضاقت عليّ الدنيا بما رحبت، وزلزل فؤادي، ولكن ما أعظم الخيال مسعفاً، وما أعظمه منجداً.

وفي لمعة من لمعات الذهن تذكرت بلادي وما ينتظرها من بلاء الهجرة والدولة اليهودية، وتذكرت كفاح المكافحين ونضال المناضلين، ورجال القرى يبيعون نفوسهم بيع السماح من غير هيبة ولا رهبة. تذكرت أن كل خفقة من نفسي إلى الوطن مرجعها ومردها، فوثبت جميع جوارحي وتجدد ذهني وأصبح عقلي يطاوعني بسرعة الضياء، ورقّة الماء، ولطف الهواء. فبدأت أعرض قضيتي بإيجاز وبسهولة، ومضى الوقت ولا أدري كيف مضى، ولكني شعرت أني فرغت مما رغبت في قوله، وخطر لي أني سمعت نفسي، وامتدحت نفسي. . .

وأخذ القسّ يعرض قضيته، وجاء وقت السؤال والنقاش. ولم يكن بقي من الوقت إلا عشر دقائق، ولا أدري هل أستمر فيها ناجحاً أو أتعثر بأذيال الخيبة، وما أمرَّ الخيبة لامرئ تستمع إليه أمة عظيمة، وبين شفتيه قضية كريمة.

ودار الحوار كما يدور الصراع، كرٌّ وفرّ، صولة وجولة، مفاجأة ومباغتة، حتى أعلن الفيصل انتهاء الوقت، فشعرت أنني نزلت عن صهوة جواد أشعث، همه أن يصرع الفارس قبل أن يسبق الخيل. ولقد رضيت عن نفسي كما رضي عني السامعون، فقد حمل إليّ البريد ذلك الأسبوع كيساً من رسائل التهنئة.

وذهبت إلى المدير في غرفته أشكره على هذه الفرصة، مشيراً إلى قصر الوقت وسعة الموضوع. ثم جاء القسيس يريد أن يتم ما بدأناه، ولكنه كان يتكلم من غير إيمان. وإن للمأجور وجهاً يفضح صاحبه، فقد كان خافت النبرة، باهت النظرة، مضطرب الحجة، وكاد المريب أن يقول خذوني. .

وقد «انكشف» القسيس في هذا الصراع في جولتين حاميتين، أصيب خلالهما في المقاتل.

ففي الأولى ذكر القس الروابط التاريخية القديمة التي تربط اليهود بفلسطين، فأجبت: «هذه هي النظرية الفاشيستية في ادعاء موسيليني لشواطئ البحر المتوسط بسبب امتلاك الرومان لها قرابة ثمانية قرون، أضعاف المدة التي دامت فيها الغزوة اليهودية لفلسطين».

وفي الثانية قال القس «ولكن اليهود جلبوا الخير للبلاد وعملوا على تقدمها»

فأجبت: «أمّا هذه النظرية فنازية لأن النازيّة أرادت أن تفرض نظاماً جديداً يجلب الخير للعالم ويساعد على تقدمه، ولا ينسى القسيس قول السيد المسيح «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. . . ».

وهكذا سقط القسيس غافلاً عن أقوال السيد المسيح، فاشيستياً نازياً. . . وهذه صورة تثير الأمريكي وتحركه، وتفجر غضبه ومقته. . ولكن. .

ولكن الوصمة النازية الفاشيستية قد لحقت بنا في تلك الفترة بالذات، فبعد أن انتصر الحلفاء راحوا يتعقبون زعماء النازية «ومجرمي الحرب» ويطاردونهم في كل مكان، وقامت قيامة الصهيونية تطالب برأس الحاج أمين كمجرم حرب، وكان قد تعاون مع دولتي المحور أثناء الحرب العالمية الثانية. وكان بوسع مكتبنا أن يلوذ بالصمت أمام هذه الحملة لولا أن الصهيونية قد أرادت أن تسيء إلى الحركة العربية كلها وإلى قضية فلسطين بالذات، فأدليت بحديث صحافي إلى وكالات الأنباء شرحت فيه مقومات القضية العربية كقضية استقلالية، لا تدور في فلك النفوذ الأجنبي أنىّ كان. . . ودفعت عن الحاج أمين تهمة النازية، وأن السياسة البريطانية ومطامع الصهيونية قد قذفته إلى المعسكر الآخر، مع تصميمنا على الاحتفاظ بحريتنا وسيادتنا، ثم أشرت إلى ما قاله تشرشل بصدد تفاهمه مع روسيا من أنه مستعد للتحالف مع الشيطان، إذا كانت مصلحة بريطانيا تقتضي ذلك. . . وأن ما يباح لتشرشل ليس حراماً على شعب فلسطين ومعه الأمة العربية. . .

ولقد كان من السهل أن يقال مثل هذا الكلام في الوطن العربي، ولكن الإدلاء به في أمريكا وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية مباشرة مغامرة كبرى. . . ولكن الواجب الوطني كان يقتضيها. .

وبعد سنين جرت بيني وبين «غولدا ماير» وزيرة خارجية إسرائيل مساجلات عنيفة حول «نازية» الحاج أمين، قدمت خلالها الوزيرة الإسرائيلية ملفات ضخمة وصوراً فوتوغرافية وزنكغرافية عن نشاطات الحاج أمين في برلين وروما أثناء الحرب العالمية الثانية، وكنت أشرح وأوضح، لا دفاعاً عن الحاج أمين فحسب ولكن دفاعاً عن قضية بأكلمها، تريد الصهيونية أن تلوثها وتسيء إليها.

ولكن الحاج أمين قد كافأني، وكافأ قضية فلسطين بالجزاء الأوفى. . . فحين قامت منظمة التحرير الفلسطينية أعلن الحاج أمين بأنني أعمل لتصفية القضية الفلسطينية! وبأن المنظمة أداة صهيونية استعمارية. . وهذا ما كتبه إلى السيد أيوب خان رئيس الجمهورية الباكستانية، وما أعلنه في المؤتمر الإسلامي في الصومال. . . في عام ١٩٦٥.

والحقد كالحب، يعمي ويصمّ!

عيـد الأضحى فـي الكنيـس اليهـودي!

وما هي إلا أيام بعد حواري مع القس حتى أقبل عيد الأضحى يتهادى، فقصدت إلى بروكلين لأؤدي صلاة العيد في المسجد الذي ابتاعه المسلمون، وكان كنيساً يهودياً، وجعلوه مسجداً جامعاً تؤدى فيه الشعائر الإسلامية ويذكر فيه اسم الله. وكان لا يذكر فيه إلا إله إسرائيل وشعب إسرائيل، فأصبح الآن بيتاً لله رب العالمين، رب المشارق والمغارب، يصلي على نبيّه المرسل للناس كافة، لا تفاضل بينهم إلا بالصلاح والتقوى.

أما الذين ابتاعوا هذا المكان ووهبوه لله، ووقفوه على عبادته، فلم يكونوا عرباً أخذتهم بلاغة القرآن وفصاحة النبي العربي، ولكنهم جماعة من الروس عمر قلوبهم الإيمان، فهاجروا إلى أمريكا وحملوا معهم دينهم وتقواهم، ولم يصطبروا أن لا يكون لهم مسجد جامع، فاستجابوا إلى نوازع التقوى في نفوسهم، وكان لهم ما أرادوا، وزينوا المكان بصور الكعبة الشريفة، والمساجد الإسلامية في الآستانة، وجعلوا له محراباً ومنبراً، وفرشوا أرضه بما يقوم مقام السجاد.

وفي ضحى العيد ركبت، مع عدد من الأصدقاء، القطار الذي يسير في جوف الأرض، من نيويورك إلى بروكلين حتى بلغنا حي المسجد ولم أكن في حاجة أن يرشدني أحد إلى مكانه. لقد دلني إليه سمعي قبل بصري، ذلك أني كنت أسير إلى ناحية الجلجلة التي تدوي: الله أكبر الله أكبر ولله الحمد: فرجعتْ في نفسي راجعة الذكرى، وقلت هل عبر الإسلام المحيط الأطلنطي، وركز منارته في القارة الجديدة؟ الله أكبر ولله الحمد. ورأيت في هذا التكبير والحمد معنى لم يكن قد خطر لي على بال على كثرة ما جرى به لساني. وحين أقبلت رأيت المنارة تعلو دار المسجد، وهي تطل على البحر تتطلع إلى الجزيرة العربية، التي تفجر من حجازها النور المحمدي.

دخلت المسجد فرأيت الشيوخ والرجال والصبيان، بعضهم راكع في أرضه وبعضهم جالس على كراسي أثبتت في جدار المسجد، ورأيت النساء يدخلن من باب

آخر إلى الركن الخلفي من المسجد ليكُنَّ وراء الرجال، وكان بعض المصلين يلبس البرانيط، وبعضهم حاسر الرأس، وآخرون يلبسون الطرابيش التركية القديمة، وكان في المصلين تتر الروس، وأمريكان وسوريون وأتراك وعراقيون، ألسنة مختلفة وألوان متنوعة وعروق متباينة، جمعهم دين واحد في مسجد واحد.

جلست في المسجد ولكن نفسي وثبت، فطافت وهامت، في المشرق والمغرب، فرأيتني أذكر صلاتي في المسجد الأقصى، وفي المسجد الأزهر وفي المسجد الأموي وفي مساجد أخرى عامرة بالقدسية والجلال ولكني في مسجدي هذا أراني أمام وحْي لا عهد لي به، وأمام رهبة لم تكن قد اقتحمت نفسي في ما مضى.

هؤلاء الأحداث الصغار والصغيرات، بوجوههم الفاتنة، وشعورهم المرسلة وملابسهم الزاهية، يتكلمون الإنكليزية، موزعون بين صفوف المصلين هنا وهناك، يسجدون ولا يعقلون، ويكبّرون ولا يفهمون، إيمان على السليقة ودين على الفطرة.

وفوق هذا الجيل، الشبان، بأحسن هندام وقوام، يرددون مع آبائهم وأمهاتهم الحمد والتكبير، ويأخذون بالركوع والسجود، وأكبر ظني أنهم لا يفهمون ما يصنعون.

وفوق هؤلاء جميعاً، المسلمون المهاجرون، الذين هاجروا من روسيا فراراً بدينهم فأخذوا بحظ قليل من هذا الدين يوم نشأوا في بيوتهم الإسلامية وورثوا الصلاح والتقوى، وأكبر ظني أنهم لو عرفوا كنوز هذا الدين لكانوا في طائفة الأولياء والصالحين.

فرغنا من الصلاة وأمّنا فيها شيخ من التتر، فرتّل القرآن ترتيلاً أعجمياً فسمعت القرآن غير القرآن، وكان نصيب الخطبة كنصيب القرآن، فقد قرأ الإمام الخطبة المدونة في آخر المصاحف العثمانية، دعا بطول العمر والبقاء إلى السلطان، خان بن خان، عبد الحميد الثاني، وشاء ربك أن يكون عبد الحميد عظاماً نخرة في تركيا، وسلطاناً حياً في بروكلين، يدعى له على المنابر، بالعمر المديد والعهد السعيد.

ولم أكن لأورد هذه الشؤون، وغيرها كثير أمسك عن إيرادها، لولا أنه خطر لي أن ملايين من المسلمين الأعاجم قد صاروا وسيصيرون إلى هذا الإسلام المسكين، ما بقي شيوخنا وعلماؤنا مسترسلين في الجدل حول الماء متى يكون جارياً ومتى يكون آسناً ومتى يصلح للوضوء ومتى لا يصلح من دون أن يعنوا بتجديد شباب الإسلام في نفوس الجماهير الإسلامية العربية والأعجمية، سواء بسواء...

ولاحت لي الفرصة فوقفت بعد الفراغ من الصلاة وخطبت فيهم باللغة

الإنكليزية مشيراً إلى مبادئ الدين الإسلامي، فرأيت أني أكلمهم في أمر جديد، ورأوا أن هذا الإسلام الذي أحدثهم عنه دين عظيم، وأنهم لا حرج عليهم أن يفاخروا بدينهم وأن يعلنوا إسلامهم بين الناس، لا يحنون رؤوسهم ولا يستخفون. ولم أكد أفرغ من كلمتي هذه حتى تقدم مني المصلون يشكرون ويهنئون بالعيد، وخرجت السيدات من وراء الحاجز واختلطن بالرجال، يباركن ويعايدن، وجاءت بعضهن بالفاكهة والحلوى يطفن على المصلين، ويرسلن عبارات المعايدة والتهنئة بعذوبة فرحة ولطافة بريئة دمثة.

وحين هممت بالخروج لقيت صبياً في الثانية عشرة من عمره يحجظ ببصره إليّ، وقد ارتسم الفرح في وجهه، ذلك أنه أستمع إلى مسلم عارف «بعض» المعرفة بالإسلام، فقلت له بالإنكليزية:

«هل أنت مسلم؟» قال: «لست مسلماً»، قلت: «ما هو دينك؟ أي شيء أنت؟» قال: «أنا محمدي، أنا لست مسلماً!»

وهكذا كان عيدي هذا العام: بهجة لم يخفق بمثلها قلبي، وحسرة لم يفجع بمثلها فؤادي.

اللهم رحماك بالقلب حين تصطرع في جنباته نوازع البهجة والحسرة، جنباً إلى جنب، فما يدري أي النوازع يلبي، وإلى أيها يستجيب.

الصخــرة... الصخــرة

أشرف العام ١٩٤٥ على نهايته، وانتهى به عملي في أمريكا. فقد فرغت من تأسيس المكتب في واشنطن واستقرت أموره وأصبح بين يدي إخواني وزملائي يسير سيراً حسناً، وجاءتني الدعوة من الوطن بالعودة فقد تألفت لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية وستصل إلى البلاد، ولا بد من إعداد القضية وأن أساهم في ذلك. فأخذت أُعِدُّ العدة للسفر، وما أشبه الليلة بالبارحة. فمنذ أربعة أشهر خلت كنت أحزم حقائبي، في القدس وها أنا أحزمها مرة أخرى، وكنت يومئذ أستقبل هذه الدنيا الجديدة، ولكني اليوم أعود إلى قبلتي الأولى. وهكذا الدنيا، مقام وارتحال، وقرار وانتقال.

ولقد عبرت هذه الشهور الأربعة من حياتي ساعة ساعة ويوماً يوماً. ما مر جزء منها بغفلة، فلقد كانت حافلة بالعمل والحياة، ورأيتها طويلة أحصيت فيها أجزاءها، ولكني أستعرضها اليوم فأراها طرفاً من طرفة عين أو برهة متضائلة من برهة متضائلة. وإنّ عين الفكر لقادرة أن تضم أطراف الزمان، وحوافل الأيام من أقدم العهود، في خاطرة فكر، أو خفقة جنان، أو طرفة عين.

وغادرت الأوتيل ٢٩-١١-١٩٤٥ في طريقي إلى المرفإ في بروكلن لأستقل الباخرة المسافرة إلى بورسعيد، وكان الثلج يتساقط كالعهن المنفوش يهوي من السماء في أطباق الهواء متهادياً مترنحاً. وكان الطقس بارداً جداً حتى لقد خيل إليّ أن هذا الثلج المتهادي من السماء قد صعقه البرد فنزل راجفاً مرتعشاً، يلتمس الدفء على الأرض حتى إذا ما وجد قراره، أخذ يصعد أنفاسه وجرى ماء سلسبيلاً.

وراعني مشهد الثلج في أبهى صوره وأجمل تقاطيعه. فهنا أكوام تكدست على غير هيئة ونظام، وهناك أكداس منه بدت رصيفاً متصلاً بين الطرقات ومقاطع الطرقات. واكتست الأشجار، أغصانها وسوقها، بغلالات من الجليد، فإذا بالجليد

نابت من الأرض، أو ساقط من السماء. ولم تنج الناطحات في رؤوسها وشرفاتها وجدرانها من هذا الكساء الأبيض يلف المدينة لفاً رقيقاً، ويبعث فيها هذا المنظر البهيج، فالطريق بيضاء، والمصانع، والمداخن. . بيضاء!

وفي هذا اليوم انقلبت المدينة القاتمة بمصانعها ودخانها وقتامها وضبابها، ناصعة الرقعة، وفي يقيني أن هذه المدينة الجبارة التي فتنتها الآلة المنتجة المبدعة، هذه المدينة التي تحيا لتصنع وتصنع لتحيا، هذه المدينة التي استهوتها قدرة الإنسان في الاختراع لا بد لها بعض الأيام من السنة أن يرسل إليها ربنا بعض آياته وبيناته لتظل واعية لعجز الإنسان، وقدرة الله.

ودخلت الباخرة إلى حجرتي ورفيقي فيها الوزير السوري ناظم بك القدسي، وكان جارناً في الحجرة الأستاذ وهيب بك دوس عضو مجلس الشيوخ المصري، فأخذنا نسارع لإصلاح شؤوننا وكل منا طامع في أن يجلس إلى صاحبه، ويسامره، ويؤانسه وهو حامد لهذه السفرة البحرية. ولم يمض وقت طويل حتى كنا ثلاثتنا نجلس في زاوية من الباخرة نتسامر ما وسع السمر، لا يعكر صفوه موعد مضروب، فالزمن هنا رهين برغبتنا ومشيئتنا، نصرّفه كيف نشاء.

وأخذ دوس بك بإلقائه الساحر يروي شعر شوقي، يرويه مرتلاً مرنماً يستعيد نغمه ويعيد. فكان راوياً وسامعاً، ومعيداً ومستعيداً. وراح ناظم بك يقصّ أيام الجهاد الوطني في سوريا وذكرياته السالفة في أوروبا أيام الدراسة، ومضيت في نصيبي المتواضع أستمع إلى هذين الصديقين الكريمين وأشاركهما شجون الحديث، حياً بالمرح وحافلاً بالمطارحات والدعابات.

ولم يكن في الزمن ما ينبئ بمضيّه، بل لم يكن ما ينبئنا بأفول النهار وإقبال الليل، بل لم يكن ما ينبئ أي هزيع من الليل بلغنا، فلقد كان الحديث رخياً وندياً، من القلوب وإليها، فنسينا مطالب الجسد وحاجة الجسد، ولولا أن النوم فيه هدأة للروح والجسم معاً، لاتصل منا الليل بالنهار، ومضينا في الحديث نضرب في أرجاء الزمان ما وسعنا الزمان، وما أجمل السمر في صفوه وأنسه، ولكن ليته ولعله.

وقد عبرنا المحيط الأطلسي في سفر هادئ، وقضينا أسبوعاً لا نرى إلا السماء والماء، فانعدم الحس بالزمان، ومضى متصلاً لا أعرف تاريخ اليوم من الشهر ولا اسمه من الأسبوع. واستسلمت إلى أنني سأصل بعناية الله يوم جمعة من منتصف هذا الشهر، وأن ربان الباخرة سيعلن ميقات وصولنا، فلا داعي أن أرهق نفسي بالحساب.

وكان رفيقي الوزير السوري ناظم بك على خلاف ذلك، يحسب ويوقت، وكنا إذا خلونا إلى حجرتنا في الباخرة عند النوم أخذ يسألني عما مضى وعما بقي، فأقسم له غير حانث أنني لا أعلم ما مضى ولا أعلم ما بقي. ولكن شيئاً واحداً أعلمه أننا سنصل يوماً ما، فكان يغضبه مني هذا الاستسلام والتراخي إلى أن أنشدت له يوماً ما قاله الشاعر:

يسرّ المرء ما ذهب الليالي وكأن ذهابهن له ذهابا

فاعتبر وتذكر.

ولولا أن قلوبنا قد سبقت إلى الوطن والأهل والولد لآثرنا أن نهادن الزمان، فيمتد إلى غير أجل من غير توقيت أو حسبان.

ولم يشأ البحر أن يتركنا في هدوء وصفاء، فهاج وماج.

وذات ليلة تناولنا عشاءنا على مائدة لعبت بها الأمواج، تكاد تنزل بها إلى قاع من القاع، وكانت أطباق الطعام وأواني الشراب تميد يمنة ويسرة حتى كادت أن تتداولها أيدي الآكلين والشاربين. وكان المسافرون يرتطمون ويصطدم بعضهم ببعض حين ينزلقون عن مقاعدهم الطويلة كلما هاج البحر. وقد أصابت الجميع نشوة الفرح، أشاعته عصبة من الأمريكيات اللعوبات، أطلقن لمرحهن العنان فألقين أكتافهن وسواعدهن وشعورهن، وسائر ما يتصل بالنون الثقيلة، حيثما تقع وحيثما اتفق.

ولكن كهلاً من ركاب الباخرة كان قد اعتمد ظهره إلى جدار الباخرة واتخذ مجلسه في آخر هذه المقاعد الطويلة، ذلك الكهل انكمش على نفسه واجماً، يأخذه العبوس والانقباض كلما قذف اهتزاز الباخرة إلى جنبه وحضنه عجوزاً شمطاء عجفاء، لم تترك زينة ولا زخرفاً ولا ألواناً إلا وضربت منها على وجهها وملابسها وشعرها بأوفر نصيب، في قبحٍ عجيب!

وسط هذا الهرج وقف ربان الباخرة، بقامته الفارعة من غير تكلف ولا عناء. وليس «الوقوف» ميسوراً في تلك الفترة التي انطلقت فيها عفاريت البحر تتجاذب الباخرة، وأخذ الربان يجيل بصره في المسافرين وجهاً وجهاً ليفشي فيهم الهدوء والثقة، فإنه يوشك أن يفاجئهم بنبإ يسلبهم الرقاد.

وباللهجة الأمريكية، عامرة بالإمالة والغُنّة، اعتذر عن هياج البحر، ورجاهم أن لا يعتبوا أو يلوموا!

فانطلقت الحناجر الناعمة والخشنة بالقهقهات، موقعات وغير موقعات، إلا

حنجرة واحدة ظلت كاظمة أمرها ووترها، ذلك أن الرجل الكهل ما زال مغيظاً محنقاً من جارته العجفاء!

ثم مضى الربان يقول: «ستجربون حظكم هذه الليلة فنحن نوشك أن نبلغ مكاناً من البحر، طريفاً وعظيماً، ولا أدري هل نمر به في الهزيع الأخير من الليل، أو سنطالعه في الصباح، والأمر على كل حال رهين بحظكم وطالعكم، أتدرون ما هو هذا المكان؟»

فصاحت أمريكية باسلة، وقد نهدت على أطراف أقدامها: الصخرة... الصخرة... فردد القائد معها بصوت رزين وقور قائلاً: «الصخرة الصخرة.. وستمتحنون طالعكم هذه الليلة وأتمنى لكم حظاً سعيداً».

وانصرف الربان إلى حجرته ولم يكد يغادر قاعة الطعام حتى تناثر المسافرون من المائدة وانتظموا في حلقات حلقات، يتحدثون عن الصخرة، يطيلون الحديث فلا يملّونه ثم ينفرطون أزواجاً أو فرادى، ويهرولون إلى ممرات الباخرة ودهاليزها وإلى الأرصفة والشرفات ليروا هذه الصخرة التي شغلتهم في ليلتهم هذه عن العالم الجديد الذي غادروه، وصرفتهم عن العالم القديم وقد استقبلوه.

ولم يعد الأمر مكنوناً، أو أحجية غامضة، فإنها صخرة طارق بن زياد، عابر المضيق، مضرم النار في السفن، قاهر الفرنجة، وفاتح الأندلس.

ولقد نذرت هذه الباخرة نفسها ومن فيها أن لا يغمض جفن ولا يوطأ مقعد أو سرير، فالجميع أسبلوا أيديهم أو اعتمدوا صدورهم فوق قضبان الأرصفة، ووجوههم صوب الشمال تستطلع أنوار المضيق، حديثهم الصخرة، أمنيتهم الصخرة، لهفتهم الصخرة!

ولقد هبّت الرياح رطبة باردة فلم يستشعر المسافرون البرد إلا بعد زمن، فتساقطوا إلى حجراتهم يخطفون ما وقعت عليه أيديهم من غطاء أو رداء، ثم يتزاحمون صاعدين إلى أماكنهم في الأرصفة وقد لفوا أجسادهم بما حملوا لفاً شديداً، واتجهوا بأبصارهم إلى ما وراء الأفق البعيد، إلى موطن الصخرة.

ولو أن انساناً قد هبط على الباخرة تلك اللحظة ورأى هذا الرتل الطويل من الرجال والنساء وهم جاحظون في الأفق البعيد، لأيقن أنه رتل من الرهبان وقفوا يتعبدون.. ما درى أنهم ناس يتفرجون!

ويمضي الوقت طويلاً وهذه الأشباح الملفوفة، شدت أبصارها إلى هدف

واحد، تغرق في الصمت العميق لا يقطعه إلا حديث واحد، هو الحديث عن الصخرة وكفى.

ذلك كان شأنهم جميعاً. أمّا صديقنا الكهل فقد وجد في الحديث عن الصخرة أعظم العزاء في ما أصابه من بلاء، فقد أُنقذ من الجيرة لتلك العجوز العجفاء.

وكنا نحن، معشر العرب، ثلاثة في الباخرة، ناظم بك القدسي ووهيب بك دوس وأنا، فأخذنا الزهو والعزة كلما استمعنا إلى حديث الصخرة وكلما رأينا لهفة هؤلاء الأجانب على أن تكتحل عيونهم بمشاهدة الصخرة، وكان أكثر الركاب ينظرون إلينا كلما تحدثوا عن هذه الصخرة، وأنا موقن أنه لم يكن في أحد منا ما يلفت النظر. وكنا إلى ذلك العهد ثلاثة من المسافرين وانتهى، ليس لنا شأن ولا ذكر. فإذا بالصخرة تفيض علينا النباهة والذكر، حتى لقد خيل إليّ أن هؤلاء الأجانب قد أصبحوا يرون فينا أحفاد طارق بن زياد!

وقد أفلتّ من صديقيّ، وأخذت أطوف بهذا الرتل من الناس المشدوهين المأخوذين لأرى فيهم ساعة أو بعض ساعة، أشبع فيها خيلائي وكبريائي وشماتتي، وحمدت الله أني وجدت صهيونياً أمريكياً كان كثير المماحكة والجدل، لا يفتر عن التعريض بالعرب، وجد أو لم يجد إلى الحديث سبيلاً. فدنوت من هذا الماكر وهو يحاول أن يتوارى بغطائه وقلت له: هل أنت كورنفيلد؟ فقال: نعم، فقلت له: وهل أنت أيضاً سهران؟ فكابر وقال: لست سهران. . إنني أشعر بالأرق لأني نمت كثيراً في النهار ولست أطيق أن أكون في حجرتي الآن. فقلت له: وعساك أنت ترقب الصخرة؟ فمكر وقال: لا، الصخرة صخرة، ولكن الطبيب نصحني أن أطيل الانتفاع بهواء البحر لمرض أشكوه، فضحكت هازئاً وقلت له حين هممت بالانصراف:

«هاها. . يجوز. . ولكني أظن أنك تشكو مرضاً آخر. . الحقد على العرب!»

ولقد انتصف الليل واشتدت حلكة الظلام وأخذت الباخرة تقترب من المضيق تسترشد بالأنوار المبثوثة على الضفاف، فاشتد لصوق المسافرين بالقضبان الحديدية كما اشتد امتداد الرؤوس وأحداق الأبصار، وأمسكوا عن الحديث وودوا لو يمسكون عن الأنفاس فلا يفوتهم من مشهد الصخرة ذرة أو بعض الذرة.

وطال الصمت ودام النظر فلم يبصروا شيئاً، ذلك أن الأبصار قد باتت متعبة، وكثر تعاقد السحاب واشتداد الظلام، ثم جاءهم الربان وأنبأهم أن الباخرة قد جاوزت الصخرة. . وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن. .

هناك خاب الرجاء وتبدد الأمل، فانفرط هذا الصف الطويل من الأشباح، وانسل المسافرون إلى مضاجعهم وقد أضناهم الوقوف وأعياهم الانتظار.

ورأيت أني وحدي، كالعابد الزاهد ليلة القدر يقلب بصره في السماء، وغشيتني رهبة ما غشيتني من قبل وما أظنّها تغشاني من بعد، في ما بقي لي من العمر. وإذا بالتاريخ العربي ينشر الصفحات، وإذا بالذكريات تنهض أمام بصري، حوادث ووقائع، منها ما يقر العين ومنها ما يقض المضاجع.

لقد ألقى المسافرون بأجسادهم فوق فراشهم، ونفوسهم تفيض بالحسرة والخيبة، ذلك أنهم لم يروا شيئاً من الصخرة، ولكني رأيت جحافل النصر وراء القائد العربي عقبة بن نافع ممتطياً صهوة جواده، يمضي في الشمال الأفريقي من نصر إلى نصر حتى يبلغ المحيط الأطلسي، وهو يصيح في أذن الزمان «والله لولا هذا البحر لمضيت في سبيلك مجاهداً».

ورأيت طارقاً بن زياد وفي ركبه الغطاريف من العرب يحرقون سفنهم بأيديهم التماساً للنصر أو القبر. ولقد سمعت صيحاتهم ونجداتهم، وسمعت طارقاً في خطبته التي تتوارثها الأجيال العربية كأعظم أنشودة للحرب، وأمجد فاتحة للنصر.

ورأيت صقور قريش، وقوافل العلماء والشعراء والفقهاء، والأطباء والحكماء يجتازون المضيق، يحملون معهم مشاعل العلم والعدل والحضارة فتضيء في ذلك العالم السادر في الجهل، الغارق في الظلم، المتردي في الانحطاط.

ورأيت مدنية عجيبة، وحضارة رفيعة، وعدلاً شاملاً، ورحمة رشيدة. كل أولئك في مجالس الخلفاء وقصور الأمراء ورياض المدائن ومعاهد العلم ودور المرضى ومنازل الناقهين والعاجزين.. كل ذلك في الأندلس...

وبدا هذا المُلك، كالفردوس الذي بحث عنه الفلاسفة وافتقدوه، تتآخى فيه نوازع الدين والدنيا، وتتجسم في مرابعه ومغانيه آيات العقل، وخلجات القلب، ورحى الروح.

ولكني، رأيت بعد ذلك، هذا الفردوس العجيب، بالياً كالبلى، يحمله أهله وذووه كما يحملون الموتى، خاشعة أبصارهم، عبر المضيق إلى أفريقيا، وقد ملأوا الدنيا نحيباً ووجيباً، يلقون آخر النظرات، ويبعثون آخر الحسرات، ويرسلون آخر العبرات، صوب الأندلس، الأندلس وحدها، وهم يستمعون إلى الشاعر واعظاً وزاجراً، منتهراً وساخراً:

إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ورأيت بعد ذلك كله، عرباً يجوسون خلال الأندلس لا منتصرين ولا فاتحين، ولكن زائرين ومتفرجين. فيقفون عند الآثار يصعدون الأنفاس ويكفكفون العبرات، ورأيت بينهم شاعراً نصرانياً عربياً، ذكي الفؤاد مرهف الحس، يطوف بالمسجد في قرطبة، وها هو حين يشرئب بعنقه نحو مئذنته الفاتنة، يسمع أجراس النواقيس تبعث رنينها في الآفاق فتفيض الحسرة في نفس الشاعر يبعثها آيات من الشعر:

يا أيها المسجد العاني بقرطبة   هلا تذكرك الأجراس تأذينا

ولقد رأيت كثيراً غير هذا وسمعت كثيراً غير هذا، وأقسم أني رأيت وإنّي سمعت، ولكن بالفؤاد، وما كذب الفؤاد.

ولقد عمر الفؤاد بهذه الرؤى والأطياف، أياماً صفا فيها البحر الأبيض المتوسط، وعشت في الذكريات مع أصحاب الذكريات، أستمع وأتكلم، ألوم وأستغفر، أبتهج وأبتئس حتى دنوت أول مرفإ من الوطن العربي في بور سعيد.

فعدت إلى دنيا الحاضر، بلهفة المشوق إلى الوطن وأهله.

ومن بور سعيد ركبنا القطار إلى حيفا، فسافر السيد ناظم القدسي إلى دمشق، وسافرت إلى عكا، كل إلى الأهل والولد، والدار والبلد.

وبقيت حقائبي على حالها مهيأة للسفر، فقد وجدت نفسي بعد بضعة أيام في بيت المقدس في مهمة جديدة وجهاً لوجه أمام لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية، والويل لنا من لجان التحقيق..

الـدول العربيـة فـي المعركـة

اللقـاء... في سـوق الفـراء

وصلت إلى القدس في مطلع العام الجديد (١٩٤٦) وقد أثبتت الأحداث في ما بعد أنه عام جديد حقاً بالنسبة إلى القضية الفلسطينية. فقد وضعت الحرب العالمية أوزارها ونشطت الصهيونية العالمية بنفوذها الضخم. كما انطلق الإرهاب اليهودي في فلسطين تملأ أخباره أسماع الدنيا. وأخذت الولايات المتحدة بزمام المبادرة في دفع القضية الفلسطينية إلى صعيد جديد يكون فيه للصهيونية حظ الأسد. . . ويكون لبريطانيا الدور الثاني ولأمريكا الدور الأول. . ولا يزال الأمر كذلك إلى ساعتنا هذه. .

ذلك كان الوضع الدولي بالنسبة إلى قضية فلسطين يوم وضعت حقائبي في أوتيل «كلاريدج» في حي القطمون لأقضي بضعة أسابيع أعد العدة لعرض قضيتنا على لجنة التحقيق الانكلو ـ أمريكية. وبقدر ما كان الجو الطبيعي في بيت المقدس عذباً منعشاً في نسماته الهادئة الصافية، كان الجو السياسي مكفهراً ملبداً بالضباب والغيوم بعضها فوق بعض.

ونشطت الاجتماعات الوطنية للتداول في الأمر وتعددت لقاءاتي بالسادة موسى العلمي مندوب الأحزاب لدى الجامعة العربية، وجمال الحسيني رئيس اللجنة العربية العليا، وكان قد عاد من منفاه في سيشل، والدكتور حسين الخالدي وعبد اللطيف صلاح وعوني عبد الهادي، ويعقوب الغصين، رؤساء الأحزاب في فلسطين.

وفي سياق المشاورات بدأ شيء من التحفظ والتردد بالنسبة إلى المثول أمام لجنة التحقيق الأنكلو ـ الأمريكية. ولكن الإجماع انتهى إلى عدم مقاطعتها، وتم الاتفاق أن اللجنة العربية العليا تعرض القضية الفلسطينية بصورة عامة وأن يقوم المكتب العربي يعرض الجوانب التفصيلية المتخصصة. وهكذا كان.

وكان في مكتب القدس السادة ألبرت حوراني ورجائي الحسيني وبرهان الدجاني وروحي الخطيب ووصفي التل وناصر الدين النشاشيبي، فأخذوا يعدون

الدراسات التفصيلية في جميع جوانب القضية الفلسطينية يعاونهم عدد من الشبان المثقفين في فلسطين، ومضينا نصل الليل بالنهار في إعداد البحوث والدراسات. وكانت لدى المكتب العربي ملفات وافية عن مختلف المواضيع بالقضية الفلسطينية.

وكنت أقضي سحابة النهار وشطراً من الليل في مراجعة التقارير والوثائق، حتى انتهى بنا الأمر إلى إعداد ملف ضخم يزيد قليلاً على الألف صفحة، مبوباً مفهرساً، مكتوباً باللغة الإنكليزية على أحسن ما يكون سرداً وعرضاً.

وكانت لجنة التحقيق قد بدأت عملها في واشنطن ولندن وأوروبا فاستمعت إلى زعماء الصهيونية وأنصارها وزارت معسكرات الاعتقال لليهود، فجعلنا لذلك ردوداً وافية شافية . .

وباشرت اللجنة عملها في شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٤٦ في مبنى جمعية الشبان المسيحية في القدس، وكانت من ستة أعضاء أمريكيين وستة أعضاء بريطانيين. فاستمعت إلى وجهة النظر العربية والصهيونية وزارت عدة مدن في فلسطين، كما استمعت قبل وصولها وبعده إلى عدد من رؤساء الدول العربية.

وفي مبنى جمعية الشبان المسيحية جلسنا نحن الفريقين، العربي واليهودي، كل في جانب من القاعة، واللجنة على المنصة الرئيسية، كأننا أمام محكمة قانونية نتقاضى ونترافع.

وكان في الجانب اليهودي حاييم وايزمن وبن غوريون وشرتوك ومعاونوهم وخبراؤهم، وفي الجانب العربي كان زعماء الأحزاب وطائفة من الشبان الوطنيين، ونحن رجال المكتب العربي.

وعرضت اللجنة العربية العليا القضية الفلسطينية عرضاً قوياً وقد تحدث السيد جمال الحسيني عن الأراضي والهجرة وشؤون الفلاحين العرب. كما تحدث السيد عوني عبد الهادي عن الجوانب السياسية.

وجاء دور المكتب العربي فقدمنا إلى اللجنة «الملف الضخم» وأدليت ببيان تفصيلي بأن لجنة التحقيق لا تملك تقرير مصير الشعب الفلسطيني وأنها ليست ذات اختصاص في تقرير مستقبلنا السياسي وأننا نكر على أمريكا وبريطانيا مجتمعتين الحق في التدخل في شؤوننا، وأننا نمثل أمام اللجنة لإفهام الرأي العام العالمي حقيقة الظلم النازل بنا على يد الاستعمار والصهيونية، وأنهيت بياني بشرح مطالبنا الوطنية المعروفة. وما إن أشرفت على ختام حديثي حتى وثب عليّ رئيس اللجنة وأعضاؤها بالأسئلة منهمرة، غاضبة حانقة، وقد أكبروا على أنفسهم ووراءهم الدولتان

العظيمتان المنتصرتان أن يتصدى لهم عربي من فلسطين يضع الأمور في حدودها، ومن منطق الثورتين الأمريكية والبريطانية على السواء.

وانتصب الرئيس في مقعده، ضابطاً أعصابه، متجملاً بمهابة القضاة وقال: «أين تعلمت؟»

قلت: «في الجامعة الأميركية في بيروت وفي معهد الحقوق في القدس».

قال: «أليس هذا فضل الانتداب عليك وعلى شبابكم؟»

قلت: «أبداً. . قبل الانتداب كان آباؤنا على جانب وافر من العلم، وكان أجدادنا قبلهم حملة العلم والعرفان. . . وعلى أيديهم تعلمت أوروبا، ومن أوروبا تعلمت أمريكا».

قال: «ولكنك أحسن حالاً من أبيك علماً ومكانة؟ أليس كذلك؟»

قلت: «العكس هو الصحيح، لقد كان والدي أحسن مني مكانة، فقد كان عضواً في البرلمان العثماني، هو والعشرات من العرب يشاركون في الحكم مع الأتراك».

قال: «وأنت؟ ماذا أنت؟»

قلت: «أنا أعيش تحت الحكم البريطاني المباشر، فليس لدينا برلمان ولا نشارك في الحكم، وبدلاً من أكون في البرلمان أجد نفسي على الدوام في السجون والمعتقلات».

قال: «يبدو لي أنك تنظر إلى الموضوع بجدية بالغة، أكثر مما يستحق».

قلت: «ليس في الأمر مبالغة، نحن مهددون بالجلاء، وأخشى أن يكون والدي أسعد حالاً مني حتى في مماته، فقد دفن في تراب الوطن، ولا أعلم أين يكون قبري وكذلك كل جيلنا».

وهنا توتّر جو الجلسة، وتتطلع «كروسمان» العضو العمالي البريطاني ليقول: «لا فائدة من استمرار هذه المناقشة، ونحن أمام محام يحسن صناعة الجواب».

قلت: «أنا أحسن صناعة التحدث بالحق والصدق وهذا ما جئت من أجله. . .» وانتهت المناقشة عند هذا الحد.

وجاء من بعدي الأستاذ ألبرت حوراني، وهو من (جديّدة مرجعيون) مولداً، ومن بريطانيا نشأة وثقافة، وكان يستعين به السيد موسى العلمي في شؤون الإعلام.

وتحدث السيد حوراني حديث الأستاذ الجامعي بسلامة ورصانة محللاً معللاً، مناقشاً ومفنّداً. . . وكان يتكلم بالمنطق الغربي والعقل البريطاني في معزل عن العاطفة العربية، وحاورته اللجنة طويلاً فصمد لها، ولم تستطع أن تجد في «مرونته» و«موضوعيته» «وإيجابيته» ذرة من التسليم بالأمر الواقع.

ولست أحسب أن وجهة النظر العربية بشأن القضية الفلسطينية قد عرضت خلال عشرات الأعوام بأحسن ما عرضت أمام لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية في تلك الايام.

ففي واشنطن استمعت اللجنة إلى الدكتور فيليب حتي وإخوانه الأمريكيين المنحدرين من أصل عربي، يتحدثون من زاوية الشعب الأمريكي والمصالح الأمريكية.

وفي لندن تحدثت الوفود العربية، وكانت يومئذ تشترك في اجتماعات الأمم المتحدة المنعقدة في العاصمة البريطانية، فكان حديثاً من خلال ميثاق الأمم المتحدة وحق تقرير المصير، وساندهم في هذا أنصار العرب من البريطانيين في مقدمتهم الجنرال سبيرز الذي كان سفيراً لبريطانيا في سوريا ولبنان.

وفي القاهرة تحدث قادة العرب وفيهم السيد عبد الرحمن عزام باسم الجامعة العربية.

وفي العواصم العربية تحدث الملوك والرؤساء والأمراء حديثاً قوياً، جامعا، مانعاً.

وفي فلسطين تحدث الشعب الفلسطيني بإيمان وتصميم وعزم، بلسان اللجنة العربية العليا والمكتب العربي.

ولكن لجنة التحقيق تجاوزت كل ذلك وأخذت بوجهة النظر الصهيونية فجاء تقريرها ليوصي بإدخال ١٠٠ ألف يهودي مهاجر فوراً، وبإطلاق الهجرة اليهودية على مصراعيها، وإلغاء جميع القيود على ملكية الأراضي، وأن توضع فلسطين تحت الوصاية لمدة طويلة إلى أن يتكاثر اليهود ويصبحوا هم الدولة.

والواقع إن تواصي اللجنة الأنكلو ـ أمريكية قد نسفت الكتاب الأبيض الذي صدر سنة ١٩٣٩، ومهدت السبيل لإقامة دولة يهودية، وبادر الرئيس ترومان للترحيب بتقرير اللجنة مطالباً بالإسراع بالتنفيذ. وكنت يوم صدور التقرير، نيسان/ أبريل سنة ١٩٤٦، في القاهرة وفي الجامعة العربية بالذات، في مقرها القديم في شارع البستان، وعند الظهيرة وصل السيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة

العربية، فهو يسهر معظم الليل، ويباشر عمله بعد الظهر بقليل، فدخلت عليه وأخذنا نتحدث عن تقرير اللجنة الأنكلو ـ أمريكية. . . وكان بيننا جوار وجدال.

قال عزام: «لقد خدعنا الإنكليز قبّحهم الله».

قلت: «ولماذا نسمح لهم أن يخدعونا، ولماذا نقبل الخديعة؟ أو ليس يكفي خداعهم الطويل منذ أيام الشريف حسين. . »

قال: «لقد أكدوا لي في وزارة الخارجية البريطانية أنهم سيكونون إلى جانب العرب، ثم إن الملك عبد العزيز قد تلقى تطمينات أكيده من جانب الأمريكان».

قلت: «إن الخطر كل الخطر أن نطمئن إلى هذه التطمينات. . . ولا أظن عربياً يعرف الإنكليز كما الملك عبد العزيز، وإنّ مكرهم لا يقاس شيئاً إلى جانب دهائه ومكره. . . ».

قال: «الواقع أن قضية فلسطين عرضت هذه المرة كأقوى ما تكون. . . وأنتم في المكتب العربي كان استعدادكم عظيماً».

قلت: «هذا لا ينفع. . . لقد كان جميع ما قلناه في واشنطن ولندن والقاهرة والقدس وسائر العواصم عظيماً وقوياً، ولكن. . . »

قال: «ولكن ماذا؟»

قلت: «اليهود في فلسطين وراءهم جيش الهاغاناه وعدد من العصابات الإرهابية، وقد زارت اللجنة قيادتهم السرية، وأما نحن عرب فلسطين فشعب أعزل».

قال: «سندرس هذا الموضوع في اجتماع المجلس القادم».

قلت وأنا أقف لأنهي حديثي: «أريد أن أقص عليك قصة شعبية».

قال: «وما هي؟ أنا أحب القصص الشعبية، ونحن في الصعيد عندنا قصص شعبية كثيرة».

قلت: «كان صياد يطارد غزالين وهما يعدوان أمامه، فقال أحد الغزالين لرفيقه، علينا أن نفترق عن بعضنا وليذهب كلّ في طريق لكي ننجو من هذا الصياد الماهر. . . ولكن أين تَرى أن نلتقي؟ فقال الغزال الآخر. . ما دام هذا الصياد يطاردنا فلا أظن أننا سنلتقي إلا في سوق الفراء. . فسنقع كلانا في قبضة الصياد، وتسلخ جلودنا لتعلق في سوق الفراء، وهناك سيكون اللقاء».

وقلت للسيد عبد الرحمن عزام: «إذا كانت الجامعة ستظل تدرس، وإذا كان الملوك والأمراء سيظلون يصرخون، فسيكون اللقاء في سوق الفراء».

وكرّ الزمن بأيامه وأعوامه ووقعت كارثة ١٩٤٨، وتزاملت بعدها مع السيد عبد الرحمن عزام، كمساعد له في الجامعة وتوالت لقاءاتي به بعد أن استقال من الجامعة، وكان آخرها في بيروت في شهر آب/ أغسطس سنة ١٩٦٨، وتذاكرنا الأحداث الماضيات، وحكاية سوق الفراء فقال لي، إنه لا ينسى تلك القصة المليئة بالعظات والعبرة.

قلت له: «إن القصة تغيرت معالمها بعد نكبة حزيران/ يونيو».

قال: «وكيف؟»

قلت: «لقد سقطت سيناء والجولان مع الضفة الغربية، وإنّ سوق الفراء لم يعد قاصراً على أبناء فلسطين فقد شمل أبناء العروبة وها قد أصبحت جلودنا جميعاً معلقة في سوق الفراء».

وافترقنا ونحن ندعو الله أن يهيئ لنا من هذه «السوق» مخرجاً!

وعدت إلى القدس من القاهرة في أوائل شهر أيار/ مايو سنة ١٩٤٦ فوجدت الشعب في هياج عارم، فقد جاء تقرير لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية مخيباً للامال، ونذيراً بشرّ مستطير، فقد تكشفت في سطوره المؤامرة الأمريكية البريطانية لتهويد فلسطين، فأضرب الشعب ليعرب عن نقمته واستنكاره. . . وكان ذلك كل ما يملكه من الوسائل.

وعلى الصعيد اليهودي أعربت المنظمات الصهيونية في أمريكا وبريطانيا عن الترحيب بتقرير اللجنة، فقد استراحت من الكتاب الأبيض وقيوده على الهجرة وبيع الاراضي، وبدا لها أن الجو قد أصبح مواتياً لقيام دولة يهودية في فلسطين، ولتكن حدودها ما تكون. . فالمستقبل قادر على تحقيق الأهداف مرحلة بعد مرحلة «وتجديد» الحدود، يوماً بعد يوم.

وفي فلسطين نشطت المنظمات اليهودية العسكرية في أعمالها الإرهابية بصورة جنونية أقضّت مضاجع الإنكليز، وراحت الإذاعة اليهودية السرية تحض على إقامة الدولة اليهودية واباحة الهجرة اليهودية، والمطالبة بتوصية اللجنة القائلة بإدخال ١٠٠ ألف يهودي.

وأما على الصعيد العربي فقد عمّ الإضراب العواصم العربية وتعالت موجة من الاحتجاج والاستنكار من قبل الأوساط الرسمية والشعبية، فاستدعى الملوك

والرؤساء سفراء بريطانيا وأمريكا وأعربوا لهم عن بالغ قلقهم.

وقال الملك عبد الله، وقد نودي به ملكاً يوم ٢٥ آذار/ مارس سنة ١٩٤٦، إنه يعاهد الله على الجهاد المقدس دفاعاً عن فلسطين العربية والعمل على أن تظل عربية.

وأعلن الملك عبد العزيز أنه كان يظن أن إنكلترا وأمريكا تقدّران حقوق العرب وصداقتهم تقديراً يحول دون هذه الخيانة وهذا الغدر.

وصرح عبد الرحمن عزام وغيره من قادة العرب مثل هذه التصريحات.

وكنا نستمع إلى هذه التصريحات ونحن نكبر الروح العربية التي وراءها، ولكنا كنا نتساءل: هل هذه نهاية المطاف؟ هل نقف عند حدود الاستنكار والاحتجاج؟ هل يظل شعبنا أعزل من السلاح . . . وعدونا ماضٍ في تحقيق أطماعه بالسياسة والمال والدعاية، وبالسلاح أولاً وآخراً؟ . .

واجتمعنا في المكتب العربي في القدس، ودعونا إلى هذا الاجتماع نخبة من العاملين الوطنيين من كل أرجاء البلد وقلّبنا الأمر على وجوهه وانتهى رأينا إلى أنه لا بد من الكفاح المسلح . . . لا بد من الإعداد للمعركة لا بد من التدريب والتسليح . . . ولا بد للدول العربية أن تدعمنا . . تماماً كما تفعل الصهيونية العالمية، ومعها الاستعمار الغربي في دعم يهود فلسطين.

وفي اليوم الثاني دعوت مراسلي الصحف الفلسطينية والعربية إلى المكتب العربي واتفقنا أن تبدأ حملة صحافية تدعو إلى الكفاح المسلح، وإنشاء لجان طوارئ في البلاد، وجعل الوطن كله ثكنة عسكرية . . . وإخراج النساء والاطفال إلى البلاد العربية المجاورة لنشعلها معركة لا تنطفئ حتى النصر . . . وحتى الاستقلال.

وهكذا كان، فقد انطلقت الحملة الصحافية تدعو إلى النضال، وبادرت الصحافة العربية والأوساط الشعبية إلى توكيد، هذه الدعوة واتجهت الأبصار إلى الملوك والرؤساء وإلى الجامعة العربية، والجميع يناشدون وينادون، العمل العمل . . . السلاح السلاح.

وتنادى الملوك والرؤساء إلى الاجتماع في زهراء أنشاص في ٢٨ أيار/ مايو سنة ١٩٤٦. وقبيل هذا الموعد تلقيت رسالة من السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية لأوافيه، ولم تمض ساعات حتى كانت الطائرة تقلني إلى القاهرة.

وكانت القاهرة مهوى القلوب في تلك الأيام التاريخية، فهو أول لقاء عربي بين الملوك والرؤساء، بل هو أول تعارف بينهم، ومن يدري، لو لم تكن قضية فلسطين فمن أين يتيسر لهم اللقاء والتعارف؟!

وكان عبد الرحمن عزام هو «المترجم» الذي يتفاهم الملوك والرؤساء عن طريقه. فقد كان الملك فاروق لا يفهم لهجة الأمير سعود نائب والده الملك عبد العزيز، وكان الشيخ بشارة الخوري لا يفهم لهجة الأمير سيف الإسلام عبد الله نائب والده الإمام يحيى، وكان الملك عبد الله، والأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق «يتجاهلان» لهجة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية. . . وهكذا.

وبدأت المحادثات سرية بين الملوك والرؤساء، وكانوا ينادون السيد عبد الرحمن عزام «ليترجم» بين بعضهم البعض. . . وكنت أنا وراء الكواليس مع الوفد السوري، أحاول أن أترجم لنفسي هذه «اللهجات» المتباينة، وهذه التناقضات المتعددة!

وجاء دور إعداد البيان المشترك الذي سيصدر عن المؤتمر فكانت الصيغة المتعلقة بقضية فلسطين كما يلي: «. . . وتداولوا في قضية فلسطين من شتى نواحيها فرأوا أن قضيتها ليست قضية خاصة بعرب فلسطين وحدهم بل هي قضية العرب جميعاً، وأنّ فلسطين عربية يتحتم على دول العرب وشعوبها صيانة عروبتها، وأنه ليس بإمكان هذه الدول أن توافق بوجه من الوجوه على أية هجرة جديدة ويعتبرون ذلك نقضاً صريحاً للكتاب الأبيض الذي ارتبط به الشرف البريطاني. ولهم عظيم الأمل أن لا يعكر صفو علائق المودة القائمة بين الدول والشعوب العربية من جهة والدولتين الديمقراطيتين الصديقتين من جهة أخرى أي تشبث من جانبهما يرمي إلى إقرار تدابير ماسة بحقوق عرب فلسطين حرصاً منهم على دوام هذه الصداقة وتفادياً لرد فعل ينشأ بسبب ذلك». . .

ودعاني السيد شكري القوتلي إلى غرفته وقرأ من البيان الصيغة المقترحة بشأن فلسطين وقال: «ما رأي فلسطين؟»

قلت: «إن فخامة الرئيس يعرف رأي فلسطين كما أعرفه، لقد عشت في فلسطين، وتعرف قضية فلسطين».

قال ضاحكاً: «شعب فلسطين صعب المراس، هذا الذي أعرفه عنه، فما رأيك في البيان؟»

قلت: «هذه الصيغة حسنة ولكنها».

قال مقاطعاً: «ولكنها ماذا؟ نحن لم نتوصل إلى هذه الصيغة إلا بعد جهد».

قلت: «إنها لا تخلو من ملاحظات».

قال: «عسى أن لا تخرب البيان بأكمله».

قلت: «إذن سأتجاوز الكلام عن الشرف البريطاني وعلائق المودة مع الدولتين الصديقتين، وسأحصر كلامي في رد الفعل وفي إغفال أي إشارة للدول الأخرى، ومنها الاتحاد السوفياتي. ثم أخذت أشرح وجهة نظري بأن رد الفعل يحسن التعبير عنه بالإشارة إلى البترول... وإنّ الاقتصار على الدولتين الديمقراطيتين الصديقتين وهما أصل البلاء ورأس الداء، وتجاهل دولة عظمى كالاتحاد السوفياتي، وقد خرجت منتصرة في الحرب العالمية الثانية، سيؤكد مرة ثانية أننا ما زلنا نسير في فلك الدول الغربية، وهي التي احتضنت الصهيونية ولا تزال.. وستظل».

ولم أكن قد أكملت حديثي. حتى دخل السيد عبد الرحمن عزام ودعا السيد شكري القوتلي إلى الاجتماع. وهو يقول مداعباً: «لا تصغ إلى أهل فلسطين، هؤلاء قوم مشاغبون». قلت: «نعم والعزازمة من قبائل بئر السبع وهم رؤساء المشاغبين».

وفي هذه الفترة مرّ الملك عبد الله والأمير عبد الإله فوقف الجميع بضع دقائق في المجاملات المعتادة، ووضع الملك عبد الله يده على كتفي وقال:

«أي نعم يا ابن شخينا، عسى أهل فلسطين راضين عن هذا الاجتماع».

قلت: «شعب فلسطين يدعو لكم بالتوفيق».

وقال شكري القوتلي مقاطعاً: «يظهر أن شعب فلسطين له ملاحظات على صيغة البيان المشترك».

قال الأمير عبد الاله: «خيراً إن شاء الله، ما هي الملاحظات؟»

ولم أكد أوجز ملاحظاتي حتى اكفهر وجه الملك عبد الله، وبدا عليه الغضب، وأخذ بيد السيد شكري القوتلي إلى قاعة الاجتماع وهو يقول لي:

«أما تتّقي الله؟.. هل تريد أن تنشر الإلحاد والشيوعية؟..أنت ابن شيخ الإسلام، وتريدنا أن نستنجد بروسيا، الشيوعية الملحدة الكافرة ال.. ال..» وذهب الجمع إلى قاعة الاجتماع... وبقيت في الغرفة وحدي كسيف البال والحال، ذلك أنني لم أستطع أن أشرح رأيي والموقف لم يكن يتحمل الجدال.

وصدر البيان المشترك بصيغته، ولحمه ودمه، وقال لي السيد شكري القوتلي إنه قد تحدث بشأن الملاحظات فلم يجد من يؤيده ولم ير داعياً للإلحاح رغبة في الإجماع.

والواقع أن «الإجماع» رغماً عن كل مغرياته، كان دائماً بالنسبة إلى العمل العربي المشترك نقمة لا نعمة، إذ يكفي أن «تفرمل» دولة عربية واحدة «وتفرمل» معها بقية الدول العربية، وتقف القافلة كلها عن السير... حباً في الإجماع..

وعل كل حال فقد كان مؤتمر زهراء أنشاص أول تجربة في أول لقاء عربي على مستوى عال، يتجمع فيه البيت العلوي والبيت السعودي والبيت الهاشمي ليتركوا مشاكلهم القديمة والحاضرة وراء الكواليس ولو إلى حين. . . . ولو في الظاهر. والله يتولى السرائر.

وقد فاز الملك فاروق بنصيب الأسد من هذا المؤتمر. فقد وصفه البيان المشترك بأنه «صاحب بلاد النوبة والسودان وكردفان ودارفور» وقد وقّع الملوك والرؤساء على هذا البيان ولا يدري بعضهم أين تقع «كردفان ودارفور». . . بل لم يسمع أين تقع!

وتنادت الجماهير العربية بالبشائر لهذه المعاني الرائعة التي تجلت في البيان المشترك، وأحس الشعب الفلسطيني أنه قد تكوّن تجمع عربي يتصدى للتجمّع اليهودي الممثل في الصهيونية العالمية، وتطلعت الأمة العربية إلى تدابير عملية من وراء البيان المشترك وخاصة أنها فهمت مغزى كبيراً في ما جاء في عبارته الأخيرة: «أمّا في ما رأوا زيادة على ذلك فقد كلفوا الأمين العام لجامعة الدول العربية أن يحمل إلى مجلس الجامعة نتائج أبحاثهم ومداولاتهم وتوجيهاتهم في هذا الشأن ليتخذ أفضل الوسائل لصيانة مستقبل هذا الوطن العزيز على العرب أجمعين».

وجاء اليوم الثامن من شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٦ فانعقد الاجتماع «التاريخي» لمجلس الجامعة العربية في بلودان، وذهبت في وفد فلسطين برئاسة السيد جمال الحسيني للاشتراك في أعمال المؤتمر.

وغداة وصولي إلى بلودان تذكرت المؤتمر الشعبي الذي عقد قبل تسعة أعوام وبدت لي المقارنة بارزة بين المؤتمرين: الشعبي كانت تتجلى فيه المصارحة والمكاشفة والشجاعة، والرسمي اتسم بطابع التهامس وراء الكواليس والاجتماعات الجانبية، لا لدرء الخطر عن فلسطين ولكن لدرء «الخطر» الذي تلقيه قضية فلسطين على عاتق الدول العربية.

لقد كان الشعب الفلسطيني يطالب بالمال والسلاح وكانت الأمة العربية تنادي بالنضال وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية والبترولية مع الدول الغربية، وكانت إلى جانب ذلك أصوات «يسارية» في الوطن العربي تدعو إلى التفاهم مع الاتحاد السوفياتي.

وفي داخل الاجتماعات الرسمية وخارجها أعلنّا نحن وفد فلسطين أننا سنقدم في هذه المعركة أرواحنا، وهذا كل ما نملك، وعلى الدول العربية أن تيسر لنا أسباب المعركة، وأسلحة القتال.

وتعددت الاجتماعات في الغرف الصغيرة ليلاً ونهاراً، وكل وفد يقول في

الداخل غير ما يقول في الخارج، للصحافة والتجمعات الشعبية . . . ولم تكن هذه المداولات تشغل في وضع خطة لإنقاذ فلسطين بقدر ما كانت تشغل في وضع خطة لإنقاذ الدول العربية من الورطة التي أنزلتها إليها قضية فلسطين.

ومن أجل ذلك فقد كانت المشاورات تدور في فلك واحد: البحث عن مخرج، وكنت أداعب بعض الوفود المعروفة بدراستها الدينية، مثل الشيخ يوسف ياسين ممثل المملكة العربية السعودية وإضرامه بالدعاء كلما لقيته صباح مساء: «اللهم هيئ لنا من أمرنا مخرجاً».

وانتهت الاجتماعات بمقررات علنية وسرية.

وتتلخص المقررات العلنية:

١ ـ الاعتراض على تقرير لجنة التحقيق الأنكلو ـ أمريكية ورفض أي شكل من أشكال التقسيم.

٢ ـ طلب المفاوضة مع الحكومة البريطانية لإنهاء الحالة الراهنة بفلسطين.

٣ ـ عرض القضية على هيئة الأمم المتحدة.

٤ ـ تأليف لجنة دائمة خاصة بفلسطين في الجامعة العربية.

٥ ـ إنشاء مكاتب للمقاطعة في كل دولة عربية.

٦ ـ إنشاء لجان دفاع لفلسطين في كل دولة عربية.

وأما المقررات السرية فإني لا ألخصها ولكني أنشرها بنصها وحرفها، كما دوّنتها:

١ ـ إلغاء امتيازات البترول الممنوحة لكل من أمريكا وبريطانيا في البلاد العربية.

٢ ـ مقاطعة أمريكا وبريطانيا في جميع المجالات الاقتصادية.

٣ ـ عدم السماح للدولتين أو أي منهما أو رعاياهما بأي امتياز اقتصادي جديد.

٤ ـ تقديم الشكوى عليهما إلى مجلس الامن والجمعية العامة للأمم المتحدة.

٥ ـ مقاطعتهما مقاطعة أدبية.

ولقد سمحت لنفسي أن أنشر هذه النصوص لأنها ليست جديرة بأن تسمى سرية. ولأنها أصبحت الآن جزءاً من التاريخ، وإن كان تاريخاً مليئاً بالسخرية المريرة، فحتى قرار المقاطعة الأدبية، وهو قرار سخيف، ظل بعيداً عن التنفيذ.

وقد حسب الرأي العام العربي، وأوله شعب فلسطين، أن تلك القرارات السرية كانت على جانب من الجدية يبرّر «السرية».

وانفضّ المؤتمر في وسط هالة من الأهمية، وعادت الوفود إلى بلادها تجر وراءها قطاراً من التصريحات المدهشة المذهلة، لتقرأها الأمة العربية. أمّا في غرف وزارات الخارجية العربية فقد كان الحديث مع سفيري بريطانيا وأمريكا «اعتذاراً» في حقيقته وجوهره يختمه الدبلوماسي العربي بقوله: «أنتم تعرفون شعور الرأي العام العربي وكان لا بد لنا أن نقول شيئاً . . . ونحن على كل حال سنظل أصدقاء».

أما على الصعيد الفلسطيني فقد واجه مؤتمر بلودان وفدين عن فلسطين. فقد أطلت الحزبية البغيضة بهامتها حتى بلغت ذرى جبال بلودان . . على حين كان الإرهاب اليهودي يبلغ الذروة في جبال فلسطين . . . وقرر مؤتمر بلودان تأليف هيئة عربية عليا من «الفريقين» فتم اختيار السادة جمال الحسيني والدكتور حسين الخالدي وأحمد حلمي باشا وإميل الغوري، على أن تبقى الرياسة شاغرة للحاج أمين الحسيني حتى يعود من ألمانيا. وقد اعتذرت عن الاشتراك في هذه «الهيئة» فقد كان رأيي أن القيادة الفلسطينية لا يصح أن تعيّن في بلودان، بل يجب أن يتم الأمر في فلسطين، في مؤتمر قومي يختار القيادة الوطنية.

وهكذا آثرت أن أعود إلى فلسطين أفكر وحدي، وأعمل في الحقل الوطني وحدي، حيثما وجدت إلى العمل سبيلاً.

ورحت أشرح لقومي قرارات مؤتمر بلودان العلنية، أمّا القرارات السرية فقد «هتكتها» الأحداث، فلم تجد الأمة العربية إنجازات جدية من ملوكها ورؤسائها.

وأصبحت قرارات مؤتمر بلودان السرية «كان يا ماكان» وسخرية الزمان، وتفكهة العصر والأوان . . بين المثقفين والرعيان، وتلك المسيرة، من أنشاص إلى بلودان . .

لقاءات خاطفة.. الملك عبد العزيز، الأمير عبد الإله، الرئيس القوتلي

طال انتظارنا للعون والمدد، نحن شعب فلسطين، بعد الاجتماع التاريخي في زهراء أنشاص وبعد المقرارات السرية في بلودان، ولقد كنا على أحرّ من جمر الغضى، ذلك أن الإرهاب اليهودي قد زاد نشاطه واتسعت رقعته وأخذ يتخذ صوراً عديدة من الفتك والتدمير والبطش، في حملات منظمة متلاحقة. . . من ذلك نسف الجسور العشرة التي تربط فلسطين بسوريا ولبنان ومصر وشرق الأردن حتى باتت فلسطين معزولة عن العالم العربي، وقد جاء هذا الحادث الرهيب بعد بضعة أيام (١٧ حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٦) من اجتماع مجلس الجامعة العربية وقراراته التاريخية.

وكنت في تلك الفترة أمارس عملي في المكتب العربي في القدس، في حركة ناشطة من الاتصال بالأوساط الوطنية في البلاد بالإضافة إلى الاجتماعات الصحافية بوكالات الأنباء والإذاعة وقد تقاطر ممثلوها بالعشرات على بيت المقدس.

وكان مكتبنا في حي القطمون غير بعيد عن فندق الملك داوود، وحين كنت أودع جون كيمش الصحافي اليهودي المعروف وأتهيأ لاستقبال السيد حسنين هيكل الصحفي المصري (رئيس تحرير **الأهرام** في ما بعد) اهتزت المدينة من قواعدها وكأنما جبالها طويت على وديانها في قعقعة تصمّ الاذان.

وجاءتني التفاصيل بعد ذلك أن اليهود قد نسفوا فندق الملك داوود، وفيه مكاتب الحكومة، وسقط القتلى والجرحى بالعشرات من كبار الموظفين وفيهم الإنكليز والعرب واليهود.

وخرجت ذلك المساء لأرى ما كان. . . فإذا بي أشهد مجزرة بشرية التحم

فيها الحديد بالحجارة بالتراب بالدخان. . . بالأشلاء. . . وبدا الجو مليئاً برياح الموت.

وعدت إلى غرفتي في فندق «كلاريدج» معقود اللسان، واجم الجنان، ولم أطق البقاء في غرفتي فسارعت إلى حي المصرارة حيث يقيم السيدان جمال الحسيني وموسى العلمي لنتداول في ما وصلت إليه الحال في البلاد، وقد استقر رأينا أن نسافر إلى الأقطار العربية نلتمس العون والمدد منها بصورة فردية، دولة دولة، إلى أن يأتي العون الاجماعي، ومعه الترياق من العراق وغير العراق.

وفي يوم وبعض يوم حزمنا حقائبنا وسافرنا نحن الثلاثة، جمال وموسى وأنا، إلى الرياض للاجتماع بالملك عبد العزيز وطلب نجدته. . . فإن الهوى نجد.

وقضينا في الرياض أربعة أيام ونحن نشرح الأمور لحاشية الملك، الشيخ يوسف ياسين، الشيخ رشدي ملحس، وكانا عارفين بتطورات الأمور ولم يعوزهما الإيضاح، ولكنهما لم ينبسا ببنت شفة، فالكلمة الأولى والأخيرة للملك عبد العزيز وليست لسواه.

وتم لقاؤنا بالملك عبد العزيز في مجلسه، يحفّه صفان طويلان من الحرس في أزيائهم الزاهية وسيوفهم المزركشة.

فتكلم السيد جمال عن الأوضاع الداخلية بصورة عامة، وتكلم السيد موسى عن موقف الإنكليز والأمريكان وتحدثت عن انطباعاتي بعد عودتي من الولايات المتحدة.

وكان الشيخ يوسف ياسين، «يترجم» من حين إلى حين بعض تعابيرنا «الفلسطينية» إلى اللهجة النجدية، والعكس بالعكس.

وأعرب الملك عن عطفه على قضية فلسطين وأشار إلى محادثاته مع روزفلت. وقال في ختام حديثه: «أتريدون أن تسمعوا الحق؟ إن قضية فلسطين لا ينقذها إلا شعب فلسطين. . . وليس لكم إلا أن تجاهدوا في سبيل وطنكم ونحن معكم. . نحن نقرأ تصريحات بعض قادة العرب أن على الجامعة وجيوشها أن تحرر فلسطين. . . لا يخدعكم هذا الكلام. . نحن نرى أن تؤيدكم الدول العربية بالسلاح والمال. . اتصلوا بالدول العربية على هذا الأساس. . ونحن حاضرون لتقديم المال والسلاح لشعب فلسطين!».

كان الملك عبد العزيز يتحدث بهذا الحديث على سجيته وفطرته، وبلهجته النجدية الصريحة، كأنما كان يتحدث إلى أنصاره من النجديين قبيل انطلاقهم إلى

المعركة . . . ونهض الملك من مجلسه إلى مخدعه التماساً للراحة، فقد كان متعباً بادي الإعياء.

وكان غداؤنا ذلك اليوم على مائدة الأمير فيصل، واسترسلنا معه في الحديث عن القضية الفلسطينية، وتحدث طويلاً عن تطور القضية منذ مؤتمر لندن في عام ١٩٣٩ إلى يومنا هذا . . وقال: «إن الأخ أحمد يعرف رأيي منذ التقينا في نيويورك في صيف ١٩٤٥ بعد مؤتمر سان فرانسيسكو». فقال له السيد جمال الحسيني: «والآن ما ترى يا سمو الأمير؟»

قال الأمير: «إذا كنتم تريدون إنقاذ وطنكم فما عليكم إلا أن تتبعوا رأي جلالته . . . اطلبوا من الدول العربية المال والسلاح، ونحن حاضرون . . . وإن احتجتم إلى الرجال فنحن حاضرون . .»

وكان الشيخ يوسف ياسين من مستشاري الملك حاضراً المأدبة فقال: وأنا حاضر مع الرجال.

قلت للشيخ يوسف عندها: «أنت مقدسي، فليكن تطوعك أصيلاً وصافياً». فسأل أحد الموظفين السعوديين: «وكيف ذلك؟»

قلت: «إن الشيخ يوسف ياسين كان معلماً شاباً في المدرسة الصلاحية في القدس، ولكنه قد ينكر ذلك خشية أن ينكشف عمره ثم تسألون عن سواد شعره».

وانصرف كل منا إلى فراشه، في هذا الجو من الدعابة في قصر الضيافة في الرياض، على حين كان اليهود في فلسطين يخططون ويدبرون.

ومال إليّ السيد جمال ونحن في الطائرة في اليوم التالي في طريقنا إلى بغداد، وسألني: «هل تظن أن الملك عبد العزيز سيسارع إلى تقديم العون لنا؟»

قلت: «إن الملك عبد العزيز جاد في ما يقول، وكذلك ابنه فيصل . . ولكني أخشى».

قال: «وماذا تخشى؟»

قلت: «أخشى أن تتباطأ الدول العربية الأخرى حتى تنعقد الجامعة، وينعقد إجماع الجامعة، وهنا الطامة الكبرى» . . . وفي اليوم التالي هبطنا مطار بغداد، ولقد فوجئت بل فجعت ببغداد، فلقد كانت عاصمة الرشيد في خيالي أسطورة رائعة رسمها الادب العربي والتاريخ العربي في ذهني، ولشد ما كانت دهشتي أن أرى

بغداد قرية كبيرة كأن لا صلة لها ببغداد العباسيين. . . ولكني قلت في نفسي ما جئنا لنستيعد المجد الغابر، ولكن جئنا لنتصدى للخطر الحاضر، الماثل على أرض فلسطين، الجاثم على أسوار بيت المقدس.

وكانت لنا لقاءات مع رجالات العراق، نوري السعيد، حمدي الباجه جي، توفيق السويدي، فاضل الجمالي، صادق البصام، طه الهاشمي، مهدي كبّه، كامل الجادرجي، وجميل المدفعي. . وغيرهم من زعماء البلاد من مختلف الاتجاهات السياسية، فشرحنا أمورنا شرحاً مسهباً. .

وعقد اجتماع شعبي كبير في حديقة الملك فيصل، فعرضت حالة فلسطين وما وصل إليه الإرهاب اليهودي وأعلنت عن عزم الشعب الفلسطيني على الدفاع عن وطنه بما يملك من المهج والأرواح وناشدت العراق حكومة وشعباً أن يهبّ لنجدة فلسطين، «وما نحن إلا ثغور العراق على البحر الأبيض المتوسط».

وزرنا القصر الملكي فاستقبلنا الأمير عبد الإله الوصي على العرش، وكان الملك الصغير فيصل الثاني واقفاً في حجرة منصتاً وادعاً، ونحيلاً هزيلاً. . . ولم يتكلم الوصي إلا كلمات قليلات لم نفهم منها قبولاً ولا رضاً، ولا إبراماً ولا نقضاً.

واتجه سعينا مع رجال الحكومة ومع قادة الرأي العام، وكنت قد وجهت إلى الشعب العراقي كلمة ضافية في الإذاعة، تتسم بالاستنجاد والاستغاثة وتدعو العراق إلى أداء رسالته، وكان الشعار السائد يومذاك أن العراق هي «بروسيا العرب»، نواة وحدتهم وعنوان عزتهم.

وفي جلسة خاصة ضمت وزيرَي الخارجية والدفاع هزتنا المفاجأة البهيجة حين أسرّ إلينا الوزيران: «لقد أعددنا لكم خمسة عشر ألف بندقية مع ذخيرتها وكميات من القنابل والمتفجرات. . . وستصلكم المساعدة المالية عن طريق القنصلية العراقية في القدس خلال بضعة أيام.

قلت: «وكيف تصلنا الأسلحة؟»

وقاطعني نوري السعيد وقال: «دبروا أموركم مع سوريا وشرقي الأردن، إن الرئيس شكري القوتلي صديقكم، ولعل رئيس وزراء الأردن توفيق أبو الهدى يساعدكم في شرقي الأردن».

وعدنا إلى فندق «ضيا» نلتمس الضياء. . لنسلك بقية الطريق. واتفقت كلمتنا أن نفترق. أنا أذهب إلى سوريا للاجتماع بالرئيس القوتلي، وموسى العلمي يذهب إلى

الأردن، وجمال الحسيني إلى القدس نهيئ أمورنا وندبر أحوالنا فقد أصبح المال والسلاح بين أيدينا.

ووصلت إلى دمشق وكأنني أحمل بشرى الزمان على كتفي، واكتفيت أن أطلع السيد عزة دروزة على الأمر بين إخواننا الفلسطينيين اللاجئين إلى سوريا.

وفي صباح اليوم التالي كنت أقفز على درج القصر الجمهوري في «المهاجرين» وأنا أقول: «صباح الخير يا فخامة الرئيس. . لقد وفقنا الله في العراق وأرجو أن نوفق في سوريا».

قال: «خير إن شاء الله. . . إن سوريا لكم على الدوام».

فرويت له ما جرى في بغداد ورجوته أن يصدر أوامره إلى الحدود لاستقبال شحنات الأسلحة العراقية وأن يضم إليها ما يستطاع من الأسلحة السورية تمهيداً لنقل كل ذلك إلى الحدود الفلسطينية «ونحن نتولى الباقي».

ولم أكد أقفل شفتي على نهاية الحديث حتى تجهّم وجه الرئيس القوتلي وأخذ يتكلم بحدة وغضب والزبد بين ثنايا شفتيه: «أنتم تريدون أن تحرجوا سوريا. . إن السوري السعيد لا يريد أن يهدئ بالنا. . الهاشميون يضمرون الشر لسوريا. . لماذا لا يرسلون الأسلحة عن طريق شرقي الأردن، الأمير عبد الإله في بغداد يستطيع أن يرسل الأسحلة إلى الملك عبد الله في عمان، نحن أوضاعنا في سوريا قلقة. نحن. . نحن».

ووقف القوتلي كالجمل الهائج، وقامته الطويلة تهتز بالغضب. . ولم يكن لي عهد بالقوتلي أن يكون في هذه الحال، وكنت أحسب أني «خبيره» الأول في قضية فلسطين، كما كنت أكنّ له احتراماً وتقديراً كبيرين.

ولقد حرت في أمري. . . ولم أملك جواباً، فوقفت أمامه منكس الرأس كأنني جئت أمراً فرياً. . . وفي إلهام لا إرادي ولا شعوري، انثنيت على قدمي، وخرجت من غرفته وأنا أشبه شيء بجثة تسير على قدمين. . . إلى الفندق إلى حجرتي. . . وليت البكاء يسعفني.

وبينما كنت أتناول فطوري في صباح اليوم الثاني، أتجرعه زقّوماً وسموماً، وإذا بالقصر الجمهوري يستدعيني، فقمت متثاقلاً وأمري إلى الله.

دخلت على الرئيس القوتلي واجماً صامتاً، كما خرجت بالأمس، من غير سلام ولا كلام. . . فأخذ يباسطني ويجاملني وأنا صامت واجم. . . وإذا به يبتدرني قائلاً: «يا سيدي. . لقد استخرت الله. . . والأوامر صدرت كما تريد. . . دبروا أموركم على الحدود وإن الله سيعين سوريا».

قلت وقد تفتحت أسارير وجهي: «هذا هو العهد بك يا فخامة الرئيس».

وتقدمت إليه لأصافحه وأنا أكاد أقبل يديه.. وعدت إلى الفندق وكأن الأرض لا تقلّني ولا السماء تظلّني.. فالسلاح عند شعبنا هو الحياة... والحياة هي السلاح.

وخرجت بي السيارة من دمشق، إلى طبريا فالناصرة فجنين ونابلس والقدس في سفرة متواصلة، دون أن أعرج على بلدي وأهلي.. في عكا.

ولقيت السيدين موسى وجمال وأنا أقول لهما لا أحدثكما حتى أسمع منكما أولاً، فاطمأنا إلى أن مهمتي قد أفلحت في دمشق.

فقال جمال: «لقد عملت جميع الترتيبات لتوزيع الأسلحة».

وقال موسى: «لم أفلح في عمّان، بل نصحني الأصدقاء العارفون، أن لا أتحدث في هذا الأمر، فلا يستبعد أن يصادر الملك عبد الله الأسلحة في عمان».

ثم رويت لهم ما كان من الأمر مع الرئيس القوتلي، وبدت آفاق من العمل منفتحة أمامنا، ولم يبق علينا إلا أن نولي وجهنا شطر مصر لنستزيد العون والمدد، ووقعت عليّ «القرعة» للقيام بهذه المهمة، وأنا أتمتم في نفسي: موكل بقضاء الله يذرعه.

عمّـان.. والكارثـة

لم أكد أصل إلى مصر لأتصل بالجامعة العربية والمسؤولين المصريين لتوفير أسباب القوة والمنعة للشعب الفلسطيني حتى هبط إلى القاهرة الحاج أمين الحسيني في رحلة مثيرة من ألمانيا وسارع إلى «رحاب الفاروق»، وشغلت الأوساط العربية والصحافة أياماً في أنباء هذه السفرة وأسرارها. . والحاج أمين بارع في الأسفار الخفية، مارسها بنجاح وافر حتى أصبحت جزءاً من مؤهلاته القيادية.

وحلّ الحاج أمين ضيفاً مكرماً على الملك فاروق وأنزله في سراي المنتزه في الإسكندرية في حالة من الرعاية والتكريم، ثم أقام بعد ذلك في حلمية الزيتون بالقاهرة وفي جواره مكاتب الهيئة العربية العليا.

وتقاطرت الوفود العربية والفلسطينية للسلام على الحاج أمين وتحيته، فتهيأت فرص وافرة للحديث عن القضية الفلسطينية وما يتهددها من أخطار.

وقد زرت الحاج أمين في سراي المنتزه في الإسكندرية، وامتد حديثنا إلى الفجر، وقد شكر لي دفاعي عنه في أمريكا يوم طالبت الأوساط الصهيونية بتسليمه إلى الحلفاء ومحاكمته كمجرم حرب، ثم انتقلنا إلى بحث موضوع الساعة. . الموضوع الخطير. . تنظيم الشعب الفلسطيني وتدريبه وتسليحه. . وشرحت له ما تم معنا في الرياض وبغداد ودمشق. . . وأن فرص النضال متيسرة في الجو الحماسي الرائع الذي يسود البلاد العربية، على الصعيدين الرسمي والشعبي، وأن الكفاح القومي يتطلب في هذه المرحلة بالذات الوحدة الوطنية. . . وأنّ علينا أن نعتبر بما مضى من الخلافات الحزبية. . وأكدت له في النهاية أن الشعب مجمع على زعامته وكل ما يتطلبه الموقف هو تعبئة الطاقات والكفاءات الفلسطينية دونما نظر إلى الخلافات الماضية.

وأسهب الحاج أمين في حديثه عن الخطر الذي يواجه الأمة، وأنه يعود إلى الوطن بقلب صاف ويد ممدودة إلى الجميع. . .، ثم تطرق الحاج أمين إلى أن العراق

يريد أن ينتزع القيادة من بين يديه وأنه تحقيقاً لذلك قد أخذ في مساندة موسى العلمي بالأموال اللازمة لإنشاء المكاتب العربية والمشروع الإنشائي.

فقلت للحاج أمين: «إن موسى العلمي هو من أصفى أصدقائك وقد كان ساعدك الأيمن في البلاد، بل كان عينك وأذنك لدى الحكومة الفلسطينية يوم كان من كبار موظفيها»، ثم أكدت للحاج أمين أن موسى العلمي لا يطمع في الزعامة. . وأنّ المصلحة تقضي بالتعاون معه. . . والانتفاع بالعراق عن طريقه. . . وبغير العراق عن طريق غيره. وانتهى الاجتماع بيني وبين الحاج أمين إلى موعد آخر، لنلتقي ثلاثتنا الحاج أمين وموسى العلمي وأنا لتوحيد الجهود الوطنية ومواجهة الخطر الصهيوني جبهة واحدة.

وتم اللقاء، في شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٤٦، في القاهرة، في منزل الحاج أمين الحسيني في حلمية الزيتون وكان العناق بين الرجلين، الحاج أمين وموسى، حاراً عطوفاً، وقلتها مازحاً للاثنين: «الحمد لله لقد تم كل شيء ولم يبق لي مكان بينكما. .»

ولكن. . . ما تم شيء في تلك الجلسة ولا الجلسات اللاحقة التي اتصل فيها الليل والنهار، وعجزت عن التوفيق. . كما عجز كل الفلسطينيين العاملين الذي كانوا في القاهرة في تلك الفترة: عزة دروزة، أكرم زعيتر، واصف كمال، موسى الصوراني، كامل الدجاني وغيرهم.

وقد كان الحاج أمين يدور حول نقطة واحدة وهي أموال العراق. . . إنه يريد من موسى العلمي أن يسلمها إليه. . وكان موسى العلمي يبدي مئة سبب وسبب دون ذلك، منها أن العراق، بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني التي ساهم فيها الحاج أمين، لا يطمئن إلى الحاج أمين ولا يدفع إليه شيئاً.

وحاولنا جميعاً، أنا والإخوان الفلسطينيون، أن نصل إلى حل وسط، تظل المكاتب العربية والمشروع الإنشائي بموجبها على صلة بالعراق تحت إشراف السيد العلمي. . . مع الاتصال الأخوي الوثيق بالهيئة العربية العليا، ومع الحاج أمين بالذات.

ولكن الحاج أمين بقي على موقفه بأعصاب باردة ساكنة، وبقي موسى على موقفه بأعصاب ثائرة هائجة. . . وقضينا أسبوعاً في حوار متواصل على غير جدوى، وطار موسى إلى القدس. . . وطارت بعدها المكاتب العربية وتضاءل المشروع الإنشائي حتى أصبح مدرسة لأبناء الشهداء. . . وعدت إلى الفندق حزيناً منكسراً، وأنا معتزم في ذات نفسي أن لا أعود إلى النشاط العام حتى تبدو في الأفق بوادر الجدية، على

الصعيد العربي، ومعالم الوحدة الوطنية على الصعيد الفلسطيني . . وبقيت في القاهرة بضعة أسابيع إلى أن اجتمع مجلس جامعة الدول العربية (تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٤٦) وكنت على اتصال دائم بالوفود العربية وخاصة بالوفد السوري الذي برئاسة السيد جميل مردم.

وقد زرت السيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية زيارة طويلة امتدت من العشية حتى الهزيع الرابع من الليل، والسيد عزام سهار الليل نائم النهار، يتصيد أصحابه ليلاً ليسهروا معه، فسألني السيد عزام: «ماذا عندكم من الأخبار يا أهل فلسطين؟»

قلت: «أخبار السوء . . هي كل ما عندنا».

قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه».

قلت: «لا . . . الكلام الصحيح . . اعملوا للخير تجدوه».

قال: «وما هي أخباركم؟»

قلت: «الهجرة اليهودية باسطة ذراعيها على شاطئ فلسطين تقذفنا بالألوف من شباب اليهود القادرين على حمل السلاح . . . والعصابات الصهيونية تزداد كل يوم: عدداً وعُدداً، وتدريباً وتنظيماً، بالأمس أرسل اليهود مئتي سيارة تحمل الخيام والمعدات والأسلاك والعمال إلى صحراء النقب ليشرعوا في بناء عشر مستعمرات يهودية، هي في الواقع عشر قلاع حصينة لتكون قواعد أمامية لليهود في وجه مصر، هذا بعض ما يفعله اليهود . . فماذا فعلتم أنتم في الجامعة؟»

قال: «سنقرر إرسال مذكرة احتجاج إلى بريطانيا ومثلها إلى أمريكا وسنعلن رفضنا لاي مشروع للتقسيم، وسنطالب الحكومات العربية بمعاونة شعب فلسطين».

قلت: «أرجو أن يصل الترياق من العراق قبل أن تكون أرواحنا قد بلغت التراق!»

وانتهى الحديث بيننا تلك الليلة على غير نتيجة ملموسة يمكن أن أضع يدي عليها، بل إنني أحسست أني كالقابض على الريح.

وذهبت في ظهيرة اليوم التالي إلى السفارة السورية واجتمعت بالسيد جميل مردم رئيس الوفد السوري فرأيته حانقاً غاضباً على غير عادته . . . وكان في السفارة عدد من الزعماء العرب، والحديث دائر حول موضوع سوريا الكبرى الذي أثاره الملك عبد الله في خطاب العرش الذي ألقاه في مجلس الأمة، وقد طلب إليّ السيد جميل أن

أتصل بالوفد الأردني وبالوفد العراقي لما لي من الصداقة مع بعض أعضاء الوفدين. وقد سارعت إلى فندق شبرد «القديم» حيث يقيم الوفدان وناشدتهما عدم إثارة الموضوع في الظروف الحاضرة فلا خير في سوريا الكبرى إذا افلحت الصهيونية في توطيد أقدامها في فلسطين. وقد اتفقت الكلمة أن لا يثار هذا الموضوع في مناقشة الجامعة، وأن يعتبر كأن شيئاً ما كان.

وهذا ما تم فعلاً فقد أبلغت السيد جميل مردم بالأمر واستأنف مجلس الجامعة اجتماعاته في جو هادئ. . . ولكن هذه الهدنة لم تدم طويلاً فقد أثار الملك عبد الله هذا الموضوع مرة ثانية في سنة . . .١٩٤٧ تماماً حين كانت القضية الفلسطينية تنظر في أروقه الأمم المتحدة.

ولم أستطع البقاء طويلاً في القاهرة فقد كتب إليّ إخواني بالعودة إلى الوطن يلحّون، فإن العمل في الداخل أجدى، وإنّ الفراغ الوطني قد استفحل أمره في صفوف الشعب، وخاصة بعد أن اتخذت الهيئة العربية العليا مقرها في القاهرة، وضج الناس بالشكوى وهم ينادون بأن تكون قيادة الشعب من الداخل لا من حلمية الزيتون في القاهرة حيث يقيم الحاج أمين. . . وعدت إلى البلاد، تاركاً ورائي القيادة الوطنية خارج البلاد.

و أخذت الطلائع المثقفة في البلاد تقوم بالتنظيم الشعبي قدر وسائلها وظروفها فتألفت اللجان الشعبية ومنظمات الشباب وتم توزيع السلاح الذي جئنا به من العراق وقد ظهر أن بعضه كان مطموراً في قبو غمره فيضان بغداد وأصبح غير صالح للقتال ولكن ما أعظم الفوارق بيننا وبين اليهود. . . تنظيماً وتسليحاً. . ما أعظم الفوارق بين الصهيونية العالمية والجامعة العربية. . تخطيطاً وتصميماً ذلك موضوع كامل لكتاب قائم بذاته.

وفي أوائل شهر آذار/ مارس سنة ١٩٤٧ م اتصلت بي القنصلية السورية بالقدس، هاتفتني لتبلغني رسالة بأن أسافر إلى القاهرة لأكون مستشاراً للوفد السوري في مجلس الجامعة في دورته المقبلة وأن أكون «تحت الطلب» لحضور سائر الاجتماعات العربية التي تبحث فيها القضية الفلسطينية، وسألت الدكتور عمر الجابري القنصل السوري إلى متى تستمر هذه المهمة؟ فقال إلى أن يتم استقلال فلسطين.

وكنت «تحت الطلب» قرابة عشر سنين أعمل مع الحكومة السورية، مما سيأتي تفصيله في هذه المذكرات، غير أن شعار استقلال فلسطين سقط عام ١٩٤٨ وحل محله شعار تحرير فلسطين. . وها نحن الآن في عام ١٩٦٩ نعيش تحت شعار جديد:

تحرير الأرض العربية . . ولسنا ندري ما تخبئه لنا الأقدار المقبلة من شعارات جديدة!

وتلبد الأفق في الجو السياسي وتواترت الأنباء أن بريطانيا عازمة على عرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة وأن لجنة تحقيق دولية ستنبثق عن الأمم المتحدة لحل القضية الفلسطينية، وفي هذا الجو انعقد مجلس الجامعة في شهر آذار/ مارس سنة ١٩٤٧ وباشرت مهمتي الجديدة مستشاراً للوفد السوري، وسافرت إلى القاهرة لأكون على مقربة من الاجتماعات «تحت الطلب» في كل طلب.

وغرق مجلس الجامعة في مجالات فقهية حول نصوص الميثاق وحق تقرير المصير . . وتكلم في هذه المواضيع القانونية من يعلم ومن لا يعلم، وكان الجدل قائماً . . ما إذا كان عرض القضية يجب أن يأتي من الجانب العربي، أو أن يترك الأمر لبريطانيا. ولم أنج من هذا الجدل فقد أعددت للوفد السوري عدة مذكرات بشأن هذه المواضيع شرحت فيها أحكام الميثاق شرحاً وافياً، وأنا أحسب أن قرارات مجلس الجامعة «ستحدد» في ضوء الاعتبارات القانونية.

ولكن الجامعة كانت في وادٍ آخر . . . كانت سياسة «المحاور» تمزقها من الداخل، والتصريحات العربية تنطلق سحاباً من الدخان، لتغطي الحقيقة عن عيون الجماهير العربية.

وكان أسوأ ما وقع في تلك الجلسات التحفظ الذي أدلى به الوفد الأردني من «أن الحكومة الأردنية تحتفظ بحرية العمل المستقل في سياستها نحو فلسطين». ولم يكن الأمر في حاجة إلى عبقرية فذة للكشف عن خبايا هذا التحفظ، بل إنه ليس فيه خفايا فهو يفضح نفسه بنفسه . . فلقد كشفت «عمان» في هذا التحفظ عن خطة «انفرادية» لحل القضية الفلسطينية . . . على أساس التقسيم أو ما يشبه التقسيم.

وكنا في ردهات المجلس نناقش هذا التحفظ فقلت للدكتور فوزي الملقي (وفد الاردن): «هذا التحفظ هو طعنة في صميم القضية الفلسطينية».

قال: «نحن نريد أن نحافظ على عروبة فلسطين وأن نصون حق شعب فلسطين».

قلت: «لو أنكم قادرون على العمل وحدكم، لبايعكم الشعب الفلسطيني في هذه الساعة».

قال: «نحن نريد أن نحافظ على عروبة فلسطين وإنقاذها من الصهيونية!».

قلت: «نحن نرحب بذلك . . . ولكنا نرفض أن تنفردوا عن المجموعة العربية».

قال: «القضية الفلسطينية تهمنا أكثر من غيرنا، فلسطين بلدنا».

قلت: «ولكنكم لا تملكون «الحرية» حتى تحتفظوا «بحرية» العمل الفلسطيني».

قال: «وكيف ذلك؟»

قلت: «أنتم مرتبطون بالمعاهدة البريطانية، ونصف ميزانيتكم من الخزينة البريطانية، وجيشكم تحت القيادة البريطانية مباشرة، «وغلوب» هو حاكم البلد الحقيقي».

وهنا هاج فوزي الملقي وماج، وصاح وهو يقول: «أنت تهين سيدنا، وتهين بلدنا واستقلالنا و. . . و. . »

«وحجز» الوفد اللبناني بيننا وحسم الجدال، وعادت الجلسة إلى الانعقاد بعد أن أصرّ الوفد الأردني على تحفّظه. . . وصدرت القرارات التقليدية، بالاحتجاج والاستنكار، ومعارضة التقسيم، والتصدي للصهيونية ومساعدة عرب فلسطين.

وجاءت الأيام لتعرّي التحفظ الأردني لحماً ودماً وعظماً. . فحلّت النكبة عام ١٩٤٨، وضمّت الأشلاء التي بقيت من فلسطين إلى شرقي الأردن وأصبحت المملكة الأردنية الهاشمية، وهكذا ترجم «التحفظ» الأردني ترجمة صادقة، ولكن. . على حساب شعب. . وعلى حساب وطن.

وهكذا وضعت عمّان الحجر الأساسي في الكارثة الأولى. . . كارثة عام ١٩٤٨.

رقصت نيويورك ورقصت معها تل أبيب

في ٢٨ نيسان/ أبريل سنة ١٩٤٧ انعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورة غير عادية للنظر في القضية الفلسطينية بناء على الطلب المقدم من بريطانيا بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين. . وبعد المناقشات والمداولات المعتادة أصدرت الأمم المتحدة قرارها بإنشاء لجنة تحقيق دولية من أحد عشر عضواً لدراسة القضية وتقديم التوصيات التي تراها.

وقد وصلت اللجنة إلى فلسطين في ١٧ حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٧، فأعلنت البلاد إضرابا عاماً إعراباً عن تمسكها باستقلال فلسطين واستنكاراً للأسلوب التقليدي الذي امتد ثلاثين عاماً في سياسة لجان التحقيق. . واستمعت اللجنة إلى الهيئات اليهودية المختلفة وتجولت في أرجاء البلاد.

وفي ٢٢ تموز/ يوليو سنة ١٩٤٧ سافرت لجنة التحقيق إلى صوفر حيث اجتمعت بممثلي الحكومات العربية واستمعت إلى بيان تفصيلي عن القضية الفلسطينية ألقاه وزير خارجية لبنان باسم الوفود العربية، ثم غادرت اللجنة البلاد العربية، إلى جنيف لتضع التقرير. . . تقرير المصير.

ولقد سألت نفسي في تلك الفترة، مئة مرة ومرة، كما فعل غيري من ملايين العرب، ماذا قدمنا بين يدي لجنة التحقيق لنؤكد حقنا في الوطن وحقنا في الاستقلال؟ ثم ماذا قدم اليهود توكيداً لمطالبهم وأطماعهم؟

لقد قدمنا إضراباً إجماعياً في فلسطين، وقدمنا مذكرات رائعة في البلاد العربية فيها كل الأسانيد التاريخية والقانونية. . . . وقد خرجت اللجنة باقتناع تام أن الشعب الفلسطيني لم يكن منظماً ولا مدرباً ولا مسلحاً. . وأنّ الدول العربية ليست جادة في معاداة أي اتجاه دولي لتقسيم فلسطين، وأنّ التصريحات العربية هي بضاعة تستهلك في الأسواق العربية.

وعلى النقيض من ذلك كان لليهود في فلسطين جيش الهاغاناه وثلاث عصابات أخرى قوية التسليح والتنظيم والتدريب، وقد كشرت هذه القوات العسكرية عن أنيابها وأبرزت عضلاتها حين كانت لجنة التحقيق تؤدي عملها في فلسطين. . ومنذ أن انعقدت الأمم المتحدة في ربيع سنة ١٩٤٧ اشتد النشاط الثوري اليهودي في فلسطين وبلغ ذروته حين وصلت لجنة التحقيق إلى فلسطين، ولم تكن تستطيع التجول إلا تحت حراسة شديدة.

وكنت أتابع قراءاتي لجريدة **البالستين بوست** اليهودية وفيها الأخبار المثيرة عن الإرهاب اليهودي، فها هم ينسفون نادي الضباط البريطاني المؤلف من عدة طوابق في مدينة القدس، وها هم يهاجمون قطاراً عسكرياً يحمل الكتائب البريطانية التي تغادر البلاد بما فيه من أسلحة ومؤن وعتاد. . . وها هم يتصدون للقوافل العسكرية البريطانية فيوقعون فيها عشرات القتلى ومئات الجرحى.

ذلك كله قرأته. . . ولكني في بلدي رأيته، فقد هاجموا سجن عكا وهو قلعة حصينة وأطلقوا سراح الإرهابيين اليهود، ومعهم المجرمون العرب!

ونحن. . . أمّا نحن عرب فلسطين فقد كنا نتحرّق ألماً ومرارة ولا نملك غير الإضراب، وقيادة الشعب في منزل الحاج أمين الحسيني في القاهرة، والحكومات العربية من حولنا يتربص بعضها ببعض، البيت العلوي والبيت السعودي والبيت الهاشمي.

فإذا أضفنا إلى كل ذلك قوى الاستعمار العالمي والصهيونية العالمية كان من الطبيعي أن تأتي توصيات لجنة التحقيق في غير صالح العرب، وهذا ما وقع فعلاً، فقد أوصت بالتقسيم. . . وبإنشاء دولة يهودية على شاطئنا الحبيب وسهلنا الخصيب.

ولم يكد يُنشر تقرير لجنة التحقيق حتى تفجرت «براكين» الاحتجاجات والاستنكار من الأمة العربية بأسرها، وكانت صادقة في غضبتها أمينة في مشاعرها القومية، وتود لو تفتدي فلسطين بالمهج والأرواح، ذرة ذرة، لو كان على رأسها حكومات مجاهدة تضع قضية فلسطين فوق كل اعتبار. . فوق الخلافات والمهاترات.

واجتمعت الجامعة العربية في صوفر (منتصف شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٤٧) ثم في عاليه من ٧ تشرين الأول/ أكتوبر إلى ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٤٧- وقد كنت «مستشاراً» للوفد السوري في هذه الاجتماعات، وكنت أحسّ النسمات الباردة في صوفر وعاليه «تلطف» ريح السموم التي تلف الوطن العربي في تلك الأيام الحالكة.

ولست أفصل المناقشات والمباحثات فإن كل عربي، وكل أجنبي كذلك، يعرف

جوهرها ومظهرها: احتجاج، مذكرات، مقابلة السفارات الاجنبية، وسيل من التصريحات... وقيء من البيانات. أما القرارات «العملية» التي أقرتها الجامعة العربية فتتلخص في ما يلي:

أولاً: المبادرة إلى تنفيذ مقررات بلودان السرية في حالة تطبيق أي حل من شأنه أن يمس بحق فلسطين في أن تكون دولة عربية مستقلة.

ثانياً: تقديم أقصى معونة عاجلة من مال وسلاح لشعب فلسطين.

ثالثاً: تأليف لجنة عسكرية لتهيئة وتنظيم وسائل الدفاع وتجهيز وتدريب الفلسطينيين.

وخلال هذه الاجتماعات في لبنان كنت أرى شباب فلسطين من المدن والقرى يتجولون في لبنان يبحثون عن السلاح بأي ثمن... من أموالهم، بعضهم باع أرضه وبعضهم باع مواشيه وبعضهم ألحق بناته خادمات في المدن.. ليشتري سلاحاً يدافع به عن أرضه ويذود عنها شرور التقسيم.. وكارثة الدولة اليهودية.

وذهبت إلى دمشق بعد الاجتماعات فوجدت أبناء فلسطين يطوفون في أنحاء سوريا «يصطادون» السلاح، جديداً وقديماً، صالحاً أو رديئاً.. مهما كان، إنهم يريدون أن يعودوا إلى الوطن والسلاح على أكتافهم ليخوضوا غمار الجهاد.

ووجدت كذلك الحاج أمين في دمشق... في غضب هادئ وحنق مكبوت... ولقد أسرّ إليّ أنه غير راض عن اللجنة العسكرية واختصاصها.. وكان ينبغي، في رأيه، أن يوكل الأمر إليه.. المال والسلاح والقتال... فقلت له: «إن وجهة نظركم سليمة... لو أننا أحسنّا في الماضي قيادة الثورة... وتجنبنا الأخطاء الكبرى التي غرقنا فيها إلى الأذقان».

قال: «هل من سبيل أن نقابل الرئيس القوتلي معاً ونشرح له الموقف؟».

قلت: «إن سماحتك على علم بأنّ وفوداً عديدة من الفلسطينيين قد قابلوا الرئيس القوتلي وطلبوا إليه أن تكون الأمور العسكرية بعيدة عن الهيئة العربية العليا، وقد جاءت وفود أخرى من الفلسطينيين إلى صوفر وعاليه وناشدوا الوفود العربية أن تكون الشؤون العسكرية بيد الجامعة العربية، لا بيد سماحتكم».

قال: «وماذا تقترح؟»

قلت: «اقتراحي أن تتعاون مع اللجنة العسكرية وفيها عسكريون مخلصون ممتازون: طه الهاشمي وإسماعيل صفوت عن العراق، ومحمود الهندي عن سورية

وشوكت شقير عن لبنان، ثم إن فيها صبحي الخضراء عن فلسطين وهو من إخوانك وأصدقائك».

قال: «أهذا هو رأيك؟»

قلت: «نعم. . . ونحن الآن أمام أحداث خطيرة فلا داعي للخلاف والشقاق».

فصمت الحاج أمين، وقد حسبت أنه رضي بهذا الاقتراح، وانصرفت إلى الفندق، وأنا أدعو الله أن تنتهي هذه «التجربة» العربية إلى خير.

وبقيت خلال تلك الفترة في دمشق، أتابع الأحداث العربية والدولية، في مكتب أُعدّ لي في وزارة الخارجية.

وانعقدت الأمم المتحدة في دورتها العادية وكانت قضية فلسطين أهم موضوعاتها وبدأت تقارير الوفد السوري ترد إلينا تباعاً، وأتولى بدوري تلخيصها والتعليق عليها وإبلاغها إلى الرئيس القوتلي ورئيس وزرائه السيد جميل مردم.

ونشطت الوفود العربية على الصعيدين السياسي والإعلامي، وشرحوا قضية فلسطين بما لا يدع مجالاً لقائل، ووقف إلى جانبهم السّير ظفرالله خان مندوب باكستان وقفة رائعة استنفد فيها كل جوانب الحجة والمنطق والبلاغة.

ولكن الأمر لم يكن منوطاً بالحق والعدل. . . فقد ألقت الولايات المتحدة بكل ثقلها وحملت عدداً من الأعضاء على التصويت لجانب التقسيم وإقامة دولة يهودية، ونقلت المترددين وبعض أنصار العرب إلى معسكر التقسيم، وبوسائل وضغوط فصّلتها مراجع متعددة عربية وأجنبية.

ولاحظت من سياق التقارير التي كانت ترد إلينا في دمشق أن الوفود العربية كانت دائمة الاتصال بالوفد البريطاني وكأنها على رجاء أخير بأن تقف بريطانيا إلى جانب العرب، ولو مرة واحدة لتكفّر عن سياستها التي سلفت في الثلاثين عاماً الماضية.

واقترحت على الرئيسين القوتلي ومردم أن يبعثا ببرقية منهما مباشرة إلى الوفد السوري بأن تتصل الوفود العربية بالوفد السوفياتي للحصول على تأييده، أو حياده على الأقل. . وقد أرسلا البرقية فوراً.

وقد جاءت التقارير في ما بعد لتظهر أن معظم الوفود العربية قد عارضوا هذا الاتجاه. . خشية أن يخسروا نهائياً عطف الديمقراطية الغربية. . . وأن الاتصال بالاتحاد السوفياتي لا يخلو من خطر على النظم الاجتماعية في الدول العربية وأنّ. . . وأنّ. .

ولكن اليهود كانوا أكثر ذكاء وأكثر فهماً للأوضاع الدولية فقد كانوا على اتصال وثيق بالاتحاد السوفياتي، وقد كانوا يغادرون مكتب الوفد الأمريكي إلى العمارة المقابلة حيث مكتب الوفد السوفياتي، من دون أن يخشوا شيئاً على النظام اليهودي الاجتماعي.

وبعد مناورات وتأجيلات تولى قيادتها الوفد الأمريكي طرحت القضية على التصويت في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٧ فصدر القرار المشؤوم رقم (١٨١) بتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية.

وقد صوّت الوفد السوفياتي مع القرار، جنباً إلى جنب مع الوفد الأمريكي، وقد دافع «غروميكو» الوزير الروسي عن التقسيم بحماسة بالغة، ولعلها كانت القضية الأولى والأخيرة التي التقت عندها سياسة الروس مع سياسة أمريكا، ولكن كل إلى هدفه، وكل من زاويته. وأثبتت الأحداث في ما بعد، أن الأمريكان كانوا أغبياء، وأن الروس كانوا أذكياء فقد تحقق لهم في الكارثة الفلسطينية كل ما يريدون في الشرق الأوسط، بل فوق ما يريدون.

وانبرى رؤساء الوفود العربية يتعاقبون على المنبر يلقون كلماتهم الأخيرة يعارضون في تنفيذ القرار ويهددون ويتوعدون، بالإضراب، وبالحصار، وبالمقاطعة. . وبالسلاح إذا اقتضى الامر.

ورقصت نيويورك في الشوارع والساحات ليلاً ونهاراً ابتهاجاً بهذا القرار، ورقصت معها تل أبيب.

وعاد الوفد اليهودي ليبني الدولة اليهودية بقوة السلاح.

وانتقلت المعركة من الأمم المتحدة إلى الوطن.

وتطلع العالم كله إلى فلسطين، كما تطلّع في الحروب الصليبية قبل ثمانية قرون ليرى ما سيكتب التاريخ.

ويا ويح ما كتب!. ويا بئس ما كتب!

لـن يهربـوا مـن التاريـخ ولا مـن الشعـب

صدر قرار التقسيم في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٤٧ فكان يوم حزن عام وحداد شامل في جميع أرجاء الوطن. وتجسّدت مخاوف ثلاثين عاماً سلفت كنا نعلنها عند كل مناسبة وفي كل فرصة، وظنها الناس حتى العديد من إخواننا العرب المسؤولين من حولنا أنها أضعاث أحلام، أو نزعات تشاؤم فطرت عليها نفس الشعب الفلسطيني، وها قد أصبحت في هذا اليوم مخاوفنا الماضية خطراً ماثلاً أمام وجوهنا يهددنا بالاقتلاع من وطننا، من مدننا وقرانا.

ومثل هذه المشاعر عمّت الوطن العربي الكبير من مشرقه إلى مغربه، وتعالت صيحات الغضب على الحكومات العربية، تطالبها بتنفيذ مقررات بلودان السرية، فها إن الوقت حان. . وآن الأوان.

ومقررات بلودان لا تتحمل التأويل والتفسير، إنها تدعو إلى شن حرب سياسية واقتصادية وبترولية على كل من أمريكا وبريطانيا باعتبارهما مسؤولتين عن كارثة التقسيم.

وتطلعت وزارة الدفاع الأمريكية ومعها وزارة الخارجية إلى الدول العربية، ما عساها فاعلة لا قائلة. . فقد سبق أن أنذر وزير الدفاع الأمريكي من مغبّة التقسيم وحذر الرئيس ترومان من التمادي في مسايرة الصهيونية. . كما كانت وزارة الخارجية الأمريكية قد خشيت خطر السياسة «الترومانية» على المصالح الأمريكية في الوطن العربي.

ولم تفعل الحكومات العربية شيئاً مما قالت. . واستمرت العلاقات العربية الغربية على حالها كأن شيئاً ما كان. . وصدقت توكيدات اليهود أن العرب لن يفعلوا شيئاً وأنها جعجعة من غير طِحن. . ، بل إن تعاقدات بترولية جديدة قد عقدت بعد قرار التقسيم مع الشركات الأمريكية.

وقد صاحت الأمة العربية ورفعت عقيرتها إلى الملوك والرؤساء تطالب بخوض المعركة، والحيلولة دون قيام الدولة اليهودية بقوة السلاح . . . وتعاقبت التصريحات العربية الرسمية: سنحارب، سنحارب.

وشق النضال الشعبي طريقه، فافتُتحت مكاتب التطوع، وجُمعت الأموال والأسلحة، وعُقدت الاجتماعات القومية في كل عاصمة وفي كل مدينة وفي كل قرية.

وفي فلسطين ازداد النشاط القومي في ميدان التسليح والتدريب، وساد جو الحرب، لا مناص منها ولا مهرب، فقد أعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من البلاد في أيار/مايو سنة ١٩٤٨. ولم يعد للشعب إلا أن يدافع عن وجوده. . وفي ضواحي دمشق أقيمت المعسكرات لتدريب الفلسطينيين وشباب العرب لإعداد «جيش الإنقاذ» وإرساله إلى ميدان المعركة قبل فوات الوقت.

ومن خارج فلسطين نشط الحاج أمين في إعداد قوات المجاهدين في سائر مناطق فلسطين لتبدأ المعركة مع اليهود مهما كلف الثمن.

وحول فلسطين حشدت القوات العربية لتكون على أهبة الاستعداد. . . الاستعداد لهدف غير واضح، غير محدد. . فلا هو هجوم ولا هو دفاع. . ولكنه استنفار، وسنرى بعد ذلك ما يكون.

إلا أن جيشاً واحداً كان الأمر واضحاً عند قيادته. ذلك هو الجيش الأردني فقد كانت بعض كتائبه في داخل فلسطين قبل انتهاء الانتداب وقبل انسحاب بريطانيا.

ولقد بدأ الملك عبد الله في تنفيذ «تحفظه» الذي أعلنه في الجامعة العربية من أن الأردن سيعمل منفرداً، وأنّه يبيت «الحل الأردني» لقضية فلسطين.

وهكذا انطلقت من عمان «بطاريات» التصريحات العسكرية، فأعلن الملك عبد الله أنه سيحارب من أجل الحفاظ على عروبة فلسطين ولو أدّى ذلك إلى أن يكون وحده في الميدان.

وبدا واضحاً أن حرباً يخوضها الجيش الأردني بقيادة «الجنرال جلوب» ستقف عند حدود التقسيم لا محالة. وأن الأمر لا يعدو أن تُضم أراضي «الدولة العربية الفلسطينية» إلى شرق الأردن لتولد «المملكة الأردنية الهاشمية».

وفي محادثاتي مع المسؤولين العرب في ذلك الحين، في دمشق والقاهرة وبيروت والرياض، كان جلياً أن الدول العربية لم تكن راضية عن هذا «الحل الأردني» الذي

يعتزم الجيش الأردني تحقيقه، ولكن تصريحات الحرب التي أطلقها الملك عبد الله قد وضعت الدول العربية أمام التحدي الكبير.. حرب.. أو لا حرب..، وقد كشفت الأيام أنّ «الحل الأردني» لم يكن وهماً ولا خيالاً، فقدأصبح حقيقة واقعة. كما كشفت الأيام صوراً زنكوغرافية لمراسلات الملك عبد الله مع زعماء اليهود واجتماعاته بهم في «الشونة» على ضفاف الأردن.

وتوالت الاجتماعات العربية الرسمية للخروج من «الورطة» التي دفعهم إليها قرار الأمم المتحدة، ولمواجهة التحديات الصارخة التي ألقاها الملك عبد الله «بقفازه» في وجوه الملوك والرؤساء.. وخاصة بعد أن قام الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله بزيارة عمان وهو يرتدي ملابسه العسكرية وانعقدت الجامعة في هذا الجو الصاخب، الرهيب الغامض، وأنا ألهث وراء الوفد السوري أُرافقه حيث يذهب، ومعي حقيبتي متورمة بالملفات والمذكرات والدراسات.

وبدأت الاجتماعات خارج الاجتماعات، كما هي العادة في الجامعة العربية. واتضحت معالم الصورة: الأردن والعراق متحفزان للحرب ولا شيء غير الحرب.. والأهداف مكتومة معلومة، وسوريا مستعدة أن تضع كل إمكاناتها لإنقاذ فلسطين وما أقل هذه الإمكانات..، ولبنان يسير مع القافلة حيث تسير ورياض الصلح يقول لا تنتظروا منا الكثير، والسعودية تفعل كما تفعل مصر.. ولا بد من الإجماع العربي، ومصر، ويقولها النقراشي صراحة: «لا نستطيع أن نحارب ومشاكلنا مع بريطانيا كثيرة، وها هم الإخوان المسلمون حاضرون والمتطوعون المصريون يتدربون»... واليمن، لم يسألها أحد ما تستطيع أن تقدم.. وما لا تستطيع.. فالمتطوعون اليمنيون فيهم الكفاية.

وكان السؤال الكبير الذي يدور في أروقه الجامعة العربية هو: «ماذا سيحل بعرب فلسطين غداة انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين؟» وسألني الأمين العام السيد عبد الرحمن عزام: «وماذا سيحدث في البلاد بعد الانسحاب؟»

قلت: «الوكالة اليهودية كاملة الدوائر، وهي في الواقع أصبحت حكومة داخل الحكومة، حتى يوم كانت سلطة الانتداب في ذروتها».

قال: «وماذا عند العرب؟»

قلت: «عندنا مجالس بلدية في المدن، ومحلية في القرى، وما أظن هذه قادرة أن تضطلع بأية مسؤولية عامة... وليس لدينا جهاز مركزي عام في الداخل يقابل الوكالة اليهودية ولو بصورة محدودة».

قال: «وماذا تقترح؟ وما العمل؟»

قلت: «يجب أن ننشئ حكومة عربية، أو إدارة عربية على الأقل لتملأ الفراغ وتكون قاعدة للنضال».

قال: «وهل هذا ممكن؟»

قلت: «إنه ممكن ولكن بشرط واحد».

قال: «وما هو؟ أرجو أن لا يكون شرطاً ثقيلاً».

قلت: «على الجامعة العربية أن تدعم الإدارة العربية وأن تمدها بالمال والسلاح».

ولقد وجد هذا الاقتراح طريقه إلى التنفيذ، فقامت الإدارة العربية، مؤلفة من بعض الفلسطينيين، ولكنها اتخذت مقرها القاهرة وكان دعم الجامعة، كالعادة، في حدود النزر اليسير، فلم تستطع الإدارة العربية أن تملأ الفراغ، وكانت أداة للجدال لا النضال.

وفي دمشق نشب صراع عنيف بين الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا وطه باشا الهاشمي رئيس اللجنة التابعة للجامعة العربية، وكانت لهما قوات من المجاهدين تعمل في فلسطين. وامتد هذا الخلاف إلى داخل البلاد على صعيد القيادات المحلية، وكان من رحمة الله أن هذا الخلاف لم يتطور إلى صدام مسلح... وقد اقتصر على تنازع الاختصاصات، والاختلاف على المقاطعات، أيها خاضع للحاج أمين، وأيها تابع لطه الهاشمي!

وقد نشطت أعمال المجاهدين في المدن والقرى، وكانت الروح المعنوية في مستوى رفيع إلى أن وقعت مذبحة دير ياسين، فسارع عضو الهيئة العربية العليا الدكتور حسين الخالدي إلى التشهير بالمذبحة في مؤتمراته الصحافية وبالبرقيات التي وجهها إلى الحكومات العربية، ولكن هذا التشهير أدّى إلى إفشاء الرعب والفزع في المناطق العربية العزلاء، وكانت العصابات اليهودية ماضية في سياسة البطش، فأخذت قوافل اللاجئين تتدفق إلى البلاد العربية المجاورة. بهذا بدأت طلائع «الخروج» من الوطن، لتتكون في ما بعد المشكلة الكبرى التي عرفت بمشكلة اللاجئين.

والواقع أن مذبحة دير ياسين قد وقعت في غمار معارك دامية بين قوات المجاهدين والعصابات اليهودية، كان النصر فيها للمجاهدين في معظم الأحوال...

وكان السيد عبد القادر الحسيني بطل الجهاد في القدس وما حولها. . . وقد لقيته في دمشق في ربيع سنة ١٩٤٨ قبل أن يسافر إلى القدس سفرته الأخيرة. . . وقد كان ينفث حمماً من الغضب على الحاج أمين وطه الهاشمي معاً، فقد قدّم مطالبه العسكرية والمالية إلى الاثنين، وكان كل واحد يحيله إلى الآخر. . ولم يكن الجهاد ينتظر هذه المماطلات. . . وأخيراً تفضل عليه الحاج أمين بالمال والسلاح ولكن في نطاق محدود، ليجعله تحت إمرته في رباط مقدس. . . فقد أصبحت للبطل عبد القادر مكانة مرموقة في البلاد وأصبح لا بد من «احتوائه».

وودعت البطل عبدا لقادر عند باب الفندق وأنا أدعو له بالتوفيق «سالماً غانماً» فقال لي: «والله يا أخ أحمد، لا سلامة ولا غنيمة ما دامت الأمور بين طه الهاشمي من جهة، وعمّي الحاج أمين من جهة أخرى».

وما هي إلا أيام حتى وقعت المعركة الكبرى في «القسطل» وسقط البطل عبد القادر شهيداً، بعد أن نفدت ذخيرته، ونزل في سجل الخالدين، تاركاً وراءه أطفالاً شبوا مع الأيام على طريق البذل والفداء وأصبح احدهم «فيصل» في مكتبي عام ١٩٦٥ في منظمة التحرير الفلسطينية، حتى إذا حلت نكبة حزيران التحق بالثورة، في ميدان أبيه في القدس، وقبضت عليه إسرائيل، ليكون ذلك الشبل لذلك الأسد.

ومرت الأيام سراعاً. . . وأقبل شهر أيار/مايو. . . وبدأت بريطانيا تنسحب من فلسطين منطقة منطقة، وتسلم للوكالة اليهودية المناطق المخصصة للدولة اليهودية واحدة واحدة. . . . والأقسام العربية في مكانها تنتظر رحمة الأقدار. . . ومن لا يَرحم نفسه لا يُرحم. .

وأخذ اليوم الخامس عشر من شهر أيار/مايو سنة ١٩٤٨ يطل برأسه، والجامعة العربية تعقد اجتماعاتها في القاهرة ودمشق وعمان، والسيد عبد الرحمن عزام لا يكاد ينزل من الطائرة حتى تقله طائرة أخرى، ويجر وراءه ذيلاً من التصريحات، تهدد وتتوعّد، وترغي وتزبد. . . وذلك كل ما كان يستطيعه عزام.

وظل الموقف مبهماً غامضاً، حائراً خائراً حتى اليوم الحادي عشر من شهر أيار/مايو. . . إلا موقف العراق والأردن فقد كان مكشوفاً على الهواء. . فقد كان الملك عبد الله في عمان والأمير عبد الإله من بغداد يعلنان الحرب على إسرائيل قبل مولدها، وينذران بوأدها في مهدها.

وكانت الحكومات العربية الأخرى قد حشدت قواتها العسكرية على حدود فلسطين ولا تدري ماذا تصنع بعد ذلك، وكان موقف مصر واضحاً في الكلمات

الواضحة التي أعلنها النقراشي في اجتماع الجامعة العربية في عاليه في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٤٧ «أن مصر إذا كانت توافق على الاشتراك في هذه المظاهرة العسكرية فإنها غير مستعدة للمضي أكثر من ذلك».

وفي مفاجأة غير متوقعة، حتى لدى أعلى المستويات العربية تحرك الملك فاروق، من فوق أكتاف الرئيس المصري النقراشي باشا وأصدر أمره إلى القيادة العسكرية المصرية بدخول فلسطين في اليوم الخامس عشر من شهر أيار/ مايو وسارعت الحكومات العربية الأخرى بين مدفوعة ومندفعة.

وهكذا قررت الجامعة العربية إعلان الحرب، وأرسلت مذكرة إلى الأمم المتحدة. تشرح فيها أسباب «التدخل العسكري» لحماية الأرواح والممتلكات. . . ووقف الإرهاب والمذابح التي تقترفها العصابات الصهيونية. . «وقد قضينا، السيد عبد المنعم مصطفى مستشار الجامعة العربية وأنا، ليلة بكاملها ونحن نختار أدقّ التعابير الدولية في إعداد هذه المذكرة مع الحفاظ على سلامة الموقف العربي من قضية فلسطين».

ودخلت الجيوش العربية إلى فلسطين في فجر الخامس عشر من شهر أيار/ مايو سنة ١٩٤٨ ووقعت معارك عنيفة أنزلت باليهود خسائر جسيمة في مستعمراتهم، وقد مدّ العالم أبصاره صوب فلسطين يتساءل: من الغالب ومن المغلوب؟

وكانت الاجتماعات العربية متصلة في عمّان، فقد كانت العاصمة الأردنية نقطة الضعف في الجبهة العربية، وكان السيد عبد الرحمن عزام يحيط الملك عبد الله بكل ضروب التفخيم والتعظيم حتى لا «يفلت» من الأسرة العربية.

وكنت أتردد بين دمشق وعمّان في تلك الفترة، وأجتمع إلى السيد عبد الرحمن عزام وأستزيده من التفخيم يسبغه على الملك عبد الله، فإن الجبهة الأردنية تتحكم في قلب البلاد، والجيش الأردني مدرب تدريباً ممتازاً وضباطه وجنوده على غاية ما يكون من الشجاعة. . . لولا ابتلاؤنا بقائده «جلوب باشا» وأركانه من الضباط الإنكليز.

وقد اقترح عليّ عزام أن نزور الملك عبد الله معاً ليسمع أن أهل فلسطين يبايعونه قلت: «إن الملك عبد الله لا يستريح إليّ، وهو يعلم أني أعمل مع سوريا، وأن بينه وبين الرئيس القوتلي وحشة كبيرة بصدد موضوع سوريا الكبرى».

قال: «أنا ذاهب إليه الآن، وسأنقل إليه «بيعتك»، فإن انبسط لها فسأدعوك

على التلفون». قلت: «حباً وكرامة.. نحن نبايعه من النهر إلى البحر حلالاً طيباً... فليحرر فلسطين كلها وهو ملك عليها إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين والله على ما نقول شهيد».

وذهب عزام وبقيت في غرفتي، وأذني إلى سماعة التلفون أنتظر الطلب، فما من داعٍ ولا ساعٍ، ولم ألق الملك عبد الله في ذلك اليوم.

وحين كان قصف المستعمرات اليهودية بالمدافع العربية يجلجل في جميع أرجاء البلاد، كانت هناك مهاترات خافتة تدور في عمّان.

لقد أصبح الجيش المصري في الخليل على مقربة من القدس.. والجيش السوري يتقدم في الجبهة السورية رغم الخسائر الجسيمة في العشرات من ضباطه البواسل. وهنا بدأت القوات العربية الأردنية والعراقية تتباطأ وتتلكأ، وانطلقت العبارة التاريخية على ألسنة الضباط العراقيين حين لا يتقدمون «ماكو أوامر».

وأخذ الملك عبد الله يندد بالمصريين ويطالب بأن يحل محلهم في الخليل والجنوب، وبدا واضحاً أن القوات الهاشمية قد حققت «الخطة» فلا تتعدى خطوط التقسيم..

وأما على الصعيد الدولي فكانت أمريكا وبريطانيا تمسكان بزمام الموقف، تحركان مجلس الأمن ليبحث وقف القتال.

واجتمعت الجامعة العربية على عجل، وعلى عجل كنت مع الوفد السوري في القاهرة، وسارعت الوفود إلى قاعة الاجتماعات، وأقفلت الأبواب ودار البحث التاريخي في القرار التاريخي، قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار.

وكان الاجتماع عابساً متجهماً، وكان لقرار مجلس الأمن رهبة وهيبة، وكان اليقين في «عقل» قادة العرب أن مجلس الأمن يؤدب ويضرب.. والويل لمن يقع تحت عقوبات مجلس الأمن... ووقف الوفدان الأردني والعراقي في جبهة واحدة يطالبان باحترام قرار مجلس الأمن... ويؤكدان أن الوضع العسكري ليس في صالح العرب، وأن جيشيهما لا يستطيعان الاستمرار في القتال.. وأنهما مستعدان أن يستأنفا القتال بعد أن يستكملا استعدادهما.. وأن... وأن...

ورفض الوفد السوري وقف إطلاق النار وأصر على القتال.. وأنّ الوضع العسكري طيب جداً وأنّ المقاومة اليهودية توشك على الانهيار... وأنّ يهود القدس الجديدة (١٠٠ ألف) مهددون بالهلاك عطشاً وسيطالبون غداً أو بعد غد.

ووقف الوفد المصري حائراً وهو يتساءل كيف نستمر في القتال إذا توقف

الجيشان الأردني والعراقي. وقالت السعودية إنها مع مصر فهي الشقيقة الكبرى «وعلينا أن نسير حيث تسير . . ونحن نفضل استمرار القتال».

أما لبنان فقد ألقى بكل ثقله ليقنع الهاشميين بالعدول عن «خطتهم» والسير في المعركة. وامتد الاجتماع إلى الصباح، وكان أظلم صباح مر على الأمة العربية في تاريخها الطويل . . فصدر القرار بوقف إطلاق النار وقبول قرار مجلس الأمن . . .

وصاح عزام، وكان يعتبر المعركة معركته الشخصية، وكان بعلاقاته وصداقاته مع معظم الدول العربية حكومة فوق الحكومات، فهدد بالاستقالة . . ولكن لا سميع ولا مجيب.

وانتهى الاجتماع وتسللت الوفود لواذاً من الأبواب الخلفية إلى الفنادق، هرباً من الصحافة، تاركين «لعزام» الشقي التعيس أن ينقل «النعي» إلى مراسلي الصحف ووكالات الأنباء . . «قبلنا قرار مجلس الامن» . . فأعلن قرار الجامعة بالقبول وكانت الهدنة الأولى.

وحين خرجت مع عزام في سيارة واحدة ليوصلني إلى الفندق قال لي: «لقد هربوا من الصحافيين».

قلت له: «لن يهربوا من التاريخ . . ولن يستطيعوا أن يهربوا من الشعب».

وأثبتت الأيام أن السياسة الهاشمية في عمّان وبغداد لم تعلن الحرب في فلسطين لتحرير فلسطين، وجاء الدليل الواضح الفاضح في كتاب «جلوب» **جندي في الصحراء** وهو الذي قاد المعركة في أخطر جبهاتها.

كشف جلوب في كتابه هذا عن اجتماع سري جرى في لندن بين توفيق أبو الهدى باشا رئيس وزراء الأردن والمستر بيفن وزير الخارجية البريطانية في شباط/ فبراير سنة ١٩٤٨، وتحدث فيه الرئيس الأردني بقوله:

«الانتداب البريطاني ينتهي قريباً عن فلسطين . . . اليهود أعدوا العدّة لتأليف حكومتهم عقب انتهاء الانتداب . . وإنّ اليهود قد لا يتقيدون بقرار الأمم المتحدة فيحتلون فلسطين بأسرها حتى نهر الأردن بالقوة . . . وإنه لذلك ليس ثمة مانع من دخول الجيش العربي إلى فلسطين بعد انسحاب البريطانيين.

وقال بيفن: «إن هذا هو الحل الوحيد المعقول . . ولكن لا تذهبوا إلى أبعد من ذلك وتحتلوا المنطقة اليهودية».

والذي أراده «بيفن» في شباط/ فبراير ١٩٤٨ هو الذي جرى تنفيذه في شهر أيار/ مايو ١٩٤٨. على أرض فلسطين، وعلى يد القوات الهاشمية ـ الأردنية العراقية.

وهكذا كانت حرب فلسطين، لا للتحرير، ولكن لملء الفراغ بعد الانسحاب البريطاني، وللوقوف عند حدود التقسيم. . ولكن حتى هذا «الهدف» الذي أرادته بريطانيا لم تستطع السياسة الهاشمية أن تحققه، فقد تجاوز اليهود خطوط التقسيم، وتجاوزوا خطوط وقف إطلاق النار، وتجاوزوا. . . وتجاوزوا. . .

وصح الذي قلته لعزام يوم قبول الهدنة: «إنهم لن يستطيعوا أن يهربوا من الشعب. . ولا من التاريخ. . .».

لقد وقع الملك عبد الله صريعاً على عتبات المسجد الأقصى. . وانتحر توفيق أبو الهدى في غرفته، وخرّ الأمير عبد الإله صريعاً إلى جانب فيصل الصغير، وهوى نوري السعيد في شوارع بغداد، وانخلع فاروق عن عرشه الفخيم. . وتعاقبت الانقلابات ولا تزال. . .

ولن يستطيع أحد أن يهرب من الشعب ولا من التاريخ.

العـرب في الأمـم المتحـدة

رودس تصيح مع القدس: الويل للمغلوب

توقف القتال في جميع الجبهات في فلسطين في شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٨ امتثالاً لقرار مجلس الأمن، وتحول الجهد العربي إلى النشاط السياسي، فقد اختارت الأمم المتحدة الكونت برنادوت ليكون وسيطاً دولياً يدرس القضية الفلسطينية في الظروف الراهنة ويقدم توصياته بشأنها.

وقد أقنع الجانب العربي نفسه بنفسه أن هذا القرار فيه معنى العدول عن قرار التقسيم، ولعل الكونت برنادوت يجد للحكومات العربية مخرجاً من «الورطة» الفلسطينية، ثم إن من فوائد الوساطة الدولية امتصاص نقمة الشعوب العربية على حكامها، وإلهائها والاعتماد على نسيانها. . ففي الزمن شفاء من كل داء. . هكذا كان التفسير الذاتي عند حكام العرب.

وكان اليهود من جانبهم قد أعلنوا في منتصف شهر أيار/ مايو قيام حكومة يهودية مؤقتة بادر الرئيس ترومان إلى الاعتراف بها بعد إحدى عشرة دقيقة، ثم توالت الاعترافات من الاتحاد السوفياتي وعدد من الدول الأخرى.

وهبط برنادوت على المشرق العربي ومعه حاشيته من المستشارين وعلى رأسهم الدبلوماسي الزنجي الدكتور رالف بانش، وقام باتصالات سريعة مع الجامعة العربية ودولها، ثم مع الحكومة اليهودية في تل أبيب، فسمع من الجميع ولم ينبس ببنت شفه.

وأعرب الكونت برنادوت عن رغبته في أن يوفد كل من الفريقين، العرب واليهود، وفداً من الخبراء ليشرح وجهة نظر بلاده في القضية وملابساتها، وأن يكون اللقاء في جزيرة رودس التي اتخذها برنادوت مقراً «لقيادته».

وقررت الجامعة العربية أن يمثلها وفد مؤلف من أربعة: عبد المنعم مصطفى مستشار الجامعة العربية، محمد الجليلي من وزارة الخارجية العراقية وهنري كتن المحامي الفلسطيني، وأنا مستشار الحكومة السورية.

وفي العشرين من شهر حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٨ كنا نحن الأربعة نتسلق سلم طائرة الأمم المتحدة لتقلنا إلى جزيرة رودس، وحقائبنا مكدسة بالتقارير والمذكرات والكتب منذ فجر الحركة الصهيونية إلى عشية قيام الدولة اليهودية.

وهبطنا مطار رودس في رحلة مريحة لم نستشعر معها مضي الوقت فقد كانت عقولنا وقلوبنا مع الكونت برنادوت، بماذا نحدثه، وكيف نحدثه.

ونزلنا في طابق خاص في الفندق، وكان الوفد اليهودي قد سبقنا بساعات فنزل في طابق آخر، وانصرف كل منا إلى حجرته لنأخذ نصيبنا من الراحة استعداداً للعمل.

وجلست في الشرفة في صباح اليوم التالي وأنا أستعرض تاريخ هذه الجزيرة التي تداولتها أيدي الفاتحين، وكيف غزاها العرب بأسطولهم البحري وغدا البحر الأبيض المتوسط كله بحيرة عربية، وإذا بالسيد عبد المنعم مصطفى يقتحم على غرفتي وهو يقول: «سنبدأ العمل في الساعة العاشرة فهل أنت جاهز؟»

قلت: «إني جاهز من الفجر، وها أنت كما تراني وحقيبة المذكرات جاهزة معي».

قال: «ومالي أراك مكتئبا؟»

قلت: «أنا الآن أعيش مع التاريخ وهذا هو سبب اكتئابي».

قال: «وكيف، ولماذا؟»

قلت: «هنا في هذه الجزيرة كنا القادة والحكام، وها نحن نأتيها بعد قرون منكسرين منهزمين في وطننا، ونقف الآن على الأعتاب نلتمس العدل والإنصاف بين يدي الوسيط الدولي».

قال: «هَوِّن عليك لا بد أن نستعد للجولة الثانية».

وحان موعد الاجتماع فذهبنا نحن الأربعة، وكان لقاؤنا الأول مع الكونت برنادوت والدكتور رالف بانش والمساعدين، وكانت جلسة «الافتتاح» هذه تعارفاً وتحية وحديثاً لا يتعدى نطاق المجاملات، فقد آثرنا أن نترك لهم زمام المبادرة في إثارة المواضيع التي يختارونها . . .

ووقفنا للننصرف، فراح الكونت برنادوت يتحدث بإنكليزيته السويدية ويقول إننا لسنا وفد مفاوضة، وليست هذه الاجتماعات على مستوى المفاوضات بينكم وبين اليهود، ولا أرى مانعاً من أن تلتقوا بالطرف الآخر على مائدة شاي للتحدث، بصورة عامة ومن غير أي التزام على أحد من الفريقين.

وكان الإخوان قد اتفقوا أن أكون الناطق باسم الوفد، فبادرت الكونت برنادوت بالرفض وقلت له: «لا لقاء بيننا وبين اليهود، لا على مستوى المفاوضات أو المحادثات، وإن سقف هذا الفندق يجمعنا كما يجمعنا مبنى الأمم المتحدة ليس إلا».

قال: «ولكن زعماء العرب، وأنتم الفلسطينيون، التقيتم كثيراً مع زعماء اليهود».

قلت: «هذا صحيح. . لقد كانت لقاءات بعض زعماء العرب وزعماء اليهود. . ونحن في فلسطين كنا على صلات يومية باليهود، ولكن ذلك كان قبل قيام الدولة اليهودية».

قال: «والآن؟»

قلت: «لا لقاء إلا بعد عودة الحال السابقة».

قال: «كيف؟»

قلت: «أن تزول الدولة اليهودية. . وعندها سنلتقي باليهود وعلى مستوى المباحثات والمفاوضات. . . أو قل ما تشاء».

وتدخل الدكتور بانش، وعيناه الذكيتان تلمعان، وقال: «أخشى أن يكون «المستر شقيري» قد لخص القضية الفلسطينية بأكملها في هذه الدقيقة الواحدة».

وضحك الجميع وانصرفنا. . وإذا بالصحافيين ينتظرون في ردهات الفندق ليسألوا عما تم في هذا الاجتماع، فقلنا إنه اجتماع تعارف، وتنظيم لأسلوب العمل.

فصاح السيد زهير عسيران الصحافي اللبناني وقال: «هل ستكون بينكم وبين اليهود مفاوضات مباشرة؟»

قلت: «أبداً. . لن يكون هذا. . ونحن ما جئنا لهذا. . ومن أخبركم بهذا؟»

قال: «الصحافيون الأجانب المتصلون بالوفد اليهودي، هم الذين أخبرونا بذلك».

قلت: «لا تصدقوا. . هذه أول دسيسة يهودية على الوفد العربي، بل على مهمة الكونت برنادوت نفسه».

وتسابق الصحافيون يركضون إلى مكاتب البرق «ليبطلوا» القنبلة اليهودية قبل أن

تنفجر، ثم جاءت بعد ذلك جلسات العمل، يوماً مع الوفد العربي، ويوماً مع الوفد اليهودي، وتقاسمنا العمل فيما بيننا نحن الأربعة فتحدث كل منا في موضوع معين نتناقش فيه مع الكونت برنادوت ومعاونيه. فكان حديثنا عن الحركة الصهيونية، الإرهاب اليهودي، الأراضي، الهجرة، وعد بلفور، صك الانتداب، الثورة الفلسطينية، التقسيم، ميثاق الأمم المتحدة. . . إلخ.

وكانت هذه الموضوعات جاهزة في مذكراتنا وفي ذاكرتنا، فكنا نتحدث باستفاضة علمية موضوعية، نفند ذلك بالأسانيد والوثائق والإحصاءات، لا نترك شاردة ولا واردة.

وعقدنا اجتماعنا الأخير لتلخيص الموقف فسردنا مطالبنا الوطنية:

١ ـ إقامة حكومة وطنية ديمقراطية في فلسطين تمثل جميع المواطنين على اختلاف مذاهبهم، وتضمن الحقوق للجميع.

٢ ـ العدول عن التقسيم والدولة اليهودية.

٣ ـ وقف الهجرة اليهودية وبيوع الأراضي.

٤ ـ السماح بعودة اللاجئين الذين نزحوا عن البلاد نتيجة للإرهاب اليهودي، كتدبير عاجل ومن غير انتظار للحل السياسي النهائي.

وكان الكونت برنادوت والدكتور بانش يصغيان باهتمام، وكنت أتفرّس في وجه الدكتور بانش وملامحه لأتعرف على انطباعاته وإحساساته، فقد كان الكونت برنادوت شخصية مرموقة لها وزنها وقيمتها، ولكن الدكتور بانش كان «دماغ» هذه الوساطة الدولية، وكنت أحاذر أن أوجه إليه كل حديثي خشية أن يكون في ذلك إساءة للكونت برنادوت، ونحن أحوج ما نكون في ذلك الوقت إلى التودد حتى إلى التراجمة والمختزلين.

ولقد لقيت الدكتور بانش، بعد أيام رودس، في الأمم المتحدة، في اجتماعات عمل وفي مناسبات اجتماعية متعددة، وقد كان عندي لغزاً محيراً، فلم أستطع أن اقطع على وجه اليقين إذا كان معنا أو علينا، أو إذا كان مع الصهيونية أو عليها.

لقد كانت تقاريره في غاية الدقة والبراعة، يحرص كيف يختار عباراته وألفاظه بل وفواصله، فلم يستطع أن يهاجم العرب أو يهاجم اليهود، وإن لم يكن يرضي هذا الفريق أو ذاك.

وكنت ضيفه في منزله في نيويورك مع عدد من الوفود أثناء دورات الأمم المتحدة وتقدمت زوجته لتسألنا: «ما رأي العرب في زوجي؟»

قلت: «إن زوجك لغز محير، عيناه تلمعان ولا تدرين لمن، وشفتاه تتمتمان ولا تدرين مع من، وقلمه يتحرك ولا تعلمين في أي اتجاه، هو أمريكي وليس مع أمريكا، وهو في الأمم المتحدة وليس مع الأمم المتحدة».

قالت: «ولكنه مع من؟»

قلت: «إن الدكتور بانش هو مع الدكتور بانش، شأن النابهين، الواحد منهم عالم بذاته».

فصاح الدكتور فاضل الجمالي بقهقهته العراقية: «هذا مزاح أصدق من الجد».

وفي رودس، كانت لنا مناسبات اجتماعية، فقد زرنا آثارها التاريخية، وكان مفتي رودس واحداً من هذه الآثار.. وفي الجزيرة جالية إسلامية من بقايا العثمانيين وهي كذلك مجموعة من الآثار.

وذهبنا لزيارة المفتي في مكتبه فبالغ في الحفاوة بنا، واصطف الكشافة «المسلمون» عند المدخل تحية لنا، ودار الحديث بيننا بعربيته التركية، وبتركيتي الإستانبولية التي تلقنتها عن والدتي رحمها الله.

وقد زادت هذه الزيارة من أحزاني، فقد كان «مفتي أفندي» منكسراً في حديثه، لا يكاد يرفع بصره.. فيه إحساس بالذلة والمسكنة، وكان الكشافة لا تبدو عليهم العزيمة والثقة بالنفس، وملابسهم المتواضعة لا يكاد الواحد منهم يشبه الآخر، وكان جو الجلسة كلها ينطق «الويل للمغلوب».

وكان السيد عبد المنعم مصطفى، بيده أموال الوفد، قد أحزنه حال المفتي، فأخرج من جيبه كل ما تبقى من «مخصصاتنا»... ملايين الدرخما... وإن لم تكن تساوي إلا القليل... ولكن المفتي رآها كنزاً هبط عليه من السماء.

وكان إلى جوار مكتب المفتي مقبرة رأيت «شواهدها» إسلامية، فنزلنا إليها نستنطقها التاريخ ما غبر.. وما فيه من العبر. وكانت قبوراً جميلة شيدت من الرخام الناصع، وقد نقشت عليها بالخط «العثماني» الرائع الآيات القرآنية، وأسماء أصحابها الأتراك المجاهدين، الشهيد محمد بن مصطفى... وهكذا.

ومن يدري فلعل في هذه المقبرة رفات مجاهدين وشهداء من الحجاز ومصر والشام من الذين اكتسحوا جزيرة رودس في صدر الفتوح الإسلامية.

ولقد وقفت طويلاً أمام تلك القبور، وتفرست في سيماء المفتي وكشافته وأصحاب الوجوه المنكسرة من المسلمين في رودس. . ولكني لم أدرِ لماذا فعلت ذلك؟ ولم أدر لماذا بقيت تلك الخواطر السوداء تلازمني وأنا في الطائرة في عودتي إلى القاهرة، بل لماذا بقيت تلازمني بعد ذلك بزمن طويل.

لقد جاء حزيران/ يونيو ١٩٦٧ يفسر لي تلك الأحاسيس، لقد سقطت القدس وأصبح المفتي فيها منكسراً، وأصبح أهلها «جالية إسلامية» وأصبحت القبور مزاراً للسياح وأصبح الجو كله يصيح، «الويل للمغلوب».

وما أعظم الفرق بين رودس وبيت المقدس.

إن رودس جزيرة في البحر الأبيض المتوسط ليس لها بتاريخ العرب صلة ونسب، غزاها العرب وانتهى.

أمّا القدس. . . يا للعظمة والفخار، إنّها مدينة عمر وأبي عبيدة وصلاح الدين، وهي قبيل ذلك فإنها أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي موطن الإسراء والمعراج. إنها الآن تئنّ تحت أقدام إسرائيل.

اللهم رحماك! إن هذا فوق طاقتنا وفوق صبرنا.

اللهم نصرك الذي وعدتنا.

إن النصر في طاقتنا وقدرتنا.

إنه في وحدتنا. . في الوحدة وحدها.

نفدت آخر خرطوشة من زمان

انعقدت الأمم المتحدة في خريف سنة ١٩٤٨ في باريس في «شايوه»، القصر الشهير، تحت سحابة من الاكتئاب لم تشهد المنظمة العالمية مثيلاً له منذ عهد عصبة الأمم. . وكانت الوفود في أروقة القصر ودهاليزه حلقات يوضحون ويستوضحون، فالمصاب جلل جسيم: لقد اغتالت العصابات الصهيونية الكونت برنادوت في شوارع القدس.

وقد شغلت الأمم المتحدة أياماً في غمرة هذا الحادث الأثيم، وشاركت إسرائيل في دموع التماسيح، وحسبنا أن القيامة قامت على اليهود وأنّ هذه الجريمة قد اقترفت ضد الأمم المتحدة التي ولدت الدولة اليهودية، ولا بد أن تكون هذه بداية النهاية.

وكان اليهود قد علموا بمخابراتهم القادرة أن تقرير الكونت برنادوت ليس في صالحهم في بعض جوانبه، فسارعوا إلى اغتياله في ١٧-٩-١٩٤٨ وجاء مساعده الدكتور بانش إلى الأمم المتحدة وقدم التقرير بكلمة مؤثرة هزت المشاعر.

وكانت الوفود العربية على مستوى عالٍ بأشخاصهم: الأمير فيصل عن السعودية، خشبة باشا وزير خارجية مصر، رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، فارس الخوري وخالد العظم والأمير عادل أرسلان عن سوريا، والأمير سيف الإسلام عبدالله عن اليمن، ونجيب الراوي عن العراق، وكان وفد فلسطين مؤلفا منا نحن الثلاثة: المحامي هنري كتن، الدكتور يعقوب خوري وأنا. . وكان السيد شارل حلو (رئيس الجمهورية اللبنانية في ما بعد) رئيساً لمكتب الجامعة العربية للدعاية والإعلام في باريس أثناء انعقاد الدورة، يعاون السيد عبد الرحمن عزام أمين الجامعة في الاتصالات السياسية والإعلامية.

وظننا أن اغتيال برنادوت سيكون اغتيالاً «لحكومة إسرائيل المؤقتة» التي أعلنت

في منتصف شهر أيار/ مايو، وان الدول الإسكندنافية ومنها الكونت برنادوت، ستوقد الحملة على الدولة اليهودية.

ولكن خاب ظننا، فقد اندلعت الخطب من جميع الوفود تستنكر الحادث الإجرامي، وكل مطلبها، وفي مقدمتها الدول الإسكندنافية، المزيد من التحقيق والقبض على الجناة وإنزال أقصى العقاب، وتعويض ورثة القتيل.

ولقد عرفت إسرائيل كيف تنحني أمام العاصفة، فبكت برنادوت مع الباكين، وناحت مع النواحين، وأعلنت أنها ماضية في التحقيق. . . وطويت المناحة وكأن شيئاً ما كان.

أمّا نحن، الوفود العربية، فد كنا «أهل القتيل» استنكرنا وصرخنا. . . ولكن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، فكان ذلك أول درس لنا في أولويات القواعد الدولية. فإن أحاسيس الغضب والاستنكار أمور عابرة في الحياة الدولية وإن الأبقى هو الأقوى. . .وكنا نحن وفد فلسطين، وسط هذه الضجة العارمة من البكاء والعويل، نعد العدة لإلقاء بياناتنا «ومرافعاتنا» باسم شعب فلسطين.

ومع أنني كنت متمرساً بشؤون القضية الفلسطينية مع الأيام والأعوام، غير أنّي في تلك الدورة قد أنفقت من الجهد في إعداد خطبي بما لم أفعله في أي وقت مضى، فقد كان أمام الأمم المتحدة، في ذلك الوقت قرار التقسيم وتقرير برنادوت وحكومة إسرائيل المؤقتة. . . وهزيمة العرب، وقد تم الاتفاق مع الحكومة السورية أن أرأس وفد فلسطين، أخطب وأناقش، بدلاً من أن أكون مستشاراً للوفد السوري أعمل من وراء الكواليس.

وحبست نفسي في الفندق أياماً وأنا أكتب وأشطب، وأُعَدِّل وأُبدِّل، وأُقدّم وأُؤخّر، وأنا أحسب أن كل كلمة محسوبة عليّ. . . بل محسوبة على الأمة العربية بأسرها.

وقضيت ليلة لم أنمها، وأنا في ثياب النوم، أعدّ خطاباً عن القدس وقدسيتها، واستمساكنا بعروبتها، وبقيت حتى الصباح، وأنا أُنعم النظر فيها وأنا أحسّ أن خلاص القدس منوط بقلمي ولساني.

وذهبت إلى الأمم المتحدة ومعي رفاقي وأوراقي، ونودي علينا فجلسنا إلى المائدة المخصصة لغير الأعضاء. . فكنا ثلاثة، شرتوك وزير خارجية حكومة إسرائيل المؤقتة، والأمير عبد المجيد حيدر ممثل مملكة شرقي الأردن، وأنا ممثل الشعب الفلسطيني. . ولم تكن إسرائيل ولا الأردن قد أصبحتا من أعضاء الأمم المتحدة.

وكان جلوسي في الوسط وعلى يميني شرتوك (شاريت في ما بعد)، وعلى يساري الأمير عبد المجيد، وسلطت علينا مصابيح المصورين يلتقطون هذه الصورة الفريدة في نهم عجيب: العرب واليهود على مائدة واحدة.

ولقد حاولت أن أجعل جلوس الأمير عبد المجيد في الوسط، وبهذا أبتعد عن شرتوك، ولكن دائرة البروتوكول في الأمم المتحدة، هكذا رسمت وعلينا الطاعة والخضوع.

وأراد الأمير عبد المجيد أن يكلمني بالعربية فهمست في أذنه أن شرتوك يجيد العربية، فأراد أن يكلمني بالتركية فقلت له أن الرجل تعلم في الآستانة في معهد الحقوق وهو يجيد اللغة التركية، فقال لي: «فبماذا أكلمك؟» قلت له هامساً: بالعبرية والواقع أن كثيراً من اليهود لا يعرفون اللغة العبرية وقد تعلموها في سن متأخرة.

وجاء دوري في الكلام فألقيت بياناً مستفيضاً عن القضية الفلسطينية منذ نشأتها إلى زمن عصبة الأمم عبر الانتداب البريطاني، مستعرضاً مراحلها، سارداً الحجج والأسانيد، ثم ناقشت تقرير الكونت برنادوت مفنداً جوانبه المختلفة، غير تارك أي قول يمكن أن يخطر على البال في هذا المجال، وقد كان الإصغاء كاملاً وشاملاً لجميع الوفود، وقلَّ أن تجد إصغاء بالمعنى الصحيح في الأمم المتحدة إلا حين يتكلم مندوبو الدول العظمى، فهؤلاء «يشنّفون» الآذان لا بفصاحتهم ولا بلاغتهم، بل بالقوة العسكرية والاقتصادية التي يملكونها.

وقد أصاب الوفود العربية كثير من الزهو والخيلاء أنهم قدموا للأمم المتحدة واحداً من إخوانهم من أبناء فلسطين يستطيع حين يتكلم أن يفرض على الأعضاء إصغاءهم واهتمامهم.

وتكلم بعدي الأمير عبد المجيد حيدر ممثل الأردن وألقى بياناً عاماً لم يتضمن تركيزاً واضحاً على تقرير برنادت، فقد احتوى التقرير في جملة ما احتوى ضم «الأقسام العربية» من فلسطين إلى الملك عبد الله. . وهذا ما دعا الأمير أن يكون بيانه مقتضباً.

وتكلم أخيراً شرتوك، وزير خارجية حكومة إسرائيل المؤقتة، معلناً تمسكه بقرار التقسيم، معارضاً لكثير مما ورد في تقرير برنادوت، مصراً على أن يكون حل قضية اللاجئين ضمن التسوية العامة.

وحاول شرتوك أن يرد على بياني فلم يستطع أن يجد منفذاً سوى أن يقول إنني

نازي سابق وقد تعاونت مع «الحاج أمين المعروف بصلاته مع هتلر». وأنني لا أمثل أحداً. . وسوى العناصر العربية المتطرفة التي تريد أن تلقي باليهود في البحر، ولم ينسَ شرتوك أن يثني على جلالة الملك عبد الله وجيشه.

وخرافة إلقاء اليهود في البحر ابتدعها اليهود وزيفوها على قادة العرب في كل مناسبة. . ويوم وقعت نكبة حزيران/ يونيو انطلقت أجهزة الدعاية الصهيونية في كل العالم لتقول إن الشقيري قد خطب في المسجد الأقصى قبيل حرب حزيران/ يونيو يدعو إلى إلقاء اليهود بالبحر. . . وقد وقع «بعض» العرب فريسة لهذه الدعاية، فراحوا يرددونها ويسيرون في ركابها ويدورون في فلكها. وأصبحوا بذلك ببغاوات إسرائيل يعيدون كلماتها.

وقد رددت على شرتوك بما يجب، الحجة بالحجة، صارمة وقاطعة، مستنداً في ذلك إلى أقوال زعماء الصهيونية وكتاباتهم.

وملت إلى الأمير عبد المجيد أطلب إليه أن يتكلم فقال:

«بماذا أتكلم؟ ولماذا أتكلم؟»

قلت: «هذا اليهودي يمدح الملك عبد الله وجيشه وكأنه يوحي بأن الأمور على ما يرام معكم».

قال: «ليس لديّ تعليمات أن أتكلم غير البيان الذي ألقيته، وقد جاءني من عمّان بالنص والحرف».

ونهضت إلى مقاعد الوفد اللبناني ورجوت السيد رياض الصلح رئيس الوزراء أن يبرق بذلك إلى الملك عبد الله فقد كان على معرفة قديمة به. . فبادر السيد الصلح إلى مناشدة الملك عبد الله أن يأمر ممثله بإلقاء البيان اللازم. ومضت الدورة بكاملها ولم يأت جواب البرقية من الملك عبد الله، وساد الشعور بين الدول الأعضاء أن عمّان وتل أبيب بينهما وداد مكتوم.

ودارت المناقشات عنيفة بشأن تقرير الكونت برنادوت وما تضمّن من توصيات وكانت خطب الدول الأعضاء غير متحمسة له ولا عليه، حتى إن الوفد الواحد: الأمريكي والبريطاني أو الإفرنسي، كان منقسماً على نفسه بشأن مقترحاته.

وكان بين الوفود العربية تساؤل ـ ولا أقول إنه أكثر من تساؤل، عن بعض توصياته: أليس وجود النقب عربياً فيه مصلحة للعرب باعتباره جسراً بين العرب في آسيا وفي أفريقيا؟ أم إن وجود الجليل الغربي عربياً أنفع استراتيجياً لأنه يجعل إسرائيل تحت رحمة العرب في أي انقضاض عسكري على إسرائيل في المستقبل؟

وكان هناك تساؤل آخر، ولا أقول إنه أكثر من تساؤل، أيهما أهون الشرين، قرار التقسيم أم مشروع برنادوت للحاضر وللمستقبل؟ وكان الفارق الرئيسي بين الاثنين أن الأول جعل النقب إسرائيلياً والجليل الغربي عربياً، على حين أن برنادوت قد عكس الآية. . ثم جاءت بعد ذلك حملة من الضغوط الغربية تطلب من الوفود العربية أن تمتنع عن التصويت أو تنسحب من القاعة عند عرض مشروع برنادوت حتى يفوز بأكثرية الثلثين.

وكانت الوفود العربية، رغماً عن المستوى العالي الذي بلغته، لا تعرف الموقف العسكري العربي في الوطن على وجه التحديد ومدى قدراته، وكانت إسرائيل تصطنع استفزازات عسكرية وتحتل الأراضي العربية المخصّصة للعرب بموجب قرار التقسيم ومشروع برنادوت لتضع الأمم المتحدة أمام أمر واقع. . والأمم المتحدة لا تقر الأمر الواقع يوم حدوثه، ولكن يصبح مقبولاً بعد بقائه واستمراره.

من أجل هذه التساؤلات اجتمعت الوفود العربية برياسة الأمير فيصل في دار السفارة المصرية واستقر رأيهم أن أسافر إلى القاهرة لأعرضها على مجلس الجامعة العربية، وكان في حالة انعقاد دائم، ظروف القضية في الأمم المتحدة في باريس والموقف الذي يتعين اتخاذه.

وصلت القاهرة في سفرة سريعة، ومن المطار ذهبت إلى الجامعة العربية وشرحت الموقف بكامله، موضوعاً وتصويتاً مع الاحتمالات كافة، وتأجل الاجتماع إلى اليوم الثاني.

وعشية ذلك اليوم دعيت إلى مجلس الوزراء المصري، فاجتمعت بالرئيس النقراشي وأخذ يستوضحني المزيد من الشرح حول احتمالات نجاح مشروع برنادوت.

وكان في الأفق السياسي تهامس في أن الملك فاروق يحبذ مشروع برنادوت لأنه يجعل النقب عربياً ولعل في ذلك حلاً لأزمة القواعد البريطانية في مصر، حيث تنقل القوات البريطانية إلى النقب. . يقابل ذلك همس آخر في أن الملك عبد الله، وهو الذي سيكون صاحب النقب لا يعارض في انتقال القوات البريطانية إليه، وهي موجودة في شرق الأردن بالذات. وكل ما أستطيع أن أقوله الآن على وجه اليقين إن النقراشي كان بادي الاهتمام بمشروع برنادوت، يبحث عن تفاصيله، ومن معه ومن عليه، وقد قدمت إليه خريطة ملونة برز فيها النقب كجسر بين آسيا وأفريقيا العربيتين. . . ولم يكن النقراشي في تلك الجلسة غير مستوضح وسائل.

وفي صبيحة اليوم التالي استأنف مجلس الجامعة اجتماعه، وبعد مداولة قصيرة

قرر بالإجماع «رفض مشروع برنادوت.. مشروع التقسيم.. مع التمسك بعروبة فلسطين». وأضاف عزام، بصدد القتال الدائر في جنوب فلسطين، بأن العرب سيقاتلون حتى آخر «خرطوشة» وأمّن الباقون على ذلك.

وعدت إلى باريس أحمل معي قرار الجامعة العربية، واجتمعت الوفود العربية وسلمتهم المظروف المختوم بالشمع الأحمر.. وفضه خشبة باشا وتلاه على الحاضرين بلهجته العربية الفصيحة.. وكان يتأنق في تلاوته ويقلقل مقاطعه وعباراته...

ثم شرحت للوفود ما دار في مجلس الجامعة، وقلت لهم ما قاله عزام من أن العرب سيقاتلون إلى آخر خرطوشة، فضحك خشبة باشا هازئاً ساخراً وهو يقول: «آخر خرطوشة.. هذه ليست موجودة.. إن آخر خرطوشة قد أُطلقت من زمان..» وانتهى الاجتماع على الطرائف والحكايات التي كان يتبادلها خشبة باشا والسيد فارس الخوري عن الأيام الغابرة.. شأن الشيوخ كلما ضمتهم ندوة أو لقاء.

وخلف هذه المطارحات الفاكهة التي كانت تدور بين الشيخين: خشبة والخوري، كانت المعارك الضارية تدور في جنوب فلسطين، ولم تتورع إسرائيل أن تهاجم المواقع المصرية في صحراء النقب على حين كان موضوع النقب يناقش في الأمم المتحدة.

وبدأت التقارير ترد إلى الأمم المتحدة عن زحف إسرائيل صوب الجنوب لأنها تريد أن تضع المنظمة العالمية تحت الأمر الواقع، ولم تكتف إسرائيل أن اغتالت برنادوت بل أرادت أن تغتال تقريره، فأخذت تشن على الجبهة المصرية الغارة بعد الغارة، ومجلس الأمن يصدر القرار بعد القرار، بوقف إطلاق النار والرجوع إلى ما كانت عليه الحال في تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤٨، وتوالت قرارات مجلس الأمن في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر، ٥ تشرين الثاني/نوفمبر، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر سنة ١٩٤٨ وكلها تدعو إسرائيل إلى وقف إطلاق النار، فلم تذعن إسرائيل، ولم تتوقف عن إطلاق النار إلا بعد أن اجتاحت النقب كله.. وأصبح تقرير برنادوت عن النقب العربي كلاماً في الهواء.

وفرغت الأمم المتحدة من المناقشة العامة بصدد تقرير الكونت برنادوت، وهنا جاء دور الصاغة البارعين، من الإنكليز والأمريكان والإفرنسيين، ليضعوا مشروع القرار. وكان جون فوستر دالاس، (وزير الخارجية الأمريكية في ما بعد)، واحداً من أبرع هؤلاء البارعين.

وكان الاتحاد السوفياتي يراقب هذه التحركات من بعيد من دون أن يشترك فيها، لأن الكتلة الغربية كانت تحول دون مشاركته، ولأنّ بعض الوفود العربية تريد أن تبعد الاتحاد السوفياتي عن المشكلة، ولأن الاتحاد السوفياتي نفسه كان حريصاً أن يقع الإنكليز والأمريكان في «وحل» هذه القضية «الموحلة».

واتجهت النية إلى إبدال الوسيط الدولي بتعيين «لجنة توفيق» ولم يكن عند العرب بأس من قبول هذا الاقتراح فإنه مخرج، على كل حال وجاء دور البحث عن أعضاء لجنة التوفيق فكان لا بد أن تكون أمريكا، ورضي العرب وهم يظنون! أن أمريكا تستطيع أن تضغط على اليهود!

وكان لا بد من فرنسا، لأن حرص فرنسا على المقدسات الدينية هو في صالح العرب.

واقترح أن تكون تركيا هي العضو الثالث، فقد أسرّ الوفد التركي في آذان العرب أنه سيبذل كل جهده ليكون معهم.

وهكذا أُلّفت لجنة التوفيق من أمريكا، فرنسا، تركيا.

ولكن الأسوأ من كل ذلك أن اختصاص لجنة التوفيق، كما ورد في مشروع القرار كان غامضاً قد يضّر ولكنه يقيناً لا ينفع. . وخاصة في ما يتعلق بموضوع القدس ومشكلة اللاجئين.

وقد دعوت الوفود العربية إلى اجتماع خاص لبحث هذا المشروع وأوضحت بصورة خاصة أن الفقرة ١١ من مشروع القرار الخاصة باللاجئين.

أولاً: لا تتضمن إلزاماً موجهاً لإسرائيل بعودة اللاجئين.

ثانياً: لا تحدد زمناً تتم خلاله العودة.

ثالثاً: تشترط على اللاجئين «أن يعيشوا بسلام (؟) مع جيرانهم».

وقلت في النهاية إن المادة ١١ هي أسوأ صيغة لأقدس حق، وهو العودة إلى الوطن. ولم تكن الوفود العربية ينقصها الاقتناع بصواب هذه الملاحظات، ولكن الموقف العربي في الوطن، لا في باريس، كان مهلهلاً مخلخلاً، والقوات الإسرائيلية تضرب حيثما تشاء. . وهكذا صدر القرار بصيغته كما أرادها الوفد الأمريكي.

وقد جاءت مخاوفي في محلّها، فقد عبرت هذه المادة خلال عشرين دورة للأمم المتحدة، وكانت إسرائيل تجد مهرباً في منافذها وفجواتها. . . وما أكثرها.

وكان للوفود العربية، وأنا واحد منهم، في هذه الدورات كلها، حجج كثيرة تدعم فيها حق اللاجئين بالعودة، ولكن إسرائيل وأنصارها لم يعدموا الحيلة والوسيلة لتزييف المادة١١ من القرار، من الألف إلى الياء.

وانتهت دورة الأمم المتحدة، وعادت الوفود العربية إلى الوطن لتتحدث عن قرار «العودة» ومهمة لجنة التوفيق في تنفيذ «العودة».

وتطلعت جماهير اللاجئين من الخيام إلى الأمل المنشود واليوم الموعود، تنتظر قدوم لجنة التوفيق إلى البلاد، لتعيد اللاجئين إلى مدنهم، إلى قراهم، إلى مزارعهم، إلى مصانعهم. . إلى الوطن السليب. . إلى الوطن الحبيب.

وتجاهلتُ حتى جهلتُ مع الجاهلين، وانتظرت مع المنتظرين، وما أنا إلا واحد من اللاجئين. . أعيش آلامهم وأحلم أحلامهم.

وعشت أياماً معدودات، أنتظر قدوم لجنة التوفيق، لأعود مع العائدين.

«بروتوكول لوزان» ليس سمكة ولا ضفدعة

مضت بضعة أسابيع على القرار الصادر من الأمم المتحدة في ٩ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٤٨ في مشاورات بين واشنطن وباريس وتركيا لاختيار ممثلي هذه الدول في لجنة التوفيق الدولية التي أنيط بها بحث قضية فلسطين. وكان أن وقع الاختيار على «اثردج» ممثلاً لأمريكا، ويوازنجيه ممثلاً لفرنسا، وتوفيق رشدي ممثلاً لتركيا، ومع كل منهم عدد من المعاونين.

وكان الممثل الأمريكي ممثلاً حقاً، فهو عمل في شركات السينما والأفلام، وكان الممثل الفرنسي دبلوماسياً في وزارة الخارجية الإفرنسية، أمّا توفيق رشدي أراس فهو من أتراك الدولة العثمانية وكان وزيراً للخارجية التركية في عهد مصطفى كمال (أتاتورك) وبهذا التأليف المتنافر أصبحت لجنة التوفيق ذاتها في حاجة إلى لجنة توفيق تؤلف بين شخصياتها المتباينة المتباعدة.

ووصلت اللجنة إلى البلاد في ختام شهر شباط/ فبراير سنة ١٩٤٩ وكان طبيعياً أن تبدأ اتصالاتها في تل أبيب أولاً، فإن فيها مفتاح الموقف، ثم انتقلت إلى بيروت للاجتماع بوزراء خارجية الدول العربية.

وتم الاجتماع في إحدى صالات فندق «سان جورج» وحضر الاجتماع وزراء خارجية مصر وسوريا ولبنان والأردن فهي الدول التي تتركز فيها جماهير اللاجئين. . . وحضرت هذا الاجتماع مع السيد خالد العظم وزير خارجية سوريا، فقد عدت مستشاراً للحكومة السورية بعد أن انتهت رئاستي للوفد الفلسطيني في الأمم المتحدة لدورة ١٩٤٨.

وقد بدا «اثردج» بوصفه رئيساً للجنة، والرياسة دورية بين الدول الثلاث، مرحباً بالوزراء، ولخص مهمة اللجنة بأنها «للتوفيق» بين الفرقاء، وأوجز موقف تل أبيب كما سمعه من بن غوريون رئيس وزراء الحكومة المؤقتة لإسرائيل:

أولاً: إن إسرائيل ترغب في أن تتحول اتفاقيات الهدنة إلى اتفاقيات صلح.

ثانياً: إن مشكلة اللاجئين لا يمكن أن تحل إلا في إطار تسوية عامة.

ثالثاً: إن الأمم المتحدة وبالتالي لجنة التوفيق ليست لها سلطات تنفيذية.

رابعاً: إن المادة ١١ من القرار الصادر في سنة ١٩٤٨ لا يعطي اللاجئين حقاً مطلقاً في العودة، وإن العودة مشروطة «في أول وقت عملي والعيش بسلام مع الجيران». وذكر رئيس اللجنة أنّه يريد أن يستمع إلى رأي الوزراء العرب في هذا الموضوع، فتكلم الوزراء بما فيه الكفاية وشرحوا حق اللاجئين في العودة إلى وطنهم كحق طبيعي وأسهبوا في تفصيل القضية الفلسطينية مع التوكيد على رفض قرار التقسيم وعدم الاعتراف بكل ما نشأ عنه.

وفي صدد اختصاص لجنة التوفيق والشروط الواردة في الفقرة ١١ ذكر السيد خالد العظم للجنة التوفيق أنّه يفضل أن تستمع اللجنة إليّ لأشرح هذه الجوانب لوقوفي على تفاصيلها في دورة الأمم المتحدة.

وتوليت الكلام مستعرضاً ما قالته وفود الدول الأعضاء في الأمم المتحدة بصدد حق العودة، وإنه حق طبيعي وأصيل غير مقيد بشرط، وذكرت اللجنة بأن الأمم المتحدة قد أقرّت في تلك الدورة وفي اليوم التالي لقرار العودة، ١٠ كانون الأول/ديسمبر، ميثاق حقوق الإنسان الذي صادقت عليه المنظمة العالمية بالإجماع، وينص على حق كل مواطن «في الخروج من بلده والعودة إليه متى شاء».. ثم ختمت حديثي بملاحظة استيقظ لها العضو التركي «أراس» وكان يغمض عينيه تحت وطأة السنين.

قلت إن قرار العودة لم يذكر حكومة إسرائيل الموقتة من قريب أو بعيد، لقد تجاهل وجودها، وبالنسبة إلى اللاجئين فإن عبارة القرار أشارت إلى العيش بسلام مع «جيرانهم» والجيران شيء وحكومة إسرائيل شيء آخر. وكانت نكتة قانونية ضحك لها الجميع!

وقد أمسكت اللجنة ببياناتها ومداولاتها عن إبداء أي رأي في أيّ اتجاه، ولاذت بالصمت حتى في قضية اللاجئين التي أصرّت الوفود العربية أن تكون القضية الأولى في أبحاث اللجنة.

والواقع أن موضوع اللاجئين كان محور التكتيك بيننا وبين إسرائيل، فقد كنا نصرّ على أن تبادر اللجنة إلى اتخاذ التدابير العملية لإعادة اللاجئين إلى مدنهم وقراهم. فإن اللجنة في بيروت، واللاجئون في الخيام حول فلسطين، والأمر لا

يتعدى «السماح» بالعودة حتى يصبح كل لاجئ في منزله وعلى أرضه.

ولقد كان هذا المنطق بسيطاً وسهلاً وواجب التنفيذ، غير أن إسرائيل، ومفاتيح البلاد بأيديها، كانت تراوغ وتخادع، وتربط موضوع اللاجئين بالقضية الفلسطينية برمتها.. وهيهات أن تحل القضية الفلسطينية وكيف ومتى، وكما أعلنت أمام لجنة التوفيق يومئذ، أن إسرائيل تريد أن تربط موضوع اللاجئين بصخرة جبل طارق لا تتحرك إلا إذا تحرك الجبل.

ولقد تجنبت اللجنة أن تتخذ موقفاً حاسماً، ولم تلْقِ بالاً إلى مطالب جماهير النازحين الذين كانوا يتأهبون للعودة إلى بلادهم سيراً على الأقدام، في الوديان وعلى الجبال.. وأعلنت اللجنة في النهاية أن المباحثات مع الفريقين كانت مفيدة جداً ولكن...

ولكن.. استدركت اللجنة بأن المشاكل التي تقع ضمن اختصاص لجنة التوفيق تتطلب بحثاً تفصيلياً مستفيضاً من النواحي السياسية والقانونية والفنية.. و... و.. وأن الأمر يقتضي اجتماعات متواصلة مع الفريقين في مكان محايد.. وأعلنت اللجنة أن المكان المحايد هو مدينة لوزان في سويسرا.

ولقد أوحت كلمة «لوزان» حيث عقدت معاهدة لوزان بعد الحرب العالمية الأولى، أننا سندخل في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل بغية الوصول إلى معاهدة الصلح، ولكن اللجنة بادرت إلى النفي القاطع، وأعلنت أن المباحثات ستكون مع اللجنة مباشرة.. فجاء هذا الإعلان يثلج صدورنا، وقبلت الوفود الدعوة... وإلى لوزان شددنا الرحال.

وأحسست أنني أمام طريق طويل المدى في العمل السياسي، ولا بد من شيء من الاستقرار في ذلك الجو العربي البعيد عن الاستقرار، فاعتزمت على الإقامة في مصر، على أن تظل الطائرة حجرتي في الجو تنقلني في العالم الدولي من عاصمة إلى عاصمة.. فانتقلت إلى القاهرة.. وكانت إقامتي في بيروت، ولم أكد أهيئ منزلي في القاهرة حتى بادرني الأمير نسيب شهاب القائم بأعمال السفارة السورية في القاهرة ببرقية عاجلة تستحثني على السفر إلى لوزان للالتحاق بالوفد السوري أمام لجنة التوفيق.

وانطلقت بي الطائرة في صباح اليوم التالي، عبر البحر الأبيض المتوسط بزرقته الصافية ثم فوق جبال الألب بقممها الناصعة الساطعة، وهبطت بي الطائرة في جنيف ومنها إلى لوزان،.. وأنا لا ألقي إلى هذه المفاتن العجيبة إلا نظرات خاطفة.. فإن الآمال الكبار للشعب الشريد تنتظرني وراء الباب، وأنا أحسب أنها بضعة أسابيع

ونزف البشرى إلى أهل فلسطين: أن ادخلوا بسلام آمنين.

وانقضى يومان أو ثلاثة وتجمعت الوفود الأربعة: فكان الوفد المصري مؤلفاً من السيدين عبد المنعم مصطفى وعبد المجيد اللبان وأُلحق بهما السيدان موسى الصوراني ورشدي الشوا من قطاع غزة. . والوفد اللبناني من السادة فؤاد عمون ومحمد علي حمادة وجميل مكاوي. والوفد الأردني من السادة فوزي الملقي وخليل عبد الهادي ووليد صلاح وموسى عبد الله الحسيني، والوفد السوري من السادة عدنان الأتاسي وفريد زين الدين وعمر الجابري وأنا. . أمّا لجنة التوفيق فقد تغير تأليفها بعض الشيء، فقد تشكلت من مجموعة من المتقاعدين، فكان «بالمر» ممثلاً للولايات المتحدة، ويوازنجيه ممثلاً لفرنسا وحسين جاهين يالتشن ممثلاً لتركيا، وكان «سكاراتي» السكرتير العام للجنة.

وعلى هذا فقد شهدنا صوراً جديدة في لجنة التوفيق، فالمندوب الأمريكي محال على المعاش منذ زمن طويل. . والمندوب التركي من مخلفات حزب الاتحاد والترقي أيام الدولة العثمانية وكان يرأس تحرير جريدة **طنين** وكان وجوده في اللجنة من غير «طنين»، أمّا سكاراتي فقد كان لاجئاً سياسياً من بقايا العهد الملكي في إسبانيا.

ومع هذا كله، فقد كنا نرجو الخير أو بعض الخير من لجنة التوفيق. . فنحن قوم منكسرون منهزمون، واليهود منتصرون وما علينا إلا أن نقول ما قال الشاعر:

منى إن تكن حقاً تكن أسعد المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

وبدأت اجتماعاتنا مع لجنة التوفيق، فكان الجانب العربي مجتمعاً يوم، والوفد الإسرائيلي في يوم آخر. . وكنا أكثر عدداً من الوفد الإسرائيلي، ولكنه وفد واحد وراءه حكومة واحدة، ونحن اربعة وفود ووراءنا أربع حكومات. .

وكنا نحرص أن نلتقي بلجنة التوفيق مجتمعين حتى لا ينزلق أحد بكلمة أو ينفرد بموقف. والواقع أننا كنا نخشى أن «يفلت» الوفد الأردني من أيدينا، فقد كان على رأس الوفد الإسرائيلي الدكتور إيتان، وكان قبل وصوله إلى جنيف قد سافر إلى عمان على رأس بعثة إسرائيلية، واجتمع بالملك عبد الله، وقدم إليه هدية هي التوراة في غلاف من الفضة المزخرفة، وعلى الصفحة الأولى منها خريطة لإسرائيل تمثل فلسطين وسوريا ولبنان والأردن والعراق والحجاز، هدية «يتشرف رئيس الوزراء بن غوريون بتقديمها عربونا على الاحترام العميق الذي يكنّه لجلالة الملك عبد الله بن الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية».

وعلى كل حال فقد كان «الأردن» في لوزان خيراً من الأردن في عمّان. فقد استطعنا نحن الوفود العربية أن نحافظ على تماسكنا وأن نحتفظ بوحدتنا.

وكانت الاجتماعات في بادئ الأمر عرضاً عاماً للقضية الفلسطينية مع التركيز على التكتيك العربي في أن قضية اللاجئين يجب أن تحل أولاً، فهي القضية الملحّة.. وهي القضية الإنسانية.. وهي القضية التي خصها قرار ١٩٤٨ بالنص الخاص.

ثم اتجهت اللجنة إلى وضع «إطار عام» لمباحثاتها مع الفريقين، ليكون منطلقاً للشروع في خطوات عملية، فاقترحت صيغة «بروتوكول» يوقعه كل جانب مع اللجنة مباشرة في وثيقة منفصلة.. وذلك تجنباً لأن يكون وثيقة مشتركة.

وامتدت اللقاءات وراء الكواليس في هذا الموضوع، وكان «يوازنجيه» ممثل فرنسا لولب هذا الاقتراح، وقد اخترنا السيد فؤاد عمون ممثلاً للجانب العربي في هذه الاتصالات.

ودار الجدل حول الكلمة في موضعها، والنقطة في مكانها، والفاصلة في ترتيبها.. إلى أن وضعت الصيغة النهائية ووقعها الوفد الإسرائيلي أولاً في جلسة خاصة، ثم وقعت الوفود العربية في جلسة تالية.. وهذه هي حكاية «بروتوكول لوزان».

وأخذنا بعد انفضاض الجلسة نتجاذب أطراف الحديث، وكانت اللجنة منشرحة كل الانشراح لهذا النصر العظيم الذي حققته، بتوقيع البروتوكول وراحوا يشيدون بمزاياه، وإنّه مفتاح الموقف، وإنّ فيه اعترافاً بحق اللاجئين في العودة والتعويض.. وإنّ فيه. وإنّ فيه.

وكنت أسمع إلى هذا الحديث في صمت عميق وإذا بالمندوب الأمريكي يسألني:

«بماذا يفكر المستر شقيري؟»

قلت: «أفكر في «البروتوكول»».

قال: «وماذا ترى فيه؟»

قلت: «إنه لن يكون أقوى من قرار الأمم المتحدة سنة ١٩٤٨ ولا أرى فيه جديداً».

قال: «ولكن الفرق. . . أن البروتوكول يحمل توقيع إسرائيل».

قلت: «إن إسرائيل قد وقّعت. . على أن تبحث مع اللجنة «حق اللاجئين في العودة الخ». هذا التزام بالبحث. . وبالبحث فقط. . وإسرائيل قادرة أن تبحث إلى آخر الزمان».

قال: «ولكن هذه خطوة مهمة».

قلت: «في اللغة التركية تشبيه رائع، يعرفه العضو التركي، وينطبق على البروتوكول. . »

قال: «وما هو؟»

قلت: ««نه شيش ـ نه كباب ـ وترجمته بالعربية لا شيش (سيخ) ولا كباب. . . »

قال: «المثل بالإنكليزية: لا سمكة ولا ضفدعة».

قلت: «لقد خرجت من فمك. . هذا هو البروتوكول».

قال: «الدبلوماسي يجب أن يكون متفائلاً دائماً».

قلت: «أنا لاجئ. . . ولست دبلوماسياً وسنترك الأمر للأيام».

وانتهى الحوار. . لنبدأ العمل في الجلسات التالية ونرى مصير البروتوكول.

أهو شيش أم كباب؟

أهو سمكة أم ضفدعة؟

وراحت الأيام تثبت أنه لا هذا ولا ذاك.

شاريت في المرحاض يرفض أمريكا

تمّ توقيع «البروتوكول» على وثيقتين منفصلتين، واحدة تحمل تواقيع الوفود العربية، والأخرى تحمل توقيع الوفد الإسرائيلي، وكان أشبه باتفاق مباشر مع لجنة التوفيق لتحديد إطار العمل ومضمونه، وعرف في ما بعد «بـ «بروتوكول لوزان»» وهو يحتل مكانه الآن في سجلات الأمم المتحدة، كمعاهدة لوزان التي اتخذت مكانها في أدراج عصبة الأمم البائدة.

وبهذا هيأت اللجنة نفسها لتنفيذ اختصاصاتها التي نص عليها قرار ١٩٤٨ في:

أولاً: تسوية النزاعات المعلقة بين الطرفين.

ثانياً: وضع نظام دولي لمنطقة القدس وحماية الأماكن المقدسة.

ثالثاً: عودة اللاجئين وتعويضهم.

وفي جلسة طويلة عقدناها مع لجنة التوفيق تقرر إنشاء ثلاث لجان فرعية تنبثق عن لجنة التوفيق: اللجنة العامة وتختص ببحث النواحي العامة للقضية وتدخل فيها الجوانب الإقليمية. اللجنة الثانية وتختص بموضوع التدويل، واللجنة الثالثة «الفنية» لبحث الإجراءات العملية لعودة اللاجئين والمحافظة على أملاكهم.

وباشرت اللجان عملها، جلسة مع الوفود العربية، وجلسة مع الوفد الإسرائيلي، وكان لهذه الجلسات محاضر موجزة تلخص البيانات التي تدلى فيها.. وبدأنا نجمع المحاضر في ملفات.. ونناقش ونجادل كأننا في مرافعات.. وتضخمت الملفات وتورمت، والوفود العربية ماضية بكل جد في هذه التجربة.. فقد وقعت الدول العربية في ذلك الوقت تحت عقدة «لا» وغدت تبدأ تقول «نعم» حرفاً حرفاً.. وذلك أن العرب قد اتهموا على مدى ثلاثين عاماً بأنهم رفضوا كثيراً من الحلول السياسية، إسرافاً وتطرفاً، ولكنهم بعد فوات الوقت يعودون ليطالبوا بتنفيذ ما رفضوا.. ولهذا فقد سادت العالم العربي في أواخر الأربعينيات موجة «الإيجابية» والابتعاد عن السلبية.

وكانت لجنة التوفيق والاتصال بها أولى الخطوات في هذه الإيجابية. . بل إن ««بروتوكول لوزان»» هو في صميم الإيجابية، فقد أُلحقت بهذا البروتوكول «خريطة التقسيم» لتكون أساساً للبحث، وهو التقسيم الذي رفضناه في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨.

والوفود العربية، احتاطت وتحفظت وتحرزت حتى لا يكون ذلك اعترافاً أو تسليماً أو تنازلاً. . ولكنها كانت خطوة على طريق «الإيجابية» لا جدال في ذلك ولا شك.

وطال الأخذ والرد ونبلورت مطالب الوفود العربية في ما يلي:

١ ـ انسحاب إسرائيل إلى خطوط التقسيم والتخلي عن المناطق المخصصة للعرب.

٢ ـ عودة اللاجئين، بلا قيد وشرط، إلى المناطق المخصصة للعرب.

٣ ـ إتاحة الفرصة ليعود من يشاء ويُعوَّض من يشاء، من اللاجئين الذين نزحوا من المناطق المخصصة لإسرائيل.

٤ ـ في حالة رفض إسرائيل إعادة اللاجئين المنصوص عليهم في البند الثالث، تسلخ من إسرائيل الأراضي الكافية لإسكانهم، وتضم تلك الأراضي إلى المناطق المخصصة للعرب.

٥ ـ تدويل منطقة القدس أو تجريدها من السلاح (مع تحفظ الأردن).

وكان الوفد الإسرائيلي يسوّف ويؤجل انتظاراً للتعليمات، واستيفاء للبيانات، واستكمالاً للإيضاحات. . فنحن الذين كنا على عجل، على جمر الغضى، فإن الجماهير تنتظر في الخيام. . وإسرائيل تأخذ الأمور على مهل فهي باسطة ذراعيها على وطننا، تستبيح خيراتنا ومواردنا.

وفي إحدى الجلسات انفجرتُ في ثورة، فقلت للجنة التوفيق: «نحن هنا ناعمون في الفنادق الفخمة على ضفاف البحيرة الفاتنة، وأهلنا في الخيام يتضورون جوعاً، يبصرون كل صباح مدنهم وقراهم، وإسرائيل تعيش على زيتونهم وأعنابهم وبرتقالهم. . وتقيم في مساكنهم.، وتنام على فراشهم. . و. . »

وكانت من غير شك، ثورة حق وعدل، ولكن لم يكن وراءها في الوطن إلا الحق والعدل يعشعشان بين انقاض الانكسار والهزيمة، وأي جدوى من ثورة الكلام في لوزان، إذا لم تكن ثورة السلاح ناشبة في الجبال والوديان.

وقضينا ثلاثة أشهر في هذا الحوار، وبدا واضحاً أن إسرائيل تعارض في تدويل

منطقة القدس، وترفض عودة اللاجئين، ولا ترى مجالاً لبحث الناحية الإقليمية إلا في نطاق «تجليس» الحدود، فتعطي قرية لتأخذ أخرى. . حذوك النعل بالنعل.

وشدَّدنا على لجنة التوفيق أن ترفع تقريرها إلى الأمم المتحدة، وتشير بإصبعها إلى الجاني. . إلى الذي يرفض تنفيذ قرار الأمم المتحدة. . وسيكون لنا في الأمم المتحدة مجال. . وسيكون لإسرائيل حساب.

هكذا كنا نتصور الأمور. . فنحن قوم مبتدئون في الحياة الدولية. . نحسب أن الأمم المتحدة قادرة على أن تعيد اللاجئين وتُدوّل القدس وتسحب إسرائيل إلى المناطق المخصصة لها. . وانصاعت لجنة التوفيق لرغبتنا، فقدمت تقريراً إضافياً إلى الأمم المتحدة، ثم شرحت فيه مراحل عملها «وإنجازاتها». . وأعلنت رفض إسرائيل لعودة اللاجئين وتدويل القدس. . تاركة الباب مفتوحاً لتستأنف اللجنة عملها في المستقبل، ففي ذلك إلهاء للعرب من ناحية دولية، وفيه عمل جديد لهذه المجموعة من الدبلوماسيين المتقاعدين.

ووصل إلينا التقرير، مبوباً مفهرساً، فأخذنا في قراءته وإنعام النظر في فقراته، نضع إشارة هنا وإشارة هناك حيث نجد عبارة في صالحنا. . نتسلح بها «في جولتنا» القادمة في الأمم المتحدة، أمّا جولتنا في ميدان الكفاح فقد كانت تسبح في أفلاك التمنيات.

وسافرنا إلى الأمم المتحدة لحضور دورة سنة ١٩٤٩، نحمل قلباً يفور بالحقد والمرارة. ولساناً أرهفناه لليوم الموعود. . وحقيبة مليئة بالتقارير والمذكرات. . ذلك كله كان رأس مال القضية الفلسطينية. عند شعب فلسطين وعند الدول العربية.

وسافر وفد إسرائيل وعلى رأسه شاريت وزير الخارجية، يمثل واقعاً إسرائيلياً يتجسد في قيام حكومة لها جيشها، وتمارس سيادة إقليمية، معترفاً بها من عدد من الدول في مقدمتها الدول الأربع العظمى. . وفي المقدمة أمريكا والاتحاد السوفياتي.

وكانت الأمم المتحدة في ذلك العام تقيم في «ليك ساكسس» على مسيرة ساعة بالسيارة من نيويورك. وكنت أروح وأغدو كل صباح ومساء إلى مقر الأمم المتحدة، وسط هذه الأحراش الجميلة والغابات الفاتنة، أبصرها ولا أكاد أراها، فقد كان فؤادي في شغل في ما سأقول، وما سأكتب وما سأجادل، وكانت هذه الأحراش في فصل الخريف أشبه شيء بالامم المتحدة. . . فقد كانت أوراق الشجر يتغير لونها كل يوم. . من الأخضر إلى الأحمر إلى القرمزي إلى الأسمر. . حتى إذا بهت لونها تساقطت على الأرض لتحملها الرياح من غابة إلى غابة ومن رابية إلى رابية. . وكذلك كانت الأمم المتحدة بأزياء وفودها من العالم القديم إلى العالم الجديد. . تتساقط فيها

قضايا الشعوب . . إلا ما كان وراءه كفاح وسلاح . . وبدأت معاركنا في كل الجهات، وشحذت قريحتي وذاكرتي في كل مجال . . فلم أترك لجنة من لجان الأمم المتحدة إلا وأقحمت عليها موضوع فلسطين، ولا بنداً على جدول أعمال الأمم المتحدة إلا وذيلته بقضية فلسطين.

ولقد أسهبت في شرح القضية الفلسطينية في ضوء تقرير لجنة التوفيق، فتكلمت عن قضية اللاجئين بحرارة وإسهاب، ووقائع وأرقام . . وبكى كثير من الرجال والنساء الذين كانوا في جناح الزائرين . . وتحدثت عن قضية القدس مستعرضاً تاريخها الجليل، ومقدساتها الحافلة بالذكريات، مشيراً إلى قرب أعياد الميلاد ورأس السنة وما تحمل من مشاعر الورع والتقى . . وبكى كثير من أعضاء وفود أمريكا اللاتينية.

وفي اللجنة القانونية (السادسة) وكان البحث يدور حول موضوع حقوق الدول وواجباتها، تحدثت إلى تلك الجمهرة من رجال القانون في العالم عن «الحقوق والواجبات» واستدركت إلى السؤال: ولكن ما هو تعريف الدولة أولاً، قبل أن نمنحها الحقوق والواجبات؟ واستعرضت آراء رجال القانون في «الدولة» ونشوئها وتطورها ووفاتها، وأنكرت على إسرائيل أن تكون «دولة» لها المؤهلات والمقوّمات القانونية اللازمة . . . وصافحني أعضاء اللجنة مهنئين بهذا البحث القانوني . . وهذا يسأل أين تعلمت القانون؟ وذلك يسأل أين تعملت الإنكليزية؟ والقاضي هدسون كبير علماء القانون الدولي في أمريكا يهنئني بكل حرارة وإعجاب وتقدير . . وأنا أقول له: «أريد سلة ثمار . . لا باقة أزهار».

وهكذا مضت الدورة، كلها عمل متواصل، واتصالات مستمرة، وخطب متلاحقة . . وأنا أحسب أننا سنقيم الدنيا ونقعدها على إسرائيل . . وأن العالم المسيحي سيثور على إسرائيل . . وأن دول أمريكا اللاتينية ستكون نصيرة لنا في كل ما نطلب . . في إدانة إسرائيل . . في فرض العقوبات على إسرائيل . . في إلزام إسرائيل بمشيئة الأمم المتحدة، وقرارات الأمم المتحدة.

وبدأت تنجاب أمامي السحب وتبدو الأمم المتحدة على حقيقتها . . وبدأ المظهر ينفضح أمام الجوهر . . ولقد بدا لي لأول وهلة أن الأمم المتحدة مؤلفة من خمسين دولة. وهكذا كان العدد أو يزيد قليلاً، ولم أكن أرى هذا العدد مربوطاً بالخيوط الخفية إلى دولتين عظيمتين هما أمريكا والاتحاد السوفياتي . . وفرنسا وبريطانيا على الهامش ولكن الحقائق أخذت تتفتّح أمامي شيئاً فشيئا بالأحداث والمواقف.

وكانت أول فجيعتي بدول أمريكا اللاتينية. فإن وفودهم متدينة، وكانوا لا ينقطعون عن الكنيسة يوم الأحد، وبعضهم كان يبدأ بالكنيسة صباحاً قبل أن يذهب إلى

الأمم المتحدة. . ووفودهم كذلك من رجال القانون. . يفتنهم القانون ويأخذ بتلابيبهم.

واعتماداً على ذلك. . رحت أناشد دول أمريكا اللاتينية بصوت الدين وصوت القانون، لكي يحولوا دون تهويد القدس، بلد السيد المسيح وموطن ذكرياته ومسرح آلامه وعذابه. . وكنت أجد تجاوباً عميقاً أصيلاً في هذه الوفود اللاتينية، المؤمنة بالمسيح وسلطان القانون. . ولكن. .

ولكن حين يأتي دور العمل والتنفيذ. . ودور التصويت. . كانت هذه الوفود المسكينة تقف في المعسكر الأمريكي، مقهورة لا حول لها ولا طول.

وقلت لكبيرهم السيد «بلوندي» مندوب البيرو، وهو شيخهم قدراً وعمراً، وعلماً وإيماناً: «إني استغرب تصرف دول أمريكا اللاتينية».

قال: «لماذا؟»

قلت: «أنتم تخطبون في اتجاه، وتصوّتون في اتجاه آخر، وفي الكافتيريا حيث نشرب القهوة تتكلمون في اتجاه مناقض للأول والثاني معاً. . فما هو السر؟»

قال: «لا تعجب يامستر شقيري، هذه التعلميات جاءتنا من حكوماتنا منذ شهرين، وحكوماتنا تلقت التعليمات قبل ذلك بأسبوعين».

قلت: «ومن أين تلقت حكوماتكم التعليمات؟»

قال: «يا صديقي. . أنت خطيب عظيم. . ولكن تعليمات واشنطن أعظم».

قلت: «نعم لقد فهمت».

قال: «أريدك أن تفهم شيئاً أهم. . اذهبوا إلى بلادكم، حاربوا وانتصروا. وستكون الأمم المتحدة معكم».

ولم تكن هذه الحقائق البسيطة غائبة عني، وعن كثير من العرب، ولكني أحببت أن «أستجلي» هذا الدبلوماسي العجوز على «كرسي الاعتراف» ليدلي إليّ «بالخطايا الدولية» التي تقترف في «حرم» الأمم المتحدة وقدس أقداسها.

وبعد أن انتهت الخطب والمداولات جاء دور «القرار» الذي يحسن بالأمم المتحدة أن تتخذه بشأن القضية الفلسطينية وتقرير لجنة التوفيق، وكان الوفد الأمريكي فارس هذه الجولة. . يضع صياغة القرار ويعرضها على الوفود، ويضعها أمام الأمر الواقع.

ولكن إسرائيل لم تكن «الدولة» التي يستطيع الوفد الأمريكي أن يضعها حيال الأمر الواقع. . فقد كانت وراء إسرائيل الصهيونية العالمية، وكان لإسرائيل «ترومان» نصيرها

الكبير في البيت الأبيض، وكانت الخارجية الأمريكية تضغط على يد إسرائيل بقفاز من الحرير. .

ووقع حادث لا أنساه. . وكأني لا أزال الآن أسمعه وأراه.

كنت في المرحاض أصلح شأني. . وهو رواق كبير يتسع لعدد كبير من الذين يريدون أن يصلحوا شأنهم، ودخل شاريت وزير الخارجية الإسرائيلية ليصلح شأنه، ووقف أمام المرحاض يتخفف من البول. . وتبعه على الأثر «المستر بورتر» من أعضاء الوفد الأمريكي. . ليتخفف من البول إلى جانبه.

وتحدث الأمريكي إلى شاريت حديثاً لم أفهمه.

فأجابه شاريت: «أبداً هذا مستحيل».

فأعاد الأمريكي الحديث.

وأجاب شاريت: «هذا غير معقول. . نحن لا يمكننا أن نقبل، إن شعبنا يرفض هذا». وكان شاريت بادي الغضب والجد. . ويتحدث إلى هذا الأمريكي من غير مبالاة أو اكتراث.

ولقد أدركت أن المستر بورتر كان يحاول التماس موافقة شاريت على أمر ما في مشروع القرار الأمريكي بشأن قضية فلسطين، وكان شاريت يرفض بعناد وتصميم.

ولم يكن الوفد الأمريكي، بطبيعة الحال، في حاجة إلى أن يلاحق بعض الوفود العربية إلى المرحاض ليقنعها بما يريد، فقد كانت بعض العواصم العربية تدور في فلك أمريكا من غير ضغط ولا رجاء. . لا في المرحاض ولا خارج المرحاض. .

ووافقت الأمم المتحدة على المشروع الأمريكي، داعية لجنة التوفيق إلى أن تستأنف مهمتها، ومجلس الوصاية إلى وضع دستور لتدويل القدس. . ومناشدة الفريقين التعاون لتنفيذ القرار.

وكانت صيغة القرار هادئة وناعمة من غير شك، ليس فيها إدانة لإسرائيل، ولا تهديد بالعقوبات، ولا التزام بالحقوق والواجبات. لقد كان القرار كما عبرت في الجلسة الختامية. . قراراً بلا أسنان.

وكان التفسير الوحيد لذلك القرار الهزيل. . أن شاريت قد رفض رجاء أمريكا.

أجل لقد رفض رجاء أمريكا وفي المرحاض!

إيبـان لـم يهمـس ولـم ينبـس

عادت الوفود العربية إلى بلادها في أخريات الدورة لعام ١٩٤٩، وعدت إلى دمشق لأقدم تقريراً إلى الحكومة السورية عما آلت إليه الأمور بصدد القضية الفلسطينية، وكانت أخبار الأمم المتحدة ومداولاتها قد سبقتنا إلى أسماع الأمة العربية، وإلى جماهير الشعب الفلسطيني خاصة. وكان همّ اللاجئين أن يتجمعوا حلقات في مخيماتهم ليستمعوا إلى الاذاعات وهي تنقل الأخبار عما يجري في قضيتهم في أورقة الأمم المتحدة.

وفي دمشق زارني عدد من وفود اللاجئين يستوضحون في نقمة وغضب.. عما كان وما سيكون. ولماذا ما قلنا هذا.. وما عملنا ذاك.. وإلى متى هذا الانتظار؟... وكان بعضهم يسأل لِمَ لَمْ ننسحب من الأمم المتحدة؟ ولماذا لم نطلب فرض العقوبات على إسرائيل؟

وكنت أشرح وأوضح لوفود اللاجئين جهدنا في الأمم المتحدة، جهد المقلّ، وأنا أدعوهم إلى المزيد من الصبر، والثقة بالمستقبل، لم أكن انجو، وهم يردون عليّ، من ملاحظات موجعة وانتقادات لاذعة، كأنني المسؤول عن نكبتهم والعقبة دون عودتهم.. وكنت أصبر على ذلك، فما أنا إلا لاجئ مثلهم غضبتهم غضبتي، ونقمتهم نقمتي.

وأقبل ربيع عام ١٩٥٠ وإذا «بالأمر» يصدر أن أسافر إلى سويسرا لأُمثل الحكومة السورية أمام لجنة التوفيق وهي تستأنف عملها من جديد، ولأمثلها كذلك في مجلس الوصاية الذي ينعقد في جنيف لوضع مشروع دستور لمنطقة القدس.. فاستخرت الله وصدعت بالأمر.

وغادرت حجرتي في الفندق إلى مقعدي في الطائرة، وحومنا فوق غوطة دمشق وهي تتنفس أريجاً وعطراً، ومددت يدي إلى حقيبتي، إلى ملفاتي، أُقلبها وأقرأ المذكرات والتقارير، ولم أرفع بصري إلا حين سمعت قائد الطائرة يقول: «هذه جبال الألب على يمينكم». ومددت بصري من وراء النافذة إلى جبال الألب مكسوة بالثلوج

يلفها رداء ذهبي من شعاع الشمس. وفي ومضة خاطفة عادت بي الذاكرة أحد عشر قرناً إلى الوراء، وكادت الكلمة أن تقفز على لساني: «هنا كان العرب يقفون على ممرات الألب يفرضون على المسافرين الإتاوات. . وهنا كانت «مخافر» العرب تفتش حقائب الغادين والرائحين».

ورحت أضرع وأتوسل: «فيمَ يا رب هذا العذاب، ولِمَ هذا العقاب. . لقد كنا حكاماً على هذه القمم الشماء، ونجيء اليوم نلتمس تدويل القدس في جنيف. . . ونتوسل عودة اللاجئين من لجنة التوفيق. . لجنة الدبلوماسيين المتقاعدين».

ولم أَصحُ من هذه الأشجان والذكريات إلا حين هبطت بنا الطائرة في مطار جنيف وقد ألقت الثلوج من حوله غلالة ناصعة السناء والبهاء.

وقد اختارت لجنة التوفيق أن يكون مقرها هذه المرة في جنيف بدلاً من لوزان. . ومن يدري فلعل المكان يفتح آفاقاً جديدة من العمل. . وكان هذا الرأي متفقاً مع رغبتنا فإن مجلس الوصاية سيعقد جلساته في جنيف في مقر عصبة الأمم البائدة وقد أصبح المقر الاوروبي للأمم المتحدة.

وصرنا نتعاقب على العمل فترة مع لجنة التوفيق، وفترة أخرى في مجلس الوصاية، وصادف هذا التدبير هوى في نفوس أعضاء لجنة التوفيق، فكلما امتد العمل تعاقبت الشهور وتوالت معها الرواتب. . أمّا اللاجئون، فهم في خيامهم مستقرون إلى يوم يبعثون.

وتجمعت الوفود العربية مرة ثانية في جنيف فأخذنا نتشاور ونتباحث. . ماذا نعمل وكيف نعمل. . وجاء عن إسرائيل وفدان، واحد يمثل إسرائيل أمام لجنة التوفيق يرأسه «ايتان» والثاني يمثلها أمام مجلس الوصاية يرأسه «إيبان».

ومرة ثانية كانت اجتماعات جنيف خطوة واسعة في الإيجابية. . . والابتعاد عن السلبية. . ففي لجنة التوفيق قضينا الأسابيع تلو الأسابيع ونحن نكرر مطالبنا في إطار «بروتوكول لوزان»، وما ينطوي عليه من تطبيق عملي لقرار التقسيم. . حتى لقد ذهبنا إلى الموافقة على تأليف لجنة فنية مشتركة من العرب واليهود لتنظر في المحافظة على البيارات العربية وصونها من التلف والهلاك. . . واستلام ريعها ودفعه لأصحابها. والوفد الإسرائيلي يطلب التعليمات من تل أبيب، وينتظر التعلميات من تل أبيب!!

وبدأنا عملنا في مجلس الوصاية في مناقشة عامة وتكلم عدد من الوفود معبرين عن وجهة نظرهم بصورة إجمالية وجاء دور الوفود العربية وإسرائيل. . فأعلن الأردن وإسرائيل أنهما يرفضان التدويل رفضاً باتاً. . وأشار إيبان إلى أن الأماكن المقدسة هي

في القدس القديمة في حوزة الأردن. . وأنّ القدس الجديدة ليس فيها مقدسات ذات شأن. . وأنّ إسرائيل على كل حال مستعدة لإعطاء التأكيدات القاطعة بحماية الأماكن المقدسة الموجودة في إسرائيل وتوفير حرية الزيارة والعبادة. . وفي ختام حديثه قرأ إيبان نص خطاب ألقاه بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل في الكنيست يقول فيه: «إن القدس هي عاصمتنا الخالدة. . كذلك كانت قبل ثلاثة الآف سنة وكذلك ستكون إلى الأبد. . . وإنّ الأمم المتحدة لن تستطيع أن تنفذ التدويل. . . ». وجاء دور الدكتور فوزي الملقي فألقى بياناً عارض فيه التدويل بصورة حاسمة. . وتكلم كل من السيدين عبد المنعم مصطفى وفؤاد عمون في شرح قرار الأمم المتحدة بالتدويل وأنّه تكليف من الهيئة الدولية إلى مجلس الوصاية وما عليه إلا أن يباشر عمله بوضع مشروع الدستور ورفعه إلى الأمم المتحدة لتنظر فيه من جديد. . . وكان هذا الموقف منسجماً مع قرار الجامعة العربية. . وجاء دوري في الكلام فأمسكت بخطاب بن غوريون، منددأ بما قاله من أن القدس هي عاصمة إسرائيل الأبدية. . وما يحمل ذلك من تمرد على الأمم المتحدة. . وما إسرائيل إلا وليدها ولد على فراشها. . وتحدثت بعد ذلك بإسهاب عن تاريخ القدس، ودخول عمر بن الخطاب اليها، والعهد الذي أعطاه إلى نصارى القدس بالحرية والأمان. . وسردت الأرقام والإحصاءات التي تثبت أن اليهود لا يملكون حتى في القدس الجديدة أكثر من ٢٨ بالمئة من أراضيها وممتلكاتها. . ثم لخصت الموقف بالنسبة إلى التدويل على الوجه الآتي:

أولاً: التمسك بالسيادة العربية الكاملة على فلسطين بأجمعها وعلى القدس، شطريها القديم والجديد، في جميع الظروف والأحوال.

ثانياً: أن التدويل هو مرحلة انتقالية حتى يتم الوصول إلى حل نهائي للقضية الفلسطينية على أساس الحق والعدل وحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره في وطنه.

ثالثاً: أن لا يكون التدويل مرحلة تمهيدية لتهويد القدس.

رابعاً: تجريد القدس من السلاح وإعلانها منطقة محايدة.

خامساً: منع الهجرة اليهودية إلى القدس.

سابعاً: أن تكون السلطة الفعلية للأمم المتحدة.

وثار إيبان وهاج وماج، فقد رأى في هذه التحفظات والشروط نسفاً جوهرياً للتدويل تحت شعار التدويل، وما هو أهم من ذلك فقد رأى في هذا الموقف إقصاء إسرائيل عن القدس، وإسرائيل ما فتئت تعلن أن إسرائيل من غير القدس جسد من غير رأس، وجثة من غير روح.

فأعلن إيبان رفضه للمقترحات التي تقدمت بها . . وأنّه يستحيل تنفيذها، وأنّ «المستر شقيري» لا شأن له في القدس وليس لسوريا شبر واحد فيها . . وأنّ القدس قديمها وجديدها بيد اثنين، الأردن وإسرائيل، وهما يعارضان التدويل.

وسكت الدكتور فوزي الملقي . . ولم يُحر جواباً . . لقد حشره إيبان في معسكره . . وبرزت الصورة أمام المجلس وكأنما الأردن وإسرائيل متفقان . . وما شأن العرب الآخرين؟

وساد الصمت فترة من الزمن ومجلس الوصاية ينتظر كلمة، ولو نظرية، تكسر الثلج . . فرفعت يدي أستأذن بالكلام . . وحدّق بي رئيس المجلس واعضاؤه ماذا عسى أن أتكلم . . وحدّق بي الملقي وإيبان ماذا عسى أن اقول.

قلت إنني أريد أن اشرح موقف الأردن وعلى مسمع من وفد الأردن . . وأمسك الأعضاء بأقلامهم ينصتون باهتمام . . «والمسكين» فوزي الملقي يتلظى في أسوإ موقف واجهه في حياته.

وبدأت أتكلم عن بسالة الجيش الأردني وعن بطولة الشعب الفلسطيني وكيف أمكن صون القدس القديمة من الغزو الصهيوني والإرهاب اليهودي في عامي ١٩٤٧ و١٩٤٨. وأنه لولا الصمود العربي لاستطاعت إسرائيل أن تحتل القدس القديمة وتجعل المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ردماً وأنقاضاً . . وأنّ الأردن يرفض التدويل لأنه جزء من قرار عام (١٩٤٧) رفضته إسرائيل . . فإذا وافقت إسرائيل على القرار العام فإن الأردن مستعد لأن يعيد النظر في موقفه من التدويل.

ورفع الملقي وجهه يتنفس الصعداء بعد هذا المخرج . . وهو لا يستطيع أن يقول فيه . . لا . وبهت إيبان . . وأصبح في موقف الرفض وحده . . يواجه المجلس وحده.

وختمت حديثي وأنا أوجه إلى المجلس، السؤال الصارخ :

«هل إسرائيل مستعدة للعودة إلى خطوط التقسيم؟»

«هل المستر إيبان، مستعد أن يعلن موافقة إسرائيل على الانسحاب من الأقسام المخصصة للعرب؟» وتحول المجلس، رئيسه وأعضاؤه، إلى المستر إيبان . . ليجيب. ليقول كلمة . . وخيّم على المجلس صمت وسكون . . ولم يهمس إيبان ولم ينبس، وأعلن الرئيس تأجيل الجلسة «إلى الغد لنبدأ العمل».

وخرج إيبان وقد خسر الجولة الأولى.

وعدنا في اليوم التالي إلى العمل . . يضع المجلس مشروع الدستور مادة مادة . .

ثم يجري النقاش حولها. . ومضت ثلاثة أسابيع ففرغ المجلس من المشروع بكامله. . ثم شرع في القراءة الثانية فناقشه، وعدّل وبدّل، وانتهى منه في القراءة الثالثة، وأقرّه بصيغته النهائية ليرفعه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها التي تعقدها في خريف عام ١٩٥٠.

وقد جاء مشروع دستور القدس محققاً لمطالب العرب في مجموعه، فقد نص على حياد المنطقة، وتجريدها من السلاح تحت إدارة دولية فعلية، ونص كذلك على حق العودة للنازحين من القدس، وأن يعودوا إلى منازلهم وأملاكهم، وعلى وقف الهجرة والاحتفاظ بالستاتكو (الوضع الراهن).

وعلى هذا حافظ مشروع الدستور على عروبة منطقة القدس تحت اسم التدويل. .

وفي الجلسة الختامية ألقى إيبان بياناً مطولاً فنّد فيه مشروع الدستور وأنذر المجلس بأن إسرائيل لن توافق على تنفيذه، وأنّها باقية في القدس الجديدة تمارس سيادتها ولن تسمح لأية سلطة دولية بالدخول إليها. . وأنه يناشد المجلس أن يعيد الأمر إلى الأمم المتحدة لتضع تعليمات جديدة في ضوء معارضة إسرائيل والأردن للمشروع، وهما صاحبتا القول الفصل.

وتطلع الأعضاء مرة ثانية إلى السيد فوزي الملقي ليقول كلمة، ولكن أنّي له أن يتكلم والملك عبد الله في عمان يعلنها حرباً شعواء على التدويل. وليته أعلنها حرباً على إسرائيل لاحتلالها القدس الجديدة.

ومرة ثانية طلبت الكلمة وقلت: «إنني أتكلم على مسمع من الأردن. . إذا كانت إسرائيل مستعدة للانسحاب إلى خطوط التقسيم فإن الأردن مستعد أن يعيد النظر في موقفه من التدويل. . فهل المستر إيبان مستعد لإعلان ذلك؟». غير أن إيبان لم يهمس ولم ينبس، وانتهت الجلسة وهكذا خسر إيبان الجولة الثانية.

ولكن أي نصر لنا هذا. . وأي هزيمة لإسرائيل؟ إن النصر في الوطن، والهزيمة في الوطن.

لقد انتصرت إسرائيل في الجولة الأولى في عام ١٩٤٨ فوقعت القدس الجديدة تحت أقدامها، ثم انتصرت إسرائيل في الجولة الثانية في حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧ ووقعت. . . القدس القديمة تحت أقدامها.

وضجّ المسجد الأقصى وامعتصماه! ولا يزال!

وصاحت كنيسة القيامة واقيامتاه! ولا تزال!

شاريت لم يهمس ونوري السعيد لم ينبس

في ربيع ١٩٥٠ كان عملنا ناجحا أمام مجلس الوصاية بالنسبة إلى موضوع «القدس» فقد جاء الدستور محققاً للمطالب العربية، على الورق، وهو أضعف الإيمان.

ولكن عملنا أمام لجنة التوفيق لم يحالفه التوفيق حتى على الورق. . . فقد استمرت المباحثات في حلقة مفرغة تبتدئ من حيث تنتهي. . ثم تعود لتنتهي من حيث تبتدئ. . . واليهودي العادي، بلحمه ودمه، مفاوض مساوم محاور مداور، منذ كان مرابياً إلى أن غدا صرافاً. . وها هو الآن أمام لجنة التوفيق في جنيف صاحب «دولة» يضيف إلى تقاليده القديمة الألاعيب السياسية، تسندها الانتصارات العسكرية في الميدان.

ولم تكن إسرائيل تخفي ذلك بل إنها لم تكن تجد حرجاً لإعلان ذلك. . فقد حاولت أمريكا بقفازها الحريري، ولسانها المغموس بالشهد المصفى، أن «تضغط» على إسرائيل لتكون أكثر تعاوناً مع لجنة التوفيق في أداء مهمتها. . واجتمع السفير الأمريكي في تل أبيب إلى بن غوريون رئيس وزراء إسرائيل، يلتمس ويرجو ويناشد، فما كان من بن غوريون إلا أن أعلن للسفير الأمريكي قوله: «نحن غير مستعدين أن نخسر على مائدة المفاوضات ما ربحناه في ميدان المعركة».

كان ذلك لب الموقف الذي اتخذه الوفد الإسرائيلي أمام لجنة التوفيق لا يتنازل عن شيء إلا في مقابل شيء آخر. . يعلن أنه أعطى في جهة. . وإذا به يسلب أكثر مما أعطى في جهة أخرى.

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وقد أعلنت إسرائيل في بداية المباحثات مع لجنة التوفيق، أنها مستعدة لقبول جميع اللاجئين الموجودين في قطاع غزة، ويبلغون ٣٥٠ ألفاً. . وكانت هذه الخطوة باهرة ومذهلة. . لا يكاد يصدقها العقل.

ثم أردفت إسرائيل بعد ذلك . . «وأنّ إسرائيل لكي تستطيع قبول اللاجئين لا بد أن يضم إليها قطاع غزة». وهكذا لتعود الصورة مظلمة تلفها الظلمات!

وأعلنت إسرائيل مرة أخرى أن خطوط الهدنة غير صالحة . . إنها تثير التوتر والقلق . . إنها متعبة للفلاحين العرب . . إن خط الهدنة يقسم بعض القرى إلى شطرين . . إن خط الهدنة يفصل الفلاحين العرب عن آبارهم ومراعيهم وأراضيهم . . ويجب إزالة هذه المتاعب والمصاعب . . ويبتهج السامع حين يسمع أن إسرائيل تشكو من مشاكل خط الهدنة . . وتشفق على الفلاحين العرب مما يعانون . . المدرسة في القطاع الإسرائيلي والطلبة في القطاع الأردني . . البئر في القطاع الإسرائيلي والمواشي في القطاع الأردني . . المراعي في القطاع الإسرائيلي والراعي في القطاع الأردني . . المستشفى في القطاع الأردني ومطابخه في القطاع الإسرائيلي. الميت في القطاع الإسرائيلي والجبانة في القطاع الأردني . . تلك كلها حقائق نابضة على طرفي خط الهدنة . .

ولكن إسرائيل تردف وتقول يجب أن تضم هذه المواقع الأردنية إلى القطاع الإسرائيلي ليستريح الفلاحون والرعاة والطلاب والمرضى . . ويكون الفلاحون والجنازة والميت على أرض واحدة، رحمة بالموتى وإشفاقاً على الأحياء.

وطال الحوار بيننا في لجنة التوفيق، نريد أن نضع نهاية للمهزلة التي تمثل في جوف المأساة، فإسرائيل لم تبال بقرارات الأمم المتحدة، ولا بـ «بروتوكول لوزان» . . بل إن «بروتوكول لوزان» كان «ورقة رابحة» بيد إسرائيل . . فقد حملتها وذهبت بها إلى مجلس الأمن تثبت التزامها بالواجبات الدولية متقدمة بطلب الانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة.

وكانت فرصة حاسمة للولايات المتحدة . . لو أرادت أن لا توافق على قبول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة إلا حين تذعن لقرارات الأمم المتحدة وتوافق على عودة اللاجئين إلى بلادهم ولكن أنّى لأمريكا أن تفعل ذلك أو ما هو أقل من ذلك . . وإسرائيل هي الولاية الحادية والخمسون في جمهورية الولايات المتحدة!

وكل ما رضيت إسرائيل أن توافق عليه مع لجنة التوفيق هو «تجميع العائلات» والإفراج عن الأرصدة المجمدة.

وقد هللت إسرائيل لهذه الخطوة «العظيمة»، وطبّلت اللجنة مع إسرائيل وزمرت لهذا النجاح العظيم ووجدت فيه «مادة» تضعها في تقرير إنجازاتها ونجاحاتها لترفعه إلى الأمم المتحدة لتقرر استمرار مهمتها . . واستمرار الرواتب لمجموعة الدبلوماسيين المتقاعدين . .

وصادف في ذلك الوقت أن جاء السيد فارس الخوري إلى جنيف ليكون عضواً في لجنة القانون الدولي التابعة للأمم المتحدة، وكان قد تخلى عن رياسة الوزارة السورية.

ودعوت الوفود العربية إلى عشاء مع السيد الخوري وحضر المأدبة أعضاء لجنة التوفيق، وانقلبت المائدة إلى جلسة عمل فأخذ السيد فارس الخوري يشرح الظروف التي صدر فيها قرار التقسيم وكيف أن الولايات المتحدة قد ألقت بكل ثقلها إلى جانب القرار وتحدث عن ذكرياته في فلسطين أيام كان معلماً في عكا، وعن بياناته في البرلمان العثماني عن الحركة الصهيونية وغير ذلك وغير ذلك. .

وهنا تساءل المندوب الأمريكي: «وماذا تستطيعون أن تنصحوا لجنة التوفيق في سبيل أداء مهمتها؟»

فقال السيد فارس الخوري: «إنني الآن مواطن سوري، وكنت بالأمس رئيس وزراء سوريا، وقدأصبح غداً. . ولكن الذي يمثل سوريا أمام لجنة التوفيق هو مضيفنا هذه الليلة، السيد الشقيري، وما يقوله يلزمني ويلزم سوريا بأكملها».

وأطرقت. . وحمدت الله في نفسي وقلت: «العروبة في خير وها إن فلسطينياً «لاجئاً» يمثل دولة بكاملها ويلزمها بما يقول ويفعل».

وقضت اللجنة عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ وهي مشتتة في إطار «تجميع العائلات المشتتة» مجمدة في سراديب «الأرصدة المجمدة» وتحسب ذلك كله أكبر انتصاراتها.

وقدمت اللجنة تقريرها إلى الأمم المتحدة وهي تفاخر أنها استطاعت أن «تفرج» للاجئين عن أموالهم. . وأن تضم ولداً إلى أبيه. وشيخاً إلى ذويه. .

وأقبل الخريف عام ١٩٥١ ومعه خريف الأمم المتحدة، حيث تتساقط أوراق الشعوب المستضعفة، وعقدت الدورة في قصر «شايوه» في باريس وعقدت معها الآمال الكبار، فستنجو الأمم المتحدة من تل أبيب الكبرى في نيويورك، وعسى أن تجد القضية الفلسطينية بعض الرحمة في شعار الثورة الفرنسية: الإخاء والحرية والمساواة.

وانطلقت خطوط الطيران من كل أرجاء العالم تحمل الوفود إلى الأمم المتحدة، ونفرنا نحن الوفود العربية، خفافاً بعزائمنا، ثقالاً بأوراقنا، إلى باريس. . وكان اللقاء في قصر شايوه في باريس.

وكان مجلس الجامعة العربية قد أصدر قراراً بتعييني الأمين العام المساعد للسيد عبد الرحمن عزام (٢-٣-١٩٥١). وكانت الجامعة تحاول منذ زمن أن تختار مساعداً للسيد عزام الذي لم يكن يرغب في أن «يشاركه» أحد في الجامعة، وكانت كل دولة

عربية تصر أن يكون الأمين العام المساعد من رعاياها، ولكن اختياري كان فيه إرضاء للسيد عزام وللحكومات العربيه معاً، باعتباري فلسطينياً، ولأني للأمة العربية لا لدولة واحدة بالذات.

غير أن سوريا اشترطت غداة تعييني أن أعمل في الوفد السوري في الأمم المتحدة على سبيل الإعارة.. وهكذا كان فقد كنت مساعداً للأمين العام في الجامعة العربية في القاهرة، ممثلاً لسوريا في الأمم المتحدة أثناء انعقاد دورتها. وقد استمر هذا الترتيب حتى عام ١٩٥٧ حينما وافق الرئيس القوتلي على إعارتي إلى المملكة العربية السعودية، كما سيأتي ذكره في مذكراتي.

وحين انعقدت دورة الأمم المتحدة لعام ١٩٥١ في باريس أسندت رئاسة الوفد السوري إلى السيد فارس الخوري، وجئت معه نائباً له.. ولا تزال كلماته ترنّ في أذني إلى ساعتي هذه.. «والدك الشيخ أسعد صديقي وزميلي في البرلمان العثماني لقد مات منذ زمان.. ومن يدري فلعلها تكون آخر دورة أحضرها في الأمم المتحدة، أنت تباشر العمل.. ولي الرأي والمشورة، ويكفيني ما عملت لسوريا وللأمة العربية.. ولم يعد لي إلا أن أنتظر اليوم الموعود بكل رضاء وسكينة».

وقد هزّتني هذه الكلمات السمحة وأصابت أعماق نفسي، وكان في الدورة عدد من رجال العرب المعروفين: صلاح الدين وزير خارجية مصر ومعه الدكتور فوزي والسفير عدلي أندراوس، وشارل مالك عن لبنان، وفاضل الجمالي عن العراق، بالإضافة إلى رهط كبير من ساسة العالم، فمضيت أواصل الليل والنهار، أعمل بعزم وحماسة، وكلمات فارس الخوري تضاعف من عزمي وحماستي.

وقد بالغت إسرائيل في الاهتمام بتلك الدورة فقد ألحقت بوفدها عدداً من الخبراء والصحافيين والمستشارين، وحدث أني كنت أسير في أروقة قصر شايوه ولاحظت من بعيد شخصاً يمد إليّ ذراعيه ليسلم ويصافح، وتفرست به فإذا به المحامي اليهودي «سالمون» من حيفا وكان من «زملائنا» أمام المحاكم، وهو من أصل بريطاني وهاجر إلى فلسطين، منذ عهد غير بعيد، وكان يتقرب إلى المحامين والقضاة العرب ويظهر لهم المودة..

وأدركت،.. من دون أن أتردد لحظة واحدة، أن أجهزة التصوير اليهودية تداعت لهذه المناسبة... حتى إذا تصافحنا.. انطلقت الصورة في العالم أن الشقيري وسالمون عضو الوفد الإسرائيلي يتحادثان في قصر شايوه.

ولذلك سارعت.. من دون أن أتردد لحظة واحدة.. إلى تغيير طريقي في رواق آخر، وما أكثر المداخل والمخارج في قصر شايوه.. وبهذا فاتت على إسرائيل

واحدة من مئات «المصايد» التي كانت تعدها في هذه المناسبات الدولية، تعدها لي ولغيري من الوفود العربية.

وكانت قضية فلسطين أولى القضايا.. فانبريت في اللجنة السياسية أشرح القضية، في جميع مراحلها متناولاً تقرير لجنة التوفيق بالتحليل والإيضاح، منددا بإسرائيل لأنها تمنّ على اللاجئين بأموالهم المجمدة فتفرج عنها.. وكان فارس الخوري يجلس ورائي كأنه يستمع ليحمل إلى رفاقه الذين سبقوه إلى جوار الله آخر ما وصل إليه الأمر في فلسطين.

وكان إيبان مندوب إسرائيل الدائم، يرد ويحاول، ويؤكد رغبة إسرائيل في السلام مع الدعوة إلى المفاوضات المباشرة، ويشيد بالقرابة التي تجمع الشعبين الساميين، العربي واليهودي، ويتطلع إلى المستقبل لعودة الصفاء بينهما، وكان شاريت وزير خارجية إسرائيل يجلس وراء مندوبه إيبان.

وجاءت فرصتي لأفضح هذه الأسطورة التي تكررها إسرائيل في كل مناسبة وكانت الوثائق والمقتبسات بين يدي، فأخذت أتكلم وأتكلم..

بدأت أولاً بأن أعضاء الحكومة في إسرائيل معظمهم من أوروبا الشرقية وذكرتهم واحداً واحداً بأسمائهم وأعمارهم والمواطن التي نزحوا منها من روسيا وأوروبا الشرقية.

ثم تلوت ما جاء بالنص في **دائرة المعارف اليهودية** من أن اليهود في روسيا وأوروبا الشرقية ليسوا ساميين وأنهم من «الخزر» اعتنقوا الديانة اليهودية بعد موسى عليه السلام بعصور وأجيال.

أمّا إيبان، قلت مستطرداً، فإنه من جنوب أفريقيا.. يحمل الجنسية البريطانية، وعمل في المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية.. وأخذت أتحدث عن العلاقات العربية اليهودية قبل قيام الحركة الصهيونية.. وماذا كان مقام اليهود الرفيع في العهد الأندلسي الزاهر.. وتطرقت إلى ذكر أسماء اليهود اللامعين الذي أصبحوا وزراء ونواباً وصحافيين وأساتذه وماليين في الوطن العربي، مشرقه ومغربه.

ولاحظت وأنا أتحدث أن «شاريت» وزير خارجية إسرائيل، قد أزاح إيبان عن مقعده وجلس مكانه وهو يتأهب للكلام.

فقاطعت نفسي بنفسي وقلت: «لقد شبعت الأمم المتحدة خطباً من إسرائيل عن السلام، وها إنّي أرى المستر شاريت يتأهب للكلام عن السلام.. وسنستمع منه

خطاباً طويلاً عن السلام وعن المفاوضات المباشرة. . وسأتوقف عن الكلام لأوجه سؤالاً حاسماً إلى المستر شاريت:

«هل توافق إسرائيل على تنفيذ قرارات الأمم المتحدة؟ وهل تريد إسرائيل من وراء المفاوضات المباشرة تنفيذ قرارات الأمم المتحدة. .؟ نريد أن نسمع الجواب من المستر شاريت ـ نعم أو لا؟». وتوقفت عن الكلام، وساد الجلسة جو مثير، فلقد ألقيت «بالقفاز» في وجه إسرائيل، وتطلعت الأبصار، الأعضاء والمعاونون والتراجمة والطابعون والحراس، كلهم، صوب شاريت لتستمع إلى الجواب. .

وراح شاريت يخطب ويخطب عن الحركة الصهيونية. . واضطهاد اليهود وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ وكيف أراد العرب أن يهدموا قرار ١٩٤٧ بقوة السلاح وكيف. . وكيف. .

ولم يجب شاريت عن السؤال. . محاولاً أن يغرقه في خضم الكلام الطويل. . وطلبت الكلمة مرة ثانية وقلت: لا أريد أن أخطب طويلاً كما فعل شاريت، أريد أن أوجه سؤالاً مختصراً: هل إسرائيل تدعو إلى المفاوضات المباشرة، لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة؟. . أريد الجواب: لا أو نعم».

وتطلعت الأبصار مرة أخرى إلى شاريت تنتظر الجواب. . ولكن شاريت لم يهمس ولم ينبس. . وانتهت الجلسة من غير جواب. . وخرجنا من الجلسة وقد أقبل عليّ وفود الدول الأعضاء مهنئين بهذا النصر «العظيم»، لأنني وضعت إسرائيل في القفص، وأنني أسقيها سمّها بكأسها.

ولم يكن أعضاء الأمم المتحدة يملكون إلا التهنئة وعبارات التشجيع والتقدير، فلقد مرّغت أنف شاريت وإيبان في الوحل، وفعلت ذلك مرات ومرات في السنين المتعاقبة، ومعهما الأنف الأحدب «لغولدا ماير» رئيسة وزراء إسرائيل في ما بعد. . ولكن إسرائيل مرّغت أنوفنا ووجوهنا في الوحل بكل عفنه ونتنه، في الميدان. . وفيه فصل الخطاب.

وجاء دور إعداد مشروع القرار كما هي العادة عند انتهاء المناقشة في كل قضية، وتولى الوفد الأمريكي، كما هي العادة كذلك، وضع صيغة المشروع وعرضها على الوفود العربية والوفد الإسرائيلي في محاولة لإرضاء الطرفين.

وجرى النقاش حاداً بيننا وبين الوفد الأمريكي حول الصيغة، فقد كان الدكتور «جسب» رئيس الوفد الأمريكي حريصاً على أن يبرز في مشروع القرار ما يلي:

١ ـ إن مسؤولية تسوية النزاع تقع على عاتق الفريقين.

٢ ـ على الفريقين أن يتعاونا مع لجنة التوفيق لتسوية النزاع القائم بينهما.

٣ ـ إن السلام في الشرق الأوسط يقتضي تسوية قضية اللاجئين.

وقد حاولنا جهدنا مع الدكتور «جسب» وهو من عائلة «جسب» ذات الصلة المشهورة بالجامعة الأميركية في بيروت، أن يشير إلى قرارات الأمم المتحدة من قريب أو بعيد. . ولكنه كان يعتذر.

وقلت للدكتور «جسب»: «إن الولايات المتحدة هي التي وضعت قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين، فهل تخلّت عنها؟»

قال: «لا. . إن الولايات المتحدة لا تزال تعتقد أنها قرارات واجبة التنفيذ».

قلت: «إذن. . لماذا لا تشيرون إليها؟»

قال: «لا أستطيع. إن التعليمات أن لا أضيف كلمة واحدة على المشروع».

وانصرف الدكتور «جسب» متحدياً، أنه سيطرح «صيغته» «سواء وافقت الوفود العربية أو لم توافق».

وكان لا بد لنا أن نقوم بمناورة من وراء ظهر الدكتور «جسب»، فاتصلت بالسفير «طبيبي» ممثل أفغانستان وهو معروف بمناصرته للقضية الفلسطينية شأن الافغان كلها ملكاً وحكومةً وشعباً، وطلبت إليه أن يقترح إضافة في نهاية كل بند من البنود الثلاثة: «بموجب قرار الأمم المتحدة».

وكانت مفاجأة للدكتور «جسب»، فلم يستطع لا هو ولا الوفود الموالية لأمريكا أن يصوتوا ضد قرارات هم أصدروها، فصدر مشروع القرار بالصيغة المعدلة.

وخرج الدكتور «جسب» من الجلسة غاضباً محنقاً وهو يقول «العرب دمروا مستقبلي».

ولكن مخاوفه لم يكن لها ما يبررها، فلم يدمر مستقبله، وقد أصبح في ما بعد قاضياً في محكمة العدل الدولية. . وأي عدالة ترجوها الشعوب المظلومة من هذا القاضي الذي يفكر مثل الموظفين الصغار. . وكل همه الحفاظ على وظيفته. .

وهكذا كسبنا نصراً على الورق، وخرجنا من قصر «شايوه» مزهوّين بهذا النصر. . . في الهواء. .

وجاءني الدكتور فاضل الجمالي يقول لي: «لقد وصل نوري باشا إلى باريس، وقد دعوته إلى الغداء، فلنذهب سوية ونتغدى معاً».

قلت: «ومالي شأن في نوري باشا: أنت زميلي في الدراسة، أمّا نوري فلا تربطني به رابطة».

قال: «وأي ضرر في ذلك؟ إن نوري مسافر إلى إنكلترا، فلعله يستطيع أن يفعل شيئاً مع أصدقائه الإنكليز».

قلت: «لا بأس.. فلتكن هذه واحدة من تجارب الحياة».

وذهبنا إلى السفارة العراقية، وجاء السيد نوري السعيد هاشّاً باشّاً والمسبحة بين يديه.. وكان معه السيد توفيق (السويدي) وزير خارجية العراق.

وسرد الدكتور الجمالي ما كان من أمري مع شاريت.. وكيف انتصرنا عليه!

فقال نوري السعيد: «يا أخي هذه «لقلقيات» قلنا لكم ماية مرة، لا فائدة من الأمم المتحدة، هذا كله كلام بكلام.. لا ينفع».

قلت: «يا باشا، أنا مع فخامتكم.. ما هو الذي ينفع».

قال: «إسأل إخوانك السوريين، أنت تعمل معهم، هم يعرفون ما الذي ينفع..»

قلت: «يا باشا، إن قضية فلسطين ليست قضية سورية للسوريين، هي عربية لجميع العرب، أرجو أن تقول لي ما الذي ينفع؟»

فاتجه نوري باشا صوب السيد توفيق السويدي وقال له: «تكلم.. تكلم.. أنت تعرف الموضوع..» وكان نوري كلما أعيته الحجة يستعين بأصدقائه ليشرحوا وجهة نظره.

ولكن السيد توفيق السويدي أرجع الكرة إلى نوري باشا وقال له: «يا باشا، الشقيري يريد أن يسمع منك.» وأخذ الباشا بشرح وجهة نظره. «الجامعة العربية تجربة فاشلة. المصريون ليسوا عرباً ولا خير فيهم.. السوريون سيخربون سوريا. السعوديون غارقون في الصحراء والنساء وأنتم الفلسطينيون تنادون، الاستقلال أو الموت الزؤام، ونحن العراقيين قادرون أن ننقذ ما يمكن إنقاذه لو أن العرب يسيرون معنا».

ـ قلت: «وكيف تريدون أن يسير العرب معكم؟ إذا كنتم قادرين فإن العرب يسيرون وراءكم».

قال: «يا حبيبي.. إذا كنتم معقولين فنحن مستعدون أن نجد حلاً معقولاً مع أصدقائنا في لندن. بالتعاون مع الدول الإسلامية المتضامنة معنا في ميثاق سعد أباد».

قلت: «وما هو الحل المعقول الذي ترونه.. الحل المعقول الذي تستطيعونه؟»

قال: «التقسيم، والرجوع إلى خطوط التقسيم. . نحن نستطيع بواسطة أصدقائنا في لندن أن نرغم إسرائيل على قبول هذا الحل».

قلت: «وإذا لم تقبل إسرائيل. . وإذا لم ينجح أصدقاؤكم في بريطانيا. . فما هو العمل؟»

قال: «أنا ذاهب إلى لندن غداً. . وسنبدأ بمحادثات في بريطانيا، وستكون قضية فلسطين هي الأولى في مباحثاتنا، وسنعمل على إقناعهم بوجهة نظرنا».

قلت: «وإذا لم تقبل إسرائيل. . فما هو العمل. . ما هو العمل؟ هذا هو السؤال يا باشا».

ولكن الباشا لم يهمس ولم ينبس. . واكتفى بالقول إنه سيرجع من لندن بالجواب. . ولكن الباشا كذلك لم يرجع.

وكرّت الأيام، ووقع الانقلاب في العراق، وقتل الباشا في جملة من قتل على ساحة القضية الفلسطينية وأصبح الآن جثة هامدة لا يهمس ولا ينبس.

وكانت دورة الأمم المتحدة في عام ١٩٥١ تجربة إيجابية على طريق السياسة الإيجابية ففشلت وأخفقت.

كان التعاون مع لجنة التوفيق تجربة إيجابية.

وكان توقيع «بروتوكول لوزان» تجربة إيجابية.

وكانت المطالبة بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة تجربة إيجابية.

وحتى إنشاء لجنة عربية يهودية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من البيارات العربية كان تجربة إيجابية.

ولكن هذه التجارب الإيجابية كلها جاءت بنتيجة سلبية. . . وفشلت معها كذلك كل التجارب الإيجابية التي بذلها نوري السعيد على مدى أربعين عاماً من صداقته وتحالفه مع الإنكليز.

وعلى الأجيال العربية أن تعلم علم اليقين، أن الشعوب لا تبلغ حريتها وسيادتها لا بالإيجابية ولا بالسلبية.

الشعب، أي شعب، يستنقذ وطنه، ويبلغ حريته وسيادته، بكفاحه وسلاحه.

ذكريات مع العرب الأربعة: بورقيبة والسنوسي ومحمد الخامس والأندلس

كانت دورة الأمم المتحدة لعام ١٩٥١ الدورة الأم بالنسبة إلى القضايا العربية. أو الدورة «القمة» بين جميع الدورات التي تعاقبت على الأمم المتحدة حتى يومنا هذا. فقد كانت في هذه الدورة وحولها كل القضايا العربية . . وما تحمل من المصاعب الدولية والخلافات العربية التي يمكن أن تخطر على بال.

وكنا نحن الوفود العربية في تلك الدورة نضرب في جميع الجهات ونقاتل جميع القوى الاستعمارية معاً بالإضافة إلى إسرائيل . . والقوى الصهيونية التي تسندها.

فإلى جانب القضية الفلسطينية، كانت بين أيدينا قضايا السودان والجزائر وتونس وليبيا والمغرب. وكانت القضايا الثلاث الأولى تحوم في أروقة الأمم المتحدة من غير أن تكون مدرجة على جدول الأعمال . . أمّا قضيتا ليبيا والمغرب فكانتا على الجدول، بل وفي صميم الجدول.

ولم نكن نحن العرب الذين اخترنا «حشر» قضايانا كلها في دورة واحدة.

أجل لم نكن نحن الذين اخترنا أن نخاصم الصهيونية والاستعمار معاً وفي جميع الجبهات . . لقد كتب علينا القتال ولم يكن لنا فيه خيار.

وكان بعض «العقلاء» من العرب يهزأون من السياسة العربية في عام ١٩٥١ التي أقدمت على منازلة أمريكا وبريطانيا وفرنسا والصهيونية في وقت واحد، وفي قصر شايوه في باريس.

والواقع أن هذه التهمة بعيدة عن الإنصاف . . فنحن لم يكن لنا الخيار في هذه الحرب الجماعية التي أعلناها على الجميع . . ولكن الجميع هم الذين أعلنوا الحرب علينا ولم يكن أمامنا إلا أن نتصدى للدفاع عن حرياتنا وأوطاننا.

وكانت قضية السودان أولى المشاكل العربية ـ خارج جدول الأمم المتحدة ـ وقد جاء الاهتمام بها حين كان تقرير المصير موضوع مناقشة وتعليق. وكان للسودان وفدان مراقبان أحدهما يدعو إلى الاتحاد مع مصر والآخر يدعو إلى الاستقلال وممارسة حق تقرير المصير.

وكان الوفد المصري، وفد المملكة المصرية، مشدوداً إلى تطلعات الملك فاروق في أن يصبح ملك مصر والسودان. . ودارفور وكردفان. . ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذّبان**﴾[1] . . وكان وفد مصر يؤكد أن حق تقرير المصير يجب أن لا يكرس الانفصال، ولا أن يحول دون الوحدة أو العودة إلى الوحدة. . وأنّ وحدة وادي النيل هي حقيقة تاريخية وأنّ هذه هي رغبة الشعبين في مصر والسودان. . وحدة تحت تاج فاروق.

وكان في السودان من يرى هذا الرأي. . ومن يعارض هذا الرأي. . وقد شاع أمر هذا الخلاف السوداني ـ السوداني، والسوداني ـ المصري في أروقة الأمم المتحدة.

وقد وصل إلى باريس في تلك الدورة عدد من الإخوان السودانيين أذكر منهم السادة عبد الله خليل ومحمد أحمد محجوب ومحمد أحمد الشنقيطي ومبارك زروق وإبراهيم المفتي وحماد توفيق، يدعو بعضهم إلى الوحدة، والبعض الآخر إلى الاستقلال. . وأصبح هؤلاء من كبار رجال الدولة في ظل الاستقلال. . بعد أيام «شايوه» بأعوام.

وقد ضمَّنا عشاء، نحن الوفود العربية، في دار السفارة المصرية، وبعد الانتهاء من الوليمة خرجنا نحن الثلاثة، الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر والسيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية، وأنا، إلى غابة بولونيا لنزهة قصيرة. . نتخفف فيها من عمل النهار وتخمة العشاء.

وفي هذه الغابة الجميلة رأيت الفرصة جميلة. . أن أتحدث في أمر السودان. . وقلت للدكتور صلاح الدين:

«أمّا تكفينا القضايا العربية الكثيرة حتى نزيدها بمشكلة السودان؟ وهذا وفد السودان يتصل بوفود الدول الاعضاء، ويتحدث عن الوحدة والاستقلال».

قال صلاح الدين: «لا أكتمك أن المشكلة عويصة. . . وإن كنت لا أستحسن أن نعالج هذا الموضوع في الأمم المتحدة وفي باريس».

قلت: «وما هي المشكلة العويصة؟»

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآية ١٣.

قال: «ماذا نصنع بالملك فاروق، إن تعليماته قاطعة، وماذا نعمل بحكومة «الوفد» وأنا منها. . «الوفد» أصبح فيه كثير من العفن والفساد».

قلت: «ولكن الأجدر أن نبقي العفن في موطنه، وأن لا ننقله إلى باريس. . . ثم إن الوحدة والاتحاد لا يصنعان في الأمم المتحدة وإنما يصنعان في الوطن».

قال: «أنا معك، سأعطي التعليمات إلى الدكتور محمود فوزي والسفير عدلي أن يكفا عن الإشارة إلى هذا الموضوع في أحاديثهما. . . وربنا «يعدلها» حينما نعود إلى مصر. . .».

وتدخل السيد عزام وقال: «أنا متفق مع هذا الرأي، ولكن إلى متى يظل الشعبان في وادي النيل متباعدين؟»

قلت: «أنا أعلم أنك متعصب للوحدة ولمصر».

قال مداعباً: «يجب أن تكون الأمين العام المساعد باسم السودان».

قلت: «لماذا تريدون للسودان ومصر، ما لا تسطيعونه لسوريا والعراق، وهذان القطران بينهما من روابط الوحدة ما لا يقل عن روابط وادي النيل. . . وعلى كل حال لنترك هذه الأمور للسودان يقررها في السودان لا في الأمم المتحدة».

وعدنا أدراجنا من نزهة الغابة ليعمل السيد صلاح الدين وعزام كل في دائرة اختصاصه على طي هذا الموضوع وترك أمر السودان يدور في فلك المستقبل الذي ينتظره. . اتحاداً أو انفصالاً، ولكن ليكن الاستقلال هو البداية. . وليكن حق تقرير المصير بعيداً عن الجدال والقيل والقال. . ودارت المناقشة في الأمم المتحدة بصدد تقرير المصير ووفد مصر لا يتحدث عن وحدة مصر والسودان.

ثم جاءت قضية الجزائر تسعى مكسورة الجناحين. . فللجزائر نضال قديم، لعله سبق أي نضال عربي في المشرق والمغرب على السواء. . ولكن في تلك الدورة كانت الجزائر تعيش في جدال. . لا في نضال. .

كانت باريس مليئة بالجزائريين. . العمال والمثقفين. . وقد أقاموا للوفود العربية حفلة كبرى. . وكان السيد مصالي الحاج الزعيم الجزائري القديم من الشخصيات البارزة في الحفل. . بهندامه الوسيم، وطربوشه القائم ولحيته الطويلة السوداء.

ولم يكن «الاستقلال» مطلب الجزائريين في ذلك العام. وحتى لا أظلم الشعب الجزائري العربي المسلم، أقول إنه لم يكن مطلب عدد من الجزائريين المثقفين الذين زاروني في الفندق غير مرة.

لقد جاؤوني ليطلبوا إليّ أن أثير قضيتهم في إحدى خطبي على أساس «المساواة» في الحقوق والواجبات مع الرعايا الفرنسيين. . وكانت حجتهم منطلقة من المنطق الإفرنسي. . وكان المنطق الإفرنسي يعتبر الجزائر أرضاً فرنسية، وللجزائر نواب في مجلس النواب الفرنسي. . والدستور الإفرنسي ينص على كذا. . وكذا. . ، وأنه يجب أن يعامل الجزائريون كرعايا إفرنسيين. . بالعدل والمساواة وتمنح لهم حقوقهم بنسبتهم العددية. . ذلك كان جدل أولئك الجزائريين.

وقد أفجعني هذا المنطق. . وأفجعني أن أرى الاستعمار الإفرنسي قد تسلل إلى هذا العمق في نفوس بعض الجزائريين. . فقلت لهم: «أرجو إعفائي من هذه المهمة. . . أنا لا أطلب المساواة مع الإفرنسيين».

قالوا: «ولم لا يكون ذلك مرحلة. . حتى إذا بلغنا حقوقنا كاملة انتقلنا إلى مرحلة أخرى؟»

قلت: «المنطق الإفرنسي لا يمكن أن يكون مرحلة. . إنه التسليم. . . ، ولا مانع من السير بالمراحل. . بشرط أن لا يكون التسليم هو المرحلة الأولى. . بعد التسليم لا مجال لمراحل أخرى. . التسليم هو نهاية المطاف».

ولم أكن أخلو من الحدة والغضب حين كنت أجادل أولئك الجزائريين فخرجوا من غرفتي وهم يرطنون بالإفرنسية. . لقد صان الله القضية الجزائرية ذلك العام من ذلك العبث إلى أن جاءت أيام النضال في سنة ١٩٥٤ وما بعدها، فساهمت مع الوفود العربية في عرض القضية الجزائرية ولكن على أساس الاستقلال، لا على أساس المساواة.

وعلى خلاف القضية الجزائرية، فقد دخلت قضية تونس إلى أروقة الأمم المتحدة في ذلك العام تمهيداً لأن تدرج على جدول الأعمال في الأعوام المقبلة.

وكان في تونس في عام ١٩٥١ وما قبله حركة وطنية ناشطة، إضرابات ومظاهرات، وسجون ومعتقلات، وكان السيد الحبيب بورقيبة محتجزاً في إحدى ضواحي باريس. . وكان يرأس حكومة تونس السيد شينق، فجاء إلى باريس مع عدد من وزرائه منهم السيد صالح بن يوسف والسيد محمد بدرة. . ليكونوا على مقربة من الأمم المتحدة. . فلعلهم يجدون فيها العون والنصرة.

واتصلوا بي واتصلت بهم. . وأحبّ أن أعترف هنا أنني كنت أتصدى للقضايا الوطنية وأتصيّد المشاكل الدولية. . فلم أكن أشعر نفسي دبلوماسياً محترفاً موظفاً. . ولم أكن قد ربيت على تقاليد الوظائف في طلب التعليمات. . أو حتى التقيد

بالتعليمات . . فأنا إنسان فقدت وطني . . ونشأت في نفسي عاطفة جارفة في أن أنجد كل من كانت له مصيبة في وطنه . . وما بالك إذا كان الوطن عربياً والشعب عربياً . .

وكانت الوفود العربية الأخرى لا تتحرك إلا بالتعليمات من حكوماتها . . وكان هذا هو الأمر الطبيعي . . ولكني كنت . . وأنا أعترف للمرة الثانية، لا أشعر بولاء للحكومة التي أمثلها . . كان ولائي لأي قضية يتجاوز القطر الذي أمثله.

وكنت أعتمد على الدوام في مغامراتي في الأمم المتحدة، على أن القضية التي أعالجها هي قضية عربية أو متصلة بقضية عربية . . وهل تستطيع «حكومتي» أن تخالفني أمام الرأي العام العربي. وعلى هذا النهج عملت في الأمم المتحدة السنين الطوال رئيساً للوفد السوري ثم رئيساً للوفد السعودي إلى أن جاءت مشكلة اليمن في عام ١٩٦٢، فكانت مغامرتي الأخيرة، فصلت من عملي، أو طردت من منصبي، كما أذاع راديو لندن!

وكان أن طاف الوفد التونسي على الوفود العربية يرجوها كلمة خير في الأمم المتحدة، فأبرقت الوفود إلى حكوماتها تطلب الموافقة، وتأخر جواب البعض، وتردد البعض الآخر . .

«لا بأس عليكم، أنا أنوب عن الوفود العربية كلها . . تعالوا معي إلى الأمم المتحدة».

وجاء الوزيران محمد بدرة وصالح بن يوسف معي إلى الأمم المتحدة، ومن غير أن أطلب أية تعليمات من دمشق، دعوت إلى مؤتمر صحافي في «وسط» الأمم المتحدة للحديث عن القضية التونسية.

وتجمهر الصحافيون في القاعة، وتصدرت المؤتمر وعلى يميني الوزير بدرة، وعلى يساري الوزير بن يوسف، ولم اقل إلا كلمة واحدة: «أدعو سعادة الوزير صالح بن يوسف أن يحدثكم عن القضية التونسية».

وكانت «قنبلة» هائلة، ضج لها المؤتمر الصحافي . . ومضى الوزير بن يوسف في بيانه الصحافي «بحدته» المعروفة، وإشاراته وصيحته . .

وثارت الحكومة الإفرنسية . . وتساءلت كيف استطاع الوزير التونسي أن يهاجم فرنسا، وفي قصر «شايوه» في باريس، وليس له مكان في الأمم المتحدة، وليست تونس عضواً في الأمم المتحدة؟ وثار تريجفي لي السكرتير العام للأمم المتحدة، وتساءل كيف استطاع شخص «غريب» أن يدخل الأمم المتحدة وأن يعقد فيها مؤتمراً صحافياً.

ولكن «الثورة» تنفست، حين أظهر التحقيق أنّ «الوفد السوري» هو الذي عقد المؤتمر الصحافي، فذلك حقه.

وعاد رئيس الوزراء التونسي السيد شينق وزملاؤه وقد قضوا وطرهم، فقد بسطوا قضيتهم في باريس ولم يكونوا يطمعون بأكثر من ذلك.

وجاءني الوزيران بدرة وبن يوسف يودعاني وبيدهما «توكيل» باللغة الإفرنسية، باسم الحكومة التونسية، يفوضني الدفاع عن القضية التونسية أمام الأمم المتحدة. . وأنّ «الزعيم» الحبيب بورقيبه يبلغني التحية ويرجو الله أن يكون قادراً على مكافأتي في قضية فلسطين. . فاستلمت «التوكيل» وهو لا يزال بين أعزّ الاوراق التي أحتفظ بها. . أمّا مكافأة الزعيم الحبيب بورقيبة فقد عرفها الشعب الفلسطيني يوم دعا الرئيس بورقيبة إلى الصلح مع اليهود. . حين يأتي ذكرها في مكانها. .

ولكن هذا الحادث التونسي قد أحدث أزمة سورية فرنسية، ولم يمض الأمر من غير عتاب أو حساب، فقد كان السيد أديب الشيشكلي صاحب الأمر والنهي في دمشق، قلب «انقلاباً» عسكرياً سابقاً، وقد اتصل به السفير الفرنسي في دمشق محتجاً على تصرفات هذا «الشقيري» الفلسطيني غير المسؤول. . وكانت بعض الصحف الإفرنسية وخاصة ذات الميول الصهيونية قد هاجمت هذا التصرف من «فلسطيني» غير مسؤول، موظف لدى سوريا، ولا يمثل أحداً إلا نفسه.

فأبرق السيد الشيشكلي إلى السيد فارس الخوري رئيس الوفد يطلب إليه أن يراعي عواطف فرنسا «لأننا نستورد منها الأسلحة»، فأجاب رئيس الوفد بأن الموضوع قد انتهى وأن الوفد التونسي قد عاد إلى بلاده. . ولكن ذلك كان في نطاق البرقيات السرية، فإن أحداً لا يجرؤ أن يمنع تأييد قضية عربية. . وقلت للسيد فارس الخوري مداعباً، ليتك أبرقت للسيد الشيشكلي: «إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من سلاح. .»

وممّا عزز موقفي إزاء الشيشكلي أن الوفود العربية قد قاطعت الحفلة التي أقامتها وزارة الخارجية الإفرنسية على شرف وفود الأمم المتحدة، وكانت قد اتخذت قرار المقاطعة بسبب إجراءات القمع التي كانت تقوم بها السلطات الإفرنسية في تونس. . . وكأنما جاءت هذه المقاطعة العربية «لتحميني» أمام الشيشكلي.

ولم تكد تنتهي هذه العاصفة التونسية التي هبّت على الأمم المتحدة حتى اجتاحتها عاصفة عربية أخرى. . هي القضية الليبية وكانت مدرجة على جدول الأعمال في صدر تقرير الدبلوماسي الهولندي «أوريان بلت» مندوب الأمم المتحدة في ليبيا.

وكانت القضية الليبية، بما وراءها من كفاح دام خاضه الشعب الليبي البطل لعشرات السنين، تتأرجح في المحافل الدولية بعد الحرب العالمية الثانية. وكان الخطر يحدق بها أن تقسم بين الدول الكبرى (مشروع سفورزا) لولا أن صلابة الشعب الليبي في الداخل والمد التحريري العالمي في الخارج قد حالا دون ذلك. . ولم يسع الأمم المتحدة إلا أن تعترف بحق الشعب الليبي في الحرية والاستقلال.

وكانت المشكلة القائمة في عام ١٩٥١ حول نظام الحكم في ليبيا، هل يكون فدرالياً أم اتحادياً. . حول القواعد الأجنبية هل تصفى أولاً ثم يعطى الاستقلال، أو يمنح الاستقلال ثم ينظر بعد ذلك في تصفية القواعد الأجنبية.

وكانت هذه الأمور كلها موضع صراع بين أمريكا وروسيا وبريطانيا. . وكان موقف الاتحاد السوفياتي: الاستقلال الناجز وتصفية القواعد العسكرية معاً.

وإلى جانب هذه المشكلات الداخلية والدولية كانت تحت سطح الماء مشكلة عربية يتحرك تيارها من حين إلى حين. . فقد كانت المملكة المصرية على خلاف مع ليبيا بشأن الحدود. أيُّ الواحات لمصر وأيها لليبيا. . وكان رجال القصر في القاهرة يشيرون على الملك فاروق أن «يتقاضى» ثمناً لتأييد استقلال ليبيا وليكن الثمن تصحيح الحدود، يضاف إلى هذا أن الجامعة العربية نفسها لم تكن حازمة في معالجتها القضية الليبية، ففي ٣١-٣ ـ ١٩٤٩ أصدر مجلس الجامعة قراراً يقول فيه بلا مواربة ولا مداورة. . «يرى المجلس ضرورة المطالبة باستقلال ليبيا. . فإذا هزمت الدول العربية في موقفها هذا وكان الاتجاه إلى وضع ليبيا تحت الوصاية فيرى أن تكون الوصاية في هذه الحالة للدول العربية أو أن تشترك فيها».

وفي قرارات لاحقة كان مجلس الجامعة يقرر تكليف مصر متابعة القضية الليبية، كما لو كانت قضية مصرية. . لا قضية مصيرية للشعب الليبي.

وفي خضمّ هذه «المشاكل» وصل الوفد الليبي، السيدان عمر منتصر (رئيس الوزراء في ما بعد)، وفتحي الكيخيا (وزير الخارجية في ما بعد)، ليدفعا السفينة إلى شاطئ السلامة، وكان مع الوفد السيد عوني عزيز الداودي المحامي الفلسطيني، مستشاراً قانونياً.

وزارني الوفد الليبي عدة مرات طمعاً في أن أؤيدهم بلا قيد ولا شرط. ولم تكن بي حاجة لأن يقنعني أحد. . فالقضية الليبية قضية عربية. . وشعبها قدّم أعظم التضحيات في سبيل حريته. . ثم إنني كنت أبحث عن «صيد» وخاصة إذا كان الخصم بريطانيا وأمريكا. . فإذا كنت عاجزاً عن أن أثأر من هاتين الدولتين في قضية فلسطين فلأثأر منهما في قضية ليبيا. . أو حتى في أية قضية دولية أخرى.

وجاءني بعد بضعة أيام السيد فتحي الكيخيا ليقول لي: «إن الملك إدريس السنوسي يرى أنك بعيد عن الخلافات العربية وهو يرجوك أن تعمل على تأييد القضية الليبية من غير قيد ولا شرط، وليكن الاستقلال أولاً، ثم تحل المشاكل الأخرى»، فقلت له: «وهذا هو رأيي بالتحديد.. وأرجو أن تتبناه الوفود العربية ونعمل معاً على تأكيده في الأمم المتحدة صفاً واحداً».

وعزمت أن أفاتح الوفد المصري حتى نزيل المشكلة العربية أولاً.. واجتمعت بالسيد عبد المنعم مصطفى، وكان مكلفاً بمتابعة الموضوع عن وفد مصر.. ولم أكد أبدأ في شرح وجهة نظري حتى برزت «نرفزته» المعروفة، وهو لا يدري بأي لسان يتكلم في الأمم المتحدة ليقحم موضوع الحدود الليبية المصرية.. وراح يناشدني أن أكاشف الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر، لأنقذ «عبد المنعم مصطفى» من هذه الورطة، وننقذ القضية الليبية معه.

وسارعت إلى وزير خارجية مصر فوجدته في «خلوة» مع السيد عبد الرحمن عزام في إحدى غرف الأمم المتحدة.. وقلت.. «الحمد لله لقد وجدتكما معاً».

فقال صلاح الدين: و«متلبسان».

قلت: «متلبسان بالخير إن شاء الله.. وقضية ليبيا محتاجة إلى الخير.. وإليكما معاً. وأفضيت بوجهة نظري، شارحاً ما ينجم من خطر على استقلال ليبيا إذا ترك أمرها للدورات المقبلة، حتى تحل مشاكل الحدود مع مصر، ومشاكل نظام الحكم ومشاكل القواعد الأجنبية..» ووافق صلاح الدين وأيّده عزام دفعاً للحرج في القاهرة، أن يتولى «الوفد السوري» قيادة القضية في الأمم المتحدة وأن تؤيده الوفود العربية الأخرى.. على أساس الاستقلال الفوري لليبيا من غير تحفظ ولا شرط.. وأن تترك مشاكل المستقبل للمستقبل.

ونهضنا وتعانقنا على هذه النتيجة السارة.. وضممت عبد الرحمن عزام مرة أخرى وقلت له: «هذه قبلة أخرى لك».

قال: «لماذا هذا التخصيص؟»

قلت: «أنت متهم بأنك طامع في جمهورية ليبيا لتكون رئيساً لها».

قال: «يكفيني أنني زوج السبعة»، الدول العربية التي كانت سبعة يومذاك في الجامعة العربية.

وانصرفت إلى إعداد خطابي عن القضية الليبية وقد أصبحت «قائد» الميدان.. ولم تكن مهمتي يسيرة.. فإن إعداد الخطاب أمر سهل.. ولكن كان علي أن «أمسك»

باستقلال ليبيا من دون أن «يفلت» أمرها إلى الدورات المقبلة ولا ندري كيف تهب الرياح الدولية و«إذا هبت رياحك فاغتنمها . .» وكان عليّ كذلك أن لا أخون المبدأ في ضرورة تصفية القواعد الأجنبية كائنة ما كانت الظروف والأحوال.

وجاء اليوم الموعود للنظر في القضية، فانبرى الوفد السوفياتي يندد ببريطانيا وأمريكا ويطالبهما بالجلاء والانسحاب . . وراحت كل من بريطانيا وأمريكا في عباراتهما التقليدية بشأن (التدرج) و(التطور) في بناء الحرية والاستقلال.

ودخلت المعركة وهي على أشدِّها من الصراع بين الكتلتين ـ الشرق والغرب، وأكدت حق الشعب الليبي في تقرير مصيره واستقلاله بعد كفاحه الطويل، وأنّ نظام الحكم هو مسألة داخلية ليس للأمم المتحدة ولا لأي دولة فيها حديث أو كلام وأنّ أمرها موكول إلى الشعب الليبي وحده ـ وأنّ تصفية القواعد الأجنبية في ليبيا لا يختلف عليها في الأمم المتحدة إلا اثنان: بريطانيا وأمريكا.

وضجت القاعة بالضحك . . ثم أضفت بالقول: إن «منح الاستقلال وقيام حكم وطني في ليبيا سيكون «القوة» التي تستطيع بها الأمم المتحدة أن تنفذ إرادتها في تصفية القواعد الأجنبية . . ومن غير هذه «القوة فإن أي قرار تصدره الأمم المتحدة بصدد الجلاء سيكون حبراً على ورق».

وتطلّع الأعضاء إلى الوفد السوفياتي ليروا انطباعه لهذا «التخريج» فهز رئيس الوفد رأسه بالموافقة.

وانتهت الجلسة وصدر قرار الجمعية العامة بتكليف «أوريان بلت» ممثل الأمم المتحدة باستعجال الخطوات نحو الاستقلال وقيام حكومة ليبية مستقلة.

وكان السرور بالغاً بين الوفود العربية أن قضية ليبيا قد نجت من المزالق التي كانت تقف على عتباتها.

وأقبل الوفد الليبي يصافح الوفود العربية شاكراً جهدها وتأييدها، مبتدئين بالدكتور صلاح الدين وهو يقول لهم: «اشكروا الأخ شقيري فقد عرف كيف يرضي الاتحاد السوفياتي ويستبقي مودته وتأييده».

قلت: «بل اشكروا معالي الوزير الدكتور صلاح الدين الذي كان له الفضل الأول في حلّ الأزمة . . بل اطلبوا له العون حينما يعود للقاهرة، للحساب والسؤال والجواب . .» فقال صلاح الدين: «لكل حادث حديث . . والله في عون الجميع».

وجاء الوفد الليبي يودعني قبل سفره وهو يبلغني دعوة من الملك إدريس

السنوسي لزيارة ليبيا في أقرب فرصة. . وقد جاءت الفرصة في ما بعد وكانت استشارة قانونية سأتحدث عنها في حينها.

ولكن قصر «شايوه» في باريس شهد أمجد معارك الأمم المتحدة لعدة سنين وهي معركة القضية المراكشية.

وكانت القضية المراكشية في الواقع أروع القضايا الدولية وأرفعها على الإطلاق. فقد كانت أول قضية تحررية تفتح أبواب الأمم المتحدة على مصاريعها، فلم تكن الأمم المتحدة قد «تعهرت» إلى ذلك الوقت على يد إسرائيل وجنوب أفريقيا فلا تباليان بقراراتها، بل كان لهذه المنظمة العالمية هيبتها ومكانتها.

ومما زاد في روعة هذه القضية أن فرنسا كانت هي الخصم، وأنّ باريس ميدانها. . ولكن مما زاد في صعوبتها أن عدداً كبيراً من الدول ستقف إلى جانب فرنسا إمّا مجاملة لها ورعاية لحسن ضيافتها. . أو تعاطفاً معها. . أو تلاقياً معها في معركة المصير. . . معركة الحرية والاستقلال التي كانت تتأهب لها شعوب آسيا وأفريقيا.

وقد بذلت جهود دولية كبيرة لتأجيل النظر في القضية إلى دورة أخرى تكون في غير باريس فتكون الدول أكثر تحرراً وأقلّ تحرجاً. . ونعطي الوقت للدرس. . كأنما قضايا الحرية تحتاج إلى درس الأيام والشهور.

ولكن الشعب المراكشي المجاهد وعلى رأسه السلطان المناضل محمد الخامس لم يكن ليقبل هذه الأعذار، وكان يلحّ أن تقدم شكواه إلى الأمم المتحدة وأن تفضح فرنسا في فرنسا ذاتها، وان تهتك باريس وفي باريس ذاتها.

وجاء الوفد المراكشي إلى باريس وتألبت حوله الاجتماعات من قبل الطلاب العرب الذين يدرسون في باريس. . وخاصة الطلاب العرب من الشمال الأفريقي الذين كانوا يريدون أن يمتحنوا الأمم المتحدة في هذه «التجربة» المراكشية.

وفي صمت وهدوء كنت أعد نفسي للقضية المراكشية، فدرست تاريخها ووقفت على تفاصيل كفاحها، وأنا أنتظر هذا «اليوم» لفرنسا. . . فقد كان بيني وبينها ثأر قديم في بيروت لمناسبة خطابي في ذكرى الشهداء في ٦ أيار/ مايو سنة ١٩١٧، يوم قررت السلطات الإفرنسية إبعادي عن سوريا ولبنان لمدة عشر سنوات. . وها قد جاء يوم الثأر. . ولتكن القضية المراكشية ميدان الثأر.

ونشب الخلاف في داخل المجموعة العربية حول إدراج القضية المراكشية، هل تكون «الشكوى» المطالبة بالاستقلال أم خرق حقوق الإنسان؟. . وكان بعضنا يرى أن المطلب الأول صعب المنال وأنّ المطلب الثاني أقرب لتأييد الدول وموافقتها.

وكنت من أنصار المطلب الأول . . وكانت حجتي أننا لن نفوز لا بالأول ولا بالثاني، فلتكن هزيمتنا في المطلب الأكرم والأشرف وهو طلب الاستقلال . . وكان للطلبة العرب دور في إقناع المترددين من الوفود العربية.

ومرة أخرى وقع عليّ الخيار من قبل الوفود العربية لكي أتولى قيادة القضية في الأمم المتحدة، فهذا «الشقيري» لا يطلب تعليمات في ما يقول ويفعل، وسوريا يقودها الشيشكلي في حكم غير مستقر . . فلتكن كبش الفداء.

وحجزت نفسي مع الوفد المغربي، الليل والنهار، وأنا أناقشهم وأستوضحهم، وسافر السيد أحمد العلوي من بطانة السلطان محمد الخامس إلى مراكش ليأتيني ببعض الوثائق بنصها العربي . . وقد عاد السيد العلوي إلى باريس يحمل إليّ مستندات في غاية الطرافة . . من خزانة السلطان محمد الخامس . . ومعها تحياته وشكره . .

ووضعت هذه المستندات بين أوراقي، أصونها كما أصون كنزاً نبشته من جوف الأرض أو هبط عليّ من السماء . .

وفي اليوم الثالث عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٥١، ولن أنسى ذلك اليوم ما حييت، افتتحت الجمعية العامة المناقشة: هل تدرج القضية المراكشية على جدول الأعمال أو لا تدرج؟ . . ونودي عليّ للكلام فغادرت مقعدي إلى المنبر وسط فيض من مصابيح المصورين، والأبصار متطلعة إلى هذا «الرجل» الذي وجد الجرأة في نفسه «ليحاسب» فرنسا على مسمع الشعب الفرنسي.

وجعلت أوراقي أمامي، وأنا أحرص أن لا تفلت من يدي، المستندات التي استخرجت من خزانة السلطان محمد الخامس، وكانت كل الوقائع في ذاكرتي أتكلم من خطاب مكتوب في ذهني . . وأستعين بتلاوة مقتبسات معينة . . هذه من عالم إفرنسي في القانون الدولي . . وهذه من قرار محكمة التمييز في فرنسا . . وهذه من أقوال الأحرار في فرنسا . . إلى أن جاء دور الوثائق المراكشية، فكانت «قنبلة» ألهبت مشاعر الأمم المتحدة، الأعداء قبل الأصدقاء.

واتجهت إلى الوفد الأمريكي وكان يتولى الدفاع عن وجهة النظر الإفرنسية نيابة عن فرنسا وقلت «أريد أن أذكر أمريكا بتاريخ أمريكا . . يوم أعلنت الولايات المتحدة استقلالها كانت مراكش أول دولة في العالم اعترفت بذلك الاستقلال»، وقرأت البيان المغربي بالاعتراف الأمريكي.

ثم قرأت كتاباً من رئيس الولايات المتحدة «الأول يشكر للمغرب هذا

الاعتراف». . وقرأت بعد ذلك كتاباً آخر من الرئيس الأمريكي يناشد فيه ملك المغرب «أن تعمل أساطيله على حماية البواخر الأمريكية من القراصنة في البحر الأبيض المتوسط». . وذكّرت الوفد الأمريكي في النهاية أن الأرض التي تقوم عليها السفارة الأمريكية في مراكش كانت هدية من سلطان مراكش.

وتساءلت في ختام ذلك كله. . ساخراً هازئاً: «هل يعارض الوفد الأمريكي في مجرد إدراج القضية المراكشية على جدول أعمال الأمم المتحدة، ومراكش هي التي اعترفت بك أول من اعترف. . وهل. . وهل؟» ونزلت عن المنصة أشقّ طريقي إلى مقعدي وسط الوفود وقد وقفت تقديراً وإعجاباً، إلا الوفدان الأمريكي والإفرنسي ومن معهما من الدول الخائفة على مستعمراتها. . خشية أن يصلها الدور.

وأقبلت عليّ الوفود العربية والآسيوية تصافح وتهنّئ إلا شيخان من أشياخ الأمم المتحدة أغدقا عليّ ما لا أستحق: السيد ظفرالله خان يقبل يدي. . والسيد فارس الخوري يقول: «وددت أن تكون هذه الساعة بكل عمري».

وكان ذلك اليوم من غير شك أعظم أيام عمري. . ولكن كان كذلك أشدّ أيامي حزنا. . لقد قال لي الدكتور صلاح الدين يومها: «أنت نجم هذه الدورة»، وقلت له: «ولكن ما نفع ذلك. . نجم في السماء ولا وطن على الأرض».

وتعاقب الخطباء في اليوم الثاني من وفود الدول الصديقة، فكانوا في غاية التوفيق والحماسة، وكانت القضية المراكشية هي «النواة» التي وجدت منها الكتلة الآسيوية العربية، ولم تكن يومئذ الدول الأفريقية قد ظفرت باستقلالها.

ووقف «موريس شومان» المندوب الإفرنسي يستعطف الوفود. . يناشدها أن لا توافق على طلب الإدراج. . ويذكر أمجاد فرنسا. . و. .

ورفض طلب الإدراج بصوت واحد. . ولكن كانت القضية في أيامها الثلاثة قد عرضت وشرحت. . وكانت فرنسا قد كُشفت وفُضحت. . وفي ذلك العام كان هذا وحده نصراً عظيماً. . وكأن القضية قد أدرجت. . . ونوقشت وشرحت، وهذا كل ما في الأمم المتحدة.

تلك كانت ذكرياتي مع القضايا العربية الثلاث: التونسية والليبية والمراكشية، وتلك كانت ذكرياتي مع قادتها الثلاثة، بورقيبة والسنوسي ومحمد الخامس.

وشاء الله أن يكون لي ذكريات أروع مع عربي أعظم هو: الأندلسي، والأندلسي شخصية عربية كبرى لا تزال تعيش معنا إلى يومنا هذا.

لقد انتهت دورة الأمم المتحدة في أخريات سنة ١٩٥١ وأوائل عام ١٩٥٢ لتتركني متعباً مجهداً مكدوداً، وتلطف بعض الإخوان من الوفد اللبناني ودعوني أن أصاحبهم في سيارتهم في رحلة إلى إسبانيا . . ولتكن الأندلس طريق عودتي إلى الوطن.

وانطلقت بنا السيارة من باريس، نحن الثلاثة، الأديب اللبناني شارل عمون والسيد موسى مبارك من كبار موظفي الحكومة اللبنانية وأنا . . ، وكان الرفيق الثالث كتاب الدليل السياحي، وخير «رفيق» في الزمان كتاب.

وشغلت بالرفيق الثالث، عن الرفيقين الاثنين . . ورحت كلما قرأت في الدليل شيئاً أناشد السائق أن يتوقف هنا . . وأن يعرج هناك . . وإذا بالطريق جنوبي باريس حافل بالذكريات العربية منذ أن وطئ العرب جنوبي فرنسا . . فهذه آثار قلعة عربية . . وهذه بقايا سور عربي . . وتلك أنقاض مسجد عربي.

ولم تكن مصادر الدليل السياحي المراجع العربية التي نعرفها بل كانت مصادره إفرنسية في معظمها تتحدث كيف وصلت الحملة العربية إلى مائة ميل جنوبي باريس . . وكيف غزا العرب كربسون . . وليون . . . وماسون . . وتولوز . . وبوردو . . ، وبيزانصون مسقط رأس الشاعر الإفرنسي العظيم فكتور هوجو.

واجتزنا جبال البرانس إلى إسبانيا . . . الجبال ذاتها التي اخترقها الأجداد وعدنا بالذاكرة إلى تلك القرون الثمانية التي أقامها العرب في الأندلس . . . ، وقضينا أياماً من العمر في طليطلة وبرشلونة وفلنسية وإشبيلية وقرطبة وغرناطة . . ولم تكن بي حاجة إلى دليل يرشدنا، فقد كان كل شيء حولنا ينطق في أروع منطق.

ولقد كنا نحن الثلاثة سكوتاً والأحجار تتكلم . . كانت تتكلم فنّاً وحضارة وروعة في هندسة بالغة الحسن والإبداع والجلال.

وليست هذه المذكرات مكاناً لتفصيلها، إنها في حاجة إلى مجلد ضخم بتغنى بآياتها ومحاسنها . . وقد وقفت أمام معالمها وتمتمت بالأندلسيات والموشحات، وعشت ساعات من العمر في الفردوس المفقود فغدا في خاطري الفردوس الموجود.

ووقف الفريقان «اللبنانيان» المسيحيان مشدوهين أمام روائع الفن في مسجد قرطبة، وهما يتمنيان أن لا يكون نصارى إسبانيا قد أقاموا تلك الكنيسة في أطراف المسجد . . ووقفا أمام كل مشهد من تلك المشاهد الجليلة في الأندلس وكأنما وجدا «عروبتهما» التي حجبتها عنهما ثقافتهما اللبنانية «القديمة».

ولقد كان كل شيء في الأندلس ينبئ أننا في أرض عربية، المنازل في شرفاتها والشوارع في منعرجاتها والحدائق في تنسيقها والجماهير في مشيتها وتأملاتها وكأننا في مصر أو في ديار الشام. . وكتبت يومها إلى زوجتي كتاباً أقول فيه: «لو أن الناس هنا أمسكوا عن الكلام ساعة واحدة لحسبنا أننا في حمص أو حماة. . اللغة الإسبانية هي الفرق ولا سواها».

ولقد عاش العرب هنا عيشاً رضياً ندياً، في جنات وظلال وعيون. . وفي أمتع وأبدع وأروع ما يخطر على البال، ولكن الحنين إلى الوطن كان يغالبهم على ذلك كله. وهذا صقر قريش، عبد الرحمن الداخل، الطريد الشريد من ديار الشام، يؤسس دولة في الأندلس ويطيب به الزمان، ولكنه مع ذلك يحنّ ويئن. . إلى ديار الشام ويقول:

أيها الراكب الميمِّم أرضي ... اقر أنَّ السلام بعضي لبعضي

إن جسمي كما علمت بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض

وكنت أردّد هذه الأبيات عند كل مشهد. . فزاد حنينه من حنيني، وعدت إلى دمشق لأستيقظ من الماضي على الحاضر، وأصحو من الأحلام على الآلام.

ولم أكن أدري يومذاك أن نكبة كبرى ستحل بنا في فلسطين في حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧، وستجعل نكبة الأندلس نسياً منسياً.

ولم أكن أدري كذلك أن فلسطين ستنشد البيت المشهور الذي أنشدته الأندلس قل خمسماية عام:

إبك مثل النساء ملكاً مضاعا ... لم تحافظ عليه مثل الرجال

في كل ساحة وميدان

مع الشيشكلي وعبد الناصر والنظرة الأولى حمقاء

كان عام ١٩٥٢ حافلاً بالأحداث العربية والدولية على السواء، وقد عشت في خضم هذه الأحداث على الصعيد العربي بحكم منصبي في الجامعة العربية، وعشتها في الأمم المتحدة بحكم منصبي «رئيساً للوفد السوري» في المنظمة العالمية.

وكانت الأحداث العربية تموج في دمشق وفي القاهرة. وقد يكون هنالك بعض التباين في تفاصيل ما كان يجري في عاصمة الأمويين في سوريا وفي عاصمة الفاطميين في القاهرة، ولكن المد الثوري كان واحداً في البلدين. وكانت قضية فلسطين وراء تلك الأحداث.

وقد وقعت كارثة فلسطين الأولى في عام ١٩٤٨، وتوقف القتال، ثم عقدت الهدنة في رودس في عام ١٩٤٩ بين إسرائيل من جانب وكل من مصر والأردن ولبنان وسوريا من جانب آخر. ولكن الشعور بالعار لم يتوقف، ومرارة الهزيمة لم تزدها «الهدنة» إلا حدة وشدة. وراجت مراجل النقمة والغضب في صفوف الشعب والجيش. والأصابع تشير إلى الذين كانوا سبباً في هذه الكارثة. ولم تخطئ الأصابع إلا قليلا.

ووقعت الانقلابات أول ما وقعت في دمشق، فأصابت الجاني والبرئ.. ولكنها كانت على كل حال تعبيراً عن معنى كبير.. هو الثأر لشرف الأمة العربية، وأصبحت دمشق «مدرسة» الانقلابات، لنفسها ولغيرها من البلاد العربية، سواء سواء.

ووصلت حلقات الانقلاب في دمشق في عام ١٩٥٢ إلى أيدي السيد أديب الشيشكلي فأصبح رئيساً للجمهورية والتفّ حوله عدد من الناقمين على الحكومات السورية السابقة.

وراح الشيشكلي يطلق الوعود بإصلاحات جذرية في الحياة السورية، وأنه سيعمل على تطهير أجهزة الدولة من الفساد والمفسدين.. وكان تحرير فلسطين بطبيعة الحال رأس برامجه.. فإن قضية فلسطين هي شعار الحكم لكل حاكم، وديباجة البلاغ

الأول في أي انقلاب تصحو عليه الجماهير العربية، حينما ﴿**يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾[1].

وكنت في الجامعة العربية في القاهرة أراقب من مكتبي الأحداث السورية، فإن لي في دمشق ذكريات وصداقات، وأنا معيّن في الجامعة العربية باسم سوريا، فالنظام الداخلي للأمانة العامة يحصر الوظائف الرئيسية في رعايا الدول الأعضاء، ولا بد لفلسطيني مثلي إلا أن يتسلح بإحدى الجنسيات العربية.

وقد تضاعف اهتمامي بهذا النظام الجديد في سوريا بعد المعركة التي وقعت بين القوات السورية وإسرائيل عند «المطلّة» وتكبد اليهود خسائر جسيمة، وكان الشيشكلي هو واضع خطط المعركة بنفسه..

وقرع جرس التلفون من السفارة السورية بالقاهرة.. فأبلغني السفير الأمير مصطفى الشهابي أن السيد أديب الشيشكلي يستدعيني على عجل إلى دمشق.

ولم يكن سفري إلى دمشق عسيراً، فإن بيتي في مصر الجديدة على قيد خطوات من مطار ألماظة وحقيبتي جاهزة على الدوام.

ووصلت إلى دمشق.. وسارعت إلى القصر الجمهوري.. وكان في هرج ومرج.. والداخلون والخارجون كثيرون.. وكذلك الحال على عتبات الحكام.

ودخلت على السيد أديب الشيشكلي، وإذا بورقة طويلة أمامه، وفيها قائمة بالأسماء.. صفوفاً صفوفاً.

كان السيد الشيشكلي يخطط لقيام حكم جديد.. وحكومة جديدة.. وابتدرني بالقول بدماثته المعروفة وسكينته الهادئة:

«أرجو أن لا نكون قد أزعجناك بهذا السفر العاجل. نحن في صدد إنشاء حكومة جديدة، وقد قررت أن أسند إليك منصب وزير الخارجية..»

قلت: «إني أشكر لك هذه الثقة الغالية.. ولكني أفضّل أن أبقى في الجامعة العربية.. وأن أكون ممثلاً لسوريا في الأمم المتحدة أثناء الدورة».

قال: «أنا لا أقبل منك هذا الاعتذار.. إن وجودك معنا كفلسطيني يحمل معنى الوحدة العربية، ولم تصنع هذا أية حكومة عربية أخرى.. فضلاً عن أنك تستطيع أن تؤدي خدمة لقضية فلسطين.. وماذا تريدون مني أن أفعل لفلسطين أكثر من هذا؟»

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١٨٧.

قلت: «إن لساني لعاجز عن الشكر.. وإن فلسطين هي سوريا الجنوبية.. ونحن لا ننسى أنك كنت من قادة جيش الإنقاذ في فلسطين في عام ١٩٤٨».

قال: «هل تفكر حتى الغد وتراجع نفسك؟ وأرجو أن تتأكد أنك ستكون حراً في رسم السياسة الخارجية التي تريدها.. وأعتقد أنك بصداقاتك في الوطن العربي ستكون قادراً على التهيئة للوحدة العربية».

قلت: «لقد أسبغت علي فوق ما أستحق. أشكرك وأعتذر.. وأنا حاضر علي الدوام لتقديم أي رأي أو مشورة على الصعيدين العربي والدولي. وأرجو أن تعتبرني وزيرك.. ولكن من غير تسمية ولا إعلان».

وانصرفت من حجرة السيد الشيشكلي، وإذا بالوزراء المرشحين في غرفة الانتظار يتفرسون في وجهي، ليروا ما إذا كنت أصبحت وزيراً.

ولكن ابتسامتي قد ضللتهم جميعاً.. وهم يرحبون بي «معالي الأخ»..، وخرجت وهم لا يعلمون أنني لست صاحب المعالي الوزير.

ومضى يومان أو ثلاثة، وألّف السيد أديب الشيشكلي وزارته وكان فيها مكاني الدكتور خليل مردم وزيراً للخارجية.

ودعيت إلى العشاء في القصر الجمهوري، وكانت الوليمة قاصرة على الوزراء، وأخذتني فترة من «الوحشة» على المائدة وأنا غريب فيها، ولكن السيد أديب الشيشكلي قد كسر «الثلج» في نفسي حين قال للوزراء:

«الأخ أحمد اعتذر أن يكون في الوزارة، ولكنه وعدني أن يكون وزيراً معنا من غير تسمية ولا إعلان».

قلت: «نعم أنا وزير ولكن من غير إعلان.. الآن وفي كل زمان».

ومضت الوليمة وسط هذه الدعابات والمطارحات، وخطر لي وقد اقترب فصل الصيف، وأنا قريب من لبنان، أن أسافر إلى الجبل لأختلس «إجازة» لم أنعم بها منذ زمن طويل، واستقر رأيي أن أتخذ من «نبع الصفا» مصيفاً لي فهي وسط بين دمشق وبيروت، فلا أكون بعيداً عن الاتصال، ولو في فترة الراحة الاستجمام.

وذهبت إلى السيد فارس الخوري أزوره قبل سفري.. فرأيته ملتفاً في عباءته بين كتبه وذكرياته.. وتبادلنا التحية، والحديث في شؤون الجامعة العربية وأخبار «أبو الكلام عزام».. كما كان يحلو له أن يداعبه.. ثم أردف قائلا..

«لقد أحسنت باعتذارك عن قبول وزارة الخارجية.»

قلت: «لماذا أحببت لي هذا الاعتذار؟».

قال: «عندي لذلك سببان: الأول، أنت لا تستطيع أن تعمل مع هؤلاء «العسكر»، (أشار إلى الشيشكلي وضباطه)، ما الفائدة أن تكون وزير الخارجية في حكومة لا تفهمك ولا تفهمها».

قلت: «هذا هو السبب الأول.. وما هو الثاني..»

قال (وقد أطرق طويلا): «أوصيك أن تظل ممثلاً لسوريا في الخارج.. بعيداً في الخارج.. وبهذا يحبك الجميع. ولكن إذا عملت في الداخل أخشى أن لا يحبك الجميع.. هذه نصيحتي بعد ستين عاماً من الحياة العامة في سوريا».. وتباسطنا وتضاحكنا وحملت هذه النصيحة معي إلى مصيفي في لبنان، ولم أفهم مغزاها العميق إلا في عام ١٩٥٦ حين رضيت أن أكون سفيراً لسوريا في القاهرة لأمهد للوحدة.. فجاءت حكومة السيد هاشم الأتاسي وأبطلت هذا التعيين وبقرار من مجلس الدولة.. كما سأشرح أسبابه الحزينة في حينها.

وأقبل الصيف حاراً ذلك العام وكأنما يحمل في جوفه رياحاً حارة تهّب على العالم العربي بأسره، وتغير مسيرة تاريخه ومصير أقداره.

وجاء الشيشكلي إلى «فالوغا» ـ لبنان، هرباً من لفحات دمشق اللاهبة، ودعينا إلى عشاء في نبع الصفا، وكان ذلك اليوم ٢٢/ ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٢، وجلسنا إلى مائدة العشاء في الحديقة، ومن حولنا الحرس الجمهوري شاكي السلاح، والمارّون من المصطافين والفلاحين يتفرسون في وجه فخامة الرئيس السوري.

وكان الراديو على مقربة منا، مفتوحاً على إذاعة القاهرة.. وإذا بالأثير يتفجر بالخبر الكبير «وقع الانقلاب. خلع فاروق. قامت الثورة المصرية... ثورة الجيش والشعب..» ورفعنا أيدينا عن الطعام، وابتلعنا ما في أفواهنا.. وأصبحت جوارحنا كلها آذاناً صاغية، تستمع إلى هذا النبإ الكبير الخطير.

وكان هذا الخبر مفاجأة كبرى لم أستشعر مقدماتها وأنا بعيد في هذه القرية اللبنانية، ولكن السيد الشيشكلي ذكر لي أن لديه معلومات سابقة عن تذمر في صفوف الجيش المصري غير أنه لم يتوقع أن يقع الانقلاب بمثل هذه السرعة.

وأخذ السيد الشيشكلي يفرك كفيه في عصبية وقلق.. فقد كان يخشى على هذه الثورة أن لا تنجح.. وكان يخشى أن يكون ضباط الثورة قليلي التجربة والخبرة، فيفشل أمرهم ويقبض عليهم فاروق... وفاروق لم يخرج من الإسكندرية بعد.

كان الشيشكلي يتحدث «كخبير» في صناعة الانقلابات، وهو خائف أن لا

يكون ضباط مصر عارفين بفنون «الانقلاب» فتدور عليهم الدائرة، ويبطش بهم فاروق ويقضي على الحركة في مهدها. . ويا ضيعة الأمة العربية!

ولم يعد الجو صالحاً لا للطعام ولا للكلام، وانصرف الشيشكلي إلى دمشق. . لا إلى مصيفه في فالوغا، وهو يتمنى في ذات نفسه لو كان قادراً أن ينقل «خبرته» في صناعة «الانقلاب» إلى رفاقه في مصر، ولو على أمواج الأثير. . وجاءت الأقدار في ما بعد «ليطير» الخبير من دمشق فيهرب الشيشكلي إلى أمريكا اللاتينية ويقتل فيها غريب الدار نائي المزار. . ﴿**وما تدري نفس بأي أرض تموت**﴾[٢].

وأبرق إليّ السيد عبد الرحمن عزام أمين الجامعة ليستعجلني العودة إلى القاهرة. . وظننت أن اجتماعاً طارئاً سيعقد للجامعة العربية، فقد كان هذا هو التقليد المتبع كلما وقع انقلاب أو حدث كبير في أي بلد عربي. . تجتمع الجامعة، وتدرس وتقرر، وتصدر بياناً.

وقد كان هناك انقلاب فعلاً. . ولكن كان هذه المرة على عزام نفسه. . فلم أكد أصل القاهرة حتى بدأت أُقرأ في جريدة **الأهرام** حملة مركزة على أمين الجامعة العربية، تتحدث عن أسفاره ونفقاته.

ولقد كانت هذه الحملة ظالمة وباطلة، فلم يكن على عزام مأخذ في تصرفاته المالية. . أمّا تصرفاته السياسية فهي موضوع نقاش، شأنه في ذلك شأن جميع قادة العرب في تلك الحقبة من حياة العرب السياسية.

وكانت الضجة الناشبة في ذلك الوقت أن الثورة المصرية وهي ثورة عربية، يجب أن تجدد شباب الحركة العربية، وأن تكون الجامعة العربية في المقدمة.

ومن هذا المنطلق فقد كانت تنحية عزام تتطلبها مقتضيات الثورة، ولكن لغير الأسباب الباطلة التي نشرت يومذاك. .

وسألني السيد عزام: «ما رأيك في حملة جريدة **الأهرام**».

قلت: «إنها ضالة مضللة، إن لك نضالك الباسل، في حياة الأمة العربية، وهذه التهم المالية باطلة من أساسها».

قال: «وماذا ترى؟»

قلت: «إن رجال الثورة كما يبدو من أحاديثهم يريدون حياة جديدة، وهذا

---

(٢) المصدر نفسه، «سورة لقمان،» الآية ٣٤.

يقتضي جامعة عربية جديدة، ويكون من الخير أن تفسح المجال لهذه التجربة الجديدة».

قال: «ألا يحسن أن أستشير الحكومات العربية.. فهي أعضاء في الجامعة، وليست مصر هي الجامعة..»

قلت: «إن مصر هي المقر الدائم للجامعة، وهي أكبر دولة عربية، ولا تستطيع أن تستمر في عملك من غير تأييد حكومتك، وإن كنت أعلم أنك من أوائل المصريين الذين اعتنقوا الفكرة العربية».

قال: «على بركة الله».

وتناول قلماً وورقة وكتب استقالة «غير مسببة» بدأها «بسم الله الرحمن الرحيم» وختمها بقوله «وتفضلوا بقبول الاحترام».

و اجتمع مجلس الجامعة العربية على عجل.. وكان الظن أن أصدقاء عزام من الحكومات العربية، وخاصة المملكة العربية السعودية، سيردون الاستقالة، ولكن أحداً لم يفعل.. وأجلْت بصري في وجوه أصدقائه من أعضاء المجلس واحداً واحداً، لأسمع كلمة.. ولكن هيبة «الثورة» في الخارج قد ألجمتهم جميعاً.. وانتهى عمل المصري «العربي القديم» من الجامعة العربية بعد أن عمل على تأسيسها وعاش حلوها ومرها.. وأصبحت الأمين العام بالنيابة أصرّف أمور الجامعة حتى يتعين الأمين العام الأصيل.

وبدأت المشاورات بين الحكومات العربية من يكون الأمين العام للجامعة العربية؟ ولم يكن إلا جواب واحد: الثورة في مصر عملت على إقصاء السيد عبد الرحمن عزام.. الأمين العام للجامعة يحسن أن يكون مصرياً.. وعلى الثورة في مصر أن تختاره.

ودعيت غير مرة إلى قصر عابدين، حيث كان مجلس الوصاية على العرش، للبحث في شؤون الجامعة.. ومن يكون أمين الجامعة.

وكان الحديث يدور مع السيد رشاد مهنّا أحد رجال الثورة.. والسيد بهي الدين بركات أحد أعضاء مجلس الوصاية.. كما كانت لي لقاءات بعد ذلك مع السيد محمد نجيب نفسه رئيس مجلس الثورة.. وكانت الآمال كباراً.. والتمنيات أعظم وأكبر، ففي هذه الأحاديث واللقاءات كان النقد المرير يتناول ماضي الجامعة العربية، وسياسة التكتلات داخل الجامعة، وإهمال قرارات الجامعة، والإكثار من الكلام في الجامعة، واستغلال «فاروق» للجامعة، إلى غير ذلك.. ومعظمه حق وصدق، لا شك فيه ولا ريب.

وكان جوابي على الدوام: «إن ثورة مصر هي ثورة عربية، ويجب أن لا تقف شعارات الثورة وراء أسوار الجامعة العربية، إن رياح الثورة يجب أن تهب داخلها، أن الأمة العربية تريد جامعة عربية «ثورية» تهزم الهزيمة التي حلت بنا في فلسطين عام ١٩٤٨ . . وكان السيدان محمد نجيب ورشاد مهنا يصغيان إلى هذا الحديث، وهما على تصميم وعزم، بأن يجعلا من الجامعة العربية أداة «ثورية» تجمع طاقات الأمة العربية وتعمل على استرداد كرامتها وعزتها.

وقد تردد عليّ في تلك الفترة عدد من الضباط الأحرار، ليدرسوا أوضاع الجامعة العربية وميثاقها ونظامها الداخلي . . واجتمع مجلس الجامعة العربية لينظر في تعيين الأمين العام الأصيل . . ودعيت إلى قصر عابدين . . واستقبلني السيد رشاد مهنا عضو مجلس الوصاية وقال: «سنرشح السيد عبد الخالق حسونة، وهو رجل طيب، ستكون مسروراً من التعاون معه . . ولكن خبرته في الشؤون العربية حديثة . . فأرجو أن تعاونه» . . . قلت: «إني أعرف الرجل . . فقد اجتمعت به حين كان وزيراً للخارجية وهو رجل مهذب ودبلوماسي . . وسأعاونه وأضع بين يديه كل خبرتي وتجربتي».

وانصرفت إلى الجامعة، وطرح الترشيح أمام المجلس، فوافق بالإجماع على تعيين السيد حسونه أميناً عاماً للجامعة. وبقي فيها منذ عهد الثورة في ١٩٥٢ إلى ما بعد النكسة في عام ١٩٦٧، تمدد خدمته فترة بعد فترة.

ولا شك أن السيد حسونة يتمتع بمؤهلات جمة إلى جانب أخلاقه الفاضلة ولكنه ليس الرجل الذي كانت تطمع «الثورة» أن تجعل منه أداة «ثورة» في الجامعة ولا أظنّ أنه يرى في نفسه رجل «ثورة».

ولقد جاءت مسيرة «الثورة» عن غير طريق الجامعة . . لقد احتفظت «الثورة» بالجامعة لتؤدي ما تستطيع بهدوء، وكان «حسونة» مؤهلاً لذلك الدور الهادئ وسارت «الثورة» في طريق آخر . . في سياستها العربية.

وانفض مجلس الجامعة من دون أن يثير انتباه أحد، ولم يسأل أحد لماذا أقصي عزام وحل محله حسونة، فقد كانت صيحات الثورة فوق كل سؤال . . وكان شعار «الاتحاد والنظام والعمل» الذي نادى به الرئيس محمد نجيب يعلو على كل كلام.

وأقيمت حفلة في وزارة الخارجية المصرية على شرف وفود الجامعة العربية وهي نهاية المطاف في اجتماعات الجامعة العربية.

وكنا في ذلك الحفل نتباسط حلقات حلقات، وإذا بضابطين مصريين يدخلان ويصافحان الحاضرين واحداً واحداً . . ولم أكن أعرف من هما!

وتصافحت معهما، وكان أحد رجال الخارجية يقدمهما ويعرفهما إلى الحاضرين ليقول: «البكباشي جمال عبد الناصر، والصاغ صلاح سالم».

وكان الاهتمام بهما عادياً.. فقد عرف أنهما من كبار قادة الثورة.. وفي ذلك الكفاية.. وتفرست في وجه السيد جمال عبد الناصر لأرى ذلك الرجل الذي صنع الثورة المصرية.. وسألت الصحافي المصري السيد حسنين هيكل وكان على مقربة مني: «ما هي أهم صفات السيد جمال؟». فقال السيد هيكل: «إن جمال يمتاز بذكاء خارق..»

ولقد كان لقاؤنا عابراً خاطفاً.. وبدا لي السيد جمال عبد الناصر يومذاك ببدلته الكاكية نحيلاً، صارماً.. جافاً.. لا تتوافر فيه مؤهلات القيادة والزعامة.

ولقد قدرت يومذاك.. أن السيد عبد الناصر واحد من ضباط مصر الشجعان، وسيعود مع رفاقه إلى ثكناتهم، وسيمضي «صاحب المقام الرفيع» علي ماهر باشا رئيس الوزراء في تولي أمور البلاد بدهائه المعروف وذكائه الخارق..

والتفت إليّ السفير السوري الأمير مصطفى الشهابي سائلاً:

«أي الرجلين أقدر؟».

قلت: «من تعني؟»

قال: «الشيشكلي أم عبد الناصر..؟»

قلت: «أرجو أن لا تغلبني عصبيتي السورية. أظن أن رجلنا الشيشكلي أمكر وأقدر.. وأدهى وأمرّ».

وانتهى الحفل على هذه الدعابة، لتمضي الأيام ويثبت صدق القول المأثور.

«النظرة الأولى حمقاء».

فقد كرّت الأيام، وأصبح عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة.. وصنع بيديه أحداثاً عظاماً، لقيته مرات ومرات، ولي معه أسرار صغار وكبار.. وكانت له مع السنين كبوات.. ولكن أنّى للشيشكلي أن يصل برأسه إلى كتفي هذا العملاق..

وحقاً فقد كانت النظرة الأولى حمقاء.

مع الرئيسين محمد نجيب وعلي ماهر

كانت «القضية العربية» من أهم مشاغل «الثورة» في مصر، ففي الوقت الذي كانت تنصرف فيه الجهود إلى تطهير الحكم من الفساد والفوضى في الداخل، كان الضباط الأحرار يوالون اجتماعاتهم لوضع الأسس التي يتعين على مصر الثورة أن تسير على هديها في علاقاتها مع البلاد العربية.

وكان عدد من الضباط الأحرار يفدون إلى بيتي في مصر الجديدة بعد انتهاء الدوام من الجامعة العربية، لنتدارس معاً شؤون القضية العربية، وقضية فلسطين في المقدمة.

وكان هؤلاء الضباط يعرفون الكثير عن القضية الفلسطينية، إما لاشتراك بعضهم في حرب فلسطين أو لحوارهم وأحاديثهم مع زملائهم الآخرين. . ولكن معرفتهم بالشؤون العربية وأحوال البلاد العربية وتاريخ الحركة المعاصرة، كانت غامضة ومشوشة.

وكان موضوع الجامعة العربية من أهم الموضوعات التي كنا نتناولها بالبحث، وكنت أحدِّث الضباط الأحرار عن نشوء الجامعة العربية والظروف الدولية والعربية التي رافقت قيامها. . وما يمكن أن تؤديه من الخير للأمة العربية إذا حسن حالها.

وتوالى لقائي برجال الثورة في بيتي وخارج بيتي، في الولائم والحفلات والاجتماعات، فقد كانت القاهرة في الأعوام الأولى للثورة تعج بالاجتماعات الشعبية، والمؤتمرات والندوات. . وكان السيد محمد نجيب رئيس مجلس الثورة، لا يكاد يخرج من اجتماع إلا ليذهب إلى اجتماع آخر، ولا يوشك أن ينتهي من خطاب حتى يبدأ خطاباً آخر.

ودعيت في أوائل ربيع ١٩٥٣ للاحتفال بغرس الشجرة في ضاحية قريبة من مصر الجديدة، وذهبنا في الصباح الباكر إلى «أرض» الاحتفال فوجدنا الحفر مهيأة

والأغراس بجانبها فهوينا بالمعاول ضربة أو ضربتين وأنزلنا الغرسة في الأرض، ونحن نتطلع إلى اليوم الذي نرى فيه تلك «الأرض» وقد أصبحت غابة خضراء.. ومرت على ذلك خمس وعشرون سنة، أُحدّق ببصري في تلك الأرض، وأنا في طريقي إلى المطار، فلا أرى غابة ولا أشجاراً.. شأن كثير من الأعمال العربية، لا تكون إلا «احتفالاً» ليومها وتموت لساعتها.

وعدت من حفلة الغرس مع الصاغ عبد الحكيم عامر عضو مجلس الثورة (المشير ونائب رئيس الجمهورية في ما بعد) وأخذ يستعيد لقاء بيني وبينه في دار السفارة السورية في القاهرة، قبيل الثورة ببضعة أشهر.

فقال الصاغ عامر:

«هل تذكر اجتماعنا في السفارة السورية؟»

قلت: «نعم، وكيف أنسى ذلك اللقاء، وقد حقق الله الثورة التي كنا نتمناها؟».

قال: «وما هي تمنياتك الآن».

قلت: «إن لي أمنية كبرى».

قال: «وما هي؟ وهل نحن قادرون عليها؟»

قلت: «إذا كانت جهودكم ستقتصر على تطهير الحكم من الفساد والفوضى وخلق مصر الحديثة، فلن تكونوا أكثر من إحدى دول أفريقيا، تعيشون على هامش الحياة الدولية، وسيكون لكم مكان في التاريخ ولكن على هامشه».

قال: «وماذا تعني بالضبط؟»

قلت: «إن مصر جزء من الأمة العربية، ذلك كان تاريخها منذ عهد الفراعنة. وإنّ لكم من غير شك مكان الصدارة في تاريخ العرب الحديث».

قال: «وماذا تقترح لهذا الغرض؟»

قلت: «أقترح أن تخاطبوا الدول العربية جميعاً بلغة واحدة... وأن تحطموا سياسة المحاور والتكتلات داخل الأسرة العربية.. وأن تعملوا على تطوير الجامعة إلى اتحاد عهدي بين الدول العربية.. ومن ثمّ إلى اتحاد فدرالي.. وأرجو أن ينتهي الأمر إلى إقامة الولايات العربية المتحدة».

قال: «ما لي أراك لم تتحدث عن بلدك، عن فلسطين؟»

قلت: «العمل للوحدة العربية هو عمل لفلسطين.. إن الوحدة العربية لازمة

للأمة العربية ولكنها لفلسطين ألزم. . والوحدة هي الطريق إلى فلسطين. . . وإذا بقيت الأمور العربية على حالها فإن إسرائيل ستبقى في فلسطين، وسنبقى خارجها».

قال: «هل اجتمعت بالسيد محمد نجيب. . أو بالسيد جمال عبد الناصر؟»

قلت: «السيد محمد نجيب اجتمعت به مرتين، أمّا السيد عبد الناصر فقد كان لي معه سلام وتحية».

قال: «هذا حديث طيب. . وسأرتب لك» جلسة» عمل قريباً. . إن شاء الله».

ووصلت إلى مبنى الجامعة في شارع البستان، فنزلت من سيارة الصاغ عبد الحكيم عامر شاكراً له صحبته، وجلست في مكتبي وأنا أستذكر ذلك اليوم الذي التقينا فيه: الصاغ عبد الحكيم عامر وأنا، في دار السفارة السورية في القاهرة، وكان الحديث همساً بين الجدران الأربعة. . . عن الحكم الفاسد في القاهرة. . وهزيمة الجيش المصري في النقب. . وما إلى ذلك.

ولقد استذكرت يومذاك أنني قلت للصاغ عبد الحكيم عامر:

«لا نفع في الشكوى. . إن مفتاح الموقف بيد الجيش. . والجيش يستطيع أن يفعل كل شيء».

قلت هذا وأطرق الصاغ برأسه. . ولم يعقب ولم يعلق.

وتمنيت وأنا أستعرض هذه الذكريات أن تحقق الثورة بقية رسالتها. . لقد استطاعت الثورة أن تنقذ مصر من فاروق. وليتها تنقذ العرب من خطر أعظم: الفرقة والخلاف. . وما هي إلا بضعة أيام حتى قرع جرس التلفون من رئاسة مجلس الوزراء. . لإبلاغي دعوة على الغداء في منزل «رفعة الرئيس علي ماهر باشا».

وذهبت في الموعد، وإذا بالمنزل كأنه ثكنة عسكرية، بضعة عشر ضابطاً من مختلف الرتب يتصدرهم السيد محمد نجيب رئيس مجلس الثورة. ولم يكن في الدار أحد من المدنيين إلا «رفعة الرئيس» وأنا. . وخطر لي أن هذا هو الاجتماع الذي اقترحه الصاغ عبد الحكيم عامر، فجمعت كل آمالي وأحلامي، وقلت في نفسي، ها قد لاحت الفرصة للتحدث في القضية العربية. . وجلسنا إلى المائدة وكان الحديث حديث مائدة. . وأنا أتطلع إلى الدقيقة الأولى لأفتح الكلام في غير الطعام والجو. . وأيام زمان.

وانتقلنا إلى الصالة الكبيرة، وأقفلت الأبواب، وبدا أننا في مؤتمر، وتنفست الصعداء، وحمدت الله أن حان الوقت لأضع أمام مصر «الثورة» ما يتمناه كل عربي على «الثورة».

وبدأ السيد علي ماهر بصوته الهادئ وعباراته السلسلة يتحدث عن رغبة مصر في أن تبدأ «علاقات جديدة، مع البلاد العربية وأن يكون طابعها الود والمحبة للجميع». . وأنه يرغب أن يستمع إلى رأيي لتحقيق هذا الهدف «كعربي محب لمصر وخبير في شؤون البلاد العربية».

وصممت ألا أبدأ الحديث. . وإذا بالسيد محمد نجيب يعتدل في مجلسه وأخذ يتحدث بصوت أجش، فقد قضى أياماً وهو يخطب، شارحاً الشعارات الثلاثة «الاتحاد والنظام والعمل».

بدأ السيد محمد نجيب يتكلم، وبعض الضباط من ورائه يدونون، وهو يقول: إن عهد فاروق قد انتهى. . وأرجو أن ينتهي معه عهد الخلافات بين الدول العربية. . ونحن نريد أن نبني صداقة مع الجميع. . لخير الجميع. . نريد أن نبني الجامعة العربية. . نريد أن نعدل ميثاق الجامعة. . نريد أن ندرس قضية فلسطين جيداً. . أن تتحسن الأحوال في قطاع غزة. . نريد. . نريد».

ومضى السيد نجيب يسرد آراء «الثورة» في الجامعة العربية، وتطلعات «الثورة» إلى مستقبل العلاقات العربية في مصر.

وجاء دوري فتكلمت، وأخذ الضباط الأحرار يستمعون ويدونون، وكان موجز ما قلت: «إن في ميثاق الجامعة فجوات من غير شك. . وإنّ لعزام هفوات من غير ريب. . ولكن ضعف الجامعة وتعثرها لم يأت من الميثاق ولا من عزام. . لقد كانت الدول العربية في الماضي تتسابق وتتنافس على العمل من أجل القضية العربية. . وأما بعد الجامعة فقد وقف السباق والتنافس. . وأصبحت الجامعة أداة للتخلص من المسؤوليات الفعلية وأصبحنا كلما طالبنا حكومة ما بعمل ما قالت: سننظر في الأمر في الجامعة، حتى إذا اجتمعت الجامعة تعطل العمل، أو تأجل، أو تمهل حتى ترضى هذه الحكومة. . أو تقنع تلك. . وهكذا. . » ثم قلت: والجميع في إنصات واهتمام «ولقد بلغ من فداحة الأمر أن الحكومات العربية قد خلعت على الجامعة العربية شخصية مستقلة ذات احتصاصات مستقلة. . وأن تمارس مسؤولية مستقلة. . وكنا إذا اقترحنا على أية حكومة عربية أية فكرة معينة قالت: سنرى ماذا ستقرر الجامعة. . كأنما الجامعة شيء آخر غير الحكومات العربية».

وختمت حديثي بمقارنة بين الجامعة والأمم المتحدة وقلت: إن الأمم المتحدة على مشاكلها ومصاعبها، كانت لأعضائها خيراً من الجامعة العربية لأعضائها في المجالات الاقتصادية، والعملية والفنية. . وإنّ الأنكي من ذلك كله أن الدول العربية تتعاون في نطاق الأمم المتحدة أكثر من تعاونها في نطاق الجامعة العربية. . وإنّ

مشكلة الجامعة لا تكمن في الميثاق ولا في الأمانة العامة، وإنما تكمن في الدول العربية نفسها.. في نظرتها إلى الجامعة.. وفي تصرفها من خلال الجامعة».. وهنا بادرني السيد محمد نجيب بالسؤال الكبير: «وما هو الحل؟»

قلت: «الحل أن تأخذوا بزمام المبادرة، عليكم أن تعملوا في الحقلين معاً، الداخلي والعربي.. وأرى أن ترسلوا وفداً إلى البلاد العربية لتحملوا إليها رسالة الثورة. الأُخُوة مع الجميع والتعاون مع الجميع ـ في سبيل تطوير الجامعة العربية إلى اتحاد عربي». وأخذت أشرح أفكاري بتفصيل وإسهاب. فقال السيد محمد نجيب: «هذه فكرة طيبة، سنرسل وفداً أو أكثر إلى البلاد العربية.. ونحن نرجو أن تعد لنا مذكرة مسهبة عن الجامعة العربية، وما تقترحه من تعديل في الميثاق وفي أجهزة الجامعة».

وانتهت الجلسة عند هذه النهاية السعيدة.. وخرج السيد محمد نجيب وصحبه، وخرجت معه أودعه.. فانتحى بي جانباً وقال: «أنا أنتظر هذه المذكرة.. وسندرسها معاً في بيتي»، قلت: «يومان أو ثلاثة، وسأكون أنا والمذكرة في بيتكم».

وعدت إلى الصالة مع «رفعة الرئيس» لبضع دقائق وهو يقول «لقد كانت جلسة مفيدة، وموفقة، وإنّي آمل أن تعد لنا قريباً مذكرة حول الموضوع».

قلت: «المذكرة جاهزة في رأسي، ولا يحتاج إعدادها إلا بضع ساعات، ولكن لدي اقتراح أرجو أن يجد قبولاً عند رفعتكم».

قال: «ما هو؟»

قلت: «يخطر ببالي أن نحدث منصباً جديداً في الجامعة، وهو أن يصبح للجامعة رئيس لمدة عامين أو أكثر، له مكتب رئاسة يضم الأمين العام للجامعة، ويعمل على تنفيذ قرارات المجلس، وينظر في الأمور الطارئة حينما لا يكون المجلس منعقداً.. وإنّي أقترح أن تكون «رفعتك» رئيساً لمجلس الجامعة.. فإنّ هذه «الرياسة العربية» أشمل نفعاً من رياسة الحكومة المصرية».

قال: «هذا موضوع سابق لأوانه، سنفكر فيه وفي غيره.. ونحن بانتظار المذكرة...».

وكذلك انتهت هذه الجلسة الصغيرة عند هذه النهاية السعيدة.. وانصرفت وخرج «رفعة الباشا» يودعني.. واستوقفني قليلاً وقال:

«إن حسونة باشا رجل طيب.. وستتعاون معه تعاوناً طيباً.. وعندي موظف كفء أرجو أن تضمه إلى الجامعة.. وهو الدكتور سيد نوفل..»

قلت: «ما دامت هذه توصيتكم فسأعمل على تعيينه. . وأرجو أن تفكروا ملياً في موضوع منصب رئيس المجلس واختصاصاته».

وانصرفت إلى مكتبي. . وجاء الدكتور سيد نوفل في اليوم الثاني. . وحدثت الأمين العام السيد عبد الخالق حسونه بشأنه. . وتم تعيينه مديراً للدائرة السياسية.

وأصبح»نوفل» بعد ذلك أميناً مساعداً يكتب قرارات الجامعة العربية قبل أن يقررها مجلس الجامعة. فكانت شهادة علي ماهر بشأن كفاءته في محلها.

وقد أنجز السيد محمد نجيب ما وعد، فقد انطلقت وفود مصر إلى البلاد العربية. وانطلق صلاح سالم عضو مجلس الثورة ووزير الإرشاد القومي ومعه معاونوه إلى العراق ولبنان وسوريا والسودان وغيرها من الأقطار العربية، يوضح رسالة الثورة وموقفها من القضية العربية.

وعكفت على كتابة المذكرة، فضمنتها كل خبرتي في الجامعة وقد رافقتها منذ مولدها يوم كنت مستشاراً للحكومة السورية إلى أن أصبحت داخل جدرانها أميناً مساعداً. . ووضعت مشروعاً للميثاق المعدل والأنظمة الداخلية للأمانة العامة واختصاصاتها وذهبت إلى منزل السيد محمد نجيب في «الحلمية» بضاحية القاهرة.

كان السيد محمد نجيب في «بجامته» متعباً. . وكان الضباط يروحون ويغدون. . وكانت الهمسات تدور حول خلافات داخل مجلس الثورة. . ولم أستطع أن أتحدث طويلاً مع الرئيس محمد نجيب. . فسلمته المذكرة، ولكني أحسست أن عقل الرجل في شغل شاغل. . وأنّ موضوع الجامعة العربية والعلاقات العربية مع مصر قد أصبح على الهامش. . واستأذنت لأنصرف وخرج معي يودعني. . وقلت له:

«لقد أعطيت وقتاً كثيراً لأمور مصر الداخلية، لقد حضرت الاجتماعات والمؤتمرات وخطبت فيها كلها. . ولكن بقي عليك أن تحضر اجتماعات أخرى وتخطب فيها. .»

قال: «أين؟»

قلت: «أقترح عليك أن تسافر إلى البلاد العربية. . وأن تخطب على الشعوب العربية. . لتسمع منك رسالة الثورة بالنسبة إلى القضية العربية. .»

قال: «ليتني أستطيع ذلك. .»

قلت: «هي بضعة عشر يوماً. . في جولة إلى البلاد العربية القريبة».

قال: «لا أستطيع. . إن مجلس الثورة عندنا كله من الشبان، وأخشى أن تدفعهم الحماسة «فيعملوا لنا عملية» تخرب الثورة»، فسكتّ ولم أعقّب، ولكن التاريخ هو الذي عقّب، فلم تكن فراسة الرئيس محمد نجيب في محلها، فقد استطاع «الشبان» أن يبنوا دولة ويصنعوا تاريخاً، وركبت سيارتي، واستأذن أحد الضباط أن يركب معي إلى القاهرة.

وفي الطريق قال لي الضابط:

«لقد كان حديثك في منزل رفعة الرئيس مفيداً ومقنعاً. . ألا ترى أن تتحدث في هذا الموضوع مع السيد جمال عبد الناصر؟ «إنه دماغ الثورة»، وإذا اقتنع ينفذ حالاً».

قلت: «لقد اتصلت بمكتب السيد عبد الناصر أطلب موعداً. . ولكن يظهر أن السيد عبد الناصر مشغول جداً. . »

قال: «نعم إنه مشغول جداً هذه الأيام. . هناك أمور داخلية خاصة بتدعيم الثورة تجعله يعمل ليل نهار. . ولكني سأرتب لك موعداً لمقابلته.

ووصلت شارع البستان حيث مقر الجامعة «القديم» وذهبت سيارتي مع الضابط توصله إلى حيث يشاء.

ولم تتهيأ الفرصة إلى ذلك الوقت للقاء السيد عبد الناصر. . . فأنا إنسان «مسافر» والسفر عندي كان هو الأصل، والإقامة هي الاستثناء، كذلك كان حالي ثلاثين عاماً طوالاً. . وقدر لي أن ألتقي بالسيد جمال عبد الناصر بعد سنوات كانت تنتظرني.

وفي هذه المرة كان سفري إلى نيويورك، ثم إلى الفاتيكان، وبعدها إلى ليبيا، وبعدها إلى تطوان. . .

«موكل بفضاء الله يذرعه». .

اشربــوا معــي نخــب الاتحــاد السوفياتــي

غادرت الوطن العربي في خريف عام ١٩٥٢، وصيحات الثورة وشعاراتها تتعالى في القاهرة ودمشق، والسيد جمال عبد الناصر في سراي الجزيرة على النيل يوطد دعائم الثورة، والسيد أديب الشيشكلي في «رياسة الأركان» في دمشق يضع الخطط لحماية الانقلاب. . . وصلت نيويورك لأجد قضية العرب الأولى، قضية فلسطين، تواجه أكبر خطر يتهددها، بعد خطر التقسيم في عام ١٩٤٧.

وقد استشعرت إسرائيل حينذاك ومن ورائها الولايات المتحدة، أن العرب مشغولون في أمورهم الداخلية، مستغرقون في هذه النظم الجديدة التي برزت في القاهرة ودمشق، والناس بين مندفع لحمايتها وبين مراقب لمصيرها. . وأنّ الفرصة مواتية لتسوية القضية، بصورة نهائية. . وعلى أساس الأمر الواقع.

بل لعل الولايات المتحدة ومن ورائها إسرائيل قد استشعرت كذلك أن هذه «النظم الجديدة» في القاهرة ودمشق محتاجة إلى الاعتراف الدبلوماسي. . ومحتاجة فوق ذلك إلى دعم اقتصادي وعون فني. . وأنّ الفرصة قد أصبحت ملائمة لاستخدام الأمم المتحدة لتصفية القضية الفلسطينية.

وكان مما دفع صانعي السياسة الأمريكية إلى هذه الاحتمالات، بل إلى هذه الأوهام. . أن الوجه السياسي الدولي لمصر الثورة لم يكن قد تحددت معالمه بعد. . وأنّ مصر ستجنح إلى بناء مصر اقتصادياً، ورفع مستوى المعيشة للعامل والفلاح، والانصراف إلى شؤونها المصرية الكثيرة.

وكانت السياسة الأمريكية تلوّح على الدوام بأن التنمية الاقتصادية في المشرق العربي هي خير حلّ لاستيعاب اللاجئين الفلسطينيين. . وأنّ الولايات المتحدة مستعدة أن تدفع. . وأن تظل تدفع للدول العربية معونات مالية كبرى لتمويل مشروعات التنمية. . وصولاً إلى تحقيق هذا الهدف. . استيعاب اللاجئين. . وبعبارة أصح. . توطين اللاجئين. والتعفية على فلسطين.

ذلك كان تخطيط السياسة الأمريكية في أوائل الخمسينيات وذلك كان حسابها. . ومن أجل ذلك كانت تسعى الولايات المتحدة أن تجعل من وكالة غوث اللاجئين. . وكالة تشغيل اللاجئين بالاسم والواقع، ثم عززت هذا السعي والتصميم بإيفاد بعثة «كلاب» لدراسة الأوضاع الاقتصادية في البلاد العربية والمشروعات التي يمكن أن تؤدي إلى «توطين» اللاجئين في الدول العربية. . وقد أرادت السياسة الأمريكية أن تجعل من دورة الأمم المتحدة لعام ١٩٥٢ وسيلة لتحقيق هذا الهدف. . فلقد أفلحت الولايات المتحدة عام ١٩٤٧ في استصدار قرار التقسيم، واعترفت بإسرائيل في عام ١٩٤٨ وأيدت دخول إسرائيل عضواً في الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٩، ولم يبق أمامها إلا أن تصفي ما بقي من قضية فلسطين في عام ١٩٥٢.

وتحركت أجهزة الإعلام الأمريكية والصهيونية للتحدث عن السلام بين العرب وإسرائيل. . وعن المفاوضات المباشرة بين العرب وإسرائيل. . وبرز إيبان المندوب الدائم لإسرائيل يحمل راية السلام ويدعو إلى عقد صلح ينهي حالة الحرب بين العرب وإسرائيل، «ويعمل الشعبان الساميّان العربي واليهودي على تقدم الشرق الأوسط وازدهاره وتوفير أسباب الرفاهية والسعادة لشعوبه. . »

ثم جاءت الصحافة الأمريكية لتبرز عناوين ضخمة: إيبان يحمل مشروعاً للسلام. . إسرائيل وضعت مشروعاً مفصلاً للسلام. . إيبان سيقدم مشروع السلام إلى الأمم المتحدة. . المشروع الإسرائيلي يحتوي جوانب إيجابية هامة. . إسرائيل تقدم حلولا بناءة لمشكلة اللاجئين. . المشروع الإسرائيلي يضمن حرية العبادة والزيارة للأماكن المسيحية المقدسة. . وهكذا.

وعصفت هذه العاصفة الإعلامية في داخل الأمم المتحدة، وأصبحت حديث وفود الدول الأعضاء. . في اللجان. . في الأروقة. . وفي قاعة الطعام. . وراحت هذه العاصفة تلفّنا نحن الوفود العربية من كل جانب، وكنا كلما انتشرنا في ردهات الأمم المتحدة يستوقفنا هذا الوفد أو ذاك، ليسأل. . وما رأيكم في مشروع إيبان. . يجب أن يتم الصلح بين العرب وإسرائيل. . وكل حرب يجب أن تنتهي إلى صلح. . والصلح لا يتم إلا بمفاوضات مباشرة. . والمفاوضات المباشرة قد نص عليها ميثاق الأمم المتحدة.

وجاء دور القضية الفلسطينية فافتتح المناقشة إيبان مندوب إسرائيل الدائم، وشخصت الأبصار وأرهفت الأسماع، فهذا اليوم يوم إسرائيل تمد يدها بالسلام إلى العرب. . والوفود تتمنى أن تفلح الأمم المتحدة في الوصول إلى تسوية نهائية للقضية

الفلسطينية، وبهذا تشطب واحدة من المشاكل الدولية المدرجة على جدول أعمال الأمم المتحدة.. وعرض إيبان ما أسماه الخطوط العريضة لمشروع السلام بين العرب واليهود، وأخذ وفود الدول الأعضاء يلخصون ويدوّنون، والاهتمام بادٍ على وجوههم، وفي حسابهم أن الأمم المتحدة ستستريح من هذه «اللعنة» التي تسمى القضية الفلسطينية، فكانت الخطوط العريضة على الصورة التالية:

ـ إن إسرائيل تتطلع إلى سلام دائم بين العرب واليهود حتى يستطيع الشعبان الساميّان القديمان أن يعيدا معاً إلى الشرق الأوسط حضارته وازدهاره..

ـ إن إسرائيل ليست إسفيناً في الشرق الأوسط ولكنها جسر يصل البلاد العربية بعضها ببعض.

ـ إن إسرائيل والدول العربية يكمل بعضها بعضاً، فالأولى بما عندها من خبرات علمية وفنية تستطيع أن تتعاون مع الثانية بما عندها من ثروات وإمكانات.

ـ إن إسرائيل مستعدة لأن تقدم أية ضمانات تطلبها الدول العربية لإثبات حسن نيتها، وأنّها لا تحمل أية أهداف عدوانية أو توسعية.

ـ إن إسرائيل مستعدة للموافقة على تعديل خطوط الهدنة بما يضمن مصالح الفرقاء المعنيين، ويجعل هذه الخطوط حدوداً ثابتة.

ـ إن إسرائيل مستعدة أن تمنح الأردن تسهيلات فعلية للوصول إلى البحر الأبيض المتوسط عن طريق ميناء حيفا، وكذلك لوضع التسهيلات الملائمة بالنسبة إلى مطار اللد في إسرائيل.

ـ إن إسرائيل مستعدة لحماية الأماكن المقدسة التي في حوزتها، وضمان حرية الزيارة والعبادة فيها...

ـ إن إسرائيل توافق على إعادة عدد معين من اللاجئين، ولكنها ترى أن مشكلة اللاجئين في مجموعها يجب أن تحلّ عن طريق مشروعات التنمية في البلاد العربية، ولا تتردد إسرائيل في أن تقدم خبرتها الفنية في هذا الصدد، كما طبقتها في مشروعات إسكان اللاجئين اليهود الذين قدموا إلى إسرائيل.

ـ إن إسرائيل مستعدة لأن تتقدم باقتراحات بناءة في ما يتعلق بتعويض اللاجئين عن أملاكهم وأراضيهم.

ـ وأخيراً فإن إسرائيل تدعو إلى عقد مؤتمر مائدة مستديرة من العرب واليهود

تحت إشراف الأمم المتحدة لبحث تفاصيل هذه الخطوط العريضة، والوصول إلى معاهدة صلح تضع أسس سلام دائم في الشرق الأوسط.

ولقد صاغ إيبان هذه الخطوط العريضة في عبارات مشرقة وفي قوالب دولية ناصعة، حتى لم يبق أمام الأمم المتحدة إلا أن تسمع من الوفود العربية كلمة «نعم» ويا ويلها إذا كانت الكلمة «لا».

وكانت الوفود العربية مؤلفة على مستوى عال فقد حضر هذه الجلسات الأمير فيصل وزير خارجية المملكة العربية السعودية، والدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر، والدكتور ظافر الرفاعي وزير خارجية سوريا، والدكتور فاضل الجمالي وزير خارجية العراق، والدكتور فؤاد عمون عن لبنان، ورؤساء الوفود العربية الأخرى.

وانتهى إيبان من بيانه الطويل عند المساء فتأجلت الجلسة إلى صبيحة اليوم الثاني، والأمم المتحدة لا حديث لها إلا إيبان ومشروعه، وموضوعيته، وعلميته، ورزانته، واتفقت كلمة الوفود العربية أن أتولى الرد على إيبان في اليوم التالي.

ولم يكن هذا العبء ثقيلا عليّ، فإن ملفاتي جاهزة موضوعاً موضوعاً، والمقتبسات والمراجع معدة بفهارسها. . وكان وراء ذلك جهد لعله امتد بضعة عشر عاماً. . وعزمت أن أعرض القضية الفلسطينية برمتها، بصورة علمية، وأن أردّ على إيبان بصورة موضوعية، وأن أحطِّم ذلك الصرح «الجميل» الذي بناه إيبان عن الصلح والسلام.

وحملت ملفاتي وأوراقي، ومعها عزمي وإيماني، وذهبت إلى الأمم المتحدة، والوفود العربية مشفقة علي من هذه «المبارزة»، مع إيبان. . ووفود الدول الأعضاء بين شامت ينتظر عثراتي. . وصديق عطوف يرجو لي مخرجاً كريماً.

وكانت جريدة **النيويورك تايمس** قد نشرت خطاب إيبان بكامله في صفحة بارزة تحت عناوين مثيرة، فكانت الفرصة مهمة لأتحدث عن قوة الدعاية الإسرائيلية والإمكانات التي تملكها لتضلل الرأي العام الدولي، وقضيت الجلسة كلها وأنا أشرح أساليب الخداع والتضليل التي تتبعها الدعاية الصهيونية في التستر على أطماعها ومدى السيطرة على وسائل النشر في العالم، وكنت عبارتي الأخيرة، و«سترون يا حضرات الأعضاء أن جريدة **النيويورك تايمس** لن تنشر كلمة واحدة من بياني هذا».

وجاء اليوم الثاني فلم تنشر **النيويورك تايمس** كلمة واحدة من خطابي رغم تحدي الأمس، ومن هنا كانت بداية حديثي في اليوم التالي عن المؤامرة الصهيونية الاستعمارية في صدور وعد بلفور وصك الانتداب.

وفي اليوم الثالث أوجزت أحداث الثلاثين عاماً من عهد الانتداب البريطاني، وما يتصل ببيوع الأراضي وشؤون الهجرة اليهودية. . والثورات الخمس عشرة التي خاضها الشعب الفلسطيني دفاعاً عن وطنه.

وفي اليوم الرابع تناولت بالتفصيل موضوع التقسيم، والجهود الضخمة التي بذلتها الولايات المتحدة لحمل المنظمة العالمية للموافقة على قيام إسرائيل، وما نتج عن ذلك من تشريد الشعب الفلسطيني عن وطنه.

وفي اليوم الخامس، ختمت المناقشة بتنفيد مشروع إيبان من دون أن أترك له منفذاً أو منفساً.

وقد جمعت الحكومة السورية في ما بعد هذه الخطب بنصها الإنكليزي في كتاب مستقل، وطلب إيبان الكلمة مبهوتاً ليرد عليّ فجاء باهتاً. . فقد اعتمدت في خطبي الخمس على المصادر الإسرائيلية من أقوال وايزمن، وشرتوك، وبن غوريون والكتاب السنوي لحكومة إسرائيل. . ولم يجد إيبان ما يرد علي به إلا أن قال إن «الشقيري» فلسطيني لا يمثّل أحداً.

وكانت فرصة أخرى، فطلبت الكلمة وقلت: «إنني رئيس الوفد السوري وهؤلاء وزراء خارجية الدول العربية من حولي يجلسون معكم في هذه القاعة. . وأنا أنوب عنهم جميعاً في ما قلته بصدد القضية الفلسطينية. . أمّا الذي لا يمثل أحداً ولا يمثل شيئاً فهو إيبان، مواطن بريطاني من جنوب أفريقيا، عمل في المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية، وحصل على الجنسية الإسرائيلية مؤخراً، وتعلم اللغة العبرية حديثاً».

وهنا ضجت القاعة بالضحك. . وقارب وقت المساء وكان يوم الجمعة فتأجلت المناقشة إلى صباح الاثنين. . وكان السبت والأحد فرصة الوفد الأمريكي لمؤامرة جديدة تقارب مؤامرة التقسيم في سنة ١٩٤٧.

وجاء يوم الاثنين، فطلب الوفد الأمريكي التأجيل يومين لإعطاء مزيد من الوقت للمشاورات بين الوفود. . وهو يعلن «فقد تقدم الفريقان بآراء مهمة جديرة بالدرس». فتمت الموافقة على التأجيل، وبهذا تيسر للوفد الأمريكي أن «يطبخ» مشروع قرار جديد يصفّي القضية الفلسطينية. . وجاء يوم الأربعاء، فإذا بنا أمام

مشروع قرار مقدم من ثماني دول، اشتهر في ما بعد بمشروع الثماني، يقترح في مجمله «مناشدة الفريقين الدخول في مفاوضات مباشرة بغية حل الخلافات القائمة بينهما والوصول إلى تسوية نهائية للمشكلة الفلسطينية».

وقد تقدم بهذا المشروع عدد من الدول الغربية والأوروبية ودول أمريكا اللاتينية وقد تجنبت أمريكا أن تضع اسمها في المشروع، لتستطيع أن تلعب دوراً أكثر أثراً في إنجاحه وجمع الأصوات حوله.

ودارت معركة «تعبئة» الأصوات ولم يعد للخطب مجال، ولا للمنطق مقال، وأصبحت النتيجة بالأصوات. . ونحن في هذا الباب ضعفاء. . ومن أين لنا أن نقف أمام أمريكا، وهي تبذل المساعدات الاقتصادية الضخمة من غير حساب.

وقد زاد من صعوبة الموقف أن السياسة العربية الخارجية إلى ذلك الوقت كانت مرتبطة بالعالم الغربي، ولم تكن مصر الثورة قد أوضحت سياستها العربية المستقلة، ولا عدد من الدول العربية الأخرى.

وقد زاد من صعوبة هذه الصعوبة أن الاتحاد السوفياتي قد وجد نفسه في موقف حرج، فقد سبق له أن وافق على التقسيم واعترف بإسرائيل. . ثم إن المفاوضات المباشرة لحل المنازعات الدولية أسلوب ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة. . . . وما هو أهم من هذا التعديل الدولي أن العرب لا يزالون في ذيل الدول الغربية، وليس على الاتحاد السوفياتي أن ينجدهم. . فليذوقوا البلاء على يد أولئك الأصدقاء.

وتجمعت هذه الأسباب كلها يوم التصويت، فاجتمعت اللجنة السياسية وطرح مشروع القرار ففاز بأكثرية الثلثين، وصفقت إسرائيل ومعها الأمم المتحدة لهذا النصر الكبير، وأصبح على العرب أن يذعنوا للقرار ويدخلوا في مفاوضات مباشرة مع اليهود. . ﴿**وكفى الله المؤمنين القتال**﴾[(١)].

وكان يوماً بائساً تعيساً علينا جميعاً. . لا نجد فيه مخرجاً. . فبعد بضعة أيام تنعقد الجمعية العامة للتصويت على القرار بصورة نهائية، وراح أكثرنا يعد الخطب في بيان عدم مشروعية القرار.

ولكن المصير قد أصبح مرهوناً بالأصوات، وقد فات وقت الخطب، والوفود في الأمم المتحدة تحدد موقفها أولاً، ثم تعدّ الخطب لتبرير هذه الموقف. . ثانياً. .

ولو كانت الأمور في الأمم المتحدة تقرر في نطاق الخطب، وفي إطار الحق

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٥.

والعدل، لكان ميسوراً علينا أن نهزم مشروع الدول الثماني، فقد عقدت للقضية أربع عشرة جلسة ألقي خلالها مئة وخمسة وثلاثون خطاباً ما عدا الكلمات الموجزة والردود الآنية، ومع هذا حين جاء وقت التصويت كانت النتيجة أن نجح مشروع الثمانية بأكثرية ٣٢ صوتاً ضد ١٣ صوتاً واستنكاف ثلاثة أصوات، وغياب من غاب، أو اصطنع الغياب.

واجتمعنا في الوفد السوري لدراسة الموقف: ظافر الرفاعي وزير الخارجية، وأعضاء الوفد الدائم السادة رفيق العشّا، صلاح الطرزي، أديب الداودي، ونجم الدين الرفاعي، وأنا، وبعد تدارس الموقف رأينا أن باب الفرج هو عند عتبات الاتحاد السوفياتي، ولا بد لنا أن نلجأ إلى فيشنسكي رئيس الوفد السوفياتي، عسى أن تغير الدول الاشتراكية تصويتها في الجمعية العامة.

وكان فيشنسكي خطيب الأمم المتحدة بلا منازع، وكان له مقام كبير في الاتحاد السوفياتي، وليس رئيس وفد فحسب، وكنت في خطبي في الأمم المتحدة أطريه وأثني عليه ثناءً كبيراً، كأنني أعده ليوم كريهة. . حتى إنني قلت عنه مرة، وكنا نناقش موضوع الطاقة الذرية، «إن فيشنسكي طاقة ذرية عظيمة، ولكن ليست لها إشعاعات ضارة». فابتسم لهذا المديح، وقلّ أن يهز الثناء حاجبيه أو شاربيه.

وانطلقت إلى مكتب الوفد السوفياتي في «بارك أفينيو» ومن الذي يجرؤ أن يدخل هذا «الكرملين» الصغير. . فقد كان كثير من الوفود العربية يخشون أن يسيروا بجانب فيشنسكي في الأمم المتحدة، أو تجمعهم معه صورة واحدة، وهل يجرؤ عربي أن يصافح فيشنسكي بحرارة، بعد خطاب من خطبة النارية؟

وتحدثت مع فيشنسكي طويلاً في القضية الفلسطينية، وأنها محور عواطف الأمة العربية، وأوضحت الأسباب التي من أجلها نرفض المفاوضات مع اليهود. . وأنّ الأمة العربية تتطلع إلى نصرة الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي. . وأنّ وأنّ. .

وكنت أتحدث مع فيشنسكي كأنني في محراب، أناجي وأصلي. . فكيف نحتمل هذا العار في سنة ١٩٥٢، بعد هزيمة ١٩٤٨.

فوعد فيشنسكي أن ينقل رجائي إلى موسكو، وأن يضم إليه صوته وموافقته ولكنه طلب أن لا يعلم أحد من الوفود العربية بلقائنا «فإنّ بينهم من ينقل الأخبار إلى الأمريكان ولا داعي للكشف عن خططنا.». ذلك ما أكده غير مرة.

وودعت فيشنسكي وأنا أقول له: «هذا يوم من أيام العرب»، وأنا أشرح له مدلول هذا القول ومغزاه. . وأثره على الأمة العربية ومداه.

ومضت ثلاثة أيام ورفاقي من شباب الوفد السوري يعملون في صمت ومثابرة، في حملة كبرى من الاتصالات، وخاصة مع بقية الدول الاشتراكية.

وجاء يوم التصويت في الجمعية العامة، وقبيل الجلسة دعاني أحد أعضاء الوفد السوفياتي إلى الجناح الخلفي من قاعة الجمعية العامة، فذهبت مع بعض أعضاء الوفد السوري، وإذا بفيشنسكي واقف ينتظرني ليقول لي كلمة واحدة: «سنكون إلى جانبكم . .» فشددت على يده بحرارة، البشرى تسري مع دمي في عروقي . . وقلت له: «ستسمعني على المنبر».

وتكتمنا الخبر، تكتم الحب القديم، وانعقدت الجمعية العامة، وبدأ التصويت بالأسماء، وكانت بولندا في أوائل من دعي التصويت، فلم تصوّت مع القرار . . وكانت دهشة وذهول . . فذلك ينبئ أن الدول الاشتراكية قد غيرت تصويتها. وذلك يعني أن القرار لن يحوز أكثريّة الثلثين . . وذلك يعني أن القرار سيهزم . . وتهزم معه إسرائيل والدول الغربية بأسرها.

ومضى التصويت العلني بالاسم، وأعلنت روسيا أنها ليست مع القرار، وكذلك الدول الاشتراكية كلها، فانقلبت الموازين، وانقلبت معها الحسابات . . وأعلنت النتيجة: لقد سقط القرار لأنه لم يظفر بأكثرية الثلثين . .

وجاء دورنا للتصفيق . . فألهبنا أكفنا بالتصفيق وصفق معنا الكثيرون من الذين كانت تعليماتهم في جانب، وضمائرهم في جانب آخر . . وقبل ثلاثة أيام كان التصفيق علينا لا لنا.

وزادت عاصفة التصفيق وأنا أشقّ طريقي إلى المنبر . . في زهو وخيلاء، لألقي الكلمة الأخيرة حول هذا الموقف الأخير.

وكان رؤساء وفود الدول العظمى الأربعة: روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا، يجلسون في الصفوف الأمامية في أماكن متقاربة، وكانت قاعة الجمعية معبأة بحشود الوفود وجماهير الزوار، بما لم تشهد له المنظمة العالمية مثيلاً.

وقلت أمام هذا الحشد الحاشد، وأنا أحَدّق ببصري بوفود الدول العظمى مرة، وبوفود الدول الأخرى مرة أخرى: «إننّي لا أقف الآن لأخطب في الموضوع، فقد خطبت أياماً وأياماً، ولست أقف الآن لأتكلم باسم سوريا حكومة وشعباً، ولكني في هذه الساعة أتكلم باسم الأمة العربية بأسرها من المحيط إلى الخليج، إنني أعلن من هذا المنبر شكر الأمة العربية للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية، كما أعلن استنكار الأمة العربية لموقف الولايات المتحدة وحليفاتها».

ثم أخذت أقارن بين الموقف الروسي العادل، والموقف الأمريكي الظالم، واسترسلت في إطراء الاتحاد السوفياتي والتنديد بموقف الدول الغربية . . وغادرت المنصة والجمعية العامة في ذهول من هذا «العربي» الذي يجرؤ أن يرفع يده بالتحية لروسيا.

وجاء إيبان من بعدي يحاول أن يلتقط أنفاسه، وهو «مفجوع» أن ضاعت فرصة «السلام» وتحدث عن «الهستيرية» الشقيرية . . وإني لأعترف أنني كنت في حالة من النشوة لم تكن بعيدة كثيراً عن نوبة «هستيرية» . . ولكن ماذا أصنع، إنه الوطن في الميزان . . تماماً مثل الهستيرية الحامية في الميدان.

وخرجنا من القاعة، والوفود تتوافد على الوفد السوري تعبر عن تهنئتها وتقديرها.

وكانت الوفود العربية مبتهجة بهذه النتيجة البهيجة، ولكنها كانت خائفة كذلك . . كانت خائفة لأن مغامرة «الشقيري» مع الاتحاد السوفياتي خطرة . . فإن الأمة العربية لا «تهضم» الشيوعية . . وأوصى عدد من الوفود العربية ملحقيهم الصحافيين أن لا يبرزوا دور الاتحاد السوفياتي، ولا ينشروا «مدائح» الشقيري للاتحاد السوفياتي.

ولكن عواطف الأمة العربية لا يمكن أن تحبس بهذه السهولة، وخصوصاً في القضية الفلسطينية، فقد انطلقت عواطف التأييد للاتحاد السوفياتي في كل أرجاء العالم العربي، وخرج التأييد الرائع من حيث لا يظن أحد أن يخرج . . من البرلمان الأردني، فقد وجه برقية شكر إلى الاتحاد السوفياتي لهذا الموقف العظيم . .

وكان ذلك الموقف من الاتحاد السوفياتي بداية لعهد جديد، أخذت بعده موسكو في سياسة جديدة، لم تكن عربية كاملة بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، ولكنها كانت صمّام الأمان، أنقذت الموقف العربي من أزمات كثيرة وخاصة في مجلس الأمن . . بما تملكه روسيا من حق الفيتو الذي مارسته لصالح العرب مرات ومرات في أحلك الساعات.

وكان هذا الموقف لي بصورة خاصة، بداية لتحالف مع الاتحاد السوفياتي في جميع القضايا الدولية، من غير تعليمات ولا توجيهات، حينما كنت رئيس الوفد السوري، وبعد ذلك رئيس الوفد السعودي . . مما سيأتي ذكره . .

وبعد انفراط عقد الجمعية العامة، خرجت الوفود إلى «الكافتيريا» التماساً للراحة والطعام والشراب . .

وخرجت مع الوفود، واصطنعت الجلوس مع الوفد السوفياتي والوفود الاشتراكية الأخرى، وطلبت لهم ولي شراباً، وأردت أن أبالغ في النكاية بالدول الغربية جهاراً نهاراً، فرفعت كأس العصير بيدي وأنا أقول: «اشربوا معي نخب الاتحاد السوفياتي».

وكانت ساعة مرح ومداعبة، فرفعوا جميعاً كؤوسهم وشربوا نخب الاتحاد السوفياتي وقد غلبتهم روح المجاملة والزمالة.

وانتهت تلك الدورة في هزيمة منكرة لإسرائيل ومن هم وراء إسرائيل.. ولم تعد المفاوضات المباشرة إلا كلاماً «إعلامياً» لإسرائيل، ليس له حظ من النجاح في الأمم المتحدة.

ومضى خمسة عشر عاماً على تلك الدورة التاريخية حتى وقعت الهزيمة التاريخية في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فعادت إسرائيل، بعناد وإصرار، إلى حكاية المفاوضات المباشرة..

وهذه الحكاية لها كلام آخر.. وفي مكان آخر..

آمال في موسكو ومخاوف في الفاتيكان

في أوائل الخمسينيات كان الوطن العربي في ثورة، في المشرق ثورة على «الحكم العربي»، وفي المغرب ثورة على الحكم الأجنبي، في القاهرة ودمشق تقتلع «الثورة» أنظمة الاستعمار من جذورها، وفي تونس والجزائر ومراكش تناضل «الثورة» لتزحزح الاستعمار عن مواقعه، وتحرر الوطن والشعب.

وكانت الجامعة العربية تراقب ثورة المشرق والمغرب من دون أن تبدي حراكاً، إلا ما يُشعر العالم بأنها لا تزال تلفظ الأنفاس.

ولقد قامت الجامعة العربية من أجل فلسطين، أو هكذا قال الملوك والرؤساء يوم إنشائها. . وكان للمغرب العربي نصيب في ملحق ميثاقها فيه كلمات جميلات عن رعاية مصالح الشعوب العربية في الشمال الأفريقي.

وكان الظن يومئذ أن المغرب العربي لا أمل في شفائه. . فقد استفحل فيه داء الاستعمار وأنشب مخالبه. . ولا بأس في كلمات مؤاساة تقولها الجامعة العربية من حين إلى حين. . إلى شعوب المغرب العربي. .

أمّا فلسطين. . فقد كان الظن كذلك أن أمرها مع بريطانيا أيسر من أمر تونس والجزائر ومراكش مع فرنسا. . فلتمض الجهود في سبيل فلسطين. . . ولنترك المغرب إلى الزمن، هذا كان خيال القادة والساسة. . من رجال الجامعة العربية.

وجاءت أعوام ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٨ فهزمت الجامعة العربية شر هزيمة في ميدان الحرب، وراحت تعالج القضية الفلسطينية ومعها قضايا تونس والجزائر وليبيا ومراكش معالجة هزيلة هي أقرب إلى الاستجداء منها إلى النضال والكفاح. . والجامعة تهرب من مواجهة الرأي العام وراء ستار كثيف من التصريحات اللاهبة والعبارات الطنانة الرنانة.

وحدث في ذلك الوقت بالنسبة إلى القضية الفلسطينية، أن استعلى في الجو موضوع التعويضات الألمانية الإسرائيلية، وهذا موضوع خطير أثبتت الأيام أنّه

كان شريان الحياة لإسرائيل أمدها بالبقاء بضعة عشر عاماً.

وعقدت الاجتماعات العربية على مختلف المستويات، وانطلقت التصريحات المدوية من العواصم العربية، وشهدت القاهرة اجتماعات «رائعة» في الجامعة العربية حضرها الوزراء والخبراء، وكان الشعار مقاطعة ألمانيا سياسياً واقتصادياً وثقافياً. واهتزت ألمانيا لهذه الأنباء «المروّعة» وكانت ألمانيا ما بعد الحرب، دولة ناشئة تبني اقتصادها وحياتها من جديد.. ولها مع العالم العربي مصالح.. وهبط إلى القاهرة وزير ألماني كبير ليناشد الدول العربية أن لا تقدم على المقاطعة.. وأنّ ألمانيا مستعدة لاسترضاء الجامعة العربية وحكوماتها بالعون المالي والاقتصادي والفني.. وعاد الوزير الألماني من القاهرة وهو لا يعلم على وجه اليقين إذا كان العرب سيقاطعون أو لا يقاطعون.

وشهدت هذه الاجتماعات، بحكم منصبي في الجامعة العربية، وكانت فجيعتي كبيرة أن أقرأ في صحف الصباح تصريحات الوزراء العرب تحض على المقاطعة، والمقاطعة الشاملة «لألمانيا الغربية» حتى إذا انعقد الاجتماع وأقفلت الأبواب، بدأ الوزراء يتحدثون حديث الحكماء.. عن محاذير المقاطعة واستحالتها.. ثم يتساءلون بعد ذلك إلى متى ننساق وراء العواطف؟ إلى متى ننجر وراء جموع الجماهير، وننقاد إلى رجل الشارع ونسير في ركاب الغوغائية؟

ولكن لم نكن لنفرغ من هذا الكلام «الحكيم» الرزين.. حتى أرى الوزراء هم إياهم.. بعد انتهاء الجلسة، يصرخون ويعلنون إلى الصحافيين بأن مقاطعة ألمانيا أمر لا مناص منه.. إنه واجب قومي تفرضه دواعي الشرف والكرامة.. ولا بد أن نقبل كل تضحية من أجل فلسطين.

وكانت آخر الجلسات التي عقدت لبحث هذا الموضوع قد تمت في رئاسة مجلس الوزراء المصري في مكتب الرئيس محمد نجيب وبحضوره. ودارت المناقشات طويلة وعريضة واستقر الرأي الحكيم الرزين أن الحكومات العربية لا تستطيع أن تقاطع ألمانيا.

وقبل انتهاء الجلسة طرح الرئيس محمد نجيب السؤال التقليدي الذي يطرح في كل جلسات الجامعة، وماذا نقول للصحافة؟

ودار كلام وحوار، وكأنما بدأت الجلسة من جديد... ماذا نقول للصحافة؟ وقدمت اقتراحات متعددة، وكان أيسرها أن تقول الأمانة العامة «إن مجلس الجامعة بحث جوانب هامة في قضية فلسطين وفي مقدمتها قضية اللاجئين واتخذ بشأنها القرارات اللازمة»، واقترح السيد نجيب الراوي رئيس وفد العراق أن أعلن هذا القرار للصحافيين فرأيت نفسي أردّد لمجلس الجامعة العربية قول الشاعر:

وإذا تكون كريهة أُدعى لها ... وإذا يحاس الحيس يدعى جندب

وتطوع الأمير السفير مصطفى الشهابي فشرح بيت الشعر للذين لم يفهموه، ووقع العبء في النهاية على السيد محمد نجيب بوصفه رئيس الجلسة أن يفضي للصحافيين بذلك البيان الصادق الأمين.

وكان هذا النهج الذي أصبحت تعالج فيه القضية الفلسطينية بعد هزيمة عام ١٩٤٨، أمّا القضايا العربية في شمال أفريقيا فقد كانت معالجتها على نحو أسوأ وأسوأ.

ففي أوائل عهد الجامعة وقبل حرب فلسطين، كانت العواطف والتمنيات هي المنطلق الوحيد في معالجة القضايا العربية في شمال أفريقيا، ففي ٤-١٢-١٩٤٥ قرر مجلس الجامعة «أن يعهد إلى الأمانة العامة اتخاذ التدابير اللازمة للقيام بمساع سياسية لاجل تخفيف العنف والاضطهاد والويلات التي تنزل بإخواننا العرب في شمال أفريقيا وان يكون من ضمن هذه المساعي زيارة الأمين العام لفرنسا».

وفي ١٢-٤-١٩٤٦ تغيرت الصيغة الإنشائية بعض الشيء فقرر مجلس الجامعة «عطفه على إخواننا العرب في المغرب وتأييده لما يطلبونه من حق في الحرية والاستقلال».

والواقع أن هذه العبارات المدبّجة لم يكن لها معنى عملي، ولم يكن لها مضمون يتجاوز حدود الكلام. . فعلى الصعيد المالي كان كل ما اعتمده المجلس (١٢-٢-١٩٥١) مبلغ عشرة الآف جنيه، ثلاثة منها تخصص لليبيا، وسبعة الآف لأقطار المغرب العربي من خلال مكتب المغرب العربي الذي يعمل فيه زعماء المغاربة، فأصدر مجلس الجامعة العربية في ١٤-٢ ـ ١٩٥٠ قراراً «يتمنى المجلس على الأمانة العامة رفع الإعانة المخصصة لمكتب المغرب العربي من ٢٠٠ إلى ٢٥٠ جنيهاً شهرياً. . ».

تلك كانت قرارات النضال. . . مظالم ومغارم على يد الاستعمار الإفرنسي، وشح وتقتير على يد الجامعة العربية. . وكان من أسوإ ألوان الشح والتقتير ما اختبرته بنفسي، فقد جاءني مرة الشيخ محمد بشير الإبراهيمي كبير علماء الجزائر يناشدني، بنثره الصافي وشعره الرائق أن تقدم الجامعة العربية معونة مالية للطلبة الجزائريين الذين يدرسون في البلاد العربية.

ولقد دعوت الدائرة المالية في الجامعة، بكل أركانها وقلت لهم:

«هل عندكم وفر في الميزانية».

قالوا: «نعم». .

قلت: «ادفعوا للشيخ الإبراهيمي مبلغ مايتي جنيه كل شهر إعانة معاونة للطلبة الجزائريين».

قالوا: «هذا يحتاج إلى توقيع الأمين العام وهو غائب».

قلت: «أنا الأمين العام بالنيابة. وهذا توقيعي».

قالوا: «هذه مسألة مالية تحتاج إلى نص.. ونحن في الجامعة لا نقدم معاونة للطلبة، ونخشى أن تصبح سابقة».

قلت: «يا إخوان... هذه حالة استثنائية... اللغة العربية في خطر في الجزائر.. وعلينا أن نشكر الشيخ الإبراهيمي أنه يقوم بهذا الجهد لتعريب الجزائر.. وأي خطر على الأمة العربية أن تصبح سابقة.. وهل هي سابقة قبيحة حتى نخشاها؟»

قالوا: «على مسؤوليتك؟»

قلت: «نعم.. على مسؤوليتي.. ادفعوا..»

وانتهت المعاملة المالية، وصار الشيخ الإبراهيمي يأتي كل شهر وهو يتوكأ على عكازه، ليقبض المبلغ من أجل تعليم الطلبة الجزائريين.. ولكن لم تكن تخلو اجتماعات اللجنة المالية للجامعة من همسات حول «مخالفات» الشقيري المالية ومعها رتل طويل من الأسئلة المألوفة، أليس في البلاد العربية طلبة كثيرون محتاجون للعون؟ ولماذا هذا التخصيص للطلبة الجزائريين.

أما على الصعيد السياسي فلا بأس من الكرم الكلامي ولو بقدر محدود.. ففي عام ١٩٥٣ كان النضال الوطني في تونس والجزائر ومراكش يأخذ طريقه إلى المحافل الدولية، فلم تجد الجامعة العربية أمامها، استجابة للرأي العام العربي، إلا أن تقرر (٧-٩-٥٣) عرض القضية التونسية والمراكشية على الأمم المتحدة، أمّا قضية الجزائر..

أما قضية الجزائر فقد كانت جوزة صلبة في نظر الجامعة العربية لا بد من أن تسير فيها بطريقة إنسانية... وكانت اللجنة الثالثة في الأمم المتحدة هي المنبر الذي تعالج فيه الناحية الإنسانية.. بمنتهى الشفقة والرحمة.

ومن هذا المنطلق المرتجف الهزيل قرر مجلس الجامعة في ٩-٤-١٩٥٣ «أن تثار قضية الجزائر أمام اللجنة الثالثة التابعة للأمم المتحدة في دورتها المقبلة، ويوصي أن تبذل المساعي منذ الآن لدى لجنة حقوق الإنسان للتمهيد لبحث هذه القضية للتمكن من إثارتها أمام اللجنة الثالثة».

وكان «حكماء» الجامعة العربية لا حكماء صهيون يظنون وهم يدرسون هذه القضايا النضالية أنهم أمام قضية قانونية ترفع إلى محكمة قضائية ويجب أن تستوفي كل الشرائط قبل تقديمها.

هكذا كانوا ينظرون إلى الأمم المتحدة. . وإلى ميثاقها. . وإلى العقوبات التي تستطيع أن تفرضها. . كانوا يظنون أن الأمم المتحدة تقرر وتحرر. . وكان خصومنا الاستعمار الإفرنسي في شمال أفريقيا. . والاستعمار العالمي في فلسطين، يعرفون يقيناً أن الأمم المتحدة لا تعدو أن تكون منبراً إعلامياً على مستوى عالمي ودولي وكفى. .

وكائناً ما كان الحال، فقد حملنا نحن الوفود العربية هذه القرارات النحيلة معنا، وذهبنا إلى الأمم المتحدة لنعرض قضايا الجزائر وتونس ومراكش على الأمم المتحدة. . وكانت الدورة في خريف ١٩٥٣، وكنت رئيساً للوفد السوري.

وكان في الدورة عدد من المغاربة جاؤوا إلى نيويورك ليقوموا بما يستطيعون من الدعاية والاتصالات السياسية تأييداً لقضايا بلادهم. . وكان بينهم السيدان باهي الأدغم عن تونس (وأصبح في ما بعد نائباً لرئيس الوزراء) وأحمد بلافريج (أصبح في ما بعد ممثلاً للملك الحسن الثاني) وكانت الصعوبةالأولى التي واجهها هذان المناضلان المغربيان: كيف يدخلان إلى قاعات الأمم المتحدة ويتصلان بالوفود؟

لقد كان الوفد الإفرنسي يراقبهما منذ أن وصلا إلى الولايات المتحدة. . ويعتبرهما «غريبين» ليس لهما أي حق في دخول الأمم المتحدة إلا زائرين يجلسان في جناح الزوار ببطاقة تصرف لهما يوماً بعد يوم.

وعقدت الوفود العربية اجتماعاً لبحث هذه المشكلة، واستقر الرأي أن أضمهما إلى الوفد السوري كمستشارين، وكانت «حجة» المزاح الجادة: «الشقيري لا ينتظر تعليمات من حكومته في ما يقول. . . فليكن إخواننا المغاربة على قائمة الوفد السوري».

ولم أتردد في الإذعان لهذا القرار من الوفود العربية، فقد كان همّي أن أدخل في مشاكل مع الاستعمار. . . وإذا جاء وقت الحساب مع حكومتي فإني أفوّض أمري إلى الله.

وجاء موعد بحث قضيتَي تونس ومراكش، وجلس ورائي المستشاران السيدان باهي الأدغم وأحمد بلافريج. . وصعق الوفد الإفرنسي أن يرى العدوين اللدودين يجلسان في غير جناح الزوار، في داخل اللجنة السياسية وفي مقاعد الوفد السوري بالذات.

ووثب الوفد الإفرنسي إلى مكتب المستر همرشلد الفخيم، في الطابق الثامن والثلاثين في مبنى الأمم المتحدة العظيم، يحتج على وجود هؤلاء «الغريبين» في اللجنة السياسية، وأعرب المستر همرشلد عن أسفه واعتذاره، وأعلن أنه لا بد أن يكون هنالك خطأ، وتناول سماعة التلفون واتصل بدائرة البرتوكول مستوضحاً عن الأمر الجلل، فقال له المسؤول: «إنهما مستشاران بالوفد السوري، وقد جاءني كتاب بذلك من رئيس الوفد السوري قبل ثلاثة أيام. .» فسكت المستر همرشلد وسكت معه الوفد الإفرنسي. وانصرف إلى قاعة اللجنة السياسية ليسمعني وقد بدأت أتحدث عن الاستعمار الإفرنسي. . وعما يعانيه الشمال الأفريقي من بلاء الاستعمار الإفرنسي. . ونددت بما قامت به السلطات الإفرنسية من اعتقال سلطان مراكش سيدي محمد بن يوسف ونفيه إلى جزيرة كورسيكا. . وما قامت به من عسف وإرهاب على الشعب التونسي. . وكانت الكتلة الآسيوية العربية قد برزت شخصيتها في أروقة الأمم المتحدة فنشطت في مناصرة القضيتين العربيتين، التونسية والمراكشية، بوصفهما حركتين تحريريتين، وكان السيد «يوثانت» مندوب بورما (الأمين العام للأمم المتحدة) أشبه شيء بالناطق الرسمي باسم المجموعة الآسيوية فبذل جهوداً صادقة في هذا الميدان. .

وحاول مندوب فرنسا ومعه مندوبو الدول الاستعمارية، وحركات التحرير تتربص بهم الدوائر، أن يردوا على وجهة النظر العربية الآسيوية فأشاروا إلى نظام الحماية في القانون الدولي وحقوق فرنسا باعتبارها دولة حامية على مراكش وتونس.

وقد اغتنمتها فرصة لأهتك هذه الحجة الواهية، وقلت إن مراكش وتونس في حاجة إلى حماية من هذه الحماية، وإنّ القانون الدولي، فيما خلا بعض مبادئ أساسية، إنما هو قانون الغالب على المغلوب، القوي على الضعيف، وما هو إلا مجموعة من الأعراف فرضتها الدول الأوروبية، وقالوا لها كوني قانوناً فكانت. . وإنّ شعوب العالم القديم في آسيا وأفريقيا، لم يكن لها يد في صنع هذا القانون، وإنما كانت هدفه الرئيسي من أجل هدف واحد هو السيطرة والاستعباد.

وانطلقت حملة التصفيق من شرفة الزائرين وكان فيهم جمهور من الزنوج مست هذه الكلمات مكامن العذاب في نفوسهم.

وأصابت قضيتا مراكش وتونس في ذلك العام والعامين التاليين نجاحاً طيباً على صعيد الأمم المتحدة، ولم تكن خطب الوفود العربية ولا جهود الكتلة الآسيوية هي التي حققت لتونس ومراكش الحرية والاستقلال، ولكن الكفاح الدامي البطولي الذي خاضه الشعبان الباسلان في تونس ومراكش، هو الذي حمل فرنسا أن تعترف لهما

بالاستقلال في أوائل عام ١٩٥٦، وكان يوماً عظيماً في تاريخ العرب المجيد يوم أصبحت تونس ومراكش من أعضاء الأمم المتحدة، بعد أن كانت اللجنة التوجيهية في المنظمة العالمية «تغرف» ساعات وساعات في جدل بيزنطي مريره: هل تدرج قضيتا مراكش وتونس أو لا.

وعلمت، ونحن غارقون في مناقشة قضيتي مراكش وتونس، أن السيد مولوتوف وزير الخارجية الروسية قد وصل إلى نيويورك، فهرعت ومعي الدكتور صلاح الطرزي عضو الوفد السوري (سفير سوريا في موسكو) إلى صديقنا «فيشنسكي» رئيس الوفد الروسي ليؤمن لنا مقابلة مع الوزير الروسي.

ومضت بضعة أيام وإذا بالدكتور الطرزي يخبرني على التلفون بأن الموعد مع «فارس بك» سيكون غداً. . «وفارس بك» هو الاسم الرمزي الذي كنا اصطلحنا عليه نحن الوفد السوري حين نتحدث بالتلفون عن الوفد الروسي. . وكنا خلال تلك الفترة قد أبرقنا بالأمر إلى السيد خالد العظم وزير الخارجية السورية فجاءنا الرد مرحباً بالفكرة ومتمنياً أن تتاح الفرصة لطلب أسلحة للجيش السوري.

وفي الموعد المعين ذهبنا، الدكتور الطرزي وأنا، إلى الوفد الروسي في «بارك أفنيو» واجتمعنا بالسيد مولوتوف، الوزير الصارم الصامت.

وتحدثت طويلاً عن الأوضاع العربية وما تعانيه من النفوذ الأجنبي وعن الأهداف الاستعمارية الكامنة في قيام إسرائيل وخطط الصهيونية العالمية في السيطرة على الوطن العربي، وانتهيت إلى القول، بأن الوقوف في وجه هذه الأطماع يحتاج إلى أمة عربية قوية لا تعتمد على الغرب في سلاحها. . وأن سوريا ترجو موسكو أن تزودها بالأسلحة بالشروط التي تراها مناسبة. . وإنّ ذلك سيكون بداية لعهد مشرق من الصداقة بين الأمة العربية والاتحاد السوفياتي.

وصمت الوزير الصارم طويلاً وقال: «أعتقد أن موضوع السلاح لا يخلو من مصاعب. . والأسهل في رأيي أن نقدم لكم مساعدات اقتصادية. . »

قلت: «لقد تكلمنا في الصعب، ولم نتكلم في الأسهل لأن أمره ميسور. . وأرجو أن تعتبر أن طلبنا ينحصر في الأمرين. . ولكن السلاح أولاً. . »

قال: «ولماذا تؤكد السلاح أولاً؟»

قلت: «وما قيمة الاقتصاد الزاهر إذا كان معرضاً للاجتياح والاحتلال. . المعول لا يحمي البندقية، ولكن البندقية تحمي المعول».

قال: «وهل أصبحت إسرائيل من القوة العسكرية بحيث إنها تهدد اقتصادكم؟»

قلت: «لو كانت إسرائيل وحدها لهان الأمر، ولكن إسرائيل أصبحت قلعة أمامية للاستعمار الغربي، وللولايات المتحدة خاصة. .»

قال: «سأنقل طلبكم إلى موسكو ولا أعدكم بأكثر من ذلك».

ونزلنا السلم من الطابق الثالث، ونزل معنا الوزير الصارم إلى الطابق الأرضي وإلى خارج الباب الرئيسي ليودعنا عند باب السيارة. . وهكذا يأسر الكبار الصغار.

وأبرقنا إلى السيد خالد العظم بما جرى. . وتطورت الأمور في ما بعد، فكسرت مصر وسوريا طوق السلاح الذي كان مفروضاً عليهما وتحقق بذلك أكبر آمالنا ولكن أقولها للتاريخ، كان لقاؤنا مع موتولوف في نيويورك أول خطوة عربية لطلب السلاح من الاتحاد السوفياتي.

وقاربت الأمم المتحدة على النهاية، وقضية فلسطين تتقلص إلى قضية إغاثة اللاجئين الفلسطينيين، وحاولت كل جهدي مع وفود أمريكا اللاتينية خاصة أن نحرك القضية بجوانبها السياسية ولكني لم أفلح. . وجاءني السيد بلوندي رئيس وفد بيرو، وهو رجل متدين، ليقول لي:

«أنصحك أن تتصل بقداسة البابا لعله يقوم بسعى لدى الدول الكاثوليكية لمناصرتكم وخاصة في ما يتعلق بالأماكن المقدسة».

قلت: «سأفعل. . والفاتيكان في طريق عودتي».

وأنتهت الدورة وسافرت إلى روما، وطلب لي السفير السوري لدي الفاتيكان الدكتور أنور حاتم موعداً. .

وذهبت إلى الفاتيكان في الموعد المحدد، فعبرت معابره، منتقلاً من قاعة إلى قاعة حتى دخلت على الحبر الأعظم في مكتبه، فشكرت لقداسته أن استقبلني في تلك الأيام التي تزدحم فيها مواعيده لمناسبة الأعياد. . وحدثته عن المقدسات الإسلامية والمسيحية وما صارت إليه من العبث والهوان على يد إسرائيل. . وذكرت له مشاهد السيد المسيح وخاصة في الجليل، وأنا أعرفها كنيسة كنيسة، ومزاراً مزاراً، واستشهدت بما قاله السيد المسيح هنا وهناك مما حفظته عن ظهر قلب في المدرسة التبشيرية في القدس عام ١٩٢٤، مشيراً في ختام حديثي إلى أنني فلسطيني مسلم يعمل لتحقيق السلام في أرض رسول السلام. . ورجوته أن يصدر توجيهاته إلى الدول الكاثوليكية لتقف إلى جانبنا.

وتحدث قداسة البابا بكل وقار ورزانة ومهابة مؤكداً أنه سيبذل جهده في سبيل إقرار الحق والسلام في البلاد المقدسة، ومد يده إلى «علبة» على طاولته وقال «أقدم لك هذا الوسام تقديراً لجهودك في الدفاع عن القدس».

فتناولت الوسام شاكراً وقلت: «إن القدس ستظل مقدسة ما بقي أهلها فيها من النصارى والمسلمين، وإذا خرجوا منها فستكون معبداً مهجوراً من غير عابدين.. وما قداسة كنيسة القيامة إلا بأهلها فإن خرجوا أصبحت متحفاً للزائرين والسائحين..»

فقال قداسة البابا: «أرجو الله أن لا يقع ذلك، وسنبذل كل جهدنا للدفاع عن البلاد المقدسة». وانصرفت من حضرة قداسته، وكنت في الواقع، في قلبي وخاطري، في حضرة بيت المقدس وقد تذكرت فيها أيام صباي وشبابي.

وخرجنا إلى الساحة التي يطل عليها قصر الفاتيكان، والدكتور أنور حاتم يقول:

«لقد كانت الجلسة موفقة للغاية ولكن..»

قلت: «ولكن ماذا؟»

قال: «لقد أعطيت قداسته صورة كئيبة عن مستقبل القدس، وألقيت بين يديه مخاوف رهيبة»، والدكتور حاتم كاثوليكي متدين وله علاقة طيبة بدوائر الفاتيكان.

قلت: «إنها صورة كئيبة حقاً، وإذا كانت ستتحقق فأرجو الله أن لا أعيش لأراها.. إنها مخاوف رهيبة أدعو الله أن لا أعيش لأراها..»

وكانت ومضة من ومضات الزمن، فعبرت أربع وعشرون سنة على هذه الصورة الكئيبة حتى أصبحت في حزيران/ يونيو ١٩٦٧ حقيقة كئيبة.

لقد احتلت إسرائيل بيت المقدس من غير قتال، ولم يخدش حجر واحد من أسوارها وأبراجها.. ووقع المسجد الأقصى أسيراً، ومعه كنيسة القيامة.

ونزح أهل المسجد فلا صلاة ولا تسبيح.. ونزح أهل الكنيسة فلا عبادة ولا تقديس..

وأصبحتا مزاراً للزائرين والسائحين... تماماً، المخاوف الرهيبة والصورة الكئيبة التي وضعتها بين يدي الحبر الأعظم قبل ربع قرن من الزمان..

وما أشقى الذين يرون عبر الزمان..

حوار مع الملك إدريس ولقاء مع الجنرال فرانكو

عدت إلى القضية الليبية مرة ثانية، فقد خلفتها ورائي في باريس في قصر «شايوه» عام ١٩٥١ لتنطلق في طريق الحرية والاستقلال، وها إنها تعود إليّ في عام ١٩٥٤، ولكن من زاوية أخرى وفي موضوع آخر. .

كان الموضوع هو الممتلكات الإيطالية في ليبيا، وما مصيرها، وكيف التصرف فيها، واتصلت بي الحكومة الليبية لتقف على رأي قانوني من رجل واكب القضية الليبية منذ نشأتها في الأمم المتحدة.

وركبت الطائرة إلى بنغازي وقضيت فيها ثلاثة أيام، اجتمعت خلالها بالموظفين المسؤولين عن شؤون الأراضي، واستعرضت معهم الوسائل المتعددة التي مكّنت للإيطاليين «امتلاك» الأراضي في البلاد، واطلعت على السجلات في الدائرة العقارية، وكان السيد حسين مازق محافظ بنغازي (رئيس الوزراء في ما بعد) مضيفي ورفيقي.

وتوجهنا في اليوم الرابع لزيارة الملك إدريس السنوسي، وكان في مدينة البيضاء المطلة على البحر، وقطعنا المسافة في أربع ساعات بالسيارة. . وبا روعة ما رأيت في هذا الطريق. .

لقد وجدت «الفتوى» القانونية في كل ما كنت أرى، و﴿**ما كذب الفؤاد ما رأى**﴾[(١)]، وكثيراً ما طلبت من السائق أن يتمهل لأتأكد مما أرى. .

كانت المزارع الإيطالية قائمة من حولنا إلى امتداد البصر، إلى مئات الكيلومترات، كانت البيوت والمخازن والمنشآت الإيطالية منشورة وسط هاتيك المزارع. . وكانت الأسماء والإعلانات الإيطالية لا تزال على الجدران البيضاء، بالخط العريض البارز، والحبر الأسود الفاحم. .

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة النجم،» الآية ١١.

وقلت: «ماذا؟ ما الذي أراه؟» . . . وكان السؤال عجباً واستغراباً، لا استفهاماً ولا استيضاحاً، وأدركت يومذاك براعة البلاغيين العرب حين قالوا إن السؤال قد يكون استنكاراً لا استفهاماً.

وقال السيد حسين مازق: «هذه ممتلكات الطليان. . هذه قراهم. . هذه مزارعهم. . »

ومضت السيارة تجتاز هذا السهل وذاك، ونصعد الجبل ثم ننزل إلى هذا الوادي، وأبصارنا مشدودة إلى المزارع. . إلى المنازل. . إلى المخازن. . بالمئات والمئات. . واللغة الإيطالية عليها تنبئ أنها ممتلكات إيطالية. .

وكانت هذه الممتلكات في معظم الأحوال خالية من أحد. . عدا الرعاة الليبيين. ومواشيهم الليبية تجوس خلال الممتلكات الإيطالية. . وكانت المنازل والحدائق من حولها متروكة مهجورة، وخيام الأعراب مشدودة إلى جدران البيوت، أو منصوبة وسط الحدائق مربوطة بأشجارها. .

وقال السيد حسين مازق كأنه يريد أن يعتذر: «لقد حاولنا أن نقنع البدو أن يكونوا في المنازل بدلاً من أن ينصبوا الخيام، ولم نفلح».

قلت: «إنّي أعرف من أمرهم الكثير. . إنهم يخشون من سكنى البيوت خوفاً من البراغيث. . »

. . قال ضاحكاً: «يظهر أنك عشت مع البدو وتعرف طباعهم. . »

قلت: «لم تكن حياتي كلها «أمم متحدة» وإنني أعرف البدو جيداً وقد كنت محامياً عنهم في قضاياهم في فلسطين، وإنّ ابن خلدون يعرفهم أكثر منا جميعاً، فقد أنصف «البناء والعمران» في ما تحدث عن خرابهم وفسادهم. . »

ومضينا على هذا النحو من الحديث وسط المروج والسهول، وخواطري مشدودة إلى اثنين لا ثالث لهما: هذا الوطن القومي الإيطالي في ليبيا وذاك الوطن القومي اليهودي في فلسطين، ورحت أفكر في أوجه الشبه بين الاثنين، وإن كان اليهودي أفدح خطراً من الإيطالي مرات ومرات. .

وصلنا إلى «البيضاء» ولم تكن إلا بضعة بيوت وفنادق، واللغة الإيطالية على هذا الجدار أو ذاك. . ونزلت في أحد هذه البيوت واسترحت قليلاً وخرجت لأرى أين أنا. .

ومضيت مع الضابط المرافق أسير في ركاب التاريخ. . التاريخ الاستعماري. .

فهذا الفندق المهجور كان مقر القيادة الايطالية . . وهذا مكتب القائد العام . . وهناك غرفة نومه، وعلى مقربة من الفندق نادي الضباط الطليان . . وكان كل شيء لا يزال في مكانه ولا يزال على حاله . . وكأن الطلاينة لم يخرجوا إلا بالأمس . . ولولا أنهم قد خرجوا يقيناً ويقيناً . . لخيّل إليّ أنهم ما خرجوا، فهذه منازلهم وفرشهم ومطابخهم وكتبهم و«كلابهم» أمام الأبصار، تكاد تقول: نحن هنا . . نحن هنا . . ولم أُفِق من هذه الرؤى والأحلام إلا لأنتقل إلى عالم آخر من الرؤى والأحلام، فقد أطلقت بصري في البحر الأبيض المتوسط، وشواطئه الجميلة تضرب بأمواجها الهادئة أطراف الجبل الأخضر . . إنه البحر الأبيض ذاته الذي يحضن شواطئ فلسطين وثغورها الحبيبة . . وقضيت ساعة من النجوى عشت فيها مع فلسطين سارحاً في كرومها وزيتونها وأعنابها، ناعماً في جناتها وعيونها، أشُم أريج برتقالها، وأقطف ثمارها وأزهارها، وأنتقل بين مدنها وثغورها وقراها، وأصلي في مساجدها، وأقف عند مشاهدها، كما وقف قبلي امرؤ القيس، فناح على الأطلال وبكى واشتكى . .

ويا تعاسة الذين يرزقون الخيال المرهف، تكاد جوارحهم أن تلامس الأشياء وهم في دنيا الرؤى والأحلام، ولكن ما أبعد الواقع عن الذكريات . . وعن التمنيات . .

وذهبت في المساء عند «مولانا» الملك إدريس السنوسي، وكان أول لقاء، ولقيته بعد ذلك بسنين في مؤتمرات القمة . .

وكان لقاء بسيطاً عادياً خالياً من المراسم، وكانت الصالة كذلك عادية بسيطة خالية من الزخرف والزينة . . وابتدأ بالكلام شاكراً جهودي في القضية الليبية في الأمم المتحدة . . وقال: «لقد دعوتك لأستشيرك في موضوع «الأملاك» الإيطالية فهل درست الأمر في الدائرة العقارية في بنغازي؟ . . »

قلت: «لقد درست الموضوع على «الطبيعة» . . ولم أعد في حاجة لدرس الأمر في الدائرة العقارية . . هذه ليست مسألة قانونية على الإطلاق . . إنها مسألة قومية سياسية . . والموضوع ليس «ممتلكات إيطالية» إنه موضوع وطن قومي إيطالي . . »

قال: «ما هو رأيك؟»

قلت: «رأيي، يا جلالة الملك، في غاية البساطة والوضوح. وأنا أكلمك كمحامٍ وكخبير في شؤون الأمم المتحدة، وكفلسطيني شرد من وطنه وفقد أراضيه وممتلكاته . . أرى أن تضعوا أيديكم على هذا الذي يسمى «بالممتلكات الإيطالية» إنّها أرضكم . . »

قال: «وهل نستطيع أن نتصرف فيها . . »

قلت: «نعم وبالتأكيد. لقد رأيت الأرض خالية والمنازل خاوية. خذوها وزّعوها على الفلاحين.. على الأهالي.. فإن أرض الشعب يجب أن تعود إلى الشعب..»

قال: «والقانون الدولي.. والأمم المتحدة؟؟»

قلت: «القانون الدولي يكمن في القول العربي المأثور: الأرض لمن غلب.. وهذه أرضكم على كل حال استولى عليها «المستعمرون» الطليان.. أمّا الآن فهذه أرضكم ردت إليكم..»

قال: «ألا يحسن بنا أن نرجع إلى محكمة العدل الدولية..»

قلت: «لا.. إذا شاء الطلاينة فليراجعوا هم محكمة العدل الدولية..»

ثم رويت لجلالته أن السلطان أبو عبد الله، آخر ملوك الأندلس، وقع معاهدة مع الإسبان في عام ١٤٩١ أكدوا له فيها حقه في أملاكه الخاصة في إسبانيا، ومنها الدور والحمامات والطواحين والبساتين.. وقد ورد ذلك كله في تفاصيل مسهبة في معاهدة موقعة من الطرفين.. وقد ذهبت هذه الأملاك كلها. والمعاهدة باقية إلى اليوم في المتحف الإسباني.. وهذا هو القانون الدولي..

والواقع أن الملك في حواره هذا لم يكن جاهلاً بهذه الأمور.. ولكن الملك إدريس زعيم روحي متدين، وهو حريص أن يعرف كلمة القانون الدولي في الأمر.. وقد أحسست أنه قلق من ناحية الحقوق الخاصة.. فقلت في النهاية:

«ومع هذا فإن الأبنية والإنشاءات التي أنفق فيها الطليان أموالا فيمكن الاتفاق بشأنها مع الحكومة الإيطالية.. وأظن أن جلالتكم متأثرون بسماحة الإسلام والأريحية العربية.. فافعلوا ما ترونه مناسباً، ولكن حكم القانون الدولي قد أوضحته لجلالتكم..»

وانتهت الجلسة عند هذه الخاتمة، وودعت الملك إدريس، وعدت إلى بنغازي وعبرت الطريق ذاته الذي سلكته أول مرة، وسط الممتلكات الإيطالية وأنا أقول في نفسي: «إن الذي أخرج الطلاينة من ليبيا سيخرج الصهاينة من فلسطين، وإن كان الأول أيسر من الثاني ولكنه سيقع أو سوف يقع لا محالة..»

وحملتني الطائرة إلى القاهرة، إلى مكتبي، لأنظر في ملفات الجامعة العربية وأعالج شؤونها.. ورأيت في بريدي المتراكم رسالة من مدريد من السيد عيسى البندك (سفير الأردن في إسبانيا) يتحدث فيها عن مشاعر الإسبانيين نحو العرب ورغبتهم في مساعدة الشعب المراكشي في كفاحه لنيل استقلاله، ويتمنى عليّ أن

أسافر إلى مدريد وأجتمع بالجنرال فرانكو «فإن الفرصة سانحة لدعم الجامعة العربية وتأييد قضايا المغرب».

وكنت قد تعلقت بالقضية المراكشية منذ أن توليت عرضها في الأمم المتحدة في عام ١٩٥١ فوق تعلقي بها من ناحية قومية، فسارعت إلى استشارة الأمير عبد الكريم الخطّابي وكان لاجئاً في القاهرة منذ سنين، فقال: «لا تدع الفرصة تفوت. . ولقد حاربت الإفرنسيين والإسبان معاً، ولا أرى مانعاً أن نستعين بالواحد على الآخر وإذا هبت رياحك فاغتنمها. . »

وذهبت إلى الرئيس محمد نجيب فعرضت عليه الأمر فرحّب بالاقتراح ترحيباً كاملاً، وأعطاني كتاباً إلى الجنرال فرانكو. .

وعزمت وتوكلت وسافرت. . وحطت الطائرة وأثقالها في مطار مدريد، واستقبلني الجنرال فرانكو في اليوم الثاني لوصولي وسلمته كتاب الرئيس نجيب، وسألني عن صحة «الجنرال» ويعني بذلك السيد محمد نجيب، قلت له إنه بخير وعافية، ولكن المشاغل كثيرة والمسؤوليات عظيمة والثورة في أوائل عهدها. .

قال: «أنت فلسطيني، لست مصرياً». . (وكأنه يعجب أن يحمل فلسطيني رسالة الرئيس المصري). .

قلت: «نعم أنا فلسطيني. . وإنّ الوحدة العربية هي التي تجمعني بالرئيس محمد نجيب، والعرب سواء في العمل للأهداف العربية. . »

ورأيت في هذا الحديث مدخلاً لفتح الحديث الذي جئت من أجله. . فقلت. .

«وها إنني أنا الفلسطيني جئت لأبحث معكم القضية المغربية. . »

قال: «إن القضية المراكشية عزيزة على العرب أجمعين، وإنّ فرنسا تقوم الآن بأعمال البطش والقمع في مراكش، وقد خلعت السلطان سيدي محمد بن يوسف، والشعب ثائر. . »

وسردت للجنرال فرانكو الأحداث المراكشية، واستنكار الأمة العربية للفظائع الإفرنسية، وتأييدها للشعب المراكشي حتى ينال حريته واستقلاله، وأننا نتطلع إلى تأييده ومعاونته، وأنه آن الأوان لأن نخلص الشمال الأفريقي من فرنسا. وأنّ الفرصة سانحة لقيام تعاون إسباني عربي يمتد إلى صداقة مع دول أمريكا اللاتينية ومدريد عاصمتهم الروحية. .

وقد زها الجنرال فرانكو أمام العبارة الأخيرة. . وقال:

«رأيي أن تسافر إلى تطوان وتجتمع بالجنرال «كارسيا فالينيو» وهو مفوض بالصلاحية الكاملة للشؤون المغربية».

وودعته شاكراً وانصرفت إلى السيد عيسى البندك أخبره بما تم فقال لي: «إن السادة علال الفاسي وأحمد بلا فريج وعبد الكريم الفاسي قد وصلوا إلى مدريد وهم يبحثون عنك. . » وكان لقائي مع الإخوة المغاربة على العشاء فذكرت لهم ما كان بيني وبين الجنرال فرانكو فقالوا: «إنها فرصة حسنة، وليتك تصل إلى اتفاق مع الجنرال فالينيو في تطوان. . ولتسارع إلى ذلك قبل أن تفوت الفرصة، فإن الثورة في البلاد في مسيس الحاجة، ويستطيع الإسبان أن يقدموا لنا العون الكثير. .

وفي صباح اليوم الثاني أقلتني طائرة عسكرية إسبانية من مطار مدريد إلى تطوان في هذه المهمة، وجناني قبل لساني يدعو الله بالنجاح والتوفيق. .

وكنا نحفظ في عهد الدراسة النشيد الذي وضعه الزعيم السوري، فخري البارودي:

بلاد العرب أوطاني. . من الشام. . لبغدان. .

ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

وكان الزعيم مصطفى النحاس رئيس الوفد المصري، قد سمع هذا النشيد فسأل: «دي تطوان تبقى فين؟». . أو هكذا النكته على زعيم مصر. . وها نزلت الآن إلى تطوان حاضرة المنطقة الإسبانية أو المنطقة الخليفية، وسميت الإسبانية لأن إسبانيا اقتطعتها لنفسها من البلاد المراكشية يوم احتلت فرنسا مراكش، وسميت «الخليفية» لأن واليها يعتبر «خليفة» سلطان مراكش. .

وعلم أهل تطوان بقدومي فتوافدوا عليّ وهم يحمدون الله أن عربياً جاءهم من المشرق يتفقد أمورهم، وكان على رأس الوافدين السيد عبد الخالق الطريسي، فاجتمعت به وأسررت إليه بالمهمة. . فأخذته النشوة وأقسم ليدعوني إلى منزله. .

وذهبت إلى داره في عصر اليوم التالي، وكانت المدينة قد أقفرت من أهلها وتوجهت صوب دار «الطريسي»، وفتح الشباب طريقي بصعوبة بالغة، وكانما كانت تطوان كالصحراء الملتهبة تنتظر هذا القادم من المشرق أن يبلّ عطشها إلى الحرية والاستقلال. .

وأقسم عليّ الطريسي أن أخطب، فوقفت لأتكلم، فتسلق الشباب والرجال

جدران منزله وتعلقوا بشرفاته حتى بتّ أخشى أن يتهاوى المنزل بمن فيه وتكون الكارثة، فأوجزت حديثي وهدأت من «ثورة» الجماهير، فإن مهمتي تقتضي الجو الهادئ مع الإسبان . .

وقضيت أربعة أيام أطوف في تطوان، لقاء مع الشعب نهاراً، ولقاء مع الجنرال فالينيو ليلاً . .

وكانت لقاءاتي مع الشعب مثيرة للغاية، في المدارس والمؤسسات العامة، وكأن السلطان سيدي محمد بن يوسف لا يعيش في منفاه، وإنما يعيش في قلوب الشعب رجالاً ونساءً، وما أعظم الشعب حين يتعلق بزعيم عظيم . . وكان الشباب والشابات، حين يذكر السلطان، ينتابهم نحيب ونشيج، ليس البكاء إلى جانبه شيئاً مذكوراً . .

وكان المرافقون من الإسبان حين نخرج إلى الضواحي، يشيرون اليّ . . هنا التقينا بالأمير عبد الكريم . . هناك التحمنا مع قوات الأمير عبد الكريم . . وهنا أنزل بنا الأمير عبد الكريم خسائر فادحة . . وهناك كدنا أن نحاصره وندمر جيشه ولكنه عاد وانتصر علينا، وكأن الجبال والسهول والوديان لا يزال يتجاوب فيها صدى الحوافر . . وجلجلة الفرسان . . حوافر الجياد العربية وفرسان الأمير عبد الكريم . .

خرجنا مرة إلى «شف شاون» وهي بلدة جميلة تبعد عن تطوان . . وتغدينا مع شيوخها الأجلاّء . . فإذا بالحديث يفوق روعة الأساطير . .

تحدثوا أن أهل «شف شاون» هم من عرب الأندلس استوطنوا هذه البلدة القريبة ليكونوا جاهزين للعودة . . العودة إلى «وطنهم» في الأندلس . . وكان في حديثهم ما ينبئ أن هذا الخاطر ما زال يراود أحلامهم . .

وفي الصالة الرحبة التي كنا نجلس فيها، نهض أحد الشيوخ إلى الجدران وأمسك بيده مسماراً كبيراً مثبتاً في الجدار وصاح: هذا مفتاح بيتنا في الأندلس . .

وهزني هذا المشهد، ، وكانما اجتاحتني صعقة كهربائية من رأسي إلى قدمي . .

وتماسكت وتملكت مشاعري، ورويت لهم أن النازحين من أهل فلسطين لا يزالون يحتفظون بمفاتيح بيوتهم، وأنّ رب العائلة، وهو يحتضر، يمد يده المرتجفة إلى جيبه ليسلم إلى أولاده مفتاح بيته ويقول: «هذه أمانتي إليكم . . .»، ثم ذكرت لهم أنني ما زلت أحتفظ بمفتاح بيتي، وأرجو أن لا أسلمه إلى أولادي . . وأن أفتح بيتي بيدي . . .

وجاءت كلمتي بلسماً لجراحاتهم القديمة وجراحاتي الحديثة . .

وعاد الشيخ إلى حديثه ليقول: «إن إخواننا عرب الأندلس منتشرون في الشمال الأفريقي، في المغرب وتونس والجزائر. . وهذا «الطريسي» صديقك ورفيقك هو من عرب الأندلس»، وتدخل المرافقون الإسبان وقالوا: «نعم إن كلمة «تورس» معناها القلعة. . وكان أجداد «عبد الخالق» هم أمراء القلعة في الأندلس!!»

وعدت إلى تطوان. . وأنا أقول في نفسي إنه تاريخ زاه جميل ولكنه تاريخ ماض. وقد جئت للحاضر والمستقبل. . ومضيت إلى عادتي في المساء، اللقاء مع الجنرال جارسيا فالينيو. .

كان الجنرال مهيب الطلعة، وله المقام الثاني في الدولة بعد فرانكو، وكان على رأس الإدارة الإسبانية في المنطقة الخليفية. .

ودار الحديث بيني وبين الجنرال في مكتبه «العسكري» في تطوان عما تستطيع إسبانيا أن تفعله في دعم الثورة المراكشية، وقد اقترحت السلاح. . والمال. . والدعاية، واقترحت إلى جانب ذلك إقامة حكومة مراكشية في تطوان لتقود الثورة. .

وكان الجنرال يصغي باهتمام، ويدوّن باهتمام. . وكان معروفاً بعدائه لفرنسا. . وأحسست في ملامح وجهه وتضاعيف حديثه أنه موافق على هذه «الاقتراحات» المهمة وأنه ينتظر موافقة مدريد. .

وكنت كلما خرجت من مكتب الجنرال أرى جميع الشباب والرجال ينتظرون في الخارج ليتفرسوا في وجهي، ذلك أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن حديثي وعن مهمتي، فيما خلا السيد الطريسي ونفراً من إخوانه، ولكنهم كانوا يحسون أنها مهمة من الجامعة العربية، وبهذا ارتفعت أسهم الجامعة العربية في تطوان وأخذوا يهتفون بحياتها. . على حين كان المشرق العربي يهتف بسقوطها. .

وزرت في خلال تلك الفترة «الخليفة مولاي الحسن»، (رئيس البنك المركزي في الرباط في ما بعد) وهو نائب السلطان في المنطقة الخيلفية، وكان قصره وحرسه، وتقاليده والاستقبال والضيافة، غاية في الدقة والنظام، وآية في عراقة «الحكم» المراكشي، وحضارته المشرقة.

وكنت أفضي إلى «الخليفة، حديثي مع الجنرال، وأرى وجهه الذي ألف الحذر والكتمان، قد تفَتَّح على البهجة والسرور.

وتم لقائي الأخير مع الجنرال. . وكدت أحسّ أن المناضلين المراكشيين سيضعون يدهم على السلاح والمال. . وسيقيمون حكومة مراكشية لتمضي في حرب التحرير حتى التحرير. .

وكان الجنرال هادئاً صارماً كعادته . . فشكر لي الزيارة وقال: «لقد نقلت كل شيء إلى مدريد، وإنّ السينيور «ارتاخو» وزير الخارجية سيستأنف معكم الحديث في العاصمة.

وبدأ الخوف يساورني . . فإن الجنرال فرانكو أوحى إليّ أن «فالينيو» بيده كل شيء . . وها إني أرى فالينيو يحيلني على «أرتاخو» . . ، فتباسطت مع الجنرال وشكرته على حسن ضيافته . . وفي اليوم التالي أقلتني طائرة عسكرية إلى مدريد . . وجاءني إلى الفندق السيد عيسى البندك السفير الأردني، وكانت له صلات قوية بالحكومة الإسبانية، فسألته ما عنده، فإذا به يحدثني أن المخابرات الإفرنسية قد وصل إلى علمها أن الجامعة العربية تقوم بمؤامرة مع إسبانيا لاختطاف سلطان المغرب وإشعال الثورة على فرنسا . . ، وأنّ فرنسا قد شددت على الولايات المتحدة أن تتدخل في الأمر، وأن لا تبرم الاتفاق الاقتصادي مع إسبانيا (وكان على وشك التوقيع) إلا بعد أن تتعهد إسبانيا بعدم التدخل في شؤون المغرب . . فهذه أمور من اختصاص فرنسا وحدها . . ، وهكذا تحققت مخاوفي التي أحسست بها بالأمس وأنا في مكتب الجنرال فالينيو . .

وفي المساء زرت وزير الخارجية ارتاخو في مكتبه وتحدثت طويلاً طويلاً، وأغريته كثيراً وكثيراً، ولكني وجدته كالثلج لا يزيد على القول: «سندرس الموضوع ونخبركم . . حتى نصل إلى قرار . . »

وأدركت أن الضغط الإفرنسي قد أفلح وأنّ مهمتي السياسية قد فشلت، فقلت: «فلأنتهزها فرصة، وأقضي يوماً مع «العلم» فلعلي أفلح في هذا . . »

وقضيت ذلك اليوم مع مستشرق إسباني معروف بدراساته الأندلسية، واسمه «خليل بن أمية» وهكذا يكتب اسمه على بطاقته باللغة الإسبانية . .

والحق أن «بن أمية» هذا، أموي من غير شك، بل إنه شامي كأنه هاجر بالأمس من سوق الحميدية في دمشق . . قامته ووجهه وحركاته ونظراته. كل ذلك ينبئ أنّه من أهل الشام . . بل إنه لا يكتم أصله العربي وإنه من بقايا الأمويين . . . ويفاخر بذلك . . وفي غمرة الحديث عن الحضارة الأندلسية الرائعة، اقترب بن أمية إلى رأسي وهمس في أذني وقال: «ولكني كاثوليكي مسيحي!!»

وحدثني «بن أمية» أن بقايا المسلمين في مدريد كانوا إلى عهد قريب يحتفلون في العيدين، وأنّ عجوزاً من أقربائه كان يراها في صباه تذهب إلى مسجد قريب تصلي فيه، وأنّ المسجد لم يعد قائماً . .

وحدثني كذلك أن أهل الأندلس قاموا في سنة ١٩٢٣ بثورة «قومية» يطالبون باستقلال بلاد الأندلس.

وحدثت بن أمية من جانبي عن «الفردوس المفقود» . . عن فلسطين . . وقلت : «حقاً لقد قضينا في الأندلس ثمانية قرون . . وأنت أموي من بقايا الأمويين ولكن لا خلاف أن الأندلس ليس وطناً عربياً في الأصل. ومع هذا فقد ضج شعراؤنا بالبكاء عليه وأطلقوا عليه الفردوس المفقود . . ولكن فلسطين بلد عربي منذ القدم وهي بكاء على فردوسه المفقود . . وإنها عزاء . . ولكن على فردوسي المفقود . . »

ومن يومها امتشق بن أمية قلمه في الدفاع عن فلسطين وعروبتها بحرارة لا تقل عن حرارة أي عربي . . أجل إنها حرارة أصيلة عريقة . . ولعلها بكاء وعزاء . . إنها فردوسه المفقود . . وإنها عزاء. ولكن على فردوسي المفقود . .

وعدت إلى القاهرة صريع الخيبة في تطوان . .

وصريع الأحزان في فلسطين.

وأنا أدعو . . اللهم صبرك ونصرك . .

شجـار مـع نهـرو، وعهـد مع شو إن لاي، ونقـاش مـع عبـد الناصـر

في شهر نيسان/ أبريل من عام ١٩٥٥ تفتحت أزاهير «باندونغ» لتستقبل العالم القديم ممثلاً بقادته الذين حققوا لأوطانهم الحرية والاستقلال، وزعمائه الذين ما زالوا في الميدان يكافحون ويناضلون. . وتلاقت آسيا وأفريقيا لأول مرة بعد عصور الهوان والأغلال عند تلك المدينة الرشيقة، باريس الشرق، ولم تعد «باندونغ» اسماً جغرافياً لمدينة في إندونيسيا، بل أصبحت عنواناً لحقبة تاريخية ترمز إلى الثورة والتحرير. . وسياسة الحياد الإيجابي. .

وأبرق إليّ السيد خالد العظم وزير الخارجية السورية يستدعيني للسفر إلى دمشق لإعداد العدة لمؤتمر باندونغ. . ووصلت دمشق واجتمعت بالسيد العظم وقلت له بعد التحية:

«أنا حاضر لوضع المذكرات في مختلف المواضيع التي ينتظر إثارتها في المؤتمر. وأنا حاضر كذلك لكتابة الخطاب الافتتاحي الذي يلقى باسم سوريا. . ولكني أعتذر عن الذهاب إلى باندونغ. .»

قال: «ولماذا تعتذر؟»

قلت: «أنا فلسطيني لا أصلح لهذا المؤتمر، ويحسن أن يكون الوفد السوري من المواطنين السوريين. . مولداً ونشأةً، وأباً وجداً!!»

قال: «وهل بلغك الموضوع؟»

قلت: «لقد بلغني الموضوع وقد آلمني أن يصدر عن سوريا بالذات التي تعتبر فلسطين سوريا الجنوبية».

قال: «بالعكس. . . يجب أن تذهب لأنك فلسطيني، ومن المنتظر أن تثار

قضية فلسطين في باندونغ، فكيف يجوز لك أن تعتذر؟»

قلت: «أمهلني بعض الوقت لأفكر. .»

وانصرفت إلى مكتب كان مهيأ لي على الدوام في وزارة الخارجية السورية، ومعي ملفاتي ومأساتي. .

أقول مأساتي، وهي مأساة كل فلسطيني بعد كارثة ١٩٤٨. والواقع أنني لقيت أثناء «هجرتي» كل رعاية في الوطن الكبير، وخاصة في سوريا، فقد كنت أميناً مساعداً في الجامعة العربية باسم سوريا، وأصبحت بعدها سفيرها المتجول، ثم استعارني الملك سعودلأكون وزير الدولة السعودي لشؤون الأمم المتحدة، ولقد أسندت لكثيرين من الفلسطينيين المناصب العالية في الدول العربية، وصلوا إليها عن جدارة واستحقاق.

ولكن المأساة بقيت هي المأساة. . فلقد ظل الألوف والألوف من أبناء فلسطين يعيشون تحت ظروف قاسية وقيود صارمة، لا تليق أن تصدر من عربي إلى عربي. . كائنة ما كانت الأسباب. . ويكفي أن أشير إلى قيود السفر والانتقال والعمل، وغير ذلك من العقبات التي كان يعانيها اللاجئون مما يتجافى مع الأريحية العربية. . ولا يزالون!!

وتجيء مأساتي «الصغيرة» وسط المآسي الكبرى التي ألّمت بقومي من أبناء فلسطين. .

ولحكمة أرادها الله، تجيء مأساتي الصغيرة على هامش مؤتمر باندونغ لتجرح كبريائي، فأذهب إلى باندونغ، والثورة تتفجر في قلبي وتندلع على لساني. .

ووقائع هذه المأساة بإيجاز أن مصر وسوريا كانتا تتهامسان حول إنشاء اتحاد بينهما، وأصبح الهمس محادثات جرت بين السيد خالد العظم وزير الخارجية السورية والسفير المصري بدمشق محمود رياض (وزير الخارجية في ما بعد)، واقترح السيد خالد العظم أن أكون سفيراً لسوريا في القاهرة لأمهد لقيام اتحاد فدرالي بين البلدين. . ووافقت القاهرة على ذلك. . ومضى خالد العظم في الإجراءات الشكلية، لاستصدار مرسوم جمهوري بتعييني سفيراً لدى الجمهورية المصرية.

وقد قبلت هذا التكليف بسرور عظيم، وأصبحت أتردد على وزارة الخارجية المصرية وأقدم لها مشروعات الاتحاد. . وأنا أقول للدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر: «إن مهمتي كسفير سوريا في القاهرة هي أن أُصفي السفارة السورية

في القاهرة، وان نبني الاتحاد بين سوريا ومصر، وعسى أن يحذو السفراء العرب حذوي، ونبني الولايات العربية المتحدة».

ولكن أحلام النهار قد بددتها دسائس الليل . . فقد وقف مرسوم تعييني عند عتبات القصر الجمهوري . . فامتنع الرئيس هاشم الأتاسي عن توقيعه، ووقعت أزمة بين الحكومة والقصر، الحكومة تصر والقصر يعارض . .

وكان الرئيس الأتاسي رجلاً عجوزاً، خاضعاً لتأثير حزب الشعب في سوريا، وكان الرئيس الأتاسي صديقاً لوالدي منذ عهد الدولة العثمانية، وكان يأخذني بالحضن كلما لقيته في دمشق في غدوّي ورواحي إلى الأمم المتحدة . . وكذلك فقد كانت لي مودة مع كثير من رجال حزب الشعب: ناظم القدسي، معروف الدواليبي، رشدي كيخيا، عدنان الأتاسي . .

ولكن المعزّة والمودة شيء . . والحزبية العمياء شيء آخر . .

فقد أملت الخلافات السورية المحلية على حزب الشعب والرئيس الأتاسي أن يعارضوا تعييني سفيراً لسوريا في القاهرة . . وكان ذلك آخر ما كنت أتوقع . .

وغاص رجال حزب الشعب في ملف تعييني . . فعثروا على ضالتهم . . وكانت ضلالة . . لقد اكتشفوا أنني فلسطيني، وأنه لم يصدر مرسوم جمهوري بمنحي الجنسية السورية . .

وأحيلت القضية إلى مجلس الدولة . . فأفتى بأن رئيس الجمهورية على حق . . . وأن الحكومة على باطل . . وأنّ تعييني سفيراً غير دستوري . . لأنني فلسطيني . .

وتحفزت الحكومة لإعداد مشروع لإعطائي الجنسية السورية بصورة دستورية لا يأتيها الباطل من أي جانب . . ولكني رفضت وثرت. وأعلنت أني أرفض الجنسية السورية من الرئيس الأتاسي . .

فكرت في هذا المأساة الصغيرة، وأنا جالس في مكتبي في وزارة الخارجية، وأمامي المراسلات المتعلقة بمؤتمر باندونغ، وتصفحت التقارير الواردة من السفارات السورية في جاكارتا ونيودلهي، وأفزعني أن أقرأ فيها أن هنالك محاولات من بعض الدول الآسيوية لمعارضة إدراج القضية الفلسطينية في جدول أعمال المؤتمر . . فاستصغرت مأساتي الصغيرة، وعزمت أن أسافر إلى باندونغ وأتصدى للمأساة الكبيرة . . وحملتنا الطائرة ليلاً، والغوطة نائمة على ثمارها وأزهارها، وربيع دمشق ينفحنا بأطيب تمنياته مع أعذب نسماته . . وهبطنا في «جاكارتا» في الضحى العالية . . من اليوم التالي . .

ونظرت من نافذة الطائرة وإذا بالمطار مزين بالأعلام والأزهار . . وعشرات المراوح الكبيرة منصوبة في الهواء الطلق في أرض المطار . . تحاول عبثاً أن تلطف من الجو اللاهب . .

وكانت مراسيم الاستقبال غاية في الدقة والنظام، ونزلنا نحن الوفد السوري: السيد خالد العظم وزير الخارجية، والسادة مأمون الكزبري وفاخر الكيالي وصلاح البيطار وأديب الداودي وأنا، وثلاثة من الصحافيين السوريين . .

وكان الجو لاهباً، وأخذ العرق يتصبب من أكمامنا وأرداننا، ورحب بنا رجال الدولة وقال أحدهم: «الجو لطيف اليوم . . وهذا فأل حسن للمؤتمر . . »

فقال السيد العظم وكان يجفف عرقه: «إنه لطيف حقاً!!»

وحمدنا الله أننا لم نبقَ طويلاً في جاكرتا، فقد أقلتنا طائرة صغيرة إلى «باندونغ» وكانما انتقلنا من الجحيم إلى النعيم، وكانت باندونغ ماطرة، ولا تزال أغصانها تميس بلآلي السماء . .

ونزلنا في فيلات جميلة محاطة بالغابات والأحراش، والسيارات غادية رائحة، تنقل الوفود، ملابسهم وملفاتهم، وذخائر من الطعام المحفوظ، كل بلد وما يصنع وكل وفد وما يشتهي . .

وتكامل وصول الوفود، يمثلون تسعاً وعشرين دولة من آسيا وأفريقيا، يؤلف سكانها ما يزيد على نصف سكان العالم.

وكانت الوفود العربية على مستوى عال: السيد جمال عبد الناصر رئيس وزراء الجمهورية المصرية، الأمير فيصل رئيس وزراء المملكة العربية السعودية، إسماعيل الأزهري رئيس السودان، محمود منتصر رئيس وزراء ليبيا، سامي الصلح رئيس وزراء لبنان، فاضل الجمالي وزير خارجية العراق، سيف الإسلام الحسن رئيس وفد اليمن، وليد صلاح وزير خارجية الأردن، والسيد خالد العظم وزير خارجية سوريا . . وكان مع الوفود العربية عدد من الوزراء والمستشارين والصحافيين.

وقد انضم إلى الوفود العربية عدد من المناضلين العرب يمثلون تونس والجزائر . . ومراكش، منهم السادة صالح بن يوسف، وحسين آية أحمد، وعلال الفاسي وإنضم إلى وفد اليمن الحاج أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا، . . وكان حول المؤتمر عدد من ممثلي حركات التحرير في آسيا وأفريقيا بملابسهم الزاهية المزركشية يتصلون بالوفود ليعرضوا قضاياهم، وكان الأب مكاريوس رئيس أساقفة قبرص ناشطاً ينتقل من وفد إلى وفد . .

وهرع ممثلو الصحافة العالمية ونصبوا أجهزتهم في ردهات المؤتمر يصورون من غير حساب، وآلاتهم الكاتبة تملأ الأسماع وهي تضرب الرسائل والبرقيات . .

وعقد المؤتمر جلسة الافتتاح فتكلم الرئيس أحمد سوكارنو، وعقبه رؤساء الوفود، وكانت مكبرات الصوت خارج المؤتمر تنقل إلى الشعب الإندونيسي صوت آسيا وأفريقيا داعيا إلى الحياد الإيجابي، والتعايش السلمي، واستنكار الاستعمار العالمي والتمييز العنصري، والتنديد بالأسلحة النووية، وتلك كانت المواضيع العامة التي تناولتها كلمات الافتتاح.

وإلى هنا فقد كان كل شيء سهلاً، فإن الكلام في نطاق التعميم عمل يسير لا يثير خلافاً أو نقاشاً، ولكن «الدخول» في معالجة المشاكل الدولية موضوعاً موضوعاً هو المشكلة بعينها . .

فقد كان مؤتمر باندونغ في حقيقته الداخلية يمثل العالم في انقساماته، فقد تمثلت فيه الكتلة الغربية والكتلة الشرقية وكتلة الحياد المستقل، ويكفي أن تكون الكتلة الشرقية ممثلة في جمهورية الصين الشعبية برئيس وفدها اللامع السيد شوإن لاي . . والكتلة الغربية، مع تفاوت في غربيتها، كانت تتألف من الدول المرتبطة بأحلاف ومعاهدات أو ميول مع الغرب، مثل إيران وباكستان وسيلان والعراق ولبنان وتركيا، أمّا الكتلة المحايدة المستقلة، مع تفاوت في قوة حيادها، فهي باقي الدول الأعضاء كالهند وأفغانستان ومصر وسوريا وغيرها . .

وعلينا أن نضيف إلى هذه الخلافات الداخلية، الضغوط الخارجية التي قامت بها كل من أمريكا وبريطانيا لإحباط المؤتمر، أو لشل فاعليته على الأقل . .

وكانت إسرائيل مشكلة أخرى من مشاكل المؤتمر، فقد كان هنالك اتجاه قوي بدعوة إسرائيل للاشتراك في المؤتمر، وكان نهرو يتبنى هذه الفكرة . . وكان المنطق الذي وراء هذا الرأي يتساءل: «أليست إسرائيل دولة معترفاً بها في الأمم المتحدة، ولها علاقات دبلوماسية مع عدد من الدول الأفريقية والآسيوية؟ أليست إسرائيل دولة قائمة في غرب آسيا؟ أليس من الأفضل حضورها ليجري الحوار بينها وبين الدول العربية أملاً في الوصول إلى تسوية سلمية لهذه المشكلة العالمية؟»

ولقد جرى جس نبض العواصم العربية قبيل انعقاد المؤتمر . . فكان رد الفعل عنيفاً ولم توجه الدعوة إلى إسرائيل، ولكن إسرائيل اللحوحة الدؤوبة لم تغفل . . فقد راحت تتوسل إلى عدد من دول المؤتمر أن لا تثار قضية فلسطين في المؤتمر . . وهي تقول: «أَوَليس يكفي أن تحجب إسرائيل عن حضور مؤتمر للشعوب الآسيوية

الأفريقية وهي واحدة منها. .» وكهذا كانت إسرائيل عبئاً يضاف إلى الأعباء الثقيلة التي كانت تدفع المؤتمر إلى حافة الفشل. .

وتسابقت وكالات الأنباء إلى التنبؤ بفشل المؤتمر، وهي تنقل التصريحات على لسان عدد من الوفود حول الخلافات العقائدية والسياسية التي تباعد بين أعضاء المؤتمر. .

وانتهت جلسات الافتتاح، وبدأت اللجان عملها وبات المؤتمر في يد القدر، وكنت اللجنة السياسية هي ميدان الصراع بين الكتل الثلاث، والكتل الثلاث راغبة إلى جانب ذلك أن ينتهي المؤتمر إلى وفاق ونجاح، فإن الشعوب لم تكن تحتمل من حكوماتها أن تفشل هذه التجربة الأولى، وتضام كرامتها وتهان عزتها، وهي لا تزال حديثة بالحرية والاستقلال.

وجاء دور إعداد جدول الأعمال، فاقترح بعض الوفود وبينهم الرئيس نهرو أن يقتصر جدول الأعمال على المبادئ لا القضايا. . وأحسسنا نحن الوفود العربية أن هذا التدبير يقصد من ورائه تجنب إدراج قضية فلسطين.

ودار نقاش وجدال حول هذا الموضوع. . وكشف رئيس وفد سيلان عن «الخطة» وأعلن انه لا يرى داعياً لبحث قضية فلسطين. . وأنّ المؤتمر لم يجتمع لدرس قضايا إقليمية، ولكن لمعالجة مشاكل عالمية، أوسع نطاقاً. .

وتوليت الرد بهدوء وموضوعية مشيراً إلى أن قضية فلسطين، هي قضية استعمارية وقد أصبحت «بفضل» مساندة الاستعمار قضية عالمية. . وأنّ الصهيونية نفسها هي حركة عالمية عدوانية. .

وتدخّل «نهرو» رئيس وفد الهند، مؤيداً وفد سيلان ولكن بلهجة هادئة، وكان «كريشنا منون» عضو وفد الهند يلقي في أذنه آراءه المعروفة، يومئذ، في العطف على إسرائيل. .

وعدت إلى الكلام مرة ثانية في مزيد من الشرح لقضية فلسطين وخطرها على السلم الدولي، وأن فلسطين هي الجسر الذي يصل شعوب المؤتمر في آسيا وأفريقيا. . وتساءلت: «وأي معنى لهذا المؤتمر إذا كان لا يناقش قضية كقضية فلسطين تقوم على الحرية وتقرير المصير؟».

وغضب الرئيس نهرو أن يتصدى له من يناقشه ويحاسبه، وهو فارس المجالات البرلمانية، وبطل من أبطال التحرير، فراح يؤكد ولاءه لمبادئ الحرية والعدل والسلام ولكنه تساءل: «هل من الفروسية العربية أن تناقش قضية فلسطين وإسرائيل غائبه عن

المؤتمر؟ . أَوَليس الواقع أن إسرائيل في آسيا؟ . أَوَلا يكفي العرب أن إسرائيل لم تُدع إلى المؤتمر؟ . . » واستمر الرئيس نهرو في سياق هذا المنطق وهو يتكلم بعصبية ظاهرة، يريد من ورائها أن يهيمن على المؤتمر، والتفت إليّ وهو يقول: «إنني أعرف المبادئ وقد عشت كل حياتي لتحقيقها. . وأقولها بكل تواضع إنني فتى الثورة».

وساد المؤتمر صمت ورهبة، ورفعت يدي أطلب الكلام من رئيس وزراء إندونيسيا، السيد «علي ساسترو أميجو جو» رئيس اللجنة السياسية»، و«كريشنا منون» يرسل نظراته المزمجرة إلى هذا الذي يجرؤ أن يرد على الرئيس نهرو!!

ووجهت كلامي إلى الرئيس نهرو مباشرة لأقول له: «إنني أعرف الرئيس نهرو كما يعرف نفسه وقد قرأت ترجمة حياته بقلمه، وإن العالم العربي معجب بكفاحه المجيد من أجل الحرية والاستقلال، وإن ذلك يزيدنا استغراباً من هذا الموقف، موقف التأييد للاستعمار ممثلاً في إسرائيل والصهيونية. . وإن ذلك يزيدنا أيضاً، تمسكاً بحقنا، ونحن هنا تسع دول عربية نصرّ بأن تدرج قضية فلسطين على جدول الأعمال، فهي قضية الأمة العربية بأسرها».

واستأنفت كلامي مخاطباً الرئيس نهرو «لقد قلت يا سيدي إنك فتى الثورة. . وأنا يا سيدي فتى النكبة». .

والتفتّ إلى المؤتمر عضواً عضواً وقلت بصوت عال: «وأي معنى لاشتراك الدول العربية في هذا المؤتمر إذا لم يكن لقضية فلسطين مكان في هذا المؤتمر. . ؟»

وقد خشيت الوفود العربية أن يؤدي هذا الإنذار إلى إحباط المؤتمر، وهو في أول الطريق، ولم نكن نتوقع أن تكون «الخطة» مدبرة إلى هذا الحد على قضية فلسطين. . . ولكن الوفود العربية كانت إلى جانب ذلك لا تطيق أن ترى قضية فلسطين يلقى بها خارج جدران المؤتمر. . وانتظر الجميع مصير هذه المساجلة الحارة بيني وبين الرئيس نهرو. .

وقد أفلح الإنذار، وأمسك الرئيس شوإن لاي بالزمام بذكاء خارق. . وتدخل كمن يريد التوفيق بين وجهة النظر العربية واعتراضات رئيسَي الهند وسيلان. . فراح يتكلم وكأنما جرس يرن بين أوتاره الصوتية، وقال: «لا أظن أن هنالك خلافاً أساسياً حول الموضوع، فنحن نستطيع أن نطمئن « مستر شقيري» أن المؤتمر سيبحث قضية فلسطين تحت مبدإ تقرير المصير، ونحن متفقون أن يكون هذا المبدأ من الموضوعات التي ستندرج على جدول أعمال المؤتمر. . » واغتنمها الرئيس «علي ساسترو» فرصة لإنقاذ المؤتمر وهو ينعقد في إندونيسيا وقال: «أعتقد أننا موافقون على الحل الوسط الذي اقترحه الرئيس شوإن لاي. »

فسكت الجميع وابتسم الرئيس شوإن لاي . . ورددت له الابتسامة مع التحية وكانت بداية لصداقة وطيدة سأتحدث عنها في حينها . . وتجاوز المؤتمر أولى عقباته . . وأقرّ جدول الأعمال . . .

وكانت قضايا المغرب العربي في طليعة القضايا التي ناقشتها اللجنة السياسة، وتكلم معظم الوفود منددين بالاستعمار الإفرنسي مشيدين بكفاح الجزائر وتونس ومراكش، معلنين تأييدهم لهذه الأقطار الثلاثة بحقها في الحرية والاستقلال . . ولم تجد قضايا المغرب أية معارضة فصدر القرار بالتأييد . . وكان نصراً عربياً مهد لهذه القضايا أن تسير في زحفها في ردهات الأمم المتحدة . .

وجاء دور القضية الفلسطينية فعبرت بسهولة ويسر، وإن يكن على مضض وتردد، وتكلمنا نحن الوفود العربية وشرحنا القضية من مختلف جوانبها، واقترح الوفد الإندونيسي قراراً بتأييد حق شعب فلسطين في صيغة تقرب من صيغة قرارات الأمم المتحدة، فإن بعض دول المؤتمر كانت معترفة بإسرائيل ولم يكن ميسوراً استصدار قرار بعيد المدى . . فقنعنا ورضينا . . واعتبرناها خطوة إلى الأمام على الساحة الأفرو آسيوية.

وانفضت تلك الجلسة وقد سادها التراضي، وخرجنا إلى «فيلاتنا» للاستراحة وكنا أربعة: الرئيس نهرو والرئيس عبد الناصر والسيد خالد العظم وأنا، وكنت أتحدث مع الرئيس نهرو عن كتابه الرائع **اكتشاف الهند** فتدخل الرئيس جمال وهو يظن أننا في جدال فقال:

«السيد الشقيري سنمنحه وساماً لما نعود إلى القاهرة، ما رأي المستر نهرو؟»

قلت: «ولكني أظن أن الثورة في مصر قد ألغت الألقاب والأوسمة . .»

فقال: «السيد عبد الناصر: لقد ألغينا الألقاب، أمّا الأوسمة فلا تزال باقية».

قلت: «لقد وصلني الوسام، وإنني أعتبر هذا الحديث هو الوسام . .»

وركبنا سياراتنا، إلى فيلاتنا، والسيد خالد العظم يقول لي: «أظن أن نهرو لو ترك وحده لكان في صفنا، ولكني ألاحظ أن «كريشنا منون» هو الذي دفعه إلى هذا الموقف».

وكانت فراسة السيد خالد العظم في محلها، فلقد زاملت «كريشنا منون» وزير الدفاع الهندي حين كان رئيساً لوفد الهند في الأمم المتحدة، وكنا نناضل في كل القضايا الدولية إلا في قضية فلسطين، فقد كان يرى أن إسرائيل عضو في الأمم المتحدة وأنّ الميثاق يفرض احترام سيادتها واستقلالها . . . وبقى على هذا الرأي حتى

العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ فأخذ يغير رأيه شيئاً فشيئاً . . وحتى حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فبات يعلن أن إلقاء إسرائيل في البحر، يفسده ويلوثه . . فلتدمر عن طريق آخر . .

وتعاقبت جلسات اللجنة السياسية فإذا بالخلاف العقائدي يشغل الوفود كلها ويجرها إلى حلبة الصراع، فقد «دخل» البحث في صميم الاستعمار، والحياد، والأحلاف، والسلم العالمي، وما ينطوي تحت هذه المواضيع من مشاكل وقضايا.

وبدأ الدكتور فاضل الجمالي، يندد بالشيوعية العالمية وأساليبها في التسلّل والتخريب، وتعرض للاتحاد السوفياتي واضطهاده المسلمين، وختم خطابه الطويل ممسكاً بالقرآن بين يديه وهو يتلو ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾[١].

وتلاه السيد محمد علي رئيس وزراء باكستان مبرراً الأحلاف العسكرية مع الغرب، وأنها أحلاف دفاعية مشروعة تقع في نطاق المنظمات الإقليمية التي نص عليها ميثاق الأمم المتحدة.

وتكلم مندوب إيران، وبعده مندوب تركيا، وبعده مندوب سيلان، فتحدثوا عن الاستعمار الجديد، والشيوعية العالمية، وخطرها على السلم العالمي . . وبدا واضحاً أن هذه الكتلة الغربية أخذت تشن هجوماً مركزاً على الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، وفي داخل مؤتمر باندونغ.

ودخل الدكتور شارل مالك (لبنان) في المعركة، وكان وراءه رئيس الوزراء السيد سامي الصلح، استعرض تاريخ المذهب الماركسي اللينيني ومجافاته للحرية الإنسانية، والمثل العليا، ودعا إلى محاربة ما يقوم عليه من فلسفة مادية تنكر وجود القيم الروحية . .

وتعاقبت جلستان والحديث يدور في هذا السياق، فانطلق الرئيس نهرو يتحدث بطلاقة وحماسة عن الحياد الإيجابي ومقتضيات السلم الدولي، وشارك الرئيس عبد الناصر في توكيد المبادئ الخمسة التي كانت قد أقرتها اللجنة التحضيرية للمؤتمر . .

وكان السيد علي صبري، مدير مكتب عبد الناصر، يأتي إليّ من حين إلى حين ليهمس في أذني أن الرئيس عبد الناصر يقترح عليّ أن أرّد على «الدكتورين»، فاضل الجمالي وشارل مالك . . وكنت أرد عليهما الحجة بالحجة، حتى لقد بدا أن المجموعة

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ١١.

العربية فيها معسكران يتمثل فيهما معسكرا العالم أجمع . . وملت إلى السيد سامي الصلح رئيس الوزراء وقلت له :

«ألا توقف الدكتور شارل مالك عن الاسترسال في الحديث، فلقدأصبح المؤتمر في خطر، ومالنا وللشيوعية العالمية . . كل ما نريده قضية فلسطين وقضايا تونس والجزائر ومراكش، وهذه قد انتهت كلها على خير . . »

فقال السيد سامي الصلح : «والله، يا عزيزي، أريد أن أستعين بكم على الدكتور شارل مالك . . . »

قلت : «ولكن لا يجوز للدكتور مالك أن يتصرف هكذا بحضورك، وأنت رئيس الوزراء . . »

قال : «يا عزيزي . . أنت تعرف الأمور في لبنان . . وتعرف علاقة الدكتور مالك بالولايات المتحدة وفهمك كفاية».

ثم تحدثت إليّ الرئيس الصلح باللغة التركية فقد كان يجيدها، وظننت أني سأكون معه أحسن حالاً من اللغة العربية، وناشدته أن يكبح جماح الدكتور مالك رحمة بقضية فلسطين، فلم يكن من الرئيس الصلح إلا أن أخرج «هويته» من جيبه وهو يقول لي بالتركية :

«أنا فلسطيني مثلك يا عزيزي، ها أنت ترى هويتي اللبنانية مكتوباً فيها أن مولدي في عكا . . عكا يا عزيزي، هي بلدي . . »

قلت له : «إن عكا يا عزيزي، تطالبك أن تجلس في المقعد الأول للوفد اللبناني، وتتناول الكلام بدلاً من الدكتور مالك . . »

وكان السيد فطين زوغلو وزير خارجية تركيا على مقربة منا، فسمع الحديث باللغة التركية بيني وبين الرئيس الصلح، فجاء إلينا وجلس خلفنا وهو يقول :

«وماذا تتحدثون؟ إن من حقي أن أعرف ما دمتم تتكلمون باللغة التركية . . »

قلت له : «كنا نترحم على السلطان عبد الحميد».

قال : «ولماذا؟»

قلت : لقد رفض السلطان عبد الحميد إغراءات «هرتسل» وقال له : «إنني أرفض إعطاءكم فلسطين، ولن تصلوا إليها إلا على جثتي . رحم الله السلطان عبد الحميد . . »

فانصرف الوزير التركي مقطباً، وضحك الرئيس الصلح . .

وتطلعت إلى السماء ألتمس الفرج، فقد أصبح المؤتمر على الحافة، وطلب الرئيس شوإن لاي الكلام. . فغادر كرسيه ووقف وراء المذياع، وإلى جانبه المترجم ينقل عباراته من الصينية إلى الإنكليزية. .

وتطلعت الأبصار إلى الرجل الذي تمرس بالنضال في أضخم حركة تحريرية في العالم، وراح الجرس بين أوتاره الصوتية يرن بنبراته وعباراته، في حديث تجاوز الوقت المحدد لأي وفد. . ولكن أي تحديد، وشوإن لاي بدأ يخاطب المؤتمر في الداخل، والعالم في الخارج، عن سياسة الصين الخارجية وأثرها على السلم العالمي. .

قال شوإن لاي ما موجزه: «إن الصين تمنح الحرية الدينية لكل رعاياها. . وهذا واحد من أئمة المسلمين عضو في وفد الصين. . . ومن حقها أن لا يتعرض أحد لشؤونها الداخلية وأفكارها العقائدية، وهي مصممة أن لا تتدخل في شؤون أي دولة من الدول ولا في أفكارها العقائدية. .» وكان شوإن لاي يرد بهذا الكلام على الوفود الموالين للكتلة الغربية. . فاستل بهذا المنطق الهادئ كل الأسلحة التي استخدمها «الدكتوران» فاضل الجمالي وشارل مالك وأعوانهما. .

ولكن شوإن لاي لم يكتف بهذا الموقف الداخلي، فتجاوز إلى تجريد الموقف الخارجي من الحرب الباردة التي كان الغرب يشنها على المؤتمر، فألقى شوإن لأي البيان الآتي ترجمته كما دونته، ساعة إلقائه:

«إن الشعب الصيني صديق للشعب الأمريكي ولا يريد أن يدخل في حرب مع الولايات المتحدة، وترحب الحكومة الصينية بالجلوس مع الحكومة الأمريكية والدخول في مفاوضات معها لتخفيف حدة التوتر. . في الشرق الأقصى وخاصة موضوع تخفيف حدة التوتر في منطقة تايوان».

وعاد شوإن لاي إلى مقعده، وعاد معه «الفرج» إلى المؤتمر، ولم يبق لأحد في المؤتمر ما يشكو منه بعد هذا البيان، وكان ذلك في٢٣ نيسان/ أبريل سنة ١٩٥٥.

وفي ٢٤ نيسان/ أبريل أعلن المؤتمر قراراته بالإجماع واهتزت أسلاك البرق بهذا النجاح الكبير، وقد قفز من قاع الفشل إلى قمة النصر. . وحل مؤتمر باندونغ مكان الصدارة في تاريخ العلاقات الدولية كأعظم حدث سجله تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية.

وكانت على هامش المؤتمر لقاءات امتد أثرها إلى ما بعد المؤتمر. .

وكان أول هذه اللقاءات المائدة الكبرى التي أقامها الرئيس شوإن لاي تكريماً للوفد السوري، وقد أقام مثلها للوفود الأخرى. .

وكانت الوليمة حافلة بألوان الطعام الصيني الشهي، فقد كانت قد وصلت طائرة صينية محملة بصناديق اللحوم والأسماك والخضار والفواكة والأطباق والأقداح. كلها صينية، طعماً ولوناً، وزرعاً وصنعاً . .

وامتدت الوليمة ساعات . . والأطباق الصغيرة ترفع عن المائدة لتوضع مكانها أطباق أخرى . . وشوإن لاي مضيف ماهر وساحر. وكان الوفد الصحافي السوري قد بلغ منه السرور مبلغاً أن أصبح يتكلم باللغة العربية كأنه في النادي العربي بدمشق . .

وانتهت الوليمة . . وخلونا نحن الثلاثة: شوإن لاي والسيد خالد العظم وأنا في حديث طويل عن الشؤون الدولية والقضايا العربية وقضية فلسطين، وتحدث السيد العظم بحرارة عن السياسة الغربية الظالمة، وشرحت القضية الفلسطينية في إطار الاستعمار العالمي، وانتهى الاجتماع «بعهد» من شوإن لاي بتأييد القضايا العربية وقضية فلسطين، وأحسست أن صداقة توطدت بيني وبينه، تجسدت في زيارتي للصين الشعبية في عام ١٩٦٥ سيأتي ذكرها في فصل مشرق في مذكراتي (الكتاب الثاني).

وكان اللقاء الآخر على هامش المؤتمر اجتماع الوفدين المصري والسوري على مائدة أخرى في فيلا الرئيس عبد الناصر . .

وكان الاجتماع مخصصاً لبحث العلاقات المصرية السورية وموضوع الاتحاد بين البلدين، وقد افتتح الحديث الرئيس عبد الناصر مرحباً بفكرة الاتحاد على أن تكون نابعة من إرادة الشعبين، وتكلم في الموضوع من جوانبه العامة ومبادئه الرئيسية، وإلى هنا كان النقاش مع السيد عبد الناصر هادئاً وموضوعياً . .

وتحدث السيد صلاح سالم وزير الإرشاد القومي في مصر في الأمور التفصيلية وخاصة الناحية المالية للاتحاد . . وهنا دار نقاش طويل بين الوزير خالد العظم والوزير صلاح سالم، كل يؤيد وجهة نظره . . وكان رأي السيد خالد العظم أن تتحمل مصر من ميزانية الاتحاد ما يناسب عدد سكانها وثروتها . . على حين كان السيد صلاح سالم يخالف في ذلك . . ويشرح أن «الاتحاد» فكرة جديدة على مصر . . وأنه لا بد من مضي وقت لإقناع المواطن المصري . . والفلاح المصري، والعامل المصري، بفوائد الاتحاد، قبل أن يساهم في ميزانية ضخمة للاتحاد . .

وحمي وطيس الجدال بين الرجلين: السيد صلاح سالم عصبي المزاج، والسيد خالد العظم فيه كبرياء آل العظم.

وكان السيد جمال عبد الناصر يمسك بلجام الحديث . . حتى لا يفلت الزمام بين الرجلين، فكان يتدخل من حين إلى حين ليقول: «على مهل يا صلاح . . اسمع يا صلاح . . يجب أن نبحث الموضوع بهدوء . . الموضوع خطير وكبير . . ويحتاج إلى مناقشة هادئة، ودراسة موضوعية . . »

وامتد الاجتماع حتى الفجر، والتفاصيل الفرعية تباعد الرجلين صلاح سالم وخالد العظم، والاتحاد يتباعد عن التحقيق، . . فلم يكن قد اختمر موضوع الوحدة في الأذهان . . وانتهت الجلسة على غير جدوى . . لقد كان بحثاً حراً عن المفهوم المشترك والمضمون المشترك للوحدة العربية، وشكلها ونظامها ودستورها ومؤسساتها العسكرية والسياسية.

ولكن لم يكن مقدّراً أن تولد الوحدة العربية في باندونغ، فقد ولدت في غير ذلك الزمان وفي غير ذلك المكان . .

لقد وُلِدَت في دمشق والقاهرة، ثم وُئدت في دمشق والقاهرة، وكان عزائي يوم حزنت على «الانفصال» أنني كنت بعيداً عن أحداثها فلم يكن لها مكان في هذه المذكرات، لا يوم وُلِدت . . ولا يوم وُئِدت . .

ولكني وجدت في مذكراتي (أيلول/ سبتمبر ١٩٦١) قصاصة حزينة تقول: «ذهبت اليوم إلى الأمم المتحدة، ورأيت في ساحتها الأمامية، رئيس دائرة البروتوكول ومعه أعضاء الوفد السوري، يرفعون العلم السوري على ساريته القديمة، بين أعلام الدول الأعضاء، وهذا هو تكريس الانفصال في الأمم المتحدة».

وكانت السارية تئن مثلي . . ومثلي كانت تندب الوحدة . .

دموع في الجامعة العربية، وصلاة في مجلس الأمن

فرغنا من مؤتمر باندونغ وعادت الوفود إلى بلادها، الحكام إلى عواصمهم للاضطلاع بمسؤولياتهم، والمناضلون إلى قواعدهم لمواصلة معارك التحرير، وسرت في شعوب آسيا وأفريقيا شحنة ثورية ساخنة تقذفها إلى مواقع جديدة في ميدان النضال. .

وفي ما خلا قضية فلسطين التي كانت حتى ذلك العهد قضية إعلامية فحسب، فقد كانت الأمة العربية في شمال أفريقيا تخوض غمار معركة قاسية ضد عدو واحد: الاستعمار الإفرنسي.

لقد كانت تونس والجزائر ومراكش في كفاح دموي سعياً وراء الحرية والاستقلال، ولم يكن هنالك تكافؤ في هذه المعركة التي تصدت لها فرنسا بكل قواتها العسكرية، وكانت منظمة حلف الاطلنطي تقف إلى جانب فرنسا، فإن كل حركة تحريرية في العالم هي «حركة شيوعية» وعلى حلف الاطلنطي أن يجند نفسه لقهرها ودحرها. . هكذا كان يفكر العالم الغربي ولا يزال. . ولكن ذلك لم يكن ليردّ المجاهدين في الشمال الأفريقي عن الجهاد. . ولم يكن ليردّهم عن الجهاد تقاعس الجامعة العربية واكتفاؤها بإصدار القرارات الإنشائية بديلاً عن التأييد المادي الفعلي. .

وعقدت الجامعة العربية اجتماعها التقليدي في عام ١٩٥٥، بعد مؤتمر باندونغ، وهي تعيش على رصيده لتنظر في القضايا العربية. . ومثلت بين يديها وفود المغرب العربي، وتحدث ممثلو تونس والجزائر ومراكش عن كفاحها البطولي وما يقتضيه من مال وسلاح وعتاد. . وتحدثوا عن القرى المنكوبة والأسر الثاكلة. . وبكى السيد علال الفاسي وهو يحاول جاهداً أن يحبس دموعه. . وشكا السيد صلاح بن يوسف. . وجأر الوفد الجزائري. . وانتهى مجلس الجامعة إلى قرار. . «يعلن تأييده المطلق» بعد أن كفكف عدد من الوفود دموعهم. .

وجاءني في اليوم التالي السيدان صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة «الابن»، وهما يقولان إنه قد وصل إلى السفارة الإندونيسية مبلغ سبعة عشر ألف جنيه، معونة

مالية لتونس، وأنّ الأمر يقتضي موافقة الجامعة العربية، فطلبت إلى الإدارة المالية في الأمانة العامة للجامعة أن تقبض المبلغ من السفارة الإندونيسية وتدفعه إلى تونس، فتعللت الإدارة المالية أن الأمر يحتاج إلى قرار من مجلس الجامعة . . ومجلس الجامعة قد انفضَّ . . ولا بد من الانتظار إلى الدورة المقبلة . . ولكن الثورة في تونس لا تنتظر . . الثورة لا تخضع للروتين، فقلت للإدارة المالية سأتصرف على مسؤليتي. ليحاسبني مجلس الجامعة حين يجتمع . .

وذهبت إلى السفارة الإندونيسية، يرافقني السيدان صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة . . وكان الحاج عبد القادر راداان سفير إندونيسيا، محباً للعرب عطوفاً على القضايا العربية، فسلم الوفد التونسي شيكاً بالمبلغ . . بعد أن «رهنت» توقيعي.

ولم يكن ذلك المبلغ كبيراً . . ولكنه كان كبيراً جداً في حينه، فقد كانت الثورة التونسية تستغيث بالسماء طلباً للعون والنجدة . . ومثلها الجزائر ومراكش . .

وسافرت إلى الأمم المتحدة في خريف ١٩٥٥ لأدافع عن القضايا الأربع، الجزائر وتونس ومراكش وفلسطين . . وكان الكفاح الثوري المسلح متأججاً في الأقطار الثلاثة الأولى، فكان حجتي البالغة على منبر الأمم المتحدة، وقطعت قضاياها شوطاً حسناً في الطريق نحو الحرية والإستقلال . .

أمّا قضية فلسطين فلم يكن سندي فيها إلا قرار مؤتمر باندونغ وتمنيات الجامعة العربية، وأنّىَ لقضية هذا حالها أن تشق طريقها في الأمم المتحدة اعتماداً على التاريخ والحق والعدل والمنطق وميثاق الأمم المتحدة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فإن قضية فلسطين كانت قد هانت على أصحابها فهانت على الأمم المتحدة . . فقد وكل أمرها إلى اللجنة السياسية الخاصة لتعالج على أنها قضية لاجئين تناشد الأسرة الدولية : الدواء والكساء والغذاء . .

ولقد مرت تلك الدورة، ١٩٥٥، والدورات التي بعدها، من دون أن يشترك وزراء خارجية الدول العربية في مناقشة القضية الفلسطينية، ولو كمستمعين . . على حين كان وزراء الخارجية الإسرائيلية شاريت وغولدا ماير وإيبان، لا يفترون عن حضور الجلسات بأنفسهم، ويتحدثون بأنفسهم، ويحاورون ويجادلون . .

وحاولت جهدي، مع المندوبين العرب الدائمين، أن نجدد شباب القضية، وننفخ فيها الروح، ونجحت محاولاتنا، فقد تجاوزنا البند المدرج على جدول الأعمال اللاجئين، إلى بحث القضية الفلسطينية من جميع جوانبها، وحققنا بذلك نصراً ولو على الصعيد الإعلامي، وهذا ما نستطيعه في دهاليز الأمم المتحدة . . وكان الوفد

الأمريكي يتصدى لنا، يدعو على الدوام إلى اقتصار البحث على موضوع الإغاثة وتجنب بحث الجوانب السياسية . . وعدم الرجوع إلى الماضي. والالتزام بالواقعية والموضوعية . . والعمل على خلق جو لحل الخلافات بالطرق السلمية . .

ولم يقف الوفد الأمريكي عند هذا الحد بل راح يصطنع من طرف خفي، التفسيرات والعقبات التي تحول دون تنفيذ قرار ١٩٤٨ بشأن عودة اللاجئين . .

ولم يكن ممكناً الصبر على هذا الموقف المشين، الذي يتصدره الوفد الأمريكي، وهو الذي وضع صيغة القرار في عام ١٩٤٨، وجاء في عام ١٩٥٥ يتنكر لموقفه . .

وصادف أن كانت الأمم المتحدة، قبل ذلك، قد احتفلت بيوم الأمم المتحدة، واحتفلت بعده بيوم حقوق الإنسان . . فاتخذت من هاتين المناسبتين ركيزة للهجوم على الولايات المتحدة، وهي في الواقع سيدة الأمم المتحدة . .

وقلت لمناسبة يوم الأمم المتحدة، وأنا أوجه حديثي إلى الوفد الأمريكي : «إن يوم الأمم المتحدة يذكرنا بذلك الاحتفال الفخيم بوضع الحجر الأساسي لهذا البناء الفخيم الذي يضمنا الآن . . وكلنا يذكر الرئيس ترومان يوم وضع بيديه ميثاق الأمم المتحدة تحت الحجر الأساسي وسط عاصفة من التصفيق . . وها نحن ندرك الآن بعد أن سمعنا كلام الولايات المتحدة عن قضية اللاجئين، أن الرئيس ترومان فد دفن الميثاق تحت الحجر الأساسي في ذلك الاحتفال الفخيم، ولم يكن هذا عجباً على الرئيس ترومان ففي عام ١٩٤٧ و١٩٤٨ تولّى كذلك «دفن» الحق والعدل في قضية فلسطين.

وبالنسبة إلى يوم حقوق الإنسان، استأنفت حديثي إلى الوفد الأمريكي وأنا أقول «لقد كانت قاعة الجمعية العامة غاية في الفخامة ونحن نحتفل بيوم حقوق الإنسان . . الأوركسترا الأمريكية عزفت لنا في ذلك اليوم أروع الألحان . . وأكاليل الزهور تتقدمها الأكاليل الأمريكية قد ملأت منصة الأمم المتحدة . . واليوم يجيء الوفد الأمريكي يخطب عن اللاجئين ليفسر لنا تلك المظاهر العظيمة . . لقد كانت تلك أكاليل الجنازة . . ونحن ندفن حقوق الإنسان وهي في طريقها إلى مثواها الأخير . . ، وكانت تلك . . . أوركسترا الجنازة، ونحن نسير في موكبها لوداع حقوق الإنسان». ووجهت الطعنة الثالثة إلى صدر الوفد الأمريكي لا إلى ظهره، فكانت أشدّ إيلاماً . . وتناولت بالمقارنة قضية الطيارين الأمريكان الأحد عشر . .

ولهذه القضية قصة مثيرة . . فقد احتجزت الصين الشعبية أحد عشر طياراً أمريكياً اتهمتهم بالتجسس، فثارت الولايات المتحدة وثارت معها الأمم المتحدة تطالب بإطلاق سراحهم . . وعقدت الجمعية العامة عدة جلسات تكلم فيها الوفد الأمريكي وطلب من المستر همرشلد أن يتدخل لدى الصين الشيوعية «لإنقاذ السلم

العالمي»، وذكر الوفد الأمريكي الطيارين بأسمائهم ومدنهم وعناوينهم. . وأعرب عن قلق الشعب الأمريكي من أن هؤلاء الطيارين الأحد عشر ستقضي أسرهم عيد الميلاد وهم أسرى في معتقلات الصين. . ويا لفجيعة الإنسانية. .

ورحت بدوري أقارن بين الأحد عشر طياراً أمريكياً الذين كانوا يقومون بأعمال التجسس على الصين الشعبية، وبين مليون من اللاجئين أخرجتهم إسرائيل من ديارهم، ومرت عليهم عشرات من أعياد الميلاد والفصح وجميع الأعياد الإسلامية وهم يبتعدون عن ديارهم، من دون أن يثير ذلك «عاطفة» الولايات المتحدة، وتساءلت بعد هذه المقارنة: «هل المواطنون الأمريكان من طينة أخرى من البشر؟!؟. . وهل عواطف الولايات المتحدة في حاجة إلى مليون من الأمريكان يؤسرون في الصين الشعبية حتى تحس بكارثة الشعب الفلسطيني. . وما يعانيه من عذاب وبؤس وحرمان؟؟؟»

ولم تكن هذه مقارنات فحسب،، بل كانت صفعات موجعة لم يستطع أن يتحملها الوفد الأمريكي فقاطعني، واحتج أني خرجت عن الموضوع، وأنّ هذا الأمر خارج عن الصدد. . وفعلاً فقد خرجت عن الموضوع والصدد. . ولكن فات الوقت على الوفد الأمريكي، فقد قلت كلمتي واستنفدت كل السهام في جعبتي. .

وحينما جاء دور إعداد مشروع القرار في موضوع إغاثة اللاجئين، لم يستطع الوفد الأمريكي تحت ضغط هذه الحملة الساخنة إلا أن يوافق على «إقحام» فقرة تقضي بتنفيذ قرار الأمم المتحدة الصادر سنة ١٩٤٨ بشأن عودة اللاجئين. . وهكذا كان. . وكان في عداد وفود أمريكا اللاتينية «البروفسور فابريكات»، رئيس وفد البورغواي، ولعله من أقدم الأعضاء في الأمم المتحدة، وكان عضواً في لجنة الأمم المتحدة التي زارت فلسطين في عام ١٩٤٧ وأوصت بالتقسيم.

وكان «البروفسور فابريكات» من أكبر أنصار الصهيونية، وقد أطلقت إسرائيل اسمه على أحد شوارع تل أبيب «تمجيداً» لخدماته. .

وقد اختلفت الروايات، روايات زملائه من وفود أمريكا اللاتينية، بصدد «عقيدته الدينية» فمن قائل إنه يهودي أصلاً، ومن قائل إنه ملحد لا يدين بدين. .

وكان «فابريكات» عارفاً بالتاريخ العربي والإسلامي، يسترسل في خطبه في هذا الباب، ليجعل ذلك مقدمة للكلام في تأييد إسرائيل، فكان يكيل المديح لنا ويكيل التأييد لإسرائيل. . ولم يكن يكلّ عن التحدث في هذه المواضيع حتى قلت له في إحدى الجلسات: «أنت بروفسور فابريكات حقاً» وفي اللغة الإنكليزية تعني كلمة «فابريكيشن» التزوير. . وضحك هو مع الضاحكين. .

وفي أخريات الدورة جاءني البرفسور فابريكات ليقول لي:

«عندي خبر سار لك. .»

قلت: «وما هو الخبر السار».

قال: «لك صديق عزيز وصل إلى الأمم المتحدة وهو يريد أن يراك. .»

قلت: «ومن هذا الصديق. . . يسرني أن أراه. .»

قال: «وهل يسرك أن تراه حقا؟»

قلت: «إذا كان صديقي حقاً، فإنه يسرني أن أراه حقاً. .»

قال: «إن السيد بخور شطريت. . قد جاء من فلسطين منذ يومين وهو يلح أن يلتقي بك في أي زمان وأي مكان».

قلت: «لا أريد أن أرى بخور شطريت في أي زمان، وفي أي مكان. .»

قال: «إن بخور شطريت يقول إنه يعرفك جيداً. .»

قلت: «إنني أعرفه جيداً وهو يعرفني جيداً، ولأزيدك علماً. . أن بخور شطريت من اليهود القدامى في فلسطين أو من اليهود العرب كما يقولون. . وكان محامياً زميلاً لي أثناء الانتداب البريطاني على فلسطين. . وكنا نلتقي به مع المحامين العرب في مزرعة لزميل لنا هو السيد محمود الماضي على مقربة من حيفا. وكان شطريت يعزف لنا على العود ويغني الأغاني العربية القديمة، وبعد خروجنا من البلاد علمت أن شطريت قد أصبح وزيراً في حكومة بن غوريون. .»

قال: «هذه معلومات جميلة. . وهذا ما يزيدنا إلحاحاً في أن تلتقي مع شطريت بعيداً عن أي كلام في السياسة. . مجرد لقاء بين معارف. .»

قلت: «إن شطريت الذي كان يغني لنا قد مات في عهد الانتداب البريطاني، وماتت معه كل معرفتنا باليهود القدامى «العرب» الذين كنا نعرفهم. لقد انضموا إلى الحركة الصهيونية تحت علم إسرائيل. ولا لقاء بيننا وبينهم، وقد مضى الماضي وانتهى.»

وعاودني البرفسور «فابريكات» بإلحاحه وإصراره أن ينقل إليّ رجاء شطريت في أن أراه، لعلنا نجد صيغة للوصول إلى تسوية سليمة. . فأجبت «البروفسور»: «إن الصيغة عندي هي ما قاله أحد قواد الثورة الفرنسية في مجلس الأمة الافرنسي: نحن مستعدون أن نعطي كل شيء لليهود كأفراد. . ولكن اليهود كشعب فلسنا مستعدين أن نعطيهم أي شيء. .». وكانت هذه العبارة نهاية هذا الحديث ونهاية هذه المحاولة. .

وبدأت أعد أنفسي للسفر فقد أوشكت الدورة على النهاية. . ولكن يأتيك

بالأخبار من لم تزود . . فقد جاءنا ساعي البريد ببرقية عاجلة طويلة من دمشق . . وقلت خيراً أن شاء الله . .

ودعوت الموظف المسؤول عن «الرموز»، وحلّ البرقية فإذا بها مليئة بالتفاصيل الرهيبة عن عدوان يهودي غادر على المخافر السورية شرقي بحيرة طبريا، وأدى إلى إصابة خمسين جندياً وضابطاً بين قتيل وجريح، وتطالبني البرقية بتقديم الشكوى أمام مجلس الأمن . .

ولم تكن البرقية مستوفية التفاصيل، ولكني بادرت بتقديم الشكوى (١١ كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٥٥) إلى مجلس الأمن، مستعيناً بمعرفتي لمواقع العدوان معرفة شخصية، فقد كانت لي قضايا عقارية على مقربة من تلك المنطقة حين كنت محامياً في فلسطين . .

وكذلك فقد استعنت بما أعرفه من التكتيك الإسرائيلي في هذه الهجمات الغادرة . . فقد سبق لي أن زرت قرية «قبية» في الضفة الغربية بعد أن هاجمتها العصابات الإسرائيلية في ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٥٣، ورأيت البلدة قاعاً صفصفاً تناثرت جدرانها وتهاوت سقوفها . . وأصبحت أطلالاً، دونها أطلال امرئ القيس!!

وعقد مجلس الأمن جلسات متعددة للنظر في الشكوى السورية، وجاءتني بعد ذلك التفاصيل المروعة عن هذه المذبحة الغادرة التي اقترفتها العصابة الإسرائيلية تحت جنح الظلام . . وكان التكتيك العسكري الإسرائيلي على الدوام: قوة عسكرية كبيرة على منطقة صغيرة، وتدمير إلى وجه الأرض . .

وعدت إلى الاعتداءات الإسرائيلية السابقة فعرضتها، واستعرضت معها قرارات مجلس الأمن بإدانتها، ومضيت إلى القول بأن قرارات الإدانة لم تعد كافية ولا رادعة لإسرائيل . . واستشهدت بالمادة السادسة من ميثاق الأمم المتحدة التي تنص على فصل الدولة من عضوية الأمم المتحدة إذا كانت «تستمر في مخالفاتها». وكان هذا الطلب يطرح لأول مرة أمام الأمم المتحدة، واعتبره مجلس الأمن مطلباً جريئاً فريداً، وطلب الأعضاء التأجيل مرة بعد مرة لدرس هذه النقطة القانونية، ولأول مرة أبرزت جريدة **النيويورك تايمس** هذا المطلب العربي في صدر صفحتها الأولى وبالعناوين الأولى . .

كان عيد الميلاد قد أوشك . . فلجأت إلى الدين، إلى جانب القانون والسياسة، وتحدثت في ما يشبه الابتهال الديني، عن بحيرة طبريا وذكريات السيد المسيح على شواطئها، حيث ترتكب إسرائيل أفظع جرائمها . . ورجعت إلى مداولات سان فرنسيسكو يوم وضع ميثاق الأمم المتحدة وتاريخ المادة السادسة . . ورجعت أبعد إلى الوراء، إلى ميثاق عصبة الأمم المتحدة في ما يماثل المادة السادسة، حتى أصبحت

هذه المادة في مجلس الأمن شغله الشاغل، يفسرها الجميع ويحللها الجميع . .

وكنت على تشاور دائم مع السيد «سوبوليف» المندوب السوفياتي في مجلس الأمن، وكان يقوم بدور كبير في مداولات مجلس الأمن ويؤيد الشكوى السورية ويشدد أنه لا بد من بحث عقوبة أخرى غير الإدانة . . تفرض على إسرائيل من غير رحمة ولا تردد . .

ولكن الدين لم ينفع، والقانون لم ينفع، فلم يوافق مجلس الأمن على إصدار قرار بطرد إسرائيل من الأمم المتحدة، وأصدر قراراً بالتنديد، متوعداً بأنه سينظر في إجراءات أخرى إذا تكرر مثل هذا العدوان . .

وانتهينا من مجلس الأمن في ١٩ كانون الثاني/ يناير سنة ١٩٥٦ بعد أن ملأت محاضره بأكبر حملة تشهير لإسرائيل، نشأةً ووجوداً وبقاءً. وبعد أن جعلت مجلس الأمن معبداً يذكر فيه اسم الله . .

وتوالت اعتداءات إسرائيل بعد ذلك القرار، فلم يتخذ مجلس الأمن أية إجراءات أخرى غير التنديد . . وكان أكبر هذه الاعتداءات، العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، وعدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧. . وجاء في ما بعد العدوان على مطار بيروت، والقرى العربية في الأردن ولبنان . .

ولقد أدينت إسرائيل منذ قيامها بضع عشرة مرة، من قبل الجمعية العامة ومجلس الأمن . . ولكن المادة السادسة من ميثاق الأمم المتحدة لم تتحرك . . لأن الحكم في الأمم المتحدة هو لأمريكا، وليس للقانون، وإسرائيل ربيبتها وركيزتها . .

ولقد بلغت الفظائع الإسرائيلية ذروتها في عدوان حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وتلا ذلك فظائع أخرى بلغت ذروة ذروتها . .

وشكا العرب إلى مجلس الأمن من قنابل النابالم . .

وشكا العرب من تشريد اللاجئين . .

وشكا العرب من نسف القرى وهدم المنازل . .

وشكا العرب من التعسف والإرهاب وتقتيل النساء والشيوخ والأطفال . .

ومضت إسرائيل لا تبالي بمجلس الأمن وبالقانون الدولي وبالمبادئ الإنسانية، ولكن العرب قوم بدائيون لا يعرفون حقيقة العلاقات الدولية ولا يعرفون «مفهوم» الحرب، والحرب تصيح في أسماعهم ووجوههم . .

تعلموا صناعة قنابل النابالم وأحسنوا استعمالها . . .

وتمرسوا بأساليب النسف والإرهاب والتقتيل والتشريد . .

مصائب اليمن الثلاث ورابعها إمامها

شددت بريطانيا قبضتها على جنوب اليمن المحتل، وأخذت الطائرات البريطانية تقصف القرى الآمنه، وفرَّ زعماء القبائل إلى الإمام أحمد ملك المملكة المتوكلة اليمنية يشكون ما حل بهم من خراب ودمار، وشكا الإمام بدوره إلى الجامعة العربية، واجتمع مجلس الجامعة، وفكر وقدر وقرر. وأعلن أن بعثة تمثل دول الجامعة ستسافر إلى اليمن وتدرس الحالة عن كثب وتقدم تقريرها وتوصياتها. وذلك في شهر آذار/ مارس سنة ١٩٥٧.

وتألفت البعثة من ممثلي الدول العربية، وكان معظمهم من العسكريين، وكنت رئيساً للبعثة باعتباري الأمين العام المساعد للجامعة العربية. .

فجمعت كل ما في الأمانة العامة من ملفات ووثائق بشأن الجنوب اليمني المحتل، فلم أجد ما يزيد عن مذكرات من السفارة اليمنية في القاهرة تشكو من الاعتداءات البريطانية المتكررة، خالية من التفاصيل والوقائع، وخالية من أي طلب معين محدد. . «وتضع الأمر أمام مجلس الجامعة ليقرر بشأنه ما يراه مناسباً. .».

وعدت إلى المراجع العلمية، العربية والإنكليزية، التي عنيت بشؤون اليمن ومشكلاته في محمياته»، وكنت إلى ذلك الحين بعيداً عن القضية اليمنية، منصرفاً إلى قضية فلسطين، وإلى الكفاح العربي في الجزائر وتونس ومراكش. .

وفي أوائل نيسان/ أبريل من عام ١٩٥٧ كانت طائرة الخطوط المصرية تقلنا إلى اليمن «السعيد» يرافقنا السيد أحمد محمد الشامي مستشار السفارة اليمنية بالقاهرة (وزير خارجية الملكيين في ما بعد) وانضم إليه السيد عبد الرحمن البيضاني (نائب رئيس الجمهورية اليمنية في ما بعد).

وهبطنا مطار الحديدة، وكأننا هبطنا قاع الجحيم، فقد كان الجو حاراً مشبعاً

بالرطوبة، وحملتنا السيارات إلى قصر الضيافة، ووصلنا. . ولكن لم يكن هناك قصر ولا ما يقصرون. .

صعدنا السلالم إلى مبنى وضيع من غير تواضع. . ودخلنا غرفنا لنستريح فلم نجد غير سرر عادية، عليها فرش وأغطية تغري بالأرق. ودخلت الحمام لأنقذ نفسي من العرق الذي يتصبب من مفارق الشعر في رأسي حتى أخمص قدمي. . وكان «الدوش» صفيحة من التنك مثبتة في الجدار، وقد نفد ماؤها ولم أكن قد تبللت. . ولم أكن قد عدت إلى الغرفة، حتى عدت أتصبب عرقاً، ولبست ملابسي وذهبت إلى مائدة الطعام، وعلى كتفي «منشفة» أجفف بها عرقي من برهة لأخرى. .

وجلست «البعثة» إلى الطعام، وأنا مشفق على العسكريين بملابسهم العسكرية تشدّ أعناقهم وخصورهم، وكان الفريق إسماعيل صفوت مندوب العراق يترحّم على لهب بغداد، على حين كان إخواننا اليمنيون معنا يشيدون بالجو العليل في ذلك اليوم. . وأنّ ذلك فأل خير لمقدمنا. . وكان الطعام دسماً للغاية، فأنفذت يدي في أطباق اللحوم كما ألفت مع البدو في مضاربهم، على حين وجم الزملاء المدنيون الناعمون، فأخذوا لقيمات لا تسمن ولا تغني من جوع!!

ولكن المائدة كان فيها ما هان معه الحر اللاهب. . كان فيها الشاعر الحضراني وما أدراك ما الشاعر الحضراني. .

كان «الحضراني» أعجوبة حقاً، يمثل الأعاجيب التي امتلأت بها كتب الأدب العربي، عن الشعراء الأقدمين. . وعن الرواة الحافظين. .

وكان الحضراني طويل القامة عظيم الهامة، وعلى رأسه عمامة، له وجه عربي كبير، فيه عينان نضاحتان، تحتهما شاربان مستويان، وتحتهما ذقن عريضة، تحتها لحية سوداء فاحمة. .

واعتدل الحضراني على كرسيه. . لا ليأكل، ولكن ليروي لنا الشعر القديم والحديث، والشعر العامي والفصيح. .

وقضينا ساعتين أو يزيد، والحضراني يلقي قصائد الشعراء وقصائده. ولكن أي إلقاء. . . لقد أوحى إلينا صوته الفخم، ولهجته البدوية، وإشاراته وتعبيراته وقسماته أننا في سوق عكاظ حقاً، وأننا بين يدي واحد من رواة العرب الأقدمين، يغرف من «ذاكرة»، ذاكرة، ليس لها أبعاد ولا أعماق. .

ولقد جعلني الحضراني أُصدّق كل ما قرأته في الأدب العربي عن شعراء العرب الأوائل ورواتهم النوابغ. . أجل لقد جعلني أصدق كل هاتيك «الأكاذيب» وحزنت

أن صناعة السينما العربية لم تظفر (بالحضراني)، بقية الزمان، ونادرة العصر والأوان. . ووقف الحضراني عن الإنشاد، وعدت إلى الإحساس بالحر، فسألت «الكابتن» المصري قائد الطائرة:

«هل نستطيع أن نسافر الآن إلى تعز؟»

فقال الكابتن: بالتأكيد. . في أقل من ساعة نكون في تعز. . الحر هنا لا يطاق. .

وهكذا انضم صوت مصر إلى صوت العراق، يشكو من حر الحديدة في شهر الربيع. . وسارعنا إلى حقائبنا، وفي لهجة عسكرية دعوت البعثة إلى المطار. . ووصلنا إلى تعز. . إلى الهواء الناعم العليل. . إلى الجبال المعروشة المحروشة. . وتذكرت قول الصوفية: «لله خواص. . في الأزمنة والأمكنة والأشخاص. .»

وكان قصر الضيافة في تعز أحسن حالاً منه في الحديدة. . وإن كان كلاهما يذكرني «بالخانات والرباطات» التي كانت في طريق الحج في العصور الإسلامية المختلفة. .

وبدأت البعثة مهمتها التي جاءت من أجلها. . فاستمعنا إلى بعض «السلاطين» الذين فروا على أثر الاعتداءات البريطانية، وقلت لواحد منهم مداعباً: «كيف يفر السلاطين. . ولمن تركتم الشعب!!»

وسافرنا في اليوم الثاني إلى منطقة «أب» واستمعنا إلى مشايخ القبائل، وسردوا لنا تفاصيل الاعتداءات، قصفاً وإحراقاً وتقتيلاً. .

ثم انتقلنا بعدها إلى منطقة» البيضا» وهي أقرب ما تكون إلى المواقع التي كانت تقصفها الطائرات البريطانية، وتوغلنا إلى الأطراف الأمامية، وأطلقت المفارز البريطانية النار علينا وأصيب بعض مرافقينا من اليمنيين بجراح. . وحملناهم إلى مركز الهلال المصري في البيضا ليعالجوا مع جرحى الغارات. .

وتجمعت الجموع في البيضا، واهتاجت الخواطر وخطب المشايخ منددين بالاستعمار البريطاني، ويطالبون الجامعة العربية بمدهم بالمال والسلاح!!

وخطبت في الجموع الهائجة خطاباً بدوياً، لم يفهمه بعض رجال البعثة الذين لم يألفوا لهجة البادية. . وعجب مرافقا البعثة السيدان أحمد الشامي وعبد الرحمن البيضاني كيف أخطب في القبائل اليمنية وكأنني من أبناء اليمن، وهما يحسبان أن حياتي كلها هي «الأمم المتحدة». . وأنيّ لا أحسن إلا الفصحى في العربية والإنكليزية. .

وقضينا يوماً وبعض يوم في مأرب، وكان يوماً مع التاريخ، فقد ذهبنا إلى موقع السَّد ولم يبق منه إلا «الأطلال» وأطرافه في أوله وفي آخره. . ، وسّد مأرب صنعته طبيعة اليمن والعبقرية اليمنية، فهذه التلال القائمة قبل السد كأنما صنعت ووضعت هكذا في مكانها، حتى يأتي السدّ بعدها، وبحجزه مياه الوديان تكون في خدمة الإنسان والحيوان. . وجاءت بعد ذلك «أسطورة» الفأر الذي قرض السد، وتفرق العرب أيدي سبا، وما زالوا متفرقين. .

وسافرنا بعد ذلك إلى صنعاء، وهي مدينة الجبال الشامخة، تعلوها «تشكيلات» من السحاب، هي آية من آيات الله في بديع صنعه. .

وفي صنعاء كان لقاؤنا مع الشعر والشعراء. . فقد جمعتنا الولائم بأدباء اليمن، وأصبحت صنعاء دار ندوة للعلم والأدب. . وأنشدنا الشعراء شعرهم.، في أخبار اليمن ووقائعها، وفي أيام العرب وأحداثها، فعشنا مع الماضي السعيد بأجوائه. أرضه وسمائه وحفظ العسكريون من البعثة أبياتاً من الشعر في الحرب والحماسة. .

وجاء دور «القات» فأنشدوا فيه المديح وأشادوا بمناقبه ومحاسنه، ووصفوا مجلس القات في الصالة الخاصة من المنزل يتوافد عليها علية القوم، فيجلسون صفين متقابلين ويتناولون القات مضغاً، وهم يلوكونه ويعصرونه بأفواههم، حتى «يخزنوه» ملء أشداقهم. . فيسيل به لعابهم إلى أمعائهم، فينتشون ويطربون، وتهتاج خواطرهم وأفكارهم، وتزول همومهم، ويغمرهم السرور والحبور، ثم يتناولون حيناً بعد حين أباريق الماء البارد، يرطبون به القات في أفواههم، فيزدادون سروراً على سرور، وحبوراً على حبور. .

وإذا دخلت على هذا الجمع في مجلس القات، رأيتهم مضطجعين على الأرائك والوسائد، وأوداجهم منتفخة بالقات، يتسامرون ويتناومون، وهم في حالة من الوجد واجدون. . أو هكذا يقولون. .

وقد حاولت جهدي أن أناقشهم في مضار «القات» وأنه وإدمان الشراب سواء بسواء، في خطره على أبدانهم وعقولهم. . فكانوا يسخرون بقولي هذا، ويتفاخرون بأن أفاضل العلماء «يخزّنون» ولا يجدون فيه ضرراً وخطراً. . وسألت الإخوان اليمنيين، وماذا تفعلون عند السفر، فقالوا: «ندس القات بين ملابسنا في حقائبنا، ولا ننقطع عن القات في السفر ولا في الحضر!!»

وأقام لنا الأمير محمد البدر ولي العهد وليمة في منزله. ورأيت الحرس على بابه وهم «مخزنون» القات في أفواههم، والسلاح على أكتافهم. . وسألت «البدر» في جلسة

خاصة، بعد أن استوفينا حديثنا عن الاعتداءات البريطانية: «وهل سموكم «تخزنون»؟»

قال: «لا والحمد لله.. لقد تركته منذ ستة أشهر، وإنني أبذل جهدي مع الشباب لينصرفوا عنه.. بفتح النوادي الرياضية وبالنشاط الاجتماعي..»

قلت: «إن خير وسيلة للشباب لينصرفوا عنه.. ليس بالنهي والزجر، ولكن». فسكت «سموّه» ولم يعقب..

وعادت بنا الطائرة في اليوم التالي إلى الحديدة وزرت الإمام أحمد في قصره.. وكان حرسه على الباب لا يجمعهم إلا شيء واحد: الأوداج المنتفخة بالتخزين.. وفي ما عدا ذلك فهم مختلفون في كل شيء.. فيهم الطويل والقصير، فيهم الأسمر والأشقر، فيهم الحافي والمنتعل، فيهم الشاب والكهل، فيهم النحيل والبدين، فيهم المسلح والأعزل..

وقلت للفريق إسماعيل صفوت: «إن التخزين في أشداقهم يغني عن المخزن في بنادقهم.. ولا أظنهم «يخزنون» الرصاص في بنادقهم..»

فقال: «أظن أن فراستك في محلها.. ودخلنا على الإمام فصافحناه وجلسنا من حوله على مقاعد كجنوده، كل مقعد يمثل جيلاً بذاته، ويرمز إلى «حضارة» بذاتها، وكأنّها جلبت بالأمس من متحف الآثار والعاديات..»

ومدَّ الإمام يده إلى «كوم» على الطاولة وقال: «هذه العرائض التي جاءتنا من القبائل، وكلها تستنكر العدوان البريطاني وتطالب بالوحدة مع اليمن وتبايع الإمام». فتناولت العرائض، فكانت كذلك كجنده ومقاعده، لا تتشابه اثنتان، ورقاً وحبراً، ونصاً ومعنىً.. وطولاً وعرضاً!!

وشكرت للإمام حسن ضيافته، وأثنيت على السلاطين والقبائل وما أبدوا من استعداد لمقاومة الاستعمار البريطاني، ورجوته أن يزودني بمطالبه لأضعها أمام مجلس الجامعة، فقال لي: «لقد رأيتم كل شيء، وسمعتم كل شيء، فانقلوا ذلك إلى مجلس الجامعة، وما يراه حسن فهو حسن..»

قلت: «هل لدى جلالتكم اقتراحات محددة في كيفية معالجة الموضوع..»

قال: «نحن نترك الأمر للجامعة!! وما عندنا اقتراحات..»

ثم نهضنا وودعنا جلالته وغادرنا قصر الضيافة إلى المطار بعد أن قضينا في اليمن بضعة عشر يوماً، كان الوطن والشعب خير ما فيها.. وقدمنا تقريرنا إلى مجلس الجامعة فلخصنا فيه ما رأينا وما سمعنا.. وأوصينا بمعونة مالية وعسكرية حتى

يستطيع البلد الشقيق أن يصمد أمام الهجمات البريطانية، وشكر لنا مجلس الجامعة جهدنا، وطوى التقرير مع إخوانه ورفاقه من مئات التقارير، في التخزين مع المهملات، لا في تخزين القات..

ولقيت السيد عبد اللطيف البغدادي، (نائب رئيس الجمهورية يومئذ) في إحدى الحفلات، وكان قد سبق له أن زار اليمن، بعد أن نشبت الثورة على الإمام يحيى حميد الدين فقال لي:

«هل وجدت اليمن خيراً مما وجدته..»

قلت: «وجدت في اليمن مصائب ثلاث: الإنكليز والقات.... و»

قال: «وما هي المصيبة الثالثة؟.»

قلت: «المصيبة الثالثة هي الإمام، إنها الإمام..»

ولم تكن زيارتي هي نهاية المطاف، فقد زرت اليمن مرة أخرى وأنا أعمل في الأمم المتحدة رئيساً للوفد السعودي، فقد طلبني الإمام من الملك سعود «برقياً» ليستشيرني في النزاع البريطاني اليمني وفي ملاءمة عرضه على الأمم المتحدة.

وقد استعجلني الملك سعود للسفر، وأمر بطائرة خاصة لتحملني إلى اليمن وهكذا كان..

ووصلنا مطار تعز.. فلم أجد في المطار أحداً.. وهبطت الطائرة في أرض المطار فلم نجد من يحمل إلينا سلماً حتى ننزل إلى الأرض.. وصحنا من باب الطائرة فلم يسعفنا أحد، وكان المطار مقفلاً.. وكانت البرقية إلى تعز قد سبقتنا بيوم واحد..

وأخذنا نصيح في المطار، وإذا بسيارة جيب تمر من حولنا، فسمعنا من فيها، فجاؤوا إلينا، وكانوا الطيارين السويديين الذين يستخدمهم الإمام في طائرته... وسفراته..

فشرحت لهم بالإنكليزية أنني وزير سعودي، وأنني في مهمة رسمية إلى جلالة الإمام.. وأنني جئت بصورة عاجلة... فأنجدونا ونزلنا من الطائرة.. ثم كانوا كراماً بررة، فقد حملونا بسيارة الجيب من المطار إلى تعز!!

ووقفت سيارة الجيب بجانب قصر الضيافة، فصحت: «يا أولاد، افتحوا للضيوف»، ودخلنا.. إلى الغرف التي وجدناها شاغرة، ووضعنا حقائبنا، وشكرنا الطيارين السويديين...

وقد عجب «الأولاد» أنهم لا يعلمون شيئاً عن قدومي، وقد عرفوني وراحوا يعتذرون ويأسفون. . وكأنهم يعتذرون عن الإمام. .

وكان بيت القاضي العمري قريباً من دار الضيافة، فأرسلت في طلبه، فهرول إليّ بملابس المنزل. . . وجرى الحديث بيننا فإذا بالوزير العمري، أقرب المقربين إلى الإمام، لا يدري، واتصل العمري بقصر الإمام فقيل له: «إن مولانا مستريح»، ومولانا مستريح، معناها عندهم أن الإمام لا يقابله أحد، ولا يستطيع أحد أن يتصل به. . وكان قد مضى على ذلك الحال بضعة عشر يوماً كما قال لي القاضي العمري. .

واتصلت بسمو ولي العهد الأمير البدر، فقال، إنه لا يدري من الأمر شيئاً، ولا علم له لماذا طلب «الشقيري» على هذه الصورة العاجلة. .

وجاء وقت العشاء فالتقينا على المائدة. . بعض السفراء العرب والأجانب، وفيهم السفير المصري، وأخذنا نتسامر ونتحدث في الشؤون العالمية، بعيداً عن أمور اليمن. .

وانتحى السفير المصري بي جانباً وسأل: «خيراً إن شاء الله. .؟»

قلت: «إن شاء الله خير. . ولكني لا أعلم شيئاً. .»

قال: «لعلك تكتم علي. . . تجيء إلى اليمن ولا نعلم!!»

قلت: «صدقني إنني لا أعلم. . كل الذي أعلمه أن الإمام أبرق إلى الملك سعود في طلبي. .»

وانصرفنا كل إلى غرفة نومه. . لا يدري من أمر صاحبه شيئاً. .

وقضيت يومين وأنا لا أستطيع الاتصال بالإمام، وإذا كنت قد جئت على عجل، فإنه ينبغي أن أعود على عجل، فإن الأمم المتحدة توشك أن تنعقد، ولا بد لي من أن أسافر إلى نيويورك وأصل في الوقت المعين. .

وخرجت ليلة لأُروّح عن نفسي من هذا الأسْر الذي وقعت فيه. . وبلغت كوخاً صغيراً على حافة الطريق، مبنياً من ألواح الخشب والتنك، وفيه قنديل صغير، مرصوص بين أكداس صغيرة من الحلوى التي تباع للأولاد. . وكان هذا كله هو الدكان. .

وكان صاحب الدكان رجلاً عجوزاً، لا يكاد يبصر فدخلت عليه وقلت:

«الله بالخير يا عم. .»

قال: «أهلا وسهلا «تفظل». .»

قلت: «ما هذا الراديو الذي أسمعه عندك؟»

قال: «أتسلى فيه، وأسمع الأخبار. .»

قلت: «وماذا تسمع يا عم. .؟؟»

قال: «أسمع أحمد سعيد، أسمع صوت العرب. .»

قلت: «ومتى اشتريت هذا الراديو؟»

قال: «اشتريته منذ شهر. . والثمن مقسط اثنا عشر شهراً. .»

قلت: «ألا تسمع محطات أخرى. .؟»

قال: «لا أعرف محطات أخرى. .؟»

قلت: «وكيف عرفت محطة صوت العرب. .؟»

قال: «راعي» الراديو هو الذي ركز «الإبرة» ـ (راعي الراديو هو الذي يبيع الراديو).

قلت: «وكيف كان ذلك؟»

قال: «قلت لراعي الراديو «حط الراديو على أحمد سعيد»، وفعل ما طلبت، وفي كل ليلة أفتح الراديو وأسمع صوت العرب. .»

وكان صوت العرب في ذلك الوقت في ذروته، وكان صوت أحمد سعيد يجلجل من المحيط إلى الخليج. .

وعجبت لسحر الكلمة ماذا يفعل في الشعوب. . وعجبت لأصالة هذه الأمة كيف تسحرها آماله، وعدت إلى قصر الضيافة، وقد امتلأت نفسي عزاء من الإمام ورجاء في الشعب. .

وجاء اليوم التالي فلم أسمع من الإمام حِسَّاً ولا ركزاً، واتصلت «بسمو» ولي العهد لأقول له: «إن طائرتي تنتظرني في المطار، وسأسافرَ غداً على أي حال، فأرجو أن تجدوا طريقة لإبلاغ «جلالته» بما عزمت عليه. .»

وقضيت يومي أنتظر الموعد، فأفلح الإنذار. . وجاءني ولي العهد ليقول لي: «إن جلالته سيستقبلكم غداً»، وسمع السفير المصري بذلك فاقترب من أذني وقال هامساً:

«أرجو أن تذكر لجلالته أن السفير المصري موجود في تعز ينتظر منذ أسابيع».

قلت: «سأفعل، إن شاء الله» ولكني لم أفعل. . .

وخرجت عصر ذلك اليوم في نزهة، وليتني ما خرجت. . فقد فجعت وما تزال ذكريات الفجيعة تملأ قلبي. .

مشيت في المسارب، بين الأشجار، وحول تعز رواب جميلة. . ورأيت قلعة على رأس الجبل، فأغراني ولوعي بالرياضة أن أمشي. . حتى بلغت القلعة على قمة الجبل، وهي مشرفة على مدينة تعز فكان منظراً بهيجاً. . لولا أن أفجعني ما رأيت. .

لقيت ستة أولاد بين الثامنة والثانية عشرة، يلعبون بالحجارة والتراب. فلم أكترث بهم، ودخلت القلعة لم أجد فيها شيئاً، وعدت إلى الأولاد يلعبون ويركضون. فوقفت معهم وسألت:

«ماذا تفعلون هنا. .؟»

قالوا: «نلعب. . بأي شيء!!»

قلت: «أوشك المساء، والبلدة بعيدة. . ألا تذهبون. .؟»

قالوا: «نحن لا نذهب إلى البلد. . نحن ننام هنا!!»

قلت: «وكيف تنامون هنا وحدكم. .؟»

قالوا: «لا ننام وحدنا، سوف يأتي «عمنا» بعد قليل». .

قلت: «وهل أنتم إخوة. . ومن هو عمكم؟؟»

قالوا: «لسنا إخوة، وعمنا. .» وأخذوا يتمتمون. .

قلت: «وماذا تفعلون هنا. .؟»

قالوا: «نحن رهينة. .»

قلت صائحاً: «رهينة إيه؟؟»

وسردوا لي بعبارات الطفولة أنهم أبناء المشايخ من قبائل اليمن، وكل ما يعرفون من أمرهم أنهم في هذه القلعة «رهينة» وأنّ «عمهم» هو الجندي الذي يأتيهم ليلاً ليبيت معهم. .

وإذا كان هؤلاء الأطفال لا يعرفون ما «الرهينة» فقد قرأت عن «الرهائن» في المراجع العلمية التي تصفحتها عن اليمن، وحسبت أن الأمر قد انتهى إلى غير رجعة في سالف العصر والأوان، فإذا به لا يزال قائماً حتى العشية المظلمة، من ذلك اليوم المظلم. .

وعدت إلى قصر الضيافة، وبودي لو أستقل طائرتي وأخرج من اليمن فلا أرى الإمام ولا ضحايا الإمام. . وذكرت أولادي الستة ورفعت يدي إلى السماء وأنا أقول: «أحمدك اللهم على الأمن والعافية. . . أحمدك اللهم أن أولادي أحرار سالمون اللهم اجعل أولاد العرب جميعاً أحراراً سالمين. . »

وذهبت في اليوم التالي في موعدي لمقابلة الإمام، فدخلت عليه فلم يطق الوقوف وكان يتعسر في كلماته، ويتعثر في حركاته!!

واستطعت أن أفهم من حديثه أنه يريد أن يقدم شكوى إلى مجلس الأمن بشأن الإعتداءات البريطانية على جنوب اليمن، فقلت له إن الأمر يسير، وكل ما أريده أن يرسل إليّ ملفاً بالوقائع والأحداث والتواريخ. . . وأنا أتكفل بالباقي. .

وكان ولي العهد يدخل علينا من حين إلى حين. . والإمام ينصرف إلى حديث آخر، وكان ولدان صغيران يحومان حولنا بملابسهم الزاهية، وهما الولدان اللذان يسألهما الإمام في كل أموره: أفعل أو لا أفعل؟

وانتهى الأمام من حديثه ليقول لي: «لا حاجة لأن تخبر «البدر» بما جرى بيننا من الكلام»، قلت له: «سمعاً وطاعة. . »

وخرجت من حضرة الإمام إلى دار الضيافة، إلى المطار، إلى جدة، فرويت للملك سعود، ما جرى لي مع الإمام من الألف إلى الياء، فقال الملك سعود:

«يظهر أن الإمام مريض شفاه الله. . ولقد سمعنا عنه روايات كثيرة. . »

وسافرت إلى نيويورك، وعرضت في خطابي أمام الجمعية العامة لجميع القضايا العربية ومنها قضية اليمن. . . ولكني لم أعرض الشكوى أمام مجلس الأمن. . ذلك لأن الإمام لم يرسل إليّ الملف الذي طلبته. .

ولعله سأل الولدين: أفعل أو لا أفعل. .

ولعلهما قالا له: لا تفعل. . . فلم يفعل. .

ورأيت وأنا أكتب هذه المذكرات أنني على خطإ في الحساب: إن مصائب اليمن أربعة لا ثلاثة: الإنكليز والقات والرهائن والإمام. .

معركـــة مـــع الثلاثـــة الكبـــار
والملـــك سعـــود يرفـــض استقالتـــي

كانت الدورة الثانية عشرة للأمم المتحدة في خريف ١٩٥٧ دورة القومية العربية، ولم تكن مدرجة كبند على جدول أعمال هذه المنظمة العالمية، ولكنها كانت ميداناً للحرب الباردة على منبر الأمم المتحدة، تجاوزت في حدتها موضوع نزع السلاح، مشكلة المشاكل، منذ عهد عصبة الأمم إلى يومنا هذا . .

وكانت القومية العربية في تلك الفترة عالية الصيحة داوية الشعارات، وتعالت معها مبادئ الحياد الإيجابي السلمي، ومقاومة الأحلاف العسكرية . . فكان طبيعياً أن تتبوأ القومية العربية مكان الصدارة على منبر الجمعية العامة، وأن تتركز حولها خطب الوزراء الأربعة . . وكان الأربعة الكبار يمثلهم: دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة، وسلوين لويد وزير خارجية بريطانيا، وبينو وزير خارجية فرنسا، وغروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفياتي . .

وقد تهجم الوزراء الثلاثة، الأمريكي والبريطاني والإفرنسي على القومية العربية، ونسبوا إليها القلق الذي يعانيه الشرق الأوسط و . . و، وقد أخذت على عاتقي أن أرد عليهم وأن أتحمل العبء كله، كما لو كنت أمثل الأمة العربية كلها . . من غير اعتبار أن في الأمم المتحدة دولاً عربية أخرى ووفوداً عربية أخرى . .

وكنت صادقاً في هذا الشعور أمام نفسي.، وهذا يكفي . . . فقد فقدت وطني الصغير، وتعاظم تعلقي بالوطن الكبير، وقد تضعضت «قوميتي» الصغيرة، فتصاعد إيماني بالقومية الكبيرة . . ومن هنا أصبحت أحسّ أن القومية العربية قضيتي، وأنّ الدفاع عنها مسؤوليتي، ورحت أردّ للوزير الأمريكي الكيل كيلين، وللوزير البريطاني الصاع صاعين، وللوزير الإفرنسي الحجر حجرين . .

وقد أنساني هذا الشعور أنني لم أعد أمثل الجمهورية السورية، فقد «استعارتني»

المملكة العربية السعودية التي لا تسمح ظروفها وعلاقاتها بأن تتصدى على منبر الأمم المتحدة لمعاداة الغرب، وموالاة الشرق، وعلى مرأى ومسمع من الرأي العام الدولي. .

وجلست في مقاعد الوفد السعودي في الجمعية العامة، واستمعت إلى الوزراء الثلاثة وهم يصبون جام غضبهم على القومية العربية. . فعزمت أن أتصدى لهم واحداً واحداً، ووضعت «استقالتي» في جيبي، وليكن بعد ذلك ما يكون. .

وكان «دالاس» أول المتحدثين في ما سماه الأزمة في الشرق الأوسط، وأعرب عن مخاوفه على شعوبها، وقلقة على أمنها ورخائها، واسترسل في الحديث عن تسرب الاتجاهات الخطرة، وتغلغل العقائد الهدامة، في تلك المنطقة التي أعطت العالم الرسالات السماوية، حتى لقد بدا دالاس أنه أصبح قديساً لا ينقصه إلا أن يلبس الكهنوت، ومسوح الرهبان!!

وجاء بعده سلوين لويد فأشار إلى الأسلحة الروسية التي «تزودت بها بعض البلاد العربية. . لتصبح قواعد أمامية للاتحاد السوفياتي»، وخص سوريا بالذات بحملة مركزة كأنه يهيئ لحملة تأديبية على هذا القطر الشقيق موجهاً إليها اتهامات واتهامات. .

وكانت تركيا قد حشدت قواتها على سوريا، وحشد الاتحاد السوفياتي بدوره قواته على حدود تركيا، ووجد سلوين لويد مادة دسمة في هذه الأحداث، لينادي بالويل والثبور وعظائم الأمور. .

وكان الوزير الإفرنسي، بينو، ينتظر دوره بفارغ الصبر، فقد كانت الثورة الجزائرية على أشدها، ووجدها فرصته الذهبية للطعن بالقومية العربية والشيوعية، متهماً إياهما بمدّ الجزائر بالمال والسلاح. .

وهكذا أصبحت القومية العربية هي «بعبع» الدول الغربية في عام ١٩٥٧. . وهكذا جاؤوا بهذه القضية على منبر الأمم المتحدة. .

ولقد أفادوا القومية العربية من حيث لا يريدون، فقد كانت أجهزة الإعلام الغربية مشغولة في ذلك العام في إلقاء التهم جزافاً على الأمة العربية، وكانت الحركة الصهيونية تنفخ النار وتزيدها حطباً وضراماً. .

وكانت المناقشة تدور في الجمعية العامة، حيث تتكامل الوفود، وتتزاحم جماهير الزائرين وتتضاعف وسائل الإعلام. . والإعلام العربي. . النحيل الهزيل، في حاجة إلى مثل هذه المناسبة، ليقول عربي كلمة العرب في هذا الموضوع الخطير. .

وقد فشا الوهم في أذهان الكثيرين أن القومية العربية حركة عنصرية، لا تبعد كثيراً عن النازية، وأنّ الوطن العربي يوشك أن يصبح منطقة نفوذ الاتحاد السوفياتي. .

وجاء دوري في المناقشة العامة، وتطلّعت إليّ الوفود وأنا أغادر مقعدي في الوفد السعودي وكأنهم يتساءلون، ماذا عسى أن يقول «الوزير السعودي» الذي كان بالأمس القريب رئيساً للوفد السوري يتهجم على الغرب بمناسبة وبغير مناسبة. .

وبعد مقدمة وجيزة بادرت إلى الحديث عن القومية العربية وعناصرها ومقوماتها وأهدافها، وشرحت أنها «حركة بناءة خلاقة، ليست عدوانية ولا توسعية، تسعى إلى التعاون الدولي على أساس الإحترام المتبادل وتعمل للسلام على أساس الحق والعدل». . . وأسهبت في شرح هذه الجوانب الإيجابية، ونفيت أن تكون القومية العربية حركة خطرة، وأنّ الخطر كل الخطر هو في عدم فهمها أو في تشويه حقيقتها. .

ثم بدأت بدالاس، ففندت مزاعمه، ودعوته إلى احترام ميثاق الأمم المتحدة الذي يمنع التدخل في شؤون الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، مؤكداً أنّ «أمريكا ليست وصية على الأمة العربية، وأنّ سوريا ليست صبياً يتيماً مشرداً يحتاج إلى كفالة الولايات المتحدة، وأنّ من حقنا أن نتزود بالسلاح من أي مصدر كان دون أن يكون لأمريكا كلام في هذا الموضوع. .» وانتقلت بعد ذلك إلى موقف القومية العربية من الحرب الباردة بين الكتلتين المتصارعتين، الشرقية والغربية، فأعلنت أن موقفنا هو الحياد الإيجابي بين الفريقين من غير أن نكون كتلة ثالثة، وأنّ على المستر دالاس «أن يتذكر أن القومية العربية قديمة قدم الأمة العربية، وأنها سبقت العقائديات الغربية والشرقية بأجيال وأجيال. .»

وفي سخرية لاذعة دعوت المستر دالاس أن يعود إلى محاضر الأمم المتحدة، ١٩٤٧، حين أعلن الوفد الأمريكي، وهو يدافع عن التقسيم، أن الحدود بين إسرائيل والدول العربية، ستكون حدود صداقة وسلام، تماماً كالحدود التي تمتد ثلاثة آلاف كيلومتر بين كندا وأمريكا. .

وفي سخرية أشدّ مرارة وضراوة توجهت إلى المستر دالاس أسأله: «أين هي الحدود الآمنة بين إسرائيل والدول العربية، وها قد مضى عشر سنوات على قضية إسرائيل، والصحافة الأمريكية تسمى خط الهدنة بأنه «خط الرعب والنار، خط التقتيل والدمار. .»

ولقد كنت أنهال على المستر دالاس بهذه الحجج ووفود الدول الأعضاء يعجبون

لهذا الفلسطيني السوري السعودي كيف يضع المستر دالاس في القفص، ويضع معه الولايات المتحدة بكرامتها وسمعتها.. وما هو أعظم.. بجبروتها وسطوتها..

وازداد ذهول وفود الأمم المتحدة حين استعرضت تاريخ العلاقات الأمريكية العربية، وكيف كانت مشرقة زاهية بعد الحرب العالمية الأولى، وخاصة بعد أن أعلن الرئيس ويلسون مبادئه المعروفة، وتوكيده لحق الشعوب في تقرير مصيرها، وأخذت أسرد حدثاً لم يكونوا ليعرفوه، فكان مصدر استغرابهم واستهجانهم..

وكان طبيعياً في عام ١٩٥٧ أن تستغرب وفود الأمم المتحدة، وخاصة الوفود الأفرو آسيوية التي استقلت حديثاً، أن العرب قد طالبوا في عام ١٩١٩ بانتداب أمريكا إذا لم يكن الاستقلال ميسوراً، ورويت لهم كيف أن الاستفتاء الذي قامت به لجنة «كينغ كرين» في ذلك الوقت، قد أظهر أن الأكثرية الساحقة في البلاد «الشامية» قد اختارت الانتداب الأمريكي، كمطلب ثان بعد الاستقلال، وهكذا كانت السمعة الأمريكية قد بهرت وسحرت..

وانتقلت بعد ذلك إلى الوزير البريطاني سلوين لويد، فشرحت محالفة الشريف حسين لبريطانيا، وخروجه على دولة الخلافة الإسلامية، تركيا، سعياً وراء تأييد الحلفاء لحركة القومية العربية، وهي تناضل من أجل الحرية والاستقلال.. وما انتهى إليه الأمر من خيانة الإنكليز للشريف حسين وإبعاده إلى قبرص، والتنكر للعهود التي قطعها الحلفاء بالاعتراف بحق العرب في الحرية والسيادة والاستقلال..

ثم استعرضت تاريخ الثلاثين عاماً للسياسة البريطانية في فلسطين، ابتداء من وعد بلفور عام ١٩١٧ حتى نهاية الانتداب البريطاني في عام ١٩٤٨، وكيف مهدت بريطانيا لقيام الوطن القومي اليهودي ونشوء الدولة اليهودية، وما عقب ذلك من تشريد الشعب الفلسطيني عن أرض آبائه وأجداده...

ووجهت حديثي بعد ذلك إلى المستر سلوين لويد وقلت: «لقد أشرت في خطابك إلى أن الاتحاد السوفياتي يحرض الدول العربية على قطع صلاتها بالمعسكر الغربي، وما لا شك فيه أن الصلات بين الدول العربية والمعسكر الغربي آخذة بالانقطاع، هذه حقيقة واقعة.. ولكن المعسكر الغربي هو المسؤول عن القطيعة.. إن الاتحاد السوفياتي لا يد له في ذلك.. إن الدول الغربية نفسها هي التي توقع الضرر بالدول الغربية.. أمّا موضوع السلاح الذي يقدمه الاتحاد السوفياتي إلى بعض الدول العربية فهذا ليس من شأن بريطانيا أو أمريكا.. بل إنه ليس من شأن الأمم المتحدة.. إن السلاح مسألة داخلية تقع في صميم السيادة الوطنية لكل عضو من أعضاء الأمم المتحدة، والميثاق يحرم التدخل في شؤون السيادة للدول الأعضاء..»

انتقلت بعد ذلك إلى سرد الأسباب الحقيقية لأزمة الشرق الأوسط، وأعلنت للجمعية العامة أن التوتر في الشرق الأوسط حقيقة قائمة لا سبيل لإنكارها، وأن السياسة الغربية هي المسؤولة عن كل ما يعانيه الشرق الأوسط من متاعب وقلق. . وذكرت بالتخصيص أن سياسة أمريكا بالنسبة إلى فلسطين هي التي كانت السبب المباشر في نقل الحرب الباردة إلى ميدان الشرق الأوسط، وقلت: «إن المستر سلوين لويد يعلم جيداً أن بريطانيا هي التي خلقت ما يسمى بأزمة الشرق الأوسط، تلك الأزمة التي بدأت في فلسطين بنزاع محلي بين الأقلية اليهودية والأكثرية العربية، ثم صعدته فأصبح نزاعاً إقليمياً بين إسرائيل والدول العربية، وهو الآن يبلغ ذروته فيغدو مشكلة عالمية. . وتأتي بريطانيا إلى الأمم المتحدة لتخلع المسؤولية عن أكتافها وتلقيها على القومية العربية. . »

ولكن الصفعة الكبرى على وجه المستر لويد كانت من صميم منطقه، فقد تناول في خطابه موقف الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤٧ بالنسبة إلى قضية فلسطين في أنه وافق على التقسيم ثم «راح بعد ذلك في سياسة انتهازية يستغل المشكلة لإفشاء القلق في الشرق الأوسط. . »، فكانت فرحتي الكبرى لأغرز أنيابي ومخالبي وأظافري في الوزير البريطاني وفي السياسة البريطانية، وقلت موجها خطابي إلى المستر لويد:

«أنت تقول يا سعادة الوزير إن روسيا قد حققت انتصارات في تغلغلها في الشرق الأوسط. . والواقع أن هذا الكلام يذكرنا بما قاله أحد الرومان حين انتصر على خصمه: «إن انتصاراتي لم تكن بسبب عبقريتي ولكنها كانت بسبب غبائك وجهلك. . «وإن المستر لويد يعرف من هم الأغبياء الجهلاء. . »

واستأنفت حديثي بعد ذلك مشيراً إلى أن السنين العشر الماضية «قد أثبتت أن توافق روسيا من جانب وأمريكا من جانب آخر على تصويت واحد بتأييد التقسيم، قد أظهر ذكاء الروس. . وغباء الأمريكان وحلفاء الأمريكان. . ».

وتوجهت الأبصار إلى سلوين لويد تتفرس في وجهه، وقد وقع في حبائل منطقه ونحن نعجب أين ذهب الدهاء البريطاني، وكيف خانه التوفيق، فراح ينبش الماضي الأسود الذي اقترفته بريطانيا على القومية العربية!!

وواصلت حديثي إلى المستر سلوين لويد، وأنا أجهز عليه بأسلحته التي سددها إلى الأمة العربية، ودعوت الوزير البريطاني أن يقبل نصيحتي فلا يتحدث بعد اليوم عن «الانتهازية الروسية» فإن «الانتهازية» كانت ولا تزال أبجدية السياسة البريطانية، وإنّ الذي فتح الباب واسعاً لما يسمى «بالانتهازية الروسية» هما أمريكا وبريطانيا مجتمعتين، وعليهما تقع التبعة معاً. . وعليهما معاً أن يتحملا بلاء جهلهما، ونتائج

حماقتهما، . . . والقومية العربية براء. . . . ولم أكد أفرغ من «مداعبة» الوزيرين الخطيرين الأمريكي والبريطاني، حتى اشرأبت الأعناق إلى الوزير الثالث، السياسي الإفرنسي المسيو بينو، وكأنما الوفود تتساءل ماذا عسى أن يكون مصير الوزير الإفرنسي، وحكومته غارقة في الحرب «القذرة» على أرض الجزائر الطهور، وكان كلام «بينو» يدور حول «شيوعية» الثورة الجزائرية، ومساعدة الجامعة العربية للثورة الجزائرية. .

وتهمة الشيوعية كانت تهمة شائعة، توجه إلى كل حرب تحريرية في آسيا وأفريقيا، وكانت الدول الاستعمارية، بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وغيرها، تلجأ إلى إشاعة هذه التهمة وإسنادها إلى الشعوب المناضلة في سبيل حريتها واستقلالها، لكسب دول المعسكر الغربي عسكرياً ومادياً، وخاصة الولايات المتحدة التي تندفع في أسرع من الصوت إلى تقديم العون المالي والعسكري لأية دولة غربية تكتشف خلية شيوعية. . . ، حتى إن النكتة «الدولية» قد شاعت في أروقة الأمم المتحدة، أن أية دولة غربية تطمع في معاونة أمريكية ليس لها إلا سبيل واحد: أن تقول ولو كذباً أنها تواجه تسللاً شيوعيا!!

ومن هذا المنطلق جاء الوزير الإفرنسي «بينو» إلى الأمم المتحدة يستثير «ديمقراطية» الدول الغربية «ونصرانية» أمريكا اللاتينية، ليدعي على الثورة الجزائرية أنها ثورة شيوعية، وأنه إذا انسحبت فرنسا من الجزائر، فيا للويل والثبور وعظائم الأمور، فستقع الجزائر والشمال الأفريقي وأفريقيا كلها فريسة الشيوعية العالمية، ويخسر المعسكر الغربي إحدى قارات العالم الاستراتيجية. . . وفي ثنايا تهمة الشيوعية كانت التصريحات الإفرنسية الرسمية ومعها الصحافة الاستعمارية تتحدث عن «الجزائريين المسلمين» و«الثوار المسلمين» و«المتمردين المسلمين» لتثير الحماسة الدينية في نفوس المتزمتين المتعصبين. . الحاقدين على الإسلام، أينما وجدوا. .

ولم أجادل الوزير الإفرنسي طويلاً في هذه «التهمة» الشيوعية والإسلامية، فلقد كانت سخيفة وتافهة، واكتفيت بالقول: «إن المسيو بينو يقوم بدعاية للشيوعية من حيث لا يدري، ومن حيث لا يريد، إنه ينسب للشيوعية شرفاً هي لا تدعيه، إنه يتهم الشيوعية بأنها تحرّض الثورة الجزائرية. . ومعنى هذا أن الشيوعية شيء عظيم يجب أن تعتنقها جميع الشعوب المتطلعة إلى التحرير. . . ، وأنّ من حق الشيوعية أن تعتبر نفسها رائدة الحرية تحت الشمس، ومن واجب الشعوب المستضعفة أن ترفع القبعات تحية للشيوعية و. . . و»

واسترسلت على هذا النحو الساخر، أمجّد بالشيوعية وأندّد بالاستعمار إلى أن

انتقلت إلى التهمة الثانية بشأن الجامعة العربية ومعاونتها للثورة الجزائرية . .

وفي أسلوب جادّ غضوب خليق بثورة الجزائر، لا بالجامعة العربية، صارحت الجمعية العامة أن الثورة، ثورة أي شعب على أي مستعمر، هي حق أساسي من حقوق الإنسان، مارسها منذ أن كان فريسة الاضطهاد وضحية الاستعباد، وأن معاونة الثورة والثوار هي عمل مشروع وواجب حضاري مقدس، وأن «الثورة» هي التي جاءت بهذا العدد الكبير من أعضاء الأمم المتحدة . . دخلوا المنظمة العالمية وجباههم معفرة بغبار معارك التحرير . . وأنه لولا «الثورة» لكانت الأمم المتحدة منظمة «الإمبراطوريات العظمى . . »

ومضيت أستعرض تاريخ الحركات التحريرية في الأمريكيتين وآسيا وأفريقيا، ووقفت عند حرب التحرير الأمريكية، وأنا أسدد إلى وزير الخارجية الفرنسية آخر سهم في جعبتي، وقلت له: «إن وزير الخارجية يعرف بلا شك كيف هبت رياح النجدة الإفرنسية على شواطئ أمريكا الشمالية في القرن الثامن عشر أثناء حرب التحرير، وجعلت من أولئك «العصاة الثوار» جمهورية الولايات المتحدة، لتكون من أكبر مؤسسي الأمم المتحدة . . وإن وزير الخارجية الإفرنسية يعرف تاريخ بلاده من غير شك، ويعرف دور البطل الإفرنسي «لافييت» الذي انضم إلى الثوار الأمريكيين، وراحت مذكراته تقول للعالم: «حينما وصلتني الأخبار الأولى عن الثورة الأمريكية فقد التحم فؤادي بها وانضممت إليها . . »

واستأنفت حديثي إلى بينو أذكره بتاريخ «لافييت» وهو من أعظم أبطال فرنسا، كيف أن مجلس الأمة الأمريكي أصدر قراراً في ٣١ تموز/ يوليو سنة ١٧٧٧ يعلن فيه «قبول خدمات لافييت، واعتباره قائداً في الجيش الأمريكي نظراً لشجاعته . . »

ودهش أعضاء الوفود في الأمم المتحدة، وأنا أسير معهم في موكب التاريخ، في أروع صفحاته، وغدت الجمعية العامة كأنها قاعة من قاعات الشعب في آسيا وأفريقيا تهتف للحرية والاستقلال . .

ولكن مشاعر الوفود قد تعلقت بحدث أعظم، فقد قفزت إلى تاريخ الحرب العالمية الأولى، يوم بادرت أمريكا إلى رد الجميل القديم فأرسلت الجيش الأمريكي إلى فرنسا بقيادة الجنرال برشنج ليعمل على تحرير فرنسا، فلم يكد يضع قدمه على الشواطئ الإفرنسية حتى أرسل صيحته العسكرية، بالنخوة والأريحية، وهو يردد بأعلى صوته «لافاييت . . نحن هنا . . . »

وتحدثت عن العلاقات العربية الأوروبية منذ عهد شارلمان وهارون الرشيد، حين كانت في أزهى أيامها، وما انتابها من صداقات وعداوات عبر السنين، وأعلنت

أن الأمة العربية هي صاحبة التقاليد السمحة، وربما كان ذلك نقطة ضعف في العلاقات الدولية، وأنّ الكراهية ليست من طبائعها، وأنّ العداء عندنا هو رد فعل، لا فعل أصيل بذاته. . . وأنّ الأمة العربية راغبة في أن تقوم بينها وبين الدول الغربية علاقات الود والصداقة، ولكن. . ولكن على أساس الاحترام المتبادل والمصالح المتقابلة. . وأن نقطة البداية في هذا العهد الجديد هي القضية الفلسطينية، وعلى أساس الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في وطنه وفي تقرير مصيره. .

وأوضحت بعد ذلك أن قضية فلسطين هي المحور الدائم للعلاقات العربية الدولية، وأن عدونا هو من يعاديها وأن صديقنا من يصادقها وأشرت في هذا المقام إلى ما تكنّه الأمة العربية من التقدير للاتحاد السوفياتي لأنه لا يسمح بالهجرة إلى فلسطين، ويحرم الصهيونية، ويعتبرها حركة غير مشروعة، ويحظر نشاطها وجمع الأموال لها. .

ولقد كنت أمتدح الاتحاد السوفياتي، وعيون الوفود جاحظة في هذا «السعودي» يكيل الثناء بلا حساب للروس» الملحدين» من دون أن يخشى الحساب.

وكان لا بد من اتخاذ هذا الموقف، فقد كانت وفود الدول الغربية تركز حملتها على «الاتحاد السوفياتي» لأنه جعل من الشرق الأوسط قاعدة عسكرية» على حد تعبير بعضهم، و«لأنه زود مصر وسوريا بالسلاح» على حد تعبير البعض الآخر. .

وقد دافعت عن سوريا بوجه خاص، لأن التوتر كان يسود حدودها مع تركيا في ذلك الوقت كجزء من الحرب الباردة، وأعلنت أن أي عدوان على سوريا أو تدخل في شؤونها الداخلية يعتبر عدوانا على الأمة العربية بأسرها. . حتى إن الصحف الأمريكية علقت في اليوم التالي على هذا الجزء من الخطاب بقولها إن «الشقيري قد نسي أنه رئيس الوفد السعودي وتولى الدفاع عن سوريا، كما لو كان لا يزال رئيساً للوفد السوري. . »

وجاءني السيد صلاح الدين البيطار وزير الخارجية السورية يشكرني وهو يقول: «لم يعد لي كلام بعد هذا الذي قلته عن سوريا. . » وفيما أنا أرد له تحيته وشكره، وإذا برئيس وفد بيرو السيد بلوندي يمطرني بالأسئلة: «قل لي كيف كنت سورياً وأصبحت سعودياً. . . ؟ كيف كنت تمثل سوريا في الدورة الماضية وتمثل السعودية في الدورة الحاضرة؟ كيف تدافع عن سوريا، وهي التي رفضت وساطة الملك سعود لتخفف حدة التوتر بين سوريا وتركيا؟؟

وأجبت رئيس وفد بيرو قائلاً: «القومية العربية هي التي جعلتني رئيساً للوفد السعودي بعد أن كنت رئيساً للوفد السوري. . صحيح أن هنالك عدة دول عربية،

ولكننا امة واحدة، وما أسماء الحكومات العربية إلا أسماء أقطار، معظمها له معان في القواميس العربية، وليست أسماء شعوب. . وإن سرعة انتقالي من الجنسية السورية إلى الجنسية السعودية، وبهذه السهولة، هو دليل صغير على المعنى الكبير: القومية العربية».

وقلت للسيد البيطار وهو من قادة حزب البعث: «أظن أنني شرحت شعاركم».

فقال السيد البيطار: «هذا الشرح خير من الأصل. . »

وكان على كتف «القومية العربية» التي جرها «الفرسان الثلاثة» أمريكا وبريطانيا وفرنسا، إلى منبر الأمم المتحدة، قضية أخرى، كانت جمرة ملتهبة، من بقايا العدوان الثلاثي على مصر في عام ١٩٥٦، أعني بها قضية خليج العقبة. .

وقضية العقبة هذه، هي التي جاءت بي وزيراً سعودياً للأمم المتحدة، وللمملكة العربية السعودية مشاعر ومصالح في خليج العقبة والبحر الأحمر. . وقد استطاعت إسرائيل بعد العدوان الثلاثي أن تصبح دولة بحرية في خليج العقبة والبحر الأحمر، وإن كانت قناة السويس بقيت مقفلة في وجهها. . ونرجو أن تبقى ما بقيت قضية فلسطين وما بقيت إسرائيل. . .

ولقد أحست العربية السعودية، ملكاً وحكومةً وشعباً، بالمهانة والذل أن «فتحت» إسرائيل خليج العقبة وأصبحت قاب قوسين وأدنى من مكة والمدينة، حيث أحلام اليهود القديمة وأطماعهم الجديدة. .

وكنت قد لقيت الملك سعود غير مرة حين كنت سفير سوريا المتجول، فخطر له أن يستعين بي ولو لفترة قصيرة لمعالجة قضية العقبة، فطلب إلى الرئيس القوتلي «إعارتي»، ووافقت الحكومة السورية بعد جلسة طويلة، ووافقت بعد تأمل طويل. . وامتدت تلك الفترة القصيرة إلى سبع سنوات كنت فيها، بفخر ولا فخر، شوكة في حلق الاستعمار. .

وبصدد خليج العقبة كان المستر همرشلد في تلك الدورة قد اقترح في تقريره العام أن تطلب الجمعية العامة من محكمة العدل الدولية أن تدرس قضية خليج العقبة وتصدر «الفتوى» في ما إذا كان لإسرائيل حق «المرور البريء» في مياهه.

وعلى أساس اقتراح المستر همرشلد مضيت أفند اقتراح المستر همرشلد. . فشرحت الوضع القانوني لخليج العقبة، وأنه خليج عربي مقفل ليس لإسرائيل فيه حق الملاحه ولا حق المرور البريء. . واستشهدت بالشواهد القانونية للخلجان الإقليمية في دول متعددة، وفصّلت الرأي الذي ناديت به دائماً وجعلت له دراسة قانونية

شاملة مفصّلة في أن خليج العقبة هو خليج تاريخي باعتباره طريقاً للحج الإسلامي منذ القدم وقارنته، بأمثاله من الخلجان التاريخية وخاصة في دول أمريكا اللاتينية.

أمّا بشأن طلب الفتوى القانونية فقد نبهت الأمم المتحدة إلى أن الوفود العربية كانت قد اقترحت استفتاء محكمة العدل الدولية في عام ١٩٤٧ لإعطاء رأيها في ما إذا كانت الأمم المتحدة تملك تقسيم الوطن، وعلى غير إرادة أصحابه الشرعيين، فرفض الاقتراح، وأضفت إلى ذلك أن الوفود العربية كانت قد اقترحت في عام ١٩٥٢، استفتاء محكمة العدل الدولية بشأن أملاك العرب في إسرائيل، فلم يجد هذا الاقتراح أذناً صاغية. .

وقلت للجمعية العامة «إنه عجيب أن تسد أبواب العدل حين تكون الفتوى مطلوبة للعرب، وأن يفتح الباب حين تكون الفتوى مطلوبة لإسرائيل. . أمّا بشأن المرور البريء لإسرائيل، فإنه كذلك عجيب عجيب أن تشغل الأمم المتحدة نفسها بمرور البضائع الإسرائيلية على حين يمنع اللاجئون من المرور والعبور إلى أراضيهم ومنازلهم ومزارعهم. . كانما أصبحت الأمم المتحدة «وكالة شحن» لنقل البضائع الإسرائيلية. .

ورأيت المستر همرشلد قد احمر وجهه وهو على منصة الرئاسة، وأنا التفت إلى الوراء من المنبر لأوجه إليه كلامي. . . وسكت المستر همرشلد، ولم يعقب. . وسكت عن الاقتراح، وبقي خليج العقبة في مكانه ليقرر مصيره في الميدان. .

وانتهت الدورة في ذلك العام (١٩٥٧) وكانت أول دورة حضرتها كرئيس للوفد السعودي، ولم يمض على تعييني لهذا المنصب إلا بضعة اسابيع، وتذكرت المثل العامي الشائع «من أول غزواته كسر عصاته».

حقاً لقد كانت الدورة مجموعة من الغزوات كأنني معها على ميعاد، وكادت «عصاتي» أن تنكسر. . فقد هاجمت الوزراء الثلاثة الكبار بشدة، وهاجمت زملاءهم الصغار برفق. . وهاجمت وزير خارجية هولندا في قضية إيريان الغربية تأييداً لإندونيسيا. . وهاجمت فرنسا هجوماً مريراً في قضية الجزائر. . وهاجمت المعسكر الغربي «بالجملة» في موضوع التعايش السلمي. . وأضفت إلى هذا كله أنني ألقيت بصوت المملكة العربية السعودية إلى جانب الاتحاد السوفياتي في عدد من القضايا الدولية. .

وهاج المعسكر الغربي وماج. . وتقاطر سفراء الدول الغربية إلى قصر الملك سعود يشكون هذا «الشقيري» الذي يهدد سلامة العلاقات مع المملكة. .

وأمر الملك سعود، فترجمت خطبي إلى اللغة العربية وقرأ ما فيها من قسوة، وقرأ كذلك ما في خطب الثلاثة الكبار من قسوة. . فجاءتني البرقية الرمزية مذيلة باسمه، إشارة إلى اهتمامه، بأنني «تهجمت» على الدول الغربية. . وأنه يجب التقيد بالتعليمات وعدم التعرض لأية دولة صديقة. .

وأبرقت إلى المللك سعود راجياً إعفائي وقبول استقالتي. . ولم يمض يوم أو اثنان حتى أبرق إلّي بأنني كنت على حق في موقفي، ولكن لهجتي كانت قاسية وأنه يرفض استقالتي. .

والواقع أن «استقالتي» قد وقعت موقعاً غريباً في أوساط القصر الملكي. . فلم يعرف عن أحد، وخاصة من العرب الوافدين، أن استقال من خدمة المملكة العربية، حيث المرتبات الكبيرة والمكافآت السخية. . والفرص الأخرى للثراء. .

ولعل الملك سعود أدرك أنني لست من تلك الحاشية، ولم أكن اتقاضى غير راتبي. . وأدرك كذلك أن الثلاثة الكبار قد تجاوزوا المدى إلى أبعد مدى. .

وأخيراً، لعل الملك سعود قد سره أن يصبح للمملكة العربية السعودية، وهي صاحبة الثروة الإسلامية والبترولية، صوت. . وصوت داوٍ في الأمم المتحدة. . بعد أن لم يكن لها في المحافل الدولية كلمة تقال أوهمسة تسمعٍ. . . وكان كل ما تصنعه في الأمم المتحدة إلى ذلك العهد أن تقول عند التصويت: لا، نعم، استنكاف. .

ولقد ظلت القومية العربية بعد تلك المعركة الضارية في عام ١٩٥٧، مرفوعة الاعلام، تشق طريقها في الوطن العربي وفي المحافل الدولية، حتى أصبحت للمواطن العربي طعامه وشرابه، وللسياسي الغربي زقّومه وسمومه، حتى. . .

جاءت حرب حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧، فنكست أعلام القومية العربية، ولم يعد يردد اسمها على المنابر. . . ولا تهتف بها الحناجر. .

تلك أعراض النكبات والهزائم في كل الشعوب والأمم. .

ولكن الأمة العربية الماجدة، باقية خالدة، ولا بد أن تستأنف القومية العربية سيرتها، وتظل باقية خالدة. .

وهذا هو الشعب الفلسطيني البطل، يخوض غمرات التضحية والفداء، ليرفع الراية من جديد، وتستعيد القومية العربية سيرتها، وتستأنف مسيرتها. .

أيزنهاور: «الشقيري لا يمثل العربية السعودية»

كان آب/ أغسطس من عام ١٩٥٨ شهراً شديد الحرارة في أروقة الأمم المتحدة، فقد بلغت الحرب الباردة في المنظمة العالمية ذروتها، ولم تستطع أجهزة (التبريد) الضخمة التي تملأ قاعاتها وردهاتها أن تخفف من حدتها أو تلطف من حرارتها . . وكان «الشرق الأوسط» مرة ثانية مصدر هذه الحرارة اللاهبة . . ومرة ثانية انعقدت الجمعية العامة في دورة طارئة لتناقش الحالة الطارئة . . وكان الرئيس أيزنهاور فارس هذه الدورة، جاء ومعه عاصفة من الآراء والمقترحات، واستقرت العاصفة في فنجان . .

وخلاصة الموقف، ولا يزال حياً في الأذهان، أن الوطن العربي كان قد تفجر في عام ١٩٥٨ عن أحداث جسام.

ففي هذا العام قامت الوحدة بين مصر وسوريا وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة، ورأت فيها الأمة العربية فجراً لأحلامها القديمة في الوحدة الكبرى، باسطة ذراعيها على الوطن العربي الكبير من المحيط إلى الخليج . .

وفي هذا العام ذاته أنشئ مجلس الدولة العربية المتحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة اليمنية، وكانت خطوة أخرى على الطريق . .

وفي هذا العام سقطت الملكية في العراق، وحل محلها نظام جمهوري معلناً تحرره من التبعية والاحلاف . .

وفي هذا العام، نشبت أحداث خطيرة في لبنان والأردن، وكانت فرصة حفزت الولايات المتحدة إلى «إنزال» قواتها العسكرية على الشواطئ اللبنانية، وتدافقت فرق المظليين البريطانيين إلى الأردن . .

وفي هذا العام اشتد ساعد القومية العربية وازداد السلاح الروسي انطلاقاً إلى القاهرة ودمشق . . وأخيراً إلى بغداد . .

وبدا للمعسكر الغربي أنه يخسر مواقعه، وسيخسر مصالحه، وهذا الاتحاد

السوفياتي على الجناح الشمالي للوطن العربي، يقف على عتباته قريباً من أبوابه . .

ولمواجهة هذا الخطر كله، انعقدت الجمعية العامة في دورة طارئة، وعزم الرئيس أيزنهاور أن يخطب فيها، وقواته المسلحة على الأرض العربية في لبنان تقول للأمة العربية: «نحن هنا» . . والقوات البريطانية في عمّان تقول: إنا ههنا صامدون . .

وتعددت المقترحات الدولية وتنوعت، فهذا الاقتراح يدعو إلى حياد الشرق الأوسط، وذاك اقتراح يناشد سَحب القوات الأجنبية من لبنان والأردن . . وذلك اقتراح يدعو إلى إشراف دولي على مصادر الزيت، ومع هذه الاقتراحات مشروعات متعددة للتنمية الاقتصادية في الشرق الاوسط . . وتخصيص مبالغ ضخمة تنفق على اللاجئين كحل لقضية فلسطين . . وبدا الشرق الأوسط وكأنه جثة التقطت من الطريق العام، ووضعت بين أيدي الجراحين على مشرحة الأمم المتحدة . .

وسارعت وفود الدول الأعضاء من جميع أرجاء الارض، والطائرات تهبط في مطار نيويورك، فيتسابقون إلى مقر الأمم المتحدة على ضفاف النهر، ليعرفوا ماذا يريد الرئيس أيزنهاور من هذه الدورة الطارئة . .

وعقدت الجمعية العامة في الموعد المقترح، ولكن لم يكن قد مضى على موعدها السنوي المعتاد في شهر أيلول/ سبتمبر من كل عام إلا بضعة ايام . . ولكن الولايات المتحدة أرادتها دورة طارئة وقالت: كوني فكانت . .

وبدأت الجلسة الأولى، فازدحمت القاعة ولم يبق مكان لقاعد ولا لواقف، وأطل الحرس من الزنوج، رؤوسهم في الداخل وأجسادهم في الخارج، وتلألأت أنوار المصوّرين، ودخل الرئيس أيزنهاور ووقف على المنصة، وأنصت العالم إلى القائد الذي انتصر في أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية وهم يتساءلون: «هل ينتصر الرئيس أيزنهاور في ميدان الأمم المتحدة؟»

وكان خطاب الرئيس أيزنهاور طويلاً جداً وقصيراً جداً . . طويلاً لأنه تكلم كثيراً . . وقصيراً لأنه كان مركّزاً على الشرق الأوسط . . وكأنما العالم ليس فيه إلا مشكلة الشرق الاوسط . .

وأصابنا نحن الوفود العربية شيء من الاعتزاز، إننا أصبحنا قضية كبرى وفي دورة طارئة . . وإن الرئيس أيزنهاور حمل نفسه بذاته من البيت الأبيض ليواجه القومية العربية . .

لقد تحدث الرئيس أيزنهاور بعبارات دسمة حلوة عن الأمة العربية في ماضيها،

مثنياً على حضارتها ودورها في التقدم الإنساني، ولكنه جاء اليوم ليواجه القومية العربية في حاضرها، وما تتطلع إليه في مستقبلها. . وتحدث عن الخلافات العربية، والتسلل الشيوعي إلى الشرق الاوسط، وحرب الإذاعات الناشبة بين العواصم العربية!!

وكان الخطاب في مجموعه إنذاراً وتحذيراً في غلاف من العبارات الناعمة، وفيه إشارات غير ناعمة للاتحاد السوفياتي، كأنما الذي يتحدث أمامنا هو «الجنرال أيزنهاور».

وبعد الرئيس أيزنهاور مباشرة، تحدث المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية فأعرب عن مخاوف العالم الحر مما انتهت إليه الأمور من «خلافات بين الدول العربية تحركها الأصابع الروسية»، وأيّد ما أعلنه الرئيس أيزنهاور من أن هذه الخلافات، وما رافقها من حملات إعلامية تعتبر عدواناً غير مباشر يتطلب التدخل من الأمم المتحدة لمنع تدهور الموقف، وتطوره إلى اصطدام مسلح. .

وتحدث المستر همرشلد، بعباراته الرشيقة المعروفة، عن القومية العربية فأثنى على أهدافها. . ولكن اقتراحاته، بين السطور، كانت تحتمل تأويلات وتفسيرات. . يحسبها كل فريق أنها لصالحه، وقد تكون لا لهذا ولا لذاك، ولكن لفريق ثالث يتربص الغنائم. . وكانت هذه المقترحات في مجموعها تدور في فلك السياسة الغربية. .

ووجه المقارنة بين همرشلد ويوثانت أن الأول محايد قريب من الغرب، والثاني محايد قريب من الشرق. .

وأعلن الرئيس انتهاء الجلسة، وانصرف الوفود ليفكروا وليتداولوا في ما سيخطبون وما سيقترحون. . وانصرفت أفكر في ما أخطب وما أقترح. .

وقضيت ليلتي مع الرئيس أيزنهاور في خطابه، أُقلّب صفحاته، وأمعن النظر في عباراته وكلماته، وبدأت أعدّ خطابي أقرع الحجة بالحجة. . ولم يكن الموقف سهلا، فإن «الرجل» الذي سأرد عليه ليس سفيراً ولا وزيراً، ولكنه رئيس أعظم دولة في الارض، وله سمعة مشرّفة عند الأصدقاء والأعداء على السواء. .

وفوق هذا، فقد كان الموقف خطيراً بذاته، ومن اليسير أن تندلع شرارة الحرب، وقد أصبحت القوات الأمريكية في البحر الأبيض قريبة من القوات السوفياتية في البحر الأسود، والويل للعالم إذا التحم الأبيض والأسود. .

وإلى جانب هذا وذاك فقد كانت بين الملك سعود والرئيس أيزنهاور مودة شخصية، وتوطدت أواصرها أثناء لقائهما قبل ذلك ببرهة وجيزة في واشنطن. .

فكرت في هذه الاعتبارات كلها . . ولكني «قررت» في نفسي أن القومية العربية أعظم من ذلك كله . . وأن فلسطين أجلّ وأكبر . .

وجاء اليوم الخامس عشر من شهر آب/ أغسطس من عام ١٩٥٨ فغادرت مكتبي إلى مقر الأمم المتحدة أحمل خطابي، وأحمل معه آلام الأمة العربية على يد الاستعمار منذ أجيال . .

وضرب الرئيس المطرقة وانعقدت الجلسة، وغادرت مقعد الوفد السعودي إلى المنبر، وقد شدّت إليّ الوجوه والأبصار والأسماع، بين غاضب وخائف . .

الولايات المتحدة وحلفاؤها وأتباعها . . والمرتزقون والمنتفعون، غاضبون أن يستطيع واحد من «العرب» الرد على الرئيس أيزنهاور . .

أمّا الخائفون فكانوا إخواني في الوفود العربية ومعهم الوفود الصديقة، فإن الموقف جدّ، ليس فيه هزل، والبحارة الأمريكان قد عسكروا في لبنان، وفوهات مدافعهم موجهة إلى المشرق العربي . . والمظليون البريطانيون يعسكرون في الأردن، ينتظرون إشارة التحرك حيثما كان . . وأنّى كان . .

ولم يكن يخفى عليّ غضب الغاضبين ولا إشفاق الخائفين، ووقفت على المنبر رابط الجأش، وقد استولى عليّ إحساس عميق بأن القضية العربية أعظم، وأن قضية فلسطين أكبر . . وألقيت خطابي فكان خطاب الإنسان العربي أودعت فيه كل آماله وآلامه، شجاعاً من غير عنف، مهذباً من غير ضعف، يضع القضية العربية عند حدودها، ويضع الرئيس أيزنهاور عند حدوده . .

وعقد الرئيس أيزنهاور مؤتمراً صحافياً بعد أيام أعرب خلاله عن ارتياحه للعلاقات الودية بين المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة . . وهنا سأل أحد المراسلين: «كيف توفق بين ذلك وخطاب المستر شقيري؟»

فأجاب الرئيس أيزنهاور: «هذا العربي لا يمثل المملكة العربية السعودية . . »

وازداد الموقف حرجاً أن «العربي» الذي لا يمثل المملكة العربية السعودية قد استمر يمثل المملكة العربية السعودية في تلك الدورة الطارئة، وفي الدورة العادية التي جاءت في أعقابها، وفي أربع دورات بعدها . .

وهنا بعض ما جاء في خطابي أثبته مترجماً إلى اللغة العربية:

«في خلال عامين تجتمع الأمم المتحدة في دورتين طارئتين لمعالجة أزمة الشرق الأوسط، وانه ليحزننا أن يضرب الشرق الأوسط هذا الرقم القياسي وفي فترة

وجيزة، ولسنا ندري إذا كانت الدورة الطارئة الحاضرة ستفضي إلى العدل والحق في الشرق الأوسط أم إنها ستقود إلى دورة طارئة أخرى . .

«ولست أريد أن أعود إلى الماضي وأكشف عن الأحداث الدامية التي أدت إلى الدورة الطارئة الأولى التي عرفت في تاريخ الأمم المتحدة بدورة قناة السويس، فإن جميع الوقائع مدونة في محاضر الأمم المتحدة. . ولكن أمراً واحداً يجدر بنا أن نؤكده، أن الشرق الأوسط لم يكن سبباً في أزمة الشرق الأوسط. . لقد شنت حرب عدوانية على الأمة العربية ووقع الاختيار على مصر لتكون ميداناً لها. . وكلكم تعرفون نهاية تلك الحرب. . لقد كسرت شوكة العدوان وانسحب المعتدون، وخرجت مصر من الأزمة غير مسؤولة عن العدوان ولا عن الدورة الطارئة. . وهكذا طويت صفحة تلك الدورة. . وفي هذه الدورة الطارئة الحاضرة يعيد التاريخ نفسه، وعلى الأصح، دفع التاريخ ليعيد نفسه، وإذا بنا نستمع إلى الخطب من منبر الأمم المتحدة تردد مرة ثانية أن الأمة العربية والقومية العربية هما السبب المباشر للأزمة، وبالتالي، لانعقاد هذه الدورة الطارئة. .

«وإن الهدف واحد في الدورتين، وإن كانت «المبررات» في هذه المرة تختلف عما كانت عليه في الدورة السابقة. . ففي الماضي كانت الصورة عدواناً ثلاثياً أجنبياً على مصر. . أمّا في هذه الدورة فقد تحدث الخطباء عن أزمة داخل الشرق الأوسط، حرباً من الدول العربية على الدول العربية، وقد تبع هذه الأحاديث رتل طويل من المقترحات: لإعلان حياد الشرق الاوسط، لحماية الدول العربية من الدول العربية، لصيانة السيادة الإقليمية والاستقلال السياسي للبلاد العربية، وأخيراً لإنقاذ العرب من العدوان المباشر وغير المباشر. .

«لا أيها السادة. . هذا كله ظلم فاضح، مقرون بالبغي والأذى. . . بل إنه بهتان غارق في البهتان. . وإن علينا أن ندحض هذا الباطل الآن وإلى الأبد. .

«إن الحالة القلقة التي تسود منطقة الشرق الأوسط يجب أن تبحث في إطارها الصحيح، وعلى هدى من الدراسة العميقة الاصلية، وإذا كانت هذه الدورة الطارئة قد وصلت إلى فهم أمين للأمة العربية وللقومية العربية تكون بذلك قد أدتّ خدمة عظمى لقضية السلام، لا بالنسبة إلى الشرق الأوسط فحسب، بل للعالم أجمع. .

«وبهذا يتوجب علينا أن نواجه الحقائق بكل الصراحة التي نملكها، وإن توكيدي للصراحة، لأن الوقت لا يأذن لنا بأن نزين ألفاظنا أو ننادي بالعبارات المعسولة، ويكفي أننا مجتمعون الآن في دورة استثنائية طارئة. .

«ليس سراً، أيها السادة، أن القومية العربية كانت خلال السنوات الأخيرة محل

اهتمام الأمم المتحدة، سواء كان ذلك همساً أو علانية، بصورة رسمية أو غير رسمية. . وقد صورت القومية العربية بادئ ذي بدء شيطاناً شريراً، وان كانت المحاولات تبذل الآن لإلباس الشيطان ملابس الملائكة، . . .

«ولكن الذين يريدون أن يتجنبوا الأحلام المزعجة عليهم أن يروا الملاك في الملاك، والشيطان في الشيطان، ولعله من أجل هذا السبب، فإن، المستر همرشلد قد تناول هذا الجانب بحصافة ونباهة، في خطابه الذي ألقاه في ٨ آب/ أغسطس، فأثنى على الجامعة العربية، والتراث الحضاري العربي، والقومية العربية. . ولست أريد أن أقتبس شيئاً من خطابه، كلمة كلمة أو عبارة عبارة، فإن بيانات المستر همرشلد لا تقبل «الاقتباس» لا لأنا نخالفه في أكثر من موضوع، ولكن لأنها فريدة في ذاتها، متشابك بعضها ببعض، بحيث لا نستطيع أن نقرأها مجزأة، . . . ويتعين أن تقرأ كاملة. . ولأن المستر همرشلد بذاته أصبح يمثل شخصية دولية. .

«وعلى كل حال فإن خطاب المستر همرشلد يجب أن يقرأ في ما بين سطوره، لا في سطوره، فإننا مع إعجابنا بكفاءة المستر همرشلد، فإننا نراه في خطابه يعني أكثر مما يقول. . ونحن نختلف معه في ما يعني. . لا في ما يقول. .

«ولقد سرّنا أن الرئيس أيزنهاور قد تعرض لموضوع القومية العربية. . . وهو موضوع الساعة المطروح أمام الأمم المتحدة. .

«إنني أعلن من هذا المنبر أن إشارة الرئيس أيزنهاور إلى «فضل العرب الكبير في حقل المعرفة الإنسانية» تستحق منا كل تقدير واحترام. .

«والواقع أن هذه الإشارة من جانب الرئيس أيزنهاور يجب أن تعمل بذاتها على فهم القومية العربية، وتطلعها إلى الحرية والوحدة.»

«وهنا يبرز السؤال: ما هي هذه القومية العربية؟»

«إن الرئيس أيزنهاور قدم لخطابه بقوله: «دعوني أحدد موقف بلادي بكل وضوح وصراحة» وإنني استأذنكم أن استعير كلمات الرئيس أيزنهاور لأقول بدوري: دعوني أحدد موقف بلادي بكل وضوح وصراحة، ونحن هنا مجتمعون في الأمم المتحدة بحثاً عن الحقيقة، وحقيقة القومية العربية يفهمها أهلها، وأجدر الناس بالحديث عنها أصحابها. .

«وإذن ما هي القومية العربية؟. . هل هي شكل جديد من أشكال الاستعمار. . هل هي غصن من أغصان الشيوعية وامتداد لمذهبها، هل القومية العربية في يقظتها الحديثة من صنع الغرب أو ثمرة نهضته، هل هي حركة مليئة بالحقد على الغرب

والحب للشرق، وهل هي حركة تنمّ عن البغضاء لكل ما هو أجنبي، وتقفل الباب في وجه التعاون الدولي؟

«أبداً، إن القومية العربية ليست على شيء من ذلك، إنها حركة قائمة بذاتها ومن ذاتها. . وإنها حركة ديناميكية من غير شك، غير أنها تدعو إلى السلام. . ولكنه سلام قائم على العدل والحق. . وإن دوافعها وأهدافها، وما تملك من وعي عميق وإدراك خلاق، كل ذلك ينبع من ثقافتها وحضارتها، ومن أكرم تقاليدها التي تحلت بها في تاريخها الطويل. .

«إن الأمة العربية، مستلهمة وحدة ماضيها، ومستوحية وحدة حاضرها ومستقبلها، تناضل الآن في سبيل استكمال الوحدة والحرية، أيهما جاء أولاً. . . والقومية العربية لا تضمر عدواناً على أحد، وفي نفس التصميم فإن القومية العربية لن تتخلى عن شبر واحد من وطنها الكبير من المحيط إلى الخليج، ومن أقصى الشمال في الجمهورية العربية المتحدة إلى أقصى جنوب السودان في قلب أفريقيا. .

«وإن جميع أرجاء الوطن في ما تشتمله هذه الحدود هو وطن واحد لأمة واحدة، هي الأمة العربية، وسواء تحدثتم عنا كشعب أو أمة، فلتكن التسمية ما تكون وما تشتهون، فنحن أمة واحدة، وأمة واحدة فقط. . وهذه الوحدة تتجلى في وحدة وجودنا، ووحدة تفكيرنا، ثم في وحدة تصميمنا على العمل المشترك. .

«وإنني أعلم أننا لسنا هنا في ندوة علمية، وليس قصدي أن أحاضر عليكم في فلسفة القومية العربية، ولكن ها نحن نرى تضليلاً واسعاً للحياة العربية، والأسباب مختلفة، وإذا لم تستطيعوا أن تسبروا غور القومية العربية فلن تصلوا إلى النتائج الصحيحة في هذه المناقشة العامة في الأمم المتحدة، وإذا كنتم تتحدثون عن الأمة العربية أنها أمم وشعوب فلن تستطيعوا تحقيق السلام في ذلك الجزء من العالم. . وإذا كانت الأمم المتحدة تعتبر الأمة العربية أنها أمم وشعوب فستسقط إلى الأرض كل معاييركم «عن العدوان» وكل مفاهيمكم عن «التدخل»، وإنه يؤسفنا أن المستر همرشلد قد أشار إلى الأمة العربية مرة كأمم، ومرة أخرى كشعوب، وفي الحالين بصفة الجمع.

«وعلى هذا النحو، فإن الرئيس أيزنهاور قد استخدم تعبيراً آخر، فوصف الأمة العربية بأنها «أمم الشعوب العربية» وإنه لتعبير ظريف حقاً، ولكنه يجعل من الأمة العربية خليطاً من الشعوب والأمم. .

«وإذا كانت المنظمة العالمية ستنظر إلى الأمة العربية على أنها أمم أو شعوب، فلسوف يترتب على ذلك اعتبارات سياسية معينة، وإذا كان سينظر إليها على أنها أمة واحدة، فستقلب تلك الاعتبارات رأساً على عقب. . ومن غير رجعة. .

«وكذلك فإن مشروعات التنمية الاقتصادية وغيرها التي لوّح بها الرئيس أيزنهاور، على أساس أننا «شعوب الأمم العربية» فإنها ستؤدي إلى دمار القومية العربية، كائنة ما كانت المقاصد الحسنة والنيات الطيبة . .

«وهناك ناحية هامة لا بد من إيضاحها، بصدد ما ورد من الإشارات في خطابَي الرئيس أيزنهاور والسيد سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية عن ما سمي «بالاستعمار العربي».

«إن الاستعمار العربي أمر لا يمكن تخيله في الحياة العربية، واستعمار العرب للعرب صورة لا تقبل التصور . .

«يستحيل على المرء أن يستعبد نفسه، وأن يستولي على أرضه، وأن يخضع شعبه، وأن «يفتح» وطنه، ولكنا نستطيع أن نتصور المرء يستعبد غيره، وأن يستولي على غير أرضه، وأن يتغلب على غير شعبه، وأن يستولي على غير وطنه . .

«ليس العربي أجنبياً على أي عربي، وكذلك فليس أي قطر عربي غريباً على قطر عربي آخر . .

«وإننا ندعو الأمم المتحدة أن تفكر وتعمل . . ولكن على هذا الأساس وعلى هذا الأساس وحده . . وإلا فإن جميع جهودنا ستذروها الرياح . .

«وإلى جانب ذلك، فإني أرى من واجبي أن أبدِّد بعض الشكوى والمخاوف التي لا مبرر لها . . إن الرئيس أيزنهاور في معرض حديثه عن القومية العربية، قد طالب أن تكون (الأهداف العربية أهدافاً عربية حقاً) . . .

«إنني أعلن إلى الرئيس أيزنهاور، وللعالم أجمع، من على هذا المنبر، وفي كل إخلاص وقدسية، أن أهدافنا القومية هي أهداف عربية في الصميم، وستظل كذلك إلى الأبد . . نحن عرب أولاً وآخراً . . وسنظل دائماً لأنفسنا من غير أن ننفصم عن الأسرة الدولية . . إننا نضمر الصداقة لدول العالم أجمع . . الثمانين دولة التي تتألف منها الأمم المتحدة، ولا أزيد على ذلك دولة واحدة . . وأنا أعرف الحساب جيداً . . . (الإشارة هنا تستثنى إسرائيل) . .

«وعلى هذا، فاني أؤكد لكم أن القومية العربية ليست من صنع الشيوعية، لأن وجودنا سبق الشيوعية بأجيال . . وكذلك فإني أؤكد لكم أن القومية العربية ليست من عمل الغرب، فإن وحدتنا القومية التي انتقلت عواصمها من مكة إلى المدينة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة، قد عبّرت عن وجودها حين كان الغرب غارقاً في ظلمات القرون المظلمة . .

«وإنّ العرب لا يضمرون أي عداء لأي أجنبي، فلا نعرف أمة تفوقنا ضيافة للغرباء، ووفادة للغرباء، نحن نفاخر بتقاليدنا هذه بكل تواضع. .

«وفي نطاق الأمم المتحدة، نحن نعلن عزمنا على التعاون مع الأسرة الدولية، ولكن على أساس المساواة التامة، سعياً وراء المصالح المشروعة المشتركة. .

«ومن هذا المنبر فإننا نعلن أننا لسنا شيوعيين ولا نريد أن نكون. . ونعلن كذلك أننا لسنا غربيين ولا نريد أن نكون. . .

«نحن مصممون أن نكون لذاتنا، الآن وفي كل زمان. . وإنّ اهدافنا عربية في الصميم وستبقى. .

«ونحن هكذا، وهكذا سنظل، وليس لأحد أن يستبد به الخوف والقلق. . وأنتقل الآن إلى صلب الموضوع. . ما هي حكاية الأزمة؟

«إن هنالك أمة تحفزها القريحة البناءة والأهداف السليمة، فعلام هذا الموقف المتفجر؟. . وإنه يبدو لغزاً عجيباً أن تبدو الأمة العربية وكأنها مصدر خطر على الأمة العربية. . أو كأنها تريد إشعال الحرائق في الوطن العربي. . لقد حاول الرئيس أيزنهاور أن يزيل العجب من اللغز العجيب. . . لقد تحدث في خطابه عن: القيادة العربية المتطرفة، العدوان غير المباشر، التخريب، التسلل، الحملات الإعلامية، واعتبر ذلك كله السبب في الموقف المتفجر في الشرق الاوسط. .

«ونحن مدينون بالشكر للرئيس أيزنهاور أنه طرح الموضوع على هذه الصورة، فإنّ طرح أية قضية يتطلب طرح أسبابها، ولا بد للوصول إلى حلول سليمة من الوصول أولاً إلى تشخيص سليم. . ولنتحدث بصدق وصراحة. . وأحسب أننا نحن مجتمعون هنا لهذا الغرض، الدول الكبيرة والصغيرة على السواء. .

«إننا بكل احترام نخالف الرئيس أيزنهاور في التحليل الذي اختاره الرئيس أيزنهاور. . إن أزمة الشرق الأوسط أعمق. . أعمق بكثير من الأسباب التي أشار إليها، إن الأمر لا يكمن في «القيادة المتطرفة» أو في الأسباب الأخرى التي ذكرها.

«إن الأمر يتصل بشعب جريح. . شعب جرح في كرامته، شعب له ذلك التاريخ المجيد الذي أشاد به الرئيس أيزنهاور. .

إن الأزمة في صميمها، ليس نتيجة «أعمال التخريب والحملات الإعلامية» كما أشار المستر سلوين لويد في خطابه بالأمس، إنها النتيجة الطبيعية للاستعمار والاستيطان الأجنبي اللذين لا تزال جذورهما مستقرة في الوطن العربي حتى هذه الدقيقة. . وهذه هي صورة الموقف كما هي قائمة الآن. . وهذه هي المشاكل التي نواجهها الآن. .

(وبعد أن استعرضت القضايا العربية التي كانت قائمة يومذاك: الجزائر، تونس، مراكش، وعمان، واليمن، والبريمي، انتقلت إلى قضية فلسطين). .

«وأخيراً لا آخراً، هنالك القضية الفلسطينية التي تتمثل فيها أعظم كارثة أصابت الأمة العربية في كل ما أصابها من كوارث في تاريخها الطويل. . وليس هذا مبالغة أو تهويلاً، فإذا كان المستر آتلي رئيس الوزراء البريطاني الأسبق قد أعلن في مجلس اللوردات قبل أسبوعين أن إنشاء إسرائيل يعتبر خطأ حتى من زاوية المصالح البريطانية، فماذا على العرب أن يقولوا؟

«إن أقل ما يجب علينا أن نقوله، إن إنشاء إسرائيل في وطننا هو إهانة كبرى لشرفنا، وكارثة عظمى على شعبنا. .

«هذه هي المشاكل التي تكمن في جذور أزمة الشرق الأوسط، وهذه هي الأسباب الحقيقية للموقف الحاد الذي يؤذن بالانفجار حيناً بعد حين. .

«إن عليكم أن تواجهوا المشكلة بكل صدق وأمانة إذا كنتم تريدون إقرار الأمن والسلام في الشرق الأوسط، ولا نفع في الاختفاء وراء حجج العدوان المباشر وغير المباشر، ولا طائل من الحديث عن التسلل والتخريب والحملات الإعلامية.

«إنّ القضية هي قضية حرية بالنسبة إلى الأمة العربية في الوطن العربي الكبير. . ولكنكم إذا كنتم تريدون أن تتحدثوا عن التسلل والعدوان والتخريب، فإني أقول بكل احترام إلى الرئيس أيزنهاور إن الأمة العربية هي فريسة هذه الجرائم الدولية، ترتكب في الولايات المتحدة ضد الأمة العربية. . إن الصهيونية العالمية قد قامت بحملات التخريب والتسلل والعدوان في فلسطين ولا تزال. . إن الصهيونية قد شنت حملات إعلامية معادية للأمة العربية وقادتها ولا تزال. . والصهيونية العالمية تقترف هذه الجرائم من هنا، وأكرر من هنا، من الولايات المتحدة. . نحن نضمر كل تقدير واحترام لشعب الولايات المتحدة، ولكن ذلك لا يمنعنا من القول إن المقر الرئيسي للصهيونية حيث تلقى العون كل العون، هو هنا في الولايات المتحدة. . وإذا كنتم تريدون أن تجدوا حلاً للأزمة فعليكم أن تصلوا إلى أعماق جذورها، وإذا ما استمرت الأسباب فلا بد أن تستمر الأزمة، ولا بد أن تكبر مع الزمان ويستحيل السيطرة عليها. .

«وقد آن الأوان أن يفيق الغرب من غفلته ويستيقظ على خطيئته. . إن المشكلة في تحليل صادق أمين، هي مشكلة مع الغرب. . ولا أقول هذا عن كراهية للغرب. . فليست الكراهية من تقاليدنا، ولكني أقوله كرد فعل طبيعي إزاء سياسة الغرب. .

«ولقد كانت لنا مع الغرب علاقات ليست ودية فحسب، ولكنها علاقات تحالف . .

«ولكن الغرب قد عمل على تمزيق الأمة العربية . .

«الغرب هو الذي دمر الحياة القومية لشعب فلسطين . .

«والغرب هو الذي فرض السيطرة على أقطار عربية أخرى . .

«وبعد أن فعل الغرب ما فعل، جاء إلينا هنا في الأمم المتحدة يسأل عن أسباب الأزمة في الشرق الاوسط . .

«ولكن الحق كل الحق أن الغرب هو العلة، الغرب هو سبب المشكلة التي يشكو منها الغرب . . وليس على الغرب أن يشكو أحداً سوى الغرب . .

«والعجب المفجع في الأزمة الحاضرة أن أصواتاً صادقة قد انطلقت قبل عشر سنوات، تحذر منها قبل وقوعها . . إن قادة العرب خلال الحقبة الماضية قد حذروا الأوساط الرسمية الغربية، بكل مودة وإخلاص، بأن استمرار السياسة الغربية في تجاهلها للمطالب القومية العربية، سيؤدي إلى تهديد العلاقات المشتركة بأفدح الأضرار وأكبر الأخطار . .

(وبعد التبسط في هذا الجانب انتقلت إلى بحث الحلول)

«إن الأزمة تتطلب موقفاً شجاعاً، والوقت، وإن كان قصيراً، غير أنه لا يزال يتسع لمواجهة الأزمة على مستوى سياسي عالٍ. إن التنمية الاقتصادية وأمثالها، على ما تحتويه من مزايا عالية، إلا أنها ليست مفتاح الموقف، فالاقتصاد لا يترعرع إلا في ظل الأمن والطمأنينة . . ويجب علينا أن نعالج الناحية السياسية أولاً، فالإنسان لا يحيا بالخبز وحده، ومنذ عهد أرسطو عرف الإنسان أنه حيوان سياسي لا حيوان آكل . . وعلى الذين يتوقون إلى إقامة سلام دائم في الشرق الأوسط أن يغيروا سياستهم تغييراً أساسياً، وإنني أعني الدول الغربية بذاتها . . أدعو الدول الغربية أن توافق على المطالب العربية قبل أن تتم من غير موافقتها . .

«إن عقدة الدول الغربية ـ عقدة الكراهية للرئيس عبد الناصر، يجب أن تستأصل من جذورها . . وليس عبد الناصر إلا مظهراً من مظاهر المد الثوري للقومية العربية . . وإن الملك سعود والرئيس عبد الناصر والرئيس عبد الكريم قاسم وغيرهم من قادة العرب، يجيئون ويروحون، ولكن الأماني القومية باقية، متحفزة أبداً، متوثبة دائماً، حتى تتحقق للأمة العربية بأسرها . . ولقد قدمت عدة اقتراحات وكان أحدها سحب القوات العسكرية ـ ونحن نؤيد سحب القوات

الأجنبية لا من لبنان والأردن فحسب، ولكن من كل شبر من الوطن العربي . .

«والاقتراح الثاني يتعلق بالزيت، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل هذا المشروع أو ذاك، ولكني أريد أن أعلن أن البترول العربي هو لنا، إنه ملكنا، أن أمره يقع ضمن سيادتنا الكاملة المطلقة، ولا يمكن أن يكون محل بحث هنا في الأمم المتحدة . . إن الدول العربية المصدرة للبترول، والدول العربية التي يعبر في أراضيها هي وحدها التي تبحث ما تشاء، ومتى تشاء، وأينما تشاء، وليس للأمم المتحدة دخل في هذه الشؤون من قريب أو بعيد . . إن البترول العربي ليس سلعة سياسية دولية، ونحن مصممون أن نخرجه من نطاق الخلافات السياسية الدولية . . . (وبعد أن استعرضت العلاقات العربية الداخلية ودور الجامعة في معالجتها انتقلت إلى القضية الفسطينية).

«إنّ قضية اللاجئين على أهميتها وخطورتها، ليست هي القضية الفلسطينية، إن الموضوع يتصل بوطن اغتصب ووقع تحت احتلال أجنبي، وإن الاقتراحات المتعددة بشأن تعويض اللاجئين عن أملاكهم لا يمكن أن يعتبر حلاً للمشكلة، لأسباب متعددة، منها أن اللاجئين أنفسهم مصممون تصميماً قاطعاً على العودة إلى وطنهم . . ونحن نعلن أننا غير مستعدين أن نتراجع عن هذا الموقف شبراً واحداً، وأنّ شعب فلسطين ومعه الدول العربية لا يتنازلون عن وطنهم مقابل كنوز الأرض كلها . . وأنّ عليكم أن تعلموا أن وطننا مقدس عندنا، كما هي أوطانكم مقدسة عندكم . . مثلنا مثلكم. أنتم لا تخونون وطنكم، ونحن لا نخون وطننا، فاحفظوا جيداً هذا في قلوبكم . .

«وفي كلمة واحدة إن العرب مصممون أن يكونوا سادة في وطنهم، وهذا هو الذي يفرق بيننا وبين الغرب، وإن الخيار أمامكم هو بين السلام وإسرائيل . . وعلى الغرب أن يختار . . »

وقد انتهيت من خطابي وتسابق مراسلو الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء لينقلوا إلى العالم أنباء «الفضيحة» الكبرى «الشقيري يهاجم الرئيس أيزنهاور ودول العالم الحر!!».

وتعاقبت وفود الدول العربية على المنبر، وكان بعضهم خيراً من حكوماتهم وراءهم، فالتأم الصف العربي، وتصدى لمختلف المشروعات التي كانت تستهدف التدخل في أمور العرب الداخلية . .

ونجح من كل منها مشروع واحد: أن يوكل الأمر إلى الجامعة العربية لتعالج الخلافات العربية داخل المنزل . . وكان هذا أكرم الحلول . . وكان للسيد محمد أحمد

محجوب وزير الخارجية السودانية دور كبير في بلوغ هذا الحل الكريم، وفي التوفيق بين وجهات النظر العربية المختلفة . .

وتناولت الصحافة العربية «أزمة الشقيري» مع الرئيس أيزنهاور بعناوين بارزة، كان أكثرها ايجازاً وتعبيراً العنوان الذي جاء في مجلة **آخر ساعة** القاهرية : الخطاب الذي هز أيزنهاور، وكان عنوان جريدة **المساء** القاهرية : أزمة في أمريكا بسبب موقف السعودية ـ السفير الأمريكي بجدة يطلب إيضاحات عن خطاب الشقيري، وكان عنوان جريدة **الشعب** القاهرية : أيزنهاور يهاجم خطاب الشقيري بالأمم المتحدة . .

ونشرت وكالة اليونايتدبرس برقية لمراسلها في واشنطن ذكرت فيها «أن الرئيس أيزنهاور قد تلقى رسالة ودية من الملك سعود بعد خطاب الشقيري بساعات . . ».

وبعد عودتي من الأمم المتحدة، سألت الملك سعود :

«هل صحيح ما ذكرته وكالات الأنباء من أن جلالتكم بعثتم برسالة إلى الرئيس أيزنهاور تعتذرون فيها عن خطابي . . »

قال : «هذا ليس صحيحاً إطلاقاً . . إنني أتبادل الرسائل مع الرئيس أيزنهاور منذ مدة . . وكانت الرسالة الأخيرة قبل أن تلقي خطابك بثلاثة أيام . . »

ودعا الملك سعود الشيخ يوسف ياسين، مستشاره للشؤون السياسية، فأحضر ملف المراسلات مع أيزنهاور، فكانت ثلاثة أو أربعة، وكان تاريخ آخرها كما ذكر الملك.

وهكذا مرت أشدّ أزمة بين واشنطن والرياض، ولم يبق منها إلا الذكريات . .

مكاشفة مع محمد الخامس والحسن الثاني وسخرية مع السيد «سخرية»

انعقدت الدورة الثانية والثلاثون لمجلس الجامعة العربية في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩ في مدينة الدار البيضاء بالمغرب . . وهكذا انتقلت هذه «المسرحية» العربية من المشرق العربي إلى المغرب العربي . .

وقد أشفقت على مدينة الدار البيضاء أن ينصب فيها هذا «المنبر» العربي للكلام والجدال، بعد أن كانت إلى عهد قريب ساحة نضال وقتال . .

ولقد صحّت مخاوفي حين تكامل وصول الوفود العربية، وانعقد مجلس الجامعة، وافتتحه الأمير مولاي الحسن الثاني (الملك الحسن الثاني في ما بعد) نيابة عن والده الملك محمد الخامس، وسط مظاهر رائعة من الحفاوة والنظام، والمملكة المغربية لها تقاليد عريقة لا تقل عن أرفع التقاليد الأوروبية.

وكان جدول الأعمال طويلاً كعادته، وكان مستوى الوفود عالياً، فقد حضره رؤساء وزارات، ووزراء ومعهم طائفة من المستشارين والمعاونين، وكنت في الوفد السعودي، وكان الأمير فهد بن عبد العزيز رئيساً للوفد . .

وناقش المجلس جميع المواضيع المدرجة على جدول الأعمال العربية والدولية، وانتهى كعادته بإصدار قراراته المعتادة، وبالصيغة المعتادة.

ولقد فوجئ إخواننا المغاربة أنهم رأوا الجامعة العربية على غير ما كانوا يتوهمون . . فقد كان العرب في الشمال الأفريقي مشغولين في كفاحهم البطولي، ولم يكونوا يعرفون الكثير عن الجامعة العربية، فلما جاءت الجامعة العربية إليهم في الدار البيضاء وضحت الأمور على حقيقتها . .

وعقب انتهاء الجلسة الختامية وتبادل الكلمات، «وشرب الأنخاب» من غير

شراب، خرجت مع الأمير مولاي الحسن وجلسنا في مكتب مجاور، فسألني الأمير الحسن:

«ما هو تقييمك لهذه الدورة التي انعقدت عندنا؟»

قلت: «خير ما فيها أنها انعقدت عندكم في الدار البيضاء. .»

قال: «لا أراك متفائلاً كثيراً».

قلت: «إنني لست متفائلاً ولا متشائماً، ولكني أحب أن أرى الحقيقة، فإن كانت سوداء قلت إنها سوداء والعكس بالعكس. .»

قال: «أليس في هذه الدورة ناحية بيضاء؟»

قلت: «الناحية البيضاء الوحيدة هي أن عامل الدار البيضاء قرر أن يسمي حديقة البلدية حديقة الجامعة العربية. .»

قال: «لقد عملت في الجامعة العربية لعدة سنين، وأريد منك مقارنة حقيقية بين هذه الدورة والدورات السابقة. .»

قلت: «إنها امتداد كلامي للدورات السابقة، لا أرى فيها جديداً، بالنسبة إلى قضية فلسطين، مذكرات جديدة، وزيادة ميزانية حكومة عموم فلسطين مبلغ ٢٦ جنيها. . لعام ١٩٥٩، وزيادة ٥٢ جنيها لميزانية ١٩٦٠. . أمّا بالنسبة إلى القضية الجزائرية فقد تقرر قبول الحكومة الجزائرية المؤقتة كمراقب في الجامعة العربية، مع توكيد القرارات السابقة بدفع الميزانية المتخلفة من الأعوام الماضية التي رصدت لمعاونة الثورة الجزائرية!!»

قال: «هذا وضع غير سليم، ونحن في المغرب قدمنا اقتراحاً لتعديل ميثاق الجامعة حتى تصبح أكثر فعالية. .»

قلت: «إن المشكلة ليست في الميثاق، ولكن المشكلة تكمن في الحكومات التي تتألف منها الجامعة. إن الميثاق في مجموعه وثيقة حسنة، والعرب بوصفهم أمة واحدة ليسوا في حاجة إلى ميثاق مكتوب ينظم علاقاتهم، وهذه مذكرتكم بشأن تعديل الميثاق تقرر إحالتها إلى اجتماع على مستوى السفراء. . وستظل تحال وتحال إلى أن يطويها النسيان. .»

قال: «ولكن هذا المجلس خصص لقضية فلسطين، لتبحث بصورة جدية. .»

قلت: «يا سمو الأمير، أنتم لا تعرفون ما لقيت قضية فسطين على أيدي الحكومات العربية في المشرق العربي بسبب خلافاتها، إن قضية فلسطين ليست كقضية

المغرب ولا كقضية الجزائر . . لقد رحمكم الله أن قضيتكم لم تكن قضية الجامعة العربية . . إنّ «عروبة» قضية فلسطين نعمة ونقمة، نعمة لأنها قضية الأمة العربية على صعيد الجماهير، ونقمة لأنها قضية الحكومات على صعيد الملوك والأمراء . . والرؤساء. والويل كل الويل للعربي إذا كانت له قضية في الجامعة العربية . . »

قال: «أراك ثائراً على الجامعة العربية . . »

قلت: «نعم، لأنني بلوت مشاكلها سبع سنوات «عجاف» وإنه أهون عليّ أن أمثل السعودية في الأمم المتحدة، من أن أمثلها في اجتماعات الجامعة العربية، لأن الحكومات العربية تهاب «جامعة» الأمم المتحدة، ولا تهاب جامعتها . . »

وانتهى الحديث بيننا وقد أزف الموعد المخصص للقاء الوفود العربية مع الملك محمد الخامس . .

ودخلنا إلى القصر الملكي وسط حديقة، بارعة الجمال، وقادنا المرافقون إلى القصر، ورأينا فيه بدائع الفن الأندلسي في هندسته وعمارته، ودخلنا على جلالته فسلمنا وجلسنا وفق البروتوكول المغربي الدقيق . .

وتحدث الملك محمد الخامس عن التضامن العربي متمنياً للجامعة العربية أن تؤدي رسالتها التي أنشئت من أجلها، ورؤساء الوزارات العربية من حوله يسترسلون في ذلك التأييد من غير قيود ولا حدود.

وأخذ الملك يتفرس في وجوه الحاضرين، وكان مقعدي بعيداً، بعد صف طويل من الرؤساء والوزراء . . إلى أن وصل الملك بعينيه إليّ، ولم أكن قد لقيته قبل ذلك، فأومأ إليّ بيده وقال:

«الشقيري؟»

قلت: «نعم يا جلالة الملك . . »

ودعا الملك واحداً من الحاشية وهمس في أذنه، فجاء بكرسي إلى جانب الملك، وأشار إليّ بالجلوس إلى جانبه . . . وقال موجهاً كلامه إلى الوفود . .

«نحن مدينون إلى الوفود العربية كلها، ولكننا لا ننسى بصورة خاصة موقف «الشقيري» في باريس في قصر شايوه في عام ١٩٥١، حين تولى الدفاع عن قضيتنا أمام الأمم المتحدة . . . »

قلت: «إن الفضل الأول والأخير هو لجلالتكم ولشعبكم فإن كفاحكم هو الذي حقق الاستقلال، ولم يكن جهدنا في الأمم المتحدة إلا رجع الصدى،

فالمعركة انطلقت في المغرب، وكنا صداها في الأمم المتحدة».

ومضى الملك يستذكر الرسائل التي كان يبعث بها إليّ، وانتهت الجلسة، وتاريخ النضال المغربي قد ملأ جو الجلسة عزاً وفخراً. . وودعنا الملك وانصرفنا. .

وما إن وصلت موقف السيارات في الحديقة، حتى جاءني أحد رجال البلاط يستدعيني إلى القصر «في مقابلة سامية مع جلالته»، فعدت وسلمت وجلست، وقال الملك:

«دعوتك لأمرين، الأول: قضية موريتانيا، وأنت تعلم أنها جزء من بلادنا، وتحاول فرنسا أن تجعل منها دولة مستقلة، والثاني: موضوع التجربة الذرية التي ستقوم بها فرنسا في الصحراء. . وهذه قضية تهمنا بصورة خاصة كما تهم الدول الأفريقية والآسيوية، وقد أمرت وزارة الخارجية أن تطلعكم على جميع الوثائق، وسأكتب إلى الملك سعود أشكره على جهدك في هذا السبيل. .»

قلت: «لا داعي للشكر وسأبذل كل جهدي في الأمم المتحدة، والدورة قريبة، وسأسافر إلى نيويورك رأساً ولكن. .»

قال: «لكن ماذا؟»

قلت: «بالنسبة إلى قضية موريتانيا فسأتولى دراستها، ولست أدري ما سيكون مصيرها في الأمم المتحدة، ولكن حتى لو جاء القرار لصالح المغرب، فلن يكون له فائدة عملية ما لم يكن الشعب في موريتانيا مصمماً على الوحدة. . ، وقد عشت تجارب التجزئة في المشرق العربي، والأمم المتحدة لا تستطيع أن توحد أو تفرق، إلا إذا كان الوطن نفسه راضياً بالوحدة أو الفرقة. . ، أمّا قضية التجربة الذرية، فسأعمل على عرضها في الأمم المتحدة بالتعاون مع الوفود الصديقة، غير أني أشك أن ترضخ فرنسا لهيئة الأمم المتحدة، ولكنه نصر سياسي على كل حال. .»

قال: «علينا السعي والاجتهاد، والتوفيق بيد الله».

واستأذنت جلالته وهو يوصي بالمزيد من الاهتمام بقضية موريتانيا، لأنها على حد كلماته الأخيرة «عزيزة علينا وعلى شعبنا».

وعدت إلى الفندق فسألني الأمير فهد آل عبد العزيز، رئيس الوفد السعودي، عما كان بيني وبين الملك، فرويت له ما جرى. وعادت الوفود إلى بلادها، وبقيت في المغرب أياماً أبحث وأدرس فقد جاءتني قضايا جديدة بدلاً من القضايا التي انتهت: ليبيا وتونس والمغرب. وقد فتنتني قضية موريتانيا، لأنني وحدوي الهوى والنشأة وكأنني رأيت فيها ضالتي المنشودة، فلزمت وزارة الخارجية ساعات وأنا أدرس

الوثائق والملفات، ولزمت المكتبات العامة والخاصة ساعات وأنا أدرس تاريخ «مراكش» وما تعاقب عليها من أحداث ووقائع، وقفت أمام الاطالس القديمة والحديثة وأنا أتأمل تلك الحدود المترامية للدولية المراكشية في أيام سطوتها وأنعمت النظر في تلك الرقعة المتصلة من الأرض، من البحر الأبيض المتوسط شمالاً إلى نهر السنغال جنوباً، فازددت إيماناً بالوحدة، والتقى عقلي بفؤادي . . . ولم يعد عندي شك في أن موريتانيا هي امتداد طبيعي للقطر المراكشي.

والواقع أنني كنت أتعمق في هذه الأبحاث ليطمئن قلبي، فقد كنت أخشى أن تكون قضية موريتانيا عند الملك محمد الخامس هي قضية مُلْك فحسب. . وأنا كنت أريدها قضية وحدة، لأمة واحدة. . .

وتوافرت عندي الدلائل أنها قضية وحدة، تسندها وقائع التاريخ، قبل عهد الاحتلال وأثناءه وبعده، وتجاوزت ذلك إلى استنطاق الآثار والأحجار، فقد وقفت عند الأضرحة وكان بينها قبور ملوك المرابطين الذين جاؤوا من إحدى ضواحي شنقيط في موريتانيا في القرن الحادي عشر الميلادي. .

فأعددت ملفاتي وأقلعت بي الطائرة إلى نيويورك، وإلى فندق «باركلي» الذي أصبح داري عبر السنين. .

وكانت قضية التجربة الذرية الإفرنسية هي أولى القضايا، ولم يكن في ملفاتي شيء عنها، إلا صورة عن الشكوى المغربية، موجزة بسيطة، كل ما تقوله «أن هذه التجربة تنطوي على خطر يهدد السلامة العامة. .».

أما فرنسا فقد أوفدت السيد «موك» من ساسة فرنسا المعروفين، وهو الخبير الأول لشؤون نزع السلاح، وممثل فرنسا في جميع المؤتمرات الدولية التي تعالج هذه القضايا وما يتصل بها. .

وعرض الوفد المغربي شكواه عرضاً حسناً، وجلس السيد «موك» في مقاعد الوفد الإفرنسي وحوله ووراءه العلماء والخبراء، وهو يسخر من الشكوى، وهو يتهيأ للانقضاض على الوفد المغربي بعلمه وخبرته!!

وكان «موك» قد أعد واستعد، فألقى بياناً ضافياً زاخراً بالآراء العلمية والإحصاءات، وصوته الأجش وإفرنسيته الصارخة تسيطر على الوفود، وكأنه يقول هل من مبارز؟؟

وكنت أعرف «موك» من قبل، وسمعته يتحدث في الدورات السابقة. . ولكنه هذه المرة قد «عبأ» نفسه، فإن الشكوى هي ضد فرنسا بالذات، وهذه

أول محاولة افرنسية للدخول إلى النادي . . . نادي الدول الذرية . .

ولقد ابتدأ «موك» بيانه بأن الموضوع يتطلب دراسة علمية . . بعيدة عن الشعارات العاطفية التي تسود الجماهير . . وتتعلق بها الدول الحديثة العهد بالاستقلال . .

وكان الخط الرئيسي في مرافعته أن التجارب الذرية لا تحدث ضرراً على الصحة الإنسانية، وأنّ الإنسان منذ كان وهو «يستحم» في عالم مليء بالإشعاعات الطبيعية، وأنّ الإشعاعات الناتجة عن مجموع التجارب الذرية من عام ١٩٤٥ إلى ١٩٥٩ لا تتجاوز الاشعاعات التي يتعرض لها الإنسان إذا ارتقى إلى مرتفع بعلو ٢١٥ متراً فوق سطح البحر، وأن إشعاعات التجربة الإفرنسية لا توازي أكثر من خطوة واحدة.

وتأجلت الجلسة بضعة أيام، و«موك» مهيمن على الأمم المتحدة، وكثيرون مأخوذون بحججه العلمية والسياسية، وكان قد طرح سؤالاً سياسياً في ختام بيانه: لماذا لا يجوز لفرنسا ما هو جائز لأمريكا ولروسيا، وكلتاهما قامتا بالتجارب الذرية من غير رقابة ولا حساب . ؟

وحملت بيانه وسارعت إلى غرفتي في الفندق، وكنت أميّاً في هذا الموضوع، ولكن العلم لم يكن بعيداً عني . . فقد كانت مكتبة «دبلدي» في نفس مبنى الفندق الذي أنزله فيه، فنزلت من الدور الرابع، ودخلت المكتبة وقلبت الفهرست الضخم عن هذه المكتبة الضخمة، فوجدت المراجع العلمية التي ألفت حديثاً عن مضار الإشعاعات الذرية . . وحملت الكتب إلى غرفتي وأنا أقول لمدير المكتبة: أرسل الفاتورة إلى مكتب الوفد السعودي . . . ، فلم يكن لدي وقت لأدفع ! !

وأقفلت غرفتي أياماً . . وكنت أطلب طعامي إلى الغرفة، ورحت أعيش الليل والنهار مع علماء الطبيعة والكيمياء المشتغلين في شؤون الذرة، منذ أن ألقيت قنبلة هيروشيما إلى ذلك الحين . . وأعددت «بياني» مجهزاً بالمقتبسات العلمية والإحصاءات والوقائع . .

وانعقدت الجلسة الثانية، ورفعت يدي أطلب الكلام، وإذا بالسيد «موك» يتراخى بجسمه البدين على مقعده، وهو لا يبالي بهذا السعودي . . وما عسى أن يكون عند الشقيري من كلام في الموضوع، فمن السهل أن يتحدث الشقيري في المواضيع السياسية ومكافحة الاستعمار . . أما «الذرة» فهذه وقف على علماء الدول العظمى . .

وتناولت في صدر بياني هذه المسألة بالذات، وقلت إن احتكار العلم حتى في شؤون الذرة قد أصبح أمراً مستحيلاً، وإنّ علماء الذرة أنفسهم قد هتكوا أسرار الذرة . . وسردت طائفة طويلة من المراجع العلمية التي اعتمدتها، وبينها علماء

الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا، وفي مقدمتها تقرير قد أعدته لجنة فنية اختارتها الأمم المتحدة، تضم طائفة من العلماء المعروفين. .

ووضعت هذه الكتب أمامي، وفيها قصاصات من الورق تدل على المقتبسات الهامة، تماماً كما كنت أفعل في مرافعاتي أمام القضاء البريطاني في فلسطين. .

و أخذت أسرد الحجج واحدة بواحدة أثبت فيها الأضرار الخطيرة التي تلحق بصحة «الإنسان» نتيجة للإشعاعات الذرية. . وكنت أتنقل في مقتبساتي من العالم الأمريكي إلى العالم البريطاني ومنهما إلى العالم الروسي والعالم الإفرنسي. . وكلهم يدينون التجارب الذرية ويطالبون بوقفها. .

وكان السيد «موك» قد بدأ يتحرك من «تراخيه»، وأخذ يتململ وهو يرى أني قذفت في وجهه هذا الحشد العلمي، فرأيت أن ألقي بتلك الجثة الضخمة في مهاوي الهزء والسخرية. . وخاصة أن كلمة «موك» في الإنكليزية معناها الهزء والسخرية. .

فصحت في وجهه وقلت: «لقد طلبت أن يكون الحديث علمياً. . فها قد جئتك بعلم العلماء. . وها قد وضح الآن «أن السيد» «سخرية» قد ألحق السخرية بنفسه وبالعلم وبفرنسا»، واجتاحت القاعة موجة من الهرج والمرج، والوفود بين شامت بهذا «الصنم» الذي هوى، أو مشفق على «إله» نزع السلاح، وقد وقع في شباك تناقضاته. .

وثار السيد «سخرية» وطلب الكلام ليتحدث مرة ثانية، ولكن ماذا يقول: ميدان العلم قد استنفد، ولم يبق إلا أن يتحدث في ما نهى عنه، الميدان العاطفي وراح السيد «سخرية» بلهجة عاطفية يتحدث أنه والد اثنين، أحدهما سقط قتيلاً في المقاومة الإفرنسية للاحتلال النازي، وثانيهما عالم شاب كرس مواهبه للعلم. . ، وأنه يعلن بأمانة العلم، وإخلاص الوالد أن التجربة الذرية لا تحمل أي خطر أو ضرر وخاصة أن القنبلة الإفرنسية من النوع الصغير. .

ورأيت أن أجهز على السيد «سخرية» حتى في الميدان العاطفي، فأعربت عن حزني لفقد ولده في المقاومة الوطنية، وأعلنت أن ولده هو ابننا جميعاً، لأن الكفاح التحريري هو ملك الإنسانية، ومن يسقط في ميدانه فهو ابن الإنسانية، وأردفت بعد ذلك أن إعزازنا لولده يدفعنا لأن نعز أبناء البشرية جميعاً فنمنع عنهم أخطار الإشعاعات الذرية، ومضيت أقتبس أقوال العلماء في خطر الإشعاعات الذرية حتى على الأجنّة في البطون. . وقلت للسيد «سخرية»: «إن التفجيرات الذرية خطر على الأجيال الحاضرة، والأجيال المقبلة، وهي حرب على الإنسانية في زمن السلم، وفناء في زمن الحرب، ولكن السيد «سخرية» يجعل من عواطفنا سخرية. .»

وكانت هذه الإشارة الأخيرة، آخر جولة في هذه المصارعة الذرية، بين «الأميّ الفلسطيني ـ السعودي ـ الآسيوي الأفريقي» . . وبين الخبير العالم، طليعة الفكر في العالم الحر!!

وأحسست أني بالغت بالجرح والإيلام، حين رأيت السيد «موك» وقد أغمض جفنيه في محاولة أخيرة للتجلد وعدم المبالاة، فكان لا بد من كلمة أخيرة أرضي فيها الجنرال ديغول قائد فرنسا العظيم . .

وتحدثت عن المتاعب الاقتصادية التي تعانيها فرنسا، وأنّ الدخول إلى ميدان الأسحلة الذرية غالي الثمن باهظ التكاليف، ولكن ما الحيلة وما العمل، وفرنسا على رأسها رجل عظيم، طموحه فوق طاقات شعبه، وهذا ما يدفع الجنرال أن يجعل فرنسا دولة ذرية، وليكن ذلك ما يكون . .

وختمت بياني بمناشدة الدول الأعضاء أن يصوتوا جميعاً إلى جانب الشكوى المغربية وأن تستنكف فرنسا . . عن هذه التجربة الخطرة القذرة . .

وكان للمغرب ما أراد . . وكان لفرنسا ما ارادت، كل في ميدانه . . فاز القرار المغربي بالأكثرية المطلوبة في الأمم المتحدة . . وفجرت فرنسا تجربتها الذرية في الصحراء الأفريقية . .

وخرّ الحق والعدل، والعلم والمنطق، كل ذلك خرّ صريعاً أمام القوة. وسجلت الأمم المتحدة على نفسها أنها ندوة خطابية، ليس لها جلال الجامعة وقدسية المعاهد. لأن خطباءها ساسة لا علماء . .

وجاءت القضية الموريتانية في العام التالي في خريف ١٩٦٠، فقد مضت دورة ١٩٥٩ وفرنسا تطبخ الاستفتاء تمهيداً للاسقلال على أساس الانفصال. وذهبنا إلى بلادنا وعدنا إلى نيويورك في خريف ١٩٦٠، وجاء الأمير مولاي الحسن رئيساً للوفد المغربي وأمامه وفد جمهورية موريتانيا الإسلامية، وأنا أبحث طريقي للدفاع عن وحدة «التراب» المغربي . .

وافتتحت المناقشة في قضية موريتانيا، وانبرى المندوب الإفرنسي يقدم إلى الأمم المتحدة «جمهورية موريتانيا الإسلامية» ويشيد بما فعلت فرنسا حتى هيأت موريتانيا للاستقلال، ثم راح يسوق الدليل تلو الدليل، أن الدولة المغربية لا حق لها بالمطالبة بموريتانيا، وأن ذلك هو مظهر من مظاهر الحركة العربية «الاستعمارية» التوسعية، محذراً الدول الأفريقية من أن تخدعها شعارات الوحدة . .

وقال المندوب الإفرنسي هذا الكلام، وكأنما أصاب مواضع الآلام في كل

جوارحي، . . . فإن كل ما لحق بالأمة العربية من كوارث، وما وقعت فيه من مشاكل سببه فقدان الوحدة، ذلك ما أؤمن به بعقلي وفؤادي. وعرضت القضية الموريتانية من أولها لآخرها . .

تحدثت عن مكان موريتانيا في تاريخ الكفاح المغربي ضد فرنسا، وذكرت على وجه التخصيص أن المعركة الدامية التي وقعت في الدار البيضاء في عام ١٩١١ كانت معركة المغرب كله بما فيه موريتانيا، وكيف أن ابطال موريتانيا قد سقطوا في تلك المعركة دفاعاً عن دولتهم «المغرب»، وتحدثت عن القبائل العربية، شطرها في موريتانيا في الجنوب، وشطرها الآخر في المغرب في الشمال، وأنّ اسم موريتانيا تسمية جديدة استحدثها الإفرنسيون، وأنها بالنسبة إلى المغرب، مثل مقاطعة نورمندي بالنسبة إلى فرنسا . .

وتحدثت عن مقومات الوحدة بين الشمال والجنوب، وأن الجيش المغربي يضم نخبة من خيرة شباب موريتانيا، وأن بن عمير، وهو موريتاني، هو وزير دولة في حكومة المغرب، وأنّ سفير المغرب في ليبيا هو من أبناء موريتانيا، وكان عضواً في المجلس الوطني عن موريتانيا!!

وأسهبت في الحديث عن الوحدة شارحاً للوفود الأفريقية، أن القضية ليست نزاعاً بين العرب والعرب، كما تصور فرنسا، وأنّ الوحدة العربية ليست حركة توسعية عدوانية، ولكنها تستهدف مقاومة التمزيق والتجزئة، وأن الوحدة ليست نظاماً جديداً وابتداعاً حديثاً ولكنها عودة إلى الأصل، وأن القضية في مجموعها هي نزاع بين العرب من جانب، وفرنسا من جانب آخر . .

وختمت بياني مشيراً إلى أن فرنسا قد جعلت من «الاستقلال» مبرراً للانفصال، وأعطت هذا «الاستقلال» اسماً براقاً «جمهورية موريتانيا الإسلامية» وهي تريد بهذا أن تخادع الإسلام والمسلمين. . ولكن هذه الخدع الدينية لا تنطلي على المسلمين، فقد سبق لنابليون أن أعلن إسلامه في القاهرة وأنه حامي الإسلام، ولم يبق إلا أن يعلن نفسه خليفة من خلفاء المسلمين. .

وتبعتني الوفود العربية في الكلام، وبعدهم عدد من الوفود الصديقة، ولكن «الاستقلال» في موريتانيا كان قد بنى على أرض موريتانيا وقامت حكومة موريتانية، وجاء وفدها إلى الأمم المتحدة ليثبت وجوده. .

ولم يفلح الطلب المغربي، فقد قبلت موريتانيا عضواً في الأمم المتحدة، واعترفت بها الدول الأعضاء تباعاً، وتوالت بعد ذلك الاعترافات العربية. .

ولقيني في تلك الأثناء السيد يو ثانت «الأمين العام للأمم المتحدة» وقال لي:

«لقد ذكرتني بالرهبان البوذيين في بلادنا وأنت تخطب اليوم. .»

قلت له: «وكيف ذلك؟»

قال: «لقد كنت تتحدث عن الوحدة حديث العابد في معبده. .»

قلت له: «نعم يا صديقي، الوحدة عندي عبادة. . نحن شعب فلسطين ضحية سبب واحد. . إنه فقدان الوحدة. وإن التجزئة أشدّ بلاء من الاحتلال. .»

وبينما نحن في هذا الحديث مر بنا الأمير الحسن ولي عهد المغرب فسرت معه إلى الفندق، ثم ذهبت معه إلى المطار لأودعه، واستذكرنا الحديث الذي كان بيننا في الدار البيضاء. . وقلت له:

»لقد أحسنت يا سيدي الأمير، إن خطابك عن موريتانيا كان في غاية الإيجاز، فإن الوحدة تبنى في الوطن لا في الأمم المتحدة. .»

قال لي مداعباً: «ولماذا لم تكن موجزاً في خطابك؟؟»

قلت له مداعباً: «أنا محام وهذه صنعتي، لقد قمت بواجبي في الأمم المتحدة، وإن واجبكم ينتظركم في الوطن. .»

وافترقنا على هذه المداعبات، ولكن الوحدة. . الوحدة في الوطن العربي كله كانت تتفجع وتتوجع. .

ومر عامان على هذه الأحداث، ولقيت السيد مختار ولد داده رئيس الجمهورية الموريتانية في القاهرة، واجتمعت به غير مرة. . وكان بيننا عتاب لطيف رقيق. . ولقيت سفراء موريتانيا في عدد من العواصم العربية فكانوا يهشون ويبشون. .

والحق إنهم جميعاً، رئيساً ووزراء وسفراء، تحمّلوا «حملتي» بروح رياضية، بل لعلهم أيقنوا، وهم أبناء الجمهورية الإسلامية، أن الوحدانية ديني، وأن الوحدة عقيدتي. .

اللهم أكمل علينا وحدانيتنا بوحدتنا. .

رؤســاء وحـذاء!

كانت دورة فريدة حقاً في خريف ١٩٦٠ حين انعقدت الأمم المتحدة في نيويورك، ووفود الدول الأعضاء يرأسها رؤساء الدول ورؤساء حكومات الكتل العالمية الثلاث، الغربية، والشرقية، واللامنحازة. .

وكان في مقدمة هؤلاء جميعاً الرئيس أيزنهاور، والسير هارولد مكميلان رئيس وزراء بريطانيا من العالم الغربي، والسيد خروشوف وعدد من رؤساء الدول الاشتراكية ومعهم السيد كاسترو من العالم الشيوعي، والسادة جمال عبد الناصر ونهرو وتيتو وسوكارنو من كتلة عدم الانحياز. .

وانعقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة على مستوى القمة، فكانت قمة في الجدّ وفي الطرافة على السواء. . ووقعت أحداث أصبحت جزءاً من تاريخ الأمم المتحدة. .

فقد تبادل أيزنهاور وخروشوف أناشيد السلام، وعبارات الود والوئام. . وبحث كاسترو عن فندق يبيت فيه. .

وتحدث عبد الناصر باللغة العربية. .

ودخلت في حوار متعدد الجبهات مع أيزنهاور ومكميلان ونيكسون وكينيدي ونكروما. .

وألغيت موعدي مع الملك حسين. .

وأخيراً لوّح خروشوف بحذائه إلى الأمم المتحدة ووضعه على طاولته. .

فكيف لا تكون الدورة قمة في الجد والطرافة على السواء؟

افتتح المناقشة العامة الرئيس أيزنهاور بخطاب تحدث فيه عن أهوال الحرب الذرية، وأعرب عن تمنياته في أن يتحقق السلام للبشرية، وأن تقوم العلاقات الدولية

على أساس الحق والعدل. وكانت سنة انتخابات في الولايات المتحدة، وكان كل من نيكسون وكينيدي يتبارى في نيويورك على تأييد إسرائيل بالمال والسلاح . .

وتحدث الرئيس السوفياتي خروشوف عن طائرات التجسس الأمريكية التي تقوم بمهمات استطلاعية في الأراضي الروسية ودعا أمريكا إلى التعايش السلمي والتخلي عن خططها العدوانية. وتحدث الرئيس اليوغسلافي تيتو عن مفهوم الحياد الايجابي شارحاً القرارات التي اتخذتها الدول غير المنحازة في مؤتمر بلغراد . .

وتحدث الرئيس العربي عبد الناصر فتناول القضايا الدولية وأزمة الثقة بين الشرق والغرب، واستعرض القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين . .

وتحدث الرئيس الهندي نهرو عن المشاكل الآسيوية الأفريقية وكانت تبدو عليه أثقال النضال وأعباء الاستقلال . .

وتحدث الرئيس الإندونيسي سوكارنو عن مشاكل الاستعمار وحظر التجارب الذرية . .

وتحدث الرئيس الغاني الدكتور نكروما عن الوحدة الأفريقية ودعا الدول العربية، إلى التقيد بالسياسة الواقعية مع إسرائيل والاتفاق معها في معاهدة عدم اعتداء . .

وتحدث الرئيس الكوبي أربع ساعات من غير كلل ولا ملل عن إنجازات الثورة الكوبية، والمؤامرات الأمريكية ضد كوبا، مشيراً في سخرية لاذعة أنه كاد أن ينصب خيمة في حدائق الأمم المتحدة لينام فيها وأعضاء وفده، بعد أن رفضت الفنادق الأمريكية قبولهم فيها . .

وتحدث الملك حسين عن المؤامرات والاغتيالات التي تدبر من الخارج على الأردن، وكان السيد هزّاع المجالي رئيس وزارئه مع بضعة عشر من رجال الدولة قد لقوا مصرعهم في انفجار وقع في رياسة مجلس الوزراء، فجاء الملك حسين إلى الأمم المتحدة وهو يصيح يا لثارات العرب . . ولهذا الأمر حكاية تأتي . .

وعاد الرئيس السوفياتي إلى الكلام مرة بعد مرة، وكان في خطبه المرتجلة خيراً منه في الخطب المكتوبة. تهدد وتوعد، وأنذر الغرب بالفناء والدمار إذا قام بأية محاولة للعدوان على روسيا وحليفاتها، وحين قام أحد الوزراء «الصغار» من الدول الغربية يجادل خروشوف، خلع الرئيس السوفياتي حذاءه من قدمه ولوح به في وجه الأمم المتحدة وضرب به المائدة أمامه وسط عاصفة من الهرج والمرج، لم تشهد الأمم المتحدة مثيلاً لها . .

وكانت مقاعد الوفد السعودي خلف مقاعد الوفد الروسي مباشرة، فنهضت من مقعدي إلى الرئيس خروشوف وصافحته، وكان حذاؤه لا يزال على الطاولة أمامه، وأوداجه تهتز بالغضب، وتبادلنا التحية وعدت إلى مقعدي، ولا يزال الحذاء ناشراً خيوطه على الطاولة!

وأصبح حذاء خروشوف قصة الأمم المتحدة ونزل كحادث مثير في تاريخ العلاقات الدولية، والواقع أنه حادث غير مألوف لا يتفق مع أدب الاجتماعات، ولكني أحسب أنه جاء قمة في الغضب الروسي، وقد انقضى على الأمم المتحدة يومذاك خمسة عشر عاماً، كانت الدول الشيوعية الخمس تجد نفسها على الدوام مطوقة بأكثرية غربية طاغية في جميع البنود المدرجة في جدول أعمال الأمم المتحدة. . فما من تصويت يجري إلا والدول الشيوعية (منبوذة) في أقلية صغيرة. والمعسكر الغربي يتباهى بكثرته المتكاثرة. . ولم يعد أمام خروشوف بعد تلك التجربة الطويلة، وقد رأى «عملية» التكاثر تلتف حوله لتطوقه، إلا أن يقول للأمم المتحدة: هذا هو حذائي. . اخطبوا ما شئتم، وقرروا ما شئتم!!

ولقد كان أسلوباً نابياً من غير شك. . ولكن المعسكر الغربي الذي يعتمد في الأمم المتحدة على الكثرة والكثرة فحسب، كان مستحقاً للتأديب بأسلوب غير أديب. .

ولئن كان حذاء خروشوف قصة دولية، فقد كان لي مع الملك حسين قصة عربية في صميم شؤوننا العربية. .

كان اجتماع الأمم المتحدة في ذلك العام (١٩٦٠) مؤتمر قمة في مظهره وجوهره، وكانت الوفود العربية تتطلع إلى تحقيق مكاسب كبرى في ذلك التجمع الدولي الكبير بالنسبة إلى قضية فلسطين، وإلى قضية الجزائر وهذه كانت في ذروة تحركها على الصعيدين السياسي والنضالي. . وكنا حريصين أن يتجلى التضامن العربي بين الوفود العربية وأن نترك خلافاتنا وراءنا في الوطن العربي. .

ووقع قبيل انعقاد الأمم المتحدة حادث الانفجار في مبنى رئاسة الوزراء في عمان وراح ضحيته السيد هزاع المجالي رئيس الوزراء. . ووصلت إلينا الأنباء أن الملك حسين قادم إلى الأمم المتحدة لينشر الغسيل العربي على حبال الأمم المتحدة، وليتفرج من أراد أن يتفرج!

ووصل الملك حسين إلى نيويورك ونزل في فندق وولدورف أستوريا وأحاط به الصحافيون، والمراسلون المعروفون بحقدهم على القضية العربية، وراحوا ينشرون

تصريحات الملك الأردني بالتهديد والوعيد. . وكان الموقف صعباً ومحزناً للذين تعيش القضية العربية في اعماق قلوبهم. .

وتحدثت إلى الرئيس عبد الناصر ونحن في قاعة الجمعية العامة للأمم المتحدة عن خطورة الموقف، واقترحت أن أجتمع بالملك حسين وأقنعه أن لا يتعرض في خطابه للخلافات العربية، وأن أرتب اجتماعاً بينه وبين الملك حسين، فوافق الرئيس عبد الناصر على ذلك. .

ورحت من جانبي أتصل بالوفد الأردني. . فاجتمعت بالوزراء السادة بهجت التلهوني وهاشم الجيوسي وعبد المنعم الرفاعي وغيرهم، ورجوتهم أن يحملوا الملك حسين على أن لا يلقي خطاباً مثيراً. . وأن نترك أمور الوطن في الوطن. . ورجوتهم أن يهيئوا لي موعداً لمقابلة الملك والتحدث إليه في الموضوع. .

ومضى يومان من دون أن يتحدد الموعد. وفي صباح اليوم الثالث اتصل بي الوفد الأردني ليخبرني أن الموعد مع جلالته «غداً» ظهراً، وعلى الغداء. .

فسررت لهذه البادرة، وقلت في نفسي لعل الله يهدي العرب في المهجر بعد أن ضلوا في الوطن. . ولكن سروري لم يدم طويلاً. . فقد جاء الملك حسين إلى الجمعية العامة وألقى خطابه الموعود. . فإذا به إدانة وإنذار وتهديد، من غير أسماء، ولكن كان واضحاً أن الملك حسين كان يشير إلى الجمهورية العربية المتحدة وإلى الرئيس جمال عبد الناصر. .

وكان الرئيس عبد الناصر يستمع إلى خطاب الملك حسين. . ولكن بالتلفزيون من مكتب الوفد المصري. وقد أخبرني أن «العدسة» كانت تنتقل من الملك حسين إلى مقعدي في الوفد السعودي لتسجل للملك إشاراته ونبراته، وتسجلّ لي حركاتي وانطباعاتي. .

وفرغ الملك حسين من خطابه، والوفود المعادية شامتة، والصديقة مشفقة، ونهض آخر عضو على قائمة الوفد المصري، مبالغة في النكاية والزراية، فرد على خطاب الملك حسين وفند كلامه تهمة تهمة، من دون أن يشير إلى اسمه. . وللجمهورية العربية المتحدة براعة وخبرة في الزراية حينما تريد. .

وأصبح لقائي بالملك حسين «غداً» وعلى الغداء غير ذي موضوع فقلت لمدير مكتبي:

«إذهب إلى السيد بهجت التلهوني وقل له إنني ألغيت موعدي مع الملك حسين. .» فذهب إلى السيد التلهوني وأبلغه الرسالة، وعاد الملك حسين إلى عمان

ولم يكن في وداعه أحد من العرب إلا الوفد الأردني. .

وكان عليّ بعد أن صفيت حسابي الصغير مع الملك حسين، أن أصفي حسابي الكبير مع المجموعة التي تصدت للقضية العربية ولقضية فلسطين، أيزنهاور وكندي ونيكسون ومكميلان ونكروما.

وأحسب أن خير ما أستطيع أن أسجله في مذكراتي عن حواري مع هؤلاء الأقطاب، أن أثبت ردودي الرئيسية عليهم مترجمة إلى اللغة العربية، فإنها تلقي الضوء على الأجواء التي أحاطت بتلك «القمة التاريخية». :

«إن مؤتمر القمة الذي تشهده الأمم المتحدة في دورتها الحاضرة، بمن توافد إليها من الرؤساء، يهيئ فرصة فريدة لعرض القضية الفلسطينية من بعض جوانبها الهامة، وخاصة أن حملة التضليل الكبرى التي تقوم بها الصهيونية العالمية قد نشطت من حولكم نشاطاً ملحوظاً. .

«ومما تجدر الإشارة إليه أن عدداً من الشعوب المستعبدة قد بلغت حريتها واستقلالها، وشقت طريقها إلى الأمم المتحدة، وبهذا تضاعف عدد أعضائها، وبعد أن كانت مؤلفة من خمسين عضواً فقط أصبح عدد الأعضاء مئة دولة، وبهذا فإن الأمم المتحدة التي أنزلت بنا الظلم الفادح في عام ١٩٤٧ لم تعد قائمة الآن. . إن الكثرة أصبحت الآن للدول الآسيوية الأفريقية، وهذه باتت مصممة لا على إزالة الظلم فحسب ولكن على إقرار العدل والحق. .

«ولقد استمعتم إلى خطاب السيد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني وهو يتحدث عن الحق والسلام والعدل، بالنسبة إلى القضايا العالمية وإلى قضية الشرق الأوسط، ولقد نسي السيد ماكميلان أن السياسة البريطانية هي التي كانت السبب المباشر في كارثة فلسطين وتشريد شعبها، ونحن لا نعود الآن إلى أعماق التاريخ لنسأل السيد ماكميلان، من الذي أصدر وعد بلفور عام ١٩١٧، بإقامة وطن لليهود في فلسطين؟ ومن الذي وضع فلسطين خلال ثلاثين عاماً في ظروف هيأت لقيام إسرائيل؟. ولكننا نريد أن نسأل رئيس وزراء بريطانيا، وهو يتحدث عن الحق والعدل، أين هو الشعب الفلسطيني الذي تعهدتم بحمايته وصيانة حقوقه السياسية والدينية؟ وإذا كان السيد ماكميلان لا يريد أن يخبركم فأنا أخبركم. . إن شعب فلسطين يعيش في الخيام بعيداً عن مدنه وقراه، وعن وطن آبائه وأجداده. .

«وكذلك فإني لا أريد أن أضع عرضاً كاملاً للقضية الفلسطينية أمام الرئيس الغاني الدكتور نكروما، ويكفيني أن اؤكد لفخامته أن قضية فلسطين هي قضية شعب

يريد أن يعيش بسلام وكرامة وسيادة في وطنه، تماماً كما يعيش الشعب الغاني بكرامة وسلام وسيادة في وطنه، تحت قيادة زعيمه البطل نكروما..

«ولست أريد أن ألفت انتباه الدكتور نكروما إلى ميثاق الأمم المتحدة الذي ينص على تقرير المصير للشعوب كبيرها وصغيرها، ولا إلى قرارات الأمم المتحدة التي تؤيد حق اللاجئين بالعودة إلى ديارهم، ولا إلى إعلان حقوق الإنسان الذي يؤكد حق المواطن في العودة إلى وطنه متى شاء، ولكني سأقصر حديثي إلى الدكتور نكروما على الجانب الواقعي الإنساني الذي يدركه كل إنسان، من المستوى الأعلى حتى رجل الشارع.

«هذه قضية شعب عاش في وطنه عصوراً متطاولة في القدم وأصبحت فلسطين وطنه منذ فجر التاريخ فأحبها حب العبادة، وعبدها عبادة الحب، وأضاف إلى قداستها قداسة التضحية والفداء..

«ولقد عاش هذا الشعب حياته في وطنه، فبنى مساجده وكنائسه ومعابده، وأنشأ مدنه وقراه، وأقام مصانعه وزراعته، وفي هذا الوطن ترعرت آمال هذا الشعب وأمانيه، فتغنى بأمجاده وبكى لهزائمه وغنى لأفراحه وترنم في صلواته، وعلى الجملة فقد ساهم هذا الشعب في صنع التاريخ الإنساني حين لم تكن كثير من الأقطار في سجل التاريخ..

«وليعلم الدكتور نكروما أن هذا الشعب يعيش الآن عامة العاشر في الخيام وهو يرى على مرمى البصر الآلاف من المهاجرين اليهود يحتلون منازله، ويصادرون مزارعه ويستولون على مدنه وقراه، ويضعون أيديهم على كنوز من ثرواته التي جمعها بالجهد والعرق عبر الأجيال والأجيال.

«وإذا كان الدكتور نكروما قد تحدث عن الحالة الواقعية، فهذه هي الحالة الواقعية التي تستأثر بالعقول والقلوب، ولست أحسب أن بينكم رجلاً يتمتع بضمير نقي يستطيع أن ينكر على اللاجئين حقهم في العودة إلى وطنهم.

«ولا شك أن كثيراً منكم يدرك، ما معنى أن يكون الإنسان لاجئاً، فقد كان الكثير منكم في عداد اللاجئين شريداً طريداً، يقاسي وحشة الغربة وآلام الحرمان بعيداً عن الوطن.. واللجوء ينطوي على مشاعر عميقة، إنه الحنين الملتهب إلى الوطن، إنه العداء الإنساني المشروع لكل من يقف في طريق العودة، إنه الحرب المقدسة في سبيل تحرير الوطن وتحطيم الحواجز التي تحول دون الرجوع إلى الوطن..»

«وقد أشار الدكتور نكروما إلى ميثاق عدم الاعتداء بين الدول العربية وإسرائيل، وقد فات الدكتور نكروما أن قضية فلسطين هي قضية شعب فلسطين. . صحيح أن الدول العربية تؤيد القضية الفلسطينية، ولكن المشكلة أولاً وآخراً تتعلق بشعب فلسطين، إنه صاحبها وسيدها، وصاحب الكلمةالأولى فيها. . »

«وأود أن أذكر الدكتور نكروما أن شعب فلسطين ليس قطيعاً من الماشية يقاد إلى المراعي من غير إرادة، إن شعب فلسطين عريق ولا يمكن أن تتجاهلوا إرادته بهذه السهولة. لقد ساهم شعب فلسطين في بناء الحضارة العربية التي كانت قاعدة من قواعد الحضارة الإنسانية. . ولقد هام هذا الشعب بنضاله الوطني ضد الاستعمار قبل أن تقف كثير من الشعوب الممثلة في الأمم المتحدة على قدميها. . »

«وليسمح لي الدكتور نكروما أن أذكر له أن نضال الشعب الفلسطيني قد شمل الصعيد العالمي، فقد بعث بوفوده إلى مختلف أنحاء العالم لبسط ظلامته وشرح قضيته، وكانت له وفود إلى لندن وجنيف في عهد عصبة الأمم، وكانت له وفود إلى نيويورك في عهد الأمم المتحدة، وفي كثير من قرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن وجهت المنظمة العالمية إلى شعب فلسطين النداءات والطلبات. . ولو سألت المستر ماكميلان لأنبأك أن شعب فلسطين كافح الاستعمار البريطاني خلال ثلاثين عاماً بكل شجاعة وبسالة.»

«هذه هي قضية فلسطين في بساطتها العذراء، إنها قضية شعب يريد أن يعيش في وطنه كما تعيشون، وأن يقيم في مدنه وقراه كما أنتم تقيمون، وأن يمارس الحياة القومية كما تمارسون، ويتعبد في معابده كما تتعبدون. ليحذر كائن من كان أن يقف على هذا المنبر وينكر على الشعب الفلسطيني حقه في الوجود وحقه في العيش في وطنه، وليصمت من لا يستطيع أن يتكلم بالحق والعدل. .

«ولقد تحدث الرئيس نكروما ووفود من المعسكر الغربي عن سيادة إسرائيل وحقها في أن تمنع من تشاء من دخول أراضيها، وعن أمن إسرائيل وما يقضيه ذلك من عدم السماح لمن تشاء من دخول بلادها.

«وبالنسبة إلى اللاجئين فإن هذا الحديث باطل، وليس له أساس في مبادئ القانون الدولي ولا في ميثاق الأمم المتحدة. . إن اللاجئين فد وجدوا في وطنهم قبل وجود سيادتها. . وقد تمارس السيادة في منع الأجانب والغرباء، ولكن لا سيادة على أهل البلاد. .

«ومثل ذلك حكاية الأمن. . إن حق الفلسطينيين في وطنهم لا تحجبه دواعي الأمن لإسرائيل. . فإن «الدولة» التي لا يتوافر لها الأمن إلا بطرد المواطنين

الأصليين، ليست لها مقومات الدولة ولا تتمتع بأخلاقيات الدولة، وليست مؤهلة بأن تكون دولة من هذه الدول التي تحتل مكانها في الأمم المتحدة. .»

«أمّا الرئيس أيزنهاور فقد تناول موضوعاً يكشف عن مقارنة مفجعة بالنسبة إلى قضية فلسطين، لقد تحدث الرئيس أيزنهاور عن قضية الطيارين الأمريكيين الاثنين اللذين سقطا بطيارتهما في أراضي الاتحاد السوفياتي في شهر تموز/يوليو الفائت. . ولقد اعتبر الرئيس أيزنهاور هذا الحادث بأنه مبعث قلق للشعب الأمريكي وللشعوب الأخرى المحبة للسلام.

«ولكن ما هو هذا الحادث «الرهيب؟» إنه ببساطة حادث تجسس قامت به الولايات المتحدة على المنشآت العسكرية الروسية، ولقد أطلق الاتحاد السوفياتي النار على الطائرة الأمريكية فسقطت، ووقع الطياران الأمريكيان أسيرين في يد الاتحاد السوفياتي. فإذا كان الرئيس أيزنهاور اختار أن يأتي إلى الأمم المتحدة ليعرب عن قلق أمريكا والعالم الغربي لهذا الحدث «الخطير» فماذا تقول الأمة العربية وهي ترى الشعب الفلسطيني يقتلع من وطن آبائه وأجداده ثم يطالب بعد هذا أن يواجه الأمر الواقع؟

«وإن الأمر الواقع لا يمكن قبوله من غير تحقيق دقيق. إذا كان الأمر الواقع قائماً على الباطل فلا يمكن قبوله، وإن شعار الأمر الواقع، هو في الواقع شعار استعماري نابع من «فلسفة» الاستعمار الغربي، وقد تسلل إلى أذهاننا وأحاديثنا في غفلة عن مخاطره ومعانيه!

«إن على الدول الصغيرة أن لا تخدع بمثل هذه الشعارات. . إن العدوان يمكن أن يصبح واقعاً سياسياً، وحقيقة قائمة. . إن خرق حقوق الإنسان، إن انتهاك الحريات الأساسية، بل إن الاستعمار نفسه، كل ذلك يمكن أن يصبح واقعاً سياسياً وحقيقة قائمة، فهل علينا أن نقبل بالأمر الواقع، كما أراد لنا الدكتور نكروما والرئيس أيزنهاور؟ وهل علينا أن نقبل انتهاك الحق والعدل، وأن نخضع للاستعمار وأن نرضى بالعدوان تطبيقاً لسياسة الأمر الواقع؟

«ومن غير هذا المنبر تصدى السيدان نيكسون وكنيدي على المنابر الأمريكية للقضية الفلسطينية، فلقد دعا هذان السيدان وهما يتنافسان في حملة الانتخابات لرئاسة الولايات المتحدة إلى تأييد إسرائيل بالمال والسلاح، وقد بدا لنا أن هذه الانتخابات هي انتخابات إسرائيلية وليست أمريكية، كما بدا لنا أن السيدين نيكسون وكينيدي يخطبان في تل أبيب لا في نيويورك، وأن أمريكا قد أصبحت هي إسرائيل الكبرى. . وفي هذه الحملة الانتخابية أعرب المرشحان الفاضلان،

كينيدي ونيكسون، عن برامجهما السياسية في الشؤون الخارجية، وقد كانا مختلفين في كل شيء. . ولكنهما اتفقا على شيء واحد: تأييدهما لإسرائيل من غير تحفظ.

«لقد أعلنا أن إسرائيل موجودة في الشرق الأوسط لتبقى. . وإن لنا أن نسأل هل إسرائيل تبقى لتعتدي على شعب فلسطين وعلى الأمة العربية؟ وهل لإسرائيل أن تبقى من غير مبالاة بالأمة العربية بأسرها، وما تملك من مواقع استراتيجية وثروات ضخمة وإمكانات هائلة. .

بل إن لنا أن نسأل الولايات المتحدة: إلى متى هذا الحديث عن إسرائيل كأنما هي الدنيا بأسرها؟ وهل علينا أن نغسل أيدينا من الولايات المتحدة وإلى الأبد، ومن العدالة الدولية وإلى أبد الآبدين؟

«وها أنتم تبحثون الآن أزمة الشرق الأوسط، ثم تتساءلون عن حل لهذه الأزمة يعيد إلى الشرق الأوسط أمنه وسلامته. . وأحبّ أن أقولها لكم بكل صراحة ووضوح. . لا سلام مع الأمر الواقع. . وإذا كان الأمر الواقع هو نقطة البداية في الحلول التي تفكرون بها، فلن تكون هنالك حلول، ولن يكون هنالك سلام. . لأن الأمر الواقع هو سبب الأزمة التي تشكون منها. والتي اجتمعتم من أجلها، ومن أجلها جاء الرئيس أيزنهاور ليعرض المشكلة على منبر الأمم المتحدة. .

«وإن الخيار أمامكم واحد من اثنين لا ثالث لهما. لن يكون هناك تعايش مع العدوان، ولا تعايش مع الصهيونية، إننا لا نريد أن نلقي اليهود بالبحر، ولكننا لن نرضى أن يظل اللاجئون في الخيام في الصحراء. . وأن تظل إسرائيل الدولة في وطننا، ليس لإسرائيل الدولة مكان في الشرق الأوسط. .

«إن مفتاح الأزمة، هو في العودة، عودة أبناء فلسطين إلى فلسطين، وعودة اليهود إلى مواطنهم الأولى.

«وإن السلام القائم على العدل كما دعا إليه الرئيس أيزنهاور لا يتحقق إلا بهذا، وبغير هذا لا يتحقق. .»

كانت هذه ردودي في مجملها على أقطاب المعسكر الغربي. . وعلى الدكتور نكروما الذي وقع في الفخ الصهيوني عن علم أو غير علم. .

وقد تناولتني الصحافة الغربية كعادتها بالتهجم والسخرية، وأشارت لمناسبة انتقادي للرئيس أيزنهاور وماكميلان، والمرشحين كينيدي ونيكسون، أنني وضعت

نفسي في «حذاء» خروشوف . . وقد فاتهم أن دورة القمة بأسرها قد أدرجها التاريخ في لحده، ولم يبق منها إلا حذاء خروشوف . .

وفي الزيارة التقليدية التي تقوم بها الوفود إلى المستر داج همرشلد قبل عودتها إلى بلادها قلت للأمين العام للأمم المتحدة وأنا أودعه: «لقد باء مؤتمر القمة بالفشل، بل إنه كان قمة الفشل، وكنت أتمنى لو أن هذه الدورة انتهت إلى «حصيلة» واحدة . . »

قال المستر همرشلد: «وما هي؟ لعلنا نستطيع أن نعمل على تنفيذها . . »

قلت: «ليت الجمعية العامة تقيم متحفاً عالمياً . . »

قال: «من أجل ماذا؟»

قلت: «نقيم متحفاً نضع فيه حذاء المستر خروشوف ومعه ميثاق الأمم المتحدة . . »

فاكفهر المستر همرشلد، واحمر واصفر، وكان آخر اجتماعي به، فقد لقي مصرعه العام التالي على أرض الكونغو كما لقي مواطنه الكونت برنادوت مصرعه في شوارع بيت المقدس . .

وهوى مؤتمر القمة للأمم المتحدة إلى القاع، قاع التاريخ . .

مع الغرب والشرق

حوار السنين مع ملك بريطانيا ووزرائه والرئيس ترومان وحلفائه

نشأت منذ نشأت محباً للإنكليز، مفتوناً بتقاليدهم معجباً بأخلاقهم... ثم كبرت وأصبحت مبغضاً لهم، ناقماً عليهم، كارهاً لتصرفاتهم في الحق والباطل، وكبرت عداواتي لهم، وحملتها معي إلى الأمم المتحدة عبر خمسة عشر عاماً، فلم أسترح منهم ولم يستريحوا مني، إلا حينما انتهى عملي في الأمم المتحدة، أو كما أذاع راديو لندن شامتاً مبتهجاً، حينما «طرد الشقيري من خدمة المملكة العربية السعودية!» ونشأت منذ نشأت كارهاً للترك، لما كنت أسمعه صبياً عن مظالم الترك على العرب، ومحاولاته «تتريك» العرب، وطمس معالم لغتنا وديننا وحضارتنا..

ولم تكن هاتان الظاهرتان، حب الإنكليز وكراهية الترك، تخلوان من مفارقات عجيبة، فبالنسبة إلى الترك، هم أخوالي، فقد كانت والدتي تركية من الآستانة، تزوجها والدي حينما كان يعمل في دولة الخلافة الإسلامية، شأن الكثيرين من رجالات العرب وخاصة أهل الشام والعراق، وكانت لغتي الرسمية في البيت اللغة التركية، ولم أتعلم اللغة العربية إلا كما يتعلمها الغرباء، وإلى جانب ذلك فقد كان والدي من كبار رجال الدولة العثمانية وبلغ أعلى منصب ديني يستطيع أن يبلغه رجل عربي، وفوق هذا وذلك فقد كانت الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، وتدين لها الجماهير العربية بأعمق مشاعر الولاء... ولكن نوازع القومية العربية التي أخذت طريقها إلى أفئدتنا، أنا وجميع الجيل العربي المعاصر، قد تغلبت على جميع هذه العوامل..

أما الحب للإنكليز، فقد كان مصدره حبنا أنا وجيلي العربي المعاصر، لأمتنا العربية واستقلالها وحريتها، ولم نُبال أن الإنكليز ليسوا من ديننا، ولم يكن بيننا وبينهم تاريخ أربعماية عام من الحياة المشتركة، كالعهد بيننا وبين الترك.

وفي تلك الفترة من صباي المبكر، بين ١٩١٦ ـ ١٩٢٠، تسربت إلى خواطرنا

صورة عن الإنكليز تكاد أن تكون أسطورة في روعتها وجمالها . . وتفتحت أسماعنا على حكايات بارعة عن الإنكليز، فيها سحر الخرافات الخلابة!

وصل إلى أسماعنا في ذلك العهد نبأ ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية وتحالفه مع بريطانيا، ثم تواترت الأخبار بعد ذلك عن انضمام ضباط العرب الأحرار إلى ثورة الشريف حسين، وراحت قلوبنا الوديعة قبل ألسنتنا الناعمة تدعو الله أن ينصر الشريف وحلفاءه، ويهزم دولة الخلافة ومن معها، تطلعاً إلى دولة العرب الكبرى، لتعيد لنا المجد والحرية والوحدة.

وعلى أكناف هذه الأحلام الحبيبة تجمعت أقاصيص جميلة عن الإنكليز، في عدلهم وصدقهم ووفائهم، وساد اليقين بين سواد الناس أن الشرف الإنكليزي والذهب الإنكليزي لا يرقى إليهما انتقاض أو انتقاص!

ولم تكن هذه «الحقائق» تملأ وجداننا نحن الصبيان فحسب، بل كانت تعيش في ضمير الكبار من الرجال والنساء، والعامة والمثقفين على السواء . . إلى درجة اليقين والإيمان، بكل وضوح وبساطة . .

ثم أخذت بعد ذلك تترامى إلى أسماعنا أن الإنكليز قد أصدروا وعد بلفور، وكانت تركيا أول من أفشى هذه الأخبار وما وراءها من الأسرار . . فقال كبارنا الراسخون في العلم أن هذه دعاية معادية «لحلفائنا» الإنكليز، وأنه حتى لو صحت، فإن الإنكليز أهل عدل ووفاء، ولابد أن يصدقوا عهدهم إلى الشريف حسين.

ووقع الاحتلال البريطاني على فلسطين، وانهزمت الدولة العثمانية، وأخذ ت المخاوف تنساب إلى نفوسنا ونحن نرى طلائع الهجرة اليهودية تتدفق على فلسطين . . . ولكننا رحنا نعلل أنفسنا بأن الشريف حسين سيثور على الحلفاء، وأن لورنس صديق العرب سيحمل بريطانيا على إنصاف العرب.

وكان لورنس بنفسه نسيجاً من الخرافات ومزيجاً من الأساطير، ذلك ما ملأ أسماعنا، ونسبت إليه أنه وراء كل ثورة وأنه صانع الأحداث وترامى إلينا أنه حانق على دولته لأنها نقضت عهودها مع العرب، وأنه سيعيد أوسمته إلى ملك الإنكليز، وسيحرك الشعب البريطاني على حكومته . . وسيقيم الدنيا ويقعدها . . وأنه . . وأنه . .

وكشفت الأيام أن لورنس لم يكن أسطورة ولا خرافة، ولكن العرب أنفسهم كانوا هم الخرافة والأسطورة، فقد مضى الإنكليز في نكث عهودهم للشريف حسين، وحملوه إلى المنفى في جزيرة قبرص تحت رحمة حاكمها ـ ستورس، الذي كان

أثناء الحرب العالمية الأولى أحد البريطانيين الناشئين الذين عملوا في التمهيد للاتفاق بين الإنكليز والشريف حسين نفسه. .

وتكشفت لنا بعد ذلك المؤامرة الاستعمارية الكبرى، فنصَّب الإنكليز أنفسهم «دولة منتدبة» على فلسطين، عن طريق عصبة الأمم، وحملت لثلاثين عاماً، من سنة ١٩١٨-١٩٤٨، العبء الأكبر في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، بتشجيع اليهود في مجالات الإدارة والهجرة وامتلاك الأراضي، وقهر العرب، بقوانين الطوارئ، والسجون والمعتقلات، وأعواد المشانق. . والوعود المعسولة بأن بريطانيا ستحافظ على الحقوق السياسية والدينية لعرب فلسطين. .

ولم يأت عام ١٩٤٨ حتى كانت كل مقومات الدولة اليهودية قد ألقت جذورها على أرض فلسطين، وتناوحت معها رياح النزوح والرحيل، وهي تصيح: إلى خيامكم أيها العرب. . فكان رحيلنا ونزوحنا. .

وكنت واحداً من الشعب النازح، خلفت ورائي الوطن بأغلى ذكرياته وأقدس مقدساته، وامتلأت نفسي بكل أحاسيس النقمة والبغضاء والحقد على الإنكليز. . وبهذه الروح، وبهذه الروح وحدها، دخلت معترك الحياة الدولية في أواخر الأربعينيات، وكانت ساحتي الكبرى الأمم المتحدة بكل قضاياها الدولية، وفي الحروب الباردة حيثما كانت ميادينها. .

وكنت في هذه الفترة رئيساً للوفد السوري، ثم رئيساً للوفد السعودي. فلم أترك موضوعاً على جدول الأعمال إلا تدخلت فيه، من القضية الكورية، إلى نزع السلاح، إلى الإشعاعات الذرية، إلى قضايا الاستعمار والتمييز العنصري، إلى القضايا العربية، إلى القضية الكوبية. . . وكان همي الأول والأخير أن أتصدى للإنكليز، وأمريكا وفرنسا وإسرائيل، بمناسبة وغير مناسبة، ثم أذهب أبعد من ذلك، فأتصدى للاتحاد السوفياتي بالتأييد والمديح، بمناسبة وغير مناسبة!

وفي اليوم الأول الذي مارست فيه عملي في الأمم المتحدة في ليك سكسس، أجلت بصري في مقاعد الوفود من حولي، لأرى أين يجلس الوفد البريطاني لأراقب حركاته وسكناته وأترصد لكلماته.

وكان أول اصطدامي بالوفد البريطاني في اللجنة القانونية (السادسة)، وكانت تضم صفوة القانونيين في العالم، وكان السيد فيتيزجرالد موريس على رأس الوفد البريطاني وهو من كبار علماء القانون الدولي في بريطانيا، كما كان القاضي هدسون على رأس الوفد الأمريكي. . وكان الموضوع المدرج على جدول الأعمال: حقوق الدول وواجباتها. . وكان القانون الدولي لا يزال طريا في ذاكرتي، والمراجع بين يديّ

متوافرة، فحبست نفسي في الفندق ليالي متواصلة، وأنا أعد دراسة مستفيضة في الموضوع.

وحملت خطابي معي وذهبت إلى الأمم المتحدة، واسترسلت في سرد حقوق الدول وواجباتها، مستعرضاً تطور الموضوع منذ نشأت الدولة ونشأ القانون الدولي، مستنداً في كل ذلك إلى المراجع الإنكليزية، وكان أعضاء اللجنة في عجب من أمر هذا «الفلسطيني» الذي جاء من «المستعمرات البريطانية» ليجادل السيد موريس، العالم البريطاني الأول.

وانثنيت بعد ذلك أشرح تعريف الدولة ومقوماتها، وأنّ إسرائيل لا تنطبق عليها مبادئ القانون الدولي، وأنّ نشوءَها، والاعتراف بها، وعضويتها في الأمم المتحدة، كل ذلك يقوم على السياسة الاستعمارية، لا على مفهوم المبادئ القانونية.

وثارت ثائرة السيد موريس، وخرج عن وقاره ورزانته، وانضم إليه «روبنسن» رئيس الوفد الإسرائيلي، ودارت بيني وبينهم ملحمة قانونية، استنجد خلالها السيد موريس برئيس اللجنة، مناشداً أن نتكلم بروح الإنصاف.

ولاحت فرصتي فاستنفدتها إلى نهايتها، فتحدثت عن مظالم الإنكليز في فلسطين، ووجهت حديثي إلى السيد موريس في ختام كلامي، مقتبساً المبدأ القانوني الإنكليزي الشهير «من أراد الإنصاف فعليه أن يأتي بيديه نظيفتين».

وجاءني السيد موريس بعد ختام الجلسة وهو يقول: «ألا ترى أنه كان للإنكليز فضل كبير في فلسطين، وها قد أصبحت في المحافل الدولية تجادل عن معرفة واسعة في القانون الدولي؟»، قلت له: «وما نفع القانون الدولي إذا كان صاحبه قد أصبح لاجئاً؟»، فانصرف السيد موريس لا يملك جواباً.

ومضيت على هذه السيرة في الأمم المتحدة، أحمل بين جنبيّ الحقد الشريف والبغضاء الكريمة على الإنكليز ومعها أمريكا وإسرائيل، أتعقب آثارهم في كل لجان الأمم المتحدة في جميع دوراتها . .

وانتقلت هذه المعركة من نيويورك إلى جنيف في عامي ١٩٥٨-١٩٦٠، حين انعقد المؤتمر الدولي لقانون البحار لوضع مشروع متكامل عن المياه الإقليمية، ومداها وما يتصل بهذا الموضوع.

وكان المستر «هير» وزير المصايد البريطاني يرأس وفد بلاده إلى المؤتمر والسفير «دين» يرأس الوفد الأمريكي، ومعهما عدد كبير من خبراء القانون الدولي.

وموضوع قانون البحار له أهمية بالغة بالنسبة إلى الدول العربية، فقد كنا

حريصين أن يوافق المؤتمر على أن تمتد المياه الإقليمية اثني عشر ميلاً، بدلاً عن الأميال الثلاثة التي تواضعت عليها الدول البحرية في الماضي، وكنا كذلك نحرص أن نضع نصوصاً قانونية بالنسبة إلى موضوع الخلجان، بما يكفل لخليج العقبة أن يكون مياهاً داخلية عربية، لا مياهاً دولية مفتوحة للملاحة الدولية.

وكنت قبل سفري إلى جنيف قد اغتنمت فرصة زيارة السيد سمير الرفاعي رئيس الوزراء الأردني للرياض، فتحدثت إلى الملك سعود بشأن مؤتمر البحار وخليج العقبة، واقترحت أن يصدر بلاغ مشترك يعلن فيه الجانبان، السعودي والأردني، الالتزام بمبدإ الاثني عشر ميلاً، واعتبار خليج العقبة مياهاً عربية، فوافق الملك سعود على ذلك وصدر البلاغ المشترك.

وفي طريقي إلى جنيف سافرت إلى القاهرة، واشتركت في اجتماع مجلس الجامعة العربية ممثلاً للمملكة العربية السعودية، واقترحت أن تصدر الجامعة قراراً بتوكيد هذه المبادئ، وأن تلتزم بها الوفود العربية المشتركة في مؤتمر البحار في جنيف، فصدر القرار بالإجماع، وكان الأردن في مقدمة الدول العربية موافقة على القرار.

وبكّرت في السفر إلى جنيف وقضيت أياماً في قصر الأمم المتحدة، أنبش المراجع القانونية القديمة والحديثه، في كل ما له صلة في الموضوع.

وافتتح المؤتمر جلساته، وكانت الدراسات القانونية متوافرة بين يديّ، وقضيت شهرين كاملين في ربيع ١٩٥٨، وشهرين آخرين في عام ١٩٦٠، وشغلي الشاغل المياه الإقليمية وخليج العقبة، وكانت المعركة تشتد ضراوة بيني وبين الوفد البريطاني ومعه الوفد الأمريكي، وفي ذيلهما الوفد الإسرائيلي، وكان هؤلاء ومعهم بعض الدول البحرية يصرون على الأخذ بمبدأ الأميال الستة، واعتبار خليج العقبة مياهاً دولية مفتوحاً للملاحة الحرة.

وكان الاتحاد السوفياتي في الجانب المعارض، وكان طبيعياً أن يقوم بيننا وبينه تحالف في هذه المعركة البحرية . . على اليابسة، في قصر الأمم المتحدة في جنيف.

وأمطرت الوفد البريطاني وابلاً من الأبحاث القانونية، طبعها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير في ما بعد في كتاب مستقل باللغة الإنكليزية، ولم أعِفَّ عن الوزير البريطاني المستر هير، أرشقه بالسخريات اللاذعة، واضعاً وزير المصائد في المصائد!

وأقام الوفد الروسي حفلة للوفود، فجاءني المستر هير ومعه والدته، ليصافحني، والسيدة الوالدة تقول لي بكل رزانة ومرارة:

«لقد كنت قاسياً في حديثك عن بريطانيا».

قلت: «نعم إني أعترف بذلك. . وكنت كذلك قاسياً على السيد الوزير».

قالت: «هلا أصلحت بينكما؟»

قلت: «إني أُقدِّر فيك عاطفة الأمومة للسيد الوزير. . وإني أعتذر إليك عن قسوتي. . ولكن أرجو أن تشعري معي».

قالت: «بماذا؟»

قلت: «في فلسطين، في عهد الانتداب البريطاني، فجعت ألوف الأمهات بأبنائهن والزوجات بأزواجهن، والأخوات بإخوتهن، وهذا هو سبب قسوتي ومرارتي».

ورأيت السيدة الوالدة، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، فتركتها وانصرفت. .

وبعد معركة الجدال، والاستشهاد بالمراجع القانونية، أخذ الوفدان البريطاني والأمريكي يعملان في معركة الأصوات، فهذه المؤتمرات الدولية يقرر مصيرها في النهاية أصوات الأعضاء، لا أقوال العلماء.

وقامت الولايات المتحدة بحملة ضغط هائلة في كل أرجاء العالم، تناشد هذه الدولة، وتغري تلك، وتهدد وتتوعد هنا وهناك، والأمر له أهميته عند الولايات المتحدة من ناحية اقتصادية وعسكرية، فوق ما فيه من معارضة لروسيا وتأييد لإسرائيل. .

واتصلت أمريكا بالدول العربية واحدة واحدة. . وأصابت منا مقتلاً. . لقد كنت أخشى على الدوام أن تخذلنا الأردن، وتخذل نفسها، فإن خليج العقبة يجب أن يهم الأردن في المقدمة.

ولم ينفع البلاغ المشترك مع الرئيس الأردني السيد سمير الرفاعي، ولا نفع القرار الإجماعي الذي صدر عن مجلس الجامعة العربية في هذا الشأن.

وجاء يوم التصويت، فإذا بالسيد شكري المهتدي من القدس ممثل الأردن غائب عن الجلسة، فاتصلنا به في الفندق، فقيل لنا إنه غادر جنيف قبل يومين. . وعمّان تعتمد على الدوام أن تدفع إلى المآزق واحد من أبناء فلسطين، لتلوث سمعة فلسطين. .

وطرح الأمر للتصويت، فسقطت وجهة نظرنا بصوت واحد، وكأن القدر الساخر أراد أن تكون الهزيمة العربية على يد الأردن، وبصوت واحد هو صوت الأردن!!

وانتهى المؤتمر، وأنا أتميَّز غضباً على عمّان، وحكّام عمّان، ولكن ذلك لم يخفف

من حقدي على «حلفائنا الإنكليز والأمريكان» ومضيت في الأمم المتحدة أشد حقدا، لأنَّ استسلام عمّان كان وراءه الإنكليز والأمريكان.

وانعقدت الأمم المتحدة في دورتها الثالثة عشرة، ولاحت لي الفرصة لأُنَفِسَّ عن حقدي على بريطانيا مرة أخرى، وقد حدث في تلك الفترة أن «أسطول» الصيد البريطاني قد مخر البحار العالية، حتى وصل شواطئ آيسلندا، وبدأ يصطاد في المياه الإقليمية لهذة «الدويلة» المسكينة. . وعبثاً حاولت آيسلندا أن تستصرخ وتستنجد، لتحمي مصايدها ومورد رزقها من هذا العدوان البريطاني. «وتصيَّدت» هذا الحادث على منبر الأمم المتحدة، وليس بيننا نحن العرب وآيسلندا أية رابطة من قريب أو بعيد، وأخذ ت أشَنِّع على بريطانيا عدوانها وطغيانها، واتهمتها بأنها تطبق على اليابسة شريعة الغاب، وشريعة البحار في البحار، حيث تلتهم الحيتان الكبيرة الأسماك الصغيرة، ودعوت الأسطول البريطاني أن يجرب مغامراته لا مع آيسلندا الزميلة في حلف الاطلنطي، ولكن مع دولة أخرى في حلف وارسو!! ومضت الدورة من أولها لآخرها من دون أن يستطيع الوفد البريطاني أن يجيب بكلمة واحدة وأصبح الحديث عن «شريعة البحار» سخرية تلك الدورة.

وفي تلك الدورة بالذات تناولت موضوع «الحزام البريطاني» الذي أنشأته بريطانيا حول الجزيرة العربية، وفي هذا الموضوع تصاعد الحقد والحق معاً. فشرحت تاريخ الاستعمار البريطاني حول الجزيرة العربية، من الكويت حتى عدن، وكيف أن الامبراطورية البريطانية قد بسطت سيطرتها على الإمارات والمشيخات العربية في شرق الجزيرة العربية وجنوبها، لحماية قناة السويس، وللحفاظ على الهند، درَّة التاج البريطاني، ثم دعوت بريطانيا أن «تفك» هذا الحزام من حول الجزيرة العربية، فقد باتت قناة السويس في قبضة مصر، وأصبحت «الهند» مستقلة بدولتيها، وليس على بريطانيا إذا كانت مفتونة «بالحزام» إلا أن تنصبه حول الجزر البريطانية، لا حول الجزيرة العربية!! وفي هذا الموضوع كذلك لم يجد الوفد البريطاني ما يقوله، فقد أصبح الاستعمار لا يملك لساناً يتحدث به أمام الرأي العام العالمي.

ومع اعترافي بأن قلبي كان مملوءاً بالبغضاء، البغضاء العمياء، على بريطانيا غير أني لم أتخذ الأمم المتحدة منبراً للتجني على بريطانيا أو ميداناً للمهاترة بالباطل، ولكني كنت أحرص أن أهاجمها بالحق ولا شيء غير الحق. . وموضوع نزع السلاح مثل حي على ذلك. . وهذا الموضوع يدرج كل عام على جدول أعمال الأمم المتحدة باعتباره قضية دولية مزمنة، من مخلفات عصبة الأمم البائدة. . وكنت أخوض في هذا الموضوع من كل جوانبه، ومراجعه العلمية كثيرة، كأنني أُمثِّل دولة لها شأن كبير في موضوع نزع السلاح، وكنت أحوم حتى أصل إلى شحنات الأسلحة التي ترسلها

بريطانيا إلى إسرائيل . . وأتساءل: هل هذا هو نزع السلاح؟ هل هذه هي مساهمة بريطانيا في موضوع نزع السلاح؟ وهل هذه هي مساهمتها في إقرار السلام في الشرق الأوسط؟ وكان كل غرضي أن أبقي قضية فلسطين «حية» أمام الرأي العام العالمي، وأن «أفضح» السياسة البريطانية في المنظمة الدولية، على الدوام. . .

ونشأت بيني وبين الوزراء البريطانيين عداوة تقليدية في معالجة مختلف القضايا الدولية، وكان سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية واحداً من أولئك الساسة الإنكليز الذين وقعت بيني وبينهم ملاحم قاسية، زاد من ضراوتها أني كنت أعرف «مقاتل» السياسة البريطانية، معرفة علمية دقيقة.

وجاءت قضية قبرص، في صراع بين بريطانيا وتركيا واليونان والمطران مكاريوس. . وقد تصدّى وزراء الخارجية بأشخاصهم في معالجة الموضوع، وكان المستر سلوين لويد فارس المناقشات والمداولات وحوله الخبراء والمستشارون يحملون له في ملفاتهم ما بقي للاستعمار من حجج وأسانيد. وتصديت للمستمر سلوين لويد، أُزيّف حججه وأُسَخِّف أسانيده واحدة واحدة والوفود شامتة ساخرة. . .

ولقد أسهب المستر سلوين لويد في بداية دفاعه بأن قضية قبرص لا تمثل مشكلة استعمارية، وأن سيرة بريطانيا «الاستعمارية» كانت على الدوام تحضيراً وتمديناً للشعوب المتخلفة، وأنها سرعان ماكانت تمنح الاستقلال حين تبلغ تلك الشعوب النضوج الذي يؤهلها للاستقلال. . ولم يكد يفرغ سلوين لويد من هذه «الديباجة» حتى طرحت على الأمم المتحدة سيرة الاستعمار البريطاني في العالم، وما قاسته الشعوب المقهورة من ألوان العسف والجور على يد بريطانيا، واستعرضت تاريخ حروب التحرير التي قامت بها تلك الشعوب ضد بريطانيا لنيل حريتها واستقلالها وأن بريطانيا لم تخرج من تلك الأقطار مختارة إلا حين تكون قد فقدت قيمتها التجارية أو موقعها الاستراتيجي، أو أنها أصبحت عبئاً على الخزانة البريطانية، وأنَّ الشعوب التي خلعت النير البريطاني عن كاهلها قد شقت طريقها إلى الأمم المتحدة بالحديد والنار، بعد أن تعفرت بغبار الحروب ونزفت في ميدان النضال، وختمت بعد ذلك بأن دعوت وفود الأمم المتحدة لأن ترجع إلى كتاب المستر نهرو **اكتشاف الهند** لتطلع على الفظائع التي ارتكبتها بريطانيا في مقاومتها لحركة التحرير الهندية. . والمستر نهرو، كما قلت يومذاك، قد أصبح رئيساً لوزراء الهند، وبهذه الصفة فإنه يحضر اجتماعات مؤتمر الكومنولث البريطاني. . فهل يستطيع المستر سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية أن يكذبه؟!

وأثار المستر سلوين لويد بعد ذلك حجة انقلبت عليه، بدلاً من أن تكون له،

لقد أراد أن يجُر إلى جانبه الدول الغربية، فأعلن أن جزيرة قبرص لها أهمية خاصة في الدفاع عن مصالح الغرب ودول حلف الأطلنطي، فرددت عليه مرة ثانية مطالباً بأن لا تخونه ذاكرته «فلسنا في مجلس العموم البريطاني، ولكننا في الأمم المتحدة، ونحن هنا نبحث ميثاق الأمم المتحدة، ومصلحة الأسرة الدولية في مجموعها لا مصلحة الدول الغربية ودول حلف الأطلنطي، وكان الرد على عنفه وقوته، مستمداً من ميثاق الأمم المتحدة، فلم يستطع الوزير البريطاني أن يعلق أو يعقب.

ولكن «المطبّ» الكبير الذي وقع فيه المستر سلوين، وجعله أضحوكة الأصدقاء قبل الأعداء، هو ما أكدته من أن جزيرة قبرص «لازمة لبريطانيا للدفاع عن أصدقائها في البلاد العربية وخاصة شرقي البحر الأبيض المتوسط». ولم أتمالك أمام هذا الهراء البريطاني إلا أن صحت في وجه الوزير البريطاني أسأله «ضد من تريدون الدفاع عن البلاد العربية؟» ثم استطردت إلى القول: «إن البلاد العربية، إذا كانت في حاجة للدفاع عنها، فإنه دفاع ضد بريطانيا.. بريطانيا التي خانت العرب في الحرب العالمية الأولى.. بريطانيا التي قسّمت الوطن العربي.. بريطانيا التي أنشأت الوطن القومي اليهودي في فلسطين وغرست إسرائيل في قلب البلاد العربية.. بريطانيا.. بريطانيا..»

واتجهت الأبصار إلى سلوين لويد.

وأردفت قائلاً: «إذا كان الوزير البريطاني يريد أن يدافع عن العرب ضد الاتحاد السوفياتي فإنه يرتكب خطأً كبيراً.. إن الاتحاد السوفياتي لم يعتقل عربياً واحداً، ولا قتل مواطناً واحداً، ولا احتل من أرض العرب شبراً واحداً، ولا.. ولا وإذا كان العرب في حاجة إلى دفاع، فإنه دفاع ضد بريطانيا ومظالمها، ودفاع ضد الغرب وسياسته الاستعمارية». وقد ذهل أعضاء الأمم المتحدة وهم يستمعون إلى هذا الغزل المكشوف مع الاتحاد السوفياتي، ولم يسبق لأي مندوب في الأمم المتحدة، عربياً كان أو غير عربي، أن هاجم الدول الغربية بهذا العنف، وأثنى على الاتحاد السوفياتي بهذا السخاء..

وجاءت الدورة الرابعة عشرة للأمم المتحدة في خريف ١٩٥٩ لأجد نفسي في مواجهة مكشوفة هذه المرة بالنسبة إلى الملك «جورج السادس» بشخصه.. ومن فمه وكلامه..

وكنت أتحدث في قاعة الجمعية العامة ومن على منبرها، لا في إحدى لجانها، كنت أتحدث عن ازدواجية الولاء التي ينطوي عليها قيام إسرائيل والحركة الصهيونية فقرأت ما رواه والتر إيتان أحد سفراء إسرائيل، من أن الملك جورج السادس قد قال للحاخام الأكبر في بريطانيا وهو يستقبله في قصر باكنغهام بالاس «إنني قد اجتمعت بسفيركم بالأمس..» وجلالته يعني سفير إسرائيل.

وأجلت بصري في قاعة الجمعية العامة على سعتها، وهي مكتظة بالوفود والزائرين، وقلت مستهجناً: «اية ازدواجية أسوأ من هذه، حين يصف جلالة الملك جورج السادس السفير الإسرائيلي في لندن بأنه سفير الحاخام الأكبر في لندن.. سفير اليهود الإنكليز في إنكلترا.. و.. و..» وعبس الوفد البريطاني لأني تعرضت لجلالة ملك بريطانيا الذي يقول فيه القضاء البريطاني «إن الملك لا يخطئ» وعبس عدد كبير من وفود الدول الأعضاء الذين لا يقرون التعرض لرؤساء الدول.. ولكن جميع العابسين لم يترددوا لحظة واحدة في أن كلام «جلالته» كان طعنة قاتلة للاستعمار والصهيونية وإسرائيل مجتمعين ومنفردين.. وكان أفظع دليل على ازدواجية الولاء. وفي ردهة من ردهات الأمم المتحدة مرّ بي أحد أعضاء الوفد البريطاني، وقال: «ليتك تقتصر خطابك على وزراء بريطانيا بدلاً عن ملك بريطانيا..»

قلت: «وليت ملك بريطانيا يقتصر أحاديثه على المجاملات فلا يتعرض لقضية فلسطين.. ومع هذا فاني منتظر ما سيقوله المستر سلوين لويد في خطابه في الجمعية العامة.. وسأرد عليه إذا كان في خطابه ما يستحق الرد.. وهذا هو وعدي إليك..»

وقد صح التقدير، فقد انتصب المستر سلوين لويد على منبر الجمعية العامة، وتحدث طويلاً عن مبادئ الأمم المتحدة وميثاقها، ورثا لحال دولة لاوس التي «يجب المحافظة على سيادتها واستقلالها وأن يُضمن لشعبها أن يعيش في أمن وسلام» ثم بكى كذلك لحال التبت التي «يتعرض شعبها الشجاع الصديق للعدوان الجائر من غير شفقه ولا رحمة..» وكان سلوين لويد يشير إلى الصين الشعبية.

وعاد الوزير البريطاني إلى مقعده، ولا ينقصه إلا أن يتناول منديلاً ويمسح دموعه إشفاقاً على «لاوس» و«التبت» فنهضت إلى منبر الجمعية العامة لأقول للمستر سلوين لويد.. «إن الحرية لا تتجزأ.. ونحن نريد أن تنعم التبت بالحرية والسيادة، وأن تتمتع لاوس بالأمن والسلامة.. ولكن كيف أجاز الوزير البريطاني لنفسه أن يتحدث عن سيادة الشعب وأمنه وسلامته، وحكومته هي التي دمرت حياة «الشعب» في فلسطين بل هدمت وجوده، وكانت سبباً في تشريده وتشتيته..». واسترسلت في هذا الحديث مشيراً إلى ما صنعته بريطانيا من التجزئة في الوطن العربي.. وما أوقعته من البلاء على شعب فلسطين..

وفي الردهة نفسها من ردهات الأمم المتحدة، مررت بالوفد البريطاني لأقول له: «لقد أنجزت ما وعدت.. لقد رددت على الوزير البريطاني من كلامه وفمه.. وإذا تحدث جلالة الملك مرة ثانية فسأرد عليه من كلامه ومن فمه..»

ولكن الدورة الخامسة عشرة، خريف عام ١٩٦٠، كانت هي الدورة العظمى التي أفرغت فيها كل سمومي وأحقادي وثاراتي على بريطانيا . .

ففي تلك الدورة طرح الاتحاد السوفياتي مشروعه الشهير بإنهاء الاستعمار، وكأنما سقط هذا المشروع من السماء فتلبست بريطانيا من الرأس حتى القدمين، عارية مكشوفة، مفضوحة بمخازيها عبر السنين والأجيال.

ونهض رئيس الوفد البريطاني، وتحدث في تيه وخيلاء عن تاريخ الاستعمار البريطاني وأنه سيرة تحضير وتمدين . . وأنَّ بريطانيا قد أعدت شعوباً كثيرة للاستقلال، وأنه يسرها أن ترى هذه الشعوب وقد أصبحت أعضاء في الأمم المتحدة!

وكان عدد من أعضاء الأمم المتحدة ينظرون إليّ حين كان الوزير يتحدى بهذا الكلام الهراء. وهم يعلمون أنني لن أفلت هذه الفرصة . . والواقع أنني ما خيبت ظنهم، فلم يفرغ الوزير البريطاني من خطابه الطويل، حتى غادرت مقعدي إلى المنبر والدول الأفريقية والآسيوية ومعهم الدول الأمريكية اللاتينية تنتظر لبريطانيا تلك الساعة السوداء.

ولم يكن عسيراً أن أرد على «السيد النبيل» الوزير البريطاني، فإن موضوع الاستعمار خصيب رحيب، وكيفما ضربت أصبت، وبعد مقدمة، وجهت حديثي إلى الوزير البريطاني، بأني لن أرد بمقتبسات صحفية أو مقالات تاريخية، مما تكتبه الصحف والمجلات الروسية، وانما سأرد على الوزير البريطاني من فم «السيد سيسل رودس» صانع الاستعمار البريطاني في أفريقيا، وهو الذي سمِّيت روديسيا على اسمه.

وسردت للأمم المتحدة، ما قاله سيسيل رودس: «نحن البريطانيين أسمى أمة في العالم، وكل ما استوطناه في هذا العالم، كان من أجل خير البشرية جمعاء . . إن العالم يكاد أن يكون مقسماً . . وما بقي منه فقد تم توزيعه أو فتحه أو استعماره؛ وإذا كان هنالك إله، فإنه يريد مني أن ألوِّن أكبر رقعة في خريطة أفريقيا باللون البريطاني الأحمر . . وسأضم الكواكب إذا استطعت، وإنه ليحزنني أن أرى الكواكب صافية أمام ناظري، بعيدة عن متناول يدي». وعلقت على ذلك: «إن الاستعمار البريطاني كان يتطلع إلى امتلاك الفضاء في القرن التاسع عشر ولكنه الآن وفي القرن العشرين يتحدث في الأمم المتحدة عن استخدام الفضاء في الأغراض السلمية . . ولعل بريطانيا تدعو الآن إلى «سلام الفضاء» لا رغبة في السلام، ولكن لأنها مقصِّرة عن اللحاق بأمريكا وروسيا في غزو الفضاء . . ، وقد طرب الآسيويون لهذه السخرية اللاذعة تنصبّ على وجه الوزير البريطاني.

ثم عرّجت على ما زعمه الوزير البريطاني في خطابه، من أن بريطانيا قد عملت

على التقدم الاقتصادي للشعوب التي حكمتها، وخرجت صيحتي عالية في القاعة: «أي تقدم اقتصادي هذا الذي يتحدث عنه الوزير البريطاني؟ ألم يقل السياسي البريطاني الشهير، شمبرلن، إن الإمبراطورية البريطانية هي التجارة. .، ألم يقل هنري ستانلي، الاستعماري المعروف، في خطاب ألقاه في غرفة التجارة في مانشتسر أن وراء الكونغو أربعين مليوناً من البشر، ينتظرون من الصناعة في مانشسترأن تهيئ لهم الكساء. . وينتظرون من مصانع برمنغهام، أن تمدهم بكل ما يحتاجون اليه في حياتهم اليومية، وهذا دزرائيلي رئيس الوزراء البريطاني، ألم يعلن في خطابه الشهير في قصر كريستال أنه يعتبر الاستعمار أهم أهدافه. .، وهذا دزرائيلي ألم يقترض أربعة ملايين جنيه استرليني من روتشيلد ليساهم في شركة قناة السويس. . وكان ربح روتشيلد عن الأربعة ملايين مئة مليون جنيه إسترليني!»

ومضيت في هذه الاقتباسات، أُفند خطاب الوزير البريطاني بأقوال رؤساء بريطانيا السابقين واللاحقين. .، ودعوت الوزير البريطاني أن ينظر حوله في الوفود الجالسين في الأمم المتحدة، فإن كثيراً منهم «قد جاؤوا إلى المنظمة العالمية من المعتقلات والسجون، بعد أن قادوا معارك التحرير في بلادهم. . . كانت بريطانيا هي التي اعتقلتهم وسجنتهم. . وهذا هو السيد نهرو يحتل مقعده على رأس الوفد الهندي تحدثكم خطبه وكتبه كيف قضى أقسى أيام عمره في السجون والمعتقلات. .»

وحدث حين كنت أتكلم، أن انتقل وزير الدولة البريطاني «أورمبسي غور» من مقعده إلى مقاعد وفدي نيجيريا والكونغو، وقرفص على ركبتيه أمامهما ليتحدث إليهما، فأطلقتُ صيحة ثانية في القاعة، وقلت للوفود: «أنظروا كيف دار الفلك دورته. . انظروا كيف يركع الوزير البريطاني بين يدي وفدي الكونغو ونيجيريا، ليستجدي منهما ما يريد أن يستجدي!» ولقد أحسست إنني أشبعت كل حقدي وثأري. فقد كان الوزير البريطاني الشاب ابن أورمبسي غور الوزير البريطاني الوالد الذي كان معروفاً بصهيونيته الطاغية، وعدائه السافر لشعبنا وقضيتنا، ولم يبقَ أحد من الوفود والمتفرجين، إلا وقد وقف على قدميه ليرى الوزير البريطاني راكعاً على ركبتيه منحنياً أمام «الأفريقيين» من وفدي نيجيريا والكونغو، وأبصروا فعلاً أن الفلك قد دار دورته. .

وكانت الدورة السادسة عشرة لعام ١٩٦١، غنية خصبة، وجدت فيها كل «الخامات» التي أستطيع أن أصنع منها «المتفجرات» ألقيها في وجه الوفد البريطاني. . وفي ذلك العام كانت موجة عالمية للاحتجاج على الأسلحة الذرية، فقامت المظاهرات في كل أنحاء العالم تطالب الدول العظمى بوقف التجارب الذرية، وفي بريطانيا قامت حملة اعتصام كبرى، كان يقودها الفيلسوف البريطاني برتراند رسل، ما أدى إلى

محاكمته وسجنه. وكان اللورد هيوم رئيس الوفد البريطاني، فألقى خطاباً «فصيحاً» عن السلام، وندد بالحرب كوسيلة لحل المشاكل الدولية، ونهضت أعقب على خطابه، وأنا أشير إلى اعتقال الفيلسوف البريطاني برتراند راسل بأنه عمل تعسفي، حتى ولو كان منطبقاً على «القانون» في إنكلترا، وأعلنتُ أن «قانون» الأمم المتحدة لا يدينه بل يشكره ويكرمه، وأن الجدير بالإدانة هو «سجَّانه» الوزير البريطاني الجالس في قاعة الجمعية العامة. . ذلك أن «برتراند رسل قد خدم قضية السلم أكثر من جميع وزراء خارجية الدول الغربية مجتمعين».

وكان اللورد هيوم قد تعرض في خطابه إلى «المآسي» التي يقاسيها شعب برلين بسبب الحائط الذي يقسمها إلى شرقية وغربية، وما يلاقيه التجار والطلاب وأصحاب المصالح من عناء في الانتقال عبر هذا «الحاجز المصطنع». . وكان صوت اللورد هيوم يتهدج ويتلجلج حينما كان يذكر تفاصيل الوقائع «الدامية» التي وقعت على الألمان الأبرياء. . الذين أُطلقت عليهم النار من قبل جنود برلين الشرقية. .

«هذه دموع التماسيح يذرفها الرئيس البريطاني أمام الأمم المتحدة» ذلك ما بدأت به جوابي على اللورد هيوم. . واستأنفت حديثي قائلاً «نحن نتألم لآلام الإنسان أينما كان. . ولكن ما للوزير البريطاني ينسى مدينة القدس، التي تقدسها الأديان السماوية الثلاثة. . ألم يفصلها خط الهدنة إلى القدس القديمة والقدس الجديدة على حال أسوأ من برلين؟ ولماذا لا يبكي اللورد هيوم لحال أهالي القدس القديمة الذين لا يستطيعون الوصول إلى أحيائهم ومنازلهم ومتاجرهم ومصانعهم في القدس الجديدة؟ وإذا حاولوا الدنو منها أطلق الإسرائيليون عليهم وابلاً من النار. . . يبدو لنا أن اللورد هيوم قد اتخذ من حائط برلين حائط مبكى، يذرف دموع الشفقة والرحمة على شعب برلين، في حين أن الحكومة البريطانية قد أنزلت بالشعب العربي في فلسطين على مدى ثلاثين عاماً ما هو أحق بالدموع. . ولكن عين بريطانيا عازمة أن تبكي في برلين وكفى، وعلى حائط برلين وكفى!

وكان موضوع تقرير المصير الميدان الفاصل الذي وقع فيه الصراع بيني وبين اللورد هيوم، فقد تحدث الوزير البريطاني بإسهاب وإطناب عن حق تقرير المصير. . وكان يعني بذلك شعوب أوروبا الشرقية وما «تعانيه» من سيطرة النفوذ الروسي، وأخذت الوزير البريطاني بتلابيبه وقلت: «هذا «تعهير» لتقرير المصير. . إن الوزير البريطاني ينسى شعب عُمان وحقه في تقرير المصير، وينسى شعب المحميّات وحقه في تقرير المصير، وينسى شعب عدن وحقه في تقرير المصير. . لقد كان الوزير البريطاني يتحدث عن تقرير المصير بكل ورع وتقوى. . حتى أصبح تقرير المصير عظة دينية تلقى في الكنيسة يوم الأحد. . وبهذا استحق اللورد هيوم أن يُرسَم «صاحب

النيافة مطران الأمم المتحدة». وتفجرت قهقهات الوفود وضحكات الزائرين، وخرج رئيس الدورة عن حيائه ووقاره واسترسل في ضحك طويل . .

تلك كانت سيرتي ومسيرتي في الأمم المتحدة مع بريطانيا، تصديت لجلالة الملك، ورئيس وزرائه ووزرائه في كل مناسبة وعند كل موقف، حتى أصبحت في الأمم المتحدة العدو الأول للسياسة الغربية متمثلة في بريطانيا وأمريكا، كما أُعرف بالحليف الأول للسياسة الروسية . . وإني لأذكر أن الوفد البريطاني قد أراد مرة أن يهنئني على الطريقة الإنكليزية الباردة، فوقف على المنبر ليقول: «إنني لا أريد أن أجيب السيد الشقيري وزملاءه الشيوعيين . . » وقد أراد بهذا أن يعتبرني شيوعياً وفي المقدمة . . فأجبت على الفور ومن على المنبر: «إنني لست شيوعياً بالتأكيد . . ولكني أشكر الوفد البريطاني أنَّه لم يقل: «السيد الشقيري وزملاءه الاستعماريين . . »

أما الأمر مع أمريكا فقد كان حالي فيه كالأمر مع بريطانيا، بل أقسى وأشد . .

ولقد نشأت أول ما نشأت محباً لأمريكا مفتوناً بالأمريكان. وكنت مع جيلي في أوائل العشرينيات، يملأ أسماعنا أن الولايات المتحدة دولة ديمقراطية تناصر الشعوب الضعيفة، وأنها على خلاف بريطانيا ليست لها مستعمرات، وأنها حاربت الاستعمار البريطاني، وليس من المعقول أن تؤيد الاستعمار . . وجاءت مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر، فبهرتنا بما أعلنت من مبادئ الحرية والعدل وتقرير المصير . .

وفي خلال الثلاثين عاماً التي شهدنا فيها مظالم الانتداب البريطاني، كنا لا نزال نعلق الآمال الكبار على عدالة السياسة الأمريكية وميلها إلى الإنصاف، وإن كنّا نعلم أن الولايات المتحدة قد وافقت على وعد بلفور وعلى صك الانتداب.

وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، حتى انطلق ترومان في تأييده للسياسة الصهيونية، فانقلب ولاؤنا إلى عداء . . وأصبحنا نرى في الولايات المتحدة العدو اللدود، يمد الصهيونية بقوة وفتوَّة، حين شاخت السياسة البريطانية، وبنت الوطن القومي اليهودي، تاركة لأمريكا العبء الباقي . . إقامة الدولة ـ إسرائيل.

وقامت الولايات المتحدة بذلك الدور الرهيب، في الأمم المتحدة وخارجها، بإقامة إسرائيل والاعتراف بها، ومدِّها بكل أسباب الحياة سياسياً وعسكرياً واقتصادياً، بقاء وعدواناً وتوسعاً . .

وبات جيلنا الذي فتح عينيه على حُبّ الأمريكان والتغني بعدلهم وإنصافهم، حانقاً حاقداً، مبغضاً كارهاً، وقد حملت بين جنبيّ مشاعري ومشاعر جيلي بأسره، إلى الأمم المتحدة، أفجّرها حمماً على الولايات المتحدة وأنصارها، ما وجدت إلى ذلك

سبيلاً . . وكان طبيعياً أن أبدأ حملاتي على الرئيس ترومان . . العدو الأول للأمة العربية ولشعب فلسطين . .

ولم أغفل دقيقة واحدة عن فرصة واحدة، فقد جاء الرئيس ترومان عام ١٩٥٠ إلى ساحة الأمم المتحدة في نيويورك ليضع الحجر الأساسي في مقرها الحاضر . . في احتفال ضخم مهيب . . ، وتحت أضواء المصورين ووسط رتل طويل من أكاليل الزهور وضع الرئيس ترومان الحجر الأساسي . . ووضع تحته ميثاق الأمم المتحدة تذكاراً لهذه المناسبة العظيمة . .

وما هي إلا أيام قلائل حتى كنت أتحدث في الأمم المتحدة في ليك سكسس عن حقوق الإنسان، وكيف جرؤت الولايات المتحدة على انتهاك حق الشعب الفلسطيني في وطنه، مخالفة بذلك ميثاق الأمم المتحدة، وأردفت قائلاً: «ولكن الرئيس ترومان قد جنى على الأمم المتحدة نفسها، فقد تولى بيديه «دفن» ميثاق الأمم المتحدة تحت الحجر الأساسي في احتفال عظيم غير كريم . . »

وقد انتهت ولاية الرئيس ترومان، ولكن ما كان لأحقادي أن تنتهي، فقد كنت أتصيد مواقفه وتصريحاته، حتى بعد أن خرج من البيت الأبيض، ففي ١٨ أيلول/ سبتمبر سنة ١٩٦١، وكانت دورة الأمم المتحدة في عشية انعقادها، أدلى الرئيس ترومان بتصريح صحافي بصدد التجارب الذرية قال فيه: «إنني لا أبالي أين تقوم التجارب الذرية . . إن التجارب الذرية هي ضرورة للحرية الإنسانية . . ». وضجت القاعة في استنكار لهذا التصريح . . وقلت حينها: «لا تتعجبوا من هذا الحديث فإن الرئيس ترومان الذي كان السبب المباشر في تشريد شعب من وطنه في فلسطين، لا يستبعد عليه أن يدلي بهذا التصريح من غير شعور بالمسؤولية، أَوَليس ترومان صاحب قنبلة هيروشيما، التي لا يزال ضحاياها الأحياء يموتون موتاً بطيئاً . . ولا تزال أخبارهم تملأ الصحف العالمية منذ عام ١٩٤٥ إلى يومنا هذا . . »

وفي أعقاب مؤتمر الدول غير المنحازة الذي انعقد في بلغراد في عام ١٩٦١ أدلى الرئيس ترومان بتصريح صحافي قال فيه: «إن على الدول المحايدة أن تنحاز إلى العالم الحر لأننا نحن الذين جعلناهم أحراراً . . وفوق هذا فإن العالم الحر، وبالتخصيص الولايات المتحدة قدمت ما بين الحرب العالمية الثانية وأيلول/ سبتمبر سنة ١٩٦١ ما يقارب ستة بلايين دولار إلى أربع وعشرين دولة من الدول غير المنحازة . . ». وخاطبت الوفد الأمريكي بلهجة غاضبة تحمل استنكار الدول غير المنحازة وأنا أقول له: «إن العالم الحرّ لم يعمل على تحريرنا، ولكننا تحررنا من العالم الحر . . بدماء شعوبنا، في معارك ضارية، فانتزعنا استقلالنا غلاباً ولم يمنح لنا عطاء . . ثم أصبحنا

في مجموعة الدول المحايدة لأننا كرهنا أن نكون في المعسكر المسمى بالعالم الحر، لأنه عالم متحرر من الحرية. . أما المعونات الاقتصادية التي قدمتها الولايات المتحدة، فهل نسي الوفد الأمريكي ومعه الرئيس ترومان أن الولايات المتحدة قدمت إلى إسرائيل وحدها ثلاثة بلايين دولار، مساعدة مالية، ولو قيست إسرائيل إلى الدول المحايدة، مساحة وسكاناً لكان نصيبها من العون الأمريكي ٦٠٠ دولار. . »

وفي عام ١٩٦٠ كانت الأمم المتحدة تناقش موضوع الاستعمار، والعمل على تصفيته، وقد تنطّعت الولايات المتحدة لبيان دعمها للحركات التحريرية في العالم، ولكن الوفود قابلت هذا الحديث بالابتسامات الصفراء، وتصديت بدوري للوفد الأمريكي أبيِّن بالوقائع المسلسلة منذ الحرب العالمية الثانية، أن الولايات المتحدة، قد اصطنعت أسلوباً جديداً في السيطرة على مصائر الشعوب، هو الاستعمار من غير حكم. . . وأنَّ المعونات الاقتصادية التي بذلتها أمريكا بسخاء للشعوب المتخلفة، قد جعلت منها أسواقاً مفتوحة للتجارة الأمريكية، وتبعية سياسية في الميدان الدولي، وهذا هو الاستعمار الجديد يملي إرادته بالمال بدلاً عن الحديد والنار. . . ثم سردت القضايا الدولية التي وقفت فيها أمريكا إلى جانب الاستعمار البريطاني والإفرنسي والبلجيكي والهولندي. . ورجعت بعد ذلك إلى أيام سان فرنسيسكو يوم وضع ميثاق الأمم المتحدة، وكيف أن وزير الخارجية الروسية مولوتوف، قد اقترح أن ينص الميثاق على أن هدف «الوصاية» هو بلوغ الاستقلال. . وعارضه الوزير الأمريكي ستاتينيوس مصرّاً أن يكون الهدف «الحكم الذاتي»، وقد نهض الوفد الأمريكي إلى المنبر ليرد عليَّ، ولم يجد ما يقوله إلا أن «الشقيري يردد الأكاذيب الشيوعية»، وعاد المندوب الأمريكي إلى مقعده من دون أن يكترث له أحد من الوفود حتى الذين امتلأت جيوبهم بالدولارات الأمريكية!

وفي عام ١٩٦١ ألقى الرئيس كيندي خطابه الشهير في الأمم المتحدة، فاستعرض القضايا الدولية، مبتدئاً بمشكلة برلين، واستشهد بالأمر الذي أصدره القيصر بأنه «من هذه الساعة يجب أن تقفل الحدود، بحيث لا يستطيع إنسان واحد أن يتجاوزها، فلا يهرب أرنب ولا يطير غراب. . «ومضى الرئيس كيندي مفاخراً بأنه منذ الحرب العالمية الثانية، فقد تحقق استقلال ٤٢ شعباً ودخلوا الأمم المتحدة. . وأنَّ الولايات المتحدة ليست لها سيرة استعمارية. .

ولم يكن الرئيس كيندي «شريراً» مثل الرئيس ترومان. . ولكن الولايات المتحدة قد استمرت في عهده على مساعداتها لإسرائيل. . وقد غاظني من الرئيس كيندي قبل أن يلقي خطابه بأيام أنه أرسل برقية إلى أحد المؤتمرات الصهيونية، تضمنت إطراء سخياً لإسرائيل، الدولة «الديمقراطية ذات التقاليد المشرفة، في الحرية والعدل

والسلام والالتزام بأقدس التعاليم اليهودية . . » وقبل هذه البرقية بأيام كانت إسرائيل قد اعتدت على القرى الأمامية في الأردن!

فلم أطق صبراً على الرئيس كيندي، وحين جاء دوري في المناقشة في الجمعية العامة تناولت خطاب الرئيس كيندي بالتفنيد والتنديد، وذكرت له أن اقتباسه من أوامر القيصر لا ينطبق على برلين . . فالذين في برلين الشرقية والغربية هم من الشعب الألماني صاحب الحق في وطنه، ولكنه ينطبق على بيت المقدس، حيث يعيش في القدس القديمة أصحاب البلاد الأصليين، وفي القدس الجديدة يقيم المهاجرون الذين وفدوا على البلاد ظلماً وعدواناً . . أما بالنسبة إلى سيرة أمريكا فقد كانت عطرة إلى الحرب العالمية الأولى . . ولكن بعد ذلك أصبحت الدول الاستعمارية «شرطة» في خدمة السياسة الأمريكية في العالم . . وختمت بياني وأنا أسأل الوفد الأمريكي : «إلى متى هذا التأييد الأعمى لإسرائيل؟ إلى متى ستظل أمريكا هي إسرائيل الكبرى؟ إلى متى تبقى الانتخابات الأمريكية كأنها انتخابات إسرائيلية؟ لقد أعلنت الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل في أربعة أيام متوالية من الشهر الماضي، كما لو كان الأمر تمريناً رياضياً، ففي ٦ آب/ أغسطس أصدر المجلس التشريعي في كاليفورنيا قراراً بتأييد إسرائيل، وفي ٧ آب/ أغسطس أصدرت لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس قراراً بتأييد إسرائيل، وفي ٨ آب/ أغسطس أصدر حاكم نيويورك (روكفلر) بياناً بتأييد إسرائيل. وفي ٩ آب/ أغسطس أصدر السيد راسك وزير الخارجية بياناً بتأييد إسرائيل، فأين العدل والإنصاف؟ وأين جميع المبادئ التي تحدث عنها الرئيس كيندي بسخاء . . . »

وكان جناح الزائرين مملوءاً بالأمريكان، البيض والزنوج، فخرجت الصيحة من صفوفهم : «لتسقط إسرائيل!!» وامتدت أبصار الوفود إلى الوفد الأمريكي وقد «تسمَّر» في مقاعده لا يستطيع حراكاً . .

وفي عام ١٩٦٢، تقدمت كوبا بشكواها على أمريكا، ولم تتردد أمريكا بالاعتراف بصحة الشكوى، فقد نشرت الصحف الأمريكية صوراً لمعسكرات الكوبيين الذين تدربهم السلطات الأمريكية على حمل السلاح، للقيام بغارات على كوبا، كما أن إدارة المخابرات الأمريكية وأوساط الكونغرس الأمريكي، قد أيّدت دور أمريكا في دعم «اللاجئين» الكوبيين للقيام بأعمال عسكرية في داخل الأراضي الكوبية . . وكان الصراع شديداً بين الوفد الكوبي والوفد الأمريكي حول الخلافات القائمة بين كوبا والولايات المتحدة، ولم يكن أحد يظن أن للعرب مكاناً في هذا الموضوع الخطير، وخاصة أن الولايات المتحدة قد كشَّرت عن أنيابها في تلك الفترة، وكانت مستعدة أن تخوض حرباً نووية إذا اقتضى الأمر، بسبب ما أقدمت عليه روسيا

من تكديس الصواريخ الذرية في كوبا . . ولم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من هذا الحوار فقد كان الجو ساخناً!

ولكن فلسطين أصبحت قضيتها متغلغة في كل قضية دولية . . ورأيت أن الفرصة سانحة لكي «أنخس» الولايات المتحدة في أكثر قضاياها حساسية وخطراً، وأبعدها أثراً . . علّها تستيقظ وتصحو، وترى مبلغ الظلم الذي أنزلته بشعب فلسطين وبالأمة العربية، ورفعت يدي أطلب الكلمة، وأرهفت الآذان، وساد القاعة جو ساخن من الذهول: ماذا سيقول الشقيري في هذه المعركة الضخمة بين العملاقين الكبيرين، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . . ولكني تحدثت . . وتحدثت . .

قلت: «إن الولايات المتحدة لا تنكر التهمة الموجهة إليها . . فإن حكومة الرئيس كينيدي قد اعترفت بأنها تدرب «اللاجئين» الكوبيين على حمل السلاح، وتدفعهم للقيام بغارات هجومية على الأراضي الكوبية «لاسترداد» بلادهم . . وإني لأسأل الرئيس كنيدي، لماذا لا يدرب «اللاجئين» الفلسطينيين على حمل السلاح ليستردوا بلادهم!! إن الأمم المتحدة قد اعترفت بحق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم . . وقد رفضت إسرائيل عودتهم . . ولم يبقَ أمام الفلسطينيين إلا السلاح . . فلماذا لا يفعل الرئيس كنيدي للفلسطينيين ما يفعله للكوبيين؟». وأخذ الذهول يهدأ تدريجياً . . فقد بات واضحاً أن «الشقيري» قد عقد مقارنة صحيحة بين الكوبيين والفلسطينيين، ولم يقحم قضية فلسطين على القضية الكوبية اعتباطاً . .

ثم انتقلت إلى الموضوع الخطير . . . موضوع الأسلحة الذرية الروسية المكدسة في كوبا وقلت صائحاً: «إن كوبا، تبعد تسعين ميلاً عن شواطئ الولايات المتحدة . . والولايات المتحدة، وهي أول دولة ذرية في العالم، قد خشيت على أمنها وسلامتها من الأسلحة الذرية المكدسة على أراضي كوبا . . ولكني أسأل الرئيس كنيدي ماذا يقول عن إسرائيل، التي تواترت الأخبار عن استعداداتها الذرية، وإسرائيل احتلت أرضنا، وهي ليست بعيدة تسعين ميلاً عنا ولكنها في قلب وطننا الكبير . . إن الرئيس كينيدي يتأهب الآن لغزو كوبا دفاعاً عن أمريكا . . فهل للولايات المتحدة أن تفهم مخاوف العرب وقضية العرب؟ . وهل؟ . وهل . . ». واسترسلت في هذا الحديث الضاري وسط هذا الحوار الضاري، وأصدقائي من الوفود العربية والصديقة مشفقون عليّ أنني تصديت للولايات المتحدة في أخطر مشاكلها . .

وقامت قيامة الصحف الأمريكية في اليوم التالي، ونشرت جريدة **النيويورك تايمس** صورتي غاضباً، وأنا أصوب قلمي إلى الوفد الأمريكي متسائلاً مستنكراً . . وقالت **الهيرالد تريبيون**: «إن الشقيري لا يمثل المملكة العربية السعودية في هذا

التهجم على الولايات المتحدة. . لقد أصبح «الشقيري» بشخصه الدولة الثالثة بعد المابة في الأمم المتحدة»، وكان أعضاء الأمم المتحدة في ذلك الوقت ١٠٢.

والواقع أن هذا الكلام صحيح، فقد أصبحت الدولة الثالثة بعد المائة. . فإن جميع مناقشاتي في الأمم المتحدة كانت من غير تعليمات. . بل إنها تخالف التعليمات. . وصحيح أيضاً، أنني لم أكن في مواقفي في الأمم المتحدة أُمثِّل المملكة العربية السعودية. . ولكن الصحيح أيضاً إنني كنت أُمثِّل مشاعر الأمة العربية في جميع أقطارها وديارها. . وبهذا فقد أصبحت عبئاً ثقيلاً على المملكة العربية السعودية، وهي دولة لها مصالحها وارتباطاتها ونظرتها السياسية، ولست أحسب أن دولة عربية أخرى كانت تتحمل أن يمثلها رجل يتكلم بعاطفة الجماهير، لا بلغة الدبلوماسيين المحترفين. . أو السياسيين الموظفين. . ولست أحسب كذلك أن الجمهورية العربية المتحدة في ذروة «ثوريتها» كانت قادرة أن تتحمل مغامراتي الثورية في الأمم المتحدة. ذلك كان «ضعفي» الكبير. . وبذلك أعترف. .

وجاء موضوع آخر: سأتعرض له في مكان آخر، فلقد فصلت من خدمة المملكة العربية السعودية، وانطلقت الزغاريد من واشنطن ولندن، جذلانة فرحانة، بهذا الخبر البهيج، وأعلنت **نيويورك تايمس** «طرد الشقيري من الأمم المتحدة»، وأذاع راديو لندن «طرد الشقيري من المملكة العربية السعودية»، ولم أكن أستبعد هذه النتيجة، فقد كنت أتوقعها منذ زمن. .

ولكني لا أنسى ذلك اليوم الذي جاءني فيه الدكتور بشير العظمة، وكان رئيساً للوفد السوري في الأمم المتحدة، ليبلغني برقية من السيد خالد العظم رئيس الوزراء «بأنَّ سوريا ترحب بك. . وأنَّ مكانك محفوظ في الحكومة السورية. .». فشكرت وشكرت. . وكدت أعود إلى خدمة الحكومة السورية لولا أن «القدر» قد جرَّني إلى ميدان آخر. . لأُنشئ الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وأحمد الله أنني في عملي في الأمم المتحدة رئيساً للوفد السوري ورئيساً للوفد السعودي، قد وقفت على الصعيد الدولي مع قضايا التحرير، ومكافحاً الاستعمار في كل مواقفه، وعلى الصعيد العربي ناضلت كجزائري في القضية الجزائرية، وتونسي في القضية التونسية، وليبي في القضية الليبية، ومغربي في القضية المغربية، وعُماني في القضية العُمانية، وفلسطيني في القضية الفلسطينية. .

ولكني أولاً وآخراً مثلت مشاعر الجماهير العربية. .

وبذلك أفتخر. . وبذلك أعتز.

أيام مع خروشوف وكوسيجن

وكما نشأت أول ما نشأت محباً للإنكليز والأمريكان، ثم انقلبت وأصبحت عدوهم الأول، فكذلك نشأت أول ما نشأت كارهاً للاتحاد السوفياتي، ثم انقلبت وأصبحت صديقهم الأول . .

وقد بدأت كراهيتي للاتحاد السوفياتي في أوائل العشرينيات، منذ أن كنت صبياً، أستمع في «ديوان» بيتنا في عكا إلى عمي، وهو يقرأ صحيفة **المقطم** القاهرية على جمع من الزوار المتقاعدين من بقايا موظفي الدولة العثمانية . . فقد كانت عناوينها البارزة مثيرة إلى حد بعيد، وكانت أخبارها تتحدث عن المجازر البشرية التي يقوم بها الشيوعيون في أنحاء روسيا، وما يلحق ذلك من هدم المعابد، والدعوة إلى الإلحاد، وإهدار الحرمات وإفشاء الحياة الإباحية، وكان الزائرون المتقاعدون يستفظعون هذه الأخبار ويتوجسون خيفة أن تكون «القيامة» قد اقتربت، فكل ما جرى في الاتحاد السوفياتي، على حد قول عمي ورفاقه، هو من أشراط الساعة . . والعياذ بالله . .

وكنا نحن الصبيان، نلتقي في المدرسة ونتناقل هذه الأخبار فيما بيننا ونتساءل عن حقيقتها، وكان أهم ما يقلقني من الشيوعية كما وصلت إلى أسماعنا يومئذ أمور ثلاثة: أولاً: أن الشيوعية تستهدف إنشاء دولة عالمية واحدة، ونحن لم نتمتع بعد بقوميتنا وحريتنا واستقلالنا، ثانياً: أن الشيوعية دعوة إلحادية، ونحن أمة متدينة، وإلينا ينسب دين الإسلام، وهو تراثنا وحضارتنا وتاريخنا . . ثالثاً: أن الشيوعية تدعو إلى الإباحية، ونحن أمة محافظة ذات تقاليد، والأسرة عندنا هي جوهر حياتنا.

ولكن . . حين بدا لنا أن حلفاءنا الإنكليز قد خانوا عهودهم، وأخذوا في بناء الوطن القومي اليهودي في وطننا، راحت عقولنا تتحرك بحثاً عن النصير . . ليعيننا في حركتنا القومية . . ولم نجد هذا النصير في ألمانيا وتركيا، فقد خرجتا من الحرب مهزومتين، ولم تكن ألمانيا الهتلرية وإيطاليا الفاشستية قد ظهرتا بعد على مسرح القوة الدولية . . وانتقلنا من الصبا إلى الشباب، الشباب المثقف

القارئ. . ورحت مع جيلي من الشباب أبحث عن الحقيقة. . وعن النصير. .

وترامى إلينا في أوائل الثلاثينيات أن السيد حمدي الحسيني صاحب جريدة **صوت الحق** في يافا هو شيوعي، وأنَّ السلطة البريطانية تراقبه وتطارده، وتعتقله من حين إلى حين. . وأنه يسافر إلى أوروبا لحضور مؤتمر «العصبة العالمية لمقاومة الاستعمار».

ولقيت السيد حمدي الحسيني عدة مرات، واستمعت إليه وهو يخطب في النوادي عدة مرات. . وقد جرى بيني وبينه حوار عن الشيوعية وأهدافها وموقفها من القضية الفلسطينية. . وكان يؤكد لي أن الاتحاد السوفياتي هو العدو اللدود للاستعمار والحركة الصهيونية، وبدأت أقرأ عن الاتحاد السوفياتي في المصادر المختلفة العربية والانكليزية، وأخذ ت أرى أن ما كانت تنشره المقطم والصحف العربية الأخرى كان مملوءاً بالمبالغات. . فالإباحية لا وجود لها إطلاقاً، وكما كتب أسقف كنتربيري. . : «إن حياة الأسرة في روسيا أكثر احتشاماً من حياة الأسرة في الدول الغربية»، أما تهمة الإلحاد فصحيحة، لأنها في صميم العقيدة الشيوعية. . أما مقاومة الاستعمار وتأييد الحركات التحريرية، فإن المراجع الشيوعية تؤكدها وتفلسفها وتعتبرها هدفاً من أهدافها الرئيسية.

قلت في نفسي: «ما لنا وللإلحاد. . ﴿**لكم دينكم ولي ديني**﴾[1]. ، إن الاتحاد السوفياتي لا يستطيع أن يفرض علينا الإلحاد إذا كنا نأباه. . ولنبدأ التقارب مع الاتحاد السوفياتي، لعله ينقذنا من هذا الخطر الكبير الذي يحدق بنا، ويهددنا بالجلاء عن وطننا».

وازدادت اتصالاتي بالسيد حمدي الحسيني وعصبة الشباب الذين أخذوا عنه، لأتعرَّف إلى مدى العون الذي يستطيع الاتحاد السوفياتي أن يمده لحركتنا الوطنية في كفاحنا ضد الاستعمار والصهيونية.

ووضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها على هزيمة ألمانيا وإيطاليا، فانهارت آمالنا فيها، وخرجت روسيا دولة منتصرة، فخطر لنا نحن الجيل الصاعد، أنه لا بد لنا من الاتجاه اليها بالنصرة والتأييد، فليس لنا أمل في الدول الغربية، وقد حفزنا إلى ذلك ما ردده تشرتشل أثناء الحرب العالمية الثانية، حين تحالف مع روسيا من أنه مستعد للتحالف مع الشيطان لتحقيق النصر. . وغدونا نردد هذا الشعارلأنفسنا، ونقول فلتكن روسيا هي الشيطان، فلا حرج علينا أن نتحالف معها في معركتنا من أجل الوطن.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الكافرون،» الآية ٦.

وازداد في ذلك الوقت ظهور الشباب اليساريين في فلسطين، وخاصة في حيفا، وأصدروا جريدة **الاتحاد** لتعبر عن آرائهم، ومما ساعد في نشاطهم أن الاتحاد السوفياتي كان حليفاً لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية، فكانت السلطات البريطانية في فلسطين تتجاوز بعض الشيء عن نشاطهم كما أنها كانت فرصة لمراقبتهم والتعرف على أشخاصهم وعلاقاتهم . .

وحضرت ندوات هؤلاء الشباب اليساريين واستمعت إلى حوارهم، وكانوا يتدرجون من الشيوعيين الحمر . . إلى اليساريين المفكرين . . إلى اليساريين الهاوين المقلدين!

وحدث في تلك الأثناء أن قدم إلى البلاد مطران موسكو، وقام بزيارة لمختلف المدن والقرى . . وقد جاءني إلى بيتي في عكا ومعه الشباب اليساريون، وامتدت الزيارة بضع ساعات . . وجرى حوار طويل بيني وبين المطران، تناول الشيوعية وأهدافها، ونظرتها إلى القضية الفلسطينية، قلت للمطران: «أريد أن أسمع منك موقف الاتحاد السوفياتي من الدين . . » قال المطران: «لقد نشرت أشياء كثيرة في هذا الموضوع، والحقيقة أن الاتحاد السوفياتي دولة علمانية، تترك الحرية الكاملة للمواطنين، دين أو لا دين، فمن شاء أن يكون مسيحياً أو مسلماً أو يهودياً أو بلا دين كان له ذلك . . والطوائف الدينية في الاتحاد السوفياتي تمارس حياتها الدينية».

قلت: «وما هو موقفكم من المسألة اليهودية؟»

قال: «إن موقفنا من المسألة اليهودية واضح كل الوضوح» . . وتناول المطران من حقيبته كتاب «كارل ماركس عن المسألة اليهودية» وكتاب فلاديمير لينين **مكان الاتحاد العام للعمال اليهود في الحزب الشيوعي** . . فقد أكّد ماركس أن تحرير اليهود سياسياً ليس بكاف لحل المسألة اليهودية . . وأن اليهودية ظاهرة اجتماعية تنمو في المجتمع البرجوازي، وأن القضاء على الظروف الفاسدة في المجتمع يقضي على اليهودية كظاهرة اجتماعية، وفي هذا يكمن الحل للمسألة اليهودية . . أما لينين فإنه يرى أن فكرة القومية اليهودية هي فكرة رجعية . . وهي فكرة غير ثابتة من الناحية العلمية.

قلت: «هذا جميل جداً! ونحن متفقون معكم أن اليهودية ليست قومية، وليس بين اليهودي الحبشي والقفقاسي والهندي والأمريكي واليمني إلا رابطة الدين، ولكن ما هو موقفكم من الحركة الصهيونية؟»

قال: «وهذا كتاب جوزيف ستالين عن الماركسية والمسألة القومية، يعلن فيه أن اليهود لا يؤلفون أمة، وأنَّ الصهيونية حركة شوفينية . . »

قلت: «إن كتاب ستالين قد وضع في عام ١٩١٣، ونحن الآن في عام ١٩٤٥، فهل لازلتم عند هذا الرأي؟ وهل أنتم مستعدون لمساندة العرب في كفاحهم لمقاومة الوطن القومي اليهودي في فلسطين؟»

قال: «إن رأينا في الصهيونية والمسألة اليهودية لا يزال قائماً.. أما بالنسبة إلى اليهود المقيمين في فلسطين.. فهذه مسألة سياسية تقررها الدولة في موسكو، ولا أعرف عنها شيئاً».

قلت: «إنني مسرور لزيارتكم وأشكركم على إيضاحكم، ولكن بقي عندي سؤال أخير..»

قال: «وما هو؟ عسى أن أستطيع الإجابة عنه».

قلت: «إنني مستعد أن أكون شيوعياً، بشرط أن أبقى فلسطينياً عربياً مسلماً.. فهل هذا ممكن بحسب المذهب الشيوعي؟»

فضحك المطران والشباب اليساريون الذين معه، ورحت في مزيد من الشرح لأقول: «أريد أن أبقى فلسطينياً أكافح الوطن القومي اليهودي، وعربياً أحافظ على قوميتي في دولة عربية، ومسلماً في مجتمع إسلامي.. فهل هذا مقبول في المذهب الشيوعي؟»

فنهض المطران وهو يقول: «إن هذا الموضوع يحتاج إلى «لينين» جديد.». وكانت جلسة طريفة، فخرجنا إلى الحديقة لأودع المطران وصحبه اليساريين، وأنا أشد على يده وأقول: «لقد جعلتني صديقاً للاتحاد السوفياتي وسأظل كذلك على الدوام».

ولم يكن في خاطري في ذلك اليوم أن الأقدار ستقذف بي إلى الأمم المتحدة لأنجز وعدي وعهدي.. ولأكون الصديق الأول للاتحاد السوفياتي بين جميع الوفود العربية والصديقة.. أخوض معاركهم فأحارب حربهم، ولكن لا أشارك في سلمهم.. ولا أساهم معهم في التعايش السلمي.. فلم أكن أستطيع أن أهادن الاستعمار والصهيونية، أو أن أتعايش معهما..

وازداد نشاط الشباب اليساريين، بازدياد نشاط الإرهاب اليهودي في فلسطين وأخذوا يكتبون ويخطبون، داعين إلى طرح القضية الفلسطينية على الرأي العام، والشيوعيون بارعون في صياغة الشعارات وإطلاق العبارات، وكثرت زياراتهم لي في مكتبي وبيتي في عكا، في محاولة لتجميع كل العناصر في جبهة واحدة لمكافحة الاستعمار.. وذلك هو أسلوبهم التقليدي في إنشاء «جبهة وطنية» والعمل من خلالها ثم توجيهها.. ثم السيطرة عليها ثم الانفراد بمقاليد الأمور.. والتخلي بعد

ذلك عن رفاق الطريق، رفاق الجبهة. . ورفاق النضال!

وبرزت فكرة عرض القضية على الأمم المتحدة في أُخريات عام ١٩٤٦، وانبرى اليساريون إلى الدعوة لهذه الفكرة، وتكاثرت زياراتهم لي، لأنظِّم معهم اجتماعات وطنية شعبية في أرجاء البلاد، لمساندة هذا الاقتراح.

قلت: «وما ترجون من وراء الأمم المتحدة؟»

قالوا: «إنَّ القوى التقدمية في الأمم المتحدة ستأخذ بناصرنا، وهي مناسبة تكشف الاستعمار العالمي».

قلت: «هل الغرض أن نكشف الاستعمار العالمي، أم الوصول إلى نتيجة حسنة لصالح قضيتنا؟»

قالوا: «إذا لم نصل إلى نتيجة حسنة، نكون قد كشفنا الاستعمار العالمي على حقيقته!!»

قلت: «وما تظنون أن يكون موقف الاتحاد السوفياتي، إذا عرضت القضية على الأمم المتحدة؟»

قالوا: «إن الاتحاد السوفياتي يعتبر الحركة الصهيونية حركة رجعية، وهو يؤيد حركات التحرير الوطني في كل بقاع العالم، ونحن واثقون من النصر».

قلت: «إن الأمم المتحدة هي امتداد لعصبة الأمم، وأخشى أن تكون المنظمة العالمية الحاضرة خاضعة للولايات المتحدة، وتكون الطامة الكبرى. .»

قالوا: «إذا لم تُلاقِ قضيتنا نجاحاً، فيكفي أنّنا عرضنا قضيتنا على الرأي العام العالمي وفضحنا الاستعمار العالمي على حقيقته».

وامتد الحوار بيننا طويلاً على هذا النحو، من دون أن نصل إلى نتيجة قاطعة. .

وتعاقبت الأيام والأسابيع والشهور، وشعارات اليساريين تنطلق من جريدة **الاتحاد** بالدعوة إلى الالتجاء إلى الأمم المتحدة، حتى أصبح الرأي العام الفلسطيني مشبعاً بالفكرة، وقد دخل في روعه أن الاتحاد السوفياتي سيأخذ بناصر الشعب الفلسطيني. . وكل ما في الأمر أن نوافق على قيام حكم ديمقراطي متحرر في فلسطين، حتى يطمئن اليهود أن العرب لا يريدون إلقاءهم في البحر!!

وكان من المفارقات العجيبة، أن بريطانيا الاستعمارية هي التي تولّت عرض القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة. . وانتهت المسيرة المعروفة في أروقة الأمم المتحدة، بالضغوط الأمريكية الرهيبة، إلى إصدار قرار بتقسيم فلسطين. . وكان

الاتحاد السوفياتي في جانب هذا القرار بكل قوة وصراحة وعناد . .

ووصلت إليّ محاضر الأمم المتحدة، وقرأت خطب السيد أندريه غروميكو رئيس وفد الاتحاد السوفياتي، فكانت مليئة بالحماسة والاندفاع في إقامة دولة يهودية في فلسطين . .

وانكمش اليساريون في فلسطين إلى خلوتهم بعد ذلك «الانتشار» ورأيت أن أرُدّ لهم زياراتهم الكثيرة، فأخذت «أبحث» عنهم في حيفا، والتقيت بهم غير مرة . . وسألت: «لماذا وقف الاتحاد السوفياتي هذا الموقف وبهذه الحماسة؟»

قالوا: «إن العرب هم المسؤولون عن هذا الموقف».

قلت: «لماذا؟»

قالوا: «إنَّ الوفود العربية لم تتصل بالوفد الروسي، ثم إن عدداً من الحكومات العربية لا تزال تسير في فلك الدول الاستعمارية».

قلت: «إن هذا صحيح . . ولكن ما ذنب الشعب الفلسطيني؟ . والأمة العربية؟ . وما ذنب العدل والحق؟ . وتقرير المصير؟».

قالوا: «هذه نتيجة مسايرة العرب للدول الاستعمارية».

قلت: «لا أظُن أن بينكم واحداً أشد مني عداء للدول الاستعمارية . . ولكن قولوا لي . . لماذا سار الاتحاد السوفياتي في ركاب الدول الاستعمارية . . »

قالوا: «إن الاتحاد السوفياتي لا يسير مع الاستعمار . . الاتحاد السوفياتي ينادي بالمبادئ الديمقراطية التحريرية . . وعلى كل حال إن اليهود بشر مثلنا ولهم حق في الحياة . . »

قلت: «إني لا أجد خيراً في الاستمرار في الحوار معكم . . لقد كنت أتمنى أن تحملوا تفكيرنا إلى موسكو، لا أن تحملوا تفكير موسكو إلينا . . أنتم أصبحتم مواطنين سوفيات، ولم تعودوا فلسطينيين ولا عرباً . .

وانتهى الحوار بيننا وكان اللقاء الأخير . . فقد بقي معظم أُولئك اليساريين في فلسطين بعد قيام إسرائيل، وأصبح بعضهم أعضاء في الكنيست «البرلمان» الإسرائيلي .

وجاء بعد ذلك عملي في الأمم المتحدة رئيساً للوفد السوري، وبدأت أتصل بالوفد السوفياتي، أتعرّف على رئيسه وأعضائه، وأتحدّث اليهم بما تحمله الجماهير العربية من البغضاء للاستعمار الغربي، ثم أخذت أوافق على اقتراحاتهم في الأمم المتحدة، وأثني على خطبهم . . وأنا أطمع أن يجدوا الفرصة في المستقبل لتأييدنا في

قضية فلسطين، فإن المواقف الدولية لا تثبت على حال.. وأصبحت هذه العلاقات تنمو مع الزمن، كما فصّلتها في مذكراتي عن مشروع الدول الثماني بصدد المفاوضات المباشرة مع إسرائيل وسائر القضايا العربية والدولية التي عرضت على مجلس الأمن والجمعية العامة.

وتناقلت الأخبار أن السيد خروشوف قد أصبح الرجل الأول في الاتحاد السوفياتي، فتابعت أحاديثه الصحافية، فرأيت فيها نبرة جديدة، تنم عن شخصية نامية متحركة، فأخذت أصطنع المناسبات في الأمم المتحدة لأُثني على مواقفه الدولية وتصريحاته، وكان السيد سوبوليف المندوب الروسي الدائم، وكوزنتسوف النائب الأول لوزير الخارجية ينقلان إليّ تحيات رئيس الوزراء الرفيق خروشوف، وكان غروميكو وزير الخارجية السوفياتية، كلما جاء إلى دورات الأمم المتحدة ينقل إليّ شكر الرفيق خروشوف لمواقفي في الأمم المتحدة..

وتوثقت عرى «الصداقة» بيني وبين وفد الاتحاد السوفياتي، أُدعى إلى ولائمهم واحتفالاتهم فيحيطوني برعاية خاصة.. وكنت أرُدّ لهم ضيافتهم، فأقيم في كل عام وليمة كبرى في الأمم المتحدة، أدعو اليها جميع وفود الدول الشيوعية، ومعهم المستر همرشلد ووفود الدول غير المنحازة.. فتكون مظاهرة سياسية ضد الدول الاستعمارية، وعلى شرف الدول الاشتراكية، وبأموال سعودية، بعد أن أصبحت رئيساً للوفد السعودي..

وحدث أن جاء السيد خروشوف إلى الأمم المتحدة لحضور «دورة القمة» فبالغت بالثناء عليه في خطابي في المناقشة العامة.. وزرته في مقر الوفد السوفياتي الدائم وجلست معه قريباً من ثلاث ساعات، شرحت خلالها جميع القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين.. ثم اجتمعت به في القاهرة لمناسبة قدومه للاشتراك في احتفالات السد العالي.. وفي قصر القبة تحدثت إليه طويلاً وملياً في كل ما يهم الأمة العربية.. ولكن اللقاء الكبير كان في «سوجي» على شاطئ البحر الأسود في صيف ١٩٦١، تلبية لدعوة من السيد خروشوف نفسه.

وصلتني الدعوة عن طريق السفارة السوفياتية في بيروت، وكنت مصطافاً في لبنان.. فأبرقت إلى الملك سعود أعرض عليه أمر الدعوة وأستأذنه بالسفر.. وكنت أخشى أن لا يوافق على سفري.. فليست بين الرياض وموسكو علاقات دبلوماسية، وليس للسعودية مصلحة في هذه الزيارة..

وجاءني جواب الملك سعود، عن طريق السفارة السعودية في بيروت «لا مانع من قبول الدعوة بشرط أن تكون الزيارة شخصية»، فلم أجد حرجاً في هذا القيد

وعزمت أن لا أتحدث في موسكو عن السعودية شيئاً من قريب أو بعيد. . وأن يكون حديثي عن الأمة العربية بأسرها. . وعن مشاكلها وقضاياها، وفي مقدمتها قضية فلسطين. . وهذا ما أنا ذاهب من أجله.

وحملتنا الطائرة من بيروت، زوجتي وأنا، وفي بضع ساعات كنا نهبط مطار موسكو. . وكان في استقبالي نائب رئيس الوزراء، والسيد كوزنتسوف نائب وزير الخارجية، وكبار رجال الخارجية وعدد من زوجاتهم، والصحافيون والمصورون. . وبعد مراسيم الاستقبال المعتادة أقلتنا السيارة إلى الفندق. . إلى جناح كبير وقضينا ليلة ناعمة في موسكو الهادئة. . بعد المدينة الصاخبة بيروت. .

وخرجت في الصباح، لنعقد الاجتماع الأول مع السيد غروميكو وزير الخارجية السوفياتية، واجتازت بي السيارة شوارع موسكو الرحبة الواسعة، وسط مبانيها الذاهبة بالعرض لا بالارتفاع، ووصلنا الكرملين، ذلك المبنى الضخم، مقر الدولة الفضائية الذرية الأولى في العالم، وسرت في المعابد الطويلة، وحسبت أنّي في «مسكوبية» الناصرة، حيث الحاكم الإداري للواء الجليل، أو «مسكوبية» القدس حيث القضاء العالي في فلسطين. . مع فارق الضخامة. . وفوارق السكان!!

ودخلت إلى صالة الاجتماعات في وزارة الخارجية، واستقبلني السيد غروميكو ومعه معاونوه كبار موظفي الخارجية لشؤون الشرق الأوسط. . وبعد عبارات الترحيب والتحية، راح الوزير يسأل عن الملك سعود وصحته مكرراً كلمة «جلالته» في كل مناسبة، مؤكداً أن الاتحاد السوفياتي يضمر الخير «لجلالته» وللمملكة العربية السعودية، وأنه يرغب أن تقوم بين الرياض وموسكو العلاقات الدبلوماسية، وأحسن صلات المودة والمصالح المشتركة، وأنَّ «سعادة الوزير السيد الشقيري يعلم يقيناً أن الاتحاد السوفياتي يؤمن بمبدإ التعايش السلمي بين جميع الأنظمة الاجتماعية والسياسية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة، ملكية أو جمهورية، اشتراكية أو غير اشتراكية. .» وسكت الوزير تاركاً لي أن أفتح «المباحثات».

وشكرت الوزير على الدعوة والحفاوة، معرباً عن أملي في أن تكون زيارتي معززة لعلاقات المودة بين الاتحاد السوفياتي والأمة العربية، وانتقلت بعد ذلك إلى التحث عن كفاح الأمة العربية في سبيل حريتها وسيادتها، منذ أوائل القرن التاسع عشر، مستعرضاً شؤون الوطن العربي، قطراً قطراً، في مقاومة الاستعمار البريطاني والإفرنسي والإيطالي، وما تم إنجازه في ميدان السيادة الوطنية. . وانتقلت بعد ذلك إلى استعراض كفاح الأقطار العربية التي لا تزال تناضل من أجل حريتها: الجزائر، عدن، الإمارات، والمشيخات العربية وفلسطين. . وخلصت من ذلك إلى أن مرحلة

النضال الحاضر تتركز على استكمال السيادة في الوطن العربي، والعمل للوحدة العربية.

ودخلت بعد هذا في حديث مسهب عن السياسة الأمريكية في الوطن العربي، وما تهدف إليه من السيطرة على المصير العربي، واستغلال الثروات العربية، وجعل البلاد العربية داخلة في مناطق النفوذ الأمريكية. . وأنَّ هذه السياسة الأمريكية إنما تمثل استعماراً جديداً، يلحق أكبر الضرر بالأمة العربية، وبالاتحاد السوفياتي بوصفه صديق العرب وجارهم القريب. . وإلى هنا فقد كان الوزير السوفياتي يستقبل الحديث بكل أمارات الموافقة والرضا. .

ثم استطردت إلى القول: «إن الولايات المتحدة قد عملت على إنشاء إسرائيل في قلب العالم العربي، تحقيقاً لسياستها، ولتكون قاعدة أمريكية متقدمة، شأن القواعد الأمريكية الأخرى في أوروبا والشرق الأقصى».

وبدا على المستر غروميكو، وأنا أتحدث عن القضية الفلسطينية، انه يستمع إليّ مجاملة لا اهتماماً. . ، وأنا أعرف خطبه الشهيرة في الجمعية العامة ومجلس الأمن، اندفاعاً وتأييداً لإقامة دولة يهودية في فلسطين. .

وجاء دور الوزير غروميكو، فتحدث بتقدير وإعجاب عن كفاح الشعوب العربية في سبيل حريتها واستقلالها، وأثنى على جهودها لاستكمال سيادتها. . وأطرى نضال الشعب الجزائري ضد فرنسا، وحركات التحرير في الجزيرة العربية ضد بريطانيا. . وأن الاتحاد السوفياتي لا يألو جهداً في سبيل مساعدة الدول العربية اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، داخل الأمم المتحدة وخارجها، أما قضية فلسطين: «فانت تعرف موقفنا منها، ونحن نعرف مواقفك منها، كما أعلنتها مراراً في الأمم المتحدة. . ونحن نصر على تأييد حق اللاجئين في العودة والتعويض، ونندد بالاعتداءات الإسرائيلية كلما وقعت. . أما بالنسبة إلى قضية فلسطين في مجموعها، فإنه يحسن أن تتحدث في الموضوع مع الرئيس خروشوف. . وسيستقبلك في «سوجي» في مصيفه على البحر الأسود».

ثم دخل الحديث في المجاملات وذكريات الأمم المتحدة، وإذا بالوزير السوفياتي يبادرني بالسؤال:

قال: «وما رأيك في قضية الكويت؟»

قلت: «إن الكويت قد أصبح دولة مستقلة، وقد انتهى النفوذ البريطاني. . »

قال: «ما رأيك في دخولها الأمم المتحدة؟»

قلت: «ذلك حقها كأية دولة أخرى».

قال: «وما رأيك في موقفنا من عضوية الكويت في الأمم المتحدة؟» (وكان الاتحاد السوفياتي معارضاً في ذلك، تعاطفاً مع حكومة عبد الكريم قاسم).

قلت: «إنه موقف غير سليم. . إن عبد الكريم قاسم يعارض في ذلك استناداً إلى فكرة الوحدة العربية. . وإنَّ الكويت جزء من العراق. . إنني من أنصار الوحدة. . ولكن لماذا «تلتهم «الوحدة الكويت وحده. . هناك أقطار عربية تنطبق عليها فكرة الجزء من الكل، ومبدأ الوحدة، فلماذا يكون الانفصال في جهة. والوحدة في جهة أخرى. . وقد قيل إنكم لم تكونوا راضين عن الوحدة بين سوريا ومصر، وغير راضين عن العودة إلى الوحدة بين هذين القطرين. . »

وهنا تدخَّل الوزير غروميكو فقال: «بالنسبة إلى سوريا ومصر، نحن لا شأن لنا بأمور الوحدة أو الانفصال. . . أما بالنسبة إلى موضوع الكويت فإن موقفنا يستند إلى مبادئ وقواعد نحن نلتزم بها على الدوام. . »

قلت: «إن موضوع الكويت والعراق هو مسألة داخلية، ونصيحتي أن لا تقحموا أنفسكم في هذا الموضوع، وخاصة أن دول الجامعة العربية بأسرها، قد اتخذت موقفاً يخالف موقف حكومة عبد الكريم قاسم».

وانتهى حديثنا في تلك الجلسة عند هذا الحد. . واستمر الاتحاد السوفياتي يعارض دخول الكويت في الأمم المتحدة، إلى أن سقط حكم عبد الكريم قاسم، فسقطت معه «المبادئ والقواعد» التي يلتزم بها الاتحاد السوفياتي، وسحب اعتراضه ودخلت الكويت الأمم المتحدة. . وبهذا انتهت واحدة من «حكايات» الأمة العربية في الأمم المتحدة.

وقضيت بضعة أيام في موسكو في برامج اجتماعية، فزرت مسارحها الرائعة ليلاً، ومنشآتها العامة نهاراً، وذهبت إلى جامعة موسكو واجتمعت إلى الطلاب العرب الوافدين من جميع أنحاء الوطن العربي، وجاء معهم عدد من الطلاب السوفيات، وألقيت محاضرة عن الأمم المتحدة وميثاقها، وما أنجزت وما فشلت في إنجازه. . وتناولت دور الأمم المتحدة في تقطيع أوصال الوطن الفلسطيني وتشريد شعبه.

وكنت أتفرّس في وجوه الطلاب العرب. . فرأيتهم في مجموعهم كالعهد بهم إيماناً وحماسة. . إلا بضعة طلاب قد لا يتجاوزون أصابع اليد، كان الطلاب الروس أكثر منهم انفتاحاً وانشراحاً. . وانتهيت من المحاضرة وأقبل علي الطلاب العرب في تحية وسلام، وأجبتهم عن اسئلتهم الشيقة، المشتاقة إلى الوطن العربي، وسألت: من هم أولئك الطلاب العرب العابسون المتجهمون. . فقالوا، وهم يلتفتون يميناً ويساراً ليتأكدوا أن غريباً لا يسمعهم: «هؤلاء شيوعيون. . شيوعيون حمر. . ونحن معهم في خصام دائم وحوار مستمر. . »

وانصرفت من جامعة موسكو إلى ضريح «لينين» فوقفنا، زوجتي وأنا في رتل طويل يسير الهوينا إلى مدخل الضريح.. ومشينا خطوة خطوة مع الماشين، حتى بلغنا مدخل الضريح، فدخلناه مع الداخلين.. وكان المشهد رهيباً ومهيباً تحت أضواء خافتة مسلطة على وجه لينين ولا ينقصه إلا بريق الحياة..، وتفرست في وجه هذا الإنسان الميت، وأنا أُكبر إنجازاته العظيمة كواحد من صانعي التاريخ..

وتفرس الشباب والشابات الروس في وجه لينين في خشوع وتقديس.. وقلت في نفسي إن هؤلاء لا يخشعون لله، ولكنهم يخشعون للإنسان الميت.. وأيقنت أننا أحسن حالاً، فنحن نتعلق بالحي الذي لا يموت، وهم يتعلقون بمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً. وتذكرت قولة عمر الشهيرة: «كنا نصنع الصنم من العجوة، فنعبده أياماً، ثم نأكله..!»

وعدنا إلى الفندق، وأنا أفكر في هذا الشعب العظيم، الذي أنهكته المظالم القيصرية والطقوس الدينية في ماضيه الطويل العريق.. حتى كفر بكل ذلك.. وكان عليه أن يكفر، ولكن بباطل الإنسان لا بوجود الله.. وخطر لي وأنا مسترسل في هذه النجوى النفسية أن روسيا الفضائية ستعود إلى الإيمان بالله.. فكلما توغلت بين الأفلاك والنجوم.. سيثور في عقلها وفؤادها السؤال الأكبر من صنع هذا العالم الأكبر، وهذا السؤال هو بداية الإيمان..

وقضينا يومين آخرين في التعرف على معالم المدينة: ميادين الرياضة، وبرك السباحة المكشوفة التي تدفأ في الشتاء.. والمترو تحت الأرض، ومحطاته الجميلة التي هي أشبه ما يكون بالقصور الصغيرة..

وأعدّ لنا برنامج لزيارة لينغراد، فإن زيارة هذه المدينة الخالدة لا بد أن تكون في برنامج كل زائر.. وركبنا القطار وقضينا الليل كله بين صحو ونوم، وفي الصباح كنا في محطة لينغراد، يستقبلنا رئيس البلدية وكبار رجال الدولة بالتحية والترحاب.

وفي لينغراد كانت لنا زيارات للمنشآت العامة ومصانع الصلب الضخمة.. وقد أذهلني ما وصلت إليه التكنولوجيا الروسية في الصناعات الثقيلة ورأيت بالعين المبهورة تلك الإنجازات الباهرة، التي تكمن فيها القوة الذاتية للشعب الروسي.. وكنت أرى الآلات الضخمة وهي تهوي بكل ثقلها على الحديد، الأحمر المحجر، فتقوّمه وتلويه وتشكِّله.. وتصنعه كما تشاء.

وطفنا في ضواحي لينغراد واستمعنا إلى أقاصيص البطولة الفذة على «الطبيعة».. فهنا كانت المعارك الضارية، وهناك تجلَّى استبسال الجيش والشعب و.. و..

وذهبت في اليوم التالي إلى جامع لينغراد، والتقيت بالإمام ومعاونيه، وتحادثنا بالفصحى حول شؤون المسجد والمسلمين. . ، وانتحيت جانباً فتوضأت وصليت. . وفي هذه الأرض الغريبة ولَّيت وجهي شطر المسجد الحرام، إلى القبلة، وأنا أدعو الله أن يصون المسجد الأقصى والقبلة الأولى. . وفرغت من الصلاة، وفي خاطري أنه لا يزال بين الله وروسيا خيط من الإيمان. . ، ولا بد أن تكتشف روسيا مُوجد الوجود، وهي تسبح في آفاق الوجود، إذا كانت قد عجزت عن اكتشافه على هذه الأرض.

وسألت الإمام:

قلت: «وهل يمارس المسلمون الشعائر الإسلامية، ويؤدون الصلوات في هذا المسجد؟»

قال: «العبرة بالأخلاق. . الأخلاق هي الأصل. .»

قلت: «هذا صحيح. . والرسول يقول إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. . ولكن هل يمارس المسلمون هنا العبادات؟»

قال: «الأخلاق. . الأخلاق. .»

فسكَتُّ ولم أتابع الحديث. . وأدركت أنني أتحدث إلى «موظف» لا إلى إمام. . وأنَّ المسجد الذي صليت فيه، إنما هو للزيارة لا للعبادة.

وفي صبيحة اليوم التالي، غادرنا الفندق في طريقنا إلى المطار لتقلنا الطائرة إلى «سوجي» على شواطئ البحر الأسود، حيث يصطاف الرئيس خروشوف وفي بضع ساعات انتقلنا من الشمال إلى الجنوب. وأصبحنا أقرب ما نكون إلى الوطن العربي، في عصر السباق مع الصوت. . في رنَّته وسرعته!!

ولقد راعنا ما رأينا من مشاهد الحسن والجمال في هذه البقعة الخلابة، وقد خلعت عليها الطبيعة أجمل ما فيها من الروائع والبدائع. . فهذا الشاطئ الفتان، قامت حوله القرى الصغيرة، بمبانيها المنسقة وحدائقها المنظمة، وتلك السلسلة من الهضاب والجبال، تطل بغاباتها وأحراشها على البحر لتلقي عليه ألواناً من الظلال الوارفة. . وغدوت أُسائل نفسي: «أيهما أجمل؟ هذه البقعة الفريدة. . أم ما رأيت في كل عمري، في سويسرا وألمانيا وإيطاليا والنمسا؟»، ولقد ملك الجمال والجلال لساني وجناني فلم أطق جواباً.

ونقلتنا السيارة، زوجتي وأنا، إلى فيلا الرئيس خروشوف على شاطئ البحر فوصلناها، ولم أصدق أننا وصلناها.

ذلك أنني لم أجد فيها وحولها، ما ينبئ بأننا في منزل الرئيس العظيم للبلد العظيم، لقد عطفنا من الطريق العام إلى درب فرعي ووقفنا أمام بوابة عادية، ففتح لنا البواب. . ودخلت سيارتنا ومن خلفنا سيارة المرافقين من رجال الخارجية السوفياتية، ورأينا أنفسنا في غابة جميلة. . وأشجار الصنوبر حتى رمال البحر. . وفي الطرف الآخر من الغابة كانت هنالك فيلا بسيطة، وقف على عتباتها الرئيس خروشوف ينتظر ضيوفه: زوجتي وأنا. . ، وصافحنا الرئيس خروشوف ودخل بنا إلى صالة في الفيلا، معتذراً أن زوجته مريضة في المستشفى في موسكو. . وتناولنا المرطبات. . وجاء التراجمة. . في العربية والإنكليزية، فقد كنت أتحدث بالعربية، ولكني ألجأ إلى الإنكليزية، حينما استشعر أن بعض التعابير الدولية بالإنكليزية أيسر على الترجمان.

وبدأ الرئيس خروشوف الحديث عن الجمهوريات الإسلامية في أواسط روسيا وانتشار الثقافة الإسلامية والمساجد والمدارس وما إلى ذلك. . ودعاني إلى زيارة تلك المناطق. . وأسهب في الحديث عن النشاط الإِسلامي فيها، فأدركت أن الرئيس خروشوف قد وصلته ملاحظاتي التي أبديتها إلى إمام الجامع في لينغراد. . فشكرت له دعوته واعتذرت لقصر الوقت، وأنَّ موعد الأمم المتحدة قد أصبح قريباً ولعلي أستطيع ذلك في العام القادم.

وبدأت أتحدث إلى الرئيس خروشوف عن القضية العربية في إطارها العام، جاعلا من القضية الفلسطينية محور الحديث، وقلت ما أوجزه في الأمور التالية:

أولاً: إن الاستعمار الغربي، إدراكاً منه لإمكانات الأمة العربية وقدراتها البشرية والمادية والروحية، ولما يتمتع به الوطن العربي من مواقع استراتيجية ومركز متوسط في العالم. . قد أنشأ إسرائيل على أرض فلسطين، لتكون قاعدة أمامية للاستعمار، ولتمتص طاقات الأمة العربية، وتشل حركتها، وتعطل نموها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وتجعلها ضعيفة دائماً ومفتقرة أبداً. .

ثانياً: إن الاستعمار الغربي، وقد ارتحل من آسيا وأفريقيا يريد أن يجعل من إسرائيل باباً خلفياً يتسلل عن طريقها إلى الأقطار التي ارتحل عنها، وهذا ما يفسر الخبرات الفنية والمساعدات المالية التي تقدمها إسرائيل لعدد من الدول النامية. . بأموال معظمها أمريكية.

ثالثاً: أن إسرائيل هي واحدة من سلسلة مواقع «التطويق» التي تبنيها الولايات المتحدة حول الاتحاد السوفياتي، لاستخدامها عند وقوع أي اصطدام مسلح. . وإن إسرائيل تعتبر أخطر هذه المواقع، لأن مصيرها مرتبط بالاستعمار.

رابعاً: إن الصهيونية حركة رجعية استعمارية، كما أدانها كارل ماركس ولينين وستالين.. ولا أنسى كذلك الرئيس خروشوف...

خامساً: إن شعب فلسطين هو شعب اشتراكي بتاريخه، وطبيعة وطنه.. فليست في فلسطين إقطاعيات ولا سيطرة رأس المال.. وكلنا مجموعة من الفلاحين والعمال.. والفلاحون يملكون أراضيهم.. وأهل المدن الذين يملكون أراضي زراعية، أصلهم من الفلاحين، والزراعة مهنتهم.

سادساً: إن إسرائيل «دولة» رأسمالية، ورأسمالها من مصادر استعمارية.. والكلام عن اشتراكية إسرائيل، خال من الحقيقة، والاشتراكية فلسفياً وعملياً تأبى أن تطرد شعباً آمناً في وطنه، ليحل محلهم مجموعات من الغرباء، لاتربطهم إلا رابطة الدين الواحد..، والأسطورة الواحدة عن «الحق» التاريخي في أساطير التاريخ..

وأسهبت في سرد هذه الحجج وأمثالها، والتراجمة يتعاقبون على الترجمة من العربية مرة، ومن الإنكليزية مرة أخرى، والرئيس خروشوف، مطرق في اهتمام بالغ..

ثم خلصت إلى القول إنه كان من الخطإ أن تقف روسيا الاشتراكية إلى جانب الإمبريالية والاستعمار في عام ١٩٤٧، في الموافقة على قيام إسرائيل.. وإن ذلك الموقف كان امتحاناً لمدى صدق الإيديولوجية الشيوعية فكراً وتطبيقاً..

واعتدل الرئيس خرشوف في مجلسه، وبدأ يتحدث في صفاء ذهن ومنطق متسلسل، فاستعرض قيام الحركة الشيوعية، والمصاعب الضخمة التي كانت تواجهها في الداخل وفي العالم الخارجي، وتحدث عن انشغال الاتحاد السوفياتي في المراحل الأولى عن الشؤون العالمية، وعن مشاكل العالم العربي.. وإنه حين استتبت الأمور في روسيا الشيوعية، التفت الاتحاد السوفياتي إلى الشعوب المكافحة لنيل حريتها، فأخذ يعاونها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. وسرد الرئيس خروشوف بالتفصيل ما يقدمه الاتحاد السوفياتي إلى عدد من الدول العربية في الميدانين العسكري والاقتصادي.. وأنه سيستمر في دعمه للشعوب العربية.. وأن ذلك سيؤدي إلى قوتها.. وأن قيام إسرائيل إنما كان عن ضعف في الدول العربية.. وأن ما يفعله الاتحاد السوفياتي في تأييد الأمة العربية هو في ذاته تأييد للقضية الفلسطينية.. وأنّ الدول العربية إذا تعاونت في الميادين العسكرية والاقتصادية ستكون قادرة على تحقيق حل عربي للقضية الفلسطينية، من دون أن تتيح أية فرصة لتدخل الدول الاستعمارية..

وكنت أستوعب هذا الحديث في فؤادي عبارة وكلمة كلمة، فلم أكن قد سمعت مثل هذا الكلام من روسي مسؤول، على مدى خمسة عشر عاماً من معرفتي بالمسؤولين السوفيات، وحواري معهم في الموضوع نفسه... قضية فلسطين...،

فلم يبقَ للرئيس خروشوف إلا أن يقول لي نحن موافقون على تحرير فلسطين. . وإن كان قد قالها. . . في ما أحسست. . . بكل جوارحه دون لسانه. .

فشكرت للرئيس خروشوف هذا الحديث القوي الواضح الصريح. . وقلت له إنني أعتبر هذا الموقف تطوراً كبيراً في سياسة الاتحاد السوفياتي، عما كان عليه الحال في عام ١٩٤٧، ثم سألته:

«إنّ الأمة العربية كلها تشكر موقفكم من القضية الجزائرية. . هل أستطيع أن أطلب معونتكم لشعب فلسطين في تأييد مطالبه القومية لاسترداد وطنه».

قال: «هل هنالك حركة فلسطينية. . وقيادة فلسطينية. . الفلسطينيون موزعون في البلاد العربية، منهم من يقيم في المدن، ومنهم من يقيم في المخيمات».

وسكت هنيهة. . فقد كان هذا الكلام صحيحاً. . فلم يكن قد قام الكيان الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية. . ثم قلت:

«هل تساعدونا إذا قامت حركة فلسطينية وقيادة فلسطينية؟»

قال: وقد فكر قليلاً، «نحن نعتقد أن الشعب الفلسطيني قد وقع عليه ظلم كبير، ومن حقه أن يعيش في وطنه وأن يقرر مصيره. . ونحن مع تقرير المصير. . ومع الشعوب المناضلة دائماً. . ولن نتأخر عن معاونة شعب يكافح من أجل حقه، ووطنه»، ولم أشأ أن أذهب أعمق أو أبعد من هذا، فأنا أمام رجل يحمل بين شفتيه مسؤولية كبرى. . ولم أكن أطمع بأكثر من هذا الجواب الذي لم يقترب منه أي مسؤول روسي من قريب أو بعيد. .

وقلت للرئيس خروشوف: بقي عندي سؤال أخير للتاريخ ولراحة ضميري. كصديق للاتحاد السوفياتي:

«ولماذا وقف الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٤٧ مع أمريكا في تأييد تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية».

قال: وقد أطرق رأسه طويلاً، ثم رفعه ووجهه يطفح احمراراً. . . «كان هذا قرار ستالين. .» وأذهلني الجواب. . ولم يبقَ إلا أن يقول بلسانه إن ستالين مسؤول، وهذه خطيئة ستالين. . وإن كان قد قالها، في ما أعتقد، بعينيه لا بشفتيه. . ونهض الرئيس خروشوف، ودعانا إلى الغداء، وكانت الساعة قد بلغت الثانية ظهراً، وسرنا في الغابة بجوار «البركة» وكأنما أراد أن يرفه عن نفسه ويخرج من الجد إلى المرح فقال:

«أنا أسبح يومياً خمس عشرة دقيقة في هذه «البركة».

قلت: «وأنا أسبح ساعة من الزمن حينما أكون على شواطئ الاسكندرية أو بيروت . . »

قال: «يجب أن أثور على الطبيب، إنه لا يسمح لي بأكثرمن ربع ساعة . . » ومشينا إلى المائدة في وسط الحديقة، وأقبل علينا ميكويان (رئيس الاتحاد السوفياتي في ما بعد) فتعارفنا وتصافحنا . . وجلسنا إلى المائدة، ونادى الرئيس خروشوف على التراجمة والمرافقين، وقضينا ساعتين على المائدة والرئيس خروشوف يتندر على «ميكويان» ويلسعه بالنكات اللاذعة . .

وكان الطعام شهياً، غنياً بأنواع متعددة من الأسماك . . وأخذ خروشوف وميكويان يشربان كل أنواع الشراب . . وأمامنا، زوجتي وأنا، عصير البرتقال، ولكن ميكويان طلب في النهاية زجاجة كونياك من صنع جمهورية أرمينيا، وهو يقول إنه لا يملأ رأسه إلا كونياك أرمينيا . .

وأحببت أن اشترك في المداعبات الدائرة، والسيد ميكويان أرمني، فقلت . . السيد ميكويان متعصب لجمهورية أرمينيا، وهذا تمييز عنصري قائم على أساس الشراب، والشيوعية ترفض التمييز على أي أساس . .

فضحك الرئيس خروشوف وقال:

«السيد الشقيري أدخلك في قفص الإِتهام، كما يفعل مع الأمريكان في الأمم المتحدة.». وانطلقت الضحكات العالية تتجاوب في الغابة بين حفيف الأشجار وتكسر الأمواج . . وفرغنا من الطعام، وفرغوا من الشراب، وتناولنا القهوة . . واستأذنت بالانصراف، والرئيس خروشوف يفتح باب السيارة لزوجتي، ويلوح بيديه مودعاً، وهو يقول: «نرجو أن تعود إلينا في العام القادم لتزور الجمهوريات الإسلامية . . » وانطلقت بنا السيارة في ذلك الطريق الجميل، والغابات على ميمنتنا والبحر على ميسرتنا، وقصور الشعب هنا وهناك مفتوحة للعمال والفلاحين والأطباء والمحامين ليقضوا فيها إجازاتهم . . وكانت في العهد الغابر قصور القياصرة والأمراء والإقطاعيين . .

وكنا على موعد مع الطبيب، فقد كنت أشكو أزمة معوية حادة، فنحن أبناء المشرق، نحمل معنا مشاكلنا المعوية أينما ارتحلنا، ودخلت على الطبيب الشاب، فراح يفحصني فحصاً دقيقاً طويلاً، وما أحسب أنه كان يفكر في المرضى المنتظرين في الصالة المجاورة، ذلك أنه لا يتوقع أجراً لا مني ولا منهم . . ولهذا فليأخذ الطب حقه من الوقت . . وتلك نعمة الطب المؤمم . . على الطب المؤجر . .

ووصلنا الفندق بعد يوم طويل . . وكان الوقت قد أزف على الغروب، وعلى مقربة منا في الساحة العامة كانت فرقة الموسيقى البلدية تعزف الالحان الشجية . . وأرسلت بصري بعيداً إلى ما وراء شواطئ البحر الأسود . . إلى الوطن العربي المجزأ . . الوطن العربي المبدد الطاقات والقدرات . . ، وسألت نفسي ما الذي ينقصنا عن الاتحاد السوفياتي . . لقد كانت روسيا في العهد القيصري أكثر منا تخلفاً وأشد منا فقراً، تتوالى عليها الهزائم العسكرية زماناً بعد زمان.

ونطق كل شيء حولي، الأمواج والغابات والصخور، بأن الذي ينقص العالم العربي، قيام «الدولة العربية المتحدة» لتنقذ الأمة العربية الواحدة والوطن العربي الواحد، من ذلك الخطر الأكبر والعار الأفظع . . إسرائيل . . وجوداً وكياناً . .

وفي اليوم التالي سافرنا إلى موسكو استعداداً للعودة، وفي المطار كان وداعنا حافلاً وحاراً . . وقد أقلتنا الطائرة إلى باريس، فاتجهت زوجتي إلى بيروت حيث أولادي، واتجهت إلى نيويورك، إلى الأمم المتحدة، حيث مشاكلي مع أمريكا وبريطانيا وربيبتهما إسرئيل . .

وما إن وصلت إلى نيويورك حتى هبت الصحافة الأمريكية «تستقبل» هذا القادم من موسكو، جريدة تقول «الشقيري أصبح عضواً مسجلاً في الحزب الشيوعي»، وجريدة ثانية تقول «الشقيري موفد إلى موسكو من قبل الرئيس عبد الناصر»، وكتبت جريدة ثالثة «أن الشقيري سافر إلى الاتحاد السوفياتي ليرجو الرئيس خروشوف أن يطلب من الرئيس عبد الناصر وقف الحملات الصحافية على المملكة العربية السعودية . . »

ورددت للصحافة الأمريكية الصاع مئتين . . فقد قضيت تلك الدورة في حملات متلاحقة على الولايات المتحدة . . وبلغت ذروتها في خطابي عن الأزمة الأمريكية الكوبية كما ذكرت . .

وانقضى عامان، وجاء الرئيس خروشوف إلى القاهرة ليشترك في احتفالات السد العالي في أسوان. ودعيت للاشتراك في الاحتفالات . . وكانت أياماً مثيرة شهد فيها الشعب المصري وفوداً من مختلف أنحاء العالم، جاؤوا ليروا بأعينهم هذا الإنجاز العربي العظيم.

وخطب الرئيس خروشوف خطاباً طويلاً ضمنه إشارات قاسية عن الوحدة العربية، خلاصتها أن الاشتركية تفهم وحدة العمال والفلاحين في جميع أرجاء العالم، وحدة الكادحين الذين تيبّست أيديهم من قبض المعاول . . ولا يفهم الاتحاد السوفياتي وحدة أخرى . . ، وإِنه يحث الأمة العربية أن تنظر إلى الوحدة من خلال هذه المعاني . .

وكان من الخطباء عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية، فأضاف خطابه في آخر لحظة عبارة تؤكد الوحدة العربية وضرورة قيامها في الوطن العربي. . فكانت رداً هادئاً على الرئيس خروشوف. .

وعدنا إلى القاهرة بعد انتهاء الاحتفالات، وزرت الرئيس خروشوف في قصر القبة. . ولم أكن وزير السعودية يومئذ، ولكني كنت رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية وبعد المجاملة والتحية قلت له:

«لي بعض ملاحظات على خطابك في أسوان، فهل تسمح لي كصديق للاتحاد السوفياتي أن أتحدث بها. . »

قال: «بكل تأكيد. . فنحن نؤمن بالنقد الذاتي».

قلت: «الموضوع يتعلق بالوحدة العربية».

قال: «نعم. . لقد فاتحني بذلك الرئيس عبد السلام عارف، حين كنا في الفندق في أسوان. . ولكني أحب أن أسمع رأيك».

قلت: «الوحدة العربية لها جوانب متعددة. . ولكني أريد أن أتحدث عنها من الزواية الاشتراكية المحضة».

قال: «وهل هنالك صلة بين الاشتراكية والوحدة العربية؟»

قلت: «نعم وبالتأكيد. . إن أدوات الانتاج في الوطن العربي متفرقة متباعدة. الأرض الصالحة للزراعة في إقليم. . والماء الغزير في إقليم. . والمال الوافر في إقليم. . والكثرة البشرية في إقليم. . والبترول والثروات المعدنية في إقليم. . وإن الوحدة العربية تهدف إلى تجميع ذلك كله في خطة واحدة، نحو تحقيق أهداف واحدة. . » واهتز الرئيس خروشوف ببدانته، ضاحكاً مسروراً، لهذا التفسير الاشتراكي للوحدة العربية. . ودخل الرئيسان عبد الناصر وعارف إلى الصالة ليصحباه إلى المطار، وأمسك الرئيس خروشوف بالرئيس عارف وهو يقول له:

«السيد الشقيري أقنعني بالوحدة العربية. . وأنا مؤمن بها. . »

قال الرئيس عارف: «وكيف ذلك؟» فكرر الرئيس خروشوف حديثي عن تجميع أدوات الإنتاج العربية في نطاق الوحدة العربية.

فقال الرئيس عارف: «إنني موافق على هذا التفسير. . وإن بترول العراق في خدمة الوحدة العربية. . »

وانطلقت بنا السيارات إلى مطار القاهرة الدولي. . ووقفت في صف الوزراء

والسفراء، بحسب تقاليد الوداع . . ومر الرئيس خروشوف يصافح ويودع، ووقف أمامي هنيهة مودعاً ومصافحاً وهو يقول:

«إنني موافق على التفسير الاشتراكي . . أنا موافق على الوحدة العربية . . »

وزمجرت الطائرة الروسية في الفضاء، تحمل الرئيس خروشوف من الوطن العربي إلى غير رجعة . . فقد مضت فترة غير طويلة واعتزل الرئيس خروشوف الحكم وحل محله القادة الثلاثة، بريجنيف ـ بودغورني ـ كوسيجن .

وتجددت ذكرياتي عن الرئيس خروشوف في نكبة حزيران/ يونيو، وافتقدته في الليلة الظلماء . . . ليلة الخامس من حزيران/ يونيو . . لقد افتقدنا مبادرته ومغامرته.

وأقبل العام التالي (١٩٦٥) وجاء الرئيس كوسيجن في زيارة إلى القاهرة وتطلعت إلى لقائه والتحدث إليه . . فزرت السفير الروسي ورجوته أن يرتب لي موعداً، ولكن جوابه كان فاتراً . . وقال إنه سيبذل جهده فإن جدول الرئيس كوسيجن مشحون بالمواعيد . . وكررت الاتصال تلفونياً بالسفير مرة بعد مرة، وأنا ألحّ وأرجو . .

وفي العشاء الأخير الذي أقيم للرئيس كوسيجن، كان جلوسي إلى جانب السفير الروسي، فذكرته بالموعد فقال: إنه يأسف لزحمة المواعيد، ولأن الرئيس مسافر غداً إلى موسكو، وبعد انتهاء العشاء اقتربت من الرئيس عبد الناصر وقلت له:

«لم أفلح في مقابلة الرئيس كوسيجن . . وإنني حريص على هذه المقابلة لأحدثه في شؤون منظمة التحرير الفلسطينية، لعلنا نلقى من الاتحاد السوفياتي شيئاً من العون».

قال: «انتظر قليلاً . . »

ومال الرئيس عبد الناصر إلى الرئيس كوسيجن في حديث لدقيقة أو دقيقتين، ثم التفت إليّ وقال: «سيكون اللقاء غداً في الساعة العاشرة صباحاً . . »

وذهبت في صباح اليوم التالي إلى قصر القبة واجتزت حدائقها، أحمل معي من عطورها وأريجها باقات من الثناء والتقدير بذلتها إلى الرئيس كوسيجن، وأنا أحدثه عن معاونة الاتحاد السوفياتي للشعوب العربية . . إلا . .

قال: «إلا ماذا؟»

قلت: «إلاّ الشعب الفلسطيني . . » وشرحت للرئيس كوسيجن قيام منظمة التحرير الفلسطينية قائدة لنضال الشعب الفلسطيني لتحرير وطنه، وقلت له إن الاتحاد السوفياتي لم يقدم شيئاً للشعب الفلسطيني . . وإذا كان لم يقدم شيئاً للاجئين

عن طريق وكالة الاغاثة، لأن الامبريالية الأمريكية هي المسؤولة عن كارثة اللاجئين، فإن ذلك لا يمنع أن يتقدم الاتحاد السوفياتي بالمعاونة المباشرة إلى الشعب الفلسطيني، وعن غير طريق الأمم المتحدة. . وهذه المعاونة يمكن أن تتدرج من المعاونة الثقافية إلى المعاونة العسكرية. . »

قال: «وما هي مطالبكم؟»

قلت: بإيجاز إن مطالبنا هي مايلي:

«أولاً: إيفاد بعثة من الخبراء الاقتصاديين والاجتماعيين السوفيات لزيارة مخيمات اللاجئين، لدراسة أحوالهم، وتقديم تقرير بشأن المشروعات المهنية والمدرسية التي يمكن الاتحاد السوفياتي أن يعاون فيها مالياً وفنياً. .

ثانياً: قبول بعثات طلابية من أبناء فلسطين لتلقي العلوم العلمية في جامعات موسكو.

ثالثاً: الموافقة على إلحاق عدد من ضباط جيش التحرير الفلسطيني في الكلية الحربية في الاتحاد السوفياتي.

رابعاً: تزويد جيش التحرير الفلسطيني بالأسلحة المتوسطة والخفيفة.

خامساً: إنشاء مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في موسكو لتعريف الشعب السوفياتي بالقضية الفلسطينية».

وكان سكرتير الرئيس السوفياتي يدون حديثي ومطالبي. . وسألني الرئيس كوسيجن:

«ماذا قدمت لكم الصين؟»

قلت: «وافقوا على إنشاء مكتب للمنظمة في بكين. . أرسلوا لنا أسلحة. . ودربوا عدداً من ضباطنا. . وهم لا يعترفون بوجود إسرائيل. . ويؤيدون كفاح الشعب الفلسطيني لتحرير وطنه».

وختمت حديثي بالرجاء، أن اسافر إلى موسكو لأشرح إلى المسؤولين المرحلة الراهنة في القضية الفلسطينية، وأبحث هذه المطالب.

وأجاب الرئيس كوسيجن، بأنه سيقدم هذه المطالب إلى مجلس الاتحاد الأعلى ليدرسها ويقرر بشأنها ما يشاء، وختم حديثه قائلا: بأن موسكو تحمل لي احتراما كبيراً. . وأن اصدقائي الكثيرين في الاتحاد السوفياتي، يقدرون جهودي في الأمم المتحدة. . وانتهت المقابلة من دون أن أرى في وجهة قبولاً أو رفضاً. .

واجتمعت بالسفير الروسي في القاهرة عدة مرات، مكرراً المطالب، ورغبتي في زيارة موسكو . . ، ولقيت نائب وزير الخارجية السوفياتية السيد جاكوب ماليك في الجزائر أثناء احتفالات فاتح تشرين الثاني/ نوفمبر، فكررت المطالب ورغبتي في زيارة موسكو . .

وزرت السفير السوفياتي في بيروت وكررت . . وعدت إليه بعد ثلاثة أسابيع وسألته عن جواب موسكو . . فأخرج من درجه ورقة، وكأنه كان يقرأ منها كلمة كلمة: «إن الاتحاد السوفياتي يحمل لكم كل احترام وتقدير . . ولكن الموقف الدولي في الوقت الحاضر ينطوي على ظروف صعبة . . وإن زيارتكم في هذه الفترة قد تثير تساؤلات وإشكالات . . ونأمل أن تتهيأ الفرصة المناسبة . . »

قلت للسفير: «نترك الزيارة جانباً . . وما هو الموقف بالنسبة إلى مطالبنا، وعلى الأقل، بالنسبة إلى فتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في موسكو . . »

قال: «هذه الأمور لا تزال قيد الدرس».

ومضت الشهور بعد الشهور، ولقاءاتي تتوالى مع «أصدقائي «الكثيرين من المسؤولين السوفيات كلما حلوا في الوطن العربي، من غير موافقة ولا جواب . .

وازددت يقيناً على يقين، أن السياسة السوفياتية لا تزال عند موقفها . . إسرائيل يجب أن تبقى . . وتحرير فلسطين غير قائم إطلاقاً . . ومنظمة التحرير الفلسطينية ليس لها مكان في السياسة السوفياتية، وأن أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية هو غير أحمد الشقيري المندوب العربي في الأمم المتحدة، وأن دعوته إلى موسكو ليست بذات موضوع في الوقت الحاضر . .

وتخليت عن عملي في منظمة التحرير الفلسطينية، وخلوت إلى غرفتي الصغيرة أجمع مذكراتي، وتجمعت أمامي ذكريات خمسة عشر عاماً من الصداقة مع الاتحاد السوفياتي، لأجدها «فاكهة» لذيذة تؤكل في موسمها . . ولا غرابة ولا عجب، فذلك شأن «الصداقة الدولية «فإنها أشبه ماتكون بأزهار الربيع، تنتهي بانتهائة ثم تصبح ﴿**هشيماً تذروه الرياح**﴾[(٢)] . .

كان هذا في الماضي . . وكائن هذا في الحاضر . . وسيكون هذا إلى الأبد . . وأبد الأبد . . ومن كان له أذنان للسمع فليسمع.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف، » الآية ٤٥ .

الرئيس ديغول يخون الجنرال ديغول!!
الرئيس كينيدي يخون الشيخ كينيدي؟

في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٥٤ أطلق الشعب الجزائري الرصاصة الأولى في الثورة الجزائرية، في حقبتها الأخيرة من الكفاح القومي الطويل. وقد سبقه مئة وخمسة وعشرون عاماً من النضال ضد الاستعمار الإفرنسي، ما كان يهدأ مرة، حتى يثور مرة أخرى. .

ولم يكن للكفاح الجزائري صدى يذكر في المحافل الدولية، سوى لمحات عابرة تتحدث عن «عصيان» في الجزائر، وعبث في الأمن والنظام. . ذلك أن الجزائر، كان معروفاً عنها «كحقيقة» دولية أنها أرض فرنسية، يفصلها البحر الابيض المتوسط عن فرنسا، الوطن الأم، ليس إلاّ.

ومنذ بدأت حياتي في الأمم المتحدة، رحت أبحث عن مقاتل الاستعمار. . وكان طبيعياً أن تكون القضايا العربية هي أول اهتماماتي، في مجال التصدي للاستعمار.

وكنت أحس في قرارة نفسي، أن الجزائر يجب أن تلقى من الأمة العربية الاهتمام الأول، لا امتيازاً لها في شيء، فالأقطار العربية سواء. . . ولكني كنت أرى أنها في طريق الضياع، فقد تقادم عهد الاستعمار الإفرنسي في الجزائر، وأقام على ترابها كثيراً من معالم الحياة الإفرنسية. . وأصبحت فرنسا «تؤمن» أنها قطعة منها، لا سبيل لانتزاعها منها، على حين كانت الأقطار العربية الأخرى في طريقها إلى التحرر مهما طال الطريق. .

وفي قراءاتي عن «إنجازات» الاستعمار الإفرنسي، في «فرنسة» الجزائر ذهلت لما قرأت. . . وخشيت أن تصبح الجزائر إفرنسية فعلاً، وتطمس فيها معالم العروبة والإسلام. .

وساقني هذا الخوف في أوائل الخمسينيات، وأنا أعمل في الجامعة العربية، مساعداً للأمين العام، أن أدخل في حوار مع الوفود العربية، بصدد أولوية النضال في الوطن العربي، بأي قطر نبدأ، وضد أي استعمار نكافح أولاً.

وكان رأيي على الدوام أننا يجب أن نبدأ بفرنسا، وأن نبدأ بقضية الجزائر . . حتى قبل القضية الفلسطينية أو معها . . ولم تكن الصهيونية بالخطورة التي بدت لنا في ما بعد . . . وقلت للسيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية في سياق هذا التفكير:

«يبدو لنا أننا في الجامعة ننسى أن في الوطن العربي قطراً اسمه الجزائر».

قال: «إن قضية الجزائر عويصة جداً . . وأنت تعرف مشاعر الإفرنسيين تجاهها».

قلت: «إنه لهذا السبب، يجب أن يزداد اهتمامنا بقضية الجزائر . . إن فرنسا تعترف أن تونس ومراكش تحت الحماية الإفرنسية . . ولا بد لهذه الحماية أن تزول ولكن الجزائر في نظر فرنسا مقاطعة إفرنسية، «وعملية الفرنسة» جارية ومستمرة . . وأخشى أن يأتي يوم فلا نستطيع إنقاذها، إن الوطن ليس بأرضه، ولكنه بشعبه، في لغته وثقافته ودينه».

قال: «هذا صحيح لا شك فيه . . وأنت تعلم أنني متهم من قبل المصريين، بأنني أريد أن أوجه الجامعة العربية نحو الاهتمام بالمغرب العربي أكثر من المشرق العربي . . ولعلك تفاتح بعض الوفود العربية وخاصة الوفد السوري في الأمر، فقد نجد لنا طريقاً إلى نجدة الجزائر».

وفي إحدى دورات الجامعة تحدثت إلى السيد جميل مردم رئيس وزراء سوريا في الموضوع، فلقيت منه انفتاحاً واهتماماً، ووعدني أن يتصل ببقية الوفود العربية الأخرى.

وتابعت اتصالاتي في هذا الصدد . . ولكن أثقال القضية الفلسطينية لم تكن لتسمح بالبحث في أية قضية أخرى . . فضلاً عن أن «التعرض» لفرنسا لم يكن أمراً سهلاً على الدول العربية السبع . . وأكثرها لا يزال واقعاً تحت النفوذ . .

وفي خلال سبع دورات في الأمم المتحدة منذ ١٩٥٠، كانت القضية الجزائرية تعيش معي، ولم تكن قد أصبحت قضية دولية . . فما من مناسبة تأتي في الجمعية العامة أو إحدى لجانها إلا وأشير فيها إلى «الحالة» في الجزائر، وما يلقاه الشعب الجزائري من مظالم وآلام.

وكانت عباراتي وإشاراتي عن الجزائر تقابل بالاستخفاف حيناً، وبالاستنكار حيناً آخر، لدى الوفود الأجنبية، وهي ترى أنه لا معنى للتدخل في الشؤون الداخلية لفرنسا.. كما كانت تبدو ثقيلة وممجوجة لدى بعض الوفود العربية.. فأي معنى لأن تدخل في «إشكالات» مع فرنسا.. على غير طائل أو جدوى..

ولكني مضيت أنخس فرنسا من حين إلى حين، وأذكر الجزائر.. بصدد حقوق الإنسان، في تقرير المصير.. في الحريات الاساسية.. في.. في.. إلى أن أصبحت الجزائر قضية دولية في الأمم المتحدة.. وكأني «وجدتها» بعد انتظار طويل..

وأطلّت الجزائر برأسها على المنظمة العالمية في كانون الثاني/يناير من عام ١٩٥٥، فقد وجهت المملكة العربية السعودية رسالة إلى مجلس الأمن، تخطرة فيها بالعمليات العسكرية الرهيبة التي تقوم بها فرنسا في الجزائر.. وتوالت بعد ذلك دورات الأمم المتحدة في معالجتها للقضية الجزائرية، تشق طريقها فيها عاماً بعد عام، حتى ظفر الشعب الجزائري المجاهد بحريته واستقلاله في عام ١٩٦٢.. ودخل الأمم المتحدة عضواً كامل العضوية، بعد أن كان أمره، تتجاذبه المناورات والمشاورات، في أروقة الأمم المتحدة ودهاليزها..

ولقد عشت القضية الجزائرية كل عمرها في الأمم المتحدة، بروح الثورة الجزائرية، وكأنني في ميدان القتال..

وكذلك فقد حاربت الاستعمار الإفرنسي على منبر الأمم المتحدة، بكل الأسلحة، من غير مجاملة ولا دبلوماسية، بالعنف المتطرف والقسوة المسرفة.. فتلك خصائص الحرب وطبيعة المحارب..

وكان الرئيس شارل ديغول هو الهدف.. ولا هدف سواه.. أسدد إليه كل انتقاداتي، غير عابئ بأنه رئيس دولة.. فإن شعبنا في الجزائر بكامله يقاتل آخر معاركه.. ووراءهماية وثلاثون عاماً من القتال..

وكان يدفعني إلى الاشتباك الضاري مع الرئيس ديغول، إحساسي بقدرته الخارقة: على حل القضية الجزائرية، وقدرته على تعطيل القضية إلى جيل آخر. ومن هنا اصطنعت أمام الأمم المتحدة للمسيو شارل ديغول شخصيتين: الرئيس ديغول رئيس الجمهورية الخامسة لفرنسا.. والجنرال ديغول بطل حركة التحرير الإفرنسية، ومن هنا كذلك، كنت أضع يدي على وجه الرئيس ديغول فأمسح به الأرض.. وارفع بالجنرال ديغول إلى مواقع الأفلاك والنجوم..

وشهدت الدورة العاشرة للأمم المتحدة عام ١٩٥٥، أول صدام مكشوف مع

فرنسا، فقد تقدمت أربع عشرة دولة أفريقية آسيوية بطلب لإدراج القضية الجزائرية على جدول الأعمال، وقامت فرنسا وحلفاؤها وأنصارها. . وعلت الصيحة الاستعمارية في الأمم المتحدة كيف تقدم هذه الشكوى على فرنسا، كيف يسمح بالتدخل في شؤون فرنسا الداخلية؟ كيف. . كيف؟

ووقفت الولايات المتحدة، صاحبة الثورة التحريرية الأمريكية، ومعها بريطانيا ودول الأطلنطي، والعالم «الحر» إلى جانب فرنسا، يعارضون في مجرد إدراج الشكوى الجزائرية على جدول الأعمال وكانت كل السوابق في الأمم المتحدة تحتم إدراج أي قضية، ويترك مصيرها بعد المناقشة والبحث إلى القبول أو الرفض. . ولكن اللجنة التوجيهية قد رفضت إدراج القضية الجزائرية. . وسرت ريح نتنة عفنة في أروقة الأمم المتحدة، تنبئ بأن المنظمة العالمية قد أصبحت أداة مهترئة، من غير كرامة ولا هيبة.

ونظرت الجمعية العامة في قرار اللجنة التوجيهية، فناضلت مع الوفود الأفريقية والآسيوية بالإصرار على الإدراج. . وصحْت في وجة الولايات المتحدة وبريطانيا والدول الغربية: أهذا هو «العالم الحر» يطعن الأمم المتحدة في أقدس مبادئها. . . حق الشكوى؟ واستشهدت بقول فيكتور هوغو الشهيرة: «اضربني ولكن اسمعني. .» وتكاتفت المجموعة الأفريقية الآسيوية، وانضم إلى معسكرهم فريق من الكتلة اللاتينية والدول الإسكندنافية، فوافقت الجمعية العامة على طلب الإدراج. . وأعلنت فرنسا أنها تنسحب من الجمعية العامة ولجانها الرئيسية. . وكان أول حدث من نوعه تقوم به دولة من الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن. وكأنما حل زلزال في الأمم المتحدة. . فتكاثرت الاجتماعات الجانبية. . واستنفرت الولايات المتحدة كل أنصارها وأعوانها. وعبأت خبراءها القانونيين ورجالها «الصاغة» البارعين، واهتدت إلى صيغة ماكرة تدعو «الجمعية العامة إلى عدم المضي في بحث القضية الجزائرية»، ودعيت الجمعية العامة للانعقاد لتنظر في هذا الاقتراح. . وكان الجو مكهرباً. . وأسهبت الدول الغربية في الخطر الذي يهدد الأمم المتحدة بانسحاب فرنسا. . ورد عليهم ممثلو الكتلة الأفريقية الآسيوية، ووقفت على المنصة، وأنا أحمل في نفسي كل عواطف الشعب الجزائري وقلت: «كان على فرنسا، بدلاً من أن تنسحب، أن تواجه الأمم المتحدة، وأن تجعل الرأي العام العالمي هو الفيصل. . بل إنه كان على فرنسا أن تنسحب من الجزائر، قبل أن تنسحب من الأمم المتحدة».

وقاطعني المعسكر الغربي. . وكأنما أصبحنا نادياً يتحكم فيه العصاة. . وكانت الولايات المتحدة قد جاءت بجميع «الغائبين» عن الجلسة السابقة، وحملت المستنكفين السابقين أن يصوتوا كما يُراد. . فطرح الاقتراح للتصويت ففاز بالأغلبية المطلوبة. .

وشطبت القضية الجزائرية من جدول الأعمال في تلك الدورة، فكان يوماً اسْودّ فيه وجه الأمم المتحدة. .

وخرجنا من القاعة، وكان السيد كابوت لودج رئيس الوفد الأمريكي يسير إلى جانبي فقلت له:

«موعدنا العام القادم».

قال: «في العام القادم ستكون الأمور هادئة في الجزائر. .»

قلت: «إنّ «مخابراتكم» فقيرة. . ستكون الثورة الجزائراية أشد وأقسى في العام القادم. .»

قال: «على كل حال. . أمامنا فرصة طويلة لنضغط على فرنسا «لتحسين» الحالة في الجزائر. .»

قلت: «كان أمامكم مئة وخمسة وعشرون عاماً. . وعليّ أن أذكر أن دولة الجزائر كانت من أوائل الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة».

قال: «أوكد لك أننا سنبذل جهدنا لتحسين الحالة في الجزائر».

قلت: «ليس المطلوب «تحسين الحالة». . . المطلوب هو التحرير، الاستقلال، السيادة الوطنية».

قال: «سنرى العام القادم. .»

ومضت الحرب الجزائرية يخوضها الشعب الجزائري البطل. . ومضت فرنسا تعاونها دول حلف الأطلنطي في مقاومة الثورة الجزائرية. . واستدار العام وجاءت الدورة الحادية عشرة للأمم المتحدة فتقدمت خمس عشر دولة أفريقية وآسيوية، بطلب إدراج القضية الجزائرية على جدول الأعمال، وجرت محاولات متعددة لمعارضة إدراج الشكوى. . وتصدت الوفود الأفريقية والآسيوية للدفاع عن وجهة النظر الجزائرية. . وكان قد وصل إلى الأمم المتحدة، وفد جزائري، فزوّدني بملف كامل عن تفاصيل الحرب الجزائرية، ووقائع حملة الإرهاب والتعذيب التي يقوم بها الجيش الإفرنسي على المدنيين في الجزائر. . فأخذت أسردها أمام الأمم المتحدة بتفاصيلها وتواريخها. . واحدة واحدة.

وكان الكفاح الجزائري قد لفت إليه الأنظار، وتناولته الصحف والإذاعات العالمية بالشرح والتعليق. . ورحت أسأل الوفود الغربية:

«كيف تقفلون أبواب الأمم المتحدة في وجه القضية الجزائرية، وهذه صحفكم

واذاعاتكم قد انفتحت لها؟ كيف لا ترفعون صوتكم في تأييد حق الشعب الجزائري في وطنه، وهؤلاء أساتذة الجامعات في فرنسا، ومعهم رجال الكنيسة، ومجموعة من أحرار الفكر والضمير في الشعب الفرنسي، يسمونها «الحرب القذرة» ويطالبون حكومتهم بالتفاهم مع الشعب الجزائري على أساس ديمقراطي عادل؟» ثم وجهت حديثي إلى الوفدين الإفرنسي والأمريكي قائلاً:

«أنتم يا أحفاد الثورة الإفرنسية، وأنتم يا أحفاد الثورة الأمريكية.. ماذا ستقولون لشعوبكم وماذا ستقولون للتاريخ.. نحن لا نريد لفرنسا إدانة ولا إهانة، كل ما نريده الوصول إلى حل سلمي ديمقراطي وفق أهداف الأمم المتحدة.. ألم توقعوا على ميثاق الأمم المتحدة؟ وهل في الأمم المتحدة من يعارض الالتزام بميثاق الأمم المتحدة..؟»

كانت القاعة مليئة، وكان ممثلو الصحف العالمية يراقبون.. وكأنهم يبحثون عن ذلك الوفد الذي يعارض في الحل السلمي الديمقراطي وحق ميثاق الأمم المتحدة.

ولم تستطع الدول الغربية أن تقول لا.. فقد استأثرت الثورة الجزائرية باهتمام الرأي العام العالمي.. وهكذا صدر القرار من الأمم المتحدة تعرب فيه الجمعية العامة عن أملها في ايجاد حل ديمقراطي سليم عادل.. ينطبق على مبادئ ميثاق الأمم المتحدة، وكان هذا أول نصر سياسي للقضية الجزائرية على صعيد الأمم المتحدة.. فلم تعد قضية (إفرنسية داخلية) وإنما قضية دولية، وبقرار من الأمم المتحدة نفسها.

أجل، لقد كانت خطوة واسعة على الطريق.. ولكن كان لا يزال أمام القضية الجزائرية طريق طويل في الوطن.. ثم في الأمم المتحدة.

ومضى العام كله (١٩٥٧) والحرب الجزائرية مشتعلة في جميع الساحات والميادين، لتدخل عامها الثالث، من دون أن تذعن فرنسا لقرار الأمم المتحدة، وأصبحت الحرب الجزائرية هي القضية الملتهبة لدى الرأي العام الدولي، وتكاثر عدد المؤيدين لها في فرنسا وأوروبا وأمريكا، حتى على صعيد الكتلة الآسيوية الأفريقية، فقد تقدمت اثنتان وعشرون دولة لإدراج القضية الجزائرية على جدول أعمال الدورة الثانية عشرة، في حين أن الذين طلبوا إدراجها من المجموعة الآسيوية الأفريقية في عام ١٩٥٥ كانوا أربع عشرة دولة.

وجاء المسيو بينو وزير خارجية فرنسا على رأس وفد كبير ليدحض الشكوى الجزائرية، ووصل كذلك الوفد الجزائري وانبث أعضاؤه في أروقة الأمم المتحدة ودارت المعركة السياسية في المنظمة العالمية على أشدها.. ووراءها المعركة العسكرية على أرض الجزائر تلهب العالم بأنباء البطولة التي تتجلى في هجمات جيش التحرير

الجزائري، وهو يخوض المعركة في وجه عدو تفوّق من غير حساب، في العدة والعدد والسلاح.

وتوليت عرض القضية الجزائرية بشرح وإسهاب، تاريخها وتطورها، معاركها السابقة واللاحقة منذ عهد الأمير عبد القادر الجزائري إلى يومنا هذا. . وألمحت إلى أن ذلك العام هو عام أفريقيا استقلت فيه عشرون دولة ودخلت الأمم المتحدة، من دون أن تطلق معظمها رصاصة واحدة. . وتساءلت: لماذا تنكر فرنسا على الشعب الجزائري حقه الطبيعي في الحرية والاستقلال. . وقلت للمسيو بينو وزير الخارجية الإفرنسية:

«هل من تفسير مقبول عادل؟ . . هل يتفضل المسيو بينو ويشرح للأمم المتحدة السبب؟ وهل يتفضل المسيو بينو بإيضاح لغز أكبر إلى متى تظل الجزائر محرومة من الاستقلال، وهذه تونس على ميمنتها والمغرب على ميسرتها قد بلغت كل منهما السيادة الكاملة، وها نحن نرى الوفدين التونسي والمغربي يحتلان مقعديهما في الأمم المتحدة بكل جدارة واستحقاق. . ، ولم يبقَ أحد في القاعة إلا والتفت إلى وزير الخارجية الإفرنسية يطلب منه الإيضاح. .» ونهض الوزير الإفرنسي متثاقلاً يجر خطاه إلى منبر الأمم المتحدة، وراح يتحدث بلهجة الساخر المتهكم، لا يشير إليّ باسمي وهو يقول:

«إنني أوجه خطابي إلى الجمعية العامة، لا إلى المتكلم السابق، فهو معروف لكم بغوغائيته وشيوعيته. . إن الجزائر هي مقاطعة إفرنسية شأنها في ذلك شأن المقاطعات الإفرنسية الأخرى. . وإن فرنسا في الجزائر منذ ١٨٣٠، ووضعها يختلف عن تونس والمغرب اللتين كانتا تحت الحماية. . وإننا نستغرب كيف أن الدول الآسيوية الأفريقية تتدخل في هذه القضية، ومؤتمر باندونغ قد أعلن مبدأ عدم التدخل. .» ومضى بينو يردد هذه الحجج الاستعمارية المعروفة. . وتقابلنا، بينو وأنا، في منتصف القاعة هو يغادر المنبر وأنا أسير إليه، وأنا أنظر إليه مبتسماً، فضحك الوفود وصفقوا. . وبدأت كلامي وأنا اقول:

«من حقكم أن تضحكوا وأن تصفقوا فإن المتكلم السابق معروف لديكم باستعماريته ورجعيته، وهذا أسوأ بكثير من شيوعيتي وغوغائيتي. . . وضجت القاعة بالضحك. . ، وتابعت حديثي: «إن الغوغائي الشيوعي الذي اسمه أحمد الشقيري يريد أن يعلم الرجعي الاستعماري الذي اسمه المسيو بينو تاريخ فرنسا. . إن تاريخ فرنسا الدبلوماسي يتضمن ٥٧ معاهدة عقدت بين فرنسا والجزائر بين ١٦١٩ ـ ١٨٣٠، وهذا نابليون الثالث قد كتب إلى الحاكم الإفرنسي في الجزائر في عام ١٨٦٠ بأن الجزائر «ليست مستعمرة. . ولكنها مملكة عربية». . وخاطبت بعد

ذلك مندوب بريطانيا وقلت له: «أرجو أن تهمس في أذن الوزير الإفرنسي أن بريطانيا قد وقعت معاهدة صداقة مع الجزائر في عام ١٦٨٢».

والتفتّ إلى المندوب الأمريكي وقلت له: «وأنت.. أرجو أن تهمس في أذن الوزير الإفرنسي أن الجزائر كانت من أوائل الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة، وعقدت معها ثلاث معاهدات بين ١٧٩٥ ـ .. ١٨١٦. وقد تعهدت الجزائر بموجب هذه المعاهدات بأن لا تبيع سفناً حربية لأية دولة تكون في حرب مع أمريكا.. هذا بالنسبة إلى التاريخ الماضي.. أما التاريخ المعاصر فلعل المسيو بينو قد سمع صيحات مظاهرات الجامعيين التي استقبل بها مؤخراً المسيو بينو في أمريكا اللاتينية، لا شيوعية ولا غوغائية، وهي تنادي: «يا فرنسا اخرجي من الجزائر». وختمت حديثي إلى المسيو بينو قائلاً: «أما قرار مؤتمر باندونغ بعدم التدخل الذي أشرت إليه.. فمعناه أن لا تتدخل فرنسا في شؤون الجزائر الداخلية.. ومؤتمر باندونغ، على كل حال قد أعلن حق الجزائر في الحرية والاستقلال.. وليس غريباً على من يجهل تاريخ فرنسا الدبلوماسي أن يكون جاهلاً لقرارات مؤتمر باندونغ..» وغادرت المنبر إلى مقعدي، الوفد السعودي، وورائي وفد الجزائر وقد سجلتهم معي في الوفد، وكانوا في جدال مع عضو في الوفد الأمريكي وهو يقول لهم:

«هل أنتم موافقون على خطاب الشقيري؟»

الوفد الجزائري: «نعم نحن موافقون، ونحن نعتبره ممثلاً للجزائر».

الوفد الأمريكي: «ولكن الخطاب فيه تهجم شديد على فرنسا..»

الوفد الجزائري: «لا يا سيدي.. الوزير الإفرنسي هو الذي بدأ الهجوم وعلى كلٍ فإن الشقيري قد قدم إلى الأمم المتحدة حقائق تاريخية».

الوفد الأمريكي: «ولكن الشقيري تجاوز الحدود، وفرنسا دولة عظمى وعضو دائم في مجلس الامن..»

الوفد الجزائري: «والمملكة العربية السعودية هي عضو مؤسس في الأمم المتحدة».

وختم الوفد الجزائري الحوار مع الوفد الأمريكي بالعبارة الإفرنسية: الحرب هي الحرب.. وكانت الحرب ولا شيء غير الحرب على الأرض الجزائرية هي التي دفعت الأمم المتحدة في تلك الدورة إلى إصدار قرار إجماعي يدعو إلى «إجراء محادثات تستهدف الوصول إلى حل يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة». والدعوة إلى محادثات، نصر سياسي كبير حققته القضية الجزائرية لأول مرة في الأمم المتحدة. فقد أصبحت «جبهة

التحرير الجزائرية «فريقاً»، وعلى فرنسا أن تدخل معها في «محادثات». وكان ذلك بداية الاعتراف بالشخصية الجزائرية المستقلة المنفصلة عن فرنسا.. وبهذا تداعت أسطورة الجزائر الإفرنسية.. والذين بددوا هذه الاسطورة، لم يكونوا خطباء الأمم المتحدة وأنا واحد منهم، ولكنهم كانوا أبطال الحرب التحريرية الجزائرية الذين قدموا أرواحهم للحرية والاستقلال.. ومرة أخرى مضى عام ١٩٥٨ من غير أن تخضع فرنسا لقرار الأمم المتحدة بالدخول في «محادثات مع الجزائر.. مع أن خبراء الصياغة في الأمم المتحدة قد عثروا في القاموس الدبلوماسي على تعبير سياسي مأخوذ من اللغة الإفرنسية «Pourparlers» «محادثات» وهو تعبير أخف من «المفاوضات» فاستخدموه في قرار الدورة السابقة إرضاء لاحساسات فرنسا.

ولكن النزعة الاستعمارية في فرنسا لم تكن قد قُهرت بعد، فاستمرت الحرب طاحنة على أرض الجزائر، فاستخدمت الحكومة الإفرنسية كل قواتها العسكرية ومعها حلف الأطلنطي، وألقى الشعب الجزائري في الميدان كل بسالته وشجاعته، مع القليل من السلاح والمال والزاد والعتاد.

وقد رأيت بارقة أمل جديدة حينما تألفت حكومة جزائرية مؤقتة في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٨ وأعلنت عن أهدافها في إقامة جمهورية جزائرية ديمقراطية، ومواصلة حرب التحرير حتى النصر، إلى جانب استعدادها للدخول في مفاوضات حرة مع فرنسا للوصول إلى تسوية سلمية على أساس الحرية والاستقلال.

وأرسل إلّي رئيس الحكومة الجزائرية الموقتة ملفاً كاملاً يتضمن سير الأحداث العسكرية التي تمت إلى ذلك الحين، وبرنامجها السياسي في الميدانين الداخلي والخارجي.

وأقبلت الدورة الثالثة عشرة للأمم المتحدة، والكفاح الجزائري تتردد أنباؤه وأصداؤه في العالم، وبكرت في حضور تلك الدورة، وطفت مع الوفد الجزائري على عدد كبير من وفود الأمم المتحدة، وفزنا هذه المرة بأربع وعشرين دولة أفريقية آسيوية لطلب إدراج القضية الجزائرية على جدول الأعمال.

ولم يكن الموقف سهلاً على صعيد الأمم المتحدة، ففي تلك الفترة جاء الجنرال ديغول على رأس الحكم في فرنسا، يجر وراءه سمعة عالية، ولم يكن يسيراً التصدي له في المحافل الدولية.. وتضاعفت هذه الصعوبة بعد أن أعلن الجنرال ديغول أن فرنسا ستتخلف عن حضور الأمم المتحدة في تلك الدورة، ولتفعل هذه المنظمة العالمية ما تشاء..

وأقبل دور المناقشة العامة في هذا الجو المشحون: حرب في الجزائر، وخطب

ديغول في فرنسا، وأصدقاء فرنسا في الأمم المتحدة يناورون في أروقة الأمم المتحدة.

وجلست في مقعدي، وورائي أعضاء الوفد الجزائري يتنقلون حيناً على الوفود ثم يعودون، وخطب عدد من الوفود الأوروبية واللاتينية يعربون عن ثقتهم الكاملة بفرنسا وبالجنرال ديغول، وأن مناقشة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة ستزيد الموقف تعقيداً، وأنه من الخير أن لا يصدر أي قرار من الأمم المتحدة، حتى يعطى الجنرال ديغول الفرصة لتنفيذ برنامجه «الإصلاحي» في الجزائر، وما تقدم به من مقترحات لتحقيق «سلم الرجل الشجاع». . إلى آخر ما وراء هذه العبارات المعسولة من مماطلة وتسويف. . ونهضت بعد أن استنفد أصدقاء فرنسا كل ما في جعبتهم، لأرد عليهم فرداً فرداً وجماعة. . وأعربت عن الأسف أن فرنسا غائبة عن الأمم المتحدة. . منكراً أن يغيب الجنرال ديغول عن الميدان، ميدان الأمم المتحدة، وأن هذا لا يتفق مع تقاليد أبطال التحرير، والجنرال ديغول في طليعتهم.

وأحسست أمام هذا الثناء المبطن للجنرال ديغول، أن جو الأمم المتحدة قد اخذ ينفرج، وأن العقول أخذت تتفتح للاستماع إلى وجهة النظر الجزائراية، وقد كان معروفاً أنني أتحدث بلسان الوفد الجزائري الذي لم يكن يملك حق الكلام على منبر الجمعية العامة. . .

وبدأت أشرح القضية الجزائرية من جديد مؤكداً أهدافها في الحرية والاستقلال، وأعلنت قيام الحكومة الجزائرية المؤقتة والدول التي اعترفت بها، وطالبت الدول الأعضاء أن يعترفوا بها. . وأن يمدوها بالمال والسلاح. . فإن تأييد معارك الحرية هو واجب دولي يقع على الإنسانية بأسرها. . ومضيت أُفند موقف فرنسا وقلت: «كان الأفضل للجنرال ديغول بدلاً من أن يخطب في فرنسا والجزائر ويعرض «سلم الرجل الشجاع» أن يخطب هنا في الأمم المتحدة ويواجه الرأي العام الدولي. . إن الجنرال ديغول قد عرض على الثوار أن يلقوا السلاح ويعودوا إلى عائلاتهم وأعمالهم لتستطيع فرنسا تنفيذ برنامج الخمس سنوات للنهوض الإقتصادي والاجتماعي، ولكن هذا هو بعينه سلم الرجل الجبان والجزائريون شجعان ليس فيهم جبان، وما يعرفون مثل هذه الحلول الهزيلة. . ولو أن الجنرال ديغول قد عُرضت عليه مثل هذه الحلول حينما كان يقود المقاومة الإفرنسية في الحرب العالمية الثانية لرفضها بكل شجاعة. . » وختمت هذا العرض وفي لهجتي روح التحدي الكامن في الثورة الجزائرية، معلناً أنه: «كان الأفضل للجنرال ديغول أن ينسحب من الجزائر لا من الأمم المتحدة. . ولكن الرئيس ديغول قد خيب آمالنا في الجنرال ديغول. . «بطل الثورة والتحرير»».

وساد الجلسة جو من الرهبة والهيبة بعد أن تعرضت للجنرال ديغول، فنهض رئيس وفد بلجيكا، وكانت بيني وبينه «ثارات» منذ أن تصديت لقضية الكونغو، فقام يحمل على «شيوعيتي» وأنني في تعرضي للجنرال ديغول قد استخدمت شكسبير «ولكن بروتوس رجل شريف» وأن السلام لا يمكن تحقيقه بهذه الأساليب الشعرية.

فعدت إلى منبر الأمم المتحدة مرة ثانية وأنا أخاطب الوفد البلجيكي قائلاً: «إنني أعرف السبب في غضبكم وحقدكم. . أنتم هنا تعالجون كل القضايا الدولية من زاوية قضية الكونغو، ولا زلتم في حزن دائم لخروجكم من الكونغو. . ولكن اعلموا أن فرنسا ستخرج من الجزائر كما خرجتم من الكونغو. . إن الجزائر عربية وترفض الاندماج بفرنسا. . وحتى الشباب الجزائريين الذين لا يعرفون إلا الإفرنسية، يعربون عن استنكارهم ورفضهم للاندماج باللهجة الباريسية البارعة. . والعمال الجزائريون في فرنسا نفسها، قد فتحوا جبهة ثانية وأصبحوا يقومون بأعمال عسكرية على الأرض الإفرنسية. .

ثم وجهت حديثي إلى الجمعية العامة وأعلنت، أن الثورة الجزائرية قد قضت على الجمهورية الإفرنسية الرابعة. . وإذا لم تحلّ القضية الجزائرية، فستقضي على الجمهورية الإفرنسية الخامسة. . إن الثورة الجزائرية جاءت بالجنرال ديغول من عزلته في ضواحي باريس وجعلته الرئيس ديغول وإذا لم تحل القضية الجزائرية فسيعود الرئيس ديغول إلى عزلة الجنرال ديغول ليكتب الفصل الأخير من مذكراته. . وربما وقعت فرنسا في حرب أهلية. . وعلى الذين يريدون أن يتجنبوا هذه المأساة أن يدفعوا فرنسا إلى التفاوض مع الجزائر للوصول إلى حل سلمي مشرّف، يعترف للشعب الجزائري البطل بالحرية والاستقلال.»

ختمت حديثي بهذه العبارات. . وإذا بالدول الأفريقية الآسيوية ومعهم جمهور المستمعين يعربون عن تأييدهم وحماستهم. . والوفود الاستعمارية في صمت ووجوم لا تدري ما تقول. .

وجاءت هذه الصيحة الداوية إلى جانب صيحات الوفود الأفريقية الآسيوية لتضع قراراً مجيداً تعلن فيه الأمم المتحدة حق الجزائر في الاستقلال، واستعداد حكومة الجزائر المؤقتة للدخول في مفاوضات مع الحكومة الإفرنسية. . ودعوة الفريقين إلى التوصل إلى تسوية عن طريق التفاوض تتفق وميثاق الأمم المتحدة.

كان ذلك القرار نصراً مجيداً على صعيد الأمم المتحدة. . ففيه اعتراف بحكومة الجزائر المؤقتة، وحق استقلال، ودعوة فرنسا إلى المفاوضة. . ومن الذي كان يحلم

قبل عام أن الأمم المتحدة ستسير هذا الشوط كله . . وتتصدى لفرنسا، وعلى رأسها الجنرال ديغول . .

ولكن هذا النصر المجيد ومعه الرأي العام العالمي، قد صنعه أبطال الجزائر على جبال الأوراس، ولم تصنعه جهودنا السياسية ونحن نخطب في أبهى قاعة شهدها التاريخ الدولي، منذ كان للحياة الدولية تاريخ . .

لقد قطعت الثورة شوطاً كبيراً . . ولكن بقي أمامها أشواط أكبر من النضال، على الجبال وفي الوديان، في المدن وفي الصحراء . . في وطن الثورة. وهذا ما جرى فعلاً، فقد دخلت الثورة الجزائرية في سنة ١٩٥٩ مرحلة رهيبة من الكفاح الدموي، فدفعت فرنسا بكل رصيدها العسكري والسياسي في هذه المعركة ولجأت السلطات الإفرنسية إلى أفانين التعذيب الوحشي، ووضع الجنرال ديغول كل أثقاله في قيادة المعركة على الصعيدين السياسي والعسكري.

وكان أكثر ما أزعج الرئيس ديغول على الصعيد الدولي، أن الأمم المتحدة وهي منظمة واقعة تحت السيطرة الغربية، قد راحت تصدر قراراتها ضد فرنسا وفي قضية الجزائر وهي أعز القضايا على فرنسا . . ورغماً عن هجماتي المعروفة على الولايات المتحدة، فقد كنا، أنا والسيد كابوت لودج رئيس الوفد الأمريكي، نتبادل النكات اللاذعة، وقد فرض الترتيب الأبجدي أن تكون مقاعدنا متقاربة، وقلت له مرة: «لقد تخلفت فرنسا عن حضور الجلسات ولكنها جندت كل أصدقائها وأعدائها، ألا تستحون من تاريخكم . . إن الشعب الأمريكي أول من ثار على الاستعمار البريطاني، فكيف تناصرون فرنسا في قضية استعمارية كمشكلة الجزائر؟».

قال: «نحن مع الشعب الجزائري . . ولكن المشكلة صعبة ودقيقة، ونحن بطريقتنا الهادئة لا نفتأ ننصح فرنسا بالاستجابة لمطالب الشعب الجزائري».

قلت: «يستحيل على فرنسا أن تتخلى عن الجزائر بالإقناع . . وعلى الأمم المتحدة أن تصبح قوة ضاغطة، كما يجب على أصدقاء فرنسا ودول الحلف الأطلنطي أن يكفوا عن معاونتها وتأييدها عسكرياً واقتصادياً».

قال: «إن الجنرال ديغول قد طلب أن لا تتدخل الأمم المتحدة في هذه القضية وأعرب عن استعداده لتسويتها وأن على أصدقاء فرنسا أن يعطوه الفرصة الكافية».

قلت: «هل أفهم من ذلك أنكم ستحولون هذا العام دون اتخاذ أي قرار من قبل الأمم المتحدة؟»

قال: «سنرى ما يكون . . ولا أدري كيف ستنتهي هذه الدورة».

ونقلت إلى الوفد الجزائري ما دار بيني وبين رئيس الوفد الأمريكي، وأعربت عن خشيتي أن تفلح دول حلف الأطلنطي في إحباط جهودنا في الأمم المتحدة، في ذلك العام.

وأطل هلال الدورة الرابعة عشرة للأمم المتحدة، فرأينا أنفسنا أمام خطة مدبرة محكمة، ولقد تخلفت فرنسا عن حضور الجلسات ولكنها جندت كل أصدقائها وبقايا الوفد الإفرنسي يعملون في أروقة الأمم المتحدة فيقومون بالاتصالات والمناورات، ويصدرون إيضاحاتهم وبياناتهم إلى الصحافة من حين إلى حين. .

ووجدنا كذلك تركيزاً على خطة الرئيس ديغول بشأن القضية الجزائرية التي أعلنها في أيلول/ سبتمبر ١٩٥٩ على أساس تقرير المصير، فقد عرض على الشعب الجزائري أن يختار واحداً من ثلاثة: الاستقلال ـ الاندماج ـ الاتحاد الفيدرالي مع فرنسا.

وكان هذا الإطار بارعاً وذكياً من غير شك. . ولكن للذين يقرأون العناوين وكفى. . أما التفاصيل فقد كانت مدمرة للعناوين. .

وبدأ عدد من أعضاء حلف الأطلنطي يكيلون الثناء لفرنسا فقد تعاقبوا على منبر الأمم المتحدة، يشيرون إلى خطة الرئيس ديغول في تسوية القضية الجزائرية وأنها أعفت الأمم المتحدة من مهمة التدخل في القضية. . ورأينا أنفسنا أمام أوركسترا واحدة تنشد ألحاناً واحدة. .

وحملت خطة الرئيس ديغول وخطبه وخطب وزرائه إلى منبر الأمم المتحدة، لأشرح حقيقة الموقف الإفرنسي من البيانات الرسمية، وقلت: «إنه لا يليق بالأمم المتحدة أن تبني سياستها على أساس العناوين البارزة، من غير دراسة كاملة للبيانات السياسية بكاملها. . إن بيان الرئيس ديغول ينص على أمور خطيرة لا يصح للأمم المتحدة أن تقوم عليها، صحيح أن الرئيس ديغول قد عرض واحداً من الخيارات الثلاثة: الاستقلال ـ الاندماج ـ الاتحاد الفيدرالي ـ ولكنه في نفس الوقت يهدد الشعب الجزائري بأنّ الاستقلال مصيره الفقر والخراب والشيوعية والديكتاتورية، وأن الاتحاد الفيدرالي مع فرنسا معناه الازدهار الاقتصادي والتقدم الاجتماعي و. . و. . وفوق هذا فقد ألمح الرئيس ديغول أنه في حالة اختيار الاستقلال فستعمل فرنسا على انتزاع الصحراء وما فيها من البترول، وستقيم مناطق عسكرية أخرى للجالية الإفرنسية، وبهذا تقوم على أرض الجزائر عدة دول: دولة البترول في الصحراء، دولة الإفرنسيين على الشواطئ، دولة الجزائريين في الجبال، دولة عسكرية في المناطق الاستراتيجية». . وأسهبت في شرح المخاطر التي ينطوي عليها بيان الرئيس ديغول، وطلبت في نهاية كلامي أن لا تخدع الأمم المتحدة بذلك البيان الخادع. .

وانطلقت دول حلف الأطلنطي، كالدبابير، يتناوب وفودها على منبر الجمعية العامة، وهم يطلبون إعلان الثقة الكاملة بسياسة فرنسا، فأعلن المندوب الفرنسي: «أنّ أية كلمة متسرعة قد تؤثر على الوضع وأنّ السبيل الوحيد يجب اتباعه هو عدم اتخاذ قرار. . ، ودعا الوفد الأمريكي «إلى ضبط النفس وعدم مناقشة بيان الرئيس ديغول. .»، وناشد المندوب الأسترالي أن «ثمة أخطار في استباق الأحداث وأنّ أي قرار تتخذه الأمم المتحدة ولا ترضى به فرنسا لن يكون مجدياً. .»، وحذر المندوب الإيطالي من «اتخاذ أي قرار قد يعرقل فرص الوصول إلى وقف إطلاق النار وإلى حل مبكر للمشكلة». .

وهكذا أصبح واضحاً أن خطة المعسكر الغربي، معسكر دول العالم الحر، قد أخذت تسد الطريق على الحرية. . فنهضت إلى المنبر في محاولة أخيرة، لأرد على هذه الحجج الواهية، ولألقي مزيداً من الضوء على بيان الرئيس ديغول، وقلت موجهاً حديثي إلى الدول الغربية: «ألم تقرأوا بيان الرئيس ديغول؟ لقد زعم الرئيس ديغول أنه منذ كانت الخليقة لم يكن كيان جزائري. . وأنّ شعوبا كثيرة قد غزت أرض الجزائر على مدى التاريخ. . ولكن أنتم تعلمون أن فرنسا نفسها قد غزتها شعوب كثيرة على مدى التاريخ، وأن العرب قد غزوا فرنسا ووصلوا حتى بوردو. . ولقد غزيت فرنسا في الحربين العالميتين الكبيرتين الأولى والثانية، واشتركت الفصائل الجزائرية الباسلة في أن ترد لفرنسا وطنها وشرفها ووحدتها. . ثم إن بيان الرئيس ديغول سيطبق خطته في الجزائر بعد أن تمضي أربع سنوات من الهدوء. وكيف يرضى الشعب الجزائري أن يلقي السلاح وينتظر الاستقلال بعد أربعة أعوام. . هل كان يرضى الجنرال ديغول من القوات النازية مثل هذه الشروط. . يبدو لنا أن الرئيس ديغول قد خان الجنرال ديغول»، ثم وجهت سؤالي إلى ممثلي دول حلف الأطلنطي: «وخطاب الرئيس ديغول في الجزائر، على أرض الثورة، حين كان يتحدث إلى وحدات الجيش الإفرنسي، ألم تقرأوه حين قال للضباط والجنود الإفرنسيين: «ابذلوا كل جهودكم، أعطوا كل فرصة للجزائر لتختار الاتحاد مع فرنسا»، ثم ألم تقرأوا خطاب رئيس وزراء الإفرنسي المسيو ميشيل دوبريه في البرلمان الإفرنسي وهو يعلن أن «الجزائر والصحراء جزء من فرنسا كالمقاطعات الإفرنسية الأخرى. .»

ثم تساءلت: «هل تريدون أن تعطوا الفرصة لفرنسا. . الفرصة لإدماج الجزائر مع فرنسا؟ وهل تريد الأمم المتحدة أن تضع نفسها في خدمة المصالح الاستعمارية الإفرنسية. . و. . و. .». وبعد إنتهاء الخطب والمناقشات، عرض مشروع القرار، وقد حرصنا نحن الوفود الآسيوية الأفريقية ومعنا وفد الجزائر، أن نجعل صياغته وألفاظه قريبة من صياغة الميثاق وألفاظه. . ، وهنا وقعت المأساة المحيرة. . .

لقد طرحت مشروع القرار للتصويت فقرة فقرة، فنال الأكثرية المطلوبة، ولكنه حينما عرض للتصويت بمجموعه، كما تقضي بذلك الإجراءات، لم يفز بالأكثرية المطلوبة، وسقط مشروع القرار. . ولعلها كانت الحادثة الأولى والأخيرة في تاريخ الأمم المتحدة. .

وأسرعت الخطى إلى منبر الأمم المتحدة لأعلن أن، «هذه الهزيمة هي هزيمة للأمم المتحدة ولميثاق الأمم المتحدة، وأرجو أن أخبركم أن فقرات القرار الذي سقط الآن مأخوذه من ميثاق الأمم المتحدة بصيغتها وألفاظها. . وعلى الذين يهمهم الأمر، حين يخرجون من هذه القاعة، أن يخبروا الوفد الفرنسي الذي ينتظركم في الخارج. . أن الحرب الجزائرية ستمضي في طريقها، حتى لو أصبحت حرب المائة عام، إلى أن تحقق الحرية للشعب الجزائري، والهزيمة لفرنسا. . ولا بد أن تنتصر الحرية في النهاية، مهما كانت قراراتكم ومواقفكم. . وانتظروا معي إلى الأعوام المقبلة».

وهكذا خرجنا من تلك الدورة من غير قرار. . ودول المعسكر الحر تحسب أنها أعطت فرنسا فرصة لتصفية الحرب الجزائرية، والاحتفاظ بالجزائر قاعدة من قواعد الأطلنطي المنتشرة في أرجاء العالم، ولكن خاب ظن الدول الغربية بفرنسا، وصدق ظني بالشعب الجزائري المجاهد، فقد انقضى العام كله (١٩٦٠) والحرب الجزائرية تنزل بالجيش الفرنسي أفدح الخسائر، حتى بات هو لا القضية الجزائرية عرضة للتصفية الكاملة.

وافتتحت الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة، والدول الغربية تعاني أمام الرأي العام الدولي الخيبة والخزي، ذلك أن الحرب الجزائرية وصلت أنباؤها الضارية متلاحقة إلى ردهات الأمم المتحدة. . وأصبح عدد من الوفود لا يدرون ماذا يصنعون بهذه القضية المزمنة، والحرب الجزائرية دخلت (في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٠) عامها السابع، وظلت القضية الجزائرية تؤجل من أسبوع لأسبوع ولم تبحث إلا في ختام الدورة (في شهر كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٩٦٠).

وتنطع الوفد الأمريكي في بداية الجلسات مطالباً: «بضبط النفس والتروي، فإن القضية حساسة، وإن الخطب النارية لا تساعد على حل هذه القضية الملتهبة». وكان رئيس الوفد الأمريكي يوجه حديثه إليّ. .

وعلى الفور وجهت حديثي إلى الوفد الأمريكي: «ترى من الذي جعل القضية الجزائرية ملتهبة؟ أهي خطبي النارية، أم أسلحتكم النارية. . إن الولايات المتحدة قدمت لفرنسا في عام ١٩٥٦ خمسين طائرة هليوكوبتر من طراز هـ ٢١، وفي عام ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨، كانت مشتريات فرنسا من الأسلحة من الولايات المتحدة بما يعادل

٥٠٠ مليون دولار، وفي عام ١٩٥٩ اشترت فرنسا من أمريكا خمساً وعشرين طائرة ثقيلة وعدداً كبيراً من الطائرات المقاتلة من طراز ات ٢٨، وفي أول العام ١٩٦٠، استلمت فرنسا من أمريكا ستين طائرة أخرى ت ٢٨، وطلبت فرنسا مؤخراً ستاً وتسعين طائرة أخرى. . وغير ذلك. . هذا فضلاً عن أن الغارة الوحشية التي شنها الفرنسيون على ساقية سيدي بن يوسف (شباط/ فبراير ١٩٥٨) قد تمت بطائرات أمريكية الصنع من طراز ب ٢٦، وبعد هذه البيانات أريد أن أسأل رئيس الوفد الأمريكي: أيها أشد لهيباً، خطبي أم الطائرات الأمريكية؟؟ أريد جواباً من الوفد الأمريكي». ولكن الوفد الأمريكي التزم الصمت أمام هذه الوقائع والأرقام. . وانتهت المناقشة بين وفود الدول الأعضاء: كتلة الأطلنطي تلتمس الأعذار لفرنسا وتطلب مزيداً من الوقت للجنرال ديغول، والكتلة الآسيوية الأفريقية تلح على الاعتراف بحق الجزائر في الحرية والاستقلال. . ووقف رئيس وفد بلجيكا ليقول: «إن الرئيس ديغول قد وعد باستفتاء الشعب حول القضية الجزائرية. . . فلماذا الخطب في الأمم المتحدة. . لننتظر نتيجة الاستفتاء. . هل يرفض رئيس الوفد السعودي الاستفتاء. . وهل يرفض أن تبدأ المحادثات بين فرنسا والجزائر بعد الاستفتاء. . ؟»

وأجبت على الفور: «نحن لا نرفض الاستفتاء. . ولكن ما هو الاستفتاء؟ ولا نرفض المفاوضات ولكن ما هي المفاوضات؟ إن معي من الوفد الجزائري السيدين بومنجل وبن يحيى، يستطيعان أن يحدثاكم عن المفاوضات، حينما ذهبا إلى «ميلون» في شهر تموز/ يوليو للتمهيد لهذه المفاوضات. . لقد عوملا كأسيرَيْ حرب. . وقد أبلغتهما السلطات الإفرنسية أن على رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة عند وصوله إلى فرنسا أن يقيم حيث تطلب إليه الإقامة، وأن لا يقابل أحداً، وأن لا يتحدث إلى أي إنسان. . وأنه لن يقابل الرئيس ديغول إلا بعد توقيع وقف إطلاق النار. . ، وهذا هو الاستسلام بعينه. . ، إنه لشرف عظيم أن يقابل رئيس حكومة الجزائر الجنرال ديغول بطل التحرير. . ولكن الرئيس الجزائري يريد أن يرى التحرير أولاً، ثم بطل التحرير ثانياً. . » ووقف جمهور من النظارة في مؤخرة القاعة وهم يهتفون: تعيش الحرية. . تعيش. . وتابعت حديثي: «أما عن الاستفتاء فقد جعل منه الجنرال ديغول عملية مزدوجة ذات استراتيجية ذكية يريد من ورائها «فرنسة الجزائر»، وهو ما عجزت عنه فرنسا خلال مئة وثلاثين عاماً. فمن جهة يقرر الجنرال ديغول أنه سيستفتي الشعب الفرنسي في مصير الجزائر، ومن جهة ثانية سيستفتي الشعب الجزائري تحت الحديد والنار، إذا كان يريد الاستقلال أو الاندماج أو الاتحاد. فما هو شأن الشعب الإفرنسي في تقرير مصير الجزائر؟ إن شعب الجزائر وحده هو الذي يقرر المصير. . إن تقرير المصير عند الجنرال ديغول هو إفناء المصير. . أما بالنسبة إلى الاستفتاء في

الجزائر فيكفي أن تقرأوا رسالة وزير الحربية الإفرنسية التي وجهها إلى ضباطه وجنوده في الجزائر يقول فيها: «عندما يتم تنظيم الجزائر السياسي سيظل الجيش في الجزائر لأداء رسالته الخالدة، وهي الدفاع عن فرنسا والجزائر. .»، وهذا رئيس وزراء فرنسا المسيو دوبريه يبعث بتعليماته إلى المقيم الفرنسي العام في الجزائر يؤكد فيها: «أن النقطة الرئيسية هي أن تتبع كل سبل ممكنه لضمان الاقتراع ضد الانفصال ـ الاستقلال ـ وانتصار الوحدة الوثيقة مع فرنسا. .»، وأخيراً فهذا الجنرال ديغول خطب في جولته الأخيرة يقول: «إننا نريد السلام في الجزائر، لأننا نريد أولاً الاحتفاظ بفرنسا فيها. .» وحدثت في تلك الفترة انتخابات الرياسة في الولايات المتحدة، وجاءت الإدارة الجديدة بوعودها المعتادة في سياسة خارجية جديدة. . وعثرت وأنا أقلب محاضر مجلس الشيوخ الأمريكي في عام ١٩٥٧، على وثيقة حملتها معي إلى الأمم المتحدة، وكأنما كنت أمسك عنان النصر بيدي.

وقفت على منبر الأمم المتحدة وأنا أقول: «لا أريد أن أخطب عليكم اليوم، ولكني سأفسح المجال لزعيم عظيم يقف الآن على عتبة التاريخ ليساهم في صنع التاريخ. . وسأسرد أقواله من دون أن أذكر اسمه. . تاركاً لكم أن تعرفوه. .

لقد قال ذلك الزعيم حينما كان عضواً في مجلس الشيوخ: «. . . لقد استنزفت حرب الجزائر من فرنسا رجالها ومواردها، وأفقدت إحدى حليفاتنا القديمة والمهمة روحها وحيويتها. . إن حرب الجزائر قد أثرت على موقفنا في عيون العالم الحر، كما أثرت على قيادتنا للنضال لإبقاء هذا العالم حراً، وعلى سمعتنا وسلامتنا. . إن حرب الجزائر التي يشتبك فيها أكثر من أربعمابة ألف جندي فرنسي، قد نزعت من قوات حلف الأطلنطي كل إمكانياتها. . هناك حالات عدة من التصادم بين الاستقلال والاستعمار الغربي ولعل من أبرز هذه الاصطدامات وأكثرها حراجة اليوم، قضية الجزائر. . إن الجزائر لم تعد مشكلة تهم فرنسا وحدها، ولن تكون كذلك مرة ثانية. . إن القوة العظيمة اليوم ليست هي الشيوعية أو الرأسمالية، لا ولا القنبلة الهيدروجينية أو الصاروخ الموجه، وإنما هي رغبة الإنسان الخالدة في أن يعيش حراً مستقلاً. . إنني أرى من واجب فرنسا أن تسير في المفاوضات مع الوطنيين على أساس الاستقلال. . وبدلاً من أن نسهم بمجهودنا للوصول إلى وقف إطلاق النار وتحقيق تسوية، نرى المعدات العسكرية الأمريكية ولا سيما طائرات الهليوكوبتر تستخدم ضد الثائرين. . إن سجل الولايات المتحدة في قضية الجزائر، سجل تراجع عن مبادئ الاستقلال ومناهضة الاستعمار. . وسواء قبلت فرنسا أو لم تقبل فإن ممتلكاتها عبر البحر ستحطم أغلالها. . وإذا أرادت فرنسا أن يكون لها نفوذ في شمال أفريقيا فعليها أن تعطي الجزائر استقلالها. .»

رفعت رأسي بعد أن فرغت من قراءة هذه العبارات الرائعة، لأرى وفود الأمم المتحدة وقد استولى عليهم الذهول. . وقلت صائحاً: «أتعلمون من هو هذا الزعيم العظيم، إنه الرئيس كنيدي، وهذا هو خطابه الذي ألقاه في مجلس الشيوخ الأمريكي في الثاني من شهر أيار/مايو سنة ١٩٥٧، هذا هو موقف زعيم العالم الحر من القضية الجزائرية، ولا أظن الرئيس كنيدي يخون الشيخ كنيدي، كما اختار الرئيس ديغول أن يخون الجنرال ديغول.

ونزلت عن المنبر وراح وفود الدول الأعضاء يصفقون وقوفاً لهذه المفاجأة التي لم تخطر على بال. . ولم يستطع الوفد الأمريكي إلا أن يقف مع الواقفين ويصفق مع المصفقين. .

والواقع أن قرار الأمم المتحدة في ذلك العام بالنسبة إلى القضية الجزائرية كان رائعاً فقد نص على:

١ ـ حق تقرير المصير كأساس للوصول إلى تسوية.

٢ ـ حق الشعب الجزائري في الاستقلال.

٣ ـ توكيد الوحدة الإقليمية للوطن الجزائري.

٤ ـ واجب الأمم المتحدة في المساهمة في تمكين الشعب الجزائري من نيل حقوقه القومية.

وانتهت الدورة، وقد حققت القضية الجزائرية ذلك النصر المؤزر، بفضل ما كان وراءها من كفاح الأعوام السبعة ووراء ذلك كفاح المئة عام. . ولكن النصر الحاسم الفاصل لم تكن قطوفه دانية المنال، فإن الجنرال ديغول خصم عنيد، ولا يتراجع إلا شبراً شبراً، ولا يسلِّم ويستلم إلا في الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة. .

ومضى عام ١٩٦١ بأيامه وأسابيعه وشهوره، والجنرال ديغول يكرّ ويفر في ميدان الحرب في الجزائر، ويكرّ ويفرّ في الميدان السياسي في فرنسا. . لقد أخفقت فرنسا في إخماد الحرب الجزائرية على أرض الجزائر ولكن المفاوضات بين الفريقين في إيفيان في أيار/مايو سنة ١٩٦١ وبعدها في لوجران قد أخفقت، وحملنا نحن الوفود العربية والآسيوية والأفريقية ملفاتنا إلى الأمم المتحدة: إلى الدورة السادسة عشرة لنخوض المعركة السياسية في عامها الثامن.

وتخلفت فرنسا عن حضور الجلسات، فقد أصبح ديغول غاضباً على الأمم المتحدة وأخذ يسخر منها في خطبه، ووصفها مرة «ما يسمى الأمم المتحدة» ومرة أخرى، «الأمم المتفرقة» واتخذت هذه التسميات مدخلاً لحديثي في الأمم المتحدة

وأعلنت أن الرئيس ديغول على حق في وصفه للأمم المتحدة. . ولكن من المسؤول عن ذلك؟ إن فرنسا بمخالفتها لقرارات الأمم المتحدة قد جعلت هذه المنظمة العالمية من غير هيبة ولا كرامة. . ولعله يصلح حالها لو خرجت فرنسا من الجمعية العامة ولجانها الرئيسية ومجلس الأمن. . وأن يخرج معها من الأعضاء من يخالفون ميثاقها. . ويومها ستصبح هذه المنظمة حقاً الأمم المتحدة.

وعدت إلى صلب الموضوع فقلت: «إن الجنرال ديغول لا يزال يحاول الاحتفاظ بالجزائر إفرنسية، وإذا لم يفلح فإنه سيحاول تمزيق وحدة التراب الجزائري. . والجنرال ديغول هو الذي قاوم الفرنسيين الخونة الذين تعاونوا مع النازية على تمزيق الوحدة الإفرنسية، وها نحن نذكِّر الرئيس ديغول بأمجاد الجنرال ديغول حتى لا يكتب في تاريخه صفحة مماثلة للإفرنسيين الخونة أمثال بيتان ودارلان. .» وتتابع عدد من الدول الغربية على الكلام، وهم يشيرون إلى المفاوضات الدائرة بين فرنسا والجزائر ويطالبون بوقف القتال. . وإحلال السلام. .

وتولى عدد من الدول الآسيوية والأفريقية الرد عليهم بما فيه الكفاية. . وكان في تلك الدورة بعض الوزراء الجزائريين الذين اشتركوا في تلك المفاوضات. فلم أرَ مندوحة من عرض آرائهم بلساني. . فلم يكن مأذوناً لهم الاشتراك بالمناقشات، ووجهت حديثي إلى الدول الغربية قائلاً: «إنني أتحدث على مسمع من الوزراء الجزائريين. . وبعضهم اشترك في المباحثات مع الوفد الإفرنسي. . وقد بدأت هذه المباحثات في إيفيان في شهر أيار/مايو سنة ١٩٦١، وقد طرح الوفد الجزائري موقفه من القضايا المعروضة بكل موضوعية، ولكن الوفد الإفرنسي أراد الاحتفاظ بالصحراء الإفرنسية. . وبمناطق عسكرية. . وبمناطق بترولية، وبمناطق أخرى للجاليات الأوروبية. . وبدا واضحاً أن إيفيان فرنسا وهي معروفة بأنها من أشهر مدن القارة الأوروبية أصبحت نادياً للقمار السياسي، كما بدا واضحاً أن فرنسا تريد إغراق القضية الجزائرية في حمّامات إيفيان، كما لو كانت جثة مريضة تحتاج إلى المياه المعدنية. .»

لم يتمالك الرئيس عن الضحك. . وأصبح في حاجة إلى من يضرب له المطرقة ويرده إلى النظام، وتابعت حديثي قائلاً: «وفي مدينة لوجران حيث استؤنفت المفاوضات مرة ثانية طلب الوفد الإفرنسي أن توضع قضية الصحراء على الثلج، ولكن أي ثلج لا يذوب في لهب الصحراء. . إن ضباط فرنسا وجنودها يعرفون جيداً أن ثلج الألب لا يثبت أمام صحراء الجزائر، وقد ألهبت جلودهم. .»

وبصدد الجالية الأوروبية، قلت: «إن الوفد الجزائري منحهم حق المواطنين من

غير تمييز، ولكن الوفد الإفرنسي يريد أن يبني لهم دولة خاصة بهم . . ، ويتساءل الجنرال ديغول كيف نضع مليون أوروبي تحت رحمة الغير، ولكن لدينا تساؤلاً أكبر، وكيف نضع عشرة ملايين جزائري تحت رحمة الغير، والوطن وطنهم؟ . . »

توقفت برهة عن الكلام، وقلت: «لقد طال كلامنا في الأمم المتحدة عن قضية الجزائر . . وطال عصيان فرنسا لقرارات الأمم المتحدة . . ولكن صبر الشعب الجزائري لن ينفد . . وسيظل يحمل السلاح حتى تتحقق له حريته واستقلاله . . وستهزم فرنسا . . . وستنتصر الجزائر . . وتلك مسيرة التاريخ . . إن ثلاثين دولة قد اعترفت بالحكومة الجزائرية المؤقتة . . ولم يبقَ إلا أن تدخل الأمم المتحدة من الباب الذي دخله المكافحون . . وبينكم منهم عدد غير قليل . . وإني لأرجو وفديْ ألبانيا والأرجنتين أن يفسحوا في العام القادم مكاناً بينهما لجلوس وفد الجزائر . . ليتخذ مقعده حسب الترتيب الأبجدي في المنظمة العالمية . . هذا هو دعائي، بل أملي ورجائي . . »

ولقد ختمت حديثي بهذه الخاتمة المثيرة . . وعدد من الوفود تعلو وجوههم ابتسامات صفراء . . وكأنما نجواهم تقف على شفاههم: استقلال الجزائر . . خروج فرنسا من الجزائر وفي العام القادم . . مستحيل، مستحيل، مستحيل . .

وكان عام ١٩٦٢، طويلاً حقاً . . لأننا كنا معه على موعد . . وأخيراً جاء الموعد شهر تموز/ يوليو . . . ليعلن استقلال الجزائر . .

وذهبنا إلى الأمم المتحدة لشهود الدورة السادسة عشرة، ولم نحمل معنا ملفات القضية الجزائرية فقد أودعناها في رحاب التاريخ.

واهتز جدول أعمال الأمم المتحدة، فقد أدرج فيه موضوع «استقلال الجزائر» بدلاً من موضوع «القضية الجزائرية».

وجاء إلى الأمم المتحدة وفد جزائري كبير على رأسه السيد أحمد بن بللا، ومعه السيد توفيق المدني وزير الأوقاف، ووزير الخارجية الشاب السيد أحمد خمستي . . وكان يوماً رائعاً خالداً . . فقد وافقت الجمعية العامة ومجلس الأمن على أن «الجمهورية الجزائرية مؤهلة لعضوية الأمم المتحدة . . »

ووقفت على منبر الأمم المتحدة، كما لم أقف من قبل، معلناً الترحيب بالجزائر العربية الأفريقية دولة مستقلة . . كافحت من أجل حريتها واستقلالها بكل شجاعة وبسالة . .

والتفتّ بعد ذلك إلى الوفد الإفرنسي وقد عاد إلى مقعده بعد غياب طويل . .

وقلت: «الآن انتهت الحرب بين فرنسا والجزائر.. والآن ينتهي الحوار بيننا وبين فرنسا في الأمم المتحدة، وإنني أرى من واجبي أن أعترف من غير أن أعتذر.. لقد كنت قاسياً بالغ القسوة على فرنسا وعلى الجنرال ديغول.. ولكن هذه هي الحرب.. ومع هذا فقد كنت على الدوام أثني على الجنرال ديغول وأنتقد الرئيس ديغول، وكنت أخشى على الأول من الثاني.. وكلنا يعرف أن الجنرال ديغول قد انتصر على النازية.. أما الآن فلقد انتصر على الفكرة الاستعمارية.. وقد كان بطلاً قومياً وأصبح الآن رجلاً عالمياً.. وهكذا سينزل في التاريخ، وإن الأمة العربية تتطلع إلى صفحة جديدة مع هذا البطل القومي والرجل العالمي..»

وجاءني الرئيس أحمد بن بللا ووفده ليقول: «إن الجزائر لن تنسى الشقيري.. وقد بقي علينا تحرير فلسطين، سيظل استقلال الجزائر غير كامل حتى تتحرر فلسطين»..

قلت: «الحمد لله.. لقد ساهمت بقسط متواضع في الأمم المتحدة في القضايا القومية، وها أنا أشهد بعيني استقلال الجزائر.. بعد أن شهدت استقلال ليبيا وتونس والمغرب.. وأرجو أن أكون حياً لأشهد استقلال فلسطين..»

وبكيت، وبكى الرئيس أحمد بن بللا.. وقالها الوزير الجزائري توفيق المدني.. لقد بكى الأحمدان..

حقاً لقد بكينا.. فرحاً للجزائر، وانتظاراً لفلسطين.

وأنت أيضاً يا بروتوس! وأنت أيضاً يا إيبان!

خمسة عشر عاماً من عمري قضيتها في الأمم المتحدة في صراع مع إسرائيل، بدأت في عام ١٩٤٨ وانتهت في عام ١٩٦٣، وقد سبقتها خمسة عشر عاماً من النضال القومي ضد الصهيونية والاستعمار كنت خلالها معتقلاً في السجون، مترافعاً أمام القضاء أو متصدراً للاضطرابات والمظاهرات، ثم لحقتها خمسة أعوام في بناء الكيان الفلسطيني، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية.

ذلك هو عمري، وذلك هو كفاح جيلي بأسره.. فتحنا عيوننا صغاراً على الوطن القومي اليهودي وهو صغير.. وكبرنا وكبر معنا.. وكبرت معنا الكارثة..

وأعود الآن إلى ذكرياتي قبل خمسين عاماً، إلى عام ١٩١٩، حين كانت مخاوفنا «أوهاماً»، فأرى أن الأوهام قد أصبحت حقيقة رهيبة: لقد سقط الوطن كله تحت أقدام إسرائيل من البحر إلى النهر، وسقطت معه الأرض العربية من الجولان إلى القنال..

وألقي بصري فلا أرى في الوطن العربي إلا شعب الكارثة يحمل السلاح.. بعد خمسين عاماً من الكفاح.. يزداد كل يوم إيماناً وعزماً ومضاء.. ويتساقط منه الشهداء وهم أبناء الشهداء.. وأحفاد الشهداء.. وكأنما نذر هذا الشعب نفسه أن لا يموت على فراشه..

ثم ألقي سمعي، فإذا بي أسمع إيبان «وزير» الخارجية الإسرائيلية يلقي خطب النصر في الأمم المتحدة، ويعلن أن إسرائيل لن تخرج من بيت المقدس، حتى ولو أرادت ذلك الأمم المتحدة بأسرها..

استمع إليّ إيبان هذا في غطرسته وعجرفته، وقد هزمته وهزمت معه السيدة غولدا ماير رئيسة وزراء إسرائيل، وهزمت معهما جميع مندوبي إسرائيل في لجان الأمم المتحدة.. ومرّغت وجوههم في التراب وأنوفهم في الوحل، على أرض الحق، وفي ميدان العدل والمنطق..

ولست أقول هذا متفاخراً بغير صدق، معتزاً من غير حق. . فإنه الصدق كل الصدق والحق كل الحق. .

ولقد لقيت إيبان أول ما لقيته في عام١٩٤٨، مع وزيره شاريت، في قصر شايوه، حين كانت دورة الأمم المتحدة في باريس. . ثم لقيته في جنيف في قصر عصبة الأمم البائدة، أمام مجلس الوصاية حين كان يضع مشروع دستور القدس. . ثم لقيته مندوباً دائماً لإسرائيل في الأعوام التالية ووزيراً للخارجية.

وأصبحت لإيبان شهرة في الأمم المتحدة بأنه العالم الأديب. . الصادق الأمين. . يعرض القضية الإسرائيلية بكل تجرد وموضوعية واعتدال. . وقد أعانه على هذه الشهرة، أنه كان وراءه عدد كبير من الخبراء يقدمون له المقتبسات عبر السنين في دقيقة أو دقيقتين. . ووراءه أيضاً أجهزة الدعاية الصهيونية، بكل ما تملك من وافر الخبرات والثروات وجمال الفتيات. .

وجئت الأمم المتحدة لأنازل إيبان، والقضية الفلسطينية على أطراف أناملي بتاريخها واحداثها وأسانيدها ومعي حقيبة مليئة بالأسانيد الصهيونية بوّبتها في روية الليالي وصنّفتها في صبر الأيام. .

ويسند هذا وذاك، قَدَري الذي حفّظني التوراة والإنجيل في المدرسة التبشيرية. . ثم جعلني محامياً أمام القضاء، متمرساً بالحوار والجدال. .

وعلى رأس هذا كله. . حملت معي إلى الأمم المتحدة، أفئدة شعبنا بكل آلامهم وآمالهم. . آلام الهجرة والتشريد. . وآمال العودة الكريمة الظافرة.

بهذه الروح، وبهذه الروح وحدها، بدأت السجال مع إيبان، ومع الوزراء الذين سبقوه ولحقوه، حتى أصبحت خطبي ثمانية كتب باللغة الإنكليزية، طبع الوفد السوري واحدة، والوفد السعودي ستة، ومنظمة التحرير الفلسطينية واحدة. .

ولكني وجدت في (مذكراتي) ما ليس في الكتب الثمانية، ويلح علي واجب النضال، وحق التاريخ، أن أضعها بين يدي الأمة العربية. .

ولقد وقعت أولى المعارك بيني وبين إيبان في مجلس الوصاية. . فقد ألقى إيبان خطاباً مسهباً، معداً إعداداً دقيقاً، في تعابير مشرقة ولغة ناصعة. . فأنكر على الأمم المتحدة حقها في تدويل القدس، وإنشاء إدارة دولية ذات سيادة، معلناً أن القدس عاصمة إسرائيل الخالدة. . وأنها يجب أن تكون يهودية كما أن لندن إنكليزية. .

ولم يكد يفرغ من السطر الأخير من الصفحة الأخيرة من خطابه، حتى رفعت يدي أطلب الكلمة، فذكرت المجلس أن في الأمم المتحدة دولة واحدة، ولدت على

فراش الأمم المتحدة، هي إسرائيل، ووضعت لها حدودها ودستورها، وقيدت سيادتها بقيود، وذلك كله لم تفعله الأمم المتحدة في أية دولة أخرى. . وهذه إسرائيل «ولد)» الأمم المتحدة يطعن أمه، وينازعها في اختصاصها وسلطانها، وهي علة وجوده وبقائه. . وأضفت: «إني لست أجد جواباً أَرُدّ به على إيبان وإسرائيل إلا أن أصيح صيحة شكسبير: وأنت أيضاً يا بروتوس. . وأنت أيضاً يا إيبان. . !!». وانفضت الجلسة على هذه الطعنة النجلاء. . ومضت أيام وعدد من الصحافيين يقولون، بروتوس، بروتوس، كلما مرّ إيبان في قاعات الأمم المتحدة.

وفي ليك ساكسس، حيث كانت تنعقد الجمعية العامة للأمم المتحدة، قبل إنشاء مقرها الضخم في نيويورك، لم يكن عدد الدول الأعضاء قد تجاوز الستين، وكنا في اللجنة السياسية جالسين حول الطاولة البيضاوية، كل وفد أمامه ميكروفونه ولافتة صغيرة تحمل اسم بلاده، وقد قضى الترتيب الأبجدي أن يكون وفد إسرائيل بين العراق ولبنان. . ، وكانت المناقشة حامية بيني وبين إيبان حول الموضوع نفسه، ولا سواه. . قضية فلسطين. . وكان الدكتور فاضل الجمالي «العراق» والدكتور شارل مالك «لبنان»، ينحنيان من وراء ظهر إيبان ليتبادلا الرأي متهامسين. . وكنت ساعتها أتحدث عن قيام إسرائيل في قلب العالم العربي، إسفيناً دقه الاستعمار ليفصل بين المغرب العربي والمشرق العربي. . وصحت في وجوه الوفود وأنا أقول لهم: «انظروا أمامكم. . إن إيبان يفصل بين الجمالي ومالك، تماماً، كما تفصل إسرائيل مشرقنا عن مغربنا. . وها أنتم ترون مالك والجمالي ينحنيان وراء إيبان كلما أرادا أن يتبادلا التحية والآراء. .». وضجت القاعة بالضحك، ولم يستطع رئيس الجلسة أن يردهم إلى النظام، إلا بعد أن أمسك بمطرقته، وهو يصيح ضاحكاً: نظام. . نظام. . !!

وتكاثر عدد الأعضاء في ما بعد، وجاءت دول جديدة، وفصلت بأبجديتها إسرائيل عن العراق ولبنان، وكان إيبان يتحدث عن دور إسرائيل في الشرق الأوسط من حيث العون الفني وما إلى ذلك. . وأراد أن «يستظرف». . فقال: «نحن لسنا إسفيناً بين الدول العربية ولكننا سنكون جسراً. . لأننا نريد أن نرضي السيد الشقيري. . وأصبح الآن لبنان والعراق متجاورين تماماً لا يفصلهما أحد. . يتحدثان كما يريدان». . وظن إيبان أنه اقتصّ من الطعنة القديمة. .» فقلت على الفور: «لقد تزحزح الإسفين قليلاً في الأمم المتحدة. . ولكننا نريد أن نقلعه هناك. . هناك. . في المنطقة على الأرض. . على الطبيعة. .» فعبس إيبان وتجهم وتمايل الأعضاء مبتهجين شامتين. .

وكنا نحن الوفود العربية لا نكلم أحداً من الوفد الإسرائيلي. . إلا الدكتور شارل مالك فقد كان يكلم إيبان في اللجنة في عبارات قصيرة. . وقد كنت أنكر

عليه هذا الموقف. . . ولكن الدكتور شارل مالك إنسان فيلسوف، ولا يمكن مناقشته في هذا الموضوع.

وإني لأذكر مرة، أنني كنت في مصعد الأمم المتحدة، ووقف المصعد في أحد الطوابق وأراد إيبان أن ينزل إلى طابق آخر. . فدخل المصعد، فخرجت، وتركت المصعد لإيبان. . وانتظرت حتى جاء مصعد آخر. . .

وكان أعضاء الوفود يقيمون الولائم بعضهم لبعض، منها الموائد الصغيرة، ومنها حفلات الاستقبال الكبيرة. . واستجبت لدعوة أحد الوفود. . وكانت وليمة غداء على مائدة تجمع قريباً من ثلاثين مدعواً، وجلسنا إلى المائدة. . وإذا بي أرى أمامي إيبان وجهاً لوجه. . وأغلب الظن أنها كانت مقصودة. . حتى يبادلني إيبان التحية. . ثم الكلام. . ثم الحديث. . ، ولم أفكر لا قليلاً ولا كثيراً. . فطويت فوطة الطعام وخرجت، . . وخرج ورائي صاحب الدعوة، رئيس وفد هولندا، يرجوني العودة. . فهذه وليمة اجتماعية وليست مناسبة سياسية، فشكرت واعتذرت وقلت: «يا سيدي إن الذي بيني وبين إيبان هو خلاف على الوطن. . وهذا الموضوع. . لا يقبل التمييز بين الأمور الاجتماعية والسياسية. .» وجاء دور مناقشة قضية اللاجئين في اللجنة السياسية الخاصة. . فتحدثت طويلاً، مستعرضاً المأساة وظروفها القاسية. . وإرهاب إسرائيل ومصادرتها لأملاكهم. . ، وطالبت بعودة اللاجئين استناداً إلى الحق الطبيعي. . إلى الميثاق. . إلى إعلان حقوق الإنسان. . وإلى الفقرة الحادية عشرة من القرار الصادر في عام ١٩٤٨.

وردّ إيبان في خطاب طويل. . مستنداً إلى سيادة إسرائيل. . وأمنها. . واقتصادها. . واختتم بالقول بأن عقارب الساعة لا تعود إلى الوراء. . واللاجئون لا يعودون. .

وكان موقفاً حاسماً قاطعاً بدا فيه إيبان متنمّراً. . يحملق بي من بعيد، وهو يحسب أنه قطع عليّ الدروب، وسد مسالك الكلام.

ولم أشأ أن أرُدّ في خطاب طويل. . فقد كنت أوفيت الموضوع حقه في جلسة سابقة، ورأيت أن الجواب القصير المسكت أوقع وأقطع. . وقلت: «اللاجئون الآن هم في عامهم الثالث. . وإن إيبان لا يريد أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء. . إلى ثلاثة أعوام ولكن إسرائيل أعادت عقارب الساعة إلى الوراء. . ثلاثة آلاف عام. .» فنظر الوفود بعضهم إلى بعض، ولسان حالهم يقول: صحيح!!

وكانت تقارير لجنة التوفيق الدولية ميدان حوار الأمم المتحدة، بيني وبين جميع ممثلي إسرائيل الذين تعاقبوا على الأمم المتحدة. . وقد بلغت تقارير اللجنة عشرين تقريراً

حتى عام ١٩٦٢، وكانت اللجنة في الأعوام الأربعة الأولى، ابتداءً من عام ١٩٤٩، تعمل وتنشط، وتجتمع بالوفود العربية وبوفد إسرائيل. . ثم انتهى الأمر بها إلى التسلل التام فأصبحت تصدر تقارير روتينية من مكتبها في الطابق الأعلى من مقر الأمم المتحدة.

وقد عنيت التقارير في بداية الأمر، بالمقدسات الدينية وموضوع تدويل القدس. . وانبرى إيبان يتحدث عن التسامح الديني في إسرائيل، وحرصها على صيانة الأماكن المقدسة، وحرية العبادة والزيارة، وكانت وفود أمريكا اللاتينية وبعض الدول الأوروبية المتدينة تصغي إلى إيبان باهتمام. . وكأنما أصبحت إسرائيل دولة مسيحية، تبحث عن الذين صلبوا السيد المسيح!!

ولم أجد مفراً من الرد على هذه الأباطيل، فإن الموضوع دقيق وحساس. . وليس لنا أن نسمح لإسرائيل أن تغزو الدول المسيحية بالباطل. . وفي موضوع الأماكن المقدسة بالذات. . وانحنيت إلى حقيبتي. . وتناولت المقتبسات العديدة. . وبدأت أقرأ: «اليهود يهدمون مقبرة الروم الكاثوليك في حيفا ويكسرون الصلبان، اليهود ينسفون كنيسة «إقرت» ويأخذون جرس الكنيسة إلى المستعمرة اليهودية ليقرعوه في مواعيد الطعام، اليهود يضطهدون الراهبات في يافا ويضيقون على نشاطهن الإنساني، اليهود يسيئون إلى الحجاج المسيحيين القادمين إلى القدس بمناسبة أعياد الفصح. . اليهود. . اليهود. .

وقلت بعد ذلك إن التعصب الذميم، قد انتقل من الموتى إلى الأحياء. . . حتى إلى اليهود أنفسهم، وقرأت قصاصة من الصحف اليهودية عن الأب دانيال الذي ولد يهودياً من أبوين يهوديين، وهاجر إلى فلسطين، ثم اعتنق المسيحية وأصبح قسيساً كاثوليكياً، وكيف أن إسرائيل قد منعت عنه الجنسية الإسرائيلية. . لأنه مسيحي كاثوليكي. . ومضيت في هذه الاقتباسات أقرأ تفاصيلها وأعلق عليها. .، ورد إيبان بأن هذه أعمال غير مسؤولة، والمشاغبون المخربون موجودون في كل شعب، وأن إسرائيل اعتذرت عن هذه الأعمال الطائشة. . وقدمت التعويضات المناسبة إلى الهيئات المسيحية المعنية. . .

قلت: «لا. . بل هذه جرائم تنبع من صميم العقيدة الصهيونية».

قال إيبان: «هذا كذب وافتراء. . وإني أتحدى الشقيري أن يقدم دليلاً واحداً على ذلك. .»

قلت: «ما كنت أريد أن أثير حفيظة العالم المسيحي، ولكني أمام تحدي إيبان، لا بد لي أن أقدم الدليل. . وسيكون هذا الدليل من الصهيونية ذاتها. . بل من فم زعيمها. .»

وتناولت مذكرات سوكولوف الزعيم الثاني للصهيونية بعد هرتزل . . ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية . . وتلوت ما دوّنه عن زيارته للفاتيكان، وما طلب المونسنيور جاسباري وزير خارجية الفاتيكان من الضمانات لحماية الأماكن المقدسة وحرية الزيارة والعبادة، قبل أن ينظر في المشروع الصهيوني في إقامة وطن قومي في فلسطين . . ثم تلوت ما دونه سوكولوف: «وكنت أستمع إلى هذه المطالب والضمانات . . وأنا أحس أن قشعريرة شديدة تهز عظامي . . »

ووضعت مذكرات سوكولوف على الطاولة، لمن يريد أن يقرأها من الوفود وأنا أقول: «هذه هي الصهيونية على لسان زعيمها . . وأحسب الآن أن القشعريرة قد انتقلت إلى إيبان لتهز عظامه . . ». ولم يملك جواباً . . وكل ما فعله أنه نزع نظارته عن عينيه وأخذ يجففها من العرق في عصبية ظاهرة.

وكان موضوع القدس هو شغلي الشاغل في معظم دورات الأمم المتحدة، أبحث شؤونها في كل مناسبة . . وكنت أردد العهدة العمرية التي أعطاها الفاتح العظيم «عمر» إلى نصارى القدس، وأشير إليها بأنها أعظم معاهدة على وجه الأرض تمت بين الغالب والمغلوب . . وكنت أندد على الدوام بدعوى إسرائيل أن القدس هي العاصمة الخالدة لإسرائيل . . وتصدى لي إيبان وهو يقول: «ما شأن الشقيري في القدس إنه غريب عنها . . . إن القدس الجديدة تحت سيادتنا والقديمة تحت سيادة الأردن . . والشقيري ممثل سوريا، وهي دولة لا تملك شبراً واحداً فيها . . إنه غريب عنها . . ». وقد بدا للأعضاء أن هذا الكلام صحيح . . وفيه المنطق الدولي السليم . . وأنني أخوض في موضوع لا علاقة لي به . . وأنني غريب حقاً!!

وتفتحت أكمام قريحتي عن كل خزائنها . . وعثرت على كل مكنونها . . وقلت في زهو الذي وجد كنوزه: «إنني لست غريباً عن القدس . . القدس داري . . قضيت فيها صباي، وفيها كانت دراستي وعبادتي . . وإنني كفلسطيني أملكها وطناً . . وكعربي أملكها كحاضرة من أعز حواضر العرب، وكمسلم أملكها موطناً للإسراء والمعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين . . وكإنسان أملكها مهوى لقلوب المؤمنين في العالم . . ولكن الغريب عنها إيبان، المواطن البريطاني . . وغولدا ماير المواطنة الأمريكية . . وإن جميع زعماء الصهيونية وإسرائيل، هرتزل ووايزمان وسوكولوف وبن غوريون وشاريت وإشكول، جميعهم غرباء من أوروبا الشرقية . . من روسيا وبولندا والنمسا ولتوانيا وأستونيا وأوكرانيا . . «ثم أردفت وقلت: «واليهود غرباء عن فلسطين منذ كانت اليهودية . . «وقرأت العبارة الشهيرة في التوراة، خطاباً إلى اليهود «الأرض التي تعيش فيها غريباً . . وهي أرض كنعان» . . وكانت قاعة الزائرين مملوءة بالجالسين فانطلقوا مصفقين، وشاركهم عدد من وفود أمريكا اللاتينية . . وقد

بدا إيبان في ذلك اليوم وكأنه «غريب» حتى عن الأمم المتحدة.

وكانت الأمم المتحدة قد أوفدت بعثة اقتصادية إلى الشرق الأوسط بحثاً عن مشروعات لتشغيل اللاجئين في الدول العربية. . . وهي «بعثة «كلاب»» على اسم رئيسها. .

وقدمت اللجنة تقريراً إضافياً إلى الأمم المتحدة، واغتنمتها إسرائيل فرصة للدعوة إلى مقترحاتها المعروفة، في تسوية قضية اللاجئين على أساس التوطين، ضمن مشروعات التنمية الاقتصادية في البلاد العربية. . واندفع إيبان يعرض «تطوع» إسرائيل للمساهمة في تطوير اقتصاد الشرق الأوسط وتقديم خبراتها الفنية. . وراح يقتبس من تقرير «»كلاب»» عبارة من هنا، وعبارة من هناك ليعزز رأيه.

وكان تقرير «كلاب» مؤلفاً من ثلاثة مجلدات ضخمة، مملوءة بالجداول والإحصاءات والدراسات الفنية. . ومن أين للوفود القراءة والدراسة. . وإسرائيل تعتمد في دعايتها على جهل الآخرين. . وكان في تقرير «كلاب» توصية رائعة. . ليس لها عنوان. . وواردة في مكان غير بارز. .

ولكن الأم تعرف ولدها. . وقد رأيت ولدي وعرفته. . فأمسكت بالمجلد الثاني من التقرير. . وقلت: «إن إيبان يعتمد التقرير. . وقد قرأ لكم مقتبسات من التقرير أخرجها من سياقها. وفصلها عن مقدماتها ونتائجها. . ولكن هنالك توصية لا مجال للطعن فيها. . وأخذ ت أقرأ: «إن خطوط الهدنة قد تسببت في مشكلة خطيرة. . لقد أصبح ٣٢٥ ألف من الفلاحين الذين يعيشون في ١١٨ مدينة وقرية، مفصولين عن أراضيهم التي كانوا يفلحونها، أما بالنسبة إلى قطاع غزة، حيث اللاجئون يقاربون ٣٥٠ ألفاً، فإن المشكلة لا تحل إلا إذا سمح لهم بأن يفلحوا أراضيهم، التي تفصلهم عنها الهدنة الآن. . ». فبهت إيبان، وراح يقلب تقارير «كلاب»، فيضع المجلد الأول فوق الثالث، ثم الثالث تحت الثاني، وهو يتشاغل عن الجواب لأنه لم يكن يملك الجواب، ولأن إسرائيل تعارض أشد المعارضة أن يزرع الفلاحون أراضيهم عبر خطوط الهدنة، وهي على مرمى البصر. .

ولكن أشد المعارك مع إيبان كانت حول موضوع الاستعمار، وصلته بالحركة الصهيونية. . وكنت لا أترك دورة من دورات الأمم المتحدة إلا وأشير فيها إلى أن الصهيونية هي حركة استعمارية، وأن إسرائيل هي وليدة الاستعمار، وكان إيبان يستولي عليه أشد الضيق بهذه التهمة، فقد كان إيبان يتحدث دوماً عن كفاح إسرائيل في سبيل التحرير، وأن إسرائيل مثلها في ذلك مثل الدول الأفريقية والآسيوية، خاضت حرب التحرير حتى ظفرت باستقلالها!!

وفي سياق الحديث عن وعد بلفور، قرأت نصه الكامل، وقلت: «لقد طغى اسم اللورد بلفور على هذا الوعد حتى أصبح يعرف بوعد بلفور، والواقع أنه يجب أن يعرف باسم وعد روتشلد. .»، وانتبه الأعضاء إلى أمر لم يكونوا يعرفونه. .، وواصلت حديثي قائلاً: «إن روتشلد الرأسمالي الكبير. . المساهم الكبير في المشاريع الاستعمارية في أفريقيا. . هو الذي حاز على هذا التصريح. .، وأن بلفور بدأ تصريحه بقوله: «عزيزي روتشلد»، فهل تريدون دليلاً أقوى على «استعمارية» الصهيونية ومعها إسرائيل؟؟» وثار إيبان محتجاً على التعرض إلى «محسن» كبير مثل روتشلد، صاحب المشروعات الإنسانية و. . . و. . .

قلت: «ليس لإيبان أن يغضب. . فإذا كان اسم روتشلد لا يكفي. . فإن سيرة الصهيونية مع الاستعمار. . كافية. .، لقد طاف زعماء الصهيونية على الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر يشرحون خطتهم. .

فعرضوا على فرنسا: «لا يمكن لفرنسا إلا أن ترغب في رؤية الطريق إلى الهند والصين مع شعب يسير وراءها إلى الموت. . وهل من شعب يصلح لهذا الهدف أكثر من اليهود، الذين شاء لهم القدر منذ بداية عصور التاريخ أن يرتبطوا بمثل هذا الهدف؟ وليس ثمة من شك في أن اليهود والفرنسيين قد خلقوا منذ الأزل ليعملوا معاً. .»

وعرضوا على بريطانيا والولايات المتحدة: «إن فلسطين اليهودية التي تخلقها بريطانيا العظمى وتساعدها أمريكا، تعني ضربة مميتة توجه إلى السيطرة الإسلامية ـ البروسية ـ الطورانية. .، ويجب أن يكون من الواضح كل الوضوح أن ثمة ارتباطاً كلياً بين المصالح الأمريكية والبريطانية واليهودية في وجه المصالح التركية البروسية. .».

وعرضوا على ألمانيا: «نحن نريد أن نقيم على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط حضارة عصرية، ومركزاً تجارياً يكون دعامة للسيادة الألمانية. وستكون فلسطين عن طريق الهجرة اليهودية قاعدة سياسية وتجارية بل صخرة ألمانية ـ تركية كصخرة جبل طارق».

وأخيراً. . عرضوا في القرن العشرين على الاتحاد السوفياتي: «وستخلق روسيا السوفياتية لنفسها. . عن طريق تشجيعها للهجرة اليهودية، مركزاً ممتازاً في الشرق الأوسط. .»

وبعد أن فرغت من قراءة هذه المقتبسات من مصادرها الصهيونية واحدة واحدة. . تساءلت صائحاً: «هل يطلب إيبان المزيد؟ هؤلاء هم زعماء الصهيونية

الذين عرضوا الوطن القومي اليهودي على الدول الاستعمارية: بريطانيا ـ فرنسا ـ ألمانيا القيصرية ـ وأمريكا. . .» وقد طلعت معظم الصحف اليهودية في إسرائيل، طافحة بأخبار هذا الحوار، وكلها تنحي باللائمة على إيبان بأنه «قد هزم في المعركة. . وأن الشقيري قد قضى عليه بأسلحة صهيونية. .»

وفي عدة دورات تالية عزمت غولدا ماير، وكانت وزيرة الخارجية الإسرائيلية أن تحضر بنفسها مناقشات القضية الفلسطينية، وأن تأخذ بسياسة الهجوم على الدول العربية فذلك خير وسائل الدفاع. .

ومن هذا المنطلق، ألقت الوزيرة الإسرائيلية، خطاباً طويلاً عن إنجازات إسرائيل كدولة متحررة. . وأعلنت رغبتها في مساعدة الدول النامية، والدول الأفريقية خاصة. . وحتى في «تحررها من تجارة الرقيق. . التي كان يمارسها العرب من قديم الزمان. . .»

وتجارة الرقيق من قديم الزمان. . تهمة لحقت بالعرب، وسكتوا عليها، حتى أصبحوا مسؤولين عن هذه الجريمة الإنسانية وحدهم. . وها هي الوزيرة الإسرائيلية تنكأ جراحات الشعوب الأفريقية، وتثير أشد أوجاعهم وأفظع آلامهم. . وهل أشنع من الرقيق!!

وكانت الوزيرة الإسرائيلية تقدم مقتبسات مبعثرة من هنا وهناك، تتعرض لبعض تجار الرقيق من العرب. . وشخصت الأبصار إلى الوفود العربية في خليط من الإشفاق والاستنكار. . والوفود الأفريقية تنظر إلى الوزيرة الإسرائيلية بكثير من التقدير والرضا. .

ورفعت يدي أطلب الكلمة. . وقاربت الساعة الثانية ظهراً، وكان يوم جمعة. . فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة. . وأن السيد الشقيري سيكون المتكلم الأول في جلسة صباح الاثنين».

وكانت لدي إلى ذلك الوقت عدة مراجع تنفي عن العرب التهمة الشائعة بصدد تجارة الرقيق. . غير أنه، وقد تأجل الموضوع إلى يوم الاثنين خطر لي أسلوب آخر في الحوار. . ما هو دور اليهود في تجارة الرقيق؟ ورحت أبحث في نفسي عن الوسيلة. . وجدت ضالتي. . فلأذهب إلى «المكتبة الكبرى» في الشارع الخامس من مدينة نيويورك. .

وقضيت يومي السبت والأحد في المكتبة، وفي الجناح اليهودي بالذات، وهو مكتبة كبرى بنفسه. . ورأيت العجب العجاب. . فنسخته وحملته، وكنت في صباح

يوم الاثنين في الأمم المتحدة، كمن هبطت عليه كنوز السماء وتفجرت أمامه كنوز الأرض، وبدأت حديثي قائلاً: «أريد أن أعلم وزيرة الخارجية الإسرائيلية دور اليهود «العظيم» في الرقيق.. على مسمع من الدول الأفريقية.. تقول **دائرة المعارف اليهودية** في الصفحة ٥٦٥ من المجلد التاسع ما يلي:

«وكان من الطبيعي أن يسهم اليهود في تجارة الرقيق.. بالنظر لمعرفتهم الواسعة باللغات، وعلاقتهم المنتشرة في جميع أرجاء العالم، ولقد ظهر تجار الرقيق اليهود إلى حيز الوجود، منذ القرن الأول للحقبة المسيحية في أوروبا، وقد تزايد نشاطهم بصورة خاصة بعد القرن السادس».

وفي الصفحة ٤٠٩ من المجلد الثاني من **الموسوعة اليهودية**، وهو كتاب آخر، جاء ما يلي:

«ولقد أصبح اليهود في القرن السادس أكبر تجار الرقيق في العالم، وفي القرن التاسع كان التجار اليهود يحملون العبيد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق.. وكان الكثيرون من يهود إسبانيا مدينين بثرائهم إلى تجارة الرقيق.. وقد ظل اليهود أجيالاً طويلة يقومون بتصدير العبيد إلى مختلف أسواق التجارة..»

وكنت أتلو هذه المقتبسات على الدول الأفريقية، آذانهم معي، وأبصارهم على الوزيرة الإسرائيلية وهي تنسق شعرها بأظافرها مرة، وتميل إلى معاونها مرة أخرى، وأنا أوجه حديثي إلى السيدة غولدا ماير قائلاً: «وإذا عادت الوزيرة إلى الحديث عن تجارة الرقيق فسأتكلم عن دور إسرائيل في تجارة الرقيق الأبيض.. وأنت تعرفين ما أعني»... وسكتت الوزيرة فعلاً لأنها تعرف ما أعني.. وتعرف دور الإسرائيليات ابتداءً من حكاية «أستر» في التوراة... إلى يومنا هذا..

وجاءت الوزيرة الإسرائيلية في العام التالي وقد أعدت نفسها للثأر والانتقام، ونحن أصحاب الحق في الثأر والانتقام.

وألقت الوزيرة خطاباً طويلاً عن إنجازات إسرائيل في مجالات الاقتصاد والعمران.. وتحدثت عن مشروعات النقب.. وإسكان المهاجرين اليهود.. وعن نشاط الجباية اليهودية في الولايات المتحدة.. «وإن كل ما تطلبه إسرائيل، هو السلام لتعمل المزيد من مشروعات التنمية.. وأن يمتنع الغرباء أمثال الشقيري من التدخل في شؤون إسرائيل..»

وكانت الوزيرة في طريقها إلى مقعدها، وأنا في طريقي من مقعدي إلى المنبر.. فقد توجهت إلى المنصة لأرد على الوزيرة.. ومعي ورقة صغيرة تحوي بعض

الأرقام. . فقد كان كل ما تحدثت به الوزيرة، لا يقتضي تفنيده إلا القليل.

وتطلعت الوفود إليّ وكأنها تتساءل، ماذا عسى أن أجيب على السيدة ولم تتحدث إلا عن التنمية الاقتصادية والسلام وحملة الإعانات. . .

قلت: «لن أتكلم، سأجعل المصادر الرسمية تتكلم. . إن اليهود لا يملكون في صحراء النقب إلا نصف من واحد من المائة، وهذا هو المصدر.

إن اليهود قد صادروا المدن والقرى والأراضي والمصانع والمزارع العربية، وغلتها في العام الواحد خمسون مليون جنيه إسترليني، وهذا هو المصدر.

إن السيدة غولدا ماير قد أعلنت أن إسرائيل في حاجة إلى هجرة مليونين من اليهود، على حين أن اللاجئين الفلسطينيين يقيمون في الخيام على مقربة من أراضيهم ومدنهم وقراهم وهذا هو المصدر.

إن الشقيري هو ابن فلسطين ومن مدينة عكا وليس غريباً. . وإنما الغريب هي السيدة غولدا ماير، وهي مواطنة أمريكية، حيث لا اضطهاد في أمريكا، ولا أقدم مصدراً يثبت جنسيتها الأمريكية. . فإن لهجتها الأمريكية تدل أنها جاءتكم من نيويورك في هذا اليوم. فتصاعدت قهقهات الوفود إلى سقف الجمعية العامة، يتنقل صداها من زاوية إلى زاوية. .

وتابعت حديثي قائلاً: «أما حملة التبرعات الإسرائيلية في أمريكا فهي لتفسد على الأمريكان عقولهم وضمائرهم وجيوبهم، إن إسرائيل تدفع في أمريكا:

٣٢٨,٠٠٠ = دولاراً للمجلس الأمريكي

٧٠٠,٠٠٠ = للاتحاد الصهيوني

٤٨,٠٠٠ = مجلس شؤون الشرق الأوسط

٢٠,٠٠٠ = مجلس الشرق الأدنى

وتلوت أرقاماً ومساعدات أخرى كلها مقتبسة من تقرير لجنة الكونغرس الأمريكي برياسة فولبرايت، وجاء في هذا التقرير «أن إسرائيل تدفع هذه الأموال للدعاية الصهيونية عن طريق الإذاعة والتلفزيون والأشرطة السينمائية والمجلات والخطب والرحلات المجانية لإسرائيل. . ولتوزيع بعض المطبوعات والمنشورات لمجابهة قضية اللاجئين. . ولإعداد التصريحات والبيانات الموالية لإسرائيل، ليلقيها حكام الولايات ورؤساء البلديات. .»

وقلت في ختام حديثي: إذا كانت السيدة غولدا ماير، لا يعجبها تقرير

فولبرايت. . فإليها ما صرح به رئيسها بن غوريون: «في إمكاننا أن نقيم اتصالنا في الولايات المتحدة مع الكونغرس ومع رجال الصحافة. . وقد مكن هذا الوضع حكومة إسرائيل في مناسبات عدة من التأثير على الحكومة الأمريكية ومن حملها على تغيير قراراتها السابقة».

فرغت من تلاوة تصريح بن غوريون وقلت: «إذا كانت الوزيرة تستطيع أن تكذبني في جميع الوقائع والأرقام والمقتبسات التي أشرت إليها. . فإنني أخلي لها المنبر فلتتفضل. . »

ولكن الوزيرة لم «تتفضل» وبقي المنبر شاغراً. . وبقي مقعدها مملوءاً بها، لا تستطيع منه حراكاً. .

ولكن المعركة الكبرى والأخيرة كانت في صيف ١٩٦٣، فقد ذهبت إلى الأمم المتحدة في تلك الدورة، لا رئيساً للوفد السعودي، ولكن رئيساً لوفد فلسطين، وكان في الوفد ثمانية عشر فلسطينياً بينهم سيدتان، يمثلون الفلسطينيين في الأردن وقطاع غزة. وكان موضوع الكيان الفلسطيني لا يزال محور نقاش وجدال. . ، وأخذ وردّ، بين الدول العربية من جانب، والأردن من جانب آخر. . ولم تكن منظمة التحرير قد أنشئت. .

وكان الوفد الإسرائيلي في تعبئة كاملة: الوزيرة غولدا ماير ومعها إيبان وكومي وجدعون، وعدد من سفراء إسرائيل في أمريكا اللاتينية ومجموعة من الخبراء والمستشارين. . فإن إسرائيل تواجه لأول مرة بعد ١٩٤٨، وفداً فلسطينياً يتكلم باسم فلسطين. .

وفي الواقع، فقد طرحت قضية فلسطين في تلك الدورة كقضية سياسية قومية تحررية، وأبلت الوفود العربية بلاءً حسناً، ولكن زمام القضية كان بيد الوفد الفلسطيني. .

ودار الحوار شديداً وقاسياً في بداية الجلسات حول نقطة شكلية ولكنها أساسية. . فقد تقدمنا إلى الأمم المتحدة نطلب الاستماع إلينا بوصفنا «الوفد الفلسطيني»، وثارت ثائرة الوزيرة الإسرائيلية وقامت باتصالات مع جميع الوفود، تعارض في قبولنا تحت هذا «الاسم» وأن أقصى ما يمكن أن توافق عليه هو أن نكون «وفد اللاجئين».

وفي أول جلسة أصرت الوزيرة الإسرائيلية على رفض الاستماع إلى «الوفد الفلسطيني»، وراحت في تاريخ مسهب للقضية الفلسطينية منذ ١٩٤٧، وأن فلسطين

كانت موجودة في عهد الانتداب وأنه في عهد الأمم المتحدة وبعد قرار التقسيم، لم يعد إلا دولتان إسرائيل في الغرب والمملكة الأردنية الهاشمية في الشرق، وهما العضوان الممثلان في الأمم المتحدة. . ، وأنه لم يعد هنالك أرض «فلسطين» ولا شعب فلسطين. وقد أصبح «الفلسطينيون السابقون» أردنيين، منهم الوزراء وقادة الجيش. . ، واستمرت الوزيرة الإسرائيلية «تكافح» بضراوة «اللبؤة» لتحول بيننا وبين الأمم المتحدة. . وكان الوفد الأمريكي يؤيدها بصورة غير مباشرة، وهو يقترح حلاً وسطاً.

ودخلت مع الوزيرة الإسرائيلية في نقاش حاد، فأعلنتُ أن فلسطين قائمة وباقية، وأن قيام إسرائيل هو مرحلة تشويه عابرة. . وأن الأمم المتحدة لا تزال تستخدم كل التعابير المتصلة بفلسطين. . : لجنة التوفيق الفلسطينية. . ، كبير مراقبي الهدنة على فلسطين، تسوية القضية الفلسطينية، وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين، اتفاقيات الهدنة الأربع وقد تعددت الإشارة إلى فلسطين وقضية فلسطين. . . وغير ذلك. .

وأردفت بعد ذلك، إن صفة أعضاء الوفد، هي الصفة الفلسطينية التي لا تزول، سواء حملوا الجنسية الأردنية أو غيرها، وأن أعضاء الوفد هم من أهالي حيفا، صفد، عكا، القدس، الخليل. . هؤلاء فلسطينيون، وآباؤهم وأجدادهم من قبل. .

ثم التفتّ صوب الوفد الإسرائيلي وقلت: «أما أنتم، فلستم فلسطينيين، ولا علاقة لكم بفلسطين. . السيدة غولدا ماير أمريكية، وإيبان بريطاني. . . وكوماي من جنوب أفريقيا. . وكذلك الحال بالنسبة إلى رئيس جمهوريتكم ورئيس وزرائكم. . كلهم من أوروبا الشرقية، ولم يولد واحد منهم في فلسطين. .».

وذهل أعضاء الأمم المتحدة، وهم يستمعون إلى هذه التفاصيل عن فلسطينية وفدنا عضواً عضواً، وأجنبية الوفد الإسرائيلي، وفي ظل هذه الموجة العارمة من البيانات، اقترح الوفد السوفياتي إقفال باب المناقشة وقبول «الوفد الفلسطيني» بهذه الصفة، فوافقت الأكثرية على ذلك، واستنكفت الولايات المتحدة وبريطانيا عن التصويت.

وافتتحت المناقشة في خطاب مسهب، استعرضت فيه تاريخ القضية الفلسطينية وأن الشعب الفلسطيني يلجأ إلى الأمم المتحدة لآخر مرة، وأنه لا يرى مناصاً من حرب تحريرية لاسترداد وطنه. . وأن أمام الأمم المتحدة فرصة قصيرة لإنقاذ السلام في الشرق الأوسط. . وعدت بعد أسبوع، في خطاب ثانٍ إلى مزيد من الشرح والإيضاح. . واختتمت المناقشة في خطاب ثالث في مزيد من التوكيد. . ونشرت في

ما بعد هذه الخطب الثلاث في كتاب مستقل، بالإنكليزية والعربية.

وبالإضافة إلى هذه الخطب فقد وقعت بيني وبين الوزيرة الإسرائيلية مساجلات أشبه بالصراع الخاطف، كنت أوجه فيها الطعنات لإسرائيل بأسلحة إسرائيلية . .

ولخصت الوزيرة الإسرائيلية في ختام بياناتها، موقف إسرائيل في أربع نقاط:

أولاً: توقيع معاهدة صلح مع الدول العربية في ضمانة مجلس الأمن.

ثانياً: ليس لإسرائيل أية أهداف توسعية.

ثالثاً: أن إسرائيل تريد أن تتجنب أسباب الحرب في الشرق الأوسط.

رابعاً: إجراء مفاوضات مباشرة مع الدول العربية للوصول إلى الصلح.

وقد وضعت إسرائيل هذه النقاط الموجزة بصورة براقة، ولم يعد هنالك مجال للرد عليها بخطاب طويل، وكأنما أصبح الموقف العربي في «الزاوية» ولا سبيل إلا بالإجابة بلا أو نعم . . وبادرت على الفور بإجابات سريعة تذهب من النفوس «روعة» الموقف الإسرائيلي . . وقلت: «إن أجوبتي الأربعة على النقاط الأربع ستكون أجوبة إسرائيلية»، ودهش الأعضاء لهذه البداية المفاجئة . .

أولاً: لقد وقعت الدول العربية على اتفاقيات الهدنة تحت إشراف مجلس الأمن، وقال عنها بن غوريون: «انتهت الهدنة إلى غير رجعة كما انتهت خطوط الهدنة وليس في قدرة أي سحرة أو مشعوذين أن يعيدوها إلى ما كانت عليه».

ثانياً: إن إسرائيل دولة توسعية في نشأتها وأهدافها، وهذا بن غوريون يعلن في الكنيست بعد العدوان الثلاثي «كان أحد الأهداف الرئيسية الثلاثة التي حققتها إسرائيل في حملة سيناء تحرير جزء من أرض الوطن لا يزال في أيد غريبة»، وهذه الوزيرة الإسرائيلية تصرح إلى جريدة **نيويورك تايمس** في تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٩٦٢ تدعو إلى تهجير مليوني يهودي.

ثالثاً: إن إسرائيل قامت بالحرب، وباقية بالحرب، وهذا بن غوريون، جواباً على اقتراح من رئيس وزراء بريطانيا بتعديل حدود إسرائيل أعلن «إنني على ثقة من أن رئيس وزراء بريطانيا يعرف تمام المعرفة بأن حدود إسرائيل لا يمكن أن تتبدل من دون حرب دامية . . حرب حياة أو موت . .»، وهذا كومي المندوب الإسرائيلي الدائم أعلن للأمم المتحدة في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٦٠ «ليس ثمة من سبيل واقعي إلا الحرب، يحطم إسرائيل ليعيد إسكان اللاجئين فوق أنقاضها».

رابعاً: أما التفاوض مع إسرائيل فليس بذي موضوع: نحن لا نفاوض على

الوطن. . إن إسرائيل تمثل حركة رجعية عالمية، لا يمكن التفاوض معها، وبدأت أقرأ من المصادر الإسرائيلية. . بن غوريون يقول: «ليس يهودياً من لا يهاجر إلى إسرائيل».

بن غوريون يقول: «عندما يتحدث يهودي في أمريكا أو جنوب أفريقيا إلى إخوانه اليهود مستعملاً عبارة حكومتنا فهو يعني حكومة إسرائيل».

بن غوريون يقول: «تنظر جماهير اليهود في مختلف البلاد إلى سفراء إسرائيل على أنهم ممثلوهم».

وأرادت الوزيرة الإسرائيلية أن تقاطعني عند هذه النقطة، فقلت لها: «لا داعي للمقاطعة والخروج على النظام، وتذكري أنك حينما سافرت إلى الاتحاد السوفياتي أول سفيرة لإسرائيل، احتشد يهود موسكو، لاستقبالك في الكنيس اليهودي، وحول الفندق الذي نزلت فيه. . »

واضطربت الوزيرة الإسرائيلية، وطلبت الكلمة، وأخذ ت في هجوم شخصي عليّ بأنني كنت نازياً مع الحاج أمين. . وأصبحت في الوفد السوري ثم انتقلت إلى الوفد السعودي، والآن رئيس الوفد الفلسطيني، وإن كل همي أن ألقي اليهود في البحر، أنا والرئيس عبد الناصر. . .

ولم تدر الوزيرة أنها وقعت في مطب كبير، فقد خاطبتُ الدول الأعضاء قائلاً: «ارجعوا إلى صفحة ١٦ من خطابي في الأمم المتحدة لعام ١٩٥٧، حيث تقرأون بالحرف الواحد: إننا لا نريد إلقاء اليهود في البحر. . نحن نريد لهم حياة سعيدة في أوطانهم الأولى. . أما اليهود الفلسطينيون، المواطنون الشرعيون فإنهم يستطيعون أن ينعموا مع المواطنين المسلمين والمسيحيين في مجتمع رغيد في ظل نظام ديمقراطي عادل. . ومن غير إسرائيل الدولة يستطيع اليهود أن يعيشوا بسلام حيثما كانوا. . » وبهتت الوزيرة الإسرائيلية، وكأنها أصبحت صماء بكماء. .

وجاء إيبان في الجلسة الختامية، وتخلفت الوزيرة، وكأنه جاء ليفاجئني فبدأ حديثه قائلاً: «إن الموضوع قد استوفي نقاشاً، وهو يريد أن يطرح سؤالاً، يريد عليه جواباً بلا أو نعم:

«هل الدول العربية مستعدة للمفاوضات المباشرة، بقصد الوصول إلى تسوية سلمية للقضية الفلسطينية. . . » وأردت أن أجيب عن السؤال فقال إيبان: «إنني أوجه حديثي إلى وفود الدول العربية، لا إلى الوفد الفلسطيني» فقلت: «يا سيدي الرئيس أنا صاحب الحق في الجواب، وليست الدول العربية، ولم يولد ذلك العربي

الذي يقبل أية تسوية للقضية الفلسطينية نيابة عن الشعب الفلسطيني . . »

حصل شيء من الهرج، فتدخل السيد عدنان الباجه جي مندوب العراق وقال : «إن الشعب الفلسطيني هو صاحب الحق في تقرير مصيره . . وأيده باقي المندوبين العرب وهنا عاد إيبان فقال :

«لا مانع لدي من توجيه السؤال إلى السيد الشقيري :

هل العرب مستعدون للمفاوضة المباشرة، بقصد الوصول إلى تسوية سلمية لقضية فلسطين؟ !»

قلت : «نعم» . . وسكتْ قليلاً، وذهل الأعضاء . . ثم واصلت حديثي : «نعم، العرب مستعدون للمفاوضة المباشرة لتحرير فلسطين . . »

قال إيبان ساخراً : «وماذا يبقى للمفاوضات بعد تحرير فلسطين . . »

قلت : «نبحث الضمانات الدستورية لصيانة حقوق المواطنين الشرعيين من اليهود . . » فساد القاعة جو من المرح . . إلا الوفدان الإسرائيلي والأمريكي فقد التزما الصمت . . فقد أيقنا أن لا سبيل لانتزاع أي شيء من الوفد الفلسطيني . . أو استدراجه إلى المزالق.

وعدت إلى الفندق ذلك اليوم وأنا أسأل نفسي : «أي معنى لهذا الحوار في الأمم المتحدة، وقد امتد بيني وبين إسرائيل خمسة عشر عاماً طوالاً، لقد مرّغت وجه إسرائيل في الأمم المتحدة، ولكنهم يمرّغون وجوه العرب في الوطن، ولقد أحسست أنه لم تعد هنالك جدوى من الأمم المتحدة، إذا لم يكن وراء خطبنا كفاح مسلح . . فلقد دافعت عن قضايا المغرب والجزائر وتونس وليبيا . . ودافعت كذلك عن فلسطين . . فلماذا أخفقنا في قضية فلسطين، ونجحنا في أخواتها . . الخطب هي الخطب . . ولكن الفرق أن كفاحاً مسلحاً كان وراء المغرب، والجزائر، وليبيا، وتونس . . أما فلسطين فليس وراءها إلا الخطب.

تلك كانت النجوى في فؤادي، وذلك كان الحوار في نفسي عن ذلك الحوار الدولي الطويل . . فعزمت أن تكون تلك الدورة آخر دورة أحضرها في الأمم المتحدة . . وعزمت أن أساهم في بناء حركة تحرير فلسطين . . كما جرى في وطننا العربي في شمال أفريقيا . .

وذهبت في الجلسة الأخيرة إلى الأمم المتحدة وألقيتها كلمة كانت بمثابة وداع وقلت : «إن مشكلة فلسطين هي مشكلة استعمارية . . ولا يمكن أن تحل إلا كما حلت المشاكل الاستعمارية، كما حلت المشكلة الجزائرية . . وأنتم تعرفون معنى الحل

الجزائري من البداية إلى النهاية. . وقد أصبح من الضروري أن نشرع في حركة تحريرية تعتمد على جيش التحرير. . وسنبني هذا الجيش وستقوم حركة التحرير. وبهذه العبارة أنهي بياني إليكم. . »

تلك كانت آخر كلماتي في الأمم المتحدة رئيساً لوفد فلسطين في تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٦٣، وقال القدر: نعم فقد عدت إلى الوطن وجاءت مؤتمرات القمة، وعهد إليّ بإنشاء الكيان الفلسطيني، فقامت منظمة التحرير وجيش التحرير، وتجسدت الشخصية الفلسطينية.

تلك مسيرة مليئة بالأسرار، ستجعل مذكراتي عنها كتاباً مستقلاً، فإنها مرحلة قائمة بذاتها، بأحداثها ووقائعها. . مع الشعب الفلسطيني. . مع الملوك والرؤساء. . ومع العالم الدولي.

وسيكون لكارثة حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧ مكان الصدارة في أسبابها ونتائجها. . فإذا عرفنا أسباب الكارثة. . عرفنا أسباب النصر. .

وفي هذه الحقبة القصيرة الطويلة من عام ١٩٦٣ إلى عام ١٩٦٧ قامت أحداث كبار، حامت حولها، ولا تزال، تساؤلات وأسرار.

كيف نشأ الكيان الفلسطيني وقامت منظمة التحرير. .؟

لماذا اختلفت مع بعض الملوك والرؤساء؟

ما هي خفايا مؤتمرات القمة الأربعة؟

لماذا انسحبت من مؤتمر الخرطوم؟

لماذا تنحيت عن رياسة منظمة التحرير الفلسطينية؟

ما هو موقف موسكو من قضية فلسطين؟

ما هو موقف بكين، ومساعداتها العسكرية؟

وما هو. . وكيف. . وكيف. .؟

مركز
دراسات الوحدة العربية

لجنة تخليد ذكرى
المجاهد أحمد الشقيري

حوار وأسرار..
مع الملوك والرؤساء

أحمد الشقيري

(*) صدر هذا الكتاب في بيروت: دار العودة، ١٩٧٠.

المحتويـــــات(*)

خمسون عاماً على طريق الوحدة	٧
أستاذ! أين طوروس؟ وأين رفح؟؟	١٥
فيصل الكبير أو بسمارك الصغير	٢٥
هل تريدون من الملوك والأمراء أن يقدموا عروشهم وتيجانهم؟	٣٥
حوار مع ثلاثة. . طه حسين ـ الحاكم البريطاني ـ نوري السعيد	٤٣
أيام مع: مصطفى النحاس، نوري السعيد، توفيق أبو الهدى، سعدالله الجابري، والشيخ يوسف	٥٥
أيام مع: رياض الصلح، جميل مردم، والولد حسين	٧٣
أيام مع: النقراشي، سمير الرفاعي، عبد الحميد كرامي، هنري فرعون، فارس الخوري، وعزام	٨٧
رحم الله زعيم مصر العظيم	١٠١
رسالة إلى عبد الناصر	١١٣

(*) لقد اعتمدنا في هذا الكتاب، **أحمد الشقيري: الأعمال الكاملة**، ترقيمين: الترقيم الأول في وسط ذيل الصفحة، وهو يشير إلى رقم الصفحة في الكتاب الواحد ضمن المجلد، ولكل كتاب من الكتب في الأعمال الكاملة ترقيم خاص بعدد صفحاته. والترقيم الثاني في يسار ذيل الصفحة، وهو يشير إلى الرقم المتسلسل التصاعدي في المجموعة؛ وقد سبق هذا الرقم التسلسلي رقم أحادي مقترن بعلامة (/)، وهو يشير إلى رقم تسلسل كل كتاب من الكتب المتضمنة في الأعمال الكاملة.

الوحدة العربية عند أربعة :
جمال عبد الناصر ، القوتلي، الإمام أحمد، فيصل ١٢٧
يا طويل العمر . . والدك دعا إلى الوحدة العربية ١٣٩
لو . . . أسقطت تل أبيب، وما سقطت بيت المقدس؟ ١٥٧
لولا الانفصال . . لما سقطت سيناء . . وما سقط الجولان ١٦٩
صنعنا وحدة الهزيمة ١٧٩
الوحدة العربية في الخرطوم وفلسفة بورقيبة ١٨٩
دعوة إلى . . . الرؤساء لا الملوك ٢١٣
ثلاثة أسئلة أمام الرؤساء ٢٢٥

خمسـون عامـاً علـى طريـق الوحـدة

«الحركة العربية»، «الوحدة العربية»، «القومية العربية» ثلاثة تعابير حديثة، لا يزيد عمرها على عمري، وقد تجاوزت الستين من عمري، ولعل الجيل الذي سبقني أو بعضه على الأصح، قد عرف عنها أو سمع بها. . .

وقد عشنا أنا وجيلي هذه التعابير تقرع آذاننا، وتملأ أفئدتنا وتحرك خواطرنا ومشاعرنا. .

والجيل الذي سبقني، هو وحده الذي «ضرب» هذه التعابير الثلاثة، كما «تضرب» النقود في دار «السكة» ثم تنزل إلى الأسواق فتتداولها الأيدي والجيوب.

وكنا قبل ذلك، خلال الحكم العثماني وعلى مدى أربعمائة سنة، لا تدور على ألسنتنا، ولا تجول في خواطرنا هذه التعابير الثلاثة «الحركة العربية»، «الوحدة العربية»، القومية العربية.

وكنا في ذلك العهد الطويل، أمة عربية من غير شك، بلغتنا وتقاليدنا وتراثنا، ولكن «شخصيتنا» العربية، كانت محتجبة بل مندمجة في شخصية أخرى، هي الشخصية الإسلامية، المتمثلة يومذاك في الشخصية «العثمانية»، في الدولة العثمانية، دولة الخلافة الإسلامية(*).

وأحمد الله، في جملة ما أحمده عليه، أن وهبني ذاكرة حادة، تختزن أدق مشاعري في بواكير حياتي، ففي خزائن ذاكرتي تجمعت صور واضحة عن هذه التعابير الثلاثة، كأنها صورة التقطتها «الكاميرا» بالأمس، وخرجت من غرفة «التحميض» في يومي هذا. .

لقد نشأت طفلاً «عثمانياً» شأن الكثيرين من ملايين أطفال العرب، كنت أتكلم

(*) الدولة العثمانية: نسبة إلى مؤسسها عثمان أدرخان (١٣٢٦ ـ ١٣٥٩ م).

اللغة العربية، وأعيش في مدينة عربية، تكاملت فيها الحياة العربية، في مأكلي ومشربي وملبسي، ولكني مع هذا كله كنت «عثمانياً» . . . مواطناً واحداً في الإمبراطورية العثمانية، يؤلف العرب والترك أهم عناصرها، وأكثر سكانها عدداً.

وكان العرب، هم «العنصر النجيب» كما كان يسميهم الأتراك، وفي مدينتي عكا، كان الأطفال الأتراك، من أبناء المواطنين الأتراك، رفاقي في المدرسة «الاحتياطية»، كما كان اسمها آنذاك، يعرفون أنفسهم بأنهم عثمانيّون، ولم أسمع أحداً منهم يقول إنّه تركي. . فهو يعرف نفسه «عثمانلي» وهكذا يعبرون عنها باللغة التركية.

وفي الصباح، كنا نقف في صفوف متوازية لتحية العلم، فنرفع أبصارنا وأيدينا بالتحية إلى العلم «العثماني» بالهلال والنجمة، بخشوع صادق ورهبة مخلصة، ونصيح بالتركية بأصواتنا النقية المؤمنة: بادشاهم جوق باشا ـ ليعش سلطاننا طويلاً. . .

وكان سلطاننا هذا، نحن ذلك الجيل، السلطان محمد رشاد «سلطان البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين». . . فلم أكن قد أدركت السلطان الذي سبقه، عبد الحميد، فقد ولدت عام خلعه في عام ١٩٠٨.

ثم ندخل الصفوف لنقرأ التاريخ والجغرافيا بالكتب التركية، مع التركيز على تاريخ بني عثمان، وحروب بني عثمان. . ولم نكن نشعر أننا نقرأ تاريخاً غريباً علينا أو أجنبياً عنا. . فذلك هو تاريخنا وتلك هي دولتنا، وهؤلاء هم سلاطيننا نعتز إذا انتصروا، ونذلّ إذا انكسروا. . ذلك أننا «عثمانيون»، وهذه هي هويتنا وجنسيتنا. .

ولم نكد نجد غضاضة في هذه الهوية وتلك الجنسية، بل كنا نشعر فيها العزة والكرامة، والفخر والمجادة. . فكم فتنتنا المصاحف العثمانية بزخرفها الجميل، وكم هزتنا الأناشيد العثمانية وهي تتغنى بالانتصارات العثمانية على الروس وشعوب البلقان. . وكم كنا نمتلئ خيلاء وزهواً حين كنا نضع في جيوبنا شهادة ميلادنا، موسومة «بالطغراء الهمايوني العثماني»، والخط العثماني الرائع وهو يقول عن تابعيتنا: عثماني مسجل في دائرة «النفوس».

وكانت «العثمانية» هي الهوية العليا، فيقال «محمد» عثماني من أصل عربي، «وكمال «عثماني من أصل تركي. . ولكننا نحن العرب والترك مندمجون بالهوية العثمانية. فهي مثل السماء تظللنا جميعاً. ومنها تنزل علينا البركة والخير. . جميعاً.

تلك كانت «روحي» في نشأتي الصغيرة. . . وكذلك كان جيلي بأكمله. . .

وهذه الروح لم تكن مغروسة في قلوبنا، ولكنها كانت نامية فيها، نابعة منها. .

تماماً كما يقول الشاعر وهو يصف الفارس على ظهر جواده:

كأنهم في ظهور الخيل نبت ربى   من شدة الحزم لا من شدة الحزم

وقد نبتت ونبعت هذه الروح هكذا، لأن البيئة التي ولدنا فيها وعشنا أيامها كانت تمثل المعاني «العثمانية» بكل مقوماتها، ومعطياتها. .

ولقد كان والدي وأعمامي وأبناء أعمامي، عثمانيين. . وموظفين في خدمة الدولة العثمانية. . ولم يكونوا في هذه الدولة عملاء أو مأجورين، ولكن الدولة دولتهم، يتفانون في خدمتها ويخلصون في العمل لها، تعبيراً عن ذاتهم، وتجسيداً لإيمانهم. .

ولم تكن عائلتنا في بيتنا وحدها تعيش في فيض هذه المشاعر، فقد كنت أعيش مع الشعب في بلدي، طفلاً وصبياً، أنزل إلى الأسواق، وأصلي الجمعة في الجامع الكبير، وأشهد الأعياد، وأشترك في الأفراح، وأسير إلى المقابر وراء الجنازات، وقد كانت هذه مشاعر الناس جميعاً الأحياء منهم والأموات. . ومثل عكا كانت سائر المدن العربية في الأصقاع العربية المترامية الأطراف. .

ولكن هذه الشخصية العثمانية قد أخذت تنزاح بردائها الثقيل عما تحتها، لتبدو الشخصية العربية، تحمل معها الحركة العربية، والوحدة العربية، والقومية العربية. . .

كان ذلك في أواسط الحرب العالمية الأولى، وكنت إذ ذاك في الثامنة من عمري، وبدأ حديث جديد في البيوت والشوارع والمقاهي والمدارس. . عن الأمة العربية تميّزاً لها عن الأمة التركية. . وإلى جانب هذا الحديث بدأنا نسمع عن مظالم الترك على العرب. . . نفي رجالنا إلى أواسط الأناضول. . إصدار الأحكام العسكرية من «الديوان العرفي» على زعمائنا، بالسجن بالإبعاد، بالإعدام على حبال المشانق أو رمياً بالرصاص.

وتسربت إلى آذاننا الأناشيد العربية، والقصائد القومية، في تمجيد أمتنا العربية، وسالف حضارتنا، وتراثنا. . وبدأنا نكتشف لنا «هوية» جديدة، متمثلة في قوميتنا العربية، ولكن كانت ما تزال في إطار الشخصية العثمانية. . في جوارها، لا تحت غمارها.

ولم تكن فكرة «الاستقلال» قد استأثرت بأفكارنا بعد. . وهكذا كان كبارنا، في كل مكان وعند كل مناسبة، فقد كان الناس ما يزالون، إلى ذلك العهد، يدعون للسلطان العثماني بالنصر والتأييد، وجماهير المسلمين يرددون آمين، مخلصين صادقين. .

وكان التعبير الذي يتردد على الألسنة في تلك الأيام، «اللامركزية»، ولم نكن نفهم معنى تلك الكلمة، إلا أنها تقصد إلى الخير «للعنصر» العربي. . ومرت سنون طويلة بعدها حتى فهمنا أن «كبارنا» لا يريدون «الانفصال» عن الدولة العثمانية وإنما يريدون «الإصلاح» ضمن سيادتها وكيانها. . وكان كل ما نطمع فيه نظاماً لامركزياً للولايات العربية يقوم على حكم عربي ذاتي. .

والى جانب شعار اللامركزية، بدأنا نسمع شعاراً آخر انفتحت إليه قلوبنا وأخذ بمجامع مشاعرنا. . ذلك هو شعار الاستقلال. .

ولا بأس أن أذكر الأجيال العربية الصاعدة. . أنه لم يكن في صبانا راديو ولا تلفزيون. . وكانت الصحف أندر من الكبريت الأحمر، كما يقولون، ولكن على الرغم من ذلك فقد التمعت أمام أبصارنا أحاديث الاستقلال في مثل وميض البرق. . وانسابت الأخبار في مجتمعنا انسياب الغدير النمير. . بأن الشريف حسين أمير مكة، قد أعلن الثورة على الدولة العثمانية، وانضم إليه أحرار العرب، وتحالف مع الإنكليز، وسيكون ملك العرب في الدولة العربية الواحدة. . .

وكان الناس يجلسون حلقات حلقات، في البيوت والشوارع، ليستمعوا إلى أحدهم وهو يقرأ أخبار تلك الأحداث. . وكانوا يستعيرون الجريدة من حلقة إلى حلقة. . ومن بيت إلى بيت. . والقارئون الكاتبون قليلون، يشار إليهم بالعيون!!

ومع هذا فقد كان سواد الناس مع الدولة العثمانية ومع الخليفة العثماني، يرون في الشريف حسين خارجاً على الإسلام، فقد شق عصا الطاعة على الخليفة محمد رشاد، خليفة رب العالمين. . فقد كانت العواطف العثمانية دينية في جذورها العميقة، فالمسلم أخو المسلم. . وأطيعوا أولي الأمر منكم، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالعافية والتقوى. . واسمعوا وأطيعوا أولي الأمر منكم ولو ولي عليكم عبد حبشي رأسه كزبيبة. . هكذا كان حديث العلماء إلى جماهير المؤمنين، عبر القرون والأجيال. .

وإني لأذكر، كأنني في بلدي الآن يوم دخلت جامع أحمد باشا الجزار، مع جماهير المسلمين لنصلي صلاة الشكر، أن نصر الله «الغازي مصطفى كمال» على اليونان في أعقاب الحرب العالمية الأولى. .

وقد بلغ من عمق هذه المشاعر أنني كنت أسمع شيوخنا وعجائزنا يتأوهون ويتحسرون على العهد العثماني، أيام العز والرخاء. . ويتمنون أن يمضي مصطفى كمال في حربه فيزحف جنوباً، ليحارب الإنكليز والإفرنسيين ويخرجهم من ديار الشام، ونعود عثمانيين. . . والحمد لله رب العالمين.

ولكن الجيل الناشئ قد أخذ بزمام الدعوة العربية، وخلع عن كتفيه رداء الشخصية العثمانية، وكان أن اشتدت حجته في هذه الدعوة بعد أن «كفر» مصطفى كمال بالإسلام، وندد بالعروبة، وأسقط الحجاب، وأعلن علمانية الدولة، واتجه نحو الغرب، وأبطل الكتابة بالعربية، وأحلّ محلها الأحرف اللاتينية، وانتحل لنفسه اسم أتاتورك بدلاً عن مصطفى كمال[١].

والى جانب كفر «مصطفى كمال» جاءت خيانة الحلفاء، فنكثوا بعهودهم، التي قطعوها في الحرب العالمية الأولى، فحكموا بلادنا حكماً مباشراً تحت ستار الانتداب، وأقاموا الحواجز بين البلاد العربية، فوجدت الحركة العربية زاداً جديداً للتعبير عن الوحدة بدلاً عن التجزئة، وعن الاستقلال بدلاً عن الاحتلال.

ومضى عهد الطفولة وأصبحنا طلاباً يوافع على قدر من الفهم والوعي والدراية، نتابع مسيرة الحركة العربية نتسقط أخبارها في بلادنا وفي البلاد العربية من حولنا.. وأخذنا نسير في المظاهرات مع المتظاهرين، ونهتف للوحدة العربية مع الهاتفين..

ولم تكن الوحدة عندنا في أوائل العشرينيات «من المحيط إلى الخليج» بل كانت من «طورس إلى رفح».. وكنا نجهل هذا الشعار يوم سمعناه في الشارع، ثم تعلمناه على الخريطة في المدرسة!!

وامتدت الأيام وابتدأ صراعنا مع الصهيونية، فأدركنا بفطرة الدفاع عن النفس أنه لا بد لنا من وحدة تنقذنا، فنحن شعب صغير فقير، والعدو يفوق طاقتنا مرات.. بل مئات المرات، ومن ذلك الوقت أصبح شعارنا القومي: الوحدة العربية..

وقبل أن نسمع بوعد بلفور، وقبل أن نرى الهجرة اليهودية.. كنا نرى في الوحدة العربية نشيداً ولحناً، وعزة ومجداً.. ولكنا بعد ذلك أصبحنا نرى فيها خلاصاً وإنقاذاً... وحماية للوجود.. أن نكون في وطننا أو لا نكون.. أن نبقى كشعب أو لا نبقى..

لقد كان هذا هو ضميرنا وفكرنا، وذلك هو حسابنا وتقديرنا، يوم كنا في عهد الصبا والشباب.. وازداد مع الأيام عمقاً ورسوخاً.. ولم يكن الأمر في حاجة إلى نباهة عبقرية لفهمه على هذا الوجه.. فقد كنا نرى الهجرة اليهودية الدافقة على

---

(١) أتاتورك: معناها أبو الترك.

بلادنا . . وكنا نرى الوطن القومي ينمو يوماً بعد يوم وكان طبيعياً أن نخاف على وجودنا كأمة . . وكان طبيعياً أن نرى في الوحدة السبيل الوحيد لخلاصنا ونجاتنا من الخطر المحدق بنا.

وهكذا رأيت منذ أن كنت شاباً في فلسطين . . ومعي جيلي من الشباب، أن الوحدة العربية هي الفيصل بين البقاء والفناء . . وكان الخطر يومئذ في بواكيره الأولى، ولم تكن قد وقعت كوارث الخمسين عاماً التي حلت بالشعب الفلسطيني، وبعده، بالأمة العربية . . .

وتعاظم الخطر الصهيوني في فلسطين وتعاظم معه إيماننا بالوحدة العربية، وأصبحت القضية الفلسطينية من أكبر حوافز الوحدة العربية، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق . . . ثم جاءت الثورات الفلسطينية لتكون زخماً مشتعلاً تضيء مشعل الوحدة العربية . . وبرز الشعور القومي «الواحد» إزاء القضية الفلسطينية، ثم تحول الشعور الواحد إلى نضال واحد، فهبت الشعوب العربية من حولنا، تضرب معنا الإضراب الواحد، وتتظاهر معنا التظاهر الواحد، ثم بعثت بأبطالها إلى مياديننا لتقاتل معنا القتال الواحد ضد العدو الواحد . .

ولقد سرتُ في موكب هذه الأحداث جميعاً، وكانت الوحدة العربية شعارها، وناضل جيلنا تحت لوائها، فسجن من سجن، وعذب من عذب، واستشهد من استشهد، وبقي من هذا الجيل من بقي، ﴿**وما بدلوا تبديلا**﴾[٢].

وفي أواخر الثلاثينيات، حاولت السلطات البريطانية أن تلقي عليّ القبض فهربت إلى سوريا، ثم لجأت إلى لبنان، ومنها إلى مصر، فكان لقائي مع عدد من رجال العروبة حين كان الحوار على أشده بين دعاة القومية العربية والنزعة الفرعونية . . . ويومها عقدت ندوة ساخنة حول هذا الموضوع، بيني وبين الضرير البصير الدكتور طه حسين . .

ثم نشبت الحرب العالمية الثانية، ورأى الحلفاء أن يخطبوا ودّ العرب كما فعلوا في الحرب العالمية الأولى، فلم يجدوا غير «الوحدة العربية»، شعاراً تهوي إليه القلوب . .

وفي أوائل الأربعينيات عدت إلى بلدي عكا، ولم أمكث بضعة أسابيع حتى كنت أستمع من الإذاعة البريطانية مستر إيدن وزير الخارجية البريطانية وهو يلقي تصريحه

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة الأحزاب،» الآية ٢٣.

الشهير معلناً تأييده للوحدة العربية. ثم نقلت الأخبار بعد ذلك أن مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومه المصرية وزعيم الوفد المصري قد وجه الدعوة إلى رؤساء الحكومات العربية السبع للتشاور حول إقامة «وحدة عربية للأمم العربية» . . . وكانت الحكومات العربية المستقلة هي شرق الأردن، مصر، العراق، سوريا، لبنان، اليمن، السعودية، وكان «الاستقلال» يرزح تحت الاحتلال في الأقطار الثلاثة الأولى . .

وشاءت إرادة الله، ومعها صداقات سبقت بيني وبين زعماء سوريا أن أكون المبعوث الشخصي لرئيس الجمهورية السورية، السيد شكري القوتلي، أحمل رسالته إلى الرئيس المصري مصطفى النحاس لأكون قريباً من مشاورات الوحدة، وأبعث بتقريري عنها إلى دمشق مرحلة بعد مرحلة.

وهنا بدأت لي الخطوة الأولى في الميدان العربي، على طريق الوحدة العربية، فدخلت قدس أقداسها في مشاوراتها في قصر أنطونيادس بالإسكندرية، وفي سراي الزعفران في القاهرة، ورافقت شؤونها وشجونها، وعرفت كيف عقد «بروتوكول الإسكندرية للوحدة العربية»، وكيف عقد بعده ميثاق جامعة الدول العربية كخطوة أولى في سبيل الوحدة . . أو هكذا قال الرؤساء والوزراء والسفراء . .

وفي ذلك العهد عرفت من رجالات مصر: مصطفى النحاس ونجيب الهلالي وصلاح الدين والنقراشي، وعبد الرحمن عزام.

وعرفت من رجال سوريا: سعد الله الجابري، وجميل مردم، وفارس الخوري.

وعرفت من رجال العراق: نوري السعيد وكفى . . فقد كان حاكم العراق، داخل الحكم أو خارجه.

وعرفت من رجال لبنان: رياض الصلح، وعبد الحميد كرامي، وهنري فرعون.

وعرفت من رجال الأردن: توفيق أبو الهدى، وسمير الرفاعي.

وعرفت من رجال السعودية: الشيخ يوسف يسن، وخير الدين الزركلي . .

وعرفت من اليمن: ممثل اليمن الصامت (الولد حسين الكبسي) كما كان يسميه إمام اليمن.

وكان لي مع هؤلاء الرجال حوار وأسرار . . ويومئذ كان مصير الأمة العربية معلقاً بتلك الأسرار، مربوطاً بذلك الحوار.

وجاء بعد ذلك عهد آخر . . وأصبحت فيه أميناً مساعداً للجامعة العربية، ثم

سفير سوريا المتجول، ثم وزير الدولة السعودية لشؤون الأمم المتحدة، ثم رئيساً لمنظمة التحرير.

وكنت في ذلك العهد بكل مراحله أسير في موكب الوحدة. . فرأيتها كيف تعثرت في داخل الجامعة العربية.

وبصرت بها خارج الجامعة، ففرحت للوحدة السورية المصرية وحزنت لانفصالها، وابتهجت للوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق وفجعت لإجهاضها. . وأملت خيراً في القيادة السياسية الموحدة بين مصر والعراق، وخاب أملي في مصيرها.

وعلى هامش هذه الوحدات، عاصرت الاتحاد العربي الهاشمي بين عمان وبغداد «والدول العربية المتحدة» التي دخلتها المملكة اليمنية المتوكلية.

وعرفت في تلك الحقبة من الزمن، من رجال مصر الثورة: الرئيس جمال عبد الناصر والمشير عبد الحكيم عامر.

وعرفت من رجال سوريا: الرئيس شكري القوتلي، وصلاح البيطار وأكرم الحوراني. . . والدكتور ناظم القدسي. . بل ازددت معرفة بهم على وجه الدقة.

وعرفت من رجال العراق: المشير عبد السلام عارف، غير من عرفت في الماضي. .

وعرفت ملوك العرب ورؤساءهم في مؤتمرات القمة من مؤتمر القاهرة حتى مؤتمر الخرطوم. .

وكان لي مع هؤلاء حوار. . وكانت لي معهم أسرار، وكل ذلك كان بصدد الوحدة العربية وهي موضوع كتابي هذا. .

تلك هي ذكرياتي ومذكراتي، حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء. .

أما الفصلان الأخيران من هذا الكتاب فقد كتبتهما للرؤساء لا للملوك. . وكتبتهما إلى الجماهير العربية أولاً وآخراً. .

وحين يقرأ المواطن العربي سيعرف الأسباب وما وراء الأسباب. . وسيرى مسيرة الوحدة العربية على مدى خمسين عاماً منذ عام ١٩٢٠ حتى ١٩٧٠.

أستاذ! أين طورس؟ وأين رفح؟؟

«الوحدة. . . الوحدة»

«من طورس إلى رفح»

«الوحدة. . . . . الوحدة»

كانت هذه هي هتافات الجماهير المتزاحمة وهي تشق طريقها في الشوارع المتعرجة العتيقة، والساحات الضيقة القديمة، والنساء تنطلق زغاريدهن من أسطحة المنازل والشرفات كما يفعلن في أيام الأفراح، ونحن صبيان المدينة نتراكض لاهثين وراء هذه المواكب الشعبية، وقد بحت أصواتنا ونحن نصيح. .

الوحدة. . الوحدة. . من طورس إلى رفح. .

كان ذلك في مدينة عكا، الثغر العربي الإسلامي الكبير، وكان ذلك على عتبات العشرينيات، وكنت في الحادية عشرة من عمري، أو يزيد قليلاً. .

ولم تكن هذه الهتافات ذات معنى واضح في خاطري: فلست أدري ما هذه «الوحدة» التي كانت تنطلق من حناجرنا، بل لم أكن أدري أين طورس وأين رفح!!

وتوالت هذه المسيرات الشعبية في مدينتنا العظيمة، أسبوعاً بعد أسبوع، وشهراً بعد شهر، ما نحس إلا وأنها انطلقت هادرة بهذه الهتافات، مدوية بتلك الزغاريد، فنهرول إليها من مدارسنا، لنجد أساتذتنا قد سبقونا إليها يهتفون وينشدون.

وكنا نحن نجد متعة بالغة حين نندس في صفوف الجماهير لنشترك في هتافهم ونستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم. وتحولت المتعة البالغة إلى حماسة دافقة، فأصبحنا ننظم موكباً خاصاً بنا، يتقدمه عريف المدرسة، ويهتف أمامنا ونحن نردد من ورائه.

وأخذ «الفهم» يتسرب إلى نفوسنا. . فقد أصبحت المدينة تتحدث عن مشاعرها وخواطرها في البيوت. . وفي الشوارع. . وفي المنازل وفي المساجد وفي المقاهي وحيثما كان وفي كل زمان. .

وصفوة الحديث الذي وصل إلى أسماعنا، أن الحلفاء قد غرروا بنا . . لقد وعدونا بالاستقلال ونكثوا . . لقد انتهت الحرب العالمية الأولى وهم يريدون الآن أن يقسموا بلادنا بينهم . . إنهم يريدون أن تكون فلسطين لليهود . .

ذلك ما كانت تتحدث به المدينة شهوراً طوالاً، بعد أن دخلتها القوات الهندية والأسترالية (١٩١٨)، حتى أصبح هذا الحديث شغلها الشاغل في نهارها، وسمرها في لياليها . . وكان «الديوان» في بيتنا على شاطئ البحر، حافلاً بهذا السمر . .

وكنا إذا أقبل الليل، فتحنا الديوان في بيتنا وأشعلنا فيه القنديل انتظاراً للزائرين من أعيان المدينة . . حتى إذا فرغ الناس من صلاة العشاء، أخذ رواد الديوان يتوافدون . . وما يكادون أن يفرغوا من شرب القهوة حتى يأخذوا بالسمر إياه . . وأنا أجلس عند الباب أستمع إلى حوارهم وآرائهم، الخدم يروحون ويغدون وهم يتمتمون: يا رب . . يا رب . . انصرنا يا رب على القوم الكافرين.

ولم تكن تخلو ليلة واحدة من هذه الاجتماعات في «الديوان» يلتقي فيه أعيان المدينة، ومعظمهم من المتقاعدين في عهد الدولة العثمانية . . وكنت أندسّ بينهم، أرهف سمعي لكل ما يقولون وأتصدى لخدمتهم، فهذا أقدم له علبة «الدخان والورق» ليلف سيجارة، وذاك أحمل إليه النارجيلة أضعها بين ساقيه وألقي «المربيج» بين يديه . . وإذا نفذ «الكاز» من القنديل أحمله إلى المطبخ «لأعمّره» وأعود به سالماً إلى الديوان، وهم يقولون: الله ينوِّر عليك يا أحمد!.

ولقد كنت أفعل هذه الخدمات لزوارنا في الديوان لكي أصبح مؤهلاً للجلوس معهم والاستماع إلى حديثهم. فلم يكن ميسوراً على الصبيان أن يحضروا مجالس الرجال.

ورحت ألتهم أحاديثهم التهاماً، أصغي إليها بكل جوارحي، وبدأت أعتبر نفسي «وطنياً» صغيراً، مستعدا لأداء كل خدمة، وللقيام بكل تضحية، إذا دعا داعي الوطن!!

وكانت الخدمة التي استطيعها حينئذ، شراء الصحف . . فقد كنت بعد فراغي من المدرسة عصراً أذهب إلى السوق لأشتري «**الكرمل**» و«**فلسطين**» الأولى تصدر في حيفا، والثانية في يافا.

وينعقد المجلس في الديوان فيأخذ عمي قاسم أفندي في قراءة الصحف من أولها لآخرها . . والجميع منصتون، تثرثر «أراكيلهم» ولا ينطقون . . ولم يكن يضايقني منهم إلا أنهم كثيراً ما يسعلون!!

وكنت استمع معهم، في لهفة وذهول، فقد كان كل شيء جديداً على سمعي وعلمي . . فها هي الصحف تتحدث عن وعود الحلفاء للعرب بمنحهم الحرية

والاستقلال. . . وتتحدث عن الشريف حسين، أمير مكة كيف ثار على دولة الخلافة الإسلامية. . وتتحدث عن ضباط العرب الذين قاتلوا إلى جانب الحلفاء. . وتتحدث عن الشهداء الذين سقطوا في سبيل الوحدة العربية. . وتتحدث وتتحدث. .

وأذكر، وما زلت أذكر إلى يومنا هذا، وقد مضى على ذلك خمسون عاماً، أن عمي قاسم أفندي قد أخذ يقرأ خبراً أثار اهتمام الزائرين، فراحوا يستعيدونه، ورحت معهم ألقي إليه سمعي كل سمعي. . .

قالت الجريدة، وقال الخبر، إنّ مؤتمراً وطنياً سينعقد في دمشق وسيحضره مندوبون عن كل البلاد السورية، وسيعلنون الوحدة السورية من طورس إلى رفح، وأن المؤتمر سيبايع الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على البلاد السورية.

قرأ عمي هذا الخبر فانطلق الحاضرون بالدعاء إلى الله العلي القدير أن ينصر العرب والمسلمين، ودار الحوار بينهم في حماسة وعزم وإيمان:

قال أحدهم: «هذه فكرة عظيمة. . ليس لنا خلاص إلا بالوحدة».

وقال آخر: «لقد عشنا كل عمرنا بلاداً واحدة، فما معنى أن يفرق بيننا الإنكليز والإفرنسيين، نحن لا نريد هؤلاء ولا أولئك، نريد الوحدة من طورس إلى رفح. . . وأن يكون الأمير فيصل ملكاً علينا».

ولقد أمَّن الحاضرون على هذا الكلام، وزاد عليه عميّ قائلاً: «لا تنسوا «يا جماعة» إننا إذا أصبحنا تابعين إلى دمشق، فلن يقدر اليهود علينا، ولن يستطيعوا إنشاء الوطن القومي اليهودي، لأننا سنصبح أقوياء، فإن يد الله مع الجماعة».

وكانت ليلة بهيجة حقاً، وانصرف الضيوف من الديوان، كلّ إلى منزله. والوحدة العربية حلمهم السعيد في تلك الليلة السعيدة، وفيصل سيصبح ملكاً علينا. . فليس لنا ملك. .

وقضيت ليلتي في مثل أحلامهم، وأنا فخور وفخور، أني أصبحت أجلس مجالس الرجال، أستمع إلى حوارهم وأسرارهم، أتطلع إلى اليوم الذي أكبر فيه، فأتحدث حديثهم، وأغدو «وطنياً» كبيراً، بعد أن أصبحت «وطنياً صغيراً».

وأقبل الصيف بعد الاحتلال البريطاني (حزيران/يونيو ١٩١٩) وإذا بالأخبار تملأ المدينة أن الرئيس الأمريكي ويلسون قد أرسل لجنة «كينغ كرين» إلى بلادنا لتستفتي الأهلين، وتتعرف على مطالبهم الوطنية، وهلَّل الناس لهذه الأخبار، فما هي إلا بضعة أشهر حتى تنجز اللجنة مهمتها، وتقدم تقريرها إلى الرئيس ويلسون. . . وننعم بالاستقلال. .

وشغل «الديوان» في منزلنا بأخبار الرئيس ويلسون وتصريحاته، وكان عمي قاسم أفندي ورفاقه من المتقاعدين يرددون اسم الرئيس ويلسون كثيراً ويثنون عليه ثناء عطراً، ويمتدحون الولايات المتحدة في أنها دولة ديمقراطية، عادلة، تفتح بلادها للمهاجرين من كل أنحاء العالم.

وذات ليلة لا أنساها، فتح عمي الصحف، وراح يقرأ البشرى الكبرى. . لقد وصلت لجنة «كينغ كرين» إلى يافا بالباخرة وبدأت اجتماعاتها برجال البلاد للوقوف على آرائهم، وانشرحت صدور المحاضرين لهذا النبأ العظيم وأيقنوا أن الفرج بات قريباً.

وكثر زوارنا في ذلك الأسبوع ليستمعوا إلى عمي قاسم وهو يقرأ أخبار اللجنة الأمريكية وأنها سافرت إلى القدس، ومنها إلى نابلس، ومنها إلى الرملة إلى بيت لحم. . وإنها استقبلت الجمعيات الإسلامية والمسيحية التي كانت بيدها قيادة الحركة الوطنية في البلاد.

وأصبحنا في عكا ننتظر دورنا، لتفد إلينا اللجنة الأمريكية، وتوالت الاجتماعات الوطنية وعقدت الجمعية الإسلامية المسيحية اجتماعاتها في «الديوان» عندنا. . فكتبوا المذكرات استعداداً لتقديمها إلى اللجنة الأمريكية وهي كمطالب بقية المدن الفلسطينية: الاستقلال التام، الاتحاد مع سوريا، الانتداب الأمريكي إذا لم يكن بد من الانتداب.

ولكن اللجنة الأمريكية، لسبب لا أعرفه لم تأت إلى عكا، فقد عقدت اجتماعاتها في حيفا، وطلبت إلى الجمعية الإسلامية المسيحية في عكا، أن تذهب إليها.

وكان سرور الناس عظيماً، يوم ذهبت الجمعية الإسلامية المسيحية إلى حيفا واجتمعت باللجنة الأمريكية. . كان يوماً عظيماً عقدنا عليه آمالنا. . وحسبنا أن الاستقلال آت لا ريب فيه، وأن الاتحاد مع سوريا قاب قوسين أو أدنى. .

واستدار العام، وجاءت معه أيام حافلة بالهرج والمرج. . فإذا بي أرى جماعات الشباب يطوفون في الأسواق، وبأيديهم عرائض طويلة يحملون الناس على توقيعها، وراحت جماعات أخرى تقف على أبواب المساجد والكنائس يطلبون إلى المصلين توقيعها. . وهرول آخرون إلى الدكاكين يعرضون توقيعها على البائعين والشارين.

وكان الناس يتسابقون على توقيعها، هذا بإمضائه وذاك بخاتمه، بحماسة بالغة مع بسمات السرور، وبعضهم مع دموع الحبور.

وسألت: ما هذه العرائض؟ فكان الجواب: أن أهالي عكا المسلمين والنصارى، المدنيين والفلاحين، يفوضون السيد عبد الفتاح السعدي والشيخ إبراهيم العكي، أن

يكونا مندوبين عنا للاشتراك في المؤتمر السوري في دمشق للمطالبة بالوحدة السورية، ومبايعة الأمير فيصل بن الحسين ملكاً عليها.

وتوالت الأيام وأنا أشهد توقيع الكثير من أمثال هذه العرائض. . هذه عريضة تطالب بالوحدة، وتلك عريضة ترفض وعد بلفور. . وأخرى. . وأخرى. .

وكانت الحسرة تملأ نفسي. . ليتني كنت كبيراً لأُوّقع مع الموقعين، أو على الأقل ليتني أحمل هذه العرائض مع الحاملين. . غير أن مشهداً سيظل ذكراه في خاطري إلى قبري، قد سرى عن نفسي بعض الشيء.

كنت في وسط السوق أسير في موكب العرائض إلى جانب الشباب. . حين اقتربوا من دكان «أبو عبده زيدان» من التجار المسيحيين المعروفين، وصاحوا بأصواتهم الفتية:

«يا أبو عبده أعطينا الختم، نريد أن نوقع هذه العريضة».

كان أبو عبده متقدماً في السن، وكان كثير الزبائن، لما يعرف الناس من أمانته، وكان دائماً يحمل «الذراع» ليقيس به القماش للمشترين والمشتريات، وقد شق عليه أن يترك «الذراع» ويوقع بختمه، كلما جاءه الشباب، وكلما حملوا إليه العرائض. . فصاح أبو عبده في وجه الشباب، ضاحكا:

«يا أولاد. . هذا هو الختم علقوه على باب الدكان بهذا الخيط، واختموا به ما تشاءون من العرائض، وأنا موافق على ما تختمون. . ولا تطلبوا مني شيئاً بعد اليوم».

وكان ذلك، فقد ختموا عرائضهم وذهبوا مسرورين، وأبو عبده، المسيحي العربي، يبايع سليل النبي. . .

هكذا دب دبيب الوحدة إلى قلبي منذ صباي، وأصبحت طالباً «وحدوياً» أتحدث إلى رفاقي الطلاب عن الوحدة، مما كنت أسمعه في ديوان بيتنا.

وغداة انخرطت في فرقة الكشافة أصبحت «داعية» للوحدة بين رفاقي. . وحدث أن أستاذنا قد ذهب بنا في رحلة كشفية إلى بعض القرى القريبة من عكا، وتجمع الفلاحون الطيبون حولنا، وقد جاؤوا من منازلهم وحقولهم وبيادرهم يرحبون بنا وهم يهتفون:

يعيش ملكنا فيصل!!

تعيش الوحدة السورية!!

وفي كل قرية كنت أقف في الجامع أو في ساحة القرية، أمام الجموع بملابسي الكشفية أخطب فيهم خطباً حماسية، وأروي ما حفظته في المدرسة من الشعر الحماسي.

والواقع أن أولئك الفلاحين البواسل لم تكن تعوزهم الحماسة.. فقد كانوا في الذروة إيماناً وعزماً، يودون لو أنهم يزحفون إلى دمشق بمعاولهم ومناجلهم ليبايعوا الأمير فيصل ملكاً للوحدة السورية.

وقد بالغ الفلاحون الأكارم في إكرامنا، وزاد من حماستهم أن رأوا لأول مرة مسيرة كشفية في قراهم، ونحن في ملابسنا الكاكية ننشد الأناشيد الوطنية ونضرب الأرض بخطواتنا العسكرية، ونحن نحسّ في قرارة نفوسنا أن جيلنا سيكون الطليعة الأولى في موكب الوحدة العربية.

ولكن «كومة» من الفلاحات لم يعجبهم هذا المشهد.. كن طاعنات في السن، تجمعن حول بعضهن، وأخذن يحملقن بنا ونحن نسير أمامهن.. لقد لاحظن أن البنطلون الذي نلبسه أعلى من الركبة بقليل، ورحن يتمتمن ويبسملن ويحوقلن، وصاحت إحداهن:

«ليش» بنطلونكم قصير.. ألا تخافون الله.

فقال أحد الرجال: هؤلاء عساكر الوطن.. أسكتي...

ومضينا في الموكب، والمرأة العجوز ماضية في استنكارها وهي «تبعبع»: «لا.. لا.. العساكر لا يبينون سيقانهم.. العساكر أوادم محشومين..».

ولكن «احتجاج» العجائز قد طغت عليه الهتافات القاصفة، والأناشيد العاصفة، وقد بلغ صداها بعيداً بعيداً... إلى المزارع والحقول.

ولقد كان ذلك الأسبوع من عمري، عميقاً في نفسي، رأيت فيه الشعب على حقيقته وأصالته وشجاعته، وانشدّ قلبي منذ ذلك الحين إلى جماهير الفلاحين والعمال، وكأنما كان القدر يوحي إليّ بأن حياتي ستكون دوماً مع الشعب، وعلى موعد مع الشعب.. وعدنا إلى عكا، إلى شوارعها التي صنع فيها التاريخ، منذ القدم إلى عهد صلاح الدين إلى عهد نابليون، وإذا بي أجدها وكأنها في عرس فريد.. كان العلم العربي بألوانه الأربعة خفاقاً على المنازل، رفرافاً في الطرقات والساحات.. وكانت الهتافات تلعلع في أجواء المدينة.. فلم نعد نسمع أصوات المؤذنين ولا أجراس الكنائس، وعكا مدينة المساجد الزاهية والكنائس العريقة.

وسألت: «ما الخبر؟»

قالوا: «ألا تدري!!»

قلت: «لا أدري . . لقد كنا في رحلة كشفية في القرى».

قالوا: «عاد السعدي والعكي من دمشق . . لقد حضروا المؤتمر السوري وبايعوا الأمير فيصل بن الحسين ملكاً علينا وعلى كل البلاد السورية . . ».

وانطلقت في الشوارع أهتف مع الهاتفين وأنشد مع المنشدين، وقضيت النهار كله، وأنا وصبيان المدينة، في الشوارع والساحات، نلهو ونلعب، ونهتف وننشد، واسترحنا من الدروس والمدرسين!!

وأقبل الليل، ورأينا أعيان المدينة وشبابها «الوطنيين» يتجهون إلى بيت السعدي في حارة القلعة، وإلى بيت العكي في حارة اليهود، ليسلموا على «العائدين» من دمشق بعد أن قرروا الوحدة وأعطوا البيعة . .

وجلسنا نحن الصبيان على درج البيوت، ونحن نرقب الوفود الذاهبة الآيبة، الصاعدة النازلة . . والخدم أمامهم يحملون لهم القناديل الكبيرة، لتضيء تلك الدروب الضيقة، تعلوها القباب الواطئة، فتزيدها ظلمة على ظلمة، وتفشي فيها الرهبة والهيبة . .

ولقد انقضت أيام وأيام والمدينة هانئة بعرس الوحدة . . تستيقظ وتنام، والوحدة طعامها وشرابها، والملك فيصل سمرها وسهرها!!

أكتب هذا وأنا، في عام ١٩٧٠، وأستذكر مشاعري وخواطري قبل خمسين سنة مضت، فأرى أن معاني الوحدة كانت تعيش معي، ومع جيلي بأسره، لا في مدينتي الحبيبة وحدها، ولكن في الديار السورية بأسرها . .

وفي ذلك العهد لم يكن «من المحيط إلى الخليج» شعاراً تردده الألسنة والأقلام، إننا لم نكن نعرف هذا الشعار إطلاقاً، بل إن أحداً لو هتف به ما فهمه أحد ولا اهتز له أحد . . ولكن الوحدة العربية كانت تعيش في حياتنا اليومية في نطاق الممارسة والتطبيق فعلاً لا قولاً . .

كانت الحياة في صباي تحمل معاني الوحدة في جوهرها، وإن كانت غير قائمة في مظهرها.

مرات ومرات . . . دخلت مع رفاقي الصبيان إلى متاجر آبائهم لأجد مظاريفهم التجارية وقد كتب عليها (عكا ـ بيروت) والآن أين عكا وأين بيروت!!

مرات ومرات ذهبت مع أهلي إلى ضواحي عكا في أيام النزهات والأعياد، لنمر

بجانب بساتين التويني، وسرسق، وبيضون (من لبنان)، وقد تفوحت بعطر الليمون وأزاهير الربيع.

مرات ومرات كنا نذهب إلى الميناء لنرى الباخرة «سوريا» التي كان يملكها الشيخ إبراهيم العكي تمخر البحر الأبيض بين عكا وبيروت. وتحمل الأقوات والناس، ولا يسألها أحد ما تحملين ومن تحملين، من غير جمارك، ولا جوازات . . ولا ويلات!!

ومرات ومرات كنا نشهد الموظفين وهم يغدون، ويروحون إلى السراي، وقد جاؤوا من كل بلاد العرب. . هذا هاشم الأتاسي (رئيس جمهورية سوريا) متصرف عكا. . وهذا رئيس محكمة الجزاء من حلب، وهذا سامي الصلح (رئيس وزراء لبنان) ولد في عكا حين كان والده موظفاً في بلدتي الحبيبة. . عكا.

وما لي أذهب بعيداً، فإن عائلتي تتجلى فيها الوحدة. . لقد كان والدي في شبابه قاضياً في اللاذقية (سوريا)، وكان عمي قاسم موظفاً في جبلة وصافيتا (سوريا)، وكان عمي صالح رئيس محكمة في صيدا (لبنان)، وكان جد زوجتي والياً في اليمن. . وكذلك كان الحال مع جميع العائلات التي استطاع أبناؤها أن يتعلموا، وأن يصبحوا حكاماً وموظفين. . عرب يحكمون في البلاد العربية بأسرها، ولا يقول: هذا من الأغراب، وهذا من «الأجناب»(*).

وقد بقيت تلك الأقاصيص والحكايات معي كل عمري. . يرددها معي أصحابها كلما جاءت الظروف والمناسبات. . فما من مرة التقيت فيها «بفخامة» الأتاسي الرئيس السوري في القصر الجمهوري بدمشق، إلا ويكاد يضمني إلى جنبه، ويحدثني عن أيامه في عكا، وما أحلاها. . وما من مرة اجتمعت فيها «بدولة» السيد سامي الصلح رئيس وزراء لبنان، في السراي الكبير في بيروت، إلا ويحدثني عن مولده في عكا، ثم يخرج حافظته ليستل منها (ورقة الهوية) وقد كتب فيها اسمه ومكان ولادته. . عكا. . وهو يردد ويؤكد: أنا ولدت في عكا!!

كنا نعيش هكذا نحن أبناء البلاد العربية تحت الحكم العثماني. . وحدة كاملة تحت الاحتلال، نسافر أين نشاء. . ونتوظف حيث يكون، ونمتلك أين نريد، ولا يسألنا أحد من نحن. . ومن أين نحن وما نحن هنا فاعلون!!

كانت هذه هي الحياة العربية في صباي. . كانت حياة وحدة من غير اسم، ولا

(*) الأجانب، كما يعبرون بالعامية في بعض البلدان العربية في هذه الأيام.

شعار، ولهذا كان غريباً عليّ أن أسمع، ونحن في عتبات العشرينيات، هتاف الوحدة يملأ الشوارع وبت أتساءل: لم نطلب الوحدة؟ ما هي هذه الوحدة؟ ألسنا نعيش حياة الوحدة؟!

وانتهزتها فرصة في يوم من الأيام. . . كنا في المدرسة نصغي إلى أستاذنا في (عكا) حسني خليفة، وهو يملي لنا درس التاريخ. . فقلت:

«أستاذ. . أستاذ هل تسمح لي بسؤال؟»

قال: «نعم. . ماذا تريد؟»

قلت: «ما هذه الوحدة. . هل تشرح لنا معناها؟»

وأخذ المعلم حسني يشرح لنا تاريخ الأمة العربية وأمجادها الغابرة، وكيف وقعت تحت الاحتلال العثماني قرابة أربعمائة عام، وكيف ثار الشريف حسين أمير مكة إلى جانب الحلفاء لتحرير الأمة العربية وإقامة دولة عربية مستقلة، وكيف أن الحلفاء نكثوا عهدهم، وكيف أنهم يريدون أن يقتسمونا في ما بينهم وكيف. . وكيف. . »

ـ وقلت: «يا أستاذ، وأين تقع طورس، ورفح!!»

وأخذ المعلم حسني يفتش عن خريطة ليرينا عليها طورس ورفح، ولما لم يجد تأوه وتأفف، وأخذ «تباشيره» ورسم على اللوح خارطة البلاد السورية، مبتدئة شمالاً من جبال طورس على الحدود التركية، إلى مدينة رفح جنوباً على الحدود المصرية.

قلت: «يا أستاذ. . . البلاد التركية ليست عربية، هذا مفهوم، ولكن البلاد المصرية أليست عربية. . ؟ المصريون يتكلمون اللغة العربية، لماذا تنتهي حدودنا عندهم؟»

قال: «مصر يحكمها الإنكليز الآن. . إن شاء الله حينما تتحرر سنكون كلنا في وحدة عربية».

قلت: «والمغرب الأقصى، والجزائر وتونس، وليبيا، أليست بلاداً عربية. . ؟»

وقال: «نعم كلها بلاد عربية ولكنها تحت الحكم الفرنسي. . ولا يمكننا أن نصل إليها، ولا ندري متى تخرج فرنسا من تلك البلاد».

في ذلك اليوم تعلمت شيئاً عن الوحدة العربية، ولكن فوق ذلك، تعلمت أين تقع رفح وأين تقع طورس. . وكنا نهتف بهما في الشوارع أياماً بلياليها.

ولكن الحوار بيننا وبين المعلم حسني لم ينته في ذلك اليوم. .

لقد قضينا نيفاً وأربعة أعوام (١٩١٩-١٩٢٤) ونحن نسأل المعلم حسني والمعلم حسني يجيب، ولم يعد يعلمنا التاريخ القديم فقد كانت الدروس في معظم الأوقات التاريخ المعاصر، تاريخ القضية الوطنية: وعد بلفور، الهجرة اليهودية، الاستقلال، الوحدة العربية.

كان المعلم حسني بقامته الممشوقة ولثغته الحلوة يحدثنا الأحاديث الوطنية وما يجري في دمشق من أحداث، ومؤتمرات، ومظاهرات.

لقد عشنا تلك السنين الأربع مع المعلم حسني أحلى أحلامنا مع الوحدة وأعز ذكرياتنا عن دمشق عاصمة الوحدة.

توالت بعد ذلك تقادير القدر العجيب الرهيب..

لقد تعاقبت خمسون عاماً على تلك الأيام في مثل البرق الخاطف، لنرى المعلم حسني هارباً إلى دمشق، لاجئاً مع اللاجئين بعد نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨، ثم يموت في دمشق المدينة الكبيرة التي أحبها، وعلَّمنا أن نحبها..

وفي زيارة لدمشق، وقفت على قبر المعلم حسني، أترحم عليه، وعلى الوحدة، فقد دفن كلاهما في دمشق.

لقد عاش المعلم حسني في دمشق قرابة خمسة وعشرين عاماً، رأى خلالها مباهج الوحدة وأفراحها في أوائل ١٩٥٨، ثم امتد عمره ليرى مأساة الانفصال في خريف عام ١٩٦١، وكان قد بلغ خريف حياته.

لقد خرج المعلم حسني من فلسطين، مع جموع اللاجئين، وعاش عمره ليرى كارثة ١٩٤٨، وبعدها كارثة ١٩٦٧، وليموت دون أن تدوم الوحدة التي علَّمنا الكثير من شؤونها وشجونها.

ولو أن الوحدة العربية تحققت في حياته، ما كان لاجئاً مع اللاجئين، ولا ضاعت فلسطين ولا ضاعت معها سيناء والجولان.. ولا ضاع بيت المقدس.. ولا احترق المسجد الأقصى.. ولا ضاعت فوق ذلك كرامة العرب، ومعهم كرامة المسلمين أجمعين..

اللهم أفسح للمعلم حسني في جنتك.. وأفسح للوحدة العربية في قضائك وقدرك.. وأفسح لي من العمر يوماً واحداً، لأراها بعيني، وأموت بعد ذلك حيثما أموت، وكيفما أموت.

فيصـل الكبيـر أو بسمـارك الصغيـر

في منتصف أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٢٤ وجدت نفسي على جبل صهيون، في الناحية الجنوبية الغربية من بيت المقدس، ووقفت بي العربة التي كانت تقلني أمام شيء أشبه ما يكون بالقلعة القديمة، ومع صهيل الخيل وقد أعياها الصعود إلى ذلك الجبل، قال سائق العربة. . .

هذه مدرسة صهيون. . الله يوفقكم لأهاليكم. .

دخلت المدرسة، طربوشي على رأسي، وحقيبتي على كتفي، والوحدة العربية تملأ جوانحي، حملتها معي من مدينتي ومدرستي. . وشعاراتها ما تزال تدوي في أذني. .

وأحسست بالخيبة في نفسي منذ وطئت قدماي ساحة المدرسة. . فقد سمعت التلامذة يرطنون باللغة الإنكليزية، حتى خيل إليّ أنهم من أبناء الإنكليز، جاؤوا إلى هذا المعهد ليتعلموا اللغة العربية!!

أقبلت على الأساتذة أستوضحهم أموري، فرأيتهم كذلك يتكلمون الإنكليزية. . وحان وقت العشاء فدخلت غرفة الطعام، وراح المدير يتلو صلاة «أبانا الذي في السماوات» إلى آخرها. . ولكن بالإنكليزية.

ولم يكن الأمر في حاجة إلى ذكاء كثير، فقد اكتشفت أنني في مدرسة إنكليزية. . ومعظم تلامذتها من المسيحيين، وفيها القليل من الطلاب المسلمين. . وهذا ما قصد إليه والدي، رحمه الله، حين عزم على إرسالي مع أخي إلى هذه المدرسة. . فقد أرادنا أن نتعلم الإنكليزية، فقد كان يجيد التركية في عهد الأتراك، وعلينا أن نجيد الإنكليزية في زمن الإنكليز، ولكل زمان دولة ولسان!!

ومضت الأشهر الأولى، وأنا في نهم لاهب لتعلم اللغة الإنكليزية، فقد كنت

أريد أن أشارك الطلاب في ما يجدون ويمزحون، ويدرسون ويلعبون، وفي خافية نفسي كنت أريد أن أتحدث معهم عن القضية الوطنية . . وعن الوحدة العربية . . وليكن ذلك بالإنكليزية إذا امتنع علينا التحدث بالعربية!!

وقد أحزنني في بادئ الأمر أن والدي قد دفع بي إلى هذه المدرسة الإنكليزية التبشيرية، وتمنيت لو أني ذهبت إلى مدرسة روضة المعارف في القدس، أو إلى مدرسة النجاح في نابلس، حيث يتلقى الطلاب في هذين المعهدين ثقافة واسعة عن القضية العربية، فيخطبون، ويتناقشون، وينشدون . . وفي ذكرى وعد بلفور يضربون. وكان الإضراب عندنا من أروع الأعمال الوطنية!!

ولكني ما لبثت أن ارتدت إليّ سكينتي حين حشوت ذاكرتي بكثير من المفردات والتعابير الإنكليزية، وبدأت أحس أنني أستطيع أن أتحدث مع رفاقي الطلاب، عن الوحدة العربية، في هذه المدرسة البريطانية، وباللغة الإنكليزية.

وهذا ما كان فعلاً، فقد أصبحت أتحدث مع رفاقي الطلاب في الشؤون العامة . . لعلهم كانوا يخافون، لعلهم كانوا يلتزمون حدودهم، في بعض الأوقات كنا ننتحي الأماكن البعيدة عن سمع الأساتذة فنتكلم خليطاً من الإنكليزية والعربية، عن الوحدة السورية . . وعن حدودها من طورس إلى رفح، وبخاصة أنني صرت أعرف أين تقع جبال طورس، وأين تقع مدينة رفح!!

ومضت الأيام ومن بعدها ثلاثة أعوام (حتى عام ١٩٢٦) وأنا أحمد لوالدي أن أرسلني إلى هذه المدرسة، فقد أصبحت بنفسي «خلية» سرية للدعوة للوحدة العربية . . وأصبحت مدرسة صهيون البريطانية أكثر تطرفاً وحماساً من المدرستين العربيتين «روضة المعارف والنجاح».

وكان الأساتذة لا يعبئون بهذه الأمور، فهم يلقون دروسهم وكفى، وفي الأعوام الثلاثة التي قضيتها في المدرسة لم أسمع منهم كلمة واحدة في الشؤون العامة . . لعلهم كانوا يخافون، لعلهم كانوا يلتزمون حدودهم في هذه المدرسة الإنكليزية . . ولعل أكثرهم كانوا من الأسر التبشيرية التي كانت تحصر تفكيرها ونشاطها في الأمور الدينية . . إلا معلماً واحداً، هو الأستاذ حنا خلف، كان يحلو له أن يلقب نفسه «أبو عمر»، كان هذا المعلم من سكان رام الله (بفلسطين) وكان يعتز بنصرانيته العربية، وأهل رام الله وما حولها المسلمون منهم والمسيحيون على السواء، يعتزون بعروبتهم، وحتى بعصبيتهم القبلية، فهذا من قيس، وذاك من يمن . . وكان معلمنا «أبو عمر» من قيس على ما أذكر . .

وكان أبو عمر يجتمع بنا في ساحة المدرسة أو في ركن من أركان الملعب، يمشي

إلينا بخطى واسعة شابة، وما يكاد يصل إلينا حتى يبادرنا بالحديث عن الوحدة العربية، وعن الحركة الوطنية في فلسطين، وكنت أستزيده من الحديث بسؤال من هنا وسؤال من هناك، وأنا أؤكد له مع رفاقي الطلاب، بأننا حين نتخرج من المدرسة سنعمل جيمعاً على تحقيق شعارنا الوطني الذي كان سائداً يومئذ في فلسطين «الاستقلال في إطار الوحدة العربية».

وكان هذا شعارنا حقاً، نقرأه في الصحف التي كانت تصل إلينا في المدرسة «الجامعة العربية. . ومرآة الشرق» وكانتا تصدران في بيت المقدس. وهو شعارنا الذي كانت تعتمده كل مؤتمراتنا الوطنية.

وفي ليلة صفت فيها سماء القدس، وما أحسب أن سماء أخرى تطاولها صفاء وبهاء، التقيت مع «أبو عمر» في ندوة عن الوحدة، وكان معنا طالبان من آل الحسيني فقال «أبو عمر»:

«هل نحن بعيدون عن الوحدة العربية أو قريبون منها؟»

قلت: «نحن نقترب منها. . قريباً تستقل الأقطار العربية وتندمج في الوحدة العربية».

وقال: «لا بل نحن نبتعد عنها. . لقد كانت لنا وحدة في زمن الحكم العثماني. . على كل حال إنها وحدة ولو تحت الاحتلال، أما اليوم فنحن تحت الاحتلال وأوطاننا مجزأة».

ثم قال أبو عمر: «أدعو الله أن يكتب لي الشهادة لمحاربة الصهيونية والتجزئة. . وتحقيق الوحدة».

وانصرفنا. . وكانت ساعة التهبت فيها مشاعرنا جميعاً، ووددنا لو أننا نبادر إلى حمل السلاح. . إلى الميدان.

ولقد تخرجنا في المدرسة بعد ذلك وتفرقنا، كل إلى دربه في الحياة. وتوالت السنون إلى أن جاءت ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) فانخرط فيها معلمنا أبو عمر، وأصابته شظية في صدره خلفت فيه علة عاشت معه زمناً حتى مات فيها. . ومات شهيداً. . . وكتب علينا نحن تلامذته أن نعيش هذه الأيام السوداء لنرى وطننا المستباح، يحتله الغاصب الدخيل من البحر إلى النهر. . بل من القنال إلى الجولان. .

ولكن الوحدة العربية لم تكن تفارقني أو أفارقها. . وكأنني كنت على موعد معها دائماً وأبداً، فقد دخلت الجامعة الأميركية في عام ١٩٢٧، بعد أن تخرجت

في مدرسة صهيون، وسرعان ما تفتحت نفسي على الحلم العظيم والأمل الكبير.. فقد كانت الجامعة تعج بالمئات من الطلاب توافدوا من الأقطار العربية جميعها.. وكان في الجامعة «رابطة العروة الوثقى» يلتقي فيها الطلاب العرب ويتناقشون ويخطبون.

وذات مرة وقفت أخطب عن الوحدة العربية في إحدى ندوات الرابطة فدوت القاعة بالتصفيق، واغتنمتها فرصة وقلت: نحن نريد «وحدة» لا «رابطة»، وإني أقترح عليكم أن نسمي الأشياء بأسمائها فلتكن جمعيَّتنا «الوحدة العربية»، فثار جدل طويل.. وعارض الكبار من الطلاب: فاضل الجمالي، شارل مالك، إسماعيل الأزهري وغيرهم.. وخرجنا نحن وأنشأنا جمعية «الوحدة العربية» وجعلنا في صدر ميثاقها أننا سنكرس حياتنا للعمل في سبيل الوحدة العربية.. وأقسمنا على ذلك وتعاهدنا..

ومضت بضعة أشهر، وجاء يوم يطالبني بالوفاء بما عاهدت وما أقسمت..

كان ذلك اليوم هو السادس من شهر أيار/ مايو من عام ١٩٢٧ يوم ذكرى الشهداء العرب الذين أعدمهم جمال باشا إبان الحرب العالمية الأولى.. وخرجت جموع الطلاب في مسيرة شعبية إلى مقابر الشهداء في بيروت.

وصادف أن وقع الاختيار عليّ لأخطب باسم الطلاب في هذه الذكرى الجليلة ولم يكن لي أن أتردد في القبول، فإن هؤلاء الشهداء، ما خلا قلة من العملاء فيهم، كانوا من أبطال الحرية والاستقلال، ومن دعاة الوحدة العربية.

وارتجلت خطاباً وطنياً تحدثت فيه عن الوحدة العربية.. ولكني دفعت الثمن.. كان لبنان وسوريا ما يزالان تحت سلطة الانتداب الإفرنسي، ولم يكن الإفرنسيون يحتملون أي «كلام» عن الوحدة العربية. فانتزعتني الشرطة الإفرنسية من حرم الجامعة إلى المحكمة، وصدر القرار بإبعادي من لبنان.. من غير بيّنات ولا مرافعات..

وجاءت سيارة الشرطة إلى الجامعة، وحملتني مع كتبي وثيابي إلى الحدود الفلسطينية اللبنانية، ولم تدر أنها حملت كذلك إيماني بالوحدة العربية، وقد زاده العسف مضاء ورسوخاً..

وعدت ثانية إلى بيت المقدس، وعاودتني ذكرياتي في مدرسة صهيون، ولكني هذه المرة لن أكون حبيس قلعتها الصغيرة، فقد دخلت معهد الحقوق أدرس فيه ليلاً.. وأعمل في الصحافة في جريدة **مرآة الشرق** نهاراً.

وكأني وجدت ضالتي في الصحافة والحقوق معاً. . وبهذا وضعت قدماي على عتبات الحياة العامة. . . وأصبحت حياتي بعدها أن أعمل لتحقيق شعارنا الكبير «الاستقلال في إطار الوحدة العربية». . وأن يعمل كل جيلنا الذي واكب تلك الحقبة من الزمن.

وقضيت أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات وأنا أدعو إلى الوحدة العربية في الصحافة والنوادي، وتوالت عليّ الدعوات من جمعيات الشبان المسلمين، والنوادي الرياضية والنوادي الأرثوذكسية، وهذه كلها كانت تنتشر في طول البلاد وعرضها، وأنا أخطب في الوحدة العربية. . وكنت دائم القراءة عن نشوء القوميات الحديثة في أوروبا، عن الوحدتين الإيطالية والألمانية، وكيف كان نشوءهما بالفكرة والدعوة والتنظيم والسلاح. . ولم أكن وحدي في هذا المجال فقد كان غيري من الشبان الوطنيين يؤدون هذه المهمة القومية، وقد تطوعوا أن ينصبوا أنفسهم دعاة للفكرة القومية وللوحدة العربية. .

وكانت بغداد هي كعبة الوحدة العربية في ذلك الوقت. . وكان العراق في نظرنا بمثابة «بروسيا» العرب، كما كانت بروسيا لألمانيا دعامة الوحدة الألمانية. . وكان فيصل بن الحسين ملك العراق هو «بسمارك الصغير» الذي يتطلع إليه العرب في بناء الوحدة الألمانية. . وكنا كلما سافر فيصل إلى لندن وكلما عاد، نخفّ لاستقباله ووداعه، نهرول للحفاوة به كلما هبط إلى القدس، أو إلى عمان، ذلك أننا كنا نرى فيه خير أبناء الحسين دفاعاً عن القضية العربية. . وذلك كان تفكيرنا الصغير في بسمارك الصغير، أو فيصل الكبير!!

ولكننا كنا في قرارة نفوسنا نتساءل عن مصر. . أين هي؟ وأين ملكها، لم لا يزورنا كما يفعل فيصل، ولِمَ لا يزورنا زعماؤها كما يفعل زعماء العراق. . .

وحدث الذي كنا نتوقعه. . حدث الذي كنا نتطلع إليه. .

حدث في تلك الفترة أن وفد على البلاد نخبة من رجالات مصر، فأحطنا بهم، وضربنا حولهم سرادقاً من الحفاوة والتكريم حيثما حلوا في البلاد، وكلنا طامعون أن نجعلهم أنصار الوحدة ودعاتها، فنحن نريد أن نضم جهدنا مع القاهرة إلى جانب جهدنا مع بغداد. .

كان أولهم الدكتور عبد الحميد سعيد الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين، جاء إلى فلسطين ليدعو إلى تأسيس فروع لجمعيته، فطاف في البلاد بهامته العظيمة وعصاه الغليظة ومنكبيه العريضين، وأخذ يخطب في الساحات والنوادي والمساجد داعياً إلى توثيق عرى الأخوة الإسلامية، احتفينا به في عكا حفاوة رائعة، وخطب في

جامع أحمد باشا الجزار خطاباً إسلامياً بليغاً زَيّنه بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وتبعته على المنبر في مثل نبراته وصوته، وأنّى تكون لي هامته وجثته ولحيته. . وناديت بالوحدة العربيه، بالإمبراطورية العربية، وأنا أشير إلى الأحاديث النبوية. . «إذا ذل العرب ذل الإسلام» «والعرب مادة الإسلام». .

وخرجنا من المسجد والدكتور عبد الحميد سعيد يقول لي بصوته الأجشّ:

«ما لنا وللإمبراطورية العربية، نحن نريد جامعة إسلامية، ولتكن إمبراطورية إسلامية».

قلت: «ومن أين لنا أن نبني الجامعة الإسلامية؟»

قال: «ندعو إليها، ونجاهد لتحقيقها، وبالسلاح إذا دعا الداعي!!»

قلت: «لقد دعا إليها قبلك السيد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والسيد رشيد رضا وأولهما أفغاني، وثانيهما مصري، وثالثهما شامي، ولم تتحقق».

قال: «ولماذا لا نتابع هذه الدعوة. . إنّكم لن تتخلصوا من الحركة الصهيونية إلا بقوة العالم الإسلامي».

قلت: «أتمنى من كل قلبي أن تقول «إسلامية عالمية» تتصدى للصهيونية العالمية، ولكننا نرى أنه إذا كانت الوحدة الإسلامية سيقدر لها أن ترى النور، فإن الوحدة العربية هي البداية. . وإذا لم يكن العالم العربي متحداً فلن يقوم اتحاد إسلامي. . و. . و. .».

واستمر الحوار على هذا المنوال إلى أن ركب ضيفنا الكبير سيارته إلى حيفا، ومنها إلى القاهرة دون أن يحسم الأمر بيننا. . وحدة عربية أم وحدة إسلامية!!

وكان ضيفنا الثاني الأستاذ توفيق دياب صاحب جريدة **الجهاد**، فتلقفناه بالأحضان، وكان يرافقه الصحافي المصري اللبناني حبيب جاماتي، وكانت لجريدة **الجهاد** شهرة ذائعة بين الفلسطينيين، فهي جريدة وفدية، وكانت فلسطين وفدية من الناقورة شمالاً حتى رفح جنوباً.

وجاءنا توفيق دياب إلى عكا متأخراً عن موعده أربع ساعات، وكنا أعددنا له استقبالاً حافلاً في حديقة البلدية في ضاحية المدينة، وانصرفت الجموع بعد أن ملت الانتظار، وأقبل المساء وإذا بسيارة الضيف الكبير تقف في ساحة المدينة، وتجمع الناس، وسارع الشباب إلى أحد المقاهي، فجاءوني بطاولة وقفت عليها لأخطب مرحباً بجريدة **الجهاد** وصاحب **الجهاد**. .

وأسهبت في الحديث عن دور مصر في التاريخ العربي، وعن زعامة الوفد المصري للوطن العربي بأسره، وتمنيت على «الأستاذ الكبير والأديب النحرير توفيق دياب أن يكون فارس الدعوة للوحدة العربية وأن يكون **الجهاد** جهاداً حقاً في سبيل الوحدة العربية».

وقف على الأثر الأستاذ دياب بين هتاف الجماهير، وهي تهتف للوحدة، ولمصر وللوفد المصري، واشرأبت الأعناق إلى خطيب مصر المفوه لتسمع ما عسى يقول عن الوحدة العربية.. ومن غير مقدمة ولا ديباجة راح الأستاذ دياب يعرب عن غضبه لذلك «الاحتفال المهلهل في ذلك المكان الزري.. وأن الأمة تحتفل برجالها بكل مظاهر التكريم لا في مثل هذه الساحة ولا على مثل هذا الحال.. و... و..»

ومضى الأستاذ دياب على غرار هذا الحديث، غير شاكر ولا ذاكر ولا عاذر، وجلس على الكرسي دون أن يشير إلى القضية الوطنية ولا إلى الوحدة العربية.

ووقفت اعتذر إليه بأن الاحتفال كان معداً في حديقة البلدية.. و... ولكن والدي رحمه الله، لم يصطبر على هذا الاعتذار وانتفض من مكانه، وانتصب بقامته القصيرة وعيناه تلمعان غضباً، وكأنما خلع عن كتفيه الثمانين عاماً وأصبح فتى في العشرينيات، وراح يخطب ويخطب، مؤنباً الأستاذ دياب.. مذكراً إياه: «بأن هذه الساحة التي نلتقي فيها هي من أشرف الساحات وأكرمها في دنيا العرب، ففيها سقط الشهداء والمجاهدون.. في عهد صلاح الدين، وفيها تخضبت الدماء الذكية في عهد نابليون، وفيها.. وفيها.. وأن صاحب **الجهاد**، وأسد **الجهاد**، لا يبالي أين يأكل وأين ينام، وأين يستقبل وأين يخطب... و... و..»

وعاد والدي إلى كرسيه وكأنما «غاص» بقدميه في توفيق دياب، بوجهه وأنفه وشاربيه.. ولم يسع توفيق دياب إلا أن يقف مرة ثانية ويعتذر، ويتودد إلى الجماهير بالدعوة إلى الوحدة العربية.

ومال إليّ السيد حبيب جاماتي ليقول:

«أنا أعتذر لك عن توفيق دياب.. يكفي أن الوالد «مسح» به الأرض... ويكفي كذلك أن خطيب عكا، والدي، هو مصري، فقد جاء والده الشيخ محمد شقير من مصر، من الشرقية.. ولا فخر لعكا على القاهرة».

وسمع الأستاذ دياب هذا القسم الأخير من الحديث، وعقب قائلاً: «أهو..

بقينا حبايب»، وعاد توفيق دياب إلى القاهرة بعد أن تلقى درساً نافعاً في الوحدة العربية وفي الأخلاق العربية . .

وجاء ضيفنا الثالث، مكرم عبيد، وكان أكبر شأناً من صاحبيه، فقد كان سكرتير الوفد المصري أيام كان الوفد المصري هو كل شيء في مصر، وكل شيء في الوطن العربي.

واستقبلناه في عكا استقبالاً شعبياً، على طريقة الاجتماعات الشعبية في مصر، ونظمنا له «مجموعة» من الشباب تهتف له هتافات سجعية كما يفعل «الهتافون» في مصر، وكل طمعنا أن نربح مكرم عبيد إلى صف الوحدة العربية، فقد كان ذلك أكبر نصر في تلك الأيام . . لو أننا أفلحنا.

فخطبت له، وخطب لنا، وكان بارعاً حصيفاً حقاً . . وكان يتكلم باعتزاز من غير استعلاء . . ولعله سمع بحكاية توفيق دياب . . ورافقته بعد ذلك بالسيارة إلى حيفا، حيث ينتظره اجتماع شعبي كبير.

وفي السيارة، يحلو الكلام، في تلك الأيام الجميلة من فصل الربيع، البحر على ميمنتنا وكثبان الرمال على مسيرتنا . . . ودار الحديث:

قال: «بلادكم جميلة «خالص» إنها أجمل من مصر . . ».

قلت: «أستغفر الله، مصر أمّ الدنيا، يكفيكم النيل . . إنها بستان العالم، كما يقول ابن خلدون . . ولكن» . . .

قال: «ولكن ماذا؟»

قلت: «إنّ الإنكليز واليهود قد أفسدوا علينا جمال بلادنا».

قال: «الإنكليز موضوع مفهوم . . ولكن اليهود . . أليسوا أولاد عمكم؟»

قلت: «(مازحاً) لا يا سيدي إنهم أولاد عمكم أنتم، فقد كان اليهود في مصر، في عهد موسى قبل أن يأتوا إلى فلسطين!!»

وتحدثنا طويلاً عن الحركة الصهيونية وأطماعها، وأنا أؤكد في كل مناسبة الشعار الصهيوني «من النيل إلى الفرات» وهو يؤكد في كل مرة «من النيل إلى الفرات»، هذه خرافات، ثم يتساءل: وهل هذه الحفنة من المهووسين اليهود قادرة على تحقيق خرافة (من النيل إلى الفرات)؟ ثم التفت إليّ بسؤال حاد:

«ما هو الحل؟»

قلت: «الاستقلال في إطار الوحدة العربية».

قال: «واليهود؟»

قلت: «يعيشون معنا ونعيش معهم».

قال: «والوحدة العربية.. يعني إيه».

قلت: «نريد أن ندخل في وحدة مع شرق الأردن وسوريا ولبنان والعراق».

قال: «يعني أنتم «مش عاوزين الاستقلال؟»

قلت: «نحن نريد الاستقلال، ونحن نكافح من أجل بلوغه، ولكن الاستقلال عندنا هو نهاية الاحتلال، وبداية الوحدة».

قال: «معنى هذا أن تكون فلسطين «مديرية» في دولة الشرق العربي».

قلت: «بالضبط، نحن لا نريد أن نكون دولة، وإنما نريد أن نكون مديرية في دولة الوحدة».

وصلنا إلى حيفا، أسلمت ضيفنا الكبير إلى السيد رشيد الحاج إبراهيم زعيم المدينة، ويقيني أنه سيسمع منه ما سمع مني.

وعدت إلى عكا وأنا أسائل نفسي، هل أفلحت مع هذا «الفرعوني» الألمعي.. هل آمن بالوحدة العربية.. هل نستطيع أن نظفر بالوفد المصري داعياً للوحدة العربية، وهل نظفر بمصر قائدة للوحدة العربية وطليعة للأمة العربية؟؟

عدت إلى منزلي وهذه الأسئلة الحائرة المحيرة تجيش في صدري، بعيدة عنا، وهي مشغولة في مكافحة الاحتلال.

وكان المشرق العربي كله، شرق الأردن، سوريا، لبنان، والعراق، تحت الاحتلال يكافح لتحقيق الاستقلال.

كان ذلك في الثلاثينيات.. وكانت مصر مفتونة بحضارتها الفرعونية، ولم تكن قد أفاقت على عروبتها الأصيلة العريقة.. وكانت مشغولة بالإلحاح على الجلاء، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء..

وبقيت هذه الأسئلة عندي، وعند جيلي بأسره من غير جواب.

أجل لقد بقيت عشرين عاماً تعيش في تيه، أشد وأقصى من تيه بني إسرائيل!!

نعم لقد بقيت من غير جواب، إلى أن جاءت الثورة في مصر في عام ١٩٥٢، وجاء الجواب بعدها عاماً بعد عام.

واكتشفت مصر ذاتها وعروبتها، وعرفت دورها في بناء الوحدة العربية.

ولقد تعثرت مسيرة الوحدة وتعسرت، مرة في دمشق، وثانية في القاهرة، وثالثة في بغداد.

ولكن القضية العربية على كل حال قد انتقلت من الفكر والضمير إلى مرحلة تقرير المصير.

وها نحن على الدرب... بل أرجو أن نكون...

هل تريدون من الملوك والأمراء أن يقدموا عروشهم وتيجانهم؟

وقفت كما كان يقف امرؤ القيس . .

كان يقف عند الأطلال والأحجار، ويستذكر الأحبة والأيام الخوالي.

هكذا وقفت أمام ذكرياتي وأنا أكتب مذكراتي . .

وقفت أمام حقبة من الزمان امتدت عشرين عاماً، بين الحرب العالمية الأولى والثانية . . ووجدت فيها صفحات متعاقبات من ذكريات الوحدة العربية، عامرة في ضمائرنا تحرك وجداننا وخواطرنا، وأرجو لها الآن أن توجه نضالنا . .

لقد كانت فترة رهيبة بالنسبة إلينا نحن شعب فلسطين . . . لقد نشأ جيلي ليرى الوطن القومي اليهودي بعد الحرب العالمية الأولى، وكبرنا مع الأيام والأعوام لنرى إسرائيل دولة ذات جيش وسطوة . . ولكننا، ونحن نواكب الخطر الصهيوني النامي المتعاظم، لم نغفل عن الوحدة العربية يوماً من الأيام.

لقد كنا نعشق الوحدة العربية لذاتها من غير شك، لأنها تجعل منا الأمة العربية الفاضلة، والمواطن العربي الأفضل، إلا أننا نحن شباب فلسطين، كنا نرى فيها كذلك الطريق لخلاصنا وخلاص الوطن العربي من هذه الموجة البربرية الطاغية، المسماه بالحركة الصهيونية.

وفي كفاح شعبنا البطولي ضد الاستعمار والصهيونية معاً، كان نضالنا لتحقيق الوحدة العربية متصلاً متواصلاً، كما كان نضالنا بذاته يمد الوحدة العربية بالوقود متصلاً متواصلاً. وقد أحسست، جيلي وأنا، بهذا التبادل والتفاعل بيننا وبين الوحدة، في الصبا المبكر . . وواكبنا مسيرتها شباباً ورجالاً . . .

كنا في فلسطين نناضل لتحقيق الاستقلال، وكذلك كانت الأقطار العربية من حولنا، تخوض معارك التحرير . ولكننا كنا نرى استقلالنا واستقلال إخواننا من حولنا،

إنّه نهاية الاحتلال. وبداية الوحدة. وكان هذا الشعور يتجلى بالتعاطف والتضامن في ما بيننا، ويتمثل أكثر ما يتمثل في تمجيد أبطال الأمة العربية، ذلك أن هؤلاء لا يعملون للاستقلال فقط، ولكنهم كانوا يهيئون الأرض، أرض الوحدة العربية.

وإني لأذكر، وما أعز تلك الذكريات، أننا كنا في العشرينيات نطوف بالشوارع ونحن نهتف «يحيى سعد، يحيى سعد» تماماً كما كان يفعل شباب مصر في مصر، وكنت أنتظر القطار القادم من القاهرة لأختطف جريدة **المقطم** وأقرأ فيها أخبار الثورة المصرية. . لقد كانت الثورة المصرية ثورتنا، وسعد زعيمنا، ومصر بلدنا، والإنكليز أعداءنا . . . وأصبحت خطب سعد على ألسنتنا نرددها ونتغنى بها. .

كان كل ما نستطيعه في ذلك الوقت أن نطارد الجنود الأستراليين الذين كانوا في بلادنا، بالحجارة، وحين لا نجد الحجارة، كنا نصيح في وجوههم بالإنكليزية المهشمة «يعيش سعد». وجاءت بعد ذلك ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب على الإفرنسيين والإسبان. . فانشدَّت قلوبنا إليه وإليها، لم يكن عندنا إفرنسيون لنطاردهم أو نغيظهم، فجمعنا بضع مئات من الجنيهات وطبعنا بها كتباً ومنشورات نندّد فيها بالإسبان والإفرنسيين، وفظائعهما ووحشيتهما. ومع الزعيم سعد، والأمير عبد الكريم الخطابي، أرهفت أسماعنا الفتية إلى أخبار الجهاد البطولي الذي قاده الشهيد عمر المختار في ليبيا، وكان حداداً عاماً في منازلنا يوم قضت عليه إيطاليا بالإعدام، وما هي إلا أيام حتى كانت كل مدينة من مدن فلسطين وفيها شارع اسمه عمر المختار.

ولا بد أن مثل هذا الجهاد البطولي قد وقع في تونس والجزائر، ولكن فرنسا كانت قد ضربت سوراً فولاذيّاً حول هذين القطرين العزيزين فلم تعد تصلنا أخبارهما، أو لعل أنباء الاستعمار الغربي قد اختلط بعضها ببعض، فلم نعد نميز بين المظالم الإفرنسية أو الإنكليزية أو الإيطالية، غير أنَّ وجداننا كان دائماً مع الوطن العربي بأسره ومع الأمة العربية بأسرها، وكانت هذه براعم الوحدة في أكمامها، يفوح عطرها في أنفاسنا. . وإلى جانب هذه الأحداث الوطنية التي وقعت في الشمال الأفريقي، نشبت الثورة في المشرق العربي، في العراق وسوريا، وتعلقت قلوبنا بأبنائها، وتابعنا مسيرتها وراء أبطالها من أمثال إبراهيم هنانو (حلب) والسيد محمد الصدر (العراق)، فعقدنا الاجتماعات ونظمنا المظاهرات لتأييدها، والتغني بوقائعها.

وفي أعقاب ذلك لجأ أحرار العرب إلى فلسطين، من كل دنيا العرب، فأصبحوا زعماءنا يشاركون في نضالنا، ويتبوأون مقاماً رفيعاً بيننا.

ومن هنا بدأت صلتي بعدد من رجالات العروبة، ومن هنا بدأت أرى فيهم رجال الوحدة، وحدة النضال وصولاً إلى إقامة دولة واحدة.

عرفت أول من عرفت شكري القوتلي «رئيس الجمهورية السورية» لاجئاً في حيفا يجلس عند التجار «الشوام» في مدخل المدينة ليستمع إلى أخبار الوافدين من دمشق، ويحض التجار على التبرع للحركة الوطنية في فلسطين، ويتصل بالقيادات الفلسطينية ليقول: قوموا بإضراب.. اعملوا مظاهرات.. تدربوا على حمل السلاح..

وعرفت رياض الصلح «رئيس وزراء لبنان» لاجئاً في كل مدينة بفلسطين، ينتقل من ندوة إلى ندوة، بطربوشه المائل وشرابته الراقصة، وحديثه عن فلسطين أكثر من حديثه عن بيروت.

وعرفت ياسين الهاشمي «رئيس وزراء العراق» لا يفتر عن زيارة فلسطين، من حين إلى حين، وكل همّه أن يتحرر العراق ليعمل على تحرير فلسطين.

وعرفت نبيه العظمة (دمشق) مقيماً في القدس يوكل إليه الإشراف على المعرض الوطني، وهو يزمجر على معاونيه، وعصا «المارشالية» لا تفارق يده يهش بها على البائعين والشارين.

وعرفت الأمير عادل أرسلان من «قادة الثورة السورية» مقيماً في رام الله، تتنازعه البيوت المضيافة، وفادة وكرماً، وهو يحض على الثورة المسلحة ضد بريطانيا.

وعرفت سلطان باشا الأطرش «قائد الثورة السورية» يوم زرته في الكرك في الأردن مع عدد من رجالات البلاد، وأحسسنا بين يديه أنه قائد ثورتنا، وأن جبل الدروز هو جبلنا وحدنا.

وعرفت هؤلاء وغير هؤلاء من رجال العرب وشبابها.. من الذين كانوا يأتون إلى فلسطين زائرين أو لاجئين أو عابرين، وكانت الرابطة التي تجمعهم وتجمعنا، هي الوحدة العربية، نسعى لتحقيقها بتحرير أوطاننا أولاً، ثم نعلن الوحدة في اليوم الثاني.

على هذا كانت تنعقد خواطرنا وآمالنا، بل على هذا كنا نتعاهد ونتحالف كل جيل مع جيله، الشباب مع الشباب، والرجال مع الرجال، والكهول مع الكهول.. والنساء مع النساء.. أقول النساء مع النساء.. لا انسياقاً مع سياق العبارة، ولكني أقولها حقاً وصدقاً، فقد كانت نساء الأقطار العربية يفدن إلى فلسطين ويعقدن المؤتمرات مع السيدات الفلسطينيات، وعرفت منهن السيدة ماري عجمي الأديبة السورية، والسيدة نازك العابد قدمت إلينا من دمشق، وقد اشرأبت أعناق الرجال إلى هذه السافرة تحمل العصا الرفيعة بأناملها الرفيعة!! وكأنها تريد أن تسوق الناس إلى الوحدة العربية بعصا موسى!!

ولم تكن الوحدة عاطفة عابرة، ولكنها كانت تتجسد في وحدة النضال، وكانت

فلسطين هي الساحة التي تتجسد فيها هذه الوحدة، فيوم كنا نسير في مظاهرة وطنية نجد التجاوب في المشرق العربي، فتسير المظاهرات في عمان ودمشق وبغداد وبيروت، وحين كنا ندعو إلى إضراب كان يضرب معنا العراق ولبنان وسوريا وشرقي الأردن، وحينما بدأ الاستعمار الإيطالي والبريطاني الإفرنسي، ينزاح عن الشمال الأفريقي راحت طلائع التجاوب تنبثق من مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، بالإضراب، وبالمظاهرات. . .

وجاءت أحداث الاعتداءات اليهودية على حائط البراق الشريف (حائط المبكى) في بيت المقدس في عام ١٩٢٩ لتعطي الوحدة العربية مزيداً من الوقود.

كنت في ذلك العام في القدس محامياً تحت التمرين. . وقضيت مع إخواني ورفاقي عامين كاملين نستثير العالمين العربي والإسلامي، وكان للسيد أمين الحسيني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى في القدس جهد كبير في الدعوة لعقد مؤتمر إسلامي يدعم الحق الإسلامي في (حائط المبكى) وهو جدار المسجد الأقصى[١].

وانعقد المؤتمر في كلية روضة المعارف في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٣١، ولعله كان أكبر تجمع إسلامي شهده العصر الحديث، وطبيعي أن معه كذلك أكبر تجمع عربي. وخطر لنا نحن الشباب أن نغتنم هذه الفرصة، ونتصل بقادة العرب ونسعى معهم للدعوة لمؤتمر عربي عام توضع فيه أسس الوحدة العربية، وأخذنا نتصل بهم، واحداً واحداً. . في الفنادق مرة، في المسجد الأقصى مرة أخرى، وفي ردهات المؤتمر مرة ثالثة. وكان المؤتمر الإسلامي يضم جمهرة من رجال العرب، وكأني أرى الآن وجوههم تتعاقب على مخيلتي، وأصواتهم تتوالى على أذني، وحديث الوحدة العربية يغمرنا جميعاً، وكأنما جرى ذلك كله في الليلة البارحة، لا في أوائل عام ١٩٣١.

وكنا نحن الشباب، قد اقترحنا على رجال العروبة الذين توافدوا على المؤتمر الإسلامي أن يعقدوا اجتماعاً في ما بينهم، ليتداولوا شؤون الوحدة العربية، وأن يصدروا بياناً إلى الأمة العربية يعلنون فيه استئناف نشاطهم في ميدان الوحدة، ويشرعوا في اتخاذ الخطوات العملية لتحقيق هذه الغاية، وكان أن وافقوا على اقتراحنا، وصاح فينا أحدهم، (رياض الصلح)، قائلاً:

«يا شباب، أنتم تطلبون منا كل شيء، اعملوا شيئاً أنتم، أعدوا بياناً ونحن ننظر فيه. .». وكنا قد أعددنا صيغة البيان في ما بيننا. . فأخرجته من جيبي وقلت:

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

«هذا هو البيان، يا رياض بك، وبالإضافة إلى ذلك، فنحن مستعدون لتنفيذ كل ما تقررون. .». وهنا قال شكري بك القوتلي بصوته الفخم: «والله، يا رياض، الشباب غلبوك». وقد أفلحت تلك الخطوات المتواضعة التي قمنا بها من جانبنا.

فقد اجتمع أولئك الزعماء في مؤتمر تحضيري في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١ ضم رجالات العروبة من فلسطين وسوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن والمغرب العربي، وأصدروا بياناً يتضمن ميثاقاً قومياً أعلن:

أولاً: أن البلاد العربية وحدة تامة لا تتجزأ، وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة لا نقره ولا نعترف به.

ثانياً: توجه الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة، ومقاومة كل فكرة ترمي إلى الاقتصار على العمل للسياسات المحلية والإقليمية.

وبعد أن استنكر البيان الانشغال «بالقضايا الإقليمية المصطنعة والأوضاع المحلية المتقلصة»، أعلن أن المجتمعين سيدعون إلى مؤتمر عربي قومي عام يعقد في إحدى العواصم العربية «ليبحث الوسائل المؤدية إلى رعاية الميثاق والخطط التي ينبغي السير عليها لتحقيقه». . وقد وقع هذا البيان رشيد رضا، محمد بهجت الأثري، إبراهيم الواعظ، خير الدين الزركلي، إبراهيم الخطيب، علي عبيد، علي ناصر الدين، صلاح عثمان بيهم، رياض الصلح، شكري القوتلي، سالم هنداوي، محمد طاهر الجقة، محمد علي بيهم، نبيه العظمة، صالح العوران، مصطفى الغلاييني، حسين الطراونة، عوني الكعكي، خليل التلهوني، سامي السراج، محمد بنوتة، سعيد ثابت، سليمان السودي، محمد حسين الدباغ المكي، وقد وقع معهم عدد من زعماء فلسطين.

وفي أعقاب هذا البيان، قمت بحملة صحافية، في مقالات متلاحقة، أدعو فيها «أن لا يكون اجتماع القدس هو البداية والنهاية»، والواقع أن النية قد اتجهت لعقد هذا المؤتمر في بغداد في ربيع ١٩٣٣، وتألفت له لجنة تحضيرية من قادة العراق المعروفين ياسين الهاشمي، وجميل المدفعي، وعلي جودت الأيوبي، ومولود مخلص، وسعيد ثابت، وغيرهم.

ولكن المؤتمر العربي العام، أملنا المرتجى وحلمنا العظيم، لم ينعقد لأسباب عربية وغير عربية: منها وفاة الملك فيصل، ومنها الضغوط البريطانية المتلاحقة. . وهكذا كان الخط البياني للوحدة العربية على الدوام، ضعف عربي وتدخل أجنبي.

أقول «ضعف عربي» لأن كثيراً من الموقعين على هذا البيان، وهم الذين تعاهدوا

على «مقاومة التجزئة» وعلى «محاربة» الاقتصار على السياسة الإقليمية» هم هم الذين دافعوا عن الإقليمية ورسخوا التجزئة بعد خمسة عشر عاماً، حينما قامت هذه «الاستقلالات» الصغيرة المسماة بالدول العربية. . وحينما قامت الجامعة العربية. .

أجل إن الذين تعاهدوا في بيت المقدس، وبجوار المسجد الأقصى، على العمل للوحدة العربية هم هم بأشخاصهم وأسمائهم الذي أصبحوا في ما بعد رؤساء، ووزراء، وسفراء في حكومات عربية. . تتعهد في ما بينها في ميثاق جامعة الدول العربية على «المحافظة على سيادتها واستقلالها». وسأفصل ذلك في حينه تفصيلاً، وفي هذا الكتاب. . .

ولكن الشعب، بعيداً عن القادة، قد مضى في مسيرته يعمل للوحدة من غير مؤتمر ولا ميثاق، وكانت ساحة الوحدة هي أرض فلسطين بأجمعها، ولم تكن الوسيلة الخطب والبيانات، ولكن الوسيلة كانت الثورة والسلاح، ذلك بأن الوحدة العربية كانت تلقى تصميماً من الشعب، وتراخياً من القادة، وتجسدت الوحدة، بالثورة والسلاح. وعلى مدى عشر سنوات متعاقبات. . شهدت أرض فلسطين طلائع الوحدة العربية. . تقاتل بالسلاح. . ، من ١٩٣٠ حتى ١٩٤٠.

وفي هذه الحقبة الماجدة، وقد عاشها جيلنا بكل تطلعاته وتضحياته، توافد على فلسطين آلاف من المجاهدين من كل أقطار العرب، ليحاربوا الصهيونية لا لأنها طامعة في فلسطين فحسب، ولكن باعتبارها إسفيناً يفصل الأمة العربية، مشرقها عن مغربها، ويعمل على إشغالها عن وحدتها. . وقد عرفت الكثيرين من هؤلاء. . وناضل جيلي معهم، تجمعنا الوحدة العربية، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر. .

وبين الذين قضوا نحبهم، من سقط شهيداً، في المعركة في ظل راية الوحدة، سعياً لتحقيق شعارنا في فلسطين «الاستقلال في إطار الوحدة».

وكان في مقدمة هؤلاء الشيخ عز الدين القسام (من اللاذقية) جاء إلى حيفا «لاجئاً» وما هي إلا بضع سنوات حتى أصبح «اللاجئ» قائد الثورة المسلحة في فلسطين.

عرفته إماماً وخطيباً، وعرفته زميلاً في جمعيات الشبان المسلمين، ورفيقاً في المؤتمرات الوطنية الفلسطينية، وفي الثلاثينيات سقط شهيداً، في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٩٣٥، في أحراش يعبد (بفلسطين) في معركة غير متكافئة مع القوات البريطانية. وأثناء ثورة فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩ مر بنا القائد سعيد العاص (سوريا) في عكا وجهزناه بالمؤن والسلاح. . ومضت أشهر وهو يقود الثورة في جنوب فلسطين وسقط شهيداً في معركة الخضر، في ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦.

وقد عدت إلى أوراقي، وأنا أكتب هذه المذكرات، أبحث عن قوائم طويلة كنت

أعددتها عن أسماء الشهداء العرب الذين سقطوا في ميدان المعركة في فلسطين، قبل أن تقوم في الوطن العربي حكومات عربية وجيوش عربية . . وجامعة عربية.

ولقد كتبت تلك القوائم الطويلة يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، حينما كنت في بلدي، عكا، وكنت أتساءل دائماً: ماذا أصنع بهذه القوائم الكريمة العزيزة.

وخطر لي، وأنا أمام هذه السؤال الكريم، أن أزين مذكراتي بأسماء بعضهم، وأختار واحداً من كل قطر عربي، ولكني لم أجد تلك القوائم العزيزة بين أوراقي . . وأغلب الظن أنها بقيت في مكتبي في عكا، ونهبتها إسرائيل في جملة ما نهبت . . ولم أجد عزاء إلا أن أصيح وتصيح معي مذكراتي: تحية إلى الشهداء المجهولين . .

لقد سقط هؤلاء الشهداء، والآلاف من أمثالهم على جبال فلسطين، ووديانها، ناهيك بآلاف آلاف من شعبنا الفلسطيني، ولكن راية الوحدة العربية لم تسقط، لقد مضى جيلنا العربي يحملها على أكتافه في جميع أرجاء الوطن العربي، وكل بلد حسب ظروفه وأحواله.

وكنا، نحن الجيل الصاعد في فلسطين، نتصل بالحكومات العربية من حولنا، ولم تكن على شيء من الاستقلال الوطني إلا مصر، وشرق الأردن، واليمن، والمملكة العربية السعودية . . أما باقي الأقطار العربية فكانت ترزح تحت نير الاستعمار سواء منها ما كان في المشرق أو الغرب . . وكنا، في كفاحنا ضد الاستعمار البريطاني، نستنجد الملوك والأمراء، ونستصرخهم للعمل العربي الموحد، من أجل فلسطين، ومن أجلهم، ومن أجل العروبة جمعاء.

وفي هذا المجال، كتبنا المقالات، ونظمنا القصائد، وألفنا الوفود للوقوف على أبوابهم نطالب بالنجدة والعون . . هذا إلى جانب تضحياتنا جميعاً، فقد كان كل شعبنا في المعركة . . ووفد علينا، في جملة من كان يفد إلينا في فلسطين، الأمير (الملك) سعود فأقمنا له استقبالات شعبية رائعة، واستصرخنا العروبة والإسلام . . وزمجر أحد شعرائنا، عبد الرحيم محمود وهو يخاطبه:

«المسجد الأقصى أجئت تزوره   أم جئت من قبل الضياع تودعه»

سمعنا هذه الصيحة الغاضبة، وقال البعض إنّه «شاعر مجنون، هكذا قال القرآن»، ولكن عبد الرحيم محمود لم يكن شاعراً فحسب بل كان ثائراً، فقد انضم إلى الثورة وسقط شهيداً في معركة الشجرة طبريا (١٩٤٨)، وقال القرآن ﴿**وحسن أولئك رفيقا**﴾[٢].

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ٦٩.

وجاءت حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، وسقط بيت المقدس، ومعه سقط المسجد الأقصى، ثم جاء صيف ١٩٦٩ ومعه حريق المسجد الأقصى، وتمتم الشاعر الثائر عبد الرحيم محمود من قبره وهو يتلو القرآن ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾(٣).

وتمر أربعة أعوام (١٩٣٦-١٩٣٩)، فأعلن الشعب الفلسطيني إضرابه الكبير ستة أشهر بكاملها، ونشبت الثورة الفلسطينية، خاضها الشعب الفلسطيني، رجالاً ونساءً، واستصرخنا، نحن الشباب، الأمة العربية في كل أقطارها وأمصارها، واستجابت على الصعيد الشعبي بالعون والمدد والنجدة، بالسلاح والرجال والأموال، فجاء كل ذلك تجسيداً للوحدة العربية، بالتضحيات لا بالشعارات.

وتلاحق استصراخنا للملوك والأمراء، فانفرجت شفاههم عن عبارات العطف وجيوبهم عن نزر يسير من العون. . وكان ذروة النجدة، وقمة العون، أنهم وجهوا إلى «إخوانهم وأبنائهم عرب فلسطين نداء يدعونهم فيه إلى وقف الإضراب والثورة والإخلاد إلى السكينة. . اعتماداً على حسن نوايا صديقتنا بريطانيا العظمى ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل». ونشبت الحرب العالمية الثانية في أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩، وتوقف كفاح الشعب الفلسطيني ومعه «رقدت» الدعوة إلى الوحدة العربية، وأصبحت ندواتنا حديثاً عن ماضيها، وتطلعاً إلى مستقبلها.

وفي ندوة من هذه الندوات، دخل علينا «أبو فريد» من أعيان البلدة وكان من «المتقاعدين» من مخلفات الدولة العثمانية، وأخذ يستمع إلينا ونحن نتحدث عن الوحدة العربية. . وعن موقف الملوك والأمراء. .

ولقد طال الحديث بيننا، و«أبو فريد» لا يشارك من قريب أو بعيد، كان مستمعاً يجيل بصره فينا، وكأنما عيناه تطلان من القرن الغابر.

ووقف «أبو فريد» فجأة، وقد أحنت السنون كتفيه، وقوست ساقيه، وغادر المجلس وهو يقول بصوت يلهث: «ماذا تريدون من الملوك والأمراء، هل تريدون أن تبنوا الوحدة العربية بالملوك والأمراء. . وهل تريدون من الملوك والأمراء أن يقدموا إليكم عروشهم وتيجانهم لتصنعوا منها دولة الوحدة؟ هل تريدون هذا أيها المهاويس؟».

قالها «أبو فريد» بحشرجة حزينة وانصرف. . ومات بعدها بأيام. . . ولكن قولته لم تمت، فقد بقيت تعيش معه ومع جيلي. .

رحم الله «أبو فريد» لقد مات، ولكن قولته بقيت على قيد الحياة. . وما تزال.

---

(٣) المصدر نفسه، «سورة التكوير،» الآية ٢٢.

حـــوار مـع ثلاثـــة..
طه حسين ـ الحاكم البريطاني ـ نوري السعيد

كان الشتاء بارداً هذا العام (١٩٧٠) في القاهرة، وجلست في مكتبي ألتمس الدفء بين أوراقي القديمة، وعادت بي الذكريات إلى القاهرة قبل نيف وثلاثين عاماً، حين كنت أقيم فيها لاجئاً مع الكثيرين من إخواني الفلسطينيين الذين هربوا من عسف السلطات البريطانية في فلسطين.

كان ذلك في عام ١٩٣٨، وكنت أقيم في مصر الجديدة، أبيت فيها ليلاً، وأقضي نهاري في القاهرة متنقلاً بين جريدة **الأهرام**، والفنادق المصرية التي تعج بالوافدين من الأقطار العربية.

وكانت جريدة **الأهرام** ملتقى رجالات العرب، يتجمعون فيها ليتحدثوا عن القضايا العربية، وكان مكتب السيد أسعد داغر محرر **الشؤون العربية**، هو دار الندوة في بعض الأحيان.

ولم يكن لنا من حديث إلا موضوع الوحدة العربية. . فقد كان الحوار على أشده في ذلك الوقت بين فريقين من المفكرين المصريين، الفريق الأكبر ينادي بالفكرة الفرعونية صريحة واضحة، والآخر يدعو إلى الوحدة العربية، ولكن على نحو غير واضح ولا صريح.

وضمنا مجلس في ندوة الأهرام، كان فيه عبد الرحمن عزام بك «أمين الجامعة العربية في ما بعد». وحانت مني التفاتة إلى المجلات المكدسة على طاولة أسعد داغر فرأيت بينها مجلة **المكشوف** وفيها مقالة مكشوفة. .

المقالة عن الوحدة العربية. . وكان كاتبها الدكتور طه حسين. .

قرأت، ويا لهول ما قرأت. كانت المقالة رائعة ورفيعة. وكانت غنية بالجمال والاتساق. ولكن في دعوة إلى الباطل. إلى نبذ الوحدة العربية والاستمساك بالفرعونية.

فرغت من قراءة المقالة . . وألقيت بمجلة **المكشوف**، وقلت في عصبية ظاهرة: «هذه هرطقة قومية . . هذا كفر عربي . . إنّ طه حسين يكفر بالوحدة العربية، بالعربية الفصحى التي تعلمها بالأزهر الشريف، وليته كتبها باللغة الفرنسية التي تعلمها بالسوربون في باريس!!»

وأمسك عبد الرحمن عزام بالمجلة، كما لو كان شرطياً يمسك بالمجرم من تلابيبه، وراح يقرأ المقالة بصوت، عالٍ مرة، وخافتٍ مرة أخرى . . وكان يؤشر بقلمه على الفقرات الفرعونية الصارخة، ثم صاح وهو يقول . .

«شوف الأعمى «ده» يكتب آيه!!»

وأخذ يقرأ من المقالة: «أن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين، وأنها ستبقى كذلك، بل يجب أن تبقى وتقوى . . ولا تطلبوا من مصر أن تتخلى عن مصريتها وإلا كان معنى طلبكم، إهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام، وتغاضي عن جميع الآثار التي تزين متاحفك ومتاحف العالم، وانسي نفسك واتبعينا . . إنّ الأكثرية الساحقة من المصريين لا تمت بصلة إلى الدم العربي بل تتصل مباشرة بالمصريين القدماء».

فرغ عزام قراءة المقالة وهو يقول: «الأعمى «ده» يعرف أدب عربي، ولكنه لا يعرف التاريخ العربي»، وراح عزام بأسلوبه القصصي الطريف يحكي تاريخ القبائل العربية في مصر، ومنازلها في وادي النيل، من السودان جنوباً حتى الإسكندرية شمالاً . .

وقلت: «الله قد أراد بالعروبة خيراً . . ».

قال عزام: «كيف . . ولماذا . . ».

قلت: «لقد أحسن الله صنعاً أن جعل هذا العبقري طه حسين، ضريراً».

قال: «وماذا تعني؟»

قلت: «ألم تسمعه يتغنى بالآثار الفرعونية وهو ما رآها، فماذا يقول ولو كان بصيراً ورآها!!»

قال: «حقاً . . لو كان طه حسين بصيراً ورأى بعينه هذه الآثار الرفيعة لكان فرعون هذا الزمان».

والتفت إلينا أسعد داغر وهو يقول: «وما الفائدة من هذا الحوار . . أنا رأيي أن تذهب أنت يا عزام، ومعك الشقيري إلى طه حسين وتجادلوه بالحسنى . . ».

فقال عزام: «والله أنا سئمت الكلام مع هؤلاء المصريين الذين لا يعرفون

مصلحتهم، وأنا أفضل أن يذهب إليه الشقيري . . وليسمع طه حسين كلام (الشوام)».

وتناول أسعد داغر التليفون واتصل بمنزل طه حسين وتحدد موعد اللقاء بعد خمسة أيام لأن «سعادة الدكتور» كما قال السكرتير، مشغول في اجتماع مع المستشرقين الموجودين في القاهرة.

وكان هذا التأخير ملائماً لي، فقد رأيت فيه فسحة كافية من الوقت، كنت أفكر فيها كيف انتزع فرعون من فرعونيته، وأجعله عربياً صريحاً مثل معد بن عدنان بن قحطان.

وذهبت في الموعد المحدد إلى منزل الدكتور طه حسين . . فوجدتني في دار أنيقة تحيط بها حديقة جميلة، وجلست في صالة نسقت مقاعدها الوثيرة أحسن تنسيق، وبدأ فيه ذوق زوجته الإفرنسية، أو «زوجه» حتى لا تغضب الفصحى عند طه حسين!!

قلت لنفسي، وأنا أجيل بصري بهذه الصالة الأنيقة، أن هذه السيدة الإفرنسية قد أفسدت على طه حسين طموحه في أن يكون شبيهاً للضرير العظيم أبي العلاء المعري . . كان أبو العلاء يعيش في دار متواضعة ويعيش العيش الخشن . . ولم تكن له زوجة «لا إفرنسية ولا عربية»!!

وفيما أنا في هذا الحوار بيني وبين نفسي وإذا بي أسمع نحنحة قادمة إلي، تنبئ أن الدكتور طه حسين في طريقه إلينا، ولعلها من بقية نحنحاته التي اكتسبها في الأزهر الشريف!!

ودخل طه حسين، وخطوت إليه أسلم عليه، وهو يرحب بي ويقول:

«لقد جئت أهلاً ونزلت سهلاً، يا مرحبا، إني مسرور دائماً بلقاء إخواننا من الأقطار الشرقية!!!»

ووجدت فرصتي الذهبية في عبارة الترحيب هذه. وقلت:

«وهل يسمح لي أستاذنا الكبير أن أرد التحية . . بغير التحية . .».

قال: «ولكن بأحسن منها أو بمثلها . .».

قلت: «ومن أين لي مع أستاذنا العميد أن أردها بأحسن منها أو بمثلها».

قال: «لا . . بل أنتم في ديار الشام، تجيدون التحية بأجود منها».

قلت: «بل أنا أحمل إليك الحساب والعتاب من أهل الشام. ولو كان زميلك (المعري)، الراقد في معرة النعمان (سوريا) قادراً على الكلام لكان هو الذي يسوق

إليك الحساب والعتاب. . أنا أولاً من الأقطار الشقيقة، ولست من الأقطار الشرقية!!

وفرغنا من هذه الديباجة إلى صلب الموضوع، وتحدثت إليه بما كان من أمر الندوة في دار الأهرام، والمقالة التي قرأناها في مجلة **المكشوف**. . قال، وهو يؤكد كلماته بحروفها، حرفاً حرفاً، تخرج من حلقه، ومن بين أسنانه، ومن شفتيه، وهو يلفظها بإشباع وتوكيد وتشديد: «وماذا عسى أن يكون في المقالة. . إنه الحق كل الحق. . ».

قلت: «لست أجادلك إلا بما جاء بالقرآن ﴿**لم تلبسون الحق بالباطل**﴾[1]».

قال: «ولكن هذه الآية كانت خطاباً لأهل الكتاب. وعليك أن تتلو الآية كلها ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل**﴾.

قلت: «ونحن أولى بها من أهل الكتاب. . . ألم تكن هذه هي حجة القرآن على أهل الكتاب. . ».

ومضيت بعدها أفند ما جاء في المقالة. . مقطعاً مقطعاً، وهو يصغي إليَّ حيناً ويجادلني حيناً آخر. وقرأت عبارته عن أبى الهول والأهرام والآثار المصرية مؤكداً له اعتزازنا بهذه الحضارة العريقة وقلت متسائلاً:

»ومن الذي دعا إلى هدم الأهرام وأبي الهول. من الذي دعا إلى التخلي عن تلك الآثار الرائعة، ومن الذي دعا إلى التخلي عن مصريتكم. . وأن تسيروا وراء العرب والعروبة. . إنني أعرف مشاعر العرب في كل أقطار العرب، العرب لا يريدونكم أن تتخلوا عن مصريتكم، ولا أن تهدموا آثاركم، ولا أن تتبعوا العرب. . إنّ العرب يريدون أن تسيروا أمامهم، وهم يسيرون معكم ووراءكم لخير الأمة العربية جمعاء، ومصر في الطليعة، وهل لك أن تدلني على زعيم عربي واحد، أو مفكر عربي واحد، أو صحافي عربي واحد، دعاكم إلى التنكر لمصريتكم وحضارتكم؟؟!!»

قال: «وهو يتململ في مجلسه: هلاّ مضيت في حديثك».

قلت: «وإني لا أزيدك علماً. . إنّ أستاذنا يعلم أنّ الوحدة العربية كانت قائمة في التاريخ العربي. أحقاباً طويلة من الزمن، وكانت «عواصم» هذه الوحدة في مكة، وفي دمشق، وفي بغداد، وفي القاهرة. . وبقي أهل الحجاز والشام والعراق ومصر، كل في أقطارهم وشؤونهم. . والوحدة العربية لم تهدم أبا الهول ولا الأهرام، وبقيت مصر هي مصر وتوغلّتُ، بعد ذلك، في استعراض تاريخ مصر، وأنه كان على الدوام جزءاً من التاريخ العربي، منذ كان التاريخ إلى «يومنا هذا من عامنا هذا»».

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة آل عمران،» الآية ٧١.

ورفع طه حسين كتفيه حتى أذنيه وقال: «إنها دعوى جريئة وجريئة جداً أن تقول إنّ تاريخ مصر هو جزء من تاريخكم إلى (يومنا هذا من عامنا هذا)».

قلت: «أرجو عميدنا أن يترك قراءة الأدب حيناً من الزمن، ويصرف بعض وقته في قراءة التاريخ . . . قراءة دارسة . .

قال (وفي كلامه بعض السخرية): «وماذا تقول القراءة الدارسة يا أهل الشام؟»

قلت: «لقد كانت طيبة (مصر) عاصمة الشرق العربي خمسة عشر قرناً قبل الميلاد، وعلى مدى مئات السنين بعد ذلك كان تاريخ مصر هو تاريخ الشام، والعكس بالعكس، أما بعد الإسلام، فقد جاءت رابطة روحية جديدة تزيد وشائج القربى بين القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها من حواضر الإسلام والعروبة».

قال: «ما لنا ولهذا التاريخ القديم . .».

قلت: «والتاريخ الحديث بين أيدينا، لقد كانت القاهرة عاصمة الأقطار العربية لمدة عشرين عاماً (١٨٢١-١٨٤١) في عهد محمد علي باشا الكبير، فقد انهزم الجيش التركي أمام الجيش المصري حتى قونية، واعتبرت اتفاقية كوتاهية أن الحدود المصرية تصل حتى جبال طورس شمالاً . .

قال (وكأنما وجد مخرجاً): «إنّ محمد علي باشا وأولاده ليسوا عرباً . .».

قلت: «إنّ عروبة الأهداف التي كانت وراء هذه الحملة تجدها في تاريخ بلدي عكا (فلسطين)».

قال: «وكيف ذلك؟»

قلت: «حينما كان الجيش المصري محاصراً عكا سئل القائد، وكان غير عربي، أين سيقف الجيش المصري، فأجاب إنّه حيث تقف اللغة العربية».

واقتربت من أذن الدكتور طه حسين لأقول له مداعباً، وبصوت خافت: «أنا مصري من بقايا الحملة المصرية على عكا، وبهذا أصبح المصري فلسطينياً عربياً، أرجو أن يصبح الفرعوني المصري عربياً، ونعيش جميعاً» في دولة الوحدة».

ولم يكن من الدكتور طه حسين إلا أن ألقى رأسه خلف كتفيه، في قهقهة عالية، متقطعة في مثل نبراته، وموزونة في مثل عباراته . .

قال: «ولنفرض جدلاً . . . . أنني وافقتك على الوحدة العربية، فكيف تقوم الدولة، وكيف نختار حكامها؟»

قلت: «ليس هذا بالأمر العسير.. هذه تفصيلات.. يكفي أن أذكر لأستاذنا، أن رجال الحركة العربية القدامى في دمشق كان في برنامجهم أن يختاروا الأمير عبد القادر، المجاهد الجزائري المعروف، ملكاً على ديار الشام.. وفي عهد محمد علي كان حاكم بيروت، محمود سامي وهو مصري، وفي العهد الفيصلي في أوائل العشرينيات كان بين حكام الشام عراقي ولبناني وفلسطيني وحجازي.. وإنا لنطمع أن يكون الدكتور طه حسين وزير المعارف في الدولة العربية المتحدة..».

قال: «ولكنا يجب أن نفهم الوحدة العربية في نطاق التعاون، على نحو ما يفهمه العقل الحديث في الدول المتحضرة..»

وقاطعته قائلاً: «إن البلاد المتحضرة الحديثة تفهم الوحدة، كما نريد الوحدة العربية، هذه بريطانيا العظمى إنها دولة اتحادية.. وهذه الولايات المتحدة يدل عليها اسمها، وهذا الاتحاد السوفياتي يدل عليه اسمه.. ناهيك بالدول الاتحادية الصغيرة مثل سويسرا وغيرها.. وكلها بلغت الذروة في الحضارة.. وإني أعرب عن الرجاء والأمل، مرة ثانية أن نراك قريباً وزيراً للمعارف العربية في دولة الوحدة العربية».

ووقفت لأودعه، فقد امتد الحديث قرابة ثلاث ساعات، وسار معي خطوتين وهو يقول: «لقد كانت جلسة ممتعة حقاً، وإني أرجو أن اراك مرة ثانية».

وأردت أن ينتهي حديثنا عند خاتمة مثيرة، فقلت كما لو كنت أتحدث في قضية مسلّمة: «على كل حال، صواب لا أحسب أننا على خلاف.. لست أنازع أن المصريين فراعنة، وليس لك أن تنازع أن الفراعنة عرب..».

وقف طه حسين عند هذا الكلام وقفة فارس يتربص بفريسته، وهو يقول: «هذه دعوى عجيبة.. دعوى جريئة حقاً..».

قلت: «ليست عجيبة وليست جريئة.. أرجو أن تطلب إلى سكرتيرك أن يقرأ لك كتاب المؤرخ الشهير جيمس بريستد، وسيحدثك أن سكان مصر القدماء جاءوا إليها من جزيرة العرب قبل ستة آلاف سنة، وأن الأسر الفرعونية الأولى من هؤلاء العرب..».

قال: «يبدو أنك جئتني بكامل أسلحتك.. كل شيء على أطراف أناملك».

قلت: «لا يا سيدي.. هذا الموضوع، لي ولجيلي بأسره، هو قضيتنا الوحيدة، حفظناها منذ الصبا، وازددنا مع السنين بها علماً...»

قال: «وأنا أدعو الله، رب زدني علماً».

وخرجت من دار الدكتور طه حسين إلى المنزل الذي أقيم فيه في مصر الجديدة،

وأنا أدعو الله في نفسي أن يفتح عينيْ هذا الضرير العظيم على قضيتي العظيمة . . قضية الوحدة العربية . .

وقضيت عاماً آخر في القاهرة، وأنا أسعى مع الساعين، في كسب المزيد من الأنصار للوحدة العربية، نكتب ونخطب، ونناقش ونجادل، والمفكرون في مصر قد أخذوا يكتشفون عروبتهم . .

ولقد حمدت الله أن رجالاً، كانوا أكبر مني عمراً وقدراً، قد قصدوا لهذا الموضوع وأوفوه حقه من الدعوة والدارسة، ففي ربيع ١٩٣٩ أصدرت مجلة الهلال «العدد الذهبي عن العرب والإسلام في العصر الحديث» ظهر فيها مقالتان رائعتان عن الوحدة العربية.

كانت المقالة الأولى بقلم مكرم عبيد عنوانها «المصريون عرب» . . ومكرم في ذلك الوقت كانت له مكانة مرموقة في مصر والبلاد العربية، ويكفي أن يكون صاحب هذا العنوان، ناهيك بالمقالة.

أما المقالة الثانية فكانت بقلم الزعيم السوري المعروف الدكتور عبد الرحمن شهبندر . . ذهب فيها مذهباً لا ندعو إليه في يومنا هذا، وقد مضى عليه ثلاثون عاماً، فقد أعلن بعبارة صارخة :

«نحن إمبراطورية، شاء الإقليميون الضيقون منا أم أبوا . . وإذا قدّر لنا أن نتبادل محصولنا ونزيل الحواجز بيننا فإن يوم الإمبراطورية العربية لا يكون بعيداً».

وليس للقومية العربية أن تنسى الأستاذ أحمد الزيات، الأديب المصري الكبير، الذي ضرب الدعوة الشعوبية في مصر على أم رأسها، حين صاح صيحته المصرية ليقول : » انثروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين، واستقطروا من الصخور الصلاب أخبار الهالكين، وغالبوا البلى على ما بقي في يديه من أكفان الماضي الرميم، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن فخامة الآثار وعظمة النيل، وجمال الوادي، وحال الشعب، ولكن اذكروا دائماً أن الروح التي تنفخونها في مومياء فرعون هي روح عمرو، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر هو لسان مضر، وأن القيثار الذي توقعون عليه ألحان النيل هو قيثار أمرئ القيس، وأن آثار العرب المعنوية هي أدعى للفخامة وأبقى على الدهر، وأجدى على الناس، من صفائح الذهب وجنادل الحجارة . . »

واستمرت هذه الصيحات تتوالى وتتوالى إلى أن أعلنت الحرب العالمية الثانية، أيلول/ سبتمبر ٣٩، وطغت أخبار الحرب، وطوت هذا الحوار المثير . . ولكن ليعود . . وليعود من الباب الآخر، وهو باب الحرب نفسها.

عدت إلى بلدي عكا في ربيع ١٩٤٠، فقد أعلنت السلطة البريطانية العفو عن جميع المعتقلين والمبعدين والنازحين، وأنا أحسب أن قضية الوحدة ستطويها ظروف الحرب، فلقد أصبحت مخاوفنا تحوم حول وجودنا، قبل وحدتنا. . غير أن قضية الوحدة عادت لتطل برأسها ولكن رأسها هذه المرة في قبضة بريطانيا.

وحدث أن مضت الشهور «المجيدة» التي حقق فيها هتلر انتصاراته الكاسحة، وبدأ الفلك يدور دورته في صالح دول الحلفاء، فلقد قضت بريطانيا على ثورة رشيد عالي في العراق، واحتلت القوات البريطانية سوريا ولبنان بعد أن انتزعتهما من السلطة الإفرنسية (حكومة فيشي) وأصبحت بريطانيا صاحبة الشأن في البلاد العربية باستثناء السعودية واليمن.

وعلى الصعيد العالمي فقد حقق الحلفاء انتصارات بارزة في مختلف الجبهات. . ولكن. . ولكن الرأي العام العربي لم يكن مع الحلفاء، خلافاً لتصريحات الحكام العرب الذين أعلنوا انضمامهم إلى الحلفاء. . كان الرأي العام العربي مع هتلر، والناس يدعون له بالنصر في المساجد والشوارع والبيوت، وكنت أنا من الذين يدعون له في البيوت.

وأرادت بريطانيا أن تجتذب إليها الرأي العام العربي فلم تجد إلا أن تداعب أحلى أحلامهم، وهل أحلى وأعز من الوحدة.

وفي ربيع ١٩٤١ دق جرس التليفون في منزلي بعكا، ليقول سكرتير الحاكم البريطاني: «إنّ المستر ما كلفري سيكون عندك في البيت غداً في المساء». . ودهشت لهذه المفاجأة ولكنها كانت هكذا، أمر واقع. . وفي اليوم التالي جاءني الحاكم البريطاني المستر ماكلفري وتبادلنا السلام والتحية،

وقال: «إني مسرور أن يكون تعارفنا في هذه المناسبة السعيدة».

قلت: «وما هذه المناسبة السعيدة. . نحن في أيام هذه الحرب الطاحنة، وما عسى أن تكون هذه المناسبة السعيدة؟»

قال: «إنّ الحكومة البريطانية تريد أن تعاونكم على إقامة الوحدة العربية».

قلت: «وكيف؟»

قال: «لقد أعلن وزير خارجيتنا المستر إيدن في مجلس العموم تأييدنا مساعيكم نحو الهدف، ولا ينبغي أن نغفل الرد على هذا البيان التاريخي».

وأخرج من جيبه نص التصريح فأخذت أقرأ:

«إنّ لبريطانيا تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب، وهي صداقة قد أثبتتها الأعمال وليس الأقوال وحدها، ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير، كما أن لهم هنا أصدقاء كثيرين، وقد قلت منذ أيام في مجلس العموم إنّ حكومة جلالته تعطف كثيراً على أماني سوريا في الاستقلال. وأود أن أكرر ذلك الآن، ولكن سأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنّ العالم العربي قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التي تمت عقب الحرب الماضية، ويرجو كثير من مفكري العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكبر مما تتمتع به الآن . . . وإنّ العرب ليتطلعون إلى نيل تأييدنا في مساعيهم نحو هذا الهدف، ولا ينبغي أن نغفل الرد على هذا الطلب من جانب أصدقائنا . . ويبدو أنه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية، وكذلك الروابط السياسية أيضاً . . وحكومة جلالته سوف تبذل تأييدها لأي خطة تلقى موافقة عامة».

«وما أن فرغت من قراءة البيان حتى بادرني الحاكم البريطاني بالسؤال:

«وما رأيك في بيان وزير خارجيتنا، إنّه بيان عظيم، أليس كذلك؟؟»

قلت: «وما الذي أعجبك في هذا البيان؟»

قال: «أنا من أصدقاء العرب، وقد عملت في بلاد عربية كثيرة، وأعتقد أن هذا البيان سيخدم القضية العربية، وكل ما نرجوه أن ننتصر في هذه الحرب على دول المحور حتى تستطيع حكومتنا أن تنفذ هذا البيان».

قلت: «وهل تريدون أن تنتصروا لتنفذوا هذا البيان؟؟»

قال: «طبعاً، لا، ولكنه سيكون من أغراضنا الرئيسية، غير أني أرجو أن أسمع رأيك بصراحة، وأنا أعلم أنك لست صديقاً لنا، ونريد أن نعرف رأي الجميع».

قلت: «سأقول لك رأي الجميع، ولا أعتقد أن رأي أصدقائكم له أي قيمة في هذا الموضوع . . لأن الشعب في واد وأصدقاؤكم في واد».

قال: «وما هو رأي الشعب في نظرك . .».

قلت: «لقد سمعنا هذا البيان بالإذاعة منذ بضعة أيام، ولم يحرك اهتمام الشعب، من قريب أو من بعيد».

قال: «ولماذا؟ إن البيان يتحدث عن الوحدة العربية . . وهذا هو أعظم آمالكم . .».

قلت: «نعم، الوحدة أعظم آمالنا . . ولكن الشعب لا يثق بهذا البيان».

قال: «ولكن أريد أن أعرف السبب. أنا مكلف رسمياً أن أعرف رأي الشعب».

قلت: «إنه مضيعة للوقت أن نتحدث بتفصيل عن العلاقات العربية معكم في الحرب العالمية الأولى، إن قصة الشريف حسين ومراسلاته مع مكماهون معروفة.. يكفي أن نتيجتها بالنسبة إلى الوطن العربي كانت التجزئة والتقسيم، وبالنسبة إلى فلسطين كانت إنشاء الوطن القومي اليهودي. إن مراسلات حسين-مكماهون في الحرب الأولى أقوى من بيان وزيركم الآن، ونحن في الحرب الثانية».

قال: «وهل إذا وضعنا صيغة أقوى يكون الأمر مقبولاً؟»

قلت: «إن الموضوع لا يتصل بالصيغة، إنها الثقة، وهذه مفقودة بين بريطانيا والشعوب العربية».

قال: «وما الذي يعيد الثقة، أليس موقفنا من الوحدة العربية كافياً؟»

قلت: «بعد الحرب العالمية الأولى عملتم على التجزئة، وبعد الحرب العالمية الثانية تريدون أن تعملوا للوحدة!! ولكن وحدة تقيمونها كما تشاءون..».

قال: «ولكن ما هو الدليل الذي تريدونه لإثبات حسن نيتنا؟»

قلت: «أن توافقوا على استقلال فلسطين وإقامة حكومة فلسطينية، وستكون حكومتنا مع الحكومات العربية الأخرى، مصر والعراق والسعودية واليمن وإمارة شرق الأردن، على استعداد لإعلان الحرب على دول المحور والانضمام إلى صف الحلفاء، تماماً كما فعل الشريف حسين في الحرب العالمية الأولى..».

قال: «ولكن اليهود يرفضون».

قلت: «إذن تحالفوا مع اليهود.. ونحن لا حلف بيننا وبينكم».

قال: «والوحدة العربية؟»

قلت: «اتركوا الوحدة العربية وشأنها.. ونحن كفيلون بإنشائها وحدنا..».

وطال الحوار بيننا على هذا المنوال، وخرج الحاكم البريطاني من منزلي وهو يقول: «إن أصدقاءنا في مصر والعراق والأردن والبلاد العربية الأخرى يتجاوبون معنا، وسنتعاون معهم على إنشاء الوحدة العربية».

قلت: «المستقبل وحده هو الذي سيكشف كل شيء..».

وتواترت الأخبار بعد ذلك عن لقاءات واجتماعات تمت بين حكام العرب آنذاك وسفراء بريطانيا العظمى في العواصم العربية بصدد موضوع الوحدة العربية،

ووثب الأمير عبد الله من عمان في حملة كبرى معززة بالخطب، والرسل، والاجتماعات، والأموال، للدعوة لمشروع سوريا الكبرى.. ونشط نوري السعيد رئيس وزراء العراق في الطواف على البلاد العربية.. يتصل بزعمائها داعياً إلى مشروع آخر، الهلال الخصيب.

ولم يغفل نوري السعيد عن زيارة فلسطين، فهو يعلم أثر القضية الفلسطينية، في أي مشروع عربي.. وجاء إلى حيفا في ربيع ١٩٤٢ ونزل في المصح الألماني في جبل الكرمل، مدعياً أنه جاء إلى فلسطين للاستجمام.. وهكذا أذاعت وكالات الأنباء.. وهكذا قالت الصحف!!

وكان أن أقيمت له حفلة شاي في بيت إبراهيم صهيون من أعيان حيفا، جمعت نخبة من الشباب والمثقفين وأصحاب الرأي.. وانقلبت الحفلة إلى ندوة خطابية، وامتدح بعض المتكلمين «جهاد» نوري السعيد في الحرب العالمية الأولى في ثورة الشريف حسين.. وجعلت كلمتي في ختام الحفل حتى تجبّ ما قبلها..

وألقيت خطاباً مسهباً استعرضت فيه وعود بريطانيا للشريف حسين، وتصريحات الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وبعدها، والمظالم التي أنزلتها بريطانيا في البلاد العربية عامة وفلسطين خاصة، وأنهيت كلامي وأنا أقول «نرحب بالجنرال»، نوري باشا، ونحن نريده أن يعمل على تسليحنا فإن اليهود ماضون في التسليح.. نريده أن يحصن ثغورنا فإنها ثغور العراق على البحر الأبيض المتوسط.. نريده.. نريده..».

وانقلب الأمر من حفلة شاي إلى حفلة وطنية، ولم يرد نوري باشا بشيء، وبقي معتصماً بالصمت على شيء من الابتسام... والتفت إلى المحامي صبحي الخضراء (صفد) وهو من الضباط الأحرار الذين التحقوا بثورة الشريف حسين وقال: «يا صبحي.. أنتظرك في المصح مع الشقيري غداً..».

وحملتنا السيارة في اليوم الثاني، على ذلك الطريق الفريد، الصاعد إلى جبل الكرمل، وخليج عكا على ميمنتنا والحدائق على ميسرتنا، ووجدنا «فخامة» الباشا في انتظارنا في الصالة.. ولم يكن في الفندق إلا رجال المباحث البريطانيين، فإن سيماهم لا تخطئ.. وأنا أعرفهم من شعرهم المهفهف، والجاكتة المخصرة، والبنطلون المشدود!!

وأخرج الباشا من محفظته ملفين، واحد لي وواحد لرفيقي..

وقال: «يا صبحي.. هذا الشقيري ما «يفتهم».. السياسة شيء.. والحماسة شيء آخر..».

وكان الملف يحتوي مشروعه الذي عرف في ما بعد «بالكتاب الأزرق» وقد قدمه إلى وزير الدولة البريطانية في القاهرة في عام ١٩٤٢ وهو يدعو إلى إنشاء سوريا الكبرى، على أن تدخل في اتحاد فدرالي مع العراق . .

قال: «إذا استطعنا أن نقنع بريطانيا بمساعدتنا فنكون قد حققنا حلمنا الذي حاربنا من أجله يا صبحي، أليس كذلك . . ؟؟».

قلت: «والسعودية واليمن؟»

قال: «لقد اتصلنا بهم . . هؤلاء بدو لا يصلحون لشيء . . »

قلت: «مصر؟»

قال: «لقد اتصلت بهم أيضاً هؤلاء فراعنة . . لا ينفعون لشيء».

قلت: «لو فرّ هؤلاء الفراعنة من العروبة لوجب علينا أن نمسك بتلابيبهم حتى نعيدهم إليها . . ».

قال: «ولكن مصر تحت الاحتلال البريطاني، ولا تملك زمام أمرها».

قلت: «ومن من العرب ليس تحت الاحتلال أو النفوذ البريطاني . . !!»

ومال نوري باشا إلى صبحي الخضراء وقال له: «يظهر أن صديقك لا يعرف المصريين جيداً . . »

فأجاب صبحي الخضراء قائلاً: «والله يا باشا . . المصريون مثلنا، فيهم ما فينا من الخير، فيهم ما فينا من الشر، ونحن وإياهم سواء».

وانتهى الحوار، وخرجنا من الصالة، ونوري باشا، يطقطق بالسبحة بين يديه، وهو يردد قول الشاعر:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود.

أنشد نوري باشا هذا البيت، وهو ينصب المبتدأ ويكسر الخبر . . وقلت له: «نعم ستبدي لك الأيام . . وسنرى ما ستبدي لك الأيام!!»

وخرجنا من الحديقة، ورجال المباحث البريطانية يسيرون معنا حتى السيارة. وأنا أقول لهم بالإنكليزية: «لسنا بحاجة إليكم. اذهبوا إلى فخامته. إنه في حاجة إليكم. ».

أيـام مـع: مصطفى النحاس، نوري السعيد، توفيق أبو الهدى، سعد الله الجابري والشيخ يوسف

كانت بريطانيا تخوض غمار الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) بكل سلاح . . وقد بذلت جهوداً ضخمة لتجعل الوحدة العربية واحداً من هذه الأسلحة . .

وقد بلغ من اهتمامها بالشؤون العربية في ذلك الوقت، أن عينت «وزير دولة» لشؤون الشرق الأوسط، وجعلت مقره القاهرة، وقد تعاقب على هذا المنصب . . «كيسي» . . «موين» . . والثاني هو الذي اغتاله الإرهابيون اليهود، في وضح النهار، وفي أبرز شوارع القاهرة . .

وكان في البلاد العربية نخبة من السفراء البريطانيين العارفين بالبلاد العربية، ليعاونوا وزير الدولة البريطانية . . والجماهير العربية تعرفهم بأسمائهم لما أبدوا من نشاطات وتحركات . . وكان منهم: كلايتون وسمارت في القاهرة، كورنواليس في بغداد . . والجنرال سبيرز في بيروت ودمشق . . أما في عمان فيكفي وجود كلوب باشا، قائد الجيش الأردني وصاحب الدور البارز في كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨، والحاكم الفعلي للمملكة الأردنية الهاشمية، لسنوات وسنوات!!

وكان شعور الرأي العام يتصاعد كل يوم تعاطفاً مع دول المحور، ألمانيا وإيطاليا، ويتزايد نقمة على الحلفاء . . وكل ما أفلح فيه هؤلاء السفراء الفرسان أن «سحبوا» إلى صفوف الحلفاء بعض الحكام العرب، يعربون عن تعاونهم وصداقتهم، ولكن بأَلْسِنة متلعثمة!!

ولم يفلح كذلك تصريح المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية (أيار/ مايو ١٩٤١) في تأييد الوحدة العربية، فقد تهاوى كلامه أمام تصريحات المراغي شيخ الأزهر حين أعلن «أننا لا ناقة لنا ولا جمل في هذه الحرب». فكان المثل الرائع للعالم الذي يقف في وجه السلطة والسلطان . .

ولما لم توافق القاهرة وبغداد على إعلان الحرب إلى جانب الحلفاء، لجأت بريطانيا العظمى إلى قوة السلاح فقضت على ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق (١٩٤١) وخلعت وزارة علي ماهر سنة (١٩٤٢) وجاءت حكومة الوفد برئاسة النحاس باشا.

وقدرت الحكومة البريطانية أن الظروف أصبحت مواتية لتعاود البحث في الوحدة العربية بصورة شاملة، فإن مشروع سوريا الكبرى الذي دعا إليه الأمير عبدالله وجد مقاومة عنيدة في سوريا ولبنان.. وكذلك فإن مشروع نوري السعيد «الهلال الخصيب».. فقد ظفر، بمعارضة عارمة في البلاد العربية كلها.. ولهذا عاد المستر إيدن، فأدلى (شباط/ فبراير ١٩٤٣) بتصريح قال فيه:

«إنّ الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية أو السياسية بينهم، ولكن من الجلي أن الخطوة الأولى لتحقيق أي مشروع يجب أن تأتي من جانب العرب أنفسهم.. والذي أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذي سينال استحساناً عاماً».

سمعت هذا التصريح بنصه الإنكليزي من إذاعة الشرق الأدنى وكان مركزها في «قبرص» وأحسست في قرارة نفسي بأن هذه هي دعوة مفتوحة للحكام العرب إلى أن يشرعوا في العمل.. للوحدة العربية!!

وقد جاء ظني في محله، فلم تمض ثلاثة أسابيع على تصريح وزير الخارجية البريطانية حتى ألقى النحاس باشا في مجلس الشيوخ المصري (آذار/ مارس سنة ١٩٤٣) بياناً قال فيه:

«منذ أعلن مستر إيدن تصريحه رأيت أن الطريقة المثلى هي أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية.. وعلينا أن نبدأ باستطلاع آراء الحكومات على حدة، ثم نبذل الجهود للتوفيق في ما بينها، ثم ندعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً في اجتماع ودي حتى يبدأ السعي للوحدة العربية بجبهة متحدة بالفعل.. فإذا تم التفاهم وجب أن يعقد في مصر مؤتمر لإكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه من القرارات محققاً الأغراض التي تنشدها الأمة العربية».

ونقلت وكالات الأنباء أن النحاس باشا قد وجه الدعوة إلى الحكومات العربية للتباحث معها، على حدة، وانطلق عنوان كبير، كنار في الهشيم، في جميع أرجاء الوطن العربي، وكان هذا العنوان: «مشاورات الوحدة العربية». وشاء القدر أن تكون لي، منذ ذلك الوقت، ذكريات ومذكرات عن الوحدة العربية، بعضها شقي، وبعضها سعيد..و أنا في حيرة، ما هي صفوة الحساب!!

في تموز/ يوليو من عام ١٩٤٣، كنت أصطاف في فندق بلودان الكبير، في ضاحية دمشق وأراد القدر أن أغادر تلك الروابي الشامخة، الفريدة بجفافها لأنغمر في رطوبة الإسكندرية قرابة ثلاثة أشهر بأيامها ولياليها.. فلقد استدعاني إلى دمشق السيد شكري القوتلي، رئيس الجمهورية السورية، وكانت لي به معرفة وطيدة في زياراته المتعددة لفلسطين، وإذا به يفاجئني قائلاً:

«النحاس باشا وجه دعوة للحكومات العربية للتشاور بشأن الوحدة العربية، وقد رأيت مع الإخوان أن نوفدك إلى الإسكندرية لتكون قريباً من هذه المباحثات، وتبعث إلينا بتقاريرك من حين إلى حين».

قلت: «يا «أبو حسان».. وماذا نرجو من هذه «الوحدة» العربية البريطانية».

قال: «إذا كنا لا نستطيع أن نجعلها خيراً، فلنبذل جهدنا أن لا تكون شراً.. أنت تعلم أن الأمير عبد الله يعمل لتحقيق سوريا الكبرى.. ونوري السعيد يعمل لإنشاء الهلال الخصيب.. ويكفينا ما أصابنا من الطرفين في الماضي، فلنعمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه للحاضر والمستقبل..».

قلت: «ولكن..».

قال: «لا أريد أن أسمع ولكن.. يجب أن نبادر إلى العمل قبل أن يفوتنا القطار..!!»

وفي اليوم التالي سافرت إلى حيفا ومنها بالقطار إلى القاهرة، وأنا أحمل كتاباً من السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية إلى «صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس وزراء ووزير خارجية المملكة المصرية، «باعتمادي مبعوثاً خاصاً، يتابع تفاصيل مشاورات الوحدة العربية مع الحكومات العربية الشقيقة، إلى أن يصل الوفد الرسمي للحكومة السورية.

ولم تكن ليالي القاهرة كالعهد بها، فقد كانت الحرارة على أشدها ولم أجد في فندق سميراميس على النيل مجالاً للنوم، فأسرعت بالفرار إلى الإسكندرية، وقضيت ليلتي في فندق سان استفانو أنعم بأنسامها الناعمة.. مثقلة بالرطوبة.. ولكنها أرحم من القاهرة على كل حال.

واستقبلني «رفعة الرئيس» في جناحه في فندق استفانو في اليوم الثاني لوصولي، هاشاً باشاً على طريقته المعروفة.. سلمته الرسالة.. فقرأها مسروراً، وهو يقول: «الرئيس القوتلي «ده» مجاهد عظيم «يا أهلاً وسهلاً.. يا مرحباً.. وأنت على الرحب والسعة، أنت تتصل بالخارجية بصلاح الدين (سكرتير عام مجلس الوزراء) وهو

يبلغك كل شيء. . ويقدم لك جميع المحاضر والمذكرات. . يا مرحباً. . ».

وخرج «الرئيس الجليل» وشباب الوفد ينتظرون في الردهات، هذا يهتف بحياته، وذاك يقبل يده، والمرافق يرش «الكولونيا» على يدي رفعة الرئيس. .

وهكذا بدأت مهمتي الجديدة. . مبعوثاً خاصاً لمتابعة مشاورات الوحدة العربية.

وكان نوري السعيد أول الوافدين على مصر، ومعه بدأت مشاورات الوحدة العربية في قصر أنطونيادس بالإسكندرية، واستغرقت أسبوعين كاملين في أربع جلسات طويلة. . مع ما صاحبها من مذكرات مكتوبة ومحادثات شفوية. .

ومنذ بداية المباحثات بدت فروق واضحة بارزة بين الوفدين المصري والعراقي، فقد كان النحاس باشا ورفاقه من رجال القانون والسياسة، معهم خبراؤهم في الصياغة ومختلف الشؤون الدولية، وبين أيديهم دراسات عن أشكال الوحدة في العالم. . على حين كان فخامة رئيس وزراء العراق وحيداً إلا من مسدس تحت جاكته، وملف يحتوي مذكرة أو مذكرتين، يضاف إلى ذلك أن نوري السعيد لا يحسن الكلام، وقد وقع بين فرسان الكلام من رجالات مصر.

وكنت أتردد بين قصر أنطونيادس ومكاتب الخارجية خلال تلك المدة، لأجتمع مع «صاحب العزة محمد صلاح الدين بك» (الدكتور محمد صلاح الدين باشا وزير الخارجية في ما بعد) وأقف على مراحل المشاورات، واحدة بعد الأخرى. . وأبعث بالمحاضر إلى دمشق.

وكان نوري السعيد بدوره يتردد على السفير البريطاني «كليرن» واللورد «موين» وزير الدولة البريطانية لشؤون الشرق الأوسط في القاهرة، فقد كان نوري السعيد باعترافه في أحاديثه الخاصة وتصريحاته الصحافية من أصدقاء بريطانيا في العالم العربي، وها قد جاءت بريطانيا لتبني الوحدة العربية، فلم لا يسير مع القافلة. .

وكان نوري السعيد في صراع مع نفسه. . هو يريد تحقيق مشروع الهلال الخصيب، والإنكليز يريدون «تنظيماً» يشمل كل البلاد العربية، وليكن اسمه الوحدة العربية.

وكذلك كان الأمير (الملك) عبد الله، يريد سوريا الكبرى ليكون ملكاً عليها، والإنكليز يريدون أن يترابطوا مع الدول العربية جميعها، فلا يفلت أحد منها خارج الحظيرة. .

وكان الوفد المصري من جانبه حديث عهد بالقضية العربية، فقد ابتدأ النحاس

باشا مشاوراته مع نوري باشا بالبحث عن «مشروع» لإيجاد الوحدة العربية» على حد تعبيره، وهل تكون «حكومة مركزية إلى جانب الحكومات الإقليمية لكل أمة من الأمم العربية»، وكيف يمكن تكوين «اتحاد بين الأمم العربية».

كنت أقرأ هذه العبارات في محاضر المشاورات، وأنا في غرفة نومي، فيستبد بي الأرق حتى الفجر، وأنا لا أستطيع أن أهضم هذا الكلام عن «الأمم العربية»، وتساءلت في نفسي: «كم عدد هذه الأمم العربية، فقد عرفناها أمة واحدة، فما معنى الكلام عن الأمم العربية؟»

ومن البداية سقط مشروع إيجاد حكومة مركزية، كما تسقط حبة واحدة في سبحة «الكهرمان» التي لا تفارق يدي نوري السعيد، ذلك أن البحث وراء حكومة مركزية، كما قال نوري باشا هو «مضيعة للوقت» وهو الذي قضَّى من وقته ثلاثة أعوام طوال يعمل لإنشاء حكومة مركزية في نطاق الهلال الخصيب!!

وعلى هذا فقد استبعدت «الوحدة العربية» من مشاورات الوحدة العربية، من أول الطريق.. وكان هذا هو رأي النحاس باشا، ولكنه أرادها أن تخرج من فم نوري... وهذا هو الأسلوب العربي، الذي يعيش إلى يومنا هذا.

وفي الجلسة الختامية قدم نوري السعيد رسماً بيانياً لما يمكن أن تكون عليه الوحدة العربية، على صورتين: الأولى، مجلس اتحاد تنفيذي يكون له رئيس، وهيأة تنفيذية تكون لها سلطة تنفيذية تلتزم بها دول الاتحاد حتى لو كانت مخالفة لرأيها، والثانية، مجلس اتحادي تكون قراراته غير ملزمة إلا لمن يقبلها.

وكان نوري باشا حريصاً على أن لا يلتزم بأي من هاتين الصورتين تاركاً «لرفعة الرئيس أن يستطلع آراء بقية الدولة العربية».. وأضاف نوري باشا بأن العراق «يوافق على ما توافق عليه الدول العربية» فكانت هذه صيغة أخرى من الكلام العربي الذي يعيش معنا إلى اليوم..

يضاف إلى هذا أن نوري باشا قد انحلت عقدة لسانه.. وهو يغدق الثناء على رفعة النحاس باشا فقد أراد أن يشبع في النحاس باشا شهوة «الزعامة المقدسة للزعيم الأوحد» حتى يتحرك في أي إطار للوحدة العربية، على أن تدخل في النهاية دولة الهلال الخصيب.. مؤلفة من العراق وسوريا وشرق الأردن ولبنان وفلسطين، وحتى يتحقق المفهوم البريطاني الهاشمي للوحدة العربية..

وفي الجلسة الختامية التي تمت بين الرئيسين سأل رفعته فخامته:

«وما هي وجوه التعاون التي يصح أن تشترك فيها (الأمم العربية)؟»

قال نوري باشا: التعاون يتناول الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ويتناول كذلك حماية الأقليات!!.

وسأل النحاس باشا مندهشاً: «يعني «إيه» حماية الأقليات؟»

فأجاب نوري باشا: «يكون عندنا في دولة الهلال الخصيب اليهود في فلسطين، والموارنة في لبنان والآشوريين والأكراد في العراق!!»

وانتهت مباحثات الوحدة العربية بين النحاس باشا وهو يتحدث عن «الأمم العربية» ونوري باشا وهو يتحدث عن الأقليات العربية وغير العربية.. وكأنما بعث الشاعر العربي من مرقده ليقول: شتان بين مشرق ومغرب..

وأقام النحاس باشا حفلة شاي كبرى لنوري السعيد قبل عودته إلى بغداد.. وقد حضرها عدد كبير من المشتغلين بالقضية العربية وبدت كأنها مهرجان قومي.. ودخل النحاس باشا ونوري باشا طافحين بالبشر والسرور.. وسلمت مع المسلّمين.. أمسكني نوري السعيد بذراعي إلى زاوية في القاعة، وهمس في أذني:

«يا أحمد.. هذه الوحدة العربية «لقلقيات»، أخبر الرئيس القوتلي أن المصريين لا يريدون وحدة عربية.. إنهم يريدون أن يتزعموا على العرب.. ما في فايدة من هذه المشاورات.. أحسن طريقة أن تتفاهم العراق وسوريا.. و... و....».

قلت: «يا باشا.. العراق مَلَكية، وسوريا جمهورية.. العراق مرتبط بمعاهدة مع بريطانيا، وسوريا غير مرتبطة بأي معاهدة..»

ومر النحاس باشا بجانبنا فقال:

«ماذا يتحدث الباشا مع المبعوث السوري؟»

فقال نوري باشا متلعثماً: «نحن نبحث إمكانية قيام الحكومة المركزية!!»

فقال النحاس باشا: «رأي الشقيري إيه؟»

قلت: «أنا من أنصار فكرة الحكومة المركزية».

قال النحاس باشا: «ولكن نوري باشا غير موافق..»

وارتبك نوري باشا فقد توسعت حلقة الحاضرين.. وانتقل الحديث، كالعادة إلى الجو، وإلى صيف الإسكندرية وهوائها العليل..

ومن الحفل سافر نوري السعيد إلى بغداد يحمل تحت إبطه محاضر مشاورات

الوحدة العربية، مربوطاً بخيط رفيع مع ملف «الهلال الخصيب» ليجعله الهلال الجديب!!

وجاء دور إمارة شرق الأردن، فقدم إلى الإسكندرية توفيق أبو الهدى باشا رئيس وزرائها . . وكان مثله مثل نوري باشا، فقد جاء الرئيس الأردني وحده يرافقه سليمان سكر، «مساعد مدير عام الجمارك بحكومة الأردن» كسكرتير خاص لدولة توفيق أبو الهدى باشا، وهكذا وصفته المحاضر الرسمية!!

أما وفد مصر فكان فيه بالإضافة إلى النحاس باشا، أحمد نجيب الهلالي باشا، وزير المعارف، العالم السياسي الأديب، ومعه محمد صلاح الدين سكرتير عام مجلس الوزراء. .

ولم يكن توفيق أبو الهدى غريباً عني، فهو من بلدي من عائلة معروفة في عكا، وقريبي عن طريق زوجتي، وقد فرضت عليّ هذه الرابطة الاجتماعية أن أكون في استقباله في محطة سيدي جابر يوم وصوله إلى الإسكندرية، وأن «نتعازم» على العشاء في فندق سان استفانو، وقد عرفت ما في جعبته من خلال أحاديثنا الخاصة، أكثر مما عرفت من المحاضر السرية الخاصة، في السطور أو بين السطور!!

وقد استغرقت المشاورات بين النحاس باشا وأبو الهدى باشا، جلستين طويلتين وجلسة ثالثة شكلية، ولم تزد كلها عن أربعة أيام. . فقد كان كل شيء حاضراً في ذهن توفيق أبو الهدى، يعرض آراءه ويمضي في متابعتها بالبحث والمناقشة إلى النهاية. . على حين كان نوري السعيد على مدى خمسة عشر يوماً، يغير ويبدل، ويتعرج ويتراجع، كما رأى النحاس باشا غير مستريح إلى مشروع الهلال الخصيب. .

وفي الجلسة الأولى، وفي قصر أنطونيادس، بدأ الحديث عن الوحدة العربية بين الوفدين المصري والأردني، وراح النحاس باشا يشرح حرصه على جمع كلمة العرب «وإنّي معني من قديم بأحوال الأمة العربية والمعاونة على تحقيق آمالها في الحرية والاستقلال، سواء في ذلك أكنت في الحكم أم خارج الحكم»، وقد كرر هذا المعنى غير مرة مؤكداً عبارة «من قديم». . ذلك أن بعض الصحف المصرية كانت في ذلك الوقت تصف الوحدة العربية بأنها «وحدة إيدن». . وأن النحاس يسير في فلك السياسة البريطانية.

وبعد أن لخص النحاس باشا «وجوه التعاون» التي استعرضها مع نوري السعيد، الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية، وجه السؤال إلى توفيق باشا: «وهل تريد حكومة شرق الأردن الاشتراك في هذه الوجوه، كلها أو بعضها؟»

وقال توفيق باشا: «إنّ مصر دولة مستقلة، والعراق دولة مستقلة، ومن السهل أن يتفقا على التعاون في ما بينهما، وكذلك الحال بالنسبة إلى السعودية إذا شاءت.. ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى «الأقطار الأربعة» التي تتألف منها سوريا الكبرى: سوريا، شرق الأردن، فلسطين، لبنان.

وبدا تماماً للوهلة الأولى، أن توفيق باشا يعرض على النحاس باشا موضوع الوحدة السورية، قبل أن يبدي رأيه في الوحدة العربية.

فقال النحاس باشا: «أريد أن أعرف رأي دولتكم في هذا الموضوع وبالتفصيل.. فقد خاضت فيه الصحف كثيراً، كما قرأت تصريحات صاحب السمو الأمير عبد الله بصدده..».

فأخذ توفيق أبو الهدى يسرد على النحاس باشا، تاريخ «الأقطار الأربعة» في عهد الدولة العثمانية، ثم ما جرى بشأنها بعد نظام الانتدابات، وخلص من ذلك إلى القول إنّ «الأقطار الأربعة لم تظفر بعد باستقلالها فلا تزال عليها قيود تحدّ من حريتها.. وأنها بعد استكمال استقلالها فإنها ترمي إلى الاتحاد في ما بينها.. وبعد ذلك تدخل هذه المجموعة في الاتحاد العربي الذي يتألف من مصر والعراق واليمن والسعودية».

وفي كلمة موجزة فإن توفيق أبو الهدى كان يحاول أن يقنع النحاس باشا بإقامة اتحاد عربي خماسي تدخل فيه مصر والعراق وسوريا الكبرى والسعودية واليمن، على حين كان نوري باشا يدعو إلى اتحاد رباعي، جاعلاً سوريا الكبرى جزءاً من دولة الهلال الخصيب ومعها مصر والسعودية واليمن..

واستطرد توفيق باشا قائلاً: «وإني لأرجو رفعة الرئيس بما له من نفوذ شخصي بصفته صاحب الزعامتين في المملكة المصرية، على أن ننال نحن الأقطار الأربعة ما نصبو إليه.. فإن هذه الأقطار إذا بقيت مجزأة فلا يمكن أن تشترك في كل وجوه التعاون التي بحثتموها مع نوري باشا».

وكان على النحاس باشا أن يفهم من هذا الكلام أن أمير شرق الأردن يريد الوحدة السورية أولاً، والوحدة العربية ثانياً..

وفي مزيد من الإيضاح أضاف توفيق باشا حجتين لتأييد موقفه: الأولى عربية، والثانية بريطانية..

الحجة العربية الأولى: أن «الفلسطيني يرغب في الوحدة ليتخلص من الخطر اليهودي، والسوري لتتسع مملكته، والأردني حتى لا يبقى بلده معدماً فقيراً.. واللبناني لتكون له منافع كثيرة إذا اختار الاتحاد»..

وقد فات توفيق باشا في رأس هذه الأسانيد أن صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن يريد أن يكون صاحب الجلالة «ملك المملكة الهاشمية السورية»!!

أما الحجة البريطانية الثانية، فقد بسطها توفيق باشا بصراحة حين قال: «على أثر تصريح المستر إيدن جاءنا المستر لتلتون وزير الدولة البريطاني. . فأفضيت إليه بآمالنا في أن تساعدنا بريطانيا العظمى في موضوع الوحدة السورية. . وقد جاءنا الجواب بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف، إلى الوحدة وستعمل على مؤازرتها بعد انتهاء الحرب. .».

وفي مبالغة بالغة في إقناع النحاس باشا بهاتين الحجتين قال توفيق باشا: «نحن جميعاً نركن في تحقيق الوحدة السورية إلى رفعة النحاس باشا بصفته زعيم الأمم العربية. . وهذا هو رأي سمو الأمير وحكومته وشعبه».

وتهلل وجه النحاس باشا لهذا الثناء الرفيع، لصاحب المقام الرفيع، وسأل: «كيف ترون تحقيق الوحدة أو الاتحاد بين الأقطار الأربعة. . ؟؟»

أجاب توفيق باشا: «إذا اقتصر الحال على شرق الأردن وسوريا لسهل أمر الوحدة، لأن الاختلاف على نظام الحكم لا يكون سبباً لترك الوحدة. . وأعتقد أن السوريين لا يتأخرون عن تغيير نظام الحكم من أجل الوحدة فإنهم لا يضحون بالوحدة بسبب نظام الحكم. . ولكن الصعوبة تأتي في موضوع لبنان وفلسطين. .».

وسأل النحاس باشا: «وما رأيكم أنتم في نظام الحكم؟»

قال توفيق باشا: «أرى أن يكون النظام ملكياً. .!!»

وقال النحاس باشا: «ولكن النظام في سوريا جمهوري».

فأجاب توفيق باشا: «أنا أعلم أن الكثيرين من السوريين ميالون إلى النظام الملكي».

واستغرق توفيق باشا في حديث طويل عن الوفود السورية التي تؤم عمان من حين إلى حين لتعلن مبايعتها للأمير عبد الله، و. . و. .

وهنا رفعت الجلسة، فقد كانت طويلة، ولم يستوعب النحاس باشا التفاصيل الجزئية للمشاكل السورية، وصدر البلاغ المشترك عن مباحثات تلك الليلة، مشيراً إلى «جو المودة الصادقة والرغبة المتبادلة في الوصول إلى جمع كلمة الأمم العربية وتحقيق التعاون في ما بينها». .

وتناولنا العشاء سوية تلك الليلة، توفيق باشا وأنا، وقلت له من غير مقدمة:

«وهل اقتنع النحاس باشا بوجهة نظركم في سوريا الكبرى؟»

قال: «وهل أخبرك صلاح الدين بك؟»

قلت: «لا داعي لأن يخبرني أحد بما جرى.. إن رسائل الأمير عبد الله إلى الشعب السوري ومنشوراته تعلق على جدران المساجد في دمشق».

قال: «وهل أنت مخالف للوحدة السورية؟»

قلت: «إذا انتهت المعاهدة البريطانية مع شرق الأردن، فأنا مع الوحدة السورية، ويستفتى الشعب في نظام الحكم.. إن سوريا هي الدولة العربية الوحيدة من غير ارتباط مع الأجنبي.. فلماذا نكبلها بالمعاهدة البريطانية وقد خلصت من الحكم الإفرنسي بالأمس..».

وما هي إلا لحظة وعبر النحاس باشا في موكب فخيم إلى جناحه الخاص في الفندق فنهضنا مع الناهضين لتحيته فقال: «أرى دولة الرئيس مع المبعوث السوري..».

قلت: «الرئيس أبو الهدى وأنا من بلدة واحدة.. وكلانا من سوريا الجنوبية، نحن من مدينة عكا..»

قال: «وهل أنت موافق على سوريا الكبرى؟»

قلت: «موافق يا رفعة الرئيس... سوريا للشعب، والشعب لسوريا».

ولم يعلق رفعة الرئيس فقد كانت كل جوارحه مع المسلّمين والهاتفين، والمتزاحمين على تقبيل يديه..

وانعقدت الجلسة الثانية، بعد يومين، ليستوعب رفعة الرئيس موضوع سوريا الكبرى الذي اقحمه شرق الأردن على مباحثات الوحدة العربية..

وفي بداية الجلسة الثانية، طرح النحاس باشا السؤال: «أريد أن أتعرف رأي توفيق باشا في طريقة تكوين الوحدة السورية؟»

وألقى النحاس باشا كتفيه على كرسي الرئاسة الفخم، فقد دخل شهر رمضان، وحلا لرفعة الرئيس بعد وجبة الإفطار أن يستمع.. ومضى توفيق باشا يقول: «لقد فكرت ملياً في موضوع إعادة تأليف سوريا الكبرى فوجدت أن أحسن ترتيب عملي، إذا أمكن، هو تكوين وحدة من الأقطار الأربعة، فإذا اعترضت سبيل ذلك قضية

فلسطين أمكن إعطاء اليهود في فلسطين استقلالاً إدارياً . . وإذا قامت موانع دون الوحدة الشاملة أمكن تحقيق الوحدة بين سورية الصغيرة وشرق الأردن، ثم يكون اتحاد بينهما وبين فلسطين ولبنان . . أما عن نوع الاتحاد فلا أرى منه فائدة عملية إلا إذا كان على طراز الولايات المتحدة أو على طراز الاتحاد السويسري!!»

وأفاض توفيق باشا في شرح مصاعب السوريين مع فرنسا المنكسرة، ومع فرنسا الحرة، والمساعي التي بذلها أمير شرق الأردن لدعم استقلال سوريا تمهيداً لإنشاء سوريا الكبرى، وكشف عن مراسلاته واتصالاته بالحكومة البريطانية «بصفته مسؤولاً وصديقاً لبريطانيا».

كان النحاس باشا يصغي إلى هذا الحديث وكأنه في سهرة رمضان، ولكنه اعتدل في مجلسه «وخرج» من راحته، وسحب تمدده في كرسيه، حين راح توفيق باشا يقول: «وقد اقتنعت لندن بعد مخابراتنا بأن لا بأس من أن يعمل شرق الأردن للاتحاد مع سوريا . . وقد قبل الإنكليز أن نبحث ونفكر في إعداد مشروعات تكون جاهزة عندما تنتهي الحرب، أو عندما تسنح فرصة قبل نهايتها، وعلى هذا الأساس أعددنا بعض المشروعات . . ».

وكان الهلالي باشا يجلس خلف النحاس باشا، فدفع إليه ورقة تأملها النحاس باشا وأخذ يقرأ منها «يمكننا، إذاً أن نلخص موقف شرق الأردن بأنه يدعو إلى قيام وحدة من الأقطار الأربعة، والتغلب على العقبة التي قد تنشأ بسبب اليهود في فلسطين بإعطائهم استقلالاً إدارياً، فإذا لم تتيسر الوحدة الشاملة فيمكن تأليف وحدة من سوريا الصغيرة وشرق الأردن ثم يكون اتحاد منهما ومن فلسطين ولبنان . . ».

فقال توفيق باشا: «نعم هذا هو رأينا ملخصاً أحسن تلخيص».

وعاد النحاس باشا إلى سؤاله الذي طرحه في الجلسة الأولى قبل ثلاثة أيام: «وما هي أوجه التعاون التي يرغب شرق الأردن أن يشترك فيها مع الأمم العربية؟!»

وتحدث توفيق باشا طويلاً في هذا الموضوع مشيراً إلى علاقات شرق الأردن ببريطانيا، وأعلن أنه مستعد للتعاون السياسي بقدر محدود وأنه حين يتخلص من قيود المعاهدة البريطانية فإنه يتعاون في الأمور الخارجية تعاوناً تاماً . . وفي ما يتعلق بالنواحي الاقتصادية والثقافية والاجتماعية فإنه يرغب في تعاون كامل مع الأمم العربية . . ».

وسأل النحاس باشا: «وما هي أداة التعاون التي ترونها، وقد أوجزت لكم رأي نوري باشا في هذا الموضوع في الجلسة السابقة . . ».

فقال توفيق باشا على الفور: «نحن نستبعد الحكومة المركزية، ونوافق على الأداة التي توافق عليها البلاد العربية». . وهذه هي الصيغة العربية القديمة الجديدة، إجابة من غير استجابة!!

وانتهت الجلسة عند موقف واضح أعلنه شرق الأردن: حكومة مركزية للأقطار العربية الأربعة، ولكن. . استبعاد حكومة مركزية للدول العربية السبع. .

ولم تكن الجلسة الثالثة التي عقدت في اليوم التالي، إلا جلسة مجاملة، تلي فيها المحضر السابق، وشكر النحاس باشا لتوفيق باشا تصريحاته «الرقيقة الأخوية» التي أدلى بها إلى جريدتي **المقطم** و**الوفد المصري**، ثناء على رفعة الرئيس، «زعيم الأمم العربية». .

وصدر البيان المشترك عن المشاورات التي تمت بشأن «وحدة الأمم العربية وتعاونها واستعراض الوضع الحالي لشرق الأردن، ووضعه المأمول سواء في ما يتعلق بعلاقته بسوريا ولبنان وفلسطين، أو بعلاقته بسائر الأمم العربية».

ولقيت توفيق باشا أبو الهدى، مستبشراً ضاحكاً بكل وجهه، وقلّ أن يضحك حتى بشفتيه، وهو يقول لي: «لا بد أنك قرأت البلاغ المشترك. . لقد خطونا خطوة طيبة في موضوع سوريا الكبرى. .».

قلت له: «إن الكلمة في هذا الموضوع ليست للنحاس باشا، ستأتي غداً الوفود السعودية والسورية واللبنانية. . وستكون الكلمة الأخيرة للملك عبد العزيز، والرئيسين شكري القوتلي والشيخ بشارة الخوري، ولا يعدو أن تكون عبارة «الوضع المأمول» كلمة إنشائية. .».

وسافر توفيق باشا إلى عمان يحمل إلى الأمير عبد الله البلاغ المشترك وفيه العبارات والإشارات عن سوريا الكبرى، وهو يحسب أن المُلْك يُبنى بالبلاغات والكلمات. .

وبعد أيام وصل الوفد السعودي بكامل هيئته مؤلفاً من ثلاثة، الشيخ يوسف ياسين، ولحيته المصطبغة، وغمغمته المصطنعة، وكان هذا هو كل الوفد السعودي.

والشيخ يوسف ياسين (اللاذقية) واحد من رجالات العرب الذين التحقوا بخدمة الملك عبد العزيز آل سعود فراراً من الاستعمار، ومنهم الشيخ خالد القرقنّي والسيد بشير السعداوي (ليبيا) والسيد رشيد عالي الكيلاني (العراق) وفؤاد حمزة (لبنان) والدكتور مدحت شيخ الأرض (سوريا) ورشدي ملحس وجمال الحسيني (فلسطين) وكان الشيخ يوسف أقدمهم عهداً وأكثرهم تفانياً في خدمة المملكة العربية السعودية.

وبدأت المباحثات مع النحاس باشا في جو يسوده التكتم والحذر، عبر خمس جلسات متعاقبة، كانت أكثرها شفوية باعتراف المحاضر نفسها، والمكتوبة منها لا تتعدى بضعة أسطر.

ولم يخل يوم من لقائي مع الشيخ يوسف، إما في غرفته أو على مائدة الطعام وهو يردد لي قوله: «تستطيع أن تكون مطمئناً إلى سير المباحثات.. إن جلالة الملك عبد العزيز لا يوافق على سوريا الكبرى ولا على الهلال الخصيب.. وأن شكري بك يعرف كل شيء.. ويمكنك أن تكتب إليه أن المباحثات تسير على ما يرام..»

ولكن جو الحذر والكتمان الذي ساد المباحثات لم يحجب عني حقيقة الموقف، فقد كانت المملكة العربية السعودية تريد أن تفهم ماذا يريد النحاس باشا بهذه «الوحدة العربية» قبل أن تدلي بدلوها.. واكتفت في تلك المرحلة بعبارات عامة ذات معان خاصة، لا يفهمها إلا الذين يستطيعون الوصول إلى أغوار الشيخ يوسف.

ومن هذه العبارات «العمل لمصلحة الأمة العربية جمعاء، دون النظر لبعضها على حساب البعض الآخر.. وأن نتقي المخاطر والمشاكل التي تضر بالمصلحة العربية..».

ومن هذه العبارات «أن أمنية البلاد العربية السعودية أن تصل البلدان العربية لما فيه المصلحة لأي بلد عربي.. وبما لا يكون مضراً بمصلحة العرب وأصدقاء العرب..».

ومن هذه العبارات «أن أمنية البلاد العربية السعودية أن تصل البلدان العربية لما تتمناه من الهناء والسعادة».

ولكن الموقف السعودي لم يخل من وضوح حين أكد الشيخ يوسف ياسين في مباحثاته مع النحاس باشا أموراً أربعة..

أولاً: «لو أردنا مثلاً أن نجمع الأمة العربية كلها في دولة واحدة لتعارض ذلك مع الأوضاع القائمة، وقد ينشأ عنه صدام ليس لأحد مصلحة فيه».

ثانياً: «إن التعاون في المسائل الاقتصادية والثقافية لا نمانع فيه، عندما يكون ذلك في الإمكان ويكون الوقت ملائماً له».

ثالثاً: «نرى تأجيل البحث في التعاون السياسي في الوقت الحاضر إلى أن تتغير الظروف القائمة».

رابعاً: «جلالة الملك عبد العزيز، يتمنى للبلاد الشامية جمعاء كل خير في ظل حكمها الجمهوري القائم في سوريا ولبنان».

وانتهت المباحثات وأعرب الشيخ يوسف عن رغبته في أن لا يصدر أي بلاغ مشترك، فهذه على حد تعبيره «مباحثات أخوية والبلاغات المشتركة تتم بين الغرباء».

وسألت الشيخ يوسف قبل سفره: «وهل يمكنني أن ألخص موقفكم في أنكم ترون إرجاء موضوع الوحدة العربية في الوقت الحاضر، وأنكم تعارضون عمان وبغداد معاً في مشروعي الهلال الخصيب وسوريا الكبرى».

قال: «نعم هذا هو موقفنا، وإن جلالة الملك سيكتب إلى شكري بك القوتلي، بما يلزم..».

وقلت للشيخ يوسف وهو يهم بمغادرة الفندق قبل سفره: «لقد طلبت من النحاس باشا أن لا تفضي مشاورات الوحدة العربية إلى أي ضرر بمصلحة العرب، وأصدقاء العرب، فهل لك أن تذكر لي من هم أصدقاء العرب هؤلاء؟»

قال: «ولماذا تتغابى.. الإنكليز هم أصدقاؤنا.. بل وحلفاؤنا.. وأنت من هم أصدقاؤك وحلفاؤك؟؟»

قلت: «أصدقائي وحلفائي هم الألمان والطليان..».

قال: «لا تخطئ كما أخطأ صديقنا الحاج أمين.. ستهزم دول المحور. والحلفاء سينتصرون».

قلت: «أنت تعلم ماذا فعل الإنكليز في فلسطين».

قال (وهو يشد بكفيه على لحيته): «جلالة الملك عبد العزيز أخذ وعوداً قاطعة من الإنكليز والأمريكان بالوقوف إلى جانبنا في قضية فلسطين».

قلت: «لقد قالوا مثل هذا للشريف حسين أمير مكة في الحرب العالمية الأولى، وأنت يا شيخ يوسف كنت في خدمته..».

قال: «الظروف تغيرت.. عبد العزيز «مش» بسيط مثل الشريف حسين..».

قلت: «سنرى..».

ودخل الشيخ يوسف إلى السيارة، ودخلت معه لحيته المصطبغة، وغمغمته المصطنعة، وسافر إلى الملك عبد العزيز ليجلس القرفصاء بين يديه، ويحدث «طويل العمر» بما قال.. وما قالوا..

وفي أواخر تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٤٣ وصل الوفد السوري، فكان الوفد العربي الوحيد الذي يصل بكفاءة كاملة وهيأة شاملة، فقد كان فيه سعد الله

الجابري رئيس الوزراء، وجميل مردم وزير الخارجية، ونجيب الأرمنازي الأمين العام لرئاسة الجمهورية السورية، وصبري العسلي نائب دمشق، وعلي حيدر الركابي رئيس ديوان وزارة الخارجية السورية.

وقد حرص النحاس باشا في بداية المباحثات مع الوفد السوري على أمور ثلاثة:

أولاً: الترحيب الغامر بالوفد السوري، فقد كانت لسوريا سمعة مجيدة لدى الشعب المصري لما قامت به من الكفاح ضد الاستعمار الإفرنسي، وها قد تألفت الحكومة السورية من الدعاة إلى الوحدة العربية.

ثانياً: نفي التهمة التي أخذت تروجها بعض الصحف العربية من أن بريطانيا تقف وراء مشاورات الوحدة العربية، وأنها متفاهمة مع النحاس باشا في الأمر، ولهذا فقد حرص النحاس باشا على أن يعلن للوفد السوري أن اهتمامه بهذه المسائل «لا يقتصر على الوقت الذي أتولى فيه الحكم، بل أنا أهتم به سواء كنت في الحكم أو خارج الحكم».

ثالثاً: تحديد موقف مصر، فقد استغل الأمير عبد الله البلاغ المشترك الصادر عن المباحثات المصرية الأردنية وإشارته إلى «وضع الأردن المأمول في ما يتعلق بعلاقته بسوريا ولبنان وفلسطين»، وانطلق مؤيدوه في سوريا يعلنون أن مصر موافقة على مشروع سوريا الكبرى.

ولهذا، تصدى النحاس باشا، على خلاف طريقته في المشاورات مع وفود العراق والأردن والسعودية، فاستعرض مراحل المباحثات ولخص وجهات النظر ثم تطرق إلى موضوع «تحقيق الوحدة بين الأقطار الأربعة: سوريا، لبنان، الأردن وفلسطين» وقال: «لست أخفي عليكم أني أحسست بصعوبات تعترض تحقيق هذه الغاية.. فإن لكل قطر من هذه الأقطار كيانه ونظامه.. بعضها جمهورية، وبعضها إمارة.. وكيف نتغلب على الصعوبة الناشئة من امتيازات الموارنة في لبنان، ومركز اليهود في فلسطين».

ألقى النحاس باشا «قنبلته» محدداً موقف مصر بصورة عامة من مشروعات الهاشميين في بغداد وعمان، بالنسبة إلى الهلال الخصيب وسوريا الكبرى، تاركاً للوفد السوري أن يتحدث في ما يشاء، وقد مهد له الطريق لكي يتحدث كما يشاء!!

واسترسل سعد الله الجابري في ما يعرفه كل سوري عن تاريخ بلاد الشام في عهد الدولة العثمانية، وأنها وحدة جغرافية تمتد من طورس إلى رفح.. «وأن جبل لبنان كانت حدوده «فرن الشباك (بيروت) غرباً، والمعلّقة شرقاً، والبترون شمالاً،

وشمال صيدا جنوباً . . وأنه كان متصرفية «مديرية» ضمن الدولة العثمانية . . ومضى الجابري في سياق هذا التاريخ الطويل، والنحاس باشا يستوعب بعضه ولا يفهم بعضه الآخر . .

وبعد أن أشار الجابري إلى سلخ المناطق السورية : بعلبك ، والبقاع ، وطرابلس ، وصيدا ، وصور ، ومرجعيون عن سوريا وضمها إلى لبنان القديم . . انتقل إلى التحدث عن فلسطين وأسهب في موضوعها مشيراً إلى أن الإنكليز «قد احتلوها قبل غيرها من بلاد الشام».

ومد النحاس باشا رأسه ، ويده على أذنه ، حين وصل سعد الله الجابري ، إلى الأردن وهو يقول «وأما شرق الأردن فقد كانت في العهد العثماني مقاطعة تابعة لدمشق . . ولكن المؤتمر البريطاني الذي عقد سنة ١٩٢١ في فندق سميراميس في القاهرة برئاسة وزير المستعمرات المستر تشرشل ، قرر فصل شرق الأردن عن سوريا ، وإعلان الأمير عبد الله أميراً على البلاد».

ولم يتمالك النحاس باشا الصمت ، فسأل «في فندق سميراميس (بتاعنا) في القاهرة؟!»

فقال سعد الله الجابري ، نعم ، يا رفعة الرئيس ، في فندق سميراميس ، في القاهرة . . ».

وعاد سعد الله الجابري إلى حديثه عن الوحدة ، بحماسة صادقة مؤكداً أن «السوريين يريدون الوحدة . . ونحن من غير غرور ولا ادعاء . . نحن الجبل الذي حملنا أعباء الدعوة العربية التي كانت دمشق مبعثها ، فلا تستطيع عمان . . أن تحل محلها . . فدمشق هي التي حفظت الإسلام وهي . . وهي . . فدمشق إذاً لا تستطيع أن تتنازل عن مركزها . . وهي بالإضافة إلى ذلك جمهورية ، وتود أن تحافظ على نظامها . . ولا ترضى عن نظامها الجمهوري بديلاً» . .

وارتفع صوت سعد الله الجابري ، حين كان يتحدث عن فضائل النظام الجمهوري ، وكأنما يود النحاس باشا أن يخفت صوته على أرض المملكة المصرية العلوية . . مع أن الإشارات كانت منصرفة إلى العرشين في عمان وبغداد ، لا إلى العرش العلوي في القاهرة!!

وتعاقبت الجلسات الثلاث التالية في مباحثات تفصيلية عن «الوحدة العربية» ، النحاس باشا يقرأ أسئلة مكتوبة أمامه ، وسعد الله الجابري يجيب.

وتركز البحث مرة ثانية على الوحدة السورية فقال سعد الله الجابري : «إن

القضية السورية تحتل المكان الأول بين القضايا العربية. . إن توحيد سوريا هو الهدف الذي كنا نسعى إليه في الماضي. . غير أنه بعد مرور عشرين سنة أصبح لا بد من تبديل الأسلوب. . نحن نصر على دمشق كعاصمة، والنظام الجمهوري كأساس. . بالنسبة إلى سكان لبنان فأكثريتهم الساحقة يرغبون في الانضمام إلى سوريا. . ولكننا اعترفنا باستقلال لبنان خوفاً من الارتماء في أحضان فرنسا، وتفاهمنا مع رجال الحكم في لبنان بألا يسمحوا بالسيطرة على لبنان. . أما بشأن فلسطين فنحن نخشى من انتشار اليهود في سائر الأقطار العربية. . ونتمنى أن تخطو بريطانيا خطوة جديدة نافعة بأن تسمح للأجزاء الواقعة تحت سيطرتها، شرق الأردن، بالإفصاح عن رغبتها بحرية».

وختم سعد الله الجابري هذا الحديث عن الوحدة، وهو يردد النشيد المعروف:

بلاد العرب أوطاني   من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن   إلى مصر فتطوان

وكان الهلالي باشا، العالم الأديب، وراء النحاس باشا يهتز للشعر. . ولعلها كانت هذه هي المناسبة التي انطلقت خلالها بمصر الحكاية، صدقاً أو كذباً، التي تقول إن النحاس باشا سأل الهلالي باشا: «دي تطوان تبقى فين؟!»

ويبدو أن النحاس باشا قد «تخم» من الكلام عن الوحدة السورية في تلك الجلسات الطويلة، فعاد إلى الموضوع الأصلي وهو «الوحدة العربية» وطرح سؤاله التقليدي: «وما هي أداة التعاون التي تقترحونها لجمع كلمة (الأمم العربية)؟»

فتحدث سعد الله الجابري بإسهاب مسهب وختم بالقول: «إن سوريا تؤثر الحكومة المركزية، فإن تعذر ذلك فإننا نرضى أي اتحاد أو اتفاق أو حلف. . .».

وانتهت المباحثات مع الوفد السوري وصدر البلاغ المشترك بالعبارات المعتادة.

ووصل بعد ذلك الوفد اللبناني، فلم يكن فيه أحد من المسؤولين الكبار، فقد كان لبنان مشغولاً بالانتخابات النيابية وتأليف أول حكومة لبنانية، وجاء الوفد اللبناني إلى النحاس باشا حاملا إليه مذكرة فيها أفكار صغيرة لطيفة، كأطباق «المازة» اللبنانية صغيرة ولطيفة، وكانت خلاصتها: المحافظة على استقلال لبنان وضمان سيادته «وموقفه المتحفظ من الوحدة العربية» مع الرغبة في التعاون مع جميع الأقطار العربية على أساس السيادة والاستقلال.

وعاد الوفد اللبناني إلى بيروت بعد أن اطمأن أن المذكرة اللبنانية قد سجلت في محاضر الوحدة على أساس الاستقلال والتعاون الحر!!

وقد قضي عليّ أن أبقى عدة أيام أخرى، في الإسكندرية، انتظاراً لمجيء الوفد اليمني، لأطلع على ما عنده، أو في الأصح، على ما ليس عنده!!

وجرت مشاورات بين مصر واليمن.. فلم تكن شفوية ولا مكتوبة، ذلك أن المسكين السيد الكبسي، ممثل جلالة الإمام يحيى حميد الدين المتوكل على الله رب العالمين كما كان يختم رسائله، لم يكن عنده شيء يقوله..

وكل ما جاء في محضر المشاورات «أن اليمن ترحب بفكرة التعاون الثقافي والاقتصادي بين البلاد العربية بشرط أن تحتفظ كل دولة بسيادتها وحقوقها..».

وسافر الكبسي إلى صنعاء ليقدم تقريره إلى المتوكل على الله رب العالمين.

وسافرت إلى دمشق وقدمت تقريري إلى فخامة الرئيس شكري القوتلي، في عشرين صفحة كان آخرها.. «وهكذا ترون فخامتكم أن مشاورات الوحدة العربية قد تناولت كل شيء.. إلا الوحدة العربية.. وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

أحمد الشقيري المبعوث الشخصي لفخامتكم»

أيام مع: رياض الصلح، جميل مردم، والولد حسين

ولدت الجامعة العربية بعد حمل دام ثمانية عشر شهراً. . !! وتكفي هذه المدة أن تلد ولدين، ولكنها تمخضت وسنرى ما ولدت!!

في خريف ١٩٤٣ بدأت المشاورات الثنائية لإقامة الوحدة العربية بين الدول العربية السبع: مصر والعراق والسعودية واليمن وسوريا ولبنان وشرق الأردن.

وجاء خريف ١٩٤٤ ليشهد المباحثات الجماعية بين رؤساء الحكومات السبع. . ثم لتمتد إلى شتاء عام ١٩٤٥، وليطل بعدها الربيع (آذار/ مارس ١٩٤٥) حين انتهت مشاورات الوحدة العربية إلى «ولادة» الجامعة العربية.

وقد سرت في هذا الموكب من بدايته إلى نهايته وأنا أستمع إلى مخاض الولادة متعسرة حيناً، متعثرة حيناً آخر، تماماً كما كنت في صباي أستمع إلى الحوامل في «حارتنا» صارخات مستنجدات. . ولا مغيث ولا مجير، إلا ما تجري به المقادير!!

ففي ٢٥ أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٤٤ وفي مساء ذلك اليوم العليل، كان قصر أنطونيادس شعلة من نور، وكانت حدائقه تزدان بالمصابيح الكهربائية، وأصحاب الدولة والمعالي والسعادة والعزة رؤساء الوفود العربية يتبوؤن مقاعدهم الأنيقة في انتظار قدوم الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا.

وكنت أجلس في مقاعد الوفد السوري أستمع مع المستمعين إلى أنغام الموسيقى الشجية. . وأحسب أن مائة مليون عربي كانوا في تلك اللحظات يتوجهون بكل جوارحهم إلى قصر أنطونيادس، وهم يرون فيه مستودع آمالهم ومستقر أحلامهم. .

وكانت الحفلة على شرف الوفود العربية، وكانت المناسبة بداية المباحثات الرسمية لإقامة «الوحدة العربية»، وهذا هو الاسم البريطاني لما أصبح يعرف في ما بعد بالجامعة العربية. .

وأطل النحاس باشا وحوله الوزراء والمرافقون، وأطلت معه إشراقته،

وصعيديته الطيبة، وانطلقت «فرقة» الهتافين في الطرف الأيسر من الحديقة، تهتف للرئيس الجليل، وهو يرفع يديه الاثنتين بالشكر والتحية.

وكانت حفلة خطابية، ألقيت فيها خمس خطب، فقد تخلف عن الحضور وفدا السعودية واليمن. . وبدأ التهامس بين الحاضرين أين السعودية؟ وأين اليمن؟ ولكن أحداً لم يسأل أين فلسطين؟؟

وخطب النحاس باشا، فحمدت الله أن زعيم مصر الأول ورئيس حكومتها قد جاءت خطبته هذه المرة لتحسم الصراع القديم بين الفرعونية والعروبة، فأكد «الصلات الأخوية بين الدول العربية التي تقوم على روابط الأصل واللغة والطباع والتقاليد والآمال والآلام» فكان هذا أول توكيد رسمي تعلنه مصر تأييداً للقومية العربية، من غير أن يطلق عليها اسمها هذا. .

على أن خطاب الرئيس المصري، لم يخل من السجعات «الوفدية» المعروفة، فقد دعا إلى الإسراع في الخطى «حتى لا يفوتنا القطار فيحق علينا الخسار»، ولم يخلُ كذلك من العبارات الإنشائية التي ترضي تطلعات الجماهير. . فأشار إلى «مشروع الوحدة العربية» ولم يكن بين يديه حتى ذلك الحين، ولا بعد ذلك. . «مشروعٌ للوحدة العربية».

ووقف بعده سعد الله الجابري رئيس وزراء سوريا، وفي احمرار وجهه تمتلئ كل حماسة سوريا للوحدة العربية، فتلا خطاباً، اشترك في كتابته نجيب الأرمنازي أمين القصر الجمهوري وصبري العسلي نائب دمشق. . وقد حمل الخطاب «أماني الشام في وحدة قوية في السلم والحرب» كما نقل إلى الحفل الجامع موقف الرئيس القوتلي في «أن البلاد السورية تأبى أن يرتفع في سمائها لواء يعلو على لوائها إلا لواء الوحدة العربية»، وصفق الحاضرون تصفيقاً طويلاً، وأبصرت بالسيدين نوري السعيد وتوفيق أبو الهدى وكأنهما يتساءلان: ما معنى هذا الكلام في حفل الافتتاح!!

ثم جاء دور العراق، فوقف السيد حمدي الباجه جي رئيس وزراء العراق فألقى خطاباً يحمل كل آراء نوري السعيد، وكان في تلك الفترة عضواً في الوفد دون أن يكون في الحكم. . ذلك أن نوري السعيد كان يحكم العراق، في الحكم وخارج الحكم. . وقد بدأت كلمة العراق بالإشارة إلى «بزوغ فجر النهضة العربية في عهد ثورة المغفور له الملك حسين» فكانت تنبيها إلى الوفود العربية. . . أن الهاشميين هنا.

ولم يشأ توفيق أبو الهدى أن ينكشف بما انكشف له وفد العراق، فألقى خطاباً من سبعة أسطر، فابتدأ بالشكر وانتهى بالشكر، دون أن يقول شيئاً. . فقد كان توفيق باشا حريصاً أن يقول كل شيء، ولكن، داخل الغرف المقفلة، وبين يدي المحاضر السرية. . ذلك أن توفيق باشا أبو الهدى كان يصدر في رأيه في الوحدة العربية من

منطلق الولاء لبريطانيا . . ففي أول تموز/ يوليو ١٩٤١ حمل توفيق باشا إلى سمو الأمير (الملك) عبد الله قرار مجلس الوزراء الأردني الذي سجل فيه أن «التصريح الأخير على لسان المستر إيدن قد قوبل بالاغتباط والشكر من حكومة سموكم . . ولهذا فإن الموقف يتطلب جمع الكلمة في البلاد السورية على الولاء التام للحلفاء بحيث يثق الرأي العام بأن تحقيق أمانيه القومية منوط باضطراد الإخلاص والولاء للحلفاء . . ».

وفي مثل هذا الفلك يسبح كثير من حكام العرب، يتحدثون عن الوحدة العربية من منطلق الولاء لبريطانيا، وإن كان توفيق باشا أكثر منهم صراحة وصدقا . .

وكانت الكلمة الأخيرة لوفد لبنان، وبدا واضحاً أن لبنان جاء يشترك في مباحثات الوحدة العربية ليحصل من الدول العربية على ضمان أكيد لاستقلال لبنان بحدوده الحاضرة، مردداً العبارات اللبنانية التقليدية في أن لبنان لن يكون للاستعمار مقراً أو ممراً، وأن لبنان «لم يكن بين الأمم العربية إلا ابن العربية البار»، وقد ألقى خطاب لبنان سليم تقلا وزير خارجية لبنان، فقد اختار رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، وهو العربي الوحدوي القديم، أن يجيء هذا الكلام اللبناني على غير لسانه.

وانتهى حفل الافتتاح على النشيد الوطني لكل من لبنان وسوريا والأردن والعراق، وشرق الأردن . . وسرنا في طريقنا، رياض الصلح وأنا، من الحدائق إلى قاعة الاجتماعات، وسأل النحاس باشا . . «ازاي» النشيد الوطني لبلادكم؟»

قلت: «إنه متقن للغاية، يا رفعة الرئيس . . إنه خير من الأصل . . ».

قال: «وكيف خطاب لبنان؟»

قلت: «كان الفلاح الأميّ في بلاد الشام يرجو أحد جيرانه أن يكتب له كتاباً لأهله . . ويصر أن يكتب في نهاية الكتاب . . «هذا الكتاب كتابي، النص نصي، والحرف حرفي، والخط خطي، والسلام» . .

وقلت: «هذا حال دولة الرئيس الصلح، الخطاب خطابه، والنص نصه، والخط خطه وقد طلب إلى غيره أن يلقي خطاب لبنان».

فضحك النحاس باشا وقال: «الرئيس الصلح بارع جداً . . ولو كان عندنا في مصر لجعلته سكرتير الوفد. وكنا استرحنا من مكرم عبيد!!»

وحين بدأت الجلسة الرسمية استعمل رياض الصلح ذكاءه أول ما استعمله على النحاس باشا نفسه . . فقد تم توزيع محاضر المشاورات السرية على الوفود العربية، ورفع رياض بك يده ليسأل: «وأين المحضر الخاص برأي مصر؟؟».

فقال النحاس باشا (ببساطة): «ليس لدى مصر ما تلخصه، غير أننا سندلي حتماً عند المناقشة بآرائنا في جميع الموضوعات» وكان هذا الكلام البسيط ينبئ بالتكتيك المصري، فقد كان الموقف المصري جاهزاً في الملفات من الألف إلى الياء، ولكن النحاس باشا كان يريد أن يأتي كل شيء على لسان الوفود العربية، وأن يعرضه على الاجتماعات العربية على سبيل التوفيق بين الاختلافات والمتناقضات العربية، وما كان أكثرها!!

ولم تكن الجلسة الأولى جلسة عمل، بل كانت جلسة طرح فيها السؤال الكبير: وما العمل...؟ ما العمل مع السعودية واليمن؟.. فلم يصل وفدا السعودية واليمن، وكيف تبدأ مشاورات الوحدة العربية في غيابهما.. واستقر الرأي أن ترسل برقيتان إلى الملك عبد العزيز آل سعود، والإمام يحيى حميد الدين، بنص واحد يعرب فيهما رؤساء الحكومات العربية عن «الفراغ الذي تشعر به وفود الدول المجتمعة اليوم في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام لعدم وصول مندوبي جلالتكم..».

وهكذا انتهت جلسة العمل الأولى بإرسال برقية. ولكن البرقية إلى صنعاء لم ترسل من القاهرة، فلم تكن مواصلات سلكية أو لا سلكية بين صنعاء والقاهرة، فأرسلت إلى الديوان العالي للمملكة العربية السعودية في الرياض «لإرسالها إلى صنعاء»..

وعقدت الجلسة الثانية في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٤ فكانت جلسة أخرى من غير عمل.. فقد استمعت إلى السيد حسين الكبسي مندوب اليمن ليلقي كلمة يقول فيها أنه يحضر الاجتماع بوصفه «مستمعاً فقط»..

ولو اقتصر الأمر على «مستمعاً فقط» لهانت المصيبة لكن برقية الإمام يحيى كانت أشنع وأبشع، فقد جاء في جوابه إلى رؤساء الوفود العربية قوله «وقد أمرنا السيد حسين الكبسي بالحضور في المؤتمر التمهيدي بصفته مستمعا لسد الفراغ الذي أشرتم إليه في برقيتكم»..

وقد جلس الكبسي في مقعده، وجلست معه عمامته اليمانية، وجبته وحزامه، وجلس معه خنجره المذهب، ممتثلاً لأوامر الإمام في أن يكون مستمعاً فقط، فلا يتكلم إلا رداً للتحية، أو جواباً عن الصحة والعافية، وبهذا امتلأ الفراغ، ولم يعد مقعد اليمن شاغراً، فها هو السيد الكبسي هنا، بقامته وهامته وعمامته، وعجره وبجره وخنجره!!

وعقدت الجلسة الثالثة في أول تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٤، لتشهد الوفد السعودي ممثلاً بالشيخ يوسف ياسين، ومعه الشاعر الناثر خير الدين الزركلي، وقد أفرغ كل بلاغته في خطبة تلاها الشيخ يوسف ياسين بلهجة «منبرية» وقال فيها:

«أحيي هذا البلد العربي الأبي... مصر العزيزة، وجلالة عاهلها الأكبر مجدد

نهضتها ورافع لواء العمران والعرفان فيها . . كما أحيي مصطفى مصر» ثم أردف الشيخ يوسف يقول . . «قدمت إليكم من موطن العروبة وعرينها، من منشئها ومنبتها . . إن العروبة أم جامعة يتلألأ نور وحدتها، منبعثاً من البلاد التي أتشرف بأن أنطق بلسان مليكها» . . وغير ذلك من الكنايات والمجازات النابعة من علوم «البيان والبديع» فكانت خطبة نموذجية شقت الطريق، على مدى خمسة وعشرين عاماً، أمام الخطب الإنشائية البليغة التي ألقاها، السفراء والوزراء، ثم الملوك والرؤساء، ابتداء من اجتماعات الجامعة العربية إلى مؤتمرات القمة العتيدة . . ويا ويح مقامات الحريري وبديع الزمان الهمذاني . . !!

وتوالت بعد ذلك ست جلسات عمل واجهت فيها قضية الوحدة العربية ثرثرة وجرجرة وصرصرة لا مثيل لها.

وكان أول عمل قام به رياض الصلح، في أول جلسة عمل رسمية تشترك فيها الوفود العربية، أن أبدى تحفظاً «مهماً» على ما ورد في محاضر المشاورات، فقد اطلع على البيان الطويل الذي كان قد أدلى به في المحادثات الثنائية سعد الله الجابري رئيس وزراء سوريا . . من أن «لبنان جزء من سوريا، وأن صور، وصيدا وطرابلس، والبقاع وبعلبك ومرجعيون، قد سلخها الانتداب الإفرنسي عن سوريا وضمها إلى لبنان . .».

قرأ رياض الصلح هذا الكلام فوقع في صراع بين رياض العربي السوري الوحدوي، ورياض الصلح، رئيس الوزراء اللبناني الذي يشترك في مشاورات الوحدة لتثبيت «استقلال لبنان وسيادته بحدوده الحاضرة».

ولم يجد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، بداً عن التخلي عن رياض الصلح السوري الوحدوي، فأعلن في الاجتماع وهو يوجه حديثه إلى الوفد السوري أن «للبنان ملاحظات على الملخصات التي وزعت على أعضاء الوفود من الوجهتين التاريخية والسياسية، أحتفظ لنفسي بالحق في إبدائها» . . وكان رياض الصلح حصيفاً ولبقاً، فقد سجل هذا التحفظ في محضر الجلسة . . ولكنه لم يسرد تلك الملاحظات «التاريخية والسياسية» لا في تلك الجلسة ولا في غيرها من الجلسات!!

ولقد واجه المجتمعون منذ البداية، ما معنى كلمة «الوحدة» في مشاورات الوحدة . . وأدلى الرؤساء بآرائهم منتقلين من الغمغمة إلى الإيضاح . . إلى الإفصاح . . وكانت «الكرة» بيد رياض الصلح يلقيها على رؤساء الوفود واحداً واحداً . . فقد كانوا جميعاً لا يريدون أن يبدؤوا الحديث في الموضوع، وآثروا أن يتركوا القيادة لهذا اللبناني . . رياض الصلح . . الذي جاء ليدافع عن استقلال لبنان وحدود لبنان.

لقد كان رؤساء الوفود العربية في تلك الأيام، شأن خلفائهم في هذه الأيام،

يتكلمون بلسانين ولغتين ولهجتين. كانوا يتحدثون إلى الصحافة مؤكدين أن الوحدة العربية يجب قيامها من اليوم قبل الغد، وأن هذه هي عزيمة الأمة العربية وأن.. وأن.. أما في الاجتماعات الرسمية فكانوا يغمغمون ويتلعثمون. كانوا يخشون أن يسجل عليهم في المحاضر الرسمية أنهم لا يرغبون في الوحدة العربية أو أنهم لا يقدرون عليها. ومن هنا كانت لهفتهم أن يجدوا بينهم كبش الفداء ليلقوا على أكتافه كل الأحمال.

ولم يكن عسيراً عليهم أن يجدوا في رياض الصلح ذلك الكبش.. فهو الآن رئيس وزراء لبنان، ولبنان جاء إلى مشاورات الوحدة العربية على شرط واحد: استقلال لبنان بحدوده الحاضرة، أولاً وآخراً..

ونظر الوفود بعضهم إلى بعض، وبدأ الحوار بينهم طريفاً، وأنا أستمع إلى العبارات الناعمة، مغطاة بغلالات من الرقة والعذوبة... وقذف الهلالي باشا «الكرة» أولاً، ثم تبادلوا الكرة:

الهلالي باشا: (مصر) «أعتقد أن المصلحة تقتضي أن نبدأ بمناقشة أداة التعاون قبل البحث في مدى التعاون».

حمدي الباجه جي: (العراق) «لقد وصلنا إلى النقطة الحساسة الدقيقة، ومن المناسب أن نعرف رأي مصر.. الموضوع خطير».

النحاس باشا: «سنبدي رأينا في ما بعد.. ولكننا نفضل إبداءه على ضوء المناقشات!!»

رياض الصلح: «اسمحوا لي أن أبدي رأيي بكل صراحة... يجب أن نبحث قضية الاستقلال أولاً.. الاستقلال والوحدة لازم وملزوم.. نحن نحرص على استقلال لبنان.. ربما يكون قد تبادر لذهن البعض أن المقصود من الوحدة هو الإنقاص من استقلال أي بلد، فلو تقرر هذا الأمر لقضي على التعاون بيننا..»

سعد الله الجابري: «نحن في سوريا لا نرضى عن الوحدة بديلاً... أما وقد قضت الظروف أن تكون هناك دول عربية متعددة لشعب عربي واحد... فنحن مضطرون بحكم الظروف أن نبحث الأمر على هذا الضوء..».

رياض الصلح: «الذي أراه أنه عندما نشرع في إعداد الصيغ نبدأ بقضية الاستقلال أولاً.. من أجل تطمين الخواطر.. وأنا لو كنت ممثلاً لسوريا لتكلمت عن الوحدة العربية كما تكلم دولة سعد الله الجابري عن سوريا... وأرجو أن لا يقال إنّ لبنان هو العقبة الوحيدة في سبيل الوحدة العربية... لقد ارتأت دولتان عربيتان أعرق عروبة منا (اليمن والسعودية)، كما جاء في محاضر المشاورات،

أنهما تريدان تأجيل التعاون السياسي حتى تتغير الظروف القائمة».

الهلالي باشا: «كان مفهوماً لدينا جميعاً أننا دول مستقلة . . ».

نوري السعيد: «نعم نحن جميعاً مستقلون . . . ونرغب في زيادة التضامن والتعاون . . ».

النحاس باشا: «هل توافقون على استبعاد فكرة إنشاء الحكومة المركزية لكل البلاد العربية، وأن تحتفظ كل دولة باستقلالها وسيادتها . . ».

جميل مردم: «نريد أن نسأل رأي مصر أولاً . . . »

النحاس باشا: «إن مصر ترى استبعاد الوحدة . . نستبعد إنشاء الحكومة المركزية . . ».

جميل مردم: «يجب علينا أن نتعاون في ما بيننا مع احتفاظ كل دولة باستقلالها وسيادتها».

الشيخ يوسف ياسين: «ولماذا لا نكرر الاعتراف باستقلال الدول العربية جميعا؟»

صبري باشا أبو علم (مصر): «استقلال الدول العربية جميعاً هو أساس وجودنا ههنا . . ».

الشيخ يوسف ياسين: «ولماذا لا نكرر التأكيد على استقلال الدول العربية جميعاً؟»

وقال النحاس باشا: «لماذا نكرر التأكيد باستقلال دولنا . . إن التكرار في السياسة مدعاة إلى التشكيك».

وعاد الحوار على هذا المنوال بين رؤساء العرب، بين متردد وصريح، وأعلن النحاس باشا في النهاية «إذاً قد تقرر بإجماع الآراء بما في ذلك رأي مصر استبعاد تأليف حكومة مركزية للبلاد العربية كلها . . لمساسه باستقلال كل بلد . . وهي جميعاً تريد المحافظة على هذا الاستقلال» . .

ودارت عينان صغيرتان، في وجوه رؤساء الوفود العربية، وكانتا عيني الشيخ يوسف ياسين . .

فقال: «أقترح أن تكون مناقشاتنا وقراراتنا سرية!!»

فقالوا: «يجب أن تظل سرية ولا ينشر منها شيء».

وهكذا اتفقت كلمة الوفود العربية وفي ساعة واحدة من الزمن، على استبعاد فكرة الوحدة العربية من المشاورات على أن يظل اسمها «مشاورات الوحدة العربية»!!

وكان القرار جرعة مرّة، رأى الحاضرون معها أنه لا بد لهم من «استراحة قصيرة»، وكان كذلك، فقد خرجوا من القاعة، وقد عرضوا وجوههم الضاحكة على المصورين. . وكان مع كل وفد مجموعة من الصحافيين قدموا معهم ليغطوا أخبار المشاورات فاختلى رؤساء الوفود بصحافييهم ومراسليهم، وأدلى كل منهم بما عنده، وما أن انتهت هذه الخلوات، حتى راح كل صحافي يبرق إلى بلده: «كان اجتماع اليوم مهماً وحاسماً وخطيراً. . وقد بحث موضوع الوحدة العربية بصورة جدية تفصيلية، وقد أدلى وفدنا ببيانات فائقة، وأصر على قيام الوحدة مهما كلّف الأمر. . ولكن الدوائر المقربة من المؤتمر ألمحت إلى أن عدداً من الوفود العربية الأخرى لا توافق على مبدأ الوحدة وإنما تصر على التعاون والتنسيق. . ولكن وفدنا يصر على موقفه ويحاول إقناع الوفود المترددة بالموافقة على وجهة نظره في الوحدة».

وكان طبيعياً أن تنشر الصحف العربية في كل عاصمة عربية، أن حكومتها مع الوحدة. . وعلى الجماهير العربية أن تصدق. . وأن تقول آمين مع الضالين المضللين!!

وانتهت فترة الاستراحة، وعادت الوفود العربية إلى قاعة العمل، وأخذوا أماكنهم، وملفاتهم أمامهم وكان آخر ما سطروه: «تقرر بالإجماع استبعاد إنشاء الحكومة العربية المركزية».

وهنا بدأت مصر تدلي برأيها شيئاً فشيئاً، فقال الهلالي باشا، وكان هو العقل المفكر المدبّر للوفد المصري: «الخلاصة أن الإجماع منعقد على تكوين هيئة للأمم العربية، والخلاف هو هل يكون رأي هذه الهيأة ملزماً أو غير ملزم؟».

وهكذا بعد أن انحلت العقدة بانحلال الوحدة، دار الحوار حول العقدة الثانية: هل تكون القرارات ملزمة أو غير ملزمة، فكان إبهام، ثم غموض، ثم تلميح، ثم توضيح، وغدا كل وفد يرمي الكرة على صاحبه ثم يلقون بها جميعاً في وجه رياض الصلح رئيس وزراء لبنان، لتخرج على لسانه لا على لسانهم. . واستمعت مرة ثانية إلى الحوار الناعم، وإلى لعبة الكرة، يتقاذفونها وهم جلوس:

سعد الله الجابري: «أرى أن نعود إلى كلام دولة رياض بك الذي قاله عن الاستقلال. .».

جميل مردم: «أنا أرى أن يكون الإلزام في السياسة الخارجية. . إذا وحدناها. .».

رياض الصلح: «لأجل أن ننظر في الإلزام أو عدم الإلزام يجب أن ننظر في الموضوع. . وإذا كان لدى مصر مشروع يجمع بين آراء الجميع فنرجو عرضه علينا. . فلا يضيع الوقت. .».

نوري السعيد: «في المسائل التي يكون فيها مساس بكيان الدولة، يكون القرار غير ملزم. .».

رياض الصلح: «نريد مثلاً. .».

نوري السعيد: «مثلا لا يصح أن تتوجه بعض الدول العربية إلى اتجاه سياسي يضر بالدولة العربية الأخرى».

رياض الصلح: كأن نطلب الانتداب ثانية!!! وأنا أعود وأرجو مصر إذا كان لديها مشروع أن تعرضه علينا.

وهنا سحب النحاس باشا من ملفه ورقة بدأ يقرأ منها «تؤلف جامعة الدول العربية. . ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى مجلس جامعة الدول العربية. . وتكون قرارات المجلس ملزمة لمن يقبل بها. . و. . و. .»

وتحركت رواسب الوحدة في نفوس الوفد السوري، فاقترح جميل مردم أن تحل كلمة «حلف» محل «جامعة»، وثار جدل لغوي حول اللفظين اشترك فيه من يعرف اللغة ومن لا يعرفها، إلى أن تصدى السياسي العالم الهلالي باشا فقال:

«إن كلمة «جامعة» أقوى من كلمة «حلف» والعرب يستعملون كلمة جامعة لأداء معاني الارتباط الوثيق، فيقولون «الصلاة جامعة» و«يد الله مع الجماعة»، وسكت الوفد السوري، وسكت الآخرون، وأعلن سليم تقلا وزير خارجية لبنان «إن كلمة جامعة» موفقة جداً.

وأفاق نوري باشا على الصيغة المصرية التي تلاها النحاس باشا بإنشاء «جامعة الدول العربية المستقلة. . وأن قراراتها لا تلزم إلا من يقبلها، ورأى في ذلك أن مشروعي سوريا الكبرى والهلال الخصيب قد دفنا إلى الأبد، فعاد. . وفتح الموضوع مرة ثانية. . وتكلم طويلاً، مكرراً معيداً وهو يقول: «إني لا أزال أعتقد أنه إذا ما اتفق أصحاب الشأن يمكن تكوين وحدة. . وإذا رغب أهل الأقطار السورية في الوحدة، ما عدا فلسطين ولبنان، أو أرادوا تأليف حكومة مركزية لهم، فهذا يكون من شأنهم»، وانطلق الحوار من جديد. . بمداورات بارعة تارة، وغير بارعة تارة أخرى!!

جميل مردم: «نحن نرغب في تحقيق الوحدة السورية. . ولكنكم تعرفون ظروف لبنان. . وهناك قضية فلسطين، وشرق الأردن، وهما القطران اللذان نعتبرهما جزءاً من سوريا. . فلسطين تعرفون ظروفها الدولية. . أما شرق الأردن فقد كان متصرفية أو مديرية في سوريا. وهو الآن ما زال مقيداً بمعاهدة انتدابية مع بريطانيا».

توفيق أبو الهدى (بهدوء ومكر): أنا أؤيد دولة مردم بك، لأن شرق الأردن

يعتبر نفسه جزءاً من سوريا، ويسره أن يندمج في سوريا الكبرى في دولة واحدة. . وأقترح أن يحصل شيء من الاتصال بيننا وبين سوريا لنتباحث في هذه النقطة ونضع مشروعاً. . حتى إذا حان الوقت لم نتأخر في تنفيذه».

جميل مردم: «لا مانع عندي من هذا الاتصال. . ولكن هناك أسباب تحول دون الاتفاق. . إن أمر شرق الأردن ليس بيده».

قال جميل مردم هذا الكلام، وهو يثبت نظارته على أنفه الأقنى، تعلوه عينان نضاحتان، تشعان بذكاء دمشق. .

وكان الشيخ يوسف ياسين يصغي بعينيه وأذنيه إلى هذا الحوار الذي فجره نوري السعيد، فسحب عقاله وكوفيته عن جبهته، وألقى بنفسه في هذا الحوار الذي كان يدور عن سوريا الكبرى ورفع يده وصوته، سائلاً:

«لي سؤال أحب إبداءه لمناسبة الحديث الدائر بين توفيق باشا ومردم بك. . هل المقصود إيجاد حكومة مركزية للبلدين؟؟». .

أبو الهدى: «الموضوع هو إعداد فكرة للوحدة أو الاتحاد أو التعاون؟»

الشيخ يوسف: «هل يتناول البحث إيجاد حكومة مركزية بين البلدين؟؟»

جميل مردم: «نحن نرغب في ذلك».

أبو الهدى: «نحن نرغب في الوحدة، وسوريا كذلك. .».

الشيخ يوسف: «إذا قررتم إيجاد حكومة مركزية للبلدين، يهمنا معرفة شكلها؟»

جميل مردم: «نحن بكل صراحة جمهوريون».

رياض الصلح: «إن هذا الأمر يرجع إلى رغبة الأهالي. .».

واستراح الشيخ يوسف قليلاً، وعادت عيناه وأذناه إلى محاجرهما وقال: «لقد ذكرنا عند اعترافنا باستقلال سوريا بأنها جمهورية. .».

وهبطت على أجواء الجلسة سحابة من الراحة بعد لحظات من التوتر والقلق، فقد كان واضحاً أثناء المباحثات الثنائية التي جرت بين النحاس باشا والوفد السعودي، أن المملكة العربية السعودية تعارض في «سوريا الكبرى» «والهلال الخصيب» وأن بقاء كل من سوريا ولبنان دولتين مستقلتين وعلى أساس النظام الجمهوري، هو شرط أساسي لدخول المملكة العربية السعودية أية «هيئة» عربية مهما كان اسمها، وكائناً ما كان ميثاقها. .

ولكن نوري السعيد عاد لينبش الموضوع مرة ثانية وقال: «لا يحق لنا أن نتدخل في نظم الحكم».

فانتصب النحاس باشا من مجلسه وفي وجهه كل إمارات الجد وقال: «المسألة خطيرة. . ويجب التوضيح فيها، لأن لكل عضو منا أن يتحفظ. . وقد رأى سعادة الشيخ يوسف أن يتحفظ. . وأرجو أن يلاحظ أننا قد استبعدنا هذا النوع من النظام في علاقاتنا العامة. . و. . و. . . »

وهنا وجد جميل مردم في هذا الحديث تشجيعاً على المضي، فراح يقول: «بكل وضوح وصراحة نحن جمهوريون اليوم وغدا. . وسنظل جمهوريين».

فتهللت أسارير الشيخ يوسف ياسين، مندوب النظام الملكي لهذا الموقف الجمهوري، وقال:

«أشكر مردم بك على بيانه الذي أوضح ما أردت أن أستفسر عنه».

وسكت نوري باشا وتوفيق باشا. . وأغلق الموضوع، وفتح موضوع لبنان، وكان هذا سهلاً، وقد زاد من سهولته أن تولى زمام المبادرة رئيس وزراء سوريا، صاحب «الدعوى» في الأقضية الأربعة، بل وفي لبنان بأسره. . فطرح مشروع قرار تعلن الدول العربية بموجبه «احترامها لاستقلال لبنان وسيادته بحدوده الحاضرة»، فتمت الموافقة بالإجماع على المشروع، واستراح لبنان من «الدعوى» السورية القديمة وقد «سحبتها» سوريا بنفسها. . وأعلن رياض الصلح أن لبنان سيظل عربياً حراً مستقلاً، ولن يكون «للاستعمار مقراً ولا ممراً. . » وهو الشعار اللبناني الذي صاغه رياض الصلح في أوائل عهد الاستقلال.

واستشعر الرؤساء أن الاتفاق قد أصبح وشيكاً على إقامة جامعة الدول العربية، وارتأوا من «اللائق» واسترضاء للرأي العام العربي أن يستمعوا إلى السيد موسى العلمي، فكان قد وصل إلى الإسكندرية ليكون على مقربة من المشاورات، موفداً من قبل الأحزاب العربية في فلسطين. .

وهكذا كان، فقد نودي على السيد العلمي، فدخل القاعة ورحب به النحاس باشا استجابة لداعي الوحدة العربية، وألقى موسى العلمي بياناً مطولاً استعرض فيه قضية فلسطين من جوانبها المتعددة، مبرزاً الخطر الذي يتهدد عرب فلسطين بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة، والإرهاب اليهودي، وتقدم بمطالب الشعب الفلسطيني لمساندته بالمال والسلاح حفاظاً على عروبة فلسطين. .

وقد شكر النحاس باشا مندوب فلسطين، ولم يتعرض أحد لمطالب الشعب

الفلسطيني، بغير الوعود الإنشائية المعروفة، بالتأييد والمساندة من غير تأييد ولا مساندة.

ثم اقترح النحاس باشا، بعد أن تمت الموافقة «على إنشاء جامعة الدول العربية المستقلة» أن يعهد إلى لجنة فرعية بأن تضع «بروتوكولاً» يتضمن ميثاق الجامعة ونظامها.

والواقع أن البروتوكول كان جاهزاً، فقد أعدت مصر المشروع أثناء سير المشاورات، فنظرته اللجنة الفرعية بعد أن ناقشته مادة مادة، ووافقت عليه بالإجماع واقترحت (٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٤) موعداً لتوقيع «البروتوكول».

وعقد الاجتماع الختامي، وإذا بالنحاس باشا، يفتح الجلسة ببشرى «حلوة»، فيقول «أبشركم يا حضرات الزملاء المحترمين بأن سعادة زميلنا سعادة السيد حسين الكبسي تلقى اليوم برقية من حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى نصها كالآتي:

«من ملك اليمن يحيى إلى الولد حسين الكبسي. .

آمركم بالاشتراك في اللجنة التحضيرية مع مندوبي البلدان الشقيقة بشرط عدم التقيد بشيء إلا بعد العرض علينا لنوافق على ما نرى إن شاء الله، والله الموفق».

استمع الوفود إلى هذه البرقية «التوكلية» التي وصلت إلى «الولد» حسين الكبسي بعد أن انتهت اللجنة من أعمالها. . وأوشكوا أن يضحكوا، حين كاد النحاس باشا، وهو يقرأ البرقية، أن يقول «الود» حسين الكبسي، بدلاً عن «الولد حسين الكبسي».

ولكن الجو عاد وتجهم بعد الابتسامات الخفاف، والارتسامات اللطاف، حين دخل أحد موظفي الخارجية ووضع أمام النحاس باشا برقية عاجلة، وصلت في تلك اللحظة. . وكانت من سمو الأمير عبد الله أمير شرق الأردن. . فلم يسع النحاس باشا إلا أن يقرأها:

«صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي العام. . . الإسكندرية. .

بمناسبة قرب انتهاء عمل اللجنة التحضيرية لمؤتمر الوحدة العربية أرغب إلى رفعتكم واللجنة المحترمة قبول تحياتي وأطيب دعواتي لتوفيقهم في عملهم في البداية المرضية، والنهاية الخيّرة، وأقول إن الأمة العربية تدين بالوحدة وترضى بالاتحاد، وإنا لنرجو أن يتلو ذلك بعضه بعضاً، ما دامت النيات حسنة والأماني غير متفاوتة. . كبرهان على صدق النية في وحدة هذه الأقطار. . وفقكم الله للخير جميعاً مع التحية المكررة». التوقيع (عبد الله).

ولم تكن برقية الأمير عبد الله التي تصل في آخر اجتماع للجنة التحضيرية، في

حاجة إلى تفسير أو إيضاح، فقد فهم منها المؤتمرون أن الأمير عبد الله له ماض في سعيه للاتحاد «يتلو بعضه بعضاً» بالرغم من قيام جامعة الدول العربية!!

وكادت البرقية أن تفجر موضوع الاتحاد من جديد بعد أن طواه النحاس باشا قبل وصول البرقية بساعة واحدة. وسأل الشيخ يوسف: «وهل نعود إلى بحث الموضوع؟»

ورفع نوري باشا رأسه وقال: «إن برقية سمو الأمير عظيمة الأهمية وقد وصلتنا في الوقت المناسب..».

وتدخل رياض الصلح، وجميل مردم، كل يؤكد نظامه الجمهوري، وكادت الجلسة الختامية أن تنفرط عل غير اتفاق.. وتحرك الهلالي باشا من مقعده، ودفع ورقة إلى النحاس باشا، وقرأ النحاس باشا: «لا داعي لأن نتحدث طويلاً في أمر برقية سمو الأمير.. ولقد تلوتها عليكم لتأخذوا علماً بها، ولا أظن أن هنالك حاجة للرد عليها.. ونحن نكلف دولة أبو الهدى باشا حين عودته إلى عمان أن يبلغ سمو الأمير تحياتنا.. والموضوع انتهى.. وسنعود إلى الاجتماع مساء لتوقيع البروتوكول».

وأومأ الحاضرون برؤوسهم بالموافقة على هذا الحل، وانصرفوا انتظاراً للجلسة الختامية.

وخرجت من فندق سان استفانو قبل الموعد المحدد، في نزهة على شاطئ الإسكندرية، وكان البحر في أروع صفائه، وقد أرسلت الشمس خيوطاً ذهبية من أشعتها الفاتنة، وإذا بالهلالي باشا، السياسي العالم، يلوح بعصاه في وجهي وهو يقول بلهجته العربية المميزة:

«وهل وجدت الوحدة العربية على الشاطئ؟؟»

قلت: «نعم لقد وجدتها، وأقسم أني وجدتها على شاطئ البحر..»

قال: «أو تقسم على ذلك أيضاً؟»

قلت: «لقد وجدت أعظم أعلام الوحدة العربية على شاطئ الإسكندرية».

قال: «ومن هؤلاء الأعلام؟»

قلت: «هذا شاطئ سيدي بشر، وذلك شاطئ سيدي جابر، وبعده شاطئ الشاطبي، وما بشر وجابر والشاطبي إلا أكبر علماء الأندلس الذين نزلوا في الإسكندرية، وقضوا عمرهم فيها يؤلفون ويعظون ويدرسون حتى ماتوا في الإسكندرية، وهذه مساجدهم لا تزال تحمل أسماءهم في الإسكندرية.. أليست هذه هي الوحدة العربية قبل سبعمائة عام؟»

قال: «صدقت وعليك أن تضيف مسجد أبي العباس المرسي.. فهو من أولياء

الله، من مواليد الأندلس، ومن فقهاء المالكية العظام، ويتبارك الناس بضريحه في الإسكندرية . . ».

قلت: «إذا كانت هذه معالم الإسكندرية تشهد للوحدة العربية، في عهد القوافل والجمال، فلماذا لا تدخل الوحدة العربية إلى قصر انطونيادس، في عهد الطائرات؟»

قال (مستشهداً بالقرآن): ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾[١].

قلت: «ولكن القرآن يقول: ﴿**إن هذه أمتكم أمة واحدة**﴾[٢] . .

ونظر كل منا إلى ساعته، فقد حان الموعد، وافترقنا . .

وفي الساعة المحددة سارعت إلى جامعة فاروق الأول بالإسكندرية حيث مكان الاجتماع المخصص للتوقيع على «البروتوكول»، وكانت الجماهير تملأ الشوارع، تقودها فرقة الهتافين وهي تهتف، يعيش الزعيم الجليل، «تعيش الوحدة العربية».

ولكن الجماهير استمرت تهتف: يعيش الزعيم الجليل، تعيش الوحدة العربية، وكانت تتعالى هتافات الشعب كلما رأوا سيارات الوفود العربية تصل إلى مبنى الجامعة . . وكأنما تململ أمير الشعراء، شوقي، في مرقده فأشفق على الشعب المخدوع، فراح يتمتم:

يـــالـــه مـــن بـــبـــغـــاء   عـــقـــلـــه فـــي أذنـــيه

وفي الساعة المحددة اكتمل عقد الاجتماع وتعاقب «أصحاب الرفعة والدولة والمعالي والسعادة والعزة» على توقيع بروتوكول الجامعة العربية الذي عرف في المحاضر الرسمية «بروتوكول الإسكندرية بشأن مشاورات الوحدة العربية» . .

ولكن لم يوقعه الشيخ يوسف ياسين لأنه مفوض بالاشتراك لا بالتوقيع.

ولم يوقعه «الولد» حسين الكبسي لأنه مفوض بالاشتراك لا بالتوقيع.

ولم يوقعه كذلك من هو أعظم منهما، وأعظم من رؤساء الوفود الآخرين . .

أجل . . لم توقعه الوحدة العربية . .

ولم توقعه الأمة العربية.

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة البقرة،» الآية ١ .

(٢) المصدر نفسه، «سورة المؤمنون،» الآية ٥٢ .

أيام مع: النقراشي، سمير الرفاعي، عبد الحميد كرامي، هنري فرعون، فارس الخوري، وعزام...

في اليوم السابع من شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٤٤، وعلى هتاف الجماهير المنتشرة في ميادين الإسكندرية وشوارعها، وقع النحاس باشا ورؤساء الحكومات العربية بروتوكول الوحدة العربية. .

وفي اليوم الثامن من الشهر ذاته ومن العام نفسه، أقال الملك فاروق النحاس باشا ووزراءه، ووقع عبء «الوحدة العربية» في مصر على أكتاف وزارة مصرية جديدة مؤلفة من جميع الأحزاب، ما خلا حزب الوفد.ومضت أربعة أشهر في مراسلات بين القاهرة والعواصم العربية لتحديد موعد اجتماع اللجنة الفرعية المكلفة بوضع مشروع ميثاق الجامعة العربية. . تمهيداً لتقديمه إلى اللجنة التحضيرية العامة لإقراره من قبل المؤتمر العربي العام.

وأخيراً، وفي ١٤ شباط/ فبراير سنة ١٩٤٥، عقد اجتماع اللجنة الفرعية في دار وزارة الخارجية المصرية في القاهرة، ووفدت على مصر وجوه جديدة: سمير باشا الرفاعي رئيس وزراء شرق الأردن. . هنري فرعون وزير خارجية لبنان. . محمود فهمي النقراشي باشا، وزير الخارجية المصرية ومعه عبد الرحمن عزام ـ بك ـ الوزير المفوض بوزارة الخارجية المصرية.

وفي الموعد المحدد، وبصفتي الأولى المبعوث الشخصي للرئيس القوتلي، كنت في طريقي إلى دار وزارة الخارجية المصرية، مع جميل مردم بك وزير الخارجية السوري. وبدأ الاجتماع، وفيه من الوجوه القديمة، نوري السعيد ولم يكن رئيس وزراء ولكن نوري السعيد وكفى، كما كان فيه خير الدين الزركلي مستشار السفارة السعودية في القاهرة، والتحق به الشيخ يوسف ياسين في ما بعد. .

وافتتح النقراشي باشا الاجتماع بوصفه رئيساً للجلسة بخطاب يختلف عن الخطب الافتتاحية التي كان يلقيها النحاس باشا أثناء مشاورات الوحدة العربية في الإسكندرية . . فقد تحدث النقراشي باشا عن «اتحاد الشعوب العربية ومجدها ورسالتها» . . وعن «التعاون في ساحة الشعوب العربية، وعن الدول العربية المتحدة في الجامعة العربية» . . وكان واضحاً تماماً أن موضوع «الوحدة العربية» كنظام سياسي، ليس في ذهن المسؤولين في مصر، وأن على الدول العربية الأخرى أن تفهم ذلك جيداً، وبالتالي يجب على «الشعوب العربية» أن لا تطمع بأكثر من التعاون . . وكفى.

ولم يخطب أحد من رؤساء الوفود إلا اثنان: سمير الرفاعي رئيس وزراء الأردن، ألقى كلمة مجاملة ومودة وتحية، وهنري فرعون وزير خارجية لبنان، ألقى خطاباً حمله من لبنان يؤكد فيه الاتجاه اللبناني في «التقارب بين الأقطار العربية» وإنماء صلات المودة مع سائر الأقطار العربية . . وشق طريق التعاون بين الأقطار العربية، ولم يجد وزير الخارجية اللبنانية إذ ذاك حاجة إلى استبعاد «الوحدة العربية» «والحكومة العربية المركزية» فقد أعلنت الدول العربية في اجتماعها في الإسكندرية قبل ثلاثة أشهر «اعترافها باستقلال لبنان بحدوده الحاضرة».

ومع هذا فقد أطل شبح الوحدة على السيد هنري فرعون حين بدأ البحث في موضوع تمثيل فلسطين في الاجتماعات . . . فأغرق الجلسة أربع ساعات طوالاً في جدال ونقاش، واستمعت أنا الفلسطيني إلى حوار طويل عن تمثيل فلسطين، عن شرعيته وملاءمته وطريقته!! وتحدث الوزراء . .

جميل مردم: «يجب أن نبحث عن الطريقة التي نشرك بها معنا مندوب فلسطين بما يتفق مع بروتوكول الإسكندرية».

نوري السعيد: «لقد اشترك معنا السيد موسى العلمي في مشاورات الإسكندرية ولا أرى مانعاً من أن يشترك معنا في دراسة نظام الجامعة العربية».

خير الدين الزركلي: «لا أرى مانعاً من حضوره».

سمير الرفاعي: «إن عدم حضور مندوب فلسطين قد يساء فهمه أو يؤول تأويلاً آخر، وأرى أن يجلس معنا».

هنري فرعون: «إن شعور لبنان نحو فلسطين هو مثل شعوركم . . ولكن هل هذا العمل قانوني، إن فلسطين غير مستقلة ونحن دول مستقلة».

سمير الرفاعي: «لا أرى مانعاً من تمثيل فلسطين».

هنري فرعون: «إذا شئتم فلتمثل فلسطين ولكن بطريقة رسمية.. نحن نوافق ولكن بطريقة رسمية!!»

نوري السعيد: «فلسطين تحت الانتداب، وحكومتها أجنبية ولا يمكن أن تمثل معنا.. ولا يوجد مانع شرعي أو قانوني يحول دون حضور السيد العلمي معنا وهو يمثل جميع الأحزاب الفلسطينية».

هنري فرعون: «إن فلسطين تستطيع أن تدخل الجامعة بعد الاستقلال.. إن موسى العلمي يمثل جميع الأحزاب الفلسطينية، إلا أني أعتقد أن وجود دولة غير مستقلة معنا يضعف حجتنا في المستقبل في المجالات الدولية..!!»

سمير الرفاعي: «أرى أن يترك الباب مفتوحاً لكل قطر عربي للاشتراك في الجامعة، سواء كان مستقلاً أو غير ذلك».

هنري فرعون: «وهل إذا تقدم اليوم من يمثل مراكش أو الجزائر، وطلب الاشتراك معنا نستطيع قبوله؟؟»

النقراشي باشا: «أخشى أن يفسر عدم حضور السيد موسى العلمي مندوباً عن فلسطين بأننا قد أغفلنا قضية فلسطين..».

جميل مردم: «السيد موسى العلمي حضر معنا مباحثات الإسكندرية، ولم يوقع بروتوكول الإسكندرية ويمكن أن يشترك معنا الآن دون أن يوقع ميثاق الجامعة.. وبهذا نكون قد وفقنا بين الناحية الدولية التي أشار إليها هنري بك والناحية الواقعية، وبهذا نثبت للملأ مدى اهتمامنا بقضية فلسطين».

هنري فرعون: «وهل إذا وافقنا اليوم على دعوة مندوب فلسطين، نوافق غداً على دعوة مندوب مراكش والجزائر..؟»

وطال الأخذ والرد في هذا الموضوع، واقترح البعض حذف كل ما جاء في المحضر بصدد هذا الموضوع، واقترح آخرون صياغات متعددة:

يحضر السيد موسى العلمي شخصياً.. يحضر السيد موسى العلمي مندوب فلسطين، يحضر السيد موسى العلمي ممثل الأحزاب الفلسطينية، و... و... ثم رسا الخلاف على اتفاق، بأن يدعى «السيد موسى العلمي» بلا صفة ولا عنوان.. وأعلن هنري فرعون أن حضوره سيكون استشارياً..

ولقد صدر هذا القرار بعد أن أكدت بقية الوفود العربية لوزير خارجية لبنان أن هذا الاستثناء قاصر على فلسطين لما لها من أهمية خاصة.. وأن هذا.. الاستثناء لا

يطبق على الجزائر ومراكش. . وهكذا تم الاطمئنان. . على المخاوف الإفرنسية، والمصالح الإفرنسية!!

والواقع أن هذا الموقف من هنري فرعون لم يكن بدعاً في ذلك العهد، في أوائل الأربعينيات وما بعدها. . فقد كان عدد غير قليل من ساسة العرب موزعي الصداقة والولاء، هذا إلى جانب بريطانيا، ذاك إلى جانب فرنسا. . وذلك إلى جانب أمريكا. . وكان ذلك ينعكس على الاجتماعات العربية في الغرف المقفلة لسنين طويلة. . أما القومية العربية فكان يمثلها الشعب العربي نفسه لا في داخل هذه الاجتماعات، بل في الشارع.

وإني لأذكر في ذلك الاجتماع بالذات، أن أحد موظفي الخارجية المصرية قد دخل إلى قاعة الاجتماعات، ووضع أمام النقراشي باشا مظروفاً كبيراً، ففتحه ووزع ما فيه على الوفود العربية وقال:

«جاءني خطاب من وزير أمريكا المفوض في القاهرة أرسل معه نسخاً بالعربية لوثائق مؤتمر «دومبارتون اوكس» أتشرف بتوزيعها على حضراتكم للإفادة منها، وأعتقد أنكم تشاركوني في تقديم الشكر لجنابه على ما أبداه من اهتمام في إرسال هذه النسخ في الوقت المناسب».

وهذه «المقترحات» هي التي تم الاتفاق عليها في عام ١٩٤٤ في واشنطون في قاعة «دومبارتون اوكس»، بين ممثلي الولايات المتحدة والصين وأمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفياتي لإنشاء الأمم المتحدة، وسميت المقترحات في ذلك الوقت باسم القاعة التي عقدت فيها الاجتماعات.

وصدر القرار من الوفود العربية بشكر الولايات المتحدة. . . وكانت الوثائق التي أرسلها وزير أمريكا المفوض في القاهرة. . جاهزة باللغة العربية تتضمن مشروع ميثاق «الأمم المتحدة»، التي كانت إذ ذاك في حيز التفكير. . وهكذا أرادت أمريكا بهذه المبادرة أن توحي للحكومات العربية بأن ينشئوا جامعة الدول العربية على غرار الأمم المتحدة!!

ثم دخل موظف آخر يحمل ملفاً وضعه أمام الوفد المصري، فتناوله النقراشي وراح يقرأ برقية من جلالة الإمام يحيى حميد الدين بأن «حكومتنا ستقرر موضوع الاشتراك في الجامعة العربية مع التحفظات. . وأن توقيعنا للبروتوكول لا بد وأن يكون مقترناً ببعض التحفظ الذي نراه لازماً. . وما مانع عند الجماعة من الموافقة عليه. . و. . ».

كان النقراشي يقرأ تلك البرقية الطويلة، ويميل على السيد عبد الرحمن عزام لكي يشرح له بعض عباراتها وبخاصة عبارة «لا مانع عند الجماعة من الموافقة». . ثم يقوم عزام بدوره بالشرح اللازم. .

وأخذ النقراشي بعد ذلك يقرأ مذكرة من المملكة العربية السعودية بموافقتها على بروتوكول الإسكندرية وفيها التوكيد الجامع المانع بأن «تكافل العرب وتضامنهم ليس موجهاً إلى أية غاية عدائية نحو أية أمة أو دولة أو جماعة من الدول. . ويجب أن يكون مفهوماً من البداية، أن نظام سوريا ولبنان كجمهوريتين سيستمر، كما هو مفهوم أن استقلالهما متفق عليه. . ».

وقد تفرست في وجوه الوفود العربية، حين كان النقراشي باشا يقرأ التحفظات السعودية. . فكان الوفدان العراقي والأردني متجهمين، فإن المذكرة السعودية موجهة إلى شجب الهلال الخصيب ومشروع سوريا الكبرى. «وكظم» الوفدان السوري واللبناني سرورهما كأنما المذكرة السعودية لا تقول شيئاً. . أما النقراشي باشا فلم يبد على وجهه شيء من السرور أو الفتور، فهو إنسان يعرف كيف يحبس عواطفه، أمام هذه التيارات العربية، وهو يواجهها لأول مرة في حياته السياسية. .

وتوالت اجتماعات اللجنة بعد ذلك وبلغت ست عشرة جلسة امتدت حتى ٣ آذار/مارس ١٩٤٥، وكانت منصرفة خلالها إلى وضع مشروع ميثاق الجامعة العربية.

وقد وقعت خلال هذه الاجتماعات «أمور صغيرة» تشير إلى مستوى الحكم العربي في ذلك العهد، وما يزال حتى الآن كثير من هذه «الأمور الصغيرة» وعلى مقياس أكبر. .

من ذلك أنه حدث أثناء الاجتماعات أن انهالت على وزارة الخارجية المصرية أكداس من البرقيات من الوطن العربي ومن الخارج، وكلها تعرب عن الآمال العظام والأماني الجسام، وكان بين هذه برقيات من:

١ ـ اللجنة العليا للدفاع عن الجزائر

٢ ـ رابطة الدفاع عن مراكش.

٣ ـ رابطة الدفاع عن تونس.

٤ ـ جبهة الدفاع عن أفريقيا الشمالية.

٥ ـ العرب في أمريكا.

٦ ـ جامعة الصداقة العربية الكندية.

وقد ثار نوري السعيد، وأثار موضوع البرقيات في إحدى الجلسات وكان الحوار.. صغيراً وحقيراً:

نوري السعيد: «يجب أن نعمل ضمن اختصاصنا، نحن مجتمعون لنضع نظام الجامعة العربية، لا للنظر في البرقيات والرسائل.. إنه لا يجوز لنا أن نثبت برقيات في المحضر ونهمل أخرى قد يكون فيها فائدة.. وإذا جاءتنا برقيات، علينا أن نرفعها إلى هيئة المؤتمر بقرار، أو بدون قرار لينظر فيها!!»

جميل مردم: «أظن أن موضوع البرقيات داخل في اختصاصنا..».

سمير الرفاعي: «أنا لا أوافق.. يجب أن لا نتعدى اختصاصنا..».

نوري السعيد: «البرقيات قد تحتاج إلى رد، وهذا ليس من اختصاصنا، يجب أن نرفعها إلى المؤتمر العام!!»

يوسف ياسين: «أقترح الإشارة إلى جميع الرسائل في محضر الجلسة، ولا حاجة إلى إثبات نصها..».

هنري فرعون: «هذا رأي صواب..».

ولكن أحداً من هؤلاء الرؤساء لم يفصح عن سبب هذه الثورة التي شغلت حيزاً في المحاضر، ووقتاً ضائعاً كان يجب أن يصرف في «الوحدة العربية»، لا في إثارة موضوع البرقيات والرسائل..

لقد كان سبب هذه الثورة، ومن حق الأجيال أن تعلم، أن برقية جامعة الصداقة العربية الكندية، قد أثبت نصها الكامل في المحضر، على حين أن البرقيات الأخرى قد أشير إليها من غير إثبات النص!!

وكان «النص» في برقية جامعة الصداقة الكندية هو الذي أثار نوري باشا وثار معه بقية الزملاء العظام، فقد ورد في ختام البرقية، وهي موجهة إلى رئيس الوزارة المصرية أن «أنظار الدول الديمقراطية تتطلع إلى العهد العربي الجديد تحت زعامتكم».

«تحت زعامتكم»... هذا هو سبب الثورة، ثورة نوري السعيد ورفاقه الأكرمين..

وقد تخلف نوري السعيد غير مرة عن حضور الجلسات، بسبب هذه البرقية، وهل تثبت في المحضر أو لا تثبت. . إلى أن جاء يوم آخر. . وجاءت رسالة من السيد محمد إدريس المهدي السنوسي، وقد أصبح ملكاً في ما بعد، يقول فيها:

«إن بلادي الليبية التي تحررت، والآن بيد الإدارة العسكرية البريطانية الموقتة، والتي أتشرف بتقديم هذا لمعاليكم نيابة عنها، أتعشم بأن لا تحرم من أن تمثل بجامعة الوحدة العربية عند أول ما يمكنكم ذلك لأنها بلاد عربية، وشعب عربي جاهد وكافح كفاحاً مجيداً في سبيل حريته واستقلاله مدة ثلاثين عاماً، الشيء الذي هو معلوم لديكم من قديم وحديث».

وما أن انتهى النقراشي من قراءتها، حتى وقف نوري باشا على قدميه وهو يقول باللهجة العراقية:

«آغاتي. . هذه برقية معقولة. . ما فيها لا زعامتكم ولا رياستكم. . يجب إثباتها في المحضر!!»

وضحك النقراشي باشا والوفود الأخرى، بين جاد وساخر، وكانت «جامعة الوحدة العربية» التي أشار إليها السيد السنوسي. . من الساخرين. .

وفي مثل هذا الجو، وبهذه الروح، مضت المباحثات لوضع ميثاق للجامعة العربية. . وتقدم الوفد اللبناني بمشروع تولى السيد هنري فرعون عرضه وشرحه. . وبدأ يتكلم:

«لقد استبعدت الحكومات العربية في مباحثات الإسكندرية موضوع الوحدة وفكرة الحكومة المركزية، ولهذا فإن مشروعنا يقوم على أساس السيادة والاستقلال. . . . وعلى ذلك فنحن لا نوافق أن يكون للجامعة العربية شخصية دولية مستقلة. . هذا هو رأي العلماء والفقهاء. . ولا نوافق أن تتولى الجامعة العربية أي اختصاص إلزامي لأن ذلك يخل بسيادتنا. . ولا. . ولا. . وكل ما نوافق عليه هو التعاون بحرية واختيار، من غير إلزام ولا إجبار»!!

واستطرد هنري فرعون يقول: «أنا لا أقبل إعطاء الجامعة شخصية دولية، لقد جئت إلى هنا على أساس أن الجامعة ليست مؤسسة دولية. .»

وعلق الأعضاء على هذا الكلام بصورة عامة، وقدم نوري السعيد مشروعاً آخر للجامعة العربية. . وحصل نقاش حول إدماج المشروع العراقي بالمشروع اللبناني. .

واستقر الرأي أن يقرأ كل منهما مادة مادة، وأصبح الوزراء لجنة صياغة. . يتناقشون حول الألفاظ، من ذلك ما قاله نوري السعيد:

«أقترح أن نضع «إثبات الصلات» بدلاً عن «تثبيت الصلات» لأني سمعت من جملة علماء، ومنهم السنهوري بك أن «إثبات» غير «تثبيت»».

ومن ذلك أن المشروع اللبناني قد نص في أحد مواده «أن يكون مقر مجلس الجامعة الدائم في مصر، وله أن يجتمع صيفاً في لبنان. .»، فاقترح الشيخ يوسف ياسين أن يقال «في الصيف» بدلاً من «صيفاً» لأن هذا أصح في اللغة!!

ومنها أن هنري فرعون وضع نصاً يقول «إن الدخول في جامعة الدول العربية لا يمس استقلال الدولة التي تدخل فيها، ولا سيادتها سواء في الداخل أو في الخارج» وانشغل الاجتماع بهذا النص الهزيل، وزاد عليه نوري السعيد بتعديل هزيل آخر حين قال إن كلمة الدخول في الجامعة غير صحيحة، والأفضل أن نقول «الانضمام» إلى الجامعة، فزاد تعديلاً تافهاً على اقتراح تافه!!

ولم يكتف نوري السعيد بالبحث اللغوي وهو لا يفهمه، بل أصبح يبحث في شؤون الموظفين، فقد اقترح أن يكون للدول المشتركة في الجامعة موظفون في سكرتيرية الجامعة. . ووافقه على ذلك جميل مردم وسمير الرفاعي. . استحيى النقراشي باشا أن يتضمن ميثاق الجامعة مثل هذا النص، فقال «نكتفي أن نثبت هذا في المحضر دون ما حاجة إلى صياغة مادة خاصة، وعلى كل حال فإن مجلس الجامعة حين ينعقد لتنظيم أموره سيتولى هذا الأمر».

وتعاقبت الاجتماعات، ورؤساء الوفود يصوغون مشروع الميثاق مادة مادة، إلى أن انتهوا إلى اتفاق على «مشروع ميثاق الجامعة العربية» مؤلف من «اثنتين وعشرين مادة، مع ملحقين أحدهما خاص بفلسطين والآخر خاص بالبلاد العربية»، وتقرر رفع هذا المشروع إلى اللجنة التحضيرية العامة، لتنظره وتقرره، ومن ثم يعلنه المؤتمر العربي العام.

وفي الموعد المقرر، في ١٧ آذار/ مارس ١٩٤٥، تكاملت الوفود العربية بالرؤساء والوزراء والسفراء على شكل هيئة تحضيرية عامة، وشهدت القاهرة مرة أخرى تجمعاً عربياً كبيراً في سراي الزعفران في القاهرة، وسط حفاوة بالغة ومظاهرات حاشدة لا تتقنها غير مصر، فقد أصبحت من مهاراتها القومية.

وأجلت بصري في قاعة الاجتماعات فأبصرت بين الوفد المصري شخصيات ضخمة، منها عبد الحميد بدوي وزير الخارجية المصرية، ومحمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ، ومكرم عبيد باشا وزير المالية، ومحمد حافظ رمضان باشا وزير العدل، وعبد الرزاق أحمد السنهوري بك وزير المعارف، ولكل من هؤلاء تاريخ حافل في النضال المصري، فضلاً عن كفاءاتهم العلمية الفذة. .

أما الوفود العربية الأخرى فقد كانت الوجوه الجديدة فيها السيد عبد الحميد كرامي رئيس وزراء لبنان، والسيد أرشد العمري وزير خارجية العراق، والسيد سعيد المفتي وزير داخلية الأردن. . والسيد فارس الخوري رئيس وزراء سوريا. . والوجوه السابقة بقيت على حالها. .

وتخلف نوري السعيد عن الحضور فقد رأى أن الأمور تجري على غير هواه، وأراد أن يحتفظ لنفسه بحرية العمل في مشروعاته العربية واتجاهاته الدولية. . وقد أوضحها المستقبل في حلف بغداد، وقد دخل فيه مع إيران وتركيا وباكستان، بالإضافة إلى الإنكليز والأمريكان!!

وافتتح النقراشي باشا الاجتماع بخطاب ترحيبي تولى فيه الدفاع عن الحكومات العربية أمام غضبة الرأي العام العربي. . فقد كانت صيحات «الوحدويين» في الوطن العرب تتعالى. . تنتقد وتستنكر ذلك العمل العربي الهزيل تحت ستار الوحدة العربية، فأعلن النقراشي في كلمته «أن الميثاق هو الخطوة الأولى في سبيل تعاون أكمل واتحاد وثيق. .» ثم أردف قائلاً «نعم قد يكون لبعض الناس رأي في أن هذا المشروع لم يصل إلى المدى الذي يرجوه الرأي العام العربي، وتشرئب إليه أعناق أنصار الوحدة في الأقطار العربية كلها. . ولكن الجميع متفقون على أنه أداة تسمح بما يطمع إليه الجميع من تعاون واتحاد». .

وأغلقت الأبواب وخرج الصحافيون والمصورون، بعد هذا الدفاع الذي لم يثبت مع الأيام والأعوام، وبدأت اللجنة التحضيرية في إعداد مشروع ميثاق الجامعة بصورة نهائية. . فانعقدت جلستان طويلتان، للقراءات الأولى والثانية والثالثة لإقرار مشروع الميثاق.

وأخذ عبد الحميد بدوي باشا وهو الفقيه الدولي المعروف، يقرأ المشروع مادة مادة، والأعضاء من ورائه يعدلون ويبدلون. . ولكن في الكلمات والألفاظ. . إلى أن عيل صبر رئيس الجلسة النقراشي باشا فقال: إن مشروع الميثاق متفق عليه بيننا ولا تبقى إلا الصياغة. . وإن عبد الحميد بدوي باشا، هو خير من يرشدنا إلى

الصياغة المناسبة، وسكت الجميع. . إلا فارس الخوري رئيس الوزراء السوري فقد رفع يده ليقول:

«لقد تحدث مشروع الميثاق عن السعي للتنسيق السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، ولكنه لم يتحدث بشيء عن تنسيق التشريع وتوحيده بين البلاد العربية».

وخشي المجتمعون أن يكون هذا الكلام هو عودة إلى بحث موضوع «الوحدة»، وسوريا كانت دائماً هي التي تحمل «الملقط» لتحرك الجمر. . وثار الحوار من جديد، بين أصحاب الكفاءات القانونية، وسلطوا سوط القانون، ليحولوا دون وحدة القانون. . وكان مما قالوه:

حافظ رمضان باشا: «يصعب جدا توحيد التشريع. . ».

مكرم عبيد باشا: «هل من المصلحة أن تكون أنظمتنا الدستورية واحدة. . ؟»

عبد الحميد بدوي باشا: «إن وحدة التشريع ليست صورة من صور التعاون. . ».

السيد أرشد العمري: «أرى أن نترك هذا الموضوع الآن».

محمد حسين هيكل باشا: «إن التوحيد في التشريع يكون بين الدول التي تقوم على أسس مشتركة مثل الدول اللاتينية، أما الدول المشتركة في الجامعة فليست متحدة في أسس التشريع».

فارس الخوري: «ولماذا لا نسعى لنتحد في التشريع. . ؟!

ولم يجد هذا السؤال جواباً بين الحاضرين. . إلا من عبد الرحمن عزام فقد أسهب في الكلام في هذا الموضوع، مؤكداً أن الرأي العام العربي «يحن إلى هذه الفكرة حنيناً قوياً».

وانهزمت آخر محاولة ضئيلة للوحدة، وعاد عبد الحميد بدوي باشا يقرأ الميثاق مادة مادة.

وبعد أن فرغت الهيئة من تلاوة مواد الميثاق الخاصة «بالتنسيق» و«التعاون» بين الدول العربية، التفت النقراشي باشا، إلى وفد لبنان وقال «هذه هي المسائل التي تهم لبنان»، فقال السيد عبد الحميد كرامي: إن لبنان يريد دائماً أن يسير بجانبكم، وهو يعتبر نفسه من البلاد العربية ومن صميمها».

ولقد اعتبر هذا الكلام قوياً جداً. . . في ذلك العهد. . . فصفق الحاضرون

طويلاً، ومما جعل هذا التصفيق حاراً أن السيد عبد الحميد كرامي كان قد سبق وأعلن في البرلمان اللبناني «نحن الذين كنا نادي بالوحدة السورية والإمبراطورية العربية قد عدلنا الآن عن رأينا، وأردنا لبنان مستقلاً بحدوده الحاضرة، لا خوفاً من أحد، ولا مجاملة لأحد، بل عن عقيدة وطنية . . ».

والواقع أن السيد عبد الحميد كرامي قد جاء إلى تلك الاجتماعات وهو يريد أن يتعاون إلى أوسع مدى . . ففي معرض الجدال حول نصوص الميثاق أعلن قائلاً: «هناك فكرة منطبعة في الأذهان تقول إن لبنان هو الذي يتحمل مسؤولية النصوص المرنة في الميثاق، وأنا أقول إن لبنان مستعد أن يجاريكم في كل شيء، وأرجو أن لا تعتبروا أنه حجر عثرة في سبيل الوحدة العربية»، وقال في مناسبة أخرى «إن لبنان لا يثير جدلاً» . . فصفق الحاضرون مرة أخرى.

كما أنه الواقع مرة ثانية، أن الوفود العربية التي لم تكن تريد السير في نطاق الوحدة كانت «تتسلح» بلبنان، وكانت تقول في كل مناسبة، لا يمكن السير في الوحدة، أنتم تعرفون ظروف لبنان . . يجب أن لا يخرج لبنان من اليد . . . علينا أن نسير في سير أضعفنا . . . وغير ذلك من العبارات التي جعلت الوفود العربية أكثر «لبنانية» من رئيس جمهورية لبنان!!

هكذا كانوا يهربون من الوحدة ويلقون «اللعنة» على لبنان ويتمسحون بلبنان . . وأنه لولا لبنان لكانت الوحدة، وكانت الحكومة العربية الواحدة!!

واستأنفت اللجنة التحضيرية مسيرتها للوصول إلى «وحدة الألفاظ» لا إلى الوحدة السياسية . . ومن الطرائف التي ما تزال عالقة في ذاكرتي ذلك الحوار الطويل حول هذه الكلمة أو تلك . . مثلاً أن تكون عبارة «دعم هذه الروابط وتوطيدها» بدلاً من «توطيد الروابط ودعمها» . . وأن تكون كلمة «مستوفاة» بدلاً من كلمة «مستوفية»، و«تثبيتاً للعلاقات الوثيقة» بدلاً من «إثباتاً للعلاقات الوثيقة».

وانتهى مشروع الميثاق، وانتهى معه ملحقان: واحد لفلسطين وآخر للبلاد العربية غير المستقلة، ثم اقترح النقراشي باشا اختيار السيد عبد الرحمن عزام أميناً عاماً للجامعة العربية «وهو منكم وليس غريباً عنكم»، فدوت القاعة بالتصفيق . .

وفي النهاية تحدد يوم ٢٢ آذار/مارس موعداً لتجتمع اللجنة التحضيرية على شكل مؤتمر عربي عام لتوقيع الميثاق.

وفي عصر ذلك اليوم من ربيع القاهرة الزاهر. . كانت سراي الزعفران تخفق على سواريها أعلام الدول العربية السبع، والوفود العربية يدخلون إلى قاعة الاجتماع بعضهم بالطربوش الفاقع، وبعضهم حاسر الرأس الناصع، وهذا بالعمامة المكورة، وذاك بالعقال المائل، وذلك بالقبعة المحدبة. . وجاء دور الكلام، فأجادوا وما أفادوا.

فأعلن النقراشي باشا: (مصر) أنه يوم أغر مجيد يؤذن بميلاد جامعة الأمم العربية. . والميثاق وثيقة أصلها ثابت في الرأي العام، وفرعها باسق بيد الملوك الصيد والرؤساء الفخام. . ».

وأعلن فارس الخوري (سوريا): «أن سوريا التي كانت مبعثاً لأشعة العروبة. . مطمئنة إلى أن هذه البداية المتواضعة ستأخذ مجراها في طريق النمو إلى الوحدة».

وأعلن سمير الرفاعي (الأردن): «أنه منذ فجر النهضة العربية الحديثة التي رفع لواءها المغفور له جلالة الملك حسين. . عمل العرب على جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم. . »

وأعلن أرشد العمري (العراق): «أنه في غضون الحرب العالمية الأولى كان للرصاصة الأولى التي أطلقها الملك حسين بن علي دوي عظيم في العالم العربي. . وها نحن الآن نؤسس جامعة الدول العربية. . وأن هذا الميثاق هو الطلقة الثانية. . وسنسير جنباً إلى جنب مع حلفائنا لإحراز النصر. . »

وأعلن الشيخ يوسف ياسين (السعودية): في هذا اليوم الأغر المبجّل قد بنينا بيتاً لأمتنا في هذا الميثاق، جعلناه فسيح الأرجاء متسع الجوانب ليسعنا جميعاً. . وسنحيط هذا البيت بحصون من اجتماع كلمتنا، ومعاقل من حسن نيتنا، لنرد عنه كيد الكائدين ونحميه من عيون الحاسدين. . . »

وأعلن عبد الحميد كرامي (لبنان): «علينا أن نمجد في هذه الساعة المجاهدين الأولين في كل قطر من أقطار العرب، من استشهد منهم ومن كتبت له الحياة ليشهد هذا اليوم الأغر في تاريخ العرب».

وأعلن الإمام يحيى من خلال برقيته التي تليت في الاجتماع، فقال: «سيكون ما سترسلونه إلينا موضوع أتم العناية والتقدير إن شاء الله».

وكان عبد الرحمن عزام آخر المتكلمين فأعلن «أن الميثاق الذي أمضيتموه ليس إلا

عنواناً لميثاق غير مكتوب. . وإني أكرر الشكر لكم إذ تفضلتم فأكرمتموني بأن أكون حرفاً في هذا العنوان».

وأقبل رؤساء الوفود العربية على السجل المفتوح الدفتين، ليوقعوا ميثاق جامعة الدول العربية نيابة عن حكوماتهم، وسط مظاهر بالغة من الحماسة الرائعة. .

وفي اليوم الذي كان فيه الوفدان العراقي والأردني في سراي الزعفران يوقعان الميثاق ويلتزمان بأحكامه، بل لعله في الساعة ذاتها. . كانت الأسرة الهاشمية قد تجمعت من بغداد وعمان لتلتقي في الشونة، الأردن، تحت رياسة الأمير عبد الله أمير شرق الأردن. . لتبحث مستقبل الأسرة الهاشمية، ومستقبل المشروعات الهاشمية، أيهما أقرب وأيسر: سوريا الكبرى أم الهلال الخصيب. .؟ وما لنا وما للجامعة العربية!!

وهكذا أنشئت الجامعة العربية التي كانت الجماهير العربية تترقبها، منذ أن أعلن المستر إيدن وزير الخارجية البريطانية تصريحه الشهير عن الوحدة العربية في ربيع ١٩٤١.

وغادرت سراي الزعفران مع عبد الرحمن عزام في سيارته، وكانت الجماهير على طول الطريق تهزج وترقص، وتنشد وتهتف: «تعيش الوحدة العربية. .».

فقلت لعزام: «هل سمعت ماذا يريد الشعب؟»

قال: «هذا صحيح، ولكن أنت تعرف ظروف الحكومات العربية الرسمية. .».

قلت: «أنا أعرف. . ولست أطمع في قيام حكومة مركزية عربية الآن. . ولكن ميثاق الجامعة قد كرس التجزئة، وأرسى قواعد الانفصال».

قال: «وكيف؟»

قلت: «كل نصوص الميثاق. . وكل نشاطات الجامعة قائمة على أساس السيادة والاستقلال. . أي على أساس التجزئة والانفصال. . والقرارات إذا صدرت، يقبلها من يشاء ويرفضها من يشاء، ولا أظن أن الإنكليز يريدون جامعة عربية، خيراً من هذه لهم، وشراً من هذه علينا. .».

قال: «لا تكن متشائماً إلى هذا الحد. .».

قلت: «كان الله في عونك على هذا التفاؤل. .».

قال (وأنا أغادر السيارة إلى الفندق): «إنها خطوة.. الخطوة الأولى، نرجو أن تعقبها خطوات نحو الوحدة العربية الكاملة..».

قلت: «نعم إنها خطوة.. ولكن خطوة إلى الوراء!!»

قال غاضباً: «فال الله ولا فالك.. تفاءلوا بالخير تجدوه..».

ودخلت الفندق أترحم على أرواح الشهداء الذين سقطوا من أجل الوحدة العربية، ولم أكن أدري أن القدر يخبئ لي أن أكون أميناً عاماً مساعداً في هذه الجامعة العربية، وأن أكون زميلاً لعبد الرحمن عزام، وبعده لعبد الخالق حسونة.. لأرى بالأعمال، لا بالجدال، أن الجامعة العربية كانت على صعيد الوحدة، خطوة إلى الوراء..

ومن شاء أن يعلم، فليقرأ.. وليقرأ بفهم وإمعان..

فهذه مذكراتي وهذه ذكرياتي..

رحـم الله زعيـم مصـر العظيـم

قال: «وهل تحب الوحدة العربية؟»

قلت: «أحبها، إنها ليلاي وأنا مجنونها..».

قال: «وهل تريد أن تكون لك خطوة على طريقها؟»

قلت: «أعطيها كل جهدي، كل عمري..»

قال: «إذاً، تعال واعمل معي في الجامعة العربية..»

كان ذلك في أوائل الخمسينيات وفي القاهرة.. كان الحديث بيني وبين السيد عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية.. وكان الحاضرون السيد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان والدكتور ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا، ومعهما وزراؤهما..

ولقد بدأ الحديث أول ما بدأ عن أمرين، أحدهما طريف والآخر جاد..

الطريف، أن الجامعة العربية، كما شكا الحاضرون، قد أصبحت «فوضى» وأن عزام هو من رجال الحركة العربية الأوائل في مصر، ولكنه «فوضوي» في عمله ودوامه ومقابلاته، ولا بد من معاون ينهض معه بأعباء الجامعة...، وأن «المعاون» الذي يصلح لهذه المهمة هو «الشقيري» فهو ليس سورياً ولا عراقياً ولا مصرياً، ولا يثير وجوده الحساسيات العربية التي كانت تسود الوطن العربي، وما تزال!!

أما الحديث الجاد، فهو أن الجامعة العربية قد وجدت في الأصل لتكون الخطوة الأولى على طريق الوحدة، وأن ذلك يقتضي أن تعبأ الأمانة بالكفاءات العربية، لتعد للأمة العربية المشروعات السياسية والدفاعية والاقتصادية والثقافية التي تمهد للوحدة العربية، فنبنيها حجراً حجراً، مرحلة بعد مرحلة..

اعتذرت بادئ الأمر، لسبب واضح غني عن الإيضاح، فقد سبق لي أن كنت على مقربة من مشاورات الوحدة العربية في الإسكندرية، ورأيت بأم عيني، وأذني، كيف استبعدت الوحدة العربية.

وبينما كنت أشرح أسباب اعتذاري رفع رياض الصلح طربوشه عن رأسه ووضعه على الطاولة بغير رفق . . وقال، بألمعيته التقليدية . . ويده على كتفي :

«والله . . نحن ما أتيحت لنا مثل هذه الفرصة، يوم كنا نجاهد في شبابنا من أجل الوحدة العربية . . ».

قلت : «على بركة الله . . » وإذا عزمت فتوكل على الله . . فعزمت وتوكلت . .

ولم أكد أوافق، ونحن ما زلنا في الفندق في جلستنا تلك، نتحدث عن الوحدة العربية، حتى أثار عزام مسألة «إقليمية» لها صفة قانونية، قال :

«إن نظام الجامعة يشترط في تعيين الموظفين أن يكونوا من رعايا دول الجامعة . . والشقيري فلسطيني، فما العمل؟ وما هو الحل؟ هذه مشكلة!!»

رياض الصلح : «"دبرها" يا باشا . . الفتوى عندك . . ».

عزام : «ليس عندي فتوى . . إن تدبيرها عندكم».

رياض الصلح : «يا ناظم بك . . الشقيري فلسطيني صحيح . . ولكن فلسطين هي سوريا الجنوبية . . فما هو رأيك؟»

ناظم القدسي : «يا عزام باشا . . نطرح الموضوع غدا على مجلس الجامعة . . وأنا أرسل إليك اليوم كتابا، ونقترح تعيين الشقيري "باعتباره سورياً"».

وكان الأمر كذلك، فقد اجتمع مجلس الجامعة في اليوم التالي، ووافق على تعييني أميناً مساعداً، ووقع عزام باشا القرار بتعيين «السيد أحمد الشقيري من الجنسية السورية مساعداً للأمين العام».

وأخذت طريقي إلى الأمانة العامة للجامعة العربية في شارع البستان في القاهرة، المبنى القديم، وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، فقد تهيبت العمل في الجامعة العربية بعد أن تهاوت كرامتها في أعقاب عام ١٩٤٨.

وقضيت أسابيع متوالية وأنا جالس في مكتبي أدرس حال الجامعة العربية من الداخل، بعد أن كنت أراقب مسيرتها من الخارج.

ثم أخذت أبحث عن العلة . . العلة في ركود الجامعة . . وانعدام إنتاجها . . وبعدها عن مشاعر الجماهير العربية، فقد كانت سمعة الجامعة في ذلك العهد في الحضيض، سخرية الساخرين، وتفكهة الفاكهين.

وبدأت بدراسة الأمانة العامة وجهازها ودوائرها وموظفيها وأمينها العام . . فلم أجد خللاً يذكر . . فقد كان الموظفون من الكفاءات الجيدة . . وكانت الدوائر تعمل في

نطاق اختصاصها . . وكان عزام يتكلم باستمرار . . ويتحرك على الدوام . . وهذا هو دور الأمين العام، بل إنه لم يكن يملك غير هذا، ولا أكثر من هذا . . ثم زرت السفارات العربية في القاهرة، لأتحدث مع السفراء عن العلة . . فوجدتهم جميعاً يشكون ويتبرمون، وينعون على الجامعة أنها تخلفت وقصرت . وسألتهم واحداً واحداً.

«من هي الجامعة العربية؟ أهي عزام؟ . . أم الحكومات العربية؟ أهي موظفو الأمانة العامة، أم أنتم؟»

وكان يلحون دائماً بأن الحكومات العربية هي المسؤولة عن تقصير الجامعة . . ولكن الحديث في النهاية ينتهي عند التهمة الشائعة . . الجامعة العربية هي المقصرة، وهم يعنون بالجامعة ذلك المبنى القديم في شارع البستان، بمن فيه من الموظفين، وما فيه من الملفات . .

وإني لا أتجنى الآن، حين أقول إن عزام باشا قد أعان على «خلق» هذه التهمة الشائعة، فإنه بماضيه العربي في الكفاح، وبشخصيته الأنيسة الذكية، وبصداقاته مع قادة العرب، وزعمائهم قد جعل نفسه هو الجامعة، وهو الحكومات العربية، وكان من الطبيعي أن يتحمل أوزارهم . وجنت على نفسها براقش، كما يقول المثل العربي القديم .

ومضيت في عملي، وانعقد مجلس الجامعة العربية في دوراته العادية، مرتين في العام، ما خلا الدورات الاستثنائية، فالتقيت بوزراء الخارجية العرب ثم برؤسائهم . . وأنا أبحث عن العلة.

لقد تحدثت إليهم في فنادقهم . . في حجرات نومهم . . وتحدثت معهم في ردهات الجامعة . . . ونقلت إليهم ما يقوله رجل الشارع، فكانوا يلقون اللوم على الجامعة العربية . . وكان بعضهم يلقي اللوم على عزام . . كأنما نصبوا عزام في المنصب كبش المحرقة . . وكنت أسأل على الدوام :

«ولكن من هي الجامعة العربية . . . ؟ هل هي عزام . . . أم أنتم . . . ؟»

وفي أحد هذه الاجتماعات، وأثناء فترة الاستراحة وقف سمير باشا الرفاعي، رئيس وزراء الأردن، يقص على زملائه الحاضرين رأي الملك عبد الله في الجامعة العربية، فروى بصوت مليء بالنغم والإنشاد، كأنه يتلو قصيدة عصماء . . أن الملك عبد الله قال : «إن الجامعة العربية أشبه ما تكون بجراب أدخلت فيه سبعة رؤوس، وكل رأس فيها مقيد بدولة أجنبية متسلطة . . . »، إشارة إلى الدول العربية السبع ! !

وراح سمير باشا يرسل قهقهتة الموصوفة وشهقته المعروفة، وهو يشرح رأي الملك عبد الله في الجامعة العربية . .

وكانت بيني وبين سمير باشا معرفة وطيدة، فكلانا من فلسطين، هو من صفد، وأنا من عكا فقلت له:

«يا سمير باشا. . أليس الملك عبد الله أحد السبعة في هذا الجراب!!» فتوقف عن قهقهاته، وقهقهة الآخرين. . وعدنا إلى قاعة الاجتماعات بعد أن فرغنا من هذا المزاح. . الغارق في الجد كل الجد. .

وأثناء الاجتماعات الرسمية. . كنت أتفرس في وجوه الوزراء إياهم. . في وجوه الرؤساء إياهم.

وأنا أرى عزام يدعوهم إلى العمل. . ويكاد يؤذن: حي على العمل. . حي على العمل. . فيقترح أحدهم التأجيل. . ويقترح آخر التعديل. . ويقترح ثالث المزيد من الدرس. .

وكانت مسألة الدفاع العربي أكبر المشاكل التي تواجه العمل العربي في الجامعة العربية. . . فقد انهزمت الدول العربية السبع أمام العصابات اليهودية في فلسطين في عام ١٩٤٨، وتعالت الصيحات العربية في كل أرجاء الوطن العربي تطالب باستئناف القتال، واسترداد فلسطين، ومعها استرداد الكرامة العربية الجريحة. .

ومع هذه الصيحات تعالت التساؤلات عن أسباب الكارثة. . أهي فساد السلاح. . أهي ضعف التدريب. . أهي. . أهي. . أهي، واهتدى الفكر العربي، أن الجيوش العربية لم تقاتل وفق خطة واحدة تحت قيادة واحدة. . ومن هنا كانت بداية الطريق الجديد، أو ما ظنناه الطريق الجديد. .

قال لي عزام باشا في إحدى جلساتنا التي كنا نقلب فيها الأمور «يجب أن نضع مشروعاً للدفاع العربي المشترك. . عساه أن يكون خطوة على طريق الوحدة. . وأن يكون سبيلاً لتحرير فلسطين». ومضيت أعمل لإعداد المشروع. . فهل هناك ما هو أعز من الوحدة، وما هو أغلى من التحرير.

ورحت أدرس السوابق الدولية والاتفاقات العربية التي أبرمت حتى ذلك الحين في ما يختص بالتعاون العسكري، ووضعت «مسودّة» مشروع تقوم بموجبه قيادة عسكرية واحدة، ذات اختصاصات واسعة لتعمل على توحيد الخطط والأسلحة والأنظمة العسكرية العربية. . وقدمته إلى عزام باشا.

فلم يكد يفرغ من قراءته حتى قال: «هذا مشروع طموح جداً. . ولو أن الدول العربية أخذت بنصفه، فسنكون في عيد كبير!!»

وأعدت الخارجيات العربية من جانبها مشروعاتها إلى جانب مشروعي، وقد

عرف في ما بعد بمشروع عزام . . وانعقد مجلس الجامعة فأحال الأمر إلى الحكومات لتدرسه، حتى إذا جاء الاجتماع التالي لمجلس الجامعة أحاله إلى الخبراء العسكريين لدراسته . . ورفعه الخبراء بدورهم إلى الجامعة لينظر فيه . . فبحث في عنوانه ومضمونه وصياغته . . إلى أن «مسخ» أخيراً في ما هو معروف الآن «بمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي» فأقره مجلس الجامعة في ربيع عام ١٩٥٠، ثم أقر في ما بعد ملحقاً وبروتوكولاً للأمور التفصيلية . . وقد وقعه مصطفى النحاس باشا عن مصر، ورياض الصلح عن لبنان، ونوري السعيد عن العراق، وناظم القدسي عن سوريا، ويوسف ياسين عن السعودية، وعوني عبد الهادي عن الأردن.

ولقد لعب نوري السعيد دوراً بارزاً في «مسخ» هذا المشروع . . فكان في كل جلسة يأتي بنص جديد، ثم يعود ليعدل ما كتب، وينتهي في النهاية بشيء جديد . . وكان النحاس باشا وباقي الوفود يحاورونه، في كل ما يطلب، فقد كانوا جميعاً يحرصون أن لا يعطوا نوري السعيد أية فرصة لإفلات العراق من الحظيرة العربية . .

ومع هذا فإن نوري السعيد قد رفض أن يوقع المعاهدة إلا بعد أن ذيّلها بتحفظ، لم يفهمه أحد، ولم أفهمه حتى الآن، وقد انقضى عليه قرابة عشرين عاماً.

لقد فعل ذلك نوري السعيد، للمشاكسة والمعاكسة، وليبرر تحت ذلك التحفظ الغامض، أي تحرك سياسي له في المستقبل. وقد قلت لعزام بعد جلسة التوقيع: «لقد طار مشروعنا في الهواء».

قال: «ألم أقل لك ذلك . . أنا أعرف الحكومات العربية أكثر منك . . لقد عرفتهم في حرب فلسطين . . ».

ورغماً عن رخاوة المعاهدة في أحكامها فلم تصدق عليها الحكومات العربية إلا بعد عامين كلّت الأمانة العامة خلالهما وهي تكتب إلى الحكومات مناشدة . . التصديق . . التصديق . . أيها العرب!

وقد وقعت المملكة اليمنية بعد ذلك على المعاهدة بتحفظات غير مفهومة أيضاً . . وبعد استقلال البلاد العربية الأخرى انضمت إلى المعاهدة المغرب، الكويت، ليبيا، تونس، والسودان، الجزائر ما بين ١٩٥٣-١٩٦٤.

وقد عمت الوطن العربي موجة من الفرح والابتهاج غداة تمت الموافقة على معاهدة الدفاع المشترك . . وازداد السرور حينما علمت الشعوب العربية أن المعاهدة قد نصت على قيام مجلس للدفاع المشترك مؤلف من وزراء الخارجية والدفاع، ولجنة عسكرية دائمة، وهيئة استشارية عسكرية.

ولم أشارك في هذه الفرحة، بل إنني كنت منقبضاً يوم دخل الصحافيون والمصورون على مجلس الجامعة بهيئته الكاملة يتصدره النحاس باشا ومن حوله الرؤساء والوزراء ليعلنوا القرار الإجماعي بالموافقة على المعاهدة. . وأن «كل اعتداء يقع على أية دولة عربية يعتبر اعتداء عليها جميعاً»، وأن «الدول العربية تلتزم بأن تبادر إلى معونة الدولة المعتدى عليها. . بكل الوسائل بما فيها القوة المسلحة». . كما جاء في أحكام الميثاق. .

وكان السبب في انقباضي، أنني كنت استمع إلى المجادلات والمشاحنات في الغرف المقفلة، كما كنت أستمع إلى التهامسات في الردهات الجانبية. . وأنا أقول في نفسي ليت الأمة العربية معي هنا. . لترى بعينها وتسمع بأذنيها هذا الحكم العربي المتهالك المتخاذل. .

أكتب هذا الآن وقد مضى عشرون عاماً على معاهدة الدفاع المشترك. . كانت كل مادة من موادها موضع اختبار وامتحان. . فلقد قامت إسرائيل باعتداءات متلاحقة تعد بالمئات، مذبحة قبية، ونحالين، وقلقيلية والتوافيق، وغزة، ومئات غيرها، فلم تتصد أية دولة عربية للدفاع عن الدولة العربية المعتدى عليها. وتعللت الحكومات العربية، ما بين ناطق وأخرس، أن هذه الاعتداءات «محدودة ومؤقتة» وليست ذات صفة عسكرية مهمة. . واستطاعت إسرائيل في ظل هذه التعللات والتفسيرات العربية أن تستولي على جميع المناطق المجردة من السلاح في فلسطين وتضمها إلى سيادتها، وتنتزعها من القطاع الأردني والسوري والمصري، واتفاقية الدفاع العربي تتفرج!

وأصبح يتردد على لسان المسؤولين الحديث الكثير «عن معاهدة الضمان الجماعي»، وهو اسم آخر لمعاهدة الدفاع المشترك، فظنت الجماهير العربية أن في الأمر شيئاً جديداً، حتى إذا وقع العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦، والعدوان الإسرائيلي عام ١٩٦٧، تكشفت نتائج الامتحان عن مأساة رهيبة. . أن الدول العربية لم تهب لنجدة الدولة المعتدى عليها. . وأن القيادة العربية المشتركة، والقيادة العربية الموحدة من بعدها، لم يكن لها علم، ولا وجود في هذه المعركة، وقرأت أخبارها في الصحف، تماماً كما قرأها البقال والحمال، ورنة الخال والخلخال!!

كانت هذه ذكرياتي عن الجامعة العربية كخطوة أولى في طريق الوحدة، على الصعيد العسكري. . أما بالنسبة إلى الجوانب الأخرى التي نص عليها ميثاق الجامعة العربية فقد عانيت منها الخيبة إياها وزيادة.

أقول وزيادة لأني قدرت، ويا بئس ما قدرت، أن الأمور غير العسكرية قد تكون أهون، وأن أمرها، أيسر. . فضربت في مضمارها أجربها ساحة ساحة. .

ففي الميدان الثقافي أقر مجلس الجامعة معاهدة ثقافية جاء في صدرها «الرغبة في توحيد اتجاهات الدول العربية في المجالات الثقافية»، فكان التصديق عليها بعد عامين من قبل المملكة المصرية، وبعد اثني عشر عاماً من قبل الجمهورية السورية!!

وفي عام ١٩٦٤ أقر مجلس الجامعة العربية «ميثاق الوحدة الثقافية العربية» ولم تصدق عليه إلا: الأردن والعراق وليبيا.

كان ذلك من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فقد بذلت كل جهدي مع عزام باشا ومع حسونة باشا من بعده، لإنشاء معهد للدراسات العربية العليا، ليخرج جيل الوحدة العربية، بين المثقفين. . وثار جدال في داخل مجلس الجامعة حول فائدة هذا المعهد، فقال هذا الوزير: هل وظيفتنا أن نفتح مدارس؟ وقال آخر: هذا لم يرد في الميثاق، ولم يوافق المجلس إلا بعد عناء وبلاء. . ولم يكد يفتتح المعهد إلا وراح المجلس يناقش ويجادل ساطع الحصري الذي وقع الاختيار عليه ليكون مديراً للمعهد في الصغيرة والكبيرة، ولم يتعففوا أن يجادلوا في ميزانيته، ولم تكن تجاوزت عشرة آلاف جنيه، فاضطر ساطع الحصري، وهو «مجنون» الوحدة العربية، أن يستقيل بعد أن طفر من هؤلاء «الأولاد»، السفراء والوزراء!!

ثم خضت في ميدان المواصلات، شعوراً مني بأن الاتصال المادي يفضي إلى الاتصال الروحي، فأخذت اقتحم ميداناً لا أعرفه، أحمل ملفاً لا أفهمه، من مجلس الجامعة إلى لجنة الخبراء، ثم أعود به إلى المجلس، حتى أقر «اتفاقية الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية «وحزنت على الجهد الذي بذلته في هذا الميدان، يوم كنت بالمصادفة في بيروت، حين شكا إليّ أحد أخواني اللبنانيين من الفوضى العربية البريدية، وهو يقدم لي هذه القائمة لثمن طوابع البريد:

قرشاً لبنانياً	
٢٥	إلى الكويت
٢٧,٥	إلى السعودية
٢٠	إلى مصر
٤٥	إلى الجزائر
٤٠	إلى أوروبا. .

كان ذلك في ميدان لا أفهمه. . ورأيت أن انتقل إلى ميدان أظن أني أفهمه حق الفهم. . ذلك هو الإعلام، أو الدعاية العربية. . ولي في هذا المجال خبرة غير متواضعة. . فأخذت أعد الدراسات حول هذا الموضوع. . واستعنت بكل من له

خبرة في الوطن العربي. . فتألفت اللجان، وعقدت المؤتمرات، ثم أعدت الدراسات عن الدعاية العربية، بأهدافها ووسائلها ومراكزها. . حتى لم يبق مقال لقوال، ولا مجال لجوال، ولا كلام لمختال!!

وأقر وزراء الأعلام كل هذه المشروعات. . وأقر مجلس الجامعة كل التوصيات، وخرجت من الجامعة بعد سبع سنوات دون أن يكون للجامعة العربية جهاز إعلامي لا في الداخل أو الخارج. . وإني لأذكر أني لقيت أمين الجامعة السيد عبد الخالق حسونة بعد ذلك بسنين، وهو يبشرني أن مجلس الجامعة قد أقر ميزانية محترمة لمكاتب الدعاية العربية. . ويوم كنت أكتب هذا الفصل من مذكراتي طلبت ميزانية ١٩٦٩-١٩٧٠ فوجدت نفقات الدعاية كما يلي:

دولار	
١٤٠,٠٠٠	مكتب نيويورك
٣٥,٧٨٠	مكتب كندا
١٠,٠٠٠	مكتب شيكاغو
١٠,٠٠٠	مكتب سان فرانسيسكو
١٠,٠٠٠	مكتب واشنطن
١٠,٠٠٠	مكتب دالاس
٣٥,٧٨٠	مكتب بيونس ايرس
٣٥,٧٨٠	مكتب ريودي جانيرو
٣٥,٧٨٠	مكتب لندن
٢٢,١٩٠	مكتب باريس
٣٥,٧٨٠	مكتب جنيف
٣٥,٧٨٠	مكتب روما
٣٥,٧٨٠	مكتب بون
٣٥,٧٨٠	مكتب نيودلهي
٣٥,٧٨٠	مكتب طوكيو

وقلت للسيد عبد الخالق حسونة، بعد أن اطلعت على هذه الأرقام «السخية»، أن هذه المكاتب العربية ستقوم في الخارج بدعاية ضخمة، ولكن على الدول

العربية. . وها إني أنشرها في مذكراتي لتكون دعاية على الدول العربية في الداخل، قبل أن تكون دعاية علينا في الخارج!!

وكما ظننت بالجامعة العربية خيراً في أول الطريق، فقد خامر الرئيس عبد الناصر مثل هذا الظن في فترة من الفترات. . كان ذلك يوم صدر الميثاق الوطني في ٢١ مايو ١٩٦٢. . . وكنت يومها في جامعة القاهرة، أجلس في صفوف الدبلوماسيين العرب، استمع إلى الرئيس عبد الناصر وهو يلقي الميثاق القومي ويتناول الشؤون العربية، وجاء دور الجامعة العربي فأعلن: «أنه إذا كانت الجامعة العربية غير قادرة على أن تحمل الشوط العربي إلى غايته العظيمة البعيدة، فإنها تقدر على السير به خطوات، إن الجامعة العربية قادرة على تنسيق ألوان ضرورية من النشاط العربي في المرحلة الحاضرة، ولكنها لا يجب أن تتخذ وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به.»

وخرجنا من القاعة وسط الزحام الهائل في ذلك اليوم الذي أعلن فيه الميثاق القومي في عبارات عميقة رشيقة، وسألني وزير الخارجية محمود رياض، وتمتد معرفتي به إلى عشرين سنة مضت في الأمم المتحدة وفي الجامعة العربية، قائلاً: هل أعجبك حديث الميثاق عن الجامعة العربية؟»

قلت: «لقد أعجبني ولم يعجبني. . ».

قال: «كيف؟»

قلت: «إن الجامعة العربية سارت بالعمل العربي خطوات». . هذا لا يعجبني فالجامعة سارت بالعمل العربي خطوات ولكن إلى الوراء. . وأعجبني «أن لا تكون الجامعة العربية وسيلة لتجميد الحاضر كله وضرب المستقبل به». . وهذا ما هي عليه الجامعة في الوقت الحاضر. . . »

قال: «نحن نترك لغيرنا أن يحدد موقفه من الجامعة. . . »

ولم يمض على هذا الحديث غير عام ونصف حتى جاءت جلسة التشهير الشهيرة، التي انعقدت في شتورة في صيف ١٩٦٣، يوم قدم الحكم الانفصالي في دمشق التهم «الخطيرة» على القاهرة، بخيانة القضية الفلسطينية مما دعا وفد الجمهورية العربية المتحدة لأن ينسحب من الجامعة، وأن يعلن محمود رياض أن «الجامعة العربية قد هانت على دولها. . وأن العمل العربي الخالص من أجل المستقبل العربي لم يعد مجاله الجامعة العربية. . وأنها ما زالت حتى الآن، بكل الأثقال التي تفرضها عليها النظم الرجعية المتعاونة مع الاستعمار، غير قادرة على شيء إلا أن تكرر نفسها بمثل ما حدث في نكسة ١٩٤٨».

وخرجت من الجامعة العربية، بعد أن سلخت فيها من عمري سبع سنوات، كانت سنوات عجافاً، لم أستطع أن أحقق فيها خطوة متواضعة على طريق الوحدة، وكان أن استخرت واستقلت. .

ومع هذا فقد كنت دائم الاتصال بالجامعة العربية، ممثلاً لسوريا مرات، وللسعودية مرات. وكنت أتابع «إنجازات» الجامعة العربية على درب الوحدة، وأنا أعلل نفسي بأن الحكم العربي في الوطن العربي أصبح يشق طريقه نحو الأكمل والأفضل.

وهكذا شهدت في الميدان الاقتصادي كثيراً من الاتفاقيات ذات الأسماء الرنانة، تسهيل التبادل التجاري، انتقال رؤوس الأموال بين البلاد العربية، جدول موحد للتعريفة الجمركية، المؤسسة المالية العربية للإنماء الاقتصادي، الوحدة الاقتصادية، السوق العربية المشتركة، وغيرها وغيرها من الاتفاقات، فلم أجد فيها، وأنا أجول بين البلاد العربية من المحيط إلى الخليج، إلا عناوينها الضخمة وتعابيرها الفخمة، وجموع التجار والفلاحين وأصحاب الأعمال يجأرون بالشكوى من قيود التعامل والتبادل، ومن مشاكل النقد، ومن أذونات الاستيراد والتصدير، ومن بلايا الجمارك، ومن متاعب الطلبة الوافدين حين يلتحقون بالجامعات العربية. . !!

ومشاكل النقد مثلاً تتجلى فيها «خيبة الجامعة العربية» فمنذ تأسيس الجامعة والحديث عن توحيد النقد في البلاد العربية لا ينقطع، وبقيت المشاكل قائمة. . والمواطن العربي يسافر في الوطن العربي ليتفرس في الليرة اللبنانية والسورية، والتونسي، والدرهم المغربي، والريال السعودي، ووراء كل هذا النقد العربي الجنية الإسترليني، أو الدولار، أو الفرنك الفرنسي. . وفي اليمن بلد المآسي، يمثل ريال الملكة ماريا تريز الإفرنسية (١٧٨٣-١٨٦٦) النقد المعتمد المتداول في الجمهورية اليمنية إلى يومنا هذا.

وحين يئست أن تكون الجامعة خطوة أولى في سبيل الوحدة، طمعت أن تكون أداة التعاون والتنسيق، فإذا بي أرى نفسي مرة ثانية أمام العناوين الضخمة الفخمة. .

وشهدت توقيع اتفاقات أخرى. . اتفاقية التعاون العربي في استخدام الطاقة الذرية في الأغراض السلمية. فلم أجد ذرة واحدة في هذا التعاون الذري و«اتفاقية الشركة العربية لناقلات البترول» والبترول العربي يسأل أين الناقلات العربية. و«اتفاقية الشركة العربية للملاحة البحرية» وما تزال البحار تنتظر. وتنتظر. و«اتفاقية مؤسسة الخطوط الجوية العربية العالمية» والأجواء تصيح أين هذه «الشركة» و«اتفاقية شركة البوتاس العربية» التي أنشئت لمئة عام ولم تدفع الدول العربية كامل مساهمتها وهي الآن تحت التصفية. و«اتفاقية. واتفاقية، وكلها في حقيقتها اتفاقيات للنكوص عن الاتفاقيات.

ولقد شهدت هذه «الويلات» من داخل الجامعة ومن خارجها، وكانت في مجموعها ذكريات حزينة في مذكراتي. . ولكن أشدها حزناً وأسى. . هو ما وقع في مؤتمر القمة العربية في مؤتمر الخرطوم. . وأنا لا أتعرض الآن لكل جوانب ذلك المؤتمر التعيس. .

لقد أدرت بصري في وجوه الحاضرين في مؤتمر الخرطوم، فرأيت الملوك والرؤساء حول تلك الطاولة المستطيلة، الرئيس عبد الناصر على طرفها، والرئيس إسماعيل الأزهري على طرفها الآخر، وبينهما الملوك والرؤساء ومن ورائهم جميعاً الوزراء.

وكنت أجلس إلى جانب السيد إسماعيل الأزهري، وكان رئيس الجلسة، فسألته: «وأين السيد عبد الخالق حسونه الأمين العام لجامعة الدول العربية. . ؟»

قال: «لم نوجه إليه الدعوة».

قلت: «كيف يجوز أن لا يدعى أمين الجامعة، وقد حضر مؤتمرات القمة الثلاث؟»

قال: «لقد اتفقنا على هذا. . فالبعض لا يريدون إشراك الجامعة العربية في مؤتمر القمة».

قلت: «ولكن الجامعة هي أنتم كلكم. . إذا كان حسونة لا يعجبكم

اعزلوه. . ولكن ما دام الأمين العام، فيجب دعوته».

قال: «بالعكس إن حسونه مرضي عنه تماماً. . ولكن البعض لا يريدون الاجتماع في إطار الجامعة. . ».

قلت: «هذه نكسة سياسية نضيفها إلى النكسة العسكرية، لقد هزمتنا إسرائيل عسكرياً. . وها نحن نهزم أنفسنا سياسياً. . وهل أصبحت الجامعة العربية من رجس الشيطان. . فاجتنبوه!!»

وانفضَّ المؤتمر في الخرطوم، وحسونه يقلب ملفاته في القاهرة. .

ومرت أيام وأيام. . وخلوت إلى مكتبي أكتب هذا الفصل من مذكراتي، وأنا أمام مصادفة غريبة حقاً.

كان ذلك في ٢٢ آذار/مارس ١٩٧٠ والجامعة العربية تحتفل بذكرى ميلادها، في مثل ذلك اليوم. . في ميلادها الخامس والعشرين.

لقد مضى خمسة وعشرون عاماً على ميلاد الجامعة العربية، وأنا أواكب مسيرتها

الطويلة، وقد ظنها جيلي بأسره، وبعض الظن إثم، أنها خطوة على طريق الوحدة، أو في طريق التعاون على الأقل. . وتذكرت الكلمة المفجعة التي قالها زعيم مصر العظيم سعد زغلول قبل أربعين عاماً.

لقد روى لي عبد الرحمن عزام في ساعات غضبه على الجامعة العربية أنه كان يحاول مرة أن يقنع سعد زغلول بالتعاون مع الحكومات العربية. . . فلم يكن من سعد إلا أن قال:

صفر زائد صفر يساوي صفر هذا هو تعاون الحكومات العربية.

ولقد صح هذا الحساب في الجامعة العربية. . فكان حكماً على الحكومات العربية. . وأحمد الله، أنه لم يكن حكماً على الأمة العربية. . فالأمة العربية بخير وألف خير. ويكفي أن الأمة العربية تقف مع زعيم مصر العظيم، في هذا الحكم الأليم. .

ورحم الله سعد. . .

لقد كان يعرف الحساب جيداً. .

لقد عرف أن صفراً زائد صفر يساوي صفراً. .

رحم الله زعيم مصر العظيم، لقد سقط أمام بصره حجاب الغيب، ورأى الجامعة العربية بعد خمسة وعشرين عاماً من مولدها، تحقق صفراً في كل عام. .

وجمعنا خمسة وعشرين صفراً، فكان المجموع صفراً. .

وكانت هذه هي حصيلة الوحدة العربية، في الجامعة العربية، على مدى خمسة وعشرين عاماً. .

وبقي علينا أن نراقب الوحدة العربية خارج الجامعة. .

فلنتابع السيرة والمسيرة. .

﴿**ثم لترونها عين اليقين**﴾[1] صدق الله العظيم.

(١) **القرآن الكريم**، «سورة التكاثر،» الآية ٧.

رسالـــة إلـى عبـد الناصــر

كنا نتناول العشاء معاً، الشيشكلي رئيس الجمهورية السورية وأنا، وكان ذلك في لبنان وفي «نبع الصفا» حيث صفا الماء والهواء. . وكان ذلك في يوم ليس ميسوراً على ذاكرتي أن تحفظه، لولا أنه أصبح في ما بعد يوماً من أيام التاريخ. . إنه ٢٣ تموز/يوليو من عام ١٩٥٢.

وكان بين أطباق الطعام جهاز الراديو الترانسزتور الذي لم يكن يفارق الرئيس الشيشكلي في حلّه وترحاله. . فإذا بنا نستمع إلى الخبر المثير الكبير، وكأنما وقف الزمان ليستمع: الثورة في مصر. . خلع الملك فاروق. . . الضباط الأحرار يعلنون الجمهورية المصرية. .

ذهلنا ودهشنا، ونحن نستمع إلى هذا الخبر المدهش المذهل. . وأمسكت عن الطعام. . وأمسك الشيشكلي عن الشراب. . وأدرت «زر» الراديو لأستمع إلى محطات متعددة، فقد يكون الخبر مدسوساً. . وتأكد الخبر وتبدد الشك باليقين. . وصحا الشيشكلي بكل جوارحه، وحمل نفسه إلى سيارته، ومعه حرسه إلى دمشق.

وخلوت إلى غرفتي، ولكن هل من سبيل إلى النوم، وقد هوى أكبر عرش في أكبر بلد عربي. . وراح هذا الحدث المثير الكبير يمطرني بالأسئلة: ما هو لون هذه الثورة، ومن هم هؤلاء الثوار؟ هل يدينون بالعروبة، أم أنهم مفتونون بالفرعونية؟ وما هو مصير الوحدة العربية معهم؟

ولقد نمت واستيقظت على هذه الأسئلة، وأنا موزع بين الخوف والرجاء، الخوف في أن تندفع مصر إلى العزلة عن الأمة العربية بعد أن هزمت في حرب فلسطين، ووقع فيها من الخيانات ما وقع. . والرجاء في أن تندفع إلى الالتحام بالعرب والعروبة، وتغسل العار وتعيد الوطن المستباح. .

وبقيت أياماً على هذا الحال، تتنازعني هذه الأسئلة وقد ضاق بها صدري. .

فقطعت إجازتي وعدت إلى عملي في الجامعة العربية في القاهرة، وظلت هذه الأسئلة تطاردني في مكتبي، وفي بيتي، في ليلي ونهاري . .

وبدأت الثورة تكشف عن ذاتها شيئاً فشيئاً. وبدأ رجال الثورة يتحدثون عن آمالهم وأحلامهم . . وامتلأت القاهرة بالاجتماعات والمؤتمرات. والضباط الأحرار يعقدون الندوات والحلقات، يتحدثون عن العهد البائد، يتطلعون إلى العهد المشرق المجيد . .

ومضت الأسابيع والشهور، ومصر مغمورة بحملة إعلامية هائلة تكشف عن جوانب الفساد ومساوئ الحكم في حياة مصر، وتغدق على الشعب وعوداً ضخمة بإصلاح الشعب، ورفع مستوى الشعب.

وكنا، سفراء العراق وسوريا ولبنان وأنا، نجتمع في مكتبي أو في سفاراتهم والسؤال الكبير يتردد على ألسنتنا: ما هو مكان القضية العربية في هذه الثورة المصرية . . ؟ ولم يكن عندنا جواب نطمئن إليه يومذاك . . فلم تكن الثورة قد كشفت عن موقفها العربي. بل كنا أكثر ميلاً إلى الخوف . . الخوف أن يكون المصريون قد قرفوا من العرب والعروبة، ليلبسوا الثوب الأفريقي وعليه تاج فرعون، مفتونين بالحضارة المصرية القديمة، ويفتتنون ببديع روائعها، وروائع بدائعها . .

وبدأ الضباط الأحرار يتوافدون عليّ في مكتبي في الجامعة العربية . . يطلبون ميثاق الجامعة وقراراتها . . ثم يعودون ليسألوا عن مراجع القضية العربية . . ثم يأتون إليّ في منزلي في مصر الجديدة لنتحدث عن الدول العربية وشؤونها ومواقفها . .

وبدأت الثورة المصرية تكشف عن هويتها وذاتها . . وبدأت الخطب والتصريحات من قادة الثورة تتحدث عن القضية العربية حديثاً تفتحت له الآذان والأذهان.

وتعددت لقاءاتي بقادة الثورة . . كنت ألقاهم في المهرجانات الشعبية، وفي نادي الصحافة، وفي الأزهر، حيث كانوا يخطبون . . والشعب يلحق بهم من ساحة إلى ساحة.

ولم يكن قد مضى عام وبعض عام على ثورة ٢٣ تموز/ يوليو حتى بدأت أحس أن مصر ستزداد التحاماً بالقضية العربية، وأن في تضاعيف ثورتها قبساً من الوحدة العربية.

ولقد تجلى هذا المعنى أكثر ما تجلى يوم كنت أستمع إلى رئيس مجلس الثورة، وهو يخطب في دار الأوبرا في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٥٤، لمناسبة الذكرى الثانية لقيام الثورة المصرية . .

وكانت قاعة الأوبرا محتشدة بجمهرة كبيرة من المشتغلين بالقضية العربية الذين توافدوا من جميع أرجاء الوطن العربي ليستمعوا إلى ما ستقوله مصر في تلك المناسبة

التاريخية. . وانطلق رئيس مجلس الثورة في خطابه ليعلن «أن كل فرد في البلاد العربية مصرياً أو سودانياً أو لبنانياً «أو حجازياً» أو عراقياً أو أردنياً أو يمنياً، أو مغربياً أو ليبياً أو كويتياً يؤمن أيماناً قاطعاً بأن الوحدة الحقيقية بين البلاد العربية هي السبيل الوحيد لتحقيق أمانيهم وآمالهم، ودرء الأخطار عنهم».

وصفق الحاضرون بجوانحهم قبل أيديهم. . وتدلى السامعون من الشرفات العالية، وهم يستعيدون الرجل دعوته للوحدة. . وهتف الرجال والنساء طويلاً. . «وحدة وحدة». . هكذا بصورة عفوية. . .

ولقد أقبلت الوفود العربية على الرئيس تصافحه وتحييه، وتعاهده على السير معاً في طريق الوحدة. . وذهبنا في اليوم التالي، وفداً عربياً كبيراً في منزله، لنعرب له باسم الشعوب العربية عن تقديرنا العظيم لهذا الكلام الواضح الصريح الذي خلع في دقيقة واحدة القناع عن الثورة المصرية، وأبان وجهها العربي الأصيل.

وقد استقبلنا الرجل في الروب والبيجامة. . وقد ذهبنا إليه على غير موعد. . وكان المنزل غاصّاً بالضباط الأحرار وممثلي الصحافة العربية والأجنبية، وتحدث مندوبو العراق والأردن وسوريا والأقطار العربية الأخرى مشددين على وحدة عربية تكون مصر طليعتها، وأصبحنا وكأننا في مؤتمر عربي عام، ولم يبق لنا إلا أن نعلن الوحدة، ونبادر إلى إنشاء الدولة العربية المتحدة. . وسألني الرجل بصوته الأجش، ووجهه يطفح طيبة وحمية: «وما هو مصير الجامعة العربية بعد الوحدة. .؟»

قلت: «تصبح الجامعة داراً للحكومة العربية الاتحادية».

قال: «وإذا لم توافق بعض الحكومات العربية على الوحدة؟. .»

قلت: «إذاً تبقى الجامعة. . ولكن تكون فيها الحكومة العربية الاتحادية، والحكومات العربية الأخرى التي لا تريد الوحدة. . وبدلاً من جامعة الدول السبع، تكون جامعة الدول العربية الأربع. . وكلما قل هذا العدد ازددنا قوة وصفة ومنعة. .».قال: «وأنت «تبقى» أميناً مساعداً في الجامعة العربية. . وإلا إيه؟!»

قلت: «أرجو أن يكون لي مكان في الحكومة الاتحادية».

قال: «وتختار ماذا من العمل في الحكومة العربية المتحدة؟!»

قلت: «أكون مسؤولاً عن جهاز الإعلام والإرشاد القومي».

قال: «وتعمل ماذا؟»

قلت: «أدعو الدول العربية الأخرى إلى الدخول في الاتحاد. .».

وضحك الرجل، وضحكنا جميعاً. . وكانت ساعة مشرقة تفتحت فيها قلوبنا على آمالنا وأحلامنا. . والعراقي ينظر في وجه السوري، واللبناني ينظر في وجه الأردني، وكلهم ينظرون في وجوه ضباط مصر الأحرار. . وكأنما تسأل عيونهم: متى هذا اليوم العظيم. .؟

وذات يوم جاءني الصاغ صلاح سالم (وزير الإرشاد القومي في ما بعد) إلى بيتي، يقول لي إن مجلس الثورة يريد ملفاً كاملاً عن القضية العربية من البداية إلى النهاية. .

قلت له: «سيكون الملف عندكم بعد أسبوع، وسأبعث إليكم بكل ما عندنا في الجامعة العربية في هذا الموضوع».

وانفتح موضوع الوحدة العربية مع الصاغ صلاح سالم، وكان هو أحد الحاضرين جلستنا إياها في منزل رئيس مجلس قيادة الثورة، فاغتنمتها فرصة لأشرح له تاريخها ومقوماتها، ولهفة العرب في المشرق العربي على تحقيقها.

قال: «كيف ترى أن نبدأ؟»

قلت: «لولا ظروف معروفة، هي من رواسب الماضي اللعين، لقلت فلنبدأ الوحدة بين مصر والسودان فإن كل مقومات الوحدة قائمة في وادي النيل. . ولكني أرى أن تبدأ الوحدة مع سوريا. .».

قال: «وهل يقبل السوريون؟»

قلت: «لقد أعلن شكري القوتلي أول رئيس للجمهورية السورية، أن راية الوحدة تعلو على الراية السورية، وفضلاً عن ذلك فإن الدستور السوري لعام ١٩٥٠ قد تبنى الوحدة وفرض على رئيس الجمهورية ونواب البرلمان السوري، أن يقسموا يمين الولاء للوحدة والعمل لتحقيقها. .».

قال: «إلى هذا الحد. .؟ وهل أعلن الدستور السوري كل ذلك. .؟»

قلت: «سأرسل لك النص الكامل للدستور السوري مع ملف القضية العربية».

ونهضنا من جلستنا، بعد أن امتدت ثلاث ساعات ونحن نبحث في قضية الوحدة العربية، وقال لي وهو يهم بالانصراف:

«جمال عبد الناصر هو عقل الثورة المفكر، ورأسها المدبر. . وأرى أن تكتب له مذكرة مفصلة عن الوحدة العربية. . وترسلها إلى مدير مكتبه. .».

قلت: «حباً وكرامة. . أشكرك على هذه الملاحظة. سيكون كل شيء جاهزاً. .»

وخرج صلاح سالم من منزلي، وخطواته الشابة تدب حماسة ونظارته السوداء تحجب وراءها عينين تريان نوراً جديداً. . نور الوحدة العربية. .

وكنت قد لقيت جمال عبد الناصر في الاجتماعات الشعبية. ولم تهيئ لي الظروف إذ ذاك أن ألتقي معه في جلسة طويلة، فقد كان يقضي ليله ونهاره في مكتبه يعد ويخطط، ليثبت دعائم الثورة، في حين كان معظم رجال الثورة يطوفون البلاد ويخطبون على الشعب. .

ووصلت يدي بعد ذلك الوقت إلى كتاب فلسفة الثورة «لمؤلفه» جمال عبد الناصر، وتراءى لي لأول وهلة أنه قد يكون شبيهاً بكتاب «كفاحي» لهتلر. . ولكن رأيته غير ذلك. .

كان كتيباً صغيراً. . ولكنه كان شيئاً جديداً عليّ من مواطن مصري، فلقد ألفت أن أقرأ لقادة مصر السابقين خطباً وكتباً، رائعة، بما فيها من فن وإبداع. . وكان هذا الكتيب شيئاً آخر تماماً. .

هذا الكتيب قد أغراني بقراءته في جلسة واحدة. . وسمعت في عباراته القصيرة المتقطعة طلقات. . أشبه ما تكون ببندقية تقذف الطلقات القصيرة المتقطعة.

ولم يكن النغم العسكري هو الذي أغراني بقراءته المرة بعد المرة. . فقد سمعت فيه صوتاً جديداً. . لم يكن لي عهد أن أسمع مثله في مصر. . وقد قرأت كثيراً وسمعت مصر كثيراً، منذ أن كنت طالباً في المدرسة الثانوية في عكا، أتابع مع جيلي أخبار الثورة المصرية بعد الحرب العالمية الأولى. .[(1)].

قرأت الضابط المصري جمال عبد الناصر وهو يقول: » إن هناك دائرة عربية تحيط بنا، وإن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخها بتاريخنا. . حقيقة وفعلاً لا مجرد كلام. . إنها الدائرة التي عانينا فيها المحن نفسها وعشنا الأزمات نفسها، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت السنابك نفسها».

ثم قرأت لجمال عبد الناصر، كيف تفتح الوعي العربي في نفسه طالباً في المدرسة الثانوية حين كان يخرج مع رفاقه الطلبة لمناسبة ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ذكرى وعد بلفور، وكيف نما هذا الوعي فيه إلى أن دخل حرب فلسطين، وأحس في أعماق نفسه أنه «لا يقاتل في أرض غريبة وإنما يقاتل كواجب حتّمه الدفاع عن النفس».

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

قرأت هذا الكلام النابض كأنه يخرج من فوهة مدفع محتشد، يرسلها طلقة وراء طلقة، وقلت في نفسي «أين كلام هذا الضابط المصري من كلام الزعيم المصري مصطفى كامل، حين قال قبل خمسين عاماً: إن مصر ليست عربية، ومسلمو مصر بلا نزاع مصريون ومعظم أجدادهم من الفراعنة».

لقد قالها هكذا من غير مبالاة، زعيم مصر يومئذ، وإن كان بعض السبب فيها أنه قرف من بعض اللبنانيين الذين كانوا مع الاحتلال البريطاني جواسيس وعملاء، وحمداً لله أن لبنان كان من باعثي اليقظة العربية، في ذلك العهد، ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[٢].

وعزمت أن أمكث أياماً في بيتي لأكتب لهذا الضابط المصري جمال عبد الناصر، مذكرة مفصلة عن حركة الوحدة العربية لعله أن يكون له فيها دور. . ذلك أنه كان هو نفسه يتمثل دوره الكبير الذي ينتظره في المستقبل، وأنا أقرأ كلماته في «فلسفة الثورة» وهو يقول: «وإني أعود إلى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به. ونحن وحدنا بحكم «المكان» نستطيع القيام به».

لقد كانت الخاتمة من فلسفته، هي البداية في مذكرتي التي أخذت في إعدادها. . فقد قلت في صدرها «إن البطل الذي يقوم بالدور هو واحد منكم أنتم ضباط مصر الأحرار. . وأما المكان فإنه مصر. . وقد كانت مصر في تاريخها الطويل هي قلب العروبة النابض».

لقد كانت مذكرتي طويلة تقع في خمس وثلاثين صفحة استعرضت فيها نشوء حركة الوحدة العربية إلى يومنا ذاك. . وإني لأرى من حق الأجيال العربية الصاعدة أن أوجزها في ما يلي:

أولاً: إن حركة الوحدة العربية المعاصرة لا تستهدف بناء حياة عربية جديدة، ولكنها تتطلع إلى إعادة بناء الحياة العربية الواحدة التي عاشتها الأمة العربية أحقاباً طويلة من الزمان. .

ثانياً: إن الاستعمار الأوروبي هو الذي خلق هذه الحدود المصطنعة القائمة بين البلاد العربية، وقد كان الوطن العربي في عهد الاحتلال العثماني على مدى أربعمائة سنة من غير حواجز ولا حدود. . وكان ذلك شأنه قبل ذلك، في عهد الحكم العربي، أموياً وعباسياً وفاطمياً.

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة فاطر،» الآية ١٨.

ثالثاً: إن العرب في المشرق العربي قد بدأوا المحاولة الأولى في إقامة دولة الوحدة في دمشق، عقب الحرب العالمية الأولى مباشرة، ولكن الحلفاء حطموا تلك الخطوة التاريخية.

رابعاً: إن الثورة العربية التي قادها الشريف حسين مع أحرار العرب أثناء الحرب العالمية الأولى لم يكن هدفها إقامة دويلات وإمارات، وإنما كان هدفها الكبير إقامة الدولة العربية الواحدة.

خامساً: إن المشرق العربي قد رفض التجزئة التي فرضتها الاتفاقات الاستعمارية، فقد انعقد في دمشق في يوم واحد (٨ آذار/ مارس ١٩٢٠) مؤتمران عربيان كبيران، المؤتمر السوري وقد أعلن وحدة ديار الشام، والمؤتمر العراقي وقد أعلن الرغبة في قيام اتحاد بين العراق وسوريا . .

سادساً: قد اتسع نطاق الجهود لتوحيد المشرق العربي إلى مجال الوحدة العربية الشاملة بحيث تشمل كل دولة عربية مستقلة، وقد تجلى ذلك أول ما تجلى في المؤتمر العربي المنعقد في جنيف في آب/ أغسطس ١٩٢٩، وضم مندوبين عن الاتحاد السوري، والمؤتمر الفلسطيني، ومجلس الإدارة اللبناني وممثلين عن الجمعيات العربية في المهاجر، وكان في طليعة ما اتخذه من مقررات مطالبة عصبة الأمم «بالاعتراف بحق هذه البلاد بأن تتحد معاً في حكومة واحدة . . وأن تتحد بدورها مع باقي البلاد العربية المستقلة في شكل ولايات متحدة، فدراسيون».

سابعاً: إن المساومات التي تمت بين فرنسا وبين بريطانيا هي التي فرضت الحدود القائمة في المشرق العربي، ومن الأدلة الفاضحة على ذلك أن انسلخت بيروت عن دمشق وهي مرفأها التاريخي، وانفصل شرق الأردن عن دمشق وهو متصرفية الكرك . . وانشطرت فلسطين بحدودها الحاضرة عن ديار الشام وهي سوريا الجنوبية، وانفرز العراق ولم يكن إلا ولاية من الولايات العربية التي تحكمها الدولة العثمانية . .

ثامناً: ليس بين البلاد العربية ما يمنع الوحدة، بل كل الأسباب تدعو إليها . . فليس بينها من الفوارق اللغوية والعرقية والاجتماعية ما بين شعوب الاتحاد السوفياتي، أو بين شعوب بريطانيا العظمى، أو الولايات المتحدة. وهذا الاتحاد السويسري يضم أجناساً متعددة تتكلم الإفرنسية والإيطالية والألمانية، ولغة رابعة أخرى مجهولة الأصل والهوية!

تاسعاً: إن الوحدات الألمانية والإيطالية والأمريكية والروسية تنبئ كلها عن حقيقة ملهمة، وهي أن الدور الوحدوي يجب أن ينهض به القطر الأكبر والبطل

المؤهل. . وأن مصر هي القطر الأكبر. . أما البطل المؤهل، فأرجو أن يكون واحداً منكم أنتم يا رجال الثورة الأبطال.

فرغت من المذكرة. . ووضعتها في مظروف كبير من مظاريف الجامعة العربية وحملها أحد السعاة إلى سراي الثورة بالجزيرة وعاد ليقول لي: لقد سلمتها باليد إلى السيد علي صبري (نائب الرئيس في ما بعد) مدير مكتبه. .

وبعد أسبوع وصلني كتاب من السيد علي صبري «نتشرف بالإفادة أن مذكرتكم بشأن الوحدة العربية هي قيد الدرس من قبل مجلس الثورة. .» ومضت بضعة أيام على ذلك، وإذا بالتلفون يدق في مكتبي من سراي الجزيرة: «سيادة البكباشي جمال عبد الناصر حدد لكم موعدا اليوم، الساعة السادسة مساء. .».

وذهبت في الموعد المعين وكان ذلك أول لقاء لي معه في غير المؤتمرات الشعبية. . وكانت المذكرة أمامه وهو يقلبها بين أنامله، وأرى إشارات القلم تحت كثير من سطورها. . فقال:

«يا أخ أحمد. . المذكرة طويلة «أوي» وتحتاج إلى وقت طويل لدرسها، ووقت أطول لمناقشتها، وأنت تعرف مشاغلنا الكثيرة في الوقت الحاضر. . مشاكلنا في الداخل، ومشاكلنا مع الإنكليز».

قلت: «الوحدة العربية عمل ضخم، وإني لا أطالب بإنجازها غدا. . لكني أريدها أن تكون في برامجكم».

قال: «هل قرأت كتابي فلسفة الثورة. . نحن لسنا فراعنة. . نحن عرب أولا وآخراً. . وهل تعتقد أننا نستطيع أن نبدأ الوحدة العربية عن طريق الجامعة العربية؟»

قلت: «لقد كان هذا ظن المشتغلين بالقضية العربية. . . وأنا الآن في الجامعة العربية اجتاز مرحلة التجزئة. . غير أني أخشى أن تصبح الجامعة بديلاً عن الوحدة. .».

قال: «أنظر إلى هذا «الدولاب»، فيه الآن الرسائل والبرقيات من كل أنحاء الوطن العربي، كلها تطالب بالوحدة. . ومنذ أن قامت الثورة ونحن نستقبل الوفود العربية وهي تطالبنا بالعمل للوحدة العربية. . فماذا تريدنا أن نعمل. . وماذا نستطيع أن نعمل في ظروفنا الحاضرة؟؟»

قلت: «إن الوحدة لا تبنى في يوم وليلة. . إن أمام الوحدة العربية مقومات وأمامها صعوبات. . فلنحافظ على المقومات حتى تزول الصعوبات. .».

قال: «وكيف ذلك. . بالتحديد؟؟»

قلت: «أريد أن تتبنّى مصر الوحدة العربية لا لفظة لغوية أو عبارة عاطفية، وإنما تتبناها كفكرة قومية سياسية، وأن تنادي بها في كل مناسبة حتى تتعمق جذورها في مصر، وفي البلاد العربية كلها. . وسيأتي يوم تنتقل فيها الوحدة العربية من مرحلة التبني إلى مرحلة البناء. .».

قال: «وما معنى هذا الكلام عملياً؟. . .»

قلت: «أمامكم إصلاحات ضخمة في مصر، وهذه تتطلب سنين طويلة، ولكن ذلك لم يمنع أنكم بدأتم بها. . وأريد أن تكون الوحدة العربية على برامجكم وأن تبدأوا العمل لها، ولو اقتضى ذلك سنين طويلة، شأن مشروعاتكم الوطنية الداخلية».

وتكاثرت التلفونات على السيد عبد الناصر، وتكاثر الواقفون على الباب، وأحسست أني ظلمت الرجل بما فيه الكفاية، فقد حملته على قراءة مذكرة من خمس وثلاثين صفحة. . ثم جئت اليوم أبحث معه موضوعاً كبيراً وخطيراً، وذهنه وقلبه في شغل شاغل، في مشاغل الثورة ومشاكل مصر.

فوقفت أهم بالإنصراف، ووقف جمال عبد الناصر بكل هيكله، وبقامته الطويلة ومنكبيه العريضين، وعيناه النفاذتان تتفرسان بي، وأنا أقول: «إن بناء مصر الحديثة على عظمته سيكون له سطر واحد في التاريخ، ولكن بناء الوحدة العربية سيكون له فصل كبير، وسيكون الذين يصنعونه من صانعي التاريخ. . وإن الذي صنع الوحدة العربية أيام الحروب الصليبية كان مقيماً على مقربة منكم. . وأشرت إلى قلعة صلاح الدين، على الطرف الآخر من النيل. .».

واهتز جمال عبد الناصر لهذه الإشارة التاريخية وهو يقول: «أرجو أن نستطيع أن نصنع شيئاً بمعاونتكم جميعاً. . أنتم الأخوة العرب. . وأرجو أن نلتقي كثيرا، فالطريق أمامنا طويل. .».

غادرت سراي الجزيرة وأنا أقول في نفسي «لقد خلعت مصر من تلك «المدرسة» السياسية التي كانت تدعو قبل سنين إلى إنشاء اتحاد فدرالي بين مصر والسودان وإرتريا والحبشة ويوغندا، لإنشاء دولة حوض النيل. . تريد الآن أن تبني دولة المحيط والخليج. .

وهذا الذي يجري في القاهرة من لقاءات شعبية ورسمية بصدد الوحدة العربية سبقته موجات عارمة من التصريحات الرسمية في البلاد العربية الأخرى وكلها تنادي بالوحدة العربية. منها ما هو منبعث عن إيمان عميق، ومنها ما هو زلفى إلى الجماهير. .

وكانت قد دخلت هذه الأصداء العارمة إلى حرم الجامعة العربية التي خنقت أنفاس الوحدة العربية، فإذا بالمشاعر العربية تفرضها على جدول أعمال الجامعة في شكل مشروعات ومقترحات. . وكنت كمن يتلقف كرة ويحاول أن يدفعها من لاعب إلى لاعب حتى تدخل الهدف، ولكن عبثاً وعبثاً حاولت. . فإنه باطل الأباطيل أن تُبنى الوحدة العربية من داخل الجامعة العربية.

وكان أول هذه المشروعات، المشروع الاتحادي الذي قدمه الدكتور ناظم القدسي رئيس وزراء سوريا في سنة ١٩٥١ إلى الجامعة العربية، وكان الدكتور القدسي قد قام بزيارة للدول العربية ليمهد لمشروعه. . . وحينما حلت الدورة العادية، جاء إلى القاهرة وطرحه على مجلس الجامعة.

والتقيت بالدكتور القدسي غير مرة في الفندق وفي الجامعة، أستطلعه الدوافع الحقيقية وراء هذا المشروع، فقد قيلت حوله أشياء كثيرة في ذلك الوقت. . فأفضى إليّ بالخلافات التي كانت تدور في داخل صفوف حزب الشعب، وهو الحزب الحاكم في ذلك العهد، بشأن موضوع الوحدة. . . فمن قائل باتحاد القطرين العراق وسوريا. . ومن قائل بأن نوري السعيد يريد الاتحاد يوما ويتنكر له يوما آخر. . ومن قائل إن الملك عبد الله قد يثب على سوريا عاجلاً أم آجلاً. . ولم يكن بد أمام هذه الأسباب إلا المطالبة باتحاد عربي شامل. .

والواقع أنه كان هنالك سبب فوق هذه الأسباب، أعرفه بحكم اتصالي بالأحداث السورية، وهو أن الشعب كان يدعو حزب الشعب إلى الحساب ويصرخ بالسؤال الكبير. . أين الوحدة التي وعدتم بها. .؟ لقد دخلتم الانتخابات على أساس الوحدة العربية، فأين وعدكم الذي وعدتم. .

وانعقد مجلس الجامعة وفق تقاليده المعتادة، وخرج المصورون من أمام القاعة بعد أن صوروا أولئك السفراء، لتظهر صورهم في اليوم الثاني أمام الأمة العربية، بين مبتسم ومتجهم، ومتأمل ومتسائل. .

وابتدأت الجلسة كالمعتاد بتلاوة الرسائل، ثم انتقلنا إلى جدول الأعمال، وكان على رأسه: مشروع سوريا. . وقرأت المذكرة السورية بكاملها. . وكانت مذكرة طويلة عن خطورة الحالة الدولية التي كانت سائدة آنذاك، ثم استعرضت الخطر الإسرائيلي، ودعت إلى قيام اتحاد عربي يشمل الدول العربية جميعها، في شؤون الدفاع القومي والسياسة الخارجية والنواحي الاقتصادية، وبسطت المذكرة، بعد ذلك، أشكال الاتحاد الثلاثة: الدولة المتحدة، الاتحاد الفدرالي، والاتحاد الكونفدرالي، وأن الشكل الأول هو الأجدر والأنفع، واقترحت المذكرة في النهاية أن يعلن مجلس

الجامعة موافقته من حيث المبدأ على المذكرة السورية، ومن ثم تؤلف لجنة فرعية: للاتصال السريع بعواصم الدول العربية لعرض الفكرة وتذليل الصعوبات وتحضير النصوص والوثائق اللازمة.. ثم يدعى مجلس الجامعة لإقرار ما تم عليه الوفاق.

وفرغت من قراءة المذكرة بكاملها، ورفعت رأسي لأتفرس في وجوه المجتمعين، فرأيتهم يتشاغلون في الكتابة.. هذا يكتب في مفكرته.. وذاك يؤشر على ما يراه مليحاً أو قبيحاً في المذكرة.. وذاك يكتب برقية عاجلة إلى حكومته يسأل عن المخرج من ورطة «الاتحاد العربي».

ولم ينبس أحد ببنت شفة.. وقال الوزير العراقي الدكتور الجمالي بلهجة حادة كأنما يوشك أن يعلن شيئاً هاما: «نحن نرى.. أن يتفضل الدكتور القدسي بإيضاح المذكرة!!» ومع أن المذكرة السورية كانت مسرفة في الشرح والإيضاح، فقد أعاد الدكتور القدسي الحديث في موضوعها شارحاً مختلف جوانبها، موضحا ما ليس في حاجة إلى الإيضاح..

وهنا بلغت الساعة الثالثة بعد الظهر.. فكانت فرصة ذهبية.. فأعلن الرئيس تأجيل الجلسة إلى اليوم الثاني.. «حتى ندرس المذكرة بصورة أوفى.. فإنها مذكرة قيمة تحتاج إلى درس..»!!

ودعاني الدكتور القدسي إلى فندق سميراميس لتناول الغذاء، وعدنا إلى بحث الموضوع نفسه.. وبدأه القدسي، وهو يجفف نظارته فقد أعياه الجهد الذي بذله في مجلس الجامعة:

قال: «وكيف رأيت الشرح الذي أدليت به في الجامعة».

قلت: «كانت محاضرة علمية جيدة، ولكنها غير نافعة ولا مجدية...»

قال: «ولماذا. لقد دعمت مذكرتنا من جميع جوانبها..».

قلت: «كل ذلك ليس بنافع.. لا المذكرة ولا الإيضاح».

قال: «ولماذا أريد أن أعرف رأيك بصراحة أنت هنا في القاهرة، وفي وسط الجامعة..».

قلت: «وهل تنتظر من الجامعة العربية أن تقرر الوحدة وهي التي قامت أصلاً، على التجزئة، وعلى تكريس استقلال الدول العربية السبع، بحدودها الحاضرة، تماماً كما أقامها الاستعمار قبل الجلاء.. لقد سبقك سعد الله الجابري رئيس وزراء سوريا ومعه وزير خارجيته جميل مردم في مشاورات الوحدة في الإسكندرية، فاقترحا إنشاء

الدولة العربية المركزية . . وأنت تعرف مصير الاقتراح، لقد رفضه الجميع . . وعاد الوفد السوري إلى دمشق بخفي حنين أو بغير حنين».

قال: «ولكن الظروف تغيرت . . كان ذلك في عام ١٩٤٤، ونحن الآن في عام ١٩٥١، لقد انهزمنا في حرب فلسطين . . ».

قلت: «إن سوريا هي الجمهورية العربية الوحيدة في العالم العربي، باستثناء لبنان، والدول العربية الأخرى خمس ملكيات، فمن الذي يتحد معكم؟»

قال: «إذن لا فائدة من المذكرة؟»

قلت: «إنها دعوة إعلامية لإبقاء الوحدة العربية حية دائما . . ولا ضرر من التجزئة على كل حال».

وافترقنا، الدكتور القدسي وأنا، لنلتقي في اليوم الثاني، في اجتماع مجلس الجامعة . . وأعلن الرئيس افتتاح الجلسة «نستأنف البحث في المذكرة السورية» . . . ولكن أحداً لم يستأنف البحث . . . سكت الجميع، ونظر الجميع بعضهم إلى بعض . . وقال الرئيس لربما يكون من المفيد أن يعيد الدكتور القدسي شرحه للموضوع حتى نستذكره جيداً، ونفهمه مليا . . وعاد الدكتور القدسي، والغضبة الحلبية في وجهه، يشرح ويشرح، مناشداً في النهاية «مجرد تبني الفكرة من حيث المبدأ، ودرس التفاصيل في اجتماعات مقبلة».

ولكن أحداً في المجلس لم يعر انتباهاً للمذكرة السورية . . . وكانت الصيغة «الكريمة» التي توصل إليها، قراراً يقول «بإحالة المذكرة إلى الحكومات العربية لدرسها»!

وصاح الدكتور القدسي: «لقد أرسلنا هذه المذكرة منذ شهرين إلى الحكومات العربية»، ولكن رئيس الجلسة صاح بدوره: «سيد شقيري . . انتقل إلى الموضوع الثاني على جدول الأعمال . . ».

وقد أحيلت المذكرة السورية إلى الحكومات العربية، فلم يعقب أحد . . وأدخلت المذكرة إلى «المخزن» في الجامعة العربية، ولعلها أحرقت، في جملة ما يحرق من المهملات في كل بضع سنوات . .

ثم أفاق النظام الملكي في العراق على فكرة الوحدة العربية، فأعلنت الحكومة العراقية في خطاب العرش في أواخر عام ١٩٥٣، وكان ذلك بمثابة رد على المذكرة السورية، استمرارها في السعي لتحقيق الاتحاد العربي.

وفي الدورة العادية التي عقدها مجلس الجامعة في ربيع ١٩٥٤ تقدم الدكتور فاضل الجمالي وزير جارجية العراق بمذكرة مختصرة تقترح إقامة اتحاد عربي تنضم إليه الدول التي توافق على الاتحاد، وتعلن استعداد العراق «للدخول في الاتحاد مع أي قطر من الأقطار العربية الراغبة فيه».

وكما جرى بالمذكرة السورية قبل عامين . . . قرأت المذكرة العراقية على مجلس الجامعة . . وشرحها الدكتور فاضل الجمالي، ولكن بحماس أقل مما فعل الدكتور القدسي بمذكرته . . وكان واضحاً من لهجة الوزير وطريقة عرضه للموضوع أنّ الحكومة العراقية كانت تجامل الشعب العراقي في طموحه للوحدة، وتداعب آماله في قيام دولة الوحدة . . وكان ذلك كل ما أرادته الحكومة العراقية . .

وأحيلت المذكرة العراقية كأختها السورية إلى الحكومات العربية لتدرسها وتبدي رأيها في الاجتماع المقبل، فما علقت عليها الحكومات العربية، ولا أثارها الوفد العراقي في ما بعد . .

وحين انتهت اجتماعات المجلس، دخل الدكتور الجمالي إلى مكتبي انتظاراً لسيارته . . فقال:

«ولماذا كنت تقرأ مذكرتنا بصورة ساخرة . . ؟»

قلت: «لم أكن ساخراً . . ولكني كنت في الواقع غير جاد في قراءتها».

قال: «ولماذا.؟»

قلت: «كنت غير جاد في قراءة مذكرتكم، لأن الحكومة العراقية غير جادة في تقديمها».

قال: «ولكن هذا الموضوع تضمنه خطاب العرش».

قلت: «نعم، لأن خطاب العرش تضمنه، فإني لا آخذه مأخذ الجد، وبصراحة فإني لا أعتقد أن الوحدة يمكن أن تأتي عن طريق الهاشميين».

قال: «أنت عندك عقدة الهاشميين . . أنت تكرههم . . لقد كنت عميلاً لسوريا . . وأنت الآن عميل لمصر».

قلت: «أنا لست عميلاً لسوريا ولا لمصر . . إنما عميل للوحدة العربية».

قال: «أنت تظلم الهاشميين . . بلا سبب ولا برهان . . هكذا للشيطان!!»

قلت: «إن الهاشميين يظلمون أنفسهم . . لقد ألقوا بأنفسهم في أحضان

الإنكليز، ويكفي أن تتذكر كلمة الأمير (الملك) عبد الله. . ألا تذكرها يا فاضل؟»

قال: «وماذا قال الأمير عبد الله، هل كفر. . ماذا قال؟»

قلت: «لقد كتب إلى والده الشريف حسين يقول «وما مثل الذين يعترضون عليكم في موالاة الإنكليز إلا كمثل من يحاول الاعتراض على الله في تدبير شؤونه التي يبديها ولا يبتديها. .»

ووصلت سيارة الدكتور الجمالي إلى فناء الجامعة وانتهى هذا الحوار بيننا، نحن الصديقين اللدودين، والعدوين الودودين، كما كنت أردد له دائماً، فقد كنا صديقين أيام كنا في الجامعة الأمريكية، وأصبحنا فيما بعد عدوين في السياسة العربية. .

وانتهى المجلس في تلك الدورة ليكون الدليل الأخير والبرهان الكبير. . أن الجامعة العربية أصبحت مهرباً. . تهرب الحكومات العربية من خلاله، من شعوبها ومن مطالب شعوبها في الوحدة العربية. .

وقد برع الحكام العرب في الانتفاع بهذه الجامعة، فكانوا كلما عادوا إلى بلادهم وسألتهم شعوبهم ماذا صنعتم بالوحدة العربية. . كان الجواب على ألسنتهم بأصوات عالية:

«لقد فعلنا كل شيء. . ولكن الجامعة العربية لم توافق. .»

تلك كانت كلماتهم في الوحدة وفي غير الوحدة. . وذلك ما قالوه على مدى خمسة وعشرين عاما.

وقال الله غير ما قالوا: ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً**﴾(٣) صدق الله العظيم.

(٣) **القرآن الكريم**، «سورة الكهف،» الآية ٥.

الوحـــدة العربيـــة عنـــد أربعـــة:
جمال عبد الناصر، القوتلي، الإمام أحمد، فيصل

كان الشَّطر الثاني من الخمسينيات «وقفاً» على الوحدة العربية، فانحبست تلك السنون على حركتها ونشاطها وتعاظمها، سواء في ذلك الصعيد الشعبي أو الصعيد الرسمي . .

وكان زمام المبادرة في يد القوى الشعبية، من قادة الفكر العربي: فقد طال انتظارها للوحدة العربية، وخاب أملها بعد تجارب السنين، فلم تعد الجامعة العربية خطوة على الطريق.

ولم تكد الثورة المصرية توطد أقدامها، وتكشف عن عروبتها حتى غدت القاهرة المقر الدائم للجامعة العربية، وللمؤتمرات العربية الشعبية . . ولكن بفارق واحد كبير . . .

ذلك الفارق الواحد الكبير هو أن المؤتمرات العربية الشعبية كانت تعمل بوحي من نظرتها العربية الواسعة والمؤتمرات الرسمية تعمل بوحي من نوازعها الإقليمية الضيقة . .

وهكذا تعاقبت المؤتمرات العربية للأطباء والمهندسين والصحافيين والصيادلة والمحامين والمعلمين والعمال، و . . . وأصبحت القاهرة وعلى مدى السنين، خلية نحل تعج بالوفود العربية من كل أرجاء الوطن العربي . . ومع الوفود نساؤهم وأطفالهم، بين رضيع وفطيم!!

وكان كثير من هذه الوفود يزورون الجامعة العربية ليروا أين وصلت . . وماذا أنجزت، حتى أصبحت الجامعة ومن فيها، من المعالم السياحية في القاهرة، وكنت أكشف لهم الحقيقة التي بلوتها وعجمتها، وكأنما أصبحت وظيفتي، كأمين عام مساعد للجامعة العربية، أن اكشف عن معايب الجامعة وسوآتها . .

ولكني كنت «انتفع» بهذا المنصب لأمثل الجامعة العربية في هذه المؤتمرات الشعبية، وأتحدث فيها مع المتحدثين، عن الوحدة العربية . .

ولم تعد هذه المؤتمرات تعنى بأمورها المهنية، فقد طغت تطلعاتها القومية على الطب والهندسة والمحاماة والصيدلة و . . و . . . بل لعل الارتباطات المهنية أصبحت عند الكثيرين وسيلة لعقد الاجتماعات، وتنظيم المؤتمرات، للبحث في أمر واحد، لا سواه، هو موضوع الوحدة العربية . . كيف نبنيها، ومتى؟؟

وإني لأذكر مؤتمر المهندسين العرب الذي انعقد في قصر عابدين، وخطبت فيه باسم الجامعة العربية، وتحدثت عن فن العمارة في مصر القديمة، واليمن، باعتبارهما طلائع الحضارة الإنسانية في البناء . . واستطردت من ذلك إلى القول إن البناء الكبير الذي نستطيع أن نقدمه لتاريخنا المعاصر، هو أن نبني الوحدة العربية . . وليتفضل المهندسون البناؤون . .

وهكذا كانت كل المؤتمرات العربية الأخرى تدعو إلى الوحدة . . في الخطب والقرارات، فتنقلها الصحافة والإذاعة إلى الوطن العربي من المحيط إلى الخليج . . وهذه المؤتمرات نفسها هي التي صاغت «من المحيط إلى الخليج» شعاراً للوحدة العربية.

وكانت هذه الوفود العربية وهي في القاهرة، تلتقي بقادة مصر، وخاصة الرئيس جمال عبد الناصر، في المؤتمرات والندوات، وفي البيوت، والحديث دائماً هو الحديث إياه . . الوحدة العربية . . كيف تبنى، ومتى؟

وفي واحد من هذه اللقاءات، وكان الجو مرحاً فيه مباسطة ومكاشفة، قلت للرئيس جمال عبد الناصر:

«إلى متى تظل مصر مشغولة بأمورها المصرية؟».

قال: «وماذا تعني؟»

قلت: «ومتى تدخل مصر الساحة العربية؟»

قال: «إن إصلاحاتنا في مصر هي في صميم الساحة العربية . . ولكن ماذا تعملون أنتم في الجامعة العربية؟»

قلت: «نحن نعمل كل شيء، إلا في الشؤون العربية!!».

قال (وهو يضحك ضحكة عالية): «ولكن ماذا تريدون من مصر أن تعمل . . نحن مع الشعوب العربية في كل ما تريد . .».

قلت: «الوحدة العربية هي مطلب الأمة العربية. وهي الشعار الذي يجب أن يعلو على كل شعار . .».

وتحدث آخرون من الوفود العربية بهذه المعاني، وهم يدعون مصر أن تقوم بدورها لتحقيق هذه الغاية، وعبد الناصر يعود ليكرر قوله: «نحن مع الشعوب العربية. .».

وكانت مصر في ذلك الوقت ما تزال غارقة في أمورها الداخلية، وخاصة تجربتها الأولى بإنشاء الاتحاد القومي. . . وهو الذي سبق الاتحاد الاشتراكي.

وازدحمت القاهرة بالوفود العربية، بين مدعو ومتطوع، لمناسبة انعقاد المؤتمر الأول للاتحاد القومي. . وكانت الفنادق كلها أشبه بندوات عربية، تسمع فيها اللهجات العراقية والشامية والأردنية واللبنانية، كلها تتحدث في موضوع الوحدة العربية. .

وأيقنت أن عبد الناصر، وله في رأسه «رادار» سريع الالتقاط للأحاسيس العربية، وفي معدته عصارة سريعة «الهضم» للأفكار العربية. . وأيقنت أنه لا بد أن يحدث الأمة العربية عن آمالها في الوحدة العربية. .

وقد صح ظني، فقد التقينا في السرادق الكبير في اليوم المحدد، والوفود الشعبية تحتل الصفوف الأولى.

وتحدث عبد الناصر عن الوحدة العربية بكلمات واعية جامعة. .

فقال: «إنه ليشرفنا أن نكون دعاة وحدة عربية شاملة. . إنّ العرب أمة واحدة. إن ثورتنا العربية التي تبلورت في عقيدة القومية العربية باعتبارها طريقنا للوحدة كانت فكراً واعياً بقدر ما هي طبيعة أصيلة. . وإننا نناصر كل وحدة عربية إلى أي مدى. . ومع أي شعب عربي آخر، إيماناً صادقاً منا بأن الوحدة العربية هي أعلى مراحل الوطنية العربية».

عند هذه الكلمات الرائعات وقف الشعب كله يهتف «وحدة وحدة» ولم يقتصر الهتاف على شباب الاتحاد الذين تمرسوا بهذا النوع من النشاط التنظيمي، بل وقفت الوفود العربية، وقد علا صوتها على صوت الشعب المصري، وهي تصيح بنداءات الوحدة. . وقد سرني أن عبد الناصر كان يقرأ من خطاب مكتوب على غير عادته في معظم الأحوال. . فهذا أول كلام مصري مسؤول، فيما أرجح عن الوحدة، وما أردته أن يكون خطاباً مرتجلاً ساقته عاطفة عابرة. . وكان الله يحب المحسنين.

نظر أعضاء الوفود العربية بعضهم إلى بعض، وهم من المدمنين على المجيء إلى القاهرة للدعوة إلى الوحدة العربية، يغمرهم السرور، وقد رأوا أن المؤتمرات العربية

الشعبية قد آتت أكلها، وهذا خطاب عبد الناصر يتجاوب مع الجماهير العربية.

ولو أن زعيماً عربياً من المشرق العربي تحدث يومئذ عن الوحدة العربية، بمثل ما تحدث به عبد الناصر لكان أمراً عادياً، فلم تكن هذه الدعوة غريبة على العراق والشام. . ولكن الحدث الخطير، أن تخرج هذه الدعوة من مصر، ومن مصري مسؤول، وبهذا الوضوح الحاسم القاطع، بعد أن كانت مصر وقادة مصر، ولسنين طويلة يتحدثون عن «الرابطة الشرقية» «والأقطار الشرقية» حين تدور ألسنتهم عن الأقطار العربية. .

ولكن القوى الشعبية في العالم العربي لم تصفق لعبد الناصر وانتهى، ولم يدخل في حسابها أنه سيصنع الوحدة العربية ويقدمها في باقات من الزهور للأمة العربية. . بل مضت في أداء دورها القومي في الدعوة للوحدة العربية. . وتأليب الجماهير حول شعاراتها، ومناشدة القادة العرب أن يضطلعوا بمسؤولياتهم لإنجازها. . ذلك أن الحاكم إذا تُرِكَ تَرَكَ. .

ولم يعد أمام الرأي العام العربي في عام ١٩٥٤ والأعوام التي تبعت، إلا موضوع الوحدة العربية، ونشطت جمهرة المثقفين للإعداد لمؤتمر يضم خريجي الجامعة الأميركية. . ووصلت إلى القاهرة هيأته التحضيرية التي كان يرأسها السيد أميل البستاني، صاحب الأعمال، اللبناني المعروف، وطافوا على دور الصحف واتصلوا بالاتحاد القومي المصري. . وجاءني بوصفي منتسباً إلى الجامعة الأميركية وأنا واحد من المتخرجين، والأمين العام المساعد في الجامعة العربية. . .

واعتذرت عن الاشتراك في المؤتمر، ولكني «سأساهم في أكبر موضوع يهم الأمة العربية في ظروفنا الحاضرة»، وسأل أميل البستاني بجثته المكتنزة بالأعمال والأموال: «يا ساتر وما هو الموضوع؟».

قلت: «لدي مشروع كامل عن دستور «الولايات العربية المتحدة» كنت وضعته منذ مدة، وها أنا أقدمه لكم ليكون بين ملفات المؤتمر. عدلوه، بدلوه، المهم أن تضعوا لنا دستوراً للولايات العربية المتحدة. .».

وانعقد المؤتمر في صيف ١٩٥٤، وشهده الخريجون من أنحاء الوطن العربي، وعرض مشروع «الولايات العربية المتحدة «فعدل وبدل، وأقر دستوراً كاملاً وشاملاً، وفي عام ١٩٥٥ انعقد المؤتمر ذاته على نطاق أوسع حضره ما يقرب من خمسماية مندوب يمثلون نخبة الفكر العربي الواعي، فأجمع على مطالبة قادة العرب «بأن يبادروا إلى العمل لإقامة الاتحاد العربي. .».

وفي ربيع عام ١٩٥٦ عقد المحامون العرب مؤتمرهم الكبير في القاهرة، ووجهت إليّ اللجنة التحضيرية الدعوة، بوصفي محامياً، وأنا معتزل المهنة من أيامي في فلسطين منذ عام ١٩٤٥، فبعثت إلى المؤتمر برسالة اعتذر وأشكر، أرفقتها بمشروعي الذي أعددته قبل عامين «دستور الولايات العربية المتحدة». . ولم يكن المحامون وبينهم العارفون بالدساتير الاتحادية، بحاجة لهذا المشروع، بل إنهم لم يكونوا بحاجة إلى من يستنهض همتهم، فقد أصبحت الوحدة العربية قضية قومية شعبية، فأعلن المؤتمر بالاجماع أن تحقيق الوحدة العربية هو أكبر أهداف الأمة. . وأن على مصر وسوريا «المبادرة لإقامة اتحاد فدرالي بينهما يكون مفتوحاً لكل دولة عربية لها مقومات التحرير. . .».

وفي أوائل صيف ١٩٥٦، صادف أن دعيت إلى دمشق، لأقدم إلى الحكومة السورية رأيي في كيفية معالجة القضية الفلسطينية في الدورة المقبلة للأمم المتحدة، فقلت: «ما لكم وللأمم المتحدة، إن خير ما تخدمون به القضية الفلسطينية هو أن تبادروا إلى إقامة اتحاد مع مصر. . لقد أصبح الاتحاد مطلباً شعبياً. . وقال رئيس الوزراء السيد خالد العظم:

«كأننا وإياك على ميعاد. . لقد كنا نبحث هذا الموضوع في القصر الجمهوري بالأمس، وإنّ النية متجهة لإصدار قرار يتبنى الاتحاد بيننا وبين مصر. . وسنطرح الأمر على مجلس النواب. . ولكن هل تعتقد أن عبد الناصر يوافق على هذه الخطوة. . أنت مطلع على الأمور في مصر، فما هو تقديرك. . ؟»

قلت: «لا أستطيع أن أقول على وجه التحديد. . أنا لم أبحث هذا الموضوع مع المسؤولين المصريين منذ عهد قريب. .».

قال: «إن معلومات سفارتنا في القاهرة. . . أن عبد الناصر ليس مستعداً للدخول في الوحدة في الظروف الراهنة. .».

قلت: «إنّ دعوة الوحدة قد انطلقت منذ البداية من دمشق. . وعليكم أن تقنعوا عبد الناصر، بل إني أرى أن تتخذوا قراركم، وتضعوه أمام الأمر الواقع. . ولا أظن أنه يتردد إذا رأى منكم موقفاً حازماً. .».

وكانت ليلة الخامس من تموز/يوليو عام ١٩٥٦ من أحلى ليالي دمشق في عهد الاستقلال. . ففي ذلك المساء قرر مجلس الوزراء السوري قراره التاريخي بتبنى الدعوة لإقامة اتحاد عربي بين مصر وسوريا. . وطرح الأمر في اليوم التالي على مجلس النواب. . فأقره بإجماع رائع، ألهب الأكف بالتصفيق. . . وبرّد المآقي بدموع الفرح. . . وكان عيداً. . . . وكان مهرجاناً. . وسهرت الشام على الحلم الكبير

حتى الفجر، فقد رأت فيه فجر آمالها المجيدة وأمانيها العتيدة..

وتفجرت مع فجر ذلك اليوم البهيج مشاعر الفرحة العارمة في أرجاء الوطن العربي، كما لم تشهده إلا يوم زوال الاحتلال..

وصحَّ ظني، فقد أعلن عبد الناصر ترحيبه بذلك القرار التاريخي وأعاد إلى الأذهان أن الدستور المصري الجديد قد قرر «أن مصر جزء من الوطن العربي وأن شعب مصر جزء من الأمة العربية»، وبهذا سلّم الشعب العربي مشعل الوحدة إلى أيدي القادة في دمشق والقاهرة.

ومضى عام أو يزيد قليلاً على فكرة الاتحاد المصري السوري، وهي في حيز الإعلان والبيان، حتى أخذت سوريا زمام المبادرة مرة ثانية، فقد أصبح الشعب السوري يتساءل: «ثم ماذا؟ والشام وطن الوحدة منذ انبلاج الحركة العربية»، فوجهت الحكومة السورية دعوة إلى مجلس الأمة المصري لزيارة دمشق.. وكانت فرحة كبرى للقاء رسمي بين وفد مصر ولجنة الشؤون الخارجية السورية (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٧)، وانتهى اللقاء إلى قرار يعلن «رغبة الشعب العربي في مصر وسوريا بإقامة اتحاد فدرالي بين القطرين، ودعوة حكومتي مصر وسوريا للدخول فوراً في مباحثات مشتركة، بغية استكمال أسباب تنفيذ هذا الاتحاد» ووافق البرلمان السوري بالإجماع على هذا القرار، ووفد مصر موافق ومصفق..

ولم تكد إذاعة دمشق تعلن على العالم هذا القرار، حتى بادر مجلس الامة المصري وفي نفس الليله إلى الموافقة عليه بين التصفيق اللاهب والهتاف المدوي والنشيد البهيج. كنت في منزلي بالزمالك في القاهرة وقد لصقت أذني ذلك المساء إلى الراديو وهو يذيع قرار البرلمان السوري ثم قرار مجلس الأمة، والتلفون يدق في منزلي، ورنات جرسه جذلانة فرحانة.. والتهاني تنهال عليّ من أصدقائي المصريين، والوزراء والصحافين، وهم يقولون، بارك الله فيكم.. أنتم السوريون أصحاب الفضل.. والفضل للمتقدم.. وتلجلج لساني في تلك الليلة، وكان عهدي به أن يسعفني كلما دعوته، ولكن ارتج على جوارحي كلها.. تريد أن تفرح لا أن تتكلم..

وتوالت الاجتماعات والزيارات بعد ذلك بين دمشق والقاهرة، وبالعكس لاتخاذ الإجراءات التنفيذية لإقامة دولة الوحدة.. وأصبحت دار جمال عبد الناصر في منشية البكري ندوة عربية لبحث أمور الوحدة العربية، دون أن يكون فيها للشؤون المصرية إلا حظ قليل..

وكانت الوفود السورية، العسكرية منها والمدنية تفد على القاهرة، وفي كل مرة معها جديد.. يوم بوحدة فدرالية، ويوم بوحدة اتحادية، ويوم بنظام برلماني، ويوم

رياسي . . حتى سئم العسكريون من السياسيين، وضجر السياسيون من العسكريين. لقد كانت سوريا مسكينة حقاً في تلك الأيام . . شعب عظيم كل عمره للوحدة، ولكن قيادته الممزقة، كانت ممزقة فيما بينها، حول ما يكون وما لا يكون . .

وفي أوائل عام ١٩٥٨ قدم إلى القاهرة وفد سوري كبير على رأسه شكري القوتلي، وفيه خالد العظم وصبري العسلي وصلاح البيطار ومأمون الكزبري وفاخر الكيالي، وعفيف البزري وغيرهم من رجالات سوريا، العسكريين قبل المدنيين . .

وحملتني «سوريتي» وصلاتي القديمة أن أذهب للسلام عليهم في قصر القبة فرأيتهم في غرفهم يتجادلون ويتباحثون، فلم يكونوا قد اتفقوا إلا على موضوع الاتحاد، بالاسم والعنوان . . ﴿**فبأي آلاء ربكما تكذبان**﴾[١] .

ودخلت غرفة الرئيس القوتلي ومعه خالد العظم، وكانا مقطبين واجمين، فسلمت وجلست . .

وقلت: «خيراً يا فخامة الرئيس؟»

قال: «نحن ننتظر مشروع بيان عن الاتحاد، يعده الإخوان في الغرفة المجاورة، وقد مضى عليهم يومان ولم ينجزوا شيئا . .».

قلت: «ولم التأخير؟»

قال: «الإخوان مختلفون على دستور الاتحاد . . خالد بك له رأي في الموضوع . .».

ودخلت في استيضاح، فبدا لي أن الرئيس القوتلي قد تعب وضجر، وهو يوافق على أي شيء . . وأن خالد العظم مصر على اتحاد فدرالي، وأن باقي أعضاء الوفد خرجوا من دمشق يريدون الاتحاد، ولما وصلوا إلى القاهرة أصبحوا يطالبون بالوحدة!!

وما هي إلا لحظة حتى دخل الفريق «المشير» عبد الحكيم عامر ومعه بقية أعضاء الوفد السوري: وهم يقولون: لقد اتفقنا . . وقال الرئيس القوتلي وخالد العظم: «الحمد لله . .».

وخرجت . . فقد أصبحت الجلسة رسمية، ولم يعد لي فيها مكان . . وأدركت أن الأمر قد أدرك النهاية . .

وفي مساء اليوم الأول من شباط/ فبراير من عام ١٩٥٨ كنت منطوياً على نفسي

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآية ٢٥.

في غرفتي، وهو يوم لا أنساه كل حياتي. . وإذا بأولادي يتراكضون إليّ: بيان مهم. . في صوت العرب. . وفتحت الراديو على النبأ الكبير الكبير. .

كان المذيع ينطق، وكأنما أوتار صوته قد انشدت إلى قلوب الملايين من الأمة العربية. . لقد كان يعلن «توحيد سورية ومصر في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية. . في نظام ديمقراطي رياسي. . ويكون لهذه الجمهورية علم واحد، يظلل شعباً واحداً. . وأن يكون باب الوحدة مفتوحاً لكل بلد عربي». .

ثم سرد البيان الجوانب الدستورية للوحدة، معلنا أن مجلس الأمة يتولى السلطة التشريعية، وأن رئيس الجمهورية يتولى السلطة التنفيذية، وأن في كل من الإقليمين الشمالي أو الجنوبي مجلس تنفيذي يمارس الصلاحيات الإقليمية، ويرأسه رئيس يعينه رئيس الجمهورية. . إلى آخر التفاصيل الدستورية التي جاءت لتجعل الدولة الجديدة جمهورية عربية «واحدة»، لا جمهورية عربية «متحدة» كما ورد اسمها. . وهذا خطأ دستوري(٢)!!

واستمعت إلى هذا البيان التاريخي ثانية وثالثة، كما استمع إليه الملايين من الأمة العربية، وأصغت إليه إسرائيل وهي تزمّ شفتيها على أسنانها، فسيصبح الجيشان السوري والمصري جيشاً واحداً، على رأسه قائد واحد ووزير دفاع واحد، وما كانت إسرائيل لتقوم في البداية إلا لأن حولها سبعة جيوش، على رأسها سبعة قادة، وفوقهم سبعة وزراء دفاع.

وعمّت الفرحة أرجاء الوطن العربية فكان الناس يتبادلون التهاني في الشوارع والمقاهي والبيوت، فقد رأوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الفجر ينبثق على الحلم الكبير. .وانبعثت نفحات صوفية تجلت في تلك الأيام في خطب الزعماء. . زعماء مصر وسوريا على السواء. .

فأعلن الرئيس القوتلي أنه يرشح السيد جمال عبد الناصر لرياسة الجمهورية العربية المتحدة، مشيداً بما «يتمتع به من صفات النزاهة والجرأة والإقدام». . وأشاد السيد جمال عبد الناصر من جانبه بالسيد شكري القوتلي مشيراً إلى «أن الجمهورية العربية المتحدة هي النتيجة الكبرى لجهاده في سبيل الوحدة. . ». وأعلن السيد أكر م الحوراني رئيس مجلس النواب السوري أن القوتلي «حمل آمالنا في الحرية والكرامة والاستقلال والجلاء، وجاء اليوم يحمل أمنيتنا في تحقيق وحدتنا». وسجل مجلس النواب السوري قراره التاريخي منوهاً «بأن المثل الرائع الذي ضربه السيد شكري

---

(٢) يرجع إلى مصادر القانون الدستوري في الفرق بين «متحدة» و«واحدة».

القوتلي بصدق جهاده سيظل الهدى الذي تهتدي به أجيال الأمة العربية» . .

تلك كانت النفحات الروحية في تلك الأيام الروحانية . .

وفي أيام تلك الموجات العارمات في الأفراح والمباهج، وصل إلى مطار القاهرة الأمير البدر ولي عهد والده الإمام أحمد ملك اليمن . . وشاع الخبر في مثل البرق أنه جاء ليعلن انضمام اليمن إلى الجمهورية العربية المتحدة!!

وسارعت إلى قصر الطاهرة في القاهرة، حيث كان ينزل الأمير البدر، وقد سبقت لي زيارات لليمن، رأيت فيها العجب وسمعت منها العجاب، كما فصلت في مذكراتي(٣)، وبادرته بالسؤال كما سمعته من عامة الناس في الشوارع: «وهل ستنضمون إلى الجمهورية العربية المتحدة؟»

قال: «وهل هذا معقول؟»

قلت (مازحا): «تصبح لك وظيفة أكبر في دولة أكبر!!»

قال: «وما هي الوظيفة التي ترشحني لها؟؟»

قلت: «تصبح ولي عهد الجمهورية العربية المتحدة!!»

وهنا استوضح أحد اليمنيين المرافقين بكل جدية: «صحيح؟ وهل هذا ممكن؟»

وانجابت الشائعات أمام الحقيقة، وعرف الناس أن الإمام أحمد يريد أن يدخل في اتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة.

ولكن النكتة المصرية أصبحت تتداولها ألسنة المصريين وقد سمعت «أحمد ومحمد»، من بوابي العمارة التي أقيم فيها، يتحاوران:

أحمد: «سمعت بالخبر؟»

محمد: «خبر ايه؟»

أحمد: «الإمام «بتاع» اليمن سيكون نائب الرئيس عبد الناصر».

محمد: «وحايبقى في صنعاء ولا إيه؟»

أحمد: «لا لا . . حاء يبقى في سيدنا الحسين!!»

محمد: : «»كويس» حانشبع قهوة وقات».

---

(٣) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

أحمد: «فال الله ولا فالك. . مش عاوزين لا قهوة ولا قات!! يكفينا ما فينا!!، لا يا أخويا، الوحدة كويسه لكن بدون قات. .».

وبينما كان المصريون يتفكهون على الإمام والبدر، ويبتكرون لهما «القافية» كان خبراء القانون الدستوري في القاهرة قد وضعوا مشروع «اتحاد الدول العربية المتحدة» لتنضم إليه المملكة المتوكلية. . وحمله الأمير البدر إلى والده في صنعاء وعاد به (٨ آذار/ مارس ١٩٥٨) موقعاً بخاتم المتوكل على الله رب العالمين الإمام أحمد يحيى حميد الدين». والواقع أن دستور الاتحاد مع اليمن قد «سلق» على عجل، فقد أريد منه أن يكون خطوة إعلامية لترسيخ الدعوة إلى الوحدة. . فقد اشترط الاحتفاظ لكل دولة بشخصيتها، وأن تصدر قرارات مجلس الاتحاد بالإجماع. . ومعنى هذا أن الإمام أصبح يملك حق الفيتو. . . شأنه في ذلك شأن الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، يقبل ما يشاء، ويرفض ما يشاء.

وسألني المشير عبد الحكيم عامر، وأنا أهنئه بهذه الخطوة: «رأيك إيه في الاتفاق مع اليمن. . ؟»

قلت: «أنتم لا تعرفون اليمن ولا إمام اليمن. . لقد زرت اليمن مرات. . والتقيت بالإمام مرات. . وإنّ الإمام أحمد قد جعل اليمن بلد الرهائن والقات، والاغتيالات والمؤامرات، بلد سيوف الإسلام، من غير سيوف ولا إسلام!!»

قال: «أنت «إيه» تفسيرك، لإلحاح الإمام على الدخول في الوحدة؟»

قلت: «الإمام سيأخذ من الاتحاد كل شيء ولن يعطيه أي شيء. . الإمام يريد أن يراود بريطانيا، وأن يساوم الملك سعود، وأن يشدد قبضته على الشعب اليمني. .».

قال: «ونحن نعمل إيه. . ما نقدرش نرفض، لقد وصلتنا منه برقية ونحن نوقع ميثاق الوحدة مع سوريا يقول فيها: «بالله لا تنفضوا قبل أن تضمنونا إليكم». .

وانتهى هذا الحوار مع المشير عامر، دون أن يقنع. . . ودون أن أقنع.

وإذا كان قيام الجمهورية العربية المتحدة قد حرك الإمام أحمد في صنعاء، فقد حرك من قبل الأسرة الهاشمية في بغداد وعمان.

لقد كان الشعب في الأردن والعراق يموج بالأفراح، وهو يستمع إلى أنباء الوحدة بين مصر وسوريا، وكانت هتافات الشعب تصل قصر الرحاب في بغداد، وقصر بسمان في عمان، وكان لا بد من إرضاء الجماهير وإلهائها. . وسارع الرسل بين بغداد وعمان يقترحون اتحاداً بين الملكين الشابين، أبناء العمومة، الحسين بن طلال بن عبد الله بن الحسين، وفيصل بن غازي بن فيصل بن الحسين.

وهكذا كان، فقد عقد اجتماع هاشمي كبير في عمان (١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٨) حضره الملك الوديع فيصل، وخاله الصامت أبداً الساكت سرمداً، الأمير عبد الإله، ومعهما وفد عن الحكومة العراقية.

وفي تلك الجلسة اتفقت الحكومتان العراقية والأردنية على إنشاء اتحاد بين المملكتين «تحتفظ كل من الدولتين بموجبه بشخصيتها الدولية وبسيادتها على أراضيها وبنظام الحكم فيها. . ويحتفظ كل ملك بسلطاته الدستورية في مملكته». . وما إن نشرت نصوص هذا الميثاق الاتحادي حتى قابله الرأي العام العربي بفتور، فقد رأى فيه عملاً من أعمال النكاية، ومحوراً هاشمياً، يتصدى للجمهورية العربية المتحدة في أول نشأتها، دون أن يكون فيه اتحاد، لا مظهراً ولا جوهراً. . .

وفي إحدى الحفلات الكبرى التي كانت تعج بها القاهرة، في تلك الأيام البهيجة، سأل الرئيس عبد الناصر عدداً من الحاضرين عن رأيهم في الاتحاد الهاشمي، فكانوا يجيبون مستنكرين، ووصل السؤال لي وهو يقول: «والشقيري رأيه إيه؟»

قلت: «لقد وقعت للرسول العظيم، جد فيصل والحسين، حكاية عظيمة؟»

قال: «إيه الحكاية العظيمة؟»

قلت: «لقد بنى بعض المنافقين مسجداً للنكاية بالإسلام والمسلمين، وهو المعروف بمسجد «ضرار» فأنزل الله قوله تعالى ﴿**والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرضاء لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون**﴾[٤]، وما إن نزلت هذه الآية حتى أرسل النبي عليه الصلاة والسلام جماعة من المسلمين فأحرقوا مسجد «الضرار» وهدموه. . وهذا هو الاتحاد الهاشمي اليوم بين عمان وبغداد!!»

فقال الرئيس عبد الناصر: «هذه فتوى خطيرة. .».

قلت: «لا أبداً، ليس لأحد، وشيخ الأزهر في الأزهر. .».

ولكن الرئيس عبد الناصر قد سبق له قبل هذه «الفتوى» أن أرسل إلى الملك فيصل في بغداد برقية يهنئه فيها بقيام الاتحاد العربي، وتغريني ذكريات تلك الأيام أن أنقلها بنصها الكامل ويقول فيها: «إن الاتحاد العربي الذي وجد اليوم ما بين العراق والأردن هو خطوة مباركة تتطلع إليها الأمة العربية كلها بأمل كبير باعتبارها اتجاهاً يستمد قوته من أعماق الضمير العربي، وإننا لواثقون تماماً بأن الاتحاد العربي سوف

---

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة التوبة،» الآية ١٠٧.

يكون قوة لكل العرب على كل أعداء العرب. إن الأيام التي تعيشها الأمة العربية الآن أيام خالدة، وما من شك بأن الأحداث التي عاشتها أمتنا في الفترة الحاضرة تبشر بأن فجر الوحدة الذي أشرق على كل الآفاق العربية هو مطلع تاريخ جديد للأمة العربية المناضلة. . وإن القومية العربية لتفتخر وتعتز بالخطوة التي اتخذتموها في عمان اليوم واثقة بأنها تقرب منا يوم الوحدة العظيم، وما من شك في أن شباب جلالتكم وإيمانكم وصادق إخلاصكم سوف يكون من أقوى القوى الدافعة في سبيل تحقيق حلم العرب الكبير. . وإنني إذ أبعث لجلالتكم بتحياتي أتمنى من صميم قلبي أن يوفقكم الله وأن يسدد خطاكم وأن يبارك شعبكم العظيم».

ولقد كان من واجب اللياقة من الرئيس عبد الناصر أن يرسل برقية تهنئة. . ولكن الخلاف ثار بيننا، نحن الذين كنا نتابع الأحداث العربية، هل أخطأ الرئيس عبد الناصر أم أصاب في إرسال تلك البرقية بتلك العبارات التي أسبغها على الاتحاد الهاشمي. . وكنت أنا، وكثرة من الإخوان معي، نرى أن الرئيس عبد الناصر قد أخطأ. . فقد أعطى الاتحاد الهاشمي أكثر مما يستحق. . بكثير. . . والجماهير العربية يجب أن توضع أمامها الأمور بحدودها أو أكثر منها بقليل، لكن من غير إسراف وإغراق. .

وكان الظن أن تلك البرقية التي تفيض لبناً وعسلاً ستلقى جواباً كريماً، كما أمر الإسلام، في أن ترد التحية بمثلها أو بأحسن منها. .

ولكن الرد لم يكن جميلاً، ولا كريماً ولا مثيلاً. . قد كان جواب الملك فيصل، جافاً وفاتراً، ولم ترد فيه أية إشارة للجمهورية العربية المتحدة ولا تهنئة بقيامها، ولا تمنيات طيبات لها، وكان كل ما حوته برقية الملك فيصل الكلام الهاشمي المعروف: عن «دور الثورة العربية الكبرى التي قادها جلالة المنقذ الأعظم الحسين بن علي. . وقادت الجهاد العربي أربعين عاماً وكان الاتحاد العراقي الاردني ثمرة من ثمراتها. .».

وقد جاءت هذه البرقية لتثبيت ما قلته لعبد الناصر: «هذا الاتحاد العراقي الاردني هو مسجد الضرار».

وأويت إلى نفسي وأنا أردد قول الله تبارك وتعالى: ﴿**ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام. .**﴾[٥]. صدق الله العظيم.

---

(٥) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٠٤.

يا طويل العمر.. والدك دعا إلى الوحدة العربية

كان الشتاء عام ١٩٦١ موسم الوحدة والاشتراكية في قصر الناصرية في الرياض، وفي مجلس الملك سعود.

والمواطن العربي المعاصر وقد أُشرب قلبه بالوحدة، وشغل عقله بالإشتراكية، يستغرب أيما استغراب أن يكون للوحدة والاشتراكية مكان عند الملك سعود.

ولكن ذلك وقع. . وكثيراً ما وقع مثله في مجالس الملوك السابقين، بل وقع ما هو أشد وأنكى. .

ألم تشهد مجالس الخلفاء المسلمين، الحوار العنيف، بشأن الله ذاته وصفاته، وخلق القرآن، والفارق بين الزندقة والإيمان.

ومع فوارق الزمان والمكان، شهد مجلس الملك سعود ندوة علمية حول الوحدة والاشتراكية. . والاشتراكية اليوم هي موضوع الساعة، وستظل كذلك إلى قيام الساعة.

كنت في ذلك العام عائداً من سفرتي إلى الاتحاد السوفياتي حيث قضيت اسبوعين، التقيت خلالها بزعماء الاتحاد السوفياتي، خروشوف، ميكويان، غروميكو، وعدداً من رجال القانون والصناعة والأدب والسياسة(١).

ووصلت إلى الرياض على عادتي، في كل عام، بعد انتهاء دورة الأمم المتحدة لأقدم إلى الملك سعود تقريراً عن أعمال المنظمة العالمية، بوصفي وزير الدولة السعودي لشؤون الأمم المتحدة، وقضيت الأيام الأولى بعد وصولي في فندق اليمامة، استجم. . أتمتع بالرعد الراعد، والبرق البارق الذي لا نرى مثله في غير

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

الجزيرة العربية . . ليأتي بعدهما المطر يتدفق كالقرب المتهاوية من السماء . . وأدركت يومها الإعجاز المعجز في آيات القرآن التي تصف البرق والسحاب والأمطار . .

تأملت من نافذتي السحاب في سماء الرياض فازددت روعة بذلك الوصف المعجز ﴿**ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما**﴾(٢) .

ثم لمع البرق الخاطف فذكرت قوله الذي يبلغ ذروة البلاغة ﴿**يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه**﴾(٣) .

ثم تفجرت السماء بالمطر الغزير ورتلت الآية السهلة السلسة ﴿**وأرسلنا السماء عليهم مدراراً**﴾(٤) .

وغيرها وغيرها من الآيات القرآنية التي لا يستطيع العربي، فيما أحسب، أن يسير غور الإعجاز فيها إلا إذا قرأها على «الطبيعة» في الجزيرة العربية، مع الجبال والوديان، ومع الليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والنجم إذا هوى . .

وصحا الجو وبدت الرياض وما حولها جنة تفوح في جنباتها أزاهير الصحراء، ولله هذا الشذا وذاك العبير . .

وغادرت الفندق في طريقي إلى قصر الناصرية . . وهو قصر الحكم في الرياض . . وعزمت أن أذهب ماشياً لأستمتع بشمس الرياض . . وسائق سيارتي يلح عليّ أن أركب فالطريق طويل . . والسيارات متزاحمة . . وفوق ذلك فإنه لا يليق «بالشيخ أحمد» على حد تعبير السائق، أن يذهب إلى القصر ماشياً.

ولم يفلح السائق في إقناعي، فقد كنت في شوق إلى المشي، وقد حرمت منه في نيويورك وموسكو، حيث البرتوكول كان آخذاً بتلابيبي.

ولكن متعتي لم تكن كما أريدها . . فقد كنت كلما سرت بعض الوقت، تستوقفني هذه السيارة أو تلك ليقول صاحبها «يا شيخ أحمد تفضل» . . فأعتذر وأشكر وهكذا أزعجت هؤلاء الإخوان الأكارم، وهم يلحون وأنا أعتذر، حتى وصلت البوابة الخارجية لقصر الرياض . . حيث الحرس السعوديون . . وحسبت إني وصلت . . !!

ولكن الأمر لم يكن بهذه البساطة . . . . فقد استوقفني الضابط السعودي وقال:

«إرجع . . الدخول ممنوع . . من تبي؟» (وأصلها العربي: ومن تبغي)

---

(٢) **القرآن الكريم**، «سورة النور،» الآية ٤٣ .
(٣) المصدر نفسه، «سورة البقرة،» الآية ٢٠ .
(٤) المصدر نفسه، «سورة الأنعام،» الآية ٦ .

قلت: «أنا ذاهب عند جلالة الملك سعود».

قال: «أوامر طويل العمر، أن لا يدخل أحد عليه إلا بإذن».

قلت: «أنا وزير الدولة السعودية في الأمم المتحدة».

قال: ««ويش» اسم الأمم المتحدة؟»

قلت: «أنا «الشقيري»، وزير طويل العمر».

قال: «الشقيري على الرأس والعين.. ولكن أين سيارتك.. أنت ماشي...»

قلت: «طلبت من السائق أن يسبقني إلى القصر لأني أحببت أن أمشي.

قال: «ويش» السائق..».

قلت: «لا أعرف... شاب طويل.. له ذقن.. كوفيته حمراء منقطة..».

قال: «سواقين القصور الملكية كلهم لهم ذقون».

قلت: «أعطني التلفون وأنا أكلم موظفي القصر..».

قال: «نحن نتكلم بالتلفون.. انتظر».

وانتظرت بجانب البوابة الفخمة، بأبوابها الحديدية الثقيلة، والضابط السعودي يصيح بلهجته السعودية على التلفون، دون أن يجيب أحد، وأنا واقف بجانب الباب، وحدائق القصر ترسل إليّ أريجها العطر، انتظر أن يجيب التلفون.

وقد طاب لي الانتظار على الباب.. فالهواء عليل، والشمس رقيقة لطيفة، والحوار مع هذا الضابط السعودي متعة طريفة.

مضى بعض الوقت، وإذا بالأبواب الحديدية تفتح على مصاريعها، وإذا بالحرس يصطفون ليؤدوا التحية، وحسبت أن الملك سعود قد اقترب من الأبواب.

ولكن الذي اقترب، كان الأمير (الملك) فيصل، ولي العهد ورئيس الوزراء... والتفت إليّ الأمير فيصل ورآني واقفاً عند الباب، فصاح من سيارته..

«الأخ أحمد.. تفضل».

دخلت سيارة «سموه» وهب الضابط السعودي لتحيتي... ومضت بنا السيارة في الطريق الطويل من حوله حدائق النخيل والبرتقال وأنا أروي للأمير فيصل ما جرى.. وهو يعتذر إليّ ويقول.. أرجو أن لا تأتي ماشياً..».

قلت: «إن الرياض في هذا الفصل مغرية بالمشي».

قال: «وإذا كان لا بد من ذلك. . فاطلب إلى سائق سيارتك أن ينتظرك عند باب القصر».

وكانت نصيحة غالية حقاً، فقد كنت أمشي الطريق كله إلى القصور الملكية، ثم أركب السيارة التي تنتظرني، وأتلقى تحية الحرس شأن الضيوف الكبار!!

وهكذا دخلت قصر الناصرية في سيارة الأمير فيصل، وأخذنا طريقنا إلى قاعة الاستقبال الكبرى، وسلمت على الملك سعود، وجلست حيث وجدت مقعداً على مقربة منه، وجلس الأمير فيصل في رأس الجانب الأيمن من الملك سعود.

وقاعة الاستقبال ردهة كبرى ولكنها بسيطة، وليس فيها فن عمارة، ولا زخرفة، ولا زينة، وكل ما فيها السجاجيد الفاخرة على الأرض والثريات الضخمة معلقة في السقف. والمقاعد الرحبة مسنودة إلى الجدران حتى الباب.

كان الملك سعود جالساً على كرسيه الفخم في صدر القاعة. . وكانت المشاهد من حوله طريفة ولطيفة.

على الجانب الأيمن كان يجلس الأمير فيصل، ومن تحته الأمراء السعوديون يجلسون واحداً بعد الآخر، حسب أعمارهم، وإنهم ليعرفون مولد بعضهم بعضاً بالعام والشهر واليوم. . حتى إذا دخل أحد الأمراء عرف مقعده وجلس مكانه، وانزاح إلى تحت كل الصف إذا دخل أحد الأمراء.

وعلى الجانب الأيسر كان يجلس الوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف. . وقد يتدخل رجال التشريفات الملكية ليجلسوا الضيف في مكانه. . إذا كان لا يعرف أين يجلس. . .

وعلى الجانبين الأيمن والأيسر يجلس على الأرض رجال الحرس الملكي، بملابسهم الزاهية المزركشة، والسيوف تجلس إلى جانبهم. . لا يقفون إلا للأمراء. . أو حين يقف الملك ليستقبل سفيراً أو ضيفاً كبيراً.

وبادرني الملك بالسؤال عن الصحة وعن دورة الأمم المتحدة، فأجبت بإيجاز، لأن هذا المجلس العام هو للمجاملة والمؤانسة.

والتفت الملك إلى الأمير فيصل وقال له: «الشيخ أحمد كان عند الروس هذه السنة، ثم ذهب إلى الأمم المتحدة». وقال الامير فيصل: «نعم طال عمرك».

ودخل الخدم بالشراب بأكواب ملونة، حتى إذا انتهى وقت الشراب قال الملك: قهوة. . فيصيح كبير الخدم باللهجة البدوية قهوة. . قهوة. . وما هي إلا لحظة حتى

يدخل الساقون بالقهوة العربية بفناجينها المعروفة . . . ويا ويح من لا يعرف التقاليد، فعليه أن يأخذ الفنجان ويعيده باليمنى . . وإذا لم يهزه يظل الساقي يعطيه القهوة حتى يفهم!! أو يتخم . .

وكثيراً ما يصادف، وأكواب الشراب وفناجين القهوة يطاف بها على الضيوف، أن يدخل موظفو القصر إلى قاعة التشريفات، فيجلسون القرفصاء قريباً من ركبتي الملك ليقرؤوا عليه برقية عاجلة، فيأمر بالجواب عليها بما يجب.

وانتهت جلسة الاستقبال باحتساء القهوة . . ووقف الملك سعود بجثته الضخمة إلى مكتبه الخاص خلف قاعة الاستقبال . . وسرنا وراءه، الأمير فيصل، وبعض الأمراء، والشيخ يوسف ياسين وأنا . .

وفي المكتب الخاص دخل الخدم بالشاي، ودخل الموظفون بالبرقيات من أمراء المناطق وهي تنبئ عن الأمطار، والحاضرون يحمدون الله ويثنون على رحمته . .

والتفت الملك سعود وقال: «فيصل!!»

ونهض الأمير فيصل بجسمه الخفيف الدقيق، وقرفص بين قدمي الملك سعود، وهما يتهامسان . . والأمير فيصل يقول: «سم» «سم» طال عمرك . .

«وسم» هذه، على ألسنة الإخوان السعوديين، يرددونها سؤالا وجواب . . وأحسب أنها اختصار لكلمة «سمعاً».

ونهض الأمير فيصل إلى مجلسه . . بكل احتشام واحترام . . والأمراء السعوديون في مجالسهم العامة يوقر بعضهم بعضاً في غاية الأدب والتكريم . .

والتفت إليّ الملك سعود وقال: «أهلا وسهلا بالأخ أحمد، إن شاء الله بعد أن تستريح وتزور أصدقاءك في الرياض نسمع منك عن زيارتك للروس وعن أمور الأمم المتحدة . .».

وأضاف الشيخ يوسف، وكان جالساً على الأرض حسب عادته: و«نسمع عن الاشتراكية، والوحدة العربية، فالأخ أحمد قضى أياماً في القاهرة» . .

وقال الملك سعود: «لازم نسمع . . ويسمع معنا فيصل . .».

فقال الأمير فيصل: «طال عمرك . . أنا جئت اليوم أستأذن . . نحن ذاهبون إلى القنص اليوم . . وسأسمع من الأخ أحمد بعد عودتي».

وقال الملك سعود: «لا بأس» . . ووقف . . ووقفنا جميعاً . . وسرنا وراءه حتى ركب سيارته على قيد خطوات من قصره الذي يقوم في الطرف الآخر من الحدائق . .

وانصرفنا كلّ إلى سيارته. . وودعت الأمير فيصل، وانصرفت إلى فندق اليمامة. . وكانت الفنادق داري إلى ذلك العهد من حياتي، على مدى خمسة وعشرين عاماً. . .

ومضت أيام، وأنا أزور أصدقائي من الأمراء وأعيان المدينة، أتغدى هنا وأتعشى هناك. . ولا حاجة إلى الدعوات، إلا للضيوف الغرباء.

أما مثلي فإن تقاليد الكرم تقتضي أن لا أنتظر الدعوة من الأمراء. . بل أن أذهب إلى بيوتهم في موعد العشاء، وأتناول الطعام على موائدهم مع إخوانهم وأصدقائهم. . ذلك هو الود والتقدير عندهم. . وإن لم أفعل ذلك فإنه يكون جفاء من جانبي. . تلك هي عادتهم مع أصدقائهم. . وهم صادقون في هذا التقليد، يحبونه حباً جماً. .

ومضت أيام على هذا الحال، فأرسل إليّ الملك سعود كبير خدمه محدداً لي وقتاً للاجتماع به في قصره الخاص بجوار قصر الحكم.

وذهبت برفقة الشيخ يوسف ياسين، المستشار السياسي للملك، وأقدم خدام المملكة العربية السعودية من السوريين الوافدين.

ودخلنا على الملك في حجرته الفسيحة، وكان جالساً على «طراحة» كبيرة فرشت عليها سجادة فاخرة، وكان بملابس المنزل الهفهافة، حاسراً الرأس من غير عقاله الذهبي وكوفيته المزركشة.

وجلسنا على الطنافس أمامه، وبدا الملك سعود مستريحاً، أو راغباً في الاستراحة، من متاعب المملكة، ومن مشاكل الأنجال الأمراء. . ومن مطالب الأعراب. . ومن إلحاحات الحريم!!

وبعد أن شرحت له ما دار في الامم المتحدة بشأن القضايا العربية والدولية، وأوجزت له مشاهداتي في زيارتي للاتحاد السوفياتي. . قال: «أريد أن أسمع منك ومن الشيخ يوسف رأيكما فيما يجري حولنا في البلاد العربية. . أمور الوحدة، القومية العربية، الاشتراكية. .».

فقال الشيخ يوسف: «يا طويل العمر قد يكون من الموافق أن يتكلم الأخ أحمد أولاً. . فقد كان في موسكو ونيويورك والقاهرة. . . وقد نشرت الصحف المصرية أنه اجتمع بالرئيس عبد الناصر. .».

قلت: «الأمر لطويل العمر. . إذا كان يريدني أن أتكلم أولاً فأنا حاضر».

قال: «ما هو رأي القاهرة في موضوع الوحدة العربية، إنّ الذين يزورونا ينقلون إلينا أخباراً متناقضة عن هذا الموضوع».

قلت: «إن فكرة الوحدة العربية، والشيخ يوسف يعلم ذلك، موجودة قبل أن يولد الرئيس عبد الناصر، فقد رفع لواءها شباب العرب منذ أواخر عهد الدولة العثمانية. ثم إن المغفور له والدكم قد حمل السلاح في سبيل توحيد الجزيرة العربية، وجلالتكم، حاربتم تحت لوائه ولولا ذلك لكانت نجد دولة، والحجاز دولة، وكل مقاطعة أخرى دولة. ولو امتدت حربكم مع اليمن في عام ١٩٣٣، لاستراحت الجزيرة العربية من دولة أخرى!!»

قال: «القناعة كنز لا يفنى، والخير فيما قسمه الله.. ونحن لا نريد أن نعتدي على أحد، وأن لا يعتدي علينا أحد».

قلت: «الوحدة في زماننا رضاء واختيار.. فلا إكراه ولا عدوان».

قال: «وهل الرئيس عبد الناصر يؤمن بأن الوحدة رضاء واختيار..؟»

قلت: «لقد أعلن الرئيس عبد الناصر في الميثاق الوطني مبادئ الوحدة العربية، على أساس الاختيار.. ثم إن الوحدة بين سوريا ومصر كانت نتيجة استفتاء شعبي».

قال الشيخ يوسف: «أنت تعرف أساليب الاستفتاء، وخاصة في مصر».

قلت: «أنت يا شيخ يوسف سوري، قبل أن تكون سعودياً.. وإذا كان لك ما تقوله عن الاستفتاء في مصر، فما رأيك في الاستفتاء في سوريا؟.. لقد كان حراً.. ثم إنك تعرف أن البرلمان السوري، وهو منتخب من قبل الشعب السوري، قد طالب بالوحدة بالإجماع..».

قال الشيخ يوسف: «ولكن..».

قلت: «ليس هناك مجال للشك.. إن الرئيس السوري شكري بك القوتلي من أعز أصدقاء الملك عبد العزيز، وهو من رفاقك القدامى في الكفاح العربي.. لقد جاء بنفسه إلى القاهرة، ووقع ميثاق الوحدة مع الرئيس عبد الناصر».

قال الملك سعود: «وما هو مصير شكري بك، لقد أصبح المواطن العربي الأول.. إنه لا شيء الآن..!!»

قلت: «يا طويل العمر.. هذا موضوع آخر.. المهم أن وحدة سوريا ومصر قد تمت بإجماع الشعبين.. في الماضي كانت الوحدة تتم بالقوة العسكرية كما جرى في أمريكا وألمانيا، وفي إيطاليا.. بل إن المغفور له والدكم عمل على توحيد الجزيرة

العربية بالسيف. . وليس من حقي أن أسرد لكم ذلك التاريخ فقد ساهمتم معه في حروبه. . لقد اقتحم الرياض بخمسة عشر من رجاله، ثم راح يوسع سلطانه، فحارب الأتراك، وآل الرشيد، والأشراف، والأدارسة، حتى وطد أقدامه في نجد بأسرها وأصبح سلطان نجد وملحقاتها، ثم احتل الحجاز فأصبح ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها، ثم وضع يده على عسير، وأعلن نفسه فيما بعد ملك المملكة العربية السعودية. . ». وواصلت حديثي قائلا:

«وقبل قرون خلت كانت الجزيرة العربية عشرات من الإمارات، وعشرات من المشيخات. . وسيذكر التاريخ أن والدكم المغفور له عبد العزيز هو الذي وحَّد الجزيرة العربية. . وهذه خطوة كبرى على طريق الوحدة العربية، ثم إنّ المغفور له والدكم كان قد دعا إلى وحدة عربية شاملة، أو إلى وحدة فدرالية في زمن الدولة العثمانية. . ».

قال الملك: «وكيف ذلك؟»

قلت: «كانت الدولة العثمانية قد استوضحت رأي المغفور له والدكم بشأن القضية العربية عن طريق الوالي العثماني في البصرة، سليمان شفيق كمالي باشا، فأجاب رحمه الله «إني أرى أن يدعى رؤساء العرب كلهم كبيرهم وصغيرهم إلى مؤتمر يعقد في بلد لا سيادة فيه للدولة العثمانية، لتكون لهم حرية المذاكرة. والغرض من هذا المؤتمر التآلف والتعارف ثم تقرير أحد أمرين، إما أن تكون البلاد العربية كتلة سياسية واحدة يرأسها حاكم واحد، وإما أن تقسم إلى ولايات ويكون على رأس كل ولاية رجل كفء من كل الوجوه وتربط الولايات بعضها ببعض بما هو عام مشترك من المصالح». . وفي هذا الاقتراح خيار بين الوحدة المركزية والوحدة الفدرالية. .

كان هذا هو رأي المغفور له والدكم العظيم قبل أربعين عاماً، دون أن يعرف هذه الأسماء الدستورية».

فالتفت الملك سعود إلى الشيخ يوسف، وقال: «ما هي معلوماتك يا يوسف؟»

فقال الشيخ يوسف: «طال عمرك. . لقد وقع هذا، وهذه المخابرة مع الأتراك موجودة عندنا بين أوراق الدائرة السياسية. . ».

قال الملك: «نحن موافقون على «الفدرالي» بشرط أن لا يتدخل أحد في شؤوننا، لقد انضم الإمام أحمد (ملك اليمن) إلى الجمهورية العربية المتحدة، وإني أفوضك أن تبحث مع الرئيس عبد الناصر انضمامنا إلى «الفدرالية» مع المحافظة على أوضاعنا الخاصة. . ».

وفي تلك الأيام كان «الاتحاد الفدرالي» حديث الساعة عند الأمة العربية، تردده الإذاعات صباح ومساء، كما يتردد الأذان على المنارات الإسلامية خمس مرات في اليوم، وكانت النقمة قد بلغت أشدها على المملكة العربية السعودية في أعقاب حكاية «الشيكات» السعودية التي قدمت إلى السيد عبد الحميد السراج للقيام بانقلاب على الوحدة المصرية السورية. وكان الملك سعود حريصاً أن يطفئ تلك النقمة العارمة بأي ثمن إلا العرش.

وكانت كلمة «فدرالية» عنده تعني التعاون والتنسيق على طريقة الجامعة العربية، ولعله تساءل في دخيلة نفسه، إذا كان إمام اليمن قد دخل الاتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة، فلماذا لا تدخل السعودية؟ . . وهل يكون الإمام أحمد أذكى من الملك سعود؟

فقلت للملك سعود وهو يكثر من ترديد كلمة «فدرالية»: «سأحاول كل جهدي حين عودتي إلى القاهرة أن أجتمع بالرئيس عبد الناصر وأن أبحث معه الموضوع».

فتنحنح الشيخ يوسف وقال: «ولكن . . يا أخ أحمد، يجب أن يكون مفهوماً أننا إذا كنا نقبل الاتحاد الفدرالي مع الجمهورية العربية، فإننا لا نقبل الاشتراكية . . هذه مبادئ مستوردة . . إنها مخالفة لتعاليم الإسلام . . ».

فقال الملك سعود: «نعم. إن دستورنا هو القرآن».

وقال الشيخ يوسف: «الاشتراكية إباحية وإلحادية . . وإن القرآن هو دستورنا للدنيا والآخرة . . ». وكان الشيخ يوسف من تلاميذ الإمام السيد محمد رشيد رضا، وكان المفروض أن يكون الشيخ يوسف أكثر تجديداً، ولكن الإمام كان أكثر «تقدمية» من تلميذه.

وقال الملك: «إن يوسف شيخ، وأنت ابن شيخ، وأريد أن أسمع رأيكما في الاشتراكية وحكم القرآن في الاشتراكية». ودار الحوار بيني وبين الشيخ يوسف، عنيفاً حيناً، ولطيفاً آخر . . والملك مضطجع على وسادته، وطرّاحته . .

قال الشيخ يوسف: «إن نص القرآن صريح، لقد قال الله في كتابه ﴿**نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**﴾(٥)، هذا هو نص القرآن، والقاعدة الفقهية تقول، لا اجتهاد في موضع النص».

قلت: «يا شيخ يوسف . . إن القرآن كتاب كامل، وإن الآية الواحدة يجب أن

---

(٥) المصدر نفسه، «سورة الزخرف،» الآية ٣٢.

تفهم في سياق القرآن بكامله. . لقد قال القرآن الكريم بصيغة التوكيد ﴿**وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأنّ سعيه سوف يرى**﴾[٦]، فالعيش إذن سعي وراء العيش والحياة لا استغلال ولا احتكار».

قال: «أنا لا أتحدث عن السعي. . القرآن قال: ﴿**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات**﴾ فهل الاشتراكية تؤمن بهذا الكلام؟»

قلت: «لست محامي الاشتراكية. . الاشتراكية موضوع كبير يحتاج إلى شرح كثير. . أنت تحتج بآية من القرآن وتترك الآيات الأخرى. . حكاية «الدرجات» وردت في القرآن ولكنها وردت مع العمل. . لقد قال القرآن، ﴿**ولكل درجات مما عملوا**﴾[٧]. . فالدرجات في القرآن مرتبطة بالعمل. . والعمل والعمال هم ركائز المذاهب الاشتراكية على تنوعها وتعددها. . ».

قال: «أتريد أن تقول إنّ «الدرجات» قاصرة على العمل والعمال. . وأين مكان الفئات الأخرى من الأمة، أليسوا من عباد الله؟»

قلت: «بل إنّ القرآن قال ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[٨]، وهذه الآية تشمل العلماء، والتلاميذ والأطباء والمحامين. وأصحاب الحرف والصناعة والزراعة، فكلهم من الذين «أوتوا العلم».

قال: «ولكن الاشتراكية تلغي الدرجات».

قلت: «هذا خطأ شائع. . الاشتراكية تؤكد المساواة في الفرص. . ولكنها لا تستطيع أن تلغي الفوارق الطبيعية في التفوق العقلي والجسدي والمواهب الأخرى. . لقد زرت دولاً اشتراكية متعددة، من بريطانيا العظمى غرباً، إلى الاتحاد السوفياتي شرقاً. . ففي الاتحاد السوفياتي مثلاً العامل يتقاضى ٥٠٠ روبل في الشهر، ورئيس الجامعة يتقاضى ١٥٠٠ روبل، العامل العادي يقيم في غرفة صحية. . والوزير يسكن في فيلا أنيقة وله سيارة خاصة. . . ومن يستطيع أن يوفر من دخله يفتح حساباً في البنك. وفي الاتحاد السوفياتي رئيس الجمهورية يعمل في قصر الكرملين، وكناس الشوارع يقضي يومه مع النفايات والقاذورات، ولكنه عند المساء يجد حمامه الخاص جاهزاً بالماء الساخن. . ».

وتدخل الملك سعود فقال: «بلاش نتدخل في «الروس»، ولنحصر الكلام في

---

(٦) المصدر نفسه، «سورة النجم،» الآيتان ٣٩-٤٠.
(٧) المصدر نفسه، «سورة الأحقاف،» الآية ١٩.
(٨) المصدر نفسه، «سورة المجادلة،» الآية ١١.

الاشتراكية كما تطبق في البلاد العربية. . . . كالتأميم، ومصادرة أموال الناس. . والحجز على الأملاك وما إلى ذلك».

وعاد الشيخ يوسف إلى الكلام فقال: «أي نعم. كيف يجوز مصادرة أموال الأغنياء وأصحاب الأراضي، وقد ورثوها شرعاً عن آبائهم. والملك حلال والإرث حلال». . . (وسرد أسماء عائلات في سوريا ومصر).

قلت: «أنا لا أتعرض للأسماء، ولا للحوادث الفردية. . أنا أتكلم عن المبادئ لا عن التطبيق، قد يكون التطبيق خاطئاً أو جائراً ولكن ذلك لا يفسر المبادئ. . إنّ مبادئ الإسلام واضحة كل الوضوح. . وهي تدعو إلى العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي قبل لينين وستالين. . لقد قال الله تعالى ﴿**وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم**﴾[٩]، وهذا «الحق» هو «للمحروم» من الغذاء والدواء والكساء والمسكن والعلم وكفالة الشيخوخة، وهذه كلها هي العدالة الاجتماعية في محاربة الجهل والفاقة والمرض. . . . ثم إنّ الرسول (صلعم) قال «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وبذلك وجب أن يكون المال حلالاً لا استغلالاً، وأن يكون بين يدي الرجل الصالح في سلوكه الفردي أمام نفسه، والجماعي أمام الجماعة. . . وهذا هو مبدأ التكافل الاجتماعي.

«ثم إنّ القرآن لم يكتف بإقرار الحق المجرد، ولكن قرنه بالعقاب والعذاب، فقد قال ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم**﴾[١٠]، والانفاق في سبيل الله، هو إنفاق هذه الكنوز على إنشاء الطرق وبناء المستشفيات والمدارس وإعداد الجيش وما إلى ذلك من المرافق العامة. . ولهذا جاز لولي الأمر أن يأخذ من هذه «الكنوز» لينفقها على مصالح الشعب».

فحملق بي الشيخ يوسف وقال محتداً: «لا يجوز أخذ أموال الناس حتى ولو كانوا أغنياء ومهما كان عندهم من كنوز. . لقد أصبح «. . .» السوري فقيراً معدماً، والعائلة (. . .) المصرية معدمة. . هل هذا يجوز في شرع الإسلام؟»

قلت: «يا شيخ يوسف أنا أتكلم عن المبادئ الإسلامية. . وأنت تتكلم عن التطبيق. . ».

قال: «ليس في الإسلام مثل هذه المبادئ».

---

(٩) المصدر نفسه، «سورة الذاريات،» الآية ١٩.

(١٠) المصدر نفسه، «سورة التوبة،» الآية ٣٤.

قلت: «إن في الإسلام مبادئ أرفع من مبادئ الاشتراكية، لو طبقت.. إن الإسلام جعل للمدين حقاً في أن تسدد ديونه من بيت المال، إذا لم يكن دينه ناشئاً عن سفه أو تبذير.. إن الإسلام جعل «لابن السبيل» حقاً في أن تدفع له نفقات إقامته وسفره حتى يصل إلى بلده.. وهذا الرسول (صلعم) يقول «ما آمن بي من بات شبعاناً، وجاره إلى جانبه طاو (جوعان)»، ويقول «أي رجل مات ضياعاً بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله».. بل إن الصحابي الجليل أبو ذرّ الغفاري، وهو أول اشتراكي ثوري في الإسلام يقول «عجبت لرجل لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه».

قال: «يا أخ أحمد. هذا كلام للترغيب في البر والإحسان، ولكنه لا يعطي لولي الأمر الحق في أخذ أموال الناس، وقد كسبوها حلالاً طيباً».

قلت: «على العكس من ذلك تماماً.. إنّ ولي الأمر له الحق كل الحق أن يأخذ من الأموال الحلال بالقدر الذي تقتضيه مصلحة الرعية ـ الأمة.. ويقول الرسول (ﷺ) «إنّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم»، وفي المدينة المنورة آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار، فجعل لكل أنصاري أخاً من المهاجرين، فقاسمه مسكنه وماله وزراعته، وتجارته، ويرث كل منهما صاحبه».

قال: «ذلك ما فعله الرسول، وليس لغير الرسول أن يفعله».

قلت: «وبعد أن مات الرسول، شن أبو بكر أول حرب اشتراكية في الإسلام من أجل حق الشعب وحاجة الفقراء.. لقد حارب أهل الردة لأنهم امتنعوا عن أداء الزكاة وقال قولته الشهيرة: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه».

قال: «إنّ أمر الزكاة منصوص عليه في القرآن الكريم، وما ليس في القرآن فليس لأحد التعرض له».

قلت: «سأذكر لك ما لم يرد في القرآن.. لقد اقتطع عمر (رض) أرضاً بالربذة وجعلها مرعى للمسلمين، فجاء أهلها يقولون يا أمير المؤمنين «إنها بلادنا قاتلنا عليها في الجاهلية وأسلمنا عليها في الإسلام، علام تأخذها منا»، فقال عمر «المال مال الله..»، وكذلك فإن عمر قاسم ولاته على نصف أموالهم وكانوا من كبار الصحابة، كأبي هريرة وعمرو بن العاص، وابن عباس، وسعد بن أبي وقاص.. هذا لم يرد فيه نص من القرآن.. بل إنّ عمر ذهب إلى أبعد من ذلك، لقد أذن باللجوء إلى السلاح حين تدعو الحاجة.. فقد ورد جماعة على ماء، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا

لهم ولدوابهم بالشرب، فلما وفدوا على عمر وأخبروه بذلك قال لهم: «هلاّ وضعتم فيهم السلاح».

قال: «هذه حوادث فردية، قام بها سيدنا عمر لمراعاة ظروف استثنائية».

قلت: «لا.. لم تكن هذه حوادث فردية.. كان سيدنا عمر ينظم أحوال الجماعة الإسلامية، خذ أمر الأولاد مثلاً... كان يعطي لكل مولود مائة درهم، فإذا ترعرع زاده إلى مائتين، وهذا ما لم تفعله الدول الاشتراكية حتى الآن.. ومر على شيخ يتسول، وكان يهودياً فقال له «أكلنا شبيبتك فكيف نضيعك في هرمك»، وأرسله إلى خازن بيت المال وقال له «افرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم وعيالهم».. وهذا هو ما نسميه اليوم الضمان الاجتماعي للشيخوخة والعجز.. وهذه كلها أمور جماعية لا فردية، وكذلك صادف أن مر عمر وهو في طريقه على قوم مجذومين من النصارى، فأمر بأن ينفق عليهم من بيت المال، وبأن يجعل لكل واحد منهم من يخدمه ويقوم على شؤونه. هذا هو الضمان الاجتماعي بل التكافل الإنساني، يفعله عمر من بيت مال المسلمين، لا مع المسلمين فحسب ولكن مع اليهود والنصارى.. وهذا لم تبلغه أية اشتراكية في زماننا هذا، وما أظنها تبلغه في قادم الزمان...».

ولم يكد الشيخ يوسف يستأنف الحوار، حتى دخل كبير الخدم، وهمس في أذن الملك سعود كلاماً لم أستطع أن أتبين منه قليلاً أو كثيراً، والسعوديون بارعون في الحديث الخافت ترى شفاههم تتمتم، ولا تسمع لها حساً ولا ركزاً، ولعلهم أتقنوا هذه المهارة القومية في حروبهم المتلاحقة في الجزيرة العربية عبر أجيال..

ونهض الملك سعود متثاقل الجثة، متجهم الوجه، فلا بد أن يكون في داخل القصر شؤون وشؤون.. والملك سعود، على خلاف أخيه الملك فيصل، كثير الحريم والأولاد، والأصهار والأنسباء، وهو ضعيف أمام هؤلاء جميعاً، وما أكثر مطالبهم، ولعل مطالب الدولة، أيسر من مطالبهم!!

دخل الملك إلى مخادعه وهو يقول: «يا شيخ يوسف، واصلوا البحث وسأعود إليكم قريباً».

وعاد الشيخ يوسف إلى الحوار وقال: «يا أخ أحمد أنت تتحدث عن أعمال الرسول وصحابته في صدر الإسلام وكان ذلك في عهد الوحي وهو حالة استثنائية، والقاعدة الفقهية تقول: ما جرى على خلاف القياس فغيره لا يقاس عليه.. وأنت تعلم أن زماننا قد تغير «ولا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان» كما يقول شيوخنا الفقهاء».

قلت: «إن الإسلام لا ينتهي بوفاة الرسول وصحابته، والقرآن يقول: ﴿**وما**

محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾[١١]، وهذا خالد بن الوليد حين فتح العراق أعلن في معاهدة الصلح مع أهل الحيرة المسيحيين بأن «يعال من بيت المال هو وعياله شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً وافتقر». . وفي العهد الأموي خصص أحد ولاتهم، يوسف بن عمر، في ميزانية إقليمه كل سنة عشرة ملايين درهم لرعاية الأحداث وكفالة البنات اللاتي لم يتزوجن».

قال: «ما زلت تستشهد بأحداث وقعت في صدر الإسلام يوم كان الناس غير الناس».

قلت: «إن مبادئ الإسلام استمرت بعد صدر الإسلام، وهذا الغزالي حجة الإسلام، أجاز لولي الأمر أن يفرض على الأغنياء، ما يكفي لنفقات الجيش إذا لم يكن مال في بيت المال. . بل إنّ الإمام النووي أفتى للملك الظاهر بيبرس بأن يأخذ من أموال الشعب لتسديد نفقات الجيش، وأن يرد السلطان كل ما عند جواريه وأعوانه من حلى وأموال إلى بيت المال. . وذهب العلماء إلى أبعد من ذلك، فطلبوا من الملك قطز، وهو يحارب التتار، أن يبيع ما عنده من الكنوز والنفائس لسد نفقات الجيش، بالإضافة إلى ما يأخذه من أموال الرعية. .».

قال: «هذه ظروف الحرب. . والقاعدة الشرعية تقول: الضرورات تقدر بقدرها. .».

قلت: «إن مبادئ الإسلام تطبق في زمن السلم والحرب على السواء. . وهذا ابن حزم الفقيه الحرّ أعلن أن على السلطان أن يفرض على الأغنياء للفقراء بما يأكلون من القوت، ومن اللباس للشتاء والصيف، وبمسكن يقيهم من المطر، والصيف والشمس، وعيون المارة!»

بلغنا هذه المرحلة من الحوار فعاد الملك سعود إلى طرّاحته ووسادته واعتمد ساعده الغليظ، وقال «مين غلب مين؟»

قلت: «يا طويل العمر، الإسلام هو الذي غلب».

قال الشيخ يوسف: «الإسلام سيغلب دائماً، إن الإسلام ينهى عن مصادرة أموال الناس، وتحديد ملكية الأراضي كما يجري في سوريا (وكان الشيخ يوسف يملك أراضي واسعة في شمال سوريا).

---

(١١) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٤٤.

قلت: «يا طويل العمر، أراضي الشيخ يوسف لا حق له فيها!!»

قال الملك: «لماذا، لقد اشتراها من أصحابها حلالاً زلالاً . .».

قلت: «الشيخ، لا يستطيع أن ينكر أنه لما فتح المسلمون العراق والشام أقر عمر وأصحاب النبي أهل القرى في قراهم وأنه لا يصح لأحد من المسلمين شراء هذه الأراضي لا كرهاً ولا طوعاً، لأنهم متفقون شرعاً أن هذه الأراضي لا تباع ولا تورّث . . ولهذا فإن الشيخ يوسف قد اشترى أراضي نهى عمر وأصحابه أن تورث أو تباع!!». وضج الملك بالضحك، واهتزت جثته ومن تحتها طراحته ووسادته، والشيخ يوسف يداعب لحيته السوداء بأصابعه.

فقال الشيخ يوسف: «يا طويل العمر، الأخ الشقيري يستشهد بأيام الصحابة، وهذه مضت وانتهت . .».

قلت: «وما رأيك في فتح الأندلس الذي تم بعد زمن الصحابة . . لقد صادر المسلمون الفاتحون إقطاعات الأراضي الكبرى من أصحابها، ووزعوها على صغار الفلاحين المسيحيين، وجعلوها ملكيات صغيرة، تماماً كما تفعل وزارة الإصلاح الزراعي في سوريا في أملاك الشيخ يوسف!!»

وكان ضحك . . وكان عبوس . . ضحك الملك، وعبس الشيخ يوسف.

وقال لي الملك سعود: «أراك «حافظ» الفقه أكثر من الشيخ يوسف . .».

قلت: «يا طويل العمر . . لقد كانت نشأتي الأولى في المدارس الدينية . . وكنت راغباً في صباي أن ألتحق بالأزهر الشريف(١٢). وكنت قد عكفت في السنة الماضية على وضع كتاب عنوانه مأخوذ من شعر شوقي «الاشتراكيون أنت إمامهم» ولكني لم أكمل الكتاب فلم يطبع ولم ينشر . . ولهذا فإن كل الاستدلالات مخزونة في ذاكرتي».

وكان الملك يحب مداعبة الشيخ يوسف . . فقال الشيخ يوسف: «أنا لا أدين بالاشتراكية . . إنها إلحاد وإباحية . . والروس لا ينكرون ذلك . .».

قلت: «يا طويل العمر، الروس شيء واشتراكية الإسلام شيء آخر. الروس لا يؤمنون بالله هذا صحيح، والدول المسيحية في الغرب لم يبق عندهم من المسيحية والمبادئ المسيحية إلا الذهاب يوم الأحد إلى الكنيسة، أما رسالة عيسى المسيح عليه

(١٢) انظر: الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية.**

السلام فقد نبذوها ظاهرياً. . وأنا أتحدث عن الإسلام. . وهو أرفع مراتب العدل والمساواة، وهذه هي اشتراكية الإسلام. . ثم إن في الإسلام مؤسسات اشتراكية لم يستطع الروس ولا غيرهم أن ينشئوا مثلها».

قال الشيخ يوسف: «وهل في الإسلام مؤسسات اشتراكية وما هي؟»

قلت: «نظام الأوقاف».

قال: «وهل الأوقاف اشتراكية؟»

قلت: «إن على الدول الاشتراكية أن تتعلم الاشتراكية من نظام الأوقاف. .».

قال: «كيف؟»

قلت: «لقد كنت محامياً في فلسطين، أمام المحاكم المدنية والشرعية، وقد توغلت في دراسة الأوقاف الإسلامية وأحكامها. . وقد أذهلتني شروط الواقفين كما جاءت في «الحجج» الوقفية. .».

قال الملك سعود: «مثل ماذا؟»

قلت: «يا طويل العمر. . لم يترك الواقفون شيئاً إلا وذكروه. .». لقد أنشأوا الفنادق للمحتاجين. . وحفروا الآبار في الصحاري للمسافرين. وأقاموا الرباطات للمجاهدين، وأعدوا السلاح والخيول للجهاد، وتكفلوا اللقطاء والأيتام والمقعدين والعميان والعجزة والمساجين، وضمنوا للفلاحين مجاناً البذار وأدوات الزراعة. . .و. . و. . .».

قال الملك: «كل هذا ورد في شروط الواقفين؟»

قلت: بل إنهم تكلفوا بأمور بالغة الرفق، لقد نصبوا موظفين مختصين ليمروا على المرضى في المستشفيات ليوآنسوهم ويظهروا لهم أن صحتهم جيدة. . . وفي القاهرة أوقاف مخصصة لإنشاء فرق التمثيل الشعبي الهزلي لإدخال السرور على المرضى، وفرقة موسيقى، وقصاص شعبي يرفه عن المرضى، وفرقة من المنشدين المعروفين بأصواتهم الجميلة لينشدوا من المآذن القريبة على المستشفيات، لتسلية المرضى والترويح عنهم في أمراضهم وآلامهم».

قال الملك: «كل هذا أيضاً موجود في شروط الواقفين؟»

قلت: «بل إن الأوقاف في بلاد الشام، والشيخ يوسف يعرفها، جيداً، تكفلت بالزواج، بإعانة العروسين على نفقات الزواج إذا كانا محتاجين. . وإطعام الحيوانات الأليفة. . ومعالجة الدواب المريضة. . وتقديم الحليب والماء المذاب بالسكر

للمرضعات، . . . و. . . و. . . وبهذا فإن اشتراكية الإسلام تكفلت بالإنسان والحيوان».

قال الملك: «هذه أشياء عظيمة. . وحينما نعقد مؤتمراً للدول الإسلامية يجب أن نبحث هذه الأمور ونعمل على تجديد الأوقاف. . ولكن كل هذا يفرض علينا أن نتفاهم مع «أخونا» الرئيس عبد الناصر. . ».

وانتقل الحديث من الحوار العلمي الديني عن الوحدة العربية الاشتراكية، إلى الكلام في الشؤون السياسية. .

وأسهب الملك في الحديث عن الخلاف بين القاهرة والرياض، وأن والده الملك عبد العزيز كان يوصيهم دائماً بالتضامن مع مصر في السراء والضراء. . . وأن الملك سعود كان يؤكد هذه المعاني في لقاءاته المتكررة مع الرئيس جمال عبد الناصر.

وانتقل بعد ذلك إلى حديث مسهب عن مؤامرة الانفصال، وأقسم الأيمان المغلظة أنه بريء من هذا الموضوع، وأن الأمر من أوله وآخره دسيسة، حبكت بمهارة لإفساد العلاقات بين البلدين، إلى آخر ذلك الحديث.

ثم انتهى إلى القول بأنه سيحمّلني رسالة شخصية إلى الرئيس عبد الناصر يبرأ فيها من هذه «الجريمة»، وأنه مستعد لزيارة القاهرة لإجلاء الحقيقة، وللبحث في انضمام المملكة السعودية إلى اتفاقية الدول العربية المتحدة المعقودة بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة اليمنية.

وانتهت تلك الجلسة المثيرة عند هذه المهمة اليسيرة العسيرة!!

وقضيت بضعة أيام أخرى في الرياض. . سافرت بعدها إلى القاهرة وأنا أحمل معي الرسالة إياها إلى الرئيس عبد الناصر، وفيها تحيات من «أخيه» الملك سعود يعلن فيها رغبته الصادقة في إحلال الوئام محل الخصام وتعزيز الروابط الأخوية بين البلدين الشقيقين، والانضمام إلى الدولة العربية المتحدة «بمثل ما تم الاتفاق عليه مع أخ الطرفين جلالة الإمام أحمد ملك المملكة المتوكلية اليمنية».

وصلت القاهرة، وقضيت بضعة أيام في اتصالات مستمرة. . فقابلت الرئيس عبد الناصر وسلمته الرسالة. . واجتمعت بالمشير عامر ونواب الرئيس أنور السادات وعلي صبري وحسين الشافعي وزكريا محي الدين، وتحدثت إلى الدكتور محمود فوزي، وكبار رجال الخارجية.

ولكن الجو كان مكفهراً، لا تصلح فيه الرسالة ولا الرسول. . بل إن الكلام في هذا الموضوع كان إهداراً للوقت والكرامة معاً.

وأبرقت إلى الملك سعود عن طريق السفارة السعودية في القاهرة، قلت «الظروف الحاضرة غر مواتية، والزمن كفيل بتحقيق الخير إن شاء الله».

كانت برقيتي متحفظة، بل متفائلة، بالنسبة إلى وقتها. . ومضت ثلاثة أعوام، فتحقق تفاؤلي وكان الظن أن لا يتحقق. .

وكان ذلك في أواخر عام ١٩٦٣ لمناسبة مؤتمر القمة العربي الأول، حينما كنت واقفاً في مطار القاهرة الدولي وأنا يومئذ ممثل فلسطين في الجامعة العربية، ولم تكن قد أنشئت منظمة التحرير الفلسطينية. .

وحطّت الطائرة السعودية رحالها. . وأسند السلم إلى الطائرة، ونزل الملك سعود، عليلاً هزيلاً معتمداً على عصاه، تماماً كوالده في أخريات أيامه. .

وأقبل الرئيس عبد الناصر على الملك سعود يعانقه ويقبله. . وأنشد الملك سعود قول الشاعر:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

والتفت إليّ الرئيس عبد الناصر سائلاً: «الأخ أحمد مسرور؟»

قلت: «مع تعديل بسيط في بيت الشعر. . وقد يجمع الله «الشقيقين» بدل «الشتيتين».

وخرجت عربة الرئيس من أرض المطار وهي تحمل «الشقيقين الشتيتين» إلى مؤتمر القمة العربي الأول.

ولذلك حديث في غير هذا الكتاب.

لــو... أسقطـت تـل أبيــب،
وما سقطـت بيـت المقـدس؟

كان شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٥٨ أبهج ما رأيت في عمري، وأنا أخطر الآن إلى خريف الحياة، في عامي الثاني والستين.

فلقد شهدت أول عيد للاستقال في سوريا في عام ١٩٤٥، ورقصت بقلبي مع الشعب وهو يرقص بيديه وقدميه وجناحيه، وشهدت بعدها أعياد الثورة في مصر وأحسست بفرحتين: فرحة للثورة المصرية العربية بذاتها، وفرحة للشعب المصري وهو يغمره الفرح، وشهدت أعياد الاستقلال في طرابلس وتونس والجزائر وغيرها من الحواضر العربية، فكانت فرحتي حمداً لله أن أعان الأقطار العربية في كفاحها الطويل لبلوغ الحرية والاستقلال..

ولكن شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٥٨ كان قمة تلك الأفراح وذروة تلك المباهج.. فقد قضت دمشق الأيام والليالي، وهي في عرس كبير لم تشهد مثيلاً له منذ أن عاد إليها صلاح الدين بعد أن فتح بيت المقدس، وقضت القاهرة الأيام والليالي وهي في هرج ومرج لم تشهد مثله منذ أن وقع لويس التاسع أسيراً في دار لقمان في المنصورة.. في أعقاب الحملة الصليبية المنهزمة..

وعبرت الأفراح العربية فوق الحواجز والحدود، من غير جواز سفر ولا تصريح دخول، فغمرت العواصم العربية، وامتلأت الشوارع بالمظاهرات وانطلقت الحناجر بالهتافات: وحدة، وحدة.. وتسللت خافتة من النوافذ إلى مخادع الحكام ومهاجع الملوك والأمراء!!

ومكثت في القاهرة أياماً، وأنا أرقب في غدوي ورواحي هذه الجموع الحاشدة تملأ الشوارع والميادين، وهي تهتف وحدة، وحدة، ثم يصبح هتافها صياحاً وصراخاً كلما لقيت سيارة تحمل مواطناً عربياً من الأقطار العربية، كأنما تحضه على الدخول في

الوحدة، اليوم. . لا غداً. . كانت تلك أفراح الشعب بقيام الجمهورية العربية المتحدة.

وأخلد الشعب بعد ذلك إلى العمل، وكذلك بدأت الوحدة تنتقل من الأمل إلى العمل. . فقد قامت الحكومة المركزية للجمهورية العربية المتحدة، وقامت تحتها حكومة محلية في الإقليم الجنوبي، مصر، وأخرى في الإقليم الشمالي، سوريا، وبدأت معالم الوحدة تظهر في حياة القاهرة. . وأحسب أن مثلها كان يجري في دمشق. .

لقد كانت فرحتي كبيرة حين رأيت صبري العسلي وأكرم الحوراني نائبين للرئيس عبد الناصر، وأصبحت أحس «بسوريتي» أنني أصبحت أحكم وأرسم في القاهرة. . وأني، بمصريتي السابقة المتحدرة إليّ من أيام حملة إبراهيم باشا[١]، أصبحت أحكم وأرسم في دمشق. ثم ازددت خيلاء على خيلاء أنني بمصريتي القديمة، وسوريتي الوسيطة، وفلسطينيتي الحديثة، أصبحت أمثل المواطن العربي الوحدوي، في دول الوحدة. ولكن مواطناً عربياً كان ينافسني في هذه المشاعر، وهو السيد شكري القوتلي الذي كان آخر رئيس للجمهورية السورية، وأصبح يعرف فيما بعد بالمواطن العربي الأول.

وازدادت معالم الوحدة بروزاً حينما هبطت على مصر جموع التجار السوريين، ففتحوا المتاجر في القاهرة والإسكندرية يبيعون الأقمشة والحلويات وهم ينادون عليها يا مال الشام. . وأقبل الإخوة المصريون عليها، بنهم بالغ يشترون ولا ينتهون ويأكلون ولا يشبعون.

وحفلت الليالي الملاح بالحديث عن التزاوج بين المصريين والشاميات. . وشهدت المصريات يؤكدن جمالهن وسحر عيونهن، ونشب الخلاف حول القول الشائع: «من لم يتزوج مصرية فليس بمحصن». . وأجاب من أجاب: بل إنّ القول الشائع «من لم يتزوج شامية فليس بمحصن».

غير أن الليالي الملاح قد امتدت إلى الرئيس جمال عيد الناصر نفسه، ورشحته للزواج من سورية. . تعبيراً عن الوحدة الحقيقية، وفشا المزاح بين الوزراء السوريين والمصريين، وخافت السوريات على أزواجهن والمصريات على بعولتهن.

والى جانب هذا الجو المرح بين ماجن وبريء كانت الوحدة تشق طريقها في ميدان التطبيق، فقد ولدت الجمهورية العربية المتحدة، من الشهر السابع لا من الشهر التاسع حسب تعبير الحوامل، «والقابلات».

---

(١) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

والحق، كما عرفته من فم عبد الناصر نفسه، وهو في أول عهده رئيساً للجمهورية العربية المتحدة، أنه كان يريد تأخير الوحدة خمس سنوات أخرى. . ولكن صراع السياسيين والعسكريين، في دمشق، وصراع هؤلاء وأولئك فيما بينهم، قد دفع بالوحدة إلى قصر القبة في القاهرة، من غير روية ولا تمهيد، فجاءت من غير أساس ولا قبة!!

بل إن الصراع كان في داخل الزعيم السياسي ذاته، وفي دخيلة الضابط العسكري ذاته. . فهذا السياسي يريد الوحدة صباحاً ثم يدعو إلى الاتحاد مساء، وذلك العسكري يحض على الاتحاد ظهراً ثم ينادي بالوحدة فجراً. . وكل في فلك يسبحون.

وبدأت الجمهورية الناشئة تواجه المصاعب من الأسابيع الأولى من نشوئها. . وكانت الصعوبة الأولى، من يحكم سوريا، هل يحكمها السوريون بزعمائهم المتصارعين، أم بضباطها الذين يتربص بعضهم لبعض.

ولم تكن هناك مشكلة حول من يحكم مصر، فمصر الثورة قد استقر فيها الحكم، ولم يكن قد استقر حكم مماثل في سوريا. . وكانت هذه المشكلة الأولى. .

ولست أؤرخ الآن لهذه الحقبة، ولا لهذه المشكلة بالذات. . فهذه مذكرات مواطن يسير في ركاب الأحداث وليست كتاب تاريخ. . وأنا أتحدث عنها بقدر ما اتصلت بها ذكرياتي. لقد كنت في تزاور دائم مع الوزراء السوريين الذين كانوا أعضاء في الحكومة المركزية للجمهورية. كنا نلتقي في مكاتبهم في مصر الجديدة، أو بيوتهم أو في بيتي. وكان أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية، وصلاح الدين البيطار، وزير الثقافة والإرشاد القومي، يقيمان في حي الجزيرة، غير بعيدين عن منزلي في الزمالك.

وفي هذه الزيارات مع الإخوان السوريين بدأت استمع إلى الشكاوي. . شكاوي لا من الوحدة ذاتها، بل من أسلوب تطبيقها. . وكان عدد من الشخصيات السورية يترددون على القاهرة ليرددوا هذه الشكاوي في بيوت الوزراء السوريين، أو في بيتي، بعد أن ينتهي سهرهم مع وزرائهم.

ولقد أيقظتني هذه الشكاوي غير مرة. . فقد كان الإخوان السوريون يطرقون الباب في أواخر الليل، بعد لقائهم بالحوراني وبالبيطار، أو بعد فراغهم من ذاك الملهى أو ذلك الكاباريه!!

وكانت شكوى الموظفين السوريين في دمشق، من مركزية الحكومة المركزية في القاهرة. . فقلت لهم إن العسكريين والسياسيين السوريين قد أرادوا هكذا، وحدة فورية، وحكومة مركزية، ونظاماً رياسياً. .

وكانت شكوى «الطلائع الثورية» أن القاهرة قد حلّت الأحزاب في سوريا، وأصبح الشعب يعاني فراغاً قومياً، قلت: لقد اشترط الرئيس عبد الناصر إلغاء جميع الأحزاب. . ورضي العسكريون والسياسيون. . .

وكانت شكوى المستوزرين أن السوريين الذين أختارهم عبد الناصر في الوزارة السورية ليست لهم سابقة في النضال الوطني، وأن الشعب لا يعرفهم. قلت لهم: هذا هو حق رئيس الجمهورية كما أعلنه ميثاق الوحدة، ووقعه السياسيون أو العسكريون.

وجاءت بعد ذلك شكوى العسكريين، فكثر الحديث عن «فوضى» الرتب والعلاوات والترقيات، وسيطرة الضباط المصريين، فقلت: لقد كان في مقدمة أبحاث الوحدة عدم التدخل في شؤون الجيش. . وعلى الجيش أن يكون بعيداً عن التيارات والتكتلات. وأصبحت الشكاوى السورية في مثل خبر التواتر، كما يقول الفقهاء، وكنت أرى الأمر عادياً لا يثير قلقي ومخاوفي، فقد كان الوحدة في مرحلتها الأولى، والناس أعداء لمن ولي الحكم. . هذا إن عدل. . ولكني في ليلة من الليالي بدأت أخاف. . أخاف على الوحدة أن تنفرط، كما ينفرط الحليب قبل أن يصبح لبناً. .

جاءني تلك الليلة أحد الضباط السوريين، وقد عرفته في إحدى دورات الأمم المتحدة مع الوفد السوري كخبير في شؤون الهدنة. . وإذا به يحدثني الحديث المثير. . أقرب ما يكون إلى الأساطير!!

وخلاصة الحديث أن جندياً سورياً تشاجر مع تاجر مصري في مصر الجديدة. . وذهب الجندي وشكا إلى ضابط سوري، فثارت الحمية الجاهلية، وإذا بكتيبة المظليين السوريين تخرج من ثكناتها في ضواحي القاهرة، لتضرب حصاراً على مصر الجديدة، وتسد منافذها. . ولم تنصرف إلى ثكناتها إلا بعد أن تدخل كبار العسكريين من سوريين ومصريين. . .

وكنت أستمع إلى هذا الحديث، ولا أكاد أصدق هذه «الأسطورة»، وقد بقي أمرها سراً لا يعلمه إلا الراسخون في العلم، والعارفون ببواطن الأمور. وقلت للضابط السوري: «أنتم تدقون أول إسفين في صرح الوحدة. . كيف أقدمتم على هذا العمل؟»

قال: «سيدي. . نحن لا نرضى بالتسلط المصري. . ولا نرضى "بعنطزة" الضباط المصريين. . .».

قلت: «العصمة لله وحده. . السوريون يخطئون. . . والمصريون يخطئون. . ولكن الخطأ لا يبرر الخطأ. . إن المظليين السوريين مهيأون لضرب تل أبيب. . لا محاصرة الساحات العربية. . هذا تمرد. . هذا عصيان. . وأنا أرى أن تذهب فوراً إلى

أكرم الحوراني. . وإلى صلاح البيطار وهما يسكنان قريباً مني، حتى يتدبرا الموقف قبل أن تتطور الأمور إلى ما هو أسوأ». وخرج الضابط السوري من بيتي، وأنا أدعو الله أن يصون الوحدة من أخطاء السوريين والمصريين على السواء. .

وتلاحقت الأحاديث بعد ذلك عن «التسلط المصري»، كلما لقيت أحداً من السوريين القادمين من دمشق. . وهو يقص عليّ كيف يتصرف الضباط المصريون مع الضباط السوريين. . والموظفون المصريون مع الموظفين السوريين. .ولقيت المشير عبد الحكيم عامر في حفلة لسفارة الاتحاد السوفياتي أقيمت في مناسبة قومية، ونقلت اليه ما يصلني من أخبار، واقترحت عليه أن تعقد ندوات علمية لجميع الضباط المصريين الذين يسافرون إلى دمشق وأخرى للضباط السوريين الذين يسافرون إلى القاهرة ليتثقفوا في الوحدة وآدابها، وما تتطلبه من سلوك وحدوي، وأن تعمل القيادة العامة على تطعيم الجيش المصري بضباط سوريين يحكمون ويرسمون. . كما يفعل الضباط المصريون في دمشق. . وأن الأمر يقتضي أسلوباً مدروساً بحيث يكون السوري حاكماً في مصر، كما يكون المصري حاكماً في دمشق. . حتى تزول العصبيات الإقليمية، والجاهليات العربية. . وضاع الاقتراح بين الأنخاب والأقداح، وأظنه ما يزال راقداً راكداً في ردهات السفارة الروسية. .

ولكن الحرب الباردة قد خرجت من البيوت إلى الشوارع، وأصبحت حديثاً عاماً. . وزاد من شرها تلك الأقلام المراهقة التي بدأت تكتب في صحف القاهرة ومجلاتها. . . . عن فضل الوحدة على سوريا في المجالات العسكرية والاقتصادية والعمرانية. . . . . ورأى فيها السوريون غمزاً في كفاءتهم، فردوا عليها من جانبهم بأقلام مراهقة بأن سوريا سيدة نهضتها ورائدة تطورها قبل مصر بزمان. .

والواقع أن هذه الحرب الباردة على الوحدة العربية وعلى الجمهورية العربية الناشئة، كانت قد بدأت في الأسابيع الأولى من قيام الوحدة. . فإن عدداً من حكام العرب قد بهتوا أمام هذا الحدث العجيب وتساءل بعضهم. . كيف تنازلت سوريا عن شخصيتها، بل كيف أضاعت استقلالها، كيف رضيت بالحكم المصري. . بالتسلط المصري. . بالاستعمار المصري؟. . ولكن آخرين عللوا أنفسهم بأن السوريين «شطار» سيأكلون المصريين، وسيحررونهم من «الدكتاتورية المصرية».

هذا كلام سمعته وما صنعته. . سمعته من فم الملكين سعود وحسين في الرياض، في مجلس ضم الأمراء والوزراء، في واحدة من الزيارات العديدة، التي كان يقوم بها الملك حسين إلى الرياض حينما يكفهر الجو في عمان. . وكنت يومها وزير الدولة السعودية لشؤون الأمم المتحدة. . .

ولم يكن هذا الحديث سِرّاً من الأسرار، بل كانت تنغمه الإذاعات العربية نفسها، فقد كنت أستمع إلى راديو المملكة العراقية، وصوت المذيع العراقي يلعلع أن الوحدة بين مصر وسوريا لا تعدو أن تكون تسلطاً مصرياً. . كما كان المذيع الأردني يصيح «إن هذا الذي تم بين مصر وسوريا إنما هو ابتلاع قامت به مصر لسوريا». .

وانتقلت الحرب الباردة إلى المعسكر الغربي، بل لعلها بدأت فيه، فأعربت عن مخاوفها. . على مصالحها وعلى إسرائيل في رأس هذه المصالح. . وكان أبلغ ما قرأت في هذا الباب، تلك الصورة الكاريكاتورية التي نشرتها جريدة **نيويورك تايمس**، تصور الجمهورية العربية المتحدة بقطريها، وكأنها ذراعا كماشة تشددان الخناق على إسرائيل. .

ولقد ازدادت هذه العربدة الغربية، والحملة الغربية، حينما قامت الثورة في العراق (تموز/يوليو ١٩٥٨) وقضت على الحكم الهاشمي في بغداد وعلى الهاشميين أنفسهم بين جان وبريء. . وكان البريء هو الشاب الوديع فيصل الثاني رئيس الاتحاد العربي الهاشمي. .

كنت يومها أصطاف في الإسكندرية، وكان البحر هائجاً والهواء عاصفاً، وأنا أدير مفتاح الراديو على إذاعة بغداد، وإذا بالأناشيد العسكرية. . وإذا بالبلاغات الحماسية المتلاحقة. . وإذا بالبيان العراقي يعلن سقوط الملكية وقيام الجمهورية العراقية. . ثم يعلن انسحاب العراق فوراً من الاتحاد الهاشمي. . ويعتبر نفسه في حل «من جميع الالتزامات المالية والعسكرية وغيرها مما فرضه على العراق نتيجة لقيام هذا الاتحاد». .

سقط الاتحاد الهاشمي وسقطت الملكية الهاشمية في العراق. . وتعالت أصوات الشعب في العراق تطالب بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة. .

والاستعمار الغربي كشر وشخر، ثم شمر وتبختر ليقيم السدود بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، وليضرب الجمهورية العربية المتحدة من داخلها. . وبهذا اشتدت الحملة الغربية، سعاراً وسعيراً. . .

وارتحلت الوحدة العربية إلى منبر الأمم المتحدة، وكان ذلك في خريف عام ١٩٦٠ حينما انعقدت دورة «القمة» في الأمم المتحدة وحضرها رؤساء دول العالم، وبينهم ملوك العرب ورؤساؤهم، ووقف الرئيس عبد الناصر على منبر الأمم المتحدة يتحدث باللغة العربية إلى العالم الدولي ليقول «أتينا لنعلن أننا نؤمن بأمة عربية واحدة، ووحدة اللغة، هي وحدة الفكر. . لقد كانت للأمة العربية دائماً وحدة اللغة، وكانت للأمة العربية دائماً وحدة التاريخ، ووحدة التاريخ، هي وحدة الضمير، ولسنا نرى أساساً قومياً أمتن من هذا الأساس».

وكانت تلك الدورة هي ما عرف بدورة القمة للأمم المتحدة، فقد كان فيها عدد كبير من رؤساء الدول في العالم. . فجاءت إشارة عبد الناصر إلى الوحدة العربية توكيداً لمقومات الوحدة العربية من على منبر الأمم المتحدة، وكانت هذه المنظمة العالمية ترى أن الدول العربية مثلها مثل دول أمريكا اللاتينية لن تقوم بينها وحدة!!

وألقيت في الأسبوع التالي (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠) خطاباً مسهباً عن الوحدة العربية، بوصفي وزير الدولة السعودي لشؤون الأمم المتحدة، فتحدثت عن تاريخها وحوافزها، وتطلع الأمة العربية لتحقيقها، وحدة عربية شاملة من المحيط إلى الخليج. . ولم يبق إلا أن أعلن انضمام المملكة العربية السعودية إلى الجمهورية العربية المتحدة!!

ولأمر ما أسهبت في الكلام عن الوحدة العربية على منبر الأمم المتحدة، فقد جمعت تلك الدورة معظم أقطاب العالم من رؤساء الدول، وكان بينهم الملك حسين. . وكان الوفد الأردني قد وزع على الوفود كتيباً صغيراً يحتوي مقالة، كان الملك حسين كتبها في شهر أيار/ مايو ١٩٦٠ عن الوحدة العربية، وقد وصلني ذلك الكتيب وفيه مقدمة من «رئاسة التوجيه والأنباء للمملكة الأردنية الهاشمية».

ورأيت في الكتيب تحليلاً «ملكياً هاشمياً» عن الوحدة العربية، ألمح فيه الملك حسين بوصفه «وارثاً» للثورة العربية الكبرى «أن الجمهورية العربية المتحدة هي نوع جديد من الاستعمار تفرض فيه دول سيطرتها على دول أخرى، ولا فرق أن تكون الدولتان عربيتين، وأن القومية العربية لا تدوم إلا بالمساواة التامة بين الأقطار المعنية»!!

وقفت على منبر الأمم المتحدة، ومن غير أن أشير إلى الملك حسين، شرعت أندد بآرائه، وأن الوحدة العربية لا يمكن أن تكون استعماراً، فالمرء لا يستعمر ذاته، وأرضه، وليس العربي غريباً أو أجنبياً عن أي بلد عربي آخر، حتى يوصف بالمستعمر، والمتسلط، أو المتحكم. . واستطردت بعد ذلك أشرح معاني الوحدة العربية، والوفدان الأمريكي والبريطاني يحملقان في هذا الوزير السعودي الذي أصبح جمهورياً أكثر من الجمهوريين. .

ولم يفتني في سياق الحديث أن أشير إلى العمل الوحدوي الضخم الذي قام به الملك عبد العزيز في توحيد الجزيرة العربية التي كانت إمارات ومشيخات ومقاطعات. . قلت هذا لأنها كلمة حق وصدق. . ولأني أردت أن أحمي ظهري عند الملك سعود، وأنا «أتبجح» في تمجيد الوحدة العربية. .

ولم يفتني كذلك أن أؤكد أن القومية العربية ليست إرثاً لأحد، يرثه هذا الملك عن أبيه، فالقومية العربية هي إرث الأمة العربية وتراثها!! وإني أعترف أن هذه

الإشارة كانت موجهة إلى الملك حسين. فقد كرهت أن تكون القومية العربية «تركة» يخلفها الموتى إلى الأحياء، ويتوارثها الأبناء عن الآباء!!

وقال لي الرئيس عبد الناصر وأنا أزوره في مقر الوفد الدائم للجمهورية العربية المتحدة في نيويورك: «نشرت جريدة **نيويورك تايمس** فقرات من خطابك عن الوحدة العربية. وعقبت عليه بأنك لا تمثل المملكة العربية السعودية في هذا الكلام!!».

قلت: «ليس هذا الكلام جديداً عليّ من جريدة **النيويورك تايمس**، فهذا هو تعليقها الدائم على خُطبي في الأمم المتحدة. . وإنه صحيح أن خطاباً عن الوحدة لا يمثل الملك سعود ولا المملكة السعودية. . يكفي أنه يمثل مشاعر الأمة العربية بأسرها. . .». وانتقلنا بعد ذلك إلى شؤون الوحدة. . وقلت له: «كنت أتمنى أن يكون في وفد الجمهورية عدد أكبر من السوريين. .».

قال: «وهل شكا أحد من ذلك؟»

قلت: «لا. . الشكاوي كنت أسمعها في القاهرة. . لا هنا في نيويورك».

قال: «لقد حذرني السيد شكري القوتلي يوم وقعنا ميثاق الوحدة من (الشوام)».

قلت: «إن الشام صعبة المراس منذ أن تولى أمرها معاوية مؤسس الدولة الأموية. . والخير كل الخير أن تحكم الشام نفسها بنفسها على صعيد الحكم المحلي إلى أن تتعمق جذور الوحدة».

قال: «نحن نجرب هذه الطريقة، وسنجرب غيرها!!»

وعدت إلى الوطن بعد انتهاء دورة الأمم المتحدة، وعدت إلى تزاوري مع أكرم الحوراني وصلاح البيطار، أستمع إليهما وإلى الوفود السورية الزائرة، والتذمر يفشو يوما بعد يوم. . والوزيران السوريان يشكوان أنهما لم يعودا يمارسان أية اختصاصات، ولا تسمع لهما توجيهات، وشاعت في تلك الأيام عبارتهما المأثورة. . «نحن أجراء ولسنا شركاء». .

وكان للطرف المصري شكاوى كثيرة كذلك، فقد أخذت التقارير تتوارد على القاهرة أن حزب البعث قد أعلن عن انحلال نفسه في الظاهر، وأنه لا يزال يمارس نشاطاً خفياً في دمشق. . وأنه في سبيل إنشاء قواعد له في القاهرة بين الطلاب والشباب. .

وأخذت الثقة تتداعى بين البعث والرئيس جمال عبد الناصر، البعث يحسب أن عبد الناصر يعمل على تصفيته، وعبد الناصر يحسب أن البعث يريد أن «ينفرد» بسوريا على حساب الكتل الوطنية الأخرى، وأنه يتغلغل في صفوف المثقفين في مصر. . .

وجرت انتخابات الاتحاد القومي في سوريا، ولم يستطع حزب البعث أن يظفر بأكثر من ٢٥٠ مقعداً من مجموع ٩٤٤٥ مقعداً، وأعلن من جانبه أنه لولا خطة مدبرة لفاز بأكثرية المقاعد. . وأن عبد الحميد السراج وزير الداخلية هو الذي وضع الخطة ونفذها. . وكان أن ضاق صدر البعث، فاستقال وزراؤه الثلاثة وعلى رأسهم الحوراني. . وقبلها الرئيس عبد الناصر ساعة استلامها، فقد رأى فيها بادرة تمرد وعصيان، ولم يسبق له أن تلقى استقالة «جماعية» من أحد من وزرائه في مصر، منذ أن تولى زمام الأمور في مصر.

وبهذا سقط من صرح الوحدة أحد أركانها، وانسحب «البعث» من صفوفها، وهو الحزب المنظم الوحيد في سوريا. . وقلب التاريخ صفحة أخرى من سجل الوحدة. .

وكانت فرصة ذهبية وهاجة للدول العظمى وليس بينها من يعطف على الوحدة، بل كلها ترى فيها سداً منيعاً في وجه المطامع الاستعمارية القريبة والبعيدة. . وتحركت الصحافة والإذاعة، الدولية والعربية، لتتحدث عن الخلافات في داخل الجمهورية العربية المتحدة، ونحت النحاتون ذلك التعبير القبيح «الاستعمار المصري»، فنسبوا إليه سوء الحال في سوريا، وكساد التجارة وتخلف الصناعة وارتفاع الأسعار وهبوط النقد. . وشح الأمطار، وكان من سوء الطالع أن رافق الوحدة ثلاث سنوات عجاف، توالى القحط فيها عاماً بعد عام، وأرجف المنجمون أن ذلك من أخطاء الوحدة!!

ثم دارت حملة الرائجات والشائعات على عبد الحميد السراج وزير الداخلية في سوريا، وشاركت في هذه الحملة الصحف العربية والأجنبية على السواء، فهو صاحب الحادثة الشهيرة في موضوع (المليونين) جنيه التي «دفعها» الملك سعود، للقيام بانقلاب على الجمهورية العربية المتحدة وعلى الرئيس جمال عبد الناصر، وهو الذي دمر أنابيب البترول أيام حرب السويس. . وقد جاء إلى القاهرة غير مرة ليدفع عن نفسه الرائجات والشائعات. . وقلت له، وأنا خارج من زيارة الوزير المصري السيد كمال الدين رفعت في الوزارة المركزية: «أما لهذه الشائعات من آخر؟».

قال: «وآخر هذه الإشاعات أنني أريد أن أقوم بانقلاب في سوريا، وأن أكون رئيس جمهوريتها. .».

قلت، مازحا: «أليس هذا صحيحاً؟»

قال، وهو يسرع الخطى في طريقه إلى المطار: «الجميع في سوريا أصبحوا أعدائي، وأعداء الوحدة! أنا لا أريد أن يطغى حزب على الآخر وأن تظل سوريا في حظيرة الوحدة، وهذه مشكلتي الكبرى».

وهكذا مرت ثلاثة أعوام ونصف (١٩٥٨-١٩٦١) والوحدة السورية المصرية تئن بين حجري الرحا، تعصر الوزراء، وتصهر الزعماء، وتجتر الأحداث، وتلوك الأخبار، إلى أن جاء يوم الثامن والعشرين من شهر أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٦١ . . . اليوم الذي ليس للأمة العربية أن تنساه، أو أن تنسى من ينساه.

في ذلك اليوم الأغبر كنت في مكتبي في نيويورك أعد الخطاب الرئيسي الذي سألقيه في الجمعية العامة للأمم المتحدة. . وإذا بالتلفون تتوالى أجراسه المرة بعد المرة، وأنا أرفع السماعة حيناً وأضعها حيناً آخر. . وإذا بالأسئلة تنهمر واحداً بعد واحد.

هل سمعت، هل عرفت، هل الخبر صحيح؟ الأناشيد العسكرية تنطلق من إذاعة دمشق، عادت الجمهورية السورية، وقع الانفصال بين مصر وسوريا. . قتل المشير عبد الحكيم عامر تحت قصف المدفعية السورية. . . و. . . و. . .

ولم أكد أصدق يقظتي. . وبدأت أتحسس نفسي وملابسي، هل أنا صاح أم نائم، أهذا الذي أسمعه صحيحاً أم أنه أضغاث أحلام؟ وأدرت بصري حوالي فرأيتني جالساً في مكتبي. . وأيقنت أن الذي سمعته هو الحقيقة. . لقد وقع الانفصال، وتحطمت الوحدة. . لقد وقع الذي كنت أخشاه. .

ومددت يدي المرتجفة بأناملي المرتعشة إلى الراديو فإذا بالإذاعات العالمية تعلن أنباء الانفصال، ويعلق المعلقون ما شاءت لهم الشماتة أن يعللوا ويحللوا. . .

ومكثت بضع ساعات وأنا وحدي في مكتبي، ليس عندي أحد إلا الراديو الصغير، ينقلني من عاصمة إلى عاصمة، ومن خبر إلى خبر، وليس في الدنيا إلا خبر الانفصال. . ولم أعد أطيق أن أظل بجانب هذا الجهاز الكافر، ذلك الراديو الصغير، وتذكرت ساعتها القول الشهير «ناقل الكفر ليس بكافر» وجزمت: بل إنّه كافر أيما كافر. . . وحملتني خطاي إلى مبنى الأمم ا لمتحدة، لعلي أجد من يعزيني أو يسليني، وكنت في لهفة حارقة إلى كلمة عزاء وسلوان، ودخلت الأمم المتحدة لأجد ردهاتها وسلالمها وقاعاتها، ومراحيضها، وكلها تتردد بين جنباتها أخبار الانفصال. . ولا حديث لها إلا انتهاء الجمهورية العربية المتحدة، ولها سؤال واحد: متى يأتي وفد الجمهورية السورية، ليمثلها في الأمم المتحدة، وليقعد في مقاعدها السابقة!!

وجلست في إحدى زوايا الأمم المتحدة، وما أكثر زواياها، وأنا أرقب الوفود ذاهبة آتية، من قاعة إلى قاعة، ومن لجنة إلى لجنة، ولم يبق في ذهنهم موضوع واحد من التسعين موضوعاً التي كانت مدرجة في ذلك العام على جدول أعمال الأمم المتحدة. . ذلك أن الانفصال قد غطى في ذلك اليوم على جدول الأعمال بأسره. .

وجلس حولي بعض أعضاء الوفود العربية، كأننا في مأتم يعزي بعضنا بعضاً . . ثم يمر من أمامنا الوفود الأمريكية والبريطانية والإفرنسية والبلجيكية . . و . . . و . . . . ينظرون إلينا باحتقار شامت، وازدراء مليء بالتشفي . . ولكن كنا على موعد مع ما هو أدهى وأمر . . .

وكان هذا الموعد، حين مر بجانبنا الوفد الإسرائيلي بكامل هيئته، رئيسه وأعضائه ومستشاريه وملحقيه . . وكان على رأس الوفد غولدا مايير وأبا إبيان . . وتفجرت القهقهات من الوفد الإسرائيلي، وكأنما كانت تبحث عن نافذة لتنطلق منها إلى عنان السماء . .

وحملت إلينا قهقهات الوفد الإسرائيلي كل الطعنات، وكل المعاني، هزءاً وسخرية وتشفياً وشماتة . . وكان من حق إسرائيل أن تتنفس الصعداء في ذلك اليوم، فقد انفكت كماشة الوحدة عن عنق إسرائيل.

ولم أطق صبراً على نظرات الساخرين وقهقهات الشامتين، فحملت نفسي، وبعضي يحمل بعضي . . إلى الفندق الذي أنزل فيه، واعتكفت فيه أياماً وأنا صريع آلامي وأحزاني . . وتجمعت كربتي إلى غربتي، وجعلت مني إنساناً ساهماً واجماً . .

وقضيت بقية الأسابيع في دورة الأمم المتحدة، أذهب إليها حاملاً أوراقي وأشجاني، وأنا أغض بصري في الأرض، لا أطيق أن أنظر في الوفود المعادية والصديقة على السواء . . وأتسلل إلى مقعدي لواذاً، خجلاً واستحياء، كأني أنا الذي صنعت الانفصال[٢].

وعدت إلى الوطن، بعد انتهاء الدورة، وودت لو أن الزمان قد انفصم ذلك العام ليوم واحد من شهر أيلول/ سبتمبر، حتى لا يأتي يوم الثامن والعشرين، ويأتي معه يوم الانفصال. ووصلت الوطن لاستمع إلى أخبار وأخبار، ملأت مذكراتي شجناً وحزناً . . فتوجعت آلامي، وتألمت أوجاعي في الوطن، فوق ما كنت عليه في المهجر . .

ولكن الزمان يحمل في أيامه ولياليه ضمادات الجراحات، فأخذت جراحي تلتئم على آلامها، وأخذ منجل النسيان يحصد مأساة الانفصال في نفسي عاماً بعد عام، حتى نسي هذا الإنسان أو كاد . . وكذلك شأن الإنسان منذ كان . .

وجاءت الأيام الستة من حرب حزيران/ يونيو، وإذا بالأحزان تنفجر في نفسي من جديد، كأنما أصبح فؤادي حقل ألغام، أصابته شرارة، فراح ينفجر كالبركان . .

---

(٢) المصدر نفسه.

كنت في تلك الأيام الستة أهرول بين القدس وعمان ودمشق، أدب تحت الأرض في مقر القيادة العربية المشتركة، ولم تكن مشتركة إلا في الهزيمة . . ورأيت الجبهات العربية في سيناء والأردن والجولان تتهاوى أمام بصري تهاوي أوراق الخريف.

وتردد في ذاكرتي أن الله صنع الدنيا في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع . . وهكذا تقول التوراة . . وتساءلت هل لعربي بعد الأيام الستة أن يستريح في اليوم السابع؟؟!!

وفي اليوم السابع وقفت على ركام الكارثة وأنقاض النكبة، استعيد أنفاسي واسترجع ذكرياتي، وقد صاح في نفسي هول التمني . . لو أن . . لو أن . . .

أجل لو أن الانفصال ما وقع، لقويت الجمهورية العربية المتحدة شعباً وجيشاً . .

ولو أن الجمهورية العربية قويت، لوقع الأردن في أحضانها شعباً وجيشاً . .

ولو أن الأردن انضم إليها، لكانت إسرائيل تواجه حولها جيشاً واحداً وقائداً واحداً . .

ولو أن ذلك كله قد جرى، لسقطت تل أبيب وما سقط بيت المقدس . .

وحملت «لو» في قلبي، وهرولت إلى بيتي، إلى غرفتي، إلى مكتبي، أكتب مذكراتي، والتاريخ معي يكتب حكمه الصارم العادل . .

أجل إن أوزار النكبة الكبرى في حزيران/يونيو، تقع على أكتاف كثيرين . . كثيرين من الذين صنعوا الانفصال أو تمنّوه . .

أجل إن أوزار النكبة الكبرى تقع على الذين غفلوا عن الوحدة، وأهملوها، سواء منهم من كان في دمشق أو في القاهرة . .

ومرة أخرى لو . . لو . . أن أولئك جميعاً لم يفعلوا ما فعلوا، لكانت حرب الأيام الستة لنا لا علينا . . ولسقطت تل أبيب، وما سقطت المدينة الخالدة الحبيبة، بيت المقدس . .

يا بيت المقدس لا تجزعي. نحن معك على موعد. ونحن على موعد مع النصر . .

أبشري يا بيت المقدس إن جيل الانفصال إلى زوال . . وإن جيل الوحدة آت لا محال . . والنصر على موعد مع الوحدة . .

لـــولا الانفصـــال..
لمـا سقطت سينــاء.. وما سقـط الجـولان..

كان عام ١٩٦٢، عام المأساة الكبرى، في الوطن العربي الكبير . . .

تركت الأمم المتحدة ورائي، وقهقهات الشامتين الساخرين تلعلع في ردهات المنظمة العالمية وهي ترى للجمهورية العربية المتحدة وفدين، بعد الانفصال، وفد مصر ووفد سوريا . . وعدت إلى الوطن لأرى ما هو أشد نكيراً وأسوأ مصيراً . .

وكان أول وصولي بالطائرة إلى بيروت، فقد أردت أن أزور بعض الأهل والأقرباء، قبل عودتي إلى القاهرة، حيث بيتي وزوجتي وأولادي . . ومكثت بضعة أيام استمع إلى الأصدقاء وإلى الإذاعات العربية، وإلى إذاعة دمشق، وكانت ما تزال تولول على الوحدة، وتبرر الانفصال.

وعشت مأساة الانفصال مع الملايين الذين عاشوها مثلي، وضاعف من هذه المأساة مضاعفاتها . . ذلك أن نفراً من الضباط المغامرين من أمثال الكزبري والنحلاوي الذين دبروا الانقلاب في الليل البهيم، قد هدموا آمالاً طوالاً عراضاً، كافحت الأمة العربية من أجلها قرابة خمسين عاماً، ولم يكن لأولئك المغامرين سابقة في الحياة العربية ولا في الحياة السورية . . وكل ماضيهم وحاضرهم . . بل كل رصيدهم أنهم يحسنون تسليط الدبابات والمدرعات على دار الإذاعة ورياسة الأركان، وإصدار البلاغ رقم واحد، وأنه بلاء لا بلاغ . .

ولكن المأساة الوطنية التي جاءت في أعقاب الانفصال، قد لفت في ردائها الأسود جماعات من المواطنين العرب كان لهم ماضيهم الناصع في ميدان الحرية والاستقلال . .

فلم يكد يعلن الضباط المغامرون عن الانقلاب المشؤوم حتى بدأت إذاعة دمشق تتلو برقيات التأييد . . ولم أبال بادئ ذي بدء بهذه البرقيات، وأنا استمع إلى أسماء

موقعيها، ففي كل شعب مجموعة من الناس يؤيدون الحاكم، وليكن الحاكم من يكون. .

ولكني ذهلت. . ولم أصدق سمعي، والمذيع السوري يردد أسماء ضخمة، كثير منها عزيز على قلبي، وعلى النضال العربي بأسره. . وقفز السؤال من فؤادي: ما هذا، ومن هذا، وما الذي أسمع؟

كنت مشدوهاً وأنا أصغي إلى المذيع السوري وهو يقرأ ما عرف فيما بعد بعريضة الانفصال. . لتعلن في مقدمتها الإيمان التام بالوحدة، ثم تتدرج إلى أخطاء القاهرة، ثم تبرر الانقلاب والانفصال. . ثم تأتي التواقيع. . ومن هم أصحاب التواقيع؟؟

ذكر المذيع أصحاب التواقيع بأسمائهم واحداً واحداً، وخيّل إليّ أني أستمع إلى صفحات على وجه الزمان كلما قرأ المذيع اسماً من تلك الأسماء الضخمة.

كان من الذين وقعوا سلطان الأطرش، فارس الخوري، خالد العظم، أكرم الحوراني، صلاح البيطار، معروف الدواليبي، ناظم القدسي، صبري العسلي، وغيرهم من رجالات سوريا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. . ومهما اختلفت الآراء في تقييم الذين وقعوا عريضة الانفصال، فإن الإجماع ينعقد على أنهم جميعاً، وبلا استثناء، قد لعبوا دوراً بارزاً في تحرير الوطن السوري العزيز، وكان لهم صفحات مشرقات في تاريخ النضال. .

ثم جاءت ثالثة الأثافي، فأصدر السيد شكري القوتلي بياناً «بليغاً» يستعرض الأخطاء الجسيمة التي أدت إلى الانفصال، وينحو باللائمة على جمال عبد الناصر، من غير أن يذكر اسمه، لما اقترف من أخطاء في تصريف الأمور. .

وقد أطبق الحزن عليّ أن ينتهي الوحدويون في سوريا إلى طعن الوحدة في الصميم، وأن يوقع للانفصال في عام ١٩٦٢ أولئك الذين وقعوا للوحدة في عام ١٩٥٨. . .

ولكن حزني كان أشد وأمعن على العجوز القوتلي، أن يختم صفحاته الناصعة البيضاء بتلك الصفحة السوداء. وكان ما يزال يقيم في بيروت. . فذهبت إليه في منزله وأنا لا أعلم ماذا سأحدثه وبأي لسان أحدثه. . .

وتذكرت وأنا في الطريق حكاية الأمير جبلة بن الأيهم الغساني، كيف داس أعرابي على قدمه وسقط إزاره وهو يطوف بالكعبة، وكيف غضب ولطمه، وكيف قضى الخليفة عمر أن يلطم الأعرابي الأمير جبلة، وكيف أبى والتحق بالروم ورجع عن الإسلام. . وكيف. . وكيف. . ووصلت منزل شكري

القوتلي، والحكاية على لساني، وأنا عازم أن أرويها من البداية إلى النهاية . .

ولم أكد أغوص في الكرسي الوثير وأنا أجلس إلى جانبه، حتى بدأ الحديث، هو بصوته المجلجل:

«لقد كفر السوريون بالوحدة . . لقد تحملوا تسلط المصريين ثلاث سنين . . وكم وكم نصحت عبد الناصر ولكنه رفض نصائحي . . . إن زعماء سوريا الذين بنوا الاستقلال على أكتافهم لم تعد لهم قيمة . . كم وكم حذرت عبد الناصر من البعثيين . . من الضباط العسكريين . . أهل مكة أدرى بشعابها . . لقد ظن عبد الناصر أنه يستطيع أن يحكم سوريا كما يحكم مصر . . إن معاوية بمكره ودهائه، بطوله وعرضه، لم يقدر على الشام . . و . . . و . . . »

ومضى شكري القوتلي في هذا الحديث طويلاً، وهو يشهق حيناً، ويرغي حيناً آخر . . وكدت أن أخرج من المنزل، فقد خشيت أن يصيبه انفجار في شرايينه، أو تداهمه نوبة في قلبه، وهو في هذا الحديث الغضوب.

ولكن الله لطف . . فقد قذف القوتلي كل مكنونات صدره، وأخذ يهدأ شيئاً فشيئاً وعاد الصوت المجلجل، خافتاً رويداً رويداً . . وتملكني الصمت، وأنا لا أدري ما سأقول . . وعزمت أن لا أتحدث معه شيئاً فقد خشيت إن كشفت له ألمي أن يعود إلى «نوبته» وتكون القاضية . .

وانصرفت إلى الحديث عن صحته، وعن الجو، وعن كل شيء إلا في المواضيع العامة . . ومددت يدي أصافحه مودعاً، فوقف مجهداً متعباً وهو يقول:

«ولكني لم أسمع منك شيئاً كيف كان خبر الانفصال في الأمم المتحدة؟»

قلت: «خبر قرأه الناس ليومه . . ثم طوته أخبار الأيام التالية . . ».

قال: «على كل حال، أرى أن تمثل سوريا في الأمم المتحدة في الدورة المقبلة، لقد أعرناك للسعودية مدة طويلة . . وفي هذا كفاية . . ».

قلت: «مللت من الأمم المتحدة، ولا أريد أن أعود إليها مرة أخرى».

قال: «لا بد أنك مسافر إلى القاهرة . . فإذا اجتمعت بعبد الناصر قل له، هذا ما كنا نخشاه . . ».

وودعت شكري القوتلي، دون أن أعقب على ذلك بلا أو نعم، وكنت كمن حاول الهروب منه عند أول دقيقة ممكنة، حتى لا أراه أمامي يسقط على الأرض جثة هامدة . .

وانطلقت بي السيارة، وأنا لا أصدق أني نجوت من التهمة التي سترافقني كل عمري، بأني كنت سبباً في القضاء على «المواطن العربي الأول» . . لقد فقدت الوحدة . . فهل أفقد هذا الذي كنت أحبه، وأقدر له جهاده الطويل في سبيل الأمة العربية. وقضيت أياماً في بيروت . . . وأنا أرى الشعب واجماً أمام كارثة الانفصال، أركب بالتاكسي والسائق يدير مفتاح الراديو على إذاعة صوت العرب وهي تشجب الانفصال والذين قاموا بالانفصال، ثم ينهال بالشتائم، والسباب، ويطل برأسه من نافذة السيارة ليصيح في السماء: إنت فين يا رب، تخلصنا من الخونة!!

وغادرت بيروت إلى القاهرة، وأنا لا أدري كيف أقابل أصدقائي . . ففي أثناء إقامتي الطويلة في مصر، لاجئاً، عرفت عدداً كبيراً من المسؤولين والصحافيين، كما عرفت آخرين من الشعب الطيب: تجاراً وطلبة ومعلمين. وقد عرفني هؤلاء سفيراً متجولاً لسوريا، ورئيساً لوفدها في الأمم المتحدة.

وصلت القاهرة أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وأنا أخشى أن يزورّ عني الناس، كما لو كنت أنا المسؤول عن الانفصال، أردد مع القائل: «كاد المريب أن يقول خذوني . .» .

ولقد ضاعف من مخاوفي أن بعض الصحف في مصر، وإن لم تخل من اعترافها بأخطاء مصر في تطبيق الوحدة، قد انساقت مع آلامها فراحت تلبس الحق بالباطل، وتخلط الحابل بالنابل . .وأخذ السيد حسنين هيكل يكتب سلسلة مقالات عن الوحدة والانفصال كشف فيها للرأي العام العربي كثيراً من الحقائق . . ولكني كرهت بعض تعليلاته . .

قال هيكل في مقالاته: أنه «ليست هناك ظروف اقتصادية واجتماعية يمكن أن تقوم عليها تجربة الوحدة . . وأنه كان هنالك اختلاف واضح في التطور الاجتماعي في كل من مصر سوريا في ذلك الوقت من عام ١٩٥٨، وأنه لم تكن في الواقع بين الشعبين العربيين في مصر وسوريا من روابط فعلية وإيجابية لقيام الوحدة الفورية، إلا شيء واحد، هو جمال عبد الناصر وشخصيته وإيجابيته» . .

وجاءني أحد محرري **الأهرام** يطلب مني تعليقاً على كلام هيكل، فقلت في سياق حديث طويل: «ما هذا الذي يقوله هيكل، هل يريد أن يكفر بالوحدة العربية كما كفر بها شكري القوتلي؟ . . وما هذا الحديث عن الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين سوريا ومصر، ليته يتذكر الفروق الواسعة التي تسود المجتمع في روسيا وأمريكا من النواحي الاقتصادية والاجتماعية . . وما معنى هذا الكلام عن أن شخصية الرئيس عبد الناصر هي الرابطة الوحيدة لقيام الوحدة الفورية . . إنني لا أقل تقديراً للرئيس عبد الناصر عن السيد هيكل، ولكني لا أريد أن تعود الصحافة المصرية إلى العهد

البائد، عهد التأليه والتقديس، فهذا أخطر ما يصيب الأمم في نهضتها القومية . . إن حوافز الوحدة بين سوريا ومصر متوفرة، وإني أرفض أن يكون عبد الناصر هو الرابطة الوحيدة، وأحسب أن عبد الناصر نفسه لا يرضى أن يكون هو الوحدة، وأن تكون الوحدة هو» . . إلى آخر ذلك التعليق . .

ولكن حديثي لم ينشر في **الأهرام**، وكان على الجماهير العربية أن تسمع رأي هيكل وحده . . .

وعلى بعد الفوارق وأوجه الشبه، فقد وجدت العذر لهيكل . الخليفة عمر أصيب بالذهول حين بلغه نبأ وفاة النبي (صلعم) فراح يرغي ويزبد، ويهدد ويتوعد كل من يقول أن محمداً قد مات . . إلى آخر القصة . . كما روتها كتب السيرة النبوية . .

وكذلك كان شأن هيكل حينما رأى الوحدة تموت، أمام ناظريه . .

وعزمت أن أترك الصحافة المصرية والسورية تخوض في ذلك الجدال المرير، لألتقي بالمشير عبد الحكيم عامر أتحدث إليه، فهو أول من تلقى صدمة الانفصال في دمشق . . . ولولا بقية من حياء، وخشية من النقمة الأبدية، لقضى عليه الضباط المتآمرون.

دخلت عليه في مكتبه وأطباق الدخان تكاد أن تشبه «غطيطة» لبنان أو «شبورة» القاهرة، وقلت له بعد السلام والتحية : «لقد قرأت كثيراً وسمعت كثيراً عن الانفصال والأحداث والوقائع، وعندي ما فيه الكفاية . . ولكني أريد أن أعرف أمراً واحداً . . . لماذا لم تضربوا حركة الانفصال في مهدها . . إن الجيش والشعب مع الوحدة، ولا يمكن أن يخضعها نفر من المتآمرين والمغامرين».

قال : «الواقع أننا، الرئيس عبد الناصر وأنا، وضعنا خطة للقضاء على المؤامرة والمتآمرين، بل إننا بدأنا في تنفيذها . . لقد أعددنا فرقة من جنود المظلات من كتائب الصاعقة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل للهبوط في اللاذقية، وفد تم إنزال بعض الجنود من الطائرات، وصدرت الأوامر إلى الأسطول المصري بالتحرك إلى السواحل السورية . . . وتحولت بعض السفن التجارية إلى ناقلات جنود . . وتأهبت فرقتان كاملتان مؤلفتان من خمسة وثلاثين ألف جندي للإبحار إلى اللاذقية. ووصل الأسطول بالفعل قريباً من قبرص، ولكنا أوقفنا الخطة في آخر لحظة . . وأصدرنا أوامرنا إلى قواتنا بالعودة إلى الإسكندرية وبور سعيد . . ».

قلت : «ولماذا؟ لقد كان الشعب السوري يتوقع أن تتحرك القاهرة عملياً، وأعتقد أن الجيش السوري كان مستعداً لضرب المتآمرين، والحفاظ على الوحدة».

قال: «هذا صحيح. . بل إن وحدات الجيش السوري في الشمال قد طلبت إلينا أن نبادر لدعم القوات السورية بقوات مصرية».

قلت: «إذن. . لماذا أمرتم القوات المصرية بالعودة؟»

قال (بعد أن سكت طويلاً وهو يشعل السيجارة من السيجارة): «الواقع أن هناك سببين: الأول أننا كنا نخشى أن تقع حرب أهلية نكون نحن طرفاً فيها، وقد أعلن الرئيس عبد الناصر موقفنا بعد الانفصال، بأننا نرفض أن تكون الحرب الأهلية وسيلة لإعادة الوحدة. . .».

قلت: «وما هو السبب الثاني؟»

قال: «السبب الثاني. . لقد وصلتنا أنباء موثوقة بأن الأسطول الأمريكي السادس قد تحرك في اتجاه السواحل السورية، وما كنا نريد أن نعطي الأمريكان فرصة لضرب القومية العربية».

قلت: «السبب الأول خطأ. . والسبب الثاني خطأ. . هذه مسائل تقديرية من غير شك، والمرء فيها معرض للخطأ والصواب. . ولكن الخوف من الحرب الأهلية كان خطأ كبيراً. . لو أنكم أنزلتم القوات المصرية لانضم إليها كل الجيش السوري ومعه كل الشعب. . أما تحرك الأسطول السادس فهو حرب أعصاب. .».

قال: «لا يا أخ أحمد. . هذه مسائل عسكرية نحن نعرفها ونقدرها. وليست مسائل سياسية من أمور الأمم المتحدة. أنت تعلم أن الملك حسين ورئيس جمهورية تركيا كانا أول من اعترف بالانفصال السوري، ولم يكتفيا بذلك ولكنهما حشدا قواتهما على الحدود، حماية للجمهورية السورية من الشمال ومن الجنوب. هذه أمور عسكرية».

قلت: «لا. . بل هذه أمور سياسية أولاً وعسكرية ثانياً. . هل إذا أعلنت الإسكندرية الانفصال، تتركونها وشأنها. . خوفاً من الحرب الأهلية، أو من تحرك الأسطول السادس؟».

قال: (بشيء من الغضب) «هذه مسألة مختلفة تماماً. . الإسكندرية طول عمرها أرض مصرية».

قلت: «إذن، لن تقوم وحدة عربية، ما بقى الأسطول السادس يتحرك في البحر الأبيض المتوسط».

وسمعت وقع الأقدام في المكتب المجاور، وللضباط خطوات تنبئ عن ذاتها، فنهضت لأودعه وأنا أقول: «أرجو أن تعذرني، أخشى أن أكون قد أسرفت في

الحديث. . إن الموضوع كبير وخطير، إن فيه مصير الأمة العربية لأجيال. . وكل ما أرجوه أن لا يخلف الانفصال عقدة في نفوس إخواننا المصريين. . لقد كان لثورة ٢٣ تموز/ يوليو فضل في رفع لواء القومية العربية. . وإنه يعز علينا أن تصاب الوحدة العربية بنكسة في عهد الثورة. . وإنه لحرام أن تعاقب القضية العربية، ومعها الأمة العربية، بسبب جريمة اقترفها بعض الضباط المغامرين. . ».

قال: «لا والله يا أخ أحمد. . الخطأ مشترك بين السوريين والمصريين. . وقد اعترف الرئيس عبد الناصر بأخطائنا في الوحدة. . وستظل ثورة ٢٣ تموز/ يوليو تحمل لواء القومية العربية وراية الوحدة العربية. . ».

غادرت مكتب المشير عبد الحكيم عامر، وكلماته تداعب تمنياتي، وتبلسم جراحاتي. . ودعوت الله أن لا تكون جريمة الانفصال قد خلقت عقدة عميقة في هذه الدولة الكبيرة التي بقي لها من الوحدة العربية اسم الجمهورية العربية. . وعلمها، وفيه نجمتان حزينتان.

وبدأت تتضح مواقف حكام العرب من الوحدة والانفصال، وكان يكفي أن يستمع المواطن العربي إلى الإذاعات العربية حتى تتجلى له الصورة. . الشامت شامت، والحزين حزين. .

وبرز بين الشامتين الإمام أحمد حميد الدين، المتوكل على الله رب العالمين، فقد تناقلت الأخبار أن الإمام الذي تهالك على القاهرة حتى دخل في «الدول العربية المتحدة» في عام ١٩٥٨، قد أصبح بعد الانفصال السوري، يتفكه على الوحدة، ويتندر على الاشتراكية، ويسمر على الحرية. . وتفتحت قريحة الشعر في الإمام أحمد، فأخذ ينظم القصائد على طريقه ألفية بن مالك، وهي ألف بيت من الشعر في الصرف والنحو. . فأنشد يقول:

هيا بنا لوحدة مبنية	على أصول بيننا مرضية
قانونها شريعة الإسلام	قدسية الأوصاف والأحكام
ليس بها شائبة من البدع	تجيز ما الإسلام عنه منع
من أخذ ما للناس من أموال	وما تكسبوا من الحلال
بحجة التأميم والمعادلة	بين ذوي المال ومن لا مال له
لأن هذا ماله دليل	في الدين أو تجيزه العقول
فأخذ مال الناس بالإرغام	جريمة في شرعة الإسلام
ولا يجوز أخذ مال الغير	إلا بأن يرضى بدون ضير

وتبارى الناس في حفظ هذه الأبيات، لناظمها إمام القات، الوحدويون والانفصاليون على السواء. . فقد حفظها الوحدويون وهزأوا بالشعر والشاعر. . . وحفظها الانفصاليون تضامناً بين الفجور والفاجر. .

وفي ختام ١٩٦١ اختتمت تلك المسرحية، الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة والمملكة اليمنية، وأعلنت القاهرة انتهاء الاتحاد لأن «الجمهورية العربية المتحدة ليست على استعداد للدخول في تجارب وحدوية لا تخدم غير أغراض الحكام، وتستغل ضد أماني الشعوب. . .»، كما أعلن ذلك متحدث رسمي باسم القاهرة. . .

وهكذا تراجعت «الجمهورية العربية المتحدة» عن الخطأ. . وحدة مزورة مع إمام اليمن. . والرجوع إلى الحق فضيلة. .

وسواء أخطأت «الجمهورية العربية المتحدة» في وحدتها مع المملكة اليمنية أم لم تخطئ، وسواء كانت في تصرفها مع السوريين قد فتحت منافذ في حصن الوحدة، تسلل منه المتآمرون المنتهزون. . وهذه كلها أمور تحتاج إلى دراسة شاملة في كتاب مستفيض، فقد كان عزاؤنا، نحن الجيل الوحدوي في الأمة العربية، أن القاهرة صمدت أمام المحنة. . فقد ظلت تؤكد عروبتها ودورها الطليعي في الحياة العربية. . .

فعلى الصعيد القيادي أعلن الرئيس عبد الناصر، في أعقاب الانفصال مباشرة، أن إيمان مصر بعروبتها قدر لا يتزعزع، وأنها ستظل تسمي نفسها «الجمهورية العربية المتحدة»، وأنّ مصر لا تبرئ نفسها من الأخطاء. . وهكذا وقف الرئيس عبد الناصر يعترف قبل أن توجه إليه أصابع الاتهام. .

وعلى الصعيد الصحافي، فقد انغمرت مصر في مثل فيضان النيل، في حملة صحافية تدعو إلى توكيد عروبتها، وكان أروع ما هزني ما كتبه الصحافي المصري أحمد بهاء الدين في جريدة **أخبار اليوم** (١٦ أيار/مايو ١٩٦٢) يتساءل: «هل هناك من يقبل الانفصال بين دمشق وحلب، كذلك الانفصال بين القاهرة ودمشق»، لقد وجدت في هذه الكلمة المؤمنة راحة في نفسي وخاصة أنها جاءت في اليوم الثاني لذكرى قيام إسرائيل (١٥ أيار/مايو). أما على صعيد الدولة فقد جاءت المناسبة في ٢١ أيار/مايو ١٩٦٢، فقد كنت في ذلك اليوم في جامعة القاهرة في الجناح المخصص للدبلوماسيين العرب، وكانت المناسبة اجتماع المؤتمر القومي للقوى الشعبية.

وافتتح الرئيس عبد الناصر الاجتماع بتلاوة «الميثاق» بأبوابه العشرة. . وكان

الباب التاسع مخصصاً للوحدة العربية، وأخذ الرئيس يقرأ الفقرة الأولى التي تعلن «أن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة العربية بين شعوبها. . لقد جاوزت الوحدة هذه المرحلة وأصبحت حقيقة الوجود العربي ذاته»، ووقف أعضاء المؤتمر مصفقين هاتفين، والتفتوا بأبصارهم إلى جناح الدبلوماسيين العرب، وكأنما كان جميع العمال والفلاحين والمثقفين من أعضاء المؤتمر القومي يقولون للسفراء العرب «هل سمعتم. . هذه مصر. . ».

ولعلي كنت من أكثر الحاضرين غبطة بهذه المظاهرة الوطنية للوحدة العربية، ذلك أني أعرف من أمر مصر ما لم يعرفه السفراء. . فقد عرفتها قبل ثلاثين عاماً من «الميثاق» تهتف للفرعونية تحت أقدام أبي الهول، وفي مدافن الأقصر، وبين أعمدة الكرنك. . .

وخرجنا من جامعة القاهرة، بعد نهاية الاجتماع، وتلاقى الجمع متصافحين، يتبادلون التهنئة، السفراء العرب مع الوزراء المصريين. . وجاء المشير عبد الحكيم عامر يقول، كمن انتصر في معركة:

«هذا هو ميثاقنا. . هل سمع الأخ أحمد. . نحن مستعدون لكل تضحية من أجل الوحدة. . وستثبت لك الأيام أننا لن نتردد أن نضحي بأرواحنا من أجل الوحدة. . يجب أن تفهم هذا جيداً. . ».

وانصرف كلّ منا إلى طريقه، وذهب الحاضرون إلى شؤونهم. . وذهبت إلى شأني. . إلى مكتبي لأكتب مذكراتي عن ذلك اليوم العظيم.

ومضت أعوام سبعة على حواري مع المشير عبد الحكيم عامر، ولقيته خلالها مرات ومرات. . وجاءت حرب الأيام الستة وجاءت في أعقابها الأحداث الجسام. . . وكانت وفاة المشير عبد الحكيم عامر واحدة منها، يضاف إليها استشهاد الآلاف والآلاف من أبناء العروبة في الضفة الغربية، وفي سيناء وفي الجولان. .

كنت يومها في بيتي في إحدى قرى لبنان، وتذكرت كلام المشير عامر في يوم الميثاق «لن نتردد أن نضحي بأرواحنا من أجل الوحدة. . يجب أن تفهم هذا جيداً. . . ».

والآن فهمت هذا الكلام جيداً. . إن الأعمار بيد الله، ولكن عمر «عامر» كان معلقاً بين الوحدة والانفصال، وكذلك أعمار شهدائنا الأبرار الذين سقطوا في الميدان. . من القنال إلى الضفة الغربية والجولان. .

إن انفصال ١٩٦١ كان سبب نكسة ١٩٦٧ بكل عارها وشنارها، على المواطن العربي أن ينبش الأحداث من مرقدها.

وجاءت نكسة ١٩٦٧ لتذكرني بالمشير عامر، كأنما كان يحدثني بلسان القدر!! غير أن الانفصال لم يقض على المشير عامر فحسب.. ولكنه قضى على كرامة أمة بأسرها، وأرغم وجهها في الرغام..

وعلى الأجيال العربية أن تعتبر بالعبر، وتتعظ بالعظات..

وكائنة ما تكون هذه العبر أو تلك العظات.. فإن التاريخ لا يرحم.. وسيكتب في طليعة ما يكتب أن الذين صنعوا الانفصال في عام ١٩٦١، هم الذين صنعوا هزيمة ١٩٦٧.

وأنه لولا الانفصال، لما سقطت سيناء، ولا سقط الجولان...

صنعنـا وحــدة الهزيمــة

وقع الانفصال بين سوريا ومصر في أيلول/ سبتمبر ١٩٦١، ولكن الوحدة، حديثاً ودعوة وعزيمة، استمرت تعيش في وجدان الأمة العربية وغيرها . . وكان ذلك على أشده في سوريا نفسها، فقد أحس الشعب أن جريمة الانفصال قد أُلقيت على أعتابه، وأن رجسها ونجسها قد رمى على بابه . . . .

وثار الشعب السوري لكرامته ولوحدته . . فقامت المظاهرات في المدن السورية وقراها، وتدافع الوطنيون المناضلون يتحدّون «حكومة» الانفصال بأسلحتهم . . وتجمع الضباط هنا وهناك يبحثون عن الطريق ـ طريق العودة إلى الوحدة، وتطلع الجنود وهم في خنادقهم إلى من يقودهم إلى انقلاب على الانقلاب، ليعود الإقليم الشمالي إلى الإقليم الجنوبي وتصبح الجمهورية العربية المتحدة تمثل الوحدة بحقيقتها، لا باسمها وعلمها، فحسب.

وازدادت نقمة الجيش والشعب معاً على المتآمرين الذين دبروا الانفصال على غفلة من الزمن، ولم يجدوا مفراً إلا أن يقولوا الله ربنا . . . والوحدة ديننا . . . وراحوا يعلنون أنهم ساعون لإعادة الوحدة من غير أخطائها . . وأنهم لا يريدون الانفصال . . وأنهم سيتصلون بالقاهرة لبناء وحدة تثبُت على الأيام، وتدوم إلى دهر الداهرين وأبد الآبدين!!

ولكن هذا الاستغفار والاعتذار لم يجُدِ فتيلاً . . ولم تجُدِ كذلك هذه «الدعايات» الكاذبة في إعادة الوحدة . . فقبض على الضباط المتآمرين وأودعوا السجن . . في سجن المزّة الذي كُتب عليه أن يضم بين جدرانه الوحدويين والانفصاليين، بعد هذا الانقلاب أو ذاك . منذ الانقلاب الأول في عهد حسني الزعيم، إلى آخر القائمة التي لا نهاية لها.

وبعد الانفصال، تعاقبت على دمشق أربع حكومات خلال بضعة عشر شهراً، تسقط حكومة وتؤلّف حكومة، والدعوة إلى الوحدة تعمّ صفوف الجيش والشعب، وأخيراً جاء شيء من الترياق من العراق!!

كان ذلك من العراق فعلاً، وكان من الثامن في شهر شباط/ فبراير من عام ١٩٦٣ حينما سقط عبد الكريم قاسم رئيس الجمهورية العراقية. . سقط في قلعته، في مكتبه المحصن في وزارة الدفاع. . وجاءت حكومة عبد السلام عارف. .

وغرقت بغداد في الفيضان، لا فيضان دجلة، ولكنه الفيضان الشعبي العارم. . . المظاهرات والاجتماعات. . وكلها صائحة صارخة «الوحدة. . الوحدة».

وعَبَرت هذه الصيحات والهتافات الفيافي والقفار، ووصلت إلى دمشق، وقام انقلاب جديد في دمشق (٨ آذار/ مارس ١٩٦٣) تماماً بعد شهر واحد من انقلاب العراق. . .

وأَعلن انقلاب دمشق الوحدة مع مصر، شعاراً له. . وأبرق الرئيس عبد الناصر معترفاً بالنظام الجديد في سوريا، مع أطيب عبارات التهنئة. . وكانت أول مرة بعد الانفصال يتصل فيها مع الحكومة السورية المتربّعة في دمشق. .

وخرج الشعب من البيوت والمصانع والمتاجر والمزارع، إلى الساحات والميادين والشوارع يهتف بلسان واحد: وحدة، وحدة، وحدة. . .

وبدا واضحاً أن حزب البعث كان هو القوة المخطّطة والمنفّذة لانقلاب شباط/ فبراير في بغداد، وآذار/ مارس في دمشق. . وكان طبيعياً أن ينزل الشعب إلى الشارع يطالب حكام بغداد ودمشق بالوحدة، والوحدة العربية هي شعار البعث، منذ كان البعث. .

ومن هنا ارتفع شعار الوحدة الثلاثية بين القاهرة وبغداد ودمشق. . . وتطلعت الأمة العربية في كل أقطارها إلى هذه الدعوة الجديدة. . فإنها العزاء والرجاء. . عزاء عن الانفصال الماضي، ورجاء في وحدة المستقبل.

وتعاظم إلحاح الشعب، وإصراره وتصميمه، على الوحدة الفورية بين الأقطار الثلاثة. . وكاد المتظاهرون في دمشق أن يحاصروا الوزراء في وزاراتهم وفي منازلهم. . ولم يكن مفرّ من الشروع بخطوات عملية لتحقيق الوحدة الثلاثية. . .

وتحركت أسلاك التلفون بين بغداد ودمشق والقاهرة، وطار الرسل بين العواصم الثلاث يجسّون ويمهّدون، إلى أن اتفقت الكلمة على عقد محادثات عاجلة لإقامة الوحدة الثلاثية. . ولْيكن ذلك في ١٤ آذار/ مارس. . تماماً بعد ستة أيام من الانقلاب في دمشق. .

وشهدت القاهرة تجربة أخرى من تجارب الوحدة. وتكامل وصول الوفدين العراقي والسوري. . . وكان الوفد العراقي مؤلفاً من أحمد حسن البكر رئيس

الوزراء، علي صالح السعدي نائبه، والفريق صالح مهدي عمّاش وزير الدفاع، وطالب حسين شبيب وزير الخارجية، وعبد الرحمن البزاز سفير العراق في القاهرة. . وكان الوفد السوري مؤلفاً من سبعة عشر عضواً، برأسهم الفريق لؤي الأتاسي رئيس مجلس الثورة، ومعه صلاح البيطار رئيس الوزراء وثمانية وزراء آخرون، وسبعة ضباط من أعضاء مجلس قيادة الثورة. . . .

وضجّ جرس التلفون وهو يقرع في منزلي، والصحافيون يسألونني عن «هوية» أعضاء الوفدين العراقي والسوري، فأجبتهم بما أعرف. . عمن أعرف. . وكان كثير من الأسماء جديدة على المسرح السياسي. وسألني أحد الصحافيين: «ما هو السر في أن عدد الوفد السوري الكبير. . سبعة عشر. . ؟»

قلت: «ليس في الأمر سر. . إنهم يمثلون سبعة عشر اتجاهاً سياسياً في البلد. . على الأقل!!»

قال: «لماذا تقول على الأقل؟»

قلت: «أظن أن في دمشق اتجاهات أخرى ليست ممثلة. . الحزب الشيوعي مثلا، والإخوان المسلمين!!».

وبدأت المحادثات الثلاثية في قصر القبة، وكان وفد الجمهورية العربية المتحدة مؤلفاً من الرئيس عبد الناصر، ونوابه الثلاثة: عبد اللطيف بغدادي، والمشير عبد الحكيم عامر، وكمال الدين حسين، وعلي صبري رئيس المجلس التنفيذي. . وفد صغير يمثّل شعباً كبيراً، على حين كان الوفد السوري، وفداً كبيراً يمثل شعباً صغيراً. .

وبدأت المحادثات في ١٤ آذار/ مارس ١٩٦٣، وامتدت في مرحلتها الأولى ثلاثة أيام بلياليها. . وأقول ثلاثة أيام بلياليها بكل ما في هذه العبارة من ساعات ودقائق. . فقد كانت الجلسات تنعقد في قاعات الاجتماعات وخارجها، وفي صالة الطعام، ولم تخل غرف النوم من اجتماعات جانبية تجري بين الوفد السوري والعراقي، وبين أعضاء الوفد السوري بذاته. .

ودارت المناقشات منذ البداية في جو ساخن، امتدت حرارته إلى حدائق القبة فأفسدت على الربيع نسائمه الحلوة. . وكان أصدقائي من الوفدين العراقي والسوري يستأنفون بقية مجادلاتهم عندي، في المنزل. . يأتونني على غير موعد كيفما اتفق، فيبدأون بالمطبخ يفرغون ما في الثلاجة من بقايا الفاكهة، ثم نجتمع في الصالة يحتسون القهوة والشاي. . فيقول الإخوان السوريون: الشاي في بغداد أحسن بل

القهوة عندنا ألذ! وبعد ذلك «نستهلك « الوقت في كل ما جرى من مداولات في قصر القبة. . وكانت مداولات تاريخية حقاً، كشفت عن أسرار وأسرار. .

وكان زمام المداولات بيد الرئيس عبد الناصر نيابة عن الجمهورية العربية المتحدة. . يعرض وجهة نظره ومفهومه للوحدة العربية، والأخطاء التي وقعت في الوحدة السورية-المصرية وما إلى ذلك. . على حين كان الوفد السوري يتكلم كله دفعة واحدة، أو يتكلمون جميعاً متعاقبين، غير متوافقين ولا متفاهمين، حتى غدا الوفد السوري وفوداً متعددة، بل إن العضو الواحد، هذا الضابط مثلاً، ينقض اليوم ما تحدث به بالأمس، ويأتي بجديد في الغد، حتى أصبح بنفسه يؤلف عدة وفود!!

كنت أستمع إلى هذه التفاصيل في بيتي على لسان الوفد السوري، فقد كانوا أكثر ترددا عليّ من الوفد العراقي، فإن الحوار كان في معظمه مع الوفد السوري، وعن التجربة المريرة التي مرت بين سوريا ومصر، وكنت أقرأ صحف القاهرة في اليوم التالي وهي تتحدث عن روح الوئام والانسجام التي تسود مباحثات المؤتمر!!

وكنت أقرأ تلك العناوين الضخمة الملونة في صحف **الأهرام** و**الجمهورية** و**الأخبار**، وهي تنشر صور الوفود العربية الثلاثة، وهم يضحكون الضحكات العريضة، ويتأبط بعضهم ذراع بعض، وكان القدر الساخر يضحك على هذه الضحكات ثأراً للوحدة العربية، وانتقاماً للقومية العربية.

ولكن المداولات داخل قصرالقبة في أسرارها وسرائرها، كانت تُنْبئ أن الصحف القاهرية قد جعلت من الحبة قبة. . على حين أنه لم تكن هنالك حبّة إطلاقا. . وكانت القبّة من غير حبّة. . وكل ما في الأمر أنهم كانوا يجتمعون في قصر القبّة. .

وقال لي أصدقائي من الوفدين السوري والعراقي، ولم أعد أذكر مَن تكلم أولاً، فقد كانوا يقاطع بعضهم بعضاً، وكانوا كذلك يتكلمون دفعة واحدة. . . قالوا إن الرئيس عبد الناصر كان قاسياً، لقد تحدث عن حزب البعث بمرارة، وأن الوحدة لا يمكن أن تقوم على مناورات سياسية، وأن القاهرة دفعت لحزب البعث أموالاً لمساعدته في نضاله لا ليكون عميلاً. . وأن تجربته الماضية قد جعلته يرفض أن تكون الوحدة مع حزب البعث ولكن مع سوريا بأسرها. . وأنه لم يصدق أن صلاح البيطار قد وقّع عريضة الانفصال. . وأن الذين قاموا بالانفصال أعلنوا أنهم يقبلون أن يتعاونوا مع إسرائيل ولا يتعاونون مع مصر. . وأنه لا يقبل أي وحدة إلا إذا كانت على أساس وحدة الجيش، وأنه لا بد من تحديد المفهوم الحقيقي للوحدة والحرية

والاشتراكية قبل الدخول قي أية وحدة. . وأنه قرأ كتب ميشيل عفلق حول هذه المواضيع فلم يجد فيها شيئاً واضحاً. . وأنه يرى في المداولات الحاضرة مناورة واضحة لأنْ ينفرد الاتحاد الاشتراكي بمصر، وأن ينفرد حزب البعث بسوريا والعراق، وأنّ القصد من هذه المحاولة أن توضع مصر بين المطرقة والسنديان. . بين سوريا والعراق، وأنه لا يقبل بوحدة على أساس الائتلاف، فإنّ الجامعة العربية خير من هذا الائتلاف الهزيل. . . وتساءل عبد الناصر بعد ذلك: هل تبقى الكتل المتصارعة في الجيش السوري يصفّي بعضها بعضاً. . أم أنكم تريدون دولة مهلهلة بلا إرادة. . وأنه من غير وحدة الجيش لا تكون هنالك وحدة إطلاقاً. . وأن مصر كانت لها أخطاء في عهد الوحدة. . وأنه أخطأ شخصياً في قبول استقالة وزراء البعث الأربعة، بصورة فورية. .

وأجاب الوفدان العراقي والسوري بإسهاب أكثر. . لأن الجانب المصري كان يتكلم فيه رجل واحد هو الرئيس عبد الناصر. . أما الوفدان الآخران فقد تكلموا جميعاً. . فتكلم السيد ميشيل عفلق عن فلسفة حزب البعث ومفهومه للوحدة والحرية والاشتراكية، وأنّ أجهزة الدولة في عهد الوحدة كان همّها تصفية حزب البعث وإبراز العناصر السورية الأخرى.

ودافع السيد صلاح البيطار عن توقيعه عريضة الانفصال، وسرد أسباب استقالته من الوزارة المركزية. . وأن أسلوب الحكم في الجمهورية العربية المتحدة لم يكن قائماً على أساس المشاركة، بل على السيطرة.

قال علي صالح السعدي: إن توقيع صلاح البيطار على عريضة الانفصال يعتبر جريمة لا تغتفر.

وأوضح الفريق لؤي الأتاسي هو ورفاقه الضباط السوريون أن سبب الانفصال كان الحساسيات التي قامت بين الضباط المصريين والسوريين وما يتصل بهذا الموضوع بالنسبة إلى الترقيات والرتب والمعاشات. . .

وأكد نهاد القاسم نائب رئيس الوزراء، وأعضاء الوفد السوري الآخرون، أن البعث ليس هو سوريا. . وأن هنالك قوى وطنية أخرى في سوريا، لها شأنها ووزنها. .

وأسهب عبد الكريم زهور في شؤون حزب البعث الداخلية، وتصوره للوحدة. . «وأننا سوف نعتصم بهذه القاعة إلى أن يوقع الرئيس عبد الناصر على الوحدة».

وأوضح أحمد حسن البكر ورفاقه في الوفد العراقي أنهم لا يريدون أن يضعوا الرئيس عبد الناصر بين المطرقة والسنديان، سوريا، العراق، وأنهم لا يتفقون مع البعث السوري في سلوكه قبل الانفصال وبعده، وأن البعثيين في سوريا قد ندموا على تأييد الانفصال، كما أن صلاح البيطار قد فكّر في الانتحار.

لقد سمعتُ هذا وأكثر من هذا من الإخوان السوريين والعراقيين ولو أني دوّنته كلمة كلمة، لجاء مجلداً ضخماً يستحق أن يوضع في متحف الوحدة، يوم يأذن الله بأن تقوم دولة الوحدة مرة ثانية . . .

وكانت الإذاعات العربية في القاهرة ودمشق وبغداد، تشحن الجماهير العربية بتفاصيل مباحثات الوحدة، تذيع من أخبارها ما ليس من أخبارها، ثم تتبعها بالتصريحات الصحافية التي تندلع من أفواه الوفود الثلاثة عن الوحدة الثلاثية، وعن مؤسساتها الدستورية وأهدافها، وموعد إعلانها.

وكانت المباحثات تجري في قصر القبّة، وقد التقت حول أسواره الأمة العربية بأسرها، وتلاقت في حدائقه اليانعة جراحات الانفصال تتطلع إلى الشفاء . . والوحدة شفاء من كل داء.

وهكذا تعاظمت موجات الآمال، وأصبحت تدق أبواب قصر القبة دقاً شديداً، حتى لم يعد أمام الوفود الثلاثة إلا أن يضعوا ميثاق الوحدة، وأن يبادروا إلى إقامة دولة الوحدة . . .

وانتهى العتاب بين الرئيس عبد الناصر والبعث السوري، كما انتهى الحوار مع البعث العراقي، وانصرفت لجنة فرعية تمثل الوفود الثلاثة تضع ميثاق الوحدة، كلمة كلمة، ومادة مادة . .

وقدّمت اللجنة الفرعية الميثاق إلى المؤتمر العام، فناقشته الوفود الثلاثة، وقرأته القراءات الثلاثة . . وأطل اليوم السابع عشر من شهر نيسان/ أبريل ١٩٦٣ .

وعاشت الأمة العربية ذلك اليوم، تنتظر ميلاد الحدث الجسيم العظيم، ساعة ساعة . . وانشدَّت أسماع الجماهير العربية إلى أجهزة الراديو، الكبيرة والصغيرة، وكان للترانزستور حظ وافر كبير . . التاجر ثبّته فوق بضاعته، والجزّار ركّزه قريباً من ذبيحته، والبقال نصبه فوق فاكهته، وراكب الدراجة علّقه في عنقه، والطالب شدَّه بين كتبه . . وكذلك الحال في المزارع والبوادي . . الكل ينتظرون مولد الحدث السعيد . .

وكذلك كان حالي في ذلك اليوم، رفيقاً للراديو، وانتصف الليل والأناشيد الحماسية تنفجر من إذاعات القاهرة ودمشق وبغداد، والمذيع يصيح في آذان الأمة العربية، فترة بعد فترة، أنّ بياناً تاريخياً سيذاع قريباً!! انتظروا البيان التاريخي، استمعوا إلى النبأ التاريخي، يجسد أحلامكم ويحقق آمالكم..

ودقّت ساعة جامعة القاهرة الواحدة بعد منتصف الليل، ودقّت معها قلوب الملايين من المحيط إلى الخليج..وأعلن المذيع توقيع البيان التاريخي بقيام دولة الوحدة الكبرى بين مصر وسوريا والعراق، دولة الأربعين مليوناً.. ذات الجيش الواحد والهدف الواحد...

وتلا المذيع البيان العربي بكامل نصوصه، وسرد أسماء الذين وقعوه، واحداً واحداً، مبتدئاً بالرئيس جمال عبد الناصر والفريق لؤي الأتاسي والسيد أحمد حسن البكر ثم بقية أسماء الوفود..

وطلع الصباح على ليلة ما نامتها الجماهير العربية، وهزت الفرحة الكبرى قلوب الناس جميعاً، فنصبوا أقواس النصر، وأقاموا معالم الزينة، ورفعوا العلم العربي على المنازل.. وفي الأسواق والشوارع، وفاضت دموع الفرح حين رأوا النجوم الثلاث تتمايل مع نسمات الربيع، تصطف النجمة إلى جانب الأخرى، وكأنها تتهيأ لاستقبال النجوم الشقيقة، نجوم عربية أخرى، المقبلة من قريب ومن بعيد، من المشرق ومن المغرب..

ذلك كان حالنا وتلك كانت مشاعرنا، يوم أُعلن ميثاق الوحدة الثلاثية، وغادر الوفدان السوري والعراقي القاهرة إلى المشرق العربي، لتبدأ الخطوات التنفيذية لقيام الوحدة.

أما حال العدو، بل الأعداء فقد كان غيظاً وحنقاً، وتهديداً ووعيداً.. وويلاً وثبوراً..

في تلك الفترة امتلأت ملفاتي بقصاصات من الصحافة الغربية، وكلها تصب جام غضبها على الجمهورية العربية المتحدة الجديدة التي تضم أقوى أقطار العرب الثلاثة، مصر وسوريا والعراق.. وكلها تدعو إلى حماية إسرائيل من الخطر الذي يحدق بها... وكلّها تدعو إلى المحافظة على مصالح الدول الغربية من هذا العملاق العربي الذي يوشك أن يهوي على المصالح الغربية، ويشعلها ناراً ودماراً..

أما إسرائيل، فقد تهيّبت المصير قبل أن يحل المصير، فاستنفرت الرأي العام الدولي، ونشط سفراؤها في كل أنحاء العالم، وتحركت القوى الصهيونية في واشنطن

ولندن، واقتحمت البيت الأبيض وقصر باكنغهام، فاستجاب لها أعضاء الكونغرس الأمريكي، ونواب مجلس العموم البريطاني، وجميعهم يطلبون حماية إسرائيل، فإن العرب، الهمج، الوحوش، يوشكون أن ينشبوا مخالبهم، في إسرائيل، ويلقوها في أعماق البحر!!

ولقد كانت هذه المخاوف في محلّها، سواء على المصالح الغربية أو على إسرائيل نفسها، وإسرائيل هي في رأس هذه المصالح الغربية.. فإن الجمهورية العربية الجديدة تملك إمكانات ومقدرات ضخمة، بشرية مادية وروحية، فضلاً عن أن هذه الدولة التي تقوم من النيل إلى الفرات ستتبعها خطوات وحدوية أخرى، ستفضي في النهاية إلى قيام دولة الوحدة الكبرى من المحيط إلى الخليج.

ولكن الاستعمار، ومعه إسرائيل، لم يكن جاهلاً بالأمور التي تجري في الغرف العربية المقفلة.. لقد كان يعرف دخائل النفوس... دون أن تخدعه العناوين الحمراء في صحافتنا، والأصوات الساخنة في إذاعتنا.. ودون أن يرتجف أمام الحماسة المتصاعدة في الآفاق، المتبخره في الهواء!!

لقد رأى الاستعمار ومعه إسرائيل أن الجمهورية الجديدة ستُعتبر قائمة بعد خمسة أشهر من صدور البيان، وأن فترة الانتقال لقيام المؤسسات الاتحادية ستكون عشرين شهراً من ذلك التاريخ، ولا بد أن شيئاً ما سيحدث خلال ذلك الزمن.. لا بد أن تستيقظ الأحقاد، لا بد أن تنفتح الجراحات من جديد.. لا بد أن تتحرك البغضاء التي هَجَعت في قصر القبة، وتصبح الجمهورية الجديدة اسماً تاريخياً على هامش التاريخ...

ولقد كان ذلك فعلاً.. لقد وقع ما كان الاستعمار يتوقع. فمضت الأيام، ثم جاءت وراءها الأسابيع وفي طياتها أحداث في بغداد ودمشق.. أحداث لم أكن قريباً منها لأدوّنها في مذكراتي.. نشبت الخلافات الداخلية في سوريا والعراق بين البعثيين والكتل الوطنية الأخرى، وقُتل من قُتِل، وسُجِن من سُجِن، وهرب من هرب، وعادت حليمة لعادتها القديمة...

عادت الإذاعات بين القاهرة ودمشق وبغداد يحمل بعضها على بعض وأصبحت فترة الانتقال تكريساً للانفصال...

وجاء شهر تموز/يوليو، فأعلن الرئيس عبد الناصر أن لا وحدة مع البعث، ولم يكن قد انقضى على مهرجان الوحدة الثلاثية أكثر من ثلاثة أشهر، وعادت الأمة العربية تنطوي على آلامها، حزينة منكسرة، ليعود الاستعمار ومعه إسرائيل، إلى الطمأنينة والسكينة، فقد طاب لها الزمان، وتفرق الخلان، وكأن

شيئاً كان وما كان، ﴿**بينهما برزخ لا يبغيان**﴾[1]، صدق الله العظيم.

وهكذا تحطمت في عام ١٩٦٣ أكبر محاولة عربية لوحدة ثلاثية، بعد أن تحطمت المحاولة السابقة في عام ١٩٥٨-١٩٦١ للوحدة الثنائية. .

ويمضي القدر ليخبّئ محاولة أخرى للوحدة، ولو على مقياس أصغر، تلك هي الوحدة المصرية العراقية، على طريق الإعداد والتحضير.

كان ذلك في ربيع عام ١٩٦٤، حين جاء المشير عبد السلام عارف رئيس الجمهورية العراقية في زيارة إلى القاهرة واجتمع إلى الرئيس عبد الناصر، وجرى الحديث حول وحدة بين العراق ومصر، ولكن الظروف يومئذ لم تكن تأذن بقيام وحدة فورية. . .

زرت المشير عبد السلام عارف في دار السفارة العراقية، ولم يكن لنا من كلام إلا حديث الوحدة العربية، وبدأ يسرد الأسباب التي تدعو إلى التأنّي والتروّي. . فأشار إلى مشاكل العراق الداخلية، ومنها قضية الأكراد، وتعرّض لموضوع الاشتراكية والمصاعب التي تكتنف تطبيقها في العراق، وانتهى إلى القول بأن «في مصر عناصر شيوعية كثيرة على رأسها السيد علي صبري نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة، ونحن لا نستطيع أن نتحمل الشيوعيين في العراق».

قلت للرئيس العراقي، وكانت تغلب عليه النزعة الإسلامية عن صدق وإيمان: «لقد عشت في مصر زمناً طويلاً، أستطيع أن أدّعي أني أعرف رجالها واحداً واحداً، وإني أعتقد أن علي صبري ليس شيوعياً، فقد يكون في يسار اليسار، لا أكثر، وقد يكون أقل. .».

قال الرئيس العراقي: «يا أخ أحمد، لقد أُبتلينا بلاء كبيراً من الشيوعيين في العراق، وقد اقترفوا جرائم رهيبة، ونحن في العراق نواجه خطراً من كل جهة. . ثم إن الرئيس عبد الناصر يشترط أن تقوم الوحدة الوطنية أولاً، ثم الوحدة العربية ثانياً. . ونحن لم نصل بعد إلى مرحلة الوحدة الوطنية في العراق».

قلت: «أنا أخالفك وأخالف الرئيس عبد الناصر. . إن الوحدة العربية هي خير دعامة للوحدة الوطنية. . وحكومة الوحدة العربية أقْدر على حلّ مشكلة الأكراد من الحكومة العراقية. وها أنتم قضيْتم السنين الطوال دون أن تقدروا على الوصول إلى حل أو تسوية. . أما وجود الخلافات الداخلية فليست عقبة، إنها حافز إضافي لإقامة

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الرحمن،» الآية ٢٠.

دولة الوحدة العربية. . وهذه الدوله الاتحادية في الهند تنهض بمسؤولياتها كاملة على شعب يبلغ تعداده ٥٠٠ مليون نسمة، متعدد اللغات، والعادات، والحاجات، والديانات وتكفي مشكلة البقر، يُذبح أو يُعبد!!»

ولكن الأمر لم يكن في حاجة إلى إقناع، فقد ولدت الوحدات السابقة عقدة في القاهرة، وكل ما استطاعت أن تبلغه محادثات عبد السلام عارف وجمال عبد الناصر «تشكيل مجلس رئاسة بين مصر والعراق لكي يختص بدراسة وتنفيذ الخطوات اللازمة لإقامة الوحدة بين البلدين»، وإلى جانب مجلس الرئاسة تألفت لجان مشتركة للشؤون العسكرية والسياسية، والاقتصادية، والفكر الاشتراكي العربي، والثقافة والإعلام، والتنظيم الشعبي. وقد نص الاتفاق كذلك على إنشاء أمانة عامة لمجلس الرياسة مقرها القاهرة، وأسند منصب الأمين العام إلى الدكتور عبد الرزاق محيي الدين وزير الوحدة العراقي، وزيراً بلا وزارة، أو وزير وحدة بلا وحدة!!

وانعقد مجلس الرئاسة في القاهرة عدة مرات، وصدرت عنه بيانات وبيانات، وانعقدت اللجان المشتركة عدة مرات ومرات، وصدرت عنها دراسات ودراسات. . ولكن الوحدة بين مصر والعراق ظلت حبيسة التشهّي والتمني. . فقد كان الزمن (١٩٦٤-١٩٦٧) زمن مؤتمرات القمة، مؤتمرات الملوك والرؤساء الثلاثة عشر، ولم يكن الجو يأذن باتحاد دولتين أو أكثر. . فذلك مخالف لروح «الضمان العربي». . أو هكذا يعلّلون.

وانقضت حرب الأيام الستة على الأمة العربية، فلم تجد إسرائيل أمامها، ضماناً عربياً، أو وحدة عربية، لا ثنائية ولا ثلاثية. . ووقعت النكسة. . لأننا صنعنا وحدة الهزيمة لا وحدة النصر. .

وشبت نوازع الوحدة في نفسي، يوم تداعى الملوك والرؤساء إلى مؤتمر الخرطوم. . . وذهبت إلى الخرطوم لا أحمل إلا ورقة واحدة. .

كنت قد زهدت في كل الملفات، وكل الأوراق وطويت كل قرارات مؤتمرات القمة السابقة في القاهرة، والإسكندرية، والدار البيضاء. .

ودخلت مؤتمر الخرطوم ومعي ورقة واحدة. . كتبت فيها مشروعاً للدولة العربية المتحدة. . لأدعو إليها، طريقاً للنصر. . مهما طال الطريق.

وكان مساء. . وكان صباح. . وسأمضي في الكلام. . المباح وغير المباح. . !!

الوحدة العربية في الخرطوم وفلسفة بورقيبة

وقعت الداهمة الدهماء، التي سميت بنكسة حزيران/ يونيو، ووقفت الأمة العربية أمامها مشدوهة مذهولة وهي تحسب أن حلماً رهيباً مخيفاً قد سطا على نومها، فارتعدت فرائصها واضطربت جوانبها، ثم أفاقت من هول الصدمة الماحقة، لترى أنها أمام الحقيقة الراجفة تنبئ عن سقوط سيناء، والجولان والضفة الغربية، بعد أن تبعثرت الجيوش المصرية والسورية والأردنية، مخلّفة وراءها الآلاف من الشهداء، وقد تسمّرت أبصارهم المنوّرة على دباباتهم المهشمة، ومصفحاتهم المدمرة، وطائراتهم المحترقة. .

ولم يَدْر أحد ماذا جرى، وكيف جرى، وكأنما ريح صرصر عاتية قد لفّت الوطن العربي، وانشلّ إحساس الناس من هول زفيرها وشهيقها، فلم تعد أسماعهم تسمع، وأبصارهم تُبصر، وعقولهم تعقل. .

وليست هذه صورة خيالية مما يدور على ألسنة المجذوبين الذين عاشوا عمرهم، وقد التاثت عقولهم، وضاعت في متاهات الخيال. .

بل كيف لا تكون الجماهير العربية، في مثل خبال المجذوبين. . ألم تكن مجذوبة إلى تلك المعركة بكل جوارحها وأحاسيسها، بكل تفكيرها وضميرها. . ألم تكن أسماعها منجذبة إلى صيحات الحرب، تلعلع بها الإذاعات العربية، ألم تكن آذانهم منجذبة إلى الملوك والرؤساء وهم يمنّون الأمة العربية بالنصر، وأن النصر أيام معدودات، وبعدها ستكون إسرائيل خبراً عابراً من أخبار التاريخ العابر، وكان طبيعياً أن نصبح أمة «مجذوبة»!

وكان أن هدأت الريح الصرصر العاتية، وبدأ الناس يبصرون ويشعرون ويعقلون، وراحوا يتساءلون. . كيف جرى كل ما جرى؟

بدأت العقول تفكر، والألسنة تتساءل. . وبدأت الإذاعة والصحافة تتكلم،

كمِثْل ميت بُعِث من قبره، والتراب يملأ عينيه وشفتيه، فتختلط إشاراته بكلماته، هو لا يدري ما يقول. . .

كنت يومها بين الأردن وسوريا ولبنان، وعشت مع الشعب في معاناته وبلوائه، في الشوارع والميادين، في المخيمات والمساجد، في الفنادق والخنادق. . ورأيت الناس سكارى وما هم بسكارى. . وحسبت أننا في يوم الحشر ﴿**يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت**. . ﴾[1] يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه.

كان ذلك اليوم بالتحديد، هو اليوم الذي قبلت فيه الدول العربية قرار وقف إطلاق النار، ولقد سمعت الجماهير العربية بخبره من الإذاعات الأجنبية، على حين كانت الإذاعات العربية تتحدث عن المعارك الضارية في جميع الجبهات، ثم تتبع ذلك بالأناشيد العسكرية، تردّد شعارات النصر!!

وفُرضت الرقابة على الصحافة والإذاعة، «لمصلحة الأمن العليا» وبدأت أقرأ العناوين مشطورة، والأخبار مقطّعة، دون أن يكون لذلك علاقة «بمصلحة الأمن العليا»، فقد كان التوجيه الرسمي العربي مركّزاً على تضليل الرأي العربي، ولا أقول أكثر من ذلك ولا أقل، فإني لم أجد تعبيراً أكثر رأفة ورحمة. .

وكان التجهيل هو هدف التضليل، فقد رأى الحكم العربي الرسمي أن يعطي للأمة العربية أسباب الهزيمة، الأسباب التي يريد هو أن يُعطيها، لا الأسباب الأصلية الحقيقية.

كان يريد أن «يجرّع» الرأي العام العربي بالأسباب الفرعية، بعيداً عن السبب الجذري للكارثة. .

هكذا دخلت في مرحلة ذهول جديدة، وأنا أقرأ الصحافة العربية وأسمع الإذاعة العربية. . حْملة من التضليل والتجهيل. . إلا بعض الأقلام والنزيهة والألسنة الحرة. . وتركّزت هذه الحملة أول ما تركزت على «أولئك» الذين كانوا ينادون بالحرب ضد إسرائيل. . وأن العالم المتحضّر في زماننا لم يعد يستسيغ الحديث عن الحرب. . وأن القضية الفلسطينية لم تعد تصلح لها هذه اللغة. . ولا بد أن تخاطب العالم بلغة أخرى!!

ثم تناولت الحملة موضوع تحرير فلسطين. . فَغَمَزت ولَمَزت «أولئك» الذين يدْعون إلى تحرير فلسطين، وما أبعدهم عن الواقعية والموضوعية في هذا العالم الجديد الذي تغمره المفاهيم الواقعية ويدْرك مقتضيات الحياة الدولية، وأن تحرير فلسطين

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة الحج،» الآية ٢.

مسألة عاطفية، متصلة بالماضي، وأن على الأجيال الصاعدة أن تفكر تفكيراً علمياً على هدى الحاضر والمستقبل!!

وسألت نفسي وأنا أسمع الإذاعات العربية: من هم «أولئك» الذين تعنيهم المصادر الرسمية؟ ألم يكن الملوك والرؤساء الثلاثة عشر، جميعاً ومن غير استثناء هم الذين قضوا عمرهم وهم يخطبون عن تحرير فلسطين، وأن الحرب هي الطريق لتحرير فلسطين...

وأسْهَبت الحملة بعد ذلك في قيمة العمل السياسي والدبلوماسي، بالنسبة لإزالة آثار العدوان، وأن العالم الدولي لا يمكن أن يرضى باحتلال الأراضي العربية، وأن جلاء القوات الإسرائيلية منوط بأمر واحد، سهل وبسيط، إذا نحن أحسنّا السير فيه، وهو أن نجنح للدعوة إلى السلام، وإلى حل يقوم على السلام.. وأننا حين نعلن إقلاعنا عن تحرير فلسطين وتدمير إسرائيل، ستعود إسرائيل إلى خطوط الهدنة.. وما هي إلا بضعة أسابيع وتزول آثار العدوان، وبضعة أشهر على أكثر تقدير!!

وقد رافَقَت هذه الحملة.. حملة كلامية أخرى، تولى أمرها «رجال» الإشاعات العربية الموجهة، الذين انبثوا في المقاهي والنوادي والمساجد، ليهمسوا في أذن المواطنين أن وقف إطلاق النار، هو لبضعة أيام، انتظاراً للطائرات والدبابات.. وحين مضت الأيام قالوا إنها بضعة أسابيع، وحين مضت الأسابيع، قالوا إنها بضعة أشهر، وحين مضت الأشهر، توقفوا عن الوعود، فقد أَلِف الناس وقف إطلاق النار، وهكذا حصل المقصود، وبطل الوعد والموعود!!

وكانت هذه الحملة في مجموعها ناشبة تحت شعار النقد الذاتي، ولكنه نقد ذاتي يتناول جميع طبقات الشعب، إلا الحكم العربي الرسمي، فهو معصوم، والملوم الملوم، هم الآخرون.. أما الملوك والرؤساء فإنهم لم يتحدثوا عن تحرير فلسطين، ولا عن تدمير إسرائيل، ولا شأن لهم في الحرب والقتال!!

ولم تخلُ هذه الحملة من طرائف، وكثيراً ما تعيش الطرائف على هامش النكبات.. من ذلك أن الملك حسين ألّف كتاباً اسمه **معركتنا مع إسرائيل** أعلن فيه أن «الشقيري وخطب الشقيري» هي من أهم الأسباب في نكبة العرب.. وقلت للسفير الأردني في بيروت: «أرجو أن يتفضل جلالة الملك الحسين، ويجعل عنوان كتابه: معركتنا مع الشقيري، لا معركتنا مع إسرائيل».

ومن هذه الطرائف أيضاً أن رئيس وزرائه السيد سعد جمعة ألّف كتاباً عنوانه **معركة المصير** نحى فيه منحى جلالة الملك حسين، فاعتبر أن «خطب الشقيري» هي في طليعة أسباب الكارثة.. وقلت لسفير الأردن في بيروت مرة ثانية، هذا هو كلام

إسرائيل، وإني أعيذ بعربي أن يكون «صوت إسرائيل»، فمنذ أن توليت إنشاء الكيان الفلسطيني، وإذاعة إسرائيل لا حديث لها إلا عن منظمة الشقيري، وجيش الشقيري، وأخيراً خطب الشقيري التي كانت السبب في هزيمة العرب!!

ولكن طريفة الطرائف أن بعض الأقلام الساذجة قد أشارت إلى الأكذوبة الكبرى، أن الشقيري أعلن «أنه يريد أن يلقي اليهود بالبحر»، وأن العالم الدولي قد هبّ لنجدة إسرائيل، وأن خطاب الشقيري قد جمع لإسرائيل ملايين وملايين من الدولارات(٢)!!

وحين مجّ الرأي العام العربي هذه الحملة الضحلة، ارتفع المستوى قليلاً، وبدأ الحكم العربي يتحدث عن أسباب أخرى لقيت بعض الآذان، بعض الوقت!!

ومن هذه الأسباب أن اليهود غادرون ماكرون مخادعون فاجأوا العرب، فجاء هذا الكلام تسلية للناس في المقاهي.. لأن العامة، فضلاً عن المثقفين، يعرفون أن الحرب، منذ كانت الحرب، هي خدعة.. والنصر لمن خَدَع وغَدَر، وفاجأ ومكر..

ولما استنفدت أضحوكة المفاجأة حديثها، قدّمت الحملة الإعلامية العربية أضحوكة أخرى، خلاصتها أن حرب الأيام الستة كانت حرب التكنولوجيا، وأن تخلّف العرب في هذا المضمار، وتفوّق إسرائيل هو الذي كان سبب الهزيمة.. ولكن الجماهير العربية سرعان ما نبذت بفطرتها السليمة هذه الحجة الساذجة، التي أغرقت الصحف في تحليلها وشرحها، في وقت كانت تنشر فيه أخبار انتصارات الفيتكونغ على الولايات المتحدة، وهي التي تملك التفوق الفائق في ميدان التكنولوجيا، وسائر المخترعات الحديثة، في آلة الحرب الحديثة!!

وجاءت بعد ذلك أضحوكة ثالثة، وهي أن الأمة العربية لا تزال متخلفة في حياتها الاجتماعية، وأن الأوضاع الحضارية في دولة إسرائيل كانت العامل الرئيسي في انتصارها في معركة الأيام الستة... ومرة ثانية هزئت الجماهير العربية بهذا الكلام، وهي تعلم أن الشعب الجزائري هو في مستوى الأمة العربية، وقد انتصر على فرنسا رغماً عن تقدمها الحضاري الرفيع، وأن إسرائيل، ونصف سكانها من الدول الشرقية، عربية وآسيوية وأفريقية، ليست في المستوى الذي يتوهمون، أو يكذبون!!

وكان الحكم العربي الرسمي يمد الحملات الإذاعية والصحافية بأمثال هذه الحجج والأسانيد، ليحجب عن الأمة العربية العامل الأساسي الذي كان وراء النصر

---

(٢) حرب حزيران/ يونيو وموضوع إلقاء اليهود بالبحر يجده القارئ مفصلاً في كتاب آخر، تحت الإعداد... (كذا ورد في الأصل).

الإسرائيلي والهزيمة العربية. . ذلك العامل الأساسي هو الوحدة العربية. . انعدام الوحدة العربية. . .

أجل إن انعدام الوحدة العربية كان هو العامل الفاصل الحاسم في المعركة، وكل ما عداه فهي أسباب فرعية ثانوية، لا تنصر ولا تكسر. . .

«والوحدة» وحدها، هي التي تنصر وهي التي تكسر، فقد انتصرت إسرائيل لأنها كانت تمثل الوحدة، وقد انهزمت الأمة العربية لأنها لم تكن تمثل الوحدة من قريب أو بعيد، بل كانت تمثل الفرقة في أبشع صورها. .

ولست أريد أن أتحدث الآن بالتفصيل عن الظروف التي كانت تسود الأمة العربية عشية العدوان الإسرائيلي، فسيكون ذلك في كتاب آخر[٣]، ولكني أكتفي بالقول الآن، بأن إسرائيل قد انفردت بالجيوش العربية الثلاثة، المصرية والأردنية والسورية. . واحداً بعد الآخر، على حين كان الفريق علي عامر، الرجل الصابر، يتابع أنباء المعركة في غرفته في القيادة العربية الموحدة في مصر الجديدة، عن طريق جهاز الراديو، كأي مواطن عربي عادي، لا يدري من أمر هذه الحرب إلا ما يدريه رعاة الإبل في الربع الخالي!!

وفي هذا الجو المسموم المحموم، وفي أعقاب النكسة، وما أرحم هذا اللفظ. . تنادى وزراء الخارجية العرب إلى اجتماع «مهم» في الكويت «للبحث في الموقف الراهن وللاتفاق على خطة عربية شاملة لإزالة آثار العدوان».

كان ذلك في أواسط حزيران/ يونيو، وكان الاتحاد السوفياتي قد دعا الأمم المتحدة إلى دورة طارئة، وتوافد وزراء الخارجية العرب على الكويت، بعد أن توغّلت طائراتهم بعيداً عن شرقي البحر الأبيض المتوسط، تفادياً لتعرضها لنيران الطائرات الإسرائيلية، التي أصبحت لها السيطرة على أجوائها، وعلى الأجواء العربية من حولها. .

واتصلت وزارة الخارجية الكويتية بمكاتب منظمة التحرير في عواصم الدول العربية لتبلغني نبأ الاجتماع وموعده، فقد انقطعت أخباري في حرب الأيام الستة، وأنا ألهث بين القدس وعمان ودمشق، وكل ما عرفه الناس من أمري يومذاك أن الإذاعة الإسرائيلية قد أعلنت أن «أحمد الشقيري رئيس ما يسمى بمنظمة التحرير الفلسطينية قد هرب من القدس القديمة في ثياب امرأة محجبة، وقوات الأمن الإسرائيلي تبحث عنه في أحياء القدس الجديدة»، إلى غير ذلك من الأراجيف الإسرائيلية. . .

(٣) للمؤلف كتاب آخر في هذا الموضوع تحت الإعداد (كذا ورد في الأصل).

وأخيراً عثرت عليّ وزارة الخارجية الكويتية حين عثرت على نفسي، وكنت في طريقي من دمشق إلى بيروت إلى أثينا إلى بنغازي إلى القاهرة، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة المفتوحة أمامي للوصول إلى بيتي في حي الزمالك في القاهرة..

ووصلت إلى الكويت مع وزراء الخارجية العرب، في ذلك الجو اللاهب وقد زادته الهزيمة ثقلاً ورهقاً، وجرت مراسيم الاستقبال حسب المعتاد في المطار وسألت نفسي: هل نستحق الاستقبال بعد الهزيمة؟ أوَليس أجدر بنا أن تغوص جباهنا في شوارع الكويت وهي تغلي بالزفت، وتفور بالقطران..

ودخلت قاعة الاجتماع وجلسنا حول الطاولة المستديرة، في أول جلسة عربية بعد الهزيمة، وافتتح الشيخ صباح الأحمد وزير الخارجية الاجتماع بكلمة قصيرة لم تتعد عبارة الترحيب، والدعاء إلى الله العلي القدير بأن يعين الأمة العربية على إزالة آثار العدوان..

وتحدث الوزراء، كلّ بما يراه سبيلاً للخروج من هذه المحنة، وكان الحديث منصباً على ما يمكن أن تأتي به الدورة الطارئة للأمم المتحدة من ضغط دولي لحمل إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة

وانبرى السيد المنجي سليم ممثل تونس في شرح الخطة «الحكيمة» التي يجب على الدبلوماسية العربية انتهاجها في مداولات المنظمة الدولية، بديلاً عن الغوغائية العربية التي اتبعها العرب حتى الآن!!

تحدث ممثل تونس هذا الحديث بإسهاب وهو يوجه كلامه مرّة إلى محمود رياض وزير الخارجية العربية المتحدة، ومرة إلى الدكتور إبراهيم ماخوس وزير الخارجية السورية، وأخير إلى «الشقيري» رئيس منظمة التحرير....

وجاء دوري، فقلت إن الأمم المتحدة لن تعيد للأمة العربية شبراً واحداً من الأراضي المحتلة، وسواء كانت الخطة «الحكيمة» أو «غوغائية» فإن المنظمة العالمية لا تملك أن تُخرج إسرائيل من الأراضي المحتلة أو أن تزحزحها قيد أنملة، وأنه أجدر بوزراء الخارجية بدلاً من أن يهدروا جهودهم ووقتهم في هذه الندوة العالمية، أن يعملوا هنا في الوطن العربي، على «إقامة وحدة عربية تكون الوحدة العسكرية أول إنجازاتها، وإني اقترح أن تبدأ الوحدة العسكرية بين الدول المحيطة بإسرائيل و.. و..».

وهنا، وعند كلماتي هذه، انبرى المنجى سليم يتحدث بصوت غاضب صاخب، لم أعرفه في السنوات العشر التي عرفته فيها، وهو يقول: «أما كفانا حديثاً عن الحرب... ألم نتّعظ بهذه الهزيمة الشنيعة التي حلّت بنا.. أما آن الأوان أن نكون

عقلاء، موضوعيين، إيجابيين، واقعيين، نحن لا يمكننا أن نوافق على كلام الشقيري، ونحن ما جئنا لنبحث هذه الأمور. . يجب أن نبادر إلى وضع خطتنا أمام الأمم المتحدة التي ستنعقد في الأسبوع المقبل. . وإلا فنحن ننسحب من الاجتماع. . ».

وقلت في معرض جوابي على مندوب تونس: «إن القلوب مملوءة بالحزن والأسى لِما حلّ بالأمة العربية، وبالشعب الفلسطيني. . لقد وقعت فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلي من البحر إلى النهر، وأصبح شعبنا كله بين سجين وشريد وشهيد. . ولقد حسبت أن هذه النكبة ستغسل قلوب العرب، جميع العرب. . ولكني أرى أن مندوب تونس ما يزال قلبه. . ».

ونهض وزير الخارجية الكويتية ليناشدني التوقف عن الكلام من أجل وحدة الصف العربي.

فقلت: «ومن أجل هذا الذي تتحدث عنه، وحدة الصف العربي، فإني أقترح أن يبادر الاجتماع إلى إقامة قيادة عسكرية واحدة. . . فإذا أخذتم بهذا الرأي فلن أرد على مندوب تونس. . . ».

وتبعني في الكلام رئيس وزراء السودان محمد أحمد محجوب، فقدّم اقتراحاً رسمياً بإنشاء وحدة عسكرية بين الدول العربية، وتلاه الدكتور إبراهيم ماخوس الوزير السوري مؤيداً الاقتراح، وكلا الوزيرين يعلنان أن «اقتراح الشقيري بإقامة وحدة عسكرية ليس فيه تجريح لأحد، وأنه هو الجواب الوحيد على العدوان الإسرائيلي. . ».

وحسب العادة. . . في الدبلوماسية العربية، عند كل أزمة، اقتُرح تأجيل الجلسة للاستراحة. . فخرجنا إلى الصالة المجاورة، والصحافيون العرب، المتلهفون على أخبار الخير، يحاولون أن يقرأوا في وجوهنا مستوضحين: هل من خبر نُعلنه إلى الأمة العربية، يُواسي كرامتها الجريحة وعزتها الكسيرة. .

وبعد الهمسات الثنائية والثلاثية بين الوفود العربية، عدنا إلى إقامة الاجتماع مرة ثانية، ليعْلن رئيس الجلسة، أنه استناداً إلى المداولات الأخوية بين الوزراء، تقرر إرجاء بحث موضوع الوحدة العسكرية، لأن هذا الأمر من الخطورة بحيث يجب عرضه على مؤتمر قمة عربي، على ضوء النتائج التي ستُسفر عنها اجتماعات الأمم المتحدة. .

وسكت الحاضرون. . وانصرف الكلام إلى الأمم المتحدة وما يجب أن يقال. . وكيف يقال ومتى يقال. . وجاء دور صياغة القرار مع إطلالة الفجر. . . . وتساءل الوزراء ماذا يكتبون. . ماذا يعلنون على الأمة العربية وجماهيرها، وقد حشدت كل جوارحها حول تلك القاعة، واقفة وراء الأبواب، متلهفة أن تعلم ما لم تعلم.

وقال الوزراء: نكتب في القرار: «أن الوزراء العرب قرروا بعد دراسة الوضع الراهن من كل جوانبه أن يسافروا إلى نيويورك لحضور دورة الأمم المتحدة...».

وقال المحجوب وماخوس: «وهل السفر إلى نيويورك يحتاج إلى قرار؟..».

وقلت: «وهل جئتم إلى الكويت لتقرروا أنكم قررتم السفر إلى نيويورك، لحضور الدورة الطارئة للأمم المتحدة.. ليس الأمر في حاجة إلى قرار، وملابسكم أصبحت جاهزة في حقائبكم استعداداً للسفر إلى الأمم المتحدة..».

وعاد رئيس الجلسة الشيخ صباح الأحمد «يكندش»[٤] جو الجلسة وهو يناشد الحاضرين عدم الاسترسال في الكلام، حفاظاً على وحدة الصف، والاكتفاء بالقرار.. إياه.. وسكت الحاضرون، فإن «وحدة الصف» تقضي دائماً بالسكوت!!

وختمت الجلسة، وأعلن السيد عبد الخالق حسونة على الصحافيين صيغة القرار، فكتبوا، ثم شطبوا ما كتبوا، فقد كان ظنهم أن بعد القرار كلاماً آخر.. وتسلّلت إلى أفئدة العرب مشاعر الخيبة، لترقد إلى جوار مشاعر النكسة.

وتراكض الوزراء إلى فنادقهم يحملون حقائبهم، لتقلهم طائرة واحدة، عبر الأجواء التركية، بعيداً عن سلاح الجو الإسرائيلي ليصلوا في الموعد المحدد إلى نيويورك، ويخطبوا في قاعة الأمم المتحدة، عن الغزو الإسرائيلي.. والعدوان الإسرائيلي.. وأن إسرائيل ليس لها أن تجني ثمار غدرها وعدوانها، وغيرها من العبارات التي يتوسل بها المنهزمون المنكسرون..

وخرجت من قاعة الاجتماع متثاقلاً متباطئاً، والوزراء من أمامي يهرولون.. وقال لي وزير الخارجية الكويتية: ألا تسافر معنا إلى نيويورك؟؟

قلت: «أنا عازف عن الأمم المتحدة.. لقد جربتها السنين الطوال، ولا أرى فيها خيراً.. ولقد شبعت منها، وليذهب إليها الجائعون..».

قال: «وهل أنت يائس إلى هذا الحد؟»

قلت: «ستحضرون الدورة الطارئة، وستحضرون بعدها الدورة العادية وستمرّ عليكم أربعة أشهر بكاملها، لن تستعيدوا خلالها أربعة أشبار من الأرض العربية.. وليس في الأمم المتحدة مكان للمنهزمين.. وسيذهب وقتكم هباء، ويضيع جهدكم في الهواء».

---

(٤) «يكندش» هو اللفظ الكويتي، تحريفاً عن الأصل الإنكليزي لـ «تبريد الجو».

قال: «ولكن ما هو البديل؟»

قلت: «البديل أن تعودوا للاجتماع وتضعوا أسس الوحدة العربية، وتكون بدايتها الوحدة العسكرية.. واذهبوا بعد ذلك إلى الأمم المتحدة».

ولكن كلامي ذهب أدراج الرياح. كما ذهبت الخطب المزمجرة الهادرة التي «ارتجّت» لها قاعات الأمم المتحدة، في الأمم المتحدة، وقد ألقاها كل أصدقاء العرب من كوسيغين رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي إلى مندوب الدول الإحدى والعشرين بعد المائة، من أعضاء الأمم المتحدة.. وكان هذا هو عددهم في ذلك العام..

وانتهت الدورة الطارئة إلى فشل ذريع، وعادت الوفود العربية على عجل، وقد اتفقت في ما بينها أن توصي بعقد مؤتمر قمة عربي... توضع فيه خطة «أساسية عليا» لمواجهة الدورة العادية التي ستعقد في خريف ذلك العام (أيلول/ سبتمبر ١٩٦٧)، وكان مؤتمر الخرطوم.

ولست أقف طويلاً عند مؤتمر القمة العربي في مؤتمر الخرطوم، وما سبقه، وما رافقه، وما لحقه من أسرار، فذلك كله موضوع كتاب آخر مع مؤتمرات القمة السابقة[٥]، فإن مذكراتي هذه قاصرة على سيرة الوحدة العربية. ومكثت أياماً وأنا أسأل: ماذا سأقترح في مؤتمر الخرطوم؟...

إن النكبة لها سبب واحد.. السبب أننا ثلاث عشرة دولة عربية.. ثلاثة عشر جيشاً عربياً.. وقلت في نفسي، إذا كان السبب كذلك، وإنه لكذلك، أصبح لا بد من تقديم مشروع للوحدة العربية.. للدولة العربية المتحدة... ووضعت المشروع على الوجه التالي لأعرضه على الملوك والرؤساء..

مشروع الدول الاتحادية
(المبادئ الأساسية)

إن قيام دولة اتحادية يتطلب وضع وثيقة دستورية، تحدد بصورة تفصيلية طبيعية الاتحاد واختصاصات الدولة الاتحادية ومؤسساتها المختلفة، وعلاقة الدولة الاتحادية بالأقطار التي يتألف منها الاتحاد.. ولكن هذه المرحلة يجب أن يسبقها اتفاق من حيث المبدأ على الأسس العامة لمشروع الاتحاد، وتلخص هذه المذكرة المبادئ الأساسية للدولة العربية المقترحة فيما يلي:

(٥) كتاب المؤلف الذي يتناول هذا الموضوع تحت الإعداد (كذا ورد في الأصل).

١ ـ تنشأ دولة اتحادية تعرف باسم الدولة العربية المتحدة، وتتألف من الأقطار العربية الآتية: (. . .).

٢ ـ الدولة العربية المتحدة هي وحدها التي تملك السيادة الدولية الكاملة.

٣ ـ لكل دولة عربية مستقلة تؤمن بالمصير الواحد للأمة العربية وبضرورة المبادرة الفورية لتحقيق الوحدة العربية، أن تنضم إلى الدولة العربية المتحدة، ويكون قبولها بقرار يصدر بأكثرية الثلثين من مجلس الأمة العربية المتحدة، المنعقد بهيئته الكاملة.

٤ ـ ليس لأي قطر من الأقطار، التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة، أن تنسحب من الدولة العربية المتحدة، إلا بعد القيام باستفتاء عام حر للمواطنين في ذلك القطر.

٥ ـ يتمتع بالجنسية العربية للدولة العربية المتحدة جميع المواطنين الذين يتمتعون بجنسيات الأقطار التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة.

٦ ـ تباشر الدولة العربية المتحدة الاختصاصات الآتية:

أ) السياسة الخارجية، ويدخل في ذلك التمثيل الخارجي، وشؤون الأمم المتحدة، والمنظمات الدولية، والمعاهدات مع الدول الأجنبية.

ب) الدفاع والأمن القومي، ويشمل ذلك إنشاء قيادة عسكرية واحدة لجميع القوات المسلحة، وشؤون التعبئة العامة، وكذلك الأمور المتعلقة بالصناعات الحربية.

ج) البحث العلمي وأمور الطاقة النووية. المالية والخزانة، وتتضمن الضرائب الاتحادية، ميزانية الاتحاد، والقوانين الجمركية.

هـ) الاقتصاد والتخطيط الاقتصادي والتنمية.

و) التعليم بكل مراحله، والثقافة العامة.

ز) الإعلام والإرشاد القومي.

ح) العدل وتنسيق القوانين.

ط) المواصلات الاتحادية.

٧ ـ ينشأ في الدولة العربية المتحدة مجلس أمة يكون هو صاحب السلطة العليا في الدولة.

٨ ـ يتألف مجلس الأمة من هيئتين:

أ) مجلس النواب، وينتخب انتخاباً حراً مباشراً، على أساس نسبة عدد السكان في كل قطر.

ب) مجلس الاتحاد وينتخب انتخاباً حراً مباشراً ويتكون من عدد متساو من الأعضاء في كل قطر، ويكون عددهم نصف عدد أعضاء مجلس النواب.

٨ ـ رئيس الدولة: للدولة العربية المتحدة رئيس ينتخبه مجلس الأمة، وهو يمثل سلطة الدولة، ويكون القائد الأعلى للقوات المسلحة.

١٠ ـ يكون رؤساء الأقطار التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة نواب رئيس الدولة، يعاونونه في النهوض بمسؤولياته.

١١ ـ يكون للدولة العربية المتحدة مجلس وزراء مسؤول أمام مجلس الأمة، ويتولى رئيس الوزراء والوزراء مناصبهم ما داموا محل ثقة رئيس الدولة.

١٢ ـ يباشر مجلس الوزراء للدولة العربية المتحدة جميع الاختصاصات الواردة التي تمارسها الدولة الاتحادية.

١٣ ـ مجلس الأمة هو الذي يضع دستور الاتحاد، ويمارس السلطة التشريعية، ويصدر رئيس الدولة القوانين بعد إقرارها من قبل مجلس الأمة.

١٤ ـ تنشأ في الدولة العربية المتحدة محكمة اتحادية عليا، يحدد اختصاصها وتشكيلها بموجب أحكام القانون.

١٥ ـ يكون لكل قطر من الأقطار التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة حكومة قطرية، ويوضع لها دستور خاص بها، لا يتعارض مع الدستور الاتحادي.

١٦ ـ ينحصر اختصاص الحكومة القطرية في شؤون القطر، ولا تمارس الاختصاصات التي تملكها الدولة العربية المتحدة.

١٧ ـ رئيس القطر، هو صاحب السلطة العليا في ذلك القطر حسب الأوضاع القائمة.

١٨ ـ يكون في كل قطر من الأقطار التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة مجلس للوزراء يعينه رئيس القطر، ومجلس الوزراء مسؤول أمام المجلس التشريعي لذلك القطر.

١٩ ـ يكون لكل قطر من الأقطار التي تتألف منها الدولة العربية المتحدة مجلس تشريعي منتخب انتخاباً مباشراً.

٢٠ ـ القضاء في كل قطر، ينظم وفق أحكام الدستور لذلك القطر.

٢١ ـ (مادة انتقالية) إلى أن يتم وضع النصوص الدستورية، وإلى أن يتم قيام المؤسسات الدستورية للدولة العربية المتحدة، تبادر فوراً الدول العربية الراغبة في الاتحاد إلى إنشاء مجلس رئاسة مكوّن من رؤساء هذه الدول لتصريف أمور الدولة العربية المتحدة في المرحلة الانتقالية.

٢٢ ـ (مادة انتقالية) تبادر الدولة العربية المتحدة، كواجب أولي عاجل، إلى توحيد الجيوش العربية التابعة للاتحاد وتحت قيادة واحدة.

وحملت هذا المشروع بين أوراقي في محفظتي.. إلى السودان.. وحطّت بي الطائرة في مطار الخرطوم، واندفعت بي السيارة في ذلك الطريق الفاتن يسير في موازاة النيل، وعلى الميسرة في الطرف الآخر من الطريق رفعت السواري تحمل الأعلام الثلاثة عشر وكأنها تحدّق في محفظتي لتقول لمشروع الوحدة العربية.. نحن هنا.. نحن هنا ثلاثة عشر.. من شاء آمن، ومن شاء كفر!!

ووزعت مشروع الدولة العربية المتحدة على الملوك والرؤساء في أول اجتماع لمؤتمر القمة، ولم يكن من مجال لبحثه، فقد مضى اليوم الأول بأكمله والرئيس عبد الناصر يعرض على المؤتمر ظروف النكسة، والخسائر الجسيمة التي حلت بالجيش المصري في ضباطه وجنوده، وسلاحه وعتاده، وكانت الصورة رهيبة حقاً، فلم يعقب أحد.. وانتهى الاجتماع..

وفي اليوم الثاني افتتح الرئيس العراقي عبد الرحمن عارف الاجتماع بالكلام عن الوحدة العسكرية وضرورة قيامها لإزالة آثار العدوان.. وأخرج من ملفه قائمة طويلة، تبين في تقديره، ما تستطيع أن تقدمه كل دولة عربية، من قوات عسكرية وأسلحة مختلفة، من المشرق العربي والمغرب العربي، دولة دولة، لتُحشد في الجبهات العربية، للتصدي لإسرائيل، وإزالة آثار العدوان.

ولكن هذا الحديث قد ابتدأ وانتهى، وكأنه ما ابتدأ ولا انتهى، فقد انتقل المؤتمر إلى بحث شؤون البترول، فقرر استئناف ضخه، وموضوع الأرصدة الاسترلينية في البنوك البريطانية، فقرر إبقاءها مودعة حيث كانت، وموضوع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع الدول التي «أيدت» العدوان، فأباح لكل دولة عربية أن تحتفظ بهذه العلاقات كما تشاء..

أما الوحدة العربية، فقد بقيت ولداً يتيماً، أو طفلاً لقيطاً، لا يتعرف عليه أحد. .

وحاولت أن أثير الموضوع، فالتفت إليّ السيد إسماعيل الأزهري رئيس مجلس السيادة السوداني بوصفه رئيس الجلسة، وقال:

«يا أخ أحمد. . كلنا موافقون على الوحدة العربية، ولكننا الآن مشغولون بإزالة آثار العدوان، وحين ننتهي من هذه المرحلة قريباً، فلا بد أن نناقش اقتراحك بصورة مفصلة. .».

قلت: «وهل يظن السيد الرئيس أن الدول العربية قادرة على إزالة آثار العدوان من غير وحدة عسكرية. .».

قال: «إن الاتجاه في الظروف الحاضرة منصرف إلى الجهود السياسية الإيجابية للموضوع إلى تسوية سلمية، نأمل من ورائها أن نزيل آثار العدوان. .».

قلت: «لست أرى تعارضاً بين هذا الاتجاه، وبين إقامة وحدة عسكرية، فإذا لم تفلح الجهود السياسية، تكون القيادة العسكرية الموحدة قد درست وخططت، وجاهزة للعمل إذا بلغنا ساعة اليأس من الطريق السياسي، ويصبح بعدها ميسوراً علينا تحديد ساعة الصفر».

ومدّ الوزير التونسي المنجي سليم رأسه من وراء رئيس الوفد التونسي السيد الباهي الأدغم، وقال: «نحن لسنا في حاجة للإقناع بشأن الوحدة العربية. . ولكن الظروف تفرض علينا أن نركّز تفكيرنا على الجهود السياسية، وما يجب أن نعمله في الأمم المتحدة، وهي توشك أن تنعقد».

قلت: «إني سعيد أن أعلم أن الوزير التونسي مؤمن بالوحدة العربية».

قال: «ليس هذا موقفي الشخصي، إنه موقف الشعب التونسي، وموقف فخامة الرئيس بورقيبة بالذات».

قلت: «لا أشك في موقف الشعب التونسي. . ولكن فخامة الرئيس بورقيبة له رأي آخر».

قال: «وما هو؟»

ومددت يدي إلى حقيبتي، فأخرجت منها الرسالة الشهيرة التي كان قد بعث بها الرئيس التونسي إلى مؤتمر القمة العربي الثالث الذي انعقد في الدار البيضاء في أيلول/ سبتمبر . ١٩٦٥ وقلت:

«لقد بعث الرئيس بورقيبة رسالة إلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، راجياً

عرضها على مؤتمر القمة العربي، وحينما عرض الأمر على وزراء خارجية الدول العربية للنظر في جدول أعمال المؤتمر قرروا بالإجماع «عدم إبلاغ رسالة الرئيس بورقيبة إلى الملوك والرؤساء، وعدم إثباتها كوثيقة رسمية ضمن وثائق الجامعة، وعدم توزيعها على الوفود المشاركة في المؤتمر». . كان ذلك هو الموقف في مؤتمر القمة في الدار البيضاء، ولكني أبيح لنفسي، وبعد النكبة، وفي مؤتمر الخرطوم هذا أن أقرأ عليكم بعض آراء الرئيس بورقيبة بشأن الوحدة العربية».

لقد قال فخامة الرئيس بورقيبة في الصفحة ٣٣ من رسالته إن: «الوحدة العربية لم تكن إلا في فترات قليلة، ولا نجد أنها عمّرت على الرغم مما توخاه، المسلمون مع البلاد التي فتحوها من سياسة العدل والمساواة والإخاء، لذلك ينبغي أن نخلّص مفهوم الوحدة من سيطرة العاطفة». . وأعلن الرئيس بورقيبة في الصفحة ٣٤ من رسالته أن: «أول شيء ينبغي أن نقوم به هو أن نغيّر تصورنا للوحدة على أنها واجب، يكاد يصبح من فرائض الدين أو التاريخ. . ينبغي أن نطهّر مفهوم الوحدة من هذه المسحة القدسية التي كثيراً ما نضفيها عليها، والتي تجعلنا نخون من يناقش فيها، ونرميه بالمروق أو الخروج عن الإجماع، إلى غير ذلك من العبارات والصيغ المقتبسة من لغة الملل والنحل. . وكثيراً ما خطر على بعض الأذهان أن هنالك اتجاهات تاريخية محتومة، وأن الوحدة العربية هي إحدى هذه التيارات التاريخية التي لا مرد لها. . وهي حتم من أحتام القدر والتاريخ». وفي الصفحة ٣٥ يقول الرئيس التونسي: «ولذلك ينبغي أن نتساءل لماذا الوحدة؟ وهل الوحدة غاية في حد ذاتها أم هي وسيلة إلى هدف يتعداها؟ إذا اعتبرنا الوحدة غاية في حد ذاتها أصبحت من الحقائق التوفيقية التي يجب التسليم بها، وشابهت بذلك المعتقدات الدينية التي لا تقبل النقاش، ووقعنا في ما كنا ننبه إليه من الطقوس والمعميات ذات الصبغة الدينية، ولا أعتقد أن عربياً يُعْمل فِكْره في الموضوع، يقبل هذا التصور؟».

ومضيت أقرأ بقية آراء الرئيس بورقيبة من مذكرته، وأنا أتجنب إشارته إلى الجمهورية العربية المتحدة، و«أنها غير متحدة مع أحد»، وأن «عليها أن تبدأ بتغيير اسم دولتها»، وأن «استرجاع سوريا إلى الوحدة هو من قبيل المستحيلات، وأن على مصر أن تقلع عن المنوال الوحدوي الذي تنادي به مدعية أنها مهبط الوحي الثوري ومنبع الوعي القومي ومركز الدفع الاشتراكي. .»، وان «إصرار مصر على النجمتين في علمها محاكاة للعَلَم الأمريكي، يكشف عن نيتها في أن على بقية الدول العربية الأخرى أن تنضم إلى العربية المتحدة».

أجل لقد تجنبت قراءة هذه الإشارات المثيرة وغيرها، فقد كان مؤتمر الخرطوم معقوداً تحت لواء التضامن العربي من أجل إزالة آثار العدوان، ولم أشأ أن أفتح الجراح

القديمة، وأحشوها بالملح في الخرطوم، والملح بضاعة كريمة في السودان، تتقايض عليها القبائل الجنوبية!!

وتدخل الرئيس الأزهري ليوقف هذا النقاش حول آراء الرئيس بورقيبة بصدد الوحدة العربية. . وقال مرة ثانية:

«لقد اجتمعنا لبحث إزالة آثار العدوان، لا لبحث موضوع الوحدة العربية. .».

وقلت: «وأنا أسجل للتاريخ، وأرجو أن تذكروا كلامي. . إن الدول العربية لن تستطيع إزالة آثار العدوان إلا بقيام الدولة العربية الموحدة. .».

وتدخل المنجي سليم مرة ثانية وقال: «لقد استطاعت الأمم المتحدة أن تخرج إسرائيل من سيناء وقطاع غزة أيام العدوان الثلاثي. .».

وقلت على الفور: «إننا نضيع في الأمم المتحدة أربعين عاماً، كما تاه بنو إسرائيل في سيناء، إذا كنا نظن أن الأمم المتحدة ستخرج إسرائيل من الأراضي العربية. .».

وهكذا انتهى الحوار عن الوحدة العربية في مؤتمر الخرطوم. . .

وفي آخر يوم لمؤتمر القمة، انسحبت من الاجتماع لأسباب أعلنتها في مؤتمر صحافي عقدته في فندق السودان، وشهده الصحافيون العرب والأجانب[٦] . . وأُعلنت قرارات المؤتمر فلم يكن أية إشارة إلى الوحدة العربية، ولا إلى قيام الوحدة العسكرية. . وطار وزراء خارجية الدول العربية إلى الأمم المتحدة ليزيلوا آثار العدوان بالقرارات السياسية التي أجمع عليها الملوك والرؤساء في مؤتمر الخرطوم، بحثاً عن الحلول السلمية في نطاق الجهود السياسية!!

وعدت إلى القاهرة لأتابع عملي في مكتب المنظمة، وأقبل الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، وهو يوم الذكرى الخمسين لوعد بلفور.

كانت هي الذكرى الخمسين على صدور وعد بلفور، والذكرى الأولى على احتلال فلسطين كلها، من البحر إلى النهر.

ورجعت إلى صباي، منذ أن صدر وعد بلفور، وأنا ابن جيل واكب هذه الذكرى، من الأولى حتى الخمسين. . وبرزت في مخيلتي الأحداث والوقائع عبر هذه السنين، كيف نما الوطن القومي اليهودي، وكيف ضمر إلى جانبه الوطن القومي العربي، ثم كيف نشأت إسرائيل، كيف وقعت النكسة الأخيرة.

---

(٦) كتاب للمؤلف قيد الإعداد (كذا ورد في الأصل).

وبحثت عميقاً عن الأسباب . . ونقبت عن الوحدة العربية، ومكانها في هذه الأسباب . .

وكتبت ذلك كله في ليلة الذكرى الخمسين . . وأخذت طريقي إلى إذاعة منظمة التحرير لأخاطب الأمة العربية والشعب الفلسطيني عن الوحدة والنكبة . .

ومن أجل أن تعي الأجيال العربية النكبة وأسبابها ومكان الوحدة منها، فإني أضع بين يديها حديثي عن تلك الذكرى، حين كانت النكبة في دمها الحار، وعصبها الساخن:

«نحن، اليوم في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٦٧، إنه يوم واحد حقاً، ولكنه يضعنا وجهاً لوجه أمام خمسين عاماً طوالاً شداداً».

ففي الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩١٧ أصدرت الحكومة البريطانية وعدها المشؤوم بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ومنذ ذلك التاريخ، وشعب فلسطين يقف في هذا اليوم من كل عام أمام هذه الذكرى السوداء، يجدد العهد والإيمان، ويؤكد الثبات والعزم، عنيداً في كفاحه، صابراً ومثابراً على نضاله.

ولم يكن شعبنا في مثل هذا اليوم يقتصر على المؤتمرات الوطنية أو المهرجانات الشعبية، يعلن فيها عروبة فلسطين واستنكار الاستعمار والصهيونية.

ولم يكن يقتصر على الجهود السياسية يحرك العالمين العربي والإسلامي، بل لم يقتصر على إرسال الوفود إلى الحواضر الدولية يستنكر الباطل ويعلي كلمة الحق. ولكنه كان يخوض غمرات كفاح رهيب، يواجه الصهيونية العالمية بكل طاقاتها، والاستعمار بكل قدراته وخبراته.

أجل لقد خاض شعبنا كفاحاً مريراً من غير تكافؤ بيننا وبين عدونا خاضه عاماً بعد عام بل يوماً بعد يوم، وقاتلنا معركة بعد معركة ومرحلة بعد مرحلة، وخسرنا أرضنا قرية بعد قرية بل شبراً بعد شبر، ولكن لم ينكسر إيماننا بالله، ولا وهنت ثقتنا بالوطن، ولا ضعف استمساكنا بالحق.

وفي عهد الانتداب البريطاني منذ ١٩١٨ حتى ١٩٤٨ خاض الشعب الفلسطيني خمس عشرة ثورة مسلحة، حملت أعباءها جماهير الشعب من العمال والفلاحين، والطلاب والشباب، والرجال والنساء، وسقط الشهداء بالآلاف، ونسفت المدن، وهدمت القرى، وغصّت السجون والمعتقلات، وأعلنها عصياناً مدنياً وإضراباً متوالياً، كان آخرها إضراب الأشهر الستة، بما لم يشهد التاريخ له مثيلاً منذ كان تاريخ النضال.

تلك سيرة كفاح طويل، في كلام قليل، لو شئنا أن ننصفه إلى آخر مداه لانتهى

بنا إلى تاريخ طويل، كل صفحاته آيات بينات من ضروب الشجاعة والبطولة.

ولقد شهد عام ١٩٤٨ تقسيم وطننا، وقيام إسرائيل على ساحله الجميل، وتشرد شعبنا، وانتقل زمام القضية إلى الأيدي العربية عبر حقبة امتدت عشرين عاماً، تخللتها مؤتمرات وانقلابات وأحداث عربية ودولية، تدور كلها في قضية فلسطين، من قريب أو من بعيد؟

وها نحن نقف الآن أمام الذكرى الخمسين للوعد المشؤوم والسؤال الصارخ، صارخ في آذاننا، ماذا نرى، أين نحن اليوم، أين نسير، وإلى أين المصير؟

يوم صدر وعد بلفور كان خيالاً عريقاً في خيال، لم يصدقه واضعوه.. واعتبروه تجربة عابرة، بل مقامرة مغامرة.

وعد بلفور، كُتب يوم كُتِب، مسربلاً بالقيود مكبلاً بالشروط، العطف لغته، والتمني لهجته، ولم يكن في فلسطين يومئذ إلا خمسون ألف يهودي، يملكون اثنين في المئة من أرض فلسطين، ومضت ثلاثون عاماً والانتداب البريطاني حاشد كل قوته حتى أصبح اليهود في ١٩٤٧ ثلاثة أرباع المليون، يملكون ستة في المائة من أرض فلسطين.. ومع هذا بقي شعب فلسطين صامداً مرابطاً، لا تلين قناته، ولا تنثني عزيمته...

وجاءت بعد ذلك مرحلة الأمم المتحدة، فقامت إسرائيل واغتصبت ما يزيد على نصف فلسطين، وشردت شعب فلسطين، وأصبح اليهود يزيدون على مليون، فاحتلّوا مدننا وقرانا، ومزارعنا ومصانعنا، واستباحوا معابدنا ومقابرنا وكل مقدساتنا.

ثم جاء العدوان الإسرائيلي الأخير، عدوان حزيران/يونيو، فأصبحت فلسطين كلها تحت الاحتلال، من البحر إلى النهر، وشمل العدوان أرضاً عربية غالية، في مصر وسوريا، وأصبح شعب فلسطين كله بين أسير وشريد، وامتدت كارثة النزوح إلى أبناء العروبة، فأصبحوا يعدّون بآلاف الآلاف من اللاجئين.

هذه هي الصورة بعد خمسين عاماً من الصراع، في مرحلتين حاسمتين: **الأولى** مع شعب فلسطين، و**الثانية** مع الأمة العربية بأسرها، صورة واضحة يبدو فيها خطان متوازيان يسيران جنباً إلى جنب حتى النكسة الأخيرة، الأول يجسد الهزيمة العربية عاماً بعد عام، والثاني يجسد الانتصار الصهيوني عاماً بعد عام.

وهذان الخطان ما يزالان يسيران بانتظام: نصر إسرائيلي متلاحق، وانكسار عربي متلاحق، والسؤال الصارخ الثائر، لماذا كان الانتصار لعدونا، ولماذا الانكسار لنا؟ تتوالى حقيقة ثابتة لماذا تتوالى علينا هذه الكوارث منذ خمسين عاماً حتى الآن؟ لماذا أصبحت تجربة وعد بلفور حقيقة ثابتة؟ لماذا قام الوطن القومي اليهودي في

فلسطين. . . ؟ لماذا تحول الوطن القومي إلى دولة يهودية تهدد حاضرنا وتدمّر مستقبلنا؟ لماذا انكسرنا أمام إسرائيل في الخامس من حزيران/ يونيو؟ ولماذا أصبحنا نواجه هذا البلاء الأكبر يطالعنا كل صباح ومساء؟.

سؤال كبير على لسان كل عربي، على لسان مائة مليون عربي، بل السؤال على لسان الملايين من الشعوب الصديقة، كلها مثلنا في لهفة وحسرة، في ذهول ودهشة، كيف انهزمنا وكيف انتصر عدونا، وكيف انتصرت إسرائيل المحصورة في الرقعة الصغيرة، وكيف انهزمت الأمة العربية في أرضها الرحبة الكبيرة، عددها مئة مليون، فيها الثروات المادية والبشرية والروحية، أمة تملك المواقع الاستراتيجية الهائلة، تملك شواطئ البحر الأبيض وقناة السويس، والبحر الأحمر، والبحر العربي حتى الخليج، أمة ذات حضارة عريقة، أمة ذات تاريخ مجيد بالفتح والنصر، أمة طموحة شجاعة، أمة حققت الاستقلال لأوطانها بالكفاح والنضال، أمة هذا شأنها وهذا أمرها، كيف انكسرت وكيف هزمت؟؟!!

ولعل الباحث على الجواب يجد كثيراً من الأسباب، ويسردها ويشرحها ويؤكد أثرها وخطرها، أسباب، امتدت وتراكمت على مدى خمسين عاماً، وحين نرجع بالذاكرة عبر هذه السنين تبرز أمامنا هذه الأسباب، واحداً بعد واحد. .

يبرز أمامنا **أولاً**: أنّ الصهيونية ولدت على فراش الاستعمار، وترعرعت في أحضانه. . غذّاها بالمال ودعمها بالسلاح.

يبرز أمامنا **ثانياً**: الخديعة الاستعمارية كما تجلت في المفاوضات العربية البريطانية أثناء الحرب العالمية الأولى، مع الشريف حسين والمستر هنري مكماهون. .

يبرز أمامنا **ثالثاً**: أن الأمة العربية لم تكن قد تكامل وعيها. . وقد خاضت معارك ضارية في كل أوطانها لتدفع الاحتلال وتظفر بالاستقلال.

يبرز أمامنا **رابعاً**: دور ألمانيا الهتلرية على غير إرادتها، في تصعيد الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

يبرز أمامنا **خامساً**: انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وهم ملتزمون بتأييد القضية الصهيونية. .

يبرز أمامنا **سادساً**: الاستهتار العربي، والخيانة العظمى في حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

يبرز أمامنا **سابعاً**: أن الكيان الفلسطيني قد تصدع عام ١٩٤٨، وأن منظمة التحرير الفلسطينية قد نشأت عام ١٩٦٤ بدلاً من عام ١٩٤٨.

يبرز أمامنا **ثامناً**: أن التجنيد الإجباري لم يطبّق على أبناء فلسطين في الأردن، وأن الضفة الغربية قد بقيت مكشوفة عزلاء، وأن القرى الأمامية كانت من غير تسليح ولا تحصين.

يبرز أمامنا **تاسعاً**: أن معاهدة الدفاع المشترك مع الأردن قد تمت قبل العدوان بخمسة أيام، وأن هذه المعاهدة قد تمت مع العراق ليلة العدوان، وأن الجيش العراقي قد دخل الأراضي الأردنية يوم العدوان؟

يبرز أمامنا **عاشراً** وأخيراً: أن الإعداد الشعبي في الأمة العربية لم يكن على مستوى الأحداث، فإن المسارح والملاهي والأندية الاجتماعية في الوطن العربي تفوق أضعافاً مضاعفة معسكرات التدريب العسكري، والتوعية القومية..

وتبرز كذلك أسباب فرعية أو جانبية إلى جانب هذه الأسباب التي توصَّلت بنا إلى هذا اليوم الكريه الذي نعيشه، الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٦٧.

ولكن سبباً واحداً يقع في رأس هذه الأسباب، هو أصل هذه الكوارث والنكبات.. إنه السبب الأول والأخير، عاش معنا في هذه الخمسين عاماً، ولا يزال يعيش معنا حتى الآن.. وسيظل سبب الكوارث والنكبات التي تحل بنا، ما بقي هذا السبب يعيش معنا ونعيش معه.

ولنرجع إلى الماضي لنعرف السبب، حين صدر وعد بلفور في عام ١٩١٧ كانت بلاد الشام وطناً واحداً، وقد تساند الاستعمار والصهيونية على تجزئة ديار الشام، فقامت فلسطين وشرق الأردن وسوريا ولبنان، وكانت هذه التجزئة أول خطوة في بناء الوطن القومي اليهودي.

وفي عام ١٩٤٨ قامت إسرائيل في ظل التجزئة، وكانت من حولها حكومات عربية متعددة، وجيوش عربية متعددة.

وحين انطلق العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ على مصر كان في حساب الدول المعتدية أنها تواجه حكومات عربية متعددة، وجيوشاً عربية متعددة.

وفي هذا العدوان الإسرائيلي الأخير في شهر حزيران/ يونيو، ضربت إسرائيل في مصر والأردن وسوريا، أين تشاء وكيف تشاء، وهي لا تواجه جبهة واحدة، ذات خطة واحدة، على رأسها قيادة واحدة.

في هذا كله يتجلى الجواب عن السؤال الكبير:

لقد انهزمنا في ظل التجزئة، لقد انهزمنا لأننا لم نحقق الوحدة، والوحدة التي

أعنيها ليست لفظاً لغوياً، أو معنى عاطفياً، أو تعبيراً حماسياً، وإنما أعنيها وحدة حقيقية قومية دستورية ذات سيادة كاملة وسلطة شاملة.

ومما يدعو إلى هذه الوحدة الكاملة ذات السيادة الشاملة أن التجارب الماضية، تجارب التنسيق الماضية، تجارب العمل المشترك، قد قصرت عن بلوغ الغاية.

أمامنا **أولاً**: تجربة الجامعة العربية، لو قيست بعمرها الطويل لرأينا جهدها قليلاً وضئيلاً دون مستوى الأحداث.

أمامنا **ثانياً**: تجربة مجلس الدفاع المشترك، كل ما أنجزه أنه أضاف إلى الملفات العربية ملفات إضافية.

أمامنا **ثالثاً**: القيادة العربية الموحدة، أهملت الدول العربية توصياتها وطلباتها في أكثر من مناسبة.

أمامنا **رابعاً**: تجربة مؤتمرات القمة، كان جهدها الأقصى أنها وضعت العمل العربي في حدّه الأدنى، وحتى هذا كان فشلاً وخيبة. .

ولقد كشف العدوان الإسرائيلي الأخير أكثر من أي وقت مضى أن هذه التجارب الماضية قد فشلت، وأن هذا الفشل دفعناه ثمناً غالياً، أصاب كرامتنا وشرفنا، وأدى إلى احتلال أرضنا وتشريد أهلنا.

ولهذا أصبح لا بد لنا من الوحدة الحقيقية، تبادر إليها الدول العربية التي تتشابه في ظروفها وأوضاعها.

إن إسرائيل تمثل جماعات من شعوب مختلفة على رأسها حكومة واحدة، ونحن أمة واحدة على رأسنا ثلاث عشرة حكومة. .

ولقد انتصرت إسرائيل لأن لديها وزيراً واحداً للشؤون الخارجية، وعندنا ثلاثة عشر وزيراً.

إن إسرائيل لها وزير واحد للدفاع، ولنا ثلاثة عشر وزيراً.

إن إسرائيل لها وزير واحد للاقتصاد، ولنا ثلاثة عشر وزيراً.

إن إسرائيل لها وزير واحد للشؤون الإعلامية، ولنا ثلاثة عشر وزيراً.

هذه هي أسباب انتصار إسرائيل، وانكسار العرب ببداهة وببساطة.

ونحن لو نظرنا في مقومات الوحدة في الأمة العربية، لوجدناها متوافرة متكاثرة، أكثر منها في أية أمة أخرى بلا استثناء.

الاتحاد السوفياتي شعوب متعددة، ذات أصول متعددة، ولغات متعددة، ومن أعظم أسباب قوتها الصناعية والعالمية والعسكرية وإنجازاتها النووية أنها دولة واحدة، ولو كان كل إقليم فيها دولة مستقلة في مثل حالنا، لغدت ضعيفة واهنة، لا تطمع في بلوغ كوكب الزهرة.

وهذه الولايات المتحدة، شعوب مهاجرة من كافة أقطار الأرض، ومن أسباب إنجازاتها الصناعية الضخمة، وتقدمها العلمي وتفوقها في المجالات الذرية وآفاق الفضاء، أنها دولة واحدة، ولو كانت كل ولاية فيها دولة مستقلة لأصبحت من الدول النامية تلتمس العون والمدد.

وهكذا الأمثلة عديدة، في مجال سردها، وكلها يقين ما بعده يقين، تثبت أن مشاكل العرب الرئيسية ليس لها حل إلا بالوحدة، فالتجزئة هي سبب كل المشاكل العربية، والوحدة علاجها ولا علاج سواها.

والواقع أن الوحدة بالنسبة إلى الأمة العربية ليست حدثاً جديداً، فإن إقامة الوحدة هي عودة إلى الأصل، هي عودة إلى الأمر الطبيعي، وأن قيام ثلاث عشرة حكومة على أمة واحدة، هو الأمر الطارئ، هو الأمر غير الطبيعي، وهو الأمر الذي لا داعي لبقائه أو دوامه.

فما الذي يفرق بين السوري والعراقي، بين السعودي والكويتي، بين الأردني والفلسطيني، بين الليبي والتونسي، بين الجزائري والمغربي، بين السوداني والمصري، وما الذي يفرق بين هؤلاء جميعاً فيما بينهم، كلهم أمة واحدة مصالحهم واحدة، ثقافتهم واحدة، إرادتهم واحدة ومصائرهم واحدة.

ثم هذه الحدود المصطنعة في الوطن العربي، من الذي صنعها؟ الاستعمار الدخيل البغيض، فإن أسماء الأقطار هي أسماء لأقاليم جغرافية، تماماً كأسماء المحافظات أو المديريات أو المقاطعات في الدولة الواحدة، وما سوريا والعراق والحجاز ونجد وتونس والمغرب والجزائر وليبيا والسودان وفلسطين إلا أسماء لأقطارمتعددة في الوطن الواحد.

وما من تصريح أو حديث أو خطاب يصدر عن قادة العرب إلا ويصف هذه الحدود بأنها حدود مصطنعة، فإذا كانت كذلك، وإنها كذلك، لماذا تبقى؟ لماذا تظل قائمة؟ ثم من الذي يحمي هذه الحدود المصطنعة؟ من يبني عليها المخافر؟ ومن يراقب جوازات السفر؟ من يستوفي فيها الجمارك؟ إنها الحكومات العربية التي تتحدث عن الحدود المصطنعة، وتخطب عن الحدود المصطنعة.

إن الاستعمار الذي صنع هذه الحدود قد ولى إلى غير رجعة، ولكننا نحن الذين نحتفظ بهذه الحدود المصطنعة، نبنيها ونحميها، ثم نستنكرها كلاماً، وشعراً ونثراً.

في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من كل عام، تثور هذه المعاني من مكانها، ولكن بعد الخامس من حزيران/ يونيو من هذا العام، يجب أن تصبح هذه المعاني منطلقاً للثورة العربية الكبرى، ثورة تغيّر كل حياتنا إلا أهدافنا الكبرى، وكنوزنا الروحية والفكرية، بل إن الثورة الكبرى مطلوبة اليوم لحماية هذه الأهداف وهذه الكنوز.

لقد قامت في الوطن العربي في القرنين السابقين ثورات إقليمية مجيدة انتزعت الاستقلال وحققت الحرية، ولكن نكسة حزيران/ يونيو يجب أن تفجر في الأمة العربية ثورة فوق كل الثورات، يجب أن تفجر الثورة الأم تحتضن جميع الانتفاضات والثورات.

وإن هذه الثورة الأم هي قيام الدولة العربية المتحدة، تبادر إلى إنشائها الدول العربية التي تتشابه في ظروفها، وتظل مفتوحة للدول العربية الاخرى، تدخلها حين تشاء. .

هذه الدول العربية المتحدة يكون لها رئيس واحد، وبرلمان واحد. للسياسة وزير واحد، للدفاع وزير واحد، للمال وزير واحد، للثقافة وزير واحد، للإعلام وزير واحد، للبحث العلمي والطاقة النووية وزير واحد، جميعهم تختارهم كفاءتهم وترشحهم قدرتهم على النضال، فلا حرج أن يكونوا جميعاً من الجزائر أو من مصر أو من سوريا أو العراق، فالوزراء في أمريكا لا يُختارون حسب الولايات، والوزراء في روسيا لا يُختارون حسب الإقليم، وإنما تؤهلهم مؤهلاتهم وكفى.

والوحدة عمل جبار، والطريق إليها مليء بالمصاعب والمتاعب، ولكن هذه المصاعب والمتاعب أهون من النكبة الكبرى التي حلّت بنا. . وأيسر من النكبات التي تنتظرنا. .

ورب مجادل يجادل أن الوقت ليس وقت الوحدة، إنه وقت إزالة آثار العدوان، بعد ذلك ندرس ونبحث ونخطط وننفذ، للوحدة وغير الوحدة. . ذلك وهْم عريق في الوهْم. . إن إزالة آثار العدوان لا تتم بهذا الجهد المبدد في ساحة العمل العربي، ولا بالخطب الرائعة التي تُلقى في الأمم المتحدة، ولا بهذه الأسفار العربية التي ضجّت منها الطائرات. . .

إن العدوان قد تم بالقوة، ولا يزول إلا بالقوة، إن القوة العربية الموحدة هي

الكفيلة بإزالة آثار العدوان، اللاحق والسابق، وإن الجيش العربي الواحد على رأسه قائد واحد، في دولة عربية واحدة، هو الذي يستطيع أن يحرر سيناء، والضفة الغربية، والمرتفعات السورية، وأن يكون بعد ذلك قادراً على تحرير الوطن السليب.

ورب سائل يتساءل: وما شأن منظمة التحرير الفلسطينية في أمر الوحدة؟ وما شأن اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر في قيام الدولة العربية المتحدة؟

والجواب عن السؤالين في غاية البساطة واليسر، إن شعب فلسطين كأي شعب من الشعوب العربية، من حقه الكامل وواجبه المقدس أن يدعو للوحدة ويعمل لها. إن شعب فلسطين هو وحدوي العقيدة وقد نادى بها منذ عام ١٩١٩، وناضل من أجلها وسقط شهداؤه بين جزرها ومدها. وقد أعْلنها شعب فلسطين غير مرة، أنه غداة التحرير لا يطمع في أن يقيم الدولة الرابعة عشرة، وإنما يتطلع أن يكون عضواً أصيلاً في دولة الوحدة.

أما شأن هذا اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر في قيام الدولة الاتحادية، فإنه لا مرية ولا ريب.. إنّ وعد بلفور الذي نص على إقامة وطن قومي يهودي، وما تبع ذلك من قيام إسرائيل، وما تلا ذلك من الكوارث القومية والنكبات العسكرية، حدث ذلك كله لأن إسرائيل لا تجد من حولها الدولة العربية المتحدة، التي تعرف كيف تصفي حسابها معها، ثأراً لشرف الأمة العربية وكرامتها، واستئصالاً لشأفتها، وتحريراً للوطن المستباح والقدس الجريح، ونجدة للعربي النازح، العربي الشريد الطريد.

وإن منظمة التحرير الفلسطينية، التي تدعو في هذا اليوم إلى الوحدة، ليست متخلفة عن النهوض بواجباتها القومية في ميدان النضال، في ميدان الكفاح بالسلاح.

إن منظمة التحرير الفلسطينية تقود النضال الشعبي في داخل الوطن، في جميع الساحات. لقد خرجت المنظمة من مؤتمر الخرطوم إلى ميدان النضال المسلح، إن شعب فلسطين داخل وطننا المحتل يتحدّى العصابة الإسرائيلية بكل طرق المجابهة وكل صنوف التحدي، بالمقاومة السلبية وبالمقاومة المسلحة..

بالإضراب السلمي وبعدم التعاون في جميع ميادين الحياة، يتصدى شعبنا للعصابة الإسرائيلية..

بالأعمال الفدائية الشجاعة، ينزل شعبنا الخسائر في الأهداف العسكرية للعدو ومنشآته وخطوط مواصلاته..

بالصبر والإيمان، يصمد شعبنا أمام حملة التجويع والإفقار التي تتعرض لها جماهير العمال والفلاحين، والتجار والموظفين.

وفي هذه الغمرة من النضال يتساقط الشهداء من أبطال منظمة التحرير، وتغصّ السجون والمعتقلات بالمئات من شبابنا وطلابنا المناضلين . .

وتقف منظمة التحرير في هذه المعركة، لتضع فيها كل طاقاتها النضالية والمالية والفكرية حتى تتحول إلى حرب شعبية شاملة.

هذا هو اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر في وحيه إلى شعب فلسطين، وفي إلهامه للأمة العربية. ليس يوم نواح ولا بكاء، ولا دموع ولا رثاء وحسرات ولا زفرات، لكنه يوم عزم وإيمان، يوم دعوة صارخة إلى الوحدة، يوم تحية إلى الشعب البطل الذي يناضل في الضفة الغربية وفي قطاع غزة وفي المنطقة المحتلة، في فلسطين من البحر إلى النهر.

تحية إلى الفدائيين، تحية إلى المناضلين، وتقديساً للشهداء الأبرار، مقامهم مع الصديقين والأنبياء ﴿**وحسن أولئك رفيقاً**﴾[٧] . . صدق الله العظيم.

كان ذلك ما تحدثت به عن الوحدة العربية في عام النكبة، في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، وها أن الصيحة الداوية تسأل الحكم العربي الرسمي: هل أزلتم آثار العدوان بالطرق **الدبلوماسية** والحلول السياسية، ونحن الآن ندخل عام السبعين؟ . . !!

لقد ضاعت هذه السنون الثلاث من عمر الأمة العربية، وستضيع بعدها سنون وسنون، قبل أن نمسك بمفتاح النصر . .

المفتاح هو الوحدة العربية ولا مفتاح سواه . . فهل نمسك به ﴿**أم على قلوب أقفالها**. . .﴾[٨] . صدق الله العظيم.

---

(٧) **القرآن الكريم**، «سورة النساء،» الآية ٦٩.

(٨) المصدر نفسه، «سورة محمد،» الآية ٢٤.

دعـوة إلـى... الرؤسـاء لا الملـوك

هذه هي الوحدة العربية في إطار الذكريات، وعلى مدى خمسين عاماً. . ثم ماذا.؟ وكيف. .؟ ومتى؟ وأين؟. . .

أين وصلت الوحدة العربية؟ كيف نبنيها؟ ومتى، وأين نبدأ. . .

هذه الأسئلة التي سأجيب عنها، جامعاً في نفسي كل جوارح الصدق والأمانة والإخلاص، لأكتب كتابة مودّع. .

وكثيراً ما كانت تطيب نفسي وأنا أسمع الإمام في صلاة الجمعة، وهو يدعو المصلين أن يصلوا صلاة مودع. . فحين يستشعر المرء أنه يودّع هذه الدنيا ويوشك أن يلقى وجه الله. . تخلُص نفسه من الشوائب. . ويصبح في حضرة الصدق. . . وحظيرة العدل. . وإني لأرجو أن أكون على هذا الحال وأنا أكتب هذه الصفحات. . (*).

ولعله يكون من الخير أن أبدأ أولاً بتبديد غلالات من الشك، لا تزال تكتنف الوحدة العربية في مفهومها، في معناها وفي مداها. . .ثم في وسائلها ومراحلها. .

وما أظنني في حاجة إلى بحث مستفيض لأن أقرر أن الوحدة العربية ببساطة وبداهة تستهدف:

أولاً: إقامة نظام اتحاد فيدرالي في الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، يكون على مثال جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية، أو اتحاد الجمهوريات السوفياتية، أو الاتحاد السويسري، أو أيّ من الاتحادات القائمة في آسيا.، وأفريقية، وأمريكا اللاتينية. .

(*) في الحديث النبوي الشريف: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل، وعدّ نفسك من أهل القبور، وصلّ صلاة مودّع».

ثانياً: قيام حكومات إقليمية في الأقطار العربية التي يتألف منها النظام الاتحادي، تمارس كامل الاختصاصات القطرية التي تخوّلها سلطة تامة في أمورها الإقليمية..

ثالثاً: وضع دستور ديمقراطي حر، يحدد الاختصاصات الاتحادية والإقليمية بشكل واضح، ويكفل للمواطن العربي في ظل القانون، الحرية والأمن والكرامة.

رابعاً: يبدأ هذا النظام الاتحادي بالاتفاق بين دولتين عربيتين أو أكثر، ويظل مفتوحاً لانضمام أي دولة أخرى، تقبل طواعية واختياراً الالتزامات التي ينص عليها دستور الاتحاد...

هذا، بصورة عامة، ومن غير دخول في التفاصيل، ما أحسب أنه هدف كل وحدي عربي، منذ أن تجسّدت الوحدة العربية في الضمير العربي وهذا ما سقط من أجله الشهداء العرب، ومنذ أن صاح «العريسي»، وهو يتقدم إلى المشنقة، في ساحة الشهداء في بيروت في ٦ أيار/مايو سنة ١٩١٦. «ما أعظم أن نموت من أجل أمة عربية واحدة تظللها دولة عربية واحدة..».

ولقد حمل لواء الوحدة العربية، جيلان عربيان: الجيل الذي أعاصره، والجيل الذي سبقني، ولذا فإني أستطيع أن أكتب عن ممارسة ومعاناة في أمر الوحدة العربية، مستنداً إلى تجربتي، وإلى التجربة التي تلقيتها عن الجيل الذي سبقني، فقد كنت قريباً من الميدان، بل وفي الميدان نفسه.

وفي ما يتعلق بنا، نحن الجيل الباقي، فقد واكبنا الوحدة العربية أطفالاً وطلاباً، وكانت الوحدة العربية عندنا زخرفاً وزينة، ثم سرنا في ركابها شباباً، فكانت عندنا عزاً ومجداً. ورأيناها بعد ذلك، رجالاً، كفاية ورفاهية.. وها قد استقر بنا النوى لنراها اليوم سبيلاً للبقاء، في مواجهة الفناء..

وبكلمة صغيرة كبيرة أصارح بها الأمة العربية: إني أطالب اليوم بالوحدة العربية، لغير ما كنت أطلبها قبل خمسين.. أو أربعين.. أو ثلاثين عاماً..

كنا نطالب بالوحدة العربية في الماضي لنجعل الوطن العربي أجمل وأكمل.. ولنجعل الأمة العربية أسعد حالاً، وأهنأ بالاً، وأرغد عيشاً.. ولكنا نطالب بها اليوم ليظلّ هذا التراب وطناً عربياً، لتكون الأمة التي نعيش فيها أمة عربية، آمنة مطمئنة..

ومرة أخرى، وبكلمة صغيرة كبيرة: إن جهد الأمة العربية في هذه الحقبة الحاضرة يجب أن يتجه أولاً وآخراً، وقبل أي أمر آخر، مهما كان جليلاً أو خطيراً لأن يستأصل الوجود الإسرائيلي من جذوره، قبل أن يستأصل الوجود العربي من

وجوده. . . وأن توضع في خدمة هذا الجهد الأكبر وتحت تصرفه، كل الجهود الأخرى في ميدان الزراعة والصناعة والعلم والفن، والإعداد العسكري في الطليعة.

وهذه التعبئة القومية الشاملة الكاملة، ليست نابعة من شهوة الحرب، ولكنها ضرورة ملحة تفرضها متطلّبات الدفاع عن النفس، الدفاع عن كل مواطن، عن كل أسرة، عن كل قطر، عن الوطن بأجمعه، من المحيط إلى الخليج، لا من النيل إلى الفرات. .

وأرجو أن لا أسيء إلى أحد حين أقول بكل صراحة ووضوح، أن التعايش مع إسرائيل، في الحاضر أو المستقبل، هو أسطورة من أساطير الأولين، وأن البحث عن حل سلمي لقضية فلسطين هو خرافة من خرافات الغابرين. .

ولقد سبقنا إلى هذا اليقين مفكر مسيحي، نافذ البصيرة، قبل خمسة وستين عاماً، هو الأستاذ نجيب عزوري، حين كتب في عام ١٩٠٥ يقول: «هناك حادثان هامان ولكنهما متعارضان، وهما يقظة الأمة العربية، والجهد الخفي لإنشاء مُلْك إسرائيل القديم من جديد وعلى مقياس أوسع، إن مصير هاتين الحركتين القتال باستمرار إلى أن تَغْلب إحداهما الأخرى، ومصير العالم كله منوط بالنتيجة النهائية لهذا الصراع».

لقد رأى الجيل العربي الواعي الذي يمثله نجيب عزوري، الصورة الحاضرة للصراع العربي الصهيوني رآه بعقله وفؤاده، وقد رآها جيلنا بعينيه وأذنيه، وبكل جوارحه.

وإذا كان «عزوري» قد توقع للحركتين الصهيونية والعربية أن «تغلب» إحداهما الأخرى، فإن جيلنا يوشك أن يختم حياته وهو يستشعر في دخيلة نفسه، أن «تُفْني» إحداهما الأخرى، لا أن تَغْلب فحسب. .

إن الصهيونية، وإسرائيل طليعتها، حركة ديناميكية هائلة، معززة بالأموال والرجال العلماء، والحقد والعناد والإصرار. . حتى في معزل عن مساندة الاستعمار والإمبريالية. وإن البقاء هو لواحد من الاثنين. . إمّا القومية العربية أو الحركة الصهيونية. .

أقول قولي هذا، وقد أفنيت عمري في مراقبة الحركة الصهيونية منذ نشأتها، إلى يومنا هذا، فقرأت سيرة زعمائها، وبلوت فظائعها وإرهابها، ثم رأيت كيف نشأ الوطن القومي اليهودي في وطني العربي. وكيف قامت إسرائيل، وكيف اعتدت، وكيف توسعت.

لقد شهدت كل هذا على مدى خمسين عاماً . . وها أنا ذا أجلس في مكتبي لأضع على الورق حصيلة تجاربي وصفوة معاناتي. وليس لي ما أطمع فيه، فلا أمل لي أن أكون ملكاً أو رئيس جمهورية، ومن أين للاجئ مثلي أن يكون . .

ولا أتطلع أن أكون رئيساً على فلسطين، وما أدري إذا كان الأجل سيمتد بي لأرى تحرير فلسطين . .

وأريد أن أقولها صريحة وبسيطة، ومخلصة وأمينة، وأنا أعتمد صفوة تجاربي ومعاناتي: إن الجهد العربي على طريق العمل المشترك، كان فاشلاً، وكان مهيناً ومذلاً.

لقد جربت العمل العربي المشترك قرابة ربع قرن، منذ أن وَقَّعت الدول العربية السبع ميثاق جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥، وباتت الآن، في ١٩٧٠ تضم أربعة عشر دولة.

وكان الظن بادئ ذي بدء أن تكون الجامعة العربية خطوة على طريق الوحدة، فأصبحت ميداناً رحباً فسيحاً لتعزيز المصالح الإقليمية، ولتوكيد التجزئة والانفصال . .

ففي خلال هذه الحقبة الطويلة التي امتدت خمسة وعشرين عاماً، عقدت الجامعة العربية اتفاقيات ومعاهدات، ثقافية واقتصادية وعسكرية، لم يُنفّذ منها قليل ولا كثير . .

ولمناسبة «العيد» الخامس والعشرين الذي احتفلت به الجامعة العربية في آذار/ مارس ١٩٧٠، كشفت الإحصاءات أن مجلس الجامعة العربية قد أصدر منذ قيام الجامعة ٢٥٢٤ قراراً، ما بين سياسي واقتصادي وعسكري . . ولا يعرف المواطن العربي قراراً واحداً جعله يستشعر أنه ينتسب إلى وطن عربي واحد . .

وفي الجانب العسكري بصورة خاصة، وقعت حرب فلسطين في عام ١٩٤٨، وكانت من غير خطة حربية، ولا قيادة عسكرية، يومئذ قَبِل الملوك والرؤساء الهدنة الأولى، ثم الهدنة الثانية، وأعلنوا أنهم سيستأنفون القتال بعد عام أو عامين.

ثم جاءت حرب الأيام الستة في حزيران/ يونيو، وقد سبقتها مؤتمرات القمة الثلاثة التي انعقدت في القاهرة والإسكندرية والدار البيضاء، فحلّت بنا الهزيمة الكبرى، ووقعت فلسطين بأسرها تحت الاحتلال، ووقع تحت الاحتلال ثلاثة أضعافها من الأراضي العربية من القنال إلى الجولان.

وبين الحربين الأولى والثانية (٦٧,٤٨) شنّت إسرائيل غارات رهيبة على الأراضي العربية، فقتلت وسلبت ودمرت وأحرقت، واحتلت المناطق المجردة من السلاح، على مشهد من الأمم المتحدة، ومسمع من الدنيا بأسرها . . .

وفي جميع هذه الأحداث لم تكن القيادة العربية المشتركة، وبعدها القيادة العربية الموحدة، تمارس من اسمها شيئاً، فلم تكن قيادة، ولا مشتركة، ولا موحدة . . .

ومؤتمرات القمة كانت تجربة أخرى للعمل العربي الموحد، ولعلها كانت التجربة الأخيرة . . وقد حضرْت مؤتمرات القمة الأربعة، من القاهرة، إلى الإسكندرية إلى الدار البيضاء إلى الخرطوم . . وكانت تجربة فاشلة . .

في مؤتمر القمة العربية الأول في القاهرة عام ١٩٦٣ وُضعت الخطة العسكرية والسياسية والإعلامية والمالية لتحويل روافد الأردن . . ونحن الآن نشهد نهر الأردن تحت احتلال إسرائيل، المنبع والمصب، والروافد والسواقي!!

وفي مؤتمر القمة العربي الثاني، في الإسكندرية عام ١٩٦٤، تعهد الملوك والرؤساء بالتزامات مالية وعسكرية تكون تحت تصرف القيادة العربية الموحدة، وكتبوا أنهم «يربطون شرفهم بهذه الالتزامات» ووقع التخلف في الوفاء، من هذا الملك وذلك الرئيس . . !!

وفي مؤتمر القمة العربي الثالث في الدار البيضاء عام ١٩٦٥، جدَّد الملوك والرؤساء التزاماتهم، وأقروا «خطة لتحرير فلسطين تُنفّذ في خلال ستة أيام» . . وكانت النتيجة أن نُفّذت الخطة تماماً وكمالاً في حزيران/ يونيو ١٩٦٧. وفي ستة أيام . . ولكن الخطة نُفْذت علينا لا لنا . . وكان التنفيذ على يد إسرائيل . . ، لا على يد العرب . . وكان النصر حليف إسرائيل، وكانت الهزيمة من نصيبنا وحظنا . . وكان العزاء أنها لم تكن هزيمة للشعوب . .

وفي مؤتمر القمة الرابع، في الخرطوم في عام ١٩٦٧، ابتدع الملوك والرؤساء شعار الحل السلمي والسياسي . . وانسحبْتُ من المؤتمر لأسباب . . منها أني أفنيت زهرة عمري في الأمم المتحدة ولم أجد شيئاً اسمه الحل السلمي السياسي، إلا في إطار الهزيمة وتحت وطأة الاستسلام . .

والآن، وبعد أن جرَّب المجربون طريق الحل السلمي، آمنوا بالحواس الخمس، بالسمع والبصر واللمس والذوق والشم، أن الطريق السياسي تؤدي نهايته إلى بدايته، تماماً كالحلقة المفرغة، وكان عليهم أن يؤمنوا بذلك بعقولهم، قبل أن

يستنفذوا حواسهم، وما أروع ما قاله الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي:

أنــت روح غــبــيــة تــكــره الــنــور وتــقــضــي الــدهــور في ليل ممسي

أنــت لا تــدرك الحقــائــق إن طــافــت وحـــواليك دون مـــس وجـــس

وانعقد أخيراً، وبعد مخاض دام ثلاثة أعوام، مؤتمر الرباط، وحمدت الله أني لم يكن لي «شرف» حضوره مع الملوك والرؤساء، فقد هوى مؤتمر «القمة» إلى «القاع»، وخرجوا لا يدرون ما يقولونه لشعوبهم المتلهفة.

وبعد حرب حزيران/ يونيو تصاعدت كلمات حولها شعارات. . .

الكلمات تتحدث عن «أزمة الشرق الأوسط». . عن تحرير الأرض العربية، عن معركة المصير. . والشعارات تتحدث عن «حشد طاقات الأمة العربية. .» و«تعبئة الإمكانات العسكرية والاقتصادية» و«تحديد مسؤوليات الدول العربية» و«تحديد علاقات الدول العربية بالدول الأجنبية على ضوء موقفها من القضية المصيرية».

وهذه الكلمات، والشعارات التي تجمعت حولها، ليست جديدة في مبناها أو معناها، فقد ساهمتُ في اقتراحها وصياغتها والمطالبة بتنفيذها على مدى ثلاثين عاماً، منذ أن كان لي مكان في ميدان العمل العربي الرسمي. . . مع الملوك والرؤساء، ومع الوزراء والسفراء، ومع القواد الكبار والضباط العظام، سواء في الجامعة العربية أو مؤتمرات القمة.

ومع أني فطرت مستبشراً بالتفاؤل، مستنكراً للتشاؤم، فإن «تعبئة الطاقات» و«حشد القدرات» و«تحديد المسؤوليات» كانت عبارات إنشائية بلغت القمة في البلاغة والفصاحة. . .

والآن. . .

أريد الآن أن أجهر بالقول الصريح، فأُعلن أن إزالة آثار العدوان، وتحرير الأرض العربية واسترداد فلسطين، كل ذلك لا يمكن أن يتحقق إلا بأحد طريقين: دولة عربية واحدة بمفردها. . أو وحدة عربية بين دولتين أو أكثر. . أما طريق الأربعة عشر ملكاً ورئيساً فإنه يضعنا في الساحة التي نحن فيها، بل في الوحل الذي نخوض فيه إلى الأذقان، منذ ثلاثين عاماً إلى يومنا هذا. . .

وحين أتكلم عن دولة عربية بمفردها، ينصرف الذهن بلا جدال إلى الجمهورية العربية المتحدة. . . ولكني أبادر لاستبعاد هذا الطريق لأن الجمهورية العربية المتحدة رغماً عن كل إمكاناتها، فإنها لا تستطيع وحدها أن تنهض بهذا العبء الضخم. .

فالقضية التي نواجهها أكبر من قدرات الشعب المصري، وهو في نموه البشري المتعاظم «سيأكل» نموه الاقتصادي. . والحرب هذه الأيام، زراعة وصناعة وإنتاج، والاقتصاد كله زاد المسيرة والذخيرة، ووقود السلاح والعتاد.

ولا يبقى أمامنا، والحال هو الحال، إلا أن تقوم الدولة العربية المتحدة، مبتدئة بين دولتين أو أكثر، ثم تكبر مع الوقت مهما طال. . وبذلك يتم حشد الطاقات وتعبئة القدرات، ويتم بها تحرير الأرض العربية، وتحرير فلسطين معها. . .

ولعلّي لا أكشف سراً إذا قلت إنّ الرئيس بو رقيبة، قد وجه رسالة إلى مؤتمر القمة العربي الثالث الذي انعقد في الدار البيضاء، عالج فيه جوانب متعددة من القضية العربية. . وراح يطرح السؤال: لماذا الوحدة العربية. . ؟

والحق أن الرئيس بو رقيبة قد طرح السؤال، ثم وضع له الجواب، تماماً بمثل ما يجول في خواطر معظم الملوك والرؤساء الأربعة عشر. . . بفارق واحد، وهو أن الرئيس بورقيبة كان شجاعاً وصريحاً في السؤال والجواب، على حين أن عدداً من الآخرين «يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم» وصدق الله العظيم. .

والواقع أن هذا الفصل الذي أكتبه عن الوحدة العربية، ليس أطروحة علمية، تتناول الموضوع بكل أطرافه. . ولا أريد أن أدخل في نقاش طويل مع الرئيس بورقيبه في ما ينكره من حتمية الوحدة، وضرورتها، ومتطلباتها، وفوائدها. . ولكني أكتفي بأن أجيب عن سؤال الرئيس بورقية، بأن أطرح السؤال على بورقيبة نفسه:

ولماذا الوحدة في أمريكا، وفي الاتحاد السوفياتي، وفي بريطانيا، وفي سويسرا وفي الهند، وفي عدد كبير من الدول الاتحادية في أمريكا اللاتينية وفي أوروبا؟ سواء منها ما يتبع النظام الاشتراكي أو النظام الرأسمالي. . إن الوحدة، أو الوحدة الاتحادية تشمل ما يزيد على نصف سكان الأرض. . . ومن كان يشكّ في ذلك فإني أحيله إلى المراجع العلمية. . .

هذا مع التوكيد بأن الوحدة العربية أكثر لزوماً للأمة العربية، منها للولايات الأمريكية وللجمهوريات السوفياتية، ولو أن في أمريكا خمسين جمهورية مستقلة من غير اتحاد بينها، لما كانت الولايات المتحدة ما نعلم ونسمع. . ولو كانت روسيا ستة عشر جمهورية مستقلة من غير اتحاد بينها، ما كان الاتحاد السوفياتي ما نعلم ونسمع. .

وهذا هو الجواب على سؤال الرئيس بو رقيبة، لماذا الوحدة العربية. . . ؟

ولكني أجيب عن سؤال الرئيس بو رقيبة بأن أطرح السؤال من زاوية أخرى: ولماذا لا تكون الوحدة العربية؟ والجواب على هذا السؤال، السبب هو الأربعة عشر حكومة عربية.

غير أن الجواب الأرفع على سؤال الرئيس بو رقيبة، هو أننا نريد الوحدة العربية، لأننا أمة عربية واحدة، وإذا كان الأمر كذلك، وإنه لكذلك، فلماذا تحكمنا أربعة عشر حكومة، ونحن أمة عربية واحدة.

إن هذه الحكومات الأربعة عشر قد نشأت في الوطن العربي، ضمن حدود وأوضاع صنعها الاستعمار قبل أن يرحل.. لقد صنعها ليتأكد أن الأمة العربية ستظل في ظل التجزئة أمة ضعيفة، وهذا ما أراده الاستعمار..

ولا بأس أن نقف قليلاً مع الرئيس بو رقيبة عند هذه النقطة لأنها تمثل نظرة الحكم العربي المعاصر.. ولنأخذ المشرق العربي مثلاً على ذلك.

كان المشرق العربي في زمن الدولة العثمانية، «وطناً» واحداً للمواطن العربي، الشامي واللبناني والفلسطيني والعراقي.. وجاءت المساومات الإفرنسية البريطانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى فجعلت المشرق العربي وحدات منفصلة: العراق وسوريا، لبنان، شرق الأردن، فلسطين.. وكانت هذه هي الجذور التي قامت عليها تلك الدول المستقلة.

ولا بأس علينا أن نرجع قليلاً إلى التاريخ الحديث لنرى متى وضعت الحدود في المشرق العربي ومن وضعها.. لقد رآها الجيل الحاضر قائمة وموضوعة.. ولكن جيلنا يعرف الوطن العربي موحداً، قبل أن تقوم فيه هذه الحدود..

وفي نيسان/أبريل ١٩٢٠ أعلن المستر تشرشل فصل شرق الأردن عن سوريا...

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٢٠ أعلنت فرنسا دولة لبنان بحدودها الحاضرة، بعد أن ضمت إليها بيروت وطرابلس وصيدا ومناطق الجنوب والبقاع.

في ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٩٢٠ وضعت فرنسا لسوريا ولبنان حدودهما من جهة، وحدودهما مع العراق وفلسطين، من جهة أخرى..

وفي أيلول/سبتمبر ١٩٢٢ أعلنت بريطانيا الحدود بين فلسطين وشرق الأردن.

وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣١ أعلنت بريطانيا وفرنسا الحدود بين فلسطين وشرق الأردن وجبل الدروز.

وهكذا نشأ لبنان والعراق وشرقي الأردن وسوريا وفلسطين!!

ولو أن الاستعمار كان بنا رحيماً . . لو أن المشرق العربي كله وقع تحت الاحتلال الإفرنسي وحده، أو تحت الاحتلال البريطاني وحده . . ولكنّا نرى اليوم دولة عربية واحدة في المشرق العربي . . ولم يكن هنالك من حاجة للكتابة عن الوحدة . .

بل إن الأمر يبدو أكثر وضوحاً في مثل آخر وأعني بذلك سوريا.

ففي سوريا مارست السلطة الإفرنسية تجارب متعددة من التجزئة والتوحيد، على أشكال وأشكال!!

ففي آب/ أغسطس ١٩٢٠ أنشأت فرنسا «دولة دمشق» مؤلفة من دمشق وحمص وحماه وحوران.

وفي الشهر نفسه ١٩٢٠، منحت فرنسا منطقة العلويين استقلالاً داخلياً ووضعت حدوداً لهذه المنطقة.

وفي أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠ أنشأت فرنسا «دولة حلب» مؤلفة من حلب والإسكندرونة ودير الزور، عل أن تتمتع الإسكندرونة باستقلال ذاتي.

وفي آذار/ مارس سنة ١٩٢١ أنشأت فرنسا «دولة جبل الدروز» واشترطت أن لا تتحد مع باقي الأجزاء السورية إلا في المصالح المشتركة.

وفي حزيران/ يونيو ١٩٢١ أنشأت فرنسا «اتحاداً فدرالياً» بين دولتي دمشق وحلب، ومنطقة العلويين، وضمت جبل الدروز إلى دولة دمشق، وسنجق الإسكندرونة إلى دولة حلب . . .

وفي تموز/ يوليو ١٩٢١ أنشأت فرنسا «دولة العلويين».

وفي آب/ أغسطس ١٩٢١ أعلنت فرنسا فصل سنجق الإسكندرونة واعتباره وحدة مستقلة . . .

وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٢٠ أقامت فرنسا اتحاداً بين هذه الولايات، تحت اسم حكومة الاتحاد السوري، وجعلت دمشق عاصمة لهذا الاتحاد.

وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤ أعلنت فرنسا إلغاء الاتحاد السوري، وأدمجت دولتي دمشق وحلب تحت اسم الدولة السورية.

وفي اليوم نفسه جددت فرنسا إعلانها قيام دولة مستقلة في بلاد العلويين، عاصمتها اللاذقية.

ومضت فترة أخرى، فراجعت فرنسا نفسها وعادت إلى اعتبار سوريا دولة واحدة تحت الانتداب الإفرنسي. حتى إذا جاء زمن الاستقلال قامت الجمهورية العربية السورية . . .

لقد كان هذا المصير النهائي رحمة وبركة لسوريا . . والفضل المُفْجع في وحدتها يعود إلى فرنسا يقيناً. فلو أنّ فرنسا أبقت حكومات دمشق، وحلب، والدروز، والعلويين، لكنا الآن أمام أربع جمهوريات عربية في الوطن السوري . . وكان لا بد من وقت طويل، وجهد كبير، لجعل الجمهوريات الأربع جمهورية واحدة . . ومن يدري . . ؟؟

هناك ثلاثة أمثلة صغيرة في سياق الوحدة والتجزئة :

المثل الأول، بالنسبة إلى الموصل «العراقية»، فقد كانت فرنسا حريصة أن تكون الموصل جزءاً من سوريا، وفي إطار تسوية بترولية مع بريطانيا، تنازلت فرنسا عن الموصل، ووافقت على إلحاقها بالعراق، على هذا فإن الموصل اليوم تقع في الجمهورية العراقية لا لسبب الا اتفاق بريطانيا وفرنسا، وكان من الممكن أن تكون في سوريا، لو تم الاتفاق على غير ذلك. والواقع أن صلات الموصل بسوريا أكثر من صلاتها بالعراق، إذا شئنا أن نضع التقسيمات الإدارية بين البلاد العربية.

والمثل الثاني : هو العقبة، ففي عام ١٩٢٥ أفلحت الضغوط البريطانية في سلخ ميناء العقبة عن الحجاز، وألحقتها بإمارة شرق الأردن . . ولو لا ذلك لكانت العقبة اليوم جزءاً من المملكة العربية السعودية . .

أما المثل الثالث : فهو دير الزور «السورية» فإنها «سورية» اليوم، لأن بريطانيا وفرنسا أرادتا ذلك، فلو شئنا أن نضع تقسيمات إدارية في البلاد العربية لكانت دير الزور ملحقة بالعراق، بسبب الصلات والروابط العديدة بينهما!!

وسيان عندي أن تكون العقبة حجازية أو سعودية، أو أن تكون دير الزور سورية أو عراقية، أو أن تكون الموصل سورية أو عراقية، فالوطن العربي واحد . . كل الذي أريد أن أقرّره أن الذي صنع هذه الدول العربية الحاضرة بحدودها القائمة، وماذا تشمل من المدن وما لا تشمل، هو الاستعمار، كما أرادت له مصالحه أن يصنع . .

ولما جلا الاستعمار عن البلاد، أصبح الزعماء هم الرؤساء والوزراء، وقام الاستقلال على أساس التجزئة والانفصال.

وهكذا نشأت في المشرق العربي، في الوطن العربي الواحد، وللشعب الواحد

مَلَكيتان: المملكة الأردنية الهاشمية والمملكة العراقية، وجمهوريتان: السورية واللبنانية. . ولولا التآمر البريطاني الأمريكي الصهيوني، لقامت دولة خامسة هي الدولة العربية الفلسطينية!!

ولو أننا توغلنا في تاريخ الجزيرة العربية، وفي تاريخ الأقطار العربية في شمالي أفريقيا، لوجدنا أنفسنا أمام نفس الملابسات التي سادت المشرق العربي، حذوك النعل بالنعل!!

ففي الجزيرة العربية نجد مفارقات عجيبة صنعها الاستعمار بصورة مباشرة أو غير مباشرة، منها وجود جمهوريتين يمنيتين، واحدة في الشمال وأخرى في الجنوب، وهما جزآن من اليمن الواحدة، ورؤساؤهما يعلنون أنهم يؤيدون الوحدة اليمنية!!

ومن هذه المفارقات، وجود العشرات من الإمارات والمشيخات حول الخليج العربي، أقام الاستعمار البريطاني الحدود بينها، ولولا ذلك لكانت جزءاً من دولة عربية مجاورة، فالبلاد واحدة، والعشائر واحدة. . ولكن أنّى للأمير أن يتخلى عن إمارته بعد أن أصبح أميراً. . وأنّى للشيخ أن يتخلى عن مشيخته بعد أن أصبح شيخاً. . . وأنّى لهم أن يفعلوا ذلك، والرؤساء العرب لا يتخلّون عن جمهورياتهم!!

ومن هذه المفارقات قيام دولتين في وادي النيل، وهو وطن واحد منذ أن جرى النيل في واديه. . وفي عام ١٩٤٣ طالب مؤتمر الخريجين في الخرطوم، قيام حكومة ديمقراطية في السودان تكون متحدة مع مصر. . وقد تحقق الاستقلال للسودان، ولكنه استقلال على أساس الانفصال.

ومن هذه المفارقات أن حزباً وطنياً قد نشأ في طرابلس «ليبيا» عرف بحزب الاتحاد المصري الطرابلسي، وقرر في ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦ الاتحاد مع مصر، فتحقق الاستقلال ولكن على أساس الانفصال!!

وكذلك الحال بالنسبة إلى وحدة المغرب العربي الكبير، وقد تعاهد قادة حركات التحرير في تونس والجزائر والمغرب، على إقامة وحدة المغرب كخطوة أولى نحو الوحدة العربية الكبرى فقام الاستقلال وقعدت الوحدة. . .

وعلى سبيل المثال، هذا الدستور التونسي لعام ١٩٥٧ قد أعلن «تعلق الشعب التونسي بتعاليم الإسلام ووحدة المغرب الكبير» وأن «الجمهورية التونسية جزء من المغرب الكبير تعمل لوحدته في نطاق المصلحة المشتركة. . .».

وفي ٢٧ نسيان/ أبريل ١٩٥٨ انعقد مؤتمر «وحدوي» في طنجة، اشترك فيه زعماء حزب الاستقلال (المغرب)، وحزب الدستور الجديد (تونس) وقادة جبهة

التحرير الجزائرية، وحضره مراقبون عن ليبيا وموريتانيا، وكان في وفدي تونس والمغرب وزراء من الحكومتين. . وصدر عن المؤتمر قرار إجماعي بالعمل على تحقيق وحدة المغرب، وتألفت سكرتارية دائمة لمتابعة تنفيذ ذلك القرار. . وأعلن السلطان محمد الخامس في أعقاب المؤتمر مباشرة «أن وحدة الشمال الأفريقي هي من أعزّ أمانينا ونحن الآن ندخل مرحلة تحقيقها»، ثم أعلنت حكومة ليبيا تأييدها لقرارات المؤتمر، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الجمهورية التونسية. .

لقد كان مؤتمر طنجة، مؤتمراً عظيماً حقاً، بما أصدره من قرارات وتوصيات كالمؤتمرات الوحدوية التي انعقدت في المشرق العربي عبر الخمسينيات. ولكن. .

ولكن الاستقلال، والحكم الوطني، وما خلقه من مناصب الرؤساء والوزراء قد امتص كل دعاة الوحدة، سواء في المشرق العربي أو المغرب العربي.

لقد كان كثير من قادة العرب في ماضي جهادهم زعماء الوحدة في ظل الاحتلال، وأصبحوا زعماء الانفصال في عهد الاستقلال. . وأصبحت الوحدة العربية يتيمة إلا من خطب عارضة وتمنيات عابرة، يلقيها الملوك والرؤساء في المناسبات القومية، وفاء للماضي وإرضاء للجماهير. . .

وكم وقعت الجماهير فريسة الكلمة والشعارات. . .

ثلاثة أسئلة أمام الرؤساء

ويقودنا هذا العرض الموجز المركز لبعض جوانب الوحدة العربية إلى ثلاثة أسئلة محددة. . أسئلة موجهة إلى الرؤساء العرب. . ومرة ثانية لا إلى الملوك العرب.

١ ـ على من تقع مسؤولية العمل للوحدة العربية؟

٢ ـ ممن تتألف دولة الوحدة العربية؟

٣ ـ متى نشرع في بناء دولة الوحدة العربية؟

وكما بدأت هذا الفصل، فإني سأحاول جهدي أن أجيب إجابة مودّع. . .

إن الجواب على السؤال الأول هو في غاية البداهة والبساطة: إن مسؤولية العمل للوحدة العربية تقع على كل مواطن عربي يؤمن بالوحدة، فكل مواطن وحدوي مسؤول عن الوحدة. . ولينهض في مسؤولياته الوحدوية، فإن المواطن الوحدوي، ليس في حاجة أن يختاره أو ينتخبه أحد. . فإن الذين نادوا بالوحدة من الجيل العربي السابق واللاحق قد اختاروا أنفسهم. . وكثير منهم قد اختاروا أن يكونوا شهداء. .

وعلى المواطن أن يعمل للوحدة، فكراً ودعوة وعملاً، متطوعاً مختاراً، مندفعاً لا مدفوعاً. .

وفي غضون الخمسينيات انعقدت مؤتمرات عربية كانت الدعوة إلى الوحدة أهم قراراتها: مؤتمرات الصحافيين، المهندسين، الصيادلة، الأطباء، المعلمين. . وبصورة خاصة أخذ المحامون والجامعيون العرب، بزمام المبادرة فوضعوا مشروعات مفصّلة لدولة الاتحاد العربي، وأهابوا بالدول العربية التي تتشابه ظروفها أن تبادر إلى إقامة دولة واحدة.

والآن، تتساءل الأمة العربية، كما ستتساءل الأجيال العربية المقبلة، أين

الطلائع المثقفة التي كانت تحمل لواء الوحدة؟ بل أين الطلائع الثورية التي كانت الوحدة تفور في قلوبهم، وتندلع على ألسنتهم؟ أين هم؟

أين الطلاب والشباب؟

أين المثقفون والمفكرون؟

أين الأجيال الصاعدة؟

إن كثيراً من الذين سبقوهم قد حملوا لواء الوحدة، أيام لم يكن للعرب صحافة وإذاعة.. ولا سيارات ولا طيارات.. ولا أموال وجيوش...

أين أنتم!!؟؟

إن العمل من أجل الوحدة العربية، هو، بالدرجة الأولى مسؤولية الطلائع الوطنية، قبل أن يكون مسؤولية الرؤساء، وهل إذا تخلّف الرؤساء تخلّفتم، وهل إذا تقاعسوا تقاعستم..

وإني وإن كنت لا أُعفي هؤلاء وأولئك من مسؤولية العمل للوحدة في ألزم الأيام لزوماً للوحدة العربية.. فإن المسؤولية تكون أكثر ما تكون بقدر القدرات، وبحجم الطاقات والإمكانات..

ومن هنا فإن المسؤولية الكبرى، تقع على الجمهورية العربية المتحدة وعلى الرئيس جمال عبد الناصر بالذات.

ولقد اخترت مصر لا افتتانا بنيلها العظيم، ولكن لموقعها الوسيط في الوطن العربي، ولمركزها الاستراتيجي، ولكثرتها البشرية، ولمقوماتها الحضارية، وللكثير من الأسباب التي يعرفها طلاب المدارس.. ولو كنت أعرف أن هذه المقومات والقدرات متوافرة في لبنان، لأعلنته المسؤول الأول عن الوحدة العربية، ولطالبته أن يتصدى للدور القيادي..

وقد قدّرت للرئيس عبد الناصر أنه قد أعلن في الميثاق القومي (٢١ أيار/ مايو ١٩٦٢) «أن الأمة العربية لم تعد في حاجة إلى أن تثبت حقيقة الوحدة بين شعوبها.. وأن الجمهورية العربية المتحدة ترى في رسالتها العمل من أجل الوحدة، وأن الجمهورية العربية المتحدة لا بد لها أن تنقل دعوتها والمبادئ التي تتضمنها لتكون تحت تصرف كل مواطن عربي.. وأنه لا ينبغي الوقوف لحظة واحدة أمام الحجة البالية القديمة التي قد تعتبر ذلك تدخلاً منها في شؤون غيرها».

ولكني أختلف مع الرئيس عبد الناصر، حين أعلن في الميثاق نفسه: «أن

استعجال مراحل التطور نحو الوحدة يترك من خلفه، كما أثبتت التجارب، فجوات اقتصادية واجتماعية تستغلها العناصر المعادية للوحدة كي تطعنها من الخلف».

إن الرئيس عبد الناصر قد وضع هذه «القيود» على الوحدة، متأثراً «بعقدة» الوحدة التي خلقها الانفصال السوري في نفسه، وهي «عقدة» يتحتم على الرئيس عبد الناصر أن يستأصلها قياماً بمسؤوليته إزاء الوحدة، وكقائد لأكبر دولة عربية.

إن الفجوات الاقتصادية والاجتماعية بين مصر وسوريا لم تكن هي السبب في الانفصال. . الانفصال له أسباب أخرى. . . لقد كانت وراء الانفصال أخطاء، اعترف الرئيس عبد الناصر بنصيبه فيها، بكل شجاعة، في أول خطاب له بعد الانفصال. .

إن الوحدة، أي وحدة، لا تتطلب تطابقا «هندسياً» بين الأقطار التي تتألف منها الوحدة. . إن الفجوات والفوارق أمور طبيعية وموجودة في كل دولة من دول العالم، سواء فيها الدول الكبار والصغار، مثل أمريكا وروسيا والصين وإنكلترا والهند، أو سويسرا ويوغسلافيا.

إن الفجوات والفوارق موجودة في الدولة الواحدة ذاتها غير المتحدة بل في المدينة الواحدة. . وهذه القاهرة مثلاً، نلاحظ أن بين مصر القديمة ومصر الجديدة ألف عام من الحضارة، والتطور الاجتماعي والاقتصادي، ومع هذا فالقاهرة هي العاصمة الواحدة للدولة الواحدة، على الرغم من الفجوات الاقتصادية والاجتماعية البارزة في أحيائها.

وليس هذا حالنا لأننا دولة نامية. . فإن في أمريكا، وفي روسيا، وقد بلغتا ذروة الحضارة، فجوات اقتصادية واسعة بين مختلف أقاليمهما، بل إن الاتحاد السوفياتي يحرص على إبقاء الطابع القومي لكل جمهورياته، مع ما يرسّخ ذلك الأمر من فجوات بين القوميات المتعددة التي يضمها الاتحاد السوفياتي.

وحين أتحدث عن مسؤولية الجمهورية العربية المتحدة وعن مسؤولية الرئيس عبد الناصر في العمل للوحدة العربية. . فإني أفعل ذلك بموضوعية كاملة وعلمية شاملة. . . فإن الوحدة العربية لا ينهض بها إلا القطر الأكبر والرجل المؤهل. . . وليس موضوع القطر الأكبر بدعاً في تاريخ الوحدات، فهذه «بروسيا» هي التي قامت بالدور الأكبر في الوحدة الألمانية، وهذه مملكة سردينيا هي التي قامت بالدور الأكبر بالنسبة إلى الوحدة الإيطالية.

والقطر الأكبر فإنه مصر من غير نزاع. . . أما الرجل المؤهل فهو الرئيس عبد الناصر، فإنه مطالب بهذا الدور ولا يستطيع أن يبرئ نفسه من مسؤولياته. .

أقول هذا لا افتتانا بالرئيس عبد الناصر، بل تقييماً لقدراته الذاتية، ولطاقات الشعب الذي يقوده، وإن له معي شؤوناً وأيما شؤون، ليس هنا محل ذكرها، هذه هي كلمة العدل في الرئيس عبد الناصر ﴿**ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى**﴾(١).

وكائناً ما كان الأمر، في الحاضر أو المستقبل، فإن القطر الأكبر والرجل المؤهل لا بد من توافرهما مجتمعين، فلو أن عبد الناصر هو رئيس جمهورية اليمن الجنوبية، لم يكن مؤهلاً بالدور الأول في الدعوة والعمل لها.

وليس معنى هذا أني ألغيت دور الرؤساء الآخرين في الدول العربية، فإن لهم جميعاً في مجال بناء الوحدة العربية نصيباً وافراً، بل إنهم قادرون أن يدفعوا الجمهورية العربية المتحدة والرئيس عبد الناصر بالذات إلى ميدان العمل، إذا كان يتهيب هذه المسؤولية الكبرى..

بل إني أدعو غيره من الرؤساء أن يتصدّى لقيادة الوحدة، إذا تخلف عنها الرئيس عبد الناصر. إن الرؤساء العرب يتفاوتون في قدراتهم الخاصة والعامة، ولكنهم متساوون جميعاً أمام قضية الوحدة، ويتحملون مسؤولية العمل لها أمام أجيال العرب المعاصرة.

وكذلك فإني لا أُلغي دور الجماعات القيادية الواعية، والطلائع الثورية، في جميع أرجاء الوطن العربي بأسره، فإنهم مطالبون بأن يحملوا الشعلة من جديد في السبعينيات، كما حملوها في الخمسينيات.. وعليهم تقع المسؤولية في دفع الرؤساء العرب جميعاً إلى الميدان...

وهذا الجواب عن السؤال الأول يصل بنا إلى السؤال الثاني: ممن تتألف دول الوحدة العربية؟؟

إن الجواب على هذا السؤال لا يحتاج إلى مقدمة طويلة.. أرى أن تتألف دولة الوحدة العربية من الجمهوريات العربية بأسرها.. وواضح إني استبعد الملكيات العربية لأسباب واضحة.. يعرفها الناس جميعاً، الراسخون في العلم، والراسبون في الجهل.. ولكني لا استبعد دولة الكويت إذا وقعت تعديلات فنية في دستورها، يعرفها خبراء القانون الدستوري..

ولست أستثني الجمهورية اللبنانية من الانضمام إلى الوحدة... فإن عروبة

---

(١) **القرآن الكريم**، «سورة المائدة،» الآية ٨.

لبنان ثابتة كعروبة أي قطر عربي آخر. بل إن عروبة الطائفة المارونية لا يرقى إليها الشك، والموارنة «سوريون» ترجع سوريتهم إلى ما قبل الإسلام بقرون، فقد نشأت الطائفة المارونية في وادي العاصي (حماه). . ومنه نزحت على تعاقب الأيام إلى لبنان، إن مار مارون حبر الطائفة المارونية الأول مدفون في الدير الماروني القائم على وادي العاصي. . وكان أول دير للطائفة المارونية.

كان ذلك كله في القرن الرابع بعد الميلاد حين نشأت الطائفة المارونية من الشعب السوري وعلى الأرض السورية، وكانت الخلافات المذهبية المسيحية حادة، فقضت أن يهاجر الموارنة الأوائل إلى لبنان، لاجئين يلتمسون في جباله، الحصانة والمنعة.

ويحدثنا التاريخ أن المذبحة التي راح ضحيتها ثلاثمائة وخمسون راهباً مارونياً في الدير الماروني نفسه، كان بسبب النزاع بين الموارنة واليعاقبة، ولم يكن قد وُلِد محمد ولا ولد الإسلام. . وكان على الخليفة الأموي معاوية أن يعمل على إنهاء هذا النزاع الدموي بين الموارنة واليعاقبة، بهذا كان الخليفه المسلم حكماً لا خصماً. .

ولو أنا وقفنا قليلاً عند عروبة لبنان ووحدته، وعند تاريخ الموارنة بالذات، لرأينا أن المراجع التاريخية المسيحية تردّ كثيراً من الأسر المارونية المعروفة إلى الأصول العربية القديمة، فالشهابيون، منهم الأمير فؤاد شهاب رئيس الجمهورية السابق، يتحدرون، من قريش.

وتكاد القرى اللبنانية بأسرها تعرف عروبة الأسر المارونية الأخرى، مثل آل أبي اللمع، وآل الخازن، وآل حبيش، وآل الدحداح، وآل ملحم، وغيرهم كثيرون، وكذلك فإن أخبار انقسامهم إلى قيس ويمن، وأحداثهم ووقائعهم ومحالفاتهم ومناوشاتهم، تجري في سمر الدواوين والمضافات اللبنانية إلى يومنا هذا.

والواقع، أن «العقبة» الوحيدة التي تقف الآن حائلاً دون انضمام لبنان إلى وحدة عربية فوربة، هي المسألة الطائفية ولا سواها.

وأحسب أن المواطن اللبناني الذي يقرأ تاريخ لبنان، منذ أن أصبحت الدولة العثمانية الرجل المريض في نظر الدول الأوروبية المتكالبة على اقتسامها، يدرك يقيناً أن الطائفية في لبنان، غريبة على لبنان بكل طوائفه، إنها غريبة عن لبنان كأي جسم غريب يتسلل من الخارج.

وليس لنا أن ننكر أنه وقعت أحداث «طائفية» أليمة في لبنان، ولكنها كانت على الدوام «وافدة» عليه من الخارج. . وقد أصبحت جزءاً من التاريخ الماضي، وأنه

ذلك الماضي الذي يجب أن ينساه كل لبناني مهما كان مذهبه.

وهذا هو رينان الفيلسوف الإفرنسي يدعو معي كل لبناني إلى هذا النسيان المحبب حين يقول «إن الأمة، أية أمة، لكي يتم توحيدها، وتستشعر بجلال تاريخها المشترك لا بد أن تنسى جزءاً من هذا التاريخ . . تاريخ المآسي والأحقاد» . .

ذلك ما يجب أن ينساه كل لبناني، على أن ما يجب تذكّره، وتذكاره على الدوام، أن يقظة العربية الحديثة منذ القرن الثامن عشر فما بعد، قد فتحت براعمها في لبنان، وعلى أيدي علماء لبنان وأدبائها، وفي معاهدها ومطابعها . . وأن القومية العربية قد انطلقت صيحاتها، أول ما انطلقت في بيروت، ثم تعالت في دمشق.

إن الوحدة العربية لا يمكن أن تَنْسى اليازجيين والبستانيين الأوائل الذي حملوا مشعل النهضة العربية الحديثة . . وجاء من بعدهم نصارى لبنان ليتغنّوا بأمجاد القومية العربية.

ألم يقل الشاعر النصراني الكبير(٢) :

شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت عروبتي مثلي الأعلى وإسلامي.

لولا أن قائل البيت ينتهي اسمه (بالخوري) لكان لنا أن نعتبره من الشعراء المسلمين المتصوفين.

وهذا الشاعر الكبير(٣) العربي الماروني سمى إبنه البكر محمداً، وكنّى نفسه «أبا محمد» وألمع إلى الشهر الإسلامي «رجب» وهو يقول في مولده:

عشت يا بني، عشت يا خير صبي ولدته أمه في رجب

فهتفنا واسمه محمد أيها التاريخ لا تستغرب

وهذا الأديب الماروني يقول: «الإسلام إسلامان، واحد بالديانة، وواحد بالقومية واللغة، وأن من لا يمتّ إلى محمد بعصبة، ولا إلى لغة محمد وقومية محمد فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بيننا . . ويا محمد، يميناً بديني ودين ابن مريم، وبخشبيات صليبه، إننا في هذا الحي من العرب نتطلع إليك من شبابيك البيعة، فعقولنا في الإنجيل، وعيوننا في القرآن»(٤).

---

(٢) الشاعر القروي رشيد الخوري.

(٣) مارون عبود.

(٤) أمين نخلة.

وهذا القس الماروني الشهير، الخوري يوسف اسطفان، خطيب القومية العربية في أوائل العشرينيات، وصاحب القصيدة الشهيرة «جلاء الترك» التى ألقاها في بيروت في استقبال الأمير (الملك) فيصل بن الحسين. . ولنذكر أن فيصلاً لم يعد إلى دمشق إلا والخوري اسطفان صاحبه ورفيقه، وأصبح الخوري الماروني بعدها داعياً للوحدة العربية في الوطن والمهجر، ومات والقضية العربية يهيج بها جنانه، ويموج بها لسانه.

وهذا الماروني النابغ أمين الريحاني، الأديب، السياسي، الرحالة، صديق الملك عبد العزيز آل سعود، ومن الدعاة الأوائل للوحدة العربية. .

بل إن أنبل معاني (الوحدة) تتجلى أكثر مما تتجلى في الأسر اللبنانية العريقة، وفي الأسرة الواحدة، هذا درزي وذاك ماروني، وذلك سني، وكلهم أبناء العمومة، ولا أعرف لبنانياً إلا ويعرف هذا، وأكثر من هذا. .

ولو أنا نظرنا إلى الصعيد العالمي لرأينا الوحدات الاتحادية الشرقية منها والغربية، الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية تتجمع كل طوائفها في إطار واحد من الوحدة. . . فهذه الوحدة الألمانية جمعت بين الكاثوليك في بافاريا، والبروتستانت في بروسيا. . .

والوحدة اليوغسلافية جمعت بين أرثوذكسي الصرب، وكاثوليك الكروات، ومسلمي البشناق.

وفي بلجيكا، الدولة الواحدة، يتكلمون الإفرنسية والفلمنكية. . .

وهذه سويسرا الدولة الفدرالية يبلغ البروتستانت فيها ٦٥ بالماية، على حين يبلغ الكاثوليك النسبة الباقية. .

وفي فرنسا الدولة الواحدة. . نلاحظ فروقاً كثيرة بين الإفرنسي في الشمال، والإفرنسي في الجنوب. . يعرف هذا المثقفون اللبنانيون، وفيهم من يجيد الإفرنسية أكثر مما يجيدها أهل باريس.

وفوق هذا وقبل هذا، فإن العروبة ليست جنساً ولا عرقاً ولا سلالة. . وهذا الرسول (صلعم) سيد العروبة، قد عرّفها بقوله «ليست العروبة بأحدكم من أب وأم، وإنما هي باللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي». . وقد قالها الرسول العربي حينما أنكر جماعة من العرب عروبة سلمان الفارسي، وصُهيب الرومي، وبلال الحبشي، وكل هؤلاء من الصحابة السابقين. .

فانظر كيف انصهر الفارسي، والرومي، والحبشي في «بحر» الوحدة العربية،

تغذيه الروافد من هنا وهناك. . ذلك أن الوحدة العربية لغة وثقافة، وحضارة وتاريخ، وامتداد الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل.

وقد يبدو لأول وهلة، أن هذا الحديث عن لبنان والوحدة العربية هو من هواجس الشعراء الذين يحملون عواطفهم على قوافيهم ولكن «لبنان في الوحدة العربية» هو حقيقة علمية، سياسية، واقتصادية، وعسكرية و. . . و. . . .

وهذا موضوع يحتاج إلى كتاب بكامله، ولكني أكتفي بأن أشير إلى ما ورد في تقرير لجنة «كينج كرين» التي أوفدها الرئيس الأمريكي ويلسون، بعد الحرب العالمية الأولى لدراسة أحوال البلاد الشامية: سوريا، لبنان، فلسطين، وشرق الأردن. .

فقد أعلنت تلك اللجنة في تقريرها بعد أن طافت في البلاد، واجتمعت إلى أعيانها وممثليها من مختلف الطبقات والطوائف. . «إن المنطقة موضوع البحث صغيرة جداً، وإن عدد سكانها صغير جداً، ثم إن وحدتها الاقتصادية والجغرافية والعنصرية واللغوية ظاهرة كل الظهور، بحيث تجعل من غير المرغوب فيه إقامة حكومات مستقلة منفصلة في ضمن هذه الحدود».

بل إن اللجنة لم تر مانعاً في تقريرها بأن تدخل فلسطين في الوحدة السورية، فأعلنت بأنه «لا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين إلى سورية المتحدة كأقسام البلاد الأخرى. .»

ولم تقتصر لجنة كينج كرين على هذه النتيجة التي توصلت إليها، بل إنها أكدت حقيقة أخرى بالغة الروعة، فقد أضافت قولها «إن ٧٢ في المائة من مجموع العرائض التي تناولناها في سوريا مضادة للصهيونية، ولم ينل مطلب نسبة أكبر من هذه النسبة إلا الوحدة السورية».

وإن هذا وغير هذا يضع على الجيل الصاعد مسؤولية كبرى إزاء الوحدة العربية، فذلك ما وصل إليه المدّ الوحدوي عند جيل العشرينيات. . فأين جيل السبعينيات. .؟!

ولو. . . ولو أن عصبة الأمم، يومذاك، قد عهدت بالانتداب على ديار الشام إلى إنكلترا وحدها، أو إلى فرنسا وحدها. . لانتهى الانتداب في عام ١٩٤٥، وديار الشام دولة واحدة، ولبنان جزء أصيل فيها. .

ولكن بريطانيا وفرنسا والصهيونية، قد أرادت غير ذلك، فقد «مُنح» الانتداب على سوريا ولبنان إلى فرنسا، والانتداب على فلسطين وشرق الأردن إلى بريطانيا. . وعاش جيلنا ليرى الوطن الواحد أصبح الجمهورية اللبنانية، والجمهورية السورية،

والمملكة الأردنية الهاشمية، ومع هؤلاء «إسرائيل» مغتصبة القطر الرابع: فلسطين.

هذا هو أمر لبنان والوحدة العربية. . . وقفنا عنده هذه الوقفة الطويلة، فهو أكثر الأقطار العربية «حاجة» إلى الوحدة العربية، لاعتبارات شتى:

وأول هذه الاعتبارات هو «بقاء» لبنان، دولة وشعباً. . إن مطامع إسرائيل في لبنان، لا تحتاج إلى إيضاح، وأول ما كشف عنها المفكرون اللبنانيون أنفسهم. . وإن لبنان لا تحميه الأمم المتحدة، ولا الدول الكبرى. . ولا تحميه كذلك الدول «المسيحية» فليس في العالم «دول مسيحية. . حتى الدول المسيحية» التي كانت تتمسّح بلبنان في القرن الثامن عشر وما بعده كانت تتطلع إلى مصالحها، لا إلى «مسيحيتها»، وإلى المسيحيين في لبنان.

إن الخطر على وجود لبنان يجب أن يعيه كل لبناني، وكل عربي يجب أن يعي هذا الخطر. . ولا سبيل لإنقاذ لبنان وغيره من الأقطار العربية إلا بالوحدة العربية. .

ولكن الخطر على لبنان يجب أن تعيه أية «وحدة عربية» تقوم بين الدول العربية.

إن هذه «الوحدة العربية الدستورية» يجب أن يشعر فيها لبنان، وهو ينضم إليها، بالطمأنينة الكاملة والإخاء الشامل، في الحقوق والواجبات. . فلا يجد لبنان معها مناصاً إلا أن يصيح مع شاعر العرب الكبير، شوقي.

ضمّوني إلى العصبة ضمّوني.

ولست أقسو على لبنان، وأرحم غيره. . فالدول العربية جميعها تتحمل مسؤولية أكبر من مسؤولية لبنان في مجال الوحدة العربية. . وإني لأتساءل، ويتساءل معي كل مواطن من المئة مليون عربي. . لماذا لا تقوم الوحدات الثنائية بين الدول العربية؟ وذلك أضعف الإيمان. . .

لماذا لا تقوم الوحدة بين العراق وسوريا؟ وقد كانت سورية في الماضي تتردد في الاتحاد مع النظام الملكي في العراق المرتبط بالمعاهدة البريطانية. . أما الآن فقد أصبح العراق جمهورية، وتحلل من المعاهدة البريطانية. . وأصبح العراق وسوريا معاً تحت حكم حزب البعث، وشعاره الأكبر الوحدة العربية.

ولماذا لا تقوم الوحدة بين مصر والسودان؟ ووحدة وادي النيل شعار قديم. .

ولماذا لا تقوم وحدة اليمن، الجنوب والشمال، للشعب الواحد والوطن الواحد؟

ولماذا لا تقوم وحدة المغرب العربي الكبير، في الشمال الأفريقي؟ وقد كانت

«الوحدة» ميثاق جميع الذين جاهدوا لتحرير تونس والجزائر والمغرب . .

لماذا لا تقوم هذه الوحدات الثنائية على الأقل، بين أقطار متجاورة متكاملة، لم تكن بينها حدود عبر التاريخ إلا في عهد الاحتلال والاستقلال . . وإذا كان الاحتلال قد ولّى بخيْله ورجاله، فإن المسؤولية تقع على الاستقلال، وعلى الرؤساء الذين يتبوأون هذا الاستقلال.

وليست هذه الاتحادات الثنائية أو الثلاثية بدعة جديدة على الصعيد الرسمي العربي، فقد نص ميثاق جامعة الدول العربية في عام ١٩٤٥ في مادته التاسعة أن «لدول الجامعة العربية الراغبة في ما بينها في تعاون أوثق، وروابط أقوى مما نص عليه الميثاق، أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض».

بل إن الباب التاسع في الميثاق الوطني للجمهورية العربية المتحدة قد أعلن «أن أي وحدة جزئيه في العالم العربي تمثل إرادة شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية، هي خطوة وحدوية متقدمة تقرب من يوم الوحدة الشاملة، وتمهد لها، وتمد جذورها في أعماق الأرض العربية».

وإني لا أتحدث عن وحدات «المَلَكيات العربية» فإن النظام الملكي، بطبيعته نظام ليس له مكان في الوحدة في العصر الحاضر . . ولو كنت أعرف ملكاً طموحاً، تتوافر له القدرات، قدرات توحيد الأقطار العربية تحت لوائه، لوقفت عند عتباته، ووقفت حياتي على خدمته . .

لا أقول ذلك تعصباً للنظام الجمهوري على النظام الملكي . . لا . . ولكن لأن الأنظمة الملكية يمكن أن تقوم بينها اتفاقات للتنسيق والتعاون، لا للوحدة، فقد ذهب ذلك الزمان الذي كانت تقوم فيه الاتحادات بين الملكيات، بالسلاح أو بالنكاح!!

ألم يشهد التاريخ العربي الأخوة، يسفكون دمهم تحت قوائم العروش، وتتناثر أشلاؤهم على سرير الملك . . كان ذلك في الماضي . .

وفي الزمن المعاصر . . قام الاتحاد الهاشمي بين فيصل والحسين أبناء العمومة، وجاء دستور الاتحاد على أنّ الملك حسين هو القائد الاعلى للجيش الأردني، فأي أتحاد هذا؟؟!!.

إن الاتحاد لا يقوم بين الملوك، ففي الماضي كان الملك الواحد قادراً أن يصنع الوحدة . . وهذا الملك عبد العزيز بن سعود قد وحَّد معظم أجزاء الجزيرة العربية، وليته عاش عشر سنين أخرى، وأسعفته مختلف الظروف، ليوحّد الجزيرة كلها من

البحر إلى الخليج . . فلا نشهد اليوم هذه الدويلات التي يصدق فيها قول الرصافي، شاعر العراق:

لـنـا مَـلِـك وليس لـه رعـايـا   ومـمـلـكـة وليس لـهـا حـدود

نحن نريد الوحدة، ونحن نبحث عن رئيس عربي يتصدى لقيادتها، لأنّا لا نعرف في الوقت الحاضر ملكاً مهيأ لهذا الدور القيادي، بطموحه وقدراته. . وليس لنا أن ننكر أن الوحدة في حاجة إلى الطموح الرفيع، والقدرات الفياضة. .

ألم يكن جيلنا المعاصر متعلقاً بالشريف حسين، حين قاد الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى، ليكون ملكاً للدولة العربية الكبرى؟

ثم تعلقنا بأذيال ابنه الملك فيصل، بعد أن نكث الحلفاء عهودهم، ليكون بسمارك العرب، ويكون العراق، «بروسيا» العرب في سبيل وحدة الأمة العربية.

وبعد أن مات فيصل، توجهنا بخواطرنا وقلوبنا صوب الملك عبد العزيز آل سعود عاهل المملكة العربية السعودية، وقد تابعنا مسيرته الطويلة في توحيد الجزيرة العربية: فقد بدأ حياته النضالية في مطلع هذا القرن إماماً للوهابية وأميراً على نجد، ثم نودي بالأمير عبد العزيز سلطاناً على نجد وملحقاتها في عام ١٩٢١، ثم بويع ملكاً على الحجاز في ١٩٢٦، ثم بويع ملكاً على نجد وملحقاتها في ١٩٢٧، ثم أصبح ملك المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٢، بعد أن تمّ توحيد نجد والحجاز وسائر الإمارات والمشيخات.

وبعد ذلك، توجهنا بعقولنا وخواطرنا صوب القاهرة، وجمال عبد الناصر، بعد أن مات الملكان الهاشمي والسعودي. . وبعد أن تصدت القاهرة لقيادة القضية العربية، في أعقاب ثورة ٢٢ تموز/ يوليو. .

أقول كل هذا، حتى يكون واضحاً أننا، نحن طلاب الوحدة العربية، نبحث عنها حيث نجدها، ونسير وراء كل من يقودها، ملكاً كان أو رئيساً.

واذا كنت قد تحدثت عن لبنان، كأصغر دولة في الوطن العربي، فإن الأمانة للوحدة تقضي، أن أقف قليلاً عند مصر، كأكبر دولة في هذا الوطن الكبير:

إن مصر الثورة ستُذكر في التاريخ، لا باشتراكيتها، ولا بالسد العالي، ولا بالتصنيع ولا باستصلاح الأراضي، وما أعظم هذه الإنجازات.

إن مصر ستُذكر بما هو أعظم من ذلك، ستذكر بعروبتها، التي اكتَشفَتها وأكّدتها، قَدَراً لها، ومصيراً لحاضرها، ومستقبلها. .

وقد لا يكون الجيل العربي الناشئ، على إدراك تام بمعنى هذا الكلام، ولكنه سيعرف مغزاه ومداه حين يقرأ مذهولاً أن فيلسوف مصر الكبير أحمد لطفي السيد كان يقول «لا نرى في اتحاد سوريا ومصر مصلحة لمصر، فإن المصري لا يعرف له وطناً غير مصر. . ونحن المصريين نحب بلادنا ولا نقبل مطلقاً أن ننتسب إلى وطن غير مصر مهما كانت أصولنا حجازية أو بربرية أو تركية. . أليس إقرار المصري بانتسابه إلى العربية أو التركية لا يدل إلا على أنه يحتقر وطنه وقومه. . وليس لمصر أن تتواكل على أوهام يسميها بعضهم الاتحاد العربي».

كان هذا الكلام يعبّر عن رأي مصر في مطلع هذا القرن، فجاءت مصر الثورة في دستورها الجديد عام ١٩٥٦ فحَزَمت وحَسَمت، وقرَّرت لا عروبة مصر فحسب، ولكن مسؤوليتها الكاملة في النضال العربي. . وفي الوطن العربي بأسره. .

وهكذا يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. . ذلك أنه لولا سلطة الثورة لاستمر الصراع بين عروبة مصر وفرعونية مصر، قرناً آخر. . ولا ندري لمن تكون الغلبة. .

ولقد أحسَنت مصر إلى نفسها كإقليم، وإلى الأمة العربية، والشعب المصري واحد من شعوبها. . فلقد عبّرت مصر عن ذاتها، ووصلت ماضيها بحاضرها، ورهنت حاضرها بمستقبلها، وأحلّت نفسها في الأمة العربية محل الرأس من الجسد.

لقد كان مصطفى كامل زعيم مصر الكبير يقول: «لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً»، وإن المواطن المصري المعاصر يستطيع أن يقول، عن إدراك لماضيه ووعي لحاضره، وتطلّع إلى مستقبله: «لو لم أكن عربياً لوجب عليّ أن أكون عربياً.

ولكن على مصر أن تدرك أنّ الرأس لا يصلح من غير جسد، وعلى الرأس كذلك، أن يعرف كيف يتصرف مع الجسد، والإنسان الرأس والجسد معاً.

وإذا كان صحيحاً أن الأمة العربية من غير مصر، أشلاء منثورة، فإن مصر من غير الأمة العربية، جمجمة منثورة.

بل إن على كل دولة عربية، أينما كانت في الوطن العربي، ومهما كانت إمكاناتها وقدراتها، أن تُدْرك أنها من غير بقية الأقطار العربية دولة وانتهى. . كأية دولة لا شأن لها، في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

إن الدول العربية الست في أفريقيا، من غير الأمة العربية، لن تكون أكبر شأناً من دولة تنزانيا أو ساحل العاج، في القارة الأفريقية. .

وكذلك، فإن الدول العربية الثماني في آسيا، من غير الأمة العربية. لن تكون أكبر شأناً من ماليزيا أو سنغافورة، في القارة الآسيوية.

ولكن الوحدة إذا جمعتهم جميعاً ستجعل منهم، ومن قدراتهم الاقتصادية والعسكرية والبشرية، دولة في مصاف الدول الكبرى، تُرْهب عدوّاتها، ويُرغب في صداقتها.

ولقد قضيت سنين في الأمم المتحدة، في حوار دائم مع أبا ايبان «الوزير الإسرائيلي» بشأن القضية العربية، والوحدة العربية(٥).

كنت على منبر الأمم المتحدة أتحدث عن الأمة العربية الواحدة، وكان ايبان يُنْكر على الأمة العربية وحدتها، ويُنْكر أن يكون الشرق الأوسط عربياً. . ففيه على حد تعبيره، أمم أخرى وحضارات متعددة، وثقافات متنوعة، لغير الأمة العربية.

وفي كتابه عن «مدّ القومية» أعلن ايبان من غير لبس ولا إبهام «أن القومية العربية السليمة ليست بالضرورة هي التي تعبر عن وجودها في التكتل الإقليمي الواسع الذي يجعل له مركزاً واحداً فعالاً في السيطرة. . إن لمن الأفضل أن تنعكس هذه القومية في مجموعة دول قريبة، مع حفاظ كل منها على سلطتها وشخصيتها المتميزة. . إن الحقيقة العميقة التقدمية حول الشرق الأوسط لا يمكن وجودها في كلمة واحدة، وإنما توجد في كلمات أعظم هي التنوع والتسامح. لقد وجَدَت منطقتنا مجدها الحقيقي حينما كانت هذه الكلمات شعارها. . لا يوجد نوع واحد للقومية العربية فقط، بل توجد أقوام عديدة من العرب يربطهم بعضهم ببعض، كما يربطهم في العالم ميثاق هيئة الأمم المتحدة، وهم يظهرون تنوعاً غنياً من خلافات وثقافات إقليمية»(٦).

هذه هي النصيحة «الغالية» التي يقدمها ايبان إلى الأمة العربية. . أن لا تتحد وأن تظل أربعة عشر دولة.

وعلى الأجيال العربية الصاعدة أن تعلم يقيناً أن الواقع العربي، منسجم مع هذه النصيحة. . وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم.

وقد. . وقد نترك الوحدة العربية للتطور العادي الهادئ، فلا نستحثّها بمهماز الضرورات الاقتصادية والثقافية والسياسية التي توحد الأمة، أية أمة. . . في عصرنا هذا الذي نعيشه، عصر التكتلات والتجمعات. .

---

(٥) انظر: أحمد الشقيري، **أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية** (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٩). وهو متضمن في هذه المجموعة.

(٦) انظر كتاب أبا ايبان: Abba Solomon Eban, *The Tide of Nationalism*, Herbert Samuel Lecture; 3 (New York: Horizon Press, 1959).

ولكن إسرائيل لا تُمْهلنا . . إنها لا تنتظر علينا، ولا تنتظر معها الإمبريالية والصهيونية العالمية . . وإذا ما بقيت هذه التجزئة في الوطن العربي فستنهار هذه الاستقلالات الإقليمية التي يحرص عليها الرؤساء العرب، وستنهار معها الثروات الإقليمية، وبخاصة البترولية منها فلا تنفع «الإقليم» صاحبها، ولا الأمة العربية في مجموعها.

إن إسرائيل طامعة في ثرواتنا، وأنهارنا، ومناجمنا، وبترولنا، وكل خاماتنا. وإذا كانت أية دولة عربية تحسب أنها قادرة أن «تقعد» على ثرواتها وتصونها لنفسها، فإنها تخطئ الحساب . . وهذا كلام موجه إلى الدول البترولية بخاصة . .

وليس الحديث عن أطماع إسرائيل بالبترول العربي، لغواً في الكلام أو غُلوّاً في التهويل، وهذا الزعيم الصهيوني مناحم بيغن يقول: «عندما نسرح ببصرنا إلى الشمال نرى سهول سورية ولبنان الخصبة، وفي الشرق تمتد وهاد الفرات ودجلة الغنية وبترول العراق، وفي المغرب بلاد المصريين . . لن تكون لنا القدرة الكافية على النموّ إن لم نسوّ قضايا الأراضي من مواقع القوة، وعلينا أن نجبر العرب على الطاعة التامة»، ولنذكر أن مناحم بيغن قد ازداد عدد أعضاء حزبه في انتخابات الكنيست الأخيرة.

إن الوحدة وحدها هي التي ستحمي البترول، لشعبها وللأمة العربية، ولن تقْدر دولة بمفردها أن تحمي بترولها، ولا أرضها وسماءها . .

وإنها لظاهرة تنبّه الأذهان، أنه باستثناء إيران، فإن الدول البترولية في العالم، هي دول اتحادية فدرالية . . كلها . .

فالولايات المتحدة تنتج ٢٤ في المائة من بترول العالم، والاتحاد السوفياتي ١٥ في المائة، وفنزويلا ١١ في المائة، وكندا ٣ في المائة، وإندونيسيا ٢ في المائة، والمكسيك ٢ في المائة . .

كل هذه الدول البترولية، اتحادية فدرالية، ذات دساتير متنوعة، والبترول فيها نعمة للقطر الذي ينتجه، وللاتحاد الذي يصنعه ويصدره ويكرره . . . شأنه في ذلك شأن تلك الغمامة التي كان ينظر إليها الخليفة العباسي في بغداد ويقول لها:

اهطلي حيث شئت فإن خراجك سوف يأتينا . .

ولن يكون البترول وحده، هو الذي سيكون ثروة الوحدة العربية.

إنّ الفكر العربي، والكفاءة العربية، والإنسان العربي الصالح، كل أولئك سيكون هو الثروة الكبرى للوحدة العربية.

إن دولة الوحدة ستكون، ويجب أن تكون، دولة الحرية، للمواطنين الأحرار . .

ولست أعني بها الحرية التي تمارس في موسكو، أو تطبّق في واشنطن . . ولكنها حرية عريقة نابعة من تراثنا الخالد، لا ينعدم فيه الفرد ولا يطغى، ولا يُستعبد الشعب باسم الشعب.

وبهذا يكون المواطن العربي، من أي قطر كان، مؤهلاً لما هو مؤهل له في الدولة كلها . . .

إن رئيسيْ أمريكا، روزفلت الأول والثاني، من ولاية نيويورك.

إن الرئيس ترومان، من ميسوري.

إن الرئيس جونسون، من تكساس.

إن الرئيس نيكسون، من كاليفورنيا.

هذا بالنسبة إلى أمريكا، أما بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي، فإن ستالين من جورجيا، وخروشوف من أوكرانيا، وميكويان من أرمينيا.

ولو بحثنا في تراجم الرؤساء في الدول الاتحادية الأخرى، لوجدنا الأمر على مثل هذا الحال.

وعلى مثل هذا الحال يجب أن يكون الأمر في الجمهوريات العربية المتحدة، يكون فيها رئيس الجمهورية من عدن، أو من الكويت، أو من القاهرة، أو من دمشق، أو من الجزائر . . .

ونخلص من هذا العرض الموجز إلى أننا ندعو أن تقوم الوحدة العربية بين الجمهوريات العربية: العراق، سوريا، لبنان، الجمهوريات العربية المتحدة، اليمن الجنوبية، اليمن الشمالية، السودان، ليبيا، تونس، الجزائر . .

وتصبح هذه الجمهوريات العربية «اتحاد الجمهوريات العربية» أو «الدول العربية المتحدة» مؤلفة من عشر جمهوريات عربية . . عدد سكانها يقارب الثمانين مليوناً . .

وقد يتساءل المتسائلون، وماذا نفعل «بالفجوات الاقتصادية والاجتماعية» التي أشار إليها الرئيس عبد الناصر في الميثاق الوطني (١٩٦٢)؟ وماذا نفعل «بالمصالح المتباينة بين الدول العربية» التي أشار إليها الرئيس بورقيبة في رسالته التي وجهها إلى مؤتمر القمة العربي الثالث الذي انعقد في الرباط في عام ١٩٦٥؟

وهذان الرأيان من عبد الناصر وبورقيبه، ليس لهما سند من العلم والواقع، وإني أعتقد أن عبد الناصر قد قال ما قال متأثراً بعقدة الانفصال السوري، وقد آن له

أن ينزعها من نفسه. وكذلك فإن رأي بو رقيبة مرده إلى عقدته مع عبد الناصر، وإنّا لندعوه أن يبرأ منها.

وهذه الجمهوريات العربية العشر، الإسلام فيها، دين للمسلمين، وثقافة وحضارة للمسيحيين، على حين أن الاتحاد الهندي فيه بضعة عشر ديناً، ومذهباً وعقيدة. .

وهذه الجمهوريات العربية العشر تتكلم اللغة العربية الواحدة، وليست كالاتحاد الهندي حيث يتكلم الناس ٧٣٠ لغة ولهجة، أو كالاتحاد السوفياتي حيث يتكلمون ١٥٠ لغة، أو كالاتحاد الإندونيسي حيث يتكلمون ٤٥ لغة رئيسية و٢٥٠ لهجة، أو كالاتحاد السويسري حيث يتكلمون أربع لغات.

وهذه الجمهوريات العربية العشر، تنتمي إلى الأمة العربية الواحدة، وليست كالاتحاد السوفياتي الذي يضم ١٨٠ قومية، أو كالولايات المتحدة التي تضم العناصر القومية التي تمثل كل قوميات العالم، أو كالاتحاد البريطاني الذي يضم أربع قوميات مختلفة، ولا تزال مختلفة.

وهذه الجمهوريات العربية العشر، لا تفصلها حواجز طبيعية متباعدة، فإنها ليست كالاتحاد الإندونيسي الذي يضم ثلاثة آلاف جزيرة تباعد بينها مسافات شاسعة من البحار. .

وهذه الجمهوريات العربية العشر، ليست متفرّدة في مجموع سكانها ومساحاتها، فهذا الاتحاد السوفياتي سكانه ٢٣٤ مليون نسمة ومساحته ثمانية ملايين ونصف المليون ميل مربع، والولايات المتحدة مساحتها ثلاثة ملايين ونصف المليون ميلاً مربعاً وسكانها ٢٢٠ مليون نسمة، والهند تبلغ مساحتها مساحة أوروبا بأسرها، باستثناء الاتحاد السوفياتي، وتبلغ مليون وثلث المليون ميل مربع وسكانها ٥٥٠ مليون نسمة!!

وهذه الجمهوريات العربية العشر، ليس لأجزائها الكبيرة أن تشكو كثرة السكان، وأن تتذمر الصغيرة منها لقلة السكان، ففي الاتحاد الهندي نرى أن سكان دولة يراوش يبلغون ٧٣ مليون نسمة، وسكان دولة بهار ٤٦ مليون نسمة، وسكان دولة مهارشترا ٣٩ مليون نسمة، على حين أن سكان دولتي فاجالاند ويوندشري لا تتجاوز الواحدة منها نصف مليون نسمة. . ومثل هذا التباين السكاني نجده في الاتحاد الأمريكي والاتحاد السوفياتي(*).

(*) اخترت الأرقام التقريبية الصغيرة لسهولة المقارنة.

وهذه الجمهوريات العربية العشر، لا تضم دولاً كثيرة أو كبيرة، فالولايات المتحدة فيها خمسون دولة، والاتحاد الهندي يضم خمساً وعشرين دولة، والاتحاد السوفياتي يضم ستة عشر جمهورية، على حين أن جمهورية روسيا الأم تتألف بنفسها من عشرة جمهوريات.

والجمهوريات العربية العشر، ليست لها شعارات متباينة، فهي ليست كالولايات المتحدة لكل ولاية شعار. . وها نحن نرى أن:

ولاية أركنساس، شعارها: الشعب يحكم. . . .

ولاية كاليفورنيا شعارها: وجدتها (يوريكا)، التعبير اليوناني الشهير.

ولاية ماريلاند، شعارها: الذهب والفضة. .

ولاية واشنطن، شعارها: رويداً رويداً. .

ولاية كولورادو: شعارها بمشيئة الله.

وهكذا وهكذا. .

وإننا لنرى في الدول الاتحادية في العالم مظاهر طريفة، كلها تحفزنا إلى الوحدة العربية. . .

من هذه الطرائف أن الأرجنتين دولة اتحادية دستورها على نسق دستور الولايات المتحدة، وسكانها ٢٥ مليون نسمة، تسعون في الماية منهم كاثوليك، مؤلفة من ٢٤ ولاية، وتعتبر الأرجنتين، أعظم مصدر للحوم في العالم. وهذه اللحوم هي إنتاج ولايتين لا أكثر. .

وكذلك البرازيل وهي أكبر جمهورية في أمريكا الجنوبية، مؤلفة من عشرين ولاية، مساحتها ثلاثة ملايين وثلث المليون ميل مربع، وسكانها ٦٥ مليون نسمة، ١١بالمئة من سكانها بشرتهم سوداء، ٢٧ بالمئة ملونون، ٦٢ في المئة من البشرة البيضاء وتعتبر أعظم مصدر للقهوة، وتنتج ربع خام الحديد في العالم. والقهوة والحديد من إنتاج ولايتين لا أكثر. .

وكذلك المكسيك مؤلفة من ٢٩ ولاية، سكانها ٢٠ مليون نسمة، وتعتبر من المصدّرين الرئيسيين للكبريت والبترول، وتنتج ٤٠ بالمئة من الفضة في العالم. . وهذه الثروات الثلاث تنتجها ثلاث ولايات لا أكثر. . .

وهذه استراليا الاتحادية، القارة السادسة، مساحتها ثلاثة ملايين ميل مربع، وسكانها ٩ ملاين نسمة، مؤلفة من ست ولايات وثلاثة أقاليم مستقلة، وفيها

السكان الأصليون من أصول مختلفة، مضافاً إليهم الإنكليز والأوروبيون، والمجرمون العالميون الذين وجدوا فيها ملجأ عبر عشرات السنين!!

وهذه كندا الاتحادية مساحتها ٤ مليون ميل مربع، سكانها ١٥ مليون نسمة، مؤلفة من عشر ولايات، وإقليم «يوكون» المستقل وسكانه ٩ آلاف نسمة!!

وهكذا يرى المواطن العربي أن الدول الاتحادية تضم أقاليم غنية، وأخرى فقيرة، كما «تختزن» في جوفها، فوارق عرقية ولونية، وتباينات اقتصادية واجتماعية.. وهذه كلها لم تكن «عقبات» بل حوافز إلى الوحدة..

ولو أن المجال يتسع للمزيد لرأينا في الاتحادات العالمية طرائف طريفة من «الفجوات» التي يشكو منها الرئيس عبد الناصر، طرائف أخرى «من المصالح المتباينة» التي يشكو منها الرئيس بو رقيبة.

والواقع أن هذه «الفجوات» و«المصالح المتباينة» ليست قائمة إلا بين الرؤساء العرب أنفسهم، فهي ليست متأصلة في حياة الشعب ومصالحه الحقيقية.. إنها مشكلة في الرؤساء وليست مشكلة في الشعوب..

وإن مشكلة الرؤساء في الواقع والحقيقة، هي كيف يكون الرئيس في الجمهورية المستقلة، غير رئيس في اتحاد الجمهوريات العربية.. هذه هي المشكلة ولا شيء سواها..

أما الأمة العربية، فإنها تجد مصالحها في اتحاد الجمهوريات العربية، أكثر تكاملاً وتكافؤاً مما هي عليه في ظل الجمهورية العربية الواحدة... وإن قليلاً من العبارات يمكن أن تشرحها أرقام وإحصاءات:

إن للأمة العربية في أقطارها المختلفة شكاوى كبرى.. ومن هذه الشكاوى:

فلاح بلا أرض.. وأرض بلا فلاح..

بضاعة بلا أسواق.. وأسواق بلا بضاعة..

زراعة بلا صناعة... وصناعة بلا زراعة.

بترول، بلا قطن ولا قمح.. وقمح وقطن بلا بترول..

شعب يغرق بالفيضان المدرار.. وشعب يشرب من تحلية البحار.

ماشية ترعى في الحظائر.. وماشية تملأ الفيافي والقفار..

عمل بلا عمال.. وعمال بلا عمل...

ومنها ما هو أهم المهام: المواد الذرية هنا.. والعقول الذرية هناك، والأموال هنالك!!

كل هذه وغيرها من المشاكل لا حلّ لها إلا باتحاد الجمهوريات العربية.. حتى النشاطات الإقليمية ستكون أكثر ازدهاراً ونمواً في عهد الوحدة، مما هي عليه الآن في عهد الحدود والقيود، في عهد المخافر والحواجز.. في عهد الرؤساء والرياسات.

على أنه إذا تعذر اتحاد الجمهوريات العربية العشر لسبب أو لآخر.. وكثيراً ما تعثرت الوحدة في مسيرتها الطويلة.. فلا مندوحة من أن تقوم الوحدة العربية بين الجمهوريات الثلاث مصر والسودان وليبيا..

وإنّا لندعو هذه الجمهوريات الثلاث أن تبادر إلى الوحدة الفورية، وتكون الطليعة في إقامة اتحاد الجمهوريات العربية.. ولا نرى لهم عذراً في التخلف..

أقول لا عذر لهم في التخلف عن الوحدة أو التباطؤ فيها، فإن عوامل التكامل بين هذه الجمهوريات، في الجوانب الاقتصادية والعمرانية والثقافية، تلحّ على الوحدة أيّما إلحاح، وامتداد الأرض يجمع بينها..

ولا ينبغي أن يكون «الحكم» في هذه الجمهوريات الكبرى مشكلة. إن حكام هذه الجمهوريات الثلاث هم من الثوار.. والوحدة هي الامتحان الأكبر لثورية الثوار، ذلك أنها أرفع مراتب النضال الثوري الأصيل.

ولست أعرف «القذافي» ولا «النميري» ولكني أختار لكل منهما أن يكون نائباً للرئيس في الجمهورية العربية الكبرى.. ذلك أفضل من أن يكون أولهما رئيساً للجمهورية الليبية، والثاني رئيساً للجمهورية السودانية، هذا أَملي فيهما، بل أمل الجماهير العربية...

«إني أفضل أن أكون الأول في القرية على أن أكون الثاني في روما»، هو كلام بالٍ قديم، ولا يصلح لهذا الزمن، ولا لأمة تريد أن تصون وجودها، ودينها وثرواتها.. إن الخطر الذي يواجهنا جميعاً يفرض على أي واحد منا أن يكون الأخير في المدينة، على أن يكون الأول في القرية...

وبهذا الجواب الثاني، ننتقل إلى السؤال الثالث، متى نشرع في بناء دولة الوحدة؟

إن الوحدة الثلاثية بين القاهرة وطرابلس والخرطوم ستكون دولة الطليعة في حركة الوحدة العربية، وستجتذب إليها الدول العربية الأخرى، واحدة واحدة، فإن «جاذبية» الوحدة لا يمكن أن تصمد أمامها قوى الانعزال والانفصال.. لقد بدأ

الاتحاد بين الولايات المتحدة، بثلاث عشرة ولاية، وهي الآن تضم خمسين ولاية، أو على الأصح خمسين دولة، حسب الترجمة الصحيحة الدقيقة(٧).

وجواباً عن هذا السؤال، أريد أن أبادر إلى القول سريعاً، إننا نريدها وحدة فورية، وإذا صح التعبير، نريدها بالأمس قبل اليوم، واليوم قبل الغد، والغد قبل ما بعده. وإني لأذكر، حين عرضت في مؤتمر الخرطوم مشروع الدول العربية المتحدة، قال الرئيس إسماعيل الأزهري: «نحن مشغولون الآن بإزالة آثار العدوان. .» وأحسب أنه في قوله هذا كان يعبر عن رأي الملوك والرؤساء جميعاً!!

وقلت يومئذ: «إن الوحدة، وحدها هي التي تزيل آثار العدوان. .» وها نحن في العام السبعين، والعدوان يدخل عامه الثالث. . وأخشى أن يدخل عامه الثلاثين إذا بقينا أربع عشرة دولة، وسنكون يومئذ في العام الألفين بعد الميلاد!!

لقد مضت هذه الأعوام الثلاثة من عمر التحرير. . . ولقد تمت خلال هذه الفترة لقاءات عربية على كل مستوى، وتبادل الملوك والرؤساء الرسل والرسائل، ووزراؤنا زرعوا الأجواء الدولية، والعربية وهم يتنقلون من عاصمة إلى عاصمة، ومن مؤتمر إلى مؤتمر، ورضينا بقرار مجلس الأمن على غير جدوى، حتى صدق فينا الكلام الشعبي، «رضينا بالذل والذل ما رضي فينا».

وتعلّقنا بجهود (المستر يارنج) مبعوث الأمم المتحدة، ثم بالاجتماعات الرباعية بين الدول العظمى، وبالمشاورات الثنائية بين روسيا وأمريكا، وما جنينا إلا الهوان. . وضُربت علينا الذلة والمسكنة، بعد أن خلعها العدو عن أكتافه، ورمى بها على أكتافنا. . .

وأنا أقول بالوحدة الفورية، لأني لا أريد أن نعلّل الجماهير العربية بالكلام المترهّل العليل بأن الزمن في صالحنا. . إن الزمن في صالحنا في ظل الوحدة، ولكنه في صالح عدونا إذا بقينا عشر جمهوريات، وثلاث ملكيات وإمارة واحدة. . .

إن جهدنا لإزالة آثار العدوان، لا ينبغي أن يشغلنا عن إقامة الجمهورية العربية الكبرى. . . بل إن علينا أن نُشْغل أولاً وقبل كل شيء بإقامة الجمهورية العربية المتحدة، فهي وحدها تستطع أن تزيل العدوان، اللاحق والسابق. . .

إن الحركات الاتحادية التي نشأت في العالم، لو استقرأنا ظروف نشوئها. . لوجدنا أن الخطر الداهم الذي أحاط بها، كان أكبر الحوافز لانبثاقها. . . وذلك

---

(٧) بالإنكليزية United States of America وترجمتها الصحيحة دول أمريكا المتحدة.

الخطر الداهم لم يكن شيئاً مذكوراً إزاء الخطر الداهم الذي يواجه الأمة العربية . . .

إن الخطر الذي واجه شعوب ألمانيا وإيطاليا وأمريكا في الماضي، ودفعها إلى الوحدة، لم يكن أكثر من خطر الاحتلال . . أما الأمة العربية فإنها تواجه معركة الفناء والبقاء، أن تكون أو ألا تكون . . إنه خطر الانحلال، والاضمحلال، لا خطر الاحتلال.

وليس في هذا الكتاب مجال للحديث عن مؤتمرات القمة، ما عَجِزت فيه وما أنْجزت، ولكن قيام اتحاد الجمهوريات العربية لا ينفي مؤتمرات القمة إذا كان فيها خير . . ولكن تكون مؤتمرات قمة مؤلفة من خمسة أعضاء، اتحاد الجمهوريات العشر، والدول العربية الأربع الأخرى.

إن خمسة، في حساب القدرات المتجمعة، أقوى من الأربعة عشر والواحد أقوى منهم جميعاً.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الجامعة العربية، بخيرها وشرها، فإن جامعة مؤلفة من خمس دول، أقوى تعاوناً وتنسيقاً من أربع عشرة.

ليس لنا أن ننكر أن الدول العربية قد ازدادت قدراتها العسكرية بعد العدوان . . وليس لنا أن ننكر البطولات العربية، والبسالات الفدائية التي تجلت في شعب فلسطين، ولكن ذلك سيسجل أمجاداً تاريخية رائعة، ولا يحقق إنجازات حاسمة، لا بإزالة آثار العدوان، ولا بتحرير فلسطين . .

هذه البطولات العربية، والبسالات الفلسطينية، نستطيع بها أن نقطف أزهاراً، لا أن نجني منها ثماراً، وإن العمل الفدائي، وما أروعه وأرفعه، سيظل محفوفاً بالمخاطر، إذا لم تقم وراءه وحوله وحدة عربية، تنبثق عنها وحدة عسكرية . .

إن الجمهورية العربية المتحدة، ومعها شعب فلسطين في الطليعة، هي وحدها التي تستطيع أن تخوض معركة المصير، وأن تُنهي المعركة بالنصر.

إن معركة المصير لا تستطيع أن تخوضها الأمة العربية وعلى رأسها أربع عشرة دولة . . عشر منها، لا يتجاوز سكان الواحدة منها خمسة ملايين نسمة . .

بل إن أربعة منها لا يتجاوز سكانها مجتمعين عدد سكان القاهرة، وليس الأمر سراً أنها: ليبيا ولبنان، والكويت، واليمن الجنوبية . . .

إن النصر لن يكون حليف الأمة العربية وفيها مثل هذه «الدويلات» . . . إن الدولة العربية الواحدة هي طريق النصر . . إنه الطريق الوحيد لا طريق سواه . .

وتبقى هنالك «عقبة» أمام الوحدة العربية، وأعني بها موقف الدول العظمى من قضية الوحدة:

والأمر لا يحتاج إلى تدليل أو تعليل لنثبت أن الدول العظمى، لأسباب متباينة هي عدوة الوحدة بلا جدال.. فإن المصالح الدولية لكل من الأعداء والأصدقاء حريصة على بقاء التجزئة والانفصال في الوطن العربي، فالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، ترى الخير كل الخير أن تتعامل مع أربع عشرة دولة متنافرة بدلاً من ان تتعامل مع دولة كبرى واحدة، لها سياسة واحدة وأهداف واحدة..

وإذا كانت بريطانيا وفرنسا قد وضعتا «الحدود» وأقامتا الدول العربية على هذه «الحدود» فإن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، راضيتان بهذه الحدود، وتعارضان إزالتها، وتكرهان أن يصبح شعار من «المحيط إلى الخليج» حقيقة علمية، نابضة بالحياة...

وإذا كان موقف الدول العظمى مفهوماً على هذا الشكل، وهو موقف تمليه مصالح تلك الدول، فإنه ليس مفهوماً ولا طبيعياً أن ننصاع لهذا الموقف، وأن نعتبره جبال هملايا التي لا نستطيع زحزحتها..

وفي حواري عبر السنين مع الرؤساء العرب كنت استمع إلى مخاوفهم من الوحدة تتردد على صيغ مختلفة: إذا أقمنا الوحدة فإن بريطانيا وأمريكا تصنعان إنقلاباً علينا.. إذا أقمنا الوحدة فإن الاتحاد السوفياتي يمنع عنا السلاح.. إذا أقمنا الوحدة فإن فرنسا تتوقف عن تقديم طائرات الميراج إلى بعض الدول العربية.. والواقع أن المسؤولين الإفرنسيين قد أعلنوا غير مرة أنهم سيوقفون صفقة الميراج مع ليبيا إذا دخلت في وحدة مع الجمهورية العربية المتحدة..

ولست أريد أن أخوض طويلاً في هذا الموضوع.. يكفي أن أؤكد عن تبصر وروية أنه ليس لنا أن نخاف من هذا «التخويف».. هذه حرب أعصاب لا يصح أن ننهزم أمامها...

حين نقيم الجمهورية العربية الكبرى، نستطيع أن نأخذ سلاحاً أكثر، وبشروط أفضل.. إن جمهورية عربية كبرى هي التي تملي شروطها، ولا يستطيع أحد أن يملي عليها شروطه..

وإذا كنا سنظل نخاف من هذا «التخويف» فلن تقوم الوحدة العربية أبداً...

لقد انتزعنا الاستقلال من مخالب الدول العظمى، وعلينا أن ننتزع الوحدة.. وبالكفاح كما فعلنا من أجل الاستقلال..

هذه هي آرائي بصدد الوحدة العربية جعلتها الفصل الأخير في ذكرياتي عن الوحدة، بعد أن مشيت في ركابها قرابة ثلاثين عاماً، فوقفت في ظلالها يوم تعثَّرت، وفي أفيائها يوم تعسَّرت. .

وكان بوسعي أن أرضى بتطورها التدريجي لولا أني رأيت الخطر الماحق الساحق يُنذر بالفناء، وأصبحت أخاف أن يأتي يوم، ولا تكون فيه الأمة العربية لتبني الوحدة.

لست خوّافاً، ولا جباناً، ولا رعديداً، ولا أريد أن أُفشي الخوف في نفوس الأمة. . ولكني خائف من أعماق عقلي، لإني درست الحركة الصهيونية وعرفتها، وخائف من أعماق فؤادي، لأني بلوْت الحركة الصهيونية وعجمت عودها. . .

غير أن خوفي يتبدل أمناً وسكينة، إذا أصبح عام ١٩٧٠ هو عام الوحدة العربية، العام الذي يقوم به اتحاد الجمهورية العربية.

وما أدري إذا كان الأجل سيمتد بي لأرى تحرير فلسطين، ويكتب الله لي أن أُدفن إلى جوار الأحبة، حيث يرقد الأعزاء من الآباء والأجداد. . ولكني أموت مستريح البال قرير العين، إذا رأيت الوحدة العربية في حياتي، ولا أبالي بعد ذلك أموت حيثما أموت. . لأن رفاتي سيجد طريقه إلى فلسطين. . حرة عربية، في وحدة عربية.

وبهذه الروح الصافية، خاطبت في هذا الفصل رؤساء العرب، وقد كتمت الكثير من حزني، وكظمت الكثير من غضبي. . وجعلت كلامي في الحد الأدنى من الصراحة. . ومن شاء أن يمنعني عن «جمهوريته» فليتفضل. . فلن أعدم موطناً في الربع الخالي. . وما أروع قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا   وإذا مت لست أعدم قبرا

ويكفيني في ختام كلامي، أن أذكِّر رؤساء العرب العشرة، بقول الله تعالى ﴿**وإنّ هذه أمتكم أمة واحدة**﴾(٨). صدق الله العظيم.

---

(٨) **القرآن الكريم**، «سورة المؤمنون،» الآية ٥٢.